مجمع القرآن الكريم بالشارقة

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

المُجَلَّدُ الثَّاني عَشَرَ

سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّد الثّاني عَشَر

سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بِالشّارِقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 4-64-798-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 4-64-798-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الثَّامِنُ

سُورَةُ الأَنْعَامِ

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: 124]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ السُّنَنِ يأتي بيانُ واقعِها في حياةِ النَّاس

بعد أنْ أبانَ اللّهُ تعالى سُنّتَهُ في البشرِ بأنْ يكونَ في كلِّ بلدٍ زعماءُ مجرمونَ يُضادّونَ دعوةَ الرّسلِ والإصلاحِ، أوضحَ أنَّ هذهِ السنّةَ ماثلةٌ في زُعَماءِ مكّةَ الّذينَ دفعَهم المكرُ والحسدُ لمَنْ خصّهُ اللّهُ بالنّبوةِ إلى أنّهُ متى وقعت لهمْ معجزةٌ قاهرةٌ وبيّنةٌ ظاهرةٌ تدلُّ على نبوّةِ محمّدٍ ﷺ قالوا: لنْ نؤمنَ حتّى يحصلَ لنا مثلُ هذا المنصبِ من عندِ اللّهِ، وأنْ نكونَ منَ المرسلين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: اسمٌ مؤنّثٌ، جذرهُ اللّغويُّ (أيي)، والآيةُ هيَ العلامةُ ثمَّ يكونُ لها معانٍ أُخرُ، واشتقاقُها منَ التّأيّي وَهُوَ أنْ تتثبتَ، وتقيمَ على الشّيءِ"، والأصلُ في معناها منَ النظرِ، وكونُها مؤلّفةً منَ الكلماتِ والجُملِ سُمّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ وهي الطّائفةُ منَ القرآنِ الكريمِ المتّصلُ بعضُها ببعضٍ طويلةً كانتْ أوْ قصيرةً، "ولكلِّ جملةٍ من القرآنِ دالّة على حكمِ آيةٌ ... وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ التي تعدُّ بها السورةُ"[2]، ومعنى ﴿ءَايَةٞ﴾: "معجزةٌ أو آيةٌ منَ القرآنِ تأمرُهم بالإيمانِ"[3]، وآياتُ اللّهِ عجائبُه، أو هي علامةٌ منَ اللّهِ تعالى دالّةٌ على وجودِ الخالقِ.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 8/33.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي)، والراغب، المفردات: (أي)، والكفوي، الكليات، ص: 41.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/535.

2) ﴿سَيُصِيبُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبالِ، الجذرُ اللّغويُّ منهُ (صيب) أو (صوب)، ومعناهُ القصدُ، ويكونُ بحسبِ القاصدِ، وهو منْ صابَ السّهمُ الرّميةَ إذا قصدَها، والصّاد والواوُ والباءُ أصلٌ يدلُّ على النّزولِ والاستقرارِ، وأصابهُ الشّيءُ إذا أدركهُ، وهوَ الحدثُ الذي يصيبُ الإنسانَ سَوَاءٌ أكانَ خيرًا أمْ شرًّا[1]، ومعنى الكلمةِ في سياقِها من الآيةِ أنّه سيقعُ على المجرمينَ ذلّةٌ وهوانٌ.

3) ﴿صَغَارٌ﴾: مصدرٌ جذرهُ اللّغويُّ (صغر)، ومعناهُ ضدُّ الكبيرِ، ومنهُ الصّاغرُ إذا رضيَ بالضّيمِ وأقرَّ بهِ، والصّغارُ مصدرُ الصّغيرِ في القدْرِ؛ ولذلكَ فإنَّ الصّادَ والغينَ والراءَ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الذّلّةِ والهوانِ والحقارةِ، وقدْ يكونُ التّفاوتُ بالحجمِ والجثّةِ فضلاً عنِ القدرِ والمنزلةِ[2]، ومعنى الصّغارِ في الآيةِ: الذّلّةُ والقَماءةُ يومَ القيامةِ بعدَ تكبّرهم[3].

المَعْنى الإجْماليِّ:

تجدُّدُ مكرِ المشركينَ وتكبُّرِهم بعدَ بيانِ الحجّةِ بطلبِ ما ليسَ لهم

ذكرَتِ الآيةُ منْ شأنِ هؤلاءِ المجرمينَ أنّهمْ إذا جاءتهمْ آيةٌ أعرضُوا واشترطُوا الشّروطَ ووضعُوا العراقيلَ، وأرادوا أنْ ينالوا منالَ الأنبياءِ منَ الرّسالةِ والوحيِ والمعجزاتِ، فردَّ اللّهُ عليهمْ أنّهُ أعلمُ بموضعِ رسالتهِ، ومنْ هو الصّالحُ لتحمّلِها والقيامِ بها، ولهُ حكمةٌ في وضعِها موضعَها المناسبَ، ثمّ سينالُ الّذينَ أجرمُوا مُقاساةَ الهوانِ والارتكاسِ في الذّلّةِ عندهُ تعالى، معَ العذابِ الشّديدِ؛ جزاءً وِفاقًا لمكرِهمْ وكيدِهمْ للإسلامِ وأهلهِ.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الرّسالةَ هبةٌ منَ اللهِ يختصُّ بها

(1) الخليل، العين: (صيب)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صوب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب، صيب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صغر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/63.

من يشاء من عباده، ولا ينالها أحدٌ بكسبِه ولا بذكائِه ولا بنسبِه[1]، وإلى إنكارِ حُجَّة المشركين في التّشكيك في رسالة النّبيّ الكريمِ محمّدٍ ﷺ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

عطفُ الصّفات على الصِّفات بيانًا وإيضاحًا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ للعطفِ، فقد عطفتْ هذه الجملةَ على جملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فهذا حديثٌ عن أحوالِ مجرمِي مكّةَ الواردِ ذكرُهم هناك[2]، وفائدةُ العطفِ بيانُ حال أولئك المجرمين عندما أتاهم الحقُّ، فهو من عطفِ صفاتِ القوم في الآية الثّانيةِ منَ العنادِ والمكابرة، على صفاتهم في الآية الأولى منَ الإجرام والمكر.

نكتةُ استعمالِ ﴿وَإِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

بيانُ تحقُّق مجيءِ الآيةِ مع تحقُّقِ الرَّدِّ المنكرِ عليها

استعمل النَّظمُ أداةَ ﴿وَإِذَا﴾ بدلًا من (إن) لبيان تحقُّق مجيءِ الآيةِ، وتحقُّقِ ردّهم المنكرِ عليها، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ حكايةٌ عنْ خُبثِ هؤلاءِ الكفّارِ وحسدِهمْ وكيدِهمْ؛ فإنّهمْ في الوقت الذي تتّضحُ لهمْ معجزةٌ قاهرةٌ تُثبتُ النبوّةَ وتشيرُ إليها بادروا بعدم الإيمانِ حتّى يَحۡصُلَ لَهُمۡ مِثۡلُ هَذا المَنۡصِبِ من عندِ اللّهِ وأنّهمْ لمْ يطلبوا الحُجّةَ اقتناعًا، بَلۡ هُوَ حَسَدٌ منْ أنفسِهمْ[3].

تعيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

الضّميرُ عائدٌ على الأكابرِ فإنّهم رفضُوا الإيمانَ حتّى يُعطَوْا عطاءَ الأنبياءِ

الضّميرُ في الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ راجعٌ إلى أكابرِ مُجرمي القريةِ الذين جرى ذكرُهم في الآيةِ الآنفةِ الذّكرِ، وهم أكابرُ مجرمِي مكّةَ، فهم المقصودون وإنْ كانَ اللَّفظُ

---

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/172.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/51.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/135 - 136.

عامًّا؛ فإنّهم تشطّطوا واشترطوا نيلَ ما نالَ الأنبياءُ منَ الآياتِ كي يؤمنُوا[1].

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

شخوصُ الآيةِ كنايةٌ عن وضوحِها في إقامةِ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ مجازٌ عقليٌّ، فقدْ أسندَ المجيءَ إلى غَيْرِ الفاعلِ الحقيقيِّ معَ عدمِ لمحِ علاقةِ المشابهةِ وهي هنا (الآية)؛ لإيصالِ المعنى في صورةٍ دقيقةٍ مقرّبةٍ إلى العقلِ تظهرُ في مهارةِ إسنادِ الفعلِ (جاءَ) إلى الآيةِ، فاستعملَ المجيءَ وأرادَ منهُ الإعلامَ[2]، وفيه شخوصُ الآيةِ، وتجسيدُ مجيئها إلى أكابرِ المجرمين، وهو كنايةٌ عن وضوحِ المجيءِ وإقامةِ الحقِّ.

تصويرُ مجيءِ الآيةِ استعارةٌ مكنيّةٌ للإعلامِ بمجيءِ الدَّاعِي

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ استعارة مكنية، فقد شبَّه الآيةَ برجلٍ يجيءُ، وحذفَ المشبَّه به وذكر لازمًا من لوازمه وهو المجيءُ؛ فإنَّ الآيةَ على الحقيقةِ لا تجيءُ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقة، فقدْ صوّرَ المشهدَ المتحرّكَ منَ المجيءِ تصويرًا رائعًا، ليشعركَ بِهِ أتمَّ شعورٍ وأبلغَهُ، "فكأنّ الآيةَ بلغتْ من وضوحِها ومنِ استقلالِها ومن ذاتيّتِها وَخصُوصِيَّتِهَا أنّها تجيءُ"[3]، وهي بمنزلةِ رجلٍ يأتي لتلاوتِها، أي: تُليتْ عليهم آيةٌ تدعوهم إلى الإيمَانِ؛ تشبيهًا لها بمجيءِ الدَّاعِي أو المرسَلِ[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿ءَايَةٞ﴾ في سياقِ الشَّرطِ:

التّنكيرُ يقتضي العمومَ فأيُّ آيةٍ أتَتْ فهي موطنُ ابتلاء

نُكِّرت الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ لغرضِ العموم لاسيما أنَّها جاءت في سياقِ الشَّرط، ومعناهُ: كلُّ آيةٍ تنزلُ عليهمْ، وفيها تفسيراتٌ عديدةٌ[5]، منها: نزولُ آيةٍ منَ القرآنِ، وآيةٌ كونيةٌ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/288 - 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/52.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/3922.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/52.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/49.

معجزةٌ باهرةٌ، وآيةٌ تدلُّ على صدقِ رسالتهِ ﷺ، فكلُّ هذهِ الآياتِ داخلةٌ في معنى الآيةِ المذكورةِ في الآية.

براعةُ تسجيلِ كُفرِهِم بقولِه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾:

تسجيلُ كُفرِ الكافرين من قِيلِهم تمامُ العدلِ ومُنتهى الحِكمة

سجّلَ الحقُّ تبارك وتعالى كفرَهم بقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ فهو نفيُ الإيمانِ قولاً مسجّلًا بأفواهِهِمْ، وما ينبني عليهِ منْ إقامةِ الحُجّةِ عليهِمْ، وتفصيلِ مطالبِهم التي لأجلِها استحقّوا الذّمَّ البالغَ؛ ولهذا كلِّه آثرَ نقلَ قِيلِهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ دون الحُكم عليهم بقولهِ: (كفروا)، ولأنّهُ خبرٌ يحتملُ الصّدقَ ويحتملُ الكذبَ منْ جانبِهمْ؛ لأنّهمْ منكِرونَ أصلاً للرّسالةِ، ثمّ إنّهم سجّلوا عدمَ إيمانِهم بـ ﴿لَن﴾ الدّالّةِ على المستقبلِ؛ كنايةً عن إصرارِهم على نفيِ الإيمانِ[1].

معنى حرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾:

كفرُ المشركين ضاربٌ في عَراقةِ العِنادِ لا يتركونه إلا بتحقيق غايةِ الإيتاءِ

حرف (حتّى) في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾؛ للغاية، أي: أنَّهم رفضوا الإيمان بالكليَّة إلى أن يتحقَّق الإيتاءُ مثلُ الذي كان لأنبياءِ اللّه تعالى منَ الرِّسالةِ والوحي والمُعجزاتِ، فإذا تحقَّقت هذه الغاية، تحقَّق إيمانُهم باللّه، وأفاد استعمالُ هذا الحرفِ تصويرَ حالِ أولئك المعاندين في رفض الإيمان، وأنَّهم في منزلةٍ بليغةٍ منَ العناد لا يُزحزحُهم عنها إلا ذلك الإيتاءُ، وهذا في غايةِ التَّعنُّت والكفر والوقاحة؛ فإنَّ الاشتراطَ على اللّه تعالى عِرْقٌ ضاربٌ في الإلحادِ والإنكار.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾:

اعتناءُ المُتغطرس مقصورٌ على نفسه، غيرُ آبهٍ بما سوى ذلك

لإسناد الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾ نكتةٌ وهي أنّهم لَمّا ظنّوا في أنفسِهم منَ العظمةِ والعُلوِّ وأن لا يختصّ أحدٌ من غيرِهم بشيءٍ[2] طلبوا أن يُؤتَوا بما أُوتي الرّسلُ، فكانت العنايةُ بأن

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/2923.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/256.

يُؤتَوا ما طلبوه بقطع النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخرَ، وهذا دليلُ اجتماعِ الجهلِ بالكِبر والغطرسة، فإنَّ شأنَ المتكبِّر المعاندِ أن يَعتني بما يخصُّه، دون النَّظر فيما سوى ذلك.

فائِدَةُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

عُتوُّ المشركين وَغَطْرَسَتُهُمْ وكمالُ عنادِهِم وكفرِهم

لم يقتصر طلبُ أولئك المتغطرسين المعاندين على إيتاءِ المعجزات، بل أرادوها مماثلةً لمعجزات الرُّسل منَ الوحي والبراهينِ الدَّالَّةِ على رسالاتهم سواءً بسواء، وهذا في غاية الوقاحةِ والبذاءةِ، فقابلوا طلبَ الإيتاءِ بالإيتاءِ، ونزَّلوا أنفسَهم منزلةَ الرُّسل في الكرامةِ على اللّه تعالى، ورفعوا من شأنهم إلى أن أوصلوه إلى رُتبةِ الرُّسل الكرام، فكان ذكرُ التَّشبيه بـ ﴿مِثْلَ﴾ دليلًا على تمام الكِبْرِ، وكمالِ الغطرسة، وسوءِ الطَّويّة، وفسادِ الفكر.

معنى ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

موصولةٌ قُصِد بها معجزةٌ ممَّا هو معهودٌ

و﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ موصولةٌ[1] ومعناها: مثلُ الذي آتاهُ اللّهُ للرسلِ منَ المعجزاتِ الّتي جاؤوا بها لإثباتِ صدقِ رسالاتِهم لأقوامِهم[2]، كأنَّهم قالوا: نريد معجزةً منَ المعجزات التي آتاها اللّه للرُّسل السَّابقين، ممَّا هو معهودٌ معلومٌ لدى النَّاس.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

قصورُ نظرِ المشركين على الجانب الحِسّيِّ في الحياة

لَمّا كانَ غايةُ بصرِهم وتطلّعِهم هو الجَانِبَ الحِسِّيَّ من غيرِ نظرٍ إلى الجانبِ الغيبيّ منه تعالى عبّروا بالبناءِ للمفعولِ[3] عن أَرَبِهم في نَيْلِ ما نالَه الرّسلُ بقولِهم: ﴿مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ52.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/256.

سرُّ التَّصريح بعنوانِ الرّسالةِ لا النُّبوّةِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

أرادوا الرّسالة لاشتمالِها على جميع مطالبِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالرسالةِ دونَ النبوّةِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾؛ لأنّهم أرادوا أن يأتيَهم اللّهُ بمعجزاتٍ مستقلّةٍ كتلك التي آتاها لرُسلِه، ويريدونها مشتملةً على موادِّ الدّعوةِ الدّينية لا مجردَ المعارفِ الدّينيةِ من أصولٍ وفروعٍ وغيرِها، ومرادُهم أنّهم لن يؤمنوا حتّى تكونَ الرّسالةُ فيهم[1]، ويُؤيِّدُ ذلك أنّ الحقّ ﷻ ردّ عليهم بعدَه بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فهو أقربُ وأنسبُ لما أرادوا[2].

دلالةُ إضافةِ رُسُل إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

اعـترافٌ ضمنيٌّ مـنَ المشـركين بمكانةِ الرُّسلِ عند الله تعالى

إضافةُ الرّسلِ إلى اسمِه الشّريفِ تعالى بقولِه: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أفاد التَّشريفَ، لكنَّهم أرادوا التَّشريفَ لأنفسهم، أي: كما شُرِّف الرُّسلُ بأن أرسلَهم اللّه تعالى، فكذلك يريدونه لأنفسِهم، وفيه اعترافٌ ضمنيٌّ منَ المشركين بمكانةِ الرُّسل صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم أجمعين في أنفسِهم، وأنَّهم يُكابرون ويعاندون عند صدِّهم عن سبيلِ اللّه وعدمِ إيمانِهم بما جاءَ به رسولُ اللّه ﷺ.

نكتةُ جمْعِ الرُّسل دونَ الإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

الرِّسالةُ ليستْ منصبًا تشريفيًّا أو مـكـانـةً سـيـاسـيَّـةً أو رِفعةً قبليَّةً

جمْعُ الرّسل إمّا أن يُراد به المفردُ، أي: رسولُ اللّه ﷺ تعريضًا به[3]، كما يقالُ إنّ ناسًا أو جماعةً يقولون كذا، فالتّعبيرُ بالجمعِ والمرادُ شخصٌ واحدٌ معيّنٌ، ويحتملُ أن يرادَ من إطلاقِهم (رسل اللّهِ) أن يكونَ من بابِ التهكّم به ﷺ[4]، والصَّحيحُ أنَّهم أرادوا أن يُؤتَوۡا مثلَ ما أُوتي رسل اللّه على الحقيقة، وهم يريدون جميعَ

(1) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: 8/352.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/33.
(3) والتعريض أسلوب بلاغيّ يأتي خلافًا للتصريح وهو: "اللّفظُ الدّالُّ على الشيّء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ، ولا المجازيّ". يُنظر: العلويّ، الطراز لأسرار البلاغة: 1/193.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/637، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/53.

الرُّسل، فما كان لأولئك الرّسلِ مجتمعين يريدونه لأنفسهم، وهذا المناسبُ لشخصية أولئك بما تحويه من فخرٍ وكِبْرٍ كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: 31]، فهم يطلبون المجدَ من طريق زخارف الدُّنيا وبهارجِها وملذّاتِها؛ ظنًّا منهم - وَفق مفاهيمِهم الدُّنيويةِ - أنَّ الرِّسالةَ تشريفٌ نِسبيٌّ، ورِفعةٌ قبليَّةٌ، ومكانةٌ سياسيَّةٌ، وهذا يُنبئُ عن شديد جهلهم، وفيه تحذيرٌ لأتباعِ الرُّسل أن يكونوا على مِنوالِهم، في طلبِ الدُّنيا بطريق الدِّين.

بلاغةُ البَدْءِ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾:

الجـمـلـةُ على الاستئنافِ فهي جملـةٌ جديدةٌ غرضُها الإنكارُ عليهم

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ ابتدأ ذكرَ لفظِ الجلالةِ معَ أنّه مذكورٌ في الجملةِ قبلَها ﴿رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾؛ للدّلالةِ على أنّها جملةٌ جديدةٌ مستأنفةٌ "لأنّ العربَ لا تعيدُ لفظَ الظّاهرِ إلّا أن تكونَ الجملةُ الأولى غيرَ الجملةِ الثّانيةِ، وتكونَ الجملةُ الثّانيةُ مستأنفةً"[1]، والغرضُ منَ الاستئنافِ الإنكارُ عليهم، وأنّ اللّهَ لا يصطفي للنّبوةِ والرّسالةِ إلّا من كانَ أهلًا لها، وأنّه أعلمُ بالمكانِ النّازلةِ فيه.

الجملةُ تعظيمٌ لـقـدرِه ﷺ وتنبيهٌ لانحطاطِ نـفـوسِ سـادةِ المشركين

والبدءُ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فيهِ تبيينٌ لعُلوِّ قدرِ الرّسولِ ﷺ؛ فقدْ وضعَ فيهِ رسالتَهُ وشرّفَه بها، وفيهِ تنبيهٌ على انحطاطِ نفوسِ سادةِ المشركينَ وسَفالتِهم[2] أنّ منعَ اللّهُ عنهمْ هذا التّشريفَ بالرّسالةِ، وما ذاكَ إلا لانعدامِ استعدادِهمْ، فلا تصلحُ الرّسالةُ إلا لنفوسٍ دنتْ منَ الصّفاتِ الملَكيّةِ وسَمتْ عنِ الرذائلِ الحيوانيةِ، بفضائلَ نفسانيّةٍ، ونفسٍ قدسيّةٍ أفاضها اللّه تعالى بمحض الكرم والجود على من كمُل

(1) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/54.

استعدادُه، فهو منصبٌ لا يُنال بما يزعمونَه من كثرة المال والولد، وتعاضُدِ الأسباب والعَدد[1].

في الجُمْلَةِ من أساليبِ العربِ مَـا يُـسـمّـى التّرديدَ أو إيهامَ التّوكيدِ

والبدءُ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ بعدَ أنْ ختمَ الجملةَ السّابقةَ بلفظِ الجلالةِ، هو أسلوبٌ عربيٌّ يُسمّى التّرديدَ: "وهو أنْ يعلّقَ المتكلّمُ لفظةً منَ الكلام بمعنى، ثمَّ يردَّها بعينِها ويعلّقَها بِمَعْنًى آخرَ"[2]، فاللّفظُ الأوّلُ مضافٌ، والثّاني ابتداءٌ، وهذا الأسلوبُ يخلعُ على الجملةِ حُسنَ الرّصفِ والتّأليفِ المعجب، ولإفادةِ المعاني المختلفةِ، وقدْ يُسمّى إيهامَ التّوكيدِ وهو ليسَ منَ التّوكيدِ في شيءٍ إنّما يُوهمُ أنّهُ منهُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ.

توجيهُ استعمالِ ﴿حَيۡثُ﴾ بَيْنَ الحقيقةِ والمجاز:

حـيـث اسـمُ مكانٍ استُعملَ استعارةً للمكانِ الذي تُوضع فيه الرّسالةُ

﴿حَيۡثُ﴾ الدّالّةُ على الظّرفيةِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، لَيْسَتْ ظَرْفًا بَلْ هي اسْمٌ لِلْمَكَانِ مُجَرَّدٌ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ حَيْثُ ظَرْفٌ مُتَصَرِّفٌ، عَلَى رَأْيِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ النُّحَاةِ، فَهِيَ هُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِنَزْعِ الخَافِضِ وهو البَاءُ؛ لِأَنَّ ﴿أَعۡلَمُ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ لَا يَنْصِبُ الْمَفْعُولَ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ [الأنعام: 117]، والمقالةُ السّابقةُ بأن يُسْبِغَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ما وهبَ الرّسلَ ردٌّ عليهم، بأنَّ اللّهَ أعلمُ بالمعجزاتِ اللّائقةِ بالقوم المرسَلِ إليهمْ، فتكونُ حيثُ مجازًا في المكانِ الاعتباريِّ للمعجزةِ[3]، على جعلِ القوم كأنّهم مكانٌ لظهورِ للمعجزةِ بعدَ أن ظهرَت على يدِ أحدٍ منهم، وحَيْثُ مُسْتَعَارَةٌ لِلْمَبْعُوثِ بِالرِّسَالَةِ، بِنَاءً عَلَى تَشْبِيهِ الرِّسَالَةِ بِالْوَدِيعَةِ الْمَوْضُوعَةِ بِمَكَانِ أَمَانَةٍ، عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/21.

(2) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير: 253.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/53.

المَكْنِيَّةِ. وَإِثْبَاتُ المَكانِ تَخْيِيلٌ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ أُخْرَى مُصَرِّحَةٌ بِتَشْبِيهِ الرُّسُلِ بِمَكَانِ إِقَامَةِ الرِّسَالَةِ[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾:

استُعمِلَ الفعلُ المضارعُ في قولِه تعالى: ﴿يَجۡعَلُ﴾ للدّلالة على الاستمرارِ والتّجدّدِ، وإمكانِ جريانِ الحكم في كلِّ زمانٍ؛ لأنَّ الرّسالةَ متجدّدةٌ عبرَ تبليغِها إلى المرسَلِ إليه[2] منْ لدُنِ إنزالِها حتّى قيامِ الساعةِ، وأنّ الجعلَ يتخطّى الإنزالَ والاختيارَ إلى الأثرِ وهو الإيمانُ والعملُ الصالحُ[3]، وهما مُتجدّدان مُستمرّان تجدّدَ اللّيلِ والنّهارِ؛ ففيها إيماءٌ إلى أنَّ الرّسالةَ مستمرَّةٌ إلى يوم الدِّين، لكنْ لا بمفهومها النُّزوليِّ، بل بمفهومها التَّكليفيِّ التَّبليغيِّ، فإنَّ أتباعَ الرُّسل يقومون بمهامِ التَّبليغ، فيكتسبون الأجرَ والشَّرفَ في جعل تكاليفِ الرِّسالةِ فيهم.

الرّسالةُ متجدّدةٌ بتجدّدِ تبليغِ المرسَلِ إليهِ وتجدّدِ أثرِها إيمانًا وعملًا

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿رِسَالَتَهُۥۗ﴾:

اختلفَ القُرّاءُ في قولِه: ﴿رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فقرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ بإفرادِ الرّسالة، وقرأَ الباقونَ بالجمعِ، أي: (رسالاتِه)[4]، فمعنى قراءة الإفراد: أنَّ الرِّسالةَ الإلهيَّةَ واحدةٌ في مصدرِها وآثارِها، ومعنى قراءة الجمعِ: اعتبارُ كلِّ رسالة قائمةً برسولِها، فمجموعُ الرّسالات غايتُها في رسالةٍ واحدةٍ، وهذا دليلٌ على وحدةِ المصدرِ، ووحدةِ الغاية، فالدِّينُ واحدٌ، وهو ما انتهى إليه الشّأنُ في رسالةِ نبيِّنا ﷺ.

وحدةُ مصدرِ الرّسالات وغايتِها دليلٌ على وجوب اتِّباعِ الرِّسالة الخاتمةِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾:

جملةُ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنْ قولِه: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ مؤسَّسٌ على سؤالٍ مفترَضٍ، فإنّهمْ

مصيرُ من يجترئُ على اللهِ أن يصيبَه هوانٌ عندَ اللهِ جزاءً وفاقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/53.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/265.

(3) العثيمين، تفسير العثيمين: 1/394.

(4) ابن الجزري، النشر: 2/262.

لَمّا اجترؤوا عليهِ سبحانهُ وأصرُّوا على المعاصي، وأقبحُها الكفرُ حسدًا منْ أنفسِهمْ فما مصيرُهمْ، وماذا سيحلُّ بهمْ؟ فجاءَ الجوابُ ﴿سَيُصِيبُ﴾ بهيئةِ وعيدٍ وتهديدٍ على أفعالِهمْ، والمرادُ بالذينَ أجرموا أكابرُ المجرمينَ الواردِ ذكرُهمْ في سياقِ الآيةِ نفسِها[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الإصابةِ في قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

لفظُ الإصابةِ مجازٌ عن حشرِهم يومَ القيامةِ

استعمالُ لفظِ الإصابةِ في جملةِ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ، فالأصلُ في معنى الإصابةِ: النّزولُ والاستقرارُ والانتهاءُ إلى الموضعِ[2]، فمصيرُ هؤلاءِ ومستقرُّهمْ جهنمُ يومَ القيامةِ، فالفعلُ ﴿سَيُصِيبُ﴾ واردٌ على طريقةِ المجازِ؛ كنايةً عنْ حشرِهمْ يومَ الدِّينِ[3].

نكتةُ استعمالِ الاسْمِ المَوْصُولِ في إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

الإشعارُ بسببِ وقوعِ الهوانِ عليهِمْ يومَ القيامةِ

جاءَ التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ دون الإضمارِ وهو مقتضى الظّاهر، فلم يقل: (سيصيبهم صغارٌ)؛ للإشعارِ بعلّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، والمعنى أنَّ إجرامَهمْ سببٌ لإصابتِهمْ بالصَّغارِ والعذابِ[4].

سرُّ العُدولِ عن ذكرِ المكرِ إلى الإجرامِ في قولِه: ﴿أَجۡرَمُواْ﴾:

لفظُ الإجرامِ شاملٌ الأكابرَ والأصاغرَ ممَّن تصدَّى للدَّعوة

عدلَ النَّظمُ عن ذكرِ المكرِ كما جاء في الآياتِ السَّابقة: ﴿لِيَمۡكُرُواْ﴾ إلى ذكرِ فعلِ الإجرامِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّ الذينَ يستحقّونَ الصَّغارَ والعذابَ هم الذين أجرموا، وجيءَ بفعلِ ﴿أَجۡرَمُواْ﴾ ليشملَ الجميعَ منَ الأكابرِ والأصاغرِ ممَّن يصدقُ عليهم لفظُ الإجرامِ، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/55.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(3) إسماعيل حقي البروسوي، روح البيان: 3/99.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/56.

ﷺ، ولو قال - في سياق الآية -: (الذين مكروا)؛ لظُنَّ أنَّ الأمر خاصٌّ بالأكابر، ولذا قال: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾؛ لاختصاص اللَّفظ بهم، فأتى بِلَفْظِ ﴿أَجۡرَمُواْ﴾؛ وهو مستوعبٌ الأكابرَ والأصاغرَ منَ المجرمين.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾ دونَ مُرادِفاتِه:

مقابلةُ الكبْرِ بالصَّغارِ عدلٌ إلهيٌّ ووِفاقٌ جزائيٌّ

الصَّغارُ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى الذّلّ، وهو مشتقّ منَ الصِّغَرِ، أي: أذلّاءُ قِمَاءٌ راضون بالدّنيّة[1]، ولَمّا كانَ المعاقَبونَ متّصفينَ بالتكبّرِ والإجرامِ والعصيانِ المقترنِ بالإصرارِ عليه وهم المشارُ إليهم بقولِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾، ناسبَ أنْ يجعلَ مصيرَهمْ ومآلَهمْ ذُلًّا وعذابًا في الدّنيا بزوالِ السّيادةِ والأَسْرِ والقتلِ، فضلًا عنِ العذابِ والهوانِ في الآخرةِ[2]، فأتى بلفظٍ يُوحِي بالمقابلةِ فقابل الكبْرَ بالصَّغارِ جزاءً وِفاقًا.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾:

التّهوينُ والتّحقيرُ لكلّ متكبّرٍ

في تنكيرِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾ مزيدُ تهوينٍ وتحقيرٍ لأولئك الأكابر، وهو مأخوذٌ منَ السِّياق.

فائِدةُ التَّقييدِ بالعنديّة في قولِه تعالى: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

العِنديّةُ دالّةٌ على التّعظيمِ والتّهويلِ فالشّيءُ يعظمُ بعظَمةِ محلّه

أفاد التّقييدُ بالعِنديةِ في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الإشارةَ إلى تعظيم عذابِ هؤلاءِ، فإنَّ الشيءَ يعظمُ بعظمةِ محلّهِ ومكانه[3]، ولا أعظمَ منهُ تعالى، ولَمّا كانَ الأمرُ هنا في العذابِ فيكونُ الغرضُ منه التّعظيمَ والتهويلَ، ولَمّا طلبوا الكرامةَ والشَّرفَ عن غيرِ استحقاقٍ في قولِهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ ناسبَ أن يُؤتيَهم العذابَ الماديَّ والمعنويَّ عن استحقاقٍ فقال سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (صغر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/56، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/320.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/258.

سرُّ تقديمِ الصَّغارِ على العذابِ في قولِه: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾:

من طلبَ ما لا يستحِقُّ عوقب بما يستحِقُّ

قُدِّمَ ذكرُ الصَّغار على ذكر العذابِ الشديدِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾، وسرّ ذلكَ أنّهمْ لَمّا تمرّدوا على طاعته ﷺ كانتْ غايتُهمْ طلبَ العزّ والرّياسةِ والكرامةِ، فبيّنَ أنّهُ سيقابلُهمْ بضدِّ مطلوبِهمْ[1]، بَدْءًا بالصَّغارِ والذُّلِّ المعنويِّ، ثمَّ تَثْنِيَةً بالعذابِ الماديِّ الشّديدِ، فالتّقديمُ والتأخيرُ منْ بابِ مناسبةِ الحالِ، فلمَّا كان بالغُ عنايتهم بالكرامةِ والشَّرف بدأ بما يُناسبُ حالهم، ليذوقوه في الدُّنيا خبرًا، وفي الآخرة واقعًا.

نكتةُ وصفِ العذابِ بالشَّديدِ دون غيرِه منَ الأوصاف في قولِه: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾:

شـدّةُ عذابِهم معـادلٌ لـشدَّةِ كفرِهم وشديدِ بأسِهم

بيّنَ الحقّ ﷻ نهايةَ هؤلاءِ المجرمينَ بعدَ الصَّغارِ بالعذابِ، ثمَّ وصفَهُ بالشّديدِ في قولِه: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾، دون أن يقول: (عذاب أليم)، أو (عذاب مهين) ونحوَ ذلك، ونكتةُ هذا الوصفِ أنَّ عذابَهمْ هذا لمْ ينزلْ بهم جُزافًا، ولم يقعْ عليهم جَوْرًا، بلْ هو مطابقٌ مسبّبٌ عنْ سوءِ فعالِهمْ وضررِ مكرِهمْ وكيدِهمْ[2]، فشدَّةُ العذابِ تُعادل شدَّةَ الذَّنْبِ، فلمَّا تشدَّدوا في كفرهم وأصرُّوا على شِركهم، ناسب أن يَذكرَ العذابَ الشَّديد الذي لن يُفلِتوا منه.

معنى ﴿بِمَا﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

عـذابُ المشركين بسبب مكرهم، الـذي مكروه في الدُّنيا

الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ للسّببيةِ[3]، فالمكرُ سببُ عذابِهمْ، ولَمّا كانتِ الباءُ داخلةً على (ما) وهيَ تحتملُ المصدريةَ؛ فالمعنى بسببِ مكرِهمْ استحقّوا العذابَ، وتحتملُ الموصوليةَ فيكونُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/137.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/3925.

(3) ذكر لها أربعة عشر معنى، رابعها معنى السببية، ابن هشام، مغني اللبيب: 1/103.

المعنى بسببِ الذي كانوا يقترفونهُ منَ المكرِ[1]، والمعنيان بالمصدريّة والموصوليّة متآيلان، كلٌّ منهما يُفضي إلى الآخر.

بلاغةُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

فعلُ الكونِ يدلُّ على استمرارِ مكرِهمْ فاستحقّوا عليهِ العذابَ

المجيءُ بالفعلِ النّاقصِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾؛ لدلالتِه على الاستمرارِ فإنّهم نالوا عذابَه تعالى بداعِي الاستمرارِ في المكرِ[2]، وهو تذكيرٌ بأنَّهم كانوا على حال المكر على الدَّوام لا يفترون عنها بحالٍ.

بلاغةُ التّعبير بالمكرِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾، دون (يجرمون):

إظهارُ حقيقةِ حالِ المشركين ومدى شناعةِ أفعالِهم

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ على (يجرمون) في هذه الآية، مع أنَّ لفظَ الإجرام سبقَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، هي إظهارُ حقيقةِ حالِ المشركين ومدى شناعةِ أفعالِهم؛ فإنَّ اللّه تعالى وصفَهم في ختامِ الآيةِ الكريمةِ بالمكر دون الإجرام المنوَّه به، وهذا يدلُّ على أنّهم لم يكونوا مجرمين عاديّين، بل كانوا في غاية المكرِ، فإنّهم لم يكتفُوا بارتكابِ المحظوراتِ وانتهاكِ الحقوق، بل اتّخذوا من ذلك وسيلةً للإضرار برَسولِ اللّهِ ﷺ وأتباعِه، واستخدموا لذلك المخادعاتِ والحيلَ، فاللّه تعالى يريدُ أن يُصوِّرَ ما فعلوه من شرّ وما سيلاقون من عقابٍ، ولهذه الدَّلالة التي تحملُها كلمةُ ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ في هذه الآية، فقد اختارها اللّه تعالى بحكمتِه وإعجازِ كلامه العزيزِ، فهي توافقُ مقصودَ الآية منَ التّحذير منَ المكر والحثِّ على التّقوى.

دلالةُ إيثارِ لفظِ المكرِ بصيغة المُضارِعِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

تصويرُ مكرِ المجرمين لبيان خطورتِه وشدّةِ بأسِه

إيثارُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ لدلالتِه على التّجدّدِ والحدوثِ فإنّهُ لا يخلُو زمانٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/56.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/183.

أَوْ مكانٌ منْ أُناسٍ مجرمينَ يمكرونَ ويَكيدونَ لهذا الدِّينِ ولأئمةِ الإصلاحِ، وهو أمرٌ جارٍ حُكمُهُ حتّى قيامِ الساعةِ، أو لتصويرِ مكرِهم وبيانِ مدى خطورتِه على دين اللّه تعالى، وعلى الدُّعاة إلى الحقِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّغار والذِّلّة:

الـــذُّلُّ نقيضُ الـعـــزِّ، أمّـا الـصَّـغـارُ فهو الاعترافُ والإقرارُ بالذُّلِّ ولا عكسَ

معنى الذُّلِّ الانقيادُ كرهًا، ونقيضهُ العزُّ وهو الإباءُ، فالعزيزُ أبيٌّ خلافَ الذَّليلِ المنقادِ[1]، أمّا الصَّغارُ فبينهُ وبينَ الذّلِّ وشائجُ وعلائقُ قويةٌ؛ ذلكَ أنَّ الصَّغارَ اعترافٌ بالذّلِّ وإقرارٌ بهِ وإظهارُ المرءِ صغيرًا ولا عكسَ، فقد لا يكونُ الذّليلُ مقرًّا ولا معترفًا بهِ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنّ العصاةَ والمجرمينَ والمتكبّرينَ في الآخرةِ مقرّونَ معترفونَ بالذّلّ[2]، فهذا فرقٌ بادٍ بينَ الذُّلّ والصَّغارِ فليُتأمَّلْ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَكْرُ الْمُجرِمين لا يمنعُ الإيمانَ عن أحدٍ ولا يُكرِهُ أحدًا على الكُفرِ

الآيةُ مُرتَّبةٌ على ما قبلَها وصلًا بالفاءِ، فإنّ الحقَّ ﷻ لَمّا ضربَ مثلًا بقولِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 122] وأنّه يزيِّنُ لِلكافرينَ أعمالَهم، وأنَّهُ صيَّر في كلِّ قريةٍ مجرميها مِنْ أكابرِ القوم، ثُمَّ إنّهمْ يَطلُبونَ ما ليسَ لهمْ رتّبَ هُنا على ذلكَ هذهِ الآيةَ تسليةً للرَّسولِ ﷺ، وإرشادًا إلى تفويضِ الأمورِ إلى اللهِ تعالى، وإعلامًا بأنَّ إرادتَهُ تتعلَّقُ بهدايةِ بعضِ العبادِ المستعدِّينَ لَها وضَلالِ غيرِهِمْ(1)، فالمناسبة بين الآيةِ والسَّابق لها، هو أنَّ هذه الآية تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ في أنَّ مَكْرَ الْمُجرمين لا يمنعُ مِنْ إيمانِ المؤمنين، فاللّه تعالى شرحَ الصُّدورَ، وهيَّأَ الأسْبابَ، فمنْ أرادَ الإيمان فلا رَادَّ له، ومن أرادَ الكُفرَ فلا مُكْرِه له.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشْرَحْ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، والجذرُ اللُّغويُّ منهُ (شرح)، والشَّرْحُ معناهُ الاتِّساعُ، وشرَحَهُ وسَّعَهُ فاتَّسَعَ، وأصلُهُ: الفتحُ والبيانُ، واشتِقاقُهُ مِنْ تشريحِ اللَّحم، وشَرْحُ الصّدرِ أنْ يبسُطَهُ الحقُّ ﷻ بنورِهِ الإلهيِّ وسَكينَتِه الرَّبّانيَّة، ومَنْ شرَحَ صدرَهُ فقد وسَّعَهُ لقَبولِ الحَقِّ والرِّضا بِهِ، وشَرْحُ الأمرِ توضيحُهُ وبيانُ الغامِضِ مِنْهُ، و(شرَحَ صَدْرَهُ) الواردُ في القرآنِ هو مِنَ

(1) الطيبيّ، فتوح الغيب: 6/240.

القَبولِ برضًا وقناعَةٍ وارتياحٍ[1]، وهوَ كَذلِكَ الواردُ في الآيةِ بأنْ يوسّعَ قلبَهُ فيكونَ قابلًا لتلقّي التَّوحيدِ والإيمانِ بِهِ[2].

2) ﴿ضَيِّقًا﴾: اسمٌ على وزنِ (فَيْعِل) يدلُّ على المبالغةِ؛ الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (ضيق)، وهوَ خِلافُ السَّعَةِ، ويُستعمَلُ في الفقْرِ والبُخلِ والغمِّ، وهو نقيضُ شَرْحِ الصَّدرِ؛ وهو التّعميةُ والتَّحيُّرُ، وعُمومُ معناهُ المِحْوَرِيِّ هوَ النَّقصُ الحاصِلُ في الفَراغِ نتيجةَ تضامِّ جوانبِهِ، ثمّ استُعمِلَ في الضِّيقِ المعَنويِّ فكأنَّ الصَّدرَ يَضيقُ بِنَقصٍ فيهِ[3]، ومعناهُ في الآيةِ: الصّدرُ الّذي ينبو عَنْ قَبولِ الحَقِّ فلا يكادُ يدخلُهُ الإيمانُ لشِدّةِ ضيقِهِ[4].

3) ﴿حَرَجًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجذرُ اللّغويُّ مِنهُ (حرج)، ومعنى الحرج الضِّيِّقُ، والصَّدرُ الحرَجُ الّذي يَضيقُ ولا يَنشرحُ للخَيرِ، والحَرَجُ مكانٌ ضيّقٌ كثيرُ الشَّجرِ لا تَصِلُ إليهِ الرّاعيةُ، ومنه أصلُ الحاءِ والرّاءِ والجيمِ الدّالةِ على التَّجَمُّعِ والضِّيقِ، وحَرَجُ الصّدرِ أن يكونَ ضيّقًا بالكُفرِ، وكونُهُ بمعنى الضّيقِ المعَنويِّ كأنّما زحمَهُ الهمُّ والغمُّ وتجمَّعا فيهِ فمنعا دُخولَ النّورِ فيهِ[5]، ومعنى الحرَجِ في الآيةِ: صَدرُ الكافِرِ الّذي لا تصِلُ إليهِ الحِكمَةُ، كالحرَجِ؛ وهوَ موضعٌ كثيرُ الشّجرِ الملتَفِّ الّذي لا تَصِلُ إليهِ الرّاعيَةُ[6].

4) ﴿يَصَّعَّدُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، مَزيدٌ بالتَّضعيفِ دالٌّ عَلى المبالَغَةِ؛ الجذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (صعد)، والصُّعودُ ارتقاءُ المكانِ المشرِفِ العالي، والصّادُ والعَينُ والدّالُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على الارتفاعِ والمشقَّةِ خلافَ الحدورِ والنُّزولِ، والصُّعودُ يُقالُ للعقَبةِ الكؤودِ، ويُستَعارُ للمَشقَّةِ في الأمورِ، ولَمّا كانَ كَذلكَ استُعمِلَ الصُّعودُ في التَّعبيرِ عنِ العَذابِ والمشقَّةِ[7]، ومَعنى يصَّعَّدُ في الآيةِ: وَصْفٌ لرَجلٍ يريدُ اللّهُ أَنْ يُضِلَّهُ، فحالُهُ: "كأنّما يحاولُ الصُّعودَ في السَّماءِ، وذلكَ غَيْرُ ممكنٍ، فكذلكَ يصعُبُ عليهِ الإيمانُ"[8].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شرح).
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1385.
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضيق).
(4) صديق حسن خان، فتح البيان: 4/236.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حرج).
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 1/353.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صعد).
(8) السّيوطي، معترك الأقران: 3/377.

5) ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ؛ الجذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (رجس)، وكلُّ شَيءٍ يُستقذَرُ فهوَ رِجسٌ، ومعناهُ أيضًا العَذابُ والرِّجزُ، وهوَ أصلٌ يدلُّ على الاختلاطِ، ومِنهُ الشَّيءُ القذِرُ؛ لأنّهُ لطخٌ وخلْطٌ، وقد يُعبَّرُ عنِ القُبحِ المعنويِّ بالرّجسِ؛ كالكُفرِ، فإنّهُ مِنْ حيثُ العقلُ مِنْ أقبحِ الأشياءِ، وهو العمَلُ المؤدّي إلى العَذابِ والعِقابِ[1]، ومعنى الرِّجسِ في الآيةِ: اللَّعنةُ في الدّنيا، والعَذابُ في الآخرةِ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

هدايةُ المؤمنِ في انشِراحِ الصَّدرِ، وضَلالُ الكافرِ في انغلاقِهِ

الآيةُ الكريمةُ إخبارٌ مِنَ الحقِّ ﷻ بأنَّ آيةَ هدايةِ المؤمنِ أن يشرَحَ صَدرَهُ للإسلامِ، وآيةَ الضّالِّ أنْ يجعلَ صَدرَهُ ضيّقًا حرَجًا لا ينفُذُ إليهِ نورُ الإيمانِ، وهذه حالُهُ في عَدَمِ تقَبُّلِ الإيمانِ وصُعُوبَتِه وثِقَلِهِ عَليهِ؛ مثَلُهُ كمثَلِ مَنْ حاولَ الصُّعودَ إلى السَّماءِ وهوَ عاجزٌ عَنْ ذلكَ؛ فيظهَرُ فعلُهُ متكلَّفًا ذا عَنَتٍ؛ فليسَ في وُسعِهِ ذلكَ، ولا حيلَةَ لهُ فيهِ، ومِثْلَما يكونُ صدرُهُ ضيّقًا حرجًا فإنّهُ يجعلُ لهُ اللَّعنَةَ في دُنياهُ، ويجعَلُ لهُ العذابَ في أُخراهُ[3] على مَنْ أبى الإيمانَ باللّهِ ورسولِهِ.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَنْ تقرَّبَ إلى اللّهِ سبحانَهُ أعانَه، ومَنْ بَعُدَ عنهُ خَذَلَهُ[4].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بُطلانُ أعذارِ الكفّارِ وتَعلُّلاتِهم في إعراضِهِم عنِ الإيمانِ

بلاغةُ الوصْلِ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ للتَّفريعِ، وهي جملةٌ مَوصولةٌ بما قبلَها مِنْ لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، ثمّ ما انتظمَ عليهِ مِنْ أعذارٍ كقولِهم:

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجس).

(2) النّحّاس، معاني القرآن: 2/488.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/544، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/290.

(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1323.

﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ فقدْ أبطلَ علَّتَهُمْ هذهِ الَّتي تعَلَّلوا بها، وأَسقَطَ تَعليقَهُمُ الإيمانَ بحصولهِمْ عَلى تلكَ المغانمِ والمِنَحِ، وبيّنَ أنَّ هدايةَ المؤمنِ وضَلالَ الكافرِ هما منهُ تعالى تَخَطِّيًا لِلأسبابِ الظّاهِرَةِ[1].

دَلالةُ جُملةِ الشَّرطِ:

الـهِـدايـةُ والانـشـراحُ اسـتـعـدادٌ نـفـسيٌّ وقـبـولٌ عقليٌّ للإسلامِ تحصيلًا وتوطينًا ورِضًا

دلالةُ الشّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، أيْ: أنْ يجعلَ في نفسِهِ استعدادًا، وفي عقلِهِ قبولًا لِلإسلامِ على وجهِ التَّحصيلِ، ثمَّ على وجهِ التَّوطينِ ليسكنَ إليهِ ويكونَ راضيًا بِهِ[2].

الضّلالُ بمعنى دَوامِ الضَّلالِ أو رفْضِ قَبولِ الإسلامِ

ودَلالةُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أيْ: أنْ يدومَ على الكفرِ فهوَ إمّا بمعنى أنْ يدومَ ضلالُهُ الماضي، أوْ أنْ يكونَ ضلالًا عَنِ الاهتِداءِ والقَبولِ للإسلامِ[3].

سرُّ إظهارِ لفظِ اسْمِ الجلالةِ وإضْمارِه:

الـهِـدايـةُ منهُ تعالى والضّلالُ قـائـمٌ عـلى مُقتضَى الطَّبْعِ البَشَرِيّ

أظهرَ اسمَ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ للتّعبيرِ عن الامتنانِ، فهوَ الهادي جلَّ في عُلاهُ، وأضمَرَهُ مع فِعلَي الإرادةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ في إشارةٍ إلى الضَّلالِ فإنّه طبعٌ إنسانيٌّ[4]، ولكونِ مَنْ ضلَّ هو الّذي سدَّ على نفسِهِ بابَ الرَّحمةِ والإحسانِ، وكذَّبَ بالإيمانِ، وبيومِ القيامةِ وما فيه مِنْ حسابٍ وجَزاءٍ، فأعطاهُ اللهُ الخَصلةَ التي توصلُهُ إلى العُسرِ والمشقَّةِ والشِّدَّةِ، بأنْ جعلَهُ بسببِ سوءِ اختيارِه، يؤثِرُ الغَيَّ على الرَّشَدِ، والباطِلَ عَلى الحقِّ، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل: 10]؛ إذِ الهدايةُ منهُ تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/58.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/259.

بيانُ التَّعبيرِ بالمصْدَرِ المؤَوَّلِ دونَ الصَّريحِ:

مِنْ إنعامِ اللهِ على خَلْقِهِ أنّ هِدايَتَهُ مستمِرَّةٌ مُتَجدِّدَةٌ

والتّعبيرُ بالمصدرِ المؤَوَّلِ (أنْ والفعلُ المضارِعُ) في قولِهِ تَعالى: ﴿أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ دونَ التّعبيرِ بالمصدَرِ الصَّريحِ هوَ لإفادَتِهِ زَمَنَ الحالِ والاستقبالِ بِجَانِبِ الحَدَثِ وترسيخِهِ وتأكيدِهِ؛ لأنَّ المصدَرَ الصَّريحَ لا يدُلُّ عَلى الزَّمَنِ فيما لوْ عَبَّرَ بقولِهِ (هدايتُهُ)، أمّا التَّعبيرُ بالمصدَرِ المؤَوَّلِ؛ فهدايتُهُ تَعالى مُستَمِرَّةٌ مُتَجدِّدَةٌ لخلْقِهِ، وهذا مِنْ إنعامِهِ تَعالى عَلى خَلْقِهِ.

نُكتَةُ تَضْمينِ الهِدايَةِ جُملَةَ الشَّرطِ والشَّرحِ جوابَ الشَّرطِ:

انْشِراحُ الصَّدْرِ مُؤذِنٌ بالهِدايَةِ لاختِصاصِهِ بالألطافِ الرَّبّانيَّةِ

ضُمِّنَتِ الهدايةُ جملةَ الشَّرطِ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ وجاء ذكرُ انْشِراحِ الصَّدرِ في جملةِ الجوابِ؛ لأنَّ انْشِراحَ الصَّدْرِ بالإيمانِ مؤذِنٌ بهدايتِهِ، بمعنى أنْ يخُصَّهُ الحقُّ ﷻ بالألطافِ الإلهيَّةِ التي تدعوهُ إلى أنْ يثبُتَ عَلى إيمانِهِ؛ فانْشِراحُ الصَّدْرِ عِلَّةٌ لِلهدايةِ؛ فجاءَ جوابُ الشَّرطِ مُضمَّنًا العلَّةَ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارةِ التَّمثيليّةِ في جُملَةِ ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾:

تَصويرُ الصَّدْرِ بالجِرمِ الذي يَتوسَّعُ لِحُلولِ الإيمانِ فيهِ

في جملةِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ استعارَةٌ تمثيليَّةٌ؛ فالشَّرْحُ بِمعنى البَسْطِ في الأَحْجَامِ والأجسامِ، فإذا كانَ الجِرْمُ رَحْبًا مُنبَسِطًا بالشَّرْحِ كانَ مُؤَهَّلًا تَأهيلًا حسَنًا لِحُلولِ الهدايةِ فيهِ، فَالاستعارَةُ فيها تَشبيهٌ بِتَهيئَةِ القَلْبِ وإنارَتِهِ وإعدادِهِ لِلقبولِ بالاتِّساعِ، ثمَّ شبَّهَ قَبولَهُ وتَحصيلَهُ لِلإيمانِ والهدايَةِ بالتَّمكُّنِ والحُلولِ في الجِرْمِ المشروحِ(1).

معنَى الكِنايَةِ في جُملَةِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾:

شَرْحُ الصَّدْرِ زَرْعُ الرَّغبةِ في الدِّينِ

الشَّرْحُ في قولِهِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ بمعنى التَّوسُّعِ، وفيهِ كِنايَةٌ عَنْ أنْ تكونَ النَّفسُ قابلَةً لِلحَقِّ، وأنْ تَتهيَّأَ كَي يَحِلَّ فيها فلا تَتمنَّعَ ولا تُنافيَ دُخولَهُ، وشَرَحَ اللهُ صَدرَهُ فَانْشَرَحَ، أيْ: لقَبولِ الأثَرِ؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342.

فليسَ المرادُ منهُ توسُّعَ الصَّدرِ حقيقةً، بَلْ هوَ كنايَةٌ عَنْ مَيلِ القَلبِ إلى الدِّينِ، وشدّةِ الرّغبةِ فيهِ[1].

مَقاليدُ الهِدايةِ وأسبابُها بيدِهِ وحدَهُ سبحانَهُ

تَوجِيهُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿يَشۡرَحۡ﴾:

الضَّميرُ في الفِعلِ ﴿يَشۡرَحۡ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ عائِدًا على الهُدى المضَمَّنِ في الفِعلِ ﴿يَهۡدِيَهُۥ﴾ - قالَ ابْنُ عَطيَّةَ: "والقَولُ بأنَّ الضَّميرَ عائِدٌ عَلى الهُدى قَولٌ يَتَركَّبُ عَليهِ مَذهَبُ القَدَريّةِ في خَلْقِ الأفعالِ، ويَنبغي أنْ يُعتقَدَ ضَعفُهُ، وأنَّ الضَّميرَ إنَّما هوَ عائِدٌ عَلى اسْمِ اللّهِ ﷻ؛ فإنَّ هذا يعضُدُهُ اللَّفظُ والمعنى، ورُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ لَمَّا نزَلَتْ هَذهِ الآيَةُ، قالوا يا رَسولَ اللّهِ: كيفَ يَشْرَحُ الصَّدرَ؟ قالَ: «إذا نزَلَ النّورُ في القَلبِ انْشَرَحَ لهُ الصَّدرُ وانفسَحَ»، قالوا: وهَلْ لِذلك عَلامَةٌ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «نعَمْ: الإنابَةُ إلى دارِ الخُلودِ والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرورِ، والاسْتِعدادُ لِلمَوتِ قبْلَ الفَوتِ» - ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ عَودُهُ على اسمِ الجَلالَةِ وهوَ أظهَرُ[2]؛ إذ بيدِهِ سبحانَهُ مَقاليدُ الهِدايةِ وأسْبابُها.

عِـلّـةُ قَـبـولِ الإسلامِ انْشِراحُ الصَّدْرِ

دَلالَةُ اللّامِ في (لِلإسلامِ):

اللّامُ الدّاخِلَةُ عَلى لفظَةِ (الإسلام) في قولِهِ تَعالى: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ تُفيدُ العِلَّةَ؛ فإنَّ الحَقَّ ﷻ شرَحَ صَدرَ الإنسانِ لأجْلِ قَبولِ الإسلامِ[3].

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/239، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 8/258.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342. وقالَ الشّوكانّي: "وقد أخرجَ ابنُ المبارك في الزّهدِ، وعبدُ الرّزاق والفريابي،... عن أبي جعفر المدائني رجل من بني هاشم، وليس هو محمّد بن علي قال: سُئلَ النّبيُّ ﷺ عن هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ قالوا: كيف يشرحُ صدرَهُ يا رسولَ اللهِ؟ ...، الحديث. وهذه الطّرقُ يقوّي بعضُها بعضًا، والمتّصلُ يقوّي المرسَل، فالمصيرُ إلى هذا التّفسير النّبويّ متعيّن". يُنظر: الشوكاني، فتح القدير: 2/184.

(3) السّمين، الدرّ المصون: 5/14، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/380.

بَلاغةُ الاحْتراسِ في ذكْرِ لفْظِ الإسلامِ في الآيةِ:

الإسلامُ يتضمَّنُ الإيمانَ وبه تَنشَرحُ الصُّدورُ وتَنفتِحُ النُّفوسُ

معنى لفْظِ الإسلام في قولِه: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ يتضمَّنُ الإيمانَ والإسلامَ؛ لأنَّ الإسلامَ أعمُّ مِنهُ؛ فالإسلامُ في مَعناهُ الشَّرعيِّ أعمُّ مِنَ الإيمانِ وأوسَعُ، فالإسلامُ اسمٌ جامعٌ للإسلام والإيمان، ومقصدُ الآيةِ بيانُ أنَّ الشَّرحَ سيتعدَّى الأعمالَ القلبيَّةَ إلى السُّلوكيَّةِ؛ فإنَّ من يقرأُ ذكرَ الشَّرحِ والهُدى في الآيةِ يظنُّ أنَّ المرادَ به الإيمانُ، فيأتي ذكْرُ الإسلامِ ليقومَ مقامَ الاحْتراس من مَظنَّةِ إرادةِ الإيمانِ فقط، ومَن أوَّل الإسلامَ بالإيمانِ فقط فقد خالفَ الظَّاهرَ، ولن يكونَ هناك شرحٌ تامٌّ ما لم يكنْ هناك عملٌ يزيدُ القلبَ انشراحًا والصّدرَ انفتاحًا، ومجيءُ نفْيِ الإيمانِ عن أهلِ الضَّلالةِ في فاصلةِ الآيةِ هو لبيانِ أنَّ اللّه يشرحُ الصَّدرَ للإسلام والإيمانِ، وأنَّ الرِّجسَ إنَّما يكونُ عندَ عدمِ تحقُّقِ الإيمانِ، تنبيهًا على الأعمالِ القلبيَّةِ وحفاظًا من داءِ النِّفاقِ.

معنَى فِعْلِ الجَعْلِ:

يحتملُ فِعْلُ الجَعْلِ أن يكونَ بِمَعنى الحُكمِ أو بمعنى التَّسْمِيَةِ

استعمَلَ فعلَ الجَعْلِ في قولِه تَعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾؛ للدَّلالةِ عَلى مَعنى الحُكمِ كَما يُقالُ: فلانٌ يَجعَلُ البَصْرة مِصْرًا، أيْ: يَحكُمُ لَها بِحُكمِها، وهوَ قَريبٌ مِنْ مَعنى التَّصييرِ، ويَحتمِلُ - فيما حكاهُ ابْنُ عَطيَّةَ عَنْ أبي عَليٍّ الفارسِيِّ - أنْ يكونَ الجعْلُ بمعنى التَّسميةِ[1] والحُكمِ والقولِ، نظيرَ قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزّخرف: 19]، وهوَ قَولٌ ضَعيفٌ لا يَتناسَبُ مَعَ مَعنى الآيةِ ومَشيئَةِ اللّهِ فيمَنْ تنكَّبَ طَريقَ الرَّشادِ.

تَوجيهُ قِراءَتَي التَّخفيفِ والتَّشديدِ في ﴿ضَيِّقًا﴾:

قرأَ ابْنُ كَثيرٍ ﴿ضَيۡقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342، وقال: "وهذا الوجه يضعف في هذه الآية".

القِراءتان بمنزلة اللُّغتَيْن

بالتَّخفيفِ فيما قَرأَ الباقونَ بالتَّشديدِ ﴿ضَيِّقًا﴾[1]، والقِراءتانِ بِمنزلَةِ اللُّغتَينِ كَـ (الميّت) مُشدَّدَةً و(الميْت) بالتَّخفيفِ، وحُكيَ عَنِ الكسائيِّ أنَّ لفظة (الضَّيْق) بالتَّخفيفِ مُتعلِّقَةٌ بالأجرامِ وأسبابِ العَيشِ، وأنَّ المشدَّدَةَ مُتَعلِّقَةٌ بالمعاني[2].

نُكتَةُ إتْباعِ وَصْفِ الضِّيقِ بالحرَجِ:

الحَرَجُ أضْيَقُ الضِّيقِ؛ بحيثُ لا يتَّسِعُ لِلزِّيادَةِ

جاءَ وصْفُ الضّيقِ بالحَرَجِ في قولِه تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ معَ أنّهما متقارِبانِ معنًى؛ وذلك لأنَّ الحرَجَ فيهِ تأكيدٌ لِمعنى الضِّيقِ؛ فهو بمعناه، وفيه مِنْ مَعنى الشِّدَّةِ ما ليسَ مُتوافرًا في الضِّيقِ؛ فإنّهُ يجعلُ صدرَهُ ونفسَهُ لا يتّسعانِ لأنْ يقبَلا الإسلامَ دينًا[3]، أو هوَ أضيَقُ الضِّيقِ، أو يكونُ مُشتَقًّا مِنَ الحرَجَةِ الَّتي هيَ الشَّجرُ الكثيرُ الملتَفُّ بعضُهُ بِبعضٍ، بِحيثُ لا يتّسعُ للزِّيادةِ[4]، وكذلك جاء الحرجُ بمعنَى الشَّكِّ، فيكونُ معناه: ضيِّقًا شاكًّا[5]، وهذانِ لَوْنانِ مختلفانِ مِنَ الضِّيقِ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في جُملةِ: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾:

مَنْ ضاقَ صدرُهُ اضْطَربَ عندَ سَماعِ الإيمانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ استعارةٌ؛ فقد استعارَ الضِّيقَ هُنا مُقابِلًا ضِدِّيًا لاستعارةِ الشَّرْحِ؛ فمَنْ كانَ هذا حالَهُ فهوَ الَّذي لا يَقبَلُ الإيمانَ ولا تَسكنُ إليهِ نَفسُهُ، فيكونُ مُضطرِبًا قَلِقًا حينَما يُعرضُ عليهِ الإسلامُ[6].

توجيهُ قِراءةِ ﴿حَرَجًا﴾:

قلبُ الكافرِ كالموضِعِ الكَثيفِ مِنَ الشَّجرِ لا تصِلُهُ الرّاعيَةُ

في قولِه تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرأَ نافعٌ وأبو جعفر وعاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ ﴿حَرِجًا﴾ بكسرِ الراءِ، وقرأ الباقونَ

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 202.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/59.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/37.
(5) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 149.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/59.

بفتحِها[1]؛ فمن قرأ بفتح الراء فأراد المصدرَ، ومن قرأ بالكسر فأراد الاسْمَ، فالحَرِجُ بالكسر هو الموضعُ المتكاثفُ الأشجارِ الممتنعُ منَ الرّاعيةِ؛ يُشبهُ صدرَ الكافرِ في عدمِ وصولِ الحِكمةِ إليهِ[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿حَرَجًا﴾:

قَلْبُ الكافرِ كالموضِعِ الكَثيفِ مِنَ الشّجرِ لا تصِلُهُ الرّاعيَةُ

في الكلامِ تشبيهٌ أو استعارةٌ؛ وهو تشبيهُ قلبِ الكافرِ والمنافقِ في عدمِ الانتفاعِ بِهِ ووصولِ الخيرِ إليهِ بالأشجارِ الكثيفةِ الملتفّةِ التي لا تصلُ إليها الرّاعيةُ؛ وحشيةً كانتْ أمْ غيرَها[3].

بَلاغةُ التّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾:

الكافِرُ في ضِيقِهِ مِنَ الإيمانِ كالصّاعِدِ في السّماءِ

قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فقدْ شبّهَ اللّهُ حالَ المشركِ حينَ يُدعى إلى الإيمانِ والإسلامِ بحالِ رجلٍ صاعدٍ في السّماءِ؛ فإنَّ الصّاعدَ تضيقُ نفسُهُ في الارتقاءِ، هذا التَّشبيهُ مُبَالَغَةٌ في ضيقِ صدرِه؛ وهو تشبيهٌ بمنْ يحاولُ عملًا وهوَ غيرُ قادرٍ عليهِ؛ فصعودُ السَّماءِ مثالٌ عَلى انتفاءِ القدرةِ والاستطاعةِ؛ فجاءَ الأسلوبُ تنبيهًا على أنَّ الإيمانَ يمتنعُ معَ الكافرِ كما يمتنعُ الصّعودُ معَ الصّاعدِ[4].

ويحتملُ تشبيهُ الصّاعدِ في السَّماءِ أنْ يكونَ تصاعدُهُ نبوًّا وخروجًا عنِ الحقِّ وتباعُدًا وإعراضًا في الهرَبِ والنُّفورِ منهُ[5] فلا يكادُ يكونُ فيه لِلخَيرِ منفذٌ.

فائدةُ التَّضعيفِ في ﴿يَصَّعَّدُ﴾:

تكرارُ الصُّعودِ مَظنَّةُ الثِّقلِ وعَدَمِ الاستطاعةِ

عندَ التأمُّلِ في الفعلِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ تُلمحُ صورةٌ عَنْ محاولةِ تكرارِ الصُّعودِ مَشوبَةٌ بالثِّقلِ وعدَمِ الاستطاعةِ، وهوَ مِنَ الأوزانِ الدَّالَّةِ

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 268، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/262.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/353، والأزهري، معاني القراءات: 1/384.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2662.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/181، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/183.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/267.

عَلى التَّكرارِ[1]، والصّاعِدُ في قَبولِ الهِدايةِ كَبعضِ الحَشراتِ الَّتي تحمِلُ شيئًا ثقيلًا لِتصعَدَ به عَلى جِدارٍ أملسَ فتفشلُ في محاولاتِها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وكذا الكافرُ أوِ المشركُ يَبقى مُرتجسًا مُضطرِبًا[2].

تَوجِيهُ القِراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَصَّعَّدُ﴾:

الكافرون على أقسامٍ في الضِّيقِ من قَبولِ الإسلامِ

في الفعلِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ثَلاثُ قِراءاتٍ: فقراءَةُ الجمهورِ بِتَشديدِ الصّادِ وتَشديدِ العَينِ، وقرأَ ابْنُ كَثيرٍ ﴿يَصْعَدُ﴾ بإسكانِ الصّادِ وفتحِ العَينِ مخفَّفَةً، وروى أبو بَكرٍ شعبةُ عَنْ عاصمٍ ﴿يَصَّاعَدُ﴾ بتَشديدِ الصّادِ وزيادةِ الألفِ بعدَها وفَتحِ العَينِ مخفَّفةً[3]؛ وقراءَةُ الجمهورِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ مبنيَّةٌ عَلى التَّكلُّفِ في الصُّعودِ[4]؛ وفقًا لما يَحتمِلُهُ الوزنُ (يَتَفَعّلُ) مِنْ مَعنى التَّكلُّفِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تكلُّفًا مَعَ التَّكرارِ بأنْ يتدرّجَ شَيئًا فشيئًا، ومثلُها قراءَةُ شُعبةَ: ﴿يَصَّاعَدُ﴾ في المعنى، أمّا عَلى قِراءَةِ ابْنِ كَثيرٍ: ﴿يَصْعَدُ﴾ بالتَّخفيفِ فتدُلُّ عَلى فِعلِ الصُّعودِ مجرَّدًا مِنْ مَعنى المبالَغَةِ[5].

وفي اجتماعِ هذه المعاني الدّلاليَّةِ للقراءاتِ الثَّلاثِ فإنَّ الآيةَ تدلُّ على أنَّ الكافرين على أقسَامٍ في ضِيقِ صُدورِهم، وفي انْكِماشِ أفئدتِهم عن قَبولِ الإسلامِ.

دَلالةُ لفْظِ السَّماءِ:

السَّماءُ تَحتمِلُ المعنَى المتعارَفَ عليه أو كلَّ ما يَعلُو الأرضَ

ولفظُ ﴿ٱلسَّمَآءِۚ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ بالمعنى المعروفِ لِلسَّماءِ، الَّتي هيَ سَقفٌ لِلأرضِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [الأنبياء: 32]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الجوَّ الَّذي يَعلو الأرضَ،

(1) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/262.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/59.
(5) أبو علي الفارسي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/402.

أي أنَّ لفظَ السَّماءِ يُقالُ لِلفضاءِ الذّاهبِ في ارتفاعٍ، كَما قالَ تَعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النّحل: 79]، وهوَ قريبٌ مِنْ قولِ سيبويه بأنَّهُ الفضاءُ المرتفعُ عَنِ الأرضِ صُعودًا[1]. وفي اصطفاءِ لفظِ صُعودِ السَّماءِ دَلالةُ "كمالِ الهرَبِ والفِرارِ مِنَ الحقِّ"[2].

فائِدةُ تَعدِيةِ فِعْلِ الصُّعودِ بـ (في) دونَ (إلى):

هيئةٌ تخييليةٌ أدخَلُ في المعنى، وتُرشِّحُ تَفسيرَ السَّماءِ بمعنَى الجوِّ

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تَعدَّى الفِعلُ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾، وفي مَعنى هذهِ التَّعديةِ قولان:

الأول: يجوزُ أنْ يكونَ بمَعنى (إلى) الدَّالَّةِ عَلى الغايةِ، فالمعنى: كأنَّهُ بلغَ السَّماءَ الَّتي هيَ سَقفٌ لِلأرضِ، ثُمَّ أخَذَ يصَّعَّدُ في منازِلِها، فتكونُ هيئةٌ تخييليَّةٌ لمحاولةِ الصُّعودِ في السَّماءِ، وهيَ أدخلُ في المعنى وأبلَغُ في دلالةِ تَصويرِ تَكلُّفِ الصُّعودِ وانعدامِ القُدرةِ عَليه.

الثاني: يجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ بمعنى الظَّرفيَّةِ عَلى تَفسيرِ السَّماءِ بمعنى الجوِّ، كَما قالَ تعالى: ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّحل: 79][3].

دِقَّةُ التَّعبيرِ بإفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

المرادُ بالسَّماءِ السَّماءُ الدُّنيا لا جميعُ السَّماواتِ

جاءَ النَّظمُ الكريمُ بالتّعبيرِ بإفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ولمْ يقُلْ: (في السَّماواتِ)؛ وذلكَ أنَّ الآيةَ الكريمةَ تتحدَّثُ عَنِ السَّماءِ الدُّنيا الَّتي يراها النّاسُ، وليسَ عَنِ السَّماواتِ السَّبعِ الَّتي خَلَقَها اللهُ؛ فالسَّماءُ الدُّنيا هيَ الَّتي تحتوي عَلى الهواءِ والغيومِ والنُّجومِ، وهيَ الَّتي يصعُبُ عَلى الإنسانِ صعودُها دُونَ معدَّاتٍ خاصَّةٍ، والمعنى الواردُ في الآيةِ هوَ عَلى التَّشبيهِ لِمَثَلٍ ضربَهُ اللهُ لِقلبِ الكافرِ في شِدَّةِ تَضييقِهِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/365، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/60، ونقلًا عن أبي علي الفارسي، قال ابن عاشور: "أراد أبو عليّ الاستظهارَ بكلامِ سيبويه على أنّ اسمَ السّماءِ يقالُ للفضاءِ الذّاهبِ في ارتفاعٍ (وليست عبارة سيبويه تفسيرًا للآية)".

(2) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/259.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/60.

إيّاهُ عَنْ وصولِ الإيمانِ إليهِ؛ فمَثَلُه في امتناعِهِ مِنْ قَبولِ الإيمانِ وضيقِهِ عَنْ وصولِهِ إليهِ، مثلُ امتناعِهِ مِنَ الصُّعودِ إلى السَّماءِ وعجزِهِ عَنهُ؛ لأنَّهُ ليسَ في وسعِهِ وطاقتِهِ؛ فإذا كان الضَّعفُ والعجْزُ والضِّيقُ الشّديدُ الَّذي جعلَهُ اللّهُ تعالى في قَلبِ الكافرِ حاصِلًا في ارتقاءِ سماءِ النّاسِ الظّاهرةِ لَهُمْ، فكيفَ يكونُ قادرًا عَلى الرُّقيِّ إلى الحقائقِ السَّماويَّةِ في السَّماواتِ السَّبعِ الَّتي خَلَقَها اللّهُ مجتمِعَةً[1]؟!

نُكتةُ الطِّباقِ بينَ الانْشِراحِ والضِّيقِ:

فرقٌ بين الصَّدْرِ المتّسع بالإيمان، والضَّيِّقِ بما دَنَّسَ نفسَهُ وأفسدَ فِطرتَهُ

وقولُه: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾ مطابقٌ لقولِه: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ مِنْ بابِ المطابَقَةِ المعنويَّةِ[2] لاختلافِ لفظِ الفعلِ: ﴿يَشۡرَحۡ﴾ مقابلَ الاسمِ ﴿ضَيِّقًا﴾؛ فالمعنى "بقولِه ﴿يَشۡرَحۡ﴾: يوسّعُهُ بالإيمانِ ويفسِّحُهُ بالنّورِ حتّى يطابقَ قولَهُ ضيّقًا حرجًا"[3]، وهوَ صَدرُ الكافرِ غَيرِ المستعِدِّ لِقَبولِ الإيمانِ بما دنَّسَ نَفْسَهُ وأفسَدَ فِطرتَهُ مِنَ الرَّذائلِ الَّتي تَصرِفُهُ عَنِ التَّأمُّلِ والنَّظرِ فيما يُدْعى إليهِ.

فائدةُ المقابلةِ بينَ الانْشِراحِ والضِّيقِ:

تَسليَةُ الرّسُولِ ﷺ قُبالَةَ عِنادِ الكُفّارِ وغُرورِهِمْ

وقولُه: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾ مقابلَ قولِه: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ مقابَلَةٌ بينَ الهدايةِ والضّلالِ، وممَّا يُفيدُ ذِكرُهُما معًا تسليةُ الرّسولِ ﷺ قبالةَ عِنادِ المشركينَ وكفرِهِمْ وغرورِهِمْ، وهذا إخبارٌ مِنَ الحقِّ ﷻ لرسولِه ألَّا يهتمَّ لِأمرِهِمْ ولا يحزنَ؛ لأنَّ الأمْرَ كلَّهُ للّهِ، يشْرَحُ صَدْرَ مَنْ أرادَ توفيقَهُ فيستنيرُ بنورِ الإيمانِ، ويجعلُ صدرَ غَيرِ المستَعِدِّ لِلإيمانِ ضَيِّقًا حَرَجًا فلا يتّسِعُ لنورِ اللّهِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/337، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2660.
(2) يسمّى الطّباق أو التّضادّ، وهو أن تجمعَ بين معنيين متضادّين أو متقابلين في الجملة. يُنظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/225. فإن كان اللّفظان متطابقَين تمامًا سمّيَ طِباقًا لفظيًّا، وإن كانا متغايرين كالوارد في الآية سمّي طباقًا معنويًّا.
(3) يحيى العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/200.

نُكتةُ تَضْمينِ جُملةِ الشَّرطِ معنَى الإضْلالِ وجَوابِها ضِيقَ الصَّدرِ:

ضُمِّنَتْ جُملةُ الشَّرطِ معنَى الإضلالِ وجوابِها ضِيقَ الصَّدرِ، فمن أصرَّ على الكفرِ وعاندَ، جعل اللّه تعالى نتيجةً لذلك ضِيقَ الصَّدرِ، فضِيقُ الصَّدرِ هو نتيجةُ ضَلالِ العبْدِ.

مَـنْ أصـرَّ على كُفرِه نـادَى على ضِيقِه

بَلاغةُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ "نَعتٌ لِمَصدَرٍ محذوفٍ تقديرُه جَعْلًا مِثلَ ذَلك يَجعلُ اللّهُ"[1]، فالكافُ علَى التَّشبيهِ؛ فمِثلَما جَعَلَ الحَقُّ ﷻ الرِّجسَ عَلَى مَنْ أرادَ إضلالَهُ مِنْ أهلِ هذا الزَّمانِ، يجعَلُ الرِّجسَ عَلى الَّذينَ لا يؤمِنونَ مِنْ أهْلِ كُلِّ زَمانٍ لِدوامِ ضَلالِهِمْ.

الـرِّجْـسُ مُـلازِمٌ لِـمَن لازمَ الكُفرَ اعتقادًا وسُلوكًا

بَلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ:

الآيةُ مِنْ بَلاغَةِ الاحْتِباكِ[2]؛ حَيثُ "ذكَرَ أوَّلًا الضَّلالَ دَليلًا عَلى حَذفِهِ ثانيًا، وذكَرَ الرِّجسَ ثانيًا دَليلًا عَلى حَذفِه أوَّلًا"[3]، وهوَ مِنْ بديعِ الكَلامِ، ومُحكَمِ النَّظمِ الموصِلِ إلى المعنى بِأوجَزِ عِبارَةٍ. فالرِّجْسُ دائِمٌ عَلى مَنْ ضَلَّ، ويَضِلُّ في كُلِّ زَمانٍ.

الـرِّجْـسُ قَـريـنُ الضَّلالِ ولازِمُهُ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يَجۡعَلُ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ: ﴿يَجۡعَلُ﴾ دالٌّ عَلى التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ؛ فإنَّه أرادَ أنْ يَجعَلَ الرِّجسَ والدَّنَسَ عَلى مَنْ لا يؤمِنُ مِنْ أهلِ كُلِّ عَصرٍ ومِصرٍ؛ لِأنَّهُ سبحانَهُ يريدُ أنْ يَضِلُّوا عَلى الدَّوامِ والاسْتِمرارِ؛ فَجاءَ المضارِعُ لإفادةِ مَعنى التَّجدُّدِ، وهيَ سُنَّةُ اللّهِ في كُلِّ مَنْ فسَدَتْ فِطرَتُهُ فانصرَفَ عَنِ الإيمانِ[4].

الضَّلالُ مُتجدِّدٌ ومــاضٍ عَـلى الـدَّوامِ في حياةِ أهْلِ الرِّجْسِ

---

(1) مكّي القيسيّ، مشكل إعراب القرآن: 1/269، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/61.

(2) الاحتباك "وهو نوعٌ عزيزٌ، وهو أن يُحذفَ من الأوّلِ ما أُثبتَ نظيرُه في الثّاني، ومنَ الثّاني ما أُثبتَ نظيرُه في الأوّلِ" يُنظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/204.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/61.

سِرُّ إظهارِ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

أظهَرَ اسمَهُ الشَّريفَ تَعظيمًا وتَخويفًا وتَنبيهًا

أظهَرَ الاسْمَ الجَليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾ وهوَ الفاعِلُ؛ بِما لَهُ مِنَ القُدرَةِ المطلَقَةِ والعَظَمَةِ الباهِرَةِ والمهابَةِ السّامِيَةِ[1]، وفي ذلكَ الإظهارِ تَعظيمٌ وتَخويفٌ وتَنبيهٌ عَلى قُدرَتِه وجَبَروتِه سبحانه.

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ الرِّجْسِ عَلى العذابِ:

الرِّجْسُ عِلَّةُ العَذابِ فهو تحذيرٌ معقولُ المعنَى للعَذابِ

آثَرَ التَّعبيرَ بِلَفظِ الرِّجْسِ، وهوَ ما استُقذِرَ مِنَ العَمَلِ خُبثًا وفَسادًا؛ مُبالَغَةً في ذَمِّهِمْ وتَقريعِهِمْ وقَدْحِهِمْ[2]؛ فإنَّ ما هُمْ عَليهِ مِنَ الاعتقاداتِ والأعمالِ داخِلٌ تَحتَ معنى الرِّجْسِ نَظَرًا إلى مَآلِهِ وهوَ العَذابُ، كما أنَّ الرِّجسَ عِلَّةُ العذابِ، فذكرَ العلَّةَ الملازِمَةَ لهم في الدُّنيا؛ لتكونَ تحذيرًا معقولًا لما سينالُونَه من عذابِ الآخرةِ.

بَلاغةُ المجازِ في حرْفِ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَى﴾:

الرِّجسُ مُتمكِّنٌ مِنَ الكافرينَ مُستَعْلٍ عَلى قُلوبِهِم ظاهِرُ الأثَرِ

والاستِعلاءُ المُستَفادُ مِنَ الحَرفِ ﴿عَلَى﴾ تَعبيرٌ مَجازِيٌّ يَدُلُّ عَلى التَّمَكُّنِ؛ تَمَكُّنِ الرِّجْسِ والدَّنَسِ مِنَ الكافرينَ؛ والمرادُ تمكُّنُه من قلوبِهم وظُهورُ الأثَرِ واضِحًا بَيِّنًا عَلَيهِمْ[3]، وهوَ نَظيرُ قولِه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5] في أنَّ المُهتَدي كالمُتَمَكِّنِ المُستَعْلِي عَلى مَركوبِهِ يُصرِّفُهُ كيفَ يَشاءُ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وحَقيقَةُ وَضْعِهِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

الموصولُ يَعمُّ كُلَّ مَنْ يُعرِضُ عَنِ الإيمانِ ويُصِرُّ عَلى الكُفرِ

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ "لِلإشْعارِ بأنَّ جعلَهُ تعالى مُعلَّلٌ بما في حيِّزِ الصِّلَةِ مِنْ كَمالِ نبُوِّهِمْ عَنِ الإيمانِ وإصرارِهِمْ عَلى الكُفرِ"[4]؛ فيكونُ الاسْمُ الموصولُ عامًّا لِكُلِّ مَنْ يُعرِضُ عَنِ الإيمانِ مِنْ مُشركينَ وغَيرِهِمْ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/487.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/61.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/184.

مِمَّنْ يُدْعى إلى الإسلامِ فلا يَستجيبُ لَهُ؛ كاليَهودِ والمنافقين؛ فَصارتِ الجُملةُ تَذييلًا؛ فاستِعمالُ الموصولِ هُنا جارٍ عَلى مُقتضى الظَّاهِرِ ولَيسَ مِنْ بابِ وضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ(1).

تَوجيهُ التَّعبيرِ بالإسلامِ في مَطْلَعِ الآيةِ والإيمانِ في خِتامِها:

الـشَّـرحُ يـكـونُ لـلإيـمـانِ والإسـلامِ، والرِّجْسُ يَلحَقُّ من لا يُؤمنُ

عبّرَ في مَطلَعِ الآيةِ بِلَفظِ الإسلامِ بقولِه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فلمّا خَتَمَ الآيةَ عبَّرَ بِلَفظِ الإيمانِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ودَلالةُ ذلكَ أنَّ الإسلامَ في مَطلَعِ الآيةِ بمعنى الإيمانِ والإسلامِ، فنبَّه بالظَّاهرِ على الباطنِ، وآيةُ ذلكَ اقترانُهُ بالهدايةِ؛ لِأنَّهُ لو لم يَكُنْ بهذا المعنى لَلَزِمَ حُصولُ الإسلامِ مِنْ دونِ هِدايةٍ؛ وهوَ باطِلٌ، فكلَّما وُجِدَتِ الهدايةُ وُجِدَ الإسلامُ، كَما قالَ تَعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: 22]، أمّا التَّعبيرُ بِلَفظِ الإيمانِ في خاتمَةِ الآيةِ؛ فهو لبيانِ أنَّ اللّه تعالى إنَّما يجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤمنون؛ لأنَّ الإيمان مقدِّمةُ الإسلامِ المقبولِ، فمن لم يُؤمِنْ لم يُسلِمْ على الحقيقةِ، ففي أوّلِ الآيةِ نبَّهَ على النّتيجةِ المطلوبةِ وهي الإسلامُ، وفي نهايتِها ذكَرَ أنَّ الرِّجسَ يُحيطُ بالذين لا يُؤمنون.

إيثارُ لَفْظِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَلى (يَكفُرون):

رَفْـضُ أقـلِّ الإيـمـانِ قـبـولٌ بالرِّجْسِ

عبّرَ عَنِ المجعولِ عَليهِمُ الرِّجسُ بنَفيِ الإيمانِ عَنهُمْ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ مُؤثِرًا إيّاهُ عَلى لَفظِ (يَكْفُرونَ)، وسِرُّ ذلكَ أنَّهُ أرادَ أنْ يَصِفَهُمْ بأقلِّ الأوصافِ الدّالَّةِ عَليهِمْ(2)؛ وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ عدَمَ إيمانِهِمْ سَبَبٌ لِجعْلِ الرِّجسِ عَليهِم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2663.

دَلالةُ نَفْيِ المضارِعِ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

نَفى عَنْهُمْ صِفةَ الإيمانِ بقولِه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بِصيغَةِ المضارِعِ، وفيهِ دَلالةٌ عَلى الدَّوامِ والتَّجدُّدِ؛ فإنَّ كُفرَهُمْ وعَدَمَ إيمانِهِمْ مُتَجَدِّدٌ تَجدُّدَ الآياتِ الَّتي لا تزيدُهُمْ إلَّا كُفرًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرِّجْسُ) و(النَّجَسُ):

الرِّجْسُ هو العَذابُ والنَّجَسُ هو القَذارةُ حِسًّا

الرِّجْسُ عِندَ المعجَميّينَ: كُلُّ ما يُستَقذَرُ، ومِنْ مَخضِ ماءِ البئرِ، واسْتخراجِ الحمأةِ، وهيَ قَذِرةٌ كما هوَ واضحٌ، استُعملَ الرِّجْسُ بِمَعنى (القَذَرِ)، ورجَسَ الرَّجُلُ إذا باشرَ عملًا قَبيحًا[2]، والرِّجْسُ في سِياقِ قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مَعناهُ العَذابُ، وهوَ مُشتَقٌّ مِنَ الارْتِجاسِ بِمعنى الاضْطِرابِ؛ وهوَ ما لا خَيرَ فيهِ، وذَكَروا أنَّ الرِّجْسَ والنَّجَسَ بمعنًى واحدٍ لا يَختلفانِ[3]، غيرَ أنَّ الرِّجْسَ هنا أَلْيَقُ وأوءَمُ، كَمِثلِ قَولِه تَعالى بجامِعِ خَتمِ الآيتينِ بجعْلِ الرِّجسِ عَلى الكفَّارِ: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس: 100] بِمعنى العذابِ الواقعِ عَلى الَّذينَ لا يَستعملونَ عقولَهُمْ في آياتِ اللهِ وحُجَجِهِ الكَونيَّةِ والعَقليَّةِ القُرآنيَّةِ، فَهُمْ لِتعطيلِهِمْ مَنافِذَ المعرِفَةِ وحواسَّهُمُ الهاديَةَ إلى الصَّوابِ، ولاتِّباعِ الهَوى، يُؤثِرونَ الكُفرَ عَلى الإيمانِ[4]، فالنَّجَسُ بِمَعنى القَذَرِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ[5] مادّةً، وربّما استُعملَ مِنْ جهَةِ المعنى مجازًا، دلالةً عَلى النَّجاسةِ المَعْنَويَّةِ، كَقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة: 28]؛ لِنجاسَةِ بَواطِنِهِمْ بِالشِّركِ وعِبادَةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2663.
(2) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 3/718، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رجس).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(4) الزّحيلي، التفسير المنير: 11/273.
(5) ابن سيده، المخصّص: 1/413.

الأوثانِ، ولمْ يُستَعْمَلْ غَيْرُهُ في جَميعِ القرآنِ، وهوَ قَصِيٌّ عَنْ جَعلِ النَّجَسِ بِمعنى العذابِ.

(الصُّعودُ)، و(الارتِفاعُ)، و(العُلُوُّ):

الصُّعودُ ارتِقاءٌ مَكانيٌّ مَشوبٌ بِالمشقَّةِ، والارتِفاعُ قَدْ يَكونُ مَعنويًّا والعُلوُّ يَحمِلُ مَعنَى الاقتِدارِ

استعمَلَ لفظَ الصُّعودِ في قولِه تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ ولمْ يَستَعمِلْ لَفظَ الارْتِفاعِ؛ لأنَّ الصُّعودَ مقصورٌ عَلى الارتفاعِ في المكانِ لا غيرَ، أمّا الارتفاعُ فلا يُشترَطُ ذلكَ، فقدْ يكونُ ارتفاعًا معنويًّا كأنْ يُقالَ: ارتفعَ في المجلسِ[1]، ولمْ يُعبِّرْ بالعُلوِّ؛ لأنَّ مِنْ معاني العُلُوِّ الاقتدارَ[2]، وكِلاهُما لا يتناسَبُ معَ سِياقِ الآيةِ المَبنيِّ عَلى تَشبيهِ الضّالِّ النّابي عَنِ الإسلامِ بمَنْ يباشِرُ صعودًا مكانيًّا مَشوبًا بِالمشقَّةِ والجُهدِ[3] كَأنَّما يَرتقي عَقَبَةً كَؤودًا وليسَ بمستطيعٍ ذلكَ؛ ولِذلكَ عبَّرَ اللّٰهُ عَنِ الكافرِ الَّذي سَيُنيلُه عَذابًا شاقًّا صَعبًا لا يُطاقُ بِقولِه: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدَّثِّر: 17]، كمَنْ يتكلَّفُ صُعودَ أعالي الجبالِ الشّاهِقةِ الوَعِرَةِ؛ كِنايةً عمَّا سيَلقاهُ مِنَ الأهوالِ والشَّدائدِ يَومَ القيامَةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 4/255.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [الأنعام: 126]

الصِّراطُ المستقيمُ أبعدُ ما يكونُ عَنِ الضّالِّ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكرَ إيقاعَ الرّجسِ عَلى الذينَ لا يؤمنونَ مِنْ أهلِ الضّلالِ، كانَ في غايةِ الحسنِ أن يعقبَهُ هنا بالصّراطِ؛ فهو مَرغوبٌ مَطلوبٌ لاستقامتِهِ وإضافتِهِ إلى الرَّبِّ سُبۡحَانَهُۥ، فإنَّ مادَّةَ الرِّجسِ تَدورُ عَلى الاضْطِرابِ؛ ولزومُه العِوَجُ، فالضَّلالُ المانعُ مِنَ الإيمانِ؛ فلمّا كانَ هذا حالَ المُضطَرِبِ الضّالِّ أَتبَعَهُ وصْفَ طَريقِهِ بالاستقامَةِ؛ فهي أبعدُ ما تكونُ عَنِ الاضْطرابِ المُقتَرِنِ بالاعْوِجاجِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَّلۡنَا﴾: فعلٌ مَزيدٌ بالتَّضعيفِ، جذرُهُ اللُّغويُّ (فصل)، ومعنى الفَصلِ أنْ تُفرِّقَ بينَ شَيئَينِ حتّى يتبايَنا، وأنْ تُميِّزَ شَيئًا مِنْ شَيءٍ؛ فيتبَيَّنَ أحدُهُما مِنَ الآخَرِ، فالتَّفصيلُ: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، وتفصيلُ الآياتِ تَبيينُها وتَمييزُها الواحدةَ مِنَ الأُخرى[2]. ومعنى ﴿فَصَّلۡنَا﴾ في الآيةِ، أي: بيَّنّا ومَيَّزنا الآياتِ والحُجَجَ عَلى حقيقةِ ذلكَ وصَوابِهِ[3].

2) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: فعلٌ مضارِعٌ دالٌّ عَلى الحالِ والاستقبالِ مُسنَدٌ إلى الجَماعَةِ، والجذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (ذكر)؛ والذِّكرُ: الحِفظُ لِلشَّيءِ، وجَرْيُ الشَّيءِ عَلى اللِّسانِ، ولِهذا الجذرِ أصلانِ في المعنى؛ أحدُهُما مِنَ التَّذكُّرِ، وهو خِلافُ النِّسيانِ؛ فحمَلوا عَليهِ الذِّكرَ باللِّسانِ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/264.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فصل).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/113.

فَالذِّكْرُ إذَنْ تَمكينُ الإنسانِ اسْتِحضارَ الشَّيءِ مِنَ القَلبِ، وكَثيرٌ مِنْ صيَغِ (التَّذكير) و(التَّذكُّر) تكونُ نَقيضَ النِّسيانِ، ولمعنى الوَعْظِ، وهوَ مِنهُ؛ لأنَّهُ إذا تذكَّرَ قَدْ يَرتدِعُ عَمّا هوَ مُقبِلٌ عَلَيهِ[1]. ومعنى ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ في الآيةِ: لِمَنْ يتذَكَّرُ بهذهِ الآياتِ ويَتَّعِظُ بِما فيها مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

كـلُّ ديـنٍ سـوى الإسلامِ فسِمَتُه الاعْـوجـاجُ والالْتِواءُ

وهذا الدِّينُ الَّذي شَرعناهُ لكَ - أيُّها الرَّسولُ - صِراطُ ربِّكَ؛ الإسلامُ الَّذي بَعثَكَ بهِ لإقامَةِ العُبوديَّةِ، بِكَونِهِ مُستقيمًا بنظَرِ العُقولِ الرّاجِحَةِ، والفِطَرِ السَّليمَةِ، والَّذي يَشْرَحُ لهُ صَدْرَ مَنْ يريدُ هِدايتَهُ؛ وهوَ السَّبيلُ السَّويُّ وما عَداهُ مُعوَجٌّ مُلتوٍ بِما فيهِ مِنْ زَيغٍ وفسادٍ[3]، قَدْ بيَّنّا الآياتِ الواضِحَةَ والحُجَجَ المُثْبَتَةَ أُصولَهُ الرّاسِخَةَ، لِقَومٍ يَتذكَّرونَ كُلَّما عَرَضَتِ الحاجةُ إليهِ؛ لِيزدادوا إيمانًا ورُسوخًا وإذْعانًا ومَوعِظَةً.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوَصْلِ في الآيَةِ:

مُتَّبِعُ القُرآنِ لا يَجِدُ مَشَقَّةً ولا نَصَبًا

قولُهُ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًاۗ﴾ الآيةُ مَوصولَةٌ بِما قبلَها بِالعَطفِ عَلى قولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، فهوَ تَمثيلٌ؛ فإنَّ حالَ المُهتَدي بِصِراطِ اللهِ المستَقيمِ أنَّهُ لا يَنْصَبُ ولا يَتعَبُ في اتِّباعِهِ؛ فهوَ واضِحٌ صافٍ، وهوَ ضِدُّ حالِ الضّالِّ الَّذي وصَفَهُ رَبُّ العِزَّةِ بِأنَّهُ يَصَّعَّدُ في السَّماءِ؛ والعَطفُ فيهِ إشارَةٌ إلى أنَّها مَقصودَةٌ بالإخبارِ[4].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذكر).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/156.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/26.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ:

الإسلامُ قائمٌ حاضِرٌ يُشارُ إليه

اسْمُ الإشارةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ﴾؛ لِلتَّنبيهِ إلى معنًى ماثِلٍ في الذِّهْنِ والعَقلِ؛ وهوَ الدِّينُ أو الإسلامُ[1] بِدَلالةِ قَولِهِ قَبلَهُ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾.

ويَجوزُ في اسْمِ الإشارةِ أنْ يكونَ مَعناهُ البَيانَ الَّذي نزَلَ بِهِ القُرآنُ الكَريمُ، أو فيهِ إشارَةٌ إلى ما سَبَقَ ذِكرُهُ مِنَ التّوفيقِ والخِذْلانِ[2] في هِدايَتِهِ تَعالى بَعضًا مِنْ خَلْقِهِ وإضلالِ بعضِهِمُ الآخَرِ.

التَّعبيرُ بالصِّراطِ المستقيمِ بينَ الاستعارةِ والتَّشبيهِ:

الدِّينُ يُشاكِلُ الصِّراطَ؛ فَكِلاهُما طَريقٌ مُفْضٍ إلى المُرادِ

والصِّراطُ المستقيمُ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ هوَ الدِّينُ القَويمُ والقُرآنُ العَظيمُ[3]، واسْتِعمالُ ﴿صِرَٰطُ﴾ هوَ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حَيثُ إنَّ حَقيقةَ الصِّراطِ هيَ الطَّريقُ الواسِعَةُ؛ فاستعارَهُ لِلعمَلِ الموصِلِ إليهِ تَعالى[4]، فالاثنانِ موصِلانِ إلى الغايةِ والهدفِ؛ وهو رِضا اللّهِ تعالى.

سِرُّ تَعريفِ الصِّراطِ بِالإضافةِ:

وِجهَةُ الصِّراطِ ربُّ العالمينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى

تَعريفُ الصِّراطِ بالإضافةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ لِلدَّلالةِ عَلى كَونِهِ واضِحًا جَليًّا، ثُمَّ إنَّ إضافَتَهُ إلى الرَّبِّ لأنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ تَعالى[5]، وفيهِ تَعظيمُ شَأنِ المُضافِ وهوَ الصِّراطُ؛ لِيُعلَمَ أنَّهُ خَيرُ صِراطٍ وأفضَلُ طَريقٍ[6].

مُناسَبَةُ الحَديثِ عَنِ الهِدايَةِ معَ لَفظِ الرُّبوبيَّةِ:

مُقْتضَى الرُّبوبيَّةِ الهِدايَةُ

ذكرَ في الآيةِ السّابقَةِ لَفظَ الهِدايةِ بِقولِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، لكنَّهُ هُنا ذكرَ لَفظَ الرُّبوبيَّةِ:

---

(1) رضا، تفسير المنار: 8/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/182، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ وذلكَ لأنَّ مُقْتَضى الرُّبوبيَّةِ الهِدايةُ[1]، وآيةُ ذلكَ كَثرةُ اقْتِرانِ الهِدايَةِ بلَفظِ الرَّبِّ، كَما في أمِّ الكِتابِ بقَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:2] ثُمَّ قَولِه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:6]، وقَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:5].

نُكتَةُ اصْطِفاءِ الرُّبوبيَّةِ دونَ غَيرِها:

الـرَّبُّ اسْـمٌ جامعٌ للعَطْفِ والإحـسـانِ والرِّفقِ ونَحوِها

ودلالَةُ اصْطفاءِ الرُّبوبيَّةِ في قَولِه: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ لِما في الاسْمِ - معَ استِجماعِ الكَمالاتِ كُلِّها - مِنْ صفَةِ الرَّحمةِ، واللُّطفِ، والإحْسانِ، والرِّفْقِ[2]، وقد جاءَتْ في سورَةِ الشّورى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشُّورى: 53]، فلمّا كانَ موضِعُ الأنعامِ تذكيرًا بمعاني الرُّبوبيَّةِ مِنْ خَلْقٍ ورزقٍ وإنعامٍ وهدايةٍ ومَلَكوتٍ ناسَبَ المجيءُ بِلَفظِ الرُّبوبيَّةِ؛ فهو الرَّبُّ الهادي المتَصرِّفُ في قُلوبِ عبادِه، و﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: 53] يعني "صِراطِ شَرعِ اللّهِ ورَحمتِه وجَنَّتِه؛ فبِهذا الوَجهِ ونَحوِه مِنَ التَّقديرِ أُضيفَ الصِّراطُ إلى اللّهِ تَعالى"[3]، والغَرَضُ مِنَ الإشارةِ إلى الأُلوهيَّةِ في سياقِ سورةِ الشّورى هوَ إبطالُ قَوْلِ مَنْ يَعْبُدُ غيرَ اللّهِ[4].

تَوجيهُ الإضافةِ إلى ضَميرِ المخاطَبِ ﴿رَبِّكَ﴾:

إضـافَـةُ الـكـافِ تَشريفٌ وتَرضيةٌ لـلـرَّسُـولِ ﷺ وتَسْليةٌ لَهُ

وإضافةُ الرَّبِّ إلى كافِ الخطابِ العائدِ عَلَيهِ ﷺ في قولِه تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ فيهِ تَشريفٌ للمُضافِ إلَيهِ؛ وهوَ الرّسولُ ﷺ، وتَرضيَةٌ وتَسليَةٌ لَهُ، وفيهِ بيانٌ لِسُنَّةِ اللّهِ تعالى في أنَّ بَعضَ النّاسِ مُعْرِضونَ عَنِ الهِدايةِ، غَيرُ متَّبِعينَ لِهذا الصِّراطِ المستَقيمِ[5]،

(1) فاضل السّامرّائي، لمسات بيانية، ص: 33.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.

وشَرَفُ انتسابِ النبيِّ ﷺ إلى هذا الصِّراطِ يُبيِّنُ أنَّ الهِدايةَ تحصُلُ بإرشادِهِ ﷺ، وقَدْ بَيَّنَ اللّهُ تَعالى في سورَةِ الشُّورى أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوتِيَ مَفاتيحَ الهِدايةِ والإرشادِ إلى هذا الصِّراطِ، فَقالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشُّورى: 52 - 53].

بيانُ التَّعبيرِ بالحالِ المؤكِّدَةِ ﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾:

صِراطُ اللّهِ لا يكونُ إلّا مُستَقيمًا

و﴿مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ مَنصوبٌ عَلى الحاليَّةِ[1]، وهذِهِ الحالُ يُقالُ لَها: الحالُ المؤكِّدَةُ[2] لا المتغيِّرةُ؛ فصِراطُ اللّهِ ليسَ مُتَرَدِّدًا بينَ التَّحوُّلِ والثَّباتِ، فلمْ يأتِ بها لِلتَّفريقِ بينَ الأمرَينِ؛ فصِراطُ اللّهِ مستَقيمٌ أبدًا[3]، وهيَ لَيستْ مُتَحَوِّلَةً مِنْ حالٍ إلى حالٍ، كَقولِنا: جاءَ زيدٌ راكِبًا، فيُحتَمَلُ في حالٍ أُخرى أنْ يأتيَ ماشِيًا، أو مَحمولًا، بلِ الحالِيَّةُ في السّياقِ الكَريمِ مؤكِّدَةٌ لِمَعنى إضافَتِهِ إلى اللّهِ[4].

ولَمّا كانتِ الحالُ مُتَغيِّرَةً بينَ أنْ يكونَ الشَّيءُ وأنْ لا يكونَ، هذا أصلُها، وصِراطُ اللّهِ لا يكونُ إلّا مستَقيمًا، فهوَ قَصيٌّ عَنِ التَّغيُّرِ؛ فلذلكَ عبَّرَ بِهِ هنا عَلى الحاليَّةِ المؤكِّدةِ؛ دَفعًا لِمَظِنَّةِ ظانٍّ أنْ يكونَ الصِّراطُ غيرَ مستَقيمٍ؛ فتصِحُّ الحالُ عَلى هذا المعنى.

إيثارُ لفظِ (المستَقيمِ):

الاسْتِقامةُ اختصارٌ للجُهودِ والأوقاتِ

وصْفُ الصِّراطِ بالمستَقيمِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ هوَ سُرعَةُ وُصولِ سالكِهِ إلى طَريقِ الحقِّ بِأقلِّ وقتٍ ومَجهودٍ؛ فإنَّ الخطَّ "المستَقيمَ يَصِلُ إلى الحَقِّ بِأقلِّ طَريقٍ"[5].

(1) العكبري، التّبيان: 1/538.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/62.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/76، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/70.
(4) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/758.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2664.

وسُمّيَ مُستقيمًا لِأنَّهُ يَستقيمُ بِمَنْ يَسيرُ فيهِ ويَسْلُكُهُ، فلا يَنحَرِفُ ولا يَعْوَجُّ حتّى يَصِلَ بِهِ إلى الجنَّةِ[1].

تَوجيهُ المتَشابهِ اللَّفظِيِّ بينَ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، و﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾:

ما جاءَ في الفاتحةِ تَعليمٌ للأمَّةِ وما جاء في الأنعامِ فخاصٌّ بِسيّدِ الأنامِ

قَولُهُ تعالى في أمِّ الكِتاب: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ٦﴾ [الفاتحة: 6] وهُنا ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ فيُسأَلُ عَنِ الفَرْقِ بَينَ التَّعبيرَين؟ والجوابُ عَنْ ذلِكَ: أنَّ سياقَ الفاتِحَةِ سياقٌ عامٌّ مُوَجَّهٌ إلى الأُمَّةِ ابْتِداءً؛ فالصِّراطُ المستقيمُ ما شهِدَتْ بِصِحَّتِهِ أماراتُ التَّوحيدِ، وأشارَتْ عَلَيهِ شَواهِدُ التَّحقيقِ[2]، أمّا في سورة الأَنْعامِ فالخِطابُ لِلرَّسولِ ﷺ؛ فهذا الَّذي أنتَ عَلَيهِ هوَ الطَّريقُ المستَقيمُ، وهوَ الإسلامُ[3]، فتَضَمَّنَ الخطابُ التَّشريفَ والتَّسليَةَ عَنْ ضَلالِ بَعضِ مِنَ النَّاسِ؛ وذلكَ ممّا كانَ يَحزُنُهُ ﷺ مِنْ قولِهِمْ وحالِهِمْ.

دَلالةُ تحقيقيَّةِ (قَدْ):

تفصيلُ الآياتِ جاءَ على وَجْهِ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ

قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا﴾ مُتَضَمِّنٌ الحَرفَ ﴿قَدۡ﴾؛ وهوَ حَرفٌ يُفيدُ التَّحقيقَ والتَّوكيدَ[4]؛ فَحرفُ ﴿قَدۡ﴾ يُفيدُ تَحقيقَ الفِعلِ؛ فَهيَ معَ الفِعلِ بِمنزلَةِ (إنَّ) معَ الأسماءِ، ومعنى ذلكَ أنَّ تَفصيلَ الآياتِ، وبيانَ الحُجَجِ والدَّلالاتِ - لِمَنْ يذَّكَّرُ - أمرٌ مُؤَكَّدٌ قائِمٌ بِالشَّواهِدِ والدَّلائِلِ لا شَكَّ فيهِ.

بَلاغَةُ الالتفاتِ مِنَ الخِطابِ إلى الغيبَةِ، ومِنْ ضَميرِ الإفرادِ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ:

تَعظيمُ مَقامِ الرَّسولِ خِطابًا، والإخبارُ عنِ المُذَّكِّرينَ غَيبَةً

في قَولِهِ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ التِفاتٌ[5] مِنَ الخِطابِ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى الغيبَةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛

---

(1) أبو بكر الحدّاد، تفسير الحدّاد: 3/88.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/50.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/159.

(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/220.

(5) الالتفات "انصرافُ المتكلّمِ عن المخاطبةِ إلى الإخبار، وعنِ الإخبارِ إلى المخاطَبة، وما يشبهُ ذلك، ومنَ الالتفاتِ الانصرافُ عن معنًى يكونُ فيه، إلى معنًى آخر"، يُنظر: ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 152.

تَنويعًا في الخِطابِ، وتَنبيهًا وتَطريَةً لفِكرِ السّامِعِ، وصيانَةً لَهُ مِنَ السّآمَةِ والضَّجَرِ[1]، وكَسْرًا لأُفُقِ التَّوقُّعِ لَديهِ؛ ولأنَّ المخاطَبينَ بِما فصَّلَ لَهمُ الآياتِ فَإنَّهمْ يَذَّكّرونَ بِما احتَجَّ عَلَيهِمْ مِنَ الآياتِ والعِبَرِ مِنْ غَيرِ حاجَةٍ إلى تَوجيهِ الخطابِ لَهُم، أمّا انتقالُهُ مِنْ ضَميرِ الإفرادِ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ ﴿فَصَّلْنَا﴾ فَلِقَصْدِ التَّعظيمِ والإجلالِ[2]، وتَعظيمِ الحقِّ ﷻ، وبَيانِ ارتِفاعِ مَنزلَتِهِ، وإدخالِ المَهابَةِ في نُفوسِ المخالِفينَ.

صِيغةُ التَّعبيرِ بالفاصِلَةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ دونَ (يَتذكَّرون)، و(تَذَكَّرون):

للسّياقِ أثرٌ في اخْتِيارِ الصِّيغَةِ الملائِمَةِ للمعنَى

في فاصِلَةِ الآيَةِ: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ خَتَمَ بِقولِهِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ غَيْرَ أَنَّكَ تَجِدُ آياتٍ أُخرى - مِنَ المادَّةِ نفسِها - خَتَمَها بِصِيَغٍ فِعْلِيَّةٍ تَختَلِفُ قَليلًا عَنْ هذهِ الصّيغَةِ، وَهذا الاخْتِلافُ القَليلُ يَحمِلُ خلفَهُ معنًى كبيرًا، ومِنْ ذلكَ قولُهُ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ [الأنعام: 80] فجاءَ بِصيغَةِ ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءَينِ، فسياقُ الآيةِ في مُحاجَجَةِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام قومَهُ، وهمْ أناسٌ عَريقونَ في الشِّرْكِ والوَثنِيَّةِ؛ فَهُمْ بِحَاجَةٍ ماسَّةٍ مُؤَكَّدَةٍ إلى التَّذَكُّرِ وإدامَةِ الفِكرِ والتَّأمُّلِ؛ فوجَّهَ إِلَيهِمْ فِعلَ التَّذكُّرِ كامِلًا مِنْ غَيرِ حَذْفٍ أَوْ تَقصيرٍ[3]، وليسَ الموضِعُ هُنا مقامَ اختِصارٍ واقتِصارٍ في سياقِ مُناظَرةِ الخَليلِ عليه السلام لقَومِهِ، كما هوَ الحالُ في هذا الموضِعِ ذي الصِّيغَةِ المختَصَرةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ فإنَّ اللّهَ تعالى بيّنَ لهمْ أحكامَهُ وفصَّلَ لَهمْ شرائعَهُ، وميَّزَ لهُمُ الخيرَ مِنَ الشَّرِّ، وكلُّ ذلكَ لهؤلاءِ الذينَ عَلِموا فانتفَعوا بعِلمِهِمْ[4] مِنْ غيرِ

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/248.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.
(3) فاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 17.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 273.

احتياج إلى طولِ تَأمُّلٍ أو كثيرِ تَفَكُّرٍ وتذكُّرٍ، وكذا الحالُ مَعَ الفعلِ (يَتذكَّرون) فإنَّ وقتَ التَّذكُّرِ هنا أطولُ زمنًا مِنْ (يذَّكَّرون) بجامعِ الصّيغةِ الأطولِ.

عِلّةُ الإدْغامِ والتَّعبيرِ بالمضَارعيَّةِ:

وقَولُهُ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ وصَفَ هؤلاءِ بالتَّذَكُّرِ بصيغةِ الفعلِ المُدغَمَةِ؛ لِأنَّهمْ "يُجهدونَ أنفُسَهمْ في التَّخلُّصِ مِنْ شوائبِ العقلِ وعَوائقِه؛ مِنَ الهوى وغيرِه، ولوْ عَلى أدنى وُجوهِ الاجْتهادِ بما يُشيرُ إليهِ الإدغامُ"[1] الدّالُّ عَلى الاخْتصارِ في صيغَةِ الفِعلِ المناسبِ لِحالِهمْ، والتَّعبيرُ بالفِعلِ المضارِعِ لحاجَةِ الإنسانِ أنْ يكونَ مُتذَكِّرًا عَلى جِهةِ الدَّوامِ والاستمرارِ.

المُـذّكِّــرُ مَـنْ يُـجـهـدُ نفسَهُ فِي الـتّـخـلُّـصِ مِـنَ الـشَّـوائـبِ والأهواءِ

نُكتَةُ تَخصِيصِ القومِ بالذِّكرِ:

وفي قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ خصَّصَ هؤلاءِ القَوْمَ بالذِّكرِ بقولِهِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ ونكتَتُهُ أنهمُ المنتَفِعونَ المستَفيدونَ مِنْ ذلكَ التَّفصيلِ، وقَدْ أفادَتْهُمُ الآياتُ فتذكَّروا بها[2] بِقولِهِ: ﴿فَصَّلۡنَا﴾، فناسَبَ تخصيصُ الذِّكرِ التَّفصيلَ.

المُـذّكِّــرون هم أهـلُ الـعُـقـولِ الـرّاجِـحَــةِ والـتَّـمْـيِـيـزاتِ الواضِحَةِ

وخَصَّ بها الموصوفينَ بالتَّذكُّرِ؛ "لأنَّهمْ همْ أَهلُ التَّمييزِ والفَهْمِ وأولُو الحِجَا والفَضْلِ"[3] في أنَّهمْ يتَّعِظونَ بالمواعِظِ، ويقبَلونَ الدَّلائلَ والحُجَجَ، ولا يكابِرونَ؛ ويَدْرؤونَ ما يورَدُ عليهِمْ مِنَ الأوهامِ والشُّبُهاتِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الصِّراطُ)، و(الطَّريقُ)، و(السَّبيلُ):

الصِّراطُ هوَ الطَّريقُ السَّهلُ المُيَسَّرُ عَلى سالِكِه، وهوَ الطَّريقُ المذَلَّلُ؛ والذُّلُّ نَقيضُ الصَّعبِ، أمّا الطّريقُ فليسَ شرطًا أن يكونَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/63.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/113.

الصِّراطُ ما كانَ سهلًا مُيَسَّرًا مُذَلَّلًا لِسالِكِه، ولَيسَ كَذلكَ الطَّريقُ؛ والسَّبيلُ اسْمٌ عامٌّ يَقَعُ عَلى الطَّريقِ وعَلى غَيرِه

سهلًا، بلْ قدْ يكونُ شاقًّا غيرَ مُعبَّدٍ وغيرَ مُهيَّأً للسَّيرِ فيهِ، أمّا السَّبيلُ فهوَ اسْمٌ عامٌّ يقعُ عَلى الطَّريقِ وعَلى غَيرِ الطَّريقِ، فتقولُ: (سبيلُ اللّهِ وطريقُ اللّهِ)، ويُقالُ: سبيلُكَ أنْ تفعلَ كَذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أنْ تفعلَ كَذا، والسَّبيلُ يكونُ كِنايةً عَنِ القصْدِ، وأكثرُهُ يكونُ في الخَيرِ، والطَّريقُ ليسَ كَذلكَ[1]، وقدِ اختارَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بِالصِّراطِ مُؤثِرًا إيّاهُ عَلى الطَّريقِ والسَّبيلِ؛ لِما ذُكِرَ مِنْ سهولَتِهِ وتَيسيرِه، ولِأنَّهُ "صِراطٌ بَليغٌ في اسْتِقامَتِهِ جامِعٌ لكلِّ ما يجبُ أنْ يكونَ عَلَيهِ، وأصْلُ لِمَرتَبةٍ يَقْصُرُ عَنها التَّوصيفُ"[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/248.

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢٧﴾

[الأنعام: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ثمرةُ الإسلامِ تحصيلُ السّلامةِ والنّجاةِ منَ النّار

لَمّا كانَ التَّذكُّرُ بما فصَّلَ منَ الآياتِ لا يكونُ إلّا لِمَنْ أفاضَ اللّهُ عَلَيهِ منَ العِنايات، ورغَّبَهُ في طُرقِ الهِدايات، ذكَرَ مُرغِّبًا في التَّذكُّرِ أنَّ لَهُمُ الجنَّةَ الَّتي أضافَها إلَيهِ سبحانَهُ زيادةً في التَّرغيب(1)؛ فطريقُ الحقِّ قَدْ بانَ لِكُلِّ ذي بَصيرةٍ، ومنهَجُ الاستِقامةِ الَّذي يُرضي اللّهَ قَدْ تَجلَّى لِكُلِّ ذي بَصَرٍ؛ فمَنْ قَبِلَهُ فلَهُ دارُ السَّلامَةِ، ومَنْ أعرَضَ عَنهُ فلَهُ عَذابُ النّارِ، فالمناسبةُ بين الآيتين أنَّ السَّابقةَ تحدَّثت عن صراطِ اللّه في الدُّنيا وهو الإسلامُ، وفي هذه الآية تناولتْ ثمرةَ صِراطِ اللّه وهي الجنَّةُ التي عُبِّرَ عنها بدارِ السَّلامة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَارُ﴾ الدّار: اسمٌ مجَّردٌ؛ الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (دَوَر)، وهوَ أصْلٌ يدلُّ عَلى إحداقِ الشَّيءِ بِالشَّيءِ مِنْ حوالَيه، ومِنهُ الدّارُ؛ وهوَ الموضِعُ الَّذي يَحِلُّ بهِ النّاسُ، وهوَ اسمٌ جامِعٌ لِما اشتمَلَ عَلى البِناءِ ولِما خَلا مِنهُ، وسُمّيَتْ كذلكَ لِدوَرانِها عَلى أهْلِها وإحاطَتِها بِهِمْ، وتُسمّى الدّنيا دارًا والآخرَةُ دارًا بِاعتبارِ النَّشْأةِ والمُستَقَرِّ، وأكثرُ ما ورَدَ في القرآنِ مُضافًا فهوَ بِمعنى الدّارِ الآخرةِ(2)، والدّارُ أعظَمُ مِنَ البَيتِ؛ إذِ البَيتُ مكانُ البَيتوتَة.

2) ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾: اسمٌ مجَّردٌ، الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (سلم)، ومِنهُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دور)، والرّاغب، المفردات: (دار)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (دور) وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دور - دير).

السِّلمُ نَقيضُ الحَربِ، واشتُقَّتْ مِنهُ السَّلامةُ، وأكثرُ ما يَرِدُ مِنَ السّينِ واللّامِ والميمِ فهوَ عَلى معنى الصِّحَّةِ والعافيَةِ؛ والسَّلامُ مِنْ أسمائِهِ تَعالى؛ لِسلامَتِهِ ممّا يَلحَقُ المخلوقينَ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ والعُيوبِ؛ فالسَّلامَةُ "التَّعرِّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ"(1).

و﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسمٌ مُركَّبٌ تركيبًا إضافيًّا، وفَحواها مُستَقَرُّ الإنسانِ، وأضافَ الدّارَ إلى السَّلامِ، أي: دارِ السَّلامَةِ؛ فمَنْ يَصِرْ إلَيها يَسلَمْ مِنْ آفاتِ الدُّنيا وعَذابِ الآخرةِ(2).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

السّالِكُ صِراطَ اللهِ المستَقيمَ جَزاؤُهُ الجنَّةُ، واللهُ مَولاهُ في الدُّنيا والآخرةِ

يُخبِرُ الحَقُّ ﷻ أنَّ الجَنَّةَ هيَ لِهؤلاءِ الَّذينَ سَلَكوا صِراطَ رَبِّهِمُ المستَقيمَ، واقتفَوْا آثارَ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وسَلِموا مِنَ الانحِرافِ؛ فكانَ جَزاؤُهُمْ دارَ السَّلامِ بِما أسْلَفوا مِنْ أعمالِهِمُ الصّالحاتِ؛ فَيتَوَلّى اللهُ السَّلامُ رِعايتَهُمْ وعِنايتَهُمْ، ويوَفِّقُهُمْ في الدُّنيا، ويَتَوَلّاهُمْ في الآخِرَةِ بِأنْ يُنيلَهُمُ الثَّوابَ ويُدْخِلَهُمْ جَنّاتِ النَّعيمِ(3)؛ جَزاءً عَلى صالِحِ أعْمالِهِمْ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَوجِيهُ الإعرابِ بينَ الاستئنافِ والحاليَّةِ، والوصْفيَّةِ:

دارُ السّلامِ جَزاءُ المؤمنينَ وصْفًا وحالًا واستقرارًا

قولُهُ تَعالى: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الضَّميرُ في ﴿لَهُمۡ﴾ راجِعٌ إلى الموصوفينَ بِأنَّهُمْ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، والجُملةُ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ سؤالٍ مُتَصَوَّرٍ عَمَّنْ فُصِّلَتْ لَهُمُ الآياتُ فتذَكَّروا بها؛ فما أثرُ ذلكَ عَلَيهِم؟ والجوابُ أنَّ اللّهَ تَعالى أعَدَّ لَهُمْ دارَ السَّلامِ جَزاءً لهُمْ(4)، ويجوزُ أنْ تَكونَ الجُملةُ صِفَةً لِلقومِ المارِّ ذِكرُهُمْ في الآيةِ السّابِقةِ؛

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلم).

(2) المجاشعي، النّكت في القرآن الكريم، ص: 250.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/26.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/63، وابن عادل، اللباب: 8/426.

وهُمُ المدوحونَ بِالتَّذكُّرِ[1]، وتَحتمِلُ أَنْ تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾[2]، أي: حالُهُمْ يومَ القِيامَةِ أنَّ لَهُمْ دارَ السَّلام.

بَلاغَةُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملةِ (لَهُمْ):

خَصَّ الله الجنَّةَ بأهلِها كرامةً وجزاءً

الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ تَعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ خَبَرٌ مُتقدِّمٌ جَوازًا وحقُّهُ التَّأخيرُ؛ لأنَّ المعنى: دارُ السَّلامِ لهُمْ، لكنَّهُ قدّمَهُ هُنا لإفادةِ معنى الاختِصاص، فإنَّ هَذهِ الدّارَ لِلقَومِ المَوصوفينَ بأنَّهُمْ يذَّكَّرونَ فَهيَ لهُمْ وحدَهُمْ لا لِغَيرِهِم[3]، مِنْ بابِ الحَثِّ لَهُم والتَّهييجِ عَلى اِلْتِزامِ الصِّراطِ المستَقيم.

إضافةُ الدّارِ إلى اسْمِ اللهِ السَّلامِ:

شَرُفَتِ الدّارُ وعَظُمتْ بإضافتِها إلى (السَّلامِ)

لفظُ السَّلامِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ مِنْ أسمائِهِ تَعالى لِقَولِهِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23] فالسَّلامُ هوَ اللهُ تَعالى، وقَدْ أُضيفَتِ الدّارُ هُنا إلى اسْمِهِ تَعالى تَشريفًا وتَعظيمًا، كَما يُقالُ لِلكَعبَةِ: بَيتُ اللهِ، ولِلرَّسولِ ﷺ: إنَّهُ عَبدُ اللهِ[4].

عِلَّةُ إيثارِ اسْمِ السَّلامِ عَلى غَيرِهِ:

مَزِيَّةُ السَّلامةِ لا تكونُ إلّا في الجنَّةِ

يَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسمَ الجنَّةِ، كَقَولِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، وآثَرَ اسْتِعمالَ اسْمِ السَّلامِ عَلى الجنَّةِ في هَذا المَوضِعِ: ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ لِأنَّها دارُ السَّلامَةِ يَسلَمُ فيها المرءُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وبَلِيَّةٍ وآفَةٍ ومَكروهٍ؛ مُشتَقَّةٌ مِن اسْمِهِ السَّلامِ الَّذي سلَّمَها وسَلَّمَ أهلَها مِمّا يَخافونَهُ[5]، ولَمّا كانَتْ كَذلكَ فإنَّ ما فيها مِنَ المُتَعِ والإمكاناتِ ما يَكونُ على قدرِ المُضافِ إليهِ وهوَ الحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وقدْ آثَرَ

(1) العكبري، التبيان: 1/538، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/690.
(2) الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده: 4/140.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/63، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3937.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/156، والزمخشري، الكشّاف: 2/64.
(5) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 513، وابن عادل، اللّباب: 8/427.

لَفْظَ السَّلام عَلى أيِّ لَفظٍ آخَرَ تَقريرًا لَهُمْ أنَّ الخُلودَ فيها مُقترِنٌ بِالسَّلامِ والأَمْنِ والطُّمَأنينة(1).

ولاستِعْمالِ اسْمِ السَّلام عَلى الجنَّةِ في هذا الموضعِ عِلَّةٌ أُخرى؛ فَسَلامَتُها دائمَةٌ، وجميعُ أحوالِها مُقترِنَةٌ بالسَّلامَةِ مِنْ لَدُنْ دُخولِها: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]، وتحيَّةُ الملائكةِ فيها ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: 23 - 24]، وتَحيَّتُهُمْ بَينَهُمْ في الجنَّةِ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞ﴾ [يونس: 10]، وأنَّهُمْ لا يَسمَعون فيها إلّا سَلامًا ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: 62]؛ فَمعاني السَّلامةِ وأنواعُها تدورُ حَولهَا وحاصِلَةٌ بأسْرِها فيها(2).

وصَفَ الحقُّ ﷻ الجنّةَ بدارِ السَّلامِ؛ لِسلامَةِ المُجازَينَ بها فيما سَلَكوا مِنَ الصِّراطِ المُستَقيم واقتِفائِهِمْ أثَرَ الأنبياءِ المُفْضي إلَيها؛ فمِثلَما سَلِموا مِنْ آفاتِ الانحِرافِ والاعوِجاجِ فقَدْ أفضَوْا إلى الجنَّةِ دارِ السَّلام(3).

بَديعُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ العِنديَّةِ:

العِنْديَّةُ مُشْعِرَةٌ بِالقُربِ تَكريمًا وشرَفًا ورفعةً

وقَولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾: وَصَفَ الحقُّ ﷻ جَزاءَ الَّذينَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بِالعِنْديَّة، وهيَ مَنزِلَةٌ رَفيعَةٌ، والتَّعبيرُ بها مُشعِرٌ بأنَّ ذلكَ الجزاءَ الَّذي ادُّخِرَ لَهُمْ مَوصوفٌ بِقُربِهِ مِنَ الحقِّ ﷻ، وهوَ قربٌ لا عَلى جِهَةِ المكانِ، إنَّما عَلى جِهَةِ الشَّرَفِ والعُلُوِّ، وفي ذلكَ دَلالَةٌ عَلى أنَّ هذا التَّكريمَ والقُربَ قدْ بَلَغَ مِنَ الكمالِ والرِّفعَةِ والمنزِلَةِ ما لا يَعلَمُ كُنهَهُ إلّا اللّهُ تَعالى(4).

كُلَّما ازْدادَ المؤمِنُ نَعيمًا في الجنَّةِ ازْدادَ قُربًا مِنهُ تعالى، وزالَتِ الحُجُبُ عَنْ قَلبِهِ؛ ولأنَّ الجنَّةَ تَمحَّضَتْ لِلنَّعيمِ وهوَ خِلافُ حالِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3937.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/198.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/338.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/146.

الدُّنيا؛ فَإنَّ اشْتِغالَهُ بِزينَتِها يُبعِدُهُ عَنِ اللّهِ، وكُلَّما انْشَغَلَ فيها لَمْ يَزدَدْ مِنَ اللّهِ إلَّا بُعدًا[1].

مَعنى العِنديَّةِ مُرادٌ بِهِ أنَّ الجزاءَ قَدْ أُعِدَّ لَهُمْ عِندَ اللّهِ تَعالى مِثلَما تَكونُ الحُقوقُ مُعَدَّةً حاضِرَةً؛ فالمجازَونَ بِنَعيمِ اللّهِ يَصِلونَ إلَيها، فَهُمْ واثِقونَ، وكَأنَّ دارَ السَّلامِ لَيسَتْ وَعدًا بِأنْ يُنْشِئَها اللّهُ لَهُمْ، بَلْ هِيَ جاهِزَةٌ حاضِرَةٌ تَنتَظِرُهُمْ[2]، ويَجوزُ أنْ تَكونَ صِفَةُ العِنْديَّةِ دَلالَةً عَلى حُصولِ كَمالِ صِفَةِ العُبوديَّةِ[3].

والتَّعبيرُ بِالعِنديَّةِ مِنْ بابِ الاسْتِعارَةِ عَلى مَعنى الحِفْظِ؛ لأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ يكونُ مَحفوظًا عِندَ صاحِبِهِ في مَكانٍ قَريبٍ لِنَفاسَتِهِ؛ فيُرادُ تَحقيقُ ذلكَ لَهُمْ، وأنَّ اللّهَ سُبحانَهُ جَعلَ هذه الرُّتبَةَ بِمنزلَةِ الشَّيءِ الموعودِ المدَّخَرِ لَهُمْ[4].

بيانُ إضافةِ ﴿عِندَ﴾ إلى لَفظِ (الرَّبِّ):

المؤمنون يَنالُون مِن تَشريفِ العَطاءِ وعَظيمِ الجزاءِ

أضافَ لَفظَةَ ﴿عِندَ﴾ إلى كَلِمةِ الرَّبِّ في قَولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾، ولَم يُضِفهُ إلى ضَميرِ المتَكَلِّمِ - كَأنْ يَقولَ: (عِندَنا) - تَشريفًا لَهُم وتَكريمًا، فإنَّ ما في حَيِّزِ العِنْديَّةِ هو عَطاءُ مَولاهُمْ مُناسَبَةً لِفَضْلِهِ وإحسانِهِ ورِضاهُ عَنهُمْ[5] خِلافَ غَضَبِهِ عَلى غَيرِهِم مِمَّنْ تَقدَّمَ آنفًا بِقَولِهِ تَعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾:

وَعْدُ اللهِ تَعالى صادِقٌ لا يُخلِفُهُ

التَّعبيرُ بِقَولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ مِنْ بابِ الكِنايَةِ[6]، وهيَ "إمّا

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 578.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3938.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/64.
(6) الكناية "لفظٌ أريدَ به لازمُ معناه معَ جوازِ إرادتِه معَه، أي: إرادةُ ذلك المعنى معَ لازمِه، وكلفظِ طويلِ النِّجادِ، والمرادُ به طولُ القامةِ معَ جوازِ أن يرادَ حقيقةُ طولِ النِّجادِ أيضًا"، يُنظر: التّفتازاني، مختصر المعاني: 1/257.

كِنايَةٌ عَنِ الوَعدِ الصّادقِ، أو عنِ الذَّخيرةِ"[1]، فأمّا كِنايةُ الوَعدِ الصَّادقِ فكأنَّ قائِلًا يَقولُ لكَ: إنْ فَعلْتَ كذا فَلَكَ عِندي جَزاؤهُ، وأمّا كِنايةُ الذَّخيرَةِ فهوَ الشَّيءُ المحفوظُ المُدَّخَرُ كَقَولِه تَعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران: 133].

بَراعَةُ التَّخصِيصِ والحَصْرِ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾:

لا يكونُ التَّوكُّلُ إلّا عَلى اللهِ انْقِطاعًا عَنْ كُلِّ ما سِواهُ

وجملةُ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ دالّةٌ عَلى التَّخصيصِ والحَصْرِ، فلا وَليَّ لَهُمْ إلَّا هوَ سبحانَهُ، والضَّميرُ راجِعٌ عَلى مَنْ ذكَرَهُمْ فيما سَلَفَ مِمَّنْ شَرَحَ صُدورَهُمْ لِلإسلامِ ونوَّرَها بِهِ، فهؤلاءِ الأقوامُ، لَمّا عَلِموا أنَّ المُدبِّرَ والمقدِّرَ والنّافِعَ والضّارَّ والمُسعِدَ والمُشْقيَ والمعيدَ والمبدئَ لَيسَ إلَّا الصَّمدُ سبحانَهُ، فلمّا عَلِموا ذلكَ انْقطَعوا عَنْ كلِّ ما سِواهُ، ولَمْ يَكُنْ رُجوعُهُمْ إلَّا لَهُ، ولَمْ يَتوَكَّلوا إلَّا عَليهِ؛ فاسْتَحَقّوا ألَّا يكونَ لَهُمْ وَليٌّ إلَّا إيّاهُ[2].

إيثارُ لفْظِ الوِلايَةِ:

الـوِلايـةُ درجـةُ تَـقـريـبٍ ورُتـبـةُ تَشريفٍ

آثرَ اسْتعمالَ لَفظِ الوِلايةِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾؛ لِدَلالَتِها عَلى القُرْبِ منهُ سبحانَهُ؛ والقُربُ مِنهُ دَرَجَةٌ لِلعَبدِ لا تُدانيها في العُلوِّ مَنزِلَةٌ ودَرَجَةٌ أُخرى[3].

نُكتَةُ الإخبارِ بِكَونِهِ تَعالى ﴿وَلِيُّهُم﴾:

الوَليُّ هوَ المُتَكَفِّلُ بِجَميعِ مَصالحِ العِبادِ دِينًا ودُنيا

نُكتَةُ الإخبارِ بجملَةِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أنَّ الحقَّ ﷻ يَتكفَّلُ بِجَميعِ ما كانَ مِنْ مَصالحِ العِبادِ في الدّينِ والدُّنيا، ويَدخُلُ تحتَها: الحِمايَةُ، والحِفْظُ، والمعونَةُ، والنَّصْرُ، وإيصالُ الخَيراتِ ودَفْعُ الآفاتِ والمُضِرّاتِ[4].

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/243.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

سِرُّ تَعريفِ المسنَدِ بالإضافَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَلِيُّهُم﴾:

تعريفُ المُسنَدِ ﴿وَلِيُّهُم﴾ بالإضافَةِ يُفيدُ الإخبارَ بأنَّ الحقَّ ﷻ هوَ وَليُّ القومِ الموصوفينَ بالمذَّكِّرينَ؛ فهذهِ نِعمَةٌ عَظيمَةٌ ومِنَّةٌ كَريمَةٌ، عَليهِمْ شُكرُها، وأنَّ المشركينَ مَتى عَلِمُوا ذلكَ كانَ سَببًا في غَيظِهِمْ[1].

اللهُ تَعالى وَليُّ القَومِ الذَّكِّرينَ، وشُكرُ النِّعمَةِ يَغيظُ المشرِكينَ

دَلالةُ الباءِ الدّاخِلَةِ عَلى (ما):

الباءُ الدّاخلةُ عَلى (ما) في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دالَّةٌ عَلى السَّبَبيَّةِ، أي: بِسَبَبِ عَمَلِهِمُ الصّالحِ وانْقِيادِهِمْ للهِ تَعالى وطاعَتِهِمْ لَهُ، حَصَلَتْ وِلايَتُهُ ونُصرَتُهُ تَعالى لَهُمْ[2].

الباءُ للسَّببيَّةِ أوِ المُصاحَبَةِ أي: يَتَوَلّاهُمْ مُصاحِبًا جَزاءَ أعْمالِهِم

وتَحتَمِلُ الباءُ الدّاخِلَةُ عَلى (ما) أن تكونَ بِمعنى المُصاحَبَةِ والملابَسَةِ، وهوَ مِنْ أشهَرِ مَعانيها[3]، عَلى أنْ يَكونَ الحقُّ ﷻ مُتَوَلّيَ أُمورِهِمْ؛ فيَصيرُ المعنى أنَّهُ يَتولّاهُمْ مُصاحِبًا جَزاءَ أعمالِهِم، فيُعِدُّ لهم الثوابَ في الآخرةِ ويوصِلُهُ إليهِم[4].

تَوجِيهُ (ما) بينَ الموصوليَّةِ، والمصدَريَّةِ:

تَحتمِلُ (ما) في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مَعنى المَوصوليَّةِ فتَكونُ بِمعنى الَّذي[5]، وعَبَّرَ عَنِ المعنى بـ (ما)؛ لِأَنَّ الكَلامَ عَلى العَمَلِ، وهوَ أمرٌ عامٌّ، و(الَّذي) نَصٌّ في الموصوليَّةِ.

لا يَضيعُ عملٌ للمؤمنين ولا يَخيبُ رَجاءٌ لهم

وتَحتمِلُ أنْ تَكونَ مَصدريَّةً؛ فتَكونَ معَ الفعلِ مَصدَرًا مُؤوَّلًا عَلى تَقديرِ أنَّهُ مُتَوَلّيهِمْ "بِأعمالِهِمْ، أوْ مُتَوَلّيهِمْ بِجَزاءِ ما كانوا يَعملونَ، أوْ هوَ وليُّنا في الدُّنيا بِتوفيقِ الأعمالِ، وفي العُقبى بِتَحقيقِ الآمالِ"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/65.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/147، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/64.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.

(4) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/279.

(5) ابن عادل، اللّباب: 8/427.

(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/536، وصدّيق حسن خان، فتح البيان: 4/238.

دَيْدَنُ المؤمنين عمَلُ الصَّالحاتِ وتَركُ المُوبقاتِ

دَلالةُ فِعْلِ الكَونِ الماضِي:

وفِعلُ الكَونِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يَدُلُّ عَلى جِبلَّتِهِمْ وطِباعِهِمُ الَّتي كانوا عَلَيها[1]؛ وهوَ دالٌّ عَلى الاسْتِمرارِ في عَمَلِهِمُ الصّالِحِ الذي كَانَ مَدْعاةً لِنَيْلِهِمْ دَارَ السَّلَامِ في الآخِرَةِ.

أعمالُ البِرِّ الدّائمَةُ سِرُّ نجاةِ المؤمنين

نُكتَةُ خِتامِ الآيةِ بِلَفْظِ العَمَلِ وبِصيغةِ المضارعِ:

ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالفعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وفي ذلكَ نُكتَةٌ؛ وهيَ الإشارةُ إلى أنَّ على المرءِ ألَّا يَنقطِعَ عَنِ العَمَلِ البتّةَ، وأنْ يَستمرَّ فيه، فَمثلَما تَتأثَّرُ الهَيئاتُ البَدَنيَّةُ بِالهَيئاتِ النَّفسيَّةِ فَتُحدِثُ حَرَكَةً واضطرابًا، فكذلكَ تَتأثَّرُ الهَيئاتُ النَّفسيَّةُ بأعمالِ الخيرِ والبرِّ البدنيَّةِ، فَتَظهَرُ عَلَيها الآثارُ المناسبَةُ في جَوهَرِ النَّفسِ[2]، فَتَترقّى ذاتُهُ وتسمو روحُه بِسبَبِ تِلكَ الأعمالِ، فظَهَرَ أنَّ السّالكَ في هذا الطّريقِ لا بُدَّ لَهُ مِنَ العَمَلِ وأنْ لا سَبيلَ لَهُ في تَركِهِ.

والفِعلُ المضارِعُ دالٌّ عَلى التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ، والمعنى في الآيةِ أنَّ المخاطَبينَ الممدوحينَ قَدِ اسْتَحَقّوا جَنَّتَهُ الَّتي وَصَفَها بِدارِ السَّلامِ، واسْتَحَقّوا وِلايَتَهُ بِعَمَلِهِمُ الدّائِمِ؛ إذ "يَتَجَدَّدُ عَمَلُهُمْ بِتَجَدُّدِ شُعورِهِمْ بِنِعمَةِ اللّهِ تَعالى عَلَيهِمْ"[3]، فالتَّعبيرُ دالٌّ عَلى تَجَدُّدِ العَمَلِ بِتَجَدُّدِ نِعَمِهِ تَعالى ذو الفَضلِ العَظيمِ.

التَّذكُّرُ سَبيلٌ إلى العَمَلِ، والعملُ مُرتَهَنٌ بتذكُّرِ فَضْلِ الله تعالى

تناسُبُ فاصِلَتَي الآيَتَيْنِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

وهذه الفاصِلَةُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُتناسِبَةٌ مَعَ الفاصِلَةِ القُرآنيَّةِ في الآيةِ السّابِقَةِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنَّ التَّذكُّرَ سَبيلٌ إلى العَمَلِ، وهوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ أشَدَّ التَّعلُّقِ، ومِنْ جانِبٍ آخرَ فكأنَّهُ خاطبَهُمْ بِقَولِهِ: "إيّاكُمْ حينَ تَوَفَّقونَ في العَمَلِ أنْ تَفتَتِنوا بِأعمالِكُمْ، بَلْ عَلَيكُمْ أنْ تَتذكَّروا أنَّ ذلكَ فَضلٌ مِنَ اللّهِ"[4] وهذا تَناسُبٌ ثانٍ بينَ هاتَينِ الفاصِلَتينِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/226.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2665.

(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3939.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ بيانِ جَزاءِ المُتَمَسِّكينَ بِالصِّراطِ بيَّنَ جَزاءَ أضْدادِهِم

لَمَّا اشْتَمَلَ سياقُ الآياتِ السّالفةِ عَلى أحوالِ المتمَسِّكينَ بالصِّراطِ ووعدِهم بالنَّعيم في دارِ السَّلام، وبما تفضّلَ عَليهم بِولايَتِهِ في الدُّنيا والآخرَةِ، غِبَّ ذلكَ كلِّه "بيَّنَ بعدَهُ حالَ مَنْ يكونُ بالضِّدِّ مِنْ ذلكَ لِتكونَ قِصَّةُ أهلِ الجنَّةِ مُردفَةً بِقصَّةِ أهلِ النَّارِ وليكونَ الوَعيدُ مَذكورًا بعدَ الوَعدِ"[(1)]، فَوَصَلَ ذلكَ بِالجزاءِ في آخرَتِهِ عَلى ما كَسَبَهُ المرءُ في دُنياهُ؛ فَقفَّى بِذِكْرِ الحشْرِ، وبَعضِ ما يَكونُ فيهِ مِنْ جِدالٍ بينَ الكافرينَ تابعينَ ومتبوعينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾: اسمٌ على وزنِ (مَفْعَل) جذرهُ اللُّغويُّ (عشر)، ولهُ أصلانِ صحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلى المخالَطةِ والمداخَلَةِ، ومِنهُ عَشيرةُ الرَّجُلِ لمعاشَرَةِ بَعضِهِمْ بَعضًا؛ ولأنَّ الرَّجُلَ يَتكَثَّرُ بِهِمْ، أيْ: يَصيرُ بِهِمْ بِمَنزِلَةِ العَدَدِ الكاملِ أخْذًا مِنَ العددِ (عَشَرَة) الدّالِّ عَلى الكَمالِ عِندَ العَرَبِ؛ وكلُّ جمعٍ كانوا عَلى أمرٍ واحدٍ فهُمْ مَعشَرٌ، وعمومُ المعشَرِ القومُ المتداخِلونَ المترابِطونَ الَّذين يجمَعُهُمْ شَيءٌ مُشترَكٌ[(2)]، ومِنهُمُ العَشيرةُ والمسلمونَ والمشركونَ والإنسُ والجنُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشر).

ونحوُهمْ؛ والمعشَرُ كالقومِ والرَّهْطِ اسْمُ جَمعٍ لا واحدَ لهُ مِنْ لَفظهِ. والمعشَرُ في الآيةِ همُ الجماعةُ، وهُمْ شياطينُ الجنِّ عَلى وجْهِ التَّحديدِ[1].

2) ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسنَدٌ إلى الجَماعَةِ، والجذرُ اللُّغويُّ فيهِ (كثر)، والفِعلُ مِنهُ كثُرَ يكثُرُ، والأصلُ فيهِ أنَّهُ يَدُلُّ عَلى الكَثْرَةِ والزِّيادةِ في عَددِ أفرادِ ذلكَ الشَّيءِ بالنِّسبَةِ لِلمُعتادِ أو المتَوقَّعِ[2]، وأصلُ مَعنى الكَثرةِ في لُغةِ العرَبِ خِلافُ القِلَّةِ، واستكثَرْتُ مِنَ الشَّيءِ، أيْ: أكثرتُ مِنهُ، ومَعنى ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ في الآيةِ: الكَثْرَةُ المعروفَةُ، إلَّا أنَّها هُنا مُتَعَلِّقَةٌ بالإضلالِ، أي: أضْلَلْتُم كثيرًا مِنَ الإنسِ[3].

3) ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾: فعلٌ ماضٍ مَزيدٌ، جَذرُهُ اللُّغويُّ (متع)، ومِنهُ المَتاعُ وهوَ كلُّ شَيءٍ يُنتفَعُ بِهِ ويُستزادُ منهُ، والأصلُ في مَعناهُ "مَنفعةٌ وامتِدادُ مُدَّةٍ في خَيرٍ، مِنهُ استمتَعْتُ بالشَّيءِ، والمتعَةُ والمتاعُ: المنفعَةُ"، ويَقترِنُ الانتفاعُ بالوقتِ الممتَدِّ، وفيهِ مَعنى التَّوسُّعِ، وفي ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾ طلَبُ التَّمتُّعِ؛ فَكلٌّ مِنَ الفَريقَينِ كانتْ لهُ رَغبةٌ في الاستمتاعِ، فاستمتَعَ الجنُّ بالإنسِ واستمتَعَ الإنسُ بالجنِّ، ومِنْ معاني التَّمتُّعِ الاسْتِلذاذُ بالشَّيءِ طعامًا أوْ شرابًا في البدَنِ أوْ نَحوِهِ[4]. ومَعنى ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾ في الآيةِ: المنفعَةُ المتبادَلَةُ بينَ الإنسِ والجنِّ، ولَها وجوهٌ كثيرةٌ ذكرَها المفسِّرونَ، وجُلُّها مذكورَةٌ في فَقرةِ الإيضاحِ البَلاغيِّ.

4) ﴿وَبَلَغۡنَآ﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسندٌ إلى الجَماعَةِ، جَذرُهُ اللُّغويُّ (بلغ)، وهوَ أصلٌ يَدُلُّ عَلى الوصولِ إلى المرادِ، فإذا وصلْتَ المكانَ المقصودَ فقدْ بلغْتَهُ، وبلَغَ يَبلُغُ بمعنى: وصَلَ مِنْ "بلغْتُ المكانَ بُلوغًا: وصلْتُ إليهِ، وكذلكَ إذا شارفْتُ عَليهِ"، ومِنْ مَعانيهِ الانْتِهاءُ إلى أقْصى المرادِ مِنْ جِهَةِ المكانِ، أوِ الزَّمانِ، أوْ أيِّ أمرٍ مِنَ الأمورِ المُقدَّرَةِ، وقدْ تُسمّى المشارَفَةُ عَلى الوُصولِ بُلوغًا[5]، ومَعنى بَلَغْنا أجَلَنا في الآيةِ، أي: وصَلْنا أجَلَ الموتِ، وأجَلَ البَعثِ[6].

5) ﴿أَجَلَنَا﴾: اسْمٌ ثُلاثيٌّ، الجَذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (أجل)، أصلٌ يَدُلُّ عَلى غايةِ الوقتِ في

---

(1) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/449.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كثر).

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/482.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).

(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بلغ).

(6) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/371.

الدَّيْنِ، والاسْمُ مِنهُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، ويُقالُ لِلمُدَّةِ المضروبَةِ لِلشَّيءِ كَحياةِ الإنسانِ: أجَلٌ، فدَنا أجَلُهُ: اقْتَربَ مَوتُهُ، وحقيقتُهُ اسْتيفاءُ مُدَّةِ حَياتِه، وليسَ بعدَ الاسْتيفاءِ إلّا الموتُ، وعُمومُ الأجَلِ دالٌّ عَلى التَّوقيتِ، والأجَلُ آخِرُ الأوانِ وغايةُ الوقتِ إلى الموتِ[1].

ومَعنى ﴿أَجَلْنَا﴾ في الآيةِ: يَشْمَلُ أجَلَي الموتِ والبَعْث، فَهُما الأجَلانِ اللَّذانِ أجَّلَهُما اللّهُ تَعالى لِعبادِه[2].

6) ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾: المثوى مَفْعَلٌ مِنْ ثوى، جَذرُهُ اللُّغويُّ مِنْ (ثوي)، والأصلُ فيهِ الإقامَةُ، وزادَ بعضُهُمُ الاسْتقرارَ عَلى الإقامَة، وهوَ اسْمُ مَكانٍ أو اسْمُ الموضِعِ، والثّاوي مَنْ طالَتْ إقامَتُه، ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا لا اسمَ مكانٍ[3]. والمعنى في الآيةِ: النّارُ هيَ موضِعُ إقامَتِكمْ، فيكونُ اسْمَ مَكانٍ، أَوْ عَلى جَعْلِهِ مَصدرًا بِمعنى الثَّواءِ؛ لِيكونَ عامِلًا في الحالِ عَلى تَقديرِ: تَثوونَ فيها خالِدينَ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

عَـلائـقُ أهْـلِ الـلَّـذّاتِ زائِـلَـةٌ ضَارَّةٌ ومُستقرُّها نارُ الآخِرةِ

واذكرْ – يا أيُّها الرَّسولُ ﷺ أو أيُّها العاقلُ – يومَ نحشرُ الضّالّينَ والمُضِلّينَ جميعًا مِنَ الإنْسِ والجنِّ، فنقولُ لِلمُضلّينَ مِنَ الجنِّ: قَدْ أكثرْتُم مِنْ إغوائكُمُ الإنسَ وإضلالِكُمْ إيّاهُم، أو قَدْ أكثرْتُمْ مِنهُم بِأنْ جعلتُموهُمْ أتباعَكم، وأهلَ طاعتِكُم، ووسْوَسْتُمْ لَهُم بِالمعاصي حتّى أورَدْتموهُمْ هَذا المصيرَ الأليمَ. فردَّ أولياءُ الجنِّ مِنَ الإنسِ أنَّ مُتعةَ الطّاعَةِ بينَنا في الضَّلالِ والكُفرِ مُتبادَلَةٌ، وقَدْ بلغْنَا الآنَ الوقتَ المضروبَ لَنا، والمَعْنى: قالَ اللّه تَعالى لِهَؤلَاءِ الظّالمينَ: فالنّارُ مُستقرُّكُمْ ومَثواكُمْ، فأنتمْ خَالِدُونَ فيها في كُلِّ وقتٍ إلَّا في وقتِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أجل).
(2) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/371.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (ثوي).
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/691 - 692.

مَشيئةِ اللّهِ بخلافِ ذلك؛ مُبالغةً في الخُلودِ، وهذا مَصيرُكُم بِما اقتضتْهُ حِكمتُهُ وعِلمُهُ تَعالى[1].

وتُرشِدُ الآيةُ إلى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ كلِّها إلى مشيئةِ اللّهِ، وأنَّ خلودَ المشركينَ في نارِ جَهنَّمَ إنَّما هوَ بمحضِ مَشيئتِهِ، ولو شاءَ غيرَ ذلك ما خُلِّدوا، وفيهِ إلى جانبِ ذلكَ تنكيلٌ آخَرُ بِهؤلاءِ الأشقياءِ؛ لِأنَّهمْ قَدْ صاروا في حَيْرةٍ دائمةٍ مِنْ أمرِهِم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ:

ذِكْرُ الضِّدِّ بعدَ ضِدِّه يُنبِّهُ العقلَ السَّليبَ

الآيةُ مَوصولةٌ بِما قبلَها بالعَطفِ؛ فإنّهُ لَمّا ذكرَ ثوابَ القَومِ المتذكِّرينَ بالآياتِ؛ وهوَ ثَوابُ أهلِ الجنَّةِ، ناسبَ أنْ يَعطِفَ عَلَيهِ هذهِ الآيةَ الَّتي تُشيرُ إلى جَزاءِ الغافلينَ غَيرِ المذَّكِّرينَ بِتلكَ الآياتِ، وهوَ جزاءُ الآخرةِ[2].

بَيانُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ دونَ مُرادفاتِه:

اجتماعُ النَّاسِ في الدُّنيا بإرادتِهِم وحشْرُهم في الآخرةِ بإرادةِ خالِقِهم

والتَّعبيرُ بالحشرِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بيانُهُ أنَّ الحشرَ في لُغةِ العرَبِ مَعناهُ الجَمعُ، فالحقُّ ﷻ يَجمَعُ الأوَّلينَ والآخرينَ مِنَ الخَلائقِ مِنَ الإنسِ والجنِّ يومَ القيامَةِ في صَعيدٍ واحدٍ، فالدّاعي يُسمِعُهمْ والبَصَرُ نافِذٌ فيهِمْ[3].

والتَّعبيرُ بِحَشرِهِمْ فيهِ إشارتانِ بَيانيَّتانِ، الأولى: أنَّ الحقَّ ﷻ يَجمَعُهمْ غَيرَ مُختارينَ ولا مُريدينَ، والثّانية: أنَّ الحشرَ يومِئُ إلى كَثرتِهم الكاثرةِ الَّتي لا تمنعُهُ تَعالى مِنْ جَمْعِهمْ وحِسابِهِمْ عَلى أعمالِهِمْ[4].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/66.
(3) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/228.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنْ حَشْرِهِم بِالفِعلِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

تَصويرُ الحشرِ كأنَّهُ مُشاهَدٌ تَراهُ العُيونُ

وجاءَ بِصيغَةِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾؛ لِأنَّهُ أرادَ أنْ يُمثِّلَ خَبرَ الحشرِ بِصورةِ ما يَقعُ في حِسابِهِمْ في ذلكَ اليومِ، ثمَّ يُفضي بِهِمْ إلى النَّارِ خالدينَ فيها[1]، فكأنَّهُ حاصِلٌ مُشاهَدٌ حاضِرٌ الآنَ تراهُ العُيونُ، فهوَ أبلَغُ وَقعًا مِنَ التَّعبيرِ بِهِ في زَمَنٍ آخَرَ.

تَوجِيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بِنُونِ العَظَمةِ تَهويلٌ لِلأمرِ وبالياءِ إخبارٌ عنِ الفِعْلِ

عبَّرَ بـ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بالياءِ في روايةِ حَفصٍ عَنْ عاصِمٍ ورَوْحٍ عَنْ يَعقوبَ، للإخبارِ فيما سيكونُ في ذلك اليوم، فيما قَرأها الباقونَ ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾[2] تعبيرًا بالنّونِ العائِدَةِ عَلَيه سبحانَهُ لِلتَّعظيمِ والتِفاتًا مِنَ الغَيبَةِ إلى الخطابِ تهويلًا لِلأمرِ[3]، وتَحذيرًا مِنْ ذلكَ اليومِ العَظيمِ.

فائِدةُ إسْنادِ الحشْرِ إلى ضَميرِ الجلالةِ:

المنادِي يومَ الحَشْرِ هو الله تعالى

لَمّا كانَ فِعلُ الحشرِ في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ مُسنَدًا إلى الضَّميرِ العائدِ عَلَيهِ سبحانَهُ، تعيّنَ أنْ يكونَ النِّداءُ مِنهُ تَعالى أو عن أحدٍ من ملائكتِه بأمرِه؛ "فتعيّنَ لِذلكَ إضمارُ قَولٍ صادرٍ مِنَ المُتَكلِّمِ، أيْ: نقولُ: يا معشرَ الجنِّ؛ لأنَّ النِّداءَ لا يكونُ إلَّا قولًا"[4]، وما بعدَهُ ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ مَقولُ القَولِ.

تَوجِيهُ عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

حَشْرُهُ تَعالى يومَ القيامَةِ يَشمَلُ المؤمنينَ والكافرينَ مِنَ الجنِّ والإنسِ

الضَّميرُ في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ يعودُ عَلى مَنْ وقعَ عَلَيهِمُ الرِّجسُ مِنَ الطّائفَتَينِ مِنَ الإنسِ والجنِّ، وعَلى الَّذينَ اسْتَحَقُّوا الجزاءَ الأَوفى مِنْ جنَّتِهِ تَعالى دارِ السَّلامِ جِنًّا وإنسًا[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/66.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات: 269، وابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/262.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/184.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/66، والشّنقيطي، العذب النّمير: 2/227.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345، وجعلَهُ ابنُ عاشور راجعًا إلى الشَّياطينِ وأوليائِهم فقط، يُنظر: التّحرير والتّنوير: 8أ/66.

ويُحتمَلُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ عَلى الشَّياطينِ الوارِدِ ذكرُهُم قَبلَ هذهِ الآيةِ - بعدَّة آياتٍ - وهوَ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ١١٢﴾ [الأنعام: 112].

سِرُّ التَّوكيدِ بـ ﴿جَمِيعٗا﴾:

تعيينُ دُخولِ الجِنِّ والإنسِ جميعًا في الخطابِ

سِرُّ التَّوكيدِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ بِلَفظِ جَميعًا[1] - وهوَ لَفظٌ دالٌّ عَلى رَفعِ تَوهُّمِ عَدمِ إرادةِ الشُّمولِ -، وسِرُّ اسْتعمالِهِ في الجملةِ هُوَ رَفْعُ توهُّمِ عَدمِ إرادةِ شُمولِهِ في الخطابِ الطّائفتَينِ: المؤمِنينَ والكافرينَ؛ جِنِّهِمْ وإنسِهِمْ[2]؛ فإنَّهُمْ داخِلونَ في خِطابِ الحشرِ، وجاءَ بـ ﴿جَمِيعٗا﴾ لِمَنْ يَتوهَّمُ أنَّ قِسمًا مِنهُمْ غيرُ داخلٍ في ذلكَ الحُكمِ.

ويَحتمِلُ التَّوكيدُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ أنْ يَدُلَّ عَلى العُمومِ ليشمَلَ المشركينَ كلَّهم وسادتَهُم وشياطينَهُم وما سِوى ذلكَ مِمَّنْ تَعلَّقوا بِهِم[3].

فائِدةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ الجَمْعِ (مَعْشَر):

التَّنبيهُ على خَطَرِ المعاشَرَةِ والمُخالَطةِ

قَولُهُ تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ بِمعنى مَنِ اجْتمَعوا عَلى شأنٍ واحدٍ، كأنْ يَجمَعَهُمْ عَمَلٌ أوْ تَجمَعَهُمْ صِفةٌ، وهوَ اسْمُ جمعٍ[4]، واشْتقاقُهُ مِنَ المعاشَرَةِ والمخالَطةِ، وهوَ يُطلَقُ عَلى الإنسِ والجنِّ، ولا يَعني أنَّ المعشرَ يُرادِفُ لَفظتَي الإنسِ والجنِّ، وإنَّما يُضافُ إليهِ مِنْ بابِ البَيانِ[5].

---

(1) لفظٌ منْ ألفاظِ التّوكيدِ المَعنويِّ يُقصَدُ مِنهُ رفعُ تَوهُّمِ إرادةِ الخاصِّ، أو عدمِ إرادةِ الشُّمولِ، فإذا قيلَ: وصلَ القومُ جميعًا، أريدَ وصولُهم فردًا فردًا، فلم يندَّ أحدٌ مِنهُم عنِ الوصولِ. يُنظر: ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/289.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/66.

(4) اسمُ الجمعِ مصطلحٌ صرفيٌّ يُعنى بِهِ ما لا واحدَ لهُ مِنْ لَفظِهِ، لكنْ مِنْ مَعناه، مثلُ: قومٍ ورهطٍ، وفإنَّ مفردَهُ امرؤٌ، بخلافِ رَكْبٍ، فإنّ مفردَهُ راكبٌ. يُنظر: الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 98.

(5) رضا، تفسير المنار: 8/55.

دَلالةُ نِداءِ المعشَرِ:

دلَّ النِّداءُ في قَوله تَعالى: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ على مَعنى التَّبكيتِ والتَّوبيخِ حينَ لا يَجِدونَ دَفعًا ولا نَصرًا لأنفُسِهمْ أصلًا[1]. و"خصَّهم بِالنِّداءِ؛ لِأنَّهمُ الأصلُ في المكرِ"[2].

النِّداءُ مُؤذِنٌ بِالتَّبكيتِ والتَّوبيخِ

بَيانُ إضافةِ المعشَرِ إلى الجنِّ:

وأضافَ المعشَرَ إلى الجنِّ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ وهيَ إضافةٌ شائعةٌ كثيرةٌ بإضافَتِه "إلى اسْمٍ يُبيِّنُ الصّفةَ الَّتي اجتمَعَ مُسمّاهُ فيها، وهيَ هُنا صِفةُ كَونِهمْ جِنًّا"[3]؛ فصِفتُهم الجنِّيّةُ مسوِّغٌ لِلتَّعبيرِ باسْمِ الجَمعِ عَلى هذهِ الصِّيغةِ.

أُضيفَ الاسْمُ لِبَيانِ الصِّفَةِ الجامِعَةِ وهيَ صِفةُ الجنِّيّةِ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في قَولِهِ تعالى: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ﴾:

وجملةُ: ﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ فيها إيجازٌ بالحذفِ عَلى تقديرِ محذوفٍ منَ الكلامِ، أي: نَقولُ لِلجِنِّ، فَحذَفَهُ مُستغنيًا بالمذكورِ ومُكتفيًا بما ظهرَ مِنَ الكلامِ السّابقِ عَلَيه[4].

تعدُّدُ احتِمالِ القائلِ فيه مَزيدُ تهويلٍ وتفْخيمٍ

وقدْ يكونُ الحذفُ في هذهِ الجملةِ عَلى تقديرِ فِعلِ القَولِ مَبنيًّا لِلمفعولِ (فيُقالُ لَهمْ)؛ لاسْتِبعادِ أنْ يُكلِّمَهُمُ اللّهُ شِفاهًا[5]؛ تَحقيرًا لَهُم وتَصغيرًا لِشأنِهم، وآيةُ ذلك قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: 174].

وحَذْفُ الفعلِ (نَقولُ)؛ والقائلُ هوَ اللّهُ تعالى في ذلكَ اليومِ بعدَ الحشرِ، غرضُهُ التَّبكيتُ والتَّوبيخُ؛ فإنَّهمْ مَهما عتَوْا وتمرَّدوا في الدُّنيا فسَيَنتهي حالُهمْ في الآخرةِ إلى الانْقيادِ والخُضوعِ والاعْترافِ بِجُرمِهِمُ المرتَكَبِ[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/267.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/67.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/115، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/643.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنِ الشَّياطينِ بالجِنِّ:

وجهُ الشَّبَهِ الاختفاءُ والغَوايةُ بالوَسوَسةِ والتَّخْييلِ وغيرِهما

وعبَّرَ عَنِ الشَّياطينِ بالجنِّ في قولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لِأنَّ أصلَ الجنِّ مِنَ الاجْتِنانِ؛ وهو الخفاءُ وعَدمُ الظُّهورِ؛ فكلُّ ما يَخفى عَلَيكَ فهوَ مجنونٌ عَنكَ[1]، والشَّياطينُ داخِلونَ في هذا المعنى بجامِعِ الخفاءِ؛ فالجنُّ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، خُلِقوا مِنْ نارٍ، وهُم يَستَطيعونَ أنْ يَتحوَّلوا إلى أشكالٍ مُختلِفَةٍ، ويعيشونَ في الأرضِ معَ الإنسانِ، ومِنهُم مُؤمنونَ وكافِرونَ، والشَّياطينُ همُ العُصاةُ مِنَ الجنِّ، وهُم أتباعُ إبليسَ في عداوتِهِ لِآدمَ وذُرّيَّتِه، فَضلًا عَنْ كَونِهِمْ يُغوونَ النّاسَ بِالوَسوسةِ والتَّخييلِ وغيرِ ذلكَ؛ فتخيَّلَ النّاسُ أنَّ لَهمُ القُدرَةَ والجبروتَ؛ فَباتوا يَتوسَّلونَ إلَيهِمْ، ويحاولونَ إرضاءَهمْ، وكانوا يَظنّونَ أنَّ الفيافيَ والوِديانَ مَقَرٌّ لِلجنِّ فكانوا يَستجيرونَ بِهِم[2].

دَلالةُ استعمالِ أداةِ ﴿قَدِ﴾:

تأكيدُ إيغالِ الجِنِّ في إضلالِ كثيرٍ مِنَ الخلْقِ

واسْتِعمالُ الحرفِ ﴿قَدِ﴾ في قَولِه: ﴿قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ لِإفادةِ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ[3] فقدْ أَوغلَ شياطينُ الجنِّ في إضلالِ الجَمْعِ الكَثيرِ مِنَ الإنسِ حتّى أورَدوهُمُ المهالِكَ الَّتي ساقَتْهُمْ إلى نارِ جهنَّمَ.

تَوجِيهُ التَّعبيرِ بِصيغَةِ الاسْتِفعالِ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾:

كثرةُ الإغواءِ مَهلكةٌ لأصحابِ الأهواءِ

والتَّعبيرُ بِقَولِه: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ لا يدُلُّ على الطَّلبِ كَما هوَ الشّائعُ في صيغَةِ الاسْتِفعالِ[4]، إنَّما دلالتُهُ عَلى أخْذِ الكثيرِ، كما يُقالُ: استكثَرَ الأميرُ مِنَ الجنودِ، أيْ: أخذَهُمْ وجعلَهُمْ تحتَ إمرَتِه، وكذلكَ اسْتكثَرَ فلانٌ مِنَ المالِ، أي: أكثَرَ مِنْ جَمْعِه؛ والمرادُ مِنْ هذهِ الصّيغَةِ المبالَغَةُ كالاسْتِسلامِ والاسْتِكبارِ ونحوِها[5].

(1) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/68.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/222.
(4) العكبري، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/277.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/67.

دَلالةُ اسْتِعمالِ حرفِ ﴿مِّنَ﴾:

(من) تُفيدُ بَيانَ الشَّيءِ المتَّخَذِ كثيرُهُ؛ وهم الإنسُ

﴿مِّنَ﴾ في قَولِه: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ بيانيّةٌ؛ لأنَّها تُبيِّنُ الشَّيءَ، أي: جنسَ ما قبلَها أو نوعَهُ[1]، كقَولِه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، فـ ﴿مِنَ﴾ لِبَيانِ الجِنسِ؛ فإنَّ القرآنَ كُلَّهُ كَذلك: تُنزِّلُ القرآنَ الَّذي فيهِ تَقويمُ دينِهم واسْتِصلاحُ نفوسِهم؛ كالدَّواءِ الشَّافي لِلمَرضى؛ وهوَ هُنا - في آية الأنعام - المتَّخَذُ كثيرُهُ، كقولِهم: اسْتَكثَرَ مِنَ المالِ أو اسْتَكثَرَ مِنَ النِّعَمِ[2]؛ والمعنى قدْ أضَلّوا كثيرًا مِنَ الإنسِ.

فائِدةُ تَعْدِيةِ الاسْتكثارِ بـ ﴿مِّنَ﴾:

تَعْيينُ معنَى الاسْتِكثارِ بالإضْلالِ

جعلَ الفعلَ ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ مُتعدّيًا بـ ﴿مِّنَ﴾ لا بِنَفسِه؛ وسِرُّ ذلكَ لِأجلِ أنْ يُفرِّقَ بينَ هذا الفعلِ وبينَ (اسْتكثَرَ) الدّالِّ علَى عدِّ الشَّيءِ كثيرًا[3] كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾ [المدَّثِّر: 6] أي: ترى ما تُعطيهِ كثيرًا.

فائِدةُ المجازِ بحَذْفِ المضافِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾:

تَصويرُ الاسْتِكثارِ كأنَّه واقِعٌ عَلى الإنسِ أنفُسِهم

وقولُهُ تَعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ لَيسَ مِنْ بابِ الحقيقةِ، بلْ فيهِ حذفٌ، وتقديرُه: (قدِ استكْثَرتُم من إضلالِ الإنسِ)، ولا بُدَّ فيهِ مِنَ التّأويلِ؛ فالجنُّ غيرُ قادرينَ علَى أنْ يَستَكثِروا مِنَ الإنسِ بأعيانِهم؛ فإنَّ المتصرِّفَ بأعيانِهم في الدُّنيا والآخرةِ هوَ اللّٰهُ تَعالى، إنَّما المرادُ أنَّكُمُ اسْتكثَرتم مِنْ دُعائِكمْ لَهمْ بالضَّلالِ معَ مُصادَفةِ قبولِهمْ[4]، وقَدْ نزَّلَهمْ هنا مَنزِلةَ الحقيقةِ؛ فلِشدَّةِ مُطاوعتِهمْ إضلالَكُمْ جعلَ الاسْتكثارَ كأنَّهُ واقِعٌ عَليهِمْ أنفُسِهِم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/67.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/148، وزاده، حاشية على البيضاوي: 4/141.

وقولُهُ تَعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ فيهِ إيجازٌ بِالحذفِ؛ فإنَّ التَّقديرَ: قَدْ أضلَلْتُم خَلقًا كثيرًا مِنَ الإنسِ، أَوْ مِنْ إغوائِهِمْ وكثَّرتُم أتباعَكم مِنهُم حتّى أورَدتموهُمُ المهالِكَ، فحُشِروا معَكم في العاقِبَةِ؛ وفي الكَلامِ تَوبيخٌ لِلجنِّ وإنكارٌ لإضلالِهِمُ الإنسَ وإغوائِهِم[1].

بَلاغةُ التَّعريضِ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾:

الإنسُ واقعونَ في مَرمَى التَّوبيخِ عَلى طاعَتِهِم الجنَّ

والحديثُ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ وإنْ كانَ خطابًا لِلجنِّ، إلّا أنّهُ مِنْ بابِ التَّعريضِ بِتوبيخِ الإنسِ في أنَّهمْ أطاعوا الجنَّ طاعةً عَمياءَ، وأفرَطوا في مَرضاتِهِمْ، ولَمْ يَسمَعوا التَّحذيرَ مِنْ مُتابعتِهِمُ المفضيَةِ بِهِمْ إلى الضَّلالِ المُوصِلِ إلى الجَحيمِ[2].

تَوجيهُ الفَرقِ بينَ وِلايَةِ اللهِ تَعالى، ووِلايَةِ الشَّيطانِ:

وِلايةُ اللهِ نَصرٌ وتمكينٌ؛ ومآلُها الجنَّةُ، ووِلايةُ الشَّيطانِ غَوايةٌ ومآلُها جهنَّمُ

ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ وِلايتَهُ تَعالى لِلمؤمنينَ، وهيَ أنْ يكونَ الحقُّ ﷻ ناصِرَهمْ والمتكفِّلَ بِأُمورهِمْ فلا يكِلُهُمْ إلى أحَدٍ سِواهُ[3]، وذكَرَ هنا ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أيْ: أولياءُ الشَّياطينِ؛ وهُمُ المشركونَ مِنَ الإنسِ الموالونَ لَهمُ المنقَطِعونَ إلَيهِمْ[4]، وثمّةَ فَرقٌ بينَ الوِلايتَينِ؛ فوِلايَتُهُ تَعالى لِأَوْلِيائِهِ مُفضيَةٌ إلى الجنَّةِ دارِ السَّلامِ، ووِلايَتُهمْ لِلشَّياطينِ مُفضِيَةٌ إلى جهنَّمَ دارِ الجحيمِ.

بَلاغةُ الوَصْلِ في جُملةِ المقاوَلَةِ:

كَلامُ الإنسِ دَخيلٌ في المقاوَلةِ

عطَفَ جملةَ: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ عَلى جملةِ القَولِ المقدَّرِ ولَمْ تُفصَلْ؛ لأنَّ هؤلاءِ الأولياءَ لَمْ يكونوا مُخاطَبينَ ابْتداءً، وكلامُهمْ أتى عرَضًا دخيلًا في المخاطَبةِ[5].

---

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 4/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/68.
(3) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/68.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/69.

أُفحِمَ الجِنُّ فلمْ يَجِدُوا جوابًا، فتركُوا أولياءَهمْ يُناضِلونَ عَنهُمْ

سِرُّ الاقْتِصارِ عَلى حِكايةِ جَوابِ الإنسِ:

وقولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ حِكايةُ جَوابِ الإنسِ بعدَ خِطابِهمْ، لكنَّهُ أغفلَ حِكايةَ جَوابِ الجنِّ، وسِرُّ الاقتصارِ عَلى جوابِ الإنسِ وإغفالِ جوابِ الجنِّ وإخفائِهِ أنَّ المخاطَبينَ مِنَ الجنِّ قدْ أُفحِموا فلمْ يُجيرُوا جوابًا؛ فتَركوا أولياءَهمْ يناضِلونَ عَنهمْ ويدفعونَ عَنْهُمُ التَّوبيخَ(1).

والاقْتِصارُ عَلى جَوابِ الإنسِ دونَ جَوابِ الجنِّ مِنْ بابِ أنَّ ماضيَ قولِهِمْ دالٌّ عَلى فِعلِهِمْ، فليسَ لهمْ أنْ يَرُدّوا، ثُمَّ إنَّهُم قَدْ توعَّدوا المؤمنينَ وجاهَروا بِكُفرِهمْ فلْيَنتظِروا العذابَ راضينَ أوْ سَاخِطينَ(2).

واقتِصارُهُ عَلى حِكايةِ جَوابِ الإنسِ دونَ جَوابِ الجنِّ؛ لأنَّ المشركينَ مِنَ الإنسِ همُ المقصودونَ مِنَ الإتيانِ بالموعِظَةِ في هذهِ الآيةِ(3).

ذِكْرُ حِكايةِ قَولِ الضّالّينَ وعَدَمُ ذِكْرِ قَولِ المضلِّينَ فيهِ تَوجيهٌ آخَرُ؛ وهوَ أنَّهُ تَعالى ذكَرَ مِنْ أقوالِهم ومُناظراتِهمْ ومُجادلاتِهمْ في مَواضِعَ أُخرى مِنَ القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّ ذِكْرَ أقوالِ الضُّعَفاءِ التَّابعينَ قُبالَةَ أقوالِ المتكبِّرينَ المتبوعينَ يُرامُ منها العِظَةُ والاعْتِبارُ؛ فتفريقُ تِلكَ الأقوالِ عَلى مَواضِعَ في الكتابِ الكريمِ فيهِ مِنَ الحِكمةِ ما لا يَخفى(4) كقولِهِ تَعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]، وقَولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: 25] وغيرِهما.

حِكايةُ قَولِهِمْ مُؤكَّدٌ وُقوعُها لا مَحالةَ

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنْ حِكايةِ المستقبَلِ بالفِعْلِ الماضي:

وقَولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ فيهِ تَعبيرٌ عَنِ الأحوالِ المستَقبليَّةِ بالفعلِ الماضي: ﴿وَقَالَ﴾، بِقرينَةِ قَولِهِ: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾، مع

(1) رضا، تفسير المنار: 8/57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/69.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2666.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/68.
(4) رضا، تفسير المنار: 8/58.

أنَّهُ لمْ يَقعْ بَعدُ؛ وعِلّتُه أنَّ فيهِ تَنبيهًا عَلى تَحقيقِ وُقوعِهِ بِدلالةِ الفعلِ الماضي، وَأنَّه مؤكَّدُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ لِأنَّهُ يستحيلُ أنْ يكونَ بَعضُهُ مُحققًّا دونَ بعضِهِ الآخَرِ[1].

نُكتَةُ تَكرارِ شِبْهِ الجُملةِ:

في التَّكرارِ دَفعٌ لِتَوهُّمِ عَودَةِ الهاءِ والميمِ عَلى الإنسِ الأُولَى

وقَولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ كرّرَ ﴿مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ بعدَ ذكرِهِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾؛ دفعًا لِتوهُّمِ عَودةِ الهاءِ والميمِ عَلى الإنسِ؛ لِأنَّهمْ أقربُ المذكورينَ، والسَّديدُ أنَّ الضَّميرَ المتَّصلَ (هم) راجعٌ عَلى الشَّياطينِ، و﴿مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ المذكورةُ مرةً أخرى في محلِّ نَصبٍ عَلى الحاليَّةِ عَلى تَقديرِ "وقالَ أولياؤهمْ كائنينَ مِنَ الإنسِ الَّذينَ أطاعوهُمْ واستَمعوا إلى وَسوَسَتِهِمْ"[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ:

استِحضارُ اللُّطفِ والإحسانِ والتَّوسُّلِ بالرُّبوبيَّةِ

التَّعبيرُ بِلَفظِ ﴿رَبَّنَا﴾ لَهُ عِلَّةٌ، وهيَ شُعورُهمْ بِمعاني الرُّبوبيَّةِ الكامِلَةِ مِنَ اللُّطفِ والتَّدبيرِ والعِنايَةِ وكَمالِ الشَّفقَةِ مِنَ الرَّبِّ عَلى المربوبِ، وهيَ صِفاتٌ لمْ يَشعروا بها في الحياةِ الدُّنيا[3]؛ لِما كانوا فيهِ مِنْ ضَلالِهم وعِصيانِهم ومُتابَعَةِ أوليائِهِمْ مِنَ الجنِّ.

ولَمّا كانَ الموقفُ عَصيبًا في أنَّ مَصيرَهُم إلى النّارِ؛ فقدْ قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ الدَّالَّ عَلى العِنايَةِ واللُّطفِ والتَّدبيرِ والإحسانِ، مُعترفينَ مُستَعطفينَ مُتوسِّلينَ[4]، ولكنْ بعدَ فَواتِ الأوانِ؛ فَحُكْمُ اللهِ ماضٍ.

تَوجيهُ التَّعبيرِ بِصيغَةِ الاسْتِفْعالِ في ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾:

اسْتِمْتاعُ الجنِّ شُعورُهُمْ بِالتَّعظيمِ والسّيادَةِ وتَكثيرِ الأَتْباعِ

ومَعنى الاسْتمتاعِ في قَولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٍ﴾ أيْ: أنَّها مُتعَةٌ مُتبادَلَةٌ؛ فاسْتِمتاعُ الإنسِ بِالجنِّ؛ أنَّ الإنسَ كانوا يَعوذونَ بِالجنِّ حالَ خَوفِهِمْ في سَفرِهِمْ بينَ الوِديانِ وشَقِّهِمُ الفيافيَ والقِفارَ، كما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/69.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/691.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/268.

ذكرَ اللّهُ عَنهُم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجنّ: 6]، وأمّا اسْتِمتاعُ الجنِّ بِالإنسِ فهوَ شُعورُهمْ بِالتَّعظيمِ والسِّيادةِ إذا عاذَ الإنسُ بهم[1].

استِمتاعُ الإنْسِ اسْتِعاذَتُهمْ بالجنِّ ودَفْعُ أذاهُم

كلٌّ مِنَ الجنِّ والإنسِ أعانَ الآخرَ في تَحقيقِ نَوازِعهِ النَّفسيَّةِ بما يُلائمُ طَبعَهُ ويَقضي وَطَرَهُ؛ فاسْتِمتاعُ الإنسِ بالجنِّ كائنٌ في انْتِفاعِهمْ بِشَهَواتِهمْ ولَذّاتِهمْ وأهْوائِهمْ وسَلامَتِهمْ مِنْ أذاهُمْ وبَطشِهم، أمّا اسْتمتاعُ الجنِّ بِالإنْسِ فهوَ تكثيرُ أتباعِهمْ، وإعانَتُهُمْ علَى إضلالِ النّاسِ، وقطْعُ سَبيلِ الصّلاحِ والوقوفُ في وَجْهِ المصْلِحينَ[2].

ومعنى اسْتِمتاعِ الإنسِ بِالجنِّ: أنَّ الجنَّ قادُوهُم إلى الشَّهَواتِ، وعرَّفوهُمْ طرائقَ التَّوصُّلِ إليها وزيَّنوا لَهمُ الأمورَ الَّتي يَهوونَها حتّى يَسهُلَ عَليهِم فِعلُها؛ حيثُ قَبلوا مِنهُم تحسينَ المعاصي، فَوَقعوا فيها وتلَذَّذوا بِها. واسْتمتاعُ الجنِّ بِالإنسِ: طاعَتُهمْ لَهم فيما يُغْرونَهُم بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ والكُفرِ والمعاصي، ومُساعدَتُهم عَلى مُرادِهِم، وشَهوتُهم في إغْوائِهِم[3].

قَصْدِيَّةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ الاسْتِمتاعِ:

الدَّلالةُ علَى مَنافعَ مُتَبادَلةٍ بينَ الإنسِ والجنِّ

وقَصْدُ الاسْتمتاعِ في قَولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ تَعدُّدُ وُجوهِها وتَنوُّعُهُ؛ فقدْ ذكرَ المفَسِّرونَ أَوجُهًا كثيرةً لِهذا الاستِمتاعِ المتَبادَلِ بِحَسَبِ ما سَرَدْنا مِنْ توجيهاتٍ. فكلٌّ مِنَ الفريقَينِ كانتْ لهُ رَغبةٌ في الاسْتمتاعِ، فاسْتمتَعَ الجنُّ بِالإنسِ واسْتمتعَ الإنسُ بِالجنِّ؛ إشباعًا لِلرَّغَباتِ، والنَّزواتِ، والملذّاتِ، وإرضاءً لِلذّاتِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/148، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 4/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/69.
(3) الواحدي، التّفسير الوسيط: 2/323، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/246، والشّوكاني، فتح القدير: 2/183.

الاعتراف بالتّعاوُنِ على الباطلِ وإشْباعِ الشّهواتِ

فائِدةُ التَّعبير باستِمْتاعِ بعْضِهم ببعضٍ:

الاسْتِمتاعُ في قَولِه تَعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ مُتَبادَلٌ بينَ الرَّهْطَيْنِ؛ فالبَعضيَّةُ راجِعَةٌ إلى الفريقَينِ، ولَمّا كانَ الكلامُ الآنفُ المشتَمِلُ عَلى التَّوبيخِ ليسَ عائدًا عَلى الإنسِ حَصرًا، وأنَّ الإنسَ راموا دَفْعَ التُّهمَةِ عَنِ الجنِّ بِأنَّهمُ المنفَرِدونَ بالاسْتِمتاعِ بلْ هوَ قائمٌ مِنَ الطَّرَفَينِ؛ فإنَّهمْ في ذلكَ أرادوا أنْ يُشاطِروا الجنَّ في جِنايَتِهمْ إقرارًا بِالحقِّ وإخلاصًا لِأوليائِهمْ[1].

مآلُ التّفريطِ في الدُّنيا الاسْتِسلامُ والتَّحسُّرُ والنّدامَةُ

بَلاغةُ الكِنايَةِ في ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾:

وفي قَولِه تَعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾ أسلوبُ كِنايةٍ؛ فليسَ القَصدُ مِنْ ذكرِ بُلوغِ الأجَلِ حقيقَتَهُ، فإنَّهُ لا فائدَةَ مِنْ ذِكرِهِ ذلكَ اليومَ، وإنّما المرامُ مِنْ ذِكرِهِ لازِمُ مَعناهُ؛ فإنَّهُ كِنايةٌ عَنْ إظهارِ الحسرةِ والنّدامةِ والأسَفِ عَلى ما فرَّطوا في الدُّنيا، فكانَ أنْ فوَّضوا أمرَهمْ إليهِ ﷻ[2].

التّعبيرُ بالموصولِ عنِ البَعْثِ دالٌّ عَلى المبالغَةِ وتحقُّقِ الوُقوعِ

نُكتَةُ التَّعبِيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

استعملَ الاسمَ الموصولَ في قولِه تَعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾؛ لأنَّ الأجَلَ الّذي أجَّلَهُ لَهمُ اللّهُ تَعالى هوَ الوقتُ؛ وهوَ جِنسٌ؛ فحَسُنَ وصفُهُ بالّذي[3] أي: الوقتُ الَّذي أجَّلْتَ لَنا، وفُسّرِ بأنَّهُ وقتُ البَعثِ والحشرِ.

والتَّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ يدُلُّ عَلى المبالغَةِ وتحقُّقِ الوقوعِ، والمبالغَةُ هُنا تأتي مِنْ كَونِه أعرفَ مِنَ المعرَّفِ بالألفِ واللّامِ، فيما لو قيلَ: (أجَلَنا المؤجَّلَ لَنا)، وهوَ أمرٌ مَعهودٌ عِندَ النَّحْويّينَ في تَرتيبِهِمُ المعارفَ، فإنَّهمْ يُقدِّمونَ الاسْمَ الموصولَ عَلى ما يُعرَّفُ بالألفِ واللّامِ، "لأنَّهُ يُعرَفُ بِالعَينِ وبِالقَلبِ، ثُمَّ ما عُرِّفَ بِالألفِ واللّامِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/69.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/57.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/645.

لأنّه يُعرَفُ بِالقَلبِ فقَطْ"[1] فقَولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾، أبلغُ وأكثرُ تحقُّقًا ممّا لو جاءَ بِهِ بِالألفِ واللّامِ.

سِرُّ حَذْفِ الهاءِ في ﴿أَجَّلۡتَ﴾:

حَـذْفُ العـائدِ لِـلـعِـلْـمِ بِـهِ وشُهرَةِ حَذْفِهِ في كَلامِ العَرَبِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ حذفَ الهاءَ العائِدةَ علَى الموصولِ المنصوبِ؛ ومَعناهُ الموتُ أو البَعْثُ؛ إذ إنَّ تقديرَ الكَلامِ (الَّذي أجَّلْتَهُ لَنا)؛ والسِّرُّ في حَذفِهِ العِلْمُ بِه، فهوَ مَذكورٌ بِدَلالةِ الفِعلَينِ ﴿أَجَلَنَا﴾ و﴿أَجَّلۡتَ﴾، ولِكَونِ حذفِ العائدِ المنصوبِ مِنَ الضَّمائرِ مَشهورًا وكَثيرًا في كلامِ العربِ.

التَّعبيرُ عَنِ القَولِ بِالماضِي، وإسْنادُهُ إلى الغائبِ:

الـتَّـسـلـيـمُ للمَصِيرِ المَحتومِ مُنتهَى الأمْرِ

عبَّرَ عَنِ القَولِ بالماضي في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أوضَحُ في اسْتِحكامِ الثَّباتِ؛ فالماضي يَدُلُّ عَلى تحقُّقِ الأمرِ وثباتِه، وفي إسنادِهِ إلى الغائِبِ ما يُقَوِّي ذلكَ، فإنَّه لا مَفرَّ مِنَ التَّسليمِ بِما أوقعَهُ اللّٰهُ عَلَيهِم مِنْ مَصيرِهِم وهوَ النّارُ؛ لأنَّهُم عاجِزونَ عَنْ مُجادَلَتِهِ ومُحاجَجَتِهِ لو كانَ خاطَبَهُمْ أو كلَّمَهُمْ، فكأنَّ الأمرَ قدْ قُرِّرَ وتمَّ وانقَضى.

بيانُ الفَصْلِ في جُملَةِ: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

شَأنُ المُحاوَراتِ الـفـصْـلُ بين الجُمَلِ

وقَولُهُ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا سَبقَها، والفَصلُ جارٍ عَلى طَريقَةِ القَولِ في المحاورة[2]، فلَمْ يَعطِفْ بِالواوِ أو الفاءِ؛ وعدَمُ الإتيانِ بالعاطِفِ هنا دَفعًا لِتَكرارِ العاطِفِ؛ لأنَّ أفعالَ القَولِ مُكرَّرَةٌ كما تَقتَضيهِ المحاوَرةُ مِنْ نَحْوِ (قالَ، وقلْتُ) وهيَ طريقةٌ عربيَّةٌ فَصيحةٌ مُطَّرِدةٌ في التَّنزيلِ، فكأنَّ فِعلَ القَولِ قدْ عوَّضَ مِنْ ذِكرِ العاطِفِ.

---

(1) ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/581.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/70.

وقولُهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ حِكايَةِ كَلامِهِم[1] فكأنَّ سائِلًا قالَ: ماذا قالَ اللّهُ تَعالى بعدَ أَنْ أطاعوا الشَّياطينَ واتَّبعوا الهَوى وكذَّبوا بِالبَعْثِ؟ فجاءَ الرَّدُّ العادِلُ بأنَّ جَهنَّمَ هيَ قَرارُهُم.

ذِكرُ الخُلودِ دفعٌ لظَنِّ تَحوُّلِ أَهْلِ النَّارِ عَنها

وَجهُ ذِكرِ الخُلودِ مَعَ المثوى ﴿ٱلنَّارُ﴾، وحذْفِه معَ ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

تَعقيبُ المثوى بِالخلودِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ لِأَنَّ المثوى اسْمُ مَكانٍ لِمَنْ أقامَ بهِ إقامَةَ سُكنى قَدْ يُظَنُّ أنَّهُ يَتحوَّلُ عَنهُ؛ فَجاءَ بِخالِدينَ لِيَكونَ مِنْ تَمامِ ما يُقالُ لَهمْ في الحَشْرِ[2]، فهوَ مُتعَلِّقٌ بِما قَبلَهُ ومِنْ لوازِمِه، ولَفظَةُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تَرسيخٌ لِلمكانِ الَّذي يَستقرّونَ فيه، ومَعناهُ البَقاءُ الدّائِمُ بِمشيئَةِ اللّهِ تَعالى الخالِدَة، وبِإنذارِه بِذلكَ في عِدَّةٍ مِنْ آياتِه[3]. أمّا عندَما عبَّر بـ ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فلَيستْ بِها حاجَةٌ إلى تَقْييدِها بِوَصفِ الخُلودِ والدَّيمومَة، فهذِهِ الدّارُ الَّتي هيَ دارُ الرَّحمنِ ودارُ السَّلامة مِنْ كُلِّ آفةٍ مُستقرٌّ ومَكانٌ لِلخُلودِ، فَضلًا عَنْ تعقيبِها بِقَولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾.

يَحتمِلُ عَودُ الضَّميرِ عَلى الفَريقَينِ

تَوجِيهُ عَوْدِ ضَميرِ الخِطابِ في جُملَة: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

وضَميرُ الخِطابِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ راجِعٌ إلى الإنسِ الَّذين اتَّخَذوا الشَّياطينَ أولياءَهُمْ فَهُمُ المَقصودونَ بِذلكَ الخِطابِ[4].

ويُحتمَلُ عَودُ الضَّميرِ عَلى المُطاعِينَ مِنَ الجنِّ والتّابِعينَ لَهمْ مِنَ الإنسِ؛ فجوابُ اللّهِ تَعالى بِقَولِه: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ مَأواكُم ومَنزِلُكُم أنتم وأولياؤكُم، يَعني أنَّ عُذرَكُم هذا عُذرٌ بارِدٌ غَيرُ مَقبولٍ، لا حُجَّة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/70.
(3) ابو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/70.

لَكُم فيهِ، وأنتم وإيّاهُم في النّار[1].

دَلالَةُ الاسْتِثناءِ، وفائدَتُهُ:

دلَّ الاسْتِثناءُ على تخفيفِ العذابِ ويَحتملُ الاستثناءُ تهكُّمًا شَديدًا

دَلالَةُ الاسْتِثناءِ في مَشيئَتِه تَعالى في: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ بِمعنى تَخفيفِ العَذاب عَلى مَنْ يَشاءُ تَعالى مِنَ الخالِدينَ، أَوْ نَجاةِ مَنْ لَمْ يكُنْ عندَهُ الشِّركُ مُعتقَدًا راسِخًا[2]. فخالِدينَ فيها إلّا ما شاءَ اللّهُ عَدَمَ خُلودِهِ مِنَ العُصاةِ الَّذينَ أُدخِلوا فيها لِتُمحِّصَهُم وتُطَهِّرَهُم مِنَ الذُّنوبِ، وغايَةُ ما في البابِ أَنَّهُ أَطلَقَ ﴿مَا﴾ وأرادَ (مَنْ)، وإطلاقُ ﴿مَا﴾ مُرادًا بِها (مَنْ) كثيرٌ في القُرآنِ، كقَولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، أي: مَنْ طابَ لَكُم[3].

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ في المشيئَةِ في أُناسٍ مُخَلَّدينَ في النّارِ إلّا الأوقاتَ الَّتي يُنقلونَ فيها مِنْ عَذابٍ إلى آخرَ، كَنقلِهِمْ مِنْ عَذابِ النّارِ إلى عَذابِ الزَّمهريرِ الَّذي يُميِّزُ بَعْضَ أَوْصالِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِشِدَّتِه، حتّى إنَّهمْ يطلُبونَ أنْ يُرَدّوا إلى الجَحيمِ[4].

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مُتعلِّقًا بِقولِ المَوتورِ الَّذي ظفرَ بواترِه، فطَلَبَ هذا الأخيرُ أنْ يُنفِّسَ عنهُ، فوعَدَهُ بذلكَ تَشفّيًا منهُ بأشَدِّ ما يكونُ وَأَعْنَفِهِ، لا حقيقةً في كَشفِ الضُّرِّ عنهُ؛ وإنّما تهكُّمًا بالموعِدِ لِخروجِه عَلى طَريقَةِ الاسْتِثناءِ[5].

تَوجيهُ الاعتِراضِ في جُملةِ الاستثناءِ:

مَشيئةُ الله تعالى مُطلقةٌ لا تَتقيَّدُ ولا تَتحدَّدُ

ويجوزُ أن يكونَ قَولُهُ تَعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مِنْ خِطابِه تَعالى لِرَسوله ﷺ، فوقعَتْ هذهِ الجملةُ اعتراضًا بينَ ما قَصَّهُ الحقُّ ﷻ عَلَيهِ مِنْ أحوالِ المشركينَ وحَشْرِهِمْ مَعَ أوليائِهِمْ، وبينَ ما ذيَّلَ بهِ الآيةَ مِنْ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/339، والشنقيطي، العذب النمير: 2/244.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/489.
(3) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/244.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/65.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 2/65، والقاسمي، محاسن التّأويل: 4/489.

قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لِيكونَ الوقْفُ عَلى خالِدينَ فيها[1].

وَجْـهُ الكِـنـايَـةِ الـتَّـعـبـيرُ عَـنْ مَـحْـضِ إرادتِـهِ تَـعـالى وكَـمـالِ قُدْرَتِهِ

بَلاغةُ الكِنايَةِ في جُملةِ الاسْتثناء:

وإذا لَمْ يُمكِنِ الوَقْفُ عَلى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلْ عَلى جَعلِها مِنْ جملةِ المقولِ في الحَشرِ، فإنَّ الاسْتثناءَ هُنا لا يُقصَدُ مِنهُ إخراجُ الوَقتِ والأحوالِ كما هوَ الحالُ في التَّعريفِ الاصطلاحيِّ لِلاسْتثناءِ[2]، وإنَّما التَّعبيرُ بِهِ مِنْ بابِ الكِنايَةِ؛ فالَّذي يُقصَدُ مِنْ ذلكَ الخلودِ الإشارةُ إلى قُدرةِ الحقِّ ﷻ عَلى وجهِ الاختيارِ، ولِيُظهرَ تَمامَ قُدرَتهِ ومَحضَ إرادَتهِ[3]، فهوَ يفعلُ ما يُريدُ وأنّى يُريدُ وكيفَ يُريدُ؛ فذِكرُ المشيئَةِ هُنا عامَّةٌ تدُلُّ عَلى أنَّهُ يَشاءُ ذلكَ وهوَ خلودُهُم، وأنَّهُ يُمكِنُ أنْ يَشاءَ غيرَ ذلكَ[4].

المَصدريَّةُ تَحتملُ الظَّرفيَّةَ لِتَشمَلَ عُمومَ الأَزمنةِ

دَلالةُ ﴿مَا﴾ بينَ المَصدريَّةِ والمَوصوليَّةِ:

﴿مَا﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تَحتمِلُ وُجوهًا عِدَّةً فصَّلَها الطّاهِرُ بنُ عاشورٍ عَلى النَّحوِ الآتي[5]:

في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تَحتمِلُ ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ ظرفيَّةً مَصدريَّةً، ويكونُ الاسْتثناءُ على بابِه، فتكونُ الجملةُ اسْتثناءً إمّا مِنْ عُمومِ الأزمنَةِ، فيكونُ الفعلُ بعدَها عَلى تَأويلِ مَصدَرٍ، فيكون تَقديرُ الكَلامِ: (خالِدينَ فيها إلَّا وقتَ مَشيئَتهِ تَعالى أنْ يُزيلَ خُلودَكُمْ)، وإمَّا من عُمومِ الخالدينَ الَّذي في ضمير ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي إلَّا فريقًا شاءَ اللّهُ أن لا يخلدوا في النَّارِ[6].

وتَـحـتـمِـلُ غَـيرَ الظَّرفيَّةِ فتكون تَهديدًا وتَحذيرًا لِلمُشركينَ

وتَحتمِلُ أنْ تكونَ مصدريَّةً غيرَ ظَرفيَّةٍ، ويكونَ الاسْتثناءُ مُعترِضًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/71.

(2) الاستثناءُ هو "الإخراجُ بإلاّ أو إحدى أخواتِها لِما كانَ داخِلاً أو مُنزَّلاً مَنزِلَةَ الدّاخل"، يُنظر: الأشموني، شرح على ألفيّة ابن مالك: 1/502.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/72.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2668.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/71 - 72.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/71.

بينَ حِكايَةِ ما يُقالُ لِلمُشركينَ وقتَ حَشرِهِمْ وبينَ ما خوطبَ بِهِ الرّسولُ ﷺ، فيكونُ هذا الاعْتِراضُ تَهديدًا وإعذارًا للمُشركينَ الأحياءِ أنْ يُسلموا، فيكونُ التَّقديرُ: إلَّا أنْ يشاءَ اللّهُ عدمَ خُلودِهمْ، أيْ: في تلكَ الحالِ الَّتي يوفِّقُ فيها بعضَ المشركينَ لأنْ يُسلِموا في حَياتِهِمْ.

في الموصوليَّةِ اسْتِثناءٌ لِأقوامٍ سبَقَ في عِلمِهِ أنَّهمْ يُسلِمون

وتَحتمِلُ أنْ تكونَ مَوصولةً بمعنى (مَنْ)؛ فإنّها تُستعمَلُ لِلعاقلِ بِكَثرةٍ، فقدْ نُقِلَ عنِ ابنِ عَبّاسٍ أنَّ الحقَّ ﷻ اسْتثنى أقوامًا سبَقَ في عِلمِهِ أنَّهمْ يُسلمونَ، وعَلَيهِ يجبُ تأويلُهُ، لِأنَّ أهلَ العلمِ مُجمِعونَ عَلى اسْتِحالةِ أنْ يَغفرَ اللّهُ لِلمشركينَ.

استحقاقُ الخلودِ في النّارِ مَنوطٌ بالشِّركِ، والنَّجاةُ منهُ مَنوطةٌ بالإيمانِ

نُكتةُ التَّذْييلِ في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

وقَولُه تَعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَهُ، وإقفاءٌ لما ذَكرَ مِنْ مَشيئتِهِ تعالى وتأكيدٌ لها في أنّهُ جَعلَ العذابَ مَنوطًا بموتِهِمْ وهمْ مُشركونَ، ثمَّ جعلَ النَّجاةَ مِنْ خُلودِهِمْ مَنوطةً بإيمانِهِمْ[1].

ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بِصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ والحِكمَةِ والعِلمِ بعدَ المشيئةِ؛ فإنّها تَسيرُ بِمُقتضى الرُّبوبيَّةِ والعِنايةِ الإلهيَّةِ، وتَسيرُ بِمُقتَضى حِكمتِهِ الَّتي تُقدِّرُ الأمورَ في إيقاعِ العذابِ عَلَيهِم وخُلودِهِم، وأنَّهُ ما خلقَ شيئًا عَبثًا، وأنّ ذلكَ التَّدبيرَ وهذا الخَلْقَ كانَ بِمُقتَضى عِلْمِهِ الَّذي أحاطَ بكلِّ شَيءٍ، ووَسِعَ كُلَّ شَيءٍ[2].

ما رَتَّبهُ اللهُ عَلى الشِّركِ مِنَ الخُلودِ كانَ بِحِكْمتِهِ وعِلْمِهِ

تَوجيهُ الاعْتِراضِ في جُملةِ الفاصلَةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ مُعترضةٌ بيْنَ الجملِ المقولةِ لِأولياءِ الجنِّ في الحَشرِ، وغَرضُها بيانُ أنَّ ما رتَّبهُ الحقُّ ﷻ عَلى الشِّركِ هوَ خُلودُهمْ في النّارِ[3]؛ وما ذاكَ إلَّا بِما اقْتضَتْ حِكمتُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/73.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2669.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/72.

تعالى وما أحاطَ بِه عِلْمُه.

الخُلودُ في النّارِ صَدَرَ عنْ حكيمٍ عَليمٍ بالأحوالِ كُلِّها

صِيغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَكِيمٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾ في الفاصلةِ:

والتَّعبيرُ بصفتَي الحَكيم والعَليم فيهِ تَلاؤمٌ دقيقٌ معَ سياقِ الآيةِ؛ فإنَّ خلودَ هؤلاءِ الكفَرةِ في النّارِ ما كانَ عَبثًا، وإنّما هوَ فعلٌ صادرٌ عنْ حِكمةٍ وعِلْمٍ بمَواقِعِ الأشْياءِ[1]، فالحَكيمُ هوَ مَنْ يضَعُ الأشياءَ مَوضِعَها، ولإظهارِ أنَّ قضاءَ اللهِ وقدرَهُ عَلى عِبادِهِ مَبنيٌّ عَلى حِكْمتِه البالغةِ وعِلْمِهِ الشّاملِ؛ فاللهُ تعالى هوَ الحكيمُ الَّذي لا يفعلُ شيئًا إلّا لِحكمةٍ عَظيمةٍ، ولا يُضيعُ أجرَ المحسنينَ. والعليمُ هوَ المحيطُ بأحوالِكُمُ المستحِقَّةِ لِلثَّوابِ والعِقابِ، الَّذي لا تَخفى عَلَيه خافيةٌ في السَّمَاواتِ ولا في الأرضِ، ولا يغيبُ عنهُ شَيءٌ مِنْ أفعالِ الخلائقِ وأحوالِهِم؛ فهوَ يَجزي كُلَّ نفْسٍ بِما كسبَتْ، ولا يَظلِمُ سبحانَه أحَدًا.

وَقَعَتْ صِفةُ العِلْمِ مَوقعَ العِلَّةِ للحِكْمةِ

سِرُّ تقديمِ الحِكْمَةِ عَلى العِلْمِ:

السّياقُ في هذهِ الآيةِ يَقتضي تَقديمَ الحِكمَةِ عَلى العِلْمِ؛ فهوَ حكيمٌ لا يُعذِّبُ المُخلِصَ ويَترُكُ المُشرِكَ، عليمٌ بما يَدِقُّ مِنَ الأمورِ وما يَعظُمُ، فلا يَخفى عَلَيهِ شَيءٌ[2].

وقدّمَ الحكيمَ عَلى العليمِ لأنَّ السّياقَ في الجَزاءِ واسْتِحقاقِ الكافرينَ العذابَ والخلودَ، وهوَ ما يَليقُ بِالحِكمَةِ أكثر مِنَ العِلْمِ؛ فالمقامُ مَقامُ تَشريعِ الأحكامِ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المثوَى)، و(الدّارُ)، و(المُقامُ)، و(المنزِلُ)، و(المَصيرُ)، و(المَقرُّ):

آثرَ التَّعبيرَ بالمَثوى في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ عَلى ألفاظٍ أُخرَ مُتقارِبَةِ المعنى؛ لِمُطابَقتِها السّياقَ الواردةَ فيهِ أيَّما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/346.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/269 - 270.

(3) الزَركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/262.

مُطابقَةٍ، ومعنى: "مَثواكُم يعني مَأواكُم"(1)، والمثوى هوَ المأوى والمَسكَنُ والمَنزِلُ لكنْ على نيّةِ الإطالةِ في الإقامةِ فيه(2)، وهذه عَلامةٌ فارقةٌ، وآيةُ ذلكَ أنَّه أتبعَهُ بقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ففيهِ تَمتينٌ لِهذا المعنى وتَرصينٌ لاسْتعمالِه لَفظَ المثوى وإيثارِه على غيرِه مِنَ الألفاظِ الأُخرى المتقاربَةِ الَّتي يشوبُها ضَعفٌ أو اخْتلافٌ أو عَدَمُ مُناسَبَةٍ أو بُعدٌ عنْ سياقِ الآيةِ، كما سَيتبيَّنُ مِنْ مَعرفةِ مَعاني الألفاظِ الَّتي تُقارِبُ المثوى مِنْ جِهَةِ المعنى.

المثوَى هو المأْوَى على نيّةِ الإطالةِ في الإقامَةِ ممّا يَتناسَبُ معَ الخلودِ، وليس كذلكَ معَ الألفاظِ الأُخرى

فالمقامُ: معناهُ مَوضِعُ القيامِ، أمّا المصيرُ: فهوَ تحويلُ الشَّيءِ إلى نقيضِ الحالِ الَّتي هوَ عَلَيها(3)، والمنزلُ: مُشتَقٌّ مِنَ النُّزلِ، وعامةُ مَعناهُ يدُلُّ عَلى اللَّبْثِ مُدّةً قصيرةً كالنَّزيلِ بمعنى الضَّيفِ، والنِّزالُ في الحربِ بمعنى المُبارزَةِ، ومِنْ مَعانيهِ المطرُ القليلُ(4)، والمقرُّ: هوَ "المرجِعُ الَّذي يَرجِعُ إلَيهِ مَنْ فارقَهُ"(5)، والدّارُ: الأصلُ في الدّالِ والواوِ والرّاءِ دَلالتُها عَلى إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ وإحاطَتِه بِهِ مِنْ حَوالَيهِ؛ فالأصلُ في معناها الإحاطةُ لا الإقامَةُ والسُّكْنى(6).

الحكيم والعليم:

وردَتِ الصِّفتانِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فالحكيمُ صيغةُ مُبالغةٍ، ويُطلَقُ الحكيمُ على العَالمِ صاحبِ الحكمةِ الَّذي يُتقِنُ الأمورَ(7)، أمّا العليمُ فهوَ الَّذي إنْ وُجدَ معلومٌ فلا شكَّ في أنَّه يَعلَمُهُ(8)؛ فالحكيمُ أدخَلُ مِنَ العليمِ في مَعرفةِ بَواطنِ الأمورِ وما تَقتضيهِ المصلَحَةُ، والمقامُ مَقامُ تَشريعٍ؛ ولِذلكَ قدَّمهُ في الآيةِ.

الحكيمُ صاحِبُ الحِكمةِ المتقِنُ لِلأمورِ، والعَليمُ إنْ وقعَ مَعلومٌ فهو يَعلمُهُ

(1) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/371.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ثوي).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 537، 492.
(4) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نزل).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (بوأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(7) الكفوي، الكلياتِ، ص: 380.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 347.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾

[الأنعام: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ولايةُ الظّالمِينَ بعضِهِم بَعضًا بِالدّوافعِ الَّتي يَلتَئِمونَ حَوْلَها

لَمّا بيّنَ الحقُّ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ مِنْ وِلايةِ الإنسِ لِلجنِّ، وأنَّ هؤلاءِ قدْ تَسلَّطوا على الإنسِ واستمتعَ بَعضُهمْ ببَعض؛ أخبرَ هنا أنَّ هذا دأْبُهُ معَ الظّالمينَ؛ فهوَ يُوَلّي بعضَهُم بَعضًا ويُسلِّطُ بَعضَهمْ على بَعض؛ بما اجْتمَعوا عليهِ مِنَ الأسبابِ المؤدّيةِ إلى الظُّلم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ مُسنَدٌ إلى وَاوِ الجماعةِ؛ الجَذرُ اللُّغَويُّ منهُ (كسب)، والأصلُ فيهِ دَلالتُهُ "على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، فالكسبُ مِنْ ذلكَ"، والكَسْبُ التماسُ الرِّزقِ ونحوِه، ويكونُ للإنسانِ نفسِهِ ولِغيرِه، وعُمومُ معناهُ في جمعِ الشَّيءِ وتَحصيلِهِ شَيئًا فَشيئًا معَ الجُهدِ والمشَقّة، ومِنْ معانيهِ أيضًا أنْ يَتحَرّى المرءُ اجْتلابَ النَّفعِ وتحصيلَهُ، وربّما ظنَّ الإنسانُ أنّهُ يجتلبُ مَنفعَةً ثُمَّ اسْتجلبَ لَهُ مَضرَّةً؛ والكَسبُ يُستعمَلُ في الخيرِ والشّرِّ، والسّياقُ يحدِّدُ ذلكَ إلّا أنَّ الغالبَ علَيه كَونُهُ في الخيرِ، والاكتسابُ في الشَّرِّ[2]. ومعنى ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في الآيةِ: أي: بما يَقترفونَ ويُحَصِّلونَ مِنَ الظُّلمِ والبَغْيِ والشَّرّ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الحقُّ ﷻ المعتبِرينَ مِنْ خَلْقِه أنّهُ كما جَعلْنَا بعضًا مِنَ الجنِّ والإنسِ أولياءَ بعضٍ فاستمتَعوا بينَهمْ، كذلكَ نَكِلُ الظّالمينَ بعضَهُم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/270.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كسب).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/305.

سُنَّةُ اللهِ في تَوْلِيَةِ كلِّ ظالمٍ بِمِثلِهِ يُرَغِّبُهُ في الشَّرِّ ويَصُدُّهُ عَنِ الخَيرِ

إلى بعضٍ، أو نجعلُ بعضَهُم يَتولّى بعضًا غِوايةً ودعوةً إلى الشَّرّ وتَنفيرًا منَ الخيرِ، أو نجعلُهُم أولياءَ بعضٍ وقُرَناءَهُم في العذاب كما كانوا في الدُّنيا بما كانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وسَيِّئِ الأفعالِ ورَديءِ الخصالِ[1].

والمقصودُ منَ الآيةِ العِظةُ والاعتبارُ والتَّحذيرُ مِنْ أنْ يَغترَّ النّاسُ بِولايةِ الظّالمينَ، وأنّ مآل هذا الفعلِ وعاقبتَهُ مِنْ سُنَنِهِ تعالى في العالَمين[2]. وفيها تهديدٌ لِلظّالم؛ إنْ لم يمتنِعْ مِنْ ظُلمِه سلَّط اللّهُ عَلَيه ظالمًا آخرَ. ويَدخُلُ في الآيةِ جميعُ مَنْ يَظلِمُ نفْسَهُ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ الوَصْلِ فِي الآيةِ:

الآيةُ تَتميمٌ لِجُملةِ الاعْتِراضِ وتذييلٌ مُقرِّرٌ لمِضْمُونِها

لَمّا تبيّنَ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أنّه تذييلٌ مقرِّرٌ لما سبقَ ذكرُهُ مِنْ شَأنِ المشيئة، فإنّ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هوَ مِنْ تمامِ التَّذييلِ، والواوُ حاليَّةٌ[4]، أي: والحالُ أنّنا نُولّي بعضَ الظّالمينَ بعضًا.

ولَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةً معترضةً بينَ الجملِ المقولةِ لأولياءِ الجنِّ في الحشرِ، فإنَّ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تتميمٌ لذلكَ الاعتراضِ[5] المبنيِّ على أنَّ خلودَهُم في النّارِ تَقتضيه حِكمتُهُ وعِلمُهُ تعالى.

دَلالةُ اسْمِ الإشارةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاءَ مُذكَّرًا؛ لأنَّ التَّوليَةَ المأخوذَةَ منَ الفعلِ ﴿نُوَلِّي﴾ مُذكَّرٌ، وتأنيثُها غيرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/75.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/73.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/73.

حَقيقيّ، والمعنى: أنّنا مِثلَما ولّينا على نحوِ مُوالاةِ شياطينِ الإنسِ لِلجنِّ؛ فالجامعُ بينَهُمُ الخُبثُ والشَّرُّ، كذلكَ نفعلُ بينَ الظّالمينَ؛ بعضِهِمْ معَ بَعضٍ؛ وهؤلاءِ الجامعُ بينَهُمُ الظُّلمُ والعُدوانُ(1).

جَزاءُ الظّالمينَ هو جَزاءُ مُوالاةِ الشّياطينِ بعضِهم لبعضٍ

بَلاغةُ التَّشبيهِ في الآيةِ:

لمّا شابَهتِ الصِّفاتُ الصِّفاتِ أُلحِقَتِ الذَّواتُ بالذَّواتِ

التَّشبيهُ بالكافِ يدُلُّ على أنَّ شَيئًا شُبِّهَ بشَيءٍ، أي: مِثلُ ذلكَ التَّولّي، فالتَّشبيهُ المستفادُ منَ الكافِ يفيدُ تشبيهَ الصِّفاتِ بعضِها بِبَعضٍ، فإنَّ حالَ النّاسِ في تأثيرِ بعضِهِمْ ببعضٍ بالفسادِ يشبهُ حالَ شياطينِ الجنِّ أو شياطينِ الإنسِ بإغراءِ بَعضِهِم بعضًا بالفسادِ؛ ويَحسَبُ هؤلاءِ وأولئكَ أنّهُم مُستمتعونَ(2).

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تَشويقُ السّامعِ والتّمهيدُ لِما سيُلقَى إليهِ مِنْ كَلامٍ

نُكتةُ تقديمِ حَرفِ الجرِّ ومجرورِهِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ على مُتَعَلّقِهِ وهوَ الفعلُ ﴿نُوَلِّي﴾، هيَ تشويقُ السّامعِ إلى مَا بعدَ التَّشبيهِ، وهوَ مِنْ فُنونِ الخطابِ القرآنيِّ البليغِ؛ فإنَّ (كذلكَ) فيها تمهيدٌ لِما سَيُقالُ؛ وهوَ المشبَّهُ مِن حالِ الظّالمينَ الَّذينَ ولّى الحقُّ ﷻ بعضَهمْ بعضًا، كما فعلَ معَ الشَّياطينِ وأوليائهِم منَ الإنسِ؛ وهُمُ المشبَّهُ بهِ.

تَوجِيهُ تَعدِيةِ فعْلِ التَّولِيةِ:

أي: نجعلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ

الفعلُ ﴿نُوَلِّي﴾ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يأتي مِنَ الولاءِ ومِنَ الولايةِ، فكِلاهُما يكونُ فعلُهُ المُتَعدّي (ولّى) أي: جعلَ وليًّا وهوَ مِن بابِ (أَعطى وكَسا)(3) الَّذي يَتعدّى إلى مفعولَين، فمعنى "نُولّي بعضَ الظّالمينَ بعضًا: نجعلُ بعضَهُمْ أولياءَ بعضٍ"(4) أي: نُصيِّرُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/150.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2669 - 2670.
(3) نوعٌ منَ الأفعالِ يتعدّى إلى مفعولين ليسَ أصلُهما مبتدأً وخبرًا، ولكَ أنْ تقتصرَ على أحدِهما. يُنظر: ابن السّرّاج، الأصول في النحو: 2/282.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ73.

عِلّةُ جَعْلِ الفريقَينِ ظَالِمِين:

في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ يقرِّرُ الحقُّ ﷻ أنّ مآلَ مُوالاةِ الظّالمينَ الظُّلمُ، فجعلَ الفريقَينِ ظَالِمِينَ؛ لأنَّ مَنْ يتولّى قومًا فإنّهُ يكونُ مِنهمْ[1]؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ٥١﴾ [المَائِدَة: 51]. ومِنْ ذلكَ أنَّ العبادَ إذا كَثُرَ ظُلمُهُم وفَسادُهُم، ومَنْعُهُمُ الحقوقَ الواجِبَة، ولَّى اللّهُ عَليهِم ظَلَمَةً يَسومونَهُم سوءَ العذابِ، ويأخذونَ مِنهُم بِالظُّلمِ والجَوْرِ أضعافَ ما مَنَعوا مِنْ حُقوقِ اللّهِ، وحقوقِ عِبادِهِ، على وجهٍ غَيرِ مأجورينَ فيهِ ولا مُحتسِبينَ. كما أنَّ العبادَ إذا صَلَحوا واسْتَقاموا، أصلحَ اللّهُ رُعاتَهم، وجعلَهُم أئمَّةَ عَدْلٍ وإنصافٍ، لا وُلاةَ ظُلمٍ واعتِسافٍ[2].

مَنْ تولّى قومًا صَارَ مِنهُم، والظُّلمُ المتكَرِّرُ يُؤدّي إلى ظُلْمٍ عامٍّ

معنَى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّةِ[3]؛ فهذا مَصيرُهُمْ وجزاؤهُمْ بسببِ ما اقْترَفوا منَ الأعمالِ الخبيثةِ والكُفرِ والعِصيانِ[4].

مَصيرُهُمْ مآلُ أعمالِهِم

نُكتَةُ التَّعبيرِ بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

تَحتمِلُ (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنْ تكونَ موصولةً بمعنى الَّذي، وعَبَّرَ بـ (ما) تحديدًا لأنّها تدُلُّ عَلى العُمومِ وهوَ مناسِبٌ لِلكَسْبِ، فيما تدُلُّ (الَّذي) على التَّنصيصِ، فأرادَ كلَّ ما يَكسِبونَهُ، وتَحتمِلُ أنْ تكونَ مصدريَّةً؛ فتُؤَوَّلُ معَ فعلِ الكَسْبِ على المصدريَّة، عَلى تَقديرِ كسبِهِمْ في حياتِهِمُ الدُّنيا[5].

عِلَّةُ التَّوليةِ ما كانوا يَكْسِبونَهُ في حياتِهِمُ الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/73 - 74.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 144.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/8.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/66.
(5) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 1/648.

دَلالةُ فعْلِ الكوْنِ الماضِي:

استمرارُ العَمَلِ يُورِّث الثَّبات عليه

عبَّرَ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بفعل الكون الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ أعمالَهم الكسبيَّة كانت دَيْدَنهم، وكانوا مستمرِّين فيها، لا ينقطعُون عنها؛ فجازاهُمُ اللهُ تعالى بأنْ ولَّى بعضَهم بعضًا بما كَسَبوا منَ الأعمالِ السَّيئةِ والخِلالِ الرَّديئة.

بَلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الكَسْبِ بالمضارِعِ:

كانَ كسْبُهم منَ الكفرِ والمعاصِي مُتَجدِّدًا مُستمِرًّا

التّعبيرُ عن الكَسب بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ دالٌّ عَلى أنَّهم كانوا "مُستمرّينَ عَلى كَسبِهِ منَ الكُفرِ والمعاصي"[1]، فالفعلُ المضارعُ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّ كَسْبَهم كانَ مُتَجدِّدًا مُستمِرًّا فجُوزُوا بهذا الجزاءِ.

إيثارُ لَفْظِ الكَسْبِ عَلى غَيرِهِ:

الكَسْبُ هو ما يُبِّتُ وِلايةَ بَعضِ النّاسِ بعضًا

آثرَ لفظَ الكسبِ في الآيةِ كيْ يُحقّقَ المشاكَلَةَ والتّناسُبَ الحقيقيَّ لا الصّوريَّ بينَ الظّالمينَ، الّتي يُقرِّرها الكَسْبُ والعملُ في تضامِّ بعضِهمْ إلى بعضٍ "فالمدارُ في الولايةِ بينَ النَّاسِ عَلى المشاكَلةِ النَّفسيَّةِ الّتي قرَّرهَا الكسبُ والعملُ، لا الصُّوريّةِ أو اللَّفظيَّةِ الّتي لَم يُقرّرِ الكَسْبُ معناهَا؛ ولذلكَ قالَ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ولمْ يقلْ: بما كانُوا يُلقّبُونَ"[2] أي: يُلقَّبونَ بما ليسَ فيهِم، فكلُّ جامعةٍ بينَ النّاسِ لا يؤيِّدُها الكسبُ والعملُ تضعُفُ حتّى تكونَ صوريَّةً لفظيَّةً.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكَسْبُ)، و(النَّيْلُ)، و(الرِّبحُ)، و(الجَنْيُ):

وردَ فعلُ الكسبِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ وعامَّةُ معناهُ في الطَّلَبِ والالتماسِ والاجتلابِ والتَّحصيلِ، وقد مرَّ في شرحِ المفرداتِ؛ والكسبُ يكونُ لِلنَّفسِ ولغيرِها، خلافَ الاكْتِسابِ؛ إذ يكونُ مُختصًّا

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/492.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/91.

الكَسْبُ طَلَبٌ وتَحصيلٌ، والنَّيلُ بلوغٌ ووصولٌ، والرِّبحُ مُختصٌّ بالبيوعِ، والجَنْيُ للثَّمرِ عندَ اليُنوعِ

بالنّفسِ لا يَتعدّاها إلى غَيرِها؛ وفيهِ نَظرٌ، أمّا النّيلُ فالأصلُ فيه الوصولُ إلى الشَّيءِ وبلوغُهُ، وإذا أُطلِقَ كانَ بمعنى النَّفعِ، ويقعُ عَلى الشَّرِّ بالتّقييدِ[1]، ويَبعدُ أن يكونَ مناسِبًا في مَوضِعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بُعدًا كبيرًا لِتبايُنِ المعنَيينِ ارتفاقًا معَ سياقِ الآيةِ؛ فالموضِعُ موضِعُ جزاءٍ وعِقابٍ وليس مَوضِعَ نَفعٍ ومَصلحةٍ ولا سيّما معَ إطلاقِهِ، أمّا الرِّبحُ فهو ما كانَ مُختصًّا بالتّجارةِ والبَيعِ والشِّراءِ[2]، ونقيضُهُ الخسارةُ، والجَنيُ مُختَصٌّ بِقَطفِ الثِّمارِ، وذُكِرَ أيضًا جنى النَّخلِ، ومنهُ قولُهُم: جنى ثمرَ النَّخلِ حتّى قيلَ: إنَّه مُختصٌّ بالنّخلِ وليسَ كذلكَ؛ لاسْتعمالِهِ مجازًا في قَولِهِم: فُلانٌ يَجتني ثمرَ الفؤادِ[3]، والأعمُّ الأغلبُ فيهِ مُتعلِّقٌ بجنيِ الثَّمرِ حقيقةً كانَ أمْ مَجازًا.

(1) الكفوي، الكليات، ص: 910.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (ربح).

(3) البندنيجي، التّقفية في اللّغة، ص: 127.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا نقل لَنا الحقُّ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ محاورةَ الجنِّ والإنسِ وما نتجَ عَنها منَ الضَّررِ والخُسرانِ "وكانَ حاصِلُها أنّها موالاةُ مَنْ ضرّتْ مُوالاتُهُ، أتبعَها سبحانَهُ بمحاورةٍ أخرى حاصِلُها معاداةُ مَن ضرّتْ معاداتُهُ"[(1)]، فجاءَ بهذهِ الآيةِ وصدَّرَها بِنداءِ الجنِّ والإنسِ؛ إتمامًا لما كانَ منَ الآياتِ السّابقةِ منَ التَّوبيخِ والتَّقبيحِ.

أتبعَ محاورةَ الولاءِ بينَ الإنسِ والجنِّ بمحاوَرةٍ حاصِلُها مُعاداةُ مَنْ ضرَّتْ مُعاداتُه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُصُّونَ﴾: فعلٌ دالٌّ عَلى الحالِ والاسْتِقبالِ، مُسنَدٌ إلى الجَماعَةِ؛ الجذرُ اللُّغَويُّ منهُ (قصص)، وهوَ أصلٌ يَدُلُّ عَلى تتبُّعِ الأثرِ حتّى يعلمَ صاحِبُهُ أينَ يكونُ، والقَصَصُ: الأخبارُ الَّتي يَتبَعُ بعضُها بعضًا، كقولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] أي: نُبيِّنُ لك منَ البيانِ أحسنَهُ، مِنْ قَولِهم قصَّ الخبرَ، أي: جاءَ بالقصّةِ[(2)]، والقصُّ اقتفاءُ الأثَرِ، ومنهُ القِصَّةُ وهي مَعروفَةٌ، وهيَ الأمرُ والحديثُ. ومعنى ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: يُخبرونَكُم بأدلةِ تَوحيدِي وصِدقِ أنبيائي، والعملِ بما أمرتُهم والانتهاءِ عمّا نَهيتُهم[(3)].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/271.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (قصص).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/120.

2) ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾: فعلٌ ماضٍ؛ الجَذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (غرر)، أصلٌ يدُلُّ على الغَفلةِ ونُقصانِ الفِطنةِ، والغَرُّ مِنَ الخداعِ، يُقالُ في المؤمنِ إنَّه غِرٌّ كريمٌ، وهو الَّذي يلبّيكَ مُسرِعًا مُنخدِعًا لِلينهِ وانْقيادهِ، والغرورُ ما يغرُّ الإنسانَ كالجاهِ والمالِ والشّهوةِ، وقد فُسِّرَ بالشَّيطانِ أيضًا، وبالدُّنيا الَّتي تَضرُّ وتَغرُّ، ويُقالُ: غرَّتهُ الدُّنيا، أي: خدَعَتهُ بزُخرُفِها وزينَتِها[1]. والمعنى في الآيةِ: لأجلِ استيلاءِ حُبِّ الدُّنيا عَلى قلوبِهِم أعرَضوا عَنْ حقيقةِ الدِّينِ واقْتصَروا عَلى تَزيينِ الظَّواهرِ لِيتوسَّلوا بِها إلى حُطامِ الدُّنيا[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تَقريعُ الكافرينَ عَلى عَدمِ إيمانِهِم، وإعراضِهِم عنِ الهُدَى المرسَلِ إليهِم

في يومِ الحشرِ ينادي الحقُّ ﷻ معشرَ الجنِّ والإنسِ كلَيهِما مُقرِّرًا لَهما: ألَمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِنْ جِنسِكم - فهُمْ منَ الإنسِ - يَتلونَ عَلَيكم ما أنزلَ اللّهُ عَلَيهم وما أجْرى عَلى أيديهم مِنْ نِذاراتٍ، وبِشاراتٍ؟ وليسَ لَهم إلا أنْ يُقرّوا بالشهادةِ على أنفسِهم بالتَّبليغِ والإنذارِ، فكذَّبوا وجَحَدوا، وخَدعَتهُمُ الدُّنيا بِزينَتِها، وأَقَرّوا عَلى أنفسِهِم أنَّهم كانوا في الدُّنيا كافرينَ باللّهِ وبرُسُلِهِ، ولَنْ ينفعَهُم هذا الإقرارُ ولا الإيمانُ، لِفواتِ وقتِهِ[3].

وفي الآيةِ ذمٌّ لَهم على سوءِ نَظَرِهم وخَطَأِ رأيِهم، فإنَّهمُ اغتَرّوا بالحياةِ الدُّنيويَّةِ ومَلذّاتِها، وأعرَضوا عنِ الآخرةِ بالكليَّةِ، وفيها تَحذيرٌ للسّامعينَ مِنْ مثلِ حالِهِم[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غرّ).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/24.
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 144.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/183.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ فِي الآيةِ:

تَعْدادُ جَرائمِ الكافرين مُفضٍ إلى خلودِهِمْ، وإبطالِ مَعذرتِهِمْ، واسْتحقاقِهِمُ العقابَ

قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا سبقَتها؛ لأنّها واقِعَةٌ في مَقامِ إحصاءِ جرائمِهِمْ وذُنوبِهِمُ الَّتي كانتْ سببًا في اسْتحقاقِهِمُ الخلودَ في النّارِ، فأبطلَ مَعذرتَهمْ؛ وفيها إعلانٌ وتقريرٌ على أنَّهُم مَحقوقونَ بما جُزُوا به[1] مِنْ غيرِ ظُلمٍ ولا طُغيانٍ، فكانَ ذلكَ أحرى أَنْ يُؤْخَذُوا بالعَذابِ والعِقابِ.

تَوجِيهُ الاسْتئنافِ البَيانيِّ فِي الآيةِ:

حالُ الظَّالمينَ عندَ القُدومِ على اللهِ يومَ القيامةِ صَعبٌ عسيرٌ

وقولُه تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ يخطرُ على بالِ مَنْ يقرأُ الآياتِ الَّتي قبلَها أَوْ يسمعُها؛ ومفادُ هذا السُّؤالِ: ما حالُ هؤلاءِ الجائرينَ ممّنْ تولّى بعضُهمْ بعضًا في الدّنيا بما كانوا يقترفونَ منَ الأوزارِ والخطايا إذا قدموا على اللّهِ يومَ القيامةِ[2]؟ فيكونُ الجوابُ أنَّ هؤلاءِ ينادَوْنَ ويسألُهمُ الحقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عنْ دعوةِ الرُّسُلِ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهمْ وما يترتَّبُ عَليهمْ منَ الجزاءِ جرَّاءَ مُخالَفَتِها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالنِّداءِ فِي المَطْلَعِ:

رُبَّ نداءٍ أشدُّ منَ التَّوبيخِ

والتَّعبيرُ بالنّداءِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ دَلالةٌ على التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لِيزدادَ المُنَدَّدُ عَليه رَوعًا وهلَعًا[3].

سِرُّ نِداءِ الجنِّ والإنسِ بإضافةِ مَعْشرٍ نداءً واحدًا:

عندَ وُقوعِ الموالاةِ تذهبُ الفروقُ وتلتحمُ المُلِمَّاتُ

وسِرُّ نِدائِهم جميعًا بصيغَةٍ واحدةٍ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ ولم يفصلْ بينَ الجنِّ والإنسِ، أنّهُ عاملَهم كالجنسِ الواحدِ؛ لموالاةِ بعضِهم بعضًا ولاتّباعِ بعضِهم بعضًا، ولإظهارِ أنَّهما خَلقانِ مُختلِفانِ في الصُّورةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/75.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/92.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/75.

والطَّبيعةِ والقُدُراتِ، ولكنَّهما مُتشابهانِ في الغايةِ والمصيرِ، فقدْ خُلِقا لِعبادةِ اللّهِ تعالى وطاعتِه، وهُما محاسَبانِ على أفعالِهما يومَ القيامةِ، وهُما مَجزيَّانِ بالجنَّةِ أو النّارِ بِحسَبِ أعمالِهما؛ فاللّهُ تعالى يُناديهما بنداءٍ واحدٍ لِيُذَكِّرَهُما بنعمتِهِ عَليهِما بإرسالِ المُرسَلينَ لَهُما، ولِيوَبِّخَهُما عَلى تَكذيبِهِما رُسُلَهُ وتَجاوزِهما حُقوقَه.

تَوجيهُ نِداءِ الجِنِّ والإنسِ:

النِّداءُ مُؤذِنٌ بِتَبْكيتِ المُشْرِكينَ وَتَقْريعِهِمْ

وجهُ نداءِ الجنِّ والإنسِ في قَولِه تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ في ذلكَ اليومِ المُريعِ تَبكيتُ المشركينَ، وتحسيرُهُم على ما فرَّطوا في حيَاتِهِمُ الدُّنيا مِنْ عبادتِهِمُ الجنَّ، أوِ الالتِجاءِ إليهِمْ والاسْتعانَةِ بهِم[1].

تقديمُ الجنِّ عَلى الإنْسِ:

الجِنُّ أَصْلُ الشَّرِّ والغَوايةِ والأسبَقُ في الخلْقِ والوُجودِ

وقدّمَ الجنَّ على الإنسِ في قولِهِ تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لِبيانِ غلبَتِهِم[2]، ولأنَّ الإنسَ كانوا أولياءَ للجنِّ مُنقادينَ لهم، خاضِعينَ لِسُلطتِهِم.

وقدّمَ الجنَّ على الإنسِ لأنَّ الاستغواءَ كانَ مِنهُمْ؛ فهُمْ أكثرُ غَوايةً[3]، ثمَّ استجابَ الإنسُ لِغوايتِهِمْ؛ فالجنُّ أساسُ الشَّرِّ في ذلكَ؛ فهُمُ المُوَسوِسونَ بِالشَّرِّ وهمْ مَنْ دعا إليهِ؛ ولذلكَ قُدِّموا في سياقِ اللَّومِ أنْ أهملوا دعوةَ الرُّسلِ[4].

عِلَّةُ الحذفِ في جُملةِ النّداءِ:

قد يُغني المذكورُ عنِ المحذوفِ

وجملَةُ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ تقديرُهُ: يومَ يَحشرُهُمْ فيُقالُ: يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ[5]، فحذفَهُ اسْتِغناءً بالوارِدِ، وهوَ النداءُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/77.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/271.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2672.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/73.

بَلاغةُ الاسْتفهامِ في الآيةِ:

استفهامٌ تقريريٌّ داخلٌ علَى نفي الأمرِ المقرَّرِ علَيهِم

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ جاءَ بالاستفهام إثرَ النِّداءِ مُباشَرةً، والهمزةُ فيهِ للاستفهامِ التَّقريريِّ؛ وهوَ سؤالٌ عنْ نفي مجيءِ الرُّسُلِ إليهمْ، فقد أرسلَ اللّٰهُ تعالى إليهمُ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنذرينَ، غيرَ أنَّ المظنونَ في جوابِهِمْ سيكونُ بالنَّفي، فجاءَ بأسلوبِ التَّقريرِ، فإذا أقرّوا بالإثباتِ كانَ ذلكَ أقطعَ لِأعذارِهِم في أنْ يؤاخذَهُمُ اللّٰهُ بذنوبِهِم هذهِ، فإذا كانتْ لهُم شُبْهَةٌ في المُقرَّرِ عَلَيهِم ارتَبكُوا وتَلعثَموا وتَبيَّنَتْ أفعالُهمْ فأُخِذُوا بها[1].

والاستفهامُ في الآيةِ يَحمِلُ معنى التّوبيخِ والتّقريعِ؛ فإنَّ الحقَّ ﷻ أرسلَ إليكمُ الرُّسُلَ لِينبِّهوكُمْ عَلى مُرتكَباتِكُمْ، ويُقيموا لكمُ الحُجَجَ البالغةَ، لكنَّكمْ لمْ تَقبلوا ولمْ تتَّعِظوا ولمْ تَعتَبِروا[2].

فائِدَةُ تَنْكِيرِ الرُّسُلِ:

تَفخيمُ الرُّسُلِ وتَكثيرُهُمْ أدْعَى إلى أخْذِ المُعْرِضينَ بِالعَذابِ

جاءَ بلفظةِ الرُّسُلِ نَكرةً في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾ وفائدةُ التَّنكيرِ لِلتَّعظيمِ، والتَّفخيمِ، والتَّكثيرِ[3]، وذلكَ أَدْعَى إلى أَخْذِهِمْ بالعذابِ وإقامةِ الحُجّةِ عَليهِمْ؛ فقدْ أرسلْنا لَكُمُ الرُّسُلَ الكثيرةَ لكنَّكمْ لمْ تُؤمِنوا وتَمادَيتُمْ، فما جَزاؤكمْ إلّا العذابُ المُهينُ.

بَديعُ وصْفِ الرُّسُلِ بـ ﴿مِّنكُمۡ﴾:

مَقامُ الرّسالةِ لا يكونُ إلّا في أشرافِ الإنسِ؛ فَفي الوصْفِ زيادةُ إقامةِ الحُجّةِ عَليهِم

أردَفَ كلمةَ ﴿رُسُلٞ﴾ بقولِه ﴿مِّنكُمۡ﴾، فهيَ لَيستْ لِلتَّبعيضِ مِنَ الفريقَينِ؛ إذْ يَمتنِعُ أنْ تكونَ الرُّسُلُ مِنَ الجنِّ؛ لأنَّ ظاهرَ النُّصوصِ الشَّرعيّةِ يدُلُّ عَلى أنَّ الرُّسُلَ مِنَ الإنسِ فقطْ، فَمَقامُ الرِّسالةِ لا يكونُ إلّا في أشرافِ الإنسِ والملائكةِ، ولا يكونُ مِنَ الجنِّ؛ لانحطاطِ رُتبتِهِمْ عَنْ رُتبَةِ الإنسِ، وإنّما ساقَ الوصْفَ لزيادةِ إقامةِ الحُجّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/75.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/120 - 121، وابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 94.

(3) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.

عَليهِمْ، أيْ أنَّهمْ رُسُلٌ تَعرفونَ صِفَاتِهِمْ وتَسمعونَ كلامَهمْ[1]، مِثلَما تَقولُ لِلمخاطَبِ: لَستُ منكَ ولَستَ منِّي، فلا تَبعيضَ هنا البتَّة.

دَلالةُ (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنكُمۡ﴾:

التّبعيضُ مِنْ مجموعِ الجِنْسَينِ، فيَصْدُقُ عَلى أحدِهِما؛ وهو الإنسُ تَغليبًا

وتَحتمِلُ (مِنْ) في قَولِهِ: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أن تكونَ دالَّةً عَلى التَّبعيضِ مِنَ الإنسِ تَغليبًا، فالمرادُ مِنْ مجموعِ الجنسَينِ، فَيصدُقُ عَلى أحَدِهِما وهوَ الإنسُ؛ إذ لَيسَ في الجنِّ أَنْبِياءُ ورُسُلٌ، وإنَّما قدْ يكونُ مِنهُم نُذُرٌ، وهذا قولُ جمهورِ أهلِ العِلم، قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: 109]، وقالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: 20]، وقالَ تعالى عَنْ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، ولأنه يَبعُدُ أنْ يُرسِلَ الحقُّ تبارك وتعالى رُسُلًا مِنَ الجنِّ عَلى وجهِ التَّحقيقِ، أو مِنْ جِنْسِهِم حقيقةً[2].

وإن وردَ سؤالٌ كيفَ قالَ ﴿مِّنكُمۡ﴾، والرّسلُ من الإنسِ خاصَّةً لا مِنَ الجنِّ؟ فالجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ التَّبعيضَ هنا عَلى طَريقةِ قَولِه تَعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرّحمن: 22] وإنّما اللّؤلؤُ والمرجانُ يخرجانِ مِنَ البحرِ المِلْحِ دونَ العذبِ فكأنَّكَ قُلتَ: خروجُهُ مِنْ بَعضِهِما[3].

عِلَّةُ جمْعِ الرُّسُلِ بقولِهِ تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾:

دعوةُ الأنبياءِ واحدةٌ وآياتُهم ذاتُ غايةٍ واحدةٍ

وقولُهُ تَعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ جاءَ بِوَصْفِ الرُّسُلِ مَجموعًا؛ لأنَّ الأنبياءَ "قَصّوا آياتِ الأنبياءِ في مَجموعِهِمْ، لا في آحادِهِمْ، وبذلكَ كانتِ الآياتُ بينَ يدي الجنِّ والإنسِ معلومَةً ظاهرةً بيِّنةً تدعوهُمْ إلى الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخِرِ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/76.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/163، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/302، والزّحيلي، التّفسير المنير: 8/45.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/354، وابن جرير، جامع البيان: 12/121.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2674.

تَوجِيهُ المتشابِهِ اللّفظِيّ:

اختيارُ مُفردَةِ القَصِّ والتِّلاوةِ بحسَبِ السِّياقِ

قالَ تَعالى هنا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي﴾، وقالَ تعالى في الزّمر: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزّمر: 71].

فذكرَ في آيةِ (الأنعام) أنّهُ أتبعَ بعضَ الظّالمينَ بعضًا في النّارِ، ثمَّ أتبَعَ بعضَ الآياتِ بعضًا فيما دارَ مِنْ حوارٍ مع الإنسِ والجنِّ؛ فالسّياقُ في الإتباعِ؛ فناسبَهُ أنْ يعبِّرَ بقولِه: ﴿يَقُصُّونَ﴾؛ لأنَّ القصَّ في اللُّغةِ بمعنى الإتباعِ[1]، ولَمّا كانَ المتكلِّمُ هوَ الحقَّ ﷻ ناسبَهُ إضافةُ الآياتِ إلى الضَّميرِ العائدِ عَلَيه ﴿ءَايَتِي﴾.

أمّا آيةُ الزُّمَرِ فقد سبقَهَا قولُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 70] وهوَ كلامٌ يُتلى وليسَ منْ بابِ القَصَصِ والإتباعِ، بلْ هوَ تذكيرٌ مِنْ خزَنَةِ جهنَّمَ لِمَنْ كفرَ باللهِ وبربوبيَّتِهِ تَعالى، فأقَرّوا وسَلَّموا وكانتْ إجابَتُهُم (بَلَى).

بَلاغةُ الكِنايةِ في ﴿يَقُصُّونَ﴾:

أُريدَ بالقَصِّ الإخبارُ عن وَحْدانيَّتِه تعالى ووَعْدِهِ ووَعيدِهِ

والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿يَقُصُّونَ﴾ مِنَ القَصَصِ وهوَ الإخبارُ، والمغزى يُخبرونَكُمُ الأخبارَ الَّتي تدُلُّ على وحدانيَّتِهِ تَعالى، ويبَلِّغونَكُم بما جاءَ بِهِ الرُّسُلُ منَ الأمرِ والنَّهيِ والوَعدِ والوَعيدِ، وتَسميَتُهُ قَصًّا؛ لأنَّ الأكثرَ فيهِ الإخبارُ عنْ صِفاتهِ تَعالى وعَنْ رُسُلِهِ وأُمَمِهِمْ، وما حلَّ بهِمْ نَعيمًا أوْ عذابًا[2].

وَجهُ إيثارِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على (لَكُمْ):

يُومِئُ التَّعبيرُ إلى عُلُوِّ المكانةِ وسُموِّ الرُّتبةِ والمقَامِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالمتعلِّقِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ عَلى (لَكُم)؛ لأنَّهُ قصُّ الكتبِ "المنزَلَةِ عَليكم المبيِّنَةِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصص).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ78.

لأصولِ الإيمانِ وصالحِ الأعمالِ وفاسدِها"(1)، والتَّعبيرُ بـ (عَلى) يشي بِعُلُوِّ المنزلَةِ وسُموِّ المقامِ، فضلًا عمّا يُلمَحُ فيهِ منَ الإلزامِ، والإيجابِ(2).

دَلالةُ إضافةِ الآياتِ إلَيهِ تَعالى:

اشتمالُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ والكَونيَّةِ الدّالَّةِ عَلى الخَلْقِ والأمْرِ

قَولُهُ: ﴿ءَايَٰتِي﴾ نَسَبَ الآياتِ إلَيهِ ﷻ؛ لأنَّ المتكلِّمَ هُنا هوَ الحقُّ ﷻ، وهذهِ الآياتُ هيَ آياتُ اللهِ الشَّرعيَّةُ الواضِحةُ المشتمِلةُ عَلى الأمرِ والنَّهيِ وبيانِ الخيرِ والشَّرِّ، وآياتُهُ في الكونِ مِنْ خَلقِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، وتَسخيرِ ما في الأرضِ وإرسالِ الرُّسُلِ بالبيِّناتِ؛ لِتَعريفِ الإنسانِ بربِّهِ وعبادتِه، والبَعْثِ والجزاءِ والعقابِ وغيرِها(3)، فناسَبَ ذلكَ إضافتُها إلَيهِ تَعالى؛ لتعمَّ في دلالتِها الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ.

عِلَّةُ اصْطِفاءِ لَفْظِ الإنْذارِ:

تَمَحُّضُ المخاطَبينَ لِلشَّرِّ ناسبَهُ الإنْذارُ

أورَدَ لفظَ الإنذارِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾ وهوَ خبرٌ بما يُخيفُ أو يُكرَهُ وهوَ نقيضُ البِشارةِ، وعلّةُ اصطفاءِ هذا اللَّفظِ أنّ اللِّقاءَ يومَ الحشرِ يتضمَّنُ لأهلِ الشَّرِّ شرًّا، ولَمّا كانَ هؤلاءِ المخاطَبونَ قدْ تمحَّضوا لِلشَّرِّ ناسَبَهُ أنْ يجعلَ إخبارَ الرُّسُلِ إيّاهُمْ بِلقاءِ ذلكَ اليومِ إنذارًا(4).

نُكتَةُ التَّعبيرِ عنِ القَصِّ والإنْذارِ بالمضارعِ:

أثرُ القَصِّ والإنْذارِ مُتجدِّدٌ في خِطابِ المدْعُوِّين

وورَدَ الفِعلانِ في قَولِهِ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ﴾، و﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾ بصيغَةِ المضارِعةِ؛ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في فعلَي القَصِّ، والإنذارِ؛ وهُما فعلانِ يَحصلانِ في حياتِهِمُ الدُّنيا، وَلا سِيَّمَا إذا لوحِظَ صِدقُ النَّبيِّ وأمانتُهُ في التَّبليغِ، وحِرصُهُ عَلى إيصالِ رسالةِ اللهِ إلى قومِهِ، وَاستِنفَاذِ الوسائلِ والأساليبِ الممكنَةِ لِهداياتِهِمْ، إذ يقومُ بِدعوةِ قومِهِ بالحِكمَةِ والموعظَةِ الحسنَةِ، وبيانِ أنَّهُ رَسولٌ مِن

(1) عبد الحميد الخطيب، تفسير الخطيب المكّيّ، ص: 14.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/121، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قصص).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/78.

اللّهِ يدعوهُمْ إلى عِبادَتِه وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وتحذيرِهِمْ مِنْ عذابِ اللّهِ إنْ كفَروا بِه، ثمَّ ما يتبعُ ذلكَ مِنْ دعوةِ قومِه بالجدالِ والحُجَّة، وردِّ شبُهاتِهم وأعذارِهم، وإثباتِ باطِلِهم وضلالِهم، وتقديمِ البراهينِ والآياتِ عَلى صِدقِه وصلاحِ دعوتِه، وهذا كلُّه يحتاجُ إلى صَولاتٍ وجَولاتٍ وتكرارٍ وتجدُّدٍ واستِمرارٍ في إخبارِهِمْ بآياتِ اللّهِ الواضحةِ المشتمِلَةِ عَلى الأمرِ والنَّهي، وبيانِ الخيرِ والشَّرِّ، ويُنذرُهُمْ لقاءَ عذابِ اللّهِ يومَ القيامةِ.

وَجْهُ التّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، دونَ (يخوِّفونَكُمْ):

الإنـذارُ تحذيرٌ يَشوبُه مَكروهٌ سَيقَعُ

آثرَ الحقُّ سبحانَهُ التَّعبيرَ في الآيةِ الكريمةِ بِالفعلِ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، ولَمْ يقُلْ: (يُخَوِّفُونَكُمْ)؛ لِبَيانِ وتصويرِ أنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام لا يريدونَ إلّا بلاغَ الرِّسالةِ وتبيينَ الحقِّ مِنَ الباطِلِ، وأنَّهم لا يتحكَّمونَ في قلوبِ النّاسِ ولا يُجبِرونَهم عَلى الإيمانِ أوِ الكفرِ، بلْ يتركونَ لَهمُ الخيارَ والحريةَ في اتِّباعِ دَعْوَتِهِمْ أَوْ رَفْضِهَا، وهذا حالُ رُسُلِ اللّهِ كافّةً: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النّساء: 165]، فالإنذارُ بمعنى التَّحذيرِ مِنْ مَكروهٍ سَيقعُ، وبمعناهُ جاءَ سائرُ ما وقعَ مِنَ التَّركيبِ في القرآنِ الكريمِ بصِيَغٍ كثيرةٍ: كالفعلِ (أنذرَ) ومضارِعِه وأمرِه[1]، وهو أسلوبُ خطابٍ أدبيٍّ فيهِ مراعاةُ نَفسيَّةِ المتلقِّي؛ وهوَ أرقى في الخطابِ مِنَ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فالتَّخويفُ هوَ إثارةُ الخوفِ والفَزَعِ في نفسِ المخاطَبِ بطريقةٍ قدْ تكونُ مُبالَغةً، وهوَ يؤدِّي إلى الكراهيَةِ أوِ العِنادِ أوِ التَّمرُّدِ.

فاللّهُ تعالى بهذا البَيانِ عنِ الرُّسُلِ يُثني عَليهم بِأنَّهم يُنذِرونَ النّاسَ مِنْ لِقاءِ يومِ القيامةِ وما يحصُلُ فيهِ، الَّذي هوَ حقٌّ ولا مفرَّ مِنهُ، وأنَّهم يُبشِّرونَ المؤمنينَ بالجنَّةِ ويُحذِّرونَ الكافرينَ مِنَ النّارِ، بغيرِ غِلظَةٍ أو قَسوةٍ؛ كما وصفَ خاتَمَهُم صلى الله عليه وسلم بِقَولِه: ﴿فَبِمَا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).

﴿رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]

تَوْجِيهُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾:

سُمّيَ الحَشْرُ بِاللّقاءِ لملاقاةِ الأهوالَ والأوجالَ

وقولُه تَعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ﴾ كِنايةٌ عَنْ يوم القيامةِ، وأنّ ذلكَ اليومَ يَطلبُكُم طَلبًا حثيثًا سريعًا؛ فتصيرونَ إليهِ في مواخرِ الأيامِ ومعابرِ الآثامِ مِنْ غيرِ شعورٍ مِنكُم لِسُرعةِ سيرِكُم فيه[1].

والتّعبيرُ عن اليوم باللّقاءِ لما يلاقونهُ مِنَ الأهوالِ والمحنِ والأوجالِ، وعادةُ العربِ أنْ تذكرَ اليومَ؛ ومرادُها ما يحصلُ فيه؛ لأنَّ الزمنَ بنفسهِ كباقي الأزمانِ، ومنهُ قولُ نبيِّ اللّهِ لوط ﷺ: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: 77][2].

وَجهُ إيثارِ اسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَاۚ﴾:

عَدَلَ عنِ الوصفِ إلى الإشارةِ تَهويلًا لأمْرِ اليَومِ

آثرَ ذِكرَ اسم الإشارةِ في قولِه تَعالى: ﴿يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؛ تهويلًا لأمرِ ذلكَ اليومِ ومُشاهداتِه الجسيمة، فلا تحيطُ العِبارةُ بوصفِه لِشدَّتِه وهَولِه وفَظاعَتِه؛ فعدلَ عنِ الوصفِ إلى الإشارةِ[3] كقولِه تَعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 14].

وإيثارُ اسم الإشارةِ الدّالِّ عَلى القريبِ ﴿هَٰذَاۚ﴾؛ للدَّلالة على إحاطةِ ذلكَ اليومِ بِهِم، وتلبُّسِهِم بِهِ[4]، وقُربِه مِنهُم وتحقُّقِ وُقوعِهِ.

وَجهُ الاستئنافِ في ﴿قَالُواْ﴾:

في القَولِ جوابٌ عَنْ سؤالٍ يَعرِضُ ردَّهُمْ بعدَ إقرارِهِم بمجيءِ الرُّسُلِ

وقولُه تَعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ ناشئةٌ عَنْ سؤالٍ مقدَّرٍ، فماذا كانَ ردُّهُمْ بعدَ إقْرارِهِمْ بمجيءِ الرُّسُلِ وإنذارِهِم لقاءَ هذا اليومِ، وتوبيخِهِم وتقريعِهِم؟[5]، فكانتْ إجابتُهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/272.
(2) الشّنقيطي، العذب النمير: 2/273.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/78.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/186.

بفعلِ القَولِ ﴿قَالُواْ﴾، بعدَ أنْ تبيَّنتْ لَهمُ الحقيقةُ؛ حقيقةُ عِصيانِهمُ الرُّسُلَ وإعراضِهم عنْ لِقاءِ هذا اليومِ.

بَراعةُ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿شَهِدْنَا﴾:

شَهادةُ الكفّارِ بقبائِحِهم بعد إنزالِ محاسِنِ الله بهم إقرارٌ لا فِرارٌ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه تَعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ إقرارَهم هذا عَلى أنَّه تَعالى قدْ فعلَ بِهم منَ المحاسنِ في الزّمنِ الماضي، وأنَّهمُ ارْتَكَبوا في حقِّ أنفُسِهم منَ القبائحِ والموبقاتِ[1] في الزّمنِ الماضي، وهوَ زمنٌ دالٌّ عَلى التَّحقُّقِ والثُّبوتِ وأنّهُ حصلَ وانْصرَمَ ولا مجالَ للتَّنصُّلِ مِنهُ، ولهذا جاءَتْ شهادتُهم لِلدَّلالَةِ عَلى جَزْمِهِمْ بأنّهم كانوا ضالّينَ؛ لِما عاينوا مِنْ قوارعِ الحقِّ بقلوبِهم، وأبصارِهِم[2].

دَلالةُ استِعْمالِ الشّهادةِ بمعنَى الإقرارِ:

شَهادتُهم إقرارٌ بإتيانِ الرُّسُلِ إليهم

استعملَ لفظَ الشَّهادَةِ في قولِه تَعالى: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بمعنى الإقرارِ؛ لأنَّ الأصلَ في الشَّهادةِ إخبارٌ عنْ أمرٍ تحقّقَ مِنهُ المخبِرُ وأظهرَهُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، ويُقالُ شهدَ عليهِ بمعنى أخبرَ عنهُ على جهةِ الثّبوتِ والتّحقُّقِ؛ فالشّهادةُ هنا بمعنى الإقرارِ بإتيانِ الرُّسُلِ إليهم، وهوَ لا ينافي إنكارَهُمُ الشِّركَ في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]؛ لاختلافِ المخبَرِ عنهُ في الآيتَينِ[3].

تَوجِيهُ جُملةِ الاعتراضِ:

الاغْترارُ بالحياةِ الدُّنيا علّةُ عِصيانِ الرُّسُلِ والإعْراضِ عنِ اليومِ الآخِرِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ جملةٌ معترِضةٌ بينَ ﴿قَالُواْ﴾ و﴿وَشَهِدُواْ﴾[4]؛ فإنَّهم لمّا عصَوا الرُّسُلَ وأعرَضوا عنْ لقاءِ اليومِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/272.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/79.
(4) الهرري، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/73.

الآخِرِ، فعَلِموا وعلمَ السّامِعُ والمخاطَبُ "أنَّهمْ ما وقَعوا في هذهِ الرِّبقَةِ إلَّا لأنَّهمْ غرَّتهمُ الحياةُ الدُّنيا، ولولا ذلكَ الغُرور لَما كانَ عملُهمْ ممَّا يرضاهُ العاقِلُ لِنفْسِه"[1].

وفي الجملةِ المعتَرِضةِ تَجليةٌ لارتكابِهمُ القبائحَ في الدُّنيا، وإلجائهِمْ في الآخرَةِ إلى الاعترافِ بِكُفرهِمْ، ووجوبِ العذابِ المقرَّرِ عليهِمْ؛ وهوَ قدحٌ فيهِم، والمعنى أَنَّهُمُ اغترّوا بالدَّنيءِ مِنْ دُنياهُمْ وباللّذّاتِ الفانيةِ، وأعرَضوا عنِ النَّعيمِ المُقيم، وارتكَبوا الموبِقاتِ؛ فجرَّهُمْ إلى العذابِ الأبَديِّ الَّذي أُنذِروا بهِ[2].

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في إسْنادِ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ إلى ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

بيانُ الاغْترارِ بزينةِ الحياةِ، وتَحذيرُ المخاطَبينَ منَ التّورُّطِ فيها

التَّعبيرُ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا يرادُ منهُ الحياةُ الدُّنيا نفسُها، إنَّما زينتُها وطلَبُ رياسَتِها والمنافسةُ عَليها[3]، والمرادُ بالحياةِ الأحوالُ الَّتي تنتظِمُها كَاللَّهْوِ والفَخرِ والتَّكبُّرِ والعِنادِ والاسْتخفافِ، وأنْ يَغترّوا بما لا نفعَ منهُ؛ وفي ذلكَ كشفُ أحوالِهِمْ وتحذيرُ المخاطَبينَ منَ التَّورُّطِ فيما وَقَعوا فيهِ[4].

دَلالةُ تَركيبِ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾:

تَصْويرُ الإنسانِ المسْتَغرِقِ في الحياةِ المغترِّ بأهوائِها وشَهَواتِها

التَّعبيرُ بتركيبِ: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ باللَّفظَينِ معًا لَهُ دَلالةٌ خاصّةٌ، فيرِدُ هذا التَّركيبُ على إرادةِ تصويرِ الإنسانِ وهوَ مستغرِقٌ في هذهِ الحياةِ، غيرُ حريصٍ على ما بعدَها، مُغترٌّ بأهوائِها وشهَواتِها وكأنَّها الحياةُ السَّرمديَّةُ، والحقُّ أنَّها ليستْ إلّا الحياةَ الفانيةَ، لا الحياةَ السّاميةَ؛ فقدَ قرنَها الحقُّ سبحانَهُ في غيرِ مَوضِعٍ بالغُرورِ والاغترارِ؛ فهيَ تَغرُّ بصاحبِها فتورِدُهُ مواضِعَ الهلاكِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/79.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/186.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/123.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/79.
(5) عودة خليل، التّطور الدّلالي بين لغة الشّعر الجاهلّي ولغة القرآن الكريم، ص: 349 - 350.

تَوجِيهُ الاكْتِفاءِ بذِكرِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾:

لا يُذكرُ المعلومُ سِياقًا إلّا لِنُكتةٍ

اكتفى بذكرِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مِنْ ذكرِ المعاني المتعدِّدَةِ، والأسبابِ المتنوِّعَةِ الّتي غرَّتهُم وخدَعَتهُم فيها؛ إذ كانَ في ذِكرِها مُكْتَفًى عنْ ذِكرِ غيرِها، لِدَلالةِ الكلامِ على ما تُرِكَ ذِكرُهُ[1].

تَوجِيهُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

تَقبيحُ صَنيعِ الظّالمين بشَهادَتِهم على أنفسِهم

الواوُ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ استئنافيّةٌ تصدَّرَتْ تَذييلَ الآيةِ، وفيها نَعيٌ عَلَيهم بما ساءَ مِنْ صَنيعِهم بعدَ الفراغِ مِنْ أخبارِ يومِ القيامةِ ومَشاهدِها، وفيها تقبيحٌ وشَنارٌ عَلَيهم، ثُمَّ تحذيرٌ لِلسّامعينَ مِنْ مِثْلِ أحوالِهِم[2].

سِرُّ تَكرارِ ذِكرِ شَهادَتِهم عَلى أنفُسِهم:

شَهادتُهم الثّانيةُ ذمٌّ لَهُم، وبيانٌ لِعَمَى بَصيرَتِهم

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بعدَ قولِه: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ تكرارٌ للشّهادةِ، فيُسألُ عنْ سرِّ هذا التَّكرارِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنّهُ ليسَ بتَكرارٍ؛ لاختلافِ المقصَدِ والفَحوى؛ فإنَّ الشّهادةَ الأولى حكايةٌ لِقولِهِمْ وبيانٌ لاعترافِهِمْ، أمّا الثّانيةُ فذمٌّ لهمْ وتقريعٌ، وتخطئةٌ لِرأيِهِمْ، وتَصويرٌ لِعجزِ بصيرَتِهِمْ؛ فهُمْ قومٌ أغوَتْهمُ الحياةُ الدُّنيا ولذّاتُها فكانتْ عاقبتُهمْ شهادتَهمْ عَلى أنفُسِهمْ، فكانتْ مَدعاةً لاستيجابِ العذابِ[3].

دَلالةُ الإخبارِ في جُملةِ الشّهادةِ:

في الخبرِ تَعجِيبٌ مِنْ حالِهِمْ، وذمٌّ لإعراضِهِم عنْ تَدَبُّرِ العَواقِبِ

معنى الخبرِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ "مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِنْ حالِهِمْ، وتَخطئَةِ رأيِهِمْ في الدُّنيا، وسوءِ نظَرِهِمْ في الآياتِ، وإعراضِهِمْ عَنِ التَّدبُّرِ في العَواقبِ"[4]، والخبرُ مُرتَّبٌ على ما سبقَهُ من اغترارِهِمْ؛ فإنَّهُ السَّببُ في مَصيرِهِمْ وشهادتِهِمْ عَلى أنفُسِهِم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/123.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/249.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/79.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بأنَّ والجُملةِ الاسميَّةِ:

ذُيِّلَتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِه تَعالى: ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾، وصُدّرَتْ بـ (أنَّ) المؤكِّدةِ الدّاخلةِ عَلى الجملةِ الاسميَّةِ، وجاءَ المسنَدُ إلَيهِ مُعرَّفًا وهوَ الضَّمير؛ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ ولأنَّهمْ كانوا مُضطربينَ في مَوقفِهمْ، فمرّةً ينفونَ عن أنفُسِهِمُ الكُفرَ ومَرّةً يُثبِتونَهُ[1]، فلمّا كانَ هذا حالَهُم مِنَ التَّردُّدِ أكّدَ الآيةَ دفعًا لتوهُّمِ مَنْ يَظنُّ أنهمْ عَلى خِلافِ حالِهِمْ منَ الكفرِ والعِصيانِ، وزادَ على ذلكَ أنْ عبَّرَ بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ الدّالِّ عَلى جِبِلَّتِهِمُ الكُفريَّةِ وطَبيعَتِهِمُ الشِّركيَّةِ.

ويَحتمِلُ حَشْدُ التَّوكيداتِ الإيحاءَ بتيقُّنِهِم مِنْ كفرِهم، والتَّسجيلَ عَلَيهِم بهذهِ المقابحِ الَّتي حذَّرَتهُمُ الرُّسُلُ منها، وكانوا في فُسْحَةٍ منَ الأجَلِ، فلمْ يُقيموا لِتوجيهاتِ الرُّسُلِ وَزْنًا، ولا لنُذُرِهِمْ قيمةً حتّى ماتوا وهُمْ كافرونَ[2].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(الشّهادةُ) و(الإقرارُ) و(الاعترافُ):

الشّهادةُ هيَ العلمُ بوجودِ الأشياءِ؛ ولهذا فإنَّ ما يُدرَكُ بالحواسِّ ويُعلَمُ ضرورةً يسمّى شاهِدًا، أمّا الإقرارُ فهوَ التَّكلُّمُ بالحقِّ اللّازمِ عَلى النَّفسِ شرطَ أنْ يوطِّنَها عَلى الرُّضوخِ والاستسلامِ والانقيادِ، والاعترافُ إقرارٌ وإنْ كانَ خاليًا منَ التَّوطينِ، وقدْ يكونُ باللِّسَانِ وبغيرِه[3]، وعلى ذلكَ فالاعترافُ أقلُّ منَ الإقرارِ، وفي كلٍّ فإنَّ الشَّهادةَ أبلغُ في إيصالِ المقصودِ، فشهادتُهمْ على أنفسِهمْ منْ بابِ العلمِ اليقينيِّ كأنّ الأمرَ مُشاهَدٌ محسوسٌ؛ لأنَّ أصلَ الشّهادةِ هيَ

مِنْ أحوالِهِم الاضطرابُ في الموقِفِ نَفيًا لِلكُفرِ، وإثباتًا

الشّهادةُ إدراكٌ بالحواسِّ وهيَ أبلغُ في القَصْدِ، والإقرارُ تكلُّمٌ بالحقِّ معَ الانقيادِ، والاعترافُ بلا انقيادٍ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3949.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/344.

(3) العسكري، الفروق اللغوية: 305، 65.

الرؤيةُ بأنَّهمْ عصَوا الرُّسُلَ وتنكَّبوا طريقَ الهدى والإيمانِ، فكانَ التَّعبيرُ بالشَّهادةِ مرَّتينِ: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أليقَ بِالمَقَامِ والسِّياقِ، وأنسبَ لِتَصْويرِ حالِهِم.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: 131]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ شَهادةِ إقرارِ الجنِّ والإنسِ على كُفرانِهم، بكونِ الله لا يَظلِمُ أحدًا

بعدَ أنْ شَهِدَتِ الإنسُ والجنُّ - وهم في أرض المَحشَر - على أنفُسهم أنَّهم كانوا كافرين؛ وأكَّد السِّياق القرآنيُّ تلك الشَّهادة، أتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أي: إنَّ ما أصاب أهلَ القُرى من الإهلاك، إنَّما هو جزاءُ ما فعلوه، ولَمْ يَكُنْ عذابُ اللّه لهم ظلمًا، وهذا هوَ العَدْلُ وَالحقُّ والواجبُ[1]، وقد اعترفوا على أنفُسِهم بكُفرِهم، وعُدْوانهم، وإنكارهم لرسالات الأنبياءِ، وما جاءَتهُم به رُسُلُهُم مِنَ الحَقِّ.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مُهْلِكَ﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيءُ، هَلاكًا وهُلوكًا ومَهلِكًا، إذا ماتَ؛ فهو هالِكٌ[3]، والإهْلاكُ: إعدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[4]، والمَهْلِكُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ مِنْ أَهْلَكَ الرُّباعي. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ تَصيرُ عاقِبتُهُ إلى الهَلاكِ[5]، وتُطلَقُ أيضًا على فَقْدِ الشَّيءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِه، ومَصيرِ الشَّيءِ إلى حيث لا يُدْرَى أين هو[6]. والمقصود في الآية: الاستئصالُ والإفناءُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الجوهري، الصحاح: (هلك)، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8أ/82.
(5) الخليل، العين: (هلك)، والأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).
(6) المطرزي، المعرب: (هلك).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أخبر اللّهُ تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَلِ الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك - يا محمَّد ﷺ - لم يكُنْ ليُهْلِكَ أهلَ القُرى بكُفْرِهم ومعاصيهم، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أوَّلًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكُتُبِ، ومعلومٌ أنَّ هلاكَ الأُمم يكون بما يغلِب عليها مِن الظُّلم أو الفِسق والفُجور، الَّذي يُفْسِدُ الأخلاقَ، ويقطعُ روابط المجتمع، ويجعلُ بأس الأمَّة بينها شديدًا.

اللـه تعالَى لا يُعاجِلُ قومًا بالهلاكِ والعُقوبةِ، حتّى يَبعثَ إليهم رَسولًا.

فَذلِكَ الإعذارُ بإرسال الرُّسُلِ إلى الإنْسِ والجنِّ، لِئَلَّا يُعاقِب أحدٌ على ما جَنَاهُ، وهو لم يُرْسَل إليه رسولٌ، ولم تبلُغْهُ دعوةٌ، فلَم نُعَذِّبْ أُمَّةً من الأممِ إلَّا بعد إرسال الرُّسُل إليهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

بلاغة الفَصلُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الآيةَ متَّصِلةٌ معنًى بما قبلَها؛ فذلك الَّذي قَصَصْنا عليكَ من أمرِ الرُّسل، وأمرِ عذاب مَنْ كذَّب؛ لأنَّه لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظلم، أي: لا يهلكُهم حتى يبعثَ إليهم رسولًا[2]. فَفي الآية بَيانٌ لِوَجهِ الرَّحمَةِ والعَدلِ في إرسال الرُّسُل، وأنَّه سبحانه كَتَبَ على نَفسِهِ الرَّحمةَ، فهو الرَّحيم بخلقه: مؤمنهم وفاجرِهِم، فلا يُعذِّبُ أمَّةً منهم إلا من بعد إنذارِهم، وإيصالِ الرِّسالاتِ إليهم، ثمَّ سجَّل بعد ذلك على النَّاس بأنَّ له الحقَّ والعُتبَى في إهلاك تلك القرى التي عاندتِ الرُّسلَ، وعارضتِ الرِّسالاتِ بعد التَّبصير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُجَرَّدًا عن حرفِ الوَصلِ (الواو)؛ لاتِّصال

إرسَالُ الرُّسُلِ للهدايَةِ، سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ؛ ومَنْ أعرضَ عنها هَلَكَ

(1) مجموعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 145.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/79.

المعنى بالآية السَّابقة، فذلك الَّذي ذُكِر من إتيان الرُّسُل، يَقُصُّون على الأمم آياتِ الله؛ إنَّما هو لغاية ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾. وهي سُنَّة الله في خلقه.

تَوجيهُ الافتِتاحِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إرسَـالُ الرُّسُلِ بأمر الله، أمرٌ عظيمُ الجَدوَى، وما دونَهُ شَقاءٌ

الأصلُ في أسماء الإشارة أن يُشارَ بها إلى الأشياء المحسوسةِ، واستِعمالُها فيما سِوَى ذلك هو من المَجاز، والفائدة هُنا من اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو تَنزيلُ المَعقولِ مَنزِلَةَ المُشاهَدِ المَحسوس، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر في إتيان الرُّسل - عليهم السلام - وهم يقُصُّون على الأمَمِ من الإنسِ والجنِّ آياتِ اللّهِ مبيِّناتٍ. ولـمَّا ذكر سبحانه إقامةَ الحجَّةِ على الكافِرِ في المَعاد بالرُّسل - عليهم السلام - علَّلَ إرسالَهُم ترغيبًا وترهيبًا، وحثًّا على اتِّباعهم، وتنبيهًا وإرشادًا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمرُ العظيمُ الجدوى هو أنْ أرْسَلْنا الرُّسُل[1]، فيكون اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد أفادَ تعظيمَ شأنِ المَقولِ بعدَه، ويكونُ خبرَ مُبتَدَأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، وذكر أبو حيان قوله: "الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أقرب مذكورٍ دلَّ عليه الكلامُ، وهو إتيانُ الرُّسل قاصِّينَ الآياتِ ومنذرين بالحشر والحساب والجزاء؛ بسبب انتفاءِ إهلاك القرى بظلم، وأَهْلُها لم ينتهوا ببعثةِ الرُّسل إليهم والإعذار إليهم، والتَّقدُّم بالإخبار بما يحلُّ بهم، إذا لم يتَّبعوا الرُّسلَ"[2].

بَيانُ وُجوهِ الحَذفِ في مَطلَعِ الآيةِ:

إرسَـالُ الرُّسُلِ لـلإنـذار، أمـرٌ عظيمُ الآثارِ

اسمُ الإشارةِ فيه ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أي: ذلك الأمرُ. الثَّاني: عكسُهُ، أي: خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، بمعنى: الأمرُ ذلك، كما يدلُّ عليه ضميرُ الشَّأنِ المقدَّرُ بعد (أنْ)، وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ، يجدرُ أن يُعرف. الثَّالث: أنَّه منصوبٌ بإضمار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/273.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/649.

فعلٍ، أي: فَعَلْنا ذلك[1]، وإنَّما يظهر المعنى إذا عُرِفَ المُشَارُ إليه، وهو يحتمل أن يكون: إتيانَ الرُّسل قاصِّين الآياتِ ومنذرين بالحشر والجزاء، وأنْ يكونَ: ذلك الذي قَصَصنا مِنْ أَمْرِ الرُّسل، وأَمْرِ مَنْ كَذَّب، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى السُّؤال المفهوم.

دَلالةُ ﴿أَن﴾ بين المُخفَّفةِ والنَّاصبة:

استِحالةُ إهلاكِ القُرَى وهُم غافِلونَ عنِ الحقِّ

وجملةُ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تعليلٌ، أي: الأمرُ ما قصصْناهُ عليكَ، لانتفاء كون ربِّكَ مُهْلِكَ القُرى بظلم، على أنَّ: ﴿أَن﴾ يجوز أن تكونَ النَّاصبةَ للمُضارع، على معنى: أنَّ المسألةَ: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أو أَنْ تكونَ المخفَّفَةَ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، و﴿لَّمْ يَكُن﴾ في محلِّ رفع: خبرُها[2]. وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ يجدر أن يُعْرَفَ، وحُذِفَتْ لامُ التَّعليلِ الدَّاخِلَةُ على ﴿أَن﴾، والتَّقديرُ: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا، أو الأمرُ ذلك؛ لأنَّه - أي: الشَّأنُ - لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى، أو الأمرُ ذلك لأجل أنْ لم يكن ربُّك متَّصِفًا بالظُّلْم[3].

وقولُه: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ يجوزُ فيه وجهان، أحدهما: أنَّه على حذف لام العلَّةِ، أي: ذلك الأمر الَّذي قَصَصْنا، أو ذلك الإتيانُ، أو ذلك السُّؤالُ لأجل أن لم يكن، فلمَّا حُذِفَت اللَّامُ؛ احتمل موضعُها الجرَّ والنَّصبَ، كما عُرِفَ غيرَ مرَّةٍ. والثاني: أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ النَّفْيِ بالتَّركيب: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾:

العَدلُ المُطلقُ للهِ وحدَه سُبحانه دونَ سِواه

فائدةُ هذا التَّركيب ونُكتتُهُ: تأكيدُ النَّفي، والمعنى المُجرَّدُ لهذا التَّركيبِ: ما كان مُريدًا للفعل أو قاصدًا له[5]، ومعناهُ في الآيةِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/81.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/172، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/80.
(4) السّمين الحلبي، الدر المصون: 5/155.
(5) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/204.

استحالةُ أن يأتي هذا الفعلُ من اللّهِ تعالى لأنَّه سبحانه عدلٌ لا يأتي منه ظلمٌ مطلقًا، فعدلُ اللّهِ مطلقٌ، ولا يكون العدلُ المطلقُ إلَّا مِنَ اللّهِ سبحانه.

التَّعبيرُ عن فِعْلِ الكَونِ بِصِيغَةِ المُضارعِ ﴿يَكُن﴾:

ضَرورةُ أن يكونَ عَدلُ اللهِ المُطلَقُ، مُتمثِّلًا في أذهانِ النَّاسِ

ومجيء الفعل ﴿يَكُن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن﴾ بصيغة المضارع الدَّالِّ على الماضي، لفائدة جعلِ الأمر حاضرًا في أذهان النَّاس؛ أنَّ اللّهَ لا يظلم النَّاس، وأنَّه تعالى لا يُهلك القُرى إلَّا من بعد أن يُرسل إليهم رسولًا، ثم هم يُعرضون عنه، ويُنكرون عليه، ومِثال ذلك أيضًا قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ [النساء: 168].

نُكتَةُ إيثارِ لفْظِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَّبُّكَ﴾:

إظهارُ أَثَرِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى على عِبادِهِ، بالهِدايَةِ، وأنّه لا يُباغِتُ بالإهلاكِ

في قوله: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ آثرَ ذِكْرَ الرَّبوبيَّة في خطاب النَّبيِّ ﷺ، إذ لم يقل: (ذلك أن لم يكنِ اللّه مهلك القرى)؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ رحمةٍ، ونفيٍ للإهلاك، فالرُّبوبيَّةُ في اللُّغة مبنيَّةٌ على معنى الرَّبِّ، والرَّبُّ هو السَّيِّد، والمُصلحُ، والمالكُ، والمُرَبِّي، والمدبِّر، وتَوحيد الرُّبوبيَّة هو الإقرارُ بأنَّ اللّهَ سبحانه هو ربُّ كلِّ شَيءٍ ومليكُهُ، فيكون كُلُّ شيءٍ بيدِهِ سبحانه ويَكونُ مصيرُ الخَلقِ بيدِهِ سبحانه فَناسَبَ معنى المُربِّي والمُدبِّرِ هُنا أنَّه سبحانه لا يُهلك القُرى بِظُلم؛ إذ هو شأنٌ عظيمٌ من شؤونِ اللّهِ تعالى وهو شأنُ عدلِهِ ورَحمَتِه، وإظهارُهُ أثرَ ربوبيَّتِه على عبادِهِ بهدايَتِهم إلى سُبُلِ الخَير، وعَدَم مباغَتَتِهم بالإهلاك قبل التَّقدُّمِ إليهم بالإنذارِ والتَّنبيهِ[1].

سِرُّ إضافَةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ ﴿رَّبُّكَ﴾:

التَّكريمُ والإيحاءُ بالمعيَّةِ، وأنَّ اللهَ مُربِّيهِ في كَنَفِ حِمايَتِهِ

المُخاطَبُ في هذا النَّصِّ هو رسولُ اللّه ﷺ، قال: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ﴾، ليُؤكِّد له في سياق الخِطاب، أنَّه سبحانه قد كانت قدرتُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/80.

سابقةً ومُهيمنةً، فقد بيَّنتِ الآيةُ وجهَ الرَّحمة، ومقتضى العَدلِ في إرسالِ الرُّسُل، ممتزجٌ خطابُها بموعظةِ عَدَمِ التَّفريط بفرصة الحياة، المُكتَنِفَةِ بالإيمان بالرُّسل والدَّارِ الآخرة الَّتي هي دارُ السَّلام.

والمَلمَحُ الآخرُ، أنَّ كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ أدَّت معنًى مهمًّا بالموازنَةِ بينَ رحمةِ اللّه، ورسالةِ رسولِه، فكلاهما رحمةٌ للنَّاس، وكأنَّهما يتعانقان في خطاب الرَّبِّ الأعلى لنبيِّه المعصوم؛ إذ نجد أنَّ كلمةَ ﴿رَبُّكَ﴾ مُكوَّنَةٌ من صفةِ اللّه بالرُّبوبيَّة، مضافةٌ إلى ضميرٍ مُعبِّرٍ عن النَّبيِّ الأكرم بضمير (الكاف) المُتَّصل، وفي هذا مُطلقُ التَّكريم والإيحاءِ بالمعيَّة وخصوصيَّة النَّبي في تَنَزُّلِ رحمةِ اللّهِ تعالى على النَّاس.

وقد تكرَّر هذا الأسلوبُ كثيرًا في سورةِ الأنعام بخطاب النَّبيِّ بصيغة ﴿رَبُّكَ﴾ وما في هذا الأسلوب من التَّطمين، ففي عنوان الرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ مُرَبِّيك في كَنَفِ حمايته.

بَراعَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعِلِ ﴿مُهۡلِكَ﴾:

وقد عبَّر باسم الفاعل ﴿مُهۡلِكَ﴾ الَّذي جرى مجرى الفعلِ المضارع، متعدِّيًا إلى مفعولٍ؛ لأنَّه حالٌ، وذلك على حدِّ قولهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا﴾ [الزُّمر: 14]، وهو دالٌّ هنا على نفي حَدَثِ الإهلاك، المفيدِ معنى المبالغة، بنفي رسوخِ صفةِ الإهلاكِ فيهِ على وجه الدَّوام، والثُّبوت تنزُّهًا عن الظُّلم.

التَّعبيرُ بصِيغةِ (فاعل) للمُبالَغةِ في نفْي الإهلاكِ على وجْهِ الدَّوامِ

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ: ﴿مُهۡلِكَ﴾، و﴿لِيُهۡلِكَ﴾:

قال تعالى هنا: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ إذ لا رسالةَ بعد الإسلام، ولا رسولَ بعدَ النَّبيِّ الخاتم ﷺ، ولا كتابَ بعد القرآنِ الكريم؛ فلا غفلةَ من ثَمَّ. فلم يعبِّر بما يدلُّ على الاستمرارِ والتَّجَدُّدِ، فجاءَ بما يدلُّ على نفي الحدث.

لن تُهلَكَ قريةٌ أهلُها مُصلِحُون

وقال في هود: ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117] بصيغة المضارع، المؤكَّدِ بلام الجحود بوصفها أبلغَ في النَّفي؛

لأنَّ فعلَ الإصلاح دائمٌ إلى قيام السَّاعة، لا يقتصر على زمانٍ دون زمانٍ، فعبَّر بما يناسبُهُ من فعلٍ، ويُلمَح فيه الحثُّ على فعل الإصلاح، والسَّعي إلى تمثُّلِهِ منهجَ حياةٍ، وسبيلَ نجاةٍ.

إهلاكُ القُرَى بين الحَقيقَةِ والمَجازِ:

العَذابُ ينزِلُ بأهلِ القُرَى أنفُسِهِم، أو بمَساكِنِهِم أو منازلِهِم

وقوله: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، بمعنى مُهلكِ أهلِ القُرى، وهو مجازٌ مرسلٌ، وعلاقتُه الحاليَّةُ. وقيل: إنَّ الإهلاكَ وقعَ على ذات القُرى فلا يكونُ في الآية مجازٌ، والصَّوابُ أنَّ العذابَ ينزلُ بالقرى وبأهلها أنفسِهم؛ لأنَّ غضبَ اللهِ واقعٌ عليهم، لا على ذات القُرى بأبنيتها ومعالمِها، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 25]، فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّ المساكن قائمةٌ لعدم اعتبارها من قبيل الأشياءِ المقصودةِ في الدَّمار والعقوبة، فالمقصودُ بِأَهْلِ القُرى ابتداءً: أنفسُهم، وحياتُهم، وعلاقاتُهم، وأفعالُهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النّمل: 52]، فهلاكُ القريةِ ودمارُها يكون بدمار أهلِها، وعذابُ اللهِ تعالى ينزلُ بالقرى وبأهل القرى معًا، فلا يُفَرِّقُ بينهما، بل يجعلُهما رمادًا وشيئًا لم يكن، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، فهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يهلك القرى إلَّا بعدَ إرسالِ الرَّسول إليهم؛ ليُبَيِّنَ لهم الحقَّ من الباطلِ، ولا يهلكُها إلَّا إذا كان أهلُها ظالمين لأنفسِهم بالكفرِ والمعصيةِ.

مَعنَى (الباء) في قَولِه تعالى: ﴿بِظُلۡمٖ﴾:

الظُّلمُ وصفٌ مُلازِمٌ لأهلِ القُرَى، لا يَنفكُّ عنهم أبدًا

الباءُ في جميع أحوالها تفيدُ الإلصاقَ، قال سيبويه: "وباءُ الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاطِ"[1]، فقولهُ: ﴿بِظُلۡمٖ﴾، أي: إنَّهم

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

ملتصقونَ بهذا الظُّلم ومقارفونَ لَهُ، ووالِغون فيهِ، على أنَّه لو أهلكهم - وهم غافلون، ولم يُنبَّهوا برسولٍ وكتاب - لكان ظلمًا، وهو متعالٍ عن الظُّلم سبحانه، وعن كلِّ قبيح[1]. ويُزادُ معنًى آخرُ، فالباءُ هنا للسببيَّة، والتَّقدير: وما كان ربُّك مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلم أهلِها، وأهلُها غافلونَ، فذِكْرُ أهلها مرَّةً واحدةً في موضع بيانِ غفلتِهم عن الإيمانِ، فإن كانوا كذلك، ولم يأتِهم رسولٌ، فإنَّ اللّهَ لا يُهلكهم، فإن جاءهم رسولٌ، فعلَّمهم، وذكَّرهم، ونبَّههم، وأنذرهم، فلم يؤمنوا؛ حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّهِ وعذابُه.

فائدةُ تنكيرِ ﴿بِظُلۡمٖ﴾، في سِياقِ النَّفْيِ:

تَنكيرُ الظُّلمِ يَحتملُ معنَى الصَّغائرِ، أو الشِّركِ

وأفاد تنكيرُ الظُّلم في قوله: ﴿بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ التَّعظيمَ؛ إذ لم يكنِ اللّهُ ليُعذِّبَ القرى على أمورٍ هيِّنةٍ من الصَّغائر، وإنَّما يقع عذابُهُ على ما وقعت فيه منَ الشِّركِ وإنكارِ الرِّسالات والإصغاءِ إلى شياطينهم من الجنِّ والإنس.

ويحتملُ معنى قوله تعالى: ﴿بِظُلۡمٖ﴾ التَّعظيمَ من أجل أن لم يكنْ ربُّك ليهلكَ القُرى بظلم أهلِها بالشِّرك، أي: بشركِ مَنْ أشركَ، وكُفْرِ مَنْ كفرَ من أهلِها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13] ونحو ما يُشْبِهُهُ من الظُّلم في الأعمالِ والأحكام، وهم غافلون، فلم يكن يعاجلُهم بالعقوبةِ حتَّى يبعثَ إليهم من ينبِّهُهُم على حُجَجِ اللّهِ عليهم، وينذرُهم عذابَ اللّهِ يوم مَعَادِهم، ولم يكن بالَّذي يأخذُهم غفلةً، فيقولوا: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذير. **والوجه الثاني:** ذلك أنْ لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظُلم، فلم يكن لِيُهْلِكَهُمْ دونَ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ بالرُّسل والآيات والعِبَرِ، فيظلمُهم بذلك، أي: يظلمُهم بعدم إرسال الرُّسلِ، فيُهلكون، واللّهُ غيرُ ظلَّام للعبيدِ، والوجهُ الأوَّلُ لا شكَّ أنَّه أقوى[2].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/63.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/563، ورضا، تفسير المنار: 8/94.

تَوجيهُ إعرابِ لَفظِ ﴿بِظُلۡمٍ﴾:

"وأمَّا قولُه: ﴿بِظُلۡمٍ﴾ ففيه وجهان، **الأوَّل**: بمعنى: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى بسبب ظلمٍ أقدموا عليه)، **والثَّاني**: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى ظلمًا عليهم)، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]، فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكون الظُّلمُ فعلًا للكفَّار، وعلى الثاني يكون عائدًا إلى فعلِ اللّهِ تعالى والوجهُ الأوَّلُ أليقُ بقولنا؛ لأنَّ القولَ الثّاني يوهمُ أنَّه تعالى لو أهلكَهم قبل بعثةِ الرُّسُل لكان ظَالِمًا، وليس الأمرُ عندنا كذلك؛ لأنَّه تعالى يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا اعتراضَ عليه لأحدٍ في شيءٍ من أفعاله"[1].

فيكون ﴿بِظُلۡمٍ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من ﴿رَبُّكَ﴾، أو من الضَّمير في ﴿مُهۡلِكَ﴾، أي: لم يكن مهلكُ القرى ملتبسًا بظلمٍ، ويجوز أن يكون حالًا من القرى، أي: ملتبسةً بذنوبِها[2].

مِـنْ عَـدلِ اللـهِ، أن لا يُعَاجِلَ الأقوامَ بالعُقوبةِ، حتَّى يبعثَ رُسلًا

عِلَّةُ التَّصريحِ بالأهلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

وهُنا صرَّحَ بـ (الأهل) فقال: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فذكرَهُم في موضع غفلتِهم، والغافلونَ لا يستحقُّون العذابَ، في حين أنَّه سبحانه لم يذكرْهم في موضعِ العذابِ والإهلاكِ، إذ قال: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ فلم يُصرِّح بـ (أهل)، بل اكتفى بذِكْرِ قُرَاهُم وهي مواضعُ حلولهم، فجاءَ التَّعبير على سبيلِ المجاز المرسلِ، وعلاقتُه الحاليَّةُ، فلم يقل: (مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلم، وهم غافلون)، إذ جزَّأ التَّركيبَ (أهل القرى)؛ فذكرَ القُرى في مطلع الآيةِ لورود العذابِ، وذكرَ الأهلَ في خاتمتِها لورودِ الغفلة؛ وذلك تجنيبٌ لخلقهِ من أن يُذْكَروا في مواضعِ العذاب، وإعانةٌ لهم على أن يَقوا أنفسَهم وأهليهم من عذابِ اللّه، وهذا عنوانُ رحمتِه سبحانه لعباده جميعًا.

ذِكْرُ أهلَ القُرَى في مَوضِعِ الغَفْلَةِ، وقُراهُم في مَوضِعِ العَذابِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/161 - 162.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155 - 156.

وهنا إشارتانِ بيانيَّتانِ إحداهما: أنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ هلاكَ القُرى، والهلاكُ نازلٌ على أهلها، ولكنَّه ذكرَ القرى، وحذفَ الأهلَ للإشارةِ إلى عمومهِ وشدَّته، وأنَّه لا قِبَلَ لهم. الثانية: أنَّه نصَّ على المحذوف في قوله: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فكان المحذوفُ هنالك مذكورًا هنا، ونفى اللّه تعالى الغفلةَ عنهم عند نزولِ الهلاكِ بهم؛ إذ أنذِروا بالرُّسل والآيات[1].

لا يُهلِكُ اللهُ النَّاسَ على ظُلمٍ، حتّى يَبْعَثَ فيهِمْ رَسولًا

وَجْهُ التَّعبيرِ عنِ الفاصِلَة باسْمِ الفاعِلِ المَجموعِ:

وقولهُ: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لَمۡ يَكُنۡ لِيُهلِكَهُم بظلمهم، وهم غافلونَ؛ لَمَّا يأتهم رسولٌ ولا حُجَّةٌ، وقوله في هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ فلم يكن ليُهلِكهُم بظلمِهم، أي: بِشركهم ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾، يتعاطَون الحقَّ فيما بينهم، أو بمعنى: لم يكن ليهلكَهم بظلمٍ منهُ، وهم مصلحون[2]. وغافلونَ: اسمُ فاعلٍ جرى مجرى الفعلِ الماضي، ودلالتُهُ هنا على الاستمرارِ، فما داموا غافلين، والمُرادُ بالغفلةِ هنا: عدمُ إرسالِ الرَّسول إليهم، وانقطاعُهم عن خبر السَّماء، فإنَّهم في مَأمَنٍ من إهلاكهم بشركِهم، ومُسَوِّغُ ذلك أنَّهم لا يزالون في غفلتِهم عن الإيمانِ حتَّى يأتيَهم النَّذير، فإن أتاهم النَّذير، فلا غفلةَ ولا إعذارَ، والجمعُ دليلُ كثرتِهم، أي: إنَّ أكثرَ أهلها غافلون، والكثرةُ موجبةٌ عدمَ استحقاقِ العذاب.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيَةِ:

عِلَّةُ إرسالِ الرُّسلِ، هي تَفادِي إهلاكِ القُرَى بغتةً

وفي الآيةِ إيجازٌ؛ إذ عُلِمَ منه أنَّ اللّهَ يُهلك القرى المسترسِلَ أهلُها على الشِّرك، إذا أعرضوا عن دعوة الرُّسل، وأنَّه لا يهلكُهم إلَّا بعد أن يرسل إليهم رُسلًا منذرين، وأنَّه أرادَ حمْلَ تَبِعَةِ هلاكِهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2676.

(2) الفراء، معاني القرآن: 1/355.

عليهم؛ كي لا يكونَ للنَّاس على اللّٰه حجَّةٌ بعد الرُّسل، ولا يبقى في نفوسِهم أن يقولوا: لولا رحِمَنا ربُّنا، فأنبأنا، وأعذر إلينا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ [طه: 134]، أي: قَبْلَ محمَّدٍ ﷺ، أو قَبْلَ القرآنِ ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: 134]، فاقتصر من هذا المعنى على معنى: أنَّ علَّةَ الإرسالِ هي عدمُ إهلاكِ القرى على غفلةٍ، فدلَّ على المعنى المحذوف(1).

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين آية الأنعام (131)، وهود: (117):

لا يُـترَكُ النَّاسُ سُــدًى، ولا عُـذْرَ لمُعْـرِضٍ أو مُتغافِلٍ

هنا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ وقال في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ فقال في الأولى: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، وقال في الثانية: ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ والفرقُ بين الموضعَين: الإشارةُ إلى ما تَقَدَّمَ ذكرُه مِنَ العقابِ في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وبعدَهُ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 130]، فقدَّم سبحانه ذِكْرَ بعثةِ الرُّسل للجنِّ والإنسِ وإنذارِهم وتذكيرِهم بالآياتِ وتعريفِ الخلقِ بالجزاء الأخرويِّ على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]، فلا عذْرَ لأحد، وقد أشارَ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: 19] فلا عُذرَ لمعرضٍ أو مُتغافِلٍ إن جاء البشيرُ والنَّذير ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ فهذا مناسبٌ، وتقدَّمَ آيةَ هودٍ قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/82.

﴿مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ﴾ [هود: 116] ولو كانوا ينهونَ عن الفسادِ في الأرضِ؛ لكانوا مصلحين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117] فلم يكونوا؛ ليُؤخذوا بالعقابِ، فقد ناسب كلًّا من الآيتين ما أعقبت به(1).

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الغَفلَةُ) و(السَّهْوُ) و(النِّسيانُ):

الغَفلَةُ عمَّا يكونُ، والسَّهوُ عمَّا لا يكونُ، والنِّسيانُ أخصُّ منهُما

قوله: ﴿غَٰفِلُونَ﴾، التَّغافُلُ: التَّعمُّدُ، والتَّغفُّلُ: خَتْلٌ عن غَفْلَةٍ، وأَغفلْتَ الشَّيءَ: تركْتَهُ غُفْلًا. والغُفْل: المُقيَّدُ لا يُرجى خيْرُهُ، ولا يُخشَى شرُّهُ، والجميعُ الأغفالُ(2). وأغفالُ الأرضِ، أي: المجهولةُ الَّتي ليس فيها أثرٌ يُعرف، وكتاب غُفْلٌ: لم يُسمَّ واضعُه(3). وبلادٌ أغفالٌ: لا أعلامَ فيها يُهتدى بها(4). قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف: 28]. والمُغَفَّلُ الَّذي لا فطنةَ له. والأغفالُ: الأمواتُ. والغفلةُ تكون عمَّا يكون، والسَّهو يكون عمَّا لا يكونُ، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيءِ حتَّى كان، ولا تقول: سهوْتُ عنه حتَّى كان، لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكنْ، ويجوز أن تغفُلَ عنه، ويكون، وفرقٌ آخرُ هو أنَّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الآخَرِ، تقول: كنتُ غافِلًا عمَّا كان من فلانٍ، ولا يجوزُ أن يُسْهَى عن فعل الآخر(5). والسَّهوُ عدمُ التَّفطُّنِ للشَّيءِ، مع بقاء صورتِه أو معناه في الخيال أو الذِّكرِ؛ بسببِ اشتغال النَّفسِ والتفاتها إلى بعض مهمَّاتِها. والغَفلَة: عدمُ حضورِ الشَّيءِ في البال بالفعلِ، فهي أعمُّ من السَّهوِ(6). والغفلةُ

(1) الغرناطي، ملاك التأويل؛ ص: 170 - 171.
(2) الخليل، العين: (غفل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غفل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).
(6) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

أعمُّ من النِّسيان؛ فهي عبارةٌ عن عدمِ التَّفَطُّنِ للشَّيءِ وعدم عقليَّته بالفِعل، سواءٌ بقيت صورتُها أو معناهُ في الخيال، أو الذِّكر، أو انمَحَتْ عن أحدِهما. وهي أعمُّ من النِّسيان؛ لأنَّه عبارةٌ عن الغفلةِ عن الشَّيءِ مع انمِحاءِ صورتِهِ أو معناهُ عن الخَيال، أو الذِّكر بالكلِّيَّة، ولذلك يحتاج النَّاسي إلى تجشُّم كسبٍ جديدٍ، وكلفةٍ في تحصيلهِ ثانيًا[1]. ولذلك ناسبَ سياقَ الآيةِ لفظُ الغفلةِ دون غيرها.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾

[الأنعام: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين إعذارِ الله للإنسِ والجنِّ، وأنّ درجاتِ الآخرةِ حصيلةُ أعمالِ الدُّنيا

بعد أن ذكرَ حالَ المؤمنين ومثوبتَهم في الدُّنيا، وفي الآخرة ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾، ثم ذكرَ المشركين وما سيؤولُ إليه في الآخرةِ حالُهم؛ بيَّن هنا أنَّ كِلا الفريقَين من المؤمنين والكافرين، سَيَكُونُون على درجاتٍ بحسب أعمالِهم، وما يستحقُّون من الثَّواب، أو العقاب، فاللّٰهُ لا يظلمُ أحدًا، بل يعطي سبحانهُ كُلًّا منهم على استحقاقِه، فسيُنْصَبُ يومَ القيامةِ ميزانٌ، وتكون درجاتٌ، ولكلٍّ منهم درجةٌ تناسب أعمالَهُ في الدُّنيا، وهي حصيلةٌ نهائيَّةٌ لها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ دَرَجَ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ، من ذلك قولهم: دَرَجَ الشَّيءُ؛ إذا مضى لسبيلِه، والدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمنزلة، وتُجمعُ: (الدَّرَج)، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفعُ من منازلَ[1]. ورَقِيَ في الدَّرَجةِ والدَّرَجِ. واستَدْرَجَهُ: رَقَّاهُ من دَرَجةٍ إلى دَرَجَةٍ[2]، و(المَدْرَجَةُ) بوَزْنِ المَتْرَبَة: المَذْهَبُ والمَسْلَكُ. و(الدَّرَجَةُ) المِرْقاةُ والجَمْعُ (الدَّرَجُ). و(الدَّرَجَةُ) أَيْضًا المَرْتَبَةُ والطَّبَقَةُ والجَمْعُ (الدَّرَجاتُ)[3]. ومن المجاز: لفلانٍ درجةٌ رفيعةٌ. وامش في مدارج الحقِّ. وعليك بالنَّحو؛ فإنَّه مَدْرَجَةُ البيانِ. وخَلِّه دَرَجَ الضَّبِّ، واستمرَّ أدراجَه، وذهبَ دمُهُ أدراجَ الرِّياح، ودَرَجَ الرِّياح[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (درج).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (درج).
(3) الرازي، الصحاح: (درج).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (درج).

ومعنى الدَّرجات في الآيةِ: منازلُ ومراتبُ من خيرٍ أو شرٍّ.

2) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ الغَفْلَةُ: تَرْكُ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ[1]، وهي أيضًا: غَيْبَةُ الشَّيْءِ عن بالِ الإنسانِ وعَدَمُ تَذَكُّرِه لَهُ، يُقال: غَفَلَ عنِ الشَّيْءِ، يَغْفُلُ، غَفْلَةً، وغَفَلًا؛ إذا غابَ عن بالِه، ولم يَتَذَكَّرْهُ[2]. وتُطْلَقُ الغَفْلَةُ على مَن تَرَكَ الشَّيْءَ إِهْمالًا وإِعْراضًا[3]، والتَّغافُلُ: تَعَمُّدُ الغَفْلَةِ[4]. وتأتي بمعنى: عَدَمِ الفِطْنَةِ وقِلَّةِ التَّجْرِبَةِ، ورَجُلٌ غُفْلٌ: لم يُجَرِّبِ الأُمورَ[5]. والمقصود بـ (غافل) في الآية: ليس بِخَفيٍّ على اللّهِ مقاديرُ أعمالِهم.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الدَّرجاتُ مِيزانُ أعمالِ العِبادِ يومَ القيامةِ، ولا يَظلمُ اللهُ النّاسَ شيئًا

يخبِرُ تعالى أنَّ لكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومُؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ منازِلَ ومراتِبَ في الآخرةِ، يستحِقُّونها بحسَبِ أعمالِهم؛ يُبَلِّغُهم اللّهُ تعالى إيَّاها، ويُثيبُهم بها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ، ولا يخفى على اللّهِ من أعمالِ البَشَرِ شيءٌ[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ وَصْلِ الآيةِ بما قَبْلَها:

فائِدةُ العَطْفِ هو الجَمعُ بين الأعمالِ وجَزائِها

والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، وبين الجملتَين اتِّصالٌ؛ لِكَوْنِهِما جملتَينِ خبريَّتينِ، فلمَّا ذَكَرَ تعالى أحوالَ أهلِ الثَّوابِ، وأحوالَ أَهْلِ العقابِ؛ ذكرَ كلامًا كليًّا عامًّا في المُطيعِ والعاصي، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾؛ فبيْنَ الجملتين اختلافٌ في المعنى، فالأولى

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (غفل)، والحموي، غمز عيون البصائر: 4/144.
(3) القنوجي، فتح البيان: 4/443.
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مجمل اللغة: (غفل).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/564، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 274، والشنقيطي، العذب النمير: 2/298.

ذكرتِ الأعمالَ، والثَّانيةُ بيَّنتِ الجزاءَ عليها للفريقين الصَّالح أو الطَّالح في قبيلي الجنِّ وَالإنسِ في الدَّارين، فإمَّا دَرَجاتٌ يُعليهم اللّهُ بها، أو دركاتٌ يُهْويهم فيها كذلكَ[1]. وهي بِمَنزلةِ التَّذييل لما قبلَها.

نُكتةُ تَنوينِ لفظِ ﴿لِكُلِّ﴾:

والتَّنوينُ في ﴿وَلِكُلِّ﴾ تنوينُ عِوَضٍ عن المضاف إليه محذوفٌ، أي: ولكلِّهم، شملَ بذلك كلَّ أهلِ القرى المُهلَكة، فيكونُ المعنى لكلِّ فردٍ منهم درجتُهُ الَّتي يستحقُّها جزاءَ عملِه، وهذا من عجائبِ عظيمِ شأنِ اللّهِ، فهو أسرعُ الحاسبينَ[2] - سبحانَه - والآيةُ على عمومِها تخاطبُ النَّاس جميعًا، فلكلِّ واحدٍ منهم درجةٌ، وكلٌّ بحسبِ عملِه، فتكونُ درجتُه حصيلةَ أعمالِه في حياتِه، وذكر الرَّازيُّ معنى آخر: هو أنَّ لكلِّ عاملٍ عملًا، فلهُ في عملِه درجاتٌ، فتارةً يكون في درجةٍ ناقصةٍ، وتارةً يترقَّى منها إلى درجةٍ كاملة، وأنَّه تعالى عالمٌ بها على التَّفصيل التَّام، فرتَّب على كلِّ درجةٍ من تلك الدَّرَجات ما يليقُ به من الجزاء[3]. فيكون المعنى: ولكلِّ واحدٍ منهم درجاتٌ.

من عَـدْلِ اللهِ أن جعلَ لكلٍّ مـا يَستحقُّهُ على عَمَلِهِ يومَ الحسابِ

بَلاغةُ الإيجازِ بِحذْفِ المُضافِ إليهِ في: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

وقولُه: ﴿وَلِكُلِّ﴾ تفيدُ بيانَ التَّنويع في الدَّرجات، والتَّقسيمُ كلٌّ بحسب ما يستحقُّ على درجة من الدقَّة الَّتي لا تُخطِئُ أبدًا، والعدلُ الذي لا يحيدُ؛ إذ يكون لكلٍّ منهم منفردًا عن غيره درجةٌ خاصَّةٌ لا تماثل درجاتِ الآخرين، على حسب أحوال النَّاسِ جميعًا، وقيل: لكلِّ عاملٍ في طاعةِ اللّهِ أو معصيتِه، منازلُ ومراتبُ من عملِه يبلِّغُه اللّهُ إيَّاها، ويثيبهُ بها، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ[4]. فيكون قد أريدَ بها النَّاسُ جميعًا مع ما لأهل القرى ممَّن ذُكِروا في الآية من

الجَزاءُ شامِلٌ للمُكلَّفين جميعًا، ولكلٍّ ما يَستحقُّ

---

(1) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/484.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/83.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/125.

الخصوصيَّة، فَأُريدَ هنا العامُّ، أي: النَّاسُ جميعًا والجنُّ جميعًا، بعد أن ذكر الخاصَّ من أهل القرى.

بلاغَةُ الاحْتِراسِ في الآيةِ الكريمةِ:

لا يُحرَمُ الصَّالحون من أهلِ القُرَى الظَّالمةِ، جزاءَ أعمالِهم

وقولهُ: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ احتراسٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾[1]؛ لبيان أنَّ الصَّالحين من أهل تلك القرى - الغالبِ على أهلِها الشِّركُ والظُّلمُ، والتي قد يصيبها الإهلاكُ - لا يُحرمون جزاءَ أعمالهم الصَّالحةِ.

عِلَّةُ إيثارِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ دونَ غيرِه:

الدَّرجاتُ استعارةٌ لمنازِلِ الآخرةِ، الّتي هي مُتفاضِلةٌ كالدَّرَجِ

والدَّرَجاتُ عمومًا، هي المستوياتُ، صعودًا أو هبوطًا، إيجابًا أو سلبًا، واسْتُعيرَتْ هنا للمنازلِ، فهي لمنازلِ الأعمالِ، بقرينةِ قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فشُبِّهت بدرجاتِ السُّلَّم في استعارةٍ تصريحيَّةٍ، أو أنَّها قد سُمّيَتْ ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ لتفاضلِها في الارتفاعِ والانحطاط، كتفاضلِ الدَّرَجِ[2]. فصوَّرتْ منازلَ النَّاس، وهم يقفونَ على درجاتٍ متواليةٍ عاليةٍ، بعضُهم أرقى من بعضٍ، أو درجات نازلةٍ، بعضُهم أدنى من بعضٍ، كلٌّ بحسب عملِه.

والمنازلُ أعمُّ من الدَّرجات؛ لأنَّ لفظَ الكلِّ يفيدُ الشُّمولَ للقبيلين المُؤْمنينَ والكفرة، فاقتضى المقامُ أن تُفَسَّرَ الدَّرجاتُ بالمنازل ليعمَّ المطيعَ والعاصي. كان المُرادُ درجاتٍ ودَرَكاتٍ، إلا أنَّهُ غَلَّبَ الدَّرجاتِ[3].

سِرُّ استعمالِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٞ﴾ مقابلَ لفْظِ (دركات):

الدَّرجاتُ هي المَراتبُ المُتزايدةُ، وفيها إشعارٌ بِبشارةِ المسلمين

قد جاء أنَّ للنَّار دركاتٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء: 145]، ووردت هنا درجاتٌ، لأهل الجنَّة وأهل النَّارِ على جهة التَّغليبِ، فدَرَجُ أهل الجَنَّة تذهب علوًّا، ودَرَجُ أهلِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/83.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/79.
(3) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 8/268.

النَّار تنزل هبوطًا. ويُحتملُ أنّ المرادُ بالدَّرَجات هي المراتبُ المتزايدة، إلا أنَّ زياداتِ أهل الجَنَّة في الخيرات والطَّاعات، وزياداتِ أهل النَّار في المعاصي والسَّيِّئات[1]. وأتى بلفظ الدَّرَجاتِ؛ إيماءً إلى تغليبِ حالِ المؤمنين، لِتَطمئنَّ نفوسُ المسلمين من أهل مكَّةَ، بأنَّهم لا بأسَ عليهم من عذابِ مشركيها، وقدْ عُلِم من الدَّرَجات أنَّ أسافِلَها دركاتٌ، فغلَّب درجاتٍ لنكتةِ الإشعار ببشارةِ المؤمنين، بعد نِذارةِ المشركين[2]. ولعلَّها من قبيل كونِهَا أعظمَ شأنًا وعَدَدًا ولذلك غُلِّبَت.

دلالةُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾:

الأعمالُ هي مَنشَأُ دَرَجاتِ الآخِرَة، وكلٌّ يُجازَى حسبَ عملِه

قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ ومِن أعمالهم تنشأُ درجاتُهم في الآخرة. فـ (مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ تعليليَّةٌ، أي: بسببِ تفاوتِ أعمالِهم[3]. وهي انعكاسٌ للمصائرِ يومَ القيامة، فما هذهِ الدَّرجاتُ إلَّا منازِلُ في الآخرةِ.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآيةِ الكريمة:

الأعمالُ هي العَناصِرُ الَّتي تَتَفاوَتُ بِمُوجِبِها المَنازِلُ، إيجابًا وسلْبًا

قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ فيه من بديع اللَّفِّ والنَّشر ومن غريبِه؛ إذ ذَكر في القطعة القرآنيَّة السَّابقة مُتَعَدِّدَين، هما: الجِنُّ وَالإنسُ، والمؤمنون والكافرون، ثم ذكرَ في نشْرٍ واحدٍ ما يكون لكلٍّ من أفرادِ المتعدِّدَين، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾؛ فيكونُ الإنسُ والجنُّ لفًّا أوَّلَ، ويكون المؤمنون والكافرون لفًّا ثانيًا، ثم قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ نشرٌ لكلِّ واحدٍ من اللَّفَّين، فصارتِ الآيةُ كالتَّذييل لسابقها.

ومن فوائدِ اللَّفِّ والنَّشْرِ هنا وبلاغتِه أنَّه جَمَعَ المخلوقاتِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.

المُكلَّفة، وجعلَهم كلَّهم تحت مظلَّةِ أعمالهم، وجَعَلَ للأعمال مقياسًا واحدًا، وجَعَلَ أعمالَهم هي العُنْصُرَ الَّذي تتفاوت به المنازلُ يومَ القيامة، فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]، أو يمكن أن يكونَ معنى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾ أي: لكلِّ فردٍ من الإنسِ والجنِّ سَيُنْصبُ له ميزانٌ، أو يكونُ مقياسٌ لأعمالهم، منسجمًا ومنبعثًا من واقعِ حالهم. وأنَّ أسلوبَ اللَّفِّ والنَّشر هنا تَضمَّنَ إشارةً علميَّةً خفيَّةً وأفاد تعليمًا خفيًّا بأنَّ الدَّرَجاتِ يمكنُ أن تكونَ على جهةِ الصُّعودِ، وهي درجاتُ الإيجابِ، أو تكونَ على جهة النُّزولِ وهي درجاتُ السَّلْبِ، فالآيةُ إخبارٌ من اللهِ ﷻ بأنَّ المؤمنين في الآخرة على درجاتٍ من التَّفاضل بحسب أعمالِهم، وجعلَ المشركين أيضًا على درجاتٍ من العذابِ[1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ ﴿وَمَا﴾:

أفــادت (مـا) قــوَّةَ الـنَّـفْـي في الـعـبـارة، والتّنزيهَ لجلالِه بجدارةٍ

عمِلت ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ عمَلَ (ليس) بدخولها على الجملة الاسميَّة، ويُقوِّي هذه المُشابهةَ بينهما دخولُ الباءِ في خبرِها كما تدخلُ في خبرِ ليس[2]. فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾، و(ما) أقوى في النَّفي من (ليس)[3]، فأفادت قوَّةَ النَّفي في العبارة.

سِرُّ التَّعبيرِ عن نَفْيِ الغَفْلةِ باسْمِ الفاعلِ ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

بيانُ عظيمِ شأنِ اللهِ، وهوانِ مَن سِواه

بينَ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ و﴿بِغَٰفِلٍ﴾ تكرارٌ لصيغةِ اسم الفاعل، والتَّعبير عن الأولى بالإثباتِ والثَّانية بالنَّفي، غرضُها بيانُ عظيمِ شأنِ اللهِ، فمهما غفَل البشرُ - وهي صفةٌ من صفاتهم - فإنَّه سبحانه لا تصيبه غفلةٌ، ولا تأخذه سِنَةٌ، ولا يُصيبُه ضَعفٌ - حاشاهُ - بل هو عالمٌ بغفلاتِ المخلوقاتِ من الجنِّ والإنسِ، قدْ عَدَّها عليهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/346.
(2) المبرّد، المقتضب: 4/188، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 1/108.
(3) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/230.

وأحصاها، حليمٌ عليهم بما يقترفونَ في غفلاتِهم التي تصدر عن جهلٍ أو نسيانٍ، ولبيان أنَّه سبحانه قد وضعَ أعمالَ النَّاسِ في مقاييسَ وموازينَ يعجزُ عن إدراكها البشرُ، ثم تُحَوَّلُ تلك المقاييسُ للأعمال والنِّيَّات إلى منازلَ، بهيئة درجاتٍ ترتفع بأصحابها في الجنانِ، أو تهوي بهم إلى دركاتِ الجحيم والشَّقاء، فيكون بين صيغتي الإثباتِ والنَّفي لاسم الفاعلِ طباقُ سلْبٍ.

توجيهُ التَّعبيرِ بتركيبِ ﴿رَبُّكَ﴾:

الـخـطـابُ تشريفٌ للرَّسولِ الأكرمِ ﷺ

كرَّرَ مفردة ﴿رَبُّكَ﴾ لما ذكرناهُ من تشريفِ الرَّسول ﷺ في المواضعِ والموضوعاتِ كلِّها من سورة الأنعام، فجعلَ ذلك مقصدًا للسُّورة، فالخالقُ المربِّي للخلق، والمدبِّر لشؤونهم هو أعلم في نفوسِهم، وأخبر بأحوالها، وفيه تذكيرٌ للمؤمنين بمكانته ﷺ، وما يُرافق ذلك من تطمينٍ للمؤمنين برسالتهِ ونبوَّتهِ ﷺ.

فائدةُ (الباءِ) في قولِه تعالى: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

استحالةُ غَفْلةِ اللهِ تعالى، وهو الّـذي لا تأخذُه سِنةٌ ولا نومٌ

(الباء) في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زائدةٌ مختصَّةٌ بتوكيدِ النَّفي، قال البصريُّون: هي لرفع توهُّم الإثبات، فإنَّ السَّامع قد لا يسمع أوَّلَ الكلام(1)، فإذا سَمِعَ (الباءَ) عَلِمَ أنَّ ما قبلها نفيٌ؛ لأنَّ (الباء) لا تزاد في الإيجاب، فهي تؤكِّدُ استحالةَ غفلةِ اللّهِ سبحانه عن أعمال خلقهِ صغيرِها وحقيرِها: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16].

بديعُ الجِناسِ النَّاقصِ في: ﴿مِّمَّا﴾ و﴿عَمَّا﴾:

العملُ والجزاءُ عُـنـصـرانِ مُتجانِسانِ، لا يَنفكُّ أحدُهما عنِ الآخَرِ

وبين جِناسٌ ناقِصٌ، والجِناسُ يوحي بتَجانُسِ الجزاءِ والعمل، فالجزاءُ من جنسِ العملِ، وجامِعُ ذلك ومُشْتَرَكُهُ هي الأعمالُ ومقاييسُها الَّتي وَضَعَها اللّهُ سبحانه لقياس الأعمال وترتيبِ المنازل والدَّرَجات، كلٌّ بِحَسَبِ ما قدَّم.

(1) الأزهريّ، شرح التّصريح: 1/201، والصّبّان، حاشية الصّبّان: 1/250.

بديعُ جِناسِ الاشتقاقِ، بينَ ﴿عَمِلُوا۟﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

أعمالُ النَّاسِ، تكونُ حاضرةً يومَ القيامةِ؛ لينالُوا جَزاءَهم بإنصافٍ

بين ﴿عَمِلُوا۟﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ، وفائدتهُ: معرفةُ أنَّ ما يعمله المكلَّفون في الدنيا سيكون حاضرًا أمامَهم يومَ القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29]، وقال: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 49].

بلاغةُ الالتفاتِ الفِعْليِّ منَ الماضِي إلى الحاضرِ:

أعمالُ النَّاسِ، تكونُ حاضرةً يومَ القيامةِ، وتُحتَسَبُ بالمقياسِ التَّراكُميِّ

بين ﴿عَمِلُوا۟﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾ التفاتٌ فِعليٌّ في الخطاب من الماضي إلى الحاضر؛ ليُعلم أنَّ كلَّ فعلٍ سيُشاهد واقعًا يوم القيامة، وفي ضوئه يكون استحقاقُ العذاب، لا تَظلِمون، ولا تُظلَمون، وأنَّ مقياس الأعمال تراكميٌّ تجميعيٌّ لا يُفوِّت شيئًا أو يتجاهله، وتُنبِئُ صيغةُ المضارع بديمومة عدمِ غفلتِه تعالى عن أعمال عبادهِ على امتدادِ الزَّمن.

بلاغةُ التَّعريضِ، في قراءَةِ الجُمهورِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

في الآيـةِ تسليّةٌ لِرَسولِ اللهِ ﷺ وتعريضٌ بالمُشرِكين

قرأَ الجمهورُ سوى ابنِ عامر ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ على لفظ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ بياء الغَيبة، فيعود الضَّميرُ إلى أهل القرى، والمقصودُ مشركو مكَّة، فهو للتَّسليةِ والتَّطمين لرسولِ اللّٰه ﷺ وللمؤمنين؛ لئلَّا يستبطِئوا وَعْدَ اللّٰهِ بالنَّصر، وهو تعريضٌ بالمشركين أرادَ تهديدَهم ووعيدَهم، وقرأ ابنُ عامرٍ وحده ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على المخاطبةِ بالتاء[1]، فالخطابُ للرَّسول ﷺ ومن معه من المسلمين، فهو وَعْدٌ بالجزاءِ على صالحِ أعمالهِم.

بلاغةُ الالتفاتِ وتَنوُّعُه في الآيةِ الكريمةِ:

الالتِفاتُ منَ الغائبِ إلى المُخاطَبِ، ثمّ منَ المفردِ إلى الجَمْعِ

في قراءةِ ابن عامرٍ تغليبٌ للخطاب على الغَيبة، ومراعاةٌ لما بعدها: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، ﴿مِنۢ بَعۡدِكُم﴾، ﴿أَنشَأَكُم﴾، ومع هذا الالتفاتِ إلى المُخاطَبِ انسجامٌ مع قُرْبِ معادِهم إلى اللّٰه سبحانه فيجازيهم على أعمالِهم.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347، وابن الجزري، النشر: 2/263.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، والمعنى: كلُّ ذلك من عملهم، بعلم من ربِّك، يحصيها ويُثْبِتُهَا لهم عنده، ليجازيَهم عليها عند لقائِهم إيَّاه ومعادهم إليه(1). فتحقَّق من ذلك التفاتٌ من المفردِ إلى الجمع، فالتفتَ الخطابُ من الرَّسول ﷺ، إلى جَمْعِ المؤمنين ورسول الله ﷺ معهم، فهو وَعْدٌ بالجزاء على صالح أعمالهم، ترشيحًا للتَّعبير بالدَّرجات العُلا من الجَنَّة، ليكونَ حَصانًا ضامِنًا مطمِّنًا لهم من وعيدِ أهلِ القُرى من أصحابِ الظُّلم(2).

بلاغةُ المُقابَلةِ في الآيةِ الكريمةِ:

أهلُ الطَّاعةِ لا يَليقُ بِهِم إلَّا اللَّفظُ الدَّالُّ على العُلوِّ والرُّقاءِ

المقابلةُ بَيْنَ العبارتين: في الأولى قولهُ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ مختصٌّ بأهل الطَّاعة؛ لأنَّ لفظَ الدَّرَجَةِ لا يليقُ إلَّا بهم - على اعتبارِ أنَّ الدَّرجاتِ لأهل الجنَّة والدركاتِ لأهل النَّارِ - والثَّانية قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ مختصٌّ بأهل الكفر والمعصية(3)، وهذا مَدْعَاةُ المُقابلة، وقصيدُها في الآيةِ بينَ العبارتين، فقابل بين الفريقين وعدًا ووعيدًا، واللهُ سبحانه هو الضَّامنُ للعدلِ، وتحصيلِ الحقوق.

علَّةُ تقديمِ وصْفِ حالِ الآخرةِ على الدُّنيا:

غايةُ كلِّ عاقلٍ مآلُهُ في الآخرة، حيثُ الحياةُ المُثلَى

وقدَّم ما يصفُ حالَ الآخرة ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، على ما يصفُ حالَ الدُّنيا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأمرين: **الأوَّل**: أنَّ حالَ الآخرةِ هو المآلُ، وهو الغايةُ لكلِّ عاقلٍ ذي لُبٍّ، **والثاني**: أخَّرَ وصف الدُّنيا؛ لأنَّه الواقعُ المعيش، المُصاحبُ لحالِ الأحياءِ، المُلاصِقُ لهم، و﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: 21]، وعُرِض

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/125.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162.

بأسلوبٍ فيه ما فيه من التَّنبيه إلى قدرتهِ تعالى وعِلْمِه، وهو العالمُ بأفعال العباد ونيَّاتهم.

بلاغةُ التَّوكيدِ في جُملة الفاصِلَة:

وردت مُؤكِّداتُ النَّفْيِ، لمن أنكرَ قُدرةَ اللهِ في خلْقهِ

قولهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ عَبَّرَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بنفي الغفلةِ عنهُ نفيًا مؤكَّدًا، بمؤكِّدات ثلاثةٍ، **أوَّلها**: التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة، **وثانيها**: دخول (الباء) الزَّائدةِ للتَّوكيد التي تدلُّ على استغراق النَّفي. **وثالثها**: التَّعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأنَّ الرَّبَّ هو الذي ربَّى النُّفوسَ والأخلاق، فهو أعلمُ بها، وأخبر بأحوالها، فجزاؤه جزاءُ من يضعُ العقابَ في موضعه، والثَّوابَ في مكانه[1]. وزيادةُ هذه المؤكِّدات؛ لأنَّ العبارةَ خطابٌ للنَّاس، وفيهم من ينكرُ قدرةَ اللهِ وقيُّوميَّته على خلقه، وأنَّه سبحانه قد أحصى كلَّ شيءٍ عليهم، فجاءتِ المؤكِّداتُ لتوكيد نفي الغفلةِ عن اللهِ سبحانه والبيانِ للنُّفوس الشَّاكَّةِ المنكرة للإيمان وللرِّسالات استحالتَها عليه سبحانه.

تَوجيهُ نظائرِ الآيةِ الكريمة:

جعْلُ اختلافِ الأعمال، كاختلافِ الذَّواتِ

وَرَدَ من نظائر الآية في الأحقاف بعد أن ذكرَ أحوالَ الجنِّ والإنسِ من المؤمنين وغير المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: 19]؛ فعُلِمَ أنَّ للجنِّ ثوابًا كما أنَّ للإنس ثوابًا[2]. أو قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163] على تقدير الكلام: لهم درجاتٌ عند الله، فحَسُن هذا الحذفُ؛ لأنَّ اختلاف أعمالهم، قد صَيَّرَهم بمنزلة الأشياء المختلفةِ في ذواتها، فكان هذا المجازُ أبلغَ من الحقيقة[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2678.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1389.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/62.

ميقاتُ توفيةِ أعمالِ العِبادِ، في يومِ المعادِ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ، بين آيةِ الآنعام (132)، وآيةِ الأحقاف (19):

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: 19]، ذَكَر الفريقين مِنَ المؤمنين والكافرين، فجاء التَّعقيبُ في الآية مُناسِبًا لذلك، فقال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وذكرَ في الأنعام الظَّالمين، فقال معقِّبًا في الآية: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

المنازل أعمُّ من الدَّرجات، عند ربّ الأرض والسّماوات

(الدَّرَجاتُ)، و(المَنَازِلُ)، و(المَقَاماتُ):

قوله: ﴿دَرَجَٰتٞ﴾، الدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمنزلة، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفعُ من منازلَ[1]، و(الدَّرَجَةُ) أَيْضًا المَرْتَبَةُ والطَّبَقَةُ، والجَمْعُ (الدَّرَجاتُ)[2]. أمَّا المنازلُ؛ فالنُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من علوٍّ، فلا تصلحُ أن يُذكر في الدَّرجات العالية إلَّا بقرينة، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]، فجعله مُنزلًا مباركًا، وإنزالُ اللهِ تعالى نعمَه ونِقمَه على الخلق[3]، فالمَنازِلُ أعمُّ من الدَّرَجات.

أمَّا المقاماتُ؛ فأصلُها من القيام، والمقامُ يكون مصدرًا واسمَ مكانِ القيام وزمانه، نحو: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 71]، وقوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: 46]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: 125] فهي الدَّرجاتُ العاليةُ، والمقامات مرتَّبةٌ إيجابًا في ترتيبٍ تصاعديٍّ، فلا يصلُحُ أن يُقالَ: مقاماتُ الكُفَّار.

لذلك جاء في الحديث عنهُ ﷺ قولُه: «الجنَّةُ مئةُ درجةٍ ما

(1) الخليل، العين: (درج).
(2) الرّازيّ اللغوي، الصحاح: (درج).
(3) الراغب الأصفهانيّ، المفردات: (نزل).

بين كلِّ دَرَجَتَينِ مئةُ عامٍ»[1] والدَّرَجةُ هي المنزِلةُ والمكانةُ العاليةُ، وليس المرادُ بالعَدَدِ الحَصرَ، وإنَّما للدَّلالةِ على كَثْرتِها، بحيث إنَّ المسافةَ الَّتي تكونُ بينَ الدَّرَجتَينِ، ومِقْدار ارتِفاعِ كلِّ درَجةٍ عَن الأخرى تكونُ مِثلَ مسافَةِ مَن يَسيرُ مِئَةَ عامٍ؛ لذلك ناسبَ السِّياقَ الكريم في الآية أن يورِدَ لفظَ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، ليشمَلَ الجزاءُ النَّعيمَ والعقابَ المُتَفاوِتَ في تِلك الدَّرَجاتِ لكلا الفريقين.

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، الحديث رقم: (2529)؛ وأحمد في المسند، الحديث رقم: (7910).

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

[الأنعام: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين تبايُنِ دَرجاتِ الجزاءِ، وغِنَى الله عنِ الإذهابِ والاستِخلافِ

لمّا بيَّنَ تعالى ثوابَ أصحابِ الطَّاعات، وعقابَ أصحابِ المعاصي والمحرَّمات، وذكرَ أنَّ لكلِّ قوم درجةً مخصوصةً، ومَرْتَبَةً معيَّنة، بيَّن أنَّ تخصيص المطيعين بالثَّواب، والمذنبين بالعذاب، ليس لأجل أنَّه محتاجٌ إلى طاعة المطيعين، أو يَنْتَقِصُ بمعصية المذنبين، فإنَّه تعالى غنيٌّ بذاتِه عن جميعِ العالمين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: أَصْلُ الذَّهاب: المُضيُّ، والذَّهْبَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ من الذَّهاب، ويقولون: ذَهَبَ لِذَهَبِه، أي: لِمَذْهَبِه الَّذي يَذْهَبُ إليه[2]، والمَذْهَبُ: مَصْدَرٌ، كالذَّهابِ، وذَهَبَ بِه، وأَذهَبَه غَيْرُهُ: أزالَه[3]. والمقصودُ في الآية: التَّمَكُّنُ مِنَ التَّصَرُّفِ بالإيجادِ والإعدام.

2) ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾: أَصلُ الإخلاف: جَعْلُ الشَّيءِ خَلَفًا عن الشَّيءِ[4]، والخَلَفُ: العِوَضُ والبَدَلُ، يُقالُ: خَلَّفْتُ فلانًا أُخَلِّفُهُ تَخْليفًا واسْتَخْلَفْتُهُ، أَيْ: جَعَلْتُه خَليفَتي[5]، ويُقالُ: أَخْلَفَ اللهُ عليكَ خَيْرًا، أي: أَبْدلَكَ بما ذَهَبَ مِنْكَ[6]، والخَلَفُ: مِنَ الصَّالحين، ولا يجوز

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/163.
(2) الخليل، العين: (ذهب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).

أن يُقال: مِنَ الأشرار خَلَفٌ[1]، ولا من الأخيار خَلْفٌ، والمقصود من ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾ في الآية: ويأتِ بخلقٍ غيرِكم وأمم سواكم.

3) ﴿أَنشَأَكُم﴾: "النُّونُ والشِّينُ والهَمْزَةُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وَسُموٍّ، وَنَشَأَ السَّحابُ: ارْتَفَعَ، وأَنْشَأَهُ اللّهُ: رَفَعَهُ، ومِنْهُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: 6]، يُرادُ بها العبادةُ التي تنشأ في جوفِ اللَّيل، ومن هذا الأصلِ عُبِّر بها عن بَدْءِ الشَّيء لأوَّل أمره من عدَم، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناءٍ كانت موجودةً، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيَّنٌ فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: 61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98][2]. ومنه ﴿أَنشَأَكُم﴾ في الآية.

4) ﴿ذُرِّيَّةِ﴾: أَصْلُ (ذرّ) يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[3]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أَخذُك الشَّيءَ بأطرافِ أصابعك تَذُرُّه ذَرَّ المِلْحِ المَسْحوقِ على الطَّعام[4]. والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ من الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأَ اللّهُ الخَلقَ، أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[5]. وهو يحتمل أنّه مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ. أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللهَ أَخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[6]. والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرِّيَّاتُ. والمقصودُ من ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ في الآية: نسلُ الإنسانِ من ذُكورٍ وإناثٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قُدرةُ اللهِ تعالى علـى إذْهـابِ الـخَلـقِ بـأَمـرِه، والإتيانِ بغيرِهم بمشيئتِه

الآيةُ خِطابٌ موجَّهٌ إلى نَبيِّه محمَّدٍ ﷺ بأنَّ ربَّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - هو الغنيُّ عن عباده كلِّهم، فلا يحتاج إليهم، ولا إلى عبادتهم، ولا

(1) الخليل، العين: (خلف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرَّ).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ - ذرر).

يضرُّه كفرُهم، ومع غناهُ عنهم، فهو ذو رحمةٍ بهم، إنْ يَشَأْ؛ يُذْهِبْكم - أيُّها النَّاسُ - ويستخلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ، يعملونَ بطاعَتِه؛ كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ قومٍ آخرينَ كانوا قَبْلَكم، فوعيدُ الآخرة مُرتَّبٌ على أعمال المكلَّفين لا بظلمٍ منه سبحانه ولا لحاجةٍ له تعالى إليه؛ لأنَّه غنيٌّ عن العالَمين، بل لأنَّه مِن مقتضى الحقِّ والعَدْل، المقرونَين بالرَّحمة والفَضل[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصْلِ بحرفِ العطْفِ (الواو):

كمالُ الصُّورةِ في بيانِ عظيمِ شأنِ اللهِ وكَمالِ قُدرتِهِ

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ وصلٌ بحرفِ العطْفِ (الواو)، فعطْفُ جملتين بتحقُّقِ شرطَي الوَصل، وهُما الاتِّصالُ والمُغايرةُ بينهما؛ أمَّا الاتِّصالُ؛ فلأنَّهُما خبريَّتان، فذكرَ تعالى مَن أطاعَ، ومَن عصى، والثَّوابَ والعقابَ، وأنَّه هو الغنيُّ عن كلِّ واحدٍ، لا تنفعُهُ الطَّاعة، ولا تضرُّه المعصيةُ، ومع كونهِ غنيًّا هو ذو الرَّحمة، فذلك التَّفَضُّلُ التَّامُّ. ذو الرَّحمةِ بجميع خلقهِ، ومن رحمتهِ تأخيرُ الانتقام من العُصاةِ، ويترحَّم عليهم بالتَّكليف ليُعَرِّضهم للمنافع الدَّائمة[2].

وأمَّا المُغايرةُ؛ فإنَّه ذكرَ في الأولى نفيَ الظُّلم عنهُ سبحانه في إهلاكِ القرى، أو أهل القُرى بِظُلم وهم غافلون، وذكر هنا رحمتَهُ سبحانه بالمخلوقاتِ كلِّها، وفائدةُ هذا الوصل تحقيقُ كمالِ الصُّورةِ في بيان عظيم شأنِ اللّهِ سبحانه وكامل قدرتهِ، وعظيم عدلهِ ورحمته، وغِناهُ عن سائرِ خلقهِ.

تَكرارُ صيغةِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هنا، وفي الآياتِ السَّابقةِ:

تَكرارُ صيغةِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هنا في قولهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/564 - 565، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/342، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/37.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651.

﴿ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ المعطوفةِ بالواو على جملة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132]، لبيانِ المتلازمة بين علمه ورحمتِه سبحانه، وبحسب تلك المتلازمةِ النَّاشئة عن صفتين كريمتين من صفاتِ اللّهِ تعالى، فقد تَضَمَّنَتِ الجملتان الوعدَ والوعيدَ، وما ذاك إلَّا لصدور رحمتهِ سبحانه بمقتضى علمهِ، والصِّفتان مُطلقتانِ كلتاهما.

وُرودُ مُتلازِمةِ (العِلمِ والرَّحمةِ) بعدَ مُتلازِمةِ (الغِنَى والرَّحمةِ)

بلاغةُ الإظهَارِ في مقامِ الإضمارِ، في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾:

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، ومقتضاه أن يقال: وهو الغنيُّ ذو الرَّحمة، فخُولِفَ مقتضى الظَّاهر لما في اسم (الرَّبِّ) من تناسبٍ مع مغفرته ورحمته سبحانه، وما في اسم الرَّبِّ من دلالةٍ على العناية بصلاح المربوب، ولتكون الجملةُ مستقلَّةً بنفسِها، فتسري مَسرى الأمثالِ والحِكَم، في استعارةٍ تمثيليَّةٍ، تُذْكَرُ في المواضع المشابهةِ لموضوع ضرْبِ الآيةِ، وللتَّنويه بشأن النَّبيِّ ﷺ[1]. ثمَّ إنَّ اسمَ (الرَّبِّ) أنشأَ طباقَ سلبٍ مع الجملة التي عُطِفَتْ عليها في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ فاندرجَ العلمُ المطلق مع الغنى المطلقِ والرَّحمة المطلقةِ في الجملة المثبتةِ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ في تَعداد عظيم صفات اللّه، كمتلازمةٍ لفضلهِ سبحانه على المخاطبين عامَّتهم، مع نفي الغفلةِ عنهُ سبحانه في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾.

تَكرارُ ذِكْرِ (الرَّبِّ) يتناسبُ مع تَعدادِ صِفاتِ (العلمِ) و(الغِنَى) و(الرَّحمةِ)

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

ومع كونِ اللّهِ تعالى غنيًّا عن عبادِهِ جميعًا، فهو ذو رحمةٍ بهم؛ إذ لا يكون غناهُ عنهم مانعًا من رحمتِه لهم، فجاءت الصِّفةُ الثانية ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ احتراسًا أن يفهمَ غناهُ عنهم مانعًا لرحمتِه سبحانه فما أحسنَ هذا الكلامَ الرَّبانيَّ وأبلغَه! وما أقوى الاقترانَ بين الاسمين

غِناهُ تعالى عن عبادِه، ليس مانعًا من رحمتِه بهم، وتعطُّفِه عليهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/365.

الكريمين: الغنيِّ والرَّحمنِ في هذا المقام! فإنَّ صفةَ الرَّحمةِ لهم مع صفةِ الغنى عنهم هي غايةُ التَّفضُّل والتَّطوُّل والمنِّ منه تعالى[1].

دلالةُ أُسلوبِ الحصرِ في ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

اللهُ له الغِنَى التّامُّ الكاملُ، بكمالِ صفاتِهِ الَّتي لا يتطرَّقُ إليها نقصٌ

حَصَرَ الخبرَ في المبتدأِ بقولِه: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾، أي: وحدَهُ الغنيُّ المطلقُ عن كلِّ عابدٍ أو عبادتِه[2]، فهو غنًى مُطلقٌ، فلهُ الغِنى التَّام من كلِّ الوجوه، لكمالِه وكمال صفاتِه الَّتي لا يتطرَّق إليها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، مقصورٌ على ﴿وَرَبُّكَ﴾، والقصر هنا ادِّعائيٌّ باعتبار أنَّ غنى غيرِ اللهِ تعالى لمّا كان غنًى ناقصًا نَزَلَ مَنْزِلَةَ العَدَمِ، أي: ربُّك الغنيُّ لا غيرُه، وغناهُ تعالى حقيقيٌّ، وذِكْرُ وصف الغنيِّ هنا تمهيدٌ للحكم الواردِ عَقِبَهُ، وهو: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾[3]. قال الرَّازيُّ: "﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ يفيد الحصرَ، معناهُ: أنَّه لا غنيَّ إلَّا هو، والأمر كذلك؛ لأنَّ واجبَ الوُجود لذاتِه واحدٌ، وما سواه ممكنٌ لذاتِه، والمُمكنُ لذاتِه محتاجٌ، فثبت أنَّه لا غنيَّ إلَّا هو"[4].

بلاغةُ الكناية، في جُملة ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

غِنَى اللهِ مُطلقٌ لا مَثيلَ له، ولا حَدَّ لمنتهَاه

و﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: هنا المُطلَق في غِناه، فلا يحتاج إلى غيرِه بحالٍ، فغناهُ يختلفُ عن غنى العباد، وهو محيطٌ بكلِّ الموجوداتِ ممَّا يُنسب إلى الحقيقةِ مُشاهدِها وغائبِها؛ إذ يفتقِر إلى غِناهُ كُلُّ غنيٍّ سواه، وغناه مُتفرِّدٌ واحدٌ لا تكرارَ له قطعًا، فتحتاجُ الموجوداتُ كلُّها إلى غناهُ قطعًا؛ إذ استغنى عن الخَلق، وعن نصرَتِهم، وتأييدِهم لِمُلْكِهِ، فليست بِهِ حاجةٌ إليهم، فهم إليه فقراءُ محتاجون، فالمعنى هنا كنايَةٌ عن عموم مِلْكِ اللهِ تعالى.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/187.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/154.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الغِنَى، والكنايةِ عنِ الرّحمةِ:

وفي الجملةِ كنايتَانِ ناتجتانِ عن تعدادٍ لصفاته سبحانه فالأولى: كنايةٌ عن غناهُ تعالى عن إيمان المشركين وموالاتِهم، كما في قوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: 7]، والثّانية: كنايةٌ عن رحمتِه؛ إذ أمهلَ المشركين، ولم يعجِّل لهم العذابَ، كما قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: 58][1]. فهو يؤخِّرهم ليوم القيامةِ، فمن تابَ، وأناب؛ غُفِر له ذنبُه.

اللهُ تعالى غنيٌّ عن إيمانِ النّاسِ، وغنيٌّ عن إهلاكِهم؛ لأنّه رحيمٌ بهم

الفَرْقُ بين رحمتِهِ تعالى، ورحمَةِ غيرِه:

و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾: لمّا كان اختصاصُه بالغنى والرَّحمةِ، فلا رحمةَ إلا رحمتُهُ ولا غنًى إلا غناهُ، وأنَّه ما رتَّب الثَّوابَ والعقابَ إلَّا رحمةً منه وجودًا[2]، أمَّا رحمةُ الوالدين على الولد وسائرُ أنواع الرَّحمةِ بين الخلائقِ، فكلُّها عند التَّحقيق من اللّهِ، فلا رحمةَ إلَّا مِنَ اللّهِ، فالَّذي قدَّر الرَّحمةَ بين خلقِه، وقسَّمها كتقسيم الأرزاقِ هو اللّهُ تعالى والَّذي أعطى صحَّةَ المزاجِ والقُدرةَ والمُكْنَةَ هو الرَّحيم في الحقيقة، هذا فضلًا عن أنَّ كلَّ من أعطى غيرَهُ شيئًا؛ فهو إنَّما يعطي لطلب عِوَضٍ، وهو إمَّا الثَّناء في الدُّنيا، أو الثَّواب في الآخرة، وهو تعالى يعطي لا لغرض أصلًا[3].

سائرُ رحَماتِ الدُّنيا منه سُبحانَه، قسَّمَها بين خلْقِه كتقسيمِ الأرزاقِ

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ دونَ (الرّحيم)، و(الرّحمن):

و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ خبرٌ ثانٍ، وعدلَ عن أن يوصفَ بوصف الرَّحيم إلى وصفِهِ بأنَّه: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وذلك على خلافِ الغنيِّ؛ إذ لم يُوصف بذي الغِنى: ومعناها صاحبٌ، وهي تُشْعِرُ بقوَّةٍ أو وَفْرَةِ ما تضافُ إليه، والمقصودُ من الوصفِ بذي الرَّحمةِ تمهيدٌ لمعنى الإمهال الذي

رحمةُ اللهِ شاملةٌ للمخلوقاتِ كلِّها، وللكونِ برُمّتِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/719.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/153.

في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، أي: إنَّه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم[1]. و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ أبلغُ في هذا الباب من (الرَّحيم)؛ لأنَّها تلازمت بهذه الصِّيغةِ مع الغنيِّ، فصارت رحمتُه وصفًا ملازمًا لغناهُ، أدَّى ذلك إلى أن يتفعَّل لدى المُتلقِّين مفهومٌ فريدٌ وحيدٌ للغنى، فتأتي هذه الصِّفة ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ وما فيها من سَعة رحمتهِ لخلائقهِ جميعًا، ثمَّ ما فيها من معاني الإمهالِ للخلق مهما بلغوا في الكفرِ والإصرارِ والعناد، فإنْ تابوا؛ قُبِلت منهم توبتُهم، وإلَّا فإنَّ حسابَهم آتٍ يومَ القيامةِ، ثمَّ إنَّ الرَّحيم، أي: بالمؤمنين، والرَّحمنُ عامٌّ بالمؤمنين وغيرهم من خلقه، أمَّا ذو الرَّحمة؛ فهي رحمةٌ شاملةٌ لجميع خلائقهِ من الإنسِ والجنِّ والحيوان، وما لا نُدركه أو نعلمه.

سِرُّ تقديم (الغِنَى) على (الرَّحمةِ):

الرَّحمةُ أخصُّ مِنَ الغِنَى في القُربِ مِنَ العبادِ، والتّفضُّلِ عليهم

فالغَنِيُّ صفةُ ذَاتٍ للّهِ تعالى لأنَّه ﷻ لا يفتقر إلى شيءٍ من الجهاتِ، ثمَّ تُليت هذه الصِّفةُ بقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، فأردفَ الاستغناءَ بالتَّفضُّل، وهذا أجملُ تناسقٍ، ثمَّ عقَّبَ بجملة في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ المضمَّنةِ للوعيد المحذِّرةِ من بطشِ اللّه - ﷻ - في التَّعجيل بذلك[2]. فقدَّم الغنى على الرَّحمةِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ أخصُّ في القرب من العبادِ من غناهُ عنهم سبحانه فهو سبحانه غنيٌّ عن عذابِ الخَلق، وهذا الغِنَى أُردِفَ بالرَّحمة، فاجتمع الفضلُ من اللّهِ على عبادِه، ولو قالَ: (وربُّك ذو الرَّحمة الغنيُّ)؛ لما أفادَ المعنى المرجوَّ.

نُكتةُ اختيارِ صِفتَي (الغِنى) و(الرَّحمة)، واقترانِهما في هذا المَوضع:

بعد أن نَشَرَ بقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾ أردفَ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، أي: بكلِّ المخلوقات إنسِهم وجنِّهم، مؤمِنهم وكافرِهم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347.

الغِنَى والرَّحمةُ صِفتانِ كلِّيتانِ مُتلازِمتانِ دومًا.

فالكُلِّيَّة أصبحت مدارَ الآياتِ الكريمة حالَ أنْ كان الحديثُ عن كُلِّيَّة الغنَى والرَّحمة المُطْلَقَتين كصفتَينِ مُتَلازِمَتين في مقام الآيةِ الكريمةِ، وأنَّه تعالى إنَّما ذكر ﴿ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وقرنَ بها ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ لأمرين، **أحدهما**: يشيرُ إلى أنَّ ذلك الإرسالَ المذكورَ، لم يكن إلَّا لمحضِ رحمةِ العباد؛ لأنَّه غنيٌّ مطلقًا.

وثانيهما: أنْ يكون تخلُّصًا إلى خطابِ العُصاة من أمَّة محمَّد ﷺ بقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ لأجلِ ذلك الاقترانِ، يعني: أنَّه تعالى مع كونِه ذا الرَّحمةِ، بإرسال الرُّسلِ، كذلك غنيٌّ عن العالمين، وعنكم خاصَّةً - أيُّها العصاةُ - إن يشأ يذهبْكم، ويأتِ بآخرين، ولذلك عَقَّبَهُ بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ﴾[1]. ومع كونه غنيًّا فإنَّ رحمتَهُ عامَّةٌ كاملة ولا سبيل إلى إيصالِ النَّاس درجاتِ السُّعداء الأبرارِ إلَّا بترتيبِ التَّرغيب في الطَّاعات، والتَّرهيب عن المحظوراتِ، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ ومن رحمتِه على الخلقِ ترتيبُ الثَّواب والعقاب على الطَّاعةِ والمعصية[2]. فجاءتِ الصِّفتانِ الكريمتانِ شاملتين لأصحاب الدَّرَجات كلِّهم.

تَوجيهُ المُتشابهِ اللَّفظِيِّ في الأنعام (133)، وفي الكهف: (58):

الانسجامُ التَّامُّ لأسماءِ الله وصِفاتِهِ مع السِّياقِ القرآنيِّ

قال تعالى هنا ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: 58]، وسبقَ آيةَ الكهف قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: 57] الَّتي ذكرَ فيها الظُّلمَ، فجاء بعدها ذِكْرُ المغفرةِ، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف:

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 6/251.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 13/163.

58]، أمَّا في هذه؛ فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾؛ لحديثِه قبلَها عن الدَّرجات من الجنَّةِ أو من النَّارِ، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فعبَّرَ هنا عن غناه عن كلا الفريقين، فلا الصَّالحون سيزيدونَ في مُلكِه شيئًا، ولا الكافرون سيُنقصون من مُلكِه شيئًا، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾.

دَلالةُ جملةِ الشَّرطِ، في ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

الـشَّـرطُ أفـادَ إظهارَ قُدرةِ الله التَّامَّةِ، وعظَمتِه المُطلقةِ

معنى الشَّرط أنْ يقع الشَّيءُ لوقوع غيره[1]. و﴿إِن﴾: حرف شرطٍ جازم، و﴿يَشَأۡ﴾: فعلُ الشَّرطِ مضارعٌ مجزومٌ، و﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: جوابُ الشَّرط مضارعٌ مجزومٌ، فقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ شرطٌ أفاد إظهارَ القُدرة التَّامَّة، والعظمةِ المطلقة، والخطابُ عامٌّ للخلق كلِّهم، فيُلْحَظُ في الآية اختصارُ الأزمنةِ في مشيئته سبحانه وهذا من عظيم قدرتِه، كما قال في موضع آخر: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ [النّساء: 133]، فالمعنى: إن يشأ إفناءَ هذا العالم واستخلافَ ما يشاء من الخَلقِ يفعلْه، ولا يُعجِزُه شيءٌ، والخطابُ لأهل مكَّةَ خاصَّةً وللنَّاس كافَّةً، فلا يقع في ظنِّ أحدٍ منكم أنَّ الإهلاكَ متوقِّفٌ على شيءٍ غيرِ مشيئتِه، ولكنَّه قضى بإمهالِكم إلى آجالِكم رحمةً لكم وإكرامًا لنبيِّكم ﷺ[2].

إيثارُ فعْلِ المَشيئةِ على الإرادةِ:

إظهارُ أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى، هي الفاعلةُ والقادرةُ على كلِّ شيءٍ

مشيئةُ اللّٰهِ تعالى هي إرادتهُ الكونيَّةُ، وهي أنَّ ما شاء اللّٰهُ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ، وهي من صفاتِ اللّٰهِ تعالى الفِعْليَّةِ، فلم يقل في نظم الآيةِ: (إن يُرِدْ؛ يذهبْكم)؛ لإظهار أنَّ مشيئةَ اللّٰه تعالى هي الفاعلةُ والقادرةُ على كلِّ شيءٍ، وأنَّ إرادتَه تعالى هي السَّابقةُ والغالبةُ على كلِّ إرادةٍ، وأنَّ ما يشاء اللّٰهُ تعالى يكون، وما لا يشاءُ

(1) المبّرد، المقتضب: 2/46.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.

لا يكون، وقد نوَّعَ اللّهُ تعالى استخدامَ فعلِ (المشيئةِ) ماضيًا ومضارعًا وأمرًا - في القرآن الكريم - أكثرَ من ثلاثمئةِ مرَّةٍ، في مواضعَ مختلفةٍ وموضوعاتٍ متباينةٍ؛ لبيانِ قدرتهِ الباهرةِ، وحكمتهِ الظَّاهرةِ، وعدلهِ التَّامِّ في تدبير الأمورِ.

وأمَّا قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾؛ فالمرادُ منهُ خَلْقٌ ثالثٌ ورابعٌ، وهذا منسجِمٌ مع الأفعال المُضارعةِ ﴿يَشَأْ﴾ و﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ و﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ الَّتي تدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، أو هو خَلْقٌ آخرُ من أمثالِ الجنِّ والإنس، بل المرادُ أنَّه قادرٌ على أن يخلقَ خلقًا ثالثًا مخالفًا للجنِّ الإنس، وهذا الوجهُ أقربُ[1]. وقولهُ: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾ في موضع مصدرٍ على غيرِ الصَّدر لقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾؛ لأنَّ معناه: (وينشئ)؛ والمعنى: إن يشأِ الإذهابَ والاستخلافَ؛ يذهبْكم، ويستخلف، فكلٌّ من الإذهابِ والاستخلافِ معذوقٌ بمشيئتهِ و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغاية[2]. ولا يخفى التَّجانُسُ اللفظيُّ بين ﴿يَشَأْ﴾ و﴿أَنشَأَكُم﴾ لاشتراكِهما في أغلب حروفِ الكلمةِ.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ الإذهابِ في: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾:

الإذهــابُ والاستـبـدالُ، سُنَّةُ الله الكونيَّةُ في الخَلْقِ

الإذهابُ هنا الإهلاكُ، إهلاكُ الاستئصالِ لا الإماتةِ، ناسًا بعد ناسٍ، وجيلًا بعد جيلٍ حتَّى يذهبَ استحقاقُهم في الاستخلاف، فيُجتثَّ شأنُهم، وتذهبَ ريحُهم، فهو مجازٌ في الإعدامِ والإفناءِ، وبلاغةُ الإذهابِ أنَّه شبَّه حالَهم بحالِ الماشي المتباعدِ عن المكانِ حتَّى يتلاشى عن النَّظر، فيكون إذهابُهم بمعنى تلاشي شأنِهم شيئًا فشيئًا، وذلك بحسب السُّننِ الكونيَّةِ الَّتي وضعَها اللّهُ للنَّاس جيلًا بعد جيل، وأقوامًا بعد أقوامٍ.

---

(1) الرّازيّ، مفاتح الغيب: 13/165.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/651.

لولا رحمتُهُ لاستأصل شأفَتهم، بإرادةِ (كُنْ فَيكونُ)

مُناسبةُ الرَّحمةِ للإذهابِ:

وقولهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ جاء بعد قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ والمعنى فيه إشارةٌ جميلةٌ إلى أنَّه تعالى لما وصف نفسَهُ بأنَّه ذو الرَّحمةِ، فقد كان يجوز أن يظنَّ ظانٌّ أنَّه، وإن كان ذا الرَّحمةِ إلا أن لرحمتِه معدنًا مخصوصًا وموضعًا معيَّنًا، فبيَّن تعالى أنَّه قادرٌ على وضْعِ الرَّحمة في هذا الخلقِ، وقادرٌ على أن يخلقَ قومًا آخرين، ويضعَ رحمتَه فيهم، وعلى هذا الوجهِ يكونُ الاستغناءُ عن العالمين أكملَ وأتمَّ، والمقصودُ التَّنبيهُ على أنَّ تخصيصَ الرَّحمة بهؤلاءِ ليس لأجل أنَّه لا يمكنه إظهارُ رحمتِه إلَّا بخلقِ هؤلاءِ[1]. ومن رحمتِه سبحانه وبالغِ حلمِه أنَّه يتجاوزُ عن كثيرٍ من أفعالِ العبادِ مما يستحقُّون عليها الإذهابَ والاستئصالَ، كما قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: 45]، فاللّه تعالى لولا فضلُه ورحمتُه؛ لأهلَك النَّاس بسببِ ذنوبِهم ومعاصيهم، ولكنَّه يُمهِلُهم، ولا يُهمِلُهم، ويدعوهم إلى التَّوبة والإصلاح، ويحاسبُهم في الآخرة على ما فعلوا، وهو إن يشأْ؛ يُذهبْهم بـ"كن فيكون"، لكنَّه جعلَها سُنَّةً كونيَّةً تأخذ وقتها تفاعلًا وانسجامًا على حسب أفعالِكم في الحياة.

يكونُ الإذهابُ والاستخلافُ، جيلًا من بعْدِ جيلٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بصِيغةِ أفعالِ المضارعِ في الآيةِ الكريمةِ:

أمَّا قولهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ فالمرادُ به الإهلاكُ، ويحتملُ الإماتةَ أيضًا، ويحتملُ ألَّا يبلِّغهم مبلغَ التكليف[2]، وأمَّا قولهُ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم﴾، يعني: من بعدِ إذهابِكم؛ لأنَّ الاستخلافَ لا يكون إلَّا على طريقِ البدل من فائتٍ، وكلا الفعلين مضارعٌ يدلُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/156.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/156.

على التَّجدُّد مع الزَّمن، فيكون هذا الوعيدُ مُمكِنَ الوقوعِ والتَّحقُّق في كلِّ وقتٍ، ثمَّ إنَّ معنى هذا الفعلِ هو الإذهابُ شيئًا فشيئًا، وجيلًا بعد جيل، وكذلك الاستخلافُ بحسب السُّنن الكونيَّةِ فيهما.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ دونَ غيرِه:

ثمَّ إنَّ دلالةَ الإذهابِ أقوى إشارةً إلى جعل الشَّيء كماضٍ لا يُذكَرُ، ولا يُؤْبَهُ لأهله بشيءٍ، وأنَّ هذا المعنى منسجمٌ تمامًا مع توالي الأفعال التي تدُلُّ على التَّجدُّد المستمرِّ، وهذا المعنى بمجمله تحقيقٌ لغناه سبحانه فقال: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، وهو المعنى المجازي، ومن المُحتَمل أن يُرادَ المعنى على الحقيقة، أي: الإذهابُ بمعنى الإهلاكِ بكُنْ فيكون.

قـد يـكـونُ الإذهابُ بـ (كنْ فيكونُ)، وكما شاءَ تعالى يكونُ

دَلالةُ (الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾:

وقولُه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، الواو: حرفُ عطفٍ للجمع، أي: يكونُ الإذهابُ والاستخلافُ في وقتٍ واحدٍ، فيكونان متداخِلَيْن زمانًا، وفيهِ إشارةٌ إلى احتمال أنَّ الحضاراتِ هنا هي المقصودةُ بالإذهابِ والاستخلافِ على سبيل المجازِ، أي: يُذهِبُ شأنَكم، وتمكُّنُكم وحضارتَكم، ويستخلفُ أناسًا آخرين، لا يفعلون أفعالَكم، فيستحقُّون الاستخلافَ، وهذا هو قانونُ الحضاراتِ والاستخلافِ في الأرضِ وسُنَّةِ اللهِ فيها، فالأمَّةُ الَّتي تَعي سير عجلةِ التَّاريخ، وتستوعب مسارَ حركتها؛ سيكون لها اليدُ الطُّولى في الاستخلافِ والتَّمكين، وهكذا تذهبُ أمَمٌ، ليُستَخْلَفَ مكانَها أمَمٌ أخرى، ويكون ذلك في تزامُنٍ، وهذا ما يدلُّ عليه حرفُ الواو من الجمعِ بين الإذهابِ والاستخلافِ.

الـتَّـزامـنُ في الإذهـــابِ والاستخلافِ، إشـــارةٌ إلى تصرُّفِه كما يريدُ

دلالةُ لفظِ (الاستِخلافِ)، تعريضٌ باستِئْصالٍ مُفْنٍ للبُغاةِ:

وتحتمِل ألفاظُ الآيةِ أن تكونَ وعيدًا لجميع بني آدمَ، ويكون الآخرونَ من غيرِ نوعِهم، ممَّا يشاءُ اللهُ أن يخلقَ سبحانه وقدرةُ اللهِ تعالى على ما ذَكرَ تقضي بها العقولُ ببُدائها(1).

الاسـتـخـلافُ قُــدرَةٌ على الـسَّـعْـيِ، تـنـسـجـمُ مع سُنَنِ الكَونِ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/121.

وتأتي الكُلِّيَّة أيضًا انسجامًا مع السِّياق، في استخلافِ من يَسْتَحِقُّ أن يُستخلَفَ من الأقوامِ الَّذين يسعَوْنَ منسجمين، مع ما وضع اللَّهُ تعالى في هذا الكونِ وهذهِ الحياةِ من سُننٍ وقوانينَ، تستدعي من البشر تفسيرَها، والعيشَ بمقتضى ذلك التَّفسير، وقد قدَّمتِ الرِّسالاتُ السَّماويَّةُ للبشرِ تفسيراتِ الحياة، ودَعَتْهُ إلى استخلاف الأرضِ بمقتضى تلك التَّفسيرات وضوابطها وقواعدها، فمن خرجَ عن تلك القواعدِ والضَّوابطِ من تلك الأقوام أوشكت أن تُستبدَلَ بأقوامٍ آخرين، يُجيدون الفَهْمَ بمقتضاها، فلا يكونون كسابقيهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]. عن أبي هريرة ﷺ: لمّا نَزَلَتْ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمّد: 38]، قالوا: مَن هُم يا رسولَ اللهِ؟ قال - وسَلْمانُ إلى جَنبِه -: «همُ الفُرسُ، هذا وقَومُه»[1]، ولتكونَ هذهِ المسألةُ واحدةً من مقاصدِ القطعةِ القرآنيَّةِ، أي: ما يشاءُ من مؤمنين أو كافرين على ما تقتضيهِ حكمتُهُ، وهذا تعريضٌ بالاستئصالِ؛ لأنَّ ظاهرَ الضَّميرِ يفيدُ العمومَ.

وجهُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستفعالِ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾:

إنشاءُ الحياةِ واستخلافُ الأقوامِ، سُنَّةٌ كونيَّةٌ عظيمةٌ

وقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾؛ فصيغةُ (ويستفعل) السِّين والتَّاءُ فيها للتَّوكيد، وشدَّةِ الإتيانِ بالفعل، الاستخلافُ: جَعْلُ الخَلَفِ عن الشَّيءِ، والخَلَفُ: العِوَضُ عن شيءٍ فائتٍ. وفائدةُ هذه الصِّيغةِ بيانُ انسجامِ نشأةِ الأقوامِ المُستخلَفةِ، مع السُّنن الكونيَّة. فالاستخلافُ هو إعطاءُ القوَّةِ وقدرةِ السَّعي وتناسقِ الأسباب مع النُّموِّ والنَّشأة والرُّقيِّ، منسجمًا مع سُنن الكونِ والحياةِ، فالزِّيادة في هذا الفعل تدلُّ على المبالغةِ، وأنَّ هذه المبالغةَ قد تكونُ في

(1) الطحاوي، مشكل الآثار: الحديث رقم: (2135)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط، تخريج مشكل الآثار: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

كثرةِ الإتيان بالفعلِ، أو الطَّاقة الكُبرى الَّتي تكون في هذا الفعلِ، والَّتي لا تنبغي إلَّا لقدرة اللّهِ سبحانه وعظمتهِ وقيوميَّتِه على هذا الكون وعلى هذه الحياةِ والمخلوقات.

وأصلُ (استفعل يستفعل) في معنى الطَّلب والاستدعاءِ، هو الأكثرُ[1]. وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى[2]، وأنَّ الزِّيادةَ في مثل هذه المواضعِ تدلُّ على المبالغة، و(استفعل) بمعنى (فَعَلَ) نحو: (قرَّ) و(استقرَّ)، إذ لا بدَّ في (استقرَّ) من مبالغةٍ[3]، ومثلُ ذلك قولهُ: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾ [الصافات: 14]، أي: يبالغون في السُّخرية[4]، ومثل ذلك قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾.

تَوجيهُ (الاستئنافِ) في جُملةِ الإذهابِ والاستِخلاف:

الاستِخلافُ انسجامٌ مع سُنَنِ الكَونِ المتأتّيةِ

قولهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾؛ فـ ﴿إِن يَشَأۡ﴾ وما بعدَهُ خبرُ الأوَّلِ، والجملةُ الشرطيَّةُ خبرٌ ثانٍ أو مستأنَفٌ[5]. وفائدةُ الاستئناف: الانسجامُ مع بداية جديدةٍ، واستئنافُ قومٍ آخرين فيها بعد أن أذهبَكم واستأصلَكم.

جُملةُ الإذهابِ والاستخلافِ، بينَ التَّعريضِ والتَّهديدِ:

مِنْ ألطافِ الله، عَرْضُ خطابِ التّهديدِ، بالمزْجِ بين الوعْدِ والوعيدِ

والخطابُ يجوز أن يكونَ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين معه، والمقصودُ منه التَّعريضُ بمن يغفُلُ عن ذلك من المشركين، ويجوزُ أن يكونَ إقبالًا على خطابِ المشركين، فيكونَ تهديدًا صريحًا، وذلك ما يؤذِنُ به قولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾. وقوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ نبَّهَ على أنَّ قدرتَهُ ليست مقصورةً على جنسٍ دونَ جنسٍ من الخَلْقِ الَّذين يصلحونَ لرحمتهِ العظيمة، فَبَيَّنَ أنَّه تعالى لرحمته أبقى هؤلاءِ القومَ الحاضرين وأمهلهم،

(1) ابن سيده، المخصّص: 14/180.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/477.
(3) الرضّي، شرح الرضي على الشافية: 1/111.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 4/389.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651.

ولو شاءَ؛ لأماتَهم وأفناهم بكُنْ فيَكون، وأبدلَ بهم سواهُم، ثمَّ بيَّن تعالى عِلَّةَ قدرتهِ على ذلك، فقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾[1]. فجعلَها سُنَّةً كونيَّةً في الخَلْقِ والإنشاء.

دَلالةُ ﴿مِنۢ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِكُم﴾:

دورةُ الاستبدالِ والاستخلافِ، مُستمرَّةٌ إلى قيامِ السَّاعةِ

ولمَّا كانت مشيئةُ اللّهِ ألَّا يجعلَ لأحدٍ الخُلْدَ؛ أدخلَ الجارَّ؛ فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِكُم﴾، أي: بعد هلاككم، فـ﴿مِنۢ﴾ زائدةٌ للتَّوكيد، فتكونُ بُؤْرةُ الحديثِ هي إذهابُكم، ويكونُ من بعدِكم ما يشاء من الاستخلافِ والتَّبديل إلى يوم القيامةِ.

إيثارُ الموصولِ (ما) المُستعمَلِ لغيرِ العاقلِ:

قُدرةُ اللهِ على إنشاءِ الحيِّ من غيرِ الحيِّ، والعاقلِ من غيرِ العاقلِ

وقولُهُ: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ يجوزُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ واقعةً على ما هو من جنس الآدميِّين، وإنَّما أتى بـ ﴿مَّا﴾ وهي لغير العاقل للإبهام الحاصلِ، ويجوز أن تكونَ واقعةً على غير العاقل، وأنَّه يأتي بجنسٍ آخرَ، ويجوزُ أن تكونَ واقعةً على النَّوع من العقلاءِ[2]، وقولُهُ: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، أي: يبدع غيرَكم من الخلقِ من جنسكم، أو غيرِ جنسِكم، كما أبدعَ أباكم آدمَ منَ التُّرابِ، والتُّرابَ من العَدَم، وفرَّعكم منهُ، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ﴾، أي: نسلِ ﴿قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾[3].

والموصولُ ﴿مَّا﴾ وهو لغيرِ العاقل دونَ أن يقولَ: (من يشاء) الَّتي هي للعاقلِ؛ لبيان عظيم قدرتهِ في إنشاء العاقل من غيرِ العاقلِ، وإنشاءِ الحيِّ من غيرِ الحيِّ، فخلقَ آدمَ - وهو حيٌّ عاقلٌ - من ترابٍ، وهو غير حيٍّ وغيرُ عاقلٍ، و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ قيل: بمعنى (مَنْ)، والأَولى: أنَّه إن كان استخلافُه من غيرِ العاقل؛ فهي واقعةٌ موقعَها، وإن كان عاقلًا؛ فيكونُ قد أُريدَ بها النَّوعُ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/165.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/156.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 2/719.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651 - 652.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

التَّتابُعُ والتَّزامنُ، بينَ الإذهابِ والاستِخلافِ

والمعنى العامُّ للآية يُنبِئُ أنَّ فيها احتباكًا، فيكون المعنى بحسَبِه: (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ، ويُنشِئْ آخرين، ويستخلفْهم من بعدِكم ما يَشاء، كَما أنشأَكُم مِن ذُرِّيَّة قَوْم آخَرينَ، واستخلفكم). ولعلَّ من بلاغة هذا الاحتباكِ بيانَ التَّداخلِ بين عمليَّتَي الإذهاب والنَّشأة، وكأنَّهما تَحْدُثَانِ في وقتٍ واحدٍ؛ ففي الوقتِ الَّذي يذهبُ فيه قومٌ يَنشأُ قومٌ آخرون، وفي الوقت الَّذي تذهب فيه حضارةٌ وتتلاشى، تنمو حضارةٌ أخرى، وتزدهر بحسب قانونِ التَّدافع، وسُنَّةِ اللَّه في الإذهاب والاستخلاف.

بلاغةُ التَّشبيهِ في الإنشاءِ، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾:

إنشاءُ الحضاراتِ كإنشاءِ الحياةِ، لها أسبابٌ ومُسبِّباتٌ

قولُه: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ تشبيهٌ تمثيليٌّ في إنشاءِ موجوداتٍ بعد موجوداتٍ أخرى، لا في كون المُنشَآتِ مُخرَجةً من بقايا المعدومات، ويجوز أن يكونَ التَّشبيهُ في إنشاء موجوداتٍ من بقايا معدوماتٍ[1]. وهذا يعني: أنَّ هناك تخليقًا جديدًا للحياة من كائناتٍ غيرِ حيَّةٍ، وهذه المسألةُ أصبحت اليوم من التحدِّياتِ الكبرى لعلماءِ الحياةِ؛ إذ كيف يأتي الحيُّ من غيرِ الحيِّ؟ ويمكن أن يكونَ التَّشبيهُ التمثيليُّ هنا بمعنى: أنَّ إنشاءَ الحضارات وإبادتها هو كإنشاء الحياةِ وإبادتها تمامًا بتمام، وهذا من فوائدِ الاحتباك أيضًا ومن جماليَّاته.

وَجْهُ التَّعريضِ في جُملةِ التَّشبيه ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾:

التَّعريضُ بالمخاطَبين على أنّه قادرٌ على أن يُنشئَ كائناتٍ كإنْشائِهم

وفي جملة التَّشبيهِ تعريضٌ بأولئك المنكرين للإيمان، وبقدرته سبحانه على إحياء الموتى، والخَلقِ من العدَم، وهذا من الفوائد الَّتي حقَّقها فنُّ الاحتباكِ أيضًا. وقوله: ﴿كَمَآ﴾، فـ (ما) مصدريَّةٌ، ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّه مصدرٌ تشبيهيٌّ، فـ (يستخلف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.

في معنى يُنشِئ، كأنَّه قيل: وينشئُ إنشاءً كائنًا كإنشائِكم، أو نعتٌ لمصدرِ الفعل المذكورِ، أي: يستخلفُ استخلافًا كائنًا كإنشائكم[1].

وُجوهُ الحرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ﴾:

تنوُّعُ حالاتِ الإنشاءِ منَ الذُّرِّيَّة، دليلُ عظمةِ القُدرةِ الإلهيّةِ

وقوله: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ إمَّا أن تكونَ ﴿مِّن﴾ للتَّبعيض، أو أن تكونَ لابتداءِ الغاية، أو هي بمعنى العِوَض، وقال الطَّبريّ، وَتَبِعَهُ مَكِّيٌّ: هي بمعنى أخذتُ من ثوبي دينارًا، بمعنى: عنه وعوضِه، يعني: أنَّها بدليَّةٌ تفيد التَّعقيبَ؛ إذ لم يرِدْ بإخبارهم هذا الخبرَ، أنَّهم أُنشِئوا من أصلابِ قوم آخرين، ولكن معنى ذلك: أنَّهم أُنشِئوا مكانَ خَلْقٍ خَلَفَ قومٍ آخرين قد هلكوا قبلَهم[2].

ويحتمِلُ المعنى: من أولاد قومٍ متقدِّمين؛ أصلُهم آدمُ عليه السلام أو من أولاد قومٍ آخرين، لم يكونوا على مثلِ صفتِكم؛ وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه السلام ويعني: أنَّكم من ذريَّة قوم صالحين، فلو شاءَ أذهبَكم - أيُّها العصاةُ - ويستخلفُ بعدَكم طائعين، كما أنَّكم عصاةٌ أنشأكم من قومٍ طائعين[3].

سِرُّ تَنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٍ﴾:

أخبارُ الأقوامِ منَ الأجدادِ الغابِرين، منها معروفٌ ومجهولٌ

تنكيرُ لفظِ قوم في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أفادَ التَّهوينَ والتَّحقيرَ؛ إذ مَن يعرفُ تلك الأقوامَ الّتي أنشأكم اللّهُ منها؟ لا أحدَ يعلمُهم سوى اللّهِ تعالى، فكما أنَّكم قد وُجِدتُم من ذريَّةِ قومٍ لا تعلمونهم، كذلك فإنَّ اللّهَ تعالى قادرٌ على أن يهلكَكم، ويُنشِئَ أقوامًا من ذريَّةٍ آخرين، غيرِ معلومين لديكم ولا لديهم.

دَلالةُ المُغايَرةِ في وصفِ (القومِ) بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

ووصْفُ قومٍ بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ للدلالة على المغايرة، وذلك تنبيهٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/187.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651 - 652.

على عظيم قدرةِ اللّهِ تعالى أن ينشِئَ أقوامًا من أقوام يخالفونهم في اللُّغة والعوائدِ والمواطن[1]. وهو دليلٌ على تباعُدٍ في الزَّمان بينكم وبين الأقوام الَّتي أنشأكم اللّهُ منها، فأنتم اليومَ لا تعلمون عن مواطنِهم ولغاتِهم وأساليبِهم في الحياةِ شيئًا يُذكر، فقال: بآخرين؛ تعبيرًا عن ذلك الجهلِ بآبائكم الأوَّلين، وهذا من عظيمِ شأنِ اللّهِ وعلمهِ وقدرتهِ في الخلقِ والإنشاءِ والتَّقديرِ.

اللهُ أعلمُ بما خلقَ منَ السُّلالاتِ والأقوامِ، المُوغِلةِ في القِدَمِ

بلاغةُ الكنايةِ في جُملةِ الفاصلةِ:

وقولُه: ﴿قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كنايةٌ عن تباعُدِ العصور، وتسلسل المنشآتِ؛ لأنَّ الاختلافَ بين الأصول والفروع، لا يحدث إلَّا في أزمنةٍ بعيدةٍ، فشتَّانَ بين أحوالِ قوم نوحٍ وبين أحوال العرب المخاطَبين، وبين ذلك قرونٌ مختلفةٌ متباعدةٌ[2].

يَظهرُ الاختلافُ بينَ الأصولِ والفروعِ على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ

جَماليَّاتُ السِّياقِ بينَ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ والاحْتباكِ:

من نوادرِ القولِ أنْ يأتي رُكنَا الاحتباكِ ركنين للتَّشبيه، فهذا من عجائبِ أسلوب القرآن الكريم وجماله وإعجازه، والرُّكنان المشتركان للتَّشبيه والاحتباك هما: المشبَّه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، والمشبَّهُ به: ﴿أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ وهما صورتان؛ إذ أسَّسَ ركنا التَّشبيهِ (المشبَّه والمشبَّه به)، لاحتباك نادرٍ، ركناهُ المحذوفان هما: (ينشِئَ آخرين) و(استخلفكم) ومع ركني الاحتباك يكتملُ معنى التَّشبيه التَّمثيلي؛ إذ كيف يُشبِّه الاستخلافَ بالإنشاء من الذُّريَّةِ، مع أنَّ الذُّرِّيَّةَ بواقع حالها أضعفُ شأنًا من الأقوياء القادرين المؤهَّلين للاستخلافِ؟ فمِنَ المعلوم أنَّ المشبَّه به يكون هو الأقوى في وجه الشَّبهِ، فجاء الاحتباكُ؛ ليكشفَ عن ركنين محذوفين في المقابلةِ، بين المُهلَكين والمنشئِينَ،

قُدرةُ اللهِ ومشيئتُهُ، هي الحُكمُ في الإنشاءِ والاستِخلافِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.

فبيَّن أنَّ وجهَ الشَّبهِ متعدِّدٌ من جانبين هما: الإنشاءُ والاستخلاف، فشبَّهَ الإنشاءَ الثَّاني بالإنشاءِ الأوَّلِ، وشبَّهَ الاستخلافَ الثَّاني بالاستخلافِ الأوَّلِ، وجعل قدرةَ اللهِ ومشيئتَه سبحانه هي الحاكم والمُقدِّرَ والمُدبِّر، فمعنى الاحتباكِ هو: (إن يشأ يُذهبْكم، ويُنشِئْ آخرين، ويستخلفْهم من بعدِكم، ما يشاءُ، كما أنشأكم من ذريَّةِ قومٍ آخرين، واستخلفكم). ويكون معنى التَّشبيه بحسب الاحتباكِ هو: (ويستخلف من بعدكم كما استخلفكم)، و(ينشئ آخرين كما أنشأكم)، فوَجْهُ الشَّبهِ المَشيئَةُ والقُدْرَةُ على الاستخلاف والإنشاءِ.

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ المشيئةِ ﴿إِن يَشَأۡ﴾ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾:

حدوثُ الإنشاءِ والإذهــــابِ في زمــانٍ واحــدٍ، دلالةٌ على قُدرةِ اللهِ الواسعةِ

وتمحورتِ المشيئةُ ومعاني القدرةِ والهيمنة وتموضعتْ بين ركني التَّشبيه والاحتباك، فقوله: (ما يشاء) دلَّ على تَكْرار الإنشاء والاستخلاف، وكأنَّ عجلةَ التَّاريخِ تدور، فيتجدَّد معها الزَّمان، والمكان، والإذهاب، والاستخلاف، وما في ذلك من الدَّلالة على سَعة المُدَدِ الزمنيَّة بين نشءٍ وآخر، فاختصرَ الأزمنةَ كلَّها، وكأنَّها تندرج جميعها، في مشهد واحدٍ، وزمن واحدٍ، ومكان واحدٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المشيئةُ)، و(الإرادةُ) و(الاختيارُ):

الإرادةُ أعــمُّ مِـنَ الـمشيئةِ، والاخْتيارُ خِلافُ الاضْطِرارِ

ورد في سورة الحجِّ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: 14]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج: 18]، ذكر ابنُ عَاشُور قولَهُ: الإرادَةُ والمَشيئَةُ بِمَعْنًى واحِدٍ، والرِّضا والمَحَبَّة والاختيار بِمَعنًى واحِدٍ[1]. وجاء في معجم الفُروق اللُّغَويَّةِ للعسكريِّ قوله: "الفرقُ بين الإرادة والمشيئة: أنَّ الإرادَةَ تكون لما يتراخَى وقتُهُ، ولِما لا يتراخَى، والمَشيئَةَ لِما لَم يتراخَ وقتُه"[2]. قال الشَّنقيطيّ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/339.

(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 124.

"واعلم أنَّ الإرادةَ الكونيَّةَ أعمُّ من الرِّضا؛ لأنَّ اللّهَ - جلَّ وعلا - يريدُ بإرادتِه الكونيَّةِ ما هو مرضيٌّ عندَهُ كإيمانِ المؤمنين، ويريدُ بها ما ليس مرضيًّا عندَهُ ككفر الكافرين. وأمَّا الإرادةُ الشرعيَّةُ، فهي ملازمةٌ للرِّضا، فكلُّ ما أرادَه اللّه شرعًا؛ فهو مرضيٌّ عنده، وكلُّ ما هو مرضيٌّ عندهُ، فهو مرادٌ له شرعًا. وهذا التَّحقيقُ تدلُّ عليهِ آياتُ القرآنِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ۗ﴾ [الأنعام: 107] نصٌّ في أنَّ شركهم إنَّما وقعَ بمشيئةِ اللّه، وهي إرادتُه الكونيَّةُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ﴾ [الزمر: 7] دليلٌ على أنَّ الكفرَ ليس بمرضيٍّ عنده، وأنه غيرُ مرادٍ له شرعًا"[1]. فتكون الإرادةُ بقسميها الكونيَّة والشرعيَّةِ أعمَّ من المشيئة. أمَّا الاختيارُ؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾ [القصص: 68]، فالِاخْتيارُ: إرادَةُ الشَّيْءِ بَدَلًا من غيرِه، وأصلُ الِاخْتيارِ الخَيْرُ، فالمختار هوَ المريدُ لخير الشَّيْئَيْنِ في الحَقِيقَة، أَو خيرِ الشَّيْئَيْنِ عِنْد نَفسه من غير إلجاءٍ واضطرار، وَلَو اضْطرَّ الإِنْسَانُ إِلَى إِرادَة شَيْءٍ لم يُسَمَّ مُخْتَارًا لَهُ؛ لِأَنَّ الِاخْتِيارَ خلافُ الِاضْطِرار[2].

(الإذهابُ)، و(الأخذُ):

الإذهَابُ يدلُّ على التَّراخِي، والأَخذُ يدلُّ على السُّرعةِ والقُوَّةِ

(الإذهاب): ذهبَ من دارِه إلى المسجد ذهابًا ومذهبًا، وذهب به: مرَّ بِهِ مع نفسه[3]. والذَّهابُ: المضيُّ، يقال: ذَهَبَ بالشَّيءِ وأَذْهَبَهُ، ويُستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصّافات: 99]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: 19]، أي: لتفوزوا بشيءٍ من المَهرِ، أو غير ذلك

(1) الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص: 120.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 124.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ذهب).

ممَّا أعطيتموهنَّ، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، وقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: 20][1]. و(الأَخْذُ): حَوزُ الشَّيءِ وتَحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناوُل نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 102][2]. فالإذهاب يدلُّ على معنى التَّراخي في الأخذ، وهو المناسبُ لمعنى الآية هنا، والأخذُ يدلُّ على السُّرعة والقوَّة.

(الاستِخلافُ)، و(الاستِبدالُ):

الاستبدالُ أعمُّ مِنَ الاستِخلاف، وكلاهما لفظٌ قُرآنيٌّ فصيحٌ

قولهُ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾ الخَلْفُ: ضدُّ قُدَّام، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: 59]. وخَلَفُ صدقٍ وخَلْف سوءٍ، وخلْفٌ: للسُّوء لا غير. ويقال للصِّدق أيضًا: خَلْفُ صدْقٍ، وعن الفرَّاء قال في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 169]، قال: الخلْفُ يُذهبُ به إلى الذَّمِّ، والخَلَفُ: خَلَفٌ صالحٌ، وقيل: بجواز (خلْف) في الصالح، فيقال: هذا خلْفُ صِدقٍ، وهذا خلْفُ سوءٍ، وهؤلاءِ خَلْفُ سوءٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ[3]. وقَوْلُه تعالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]، أَي: بَقيَّةٌ، والخَلْفُ: الرَّديءُ مِنَ القَوْلِ، مِنَ المَجازِ: الخَلْفُ من النَّاس: مَنْ لا خَيْرَ فيه، يُقال: جاءَ خَلْفٌ من النَّاس، ومَضَى خَلْفٌ مِنَ النَّاس، وجاءَ خَلْفٌ لا خَيْرَ فيه[4].

والاستبدالُ: جعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ من العِوَض، ومن الاستخلاف، فالعِوَض هو أن يصيرَ لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل،

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (ذهب).
(2) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (أخذ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلف).

والتَّبديل قد يقال للتَّغييرِ مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدَلِه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: 38]، وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59]، وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ﴾ [النور: 55]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70] قيل: أن يعملوا أعمالًا صالحةً تبطلُ ما قدَّموهُ من الإساءةِ، وقيل: هو أن يعفوَ تعالى عن سَيِّئاتهم، ويحتسبُ بحسناتهم[1].

(الذُّرِّيَّةُ)، و(النَّسْلُ):

الذُّرِّيَّةُ تدلُّ على الاجتماعِ، والنَّسلُ يدلُّ على الانفصالِ

الذُّرِّيَّةُ: (ذَرَأَ) بمعنى: خَلَقَ، وَمِنْهُ (الذُّرِّيَّةُ)، وَهِيَ نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ - تَركوا. والجَمْعُ (الذَّراريُّ) بِتَشْدِيدِ الياءِ، وَفي الحَديثِ: (ذَرْءَ) النَّارِ، أَيْ: إنَّهم خُلِقوا لَها[2]. قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34] وسوف تَرِدُ اللَّفظةُ (ذرأ) في الآية [136]، وهُما من أصلٍ واحدٍ، وهذا من تَناسُبِ ألفاظِ القِطعَةِ القُرآنيَّةِ، ودلالَةُ الذُّرِّيَّة تكون على الاتِّصال بين الآباءِ والأبناءِ، والاجتماع بينهما، على خِلافِ مَعنَى النَّسل، فالنَّسلُ: الانفِصالُ عن الشَّيءِ، يُقال: نَسَلَ الوَبَرُ عن البَعيرِ، والنَّسلُ الوَلَدُ؛ لكونِهِ ناسِلًا عن أبيهِ، وتناسَلوا بمعنى توالَدوا، قال: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205][3].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (بدل).
(2) الرّازيّ اللغوي، الصحاح: (ذرأ). في حديث كتابة عمر بن الخطاب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنهما: «وإني أظنكم آل المغيرة ذرء النار». رواه أبو عبيد في غريب الحديث: (4/227).
(3) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (نسل).

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الــرَّبْــطُ بــينَ الوعيدِ بالإذهابِ والاستخلافِ، وكونِه تعالى لا يُعجِزُه أن يُنجِزَ ذلك.

أجملَ اللّٰهُ كلَّ ما ذُكِرَ ممَّا تضمَّنَتْهُ الآياتُ السَّابقة من الوعد والوعيد، للكافرين والمؤمنين، فاللّٰهُ تعالى بعدَ أنْ أنذَرَهم عذابَ الدُّنيا وهلاكَهم فيها؛ أنذَرَهم عذابَ الآخرةِ على سُنَّةِ القرآنِ في الجمْعِ بينهما[1]، فما وُعِدَ به أصلُ الصَّلاح من دار الآخرةِ آتٍ لا محالةَ، وممَّا تَوَعَّدَ اللّٰهُ به الكافرين من ثواء النَّار آتٍ كذلك لا محالةَ، فلن تكونَ لأحدٍ من الكافرين فرصةٌ لتزوير موقفهِ أو تبديل حالهِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: أصلُ العَجْزِ: الضَّعْفُ، يُقال: عَجَزَ يَعْجَزُ، عَجْزًا ومَعْجَزَةً، أي: ضَعُفَ، ولم يَقْدِرْ، فهو عاجزٌ، والقولُ: إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْمِ فمِنْ هذا؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ[2]. وهو أيضًا: التَّأَخُّرُ عن الشَّيْءِ، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّره، كما ذكر في الدُّبُرِ، وصارَ في التَّعارف اسمًا للقصور عن فِعل الشَّيء، وضِدُّهُ: القُدْرَةُ[3]، ومِن معاني العَجْزِ: الكَسَلُ والتَّهاوُنُ، وضِدُّه: الحَزْمُ[4]. والمرادُ من ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في الآية: هو الَّذي يَجعلُ طالبَ شَيءٍ عاجِزًا عن نَوالهِ، أي: غيرُ قادرينَ.

الْمَعْنى الإِجْماليُّ:

إنذارُ اللهِ تعالى المُشركين، بعذابِ الآخرةِ المُهين

بَيَّنَ اللّٰهُ تعالى أنَّ ما يتوعَّدُ به ﷺ المشركينَ من العذابِ والتَّنكيلِ على كُفرِكم، واقعٌ بهم لا مَحالةَ. ولن يُعْجِزُوا اللّٰهَ تعالى هربًا منه

(1) رضا، تفسير المنار: 8/102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(3) الراغب الأصفهانيّ، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).

في الأرضِ، فيفوتوهُ، بل هم في قَبْضَتِه، وتحت قَهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَ فيهم ما يشاءُ مِن وَعيدِه(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجيهُ إعرابِ الآية، بين البَدَليَّةِ والاستئناف:

الإذهابُ إنهاءٌ لفُرصةِ التَّوبةِ المفتوحةِ للعُصاةِ

وهذهِ الجملةُ قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ﴾؛ بدلُ اشتمالٍ من جملة: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، والوعيدُ بالإهلاكِ أو الإذهاب متعلِّقٌ بالمشيئةِ، والمشيئةُ تشتمِل على حالين: حالِ ترْكِ إهلاكِهم، وحالِ إيقاعِه، فأفادت أنَّ مشيئةَ اللّهِ تعلَّقت بإيقاعِ ما أوعدَهم بهِ من الإذهابِ(2). أو يكونُ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ هو يومُ القيامةِ، فتكونُ الجملةُ مُستأنفةً؛ إذ إنَّ من مات؛ فقد قامت قيامتُه، فيكون الإهلاكُ أو الإذهابُ دليلَ القيامة، وخلاصةُ الأمرين واحدٌ هو إذهابٌ لفرصةِ التَّوبة والإنابة وانتهاؤها، وهو الأمرُ الَّذي دارت حولَهُ متلازمتا الغنى والرَّحمةِ في قولِه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾.

علَّةُ إيثارِ ﴿مَا﴾ الموصولة:

مَضمونُ الوعْدِ منوطٌ بحسبِ المُقدَّمِ مِنَ العملِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾: لَمّا تقرَّرَ أنَّ له الوصفين الملزومين للقدرة، ﴿ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾؛ وألزم السُّنَّةَ الكونيَّةَ في الخلقِ والتَّقدير المُتلازمةِ؛ لينسجمَ الكونُ في إرادته سبحانه مستظلًّا تحت الغِنى المطلق، والرَّحمةُ المُطلقةُ للّهِ تعالى إذ أمهلَ غيرَ المؤمنين، حتى يأتيَ يومُ الحساب، قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾، أي: من البعثِ والحساب، أو قبل ذلك من إقرارِ العقوبة على القرى الَّتي جاءتها النُّذُرُ ثمَّ لم تؤمن، فاستحقَّتِ العقوبةَ والعذابَ، فآثرَ استعمالَ ﴿مَا﴾ الموصولةِ على (الّذي) لفائدةِ عمومِها، فـ ﴿مَا﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/566، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/343، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 274، والشّنقيطي، العذب النّمير: 2/309.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

موصولٌ للمفرد والمثنَّى والجمع، على خلاف (الّذي) فهو للمفردِ المذكَّر، فلو قال: (إنَّ الذي توعدون لآتٍ)؛ لأفادَ معنى أنَّه وعدٌ واحدٌ لجميع المُخاطَبين، ولكنَّ كلَّ واحدٍ من المخاطَبين له وعدٌ بحسب ما قدَّم من الأعمال، وهذه الوعودُ كالدَّرجات الَّتي سبق ذكرُها، فكلٌّ يأخذ مضمونَ وعدِه.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ)، و(اللَّامِ)، و(الجملةِ الاسميَّةِ):

كَثرةُ التَّوكيدات مُناسِبةٌ لأحوالِ المُنْكِرين

وقولُه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ﴾ والتَّأكيد بـ (إنَّ) مناسبٌ لمقام المتردِّد، وزيادةُ التَّأكيد بلام الابتداء؛ لأنَّهم متوغِّلون في إنكار تحقُّق الوعيدِ واستسخارِهم به[1]. والجملةُ الاسميَّة تفيد التَّوكيدَ والثَّبات، وهي جملةٌ مُكتنزةٌ بالمؤكِّدات؛ لأنَّها تُخاطِب المُنكرين وتُعالج خبايا نفوسِهم وإنكارَهم وإعراضَهم.

بديعُ الإفصَاحِ في بناءِ الفعْلِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمَفعول:

دَلالــةُ شُـمـولِ الـمُـخـاطَـبـين بـالـوعـدِ أوِ الوعيدِ

وبناءُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول يصحُّ أن يكون الفعلُ هو مُضَارِعَ وَعَدَ يَعِدُ، أو مُضَارِعَ أَوْعَدَ، يوْعِدُ والمتبادرُ هو الأوَّلُ[2]. ومن بديع الفصاحةِ اختيارُ بنائِه للمفعول، فهو يفيدُ الكُلِّيَّةَ، فينسجمُ مع مقصدِ القطعةِ القرآنيَّةِ الَّتي تناولت مفاهيمَ جمعيَّة، كقولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ [الأنعام: 128]، أو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فالبناءُ للمفعول هنا يصلحُ لفظُه لحال المؤمنين والمشركين معًا، ولو بُنِيَ للمعلوم؛ لتعيَّن فيه أحدُ الأمرين: بأن يُقال: إنَّ ما نَعِدكم، أو إنَّ ما نوعِدكم، وهذا من بديع التَّوجيه، المقصودُ منه؛ أنْ يأخذَ منه كلُّ فريقٍ من السَّامعين ما يليقُ بحالهِ. وكان الكلامُ بالبناء للمفعول، لمزيد التَّهديد بإبهام الوعيد، وعدم ذكرِه، ليذهبَ فيه العقل كلَّ مذهبٍ، وبعدمِ ذكرِ من أوعدَ - وهو معلومٌ -

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

ليزدادوا خوفًا، فيضعُفوا عن المقاومة، فيؤمنُ من هداه اللّهُ، وكَتَبَ لهُ الإيمانَ، ويستمرُّ في غيِّه من كتبَ اللّهُ له العقاب(1).

إيثارُ لفظِ الإتيانِ ﴿لَأٓتٖ﴾، دونَ المجيءِ:

(الإتيانُ) نقيضُ (الإذهابِ)، واللّفظانِ مُتناسِبانِ

آثرَ بلفظِ ﴿لَأٓتٖ﴾ على غيرِه، وهو لفظٌ تكرَّر استعمالُه في القرآنِ للدَّلالة على يوم القيامة، فقالَ في موضع آخر: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، والإتيانُ عكسُ الإذهاب ونقيضُه، فلمَّا ذكر قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أتى بما هو عكسُه؛ ليدلَّ على يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾، وهذا من قبيل التَّناسُبِ بين اللَّفظين. ووجهُ مناسبةِ التَّعبير بالإتيان دونَ المجيء؛ لغرض الآية: دلالةُ اللَّفظة على إرادة القصد، والسُّهولة: فالإتيانُ مجيءٌ بسهولة، وقد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول. والحديثُ في الآية عن وعدٍ سيأتي، ولم يحصلْ بعدُ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿لَأٓتٖ﴾:

انتظارُ وعْدٍ لابدَّ من مجيئهِ ووقوعِهِ يقينًا

والإتيانُ مستعارٌ للحُصول، تشبيهًا للشَّيء المَوعودِ به، المُنتَظَرِ وقوعِه، بالشَّخصِ الغائب، المنتظرِ إتيانُهُ، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ [الأنعام: 47]. وقوله: ﴿لَأٓتٖ﴾، أي: لا بدَّ من وقوعهِ؛ لأنَّ المُتوعِّد لا يُبدَّلُ القولُ لديه، ولا كُفْءَ له يعارضُه فيه(2).

بَلاغةُ إخفاءِ الوعيد، في: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾:

الآيةُ تتضمّنُ الوعدَ والوعيدَ، ويدلُّ المذكورُ على المستورِ

ومعلومٌ أنَّ وعيدَ المشركين يستلزم وعدًا للمؤمنين، والمقصودُ الأهمُّ هو وعيد المشركين، فلذلك عقَّب الكلامَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ فذلك كالتَّرشيح لأحد المحتملين من الكلام الموجَّه(3).

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2680.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

وفيه احتمالُ أنَّ الوعدَ مخصوصٌ بالثَّواب، وأمَّا الوعيدُ؛ فمخصوصٌ بالعقاب فقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ﴾، يعني: كلُّ ما تعلَّقَ بالوعد بالثَّواب؛ فهو آتٍ لا محالة، فتخصيصُ الوعدِ بهذا الجزْم، يدلُّ على أنَّ جانبَ الوعيدِ ليس كذلك(1). ويقوِّي هذا الوجهَ آخرُ الآية، وهو أنَّه قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: لن تُعجِزونا في تحقيق وعيدنا، فتخرجوا من قدرتنا وحُكمنا.

سِرُّ إضْمارِ المَوعودِين، في ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

جانبُ الرَّحمةِ والإحسانِ، غالبٌ في الآيةِ الكريمةِ

لمّا ذكرَ تعالى الوعدَ؛ جزمَ بكونه آتيًا، ولمّا ذكر الوعيدَ؛ ما زاد على قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ وذلك يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّحمة والإحسان هو الغالبُ في خطاب اللّه(2). فيكون المعنى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من الخير ﴿لَآتٍۖ﴾ وما تُتَوَعَّدونه من العذاب مصيبُكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، على طريقةِ الاحتباك، والجملةُ على هذا المعنى مُقابلةٌ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ، بين آياتِ الأنعامِ (134)، والذّاريات: (5)، والمرسلاتِ: (7):

يومُ القيامة آتٍ يقينًا، وهو صادقُ التَّحقُّقِ لا محالةَ

الحديثُ في سورةِ المرسلات في معرض تَعداد علامات يوم القيامةِ الَّتي قد يستبعدُها السَّامعُ مثلَ قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾ [المرسلات: 8 - 11] فقال مناسبةً لهذا الخطاب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ [المرسلات: 7]؛ ليُثْبِت للعقل البشريِّ أنَّه عاجزٌ عن تصوُّرِ ذلك، ولكنَّ الأمر واقعٌ لا محالةَ، أمَّا في سورة الذَّاريات فقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥﴾ [الذاريات: 5]؛ لأنَّ الحديث كان عن اختلاف القولِ بين مصدِّقٍ لوقوع يوم القيامةِ وبين مُكذِّبٍ، إذ قال: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.

﴿مُّخۡتَلِفٖ ٨﴾ [الذّاريات: 8]، وذكر الخرَّاصين، فقال: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ [الذّاريات: 10]، أي: المُكذِّبون بيوم الدين، فناسب إيرادَ صِدۡقِ وَعۡدِ يومِ القيامةِ. وأمَّا في سورة الأنعام؛ فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ﴾؛ لما ورد في سياق الآيات من الوعيد بإهلاك الأقوام، وأنَّه تعالى لا يظلمُ القرى بإهلاكهم، وإنَّما باستحقاقهم، فناسب أن يذكر أنَّ يومَ القيامة آتٍ، وسيجزون على أعمالهِم بما يستحقُّون.

التِّعبيرُ بالضَّميرِ ﴿أَنتُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الضَّميرُ ﴿أَنتُم﴾ يدلُّ على جماعة المُخاطَبين، وفائدةُ تعميم الخطاب إلى جميع العقلاءِ: أنَّهم لن يكونوا معجزين للّهِ تعالى.

خطابُ القرآنِ عامٌّ لجميعِ المُكلَّفين

معنَى حرفِ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

المعنى الرَّئيس لـ (باء) هو الإلصاقُ، قال سيبويه: "وباءُ الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط، ... فما اتَّسع من هذا في الكلام فهذا أصلُه"(1). وقوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ فإنَّه قد ألصقَ الإعجازَ بهم ثمَّ نفاهُ، لبيانِ إصرارِ نيَّاتِهم ودواخلِهم على الإنكارِ، ونفي قدرةِ اللّهِ في النَّشأةِ والإعادةِ، فالباءُ في قوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ زائدةٌ لتوكيد النَّفي.

القرآنُ فَضحَ نيَّاتِ المُنكِرين، ودَواخِلَهم المخبوءةَ

بَلاغةُ أُسلوبِ النَّفْي المؤكَّدِ بأكثرَ من مؤكِّدٍ:

النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بأكثرَ من مؤكِّدٍ جاء مؤكَّدًا بأكثرَ من مؤكِّدٍ، بالخطاب المُباشر للنَّاس، وبالضَّمير ﴿أَنتُم﴾، وبزيادةِ حرفِ الجرِّ (الباء)(2)، والغرضُ من اجتماع هذه المؤكِّدات هو إزالةُ ما علِقَ في قلوب المخاطَبين وعقولهم من شكوكِ النَّشأةِ الأولى والقدرةِ على إعادتها، قال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: 79]. أو ما أنتم بمانعينا أو مُعجزينا من

التَّوكيدُ لإزالةِ ما عَلِقَ من شكوكٍ، في نفوسِ المُخاطَبِين

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2680.

إرجاعِكم وجمعِكم يومَ القيامة، أو: وما حالُكم إذ اختلطت أجسادُكم بالتُّراب وبالأرض، فلن تُعجِزَنا عن إعادة خلقِكم ونشأتِكم من جديدٍ للحساب يوم القيامةِ، فإنَّ ﴿مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

دَلالةُ اسْمِ الفاعلِ (مُعجزين):

ليس للنَّاسِ أن يمنعُوا مَجيءَ يومِ الحِسابِ

جاء ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بصيغةِ اسم الفاعل، ولم يأتِ بصيغةِ الفعلِ للدَّلالة على نفي الثَّباتِ والدَّوام فضلًا عن الحدثِ، فلا يتغيَّر حالُكم معنا، ولن تُعجزونا، وأنَّى لكم ذلك؟ وما أنتم بقادرين على أن تُعيدوا أنفسَكم من ترابِ الأرض، فأنَّى لكم أن تُعجزوا أحدًا من الخلق؟ فأنَّى لكم أن تمنعوا مجيءَ ذلك الوعيد؟

بَلاغةُ المَجازِ في لفظِ (مُعجِزين):

استحالةُ إفلاتِ الظَّالمين من عذابِ اللهِ المَكينِ

وحقيقةُ المُعجِز هو الَّذي يجعلُ طالبَ شيءٍ عاجزًا عن نوالِه، أي: غيرُ قادرين، واستُعمل هنا مجازًا في الإفلات من العذابِ، فالمعنى: وما أنتم بمعجزيَّ، أي: بمفلتينَ من وعيدي، أو بخارجين عن قدرتي.

فائِدةُ إضمارِ ما يُعجِزونَه، في: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

هوانُ شأنِ المُخاطَبين أمامَ قُدرةِ اللهِ في الإعجازِ والتَّحدِّي

وأضمرَ ما يعجزونَهُ، فلم يقل: (وما أنتم بمعجزينا)؛ لإفادةِ هوانِ شأنِ هؤلاءِ المخاطبين، والمعنى: أنَّهم لن يتمكَّنوا بعدما سيصيبُهم من الموت واختلاط أجسادهم ورُفاتهم بتراب الأرض، عن أن يُعجزوا أحدًا، فكيف لهم أن يعجزوا اللّٰه تعالى؟ فوردت العبارةُ بمؤكِّداتٍ عديدةٍ لتُثبت هذا المعنى.

بَلاغةُ التَّعبيرِ عن الفاصلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

وعْدُ الله بمَجيءِ يومِ الحِسابِ لا يَتبدَّلُ ولا يضتغيَّرُ

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ الثَّباتَ والدَّوامَ، ومعنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: بثابتٍ لكم الإتيانَ بشيءٍ يعجز عنه الخصم، فتمهَّد الأمرُ من جهته ومن جهتكم، لوجودِ المقتضي، وانتفاءِ المانعِ، وفي ذلك تقريرٌ لأمرِ رحمتِه؛ لأنَّ القادرَ إذا أراد النِّقمة أخَذَ على غِرَّةٍ

ولم يهدِّد، وإذا أراد الرَّحمةَ؛ تقدَّم بالوعيد، ليَحْذَرَ الفائزون، ويستسلمَ الخاسرون[1]. وبحسبِ هذا المعنى يكون قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ هو مجيءُ السَّاعة؛ لأنَّهُم كانوا يُنكرون القيامة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/719.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ تأكيدِ وقوعِ الوعيدِ، والتّهديدِ بسُوءِ عاقبةِ الكافرينَ

بعد أن خاطب المشركين وما توعَّدهم به من العذابِ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ انتقل هُنا إلى أسلوب أمرٍ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيدِ في قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ وفيه غايةُ الزَّجرِ. كما أنَّها تصوِّرُ غايةَ العجزِ الَّتي تستمدُّ معناها من قوله في الآية السَّابقة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، فصارتِ الآيةُ كلُّها، تحدِّيًا واضحًا، وإعجازًا تامًّا للمخاطبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: أصلُ المَكانِ: الموضِعُ الحاوي للشَّيءِ[1]. والمكانَةُ: المَنزِلَةُ، فُلانٌ مَكينٌ عند فُلانٍ: بَيِّنُ المَكانةِ والمنزلة، والجَمْعُ مُكناءُ[2]، ومَكَّنْتُه ومَكَّنْتُ له، فتمكَّن، قال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ﴾ [القصص: 57]. ويُقال: مكانٌ ومكانةٌ، وقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: 20] أي: مُتمكِّنٌ ذي قَدْرٍ ومَنزلَة، ومَكِناتُ الطَّير ومَكُناتها: مَقارُّه[3]. قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ كنايةٌ عَنِ الحالةِ؛ لأَنَّ أحوالَ المَرءِ تَظْهَرُ في مكانهِ ومَقرِّه، والمقصودُ بـ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ في الآية: الزَموا حالَكُمْ.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ مُفردة (عقب) يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا، فهو عَقيبُهُ[4]، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (مكن)، وابن سيده، المخصّص: 3/397.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

الرِّجل(1). والعاقِبَةُ: آخِرُ الأَمرِ، وأَثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيءُ، ويظهَرُ في آخِرِه مِنْ أثَرٍ ونَتيجة(2). قال الرَّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصَّانِ بالثَّوابِ، نَحْوُ: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستعمَلُ في العُقوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10](3). وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ؛ إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخذتُهُ بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقُوبَاتٌ(4). والمقصود من ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ في الآية: هي الجنَّة، أي: عاقِبَةُ الدَّنيا بالجنَّة.

المَعنى الإِجْماليُّ:

تَـقـريـرُ سُـنَّـةٍ مـن سُـنـنِ اللـهِ تعالى، في إمْهالِ الـظَّـالـمِ دونَ إهْمالِهِ

أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أنْ يُخبِرَ قَومَه من مُشْركي قريشٍ؛ إذا دعاهم إلى اللهِ، فلم يَنْقادوا لدَعْوَته: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّهُ، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنَةُ في الدُّنيا والآخرة، أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يفوزُ برضوانِ اللهِ تعالى والجنَّة مَن تجاوز حدَّهُ وظلم، فأشرك مع الله غيرَهُ، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ أحوالَ الأُمَمِ مُرتَّبَةٌ بحسب أعمالها، وأنَّ أعمالها مُنبعِثَةٌ من عقائدها وصفاتِها النَّفسيَّة، وأنَّ عاقبةَ كلِّ عملٍ نتيجةٌ حتميَّةٌ له، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، وفيها أنَّ الحِجاجَ المذكورَ من الإنصاف بموضعٍ عظيمٍ، حيث بيَّن الأعمالَ وعامليها، وجعلَ الجزاءَ مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه صفحًا عن التَّصريح الذي يغني عنه التَّلويحُ(5).

(1) الراغب، المفردات: (عقب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8أ/92.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/568، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/343، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 274، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8أ/91 - 93، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/39.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الأمرِ في المَطْلع، بقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّهديدُ دَالٌّ على ما هُم عليه منَ الإصـــرارِ على الضَّلالِ

بعد أن بيَّن حال الَّذين لا يؤمنون ومآلهم، أمرَ رسولَهُ أن يخاطبَهم بهذا الوعيد المسبوكِ، على الدَّعوة إلى الإرشادِ، فقال: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أي: اعملوا منتهى استطاعتِكم، وقدرتِكم، في معارضة الدَّعوةِ ومقامها، وصَدِّ أهلها، وهو أمرٌ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم لم يستجيبوا إلى دعوة النَّبيِّ وإلى رسالته، أو المعنى: اعملوا على شاكلتكم إنِّي عاملٌ على شاكلتي ودعوتي ورسالتي التي هداني ربِّي إليها، ودلالةُ الأمر هنا التَّهديدُ على ما هم عليه من العناد والإصرار على الضَّلالِ. والأمر في الآية مثل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصّلت: 40]، بجامع التَّهديد بينهما.

سِرُّ نِداءِ القومِ بواسطةِ (يا) النِّداءِ:

لَنْ يَنفعَ الرَّسولُ قومَه في شيءٍ، ما لم يُؤمنُوا

وأمرَ أن يَبتدِئَ مخاطبَتَهم بالنِّداء للاهتمام بما سيقال لهم؛ لأنَّ النِّداءَ يسترعي إسماع المنادين، وكأنَّ المنادي عنوانُ القوم لما يشعر به من أنَّه قد رقَّ لحالهم حين توعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ لأنَّ الشَّأن أنَّه يُحبُّ لقومه ما يُحبُّ لنفسه[1]. كما يوحي من جهتِهم وهو يناديهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أنَّه لن ينفعَهم شيئًا، ولن يكون لهم عليه شفاعةٌ؛ إذ دعاهم إلى الإيمان، فرفضوا، وأنكروا، فالمنادي هنا يُخلِّص نفسَه ممَّا تعارف عليه القومُ من الأعراف القبليَّة، كقولهم: انصر قريبَكَ حتى وإنْ كان ظالمًا. وهذه المسألةُ هي فحوى أمرِ الله لنبيِّه أنْ يناديَهم ويخاطبَهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.

غايةُ الزَّجرِ؛ إشعارُهم في ضلالِهم باستِحقاقِهم للعُقوبة.

الأمرُ بالنِّداء ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ﴾:

ثمَّ إنَّ النِّداءَ للقوم المعاندين، بقرينة المقام الدَّالِّ على أنَّ الأمرَ للتَّهديد، وأنَّ عملَهم مخالفٌ لعملِه، لقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، مع قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾. فبعد أن توعَّد القومَ الّذين لا يؤمنون بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ﴾، استأنفَ بقوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فأعقبَ الوعيدَ بما تمحَّض عنه، بأمرٍ مستعمَلٍ في الإنذار والتَّهديد، وغاية الزَّجرِ؛ ليُملي لهم في ضلالهم إملاءً يُشعر بمزيدِ استحقاقِهم للعقوبة، واقترابِها منهم، فأمرَ اللّهُ رسوله ﷺ بمناداتِهم وتهديدِهم.

وُثوقُ الآمرِ بالحقِّ، وما عليه قومُه مِنَ الضَّلالِ

بَلاغةُ التَّهديدِ بِصيغةِ الأمرِ:

وصيغةُ (افۡعَلۡ) في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ ها هنا بمعنى الوعيد، فخرجَ الأمرُ إلى غرض التَّهديدِ، فقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أمرٌ من اللّهِ تعالى لنبيِّهِ بوعيدهم وتهديدِهم[1]. والتَّهديدُ بصيغة الأمر مبالغةٌ في الوعيد كأنَّ المهدِّدَ يريد تعذيبَهُ مجمِعًا عليه، فيحملُه بالأمر على ما يُفضي به إليه، وتسجيلٌ بأن المُهَدَّدَ لا يتأتَّى منه إلَّا الشَّرُّ كالمأمورِ به الَّذي لا يقدر أن ينقضيَ عنه[2]. ويدلُّ الأمرُ هنا كذلك على ثقةِ القائل ﷺ ممَّا هم عليه من الضَّلال، وهو واثِقٌ من مصيرهم الذي هم إليه منتهون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]؛ إذ إنَّ الآمرَ غير راضٍ عن الفعلِ، وفي الامتثال لأمرٍ ما يعود بالضَّرر على المُخاطب[4]، فالتَّهديد من الرَّسول ﷺ بأنَّه نافضٌ يديه من أمرهم، واثقٌ مِمَّا هو عليه من الحقِّ، واثقٌ من منهجِهِ وطريقِهِ[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/129.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.

(3) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.

(4) طبل، علم المعاني، ص: 69.

(5) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّهكُّمُ على أمرِهم، بجعْلِ المَنهيِّ عنه، وكأنّه صارَ واجبًا

والأمر للتَّهديد من قبيل الاستعارةِ تشبيهًا لذلك المعنى بالمعنى المأمورِ بهِ الواجب الَّذي لابدَّ أن يكون[1]. وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40] وهذا الاستعمالُ استعارةٌ؛ إذ يشبِّهُ المغضوبَ عليه الميؤوسَ من ارعوائهِ بالمأمورِ بأن يفعلَ ما كان ينهى عنه، فكأنَّ ذلك المنهيَّ صار واجبًا، وهذا أسلوبُ تهكُّمٍ[2].

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

تجاهُلُ عَملِ المُنكِرين استهانةٌ بحالِهم

ومفعولُ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ محذوفٌ؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّل منزلةَ اللَّازم، أي: اعملوا عملَكم المألوفَ الذي هو دأبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحقِّ، وما فيه من استهانةٍ وتحقيرٍ بحالهم وأفعالهم، ثُمَّ ما في ذلك الحذفِ والإيجاز من فظيعِ التهديد والوعيد، وكأنَّه قد خبَّأ لهم من العذاب ما يَفْجَؤُهم، فيبقَوْن في تحسُّبٍ وقلقٍ في الدُّنيا، ما داموا على إعراضِهم، وعلى مكانتِهم، فيكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

لا مَطمعَ في هِدايةِ المُنكِرين المُعانِدين

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: ﴿عَلَىٰ﴾ مستعمَلَةٌ في التَّمَكُّن على وجه الاستعارةِ التَّبعيَّة، وهي تصريحيَّةٌ مناسبة لاستعارة المكانةِ للحالة؛ لأنَّ ورودَ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ مناسبٌ للمشبَّه به، وهو المكان، فيكون ترشيحًا للاستعارة، مستعارٌ من ملائم المشبَّه بهِ لملائم المشبَّه. والمعنى: الزموا حالَكم، فلا مطمعَ لي في اتِّباعكم، أو لا مطمعَ لي في هدايتكم، فتكون المكانةُ مستعارةً

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/293.

للأحوال الشخصيَّةِ والعقائد الدينيَّة والسُّلوك، والمعنى: اعملوا على شاكلتكم الَّتي أنتم عليها[1].

بَلاغةُ الكنايةِ، في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

قولُه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ومكانكم ومكاناتكُم، بمعنى: على موضعِكم[2]. وهذا على سبيل الكنايةِ؛ لأنَّ المكانةَ بمعنى المكان، وقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٞ﴾، أي: (إنِّي عاملٌ على مكانتي)، فمتفرِّعٌ على الوجهين في ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾[3]. وإطلاقُ الدَّارِ في آيةٍ سابقةٍ، من قوله: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الأنعام: 127]، مناسبٌ للمكانةِ الَّتي ذُكرت للمتذكِّرين عند ربِّهم - جلَّ وعلا - يومَ القيامة، وهي دار السَّلامةِ والأمان من كلِّ مكروهٍ، وهي الجنَّةُ، وهذا يفيد أنْ تكون المكانةُ كنايةً عن الحالة؛ لأنَّ أحوالَ المرء تظهرُ في دارِه ومقرِّه، فلذلك يقال: (يا فلانٌ على مكانتِكَ)، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه، لا تنحرفْ عنهُ.

المكانةُ هي الثّباتُ على الحالِ الّذي عليه المخاطَبُ

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

ومع احتمال أن تكونَ المكانةُ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مستعارةً للأحوال الشخصيَّةِ والعقائدِ الدينيَّةِ والسُّلوك، فهي أيضًا مستعارةٌ للمقدرة، والمعنى: اعملوا منتهى مقدرتكم واستطاعتِكم، أو على غاية تمكُّنِكم واستطاعتكم، والمكانةُ تكون مصدرًا، يقال: مَكَّنَ مَكانَةً؛ إذا تَمَكَّنَ أبلَغَ التَّمَكُّنِ، أو على ناحيَتِكم ووِجْهَتِكُم الَّتي أنتم عليها، من قولهم: مكانٌ ومكانةٌ، كمَقام ومَقامة، وقال البيضاويُّ: "﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: على حالِكم" فشُبِّهتِ الحالُ بالمكان القارِّ فيه، ووجهُ الشَّبهِ ثباتُهم في تلك الحالِ ثباتَ المتمكِّن في مكانه،

المكانةُ بمعنَى القُدرة والاستطاعةِ في السِّياقِ

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/374.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/80.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/253.

وأمّا تشبيهُ المكان بالزَّمان؛ ففي الشُّمول والإحاطة[1]، والمعنى: اثْبُتوا على كفرِكم وعداوتِكم[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المَكانةِ بالمصدرِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

المبالغةُ وبقاءُ حالةِ الكُفَّارِ على إصْرارِهم على كُفرِهم

عبَّر عن المكانةِ بالمصدر الصَّريح في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، فالمكانةُ مصدرُ مَكَنَ، فالميمُ أصليَّةٌ، وبمعنى المكانِ. والمصدرُ الصَّريحُ مجرَّدٌ عنِ الزَّمن وغير مرتبطٍ به، ولا يفيد الدَّلالةَ عليه، فليس في صيغتهِ ما يدلُّ على تحديد الزَّمن[3]. وفائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ للمبالغة، بمعنى: اعملوا على تمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، وما يتَضَمَّنُهُ هذا التَّعبير (المكانة والعمل عليها) من الدَّلالة على الحالة المستقرَّةِ الَّتي هم عليها، إصرارًا منهم على الكفرِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفعلِ هو رسوخُ الشَّيء متجمِّعًا (من دقاق) في باطنٍ يلتئِم عليه[4].

تَوجيهُ قراءةِ جمْعِ المكانةِ ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾:

تَعميمُ الخطابِ على كلِّ حالةٍ مُشابِهةٍ، وتعدُّدُ المخاطَبين

وقرأَ الجمهورُ: على ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأَ شعبةُ عن عاصم بالألف على الجمع: ﴿مَكَانَاتِكُمْ﴾ جمع مَكانة[5]. والجمعُ باعتبار جمعِ المضاف إليه، بأنَّ كلَّ واحدٍ له مكانةٌ يعملُ عليها، فجُمِعَتِ المكاناتُ اعتبارًا بتعدُّد المخاطبين، ولعلَّ القراءةَ على الجمع تناسِبُ (الكُلِّيَّة) الَّتي تفيد تعدُّدَ المجاميع المُخاطَبة. ولعلَّها أيضًا تُفيد إعمامَ الخطاب للحالات المشابِهةِ في الأزمنة المختلفة، فيكونُ المأمورُ بـ ﴿قُلْ﴾ كلَّ مسلمٍ يدعو قومَهُ إلى الإيمانِ. ويكونُ الخطابُ لكلِّ إنسانٍ مُكلَّفٍ، فيكون معنى: مكاناتكم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/67.
(3) المُبّرد، المقتضب: 3/214، وابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/29.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مكن).
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.

الَّتي هي ديارُكم، والَّتي هي قُراكم أيضًا، وقد أهلك اللهُ القُرى القريبةَ من قريشٍ - كقرى قوم هودٍ وصالح ولوطٍ وشعيبٍ - حين ظلمَ أهلُها بالكفر، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: 59]، وتكون ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ كنايةً، ويرشِّحُ هذا المعنى قولُه لاحقًا: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

بَلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي الآية لفٌّ ونشرٌ[1]: فاللَّفُّ قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾، ثم نَشْرٌ بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وهو نشْرٌ مجملٌ؛ إذ المعنى: فسوف تعلمون من تكونُ له العاقِبَةُ الحَسَنَةُ أنتم أم أنا؟ وقد أفادَ هذا الفنُّ البليغُ مسائلَ مهمَّةً، منها: أنَّ كثيرًا من المُعارضين للرِّسالات مهما أَتَتْهم الآياتُ، فإنَّهم يصرُّون على كفرِهم، فلا ينفعُ مَعهم إلَّا خطابُ الوعيد، وفي النَّشر المُجْمَلِ دلالةُ التَّرقُّبِ عند المعارضين المُنكرين، وهم يعيشونَ حياةَ الشُّكوك والظُّنونِ التي لا قرارَ لهم فيها ولا راحة، في حين أنَّ الرَّسولَ وأتباعَه المؤمنين يعيشون حالةَ يقينٍ مطلقٍ بأنَّ العاقبةَ ستكون لهم؛ لأنَّهم يؤمنون بالله وما نُزِّل على الرَّسول، ويؤمنون بالغيبِ وهم بالآخرةِ يوقنون.

المعارِضُون المُنكِرون يَعيشونَ حياةَ الشُّكوكِ، لا قرارَ لهم فيهَا

تَوكيدُ العملِ بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾:

التَّوكيدُ بـ (إنَّ) وهو الأصلُ فيها، ويدورُ معها، حيثُ وردت، فجاءَ بالجملة الأولى غير مؤكَّدةٍ في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، في حين أكَّد الجملةَ الثَّانيةَ بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ وسرُّ ذلك: أنَّ خطابَهُ لهم لا يريد منهم حقيقةَ عملِهم على مكانتِهم، وإنَّما يريد التَّخويفَ لهم من جرَّاءِ هذا العمل، وتهديدَهم بخطر الاستمرارِ على مكانتِهم ممَّا هم عليه، ولكنَّه

الخِطابُ بتخويفِ المُنكرين، وتهديدِهم بخطَرِ الاستمرارِ عليه

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 6/253.

لمّا تكلَّم على عمله، فإنَّه يريد أرادَ حقيقةَ العملِ والإصرارِ عليه، فأكَّد بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾.

توجيهُ صِيغةِ التَّعبيرِ عنِ العملِ باسْمِ الفاعلِ ﴿عَامِلٞۖ﴾:

العـمـلُ على صِـراطِ الـلـه، وصفٌ ثابتٌ في النَّبيِّ ﷺ

وقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾، أي: عاملٌ ما أمرني به ربِّي[1]، وهو سبيلُ اللّهِ وصراطُهُ المستقيمُ، وعبَّرَ باسم الفاعلِ للدَّلالةِ على ثبوتِ صفةِ العمل فيه، ودوامها، وأنّ شأنَ العمل بمنزلةِ الحاصل الثَّابت المستقرِّ وصفًا له ﷺ.

نُكتةُ مُخاطَبةِ الكُفرِ بالجمعِ، وذِكْرِ الإيمانِ بالإفرادِ:

سُبلُ الضَّلالِ مُتعدِّدةٌ، وسبيلُ الهدايةِ واحدةٌ

والجملةُ تعليلٌ لمفادِ التَّسوية من الأمر في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، فلن يمنعَني إعراضُكم عن الهدايةِ وتصميمُكم على ما أنتم عليه، فإنِّي عاملٌ على الهداية مستجيبٌ لأوامرِ اللّه، حتَّى وإن كنتم أنتم جميعًا، وكنتُ فردًا، وهذا من جميلِ مغزى أن يُخاطَبَ الكُفرُ والإعراضُ عن دينِ اللّه بالجمع، فيقول: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أو ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾، ويذكرُ الإيمانَ مقابل ذلك بالإفراد، فيقول: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾؛ وما في ذلك من الإيماءِ إلى تعدُّد سبُلِ الضَّلال، وواحديَّةِ سبيل الهدايةِ، وهو طريقُ النَّبيِّ ﷺ وسنَّتُه، والاهتداءُ بما قاله أو فعَلَهُ رسول اللّه ﷺ، أو أقرَّه من القولِ أو الفعل كذلك، فضلًا عن بيان أنَّ عملَه ﷺ منبعثٌ عن الوحي.

نُكتةُ حذْفِ رُتْبةِ العملِ وماهِيتِه، في ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾:

التَّـعـمـيـمُ والإيـجـاز، مَناطُ إخـلاصِ المؤمنِ عندَ الإنجازِ

ثم حُذِفَ متعلَّقُ: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ للتَّعميم والإيجاز، فاكتفى بقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ دون ذِكرِ طبيعةِ ذلك العمل وماهيَّتِه؛ لأنَّه معلومٌ بالضَّرورةِ، متضمَّنٌ في آيات اللّهِ تعالى وأوامرِه سبحانه. فقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ تعليلٌ له، فكأنَّه قيل: فإنِّي فاعلٌ على حالتي أيضًا،

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/80.

وهذا وعيدٌ، وحذْفُ مُتَعَلَّقِهِ فيه مبالغةٌ لاحتمال تقديرِهِ بشيءٍ آخرَ، والإيهام بأنَّهُ لم يذكرْ ما يعمله؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ، وهذا لا ينافي تقديرَهُ: (على مكانتي)، إذ المرادُ منه مطلقُ حالِه، لا حالُهُ التي هي موجودةٌ، والحذفُ يناسب العمومَ، ويحتمل أن يكونَ جوابًا واحدًا، والغرضُ من الحذف الاختصارُ مع عدم الاقتصارِ، بمعنى: إنِّي عاملٌ ما استطعتُ لا أقفُ على حالي ومكاني[1]. وهذا ينطبق على كلِّ مؤمنٍ، إذ إنَّ رسولَ اللّه ﷺ قدوةٌ للمؤمنين الذين يبذلون قُصارى جهدِهم في العمل إيمانًا منهم وتصديقًا وثباتًا على حالتهم ومكانتهم في الدَّعوة والإخلاص.

سِرُّ عَدَمِ التَّصْريحِ بالعَذابِ:

من بديعِ نَظْمِ القرآنِ، حُسْنُ أدبِ الحِوارِ

قولهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ غايةٌ في حسنِ الأدب في الخطاب؛ إذ لم يخاشِن في الكلام، ولم يُصَرِّحْ بالعذابِ، ومع هذا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، وعاقبةُ الدار: الجَنَّةُ، ويدلُّ على أنَّ المُنْذِرَ واثقٌ بأنَّ العاقبةَ الحسنةَ له لا لهم، يعني: إنِّي عالمٌ بذلك اليوم، وأنتم غدًا ستعلمونه[2]. وهذه من جماليَّاتِ الأدبِ القرآنيِّ في الخطابِ والحوار مع المعاندين، وذلك لمقامِ الرَّسولِ ﷺ.

دَلالةُ إثباتِ (الفاءِ) في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

الوَعيدُ مُتفرِّعٌ عنِ التَّهديدِ؛ لِعدمِ تَذكُّرِهم وغُرورِهم

وقولهُ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ رتَّب على عملِهم وعملِه الإنذارَ بالوعيد، فقال: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوعيدَ متفرِّعٌ على ذلك التَّهديد[3]. ولمّا كان وقوعُ المتوعَّدِ به سببًا للعلم بالعاقبة، وكان السِّياقُ لعدم تذكُّرِهم وغرورِهم وقلَّةِ فطنتِهم؛ حَسُنَ إثباتُ الفاءِ[4].

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.

فائِدةُ (سوف)، في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

ترقُّبُ التَّهديد، وانْشغالُ البالِ، بما يُوحِيهِ مِنَ الوعيدِ

(سوف) كالسِّين، وهو حرفُ تسويفٍ وتنفيسٍ أو استقبالٍ، وهي أوسعُ زمانًا من السِّين عند البَصْرِيِّيْنَ؛ لأَنَّ كثرةَ الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادِفةٌ لها عند غيرهم، ومرادٌ منه تأكيدُ الوقوع؛ لأنَّ حرفَي التَّنفيس يؤكِّدان المستقبلَ[1]، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديد، وانشغالِ البالِ بما يوحيه ذلك من الوعيد. فكلَّما طالت مدَّةُ انتظارِهم الوعيدَ؛ زادَ عذابُهم واضطرابُهم وخوفُهم من وقوعه، وهو أبلغُ في إيلامِهم وتوجُّعِهم، وهو المعنى الَّذي أفادَهُ استعمالُ ﴿فَسَوۡفَ﴾ هنا.

دَلالةُ صِيغةِ المُضارِعِ في ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

العِبارةُ بالتَّنفيس والمضارعِ، تأكيدٌ لِما سيحصُلُ لهم يومَ القيامَةِ

وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ، فقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأَنَّ إخبارَهم بأنَّهم سيعلمون يفيدُ أنَّه يعلمُ وقوعَ ذلك مستقبلًا لا محالةَ، وتصميمَهُ على أنَّه عاملٌ على مكانتِه، ومخالفٌ لعملِهم، ويدلُّ كذلك على أنَّه موقِنٌ بحُسْنِ عقباه، وسوءِ عُقباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عملَهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يرضى الضُّرَّ لنفسِه[2]. فالعبارةُ من حرفِ التَّسويف والمضارع تأكيدٌ للعلم الَّذي سيحصلُ لهم يوم القيامةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

وُثوقُ المُتكلِّم بالمستقبلِ، مِنْ صِدقِ عِلْمِهِ به

دلَّ قولُه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ على أنَّ عِلمَهم يقع في المستقبل. وأمَّا هو ﷺ فعالمٌ مِن الآنَ، ففيه كنايةٌ عن وثوقِه بأنَّه مُحِقٌّ، وأنَّهم مبطلونَ[3]. وسياقُ الكلام يُرشِّح تلك الكنايةَ، ويؤكِّدُ العلمَ المستقبليَّ والوثوقَ منه، فيُبيِّنُ أنَّ عِلمَ عاقبةِ أمرهم عنده، وأنَّه سيُريهم ذلك في يومِ القيامة.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

بَلاغةُ التَّرديدِ:

وجملةُ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾ ترديدٌ بيْنَهُ ﷺ وبينَهُم، ومعلومٌ أنَّ هذا التَّهديدَ والوعيدَ مختصٌّ بهم، وأنَّ عاقبةَ الدَّارِ الحُسنى هي له ﷺ، وقد عُلِمَ ما هو شرٌّ، وما هو خيرٌ، ولكنَّه أبرَزَ في صورة التَّرديدِ، إظهارًا لصورة الإنصافِ[1]. وأنَّ اللّهَ لا يظلم النَّاس شيئًا، وأنَّه سبحانه لا يُعذِّب أمَّةً حتى يبعث فيهم رسولًا يبيِّن لهم سبيلَ هدايتهم.

إبـــرازُ صُـــورةِ الإنـصافِ، بعدَ بـذْلِ الـوُسْعِ في هِدايتهم

معنَى ﴿مَن﴾ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهامِ:

وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾؛ و﴿مَن﴾ يمكن أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي، أو أنْ تكونَ استفهامًا[2]، فإنْ جُعِلَت ﴿مَن﴾ استفهاميَّةً بمعنى: أيُّنا تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّار الحسنى؟ أو تعلمون أحدَنا تكون له عاقبةُ الدَّار؟ وموضع: ﴿مَن﴾ الرَّفعُ على الابتداء، وجملة: ﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾ خبرُه[3]. وإنْ جُعِلَت خبريَّةً تكون بمعنى الَّذي، ويكون محلُّها النَّصبَ بـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعرفون الَّذي تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّارِ[4].

لا يَعلمُ مَصائرَ الـعِـبـادِ إلَّا العليمُ بالسّرِّ وأخفَى

تَوجيهُ قراءةِ الياءِ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾:

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿مَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ﴾ بالياءِ، وكذلك في القصصِ ﴿وَمَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [القصص: 37] بالياء أيضًا. وقرأ الباقون ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾ بالتَّاء في السُّورتين[5]. وروى المفضَّل عن عاصم هاهنا وفي القصص مثلَها، وكذلك روى خَلَّادٌ عن حسين عن أبي بكرٍ. وقرأ الباقون بالتَّاءِ في السُّورتين[6]، ويجوزُ في قراءةِ التَّذكير وجهان:

عاقبةُ الدَّارِ، أي: خَيرُها وفَلاحُها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/653.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/183.
(5) النّيسابوريّ، المبسوط في القراءات العشر: 203.
(6) الدّانّي، جامع البيان في القراءات السّبع: 3/1065.

أحدهما: أنَّ العاقبةَ تأنيثُها مجازيٌّ، والتَّأنيثُ المجازيُّ إذا كانت (الفاعلة) تأنيثُها مجازيًّا في الفعل التَّذكير والتَّأنيث.

الثاني: أنَّه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ﴾، والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يسوِّغ تذكيرَ الفعل، ولو كان فاعلُه مؤنَّثًا حقيقيًّا، كما هو معروفٌ في علم النَّحو[1]. وتدلُّ قراءةُ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾ على معنى: (من يكونُ له خيرُ العاقبةِ)، وتدلُّ قراءةُ ﴿تَكُونُ﴾ على معنى العاقبةِ الدَّار.

فائدةُ شِبْهِ الجُملةِ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾:

كلُّ إنسانٍ تكونُ له عاقبةُ الدَّارِ الآخرة، أو تكونُ عليه

و﴿لَهُۥ﴾ تعطي دلالةً على أنَّ الإيمانَ ستكون عاقبةُ الدَّار لصالحه؛ لأنَّ الآخرين لن تكونَ لهم؛ بل عليهم، فجملةُ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ توهِمُ أنَّ الكافرَ ليست له عاقبةُ الدَّارِ، وذلك مُشكِلٌ، وقيل: العاقبةُ تكونُ على الكافر، ولا تكونُ له، كما يُقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضدِّهِ يقال: عليكم الكثرةُ والظَّفرُ[2]. فكأنَّ الظَّالمين إن تَنَلْهُمْ عاقبةٌ؛ فهي ليست لهم، وإنَّما عاقبتُهُم عليهم، ولن يُفلِحَ الظَّالمون، ويقول سبحانه من بعد ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ﴾[3]. ويفهمُ من سياقِ الآية أنَّ المعنى: (من تكون له عاقبة الدَّار ومن تكونُ عليه).

بَلاغةُ الكِنايةِ في ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

عاقبةُ الدَّارِ هي مآلُ الآخرةِ وهي الجنَّةُ

وعبارةُ ﴿ٱلدَّارِۚ﴾ كنايةٌ عن خاتمة الخيرِ، فكأنَّه قيل: من يكونُ له عاقبةُ الخير، سواء كان الظَّفَر في الدُّنيا[4]. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، أي: مآلُ الآخرةِ، ويحتمل أن يُرادَ مآلُ الدُّنيا بالنَّصر والظُّهورِ، ففي

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/311.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3659.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/254، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.

الآية إعلامٌ بغيبٍ[1]. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾: العاقبةُ الحسنى الَّتي خلقَ اللّٰهُ تعالى هذه الدَّارَ لها[2].

إيثارُ لفْظِ العاقبةِ، في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

تُستعملُ العاقبةُ فيمَا يَختصُّ بالثَّوابِ والجَزاءِ الحسَنِ

والعاقبةُ في اللُّغة: آخِرُ الأمرِ، وأَثَرُ عملِ العامل، فعاقبةُ كلِّ شيءٍ هو ما ينجلي عنه الشَّيءُ، ويظهر في آخره من أثرٍ ونتيجةٍ، وتأنيثُه على تأويل الحالةِ، فلا يقال: عاقِبُ الأمرِ، ولكن عاقبةٌ وعُقبى، وقد خُصِّصَ استعمالُ لفظِ العاقبةِ بالحسنة، قال الرَّاغب: العاقبةُ والعُقبى يختصَّان بالثَّواب، نحو قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83][3]، وهذا سببُ إيثارِ استعمالِ لفظِ العاقبة في بيان حالِ المُتَّقين، وما ستؤولُ إليه أمورُهم، وبالإضافة قد يُستَعملُ في العقوبةِ نحوِ قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10].

وَجْهُ تعريفِ الدَّارِ، في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

الدَّارُ علامةٌ على الاسْتقرارِ والاطْمئنانِ

والدَّارُ: الموضِعُ الذي يحلُّ به النَّاسُ، من أرضٍ أو بناءٍ، وهو علامةُ الاستقرارِ، فمن لا دار له لا قرارَ له، وتقدَّم عند قوله: ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وتعريفُ الدَّارِ هنا تعريفُ الجنس. فيجوزُ أنْ يكونَ لفظُ الدَّارِ مطلقًا، على المعنى الحقيقيِّ، فإضافةُ عاقبةٍ إلى الدَّارِ إضافةٌ حقيقيَّةٌ، وهي الفوزُ بالدَّارِ، والظَّفَرُ والنِّزاعُ والتَّنافُسُ عليها[4].

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

حالةُ المؤمنين الفائزين كَحالةِ الغالِبِ على امْتلاكِ دارِ عدُوِّه

وقولُه: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ مكنيَّةٌ؛ لتكون كالمثل السَّائرِ يُضرَبُ في المواقف المُشابهة لموقفِ رسول اللّٰه ﷺ مع قومه، فشبَّهت حالةَ المؤمنين الفائزين في عملِهم، بحالةِ الغالب على امتلاك دارِ عدوِّه، وهم المشركون، وحُذِف ما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/348.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

يدلُّ على الهيئةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بذكرِ ما هو من روادِفِه، وهو ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾. ويمكنُ أن تكونَ الدَّارُ مستعارةً للحالةِ الَّتي استقرَّ فيها أحدٌ، تشبيهًا بالمكان في الاحتواء، فتكون إضافةُ عاقبةِ إلى الدَّار إضافةً بيانيَّةً، أي: العاقبةُ الحُسنى الَّتي هي حالُه، فيكونُ الكلامُ استعارةً مصرَّحةً[1]. "ومن محاسنِها هنا: أنَّها بنت على استعارةِ المكانةِ للحالةِ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فصار المعنى: اعملوا في دارِكم ما أنتم عاملونَ، فسوف تعلمونَ مَن تكونُ له عاقبةُ الدَّار، وفي الكلام مع ذلك إيماءٌ إلى أنَّ عاقبةَ تلك الدَّار، أي: بلدُ مكَّةَ، أن تكونَ للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]"[2].

بَلاغةُ التَّعريضِ في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الظّالم كلُّ مَن أنكرَ الرِّسالةَ وعمِلَ بغيرِ مُقتضَاها

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يفوزُ بحاجته عندَ اللّهِ مَنْ عمِلَ بخلاف ما أمرَ اللّهُ به، والتَّعريضُ في الآية بالَّذين يخاطبُهم الرَّسولَ أنَّهم من الظَّالمين الَّذين لا يفلحون في الآخرةِ، ثمَّ إنَّ التَّعريفَ عامٌّ يشمل كلَّ من أنكر الرِّسالةَ، وعمِلَ بغير مقتضاها.

بَلاغةُ فِعْلِيَّةِ جُملةِ الفاصلةِ:

الفلاحُ طُمأنينةُ النَّفسِ بما أودَعهُ الله فيها مِنَ الفِطرةِ

قال: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾، والفعلُ مضارعٌ يفيد التَّجدُّدَ، ودلالتُه عدمُ فلاح الظَّالمين مع المستقبل، فيتجدَّدُ عَدَمُ فلاحِهم، ويستمرُّ بتجدُّدِ ظلمِهم واستمرارِهم عليه، فهم لا يُفلحون في الدُّنيا، ولا يُفلحون في الآخرةِ؛ إذ إنَّ معنى الفلاحِ في الدُّنيا طمأنينةُ النَّفس بما أودعه اللّهُ فيها من فطرةِ حبِّ رضاءِ اللّهِ سبحانه.

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ مجموعًا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مِن سُنَّةِ اللّهِ تعالى في خلقهِ، أنَّه لا يفلِحُ الظَّالِمون، أي: لا يفوز

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

الظَّالمون، والتَّعبيرُ بالوصفِ يشير إلى أنَّ الظُّلمَ هو سببُ الخسران، وإنَّه وإن بدا الظُّلم قويًّا غالبًا فائزًا، فيكون ذلك إلى حينٍ، والعاقبةُ للمنصفين المقيمين للحقِّ، وأفادَ الجمعُ أنَّ للظُّلمِ صورًا شتَّى: ظلمٌ في العقيدة، وظلمٌ في العمل، وظلمٌ في الحكم، وظلمٌ في المعاملة بين النَّاس، فإنَّ الظَّالمَ لا يفوز في نهايته، وإنْ فاز في بعض الأمور العَرَضِيَّة، واللّهُ هو الحكَمُ العدْلُ[1]. وقد أفادَ التَّعبيرُ باسم الفاعل شمولَ أنواع الظُّلم كلِّها، لكنَّ السِّياقَ يخصِّص ظلمَ العقيدةِ، وهو الإشراكُ باللّه، ثمَّ يكون إلى سائرِ أنواع الظُّلم الأخرى، كلٌّ بحسبِ أثرِه في الحياة.

شُـمـولُ أنـواعِ الـظُّـلـمِ كـلِّها، وأعظمُ الظّلمِ، ما تعلّقَ بالشِّركِ

بَلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقولُه: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالآيةُ من الاحتباك؛ إذ إنَّ ذِكْرَ العاقبةِ أوَّلًا دليلٌ على حذْفِها ثانيًا، وذِكرَ الظُّلمِ ثانيًا دليلٌ على حذْفِ العدل أوَّلًا[2]. والتَّقديرُ: (من تكون له عاقبة الدَّارِ ومن تكونُ عليه، إنَّه يفلح المؤمنون، ولا يفلح الظَّالمون).

المفلحون تكونُ لـهـم عـاقـبـةُ الدَّارِ، وعَكْسُهم الظَّالمون

دَلالةُ ضَميرِ الشَّأنِ، في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

والضَّميرُ المجعولُ اسمُ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ؛ تنبيهًا على الاهتمام بهذا الخبرِ، وأنَّه أمرٌ عظيمٌ[3]؛ إذ إنَّ لهذا الأمر شأنًا عظيمًا عند اللّهِ سبحانه فالظَّالمون لا يُفلحون عند اللّهِ، وهل أعظمُ ظلمًا من التَّشكيكِ بالرِّسالةِ، وتكذيبِ النَّبيِّ وردِّ دعوتِه للإيمان؟

أعظمُ الظُّلمِ هو إنكارُ الرِّسالةِ والإيمانِ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على (الكافرون):

ثمَّ جزمَ الحكمَ بـ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ فلا ينجحُ سعيُهم[4]؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2684.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/93.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.

التَّعبيرُ بـ (الظالمون) أعمُّ، وهمُ الَّذين ظلمُوا أنفسَهم بالكُفرِ

فوضعَ الظَّالمين موضعَ الكافرين؛ لأنَّه أعمُّ وأكثرُ فائدةً[1]، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أصلُه: لا يفلح الكافرون؛ لأنَّه تذييلٌ وتأكيدٌ لما سبق، وليس فيه إلَّا حديثُ الكذبِ والتَّكذيب، فعُلِمَ منه أنَّ دأْبَهم الكِذْبُ، وأنَّهم ليسوا من الصِّدق في شيءٍ[2]. وأنَّ ظلمَهم هو كِذْبُهم على اللّهِ وتكذيبُهم للرِّسالة والرَّسول.

وَجهُ التَّعريفِ في لفْظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

صِفةُ الظُّلم مُرتبطةٌ بالخُسرانِ

تعريفُ لفظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للاستغراق، فيشملُ هؤلاءِ الظالمين ابتداءً[3]، ويُعمَّم بعد ذلك على جنس الظُّلم بأنواعهِ.

نُكتةُ العُدولِ عنِ المُضمَرِ إلى المُظهَرِ، في جُملة الفاصلةِ:

براعةُ الخطابِ في أدبٍ حَسَنٍ، مُتضمِّنٌ شدَّةَ الوعيدِ

وهذا الأسلوبُ من الإنذار فيه من البَراعةِ والبَلاغةِ ما ليس في غيرِه، فتعقيبُ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، للعُدولِ من المُضمرِ إلى المُظهر؛ إذ لم يصرِّح بنفي الفَلاح عنهم، وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ مع الإعمام فيه المبنيِّ على الأمرِ في قولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ وهذا طريقٌ من الكلام المنصفِ وإرخاءِ العنان، حيث ضَمِنَ ذلك شِدَّةَ الوعيد، والوُثُوقَ بأنَّ المُنذِرَ مُحِقٌّ، والمُنذَرَ مُبطِلٌ[4].

بَلاغةُ توكيدِ نفْيِ جُملةِ الفاصلةِ بـ (إنَّ):

المُعانِدون المُنكِرون لا يُفلحُون، ولن تُقبلَ مَعذِرتُهم

الغرضُ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانُ أنَّ قولَه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ لا أنَّه أمرٌ وطلبٌ، ومعناه: أنَّ الكفَّارَ من أمثال هؤلاءِ المُعاندين المُنكرين، لا يفلحون، ولا يفوزون بمطالبهم البتَّة[5]. ولن تقبلَ معذرتُهم مهما قدَّموا من الحججِ والمسوِّغات، وذلكم مظنَّةُ التَّوكيدِ.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/49.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/93.

(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/254 - 255.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.

دَلالةُ التَّعليلِ في جُملةِ التَّذييل:

والجملةُ تذييلٌ للوعيد، يتنزَّلُ منزلةَ التَّعليل، أي: لأنَّه لا يفلحُ الظَّالمون، ستكون عقبى الدَّارِ للمسلمين، ويكونُ الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالة والرَّسول.

الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالةِ والرَّسولِ

تَوجيهُ المُتَشابهِ اللَّفْظيِّ، في آياتِ الأنعام: (135)، والزُّمرِ: (39)، وهُودٍ: (93):

ومن نظائر هذه الآية الكريمةِ قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾ [الزّمر: 39 - 40]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: 93]؛ إذ أفرِدَت آيةُ هودٍ بمجيءِ حرف التَّسويف دون اقترانِ فاءِ التَّعقيب به، مع اتِّفاق الآيات الثَّلاث في التَّهديد وحرف التَّسويف، وفي هودٍ لم تُسبَق العبارةُ بـ ﴿قُلۡ﴾ وفي الأنعام والزُّمر بدأت بـ ﴿قُلۡ﴾، فهذه الآياتُ تتَّفق على وعيد من كفَرَ وكذَّب الرُّسلَ والرِّسالات، وآيةُ الأنعام وآية الزُّمر؛ أُريدَ بهما كفَّارُ العرب من هذه الأمَّة، وقد افتُتِحَتا بأمره سبحانه نبيَّه ﷺ بوعيدِهم في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فقَوِيَ في هاتين الآيتين تقديرُ معنى الشَّرطِ المُنْجَرِّ تقديرُهُ في الأوامر، لافتتاحِها لأمرِهِ تعالى نبيَّهُ ﷺ، ثم أمْرِهِ ﷺ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾؛ فاعتضدتْ ما يستدعي الجوابيَّةَ بالفاء، فوردتْ في الجواب المبنيِّ على الشَّرطِ المُقدَّر، بعد هذا الأمر، ولمّا كانت آيةُ هودٍ إخبارًا لنبيِّنا ﷺ، فَضَعُفَ فيها تقديرُ الشَّرطِ، فلم تدخُلِ الفاءُ، وجاء كلٌّ على ما يجبُ[1].

الآيةُ هنا وفي الزُّمرِ؛ عن كفَّارِ العرب، والتَّهديدُ منَ اللهِ أشدُّ من تهديدِ النَّبيِّ

كما أنَّ للقائل في كلتا الحالتين أهميَّةً في تفسيرِ المسألةِ، ففي آيةِ سورةِ الأنعام: اللّهُ تعالى هو الذي أمرَ رسولَهُ بالتَّبليغ، أمرهُ أن

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/171 - 172.

يبلِّغَ النَّاسَ كلامَ ربِّه، وهذا تهديدٌ لهم، فأصلُ التَّأديب من اللّهِ تعالى أمَّا آيةُ سورة هودٍ؛ فجاءت في شعيبٍ عليه السلام وليس فيها أمرُ تبليغٍ من اللّهِ تعالى فالتَّهديد إذًا، أقلُّ في آيةِ سورةِ هودٍ، ولهذا فقد جاء بالفاءِ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، في الآيةِ الَّتي فيها التَّهديدُ من اللّه للتّوكيد، ولمَّا كان التَّهديدُ من شعيبٍ عليه السلام حُذِفَ الفاء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّهديدَ أقلُّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العاقِبةُ)، و(الخاتِمةُ)، و(النِّهايةُ):

العـاقـبـةُ ما يـأتِي في آخِـرِ الـشَّيءِ، وتـدلُّ على الـمُتابعةِ والإصـــرارِ للوصولِ

قوله: ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ عَقِبَ: والعَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَم. وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُه وولَدُ ولَدِهِ الباقونَ من بَعْدِه، وأتى فلانٌ خيرًا، فعقَّبَ بخيرٍ منه، وأردفَ بخيرٍ منه، واستعقبَ من أمرِهِ النَّدامةَ وتعقَّبَها، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ: تَتبَّعْتُه[2]. فالعاقِبةُ هي ما تُؤَدِّي إليه التَّأدِيَةُ[3]. والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقِبِ الشَّيءِ، أي: آخِرِهِ، أي: هي ما يؤولُ إليه أمرُه، ثمَّ هي تكونُ حسبَ حالِ الشَّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ، وقد جاءت (العاقبة) في القرآنِ الكريم نحوًا من إحدى وثلاثين مرَّةً، فوردت موكولةً إلى اللّهِ تعالى من حيثُ القضاءُ بها في سورتي الحج: 41، ولقمان: 22، كما جاءت لبيان أنَّها تكون حسَبَ الأعمالِ تنبيهًا على الالتزام بالعمل الصَّالح في سورتي الأنعام: 135، والقصص: 37، وللتَّنويه بمآل المتقين في سُوَرِ الأعراف: 128، وهود: 49، وطه: 132، والقصص: 82، وفي سائر المواضعِ للتَّنبيه على سوء مآل المتمرِّدين على اللّه[4].

فدلالةُ العاقبةِ على المُتابعةِ والإصرارِ واضحٌ، فيُفهمُ من قوله:

---

(1) السّامرائّي، لمسات بيانيّة: 1/706.

(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عقب).

(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 551 - 552.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، أو قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ لِما كان لديهم من متابعة إيمانهم، وإصرارِهم على سلوكِ السَّبيل الَّتي توصلُهم إلى الآخرةِ، فكانت عاقبتُهم الفوزَ بالجنانِ.

ولذلك آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في هذا السِّياق، دون ما يقاربُهُ من الألفاظ.

وخاتمُ كلِّ شيءٍ: آخرُهُ، و(الخاتِمة)، الخَتْمُ والطَّبعُ: وهو تأثيرُ الشَّيء كنقشِ الخاتم، ويتجوَّز بذلك تارةً في الاستيثاقِ من الشَّيء، ونحو ذلك: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً يُعتبرُ منه بلوغَ الآخر، ومنه قيل: ختمتُ القرآنَ، أي: انتهيتُ إلى آخرِه، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: 46]، إشارةٌ إلى ما أجرى الله به العادةَ أنَّ الإنسانَ إذا تناهى في اعتقادٍ باطل، أو ارتكابٍ محظورٍ ولا يكون منه تَلَفُّتٌ بوجهٍ إلى الحقِّ يورثُهُ ذلك هيئةَ تمرُّنِه على استحسان المعاصي، وكأنَّما يختم بذلك على قلبِه، وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: 40]؛ لأنّه خَتَمَ النُّبوَّةَ، أي: تمَّمها بمجيئِه[1]. وخاتِمةُ السُّورةِ: آخرُها. وخاتِمُ العملِ وكلِّ شيءٍ: آخرُهُ[2].

و(النِّهايةُ): الغايةُ، حيث ينتهي إليه الشَّيءُ، والإنهاءُ: إبلاغُك الشَّيءَ، وأنهيتُ إليه السَّهمَ، أي: أوصلته إليه[3]. والنِّهاية، والنِّهاء: غايةُ كلِّ شيءٍ وآخرُه، وذلك لأنَّ آخرَهُ ينهاهُ عن التَّمادي، فيرتدعُ، وانتهى الشَّيءُ، وتناهى، ونهى: بلغَ نهايتَه[4]. و(الإِنْهاءُ) الإِبْلاغُ، و(أَنْهَى) إِلَيْهِ الخَبَرَ (فانْتَهَى) و(تَناهَى)، أَيْ: بَلَغَ. وَيُقالُ: بَلَغَ نِهايَتَهُ[5]، ففي معنى النِّهاية: تَحَقُّقُ غايةٍ، أو تحقُّقُ مطلبٍ إلى مُنتهاه.

(1) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (ختم).
(2) الخليل، العين: (ختم).
(3) الخليل، العين: (نهي).
(4) ابن سيده، المحكم: (نهي).
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نهي).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ تهديدِ الكفرةِ بسُوءِ العاقبةِ، وجَعْلِ الشّركاءَ نُظراءَ للخالقِ المنزَّه

بعدَما أوردَ منَ التّهديدِ والوعيدِ في قولِه: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ بيّنَ هنا مَوضِعَ ظلمِهم ومكانتِهم الّتي يُنافِحونَ عنها؛ وانحطاطَ شأنِهم، ودنوَّ عقولِهم وقراراتِهم؛ ووضَّحَ أنَّ من أمثلةِ أسبابِ التّهديدِ السّابقِ بالإهلاكِ ما يفعَلونَهُ منَ الإشراكِ باللّه أوَّلًا، فجعَلوا من صدقاتِهم ونُذورِهم للشّركاءِ؛ بل إنّهم تَجاوزوا ذلك، فأوغَلوا في حُبِّ الشّركاءِ، فجعَلُوا لهم خصوصيّةً وشأنًا هي أكملُ عندَهُم من شأنِه سبحانَه.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأَ﴾: أصلُ الذَّرْءِ: إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبدَاهُ[1]؛ يُقالُ: ذَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ يذرَؤُهُم ذَرْءًا وذَرْوًا: إذا خَلَقَهُم، والذَّرْءُ من قولِكَ: ذَرَأْنا الأرضَ؛ أي: بَذَرْناها[2]. ومن صِفاتِ اللّهِ تعالى: الذّارِئُ[3] الَّذي ذَرَأَ الخَلْقَ؛ أَي: أَنْشأَهُم وكثَّرَهُم، فدلالةُ الذَّرءِ الإنماءُ؛ لِأَنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ[4]، وهو المقصودُ منَ الآيةِ.

2) ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾: أصلُ الحَرثِ هو الكَسْبُ وَالجَمْعُ؛ وَبِهِ سُمِّي الرَّجُلُ حارِثًا[5]. والحَرْثُ والحِراثَةُ: العَمَلُ في الأَرضِ زَرعًا كانَ أَو غرسًا،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ذرأ).
(2) الخليل، العين: (ذرأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذرأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/95.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).

وقد يكون الحَرثُ نفسَ الزَّرعِ[1]، والاحتراثُ منَ الزَّرعِ، ومِن كَسْبِ المالِ[2]، والمَرأةُ حَرْثُ الزَّوجِ، فهذا تَشبيهٌ؛ وذلك أنَّها مُزدَرَعُ وَلَدِه، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223]، والحَرثُ مُرادٌ به في الآيةِ: الزُّروعُ والثِّمارُ.

3) ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: مُفردةُ (نِعَم)؛ أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وَطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنهُ النِّعمَةُ: ما يُنعِمُ اللّهُ تعالى على عَبدِهِ به مِن مَالٍ وعَيشٍ[3]، وبِناؤُها بِناءُ المَرَّة من الفِعْلِ كالضَّربَةِ والشَّتْمَةِ، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تُقال للقَليلِ والكثيرِ[4]. والأَنْعامُ: جَمْعُ نَعَم، لا واحدَ له من لفظِهِ، وهي: البَهائِم، وسُمّيَت أَنْعامًا؛ لِكَثرةِ نِعَمِ اللّهِ فيها على خَلقِهِ مِنَ النُّموِّ وعُمومِ الانتِفاعِ، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ هذا الاسمُ على الإبلِ، وَالنَّعَمُ مُختَصٌّ بالإبلِ، وتسميتُهُ بذلك لكونِ الإبلِ عندَهُم أعظَمَ نِعمةٍ، لكِنِ الأنعامُ تُقال للإبلِ والبقرِ والغنمِ، ولا يُقال لها أَنْعامٌ حتّى يكونَ في جُملتِها الإبلُ[5].

4) ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾: أصلُ الزَّعمِ: القَولُ مِن غيرِ صِحَّةٍ وَلا يَقينٍ[6]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ. وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[7]. قالَ شُرَيح: لكلِّ شَيءٍ كُنيةٌ، وكُنيةُ الكَذِبِ: زَعَمَ، والزَّعْمُ: ادِّعاءُ العِلمِ بالشَّيءِ؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولين، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التّغابن: 7][8]، والمرادُ بالزَّعمِ في الآيةِ: الاعتقادُ الفاسِدُ.

❖ المَعْنى الإجْماليّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ جَعَلوا للّهِ مِمّا خَلَقَ مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ قِسمًا وجُزءًا له تعالى، وجَعَلوا لشُرَكائِهم مع اللّهِ تعالى نصيبًا من ذلك، والحالُ أنَّ اللّهَ تعالى هو الَّذي ذَرَأَه للعبادِ، وأوجَدَه رِزقًا، وهؤلاءِ الشُّركاءُ لم يرزُقوهم، ولم يُوجِدوا لهم شيئًا من ذلك، فَإِنْ وَصَلَ شيءٌ مِمّا جَعَلوه لآلِهَتِهم إلى ما جَعَلوه للّهِ سبحانَه؛ رَدُّوه إلى مَحَلِّه مع

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حرث).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نعم).
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/28.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.

نَقْضُ أوهامِ المُشركينَ، فيما جعلُوه مع اللهِ مُناصَفةً مِن زُروعِهِم وأنعامِهِم

نصيبِ أَوْثانِهم، فحَفِظوهُ واعتَنَوا به، وإنِ اختَلَطَ شيءٌ مِمّا جَعَلوهُ للّهِ تعالى بما جَعَلوهُ لآلِهَتِهم؛ تَرَكوه فيه ولم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يُبالوا ويهتَمُّوا بذلك، ساءَ الحكمُ حكمُهم حيث صرفُوا ما جعَلُوه للّهِ إلى الأوثانِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

جمعٌ بينَ قُدرةِ اللهِ في الإهلاكِ، واستحقاقِ الأقوامِ لذلك

لَمّا بيّنَ اللّهُ تعالى قُبحَ المُنكِرين في إنكارِهم وطريقةِ إعراضِهم عنِ الرّسولِ والرّسالةِ، ذكرَ عَقيبَهُ أنواعًا من جَهالاتِهم ورَكاكةِ أقوالِهم؛ تنبيهًا على ضعفِ عقولِهم، وقلَّةِ محصولِهم، وتَنفيرًا للعُقَلاءِ عنِ الالتفاتِ والإصغاءِ إلى كلماتِهم وأقوالِهم[2]، فوَصَلَ بينَ الخبرَين بقولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾؛ وذلك لبيانِ شَناعةِ ما يفعلونَ منَ الاستهانةِ برسالةِ الحقِّ والإيمانِ، فالوَصلُ بينَ خبرَين؛ الأوّل: بيَّنَ فيه قُدرتَهُ سبحانَه ومشيئتَهُ في إنشاءِ الأقوامِ واستخلافِهم، وما تضمَّنَ ذلك من تهديدٍ بالإهلاكِ والاستبدالِ للقومِ المُشرِكين، والثّاني: بيَّن فيه سببَ استحقاقِهم للإهلاكِ والاستبدالِ.

معنَى الجعْلِ في المَطْلَعِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾:

دلَّ الجَعلُ على تجاوُزِهم، في ابتداعِهِم شَرعًا جديدًا

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾، حقيقةُ معنى الجعلِ هو التَّصييرُ، والجعلُ هنا معناه الصَّرفُ والتَّقسيمُ، فقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾؛ أي: صَرَفُوا ووضَعوا للّهِ، وعيَّنُوا له نَصيبًا؛ لأنّ في التّعيينِ تَصييرًا تَقديريًّا ونَقلًا[3]، ودلَّ الجعلُ كذلك على أنّهم مُتجَاوزون في تشريعِ ما لا يحقُّ لهم تشريعُهُ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/573، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 275، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/387.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/157.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/94.

يَفترُونَ على اللهِ بزعْمِهم إعطاءَه بعضًا ممّا خلق وأبدعَ

دَلالةُ الحرفِ (مِن)، في قوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾:

وقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾، فـ (من) التَّبعيضيَّة دليلٌ على قسمٍ ثالثٍ، وهو ما بَقِيَ لهم من غيرِ النَّصيبَين[1]: مِنَ الحَرثِ والأنعام، وهو نصيبُهُم (هم)؛ وذلك تنبيهٌ على فرطِ جَهالَتِهِم، فإنّهم أشرَكُوا الخالِقَ في خلقِهِ جَمادًا، لا يَقدِرُ على شيءٍ، ثمّ رجَّحُوا المخلوقاتِ أو الشُّركاءَ عليه، بأنْ جَعَلُوا الزّاكِيَ لهم[2]. وجميعُ ما خَلَقَ اللّهُ في هذا الكونِ هو مُلكٌ للّهِ، فكانَ ما ادَّعَوْه منَ التّقسيم وتجزئَةِ صدقاتِهِم؛ إذ جعَلُوا بعضًا منها لشُركائِهِم هي مِن دونِ اللّهِ من أكبرِ الكبائرِ.

إيثارُ لفظِ ﴿ذَرَأَ﴾، منَ الآيةِ الكريمةِ:

الـذَّرْءُ الخَلْقُ علـى وجـهِ الاختِراعِ، فهو إيجادٌ وإبداعٌ

و﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَجَعَلُواْ﴾، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ، فهو في معنى المَفعولِ[3]. و(مِن) مُتعلِّقَةٌ بجعل، و(ما) مَوصُولةٌ، وجملةُ ﴿ذَرَأَ﴾ صلتُهُ، والعائدُ محذوفٌ[4]، وقولُهُ سبحانَه: ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ذَرَأَ﴾، والمعنى: وجعَلُوا من بعضِ الّذي ذرأَ مِنَ الحرثِ والأنعامِ نصيبًا له سبحانَهُ، وهذا من عظيمِ ظلمِهِم وشركِهِم، وقال: ﴿ذَرَأَ﴾ لِمَا في هذه المُفردةِ من تميُّزٍ، فـ ﴿ذَرَأَ﴾ بمعنى: أنشأَ شيئًا وكثَّرَهُ، فأُطلِقَ على الإنماءِ؛ لأنّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ. قالَ الرّاغبُ: الذّرءُ، إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبدعَهُ؛ يُقالُ: ذرأَ اللّهُ تعالى الخَلقَ؛ أي: أوجَدَ أشخاصَهم[5]، والذَّرءُ الخَلقُ على وجهِ الاختراعِ، وأصلُهُ الظُّهورُ، ومنه مِلْحٌ ذَرانيٌّ لِظُهورِ بَياضِهِ[6]. فهو المَخلوقُ مُتولِّدًا مِنَ الحبِّ، وانفلاقِ النَّوَى[7].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/275.
(5) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/275.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.

ما ذرأَهُ اللهُ هو مُلكُهُ، بلا جعْلٍ مِنْ أحدٍ

سِرُّ الإتيانِ بالموصولِ (ما):

وقولُهُ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ بيانُ المقصودِ بـ (ما) الموصُولةِ، والإتيانُ بالموصُولِ الدّالِّ على غيرِ العاقلِ (الحَرث والأنعام)؛ لأجلِ دلالةِ صلتِه على تَسفيهِ آرائِهم؛ إذ مَلَّكُوا اللّهَ بَعضَ مِلكِهِ؛ لأنَّ ما ذرَأَهُ هو مِلكُهُ، وهو حَقيقٌ به بلا جَعْلٍ مِنهُم[1].

بيانُ شرائعِهم الفاسدةِ، في نَتاجِ أموالِهم

بَلاغةُ الإطنابِ في عِبارةِ ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾:

ولو استغنى النَّصُّ عن عبارةِ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ فكانَ القولُ: (وجعلوا للّه منَ الحرثِ والأنعامِ نصيبًا)، لَتَمَّ المعنى في نظرِ المُتلَقّي؛ ولكنّه أطنبَ هنا بإيرادِ العبارةِ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ إيغالًا لتحقيقِ فوائدَ عدّةٍ منها؛ **الأوّل**: بيانُ فظاعةِ طريقتِهم في التّديُّنِ، فهم يُؤمِنونَ بوجودِ اللّهِ، لكنّهم يُشرِكونَ معه شُركاءَ. **والثّاني**: بيانُ عظيمِ ما ذرأَ اللّهُ منَ الحَرثِ والأنعامِ، وأنّ ما في أيدي النّاسِ هو بعضُ ما ذرأَ سبحانَهُ. **والثّالثُ**: تفظيعُ حالِهم ومآلِهم؛ إذ يَتجاهَلونَ أو يُنكِرونَ فضلَ اللّهِ عَليهم في الرّزقِ ممّا ذرأَ لهُم من تلك الأنعامِ والزّروعِ. **والرّابع**: أنّ اللّهَ تعالى هو مَن لديه القُدرةُ على أن يَخلُقَ الأحياءَ منَ العَدَمِ، أو أنْ يَخلُقَ الحَيَّ من غيرِ الحيِّ، فهوَ الغنيُّ عن كلِّ الـمَوجُوداتِ بالضّرورةِ، فجاءَت كلمةُ: ﴿ذَرَأَ﴾ في مُناسبةٍ دقيقةٍ للسّياقِ، فاختيارُ فعلِ: (ذرأ) لدلالتِهِ على الـمَعنى الـمُرادِ؛ إذِ الـمقصودُ بيانُ شرائعِهم الفاسدةِ في نتائجِ أموالِهم، ثمَّ بيانُ شرائعِهم في أصولِ أموالِهم في قولِهِ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ [الأنعام: 138].

أوْضَحَ على سبيلِ التَّفصيلِ ما قَصدَ بعدَ الإبهامِ، بذكْرِ ما قَسَموهُ للهِ افتراءً

دَلالةُ الإطنابِ بالإيضاحِ بعدَ الإبهامِ، في الآيةِ الكريمةِ.

وفي العبارةِ وجهُ إطنابٍ بالإيضاحِ بعدَ الإبهامِ، فبعدَ أن قالَ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ من مخلوقاتِهِ فصَّلَ القولَ وأوضحَ ذلك بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، فهذا هو ما كانَت عادةَ القومِ؛ أنْ يَجعلُوا من

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

غَلّاتِهم وزُروعِهم وأثمارِهم وأنعامِهم جزءًا تُسَمِّيهِ للّهِ، وجُزءًا تُسَمِّيهِ لأصنامِهم.

وقَصَدَ هذا الوَجهَ مِنَ الإطنابِ؛ ليتمَكَّنَ في النّفسِ فَضْلَ تَمكُّنٍ، فإنَّ المعنى إذا أُلْقِيَ على سبيلِ الإجمالِ والإبهامِ تشوّقَت نفسُ السّامعِ إلى مَعرفتِهِ على سبيلِ التّفصيلِ والإيضاحِ.

بَلاغَةُ المَجازِ في لفظِ ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾:

الحَرثُ ما يُحصَدُ من ثِمارِ الأرضِ، مِن إطلاقِ السَّببِ وإرادةِ المُسَبِّبِ

و﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾ مُرادٌ بِهِ الزَّرعُ والثّمارُ، وهو منَ المَجازِ، فالحَرثُ إلقاءُ البُذورِ في الأرضِ، وتَهَيُّؤُها للزَّرعِ، ويُسمَّى المَحروثُ حَرْثًا[1]، فهو في الأصلِ مِن إطلاقِ المَصدرِ على اسمِ المفعُولِ، ثُمَّ شاعَ ذلك الإطلاقُ، حتّى صارَ الحَرثُ حَقيقةً عُرفيَّةً في الجِنانِ والمَزارِعِ[2]، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: 22]، فالمُرادُ بالحَرثِ ما حصدَهُ المُزارِعُ من أرضِه، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ [الأنعام: 141]، والأنعامُ منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ يتقرَّبون بذبحِها. و"اللّهُ ﷻ هو الّذي ذرأ النّباتَ، وذرأَ الثّمارَ، وعبّرَ عنهُ تعالى بـ ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾، وهو نَبتُ الأرضِ لإنتاجِ الزّرعِ، وهو سَببٌ عاديٌّ لإخراجِ الزّرعِ مِنَ الأرضِ، فأُطْلِقَ السَّبَبُ وأُرِيدَ المُسَبَّبُ، فأُطْلِقَ ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾ على كُلِّ ما أخرجَتِ الأرضُ من زروعٍ وثمارٍ"[3].

إيثارُ لفظِ ﴿نَصِيبٗا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

(النَّصيبُ) يَنسَجِمُ مع الشِّركِ والذّبحِ لغيرِ اللهِ، غيرَ مُحَدَّدٍ ليخضعَ لأهوائِهم

قولُهُ: ﴿نَصِيبٗا﴾؛ والنَّصيبُ: الحَظُّ والقِسْمُ[4]. ونَصبُ الشَّيءِ: وَضعُهُ وَضعًا ناتئًا كنصبِ الرُّمحِ، والبِنَاءِ والحَجَرِ، والنَّصيبُ: الحجارةُ تُنصَبُ على الشَّيءِ، وكان للعَرَبِ حِجارةٌ تعبدُهَا وتَذبَحُ

(1) الرّاغب، المفردات: (حرث).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.

عَليها، قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3][1]، فاختارَ النَّصيبَ بيانًا لِما هُم فيهِ منَ الضَّلالِ والشِّرك، والتَّقديرُ: وجعلُوا للّهِ نصيبًا ولِغيرِهِ نصيبًا آخَرَ، وفُهِمَ منَ السّياقِ أنَّ النَّصيبَ الآخرَ لآلهتِهم، وقد أفصحَ عنهُ في التَّفريعِ بقولِه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾[2]. والتّعبيرُ بقولِهم: ﴿نَصِيبًا﴾، وهوَ قَدْرٌ يُعَيِّنُونَهُ بأنفسِهم، وعلى حَسبِ ما تَهوى أنفسُهُم، ولم يعرِّفُوهُ ليتصرّفوا فيهِ بمَا يشاؤون؛ فذَكروه مَجْهُولًا، واللّهُ تعالى هو المَالِكُ لكلِّ شيءٍ، فالأصلُ أن يكونَ هذا النّصيبُ المُخَصَّصُ للّه - بزعمِهم - كُلُّه للّهِ تعالى، ويُعطَى بحكمِ اللّهِ لا بحُكمِ الهوى، كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فهو مُقسِّمُ الأرزاقِ، وهوَ الخالقُ لكلِّ شيءٍ[3].

دَلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَفْظيعُ أفعالِ المُشركينَ والإنكارُ عليهم

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ إذ قدَّمَ قولَهُ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، وأخّرَ ﴿نَصِيبًا﴾ اهتمامًا بعظيمِ خلقِهِ سُبحانَهُ، وتفظيعًا لأفعالِهم، وإنكارًا؛ فكيفَ يَفعلونَ ذلك الفعلَ؟!

بَلاغةُ الحذفِ بأمَارةِ التّقسيمِ، في الآيةِ:

يَقْسِمون لله ممّا خَلقَ حظًّا ونصيبًا، جُرأةً وتطاوُلًا عليه

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فيه حذفٌ، دلَّ عليه التَّقسيمُ؛ والمعنى: جعلُوا للّهِ نصيبًا، وجعَلُوا لشركائِهم نصيبًا، يدُلُّ على هذا المعنى قولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾[4]، فدلَّ بالإشارةِ إلى النَّصيبينِ على نصيبِ الشُّركاءِ المَحذوفِ، إذ ذَكرَه إيجازًا في الجُملةِ الأولى، وهذا مُقتَضى اللّفِّ والنّشرِ الّذي سيأتي بيانه.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.

تَوجيهُ توكيدِ الجَعْلِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾:

التّناقضُ في التّقرُّبِ بنصيبٍ منَ القُربانِ إلى اللهِ، وإشراكِ آلهةٍ أُخرى معه

لفظ ﴿فَقَالُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ تأكيدٌ لِلفعلِ الّذي هو الجعلُ بالقولِ؛ لِيتَطابقَ الفِعلُ ويَتظافرَ بالقولِ، ثمّ إنَّهُم أخلفُوا ذَلِكَ[1]، فحكايةُ قولِهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ الّذي جعلُوهُ تَفصيلًا لجعلِهِم المَزعوم، يَتعارَضُ مع ما ينبغي أن يكونَ خَالِصًا للّه؛ فهُم مُتناقِضون بهذا القُربانِ للّهِ؛ إذ يتقرَّبونَ بِهِ إليهِ سُبحانَه، وهُم يُشرِكونَ معهُ آلهةً أخرى.

عِلَّةُ التّعبيرِ باسْمَيِ الإشارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

التَّعْجيبُ مِن حالِ هؤلاءِ وأساليبِهم في الاعتقادِ والتَّصرُّفِ

والإشارتان إلى النَّصيبِ المُعَيَّنِ للّهِ، والنَّصيبِ المُعَيَّنِ للشّركاءِ، واسما الإشارةِ مُشَارٌ بِكُلٍّ واحدٍ مِنهما إلى أحدِ النَّصيبَينِ على الإجمالِ؛ إذ لا غرضَ في المَقامِ في تَعيينِ ما جعلُوه للّهِ وما جعلُوهُ لشركائِهِم[2]، فليسَ المقصودُ منَ الآيةِ إطلاقَ مُعاتبةِ المُشركينَ على سوءِ التَّقسيمِ، أو بيانِ أنَّه تعالى كان أولى أنْ يُجعَلَ لَه الأحْسَنَ والأجود؛ بل المقصودُ هو التَّعجيبُ من حالِ هؤلاء، وممّا يفعلونَهُ ومن أساليبِهم في التَّفكيرِ والاعتقادِ والتَّصرُّفِ؛ لأنَّهم على سبيلِ الافتراضِ لو عكسُوا الأمرَ، فأصبحَ القولُ: فما كانَ للّهِ لا يصلُ إلى شركائِهِم، وما كانَ لشركائِهِم فإنَّه يصلُ إلى اللّهِ، لَمَا نفعَهُم ذلك؛ لأنّ ما يفعلونَهُ شركٌ مَحضٌ.

نُكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾:

يُؤمِنونَ باللهِ ربًّا، ثمّ يَجعَلُونَ له شُركاءَ

قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ بدلَ قولِهِم: (هذا له)؛ فإظهارُ لفظِ الجلالةِ إصرارٌ منهم على أنّه دينٌ يُمارِسونَ شعائرَهُ، وأنّهم يُؤمنونَ بما يَفعلون؛ إذ إنَّ ذكرَ اللّهِ تعالى وتَكرارَهُ وإظهارَهُ في مَوضِعِ إضمارٍ لا يكونُ إلّا اعتناءً منهم بعظيمِ شأنِهِ سبحانَهُ، لكنّهم أوردُوا ذكرَ اللّهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/655.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

تعالى في مَوضِعِ إشراكٍ؛ ليكونَ ما يَفعلونَ دِينًا منهم، وتصديقًا بما تُلبِسُ عليهم شياطينُهُم.

معنَى الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

مَحلُّ زعْمِهِم الباطِلِ، ما اقتضَتْهُ القِسمَةُ بينَ اللهِ وبينَ الآلهةِ

الباءُ الدّاخِلةُ على ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ إمّا بمعنى: مِنْ؛ أي: قالُوا ذلك بألسنتِهم، وأعلَنُوا بهِ قولًا ناشِئًا عنِ الزَّعْمِ؛ أي: الاعتقادِ البَاطِلِ، وهو ممّا زيّنَت لهم شياطينُهُم منَ الوَسوسةِ والإيحاءِ زُخرُفًا منَ القولِ غُرورًا، وإمّا تكونُ سببيَّةً؛ أي: قالُوا ذلك بسببِ أنَّهم زعمُوا. ومَحَلُّ الزَّعمِ هو ما اقتضَتهُ القِسمَةُ بينَ اللهِ وبينَ الآلهةِ، وإلّا فإنَّ القَولَ بأنّه مِلْكٌ للهِ قَولٌ حَقٌّ، لكنَّهم لمّا قالُوهُ على مَعنى تَعيينِ حَقِّ اللهِ في ذلكَ النَّصِيبِ دُونَ نَصيبٍ آخَرَ، كانَ قَولُهم زَعمًا باطِلًا[1].

دَلالةُ الزّعمِ، وعلّةُ إيثارِه، في قوله تعالى: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

التَّعجيبُ من حُكمِهم الباطِلِ، وتقسيمِهِم الفاسدِ المزعومِ

والزّعمُ: الاعتقادُ الفاسدُ، فجاءَ اللَّفظُ مُواليًا لبعضِ مَقُولِ القَولِ؛ ليكونَ مُتَّصِلًا بما جعلوه للهِ، فَيُرَتَّبُ التّعجيبُ مِن حكمِهم؛ بأنّ ما كانَ للهِ يصلُ إلى شركائِهِم؛ أي: ما اكتَفَوا بزعمِهِم الباطلِ حتّى نكلوا عنه، وأشركوا شُركاءَهُم فيما جَعلُوهُ للهِ بزعمِهِم[2]. ويدُلُّ لفظُ الزّعمِ - بما يحملُهُ من معنى الكذبِ أو الظّنِّ الّذي لا دليلَ عليه - أنّ ذلك التّقسيمَ فاسدٌ في ذاتِهِ؛ لأنّهم لا يملكونَ تقسيمَ الأرزاقِ، بل الّذي يملِكُها هو اللّهُ تعالى؛ لأنّه هو بارِئُها[3].

دَلالة لفْظِ ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ على جُملة منَ المَعاني المُعجميّةِ المُهمّةِ:

حقّقَ لفظُ (بزعمهم) انسجامًا في التّركيب، وائتلافًا مع النَّظْمِ والسِّياقِ

وَرَد في المَعاجم أنّ لكلمة ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ مَنظومَةً منَ المَعاني المُعجميّةِ، منها: الكَذِبُ، الشَّكُّ، الطَمَعُ، وزَعامَةُ المالِ، والزَّعومُ منَ الجَزورِ. ومعنى ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾؛ أي: بكذبِهِم، واضحٌ في الآيةِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.

الكريمةِ، وتتابعُ المعاني الغزيرةِ لهذه الكلمةِ، كمعنى: بشكٍّ منهم؛ فهم شاكُّونَ بما كانَ للّه؛ هل هو كما قالُوا؟ أم أنّه سينقصُ ويُحوَّلُ جزءٌ منه إلى شركائِهم كلّما اقترحَت عليهم شياطينُهُم وأهواؤُهُم؟! وكمعنى: بطمعِهِم؛ فهُم يقولونَ هذا للّه بزعمِهِم؛ أي: أنّهم طامعونَ فيه، يُريدُونَ إنقاصَهُ لصالحِ ما لأنفُسِهم أو لشركائِهم. وكذلكَ المعاني الأخرى أوحَت تلك المناسبةَ للفظِ (الزّعم) دونَ (الكذب)، وانسجامها مع عباراتِ النَّصِّ ومعانيه، فارتبطَت بكذبِهم، وارتيابِهم، وبالأنعام، والأموالِ، الّتي هي بمجموعِها مدارُ القضيَّةِ الّتي تناولَتها الآيةُ، ولا تُحقِّقُ كلمةٌ مثلَ ما حقَّقَتْ كلمَةُ ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ منِ ارتباطاتِ انسجامِ المعاني وبناءِ النَّظم، وهذا منَ الإعجازِ القرآنيِّ في اختيارِ الألفاظِ وائتلافِها مع سياقِها ونَظمِها.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الزّعمِ بالمصدرِ، وإضافتِهِ:

فـسـادُ اعـتـقـادِهـم، دلـيـلُ سَفاهةِ عُـقـولِـهـم، وحـقـارةِ هـذا الفعْلِ منهُم

يُؤتَى بالمصدرِ الصَّريحِ لإفادةِ القَطْعِ بحصولِ الفعلِ، وإرادةِ الحَدَثِ وحدَهُ، دونَ إرادةِ صاحبِه، أو إرادةِ زمنِه، فلا يَنشغلُ السَّامعُ بغيرِهِ، ولفظُ الزَّعمِ في قوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ يَحملُ دلالاتٍ يجمَعُها (الاعتقادُ الفاسدُ)؛ فحَرِيٌّ بأن يُعتنَى به، ويُركّزَ عليه دونَ مُتعلِّقِه من تَفاصيلَ. وإضافتُهُ إلى ضميرِهِم يُنبِئُ بتحقيرِ هذا الفعلِ منهم، وتقليلِ أثرِه، وتهوينِ شأنِه حكمًا مُختَرَعًا يدُلُّ على سَفاهةِ عقولِهم، وبُطلانِ مُعتَقدِهم.

نُكتةُ مَجيءِ لفظِ الزَّعْمِ إثرَ قولِهِم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾، دونَ قولِهم: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ زَعْمَ التّقسيمِ، مُـخـتَـرَعٌ مُـتـخـرَّصٌ، من غيرِ مُستنَدٍ

فقال تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ فقولُه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ إطنابٌ؛ ولو حُذِفَتْ لَفُهِمَ المعنى دونَ إشكالٍ، لكنّه ذكرَ ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ إيغالًا لفائدةِ التَّنبيهِ على أنَّ ذلك ممّا اخترعُوه وتخرَّصُوه، وما أوحَتهُ إليهم شياطينُهُم أن يفعلُوهُ، ولم يأمرْهُم اللّهُ

بِهِ، فما ذرأَ اللّهُ منَ الحَرثِ والأنعامِ كلُّه للّهِ سُبحانَهُ، ولا يخرُجُ عن مُلْكِهِ شيءٌ، ولذا أسقطَ الزَّعْمَ من قولِه: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: وليسَ لهم سَنَدٌ في هذهِ القِسمَةِ إلّا أهواؤُهُم، وادّعاؤُهُم الباطلُ، وسفهُ عقولِهم[1].

إيثارُ لفْظِ (الشُّركاءِ)، لشُيوعِه كالعلَمِ بالغلَبَةِ:

جَعْلُهم شُركاءَ في أموالِهم وحَرْثِهم وأنعامِهِم، انحرافٌ عنِ الصِّراطِ

وقولُهُ: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ والشُّركاءُ هنا جمعُ شَريكٍ؛ أي: شركاءُ للّهِ سُبحانَه في الإلهيّةِ، أو في القِسمَةِ الّتي زعمُوها افتراءً، ولمّا شاعَ ذلك عندَهُم صارَ كَالعَلَمِ بالغَلَبَةِ، فلِذلكَ استَغنى عنِ الإضافةِ إلى ما فِيهِ المعنى المُشْتَقُّ منهُ، وهو الشَّرِكَةُ، ثمّ لأجلِ غَلَبَتِهِ في هَذا المعنى صارَ بمَنزِلةِ اللَّقبِ، فأضافوا الشُّركاءَ إلى أنفسِهم، فقالُوا: ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: للشُّركاءِ الّذين يُعرَفُونَ بنا[2]. وحيث أنّهُم لا يَقبلونَ أن يقولوا (لأوثانِنا أو أصنامِنا)، واللّهُ تعالى لا يقبلُ أن يُقالَ عنهم (آلهةٌ)، فعبَّرَ عنهم بقولِهِ: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: للشّركاءِ الّذين قلْنا: إنّهم شركاءُ للّهِ تعالى[3].

دَلالةُ الإضَافةِ في قولِه تعالى: ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾:

التَّخصيصُ لمُساهمتِهِم في الخَيرِ والشَّرِّ، وتعيينُ شركاءَ يُقسَمُ لهم

وشركاؤُهُم هُم آلهتُهُم، والإضافةُ فيها للتّخصيصِ؛ أي: الشُّركاءُ الّذين أشرَكوا بينَهم وبينَ اللّهِ في القُرْبَةِ، وسُمُّوا شركاءَ لأنّهم أنزَلُوهُم مَنازِلَ الشُّركاءِ في أموالِهم؛ فتكُونُ الإضَافَةُ إمّا إلى الفاعلِ؛ فالتّقديرُ: وهذا لأصنامِنا الّتي تُشرِكُنا في أموالِنا، وإمّا إلى المفعولِ؛ فالتَّقديرُ: لأصنامِنا الّتي شَرَكناها في أموالِنا، أو سَمَّوهُم شُركاءَ على مُعتَقَدِهم فِيهم أنّهم يُساهِمونَهم في الخَيرِ والشَّرِّ[4]. وضميرُ المُتكلّم (نا) فيه إشارةٌ لكثرةِ الشّركاءِ، وتقسيمِهم عليهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/279.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2687.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

وقريبِهم منهم، فكلُّ واحدٍ منهم له شركاءُ مِنَ الأصنامِ أو مِن سَدَنَتِهَا، ولكلٍّ منهم شركاءُ يُقْسَمُ لهم.

بيانُ الحذْفِ في ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ﴾:

إضافةً إلى زعمِهِم، فقد جمعُوا في قسمتِهِم بينَ الشِّركِ والكذبِ

ثمّ أجملَ بقولِهِ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ﴾؛ إذِ المعنى: فما كانوا قد قسَّمُوهُ لشركائِهِم مِنَ الزّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ، ومن صورِ ذلك التَّحَيّزِ إلى شركائِهِم: كانوا إذا جمعُوا الزَّرعَ فهبَّتِ الرّيحُ فحملَت ممّا قَسمُوهُ للّه إلى الّذي قَسمُوه لشركائِهِم أقرّوه، وقالوا: إنّ اللّهَ غنيٌّ عنه، وإذا حملَت ممّا قَسمُوه لشركائِهِم إلى الّذي قَسمُوه للّهِ ردُّوه، وإذا هَلكَ ما لأصنامِهِم بقَحْطٍ أخذُوا بدلَهُ ممّا للّه، ولا يفعلونَ ذلك فيما للّه، فكانُوا مع ما اقترحُوه مِنَ القِسمةِ المَزعومةِ غيرَ صادقِينَ في التّقسيم، فجمَعُوا بينَ الشّركِ والكذبِ.

وَجْهُ تَعديةِ ﴿يَصِلُ﴾ إلى اسْمِ الجَلالةِ، وإلى اسْمِ شُركائِهِم:

لمّا جعلُوا الأنصبةَ، فقدِ استشْعروها مَحوزَةً، لمَن جُعِلَتْ إليه

وقولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾؛ عُدِّيَ ﴿يَصِلُ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ، وإلى اسمِ شركائِهِم، والمُرادُ لا يَصِلُ إلى النَّصيبِ المَجعُولِ للّه، أو إلى شركائِهِم؛ لأنّهم لمّا جعلُوا نصيبًا للّه ونصيبًا لشركائِهِم، فقدِ استشْعَرُوا ذلك النّصيبَ مَحُوزًا لِمَن جُعِلَ إليه، وفي حِرزِهِ فكأنَّه وصلَ إلى ذاتِه، وقولُهُ: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ مبالغةٌ في صَرفِهِ من أنْ يُعطَى للّه؛ لأنّه إذا كانَ لا يَصِلُ فهو لا يُترَكُ إذا وصَلَ بالأولى[1]؛ أي: لا يقعُ مَوقِعَ ما يُصرَفُ في وُجوهِ البِرِّ مِنَ الصَّدَقَةِ على المَساكينِ وزُوّارِ بيتِ اللّهِ ونَحوِها، ولَو فعلُوا ذلكَ لم ينفعْ؛ لأنّهُم أشرَكُوا، أو لا يَصِلُ البَتَّةَ إلى تلك الوُجوهِ المَقصودِ بها التَّقرُّبُ إلى اللّه[2]، وكانوا يَصرِفُونَ ما جعلُوا للّهِ إلى الضّيفانِ والمساكينِ، فذلك معنى قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/97.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

بَلاغةُ اللّفِّ والنّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

مُوافقةُ السّياقِ لمساحةِ التّناقُضِ بـين أقـوالِ الـمُـشـركـيـن وأفعالِهم

تَضمَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ لفّين ونشرين مُتداخلين؛ فجاءَ اللَّفُّ الأوّلُ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾، وفي الآية حذفَ جملةَ: (وجعلوا لشركائهم نصيبًا)، وهذا تمامُ اللّفِّ الأوّلِ، أمّا نشرُهُ فقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، فذكرَ ما للّهِ تعالى، ثمّ ذكرَ ما لشركائِهم على ترتيبِ اللّفِّ.

وجاءَ اللّفُّ الثّاني في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، والنّشرُ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾، فجاءَ النّشرُ على عكسِ اللّفِّ، وأوردَ النّشرين بطريقتين مُخْتَلفَتَيْنِ مُتعاكِستين، فالأوّلُ مُوافِقٌ لترتيبِ اللّفِّ، والثّاني مُعاكِسٌ له؛ فأفادَ ذلك مُوافقة السّياقِ وبيانَ مساحةِ التّناقضِ والانعكاسِ بينَ أقوالِهم وأفعالِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ بينَ عُنْصرَيِ اللّفِّ والنّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

اختلافُ الأفعالِ في قِسمتِهم، فـشَـرَعُـوا لأنـفـسِـهـم، وأبـاحُـوا ما لا يجوزُ

وما بينَ ﴿لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ في النّشرِ الأوّلِ و﴿لِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ في اللّفِّ الثّاني التفاتٌ؛ إذِ التفتَ من الـمُتكلِّمِ إلى الغائبِ، فقد كانَ حضورُهُم مَوضِعَ قولِهم، ولكنّهم غابُوا مَوضِعَ الفعلِ والعملِ، وجاءَ الضّميرُ ضميرَ غيبةٍ، وهذا مُنسَجِمٌ تمامًا في أنّهم أهلُ أقوالٍ لا أفعالٍ. ونلحظُ كذلكَ اختفاءَ الضّميرِ؛ لا حاضرًا ولا غائبًا، في قولِه: ﴿يَصِلُ﴾، فقال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾؛ وفي ذلك مَلْمَحٌ إلى اختلافِ تلك الأفعالِ بينَهُم، فكأنّها قد صارَت مُباحاتٍ لهم جميعًا، فيَحمِلُ مَن يشاءُ ما كانَ للّه فيضعه مع ما كانَ للشّركاءِ، ويَمنعُ ما كانَ للشّركاءِ من أن يَصِلَ إلى اللّهِ.

بَلاغةُ الاستئنافِ في جُملةِ الفاصلةِ:

التّـعـمـيـمُ في ذمِّ مُجتمعاتِ الكُفرِ وشَرائعِها وأَحكامِها

وجملةُ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ استئنافٌ لإنشاءِ ذَمِّ شرائعِهم؛ لفائدةِ التّعميمِ؛ فجَعَلَ العبارةَ كالمَثَلِ السّائرِ على ألسنةِ المُؤمنينَ، وفائدةُ هذا الاستئنافِ هو ذمُّ شرائعِ كلِّ مُجتمَعٍ من مُجتمَعاتِ

الكفرِ، عندما تُسَوِّلُ لهم أنفسُهُم تشريعَ غيرِ ما أنزلَ اللّهُ، وأن يَحكمُوا بها.

عِلّةُ إيثارِ ﴿سَآءَ﴾ على (بئسَ):

الإســاءةُ لأنفسِهم بما اقترفُوه، وتَركُ التّشفّي بهم للإشفاقِ عليهم

و﴿سَآءَ﴾ هنا بمعنى: بئسَ، و﴿مَا﴾ هي فاعلُ ﴿سَآءَ﴾، وهي مَوصُولةٌ، وصلتُهَا ﴿يَحۡكُمُونَ﴾، وناسبَ ذكرُ ﴿سَآءَ﴾ هنا؛ لأنَّ فيها معنى الإساءةِ إلى أنفسِهم بما اقترفوه وشرّعوا لأنفسِهم منَ الدّين؛ قال الرّاغبُ: يُقالُ سَاءَني كذا وسُؤتَني بكذا، قالَ تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك: 27]، وقالَ تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [الإسراء: 7]، بينما (بئسَ) فيها معنى التّشفّي، كما في قولِه تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦﴾ [سورة ص: 56]، ولو قالَ: (بئسَ ما يحكمون) لأصابَهُم ذلك، فلم يأتِ بـ (بئس)؛ لأنّ مَقامَ القطعةِ القرآنيّةِ مَقامُ رحمةٍ وإشفاقٍ عليهم، وتركٍ للخَشِنِ مِنَ القَولِ، وحُسن خُلقٍ وتأدُّبٍ.

وَجْهُ حذْفِ المَخصوصِ بالذّمِّ:

مناسبةُ السّياقِ للمَحذوفِ مِن حُكمِهم وجَعْلِهم

وحُذِفَ العائدُ المَنصوبُ، وحُذِفَ المخصوصُ بالذّمِّ لدلالةِ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾(1) عليه؛ أي: (ساءَ ما يحكمونَ جَعلُهم)، فحَذَفَ (جعلهم) إيجازًا، فناسبَ سياقَ الآيةِ حذفُ الإساءةِ وإخفاؤُها من حكمِهم وجعلِهم.

دَلالةُ (ما) الموصولةِ في جُملةِ الفاصلةِ:

الإشارةُ إلى إبهامِ رأيِهم وحُكمِهم؛ استهانةً وتحقيرًا لهم

عبّرَ بالاسمِ الموصولِ الدّالِّ على غيرِ العاقلِ؛ لبيانِ إبهامِ رأيِهم، وبُطلانِ حُكمِهم؛ استهانةً بهم، واستصغارًا لهم، وتحقيرًا لشأنِهم.

نُكتةُ إطْلاقِ الحُكمِ على فعْلِهم:

في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ سمّاه حُكمًا تَهَكُّمًا؛ لأنّهم نَصَبوا أنفُسَهُم لِتَعيينِ الحقوقِ، فَفَصَلُوا بحُكمِهم حقَّ اللّهِ مِن حقِّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/97.

نَصّبُوا أنفسَهم لإيفاءِ الحُقوقِ، وليسُوا أهلًا للحُكمِ

الأصنامِ، ثمّ أباحُوا أن تَأْخُذَ الأصنامُ حَقَّ اللّهِ، ولا يَأْخُذَ اللّهُ حقَّ الأصنامِ، فكانَ حُكمًا باطلًا، كقولِه: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ [المائدة: 50].

بَلاغةُ التَّذْييلِ في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

الإسَاءاتُ المُتعدِّدَةُ، سَببُ تحقيرِهم، وتجاهُلِ كلامِهم

وجملةُ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تذييلٌ؛ فقد لخَّصَت ما ذكرَتهُ الآيةُ ممّا استحقُّوهُ مِنَ التّهكُّمِ والتّفظيعِ، ولإساءةِ هؤلاءِ المُشرِكين وجوهٌ، منها: أنّهم رجّحُوا جانبَ الأصنامِ في الرّعايةِ والحِفظِ على جانبِ اللّهِ تعالى، وهذا سَفَهٌ، وأنّهم جَعَلُوا بعضَ النّصيبِ للّهِ، وجَعَلُوا بعضَهُ لغيرِهِ معَ أنّهُ تَعالى الخالقُ للجميعِ، وهَذا أيضًا سَفَهٌ ثانٍ، وأنّ ذلك الحُكمَ حُكمٌ أحدَثُوهُ من قِبَلِ أنفسِهم، ولم يَشهَدْ بصِحّتِهِ عَقلٌ ولا شَرعٌ، فَكانَ أيضًا سَفَهًا ثالثًا، وأنّه لو حَسُنَ إفرازُ نَصيبِ الأصنامِ لَحَسُنَ إفرازُ النَّصيبِ لِكُلِّ حَجَرٍ ومَدَرٍ، وأنّه لا تأثيرَ للأصنامِ في حصولِ الحَرثِ والأنعامِ، ولا قُدرةَ لها أيضًا على الانتفاعِ بذلكَ النَّصيبِ، فَكانَ إفرازُ النَّصيبِ لها عَبَثًا، فَثَبَتَ بهذهِ الإساءاتِ المُتعدِّدةِ أنّهم ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، والمقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذهِ المَذاهبِ الفاسدةِ؛ أن يَعرِفَ النّاسُ قِلَّةَ عُقُولِ القائلِينَ بهذهِ المَذاهِبِ، وأن يَصِيرَ ذلكَ سَببًا لتحقيرِهِم في أعينِ العُقلاءِ، وأن لا يَلتفِتَ إلى كلامهم أحدٌ البَتّةَ(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ذرَأَ)، (بَرأَ)، (خَلَقَ)، و(أنشأَ)، و(بثَّ)، و(أنْمى):

الذَّرءُ هو الإظهارُ بعدَ العَدَمِ، ولكلِّ مُفردةٍ معها معنى يُميّزُها

الذَّرءُ: أصلُهُ الإظهارُ؛ وَمعنى ذرأَ اللّهُ الخلقَ: أظهرَهُم بالإيجادِ بعدَ العَدَمِ، وَمِنه قِيل للبياض الذّارّة؛ لظُهورِهِ وشهرتِهِ، ومِلحٌ ذَرّاني لبياضِهِ، والذَّرْو - بِلا همزٍ - التَّفرِقَةُ بَين الشَّيئَينِ(2).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/158.

(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 138.

والبَرْءُ: هوَ تمييزُ صورِ الخلقِ، وَقولُهم: برأَ اللّهُ الخلقَ؛ أَي: ميّزَ صورَهُم، وَأَصلُهُ القَطْعُ، وَمِنْهُ البراءَةُ، وَهي قَطعُ العَلَقَةِ، وبَرِئْتَ منَ المَرَضِ كَأَنَّهُ انقطعَت أَسبابُهُ عَنك، وبَرِئْتَ مِنَ الدَّينِ، وبَرَأَ اللَّحمَ من العظمِ قَطَعَهُ، وتَبَرَّأَ مِنَ الرّجلِ إذا انْقَطَعَت عصمتُهُ مِنْهُ[1]. والخلقُ في اللّغةِ: التّقديرُ وإيجادُ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وخَلِقَ الثّوبُ وأَخْلَقَ لم يبقَ منهُ إلّا تقديره، واخلولقَ السّحَابُ استوى، وإنّه لخليقٌ بكذا؛ أي: شبيهٌ به، كأنّ ذلك مُقدَّرٌ فيه[2]. ويُستعمَلُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [السّجدة: 4]، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النّحل: 4]، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ [المؤمنون: 12]، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [الرّحمن: 15]، وليسَ الخَلْقُ الّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى، ولهذا قالَ في الفصلِ بينَهُ تعالى وبينَ غيرِهِ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 17][3].

والإنشاءُ: النَّشْءُ والنَّشْأَةُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]. يُقالُ: نَشَأَ فلانٌ، والنّاشِئُ يُرادُ به الشّابُّ، ونَشَأَ السَّحابُ لحدوثِهِ في الهواءِ، وتربيتِهِ شيئًا فشيئًا. قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرّعد: 12]، والإنْشاءُ: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الحَيَوانِ. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الملك: 23]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النّجم: 32]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: 71 - 72]؛ فَلِتشبيهِ إيجادِ النّارِ المُستخرَجةِ بإيجادِ الإنسانِ[4] شبّه إنشاءَ حياةِ الشّجرِ بإنشاءِ حياةِ الإنسانِ.

والبَثُّ:هو إيجادُ ما لم يكنْ مَوجودًا وتنويعُهُ وتوزيعُهُ، وأصلُ البَثِّ: التّفريقُ وإثارةُ الشّيءِ كبثِّ الرّيحِ التّرابَ، وبثُّ النّفسِ ما انطوَت عليهِ منَ الغمِّ والسّرِّ، يُقالُ: بَثَثْتُهُ فانْبَثَّ، ومنه قولُهُ ﷻ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: 6]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164] إشارةٌ إلى إيجادِهِ تعالى ما لم يكنْ مَوجودًا وإظهارِهِ إيّاه. وقولُهُ ﷻ: ﴿كَٱلْفَرَاشِ

---

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 138.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 224.
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

﴿ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ [القارعة: 4]؛ أي: المُهَيَّجِ بعدَ ركونِهِ وخفائِهِ[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ﴾ [النّساء: 1].

واختِيرَ لفظُ ﴿ذَرَأَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ؛ لأنّه يَحمِلُ دلالةَ إنشاءِ الشّيءِ وتكثيرِهِ، ولذلكَ أُطلِقَ على الإنماءِ؛ لأنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ، وإظهارُ ما أبدعَهُ اللّهُ تعالى؛ وأوجدَهُ[2]، وإظهارُ الشّيءِ الّذي أنشأَهُ اللّهُ تعالى وكثّرَهُ في مَعرِضِ النّعمِ الّتي جُحِدَتْ أشدُّ تعريضًا بمَن أساءَ الحُكمَ؛ سفاهةً، وافتقادَ حِلْمٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (بثّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين قِسْمةِ المحيز والمحصولِ بين الله وآلهتهم، وتقديمِ أولادِهم قرابينَ للآلهةِ

الآيةُ في مَعرِضِ تعدادِ أعمالِ المُشركينَ مِنَ القُبحِ والجَهالةِ، فبعد أن ذكرَ ظلمَهُم منَ الشِّركِ الظّاهرِ؛ إذ جعلُوا للّه شُركاءَ في أقسامِهِم أموالهم مِنَ الزّروعِ والأنعامِ، فقد شبّهَ حالَهم هذا بتزيينِ أولئك الشّركاءِ منَ الشّياطينِ ونحوِهم قتلَ أولادِهم؛ حيث زيّنُوا لهم أن يجعلُوا أولادَهُم قرابينَ للآلهةِ. فهي حِكايةُ نوعٍ من أنواعِ تشريعاتِهم الباطلةِ، وهي راجعةٌ إلى تَصرُّفِهم في ذُرِّيَّاتِهم بعدَ أن ذَكرَ تَصرُّفاتِهم في نتائجِ أموالِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾: أصلُ الرَّدَى: الهلاكُ والموتُ؛ يُقالُ: رَدِيَ يَرْدَى، إذا هَلَكَ. وأَرداهُ اللّهُ: أَهْلَكَهُ. والتَّرَدِّي: التَّهَوُّرُ في المَهْوَى. يُقالُ رَدِيَ في البِئْرِ كما يُقالُ تَرَدَّى[2]. ورَدُؤَ الشَّيءُ يَرْدُؤ رَداءَةً، وإذا أصابَ الإنسانُ شَيئًا رَديئًا فهوَ مُرْدِئٌ، وكذلكَ إذا فَعَلَ شَيئًا رَديئًا[3]. ويُستعمَلُ الإِرْداءُ في الضُّرِّ الشَّديدِ (مَجازًا أَوِ استِعارةً)، وذلكَ المُرادُ هُنا.

2) ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾: أَصلُ الكَلِمَةِ مِنَ اللَّبْسِ، وهو: الخَلْطُ، يُقالُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ردأ).

لَبَسْتُ الأمرَ، ألْبِسُهُ: خَلَطْتُ بَعضَه ببَعض[1]، ومنهُ سُمِّيَ الثَّوبُ لِباسًا؛ لأنَّه يُخالِطُ البَدَنَ ويَستُرُهُ. واللَّبْسُ أيضًا: خلطٌ بَينَ مُتَشابِهاتٍ في الصِّفاتِ يَعسُرُ مَعَهُ التَّمييزُ أو يَتَعَذَّرُ. والمقصودُ في الآيةِ: الخَلْطُ؛ أي: أَنْ يَخلِطوا عليهم دينَهُم فَيوهِموهُمُ الضَّلالَ رُشدًا.

3) ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أصلُ الفِعلِ (وذر) التَّركُ، يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يتركُهُ لقلَّةِ اعتدادِهِ به. والعَرَبُ قد أماتَتِ المصدرَ مِن يَذَر والفِعلِ الماضي، واستعملَتْهُ في الحاضرِ والأمرِ، فإذا أرادوا المصدرَ قالوا: ذَرْه تَرْكًا؛ أي: اترُكْهُ[2]. وقيل: أصلُ ذلك مِنَ القَذْفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91]؛ أي: اقذفْهُم وألقِهِم واترُكْهُم، فلا اعتِدادَ بهم وعدم مُبالاةٍ[3]. ومِن ذلكَ الوَذَرَةُ: وهي قطعةُ لحم صغيرةٍ؛ سُمِّيَت بذلك لِقلَّةِ الاعتدادِ بها، والجَمعُ وَذَرٌ[4]. ومعْنَى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ في الآيةِ: اتْرُكهم؛ أَيْ: لا تُخالِطْهم، والمرادُ: عَدَمُ الاهتِمامِ بهم وقِلَّةِ الاكتراثِ بأقوالِهم.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تَزْيِينُ الشّيطانِ عُزوفَ قتْلِ الأولادِ، قُربانًا للآلهةِ، أو خَشيةً مِنَ الفقرِ أوِ العارِ

وكما حسَّنَتِ الشَّياطينُ لهؤلاءِ المُشرِكينَ أن يَجْعَلوا للهِ ممّا خَلَقَ مِنَ الزّروعِ والثّمارِ والأنعامِ نصيبًا، كذلكَ حَسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الفقرِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلُّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايَةِ القُبحِ؛ تُزيِّنُ لهم، فتكونُ لديهم مِنَ الأمورِ الحَسَنةِ الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ. ولو شاءَ اللّهُ ﷻ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحالَ بينَهم وبينَ قَتلِ أولادِهم، ولكنَّ اللّهَ تعالى، بحَسَبِ ما اقتضَتْهُ حِكمَتُهُ، خلَّى بينَهم وبينَ أفعالِهم، وخذَلَهم عن

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (لبس).
(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (وذر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (وذر).

الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ الّتي أغوَتْهُم، وقَتلوا أولادَهُم، وكلُّ هذا وَاقِعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التّامَّةُ في ذلكَ، فدَعْهُم - أيُّها الرَّسولُ - وما يَختلِقونَ ويَتقوَّلونَ على اللّهِ تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللّهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحكُمُ اللّهُ بينَكَ وبينَهُم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدرِجُهُم، ويُمْهِلُهُم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ وصْلِ الآيةِ بما قبْلَها، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

وَصْلُ الجُملَتَين الخَبَرِيتَيْن، أفادَ تَعدادَ ضَلالاتِهم الّتي لا تُحصَرُ

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عَطفٌ على قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾؛ أي: كما فعلُوا ذلك، فكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ منهم شُركاؤهم قَتلَ الأولادِ، والمعنى: أنَّ جَعلَهُم للّهِ نصيبًا وللشّركاء نصيبًا هو نهايةٌ في الجَهلِ بمعرفَةِ الخالِقِ المُنعِمِ، وإقدامَهُم على قتلِ أولادِهم نهايةٌ في الجهالةِ والضّلالةِ. وَوَصلُ الجُملتَين الخَبَريتين أفادَ تعدادَ ما هُم عَليهِ مِنَ الضّلالِ، وما استحقُّوا عليه أن يُسَمُّوا بالمُشرِكين، ويُوصَفوا بالظّالمين.

بَلاغةُ التّنبيهِ باسْمِ الإشارةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

مُشاكَلةُ أحكامِ المُشركينَ بعضِهم بعضًا، وتَعدادُ تَشريعاتِهم الباطلةِ

يُفيدُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التَّنبيهَ على أنَّ أحكامَ هَؤلاءِ وأحوالَهم يُشاكِلُ بَعضُها بَعضًا في القُبحِ والخَساسَةِ[2]، أو التّقديرُ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ وزيَّنَ لهم شُركاؤُهم قَتلَ أولادِهِم، فَقَتَلوا أولادَهُم، فَهذِهِ حِكايةُ واحدٍ من أنواعِ تشريعاتِهِم الباطلة، فذَكَرَ جهالتَهُم لتصرُّفِهِم في ذُرّيّاتِهِم، وقتلِهِم إيّاهُم بغيرِ حقٍّ، بعد أن ذكرَ تصرُّفاتِهِم في نتائجِ أموالِهِم[3].

وَجهُ التّعبيرِ عنِ التَّزيينِ بالماضِي ﴿زَيَّنَ﴾:

والتّعبيرُ عنِ الماضي فيه دلالةٌ على ما آلَت إليه البشريّةُ قبلَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/574، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/344 - 345، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 275.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/158.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/98.

ظُلمُ النّاسِ في عقائدِهم، قديمٌ قِدمَ الخَليقَةِ

دينِ الإسلامِ؛ منَ الضّلالِ في التّدينِ الّذي هو في حقيقتِهِ لا يخرُجُ عن كونِهِ تزييناً لهم، ولَبْسًا عليهم، فالتّعبيرُ بالماضي يدُلُّ على التّعجيبِ من حالِ النّاسِ، فقد بدأَ الظّلمُ في عقيدتِهم، ووقعَ منذُ نشأةِ الخَلقِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿زَيَّنَ﴾ بَدلًا مِن (حسَّن):

تَصويرُ ما أوصلَهُم إليه شُركاؤُهم، مِنَ الخِداعِ وقلْبِ الحقائقِ

قولُه: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، عبَّرَ فيه بقولِهِ: ﴿زَيَّنَ﴾، لإظهارِ أنَّ هذا الفعلَ ليسَ حَسَنًا في حقيقتِهِ، بل هو قبيحٌ وشَنيعٌ، وأنَّ الشّيطانَ هو الّذي زيَّنَهُ لهم بالغرورِ والخِداعِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفِعلِ يدُلُّ على زيادةٍ مُحبَّبةٍ في التّعلُّقِ بظاهرِ الشّيءِ، ناشئةٍ عمّا يَزْخَرُ به باطنُهُ[1]، فجَعَلَ الشّيطانُ المُشرِكينَ يَظنّونَ أنّهم يَفعلونَ خيرًا، وأنّهم يَقتصُّونَ من أعدائِهم، وأنّهم يُحافِظونَ على دينِهم، وأنّهُم يَستجيبونَ لأوليائِهم بهذا الفعلِ القبيحِ الّذي كأنَّ في ارتكابِهِ قتلَ النّاسِ جميعًا؛ بما أوحَتْهُ لهم شياطينُهُم مِنَ الخِداعِ وقلبِ الحقائقِ، ولِذلكَ استخدمَ اللّهُ تعالى كلمةَ ﴿زَيَّنَ﴾ في القرآنِ الكريمِ في مَواضِعَ كثيرةٍ؛ لبيانِ كيفَ يُزيِّنُ الشّيطانُ للإنسانِ ما هو شرٌّ له، وكيف يزيِّنُ الإنسانُ لنفسِهِ ما هو ضرٌّ له، وكيف يزيِّنُ المرءُ لغيرِهِ ما هو باطلٌ عندَهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: 48]، وقولِهِ تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجر: 39]، ولم يذكُرِ المفعولَ؛ لأنّ المعنى مَفهومٌ. وممّا لم يُسمَّ فاعلُهُ قولُهُ ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ [التّوبة: 37]، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 212].

بَلاغةُ تقديمِ: ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾:

امتثالُ تَزيينِ الشّياطينِ من غَرائبِ الأمورِ

وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾؛ فلمّا كانَ المُزيِّنُ، وهم شَياطينُ الإنسِ والجنِّ،

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).

أجدرَ بأَنْ لا يُقبَلَ تَزْيينُهُمْ، ولا يُلتَفَتَ إليهم، فكان امتثالُ قولِهم غَريبًا، وكانَ الإقدامُ على فعلِ الأمرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غرابةً، قدَّمَهُ تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾؛ أي: بالوَأْدِ خشيةَ الفقرِ أو العارِ، والنَّحرِ لآلهتِهم، وشَتّانَ بينَ مَن يُوجِدُ لَهُم الوَلَدَ ويَرزُقُهُ الرِّزقَ ويَخلُقُهُ، وبينَ مَن لا يكونُ إلّا سَبَبًا في إعدامِهِ[1]. فهو وحدَهُ مَن يستحِقُّ العبادةَ والتّأليهَ سبحانَه.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾:

فَظاعةُ التَّزْيينِ وشناعتُهُ، تُؤكِّدُ الانحرافَ البَشِعَ للمُشركينَ

ولقد أعظمَ اللّهُ هذا التّزيينَ العَجيبَ في الفَسادِ الّذي حسَّنَ أقبحَ الأشياءِ، وهو قتلُهُم أحبَّ النّاسِ إليهم وهم أبناؤُهُم، فشُبِّهَ بنفسِ التّزيينِ للدّلالةِ على أنّه لو شاءَ أحدٌ أن يُمثِّلَهُ بشيءٍ في الفَظاعةِ والشَّناعَةِ لم يَسَعْهُ إلّا أن يُشَبِّهَهُ بنَفسِهِ؛ لأنّه لا يَبلُغُ شيءٌ مَبلَغَ أنْ يكونَ أظهرَ منه في بابِهِ، فيَلجأ إلى تشبيهِهِ بنفسِهِ؛ والتّقديرُ: وزَيَّنَ شُرَكاءُ المُشرِكينَ لكثيرٍ فيهم تَزيينًا مثلَ ذلكَ التَّزيينِ الّذي زيَّنُوهُ لَهم[2].

نُكتةُ إظهارِ فاعلِ التَّزْيينِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

أظهرَ فاعلَ التَّزْيينِ تَعجيبًا مِن أفعالِ المُشركينَ

ومعنى تَزيينِ ذَلكَ هنا؛ أنّ الشُّركاءَ خَيَّلُوا لهؤلاءِ النّاسِ أساليبَ بشعةً في التّقربِ إلى آلهتِهِم بقتلِ أولادِهِم؛ إذ أوهَمُوهُم أنّ في ذلك قُرْبَةً إليهم، أو أنّ إبقاءَهم سيجلبُ العارَ، وأنّ قتلَهُم سيحقِّقُ مَنافِعَ، فأتوهم من حيث يَسْهُلُ إقناعُهم وهي سُبُلُ (التّزيين) الّتي تَمْتَهِنُها الشَّياطينُ كتخويفِهِم من مَضرَّةِ الحاجةِ والعارِ في النّساءِ، وأنّ النّساءَ لا يُرجَى مِنهُنَّ نَفعٌ للقبيلةِ، وأنّهنّ يُجَبِّنَّ الآباءَ عندَ لقاءِ العدوِّ، ويُؤثِرنَ أزواجهُنَّ على آبائهِنَّ، فقتلُهُنَّ أصلحُ وأنفعُ من استبقائِهِنَّ على قيدِ الحياةِ، ونحو هذا مِنَ الشُّبَهِ والتَّمويهاتِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/98.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

ولمّا كانَ في هذا غايةُ الغَرابةِ تَشَوَّفَتِ النَّفسُ إلى فاعلِ التّزيينِ، فقال: ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾[1]. ونكتةُ إظهارِ فاعلِ التّزيينِ، وهم (الشّركاء) انسِجامًا مع تشبيهِ التّزيينِ في قتلِ الأولادِ؛ بما فعلُوهُ في تقسيمِ الحَرثِ والأنعامِ بينَ اللّهِ وشركائِهم؛ فهؤلاء الشُّركاءُ هُم سببُ ما أُلبِسَ على الـمُشرِكين في الدِّينِ من قتلِ الأولادِ. فإظهارُ فاعلِ التّزيينِ مَدعاةٌ للتَّعجيبِ من أفعالِ الـمُشرِكين.

تَوجِيهُ التّعبيرِ بالكَثْرةِ:

بيانُ بَشاعةِ تتابُعِ الأفعالِ الذّميمةِ، في المجتمَعاتِ القديمةِ

وقولُهُ: ﴿لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لدلالةِ ما هُم عليهِ من قبولِ الحالةِ، كمُجتمَعٍ مُشرِكٍ التبسَ عليه الدِّينُ، حتّى إنّه يُضحِّي بأعزِّ ما لديه ليجعلَهُ قُربانًا للشّركاءِ. والكثرةُ هنا بيانُ بشاعةِ ما آلَت إليه تلك الـمُجتمَعاتُ الرّافضةُ للرِّسالةِ السَّماويَّةِ، ودعوةِ الرَّحمةِ بالخَلقِ وبالنَّفسِ.

وذكرَ ابنُ عَاشُورَ قولَهُ: "وإنّما قالَ: ﴿لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لأنَّ قتلَ الأولادِ لم يكن يأتيهِ جميعُ القَبائِلِ"[2]، فلم يَنسبِ القتلَ إلى كلِّهم، بل نسبَهُ سُبحانَهُ إلى كثيرٍ منهم، وذلك إنصافُ القرآنِ الكريمِ في حكايةِ أفعالِ العبادِ، وأنَّ قتلَ الأولادِ كانَ عندَ كثيرين منهُم[3].

إضافةُ القَتلِ إلى الشُّركاءِ في قوله تعالى: ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾:

بيانُ دَوْرِ الشُّركاءِ في إفسادِ مُجتمَعاتِ الشِّركِ

وقولُهُ: ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾؛ أي: بالوَأدِ، وهوَ المقصودُ بقتلِ الأولادِ في هذه الآيةِ ونحوِها؛ إذ كانوا يَفعلونَ ذلك خَشيَةَ الفقرِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء: 31]، وخَشيَةَ أنْ تُفتَضَحَ الأُنثَى بالحاجَةِ إذا هَلَكَ أبُوها، أو مَخافَةَ الوقوعِ في العارِ، أو السِّباءِ. والوَأدُ ضَلالةٌ ابتدعَها مُجتمَعُ الشّركِ تخلُّصًا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2689.

مَعَرَّةِ الفَاقَةِ والعَارِ والسِّباءِ، وربَّما كانَ سَدَنَةُ الأصنام يُحَرِّضونَهم على إنجازِ أمرِ المَوءُودةِ إذا رَأوا من بعضِهم تَثاقُلًا، والمعنى: أنَّ شُركاءَهُم مِنَ الشَّياطينِ، أو مِن سَدَنَةِ الأصنام، زيَّنُوا لهم قتلَ أولادِهِم بالوَأدِ، أو بالنَّحرِ؛ وذلك قَصْدَ التّقرُّبِ إلى أصنامِهِم؛ فيُقرِّبونَ أولادَهُم إلى الأصنام طلَبَ رضائِهِم، فتكونُ إضافةُ القتلِ إلى الشُّركاءِ مُستعمَلَةً في حَقيقَتِها ومَجازِها(1).

نُكتَةُ تقديمِ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾، على الفاعِلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

العَـرَبُ تُـقدِّمُ الأهَمَّ في الكلام الّذي هو مَحطُّ العِناية

وفي الآيةِ تقديمُ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾ على الفاعلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، ونَظيرُه في القرآنِ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: 158]، وقولُهُ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: 124]، والسَّبَبُ في تقديمِ المَفعولِ: أنّ العَربَ يُقدِّمونَ الأهَمَّ في الكلامِ، الّذي هو مَحطُّ العِنايةِ، فَموضِعُ التَّعجُّبِ ها هُنا إقدامُهُم على قَتلِ أولادِهِم، فلِهذا السَّبَبِ حَصَلَ هذا التَّقديرُ(2).

نُكتةُ إسنادِ التَّزيينِ إلى الشُّركاءِ:

الشّياطينُ هُم سَببُ الإشراكِ والفَساد والطُّغيانِ

وأسندَ التّزيينَ إلى الشّركاءِ؛ إمّا لإرادةِ الشّياطينِ الشُّركاءِ، فالتّزيينُ تزيينُ الشّياطينِ بالوَسوَسَةِ، فيكونُ الإسنادُ على الحَقيقَةِ، وإمّا لأنّ التّزيينَ نشأ لهم عَن إشاعةِ كُبرائِهِم فيهم، أو بِشَرعٍ وَضَعَهُ لَهم مَن وَضَعَ عِبادَةَ الأصنامِ، وفَرَضَ لَها حُقوقًا في أموالِهِم، فَيَكُونُ إسنادُ التَّزيينِ إلى الشُّركاءِ على سبيلِ المَجازِ؛ لأنَّ الأصنامَ سَبَبُ ذلك بِواسِطةٍ، أو بِواسِطَتَينِ(3). وفي جميعِ الأحوالِ فإنّ الشّياطينَ هُم سببُ الإشراكِ والفسادِ والطُّغيانِ.

تَوجِيهُ القراءاتِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقرأَ الجمهورُ: ﴿زَيَّنَ﴾، ونصبَ: ﴿قَتْلَ﴾ على المفعوليّةِ لـ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

الشُّركاءُ هُم القاتِلون حقيقةً أو مَجازًا

﴿زَيَّنَ﴾، ورفعَ ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ على أنّه فاعلُ: ﴿زَيَّنَ﴾، وجرَّ ﴿أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ بإضافةِ ﴿قَتۡلَ﴾ إليه من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه. وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلُ أَوۡلَٰدَهُمۡ شُرَكَآئِهِمۡ﴾ ببناءِ فعلِ ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعولِ، ورَفعِ ﴿قَتۡلُ﴾ على أنَّه نائبُ الفاعلِ، ونَصبِ ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ على أنَّه مَفعولُ ﴿قَتۡلُ﴾، وخَفضِ هَمزَةِ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ بإضافةِ ﴿قَتۡلُ﴾ إليهِ، وهو فاعِلٌ في المعنى[1]، فَفَصَلَ بينَ المُضافِ، وهو ﴿قَتۡلُ﴾ وبينَ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾، وهو المُضافُ إليهِ بالمفعُولِ، وهو ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، وجرّ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ على إضافةِ ﴿قَتۡلُ﴾ إليه، من إضافةِ المَصدرِ إلى فاعلِه.

والمَعنَى على هذه القِراءةِ: أنَّ مُزَيِّنًا زَيَّنَ لكَثيرٍ من المُشركينَ أنْ يقتُلَ شُركاؤُهُم أولادَهُم، فإسنادُ القتلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمّا لأنَّ الشُّركاءَ سَبَبُ القَتلِ إذا كان القَتلُ قُربانًا للأصنامِ، وإمّا لأنَّ الّذين شَرَّعُوا لَهُمُ القَتلَ هُمُ القَائِمونَ بِدِيانَةِ الشِّركِ، وإذا كانَ المُرادُ بالقَتلِ الوَأدَ، فالشُّركاءُ سَبَبٌ، وإن كانَ الوَأدُ قُربَانًا للأصنامِ، وإنْ لم يكُنْ قُربانًا لَهُم؛ فالشُّركاءُ سببُ السَّبَبِ، لأنَّهُ من شرائعِ الشِّركِ[2]. والشُّركاءُ على هذه القِراءَةِ هُمُ الّذين يتناولونَ وأدَ بناتِ غيرِهم فهُم القاتِلون، وهذا على المجازِ العقليِّ؛ لأنّه قد أسندَ القتلَ إلى الشُّركاءِ.

اللّامُ لِلعاقبةِ أو لِلتّعليلِ، لبيانِ أثَرِ الشُّركاءِ في خَلْطِ الدِّينِ

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾، و﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾:

وقولُهُ: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ الإرداءُ في اللّغةِ: الإهلاكُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦﴾ [الصّافّات: 56]، واللّامُ هاهُنا مَحمولَةٌ على لامِ العاقبةِ، كما في قولِهِ: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القَصص: 8]، وقولِه: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾؛ أي: لِيَخلِطُوا؛ لأنَّ العَرَبَ كانوا على بقايا من دِينِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/102.

إسماعيلَ، فَهَذا الّذي أتاهُم بِهَذِهِ الأوضاعِ الفاسدةِ، أرادَ أن يُزيلَهُم عَن ذلكَ الدّينِ الحَقِّ(1).

قالَ الزّمخشريُّ: "إنْ كان التَّزيينُ مِنَ الشّياطينِ فهي على حقيقةِ التّعليلِ، وإن كانَ مِنَ السَّدَنَةِ فعلى معنى الصَّيرورةِ"(2)، فـ" السَّدَنةُ لم يزيِّنوا لهم ذلك، وغرضُهم إهلاكُهُم، ولكن لمّا كانَ مآلُ حالِهِم إلى الإِرداءِ أتى باللّامِ الدّالَّةِ على العاقبةِ والمآلِ"(3). فَاللَّامُ لِلعاقِبَةِ إنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ السّدنةَ(4)؛ أي: زيّنوا لهم ذلك قَصدًا لنَفعِهم، فانكشَفَ عن أضرارٍ جَهِلُوها. فإنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ الجِنَّ؛ أي: الشّياطينَ؛ فاللّامُ للتَّعليل(5)؛ لأنّ الإيقاعَ في الشّرِّ من طبيعةِ الوَسواسِ؛ لأنّهُ يَستَحسِنُ الشّرَّ ويَنساقُ إليهِ من غيرِ قصدٍ إلى كونِ ما يَدعُونَهُم إليه مُردِيًا ومُلبِسًا، فإنّهم أولياؤُهم لا يَقصِدُونَ إضرارَهُم، ولكنَّهُم لمّا دَعَوهُم إلى أشياءَ هي في نَفسِ الأمرِ مَضارٌّ كانَ تَزيينُهم مُعَلَّلًا بالإرداءِ والإلباسِ، وإنْ لم يَفقَهُوهُ، بِخِلافِ مَن دعا إلى سَبَبٍ فَتَبَيَّنَ خِلافُهُ، والضَّميرُ للشُّركاءِ والتَّعليلُ لِلتَّزيين(6).

سِرُّ تقديمِ (الإرداءِ) على (الإلباسِ):

الهلاكُ نَتيجةٌ حَتميّةٌ للإلباسِ في الدِّينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ قدّمَ الإرداءَ على الإلباسِ؛ والرَّدى: الموتُ، والهلاكُ، والضُّرُّ الشّديدُ، فناسبَ أن يُردِفَهُ شنيعَ فعلِهِم بقتلِ أولادِهِم، وعظيمَ مَفسَدَتِهِمۡ بإزهاقِ النّفسِ البريئةِ الّتي حرّمَ اللّهُ قتلَها إلّا بالحقِّ؛ فقوله: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾؛ أي: يُهلِكُوهم بالإغواءِ وهو إفسادُ الفطرةِ، الّذي يُذهِبُ بما أودعَ في قلوبِ الوالدين من عواطفِ الرّأفةِ والرّحمةِ، بل يقلبُها إلى مُنتهى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/70.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/179.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/104.

الوَحشيّةِ والقسوةِ، حتّى ينحرَ الوالدُ ريحانةَ قلبِهِ بمُدْيتِهِ، ويدفنَ ابنتَهُ الضّعيفةَ؛ وهي حيّةٌ بيدِهِ. فهذا إرداءٌ نفسيٌّ معنويٌّ فوقَ الإرداءِ الحسّيِّ؛ وهو القتلُ وتقليلُ النّسلِ"(1).

المعنَى المَجازيُّ لـلإرداءِ والإلباسِ، هو الأظهرُ دلالةً في الأساسِ

تَوجِيهُ لفْظَيِ: (الإرداءِ)، و(الإلباسِ) بينَ التَّوريةِ، والاستعارةِ، والمَجازِ:

ومن معاني التّردّي أيضًا لبسُ الرّداءِ؛ ثمّ أُتبعَت بقولِهِ: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾؛ إذِ التّناسبُ في معنى اللّبسِ بينَ الكلمتين بيّنٌ؛ فيكون معنى ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾ توريةً؛ لأنّ اللّفظَ يَحتمِلُ مَعنيين: الأوّلُ قريبٌ، وهو المُتبادَرُ إلى الذّهنِ؛ وهو الإرداءُ؛ مِن ارتداءِ الثّوبِ؛ لتناسبِهِ مَعَ الإلباسِ في قولِهِ: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾، الّذي يدُلُّ كذلك على معنى اللّباسِ؛ مِن لبسِ الثّوبِ. ولكنّه لمّا قالَ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ خرجَ المعنى الحقيقيُّ لقولِهِ: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾ إلى معنًى مَجازيٍّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، فكما أنّ اللِّباسَ يُغطّي الجَسَدَ؛ فَكَذلكَ هُنا شابَهَت تَزيينَ الشّياطينِ لأوليائِهم تغطيةَ الحقيقةِ، فصارَت كتغطيةِ الأجسادِ باللِّباسِ. وبحسبِ ذلك فقد انعكسَ معنى ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ إلى معنًى آخرَ غيرِ ارتداءِ المَلابسِ. فمن معاني الإرداءِ: الإيقاعُ في الرَّدَى، والرَّدَى: المَوتُ، ويُستعمَلُ في الضُّرِّ الشّديدِ مَجازًا، وذلكَ المُرادُ هنا، وكما قالَ تعالى عن أهلِ النّارِ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [فصّلت: 23]؛ أي: وذلكم ظنُّكُم السّيِّئُ الّذي ظننتُمُوه بربِّكُم أهلكَكُم، فأوردَكُم النّارَ. ولَبَّسَ عَليه أوقعَهُ في اللَّبسِ، وهو الخَلطُ والاشتِباهُ؛ أي: أنْ يَخلِطُوا عَلَيهم دِينَهُم، فَيُوهِمُوهُمُ الضّلالَ رُشدًا، وأنّهُ مُرادُ اللّهِ منهم، ويخلِطونَ عليهم بينَ ما يَرضاهُ اللّهُ، وما لا يَرضاهُ، ويُخيِّلُونَ إليهم أنّ وأدَ البَناتِ مَصلَحَةٌ.

فمعنى: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾؛ أنّهم يُحدِثُونَ لهم دِينًا

(1) رضا، تفسير المنار: 8/110.

مُختَلِطًا مِن أصنافِ الباطِلِ، وقيل: المُرادُ لِيُدخِلُوا عَليهِمُ اللَّبسَ في الدّينِ الّذي كانُوا عليه، وهوَ دينُ الحَنيفِيَّة، فَيَجعَلُوا فيه أشياءَ مِنَ الباطلِ تَختلِطُ مَعَ الحَقِّ[1].

بَلاغةُ الاختباكِ، في الآيةِ الكريمةِ:

حَـذْفُ أشْنعِ الأقوالِ والأفعالِ مِنَ الكلامِ

وفي عموم معنى الآيةِ احتباكٌ؛ والمعنى بحسْبِه: وكذلك زَيّنَ لكثيرٍ مِنَ المُشركينَ شركاؤُهم؛ فشرّعوا لهم، أو فأوحَوا إليهم قتلَ أولادِهم؛ فقتلوهم؛ ليُردوهُم، وليلبِسُوا عليهم دينَهُم. فحَذَفَ مِنَ الكَلامِ أشنَعَ ما فيه مِنَ القولِ والعَمَلِ؛ إذ حَذَفَ أوّلًا ما شَرَعَ، وما أوحَى الشَّياطينُ أو الشّركاءُ، ثمَّ حَذَف ثانيًا ما فَعلَه المُشركونَ؛ وهوَ المُباشَرَةُ بقتْلِ أولادِهم.

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

بيانُ قصْدِ الشّياطينِ، في إغواءِ النّاسِ المغرورِينَ

وقدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ للاهتمام بالمُشركينَ، ولبيانِ أنّهم هُمُ المقصودون في هذا العملِ الشّنيعِ، وأنّهم فريسةٌ سائغةٌ لشَياطينِ الإنسِ والجنِّ، بسببِ ما حقّقوهُ مِنَ الإلباسِ عليهِم في الدِّينِ ورفضِ الشَّرعِ الحَنيفِ.

التّعبيرُ عنِ الإرداءِ والإلباسِ، بصِيغةِ المضارعِ:

تجدُّدُ أفعالِ الشّياطينِ بالإيحاءِ والتّزيينِ للمُشركينَ

عبّرَ عنِ الإرداءِ والإلباسِ بالمُضارعِ لدلالةِ التّجدُّدِ مع الزّمنِ، فحالُ مَن أشركَ باللّهِ يتكرَّرُ في كلِّ وقتٍ، مع الأجيالِ المُختلِفَةِ والمُتواليَةِ، فتَتَكرَّرُ صورةُ الإرداءِ، ويَتكَرَّرُ ما يفعلُهُ الشّياطينُ مِنَ اللَّبسِ على أتباعِهِم في دينِهِم.

نِسبةُ (الدِّينِ) إلى ضَميرٍ عائدٍ على المشركينَ:

وقال: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾، فنَسَبَ الدِّينَ إلى ضميرِهِم، ولو قالَ: (وليَلبِسوا عليهم الدّينَ) لأشكلَ في الفهمِ بأنّه الدّينُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/104.

المُفاصَلةُ بينَ عبادةِ اللهِ وعبادةِ غيرِه، ممّا أوحى به الشّياطينُ.

الحَقُّ؛ وهو دينُ الإسلامِ، لكنّه لمّا قالَ: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ زالَ الإشكالُ، وعُلِمَ أنّ لهم دِينًا خاصًّا بهم، وأنّ شياطينَهُم يَلبِسُونَ عليهم الأمورَ، فيُخيّل إليهم أنَّه الدّينُ الحَقُّ، فيَعبدونَ غيرَ اللّهِ، ويَعمَلونَ بغيرِ ما شرعَ، فأردوهم بذلك الاعتقادِ والفعلِ؛ ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: 6]، مُبيِّنًا المُفاصَلَةَ بينَ عبادةِ اللّهِ وعبادةِ غيرِه، وأنّهما لا يَجتمِعان، وأنَّ دينَ الإسلامِ لا يُخالِطُ شيئًا من دينِ الشِّركِ، وتَأْييسًا لِلمُشركينَ مِن أن يوافقَهُم الرّسولُ ﷺ في شيءٍ ممّا هُم عَليهِ مِنَ الكفرِ.

تَعليقُ المَشيئةِ باسْمِ اللهِ جل جلاله.

بيانُ قُدرتِهِ على منْعِ تلك الأعمالِ، وردِّ كلِّ ما يقعُ إلى اللهِ سبحانَهُ

وقولُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ ما فعلَهُ المُشركونَ هو بمشيئةِ اللّهِ تعالى، والآيةُ لبيانِ قدرتِهِ سبحانَهُ على منعِ تلك الأعمالِ، كما كانَ في الآيةِ السّابقةِ من بيانِ قدرتِهِ على الخَلقِ منَ العَدَمِ، أو أنّه أنشأَ المُخاطَبينَ من ذرّيّةِ قومٍ آخرين. و﴿فَعَلُوهُۖ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَعَصَمَهُم من تَزيينِ شُركائِهِم، أو يَعُودُ إلى الشّركاءِ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لصدَّهُم عن إغواءِ أتباعِهِم، وضميرُ النَّصبِ يعودُ إلى القَتْلِ أو إلى التَّزيينِ على التّوزيعِ، على الوَجهَينِ في ضميرِ الرّفعِ(1). ولمّا كان أوّلُ الآيةِ مُعلِمًا أنّ هذا كانَ بمشيئةِ اللّهِ وجَعلِهِ، أيّدَ ذلك، ومكَّنَهُ في آخرِها؛ بأنّه لو شاءَ ما كانَ، وذلك تَنزيهٌ لصفَةِ الرُّبوبيّةِ مِنَ العَجزِ(2).

دَلالةُ الفاءِ في جُملةِ الفاصلةِ:

السّياقُ يُفيدُ الإعراضَ عن أفعالِ المُشركينَ الذّميمةِ

والفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ الفصيحةُ، تدُلُّ على مَحذوفٍ، فتُفصِحُ عنه، والتّقديرُ: فإذا كانوا مُصرِّينَ على ما هُم عَليه مِنَ الضَّلالةِ؛ فذرْهُم وما يفترونَ، أو هي فاءُ التّفريعِ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/105.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/696.

ومُفادُ التَّفْريعِ أمرُ الرّسولِ بتَركِهم، وهو لَونٌ مِنَ التّذييل[1]، ومعلومٌ أنّ التّركَ إعراضٌ عنِ الاهتمامِ بما يَفعلون، وليسَ إعْراضًا عَن دعوَتِهم للدّينِ الحَقِّ، وهو دينُ الإسلامِ؛ أي: أعْرِضْ عَن أفعالِهم مِمّا اقترَفوهُ ظَنًّا منهم أنّهُ دينٌ، وتابِعْ دعوتَهم إلى دينِ اللّهِ تعالى.

اصطفاء كلمة: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، ودلالته في الجملة الإنشائية:

وفي قولِهِ: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾، اُصطُفِيَ لفظُ (ذَرۡهُمۡ) على غيرِهِ مِنَ الألفاظِ المُؤَدِّيَةِ إلى المَعْنَى مثل: اترُكْهُم أو دَعْهُم؛ فمِن بلاغةِ اختيارِ مفردةِ ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ أنّ معناها يُستعمَلُ في تركِ الشّيءِ غير آبهٍ بهِ؛ يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُهُ لقلّةِ اعتدادِهِ بهِ. والعبارةُ تتضمّنُ الوعيدَ والتّهديدَ، ومُفَادُهَا: اترُكْهُم وما يفترون مِنَ التّكذيبِ[2].

الإعــــراضُ عـنهم إعـراضٌ عـن الاهـتـمـام بـغـرورهـم، لا إعــراض عـن وعـظـهـم وتذكيرهم

وقولُهُ: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾، وهذا على طريقةِ قولِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصّلت: 40]، وقال ابن عاشور: "وفرّع عليه أمر الرسول ﷺ بتركهم وافتراءهم، وهو ترك إعراضٍ عن الاهتمام بغرورهم، والنَّكَد منه، لا إعراضٍ عن وَعْظهم ودعوتهم"[3].

والغرضُ مِنَ السّياقِ الإعلامُ بأنّ هذه سُنّةُ اللّهِ في خلقِهِ؛ فكثيرٌ منهُم لا يؤمنونَ ويتّخذونَ لهم أربابًا يُشرّعونَ لهم دِينًا غيرَ دينِ اللّهِ، فيردُوهم ويُلْبِسُوا عليهم الأمورَ. وأمثالُ هؤلاءِ يقتضي تركُهُم وعدمُ إضاعَةِ الوَقتِ مَعَهم، والرّدُّ على تخرُّصاتِهِم؛ لأنَّهم قد طُبِعَ على قُلُوبِهِمْ، ولو شاءَ اللّهُ لَهَداهُم.

التَّعبيرُ عنِ المُفترَى بالموصولِ ﴿وَمَا﴾:

بـيـانُ شَـنـيـعِ أقـوالِـهـم وأفعالِهِم

في قولِهِ: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ عبّرَ عنِ المُفترَى بالموصولِ

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/11.

﴿وَمَا﴾، وفائدةُ ذلك التّعريضُ بذكرِ الصّلةِ بشناعةِ الّذي يفترونَه، فجِيءَ بـ ﴿وَمَا﴾ مَوصُولًا بقولِه: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ لبيانِ أنّ ما يقولونَهُ هو افتراءٌ مُنْكَرٌ لا أصلَ لهُ، فقد سوَّلَت لهم أنفسُهُم، وأوحَت إليهم شياطينُهم قولَهُ أو فعلَهُ.

إيثارُ لفْظِ (الافتراءِ) على (الكذبِ):

الافتراءُ كذِبٌ في حقِّ الآخَرِ، وهو أخصُّ مِنَ الكذبِ

الكذبُ: هو عدمُ مُطابَقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخْبَرِ لهما على خلافٍ في ذلك. والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرتَضيه، بِخِلافِ الكَذِبِ، فإنَّهُ قد يَكونُ في حقِّ المُتكلِّمِ نفسِه، ولذا يُقالُ لِمَن قالَ: (فعلتُ كذا، ولم أفعَلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحدًا بما ليسَ فيه، يُقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وَصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، لأنَّ في ذلك مِمّا يرتَضيهِ المَقولُ فيه غالبًا. وقال سُبحانَهُ حكايةً عنِ الكُفّارِ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]؛ لِزَعْمِهم أنَّهُ أتاهُم بما لا يَرتَضيهِ اللّهُ سبحانَه مع نسبَتِهِ إليه. ونَسَبَ الكفّارُ النّبيَّ ﷺ بأبشعِ الكذبِ في قولِهم: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [النّحل: 101]؛ أي: بأنَّه كاذبٌ مُختَلِقٌ على اللّهِ ما لم يَقُلْهُ، وهو ﷺ ليسَ كما يَزعمونَ. وأيضًا قد يَحْسُنُ الكذبُ على بعضِ الأحوالِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وهذا بخلافِ الافتراءِ[1].

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنّهم كانوا يقولون: (إنّ اللّهَ أمرَهُم بقتلِ أولادِهم)، فكانوا يَفترونَ على اللّهِ كذبًا وزُورًا[2]؛ فما يفترونَهُ على اللّهِ فيدّعون أنّه أمرَهُم بما اقترفُوه، ومَعلومٌ أنّ افتراءَهُم هذا ناتجٌ عن كبيرةٍ أخرى؛ هي اتّباعٌ لافتراءِ شركائِهم،

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/105.

فسَمّاهُ افتراءً؛ لأنَّهُم تَقلَّدُوه عن غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، فجَعَلَهم مُشارِكين لشياطينِهم مِنَ الجنّ والإنسِ فيما يَفتَرون، وقد كانوا يُموِّهُونَ على النّاسِ أنَّ هذا مِمَّا أمرَ اللّٰهُ بِه، كما دَلَّ عليه في الآيةِ التّاليةِ قولُهُ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ [الأنعام: 138].

صِيغةُ التّعبيرِ عن فعْلِ الافتراءِ بالمضارعِ المَجموعِ:

افتراؤُهُم يقعُ من غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، بتجدُّدٍ وتَمالُؤٍ

آثَرَ التّعبيرَ عنِ افترائِهم بالمضارعِ للدّلالةِ على ديمومةِ فعلِهم هذا، وتجدُّدِهِ فيهم خصلةَ سوءٍ، ورديَّ طبْعٍ؛ وهذا يناسبُ الأمرَ بتركِهم، فحَريٌّ أَنْ يُهْجَرَ مَنْ يُكَرِّرُ الافْتِراءَ، ويُصرُّ عليه. وعبّرَ بصيغةِ الجمعِ للدّلالةِ على كثرةِ صدورِ هذا الفعلِ منهم، واجتماعِهم، وتمالُئِهم عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ذَرْهم) و(دَعْهم) و(اتْرُكْهم):

الـوَذرُ تركُ ما لا قيمةَ لـهُ، على خلافِ الدَّعةِ

قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وردَت في القرآنِ الكريمِ أكثرَ من عشرِ مرّاتٍ، منها في هذه السّورةِ الغرّاءِ: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]، و﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112 - 137]، ومن ذلك صيغة: يَذَرُ، ذَرْ، وَذْرًا، ووَذَرَ عملَهُ: تركه[1]، وَذَرَ (الوَذْرَةَ) وَذْرًا: بَضَعَها بَضْعًا وَقَطَعها[2]. والاختلافُ بينَ (دَعْ) و(ذَرْ) أنّ: (دَعْ) و(يَدَعُ) يُستعمَلان فيما لا يُذَمُّ مُرتَكِبُه، لأنّهُ مِنَ الدَّعةِ وهيَ الرّاحةُ، وَلذا قيلَ لمُفارَقَةِ النّاسِ بَعضِهِم بَعضًا موادَعَةٌ وعَدَمُ اعتِداءٍ. فَلِذا قالَ تَعالَى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصّافات: 125]، دونَ أن يقولَ: (وتَدَعونَ)، مع ما فيهِ مِنَ الجناسِ[3]. وأمّا التَّرْكُ؛ فهو تَرْكُ الشَّيءِ: فرفضُهُ قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمَنْ

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2420.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 14/355.

(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 22/303.

الأوّلِ: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]، وقوله: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ [الدّخان: 24]، ومِنَ الثّاني: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ [الدّخان: 25][1].

(يَفترونَ) و(يَكذِبونَ) و(يَبهتونَ):

الافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذبِ، والبُهتانُ هو افتراءٌ ومُكابرةٌ

يَفترونَ: الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للإصلاحِ، والإفرَاءُ للإفسادِ، والافتِرَاءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ، وكذلك استُعمِلَ في القرآنِ في الكذبِ والشّركِ والظّلمِ، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 48]، وكثيرًا ما أتى الافتراءُ مَقرُونًا بالكذبِ؛ مثل قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النِّساء: 50]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103]، ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [يونس: 60]، ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾ [هود: 50]، وقوله: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، قيل: معناه عظيمًا، وقيل: عجيبًا، وقيل: مَصنوعًا، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى معنًى واحدٍ[2]. والافتراءُ: أَخَصُّ مِنَ الكذبِ؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغيرِ بما لا يَرتضيه[3].

وأمّا يُكذِّبون فيُقالُ الكذبُ في المَقَالِ والفِعالِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [النّحل: 105]، يُقالُ: رجلٌ كَذّابٌ وكَذُوبٌ؛ وذلك للمبالغة، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التّوبة: 90]، يُقالُ: أَكْذَبْتُهُ: وجدتُهُ كاذبًا، وكَذّبْتُهُ: نسبتُهُ إلى الكذبِ صادقًا كان أو كاذبًا، وما جاءَ في القرآنِ ففي تَكْذيبِ الصّادقِ، نحو: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11]، ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾ [المؤمنون: 26]، ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ق: 5]. وأمّا البُهتانُ فهو الكَذِبُ الّذي يواجَهُ به

(1) الرّاغب، المفردات: (ترك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

صاحبُهُ على وجهِ المُكابرةِ له، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النّساء: 156]؛ فإنّ اليهودَ كانوا يُواجِهونَ مريمَ عليها السلام بالقذفِ، وينسبونَها إلى ما لا ينبغي مِنَ القولِ بالمُشافهةِ(1).

ولذلك آثرَ النّظمُ استخدامَ فعلِ الافتراءِ لمعناه الدّقيقِ ودلالتِهِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ على صنيعِ المُشرِكينَ مِنَ الكذبِ في حقِّ اللّهِ وشرعِهِ بما لا يَرتَضيهِ، وأنَّ افتراءَهم حصلَ منهم من غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، وهو مُتجدِّدٌ فيهم، مع اجتماعِهم وتمالُئِهم عليه.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ [الأنعام: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُواصلةُ ذِكرِ أنواعٍ مِن أحكامِ المشركين الجائرة، في التَّحليلِ والتَّحريم

لـمَّا ذكرَ اللّهُ بعضَ جهالاتِ المشركينَ في تحريمِ أشياءَ وتحليلِها بباعثِ الأهواءِ والخرافاتِ الوثنيَّة، ثمَّ ذكرَ إقدامَهم على قتلِ الأولادِ - وهو أمرٌ مُستقبَحٌ شرعًا وعقلًا - ذكرَ هنا أنواعًا من أحكامِهم الفاسدةِ، ممَّا حرَّمُوه من غيرِ إذنٍ منَ اللّهِ، ممَّا يتعلَّقُ بالأنعامِ، وهي البحيرةُ والسَّائبةُ والوصيلةُ والحامي[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجۡرٞ﴾: الحَاءُ والجِيمُ والرَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنْعُ والإِحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسَانِ، وقَد تُكسَرُ حاؤُهُ، ويُقالُ: حَجَرَ الحاكِمُ على السَّفيهِ حَجرًا، وذلِكَ مَنعُهُ إيَّاهُ مِنَ التَّصرُّفِ فِي مَالِه، والعَقلُ يُسَمَّى: حِجرًا؛ لأَنَّهُ يَمنَعُ من إتيانِ مَا لا يَنبَغِي، كما سُمِّيَ عَقلًا تَشبيهًا بِالعِقَالِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: 5]، والحِجْر: الحرام بلغةِ قريش[2].

2) ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾: الزَّعمُ والزُّعمُ والزِّعمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَولُ، زَعَمَ زَعمًا وزُعمًا وزِعمًا؛ أَي: قَالَ، وَقِيلَ: هُوَ القَولُ يَكونُ حَقًّا ويَكونُ باطِلًا، وأَنشدَ ابنُ الأعرابي لأُمَيَّةَ فِي الزَّعمِ الَّذِي هُوَ حَقٌّ:

(1) سبق ذكر معانيها في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103].

(2) أبو عبيد القاسم بن سلاّم، لغات القبائل الواردة في القرآن، بهامش تفسير الجلالين: 2/69، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).

وإنّي أذينٌ لكُمْ أنَّه *** سَيُنجِزُكم ربُّكم مَا زَعَم[1]

وقالَ اللَّيثُ: سَمِعتُ أَهلَ العَرَبيَّةِ يَقولونَ: إذا قِيلَ: ذَكَرَ فُلانٌ كذا وكذا؛ فإنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ لأمرٍ يُستَيقَنُ أنَّه حَقٌّ، وإذا شُكَّ فيه؛ فَلَم يُدرَ لَعَلَّهُ كَذِبٌ أو بَاطِلٌ، قِيلَ: زَعَمَ فُلانٌ، قَالَ: وكذلِكَ تُفَسَّرُ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أَي: بِقَولِهِمُ الكَذِبَ، وَقِيلَ: الزَّعمُ الظَّنُّ، وقِيلَ: الكَذِبُ، زَعَمَهُ يَزعُمُهُ، والزُّعمُ تميميَّةٌ، والزَّعمُ حِجَازيَّةٌ[2]، والزَّعمُ بمعنى: الكذب والباطل بلغةِ حمير[3].

3) ﴿سَيَجْزِيهِم﴾: الجَزاءُ: المُكافأةُ على الشَّيءِ، جَزاهُ بِهِ وعليهِ جَزَاءً، وجازَاه مُجازَاةً وجِزاءً، ويُقال: جَزَيْتُه على عَمَلِهِ، أيْ: كافَأْتُه. وهو ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ[4]، ويصدقُ في الثَّوابِ والعقابِ؛ لأنَّ ما يُستخرَجُ مِنَ الشَّيءِ جزءٌ منه، وهو من جنسِهِ حلوًا أو مرًّا ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشّورى: 40][5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حِجاجُ المشركينَ حـولَ بهيمةِ الأنعامِ، وأحكامِهم الجاهليّةِ فيها؛ إباحةً وحَظْرًا

تُلقي الآيةُ الضَّوءَ على محاجةِ القرآنِ الكريمِ المشركينَ في أمورٍ عقديَّةٍ، تتعلَّقُ ببعضِ تشريعاتِهِم الجائرةِ، وبمواقفِهم المتعدِّدةِ من بهيمةِ الأنعامِ؛ بالإباحةِ والحظرِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ.

قالَ المشركون: هذه الأنعام والزروع حِكْرٌ على الأصنام، وكانوا إذا عيَّنوا أشياءَ مِن حرثِهِم وأنعامِهم لآلهتِهم قالوا: لا يَطعَمُها إلّا مَن نشاءُ، بِقولِهِم بالظّنِّ المَشوبِ بالكذبِ، ثمّ لا يطعمونها إلّا خدمَ الأوثانِ، والرِّجالَ دونَ النِّساءِ، ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾: هي البحائرُ، والسَّوائبُ، والحوامي، ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾

(1) البيت منَ المتقارب، لأميَّة بن أبي الصَّلت، وهو في ديوانه، ص: 113.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(3) ابن سلاّم، لغات القبائل: 2/251، وابن حسنون السّامريّ، اللّغات في القرآن، ص: 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جزى).

حالة الذَّبح، وفي حالاتٍ أخرى، وإنّما يذكرون - إن ذكروا - أسماءَ الأصنام ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: قسّموا أنعامَهم: فقسمٌ حِجْر، وقسمٌ لا يرْكبُ، وقسمٌ لا يُذكَرُ اسمُ اللّهِ عليها، ونسبُوا ذلك إلى اللّه افتراءً عليهِ، فتوعَّدَهُم اللّهُ بمحاسبتِهم على هذا الافتراءِ، واللّه منه بريءٌ، وما كانَ لأحد أن يُحرِّم أو يُحَلِّل إلَّا بإذنِ اللّهِ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: 59][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ جُملة: ﴿وَقَالُواْ﴾ بالسَّابقةِ بحرفِ الواو:

اشـتراكُ الجُملتَين، في بيانِ ما عليه المُشركون مِنَ الافتراءِ والبُطلانِ

قولُه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾ عطفٌ على الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾، "وفي هذا العطفِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قالُوه هو من تلقينِ شركائِهم وسدنةِ أصنامِهم"[2].

وفي إيرادِ هذا القولِ تَعدادٌ لنوعٍ آخرَ من افتراءاتِهم، وفيه استهجانُ صدورِ هذه القالةِ عنهم وتقبيحُها، ومزيدُ التَّشنيعِ عليهم بها، وإقامةُ السَّامعِ مقامَ الحَكَم على تبعيدِ هذا القولِ من دائرةِ العقلِ والحكمةِ، ثُمَّ لإبرازِ حيثيَّاتِ الحُكم عليهم، باستحقاقِهم المخبَّأ المُجْمَلَ المتوَعَّدَ به في خاتمةِ الآيةِ، فهو يقودُ إلى أنَّ أوّلَ الآيةِ مُمَهِّدٌ ومُفْضٍ إلى آخرِها في استدعاءٍ طَبْعيٍّ عجيبٍ، ودلالةُ ذلك على أنَّ القرآنَ يستقصي تتبُّعَ الأباطيلِ المُضلَّةِ والعقائدِ الفاسدةِ بردِّها ودحضِها مِن تَوَلّي اللّهِ كفايةَ عبادِهِ ورحمتَه بهم وغَيْرتَهُ عليهم.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/659، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/45 - 46.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

نُكْتَةُ إيثارِ الفعْلِ من مادّةِ (قول):

مِنَ الإنصافِ عَرْضُ الأقوالِ، وعدمُ التّسرُّعِ في تكذيبِهَا دونَ دليلٍ

آثرَ التَّعبيرَ بالقولِ ﴿وَقَالُواْ﴾؛ لأنَّ القولَ أعمُّ من غيرِه، وللحضِّ على الإنصافِ في الحكمِ على قولِهم، وإن كان ظاهرَ البطلانِ، دونَ الادِّعاء، أو الحكمِ كما قالَ لهم: ﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: 39]، أو الزَّعْمِ كما في: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾ [الأنعام: 94]؛ فهذه الأفعالُ تشيرُ إلى كذبِهم منَ البدايةِ، فليسَ ثمَّةَ مجالٌ لسماعِهم، فضلًا عن مناقشتِهم.

فائِدةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضيّ ﴿وَقَالُواْ﴾:

ضَرورةُ الاعتبارِ والاسْتبصارِ، وبيانِ اضْمحلالِ الباطلِ وتَلاشِيه

حكايةُ نوعٍ من أنواعِ كفرِهم الماضيةِ لتسجيلِ ذلك عليهم؛ وليعتبرَ به غيرُهم، والقرآنُ يدعو أتباعَه إلى قولِ الحقِّ، والَّتي هي أحسنُ - هذا المضيُّ دلالةٌ على تقضِّيه، لكنَّ الشّرَّ مهما يكن قليلًا، فإنَّه لا يُرخَّصُ في شيءٍ منه؛ حتَّى إذا ما قالَ قائلٌ بحقٍّ: إنَّه قولٌ تافهٌ حريٌّ ألَّا يؤبه له، وأنَّه أُغفِلَ، أو أُهمِلَ لم يكن بذلك على المسلمين بأسٌ، ولا سيّما أنّ مُضيَّهُ دليلُ اضمحلالِه ونذيرُ تلاشيه وفنائِه - وأيضًا فقولُهُ: ﴿وَقَالُواْ﴾ دعوةٌ للبصرِ بما فيه من جهالةٍ؛ لأنَّ القرآنَ كتابُ العقلِ والعلمِ.

سِرُّ العُدولِ إلى الماضِي:

قُرْبُ زوالِ أحكامِهِم الفاسدةِ وتحقُّقِ تَلاشِيها

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في: ﴿وَقَالُواْ﴾، وعُدِلَ عنِ المضارعِ: (ويقولون) أو المصدرِ: (وقولهم)؛ للإلماحِ المُلِحِّ المضيءِ أنَّ انقضاءَ الجاهليَّةِ وانمحاءَ لَوْثَاتِها[1] وشيكٌ وقادمٌ، بارتباطِ الفعلِ الماضي بزمنٍ مُنقَضٍ فائتٍ.

دَلالةُ إسنادِ القولِ إلى واوِ الجمْعِ: ﴿وَقَالُواْ﴾:

لا شكَّ أنَّ جماعةً منَ المشركينَ هُمُ الّذين قالُوا ذلك، غير أنَّ

(1) اللَّوثُ: الشَّرُّ، واللَّوثُ: الجِراحاتُ، واللَّوثُ: المُطالباتُ بالأحقاد.

إشْراكُ السّاكتِينَ في جريمةِ الافْتراءِ

القرآنَ الكريمَ، يشيرُ إليهم بواو الجماعةِ، وإنْ لم يقولوا جميعًا، وفيه إشارةٌ إلى إطباقِ الجاهليِّين قبلَ الإسلامِ على المعتقداتِ والأعرافِ الجاهليَّةِ، ومع ذلك فلم يأتِ لهم باسمٍ ظاهرٍ، وأقامَ المضمرَ مقامَهُ؛ لأنَّ السَّاكتَ عنِ الحقِّ شيطانٌ أخرس، والنَّاطقَ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ[1]، والمقرَّ للمُنكَرِ كفاعلِه، والرّاضي به كفاعلِه؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا عُمِلَتِ الخطيئةُ في الأرضِ؛ كان مَن شهِدَها فكرِهَها كمَن غابَ عنها، ومَن غابَ عنها فرضيَها كانَ كمَن شهِدَها»[2].

وفيه دخولُ مَن لم ينحطَّ إلى هذهِ الرُّتبةِ بالإيغالِ في الضَّلالِ والوثنيَّةِ المتصدِّرةِ للإغواءِ والإلهاءِ فيمَن تدنَّسَ بأوحالِها، وتولَّى كِبرَها؛ إذْ رضيَ وتابعَ؛ فتلك واوُ الجميع.

وقد نسبَ اللّهُ عَقْرَ النَّاقةِ لقوم ثمود جميعًا، مع أنَّ عاقرَها واحدٌ في قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: 65]، وذلك لموافقتِهم عليه، فاشتركوا في الإثم.

مغزَى استعمالِ اسْمِ الإشارةِ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

الإجمالُ لبيانِ فسادِ شرْعِ الجاهليّين الفاسدِ

في ذكرِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما جعلُوهُ لآلهتِهم[3]، وفيه إجمالٌ لمناسبةِ الغرضِ المَسوقِ له الخبرُ، وهو بيانُ فسادِ معتقداتِهم وشرعِهم[4]، كما أنَّ الإجمالَ هنا يتناسبُ ومكيَّةَ سورةِ الأنعامِ، والتَّفصيل يتناسبُ ومدنيَّةَ سورةِ المائدةِ.

النُّكْتَةُ في حرفِ التَّنبيهِ والتَّأنيثِ فيه:

أُوثِرَ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الّذي للقريبِ، ودخلَت عليه (ها)

---

(1) هذه مقولةٌ، نُسِبَت إلى أحدِ السّلفِ، وهو أبو علّي الدّقّاق، كما ذكر القشيريّ رحمه الله، الرّسالة القشيريّة، ص: 62، وليس حديثًا.

(2) أبو داود، السنن، الحديث رقم: (4345)، وإسنادُه حَسنٌ، من أجل أبي بكر - وهو ابن عيّاش -، وشيخه مغيرة بن زياد الموصليّ، وأخرجه ابن قانع في معجم الصّحابة: 2/309، والطّبرانيّ، المعجم الكبير: 17/345، وأبو نعيم، أخبار أصبهان: 1/333، من طريق أبي بكر بن عيّاش، بهذا الإسناد.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

التَّنبيه؛ لبيانِ حضورِ المشارِ إليه في أذهانِهم وقتَ التَّكلُّم، وشعورِهم بامتلاكِ الأنعامِ والحرثِ، وأنَّ لهم حقَّ التّصرُّفِ فيها كيفَما شاؤوا، وحيثُما أرادوا.

بيانُ حضورِ المُشارِ إليه في أذهانِهم وقْتَ التَّكلُّمِ

وجاءَ اسمُ الإشارةِ مؤنَّثًا من أجلِ الخبرِ[1]﴿أَنۡعَٰمٞ﴾؛ ولأنَّ الإجمالَ كائنٌ فيها، وعطفَ (حرث) على الخبرِ.

فائدةُ تقديمِ الأنعامِ على الحرْثِ:

الأنعامُ من أصُولِ الأموالِ ذاتِ القِيمةِ عندَ العربِ

نلحظُ اختلافَ التَّرتيبِ في ذكرِ (الأنعام) قبلَ الحرثِ هنا؛ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لبيانِ فسادِ شرعِهم في أصولِ أموالِهم، وتقديم الحرث على الأنعامِ في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ [الأنعام: 136]؛ لأنَّها في بيانِ فسادِ شرعِهم في نتائجِ أموالِهم، كما أنَّ ذكرَ (الأنعام والحرث) مُجتَمِعَينِ فيما جرى على ألسنتِهم من مَقولٍ مَحكيٍّ يشيرُ إلى بعضِ خصائصِ البيئةِ القبليَّةِ بمكَّةَ، وسماتِها في عصرِ المَبعَثِ ووقتِ التَّنزيلِ، ويعينُ على فهمِ طبائعِ القوم، ومعرفةِ نفائسِ أموالِهم.

سِرُّ الجمْعِ في الأنعامِ ﴿أَنۡعَٰمٞ﴾:

الأنعامُ تَشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ برُمّتِها

الأنعامُ جمع (نَعَم)، وأُوثِرَ الجمعُ؛ لأنَّ الأنعامَ تشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ، حتَّى إنَّ بعضَهم أَدخلَ فِيهَا الظّباءَ وحُمرَ الوَحش؛ تعلُّقًا بقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة: 1]، والنَّعمُ تُطلَقُ على الإبلِ خاصَّةً، أو الماشيةِ الّتي فيها الإبل، وسُمِّيَت بذلكَ؛ لأنَّها من أعظم النِّعم عندَهم[2]، فكان ذكرُ (الأنعام) بصيغةِ الجمع أنسبَ للسِّياقِ؛ حيث إنَّها مدارُ زعمِهم، وعليها تُعقدُ أحكامُهُم المتعدِّدةُ المفتراةُ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.

(2) الرّاغب، المفردات: (نعم)، والحريريّ، درّة الغوّاص، ص: 240.

الحـرث أصـل نتاج الـزَّرع على اختلاف أنواعه

مَجيءُ (الحرث) بصِيغةِ المصدَرِ: ﴿وَحَرۡثٌ﴾:

الحرثُ مصدرُ حرثَ الأرضَ؛ إذا شقَّها بآلةٍ تشقُّ التُّرابَ؛ لتُزْرَعَ في شقوقِهِ زريعةٌ، أو تُغرسَ أشجارٌ، وهو هنا مُطلَقٌ على معنى اسم المفعولِ، والحرثُ: الزّرعُ، وسُمِّي بذلك؛ لأنَّه يخرجُ منَ الأرضِ بذلك ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عمران: 117]، فهو مالٌ ناتجٌ عنِ الحَرْثِ، فعبَّرَ بالمصدرِ؛ لأنَّه أصلُ نتاجِهِم منَ الزَّرعِ على اختلافِ أنواعِهِ، إيماءً منهم بأنَّ ما حرَّموه هو من عملِهِم وكسبِهِم، فكأنَّهم زعمُوا أنَّ مَن حرَثَ له حقُّ التَّحريمِ.

الـحَـرثُ أوسـعُ في الـدِّلالـةِ من المَحروثِ، ويقعُ على كلِّ ما يُزرَعُ

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في تسميَةِ الزَّرعِ حَرثًا:

وإطلاقُ الحرثِ على المحروث وأنواعه إطلاقٌ مُتعدِّدٍ، فيُطلَقُ على الأرضِ المجعولةِ للزَّرعِ أو الغرسِ[(1)].

وأُوثِرَ التّعبيرُ بالحَرْثِ بدلًا منَ الزَّرعِ؛ لأنَّه أوسعُ في الدّلالةِ؛ فهو منَ الـمُشترَكِ اللَّفظيِّ؛ إذ إنَّه يُطلَقُ على الزّرعِ، وعلى إصلاحِ الأرضِ للزّرعِ، ويقعُ على كلِّ ما يُغرَسُ، ويُزرَعُ من أصنافِ النَّباتِ، كما يُطلَقُ على محلِّ نماءِ الزّروعِ والثّمارِ، ويكونُ الحرثُ مع كلِّ عملٍ.

وممَّا ينبغي التَّنبيهُ إليه أنَّ عملَ العبدِ في الأرضِ يُسمَّى حرْثًا، ولا يُسمَّى زرْعًا؛ لأنَّ الزَّارعَ في الحقيقةِ هو اللّهُ تعالى، وقد جاءَ النَّهيُ في الحديث عَن أبِي هُرَيرَةَ قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «لا يَقولَنَّ أحَدُكم: زَرَعتُ، ولكِن لِيَقُلْ: حَرَثتُ»، قالَ أبو هريرةَ: ألَم تَسمَعْ إلى قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]."[(2)]، وهو نهيُ إرشادٍ وتأديبٍ، لا نهيُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/371.

(2) إسناده جيّد، وهو في معجم شيوخ أبي يعلى، الحديث رقم: (292)، وفي صحيح ابن حبّان: 7/490 - 491، والحديث رقم: (5693)، وأخرجه الطّبرانيّ في الأوسط: 2/149، والبيهقيّ في السنن الكبرى: 6/138، والحديث رقم: (11752)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رقم: (6593).

حظرٍ وتحريمٍ؛ لأنَّ نِسْبَةَ الزّرعِ إلى الآدميّ من قبيلِ المجازِ العقليِّ[1] كما في الحديث: «مَا مِن مُسلم يغرسُ غرسًا، أو يزرعُ زرعًا فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلّا كان له به صدقة»[2].

وفي مجيءِ ﴿وَحَرۡثٌ﴾ في هذا المَوضعِ حِكَمٌ ساميةٌ، ومعانٍ هاديةٌ، وإيحاءاتٌ إلى توجيهاتٍ رفيعةٍ وحججٍ ظاهرةٍ، منها: ردُّهم إلى إحساسِهم بحاجتِهم وافتقارِهم إلى اللهِ الخالقِ الزَّارعِ، وأنَّه سبحانَه واحدٌ لا شريكَ له، وأن لا إله إلّا هو، فليعبدوه وحدَه مُخلِصينَ له الدّينَ.

دَلالةُ تنكيرِ ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾:

إفادةُ تخصيصِ أنواعٍ مُعيَّنةٍ من الصِّنفَيْن

نلحظُ مجيءَ كلمتي ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾ نكرتين، والغرضُ هو التَّخصيصُ؛ لأنَّهم أرادوا تخصيصَ أنواعٍ مُعيَّنةٍ منهما، وقد وردا مَعْرِفَتَيْنِ في سياقِ تفضيلِ معالي الأمورِ على الشَّهواتِ مُطلقًا، وذلك في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14].

سِرُّ اختيارِ كلمةِ ﴿حِجۡرٞ﴾:

اللّفظُ يُفيدُ المنعَ والحُرمَةَ مع صَلابةِ الرَّأيِ

(حِجْرٌ): على وزن (فِعْل) بمعنى مفعولٍ، كالذِّبحِ والطِّحن، ويستوي في الوصفِ به المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والواحدُ والجمعُ؛ لأنَّ حكمَهُ حكمُ الأسماءِ غيرِ الصِّفاتِ[3].

ويُقصَدُ بـ﴿حِجۡرٞ﴾ المنعُ والحُرْمةُ لغرضِ الحفظِ؛ أي: إنَّ بعضَ الأنعامِ والحرثِ مَحجورٌ؛ أي: ممنوعٌ منَ التَّصرُّفِ فيه.

---

(1) هو إسنادُ الفعلِ أو ما في معناه إلى غيرِ ما هو له لعلاقةٍ، مع وجودِ قرينةٍ تمنعُ إرادةَ الإسنادِ الحقيقيِّ.

(2) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (2320)، ومسلم، الحديث رقم: (1552).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

ولم يقُل: (وحَرْثٌ حِرْمٌ) مع اتِّفاقِهما وزنًا، وتناسبِهما جَرْسًا، غير أنَّ (حِرْم) بمعنى: حَرام أو ممنوع، ليس مقطوعًا به؛ فقد اختُلِفَ في معناها، فمنهم مَن أبقاها على معنى المنعِ، ومنهم مَن فسَّرَها بالضِّدِّ؛ أي: هي واجب، وقد قُرِئَ به[1] في لفظِ (حَرَام) في قولِه تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [الأنبياء: 95]، قال الخليلُ: أي: واجبٌ عليهم حَتمٌ لا يرجعون إلى الدُّنيا بعد ما هَلَكُوا[2].

فاختيارُ كلمةِ ﴿حِجۡرٌ﴾ للتَّعبيرِ عن هذا المعنى يناسبُ السِّياقَ؛ إذ إنَّ هذا المنعَ من قِبَلِ أنفسِهِم، وليس من تشريعِ اللّهِ تعالى، فالحرامُ مُراعًى فيه مصالحُ العبادِ، فلا هوًى للمُشَرِّعِ فيه، ولا حرجَ على النَّاسِ، ولكنَّ الحِجْرَ فيه صلابةُ الحَجَرِ وقساوتُه؛ أي: عدم المرونةِ، وعدم مبالاةِ الرّامي على أيٍّ منَ النّاسِ وقعَ.

دَلالةُ افتتاحِ اللَّفظَيْنِ: ﴿وَحَرۡثٌ حِجۡرٌ﴾ كلَيْهما بالحاءِ:

تَلاحُمُ التَّناسُبِ والانسِجامِ بينَ الكلمتَيْنِ، دَلالةً ونُطقًا

بينَ اللَّفظين تناسقٌ عجيبٌ، وانسجامٌ صوتيٌّ، فكلاهما ثلاثيٌّ، يبدآنِ بصوتِ الحاءِ الموحي بجفافِ الباطنِ، وقد اشتركا في هذا المعنى، فأصلُ الحرْثِ: شقُّ السَّطحِ الملتئمِ وإثارتُه، وأصلُ الحِجْرِ: الحفظُ ومنعُ الاختراقِ لصلابةٍ مُسترسَلةٍ[3]؛ وسكونُ العينِ فيهما يشبهُ الصَّلابةَ الموجودةَ في هذا المانعِ المُختلَقِ، غيرِ المُختَرَقِ، وذاك الحرْث الموقوف.

نُكتَةُ إيرادِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ في الآيةِ:

تَفصيلٌ من قَبيلِ التَّفسيرِ، وبيانِ المُـرادِ، لِتَجليَةِ المعنَى المستفادِ

فيه مُفاداتٌ جمَّةٌ كثيرةٌ لا يحاطُ بها، كعادةِ جُمَلِ القرآنِ وكلماتِهِ، ومن هذه المفاداتِ: إن كان هذا التَّفصيلُ قولَ جَنَانٍ لم يتحرَّكْ به

---

(1) حيث قرأ حمزة والكسائيّ وعاصم في رواية أبي بكر: (وحِرْمٌ)، بكسرِ الحاءِ وسكونِ الرّاء. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 431، وابن الجزريّ، النّشر: 2/324.

(2) الخليل، العين: (حرم).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حجر، حرث).

لسانٌ، ولم تنبسّ به شَفَةٌ، فهو من إخراجِ خبيئتِهم وتجليةِ مكنونِهم. والإخبارُ عنهم بما كَتَمُوهُ من قصدِهِم ومُرادِهِم، وعِلمِهِم بمطابقتِهِ لواقِعِهِم، وكشفِهِ لدخيلتِهِم، واطِّلاعِهِ على سريرتِهِم، دليلُ صدقِهِ أنَّه من عندِ اللّهِ؛ فهو من إقامةِ الحجَّةِ القاطعةِ، بما لا مزيدَ عليه ولا فضلَ جلاءٍ أو ظهورٍ وراءَه.

وإن كان قولَ لسانٍ مجاهرةً للمُكابرةِ والمُفاخرةِ فأوردَه القرآنُ؛ فذلك مَورِدٌ للتَّشنيعِ والتَّبشيعِ، تقبيحًا لما حسَّنوهُ، وتحسينًا لما قبَّحوه، ومعاملةً بالضِّدِّ؛ لتقومَ مقامَ الصَّدِّ والرَّدِّ، وهذا أيضًا دليلُ حقِّهِ، وأمارةُ صدقِهِ، ومظهرُ جزالتِهِ، وعنوانُ قوَّتِهِ.

وفي كلٍّ مِنَ الحالين فهو اعتناءُ القرآنِ بإنصافِ الخصمِ الألدِّ؛ إيرادًا لشبهتِهِ، وتعليلًا لسيرتِهِ، وذكرِ قصدِهِ مِن فعلتِهِ؛ لبيانِ ما تنطلي عليه من زيفٍ وفسادٍ، قضاءً عليه فيما جهرَ بما أسرَّ، وفيما أسرَّ بما جهرَ.

بَلاغةُ الإطنابِ، في جُملةِ: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾:

الاستطالةُ على حُقوقِ اللهِ في التَّحريمِ والتَّحليلِ ضَلالٌ

إظهارُ عيوبِ المجتمعاتِ غيرِ المسلمةِ - والمجتمعُ الجاهليُّ بمكَّةَ أنموذجًا - فالمساواةُ بين النَّاسِ - حتّى الأحرارِ منهم - غيرُ حقيقيَّةٍ ولا قائمةٍ؛ فالأطعمةُ من حقوقِ الفطرةِ ليسَت تُباحُ للنّاسِ سواء، كما يُباحُ الكلأُ لجميعِ بهيمةِ الأنعامِ، وعندَهُم للسَّادةِ والكبراءِ تحكُّماتٌ مُفتَرَاةٌ، وزيوفٌ مدَّعاةٌ لا يملكُ الدَّهماءُ إزاءَها غيرَ التَّسليمِ، كقولِ عبد اللّه بن عَنَمَةَ (بالعينِ المُهملَةِ)، يرثي بسطامَ بن قيس، فيذكرُ أنَّه سيِّدٌ من الكُبَّرِ له ما لهم:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايَا *** وحُكمُكَ والنَّشيطةُ والفُضولُ[1]

وفي الآيةِ بيانُ لونٍ مِنَ السَّرفِ، وضَربٍ مِنَ السَّفَهِ في تلكم

(1) البيتُ منَ الوافر، هو لعبد الله بن عَنَمَة الضَّبيّ. يُنظر: أبو تمّام، ديوان الحماسة: 1/421.

المجتمعاتِ، فبينما هي لا تتورَّعُ عن مُحَرَّمٍ ولا تنتهي عن مُؤَثَّم؛ إذا بها لا يكفيها هذا حتَّى تستطيلَ على حقوقِ اللهِ في التَّحليلِ والتَّحريم: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: 59].

والتَّحليلُ تَعَدٍّ على الفطرةِ باستطابةِ الخبائثِ والمضارِّ، والتَّحريمُ تَعدٍّ على النَّفسِ بحرمانِها حظوظًا من طيِّباتٍ أُحِلَّتْ لها، مُبالغةً لها في الإيذاءِ والإذلالِ، وهو ظلمٌ تنزَّهَ الإسلامُ عنه، وحذَّرَ منه، ووبَّخَ عليه كما هنا.

المبالغةُ في بيانِ غُرورِ المشركين، وتنصيبِ أنفُسِهم مُشرِّعينَ

سِرُّ القصْرِ بالنَّفْيِ والاستثناءِ في السِّياقِ:

قولُه: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ هذا قصرُ صفةٍ على مَوصوفٍ، وطريقُه: النَّفي والاستثناء، وهذه الجملةُ في محلِّ رفعٍ نعتٍ لـ ﴿أَنۡعَٰمٞ﴾، وَصَفوه بوصفين؛ أحدهما: أنَّه حِجرٌ، والثّاني: أنَّه لا يأكلُه إلَّا مَن شاؤوا، و﴿مَن نَّشَآءُ﴾ فاعل بـ﴿يَطۡعَمُهَآ﴾، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ، ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ﴾: لا يأكلُها إلَّا مَن نشاءُ، وهُمُ الرِّجالُ دونَ النِّساءِ، أو سَدَنَةُ الأصنامِ[1].

والسِّرُّ في استعمالِ هذا الأسلوبِ هو إفادةُ نفيِ إطعامِ الأنعامِ والحرثِ عن أحدٍ، ثمّ إثباتُه لَمن يشاؤون، ولو قِيلَ: (إنَّما يطعمُها مَن نشاءُ) لكانَ قد أثبتَ الإطعامَ لَمن يشاؤون، ونفاه عمَّن عداهم دفعةً واحدةً.

جملة ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ بين الخبريّة والإنشاء

دلالةُ الجُملةِ الواحدةِ على أسلُوبَيْنِ بليغَيْنِ:

كاحتمالِ جملةِ القصرِ هنا: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أن يكونَ لها محلٌّ إعرابيٌّ، أو لا يكونَ؛ فعلى الأوَّلِ: تكونُ نعتًا للخبرِ مُقيَّدًا له بالقيدِ الزّائدِ، أو تكونُ خبرًا بعدَ خبرٍ، فتكونُ جملتُها خبريَّةً، ويكونُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/659.

الخبرُ حقيقةً على بابِهِ مُرادًا به العُجبُ والبَطَرُ والكِبْرُ إن كانَ حديثًا مع النَّفسِ، ويُرادُ به التَّفخُّرُ والتَّسلُّطُ والتَّحكُّمُ إن كان مِن هذا المَنحَى إلى الآخرين، وعلى الثَّاني: فهي مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعراب، وتكونُ إنشائيَّةً تتوجَّهُ بالنَّهي إلى الجماعةِ إفضاءً وإفشاءً أن يقربَها أحدٌ، فلا ينالُ منها إلَّا مَن أذنوا له لهوًى أو مأربٍ فيه.

وهذا كثيرٌ في القرآنِ كقولِهِ سبحانَه: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 83]، فالجملةُ هنا خبريَّةٌ، بدليلِ ثبوتِ نونِ الفعلِ، ولو كان نهيًا لحُذِفَتِ النُّونُ، لكنَّ المعنى على النَّهي؛ أي: لا تعبدوا.

وقد ذكرنا بواعثَ سوقِهم الجملة المُتقدِّمة مساقَ الخبرِ منَ الاعتدادِ المُتغطرسِ المُتجبِّرِ بالقولِ، والإصرارِ والتَّصميم على المضيِّ فيه، إيغالًا دونَ تراجعٍ، والمباهاةِ بذلك؛ وبواعثَهُم سوقَها مَساقَ الإنشاءِ مِن امتلاءِ أنفسِ القائلينَ بالاعتزازِ بالإملاءِ، والإنهاءِ بالقهرِ والقسرِ والاستضعافِ، وكلُّ ذلك ممَّا تعجُّ به، وتثجُّ تلك البيئةُ الجاهليَّةُ بأظلافِها وأوساخِها ومساوئِها وأوضارِها وأوشابِها وخبائثِها وأضغانِها الدَّفينة.

بَلاغةُ اختيارِ الفعْلِ قَصْرًا على مادَّةِ (طَعِمَ):

إشارةٌ إلى سَوْغِ ما يُؤكَلُ، وفائِدةِ ما يُذاقُ

في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل (يَطْعَم) دونَ مرادفاتِهِ مِن (يأكل) أو (يذُوق)، مع ورودِ كلٍّ مِنَ المادّتين الأخيرتين تعبيرًا قرآنيًّا بليغًا بمعناه الحقيقيِّ والمجازيِّ في مَواضِعَ عديدةٍ من القرآن، وبعض ذلك في آيات السُّورة.

ذلك لأنَّ مادّةَ (طعم) تدورُ حولَ "ما يدخلُ مِنَ الفمِ إلى الجوفِ غِذاءً للبدنِ، فيُشبِعه": كالطَّعام[1]، والشّيءُ قد يُذاقُ ولا يُؤكل، وقد يُؤكَلُ ولا يُستَساغُ، فلا يُسمَّى - حينئذٍ - طعامًا.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طعم).

فقولُهم: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى إدراكِهم فوائدَها، وقيمتَها الغذائيَّةَ.

فائدةُ المضارعيّة في جملة ﴿لا يَطۡعَمُهَآ﴾:

استمرارُ معنَى نَفْيِ الإطعامِ، في السِّياقِ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع المنفيّ ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ﴾ يفيدُ استمرارَ النَّفي، ويَلزمُ منه الدَّلالةُ على إطالةِ مَشهَدِ الحدثِ، وفيه زيادةُ كبرياءٍ وزَهْوٍ وغرورٍ، ونوعٌ منَ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ: ﴿مَن﴾ دونَ (الَّذي):

الاختصارُ ووجازةُ العبارةِ ووَفاؤُها، من فصَاحةِ السِّياقِ وروْعته

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ في قولِه: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ لأنَّه أخصرُ وأوجزُ عبارةً، وأوفى معنًى؛ فهو هنا أدلُّ على كلِّ ما يدُلُّ عليه غيرُه منَ الأسماءِ الموصولةِ مُجتمِعَةً في آنٍ، ولأنَّه أيضًا غنيٌّ عن اعتبارِ التَّذكيرِ والتَّأنيثِ فيه، فلا يختصُّ بأحد الجنسين دونَ الآخر، وأيضًا لعدم إرجاعِ شيءٍ من تمكينِه منَ الطُّعمةِ إلى هيئةٍ تلتمسُ له، كأن يكونَ مُطاعًا مُسوَّدًا في قومِه، فإنَّ المُعوَّلَ عليه مَشيئتُهم له دونَ اعتبارٍ آخرَ.

فالإبهامُ الكائنُ في ﴿مَن﴾ مُنسَجِمٌ مَعَ السِّياقِ، من توسيعِ دائرةِ غرورِهم وغطرستِهم، وإطلاقِ مساحةِ مَشيئتِهم، فلا التفاتٌ ولا اعتبارٌ للهيئاتِ في سائرِ الحالاتِ.

كما أنَّ إدغامَ النّونين: نون ﴿مَن﴾ ونون ﴿نَّشَآءُ﴾ يوحي بغيظِهم، وغِلَظِ قلوبِهم وفظاظتِهم وغطرستِهم، ولا يسدُّ مَسدَّ ﴿مَن﴾ اسمُ موصولٍ آخر.

دَلالةُ اصْطِفاءِ فعلِ المشيئةِ وإيحاءاتُه المعنويَّةُ:

يُلمَحُ في فعلِ المشيئةِ معنَى القُوَّةِ والقهرِ

هناك أفعالٌ كثيرةٌ تدُلُّ على معانٍ مُتقارِبةٍ من معنى (المشيئة) كالإرادة، والابتغاء، وكلُّها منَ الفصيحِ الواردِ في القرآنِ الكريمِ؛ كلٌّ فصيحٌ في مَوضعِه، ولا يسدُّ مَسدَّهُ غيرُه.

ولكن أُوثِرَ التَّعبيرُ بفعلِ المَشيئَةِ هنا؛ لأنَّه يدُلُّ على العموم؛ إذ إنَّه مُشتَقٌّ منَ (الشّيء) وهو "الكائنُ" أو "الجسمُ"، أو "الموجودُ" بعبارةِ الرّاغب(1).

وبذا فهي صالحةٌ أن يعبَّرَ بها عن أيِّ كائنٍ، وبعبارة سيبويه: لفظٌ "يقعُ على كلِّ ما أُخبِرَ عنه"(2)، ولأنَّ فعلَ المَشيئَةِ يُلمَحُ فيه معنى القوَّةِ والقهرِ، كما في قولِ عمرو بن كلثوم:

بأيِّ مَشيئَةٍ عَمْرَو بنَ هندٍ *** تُطيعُ بنا الوُشَاةَ وتَزدَرِينَا(3)

فكأنَّه يريدُ أن يقولَ: بأيِّ قوّةٍ أو قهرٍ، وكأنَّه ينفي سلطتَهُ عليهم، فكلمةُ ﴿نَّشَآءُ﴾ تدُلُّ بجِرمِها على جُرْمِهِم وكبريائِهِم، كما تشيرُ بجَرْسِها من تفشٍّ على انتشارِ سلطتِهِم، وما في الكلمةِ من مدٍّ يوحي باستطالتِهِم وعدوانِهِم.

نُكتةُ اختيارِ الفعْلِ ﴿نَّشَآءُ﴾ مضارِعًا لا ماضيًا:

التَّجدُّدُ يُشيرُ إلى احْتكامِهِم في الإطعامِ إلى الهوَى، لا إلى الحَقِّ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَّشَآءُ﴾؛ لإفادةِ التّجدُّدِ والحدوثِ، فالأمرُ في الإطعامِ يرجعُ إلى مَشيئَتِهم المُتجدِّدةِ - في زعمِهِم - فليس ثمَّةَ حقٌّ لأحدٍ في ذلك، حتّى لو طَعِمَ بمشيئَتِهِم مرّةً، فإنَّها لا تُغني عنه شيئًا، بل يُنظَرُ في أمرِهِ في كلِّ مرّةٍ.

بل إنَّ موافقةَ صيغةِ ﴿نَّشَآءُ﴾ المضارعِ في ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ﴾ يدُلُّ على احتكامِهِم في الإطعامِ إلى الهوى، لا إلى عدلٍ أو ميزانٍ؛ وفي ذلك مِن إذلالِهِم للطّاعمينَ ما فيه.

ولو قالَ: (شئنا) بالماضي لظَنَّ أنَّهم يحتكمونَ إلى قاعدةٍ موضوعةٍ أو معيارٍ ثابتٍ، فتجلّى بذلك أنَّ ما بالآيةِ الكريمةِ أوفقُ وأليقُ وأدلُّ على المعنى الحكيمِ المرادِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

(2) سيبويه، الكتاب: 1/22.

(3) البيتُ من بحرِ الوافرِ، وهو في ديوانه، ص: 79.

التَّكبُّرُ والفَخرُ في أحكامِهِم ومُعاملاتِهِم، مِن خصائصِ أحوالِهِم

المعنَى الكامنُ في نونِ ﴿نَّشَآءُ﴾:

في قولِهِ: ﴿نَّشَآءُ﴾ لطيفةٌ تُضافُ إلى النُّكتةِ السَّابقةِ، ؛ وهي دلالةُ النُّونِ على القائلِينَ المُتعظِّمينَ المُتفخِّرِينَ؛ من كلّ عُتُلٍّ جُوَّاظٍ غليظٍ مُتكبِّرٍ مُتشدِّقٍ مُتَنَفِّجٍ، والفاعلُ المُضمَرُ بعدَه يؤكِّدُ ذلك، ويفيضُ فيه.

إفادةُ العُمومِ، ولفتُ الانتباهِ إلى الحدَثِ والقائمِينَ بهِ

عِلَّةُ الإيجازِ بحذْفِ المتُعلَّقِ بالفعلِ ﴿نَّشَآءُ﴾:

في قولِهِ: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ حُذِفَ المفعولُ به في ﴿نَّشَآءُ﴾؛ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه؛ أي: مَن نشاءُ إطعامَه، وقد يفيدُ هذا الحذفُ العمومَ، ولكنّه يُلْمِح إلى غَرَضٍ آخَرَ، يُفهمُ منَ السِّياقِ؛ وهو لَفْتُ الانتباهِ إلى الحدثِ ذاتِهِ، وهو فعلُ المَشيئةِ، وقد ذكرَ الزّمخشريُّ: "أنَّ الفعلَ إذا نُسيَ مفعولُه، وقُصِدَ الحدثُ نفسُهُ، جرى مَجرَى الفعلِ غيرِ المُتعدِّي"[1].

وكأنَّ المُشركينَ القائلينَ بهذا يمتنُّونَ على مَن وقعَ عليهم الاختيارُ، وصادفَتهم المَشيئةُ قبلَ أن يَطعَموا؛ ولسانُ حالِهِم يقولُ: حسبُكم شرفًا أن وقعَ عليكم اختيارُنا؛ لننظرَ في أمرِكُم: (أتَطعَمُونَ أم لا؟).

اتِّساعُ معاني اللّفظِ، يُفيضُ بسِحرِ بيانِهِ على المُتلَقِّي

دَلالةُ الفعْلِ ﴿نَّشَآءُ﴾، على ما لا يُحاطُ به مِن معانٍ:

وهذا الفعلُ يُعدُّ مثالًا على الإعجازِ في سعةِ مَضامينِ الكلمةِ القرآنيّةِ بعامَّةٍ، واتِّساعِ دوائرِ تأثيرِ إيحاءاتِها الأثيريَّةِ، بما لا ينقطعُ مددُهُ، ولا ينضبطُ عددُهُ، ومن دلالةِ الفعلِ ﴿نَّشَآءُ﴾ على ما لا يُحاطُ به من معانٍ قائمةٍ بأنفسِ القائلينَ لا انقضاءَ لها ذِكرًا وحَصرًا، ما يأتي:

أوَّلًا: امتلاؤُه ببثِّ شعورِ المنِّ بالقائلينَ على الطَّاعمينَ، والتَّحكُّمِ المُذِلِّ في أعناقِ أتباعِهِم منَ الأرقَّاءِ والمُستضعَفينَ، لما يُفيضُهُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كسر).

الفعلُ في العبارةِ، ويشيعُهُ من أجواءِ تسلُّطِ الهوى الكافرِ، والطَّيشِ الغشوم، والجهلِ الأحمقِ، والحكم الجهولِ، مُمْليًا إرادتَه الصَّادرةَ من عقولٍ تحكَّمَت فيها الأوهامُ، ونعبَت فيها الأباطيلُ، وعشَّشَتْ فيها الخرافاتُ؛ وتلك مَنقصةٌ قادحةٌ، ومَذمَّةٌ طافحةٌ، وفسادٌ عريضٌ ضاربٌ في جذورِ ذلك المجتمع، وتاريخِه، وصراعاتِه، وخطواتِ خطاياه، المغرقة في الأهواءِ الفاجرةِ المُطاعة.

ثانيًا: في الفعلِ المذكورِ على النَّحو المسوقِ به إفصاحٌ صارخٌ عندَ كلِّ مَثالبِ الجاهليَّةِ وقبائحِها في العقائدِ، والدّياناتِ، والعباداتِ، والعاداتِ، والمعاملاتِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ، والسّياساتِ في الحربِ والسّلمِ، وفي الأخلاقِ، ممّا لا يُجمعُ شَتاتُه، أو يُلَمُّ شعثُه، ويُدرِجُه تحتَ أصلٍ جامعٍ يصلُحُ عنوانًا له غير الضِّيزى والطُّغوى والعُتُوِّ الكبيرِ، والبغي والعدوان.

ثالثًا: من إيحاءاتِ الفعلِ ومُتعلِّقِهِ المحذوفِ هنا، وهو من عجيب بلاغةِ الكلمةِ القرآنيَّةِ أنَّها تنطوي بظلالِها، وتحتوي بكمالِها وجلالِها وجمالِها على الضِّدَّين معًا، لا من خلال مادَّتِها اللُّغويَّةِ، وإنَّما من خلال مُتعلِّقِها المحذوفِ، فتدُلُّ على انطباعَين دلالةً صحيحةً في آنٍ واحدٍ، ومن ذلك ما نحن فيه وبصدده؛ إذْ كانَت دلالتُها فيما مرَّ أن أعطَتِ انطباعًا يسوءُ؛ لأنَّه كانَ بالضُّرِّ والشّرِّ، فإنَّ لها دلالةً خفيّةً، إذا استُنطقَت توسُّعًا في لوازمِها أن تعطيَ انطباعًا يسرُّ؛ لأنَّه بالخير؛ إذ كانت لهم عوائدُ تواضعوا بأسرِهم عليها، تجلبُ لهم الثّناءَ؛ كإكرامِ الضّيفِ وإطعامِ الطّعامِ وإجارةِ المُستجير؛ فلا يُجارُ عليه، ولا تُخفَرُ ذمَّةُ مُجيرِهِ، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى حميَّةٍ وعنجهيَّةٍ، وشى بها وأفصحَ عنها اللَّفظُ القرآنيُّ ﴿نَّشَآءُ﴾ في جملتِهِ الفذَّةِ هنا: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾.

فقد شاؤوا كثيرًا منَ الشَّرِّ فاشيًا ذائعًا، شاؤوا معه بعضًا منَ الخيرِ مَقيلًا ضائعًا[1]، فقُوبلَت من دلالةِ الكلمةِ المَذَمَّةُ المقيتةُ بمَحمَدةٍ مُعجبةٍ، والمَنقصةُ المُستهجَنةُ، بمَفخرةٍ تزكّي المروءةَ، وترفعُ الهامَةَ، وتُعلي القامةَ، وتُذكَرُ لصاحبِها بالعزَّةِ، وقد أفادَ منها المسلمون، وزكَتْ أريجًا بذكرِها في تاريخِ الإسلامِ، وقد دخلَ أبو بكر الصِّديق يومًا

(1) ضائعًا: تورية منَ الضَّوعِ، بمعنى: الفوح والانتشار، والضّياع: الفقدان والحرمان، والمعنيان مرادان وضعًا وصحيحان شرعًا.

في جوارِ ابن الدُّغُنَّة، وقدِمَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وآله وسلّم مكَّةَ من رحلتِه إلى الطَّائفِ في جوارِ المُطْعِم بن عديٍّ، وقد ماتَ المُطعِمُ مُشركًا بمكَّة قبلَ غزوةِ بدرٍ، وعرفَ له النَّبيُّ هذه اليدَ عندَه، فقال يومَ بدرٍ: «لو كان المُطعِمُ بنُ عديٍّ حيًّا، وكَلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لَتَرَكْتُهُمْ له»(1). لهذا نقول بما خلصنا إليه: بأنَّ قد دَلَّ الفعلُ ﴿نَّشَآءُ﴾ هنا في الآية على الضِّدَّين معًا، دلالةً صارخةً على تلك النّقيصةِ، وفتورِ ثغرٍ على استحياءٍ عن هذه المَحمَدة، فكانَ الوحيُ به تطبيقًا عمليًّا لمنهجِ اللهِ وشرعتِه وحكمِه العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النّساء: 40] وهذا عامٌّ في الدُّنيا والآخرة. ولله في خلقه شؤونٌ، وسبحانَ من هذا كلامُه، سبحانَه وبحمدِه جلَّ وعزَّ!

تَوجيهُ التَّعقيبِ على مَقُولِهِم المَحكيِّ عنهم بلفظ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

قولُهم المذكورُ، ادّعاءٌ مُختَرَعٌ، لا دينٌ مُشتَرَعٌ

قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: هذا تعقيبٌ على قولِهم السَّابقِ، بأنَّه من ادِّعائهم المُختَرَعِ، لا من دينٍ مُشترعٍ؛ فهو كذبٌ وافتراءٌ، والزَّعمُ في أكثرِ كلامِ العربِ أقربُ إلى غيرِ اليقينِ، والحقُّ نبَّهَ على أنَّهم فعلوا ذلك من غيرِ أن يأمرَهُم اللهُ بذلك، ولا أن يشرعَهُ لهم؛ وذلك جريٌ على عادتِهم في شرعِ أحكامٍ لم يأذنْ فيها، ولم يشرعْها(2).

أثرُ كلمة ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ في تَفنيدِ أقوالِ الجُناةِ والمُتَّهمِينَ:

عدمُ صَلاحيَّةِ الافتراءِ دليلًا يُعتمَدُ عليه

لمَّا عرضَ عليهم لم يكن لهم مُتَمَسَّكٌ؛ إذْ لا يصلحُ الافتراءُ مُتمسَّكًا، وبالتَّالي فالزَّعمُ المُنبنيُ عليه أولى ألَّا يصلحَ، ولْنَلْحَظ هنا أنَّ جانبًا إجرائيًّا قضائيًّا خافيًا قد وفّرته، وتكفَّلت لنا به جملةٌ في كلمةٍ هي ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾، وذلكم حين يكونُ المُحَاكَمُ لم يُقِمْ عنه مُحَامِيًا يدافعُ عنه أو يلقي مَعاذيرَه، كما هو مستفاد من التَّعبيرِ القرآنيِّ في موضعٍ آخر، فتقيم له المحكمةُ دفاعًا مُنْتَدَبًا يَمثُلُ عَنهُ،

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (3139).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

في موقفِ الخصومةِ ليدرأَ عنِ الجاني التُّهمةَ بما له وجهُ قَبولٍ ومناسبةٍ منَ الحججِ.

مَثَّلَ لنا هذا الرُّكنَ الرُّكينَ من مقوِّمات المُحاكَمةِ العادلةِ قَولُهُ جَلَّ وعَزَّ ﷻ وَبحمدِهِ: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾؛ إذ هذا دفاعٌ يصرِّحُ بدورِ المتَّهم الجاني تصريحًا لا يكذبُ ؛ إذِ الكذبُ في عُرفِنا تأخُذُ بِهِ المحاكمُ الأرضيَّةُ، واللّه لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذْرُ مِنَ اللّه تعالى؛ من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسُلَ[1].

تَوجِيهُ اللُّغاتِ المقروءِ بها، في كلمة ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

قرأَ الكسائيُّ: (بزُعمهم) فيهما بضمِّ الزّاي؛ وهي لغةُ بني أسد، والفتحُ لغةُ الحجازِ، وبه قرأَ باقي السَّبعة[2]، وهما مصدران، وقيل: الفتحُ في المصدرِ، والضّمُّ في الاسم.

وقرأَ ابنُ أبي عبلة: بفتحِ الزّاي والعينِ فيهما[3]، وفتحُ الحروفِ الحلقيَّة يُعدُّ تخفيفًا على اللّسانِ، وهو لغةٌ كالشَّعْرِ والشَّعَر، والكسرُ لغةٌ لبعض قيسٍ وتميم، ولم يُقرأ به[4].

وتنوُّعُ القراءاتِ الواردةِ في قولِهِ: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ من قبيلِ اللُّغاتِ، ومراعاةُ اختلافِ اللّسانِ العربيِّ غايةٌ من غاياتِ تنزُّلِ القرآنِ على سبعةِ أحرفٍ.

تنوُّعُ اللُّغاتِ، وسَعةُ اللَّهجاتِ العربيَّةِ، ثَراءٌ للّغةِ ومُعجمِها الفَصيحِ

دَلالاتٌ منَ اللُّغاتِ الواردةِ في القراءاتِ:

ولنتأمَّلْ كيفَ أدَّت هذه الكلمةُ دورَ الدِّفاعِ عنِ الخصمِ: إنَّها تقولُ ابتداءً انزلقَ القائلون إلى مُستنقَعِ الكذبِ الَّذي هو أحدُ معاني الزَّعمِ عندَ حِميَرَ، واستمرؤوه، فَجَرَّهُم إلى الباطل.

الزَّعمُ بالفتحِ أخفُّ، وبالضّمِّ أثقلُ، وفيه معنَى الاستِحواذِ، وتَعمُّدِ الكَذِبِ

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (4634)، ومسلم، الصّحيح، الحديث رقم: (2760).
(2) ابن مجاهد، السّبعة: ص 270، وابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/356، والعكبريّ، إعراب القراءات الشّواذّ: 1/515.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

معناها الثَّاني عندَهُم - ودرجوا على ذلك، فبدأَ بِكِذبَةٍ، وانتهى باطلًا.

فهي على فتحِ الزَّاي الَّتي يَقرَأُ بها الكافَّةُ إلَّا الكسائيَّ، مفادُها: الظَّنُّ الَّذي يأتي لأوَّلِ توهُّمٍ أو أعجلِ هاجسٍ؛ وهذا أوغلُ في الضَّلالِ لِمَن يبتدرُه، فيقفو أثرَهُ، ويسيرُ وراءَه.

وعلى لغةِ أسدٍ، وقراءةِ الكسائيِّ، فالضَّمُّ بما فيه من معنى الاستحواذِ أثقلُ، وذلك فيه مزيدُ التَّكلُّفِ والتَّجشُّمِ والالتواءِ، فهو أشبهُ بتعمُّدِ الكذبِ؛ وهذا الثَّاني أدخلُ في الإضلالِ لِمَن يسايرُه، ويسابقُه، ويَجِدُّ حذاءَه.

ولـمَّا كانَ الاعترافُ ربَّما هدمَ الاقترافَ، فقد دفعَتهم الكلمةُ الدفاعيَّةُ عنهم بتكييفِ واقعِهم دونَ تزييفٍ، وذِكْرُ جُرمه دونَ تلطيفٍ، وكِبْرِهِ دونَ تخفيفٍ، مَدعاةٌ إلى ولوجِهم دونَ عائقٍ إلى باب التَّوبةِ والإنابةِ، إذِ الظَّنُّ لا يغني منَ الحقِّ، ولا يكفي منَ العلمِ، ولا يصلُحُ عذرًا، أو يشفي صدرًا أو يقي حرًّا، ولو أُلجِئَ المعاندون المكابرون جهلةُ العربِ المعنيُّون بهذه الآيةِ ليعتذروا، لم يجدوا أبلغَ منَ اللِّياذِ بالظَّنِّ وادِّعاءِ التَّوهُّمِ؛ وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ۝٣٢﴾ [الجاثية: 32].

وإذًا فقد وفَّرَ اللهُ لهم حقَّ الدِّفاعِ، فدفعَ عنهم من واقعِهم، ولا يُقالُ بين يدي اللهِ العليمِ الحكيمِ إلَّا الحقُّ، فإنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام: 3]. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ [التّغابن: 4]. واللهُ تعالى - هو الـمُتكلِّمُ بالقرآنِ - نفسُه.

هذا مثالٌ لما أخذَت به أرقى نُظُمِ العدالةِ من إجراءاتٍ لضَمانِ محاكمةٍ عادلةٍ، واهتبلَته[1] دساتيرُ الأممِ الآبيةِ أن تُنْمَى لغيرِ الحضاراتِ العريقةِ أو المدنيّةِ الفارهةِ التَّحضُّرِ والتَّبختر، قد سبقَ القرآنُ إليه، ودلَّ عليه، وضربَ المثالَ ليؤتسى به في إيجازٍ فريدٍ وسبقٍ بعيدٍ، ولا نرى أمَّةً عملَت به إلَّا هي ناقلتُه عنِ الإسلامِ.

---

(1) أي: اغتنمَته، واكتسبَته.

دَلالةُ إضافةِ الزَّعْمِ إلى ضَميرِ الجمْعِ في: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

اخـتـصـاصُ القائِلينَ باخْتلاقِ الزَّعْمِ

أُضيفَ الزَّعْمُ إلى ضميرِ القائلينَ في قولِه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾؛ لإفادةِ اختصاصِهم بهذا الزَّعمِ، فلم يَنقلوه عن أحدٍ، بل اخترعوه من عندِ أنفسِهم.

وَجهُ مَجيءِ (الباءِ) في ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾، وبيانُ مُتعلَّقِها:

صُـدورُ الافـتراءِ مـنِ اعتقادِهـم الـبـاطـلِ، أو بسَببِه

الباءُ في قولِه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ بمعنى: (مِن)؛ أي: قالوا ذلك الافتراءَ بألسنتِهم، نابعًا مِن اعتقادِهم الباطلِ، أو سببيَّة؛ أي: قالوا ذلك بسببِ الزَّعْمِ، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعلِ (قالوا)؛ أي: قالُوهُ مُلتبِسينَ بزعمِهمُ الباطلِ من غيرِ حُجَّةٍ[1].

سِرُّ الاعْتِراضِ بقولِهِ تعالى: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

بـيـانُ أنَّ هـذا الـتَّـحـريـمَ من عـندِهـم لا مِـنْ عندِ اللهِ

وقولُه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ مُعترِضٌ بينَ ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ وبينَ: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾[2]؛ لبيانِ أنَّهم قصدُوا بقولِهم: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ التّحريمَ من عندِ أنفسِهم، وليس مجرَّدَ المنعِ؛ وهذه فِريَةٌ كبرى سارعَ السِّياقُ بدحضِها قبلَ ذكرِ النَّوعِ الآخرِ منَ الأنعامِ المُحرَّمةِ؛ لأنَّ قولَهُم: ﴿حُرِّمَتۡ﴾ قرينةٌ تمنعُ من نسبةِ التّحريمِ إليهم، بل إنَّهم يفترون على اللهِ كَذبًا.

ويُمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ احتراسًا[3] من توهُّمِ عطفِ ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ على ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ فاعل ﴿يَطۡعَمُهَآ﴾، فكأنَّهم يَمْنَعون منَ الحرثِ إلَّا مَن يشاؤون منَ النّاسِ، ومنَ الأنعامِ المُحَرَّمةِ ظهورُها، وهذا معنًى فاسدٌ، فجِيءَ بقولِه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ لدفعِ ذلك التّوهُّمِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/96.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/107.

(3) ويُقالُ له: التّكميل، وهو أن يُؤتَى في كلامٍ يُوهمُ خلافَ المقصودِ، بما يدفعُ ذلك الوهمَ.

فائدةُ ذكْرِ الزَّعْمِ بالمصْدرِ دونَ الفعلِ:

إثباتُ افتراء المشركين، وتأكيدُ أنَّ الزَّعمَ مُتأصِّلٌ فيهم

ولـمَّا كانَ الغرضُ من قولِه: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ هو إثباتَ كذبِهِم، وافترائِهِم جِيءَ به بصيغةِ المصدرِ؛ ليدُلَّ على الحدثِ مُجرَدًا عنِ الزَّمانِ، وليؤكِّدَ أنَّ الزَّعمَ مُتأصِّلٌ فيهم، فكأنَّه جِبِلَّةٌ في أخلاقِهِم.

الغَرَضُ من تَكرارِ لفْظِ (أَنْعَامٌ)، في سِياقِ النّكرةِ:

إرادةُ التّقسِيمِ وبيانُ اختلافِ أصنَافِ الأنعامِ

وكُرِّر لفظُ (أَنعَام) في قولِه: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾؛ لأنَّ الغرضَ منَ التَّصريحِ به إرادةُ التّقسيمِ والتّصنيفِ؛ فكلُّ صنفٍ مُختلِفٌ عنِ الآخرِ، فلزمَ التّصريحُ بلفظِ (أنعام) مع كلِّ صنفٍ.

وجِيءَ به مُنكَّرًا؛ ليؤكِّدَ التّنوُّعَ المقصودَ من ذكرِ لفظِ (أنعام)، جريًا على قاعدةِ: "أنَّ المعرفةَ إذا أُعيدَت فهي عينُها، والنَّكرةَ إذا أُعيدَت فهي غيرُها"[1].

المناسَبةُ في ذكْرِ جُملةِ ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ رِدْفَ الأُولَى:

عطفُ نوعٍ منَ الأنعامِ أُورِدَ بعدَ استيفاءِ الأوصَافِ

قولُه: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ معطوفٌ على: ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ فهو كخبرٍ عنِ اسمِ الإشارةِ، وعُلِمَ أنَّه عطفُ صنفٍ؛ لورودِه بعدَ استيفاءِ الأوصافِ الّتي أُجرِيَت على خبرِ اسمِ الإشارةِ والمعطوفِ عليه عَقِبَهُ، والتّقديرُ: وقالوا: هذه أنعامٌ وحَرثٌ حِجرٌ، وهذه أنعامٌ حُرِّمَت ظُهُورُها[2].

سِرُّ ذكْرِ التَّحريمِ بالفعْلِ دونَ الاسْمِ خِلافًا للجُملةِ الأولى:

المنعُ الأوَّلُ ثابتٌ، والثَّاني مُتجدِّدٌ في السَّوائِبِ ونَحوِها

ذكرَ التَّحريمَ في الجملةِ الثَّانيةِ بصيغةِ الفعلِ، في حين ذكرَ التَّحريمَ في الجملةِ الأولى بلفظِ الاسمِ ﴿حِجۡرٞ﴾، وجملة ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ وذلك لأنَّ المنعَ الأوَّلَ ثابتٌ، والثَّاني مُتجدِّدٌ، فقد يُباحُ

(1) قاعدةٌ مشهورةٌ، غير أنّ بعضَ اللّغويّين قد انتقدَها، وذكرَ أنَّها ليسَت مُطّردةً ولا مطلقةً، بل خطَّأَ عددٌ منَ المحقّقين القولَ بإطلاقِ هذه القاعدةِ، ومنهم أبو عليّ الجرجانيّ في كتابِه نظم القرآن - وليس هو عبد القاهر -، وابن هشام في مغني اللّبيب.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/107.

في أمورٍ؛ لأنَّ المرادَ به السَّوائبُ ونحوُها، وهي بزعمِهم تُعتَقُ وتُعفَى لأجلِ الآلهةِ، ﴿حُرِّمَتۡ﴾؛ أي: مُنعَت ﴿ظُهُورُهَا﴾ فلا تُركَبُ، ولا يُحمَلُ عليها[1]؛ أي: حُرِّم رُكُوبُها، منها الحامِي: لا يَركَبُهُ أحدٌ، ولهُ ضابطٌ مُتَّبَعٌ كما تَقَدَّمَ في سورةِ المائدةِ، ومنها أنعامٌ يُحَرِّمونَ ظُهُورَها بالنَّذرِ، يقولُ أحدُهُم: إذا فعلَتِ النَّاقةُ كَذا من نَسلٍ أو مُواصَلَةٍ بين عِدَّةٍ من إناثٍ، وإذا فعلَ الفحلُ كذا وكذا حَرُمَ ظهرُه، وهذا أشارَ إليه أبو نُوَاس في قولِهِ مَادحًا الأمينَ[2]:

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحمَّدًا *** فظُهُورُهُنَّ على الرِّجالِ حَرامُ[3]

نُكتةُ بناء فِعْلِ التَّحريمِ لِما لمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ ﴿حُرِّمَتۡ﴾:

تنوُّعُ سَببِ التَّحريمِ في زعمِ المشركين، والتَّلبيسُ على المُخاطَبِين

قولُهُ: ﴿حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾ يدخلُ في مَقولِ القولِ، فهو من زعمِهم، وبناءُ الفعلِ للمفعولِ لظهورِ الفاعلِ؛ أي: حرَّمَ اللّٰهُ ظُهُورَها بقرينةِ قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾[4]، ولكونِ ذمِّهم على مجرَّدِ التَّحريم، لا على كونِهِ من مُعَيَّنٍ[5]، ولتنوُّعِ سببِ التَّحريمِ في زعمِهم، فيُحرِّمون ركوبَها، كالحامي[6]، وقد يُحرِّمون ركوبَها لنذْرٍ، أو لسببٍ آخرَ.

وقد يكونُ بناءُ الفعلِ للمفعولِ من قبيلِ التّمويهِ أو التَّلبيسِ على المُخاطَبينَ، حتّى يظنُّوا أنَّ ذلك مُحَرَّمٌ من قبلِ اللّٰهِ، وهو افتراءٌ على اللّٰهِ تعالى بصورةٍ أخرى غيرِ الصُّورةِ الأولى؛ ولذلك أُوثِرَ فعلُ التَّحريمِ دونَ غيرِهِ، ممَّا يُقارِبُ معناه.

بَلاغةُ الإيجازِ، بحذفِ المُضافِ بينَ الفعلِ ونائبِ الفاعلِ:

المبالغةُ في التَّحريمِ، والاتِّساعُ في المعنَى، من مقاصدِ هذا السِّياقِ

في قولِهِ: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾؛ أي: منافعُ ظهورِها، وتقديرُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/278.
(2) البيتُ من بحرِ الكاملِ لأبي نُوَاس، وهو في ديوانِهِ، ص: 834.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/107.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/108.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/284.
(6) فحلُ الإبلِ، إذا نتجَت من صلبِهِ عشرةُ أبطنٍ، فيُمنعُ من أن يُركبَ، أو يُحمَلَ عليه، ويقولون: إنَّه حمى ظهرَه، يُنظر: السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حمي).

المنافعِ أولى من تقديرِ الرّكوب؛ لأنَّهم حرَّموا ركوبَها وتحميلَها، فحذفَ المضافَ، وأُنيبَ المضافُ إليه منابَه، والغرضُ من حذفِه: المبالغةُ في التَّحريم، والاتِّساعُ في المعنى؛ ليشملَ الرّكوبَ، والحملَ عليه؛ لذلك أَسندَ التَّحريمَ إلى ظُهورِها؛ لأنَّ الحُكمَ الشَّرعيَّ إنَّما يتعلَّقُ بالأفعالِ دونَ الأجرام.

فائِدةُ تأنيثِ الفعْلِ بالتَّاءِ: ﴿حُرِّمَتْ﴾:

المبالغةُ في تحريمِ انتفاعِ الجاهليّين، بالرُّكوبِ والحَمْلِ على ظُهورِ الأنعامِ

تأنيثُ الفعلِ هنا جائزٌ لغةً؛ لأنَّ فاعلَهُ جمعُ تكسيرٍ على تأويلِ الجماعة، والغرضُ منَ التَّأنيث زيادةُ المبالغةِ في التَّحريمِ؛ إذْ إنَّه ترشيحٌ لإسنادِ التَّحريم إلى الظّهورِ لا إلى الرُّكوبِ فحسب.

وفائدتُه أمران: الأوَّلُ: تحريمُ الرَّكوبِ وغيرِه منَ الحملِ على الظُّهورِ. والآخرُ: عدمُ استثناءِ شيءٍ من هذا النَّوعِ المُحرَّم، فالتَّحريمُ واقعٌ على ظهورِ هذا النَّوعِ منَ الأنعامِ.

عِلَّةُ الاقتِصارِ على ذكْرِ (الظّهورِ) دونَ سائرِهَا:

التَّعبيرُ عن الأنعامِ بالظّهورِ دليلٌ على المتْحِ منَ البيئةِ المكتنِفةِ

اقتُصِرَ على ذكرِ الظُّهورِ دونَ غيرِها؛ لأنَّه يُكنَّى به عنِ الأنعامِ الّتي تُركَبُ، ويُحمَلُ عليها، قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «مَن كانَ معه فضلُ ظهرٍ؛ فليَعُدْ به على مَن لا ظهرَ له»[1].

الدَّلالةُ على إنجازِ حُكْمِهم في التَّحريمِ ومَنْعِ التَّعقيبِ عليه

سِرُّ اقتضابِ[2] جُملةِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ في ثلاثِ كلِماتٍ:

تبدو سرعةُ تلاحقِ الكلماتِ الثَّلاثِ لأداءِ المعنى، فكلمةُ (أنعام) مُشَارٌ إليها باسمِ إشارةٍ محذوفٍ مَفهومٍ مِن اسمِ الإشارةِ المذكورِ في صدرِ الآيةِ الكريمةِ؛ أي: وهذه أنعامٌ، والفعلُ ﴿حُرِّمَتْ﴾ ماضٍ مبنيٌّ للمفعولِ، وأُسنِدَ التَّحريمُ إلى الظُّهُورِ، كلُّ ذلك اختصارٌ يُراعي السِّياقَ، ويشيرُ إلى فراغِهم من هذا الحُكمِ، وليس ثمَّةَ

(1) رواه مُسلم، من حديث أبي سعيد الخدريّ، برقم: (1728).

(2) يُقصَدُ بالاقتضابِ هنا ما ذكرَهُ العسكريُّ بقولِهِ: "الاقتضابُ أخذُ القليلِ منَ الكثيرِ، وأصلُهُ من قولِهِم: (اقتضبتُ الغصنَ) إذا قطعتَهُ من شجرتِهِ"، وفيه معنى السّرعةِ أيضًا، يُنظر: العسكري، كتاب الصّناعتين، ص: 29.

مجالٌ للتَّعقيبِ، وهذه حقيقةُ البلاغةِ، كما ذكرَ الجاحظُ: قِيلَ للرُّوميّ: ما البلاغةُ؟ قال: حُسنُ الاقتضابِ عندَ البَداهةِ، والغزارةُ يومَ الإطالةِ[1].

فائِدةُ وصْلِ الجُملةِ الثَّالثةِ عطْفًا بالواوِ:

عطفُ صِنْفٍ على صِنْفٍ منَ الأنعامِ وَفْقَ أهوائِهِم، ممّا لم يأذَنْ به الله

قولُه تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾؛ إذ إنَّه عطفُ صنفٍ على صنفٍ، فأفادَ الوصلُ إشراكَهُ في الصِّنفين المَذكُورين.

والمعنى: أنَّهم قسَّموا أنعامَهُم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجرٌ، وأنعامٌ مُحرَّمةُ الظُّهورِ، وهذه أنعامٌ لا يُذكَرُ عليها اسمُ اللّه، فجعلوها أجناسًا بهواهم[2].

عِلَّةُ إيثارِ النَّفْيِ بـ ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَّا يَذْكُرُونَ﴾:

نَفْيُ ذكْرِ اسْمِ اللهِ على الأنعامِ في المُستقبَلِ

أُوثِرَ النَّفيُ بـ(لا) في قولِه: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ لإفادةِ نفيِ الفعلِ في المستقبلِ، في زمنِ القولِ؛ أي: إنَّ هذا الحكمَ صادرٌ منَ المشركين وقتَها، ولو جيءَ بـ(ما)، فقيلَ: (ما يذكرون)، لأفادَ نفيَ الفعلِ في الحالِ لا في المستقبلِ.

والمعنى: وحرَّمُوا من أنعامِهم أنعامًا أُخَرَ؛ فلا يحجُّونَ عليها، ولا يذكرونَ اسمَ اللّهِ عليها إن ركبُوها بحالٍ، ولا إن حلَبُوها، ولا إن حمَلُوا عليها[3].

تَوجيهُ اختصاصِ الفعْلِ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ بالنَّفْيِ:

الذِّكرُ دالٌّ على ما رَسَخَ في القلْبِ، فهو أخصُّ مِنَ النُّطْقِ والقَولِ

وأُوثِرَ الفعلُ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ دونَ غيرِهِ ممَّا يرادفُهُ مثل (ينطقون) أو (يقولون)؛ لأنَّ الذِّكرَ أخصُّ منَ النُّطقِ والقولِ؛ فهو يدُلُّ على ما رسخَ في قلبِ الذَّاكرِ، وجرى على لسانِهِ؛ وتعلُّقُ الذِّكرِ باسمِ اللّه قَيْدٌ

(1) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/88.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/144.

يجعلُه في محيطِ العبادةِ، "وواضحٌ أنَّ أصلَ هذا هو الذِّكْرُ باللِّسان؛ أي: جريانه بالاسم؛ وذكرُ الشَّيءِ بالصَّوتِ وجودٌ قويٌّ له، يتبعُهُ وجودُهُ في الأسماعِ والقلوبِ"[1].

استمرارُ نَفْيِ ذكْرِ اللهِ عليها كلَّ وقتٍ

تَوجيهُ مَجيءِ الفعْلِ مُضارِعًا:

تدلُّ صيغةُ المضارِعِ المنفيِّ هنا على استمرارِ النَّفيِ؛ أي: إنَّهم لا يذكرونَ اسمَ اللّهِ عليها في كلِّ وقتٍ دونَ استثناءٍ.

شُمولُ هذا الحُكْمِ جميعَ المُشرِكينَ

عِلَّةُ إسنادِ ﴿يَذۡكُرُونَ﴾ إلى واوِ الجماعة:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ أسندَ الفعلَ إلى واو الجماعةِ؛ ليدُلَّ على شمولِ هذا الحكمِ جميعَ النَّاسِ، حتَّى مَنْ أصدرَهُ منهم، وافترى على اللّهِ كذبًا.

المُشركونَ - بعدَ صنيعِهم - ليسُوا أهلًا للخِطابِ

سِرُّ اختيارِ الفعْلِ دالًّا على الغائبِينَ دونَ المُخاطَبينَ:

عَدَلَ عن خطابِهم إلى ضميرِ الغائبِينَ في قولِه: ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للخطابِ، ولأنَّ خطابَهُم يوحي بعتابِهم على عدمِ ذكرِهم اسمَ اللّهِ، وإقرارِهم على غيرِ ذلك، وهذا غيرُ مُرادٍ.

إخبارٌ بواقعِ حالِهم؛ بكونِهم لا يذكرونَ اللهَ عندَ المِلمَّاتِ، بل يذكرون أسماءَ معبُوداتِهم

مَغزَى ذكْرِ المفعولِ ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ المُضافِ إلى لفْظِ الجلالةِ:

وأُوثِرَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقُل: (لا يذكرون اللّه)؛ لأنَّه إخبارٌ بالواقعِ؛ لأنَّهم لم يكونوا يذكرونَ اللّه وحدَهُ، إلّا استغاثةً به في الشَّدائدِ والكروبِ، وفي غيرِها يدعون اللّاتَ والعزَّى شركًا به، وإلحادًا في أسمائِه.

وظاهرُه مُوافِقٌ لِمَن فسَّرَهُ بأنَّهم لا يَذكرونَ اسمَ اللّه عليها عندَ الذَّبحِ، بل يذكرونَ عليها أسماءَ الأصنامِ[2].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذكر).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

وقد وردَ (ذكرُ اسم اللّه) كثيرًا في القرآنِ الكريم في مواطنِ أكلِ الحلالِ الطَّيّبِ مِنَ الأنعامِ، والنَّهي عن أكلِ ما لم يُذكَرِ اسمُ اللّهِ عليه[1].

وإذا كانَ القرآنُ قد أنكرَ عليهم عدمَ ذكرِهم الاسمَ، فإنكارُهُ عليهم عدمَ ذكرِهم له ﷻ من بابٍ أولى.

سِرُّ إيثارِ ذكْرِ اسْمِ (الله) دونَ سائرِ الأسماءِ الحُسنَى:

عَلَمٌ على الذَّاتِ العَـليَّـةِ، وما عداه صِفاتٌ

أُوثِرَ ذكرُ اسمِ الجلالةِ (اللّه) دونَ غيرِهِ منَ الأسماءِ الحسنى؛ لأنَّه عَلَمٌ على الرّبِّ ﷻ - وما عداه صفاتٌ - دالٌّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّةِ كلِّها، في حين أنّ سائرَ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلَّا على آحادِ المعاني؛ من عِلمٍ، وقدرةٍ، أو فعلٍ أو غيرِهِ؛ فهو أنسبُ للسِّياقِ؛ حيث الحديثُ عن هؤلاءِ المُشركين، وزعمِهم وافترائِهم على اللّهِ تعالى، في التَّحريمِ والتَّحليلِ، ولا ريبَ أنَّ هذا خوضٌ منهم في صفةِ الألوهيَّةِ، الّتي اختَصَّ اللّهُ بها وحدَهُ؛ فاسمُ الجلالةِ (اللّه) هو الأساسُ في كلمةِ التّوحيدِ (لا إلهَ إلّا اللّه)، ولا يحلُّ محلَّهُ اسمٌ آخر.

دَلالةُ حرْفِ الجرِّ (على)، وسِرُّ اختصاصِهِ دونَ غيرِه:

إرادةُ الاستعلاءِ على حقيقتِهِ، أو عندَ ذبْحِ الأنعامِ

(على) في قولِهِ: ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ يشمل الأنعامَ الَّتي يريدونَ ذبحَها أو نحرَها، والأنعامَ الَّتي يحجُّونَ عليها؛ ومعنى الاستعلاء هنا يمكنُ أن يكونَ حقيقةً، كما في حالِ الرّكوبِ عليها، أو مجازًا بمعنى (عند)، إذا أُريدَ الذَّبحُ أو النَّحرُ.

بَلاغةُ التَّعريضِ بالكِنايةِ:

إدانـةُ المشركين بذكْرِهِم أسماءَ أصنامِهِم عليها

في قوله تعالى ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ كلامٌ مُضمَرٌ يدلُّ عليه السياق، والتّقدير: لا يذكرون اسمَ اللّه عليها، بل يذكرونَ عليها أسماءَ غيرِهِ منَ الأوثانِ والأصنامِ؛ كهُبلَ واللّاتِ والعُزّى ومناةَ وغيرِ ذلكَ ممَّا كانوا يعبدونَهُ ويقدِّسونَهُ من أجرامٍ سماويَّةٍ ونجومٍ

---

(1) ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ [الأنعام: 118].

وكواكبَ، وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فُصِّلت: 37]، وفيه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾ [النَّحل: 115].

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في الاقتِصارِ على ما لا بُدَّ منه:

بيانُ إعْراضِهم عن ذكْرِ اسْمِ اللّهِ عليها، اتّباعًا لسُنَنِهم في ذلك

قوله: ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾: اكتفتِ الآيةُ الكريمةُ بالإخبارِ عن عدمِ ذكرِهم اسمَ اللّهِ على تلك الأنعامِ، ولم تنصَّ على ذكرِهم أسماءَ آلهتِهم؛ لأنَّ ذكرَ اسمِ اللّهِ تعالى يتضمَّنُ نفيَ ما عداه.

وُجوهُ البلاغةِ في إعرابِ لفظ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾:

الاكتفاءُ في التّوكيدِ والتّعليلِ وبيانِ الهيئةِ المجتمعيَّةِ بلفظٍ واحدٍ

يُعرَبُ لفظ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ نائبًا عنِ المصدرِ سدَّ مَسدَّهُ، مُبيِّنًا للنَّوعِ، ومُؤكِّدًا للفعلِ؛ لقيامِ التَّنوينِ مَقامَ النَّعتِ أو الصِّفةِ، كما يُعرَبُ ثانيًا مفعولًا لأجله، كقولِه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، كما يُعرَبُ حالًا منَ الفاعلِ عندَ اتِّصافِه بالفعلِ المذكورِ أو لازمِه المُقدَّرِ؛ والإعراباتُ الثَّلاثةُ واردةٌ على محلٍّ واحدٍ.

بَلاغةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾:

دَلالةُ اللّفظِ على سَعةِ المعنَى وإطلاقِه

دلَّ تنكيرُ لفظِ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ على توسيعِ المعنى وإطلاقِه؛ فهو افتراءٌ عظيمٌ، لا يحدُّه حدٌّ، ولا يربطُهُ قيدٌ.

عِلَّةُ الاقْتصَارِ على ذكْرِ الافتراءِ دونَ ما يُقاربُهُ في المعنى:

بيانُ اختلاقِهم المُفتعَلِ في التَّشريعِ، ممَّا لا حقيقةَ له

أُوثِرَ لفظُ (الافتراء) دونَ ما يرادفُهُ، كالكذبِ والإفكِ والخرصِ ونحوِ ذلكَ؛ لدلالتِهِ على الاختلاقِ المُفتعَلِ الّذي لا حقيقةَ له، مع تهيئتِهِ ومحاولةِ تسويتِه، وقد يكونُ هذا في إثباتِ ما لا وجودَ له، أو نفيِ ما هو ثابتٌ عمدًا. يُقال: "فَرَى الكذبَ وافْتراه: اخْتلَقه - استخرجَهُ أو ابْتَكرهُ من عندِ نفسِه وهيَّأه -: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّحل: 105]"(1).

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فري).

أمَّا اختصاصُ الافتراءِ بالذِّكرِ فلنفي أن يكونَ لهذا المَسلكِ فائدةٌ شخصيَّةٌ أو مجتمعيَّةٌ؛ إذ لا فائدةَ له على الإطلاقِ، ولا مصلحةَ وراءَهُ؛ وفي ذكرِ المُتعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ عقبَ بيانِ المفعولاتِ والظّروفِ والحالِ ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ زيادةُ تقبيحٍ، وأنَّه افتراءٌ مَفضوحٌ.

فكان قولُهُ: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ أنسبَ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه وردَ في صفةٍ مَنفيَّةٍ زعمًا منهم أنَّ ذلك حكمُ اللّه.

مغزَى قولِهِ سبحانَه في الآيةِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾:

التَّـقـوُّلُ على اللـهِ، وجُحودُ الحقِّ ونُكرانُه، انحرافٌ وتَزييفٌ للحقّ

أن يكونَ ثمرةُ مناقشتِهم ومفاتشتِهم فيما ارتَضوا نتيجتَه حاكمةً عليهم؛ أنَّ محصولَها خلاصةُ دفاعِهِمْ، ورحيقُ ما أُشْرِبُوهُ وخالصُ ما صدروا عنه، أمَّا مناقشتُهم ففي السُّورةِ طرفٌ تمحيصيٌّ كاشفٌ، وفي (يُونُسَ) منها ما ليس عنه صارفٌ، وذلك قولُهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يُونُس: 59].

وأمّا موضوعُ الإذنِ الإلهيِّ فإنَّ ادِّعاءَهُ - ولو كذبًا - ليسَ باليسيرِ، والبرهانُ الشَّاهدُ عليه - بغيرِ حقٍّ - عسيرٌ، وهذا الَّذي جاءَ ذِكرُهُ طَرَفًا مُمحِّصًا مُخلِّصًا عنه في السُّورةِ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]، وهذا دفعٌ بيديهِ مَن بيديهِ، وهو فيما يبدو لا يجديه؛ لأنَّ الجرمَ قائمٌ مُشاهَدٌ: بَحَائرُ وسوائبُ ووصائلُ وحَوَامٍ، تُرَى في الأثناءِ في كلِّ الأنحاءِ؛ فالجرمُ مُطَّرِدٌ مُستمرٌّ غيرُ مُنقطعٍ ولا مُتوقِّفٍ؛ هذا على صعيدِ جنايتِهم بالفعل، وأمَّا على جانبِ الجنايةِ الثَّالثةِ فهو لياذُهم بالصَّمتِ المُضلِّ عن ذكرِ اسمِ اللّهِ على أنعامِهم عندَ الذَّبحِ؛ وهو واجبٌ، وعند الحَلْبِ؛ وهو مُستَحَبٌّ، وكلاهما مأمورٌ به، فهو جحودُ الحقِّ الأصيلِ للخالقِ الرَّازقِ المُنعِمِ، وهو اللّهُ تعالى، وربَّما جرى على ألسنتِهم ما هو

أبلغُ في الكفرِ، وأدفعُ لهم بالعُهرِ: أنْ يذكروا عليها مُضادَّةً ومُنَادَّةً ومُحَادَّةً اسمَ غيرِهِ منَ الأوثانِ والأصنام.

فائدةُ تأخيرِ ذكْرِه ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ إلى عَقِيبِ الجُملةِ الثَّالثةِ:

انتظامُ التَّعقيبِ على الجُملِ الثّلاثِ

لتحتملَ التَّعقيبَ على الجملتين الأخيرتين، بلْ وتَعَدِّيهمَا حتّى تنتظمَ التَّعقيبَ على الجملِ الثّلاثِ، وهل تكونُ الإعراباتُ موزَّعةً أو تكونُ لكلِّ جملةٍ إعراباتُها الثَّلاثةُ.

مغزَى ذكْرِ المُتعلَّقِ (الجارّ والمجرور) ﴿عَلَيۡهِۚ﴾:

الدَّلالةُ على بَشاعةِ كذِبِ المشركين، وسُوءِ مقاصِدِهم

وفائدةُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ عقيبَ قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾؛ ليدُلَّ على بشاعةِ كذبِهم؛ إذ إنَّهم يفترون على اللّهِ الكذبَ، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75].

فائدةُ الوقْفِ على لفظ ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ أداءً ومضمونًا:

ذَهابُ العقْلِ في جَزاءِ اللهِ لهم كلَّ مَذهَبٍ، مَقصودٌ في الدّلالةِ

الوقفُ على قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ وقفٌ كافٍ(1)؛ ليقفَ القارئُ والمُستمِعُ على جريمةِ المشركين النَّكراءِ، وليذهبَ عقلُهُ في الجزاءِ كلَّ مَذهَبٍ؛ ليرى حكمةَ اللّهِ الخالقِ، وحُكْمَ اللّهِ العادلِ في هؤلاء المفترينَ وأمثالِهِم.

نُكتةُ التَّنويع بين الضّمير والجلالة:

عدمُ ذكرِهم اسْمَ اللهِ على ذبائِحِهم يتناسبُ مع عدَمِ ذكرِه في الموضعِ الأوّلِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالضَّميرِ هنا في قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾، وصُرِّحَ باسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مع قربِ ذكرِهِ منه بعدَ آيتين؛ لمناسبةِ السِّياقِ في كلٍّ، ففي الآيةِ الَّتي معنا لم يُذكرِ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾؛ لمناسبةِ عدمِ ذكرِهِم اسمَ اللّهِ، فأضمرَ، في حين صُرِّحَ به في المَوضعِ اللّاحقِ؛ لزيادةِ المَهابةِ في القلوبِ؛ لأنَّ جريمةَ قتلِ الأولادِ أشدُّ وأعظمُ، وزيدَ عليها تحريمُ ما رزقَهُم اللّهُ، فناسبَ التَّصريحَ باسمِ الجلالةِ.

---

(1) أبو عمرو الدّانّي، المكتفى في الوقف والابتدا: 260 - 261.

بَلاغةُ الفصْلِ بين ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾، وبينَ ما بعدَه:

فصلَ قوله: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ عمَّا قبلَه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الافتراءَ على الخالقِ أمرٌ شنيعٌ عندَ جميعِ الخلقِ، فالإخبارُ به يثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عمَّا سَيلقَونَهُ من جزاءِ افترائِهم، فأُجِيبَ بأنَّ اللّهَ سَيجزِيهم بما كانُوا يَفتَرُون، وقَد أُبهِمَ الجَزاءُ للتَّهويلِ لتذهبَ النُّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ مُمْكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثم(1).

الاستِئنافُ البَيانيُّ؛ باعتبارِ الافتراءِ على الخالِقِ أمرًا شَنيعًا عندَ جميعِ الخلْقِ

مَغزَى تَذْييلِ الآيةِ بجُملةِ الجَزاءِ، ودَلالةُ ذلك:

جاءَ قولُهُ: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تذييلًا لمَا جاءَ في الآيةِ الكريمةِ من قولِ المُشركينَ، وما يحملُه قولُهُم مِن ادِّعاءاتٍ وافتراءاتٍ على اللّهِ تعالى، ولأنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَام، فَكانَ الأخذُ بالشِّدَّةِ هُو المتوقَّعُ، والحُكمُ النَّاجِزُ غيرُ المُمهلِ هُوَ الأسرعُ.

الوعيدُ والتَّهديدُ لهؤلاء المفترينَ، هو الأنسبُ لحالِهم وقَوْلِهم

لقد قضى بإمهالهم وقتًا قريبًا حتَّى لا يُؤاخذَ غيرُ مُقيم على جُرمِه، وأنَّ مَن تَابَ وأنابَ، آبَ بلا عقابٍ، وأنَّ مَنْ غاضَبَ وواثَبَ، وغامرَ وكابرَ، وتَولَّى وكفرَ، ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84]، ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النَّبأ: 26]، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ [الشّورى: 8]، كلُّ ذلك أُجمِلَ في هذا المنطوقِ البديعِ: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

سرُّ إيثارِ جُملةِ الجزاءِ أن تكونَ فعليَّةَ البَدْءِ والختامِ:

وأُوثِرَ أن تبدأَ جملةُ الجزاءِ بفعلِ ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾، وتنتهي بفعلٍ كذلك ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ دلالةً على تجدُّدِ الجزاءِ واستمرارِه؛ ليوافقَ استمرارَ افترائِهم المُعبَّرِ عنه بالفعلِ المضارعِ، فالجزاءُ من جنسِ العملِ؛ "أي: سيجزون الجزاءَ الشَّديدَ الأليمَ بسببِ هذا الافتراءِ القبيحِ"(2).

تجدُّدُ جَزاءِ اللهِ لهم واستِمرارُهُ، جَزاءً وِفاقًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109أ.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/112.

نُكتةُ اختيارِ الفعْلِ (يجزي) دونَ مُرادِفاتِهِ:

الإشارةُ إلى أنَّ جَزاءَ اللهِ يَفيضُ بالعَدلِ المُطلَقِ

وأُوثِرَ الفعلُ (يجزي) دونَ (يعاقبُ) أو (يحاسبُ) أو (يحكمُ) أو (يقضي)، وما أشبه، أو(يلعنُ) و(يعذّبُ) و(يمقتُ) وبابه؛ لأنَّ الجزاءَ تحصيلُ شيءٍ (خيرٍ أو شرٍّ) نتيجة عملٍ ما أو معالجةٍ؛ فالتَّعبيرُ بالفعلِ (يجزي) يوحي بالعدلِ المُطلَقِ، حيث إنَّ القضاءَ فيهم نتيجةُ أعمالِهم.

سِرُّ تصْدِيرِ الفعل ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾ بالسِّين وتخليصِهِ للاستقبالِ:

إشعارُ الخَصْمِ بالعَدْلِ في الإمهالِ والعُقوبةِ

فالسِّينُ للمُهلةِ؛ لأنَّه لا تجريمَ إلَّا بنصٍّ، ولا عقوبةَ إلَّا بعدَ نهي؛ فقد أشارَ المنطوقُ إلى ذلك، كأنَّ هذه الآيةَ معهدٌ وقانونٌ وحكمةٌ يعلِّمُ الحُكمَ بالعدلِ والقضاءَ بالرَّحمة، ويعيِّنُ الاختيارَ الصَّالحَ لا مثيلَ له ولا بديلَ. وذِكْرُ الجزاءِ فعلًا مُعاقَبًا به يقتضي دقَّةَ التَّقديرِ وصحَّةَ التَّكييفِ وعدالةَ التَّصويرِ، وجمعُهم في ضميرِ الجمعِ دليلُ المساواةِ لذوي الجرْمِ الواحدِ في العقوبةِ، فَكُلُّهم مُدَانُون، وهم جميعًا سواءٌ.

دَلالةُ إيثارِ تصْدِيرِ الفعل (بالسِّين) على(سوف):

تهديدُ المُخطِئِ بقُربِ الجَزاءِ، وعَدمِ تأخيرِهِ حتَّى لا يتمادَى في الاجْتِراءِ

أُوثِرَ الحرفُ الدّالُّ على الاستقبالِ القريبِ للإشارةِ إلى المُهلةِ الَّتي قلنا من جرَّاءِ سينِ الاستقبالِ: تصلحُ أن تكونَ مؤشِّرَ تَدَرُّجٍ في العقوبةِ، يبدأُ بلفتِ النَّظرِ، ومثلُ ذلك يُصلِحُ مَن زَلَّ مِنَ الكرامِ، وإن لم يُفلِحْ مع اللِّئامِ، ولا تصلحُ (سوف) هنا؛ لأنَّ تأخيرَ الجزاءِ مع ذلك الافتراءِ سبيلٌ لزيادةِ الاجتراءِ.

النُّكتةُ في إضْمارِ الفاعلِ بعَدمِ النَّصِّ عليه ذِكرًا:

تهويلُ الجَزاءِ لهم، وزيادةُ التَّرهيبِ ممَّن يُجازِيهم

نلحظُ إضمارَ الفاعلِ هنا في قولِه: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لتهويلِ الجزاءِ، وزيادةِ التَّرهيبِ ممَّن يُجازيهم؛ حيث افتروا عليه، فحَرَّمُوا ذكرَ اسمِه على أنعامِهم، فَحُرِمُوا من ذكرِ اسمِهِ عندَ الجزاءِ، فضلًا عن حرمانِ اللِّقاءِ.

الغَرَضُ مِن اتِّصالِ الفعْلِ بضَميرِ المفعولِ الأوَّلِ: ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾:

تهديدُهم بسُرعةِ الجَزاءِ، دليلٌ على فَداحةِ الذّنْبِ المُقْتَرَفِ

وفي اتِّصالِ الفعلِ (سيجزي) بضميرِ المفعولِ إشارةٌ إلى زيادةِ تهديدِهم بسرعةِ الجزاءِ، فالفعلُ مَحفوفٌ بالوعيدِ مِن بين يديه ومِن خلفِه، بحرفِ الاستقبالِ القريبِ، وباتِّصالِ ضميرِ المفعولِ.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثّاني، والنُّكتةُ في ذلك:

ذَهابُ النُّفوسِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في أنواعِ الجَزاءِ

حذفُ المفعولِ الثّاني، وهو كنهُ الجزاءِ أو نوعُهُ؛ إذ قال: سيجزيهم، ولم يذكرْ جزاءً، وأُبهِمَ الجزاءُ للتَّهويلِ؛ لتذهبَ النُّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثمِ[1]، وهذا من بلاغةِ الإيجازِ في كونِ هذا الحذفِ أبلغَ مِنَ الذِّكرِ تهديدًا، وأحكمَ منه وعيدًا.

رَوعةُ الإجمالِ في ذكرِ المتوَعَّدِ عليه، في الآيةِ الكريمةِ:

افتراؤُهُم لا حدَّ له، فكانَ جَزاؤُهُم لا حدَّ له

في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، نلمح فيها أنَّهُم لَمْ يتوقّفوا عنِ الإجرامِ، فيُحَدُّ لهم عذابٌ على قَدرِ ما اقتَرَفوهُ أوَّلًا، وأنَّهم لمّا عطَّلوا عقولَهم عن مُوافقةِ الفِطرَةِ، لتكونَ مُؤثِّرةً بِرَدِّهم عن هذا التَّقحُّمِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، جوّزوا باستبعادِ عقولِهم عن أن يكونَ متناوَلًا لها حدودُ ما تُوعِّدوا به منَ العقوبةِ والجزاءِ وصنوفِهِ وأنواعِهِ إلى غيرِ ذلك.

سِرُّ إيثارِ المجيءِ بالباءِ الجارَّةِ:

غزارةُ المعاني المُستنبَطَةِ منَ الباءِ، مع احتمالِ السّببيّةِ

تأتي الباءُ بمعنى (عن) أو لِلبَدَليَّةِ والعِوَضِ[2]، أو أنَّ الباءَ للتَّسبيبِ، و(ما) لِرَدِّ المُتندِّمِ إلى أوَّلِ مرَّةٍ خالفَ، فتُرِكَ، فأَمِنَ، وأساءَ الأدَبَ، فاستُدرِجَ، وأُمليَ لَهُ، فَهَوِيَ، وغَوِيَ حتَّى أوصلَه الإلفُ والاعتيادُ، واستمراءُ الارتيادِ إلى مالا سبيلَ إلى دفعِه إن وقع، و(كان) تردُّ إلى الحدثِ الأوَّلِ، وتدلُّ على الاستمرارِ، ومَن أقامَ على الشَّرِّ عُوقِبَ بالمُقَامَةِ في دارِ جزاتِه؛ وذلك لإدامتِه الافتراءَ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109.

جهنَّمَ لا تكونُ إلّا لمَن لو عاينَهَا، وَرُدَّ إلى الدُّنيا ليُصْلحَ ما كانَ أفسدَ، لعادَ إلى عصيانِهِ الَّذي كانَ قبلَ عيانِه، فهل رُئِيَ أو سُمِعَ قبلَ هذا أو بعدَهُ أعدَلُ منهُ أو أكملُ، أو أمثلُ منهُ أو أجملُ؟

سِرُّ إيثارِ المصْدرِ المؤوَّلِ على المصْدرِ الصَّريحِ:

إبْهام جَرائِم المشْركين وتهويلُ افتراءاتِهم، تعبيرٌ عن فظاعةِ حالِهم

قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، أُوثِرَ فيه استعمالُ المصدرِ المؤوَّلِ من (ما) المصدريَّة وما بعدَها على استعمالِ المصدرِ الصَّريحِ (كون)؛ وذلك لمَا تحتملُهُ (ما) من أكثرِ من معنًى، والتَّفنُّن في الإيرادِ باحتمالِها هنا للمصدريَّةِ والموصوليَّةِ والتَّوكيديَّةِ، وأن تكونَ نكرةً تامَّةً بمعنى شيءٍ، وكلُّ تلك المعاني تؤكِّدُ إبهامَ جرائمِهم، وعظيمَ افتراءاتِهم، وما في الفعلِ الماضي من إثباتٍ وتأكيدٍ، وغير ذلك من معاني التَّهويلِ والتَّفخيمِ لافترائِهمُ الشَّنيعِ.

فائِدةُ إيرادِ فعْلِ الكوْنِ بعدَ (مَا):

لُحوقُ الجزاءِ بِهم من جِهاتٍ شتَّى

وردَ فعلُ الكونِ تابعًا لـ(ما)، دونَ أن تُولَّى كلمةَ الفاصلةِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ أو رأس الآيةِ أو الماضي منها أو المصدر، فلم يقُل: (بما يفترونَ) ولا (بما افتروا) أو (بافترائِهم) أو (بشيءٍ افتروه)؛ لإفادةِ كلمةِ ﴿كَانُواْ﴾ دوامَ افترائِهم وتجدُّدَه؛ أي: بسبب افترائِهم، أو بمقابلةِ افترائِهم المُتجدِّدِ المُستمرِّ الَّذي هو قولُهُم السَّابقُ، ودخولُ (ما) على ﴿كَانُواْ﴾ يشيرُ إلى أنَّ لحوقَ الجزاءِ بهم من جهاتٍ شتَّى[1].

توجِيهُ مَجيءِ فعْلِ الكوْنِ مَاضيًا ﴿كَانُواْ﴾:

تحقُّقُ افترائِهم عمْدًا، فكان تقْريعُهم شَديدًا

والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ يدُلُّ على تحقُّقِ افترائِهم عمْدًا، فهم قد دبَّروا ذلك سلَفًا، واجتمعُوا عليه، وإسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ الجماعةِ يشيرُ إلى ذلك.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/42.

النُّكتةُ البيانيَّةُ في مَجيءِ خبرِ (كانَ) جُملةً فعليَّةً:

الدّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، تُفيدُ عدمَ خُلوِّ الحياةِ منَ الافتراءِ

عادةُ القرآنِ في هذا الأسلوبِ (بما كانوا يفعلون) أن يأتيَ خبرُ (كان) جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ، وذلك نحو قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: 10]؛ وذلك لتدلَّ جملةُ الخبرِ على التّجدُّدِ والاستمرارِ.

بديعُ الجناسِ غيرِ التَّامِّ في اختيارِ الفعْلِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الإشارةُ إلى الاختلاقِ المُتعمَّدِ، وتصديرُ الفاصلةِ بموافقةِ ما قبلَها

قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، أُوثِرَ اختيارُ لفظِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ دونَ غيرِه من مرادفاتِه؛ لَمّا في لفظِ الافتراءِ من معنى الاختلاقِ المتعمَّد، ولتصديرِ الفاصلةِ[1] بلفظٍ يوافقُ ما وردَ قبلَها من قولِه: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ﴾، وهو منَ الجناسِ غيرِ التَّامِّ؛ ليشيرَ إلى طولِ عهدِ افترائِهم وتجدُّدِه. ودلّت واو الجماعةِ على تحزُّبِهم، واجتماعِهم على هذا الافتراءِ، ودخولِ السَّاكتينَ معهم في جريمتِهم النَّكراءِ.

إجراء الفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾ مجرَى الفعلِ اللّازمِ:

حذفُ المفعولِ لدلالةِ السِّياقِ عليه، ومُراعاةً للفاصلةِ

ولم يُذكَرْ مفعولٌ للفعلِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ إجراءً له مَجرَى الفعلِ اللّازمِ، واكتفاءً بما تقدَّمَ، وفُهِمَ منَ السِّياقِ، ومراعاةً للفاصلةِ؛ فإنَّها متساويةٌ مع ما قبلَها، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١٣٧﴾ [الأنعام: 137].

رَوْعةُ القطْعِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ في نهايةِ الآيةِ:

الفاصلةُ مُثيرةٌ للتَّشويقِ والتَّأمُّلِ

إعجازُه في استقلالِه بالبلاغِ والبيانِ الشَّافي، رُغمَ أنَّه في الآيةِ الكريمةِ مثيرٌ مُحفِّزٌ للفكرِ؛ لأنَّ قطعَهُ على ﴿يَفْتَرُونَ﴾ مُشبهٌ في النَّسيجِ الأدبيِّ لعقدةِ القصَّةِ الَّتي تغري بالتَّتبُّعِ والاستقصاءِ حتّى يقفَ المتلقِّي على كافَّةِ تفاصيلِهَا؛ فهي فاصلةٌ مُشوِّقةٌ والاسترسالُ في تأمُّلِها يفضي إلى معرفةِ التَّنزيلِ كلِّهِ وتاريخِ التَّشريعِ خلالَه وأثناءَه.

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/277.

إعْجَازُ الإيجازِ بالقصْرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

اِحْتواءُ الآيةِ على معانٍ غزيرةٍ في جُملٍ قصيرةٍ

فانظر كيف جاءَ في أثناء كلماتِ الآيةِ، الَّتي هي أربعُ جملٍ قصيرةٍ من قضايا العدلِ والأخلاقِ: التَّنبيهُ إلى الرِّفق بالحيوان، والانتفاعُ الصَّالحُ ببهيمة الأنعام، والزُّروعُ المشتملةُ على الأقواتِ والخيراتِ، والمساواةُ بين النَّاسِ في الحقوقِ والواجباتِ، ومنعَتِ التَّحكُّمَ المُذِلَّ المتعسِّفَ بالحرمانِ منَ الحقوقِ الأساسيَّةِ جرَّاءَ تسلُّطِ بعضهم على بعضٍ، وإضاعةَ الاستفادةِ منَ المقدَّراتِ الاقتصاديَّةِ منَ الثَّروةِ، وتفويتَ منفعتِها، ونفَّرَت منَ الكذبِ والباطلِ والبناءِ على الظَّنِّ والتَّخمينِ بلا علم ويقينٍ، وجحدِ الحقِّ الأعلى، بالدَّينونةِ له، وذِكرِ اسمِهِ على الذَّبائحِ والمَطعوماتِ إحلالًا وتبرُّكًا، ومنَ الافتراءِ ابتداءً واستمراءً.

وذَكَرَتْ ثلاثَ قضايا خاصمَ فيها مرتكبوها الحقَّ والعقلَ والفطرةَ والأخلاقَ؛ وكلُّ ذلك وجملُها الأربع لا تزيدُ على ثلاثين كلمةً؛ ثم إذا هي تعرضُ الوقائعَ والادِّعاءَ العامَّ وأدلَّةَ التَّجريم والتَّحريم، ودفوعَ المَتّهمين ومناقشةَ الدُّفوعِ والحكمَ الفصلَ النّهائيَّ، فهل رُئِيَ أعجبُ ولا أغربُ من هذا؟ ثمّ يكونُ الحكمُ مُنطويًا على استصلاحِ المَتّهمينَ برفعِ الخسيسةِ وحجبِ النَّقيصةِ والأخذِ باليدِ للتَّوبةِ، فمَن انتهى؛ فلهُ ما سلَفَ وأمرُهُ إلى اللهِ، ومَن عادَ فكالمُلْقي بيدِهِ إلى التَّهلكةِ، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُتابعةُ حكايةِ افتراءاتِ المُشركينَ، إرفاقًا للّاحقِ منها بالسّابقِ

لـمَّا ذكر - في الآيةِ السّابقةِ - من سَفَهِهم ما فيه إقدامٌ محضٌ، وما فيه إحجامٌ خالصٌ محتٌ[1]؛ أتبعَهُ ما هو مُختلَطٌ منهما فقالَ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾[2]، فهذا نوعٌ رابعٌ من قضاياهم الباطلةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُطُونِ﴾: البَاءُ والطَّاءُ والنُّونُ أَصلٌ واحِدٌ، لا يَكادُ يُخْلِفُ، وهو إِنسِيُّ الشَّيءِ والمُقبِلُ منهُ؛ فَالبَطْنُ خِلافُ الظَّهرِ، وأَصلُ البَطنِ الجارحة، وجمعُه بُطُون، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النّجم: 32]. والمعنى المحوريُّ هو: التَّعبيرُ عنِ الجَوفِ الدَّاخليِّ للشَّيءِ، حيث يَخْفَى فيه ما يَدخلُ إليه: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: 35]، ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [النّحل: 69][3].

2) ﴿خَالِصَةٞ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والصَّادُ أَصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتَهذِيبُهُ، يَقولونَ: خَلَّصتُهُ مِن كَذَا، وخَلَصَ هُوَ، والخالصُ كالصَّافي، إلَّا أنَّ الخَالِصَ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعدَ أن

(1) يُقال: عربيٌّ بَحتٌ مَحتٌ، أي: خَالصٌ، والمَحتُ: الشّديدُ من كلِّ شيءٍ، والمعنى هنا: إحجامٌ شديدٌ، ليس فيه تردُّدٌ. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (محت).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/285.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطن).

كانَ فيه، والصَّافي قد يُقال لِمَا لا شوبَ فيه[1]. والمعنى المحوريُّ: نفاذُ الشَّيءِ نقيًّا من أثناء ما كانَ يُخالطُه أو يَشوبُه[2].

3) ﴿أَزۡوَٰجٗاۖ﴾: الزَّاءُ والوَاوُ والجيمُ أَصلٌ، يَدُلُّ على مُقَارَنَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِن ذَلِكَ الزَّوجُ زَوجُ المرأةِ، والمرأةُ زَوجُ بَعلِهَا، وَهُوَ الفَصِيحُ، يُقالُ لكلِّ واحدٍ منَ القرينين منَ الذَّكرِ والأنثى في الحيواناتِ المُتَزَاوِجَةِ زَوجٌ، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها زوجٌ، والمعنى المحوريُّ: تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكا، ويختلطا ويرتبطا معًا - كالذّكرِ بالأنثى، ولا يُقال للشّيء: زَوْجٌ، إلَّا وهو مُرتبِطٌ بآخر ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلَقُ على الفردِ بهذا القيدِ[3].

4) ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾: الوَاوُ والصَّادُ والفَاءُ أَصلٌ واحِدٌ، هُوَ تَحلِيَةُ الشَّيءِ، وَوَصَفتُهُ أَصِفُهُ وَصفًا، وَالصِّفَةُ: الأَمَارَةُ اللَّازِمَةُ لِلشَّيءِ، والوَصفُ: ذكرُ الشَّيءِ بحليتِهِ ونَعتِه، والصِّفةُ: الحالةُ الّتي عليها الشَّيء من حليتِهِ ونعتِهِ، ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 139]؛ أي: كذِبَهم وافتراءَهم[4]. والصّفةُ حِليَةُ الشّيءِ من هذا؛ لأنّها تُبيِّنُ هيئَتَه وتَصوُّرَه، وكأنَّ الأصلَ أنَّ الصِّفةَ حليةُ الشّيءِ الجيِّدِ الصِّفة المهيَّأ المسوّي، ثم عمَّمها الاستعمالُ في مُطلَقِ الوصفِ[5].

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحَاءُ والكافُ والميمُ أَصلٌ واحِدٌ، وهو المَنعُ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الحُكمُ، وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم؛ وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمنَعُهَا، يُقَالُ: حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وَأَحكَمتُهَا، ويُقَالُ: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحكَمتُهُ؛ إِذَا أخذتَ على يَدَيهِ، والحِكمةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلمِ والعقلِ، فالحكمةُ مِنَ اللهِ تعالى: معرفةُ الأشياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومِنَ الإنسانِ: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ. ووُصِفَ اللهُ ﷻ بالحكيم؛ بمعنى (المُحْكِم) في ما يقضي به، ويُجريه سبحانَه[6].

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَينُ واللَّامُ والمِيمُ أَصلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يدُلُّ على أَثَرٍ بالشَّيءِ، يَتَميَّزُ بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خلص).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وصف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وصف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حكم).

عَن غَيرِه؛ مِن ذَلِكَ العَلَامَةُ، وهِيَ مَعرُوفَةٌ[1]. والعلمُ: إدراكُ الشَّيء بحقيقتِه[2]، "والمعرفةُ: العِلْمُ المُتعلِّقُ بالمفردات، ويسبقُه الجهلُ، بخلافِ أصلِ العلم؛ فإنَّه يتعلَّقُ بالنِّسَبِ، وقد لا يسبقُه الجهلُ، ولذلك لم يوصفِ اللّهُ تعالى بالمعرفة، ووُصِفَ بالعلم"[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

صُورةٌ رابعةٌ لجَراءةِ المشركينَ على التَّحريمِ والتِّحليلِ، من غيرِ سنَدٍ ولا دليلٍ

وَخَصَّصَ هؤلاء المشركون نِتَاجَ البَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ لِذُكُورِهِم، وَحرَّمُوهُ على إنَاثِهِم، فلا تَشرَبُ الإنَاثُ مِن لَبَنِ هَذِهِ الأَنعَام، وإذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا كانَ لَحمُهُ مُخَصَّصًا للذُّكُورِ دُونَ الإنَاثِ، أَمَّا إذَا وَلَدَت أُنثَى فَتُترَكُ لِلنِّتَاجِ، وإذا وَلَدَت مَولُودًا مَيِّتًا اشتَرَكَ في أَكلِه الذُّكُورُ والإناثُ، سَيَجزِيهِمُ اللّهُ تعالى على قَولِهِمُ الكَذِبَ في ذَلِكَ؛ إنَّهُ تعالى حَكِيمٌ في أَفعَالِه وشَرعِه، وتدبيرِ أمورِ خلقِه، عَلِيمٌ بأَعمالِ العِبَادِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾:

بيانُ ما في قَوْلِهِم من بشاعةٍ وزيادةٍ في الإجرامِ والافْتراءِ

الواو عاطفةٌ لجملةِ ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ على جملةِ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾؛ لربطِ كلامِهم اللَّاحقِ بالسَّابقِ؛ لِمَا في القولين من بشاعةٍ، وزيادةٍ في الإجرامِ والافتراءِ؛ فالكلامُ مَوصولٌ في بيانِ ما حرّمُوه على أنفسِهم أو بعضِهم مِنَ الأنعامِ، وما في بطونِ هذه الأنعامِ هي مِنَ الإناثِ؛ لأنَّ الذّكورَ لا يكونُ في بطونِها شيءٌ ينالُه الرّجالُ دونَ النِّساءِ؛ وما في بطونِها الّذي يُحرَّمُ على النِّساءِ، ويباحُ للرِّجالِ خالصةً؛ قيل: هو اللَّبَنُ، وقيل: هو الحملُ، وأرى أنَّه يشملُ الأمرين[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/466.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2693.

الغَرَضُ من ذكْرِ ﴿وَقَالُواْ﴾ ثانيةً، دونَ ما يدُلُّ عليه ممَّا تقدَّمَ وممَّا لَحِقَ:

كشفُ زعْمِهم على الملأِ، وفضحُ افْترَاءاتِهم أمامَ النَّاسِ

وأُعيدَ فعلُ: (قالوا) لاختلافِ غرضِ المَقولِ[1] ممَّا تقدَّمَ كـ (زعموا) أو (افتروا)، أو ممَّا سيأتي كـ (وصفوا)، وكلا القولين باطلٌ، ويقودُهم الباطلُ إلى باطلٍ آخرَ، فادّعوا أنَّ ما في بطونِ هذه الأنعامِ من اللَّبنِ ومنَ الأجنَّةِ إذا نزلَت حيَّةً فهي للذّكورِ منهم فقط، ولا تأكلُ النِّساءُ من ذلك شيئًا، وإن ماتَ منها شيءٌ أكلَه الرّجالُ والنِّساءُ، وهذا يدُلُّ على التَّشقيقِ في القسمةِ[2]. كما أنَّ في تَكرارِ الفعلِ (قالوا) إعلانًا لزعمِهم على الملأِ؛ ليفضحَهم، وليكشفَ افتراءاتِهم أمامَ النَّاسِ جميعًا.

عِلَّةُ اختيارِ المُضيّ في الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾:

بيانُ تحقُّقِ قولِهم، والإشارةُ إلى انتهائِه

وردَ الفعلُ في الآيةِ مَاضيًا لا مُضارعًا مثل: (ويقولون)، ولا مصدرًا مثل: (وقولهم)؛ لتحقيقِ قولِهم وإثباتِه وتأكيدِه وإقامةِ الحجَّةِ عليهم؛ فلا مناصَ لهم للتَّبرُّؤِ منه، ولا يستطيعونَ عنه فكاكًا، وفي المُضيّ إشارةٌ إلى انتهاءِ قولِهم، والقضاءِ عليهم بعدمِ الرّجوعِ، تلميحًا بنهايتِهم.

نُكتةُ ذكرِ ضَميرِ الفاعِلينَ الذُّكورِ في الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾:

الإنصافُ في حكايةِ قوْلِهم، وإشراكُ المقرِّين بهِ في الحُكْمِ

أُسنِدَ القولُ إلى ضميرِ الفاعلينَ، دونَ ذكرِ الاسمِ الصَّريحِ كالمُفترينَ أو المُشركينَ؛ إنصافًا لهم؛ ليكونَ مَقولُ القولِ حاكمًا لهم أو عليهم، وليعتبرَ غيرُهم بهذا؛ فيكون عرضُ القولِ وجزاؤُه مثالًا حيًّا، يصلحُ أن يُخاطَبَ به كلُّ مُفْتَرٍ وكاذبٍ. كما أنَّ إسنادَ فعلِ القولِ إلى ضميرِ الجمعِ إشارةٌ إلى إشراكِ المُقرِّين معَ القائلينَ في الحكمِ، وتصويرٌ لِمَا في ضمائرِهم منَ الموافقةِ والإقرارِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/109.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3963.

معنَى ﴿مَا﴾، وسَببُ اختيارِها دونَ (الّذي):

مُراعاةُ إبهامِ (ما) خفاءَ الأجنَّةِ في بُطونِ الأنعامِ

كانوا يقولونَ في أجنَّةِ البحائرِ والسَّوائبِ: ما وُلِدَ منها حيًّا فهو خالصٌ للذُّكور، لا تأكلُ منه الإناثُ، وما وُلِدَ منها ميّتًا اشتركَ فيه الذُّكورُ والإناثُ[1]، فالمقصودُ بـ﴿مَا﴾ أجنَّةُ البحائرِ والسَّوائبِ[2].

وأُوثِرَ استعمالُ ﴿مَا﴾ موصولةً؛ ليوافقَ إبهامُها إبهامَ الأجنَّةِ، وهذا من دقائقِ اصطفاءِ الألفاظِ القرآنيَّةِ، ففي اختيارِ ﴿مَا﴾ مراعاةٌ لخفاءِ الأجنَّةِ في بطونِ الأنعامِ، من حيثُ كونُها حيَّةً أو ميّتةً، ذكرًا أو أنثى، واحدًا أو أكثر. ولا يؤدِّي استعمالُ (الّذي) إلى هذه المعاني؛ إذ إنَّها تخصُّ المفردَ المذكَّرَ، معلومَ الكُنْهِ في الغالبِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باللّفظِ ﴿مَا﴾ مُفتتَحَ مَقولِ القولِ:

بيانُ المحكومِ عليه قبلَ الحُكمِ؛ ليَظهرَ بُطلانُ اختلاقِهم ما ليس بحقٍّ

وافتتحَ بـ﴿مَا﴾ بعدَ الفعلِ ﴿وَقَالُواْ﴾ مع ما فيها من خفَّةٍ في اللَّفظِ، وسهولةٍ في النُّطقِ؛ لبيانِ المحكومِ عليه قبلَ الحُكمِ؛ ليتجلَّى بُطلانُ قولِهم من أوَّلِ الأمرِ، وليظهرَ اختلاقُهم واجتراؤُهم على اللّه في الحُكمِ على ما لم يوجد بعدُ ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، كما حكمُوا في الآيةِ السَّابقةِ على الأنعامِ الموجودةِ؛ وفي ذلك زيادةُ تبشيعٍ لقولِهم، وتعجيبٌ من جريانِ ذلك القولِ على ألسنتِهم.

معنَى ﴿فِي﴾ الجارَّة، في قوله: ﴿فِي بُطُونِ﴾:

الإشارةُ إلى إطلاقِهم هذا الحُكمَ، فورَ معرفتِهم حَمْلَ هذه الأنعامِ

تفيدُ ﴿فِي﴾ الظّرفيَّة؛ أي: ما استقرَّ في بطونِها، وهي إشارةٌ إلى إطلاقِهم هذا الحكمَ فورَ معرفتِهم حَمْلَ هذه الأنعامِ، واختُصَّت ﴿فِي﴾؛ لأنَّ الظّرفيَّةَ المَستفادةَ من ﴿فِي﴾ مُطلَقةٌ، أو لا إشعارَ لها يكونُ في أوّلِ الظّرفِ أو وسطِهِ أو آخرِهِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.

(3) ابن المبّرد الحنبلّي، زينة العرائس، ص: 24.

لفظُ (البُطونِ) أنسبُ بالأنعامِ؛ لأنَّه أعمُّ مِنَ الأرحامِ

مغْزَى ذكْرِ (البُطونِ) دونَ (الأرحامِ):

لم تُسندِ الأرحامُ إلى الأنعام، بل أُسنِدَ إليها البطونُ؛ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النّحل: 66]، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١﴾ [المؤمنون: 21]، قالَ أبو جعفر: "وأَوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك بالصَّوابِ أن يُقال: إنَّ الله - تعالى ذكرُهُ - أخبرَ عن هؤلاء الكفرةِ أنَّهم قالوا في أنعام بأعيانِها: ما في بطونِ هذه الأنعام خالصةٌ لذكورِنا دونَ إناثِنا، واللَّبنُ ما في بطونِها، وكذلك أجنَّتُها"[1] وعليه فإنَّ لفظَ البطونِ أنسبُ بالأنعام؛ لأنَّه أعمُّ؛ ففي بطونِ الأنعام أرحامُها وألبانُها، وليلفتَ النَّظرَ إلى البطونِ جملةً؛ لمَا في بطونِ الأنعامِ من خصائصَ لا توجدُ في غيرِها من بهيمةِ الأنعامِ[2]، ولو قالَ: (ما في أرحامِ هذه الأنعام) لخصَّ الأجنَّةَ وحدَها. وذُكِرتِ الأرحامُ مع أنثى الإبلِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ [الأنعام: 144]؛ لمناسبةِ ذكرِ الأزواجِ الثّمانيةِ منَ الضَّأنِ والمعزِ والبقرِ والإبلِ، ولمناسبةِ دلالةِ الرَّحمِ لمعنى الإبلِ؛ إذ إنَّ في الرّحمِ معنى الاتِّساعِ في باطنِ الشَّيءِ المتضامِّ مع رقّةٍ وبلالٍ، فالرَّحِمُ (كيس الجنين) وهو رِخْوٌ رطبٌ، ويتَّسعُ للجنين، كما أنَّ لفظَ (الإبل) يدلُّ على احتوائِها على شيءٍ غضٍّ كثيرٍ[3]، فهي هنا أخصُّ منَ الأنعامِ في أصلِ معناها، وإن جازَ إطلاقُ هذه على تلك لغةً.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/146.
(2) عبدالكريم بن حسن العثمان، الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم في عالم الأنعام: من أبحاث المؤتمر العالَميّ السّابع للإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة بدولة الإمارات - دبي 1425هـ - 2004م، وحامد عطيّة، إشارات إعجازيّة في تكوين لبن (حليب) الأنعام، منتدى الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إبل، رحم).

عِلَّةُ إيثارِ الجمعِ دونَ المفردِ المُغْنِي عنِ الجمعِ:

الـدَّلالـةُ على تعدُّدِها باعتبارِ ما تحتويهِ منَ الأجنَّةِ أو غيرِها

وأُوثِرَ الجمعُ ﴿بُطُونِ﴾ للدّلالةِ على تعدُّدِها باعتبارِ ما تحتويه منَ الأجنَّةِ أو غيرِهَا، وجاءَ على (فُعول) للكثرةِ، ولا يسدُّ مَسدَّه أفعُل؛ لدلالتِهِ على القلَّةِ، مع ثقلِ لفظِ (أبْطُن)؛ لَمَا فيه منَ الهمزِ والسُّكونِ ومجاورةِ ضمِّ الطَّاءِ المُستعليةِ لكسرِ النُّونِ المُستفلة، فهذا ثقيلٌ بالنِّسبةِ إلى ضمِّ الباءِ والطَّاءِ المُتْبَعَةِ بالواوِ في ﴿بُطُونِ﴾.

عِلَّةُ ذكْرِ اسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

الـدَّلالـةُ على أنَّـهـم كـانـوا عـامـديـنَ، غيرَ هـازئِـيـنَ ولا مازِحينَ

وإن تعجَبْ فعجَبٌ ماثلٌ ودَهَشٌ حَاصِلٌ لمكان اسم الإشارةِ المبدل منه هنا ﴿هَٰذِهِ﴾ وبدَلِه: ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في هذه الجملةِ المعجزةِ الشَّريفةِ اللَّطيفةِ الآسِرةِ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ إذْ لو تُرِكَ اسمُ الإشارة المبْدل منه، لم يَكْفِ في تحديدِ مدلولِ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ هنا أنَّ حملَ لامِ العُرْفِ فيها على العهدِ كافٍ في ردِّ اتِّساعِ مدلولِه لشمولِ الجِنسِ؛ إذِ العهدُ هنا لمعهودٍ كثيرٍ؛ منه (المرئيُّ)، ومنه (المملوكُ)، ومنه (القريبُ)، ومنه (البعيدُ)، ومنه المرادُ (البَحِيرَةُ والسَّائبَةُ والوَصِيلَةُ والحَامي)، المفصَّلُ بآيةِ المائدة، ومنه غيرُ المرادِ ممّا وراءَ هذه المُسَمَّيَاتِ، فجاءَ اسمُ الإشارةِ مُقيِّدًا حاصرًا، ومُخصِّصًا ذاكرًا مُحدِّدًا المَعْنى المرادَ بالافتراءِ في الادِّعاءِ، في هذا الجبروتِ الظَّالمِ والظُّلمِ المتجبِّرِ، ولو لم يُذكَرِ اسمُ الإشارةِ في المقامِ لتاهَ المعنى، وضلَّ المتلمِّسون له في بَيْداءَ وتيه عَمَاء، ولو أُريدَ الدَّلالةُ عليه بإيرادِ غيرِ اسمِ الإشارةِ لاحتاجَ إلى كلامٍ كثيرٍ. ومع ذلك لم يُغْنِ غنَاءَهُ، ولا أدَّى مؤدَّاه، لمَا في اسمِ الإشارةِ منَ (التَّنبيه) القاضي عليهم بإرادةِ عمومِ التَّنبيهِ، وقصدِ التَّنبيهِ العامِّ الَّذي لا يُعْذَرُ معه مُخالفٌ، ولا يُقْبَلُ في خلافِهِ أوطارٌ، و(التَّأنيثُ) القاضي بتمكُّنِهم منَ الدَّوابِّ والبهائمِ المسمَّاةِ، وأنَّها مجعولةٌ خَلْقًا ورزْقًا تحتَ أيديهم نِعَمًا ونَعَمًا، مُخَوَّلَةً لهم مُذلَّلةً لمآكِلِهم ومشاربِهم، والأوَّلُ "المآكل"

مقصودٌ أصليٌّ لقولِه: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾؛ إذْ لا شكَّ في تمحُّضِه للدَّلالةِ على المآكلِ، والثَّاني "المشارب" مقصودٌ تبعيٌّ أُريدَ به الألبانُ على حدِّ قولِ الحبر ترجمان القرآن، وهو الصَّوابُ والسَّدادُ؛ لأنَّه ﴿فِى بُطُونِهِۦ﴾، وقد قالوا: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وبضميمِه الآية: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النّحل: 66]، وقد جمعَ بينَ الأكلِ منها والشُّربِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21].

وقد اقتضى حسنُ النَّظرِ إغفالَ مقصدِهِمُ الأصليِّ عندَ ابنِ عبّاس اعتدادًا بكونِه عارضًا طارئًا بفعلِ الشِّركِ والوثنيَّةِ واتِّباعِ الشَّيطانِ وجنودِهِ والطَّاغوتِ وصُوَرِهِ وأهوائِه، فذكرَ الألبانَ، كما أنَّ لاسمِ الإشارةِ دلالةً على أنَّهم كانوا عامدينَ قاصدينَ غيرَ هازئينَ ولا مازحينَ، فهم بجدٍّ وصرامةٍ أقدمُوا وقالُوا، وهكذا نجدُ لاسمِ الإشارةِ منَ القيمِ العلميَّةِ والإعجازِ البيانيِّ ما إن استُفيض فيه لم تتَّسِعْ لدلالتِه بحسبِ الإمكانِ البشريِّ والجهدِ التَّفكُّريِّ التَّدبرُّيِّ التَّبصُّريِّ تضاعيفُ هذه الألواحِ والأوراقِ. فسبحانَ مَن هذا كلامه، سبحانَه وبحمدِه: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 108، النّمل: 8].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دونَ غيرِها:

مناسبةُ السِّياقِ؛ حيثُ إنَّ النِّعمةَ تقتضِي شُكرَ المُنعِمِ

سُمِّيتِ الأنعامُ بهذا دونَ (الإبل) أو (البُدن)؛ لعيشِ صاحبِها بها، وحِلِّ لحومِها وألبانِها، ومنافعِ أصوافِها وأوبارِها وجلودِها[1]؛ وذِكْرُها هنا مُناسبٌ تمامًا للسِّياقِ؛ حيث إنَّ النِّعمةَ تقتضي شكرَ المُنعِمِ، وهؤلاء بدَّلُوا نعمةَ اللهِ كفرًا؛ فحرَّمُوا ما أحلَّهُ اللهُ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نعم).

وأمَّا لفظُ (الإبل) فنلحظُ فيه معنًى لطيفًا، لا يُوجدُ بوضوحٍ في لفظَي (الأنعام والبُدن)، وهو احتواءُ الشَّيءِ الطَّويلِ أو المنبسطِ على شيءٍ غضٍّ لطيفٍ بكثرةٍ[1]، كالماءِ في جوفِ إبلِ السَّحابِ والجِمالِ؛ إذ الجِمالُ أطولُ الأنعامِ والدّوابِّ ريًّا؛ لأنَّها تصبرُ عن الماءِ ثمانيةَ عشرَ يومًا، كما هو معروفٌ، لذا فُضِّلَت في التّنقُّلِ في الصّحراءِ، وكانوا إذا أعوزَهم الماءُ في السّفرِ يبقرون بطونَها؛ ليأخذوا الماءَ من أجوافِها، فإذا توقَّعُوا ذلك قبلَ السَّفرِ سَقَوْها ماءً كثيرًا على سبيلِ الاختزانِ[2]، ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: 144]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17].

وأمَّا البُدْنُ فلفظُها مُشتقٌّ من (بدن)، و"بَدَنُ الإنسانِ جَسَدُه... ما سِوَى الرّأس والشَّوَى، ورجلٌ بادِنٌ ومُبَدَّنٌ - كمُعَظَّم: سَمِينٌ جسيمٌ، والبُدْنُ: هي ما اكتملَ سِنُّها من الأنعامِ، وكانت سمينةً[3]، وسُمِّيت البَدنةُ بدنةً لأنَّها تَبْدُن؛ أي: تَسْمَن، وهل تختصُّ بالإبلِ؟ الجمهور على ذلك، قال الزّمخشريُّ: والبُدنُ جمعُ بدنة؛ سُمِّيت لعظم بدنِها، وهي الإبلُ خاصَّةً؛ لأنَّ رسولَ اللّه ﷺ ألحقَ البقرَ بالإبلِ، فعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: «نَحرْنا مَعَ رسولِ اللّه ﷺ عامَ الحديبيةِ البَدَنَةَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة»[4]، فجعلَ البقرَ في حكمِ الإبلِ، فصارَتِ البَدنةُ متناولةً في الشَّريعةِ للجنسين عندَ أبي حنيفةَ وأصحابِه، وإلّا فالبُدْنُ هي الإبلُ، وعليه تدلُّ الآيةُ.

وقيل: لا تختصُّ بالإبلِ، فقال اللَّيثُ: البدنةُ بالهاءِ تقعُ على النَّاقةِ والبقرةِ والبعيرِ، وما يجوزُ في الهدي والأضاحي، ولا تقعُ على الشّاةِ، وقال عطاء وغيره: ما أشعرَ من ناقةٍ أو بقرةٍ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ حين سُئِلَ عن البقرِ، فقال: «ما هِيَ إلَّا مِنَ البُدْنِ»[5]، "وقيل: البُدنُ يُرادُ به العظيمُ السِّنِّ منَ الإبلِ والبقرِ، ونقلَ النّوويُّ في تحريرِ ألفاظِ التَّنبيهِ عن الأزهريّ أنّه قالَ: البدنةُ تكونُ منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ[6]، ويُقال للسَّمين منَ الرِّجالِ، وهو اسمُ جنسٍ مفرد"[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدن).
(2) ابن جرير، تاريخ ابن جرير: 3/409 - 415 - 416.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بدن).
(4) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (1318).
(5) مسلم، صحيح مسلم: 2/955، والحديث رقم: (1318)، عن جابر بن عبد الله، قال: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور؟ قال: «ما هي إلا من البدن».
(6) النَّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 144.
(7) ابن عادل، تفسير اللُّباب: 14/91.

وعليه فلا يُطلَقُ على الأنعامِ كلمةُ البُدْن إلَّا أن تكونَ كاملةَ السِّنِّ واللَّحم، ولا عيبَ فيها، أو حبسَها أهلُها للتَّسْمين، مجازًا مُرسَلًا؛ لعلاقة اعتبارِ ما سيكون، ولأنَّ اللّه تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا وَرَدَ نهيُ النَّبيِّ ﷺ عن ذبحِ ما يُخِلُّ بكونِها مُكتملةَ الأوصافِ (بَدَنَةً).

سِرُّ التَّصريحِ بذكرِ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، والغَرَضُ منه:

رفْعُ الاشتباهِ مع الأنعامِ الأخرَى السَّابقِ ذكرُها

وصُرِّحَ بذكرِ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ دونَ ضميرِها (بطونِها) مثلًا؛ لأنَّها أنعامٌ أخرى غيرُ المذكورةِ في الآيةِ السَّابقةِ، فلو قِيلَ: (ما في بطونِها) بالضَّمير لالتبسَ حكمُها بحكمِ الأنعامِ الأخرى السَّابقِ ذكرُها.

وَجْهُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَالِصَةٌ﴾ على (حلالٍ) و(خاصٍّ):

الدّلالةُ على تعظيمِهم الذُّكورَ، وكأنَّ الإناثَ شَوْبٌ

الخالصُ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعد أن كانَ فيه، وهو مُناسِبٌ لقصدِهم من قولِهم: ﴿خَالِصَةٌ﴾؛ إذ إنَّه يدُلُّ على تعظيمِهم للذُّكورِ، وكأنَّ الإناثَ شَوبٌ، وقد خَلُصَ الذُّكورُ من مشاركتِهم؛ أي: ما وُلِدَ منها حيًّا، فهو خالصٌ للذُّكورِ، لا تأكلُ منه الإناثُ، وما وُلِدَ منها ميِّتًا؛ اشتركَ فيه الذُّكورُ والإناثُ[1].

أو أنَّ معنى الخُلوص: هو خُلوصُها منَ البطونِ، والخروجُ منها عندَ ولادتِها[2]، فلا يحلُّ محلَّهُ لفظٌ آخر، نحو (حلالٍ)، أو (خاصٍّ)؛ لأنَّ كلًّا منهما لا يفيدُ معنى الخلوص.

عِلَّةُ تأنيثِ ﴿خَالِصَةٌ﴾، وتذْكيرِ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾:

التَّأنيثُ للحملِ على معنَى الأجنَّةِ، والتَّذكيرُ للحمْلِ على لفظِ (ما)

وأنَّث خالِصةً للحَملِ على المعنى؛ لأنَّ (ما) في معنى الأجنَّة، وذكَّرَ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ للحَملِ على اللَّفظِ، ونظيره ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ [محمد: 16]، ويجوزُ أن تكونَ التَّاءُ للمبالغةِ مثلها في روايةِ الشّعرِ، وأن تكونَ مصدرًا وقعَ مَوقعَ الخالصِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/128.

كالعاقبة؛ أي: ذو خالصةٍ[1]، "وكان قد سبقَ لنا أنَّ شيخَنا علم الدّين العراقيّ - رحمه اللّه - ذكرَ أنَّه لم يوجدْ في القرآن حَملٌ على المعنى أوَّلًا، ثمَّ حَملٌ على اللَّفظِ بعدَه إلَّا في هذه الآية"[2].

وحيث قُلنَا: إنَّ ﴿خَالِصَةٌ﴾ مَصدرٌ أو هي للمُبَالغَة، فليس في الكلام حَمْلٌ على مَعْنًى ثمَّ على لَفظٍ، وإن قلنا: إنَّ التَّأنيثَ فيها لأجلِ تأنيثِ ما في البُطُونِ، كان في الكلامِ الحَملُ على المَعنَى أوَّلًا، ثمّ على اللَّفظِ في قولِه: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ ثانيًا، وليسَ لِذَلك في القُرآنِ نَظِيرٌ؛ أعني: الحَمْلَ على المَعنَى أوَّلًا، ثمَّ على اللَّفظِ ثانيًا[3].

الغَرَضُ من اختيار (اللّام) في قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾:

إفادةُ معنَى الاستِحقاقِ المتناسِبِ مع غطرسَتِهم وزعْمِهم

اللّامُ في قولِه: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ للاستحقاقِ؛ إذْ إنَّها - على التَّحقيقِ - وقعَت بينَ معنى الخلوصِ وذاتِ الذُّكور، ولكنَّها على الظَّاهرِ تفيدُ الملكَ والاختصاصَ؛ لأنَّها بين ذاتين؛ الأجنَّةِ والذُّكورِ.

ومعنى الاستحقاق يتناسبُ وغطرستَهم وزعمَهم؛ حيث افتئاتُ الأحكامِ الجائرةِ، واختلاقُ الكذبِ في وضعِ الأشياءِ في غيرِ مَواضِعِها، وإعطاءِ هذا، ومنعِ ذاك.

فلذلك عُدِلَ عنِ الباءِ الدَّالَّةِ على الإلصاقِ، فلم يقُل: (خالصة بذكورنا)؛ لأنَّ معنى الإلصاقِ لا يتَّفقُ وما يعتريهم من كِبرٍ وهوًى، فليس ثمَّةَ حكمٌ ثابتٌ، بل هو متغيِّرٌ بتقلُّبِ أمزجتِهم، واختلافِ أهوائِهم، كما عُدِلَ عن (إلى) الدّالَّة على انتهاءِ الغايةِ؛ وليس الغرضُ إيصالَ ما في بطونِ الأنعامِ إلى الذُّكور، وإنَّما الاقتصارُ عليهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالذُّكورِ دونَ غيرِهِ في قوله: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾:

عُمومُ اللَّفظِ للصَّغيرِ والكبيرِ

وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالذُّكورِ دونَ الرِّجالِ أو القومِ؛ لأنَّه يعمُّ الصَّغيرَ والكبيرَ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/660.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/184.

نُكتةُ الإضافةِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمينَ ﴿لِّذُكُورِنَا﴾:

إفادةُ التَّخصيصِ بالذُّكورِ، والإشارةُ إلى ما عندَهُم من غُرورِ

أُضيفَتِ الذُّكورُ إلى ضميرِ المُتكلِّمينَ لإفادةِ التَّخصيصِ، وللإشارةِ إلى ما عندَهُم من غرورِ العظمةِ والامتلاكِ، أو خروجِ الكلامِ عن قصدِ المتكلِّمينَ إفرادَ أنفُسِهم بالمزيَّةِ إلى إفادةِ إدخالِ غيرِهم معهم تبَعًا، كما هو حِسُّ الأتباعِ الدَّائم ووجيبهم؛ يُصَرِّحونَ به في الآخرة مرَّتين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: 21]، ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47].

مُتعلَّقُ الجارِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾، وأثَرُه في إقامةِ الحُجَّةِ على المُشْركينَ:

الإشارةُ إلى معنَى الاستعلاءِ المُضاهِي لمنازَعتِهم مَن بيدِهِ التَّحليلُ والتَّحريمُ

يشيرُ حرفُ الجرِّ هنا ﴿عَلَىٰٓ﴾ إلى معنى الاستعلاءِ، الّذي يُناطُ به التَّحريمُ، فيكون شاهدًا عليهم من أنفسِهم بمنازعتِهم اللّه تعالى العليَّ الأعلى في التَّحليلِ والتّحريم.

المعنَى المتعيَّنُ للفظِ ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

المقابلةُ الشّاملةُ لِيعُمَّ الأزواجَ وغيرَهنَّ من النّساءِ

سرُّ اختيارِ لفظِ (أزواج) دونَ مقابلةِ لفظِ (ذكور) بلفظِ (إناث) مع دخولِ (نا) في الكلمتين دخولًا يقودُ باليدِ إلى معنى المقابلةِ، ومع أنَّ المعنى حقيقةً هو لـ (إناث)؛ ليشملَ الأمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ، ولا يقتصرُ على الأزواجِ فقط بل يتعداهنَّ إلى النِّساءِ كافَّةً.

عِلَّةُ الوصْلِ بالواوِ في الجُملةِ ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾:

الاستئنافُ لزيادةِ التَّبشيعِ والتَّشنيعِ والتَّقريعِ

على القولِ بأنَّ الواو في: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ للاستئنافِ، تكونُ علَّةُ الاستئنافِ زيادةَ التَّبشيعِ والتَّشنيعِ والتَّقريعِ، وإقامةَ الحُجَّةِ بالتَّناقضِ القاضي بعدمِ الأهليَّةِ للسَّدادِ والصَّوابِ المقتضي لعدمِ الانصياعِ، وانخذالِ الأتباعِ، ليُلْقُوا بأيديهم استسلامًا لهداياتِه وتشريعاتِه

ونلحظُ دلالةَ (إنْ) على الشَّكِّ والتَّقليلِ، وما في ذلك منَ النَّعي

على الـمُشركينَ بطَيشِ العقولِ وسفهِ الأحلامِ، واختلالِ موازينِ الفكرِ، وسقوطِهم في مستنقعِ التَّناقضِ.

دَلالةُ القراءاتِ الواردةِ[1] في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةً﴾:

سَعةُ مَضامينِ القرآنِ ودَلالاتِهِ، وحُسنُ مَرامِيهِ في مَبانِيهِ

القراءاتُ القرآنيَّةُ الحكيمةُ في ﴿يَكُن﴾ بين التَّذكيرِ والتَّأنيث، وفي ﴿مَّيۡتَةً﴾ بين التَّخفيفِ والتَّثقيلِ لغةً، والرَّفعِ والنَّصبِ إعرابًا، وتحقيقُ المعنى على كلٍّ بما يُجلِّي سعةَ مضامينِ القرآنِ، وسعةَ آفاقِ دلالاتِهِ، وحُسنَ مَراميهِ في مبانيه.

نُكتةُ اختيارِ المضارعِ المجزومِ مُذَكَّرًا أو مُؤنَّثًا (يكن، تكن):

التَّناسُقُ في النُّطقِ وخِفَّةُ الحركاتِ، ذو أثَرٍ في تلاؤُمِ السِّياقِ مع المعنَى

هنا نرى القرآنَ قد أحسنَ إحسانًا يفوتُ العقلَ إدراكُهُ ومراعاتُهُ عندَ نظم الكلامِ؛ إذِ اختارَ ﴿يَكُن﴾ أو ﴿تَكُن﴾ فعلًا يبدأُ مُتحرِّكًا بأوسعِ الحركاتِ وأيسرِها من فوق (كتثنيةِ نقطِ التَّاءِ هو من فوقٍ) أو من تحتِ (كتثنيةِ نقطِ الياءِ)، دونَ ماضيه (كان) أو فعلًا آخر، وقد أحاطَها بالفوقيَّةِ والتّحتيَّةِ إغناءً عن سائرِ ما بينهما من جهاتِ الجسدِ.

وحرفا المُضارعةِ مفتوحان، والفتحةُ أخفُّ الحركاتِ وأيسرُها؛ لأنَّها تخرجُ بمجرَّدِ انفتاحِ الفم دونَ عملٍ زائدٍ، وهو أنسبُ لصفةِ الكائنِ الحيِّ نماءً وأداءً في مراحلِ تكوينِهِ أو باعتبارِ أوَّليَّةِ حركتِهِ بعدَ ولادتِهِ وفي سائرِ حركاتِهِ، بَعْدُ، يلي ذلك ما يكون مُتقصِّدًا أو أكثرَ كلفةً منَ الحركاتِ، فجاءَ ضمُّ الكافِ بعدَ فتحِ الياءِ أو التَّاءِ دالًّا عليه، مُعبِّرًا عنه، مُستقصِيًا له، وبعدَ اشتدادِ الحركةِ نفقَ هذا الكائنُ الَّذي هو بهيمةُ الأنعامِ، فأعقبَ حركتَهُ بنوعيها سكونٌ مُديم لا يَريم، ولا كذلكَ (كان) الَّذي يتوسَّطُه السَّاكنُ بين فتحتين، ولا

(1) تفصيل هذه القراءاتِ المتواترةِ: قرأَ نافع وأبو عمرو وحفص وحمزة والكسائِّي ويعقوب وخلف: بتذكير (يكُنْ) ونصب (ميْتَةً) مُخفَّفَة، وقرأَ ابن كثير: بتذكير (يكُنْ) ورفع (ميْتَةٌ) مُخفَّفَة "على أنَّ (كانَ) تامّةٌ"، وقرأَ شعبة عن عاصم: بتأنيث (تكُنْ) ونصب (ميْتَةً) مُخَفَّفَة، وقرأَ ابن عامر الدّمشقيّ: بتأنيث (تكُنْ) ورفع (ميْتَةٌ) مُخَفَّفَة، وقرأَ أبو جعفرٍ يزيد بن القعقاع: بتأنيث (يكُنْ) ورفع (ميِّتَةٌ) مُثَقَّلَة. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 270، وابن الجزريّ، النّشر: 2/265.

(يوجدُ) الَّذي يبدأُ بالضّمِّ يليه السُّكون، وبعدَ السُّكونِ يجيءُ الفتحُ قبلَ سكونِ الجزمِ الأخيرِ.

على أنَّ لِـ ﴿يَكُن﴾ مزيَّةً أخرى على ما لم يكنْ كذلكَ؛ لأنَّه يُؤَدَّى بإدغامِ نُونِ ﴿يَكُن﴾ في ميم ﴿مَّيْتَةً﴾، ويا للأثرِ النَّفسيِّ التِّلقائيِّ الشُّعوريِّ الوجدانيِّ الَّذي لا يفيه التَّعبيرُ من دخولِ السَّاكنِ بسكونِهِ في ﴿مَّيْتَةً﴾ بأوَّلِ حروفِها حتّى يصيرَ النُّطقُ بالحرفين كالثَّاني مُشدِّدًا، وإذا الكلمتان تنطقان معًا، وقد جمعَ الإدغامُ بينهما أشبهَ شيءٍ بالتَّركيبِ المزْجيِّ، فيا للّه! ومَن غيرُ اللّهِ يقدرُ على هذه المقاييسِ والموازينِ؟ حتّى يكونَ التَّعبيرُ عنِ المعنى المرادِ يُؤدَّى بالذِّكرِ وبالفكرِ وبالصِّيغةِ وبالصَّوتِ كلِّه معًا في آنٍ.

نُكتةُ تذْكيرِ فعلِ الكوْنِ، مع أنَّ ﴿مَّيْتَةً﴾ مُؤنَّثٌ[1]:

رَوعـةُ الأسلوبِ القرآنيِّ في وضْعِ اللّفظِ المناسِبِ في المكانِ المناسِبِ

أوّلًا: باعتبارِ أنَّ في الأنعامِ ما هو مُذكَّرٌ ومُؤنَّثٌ يكون من بابِ التَّغليبِ.

ثانيًا: بالحملِ على معنى أنَّه حَمْلٌ أو نتاجٌ.

ثالثًا: أو للتَّأسيسِ على قولِهِ: ﴿خَالِصَةٌ﴾؛ إذ تاؤُهُ للمبالغةِ لا للتَّأنيثِ بدلالةِ قولِهِ: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾.

وانظرْ كيف جاءَ باللَّفظِ المناسبِ في المكانِ المناسبِ، فلم يقُل: (وُجِدَ) ولا مضارعه (يوجد) مع أنَّ المضارعَ جاءَ تامًّا برفعِ ﴿مَّيْتَةٌ﴾، ومعناه: (يوجد)، لكنَّ القرآنَ لم يقُل: (يوجد)، واعجب عجبًا يأخذُكَ إلى غايتِهِ حيثُ لا يَدَرُكَ، وأنت ترى القرآنَ الكريمَ يتحدَّثُ هنا عن ﴿مَّيْتَةٌ﴾ قد تحقَّقَ موتُها، فثبتَ بهذا التَّحقيقِ الحكمُ المغايرُ لَما تواضعوا عليه، ودرجوا: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، وبماذا يتحقَّقُ الموتُ علمًا وعقلًا وعرفًا وعادةً إلَّا بانتهاءِ الحركةِ وانقطاعِ مواردِها من نبضِ قلبٍ، وتنفُّسِ رئةٍ، وسكونِ حركةٍ سكونًا لا يقطعُه ضدٌّ، وكانَت

(1) في قراءةِ نافع وابن كثير وأبي عمرو وحفص وحمزة والكسائيّ ويعقوب وخلف.

قبلَ تحقُّقِ موتِها تعيشُ حياةَ الأضدادِ؛ إمَّا ناميةً في الرَّحمِ يتكاملُ خلقُها، وهي تتحرَّكُ بحركتِهِ حيثُ هي في مشيمتِها وإمّا في الخارجِ تركضُ، وتأكلُ وتُسَامُ فتُسِيم، وهذه الحركةُ في المَوضِعَين انتهَتْ بالموتِ، فجاءَ بحصولِهِ الحكمُ الجديدُ.

وَجْهُ إطباقِ القُرّاءِ - إلّا أبا جعفرٍ - على قراءةِ ﴿مَّيۡتَةٗ﴾ بالتّخفيف:

الإشـــارةُ إلى تـحقُّقِ مـوتِ الـميـتَـةِ، وقتَ إلـقـاءِ بَهيـمةِ الأنعامِ له

إشارةٌ إلى تحقُّقِ موتِهِ وقتَ إلقاءِ بهيمةِ الأنعامِ له من بحائرَ وسوائبَ ووصائلَ وحوامَّ، وقولُه: ﴿فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ دليلٌ على إطباقِ المجتمعِ الجاهليِّ على تعاطي النَّتنِ والقذرِ والخبثِ دونَ وازعٍ ولا رادعٍ ولا عقلٍ ولا ضميرٍ.

وهذا مثالٌ ممّا يشيعُ في الأممِ شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا من غيرِ المسلمينَ في أكلِ صورٍ منَ المنخنقةِ والموقوذةِ، وما ماتَ حتفَ أنفِهِ صعقًا، ومن أَكَلَةِ الدِّيدانِ والحيواناتِ النَّجِسةِ والمُستقذرةِ ممّا يدُلُّ على شدَّةِ الحاجةِ البشريَّةِ في كلِّ جيلٍ وزمانٍ إلى هداياتِ الإسلامِ وجماليَّاتِ فطرتِهِ وتهذيبِهِ وحكيمِ تشريعِهِ، وهي حاجةٌ ماسَّةٌ إلى القرآنِ الكريمِ الَّذي هو الهدى والنُّور، يُحِلُّ الطَّيِّباتِ، ويُحرِّمُ الخبائثَ، ويزكّي الطِّباعَ.

نُكتةٌ في قراءةِ أبي جعفرٍ بالتّثقيلِ في ﴿مَّيۡتَةٗ﴾:

بيانُ معنَى أنَّها يُتَرَقَّبُ لها الموتُ الّذي تَرتجيه لها النِّساءُ

قراءةُ أبي جعفرٍ بتأنيثِ (تكن) ورفعِ (ميّتةٌ) مُثقَّلةً، فيها معنى: أنّها يُتَرَقَّبُ لها الموتُ الّذي ترتجيه لها النِّساءُ؛ لينلْنَ حظوظَهنَّ من طعمتِها، كما ينالُ الرِّجالُ، على حين أنّها لا تزالُ حيَّةً لم تمتْ بعدُ، ففيه نكتةُ التَّنبيهِ على مفارقةِ النِّساءِ الرِّجالَ، أزواجًا كُنَّ أو غيرَ أزواجٍ، في الأهواءِ والآمالِ والتَّطلُّعاتِ ممَّا يشي بتفسُّخِ المجتمعِ عاطفيًّا، وتفكُّكِ قوامِهِ، وانفكاكِ جهتيه، فالرِّجالُ في جانبٍ، والنّساءُ في جانبٍ، فهنَّ وإنْ أظهرنَ المُواءمةَ والمُسالمةَ، إلّا أنَّهنَّ مَقهوراتٌ مغيظاتٌ محنقاتٌ، كما تدُلُّ لذلك القراءةُ.

إفادةُ إضمارِ دعوتِهمُ الأزواجَ إلى التَّناوُلِ منه معهم، أوِ التَّغافُلِ والسُّكوتِ

السِّرُّ في تلوينِ الخِطابِ بالالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ:

حيثُ إنَّ في الكلامِ عدولًا عنِ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ في الإخبارِ؛ فأجرى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ على غيرِ نسقِ: ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾؛ ليفيدَ للأخيرِ معاني أنَّه مُضمَرٌ منويٌّ؛ إمَّا بدعوتِهم الأزواجَ إلى التَّناولِ منه معهم قارِّينَ آمنين، وإمّا بتغافلِهم وسكوتِهم عنِ استراقِهم إليه وانتهابِهم منه على غيرِ عادتِهم في التَّوجُّسِ والإقتارِ والمنعِ والإحصارِ، وكأنَّ ذلك جاءَ رغمًا عنهم مُراغمةً أذهبَت قُوى الملاحاةِ وخواطرَ المُواثبةِ والغيْلِ والاستئثارِ ﴿فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾.

الثُّبوتُ والدَّوامُ على حُكمِ الشَّراكةِ في أكلِ الميتةِ، من دلالاتِ المعنَى هنا

نُكتةُ كوْنِ جوابِ الشَّرطِ، جُملةً اسميةً مُقترِنةً بالفاءِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ جوابُ الشَّرطِ جملةٌ اسميَّةٌ؛ ليدُلَّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ على هذا الحُكمِ، وربطَتِ الفاءُ الجوابَ بالشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على صدورِ الحُكمِ مُباشرةً بعدَ معرفةِ مَوتِ ما في بطونِ هذه الأنعامِ.

تخصيصُ المُشركينَ شِركتَهم فيما في بطونِ الأنعامِ، حالَ كونِها ميتةً، هو مَناطُ الاهتمامِ

سِرُّ تقديمِ المُتعلِّقِ على الخبرِ ﴿فِيهِ﴾ قبلَ ﴿شُرَكَآءُۚ﴾:

أصلُ التَّركيبِ في غيرِ النَّصِّ المُعجزِ (فهم شركاء فيه)، فالجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بمحذوفِ نعتٍ للنَّكرةِ قبلَه، ويكونُ الاهتمامُ حينئذٍ بشركتِهم المعهودةِ فيه وفي غيرِه، ولكن عدلَ السِّياقُ عن هذا إلى تقديمِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿شُرَكَآءُۚ﴾؛ لإفادةِ أنَّ اهتمامَهُم الأعظمَ هو تخصيصُ شركتِهم في ما في بطونِ الأنعامِ حالَ كونِها ميتةً، ويكون موقعُ الجارِّ والمجرورِ حينئذٍ مُتعلَّقًا بمحذوفٍ حالٍ من ﴿شُرَكَآءُۚ﴾؛ إذ إنَّه في الأصلِ صفتُه، فلمَّا تقدَّمَ على النِّكرةِ صارَ حالًا.

وفي ذلك إشارةٌ إلى افتئاتِهم المُبالغِ فيه، وافترائِهم القبيحِ على اللهِ، وتلفيقِهم الأحكامَ الدَّقيقةَ؛ لإيهامِ المُخاطَبين بكونِها من عندِ اللهِ.

عِلَّةُ إيرادِ الخبرِ كلمة ﴿شُرَكَآءُۚ﴾ دونَ (سواء):

إيضاحُ أنَّ الشِّركةَ في الشَّيءِ أعمُّ منَ التَّسويةِ فيه

عدلَ عن كلمةِ سواءٍ إلى ﴿شُرَكَآءُۚ﴾؛ لأنَّ الشِّركةَ في الشَّيءِ أعمُّ من تسويةِ الشَّيءِ؛ إذِ التّسويةُ تعني: المناصفةَ، في حين تكونُ الشِّركةُ بينَ الشُّركاءِ في الشَّيءِ مُناصَفَةً وغير ذلك من سعةِ التَّقسيمِ.

كما أنَّ لفظَ ﴿شُرَكَآءُۚ﴾ بمفهومِ المُخالفةِ يوحي بتفرقةِ المجتمعِ الجاهليِّ بينَ الجنسين في الأحكامِ، وانتقاصِهم من حقِّ المرأةِ، فليسَت والرَّجل سواءً.

بَلاغةُ الآيةِ في التَّعريضِ بذمِّ القائلينَ، ومَن لفّ لفَّهُم:

المبالغةُ في ذمِّهم بالتَّخبُّطِ والتَّناقُضِ، وفَقْدِ الحِسِّ الآدَمِيِّ

في الآيةِ الكريمةِ تعريضٌ(1) وتلويحٌ وإيماءٌ بذمِّ هؤلاء القائلينَ ومَن معَهم، وقد أوردَ القرآنُ قولَهم خبرًا، وكأنَّه عرَضٌ لفطرتِهم المنكوسةِ، وقولِهم العجيبِ، دونَ استغرابٍ أو تصريحٍ بشدَّةِ جُرمِهم، وعظيمِ تخبُّطِهم، وفي ذلك تهوينٌ بمآلِهم السَّيِّئ، وبيانٌ بعلمِ اللّٰهِ الواسعِ المحيطِ.

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾:

الإشارةُ إلى عَدالةِ العِقابِ الإلهيِّ، المُقتضِي أنْ لا عقوبةَ إلَّا بسبَبٍ

يشيرُ إلى عدالةِ العقابِ الإلهيِّ المقتضي أنْ لا تجريمَ إلَّا بمُخالفةٍ، وأن لا مُخالفةَ بغيرِ نصٍّ، وأنَّ اللّٰه تعالى حكمٌ عدلٌ بينَ العبادِ، وأنَّ العبادَ عندَهُ سواءٌ، وأنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ لغيرِ المُشرِّعِ جريمةٌ، وأنَّ اللّٰه يُحرِّجُ على عبادِهِ التَّشبُّهَ بالمشركين فيما ذُمُّوا عليه، وتُوعَّدوا عليه، وأنَّ إناطةَ الجزاءِ بـ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾ دليلٌ على بلوغِهِ في الشَّناعةِ والسُّوءِ الحدَّ الَّذي ليسَ فوقَهُ.

﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ وهو بيانٌ كالحكم، عَقيبَ تَكييفِ الجنايةِ، وفيه: ملازمةُ العدلِ رغمَ ارتكابِ ما يشتدُّ منه الغيظُ، وبه الحنقُ،

(1) هو نوعٌ لطيفٌ منَ الكنايةِ يُطلَقُ فيه الكلامُ مُشارًا به إلى معنًى آخر يُفهمُ منَ السّياقِ أو المقامِ الّذي يتحدثُ فيه.

وعليه الغضبُ، ولازمَهُ العقابُ، وبيان أنَّ المرادَ المحذوفَ، وهو (جزاء وصفهم) لم يزد في الإيلام عن كونِه ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾ السُّوءَ الّذي وصفوه، المذمومَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116]، وأنَّهم في اجتراحِهم لم يبالوا، فاقْتَرَفُوا مالا يطيقون قَصْمَهُ ولا وَصْمَهُ، وفيها كذلك فضلُ اللّهِ بالعلمِ وكرمُه بالحلْم؛ إذ ذكرَ السِّينَ لتكونَ إملاءً في مُدَدِ الإمهالِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13].

وفي قولِه: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ تقريرٌ للعدلِ الَّذي لا تتجاوزهُ إلى أفضل منه كافَّة الشَّرائعِ إلَّا شريعةُ الإسلامِ الَّتي أتبعَتهُ الإحسانَ، فقالَ اللّهُ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90].

ومقامُهُ هنا في الآيةِ مُندرجٌ تحتَ الختامِ المَهيبِ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾؛ إذْ لا يخفى أنَّ من حكمِهِ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]، فهل سُمِعَ في الشَّرائعِ غيرُ الإسلامِ بمثلِ هذا عفوًا وترفُّعًا وسَترًا وإغضاءً وإحسَاناً؟ أليسَ هذا التّميُّزُ المُطلَقُ من أماراتِ خلودِ هذا الدِّينِ، وأنَّه سيعمُّ الأرضَ كلَّها ويسودُ؟ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرّعد: 42].

مَغزَى اختيارِ الفعلِ ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾، دونَ غيرِه ممَّا يُؤدِّي معناه:

الــدّلالــةُ على كــمـالِ الــعـدلِ الإلهيِّ المطلَقِ

أُوثِرَ الفعلُ (يجزي) دونَ (يُوفّي) أو (يُعذّبُ) أو (يُعاقبُ)؛ لدلالتِهِ على كمالِ العدلِ الإلهيِّ، وأنَّهم سببُ هلاكِ أنفسِهم، وذلك ما أوضحناه في معنى هذه اللَّفظةِ من دلالتِها على " تحصيلِ شيءٍ مَقصودٍ من تناولِ شيءٍ أو معالجتِهِ"[1]، فما فعلوه من أمرٍ جُوزوا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جزى).

به، فلا اعتدادَ بشيءٍ في المجازاةِ إلَّا بعملِهم، دونَ هوًى أو إفراطٍ في العقوبةِ أو تفريطٍ.

نُكتةُ عدَمِ ذكْرِ الفاعلِ صريحًا في الجُملةِ:

العِلْمُ به، والتَّنبيهُ على الحُكمِ المُبْرَمِ على هؤلاء المُفْتَرين

إضمارُ الفاعلِ في قولِه: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾؛ للعلم به، وللتَّنبيهِ على الحُكمِ المُبْرمِ على هؤلاء المُفْترين، فليسَ في نجاتهم أملٌ، ولا في عودتهم رجاءٌ، ولم يظهرِ الفاعلُ في نحوِ هذا الفعلِ (يجزي) المسبوقِ بحرفِ الاستقبالِ القريبِ (السّين) إلَّا في مَوطنِ الأملِ في العودةِ والرّجوعِ، كقولِه: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: 144]، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى نسبةِ الخيرِ (أو ما يحتملُ الخيرَ) إلى اللّه، وإسنادِ الشّرِّ (أو ما يحتملُه) إليهم.

نُكتةُ مَجيءِ المفعولِ الأوّلِ ضَميرًا هو (هم)، والمعنى وراءَهُ:

زيادةٌ في التَّهديدِ والوعيدِ، ودلالةٌ على هَوانِهم على الله

وفي إيثارِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ إيصالُ الفعلِ إليهم اتِّصالًا مُباشرًا سريعًا؛ زيادةً في التّهديدِ والوعيدِ، ودلالةً على هوانِهم على اللّهِ، وعدمِ الاكتراثِ بهم، وعدم المبالاة في أيِّ أوديةِ النَّارِ أُلْقُوا.

السِّرُّ في مَجيءِ المفعولِ الثّاني ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾، دونَ غيرِه منَ الألفاظِ:

تَبشيعُ ما قامُوا به من وصْفِ الأجنَّةِ، حِلًّا وحُرمةً، وَفْقَ أهوائِهم

والوصفُ: ذكرُ حالاتِ الشَّيءِ الموصُوفِ، وما يَتَميَّزُ به لمَن يريدُ تمييزَهُ في غَرَضٍ ما، والوصفُ هنا: هو ما وصفُوا به الأجنَّةَ من حَلٍّ وحُرمةٍ لفريقٍ دونَ فريقٍ، فذلك وصفٌ في بيانِ الحَرامِ والحَلالِ منه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ [النّحل: 116][1].

نُكتةُ الإيجازِ بالحذْفِ، في جعْلِ الجزاءِ مُتعدّيًا للوصْفِ بنفسِه:

قولُه: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: سَيَجزيهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/112.

فيه استحضارُ قولِهم ذاتِه، وتشخيصُ وصْفِهم نفسِه عندَ الجزاءِ

جزاءَ وصفِهم؛ ضَمَّنَ ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ معنى يُعطيهم؛ أي: جَزاءً وِفاقًا له[1]. وبعيدًا عنِ التَّضمينِ يُفْهَمُ معنًى لطيفٌ في حذفِ المضافِ (جزاء)، وهو استحضارُ قولِهم ذاتِه، وتشخيصُ وصفِهم نفسِه عندَ الجزاءِ، فلا يستطيعونَ ردًّا، ولا يجدونَ لأنفسِهم فكاكًا.

عِلَّةُ الابتداءِ بـ(إنَّ) مكسورةَ الهمزةِ بعدَ الجُملةِ السَّابقةِ:

الاستئنافُ التَّعليليُّ، والاحترازُ من توهُّمِ أنَّ الجُملةَ هي وضْعُهم المتوعَّدُ عليه

احترازًا مِن توهُّمِ أنَّ الجملةَ هي وضعُهم الـمُتوعَّدُ عليه، وليسَ بذاك، فكان كسرُ الهمزةِ لأسبابٍ، منها: الاحترازُ، ومنها: التَّعليلُ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ إذ هي تعليليَّةٌ استئنافيَّةٌ، سدَّت فيها (إنَّ) مَسدَّ الفاءِ في الرَّبطِ المُستغْنِي عنِ الفاءِ الصَّريحةِ فيه، لكونِ الجملةِ الأولى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ مُقتضَى الثَّانيةِ ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومُتسبِّبةً عنها.

السِّرُّ في الضّميرِ العائدِ على اسْمِ الجلالةِ:

التّدرُّجُ في التّعليمِ، والتّلطُّفُ في التّفهيمِ، مَنهجٌ سامٍ كريمٌ

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، اسمُ (إنَّ) هو الضَّميرُ الـمُتَّصلُ بها، وإيثارُه مُضمَرًا على الظّاهرِ وعودُهُ على فاعل (يجزي) الـمُستترِ المنوَّهِ عنه قبلُ في محلِّه، وما فيه منَ التّدرُّجِ في الإخبارِ عنِ الملكِ الحقِّ سبحانَه ممّا فيه التَّدرُّجُ في التّعليمِ والتَّلطُّفُ في التَّفهيمِ، واستحالةُ السَّامعِ لحصولِ البلاغِ، ولئلَّا ينخلعَ قلبُهُ إن رقَّ وبُوغِتَ، فجاءَ على هذا النّحوِ: الضّميرُ الـمُستترُ فاعل ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾، فالضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾، فالاسمان الظَّاهران منَ الأسماءِ الحسنى والصّفاتِ العُلا الـمُقتضِي كلٌّ منهما مَفعولًا، تُرِكَ ذكرُهُ؛ للتّعميمِ والإطلاقِ.

علاقةُ الاسمينِ الكريمَيْنِ ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، بمعنى الآيةِ الكريمةِ:

وصفُ اللّهِ تعالى باسمِهِ الحكيمِ مُرادٌ منه الوصفُ بالحُكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ112.

والحِكمة ولوازمِهما؛ من كمالِ القدرةِ والاقتدارِ والإرادةِ إعمالًا وإبطالًا وإحياءً وإفناءً، وأنّ مَشيئَتَهُ نافذةٌ في خلقِه، وعلى العدلِ الموفِّي كلًّا ما عمل، وعلى العفوِ والمَغفرةِ لِمَن يشاءُ ممَّا لا ينافي مَشيئَتَهُ أنَّه لا يغفرُ للمُشرِكِ بِه، وعلى أنَّ عقابَهُ مُلِئَ بالحكم والمَصالحِ للخَلقِ، وكلُّ ذلك على أنَّ ﴿حَكِيمٌ﴾ خبرُ إنَّ التَّعليليَّة المفيدة ربطَ الكلام.

إبرازُ كمالِ قُدرةِ اللهِ، ودليلُ دِقَّةِ الإجْزاءِ، وإصابتِهِ أهلَهُ دونَ جَوْرٍ

ووصفُه تعالى بالعليمِ دليلٌ على دقَّةِ الإجزاءِ وإصابتِهِ أهلَهُ دون تجوُّزٍ، أو تجاوزٍ، وأنَّه سبحانَه وسعَ الجناةَ بحلمِه، فلم يعاجلْهُم بعقابِهِ مع كمالِ علمِهِ بذاتِ صدورِهِم وخلجاتِ نفوسِهِم وجميعِ جرائرِهِم وجناياتِهِم، وإمهالِهِ إيّاهُم؛ ليرعووا، ويُنيبوا، فأوسَعَهم كرمًا ورزقًا وعطاءً وإمهالًا، وأنذرَهُم بإنزالِ الكتابِ المجيدِ الَّذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه، ولا من خلفِهِ، تنزيلٌ من حكيم حميدٍ على خاتمِ أنبيائِهِ وصفوةِ رسلِهِ وخلاصةِ أتقيائِهِ، وأثرُ كونِه عليمًا صفةٌ لحكيم من جهة، وخبرٌ بعدَ خبرٍ من جهةٍ أخرى، ودلالةُ اسميه العظيمينِ الأحسنينِ على جميعِ كمالاتِهِ تعالى وصفاتِهِ الحُسنى ﷻ.

من صورِ الإبهارِ في إعجازِ الآيةِ هذه الإشراقاتُ الفريدةُ:

يـدورُ مـوضـوعُ الآيـةِ الكريمةِ حولَ الإنهاءِ في الإنباءِ

لذا بُدِئت بفعلِ القولِ يتلوه مقولُه ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ﴾، وذلكم يقتضي الإطنابَ، وإذ الموضوعُ إحكامُ الإدانةِ وتقريرُ ثبوتِ الاتِّهامِ، فقَد قَوِيَ داعي الإحصاءِ بالاستقصاءِ فيما يُثرَّبُ عليه، ويُعَيَّبُ، وكلُّ ذلكم داعيةٌ إلى بلوغِ الإطنابِ مداه إلى حدٍّ يخرجُ عنه شيءٌ ما إلى الإسهابِ الَّذي قد يُحمدُ إن كان لمزيدِ الإفهامِ والإفصاحِ عنِ الخصامِ، بيد أنَّ الأدبَ الرّبّانيَّ في الأسلوبِ القرآنيِّ يؤدِّبُنا ويُعلِّمُنا فيه الإعراضَ عن ذكرِ القبيحِ تنزُّهًا وتألُّهًا، وتطبُّعًا وترفُّعًا؛ وذلكم يقتضي الإيجازَ الَّذي سَداهُ ولُحمَتُهُ الاختصارُ والاعتصارُ؛ والأوَّلُ أبينُ للحُجَّةِ، وأنكى في المجرمِ المتقحِّمِ، وأعمُّ في البلاغِ؛ لأنَّه

يبلغُ منَ الدَّهماءِ والعامَّةِ مبلغَ الإسماعِ والإقناعِ، وذلك ما لا يبلغُهُ الإيجازُ الَّذي يُخاطبُ المُحصَّلينَ والمُتعلَّمينَ المتبصِّرينَ، ولا نزاعَ أنَّ تعميمَ البلاغِ مَقصودٌ وتوسيعَ دائرتِهِ مَرفودٌ، والثَّاني الَّذي هو الإيجازُ أدخلُ في الإعجازِ؛ إذا لم يقصِّرْ عمَّا يبلِّغُه الإطنابُ من مضامينَ، ويلمُّ به من عناصرِ الإيفاءِ الثَّمينِ، ولا ريبَ أنَّ تقبيحَ القبيحِ وتمليحَ المليحِ من مُقوِّماتِ الإقناعِ ومن دواعي الإتباعِ.

وَجْهُ مُعالجةِ الآيةِ هذا النِّزاعَ بحُسنِ الانتزاعِ:

اتِّخاذُ الإيجازِ المُعْرِضِ عن ذكْرِ القبيحِ، والإيغالِ في تفصيلِهِ مَثابةً للنَّاس

لقد أخذتِ الآيةُ بالأسلوبين وسلكَت المَنْحَيَيْن معًا دون أن تُهملَ منَ الأوَّلِ أو تغفلَ منَ الثَّاني، في عَجَبٍ عُجَابٍ ولَذٍّ مُستطابٍ؛ وذلك أنَّها اتَّخذتِ الإيجازَ المُعْرِضَ عن ذكرِ القبيحِ والإيغالَ في تفصيلِه مثابةً للنَّاسِ وأمنًا، فَجَرَتْ في أسلوبِها عليه تأنُّفًا وتعفُّفًا، وترؤُّفًا وتلطُّفًا، وجَعَلتِ الإيجازَ يتضمَّنُ الإطنابَ في لمحِ خاطفٍ مُحيطٍ، حيث جمعَت بينَ النَّصِّ ومُتعلَّقاتِهِ الكثيرةِ، واحتمال النَّصِّ لأكثرَ من مُحَالٍ إليه مأذونٍ به، لا ينازِعُ في جوازِهِ مُتَنَصِّتٌ ولا مُتَعَنِّتٌ، ونزوعُ الآيةِ إلى الاكتفاءِ بأسلوبِها، والاقتضابِ المُثْنَى به عليها.

بَلاغةُ الإنذارِ في تقريرِ قاعدةِ (الجزاءُ من جنْسِ العملِ):

القُرآنُ بلاغٌ عامٌّ، ونذيرٌ بليغٌ

الآيةُ الكريمةُ الَّتي معنا تقرِّرُ عدالةَ الحكمِ الإلهيِّ؛ إذْ إنَّها حملَت نذيرًا - يسمِّيه قانونُ الإجراءاتِ إنذارًا على يدِ مُحْضِرٍ - والمُحْضِرُ يحضِرُ المعْنيّين ليبلغَهم، وليأخذَ تواقيعَهم أن بُلِّغُوا وعَلِمُوا؛ والقرآنُ بلاغٌ عامٌّ، ونذيرٌ بليغٌ، وقد مضى قبلُ في آياتِ السُّورةِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19].

نتدبَّرها بحسب وسعِنا على هدْيٍ من أمرِ اللّٰهِ؛ لنرى الإنذارَ فيها واضحًا لائحًا، يتضمَّنُ تفنيدَ بواعثَ، أدَّت بأربابِها إلى ارتكابِ جنايةٍ ماثلةٍ، وجريمةٍ حاصلةٍ، ومن شأنِ الدِّينِ القيِّمِ أن يندِّدَ بها، وأن يُعاقِبَ عليها.

وهكذا جاءَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

وفحوى الإنذارِ فيها مُتضمِّنٌ التَّأثيمَ على القولِ المُحرِّضِ على الفعلِ المؤثِّم - بالفاعلِ والمفعولِ معًا - وهو نصٌّ بأنَّ الفعلَ المُجرَّمَ المُحرَّمَ قد ارتُكِبَ مرارًا فيما سلفَ، وقد سنَّهُ القائلونَ قانونًا يمتدُّ عدوانُه مُتوارِثًا إلى الخَلَفِ، حميَّة الجاهلية الأولى؛ فالاتِّهامُ مُحقَّقٌ، والجريمةُ مُتيَقَّنةُ الوقوعِ، ولا سبيلَ إلى الإفلاتِ من آثارِ هذا الإنذارِ بغيرِ إنابٍ يحقِّقُ المتابَ، ويردُّ إلى الصّوابِ.

والتَّفلُّتُ انحيازًا إلى السُّدورِ عسيرٌ غيرُ يسيرٍ، وكيف لا، والمُنذِرُ علَّامُ الغُيوبِ، وخبايا القلوبِ، وخفايا الذّنوبِ، ومَن هو بكلِّ شيءٍ محيط؟

وأخيرًا فإنَّ الإنذارَ يتضمَّنُ الجزاءَ من جنسِ العملِ بل بالعملِ نفسِهِ، وكأنَّه يحاكمُهم إلى فطرتِهم المُقبَّحةِ، وفي قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ ما لا يُحاطُ بفوائدِ مُفاداتِه، ونضيدِ دُرَرِه، ولا شكَّ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ هنا، وما هو في التَّنزيلِ العزيزِ من مثلِه، وهو أصرحُ منه، كقولِه تباركَ اسمُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84] وقولِه: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 33] - هو أولى بأن يكونَ أصلَ ما تُعورِفَ عليه منَ الحكمةِ السَّاريةِ، والقاعدةِ القانونيَّةِ المذكورةِ في "علم الإجرام والعقابِ"، وهو من موادِّ الدِّراساتِ الحقوقيَّةِ والقانونيَّةِ في الجامعاتِ؛ أنَّ: (الجزاءَ من جنسِ العمل)!.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾

[الأنعام: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إكمالُ بيانِ تفاصيلِ أنواعِ سَفاهاتِ المشركينَ في الجاهليّةِ

لمّا ذكرَ تعالى تفاصيلَ سفهِهِم، وأشارَ إلى معانيها، جمعَها، وصرَّحَ بما أثمرَتْهُ منَ الخَيبةِ في سبعِ خِلالٍ؛ كلُّ واحدةٍ منها سببٌ تامٌّ في حصولِ النَّدَمِ، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرَ﴾: الأصلُ في الخسرانِ: النَّقصُ، ويُستعمَلُ الخسرانُ في المُقتنياتِ الخارجةِ؛ كالمالِ والجاهِ في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المُقتنياتِ النَّفسيَّةِ؛ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ[2]، وقد وردَ في القرآنِ على خمسةِ معانٍ هي: النَّقصُ، والغبنُ، والعجزُ، والضَّلالُ، والعقوبةُ[3]، وفي لغاتِ بعضِ القبائلِ العربيَّةِ يأتي بمعنى التَّضييعِ، وذكرَ ابنُ دريد أنَّ الأصلَ في الخسرِ والخسارِ والخسرانِ وَاحِدٌ: وهو الضَّلالُ[4]، وأمارةُ أنَّه المعنى المرادُ في الآيةِ قولُه في ختامِها: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾.

2) ﴿سَفَهًا﴾: السَّفَهُ: ضدُّ الحلمِ، وَأَصلُه: الخِفَّةُ، والسَّخافةُ، والنَّزَقُ، والحركةُ، وسَفِهَ الرّجلُ؛ أَيْ: جَهِلَ، وهو خفَّةٌ في البدنِ، ومنه قيل: زمامٌ سَفِيهٌ: كثيرُ الاضطرابِ، وثوبٌ سَفِيهٌ: رديءُ النَّسجِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/286.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).

(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 278.

(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خسر).

واستُعملَ في خفَّةِ النَّفسِ لنقصانِ العقلِ، في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأخرويَّةِ[1]، وبها فُسِّرت اللَّفظةُ في الآيةِ.

المَعنى الإجماليُّ:

الخُسرانُ الحقيقيُّ للمُعتدِينَ على حقِّ اللهِ في التَّشريعِ، والمُفترين عليه

قد خسرَ، وهلكَ الَّذين قتلوا أولادَهم لضعفِ عقولِهم وجهلِهم، وحرَّموا ما رزقَهُم اللهُ كذبًا على اللهِ، قد بَعُدوا عنِ الحقِّ، وما كانُوا من أهلِ الهُدى والرّشادِ؛ فالتَّحليلُ والتَّحريمُ من خصائصِ الألوهيَّةِ في التَّشريعِ، والحلالُ ما أحلَّه اللهُ، والحرامُ ما حرَّمَه اللهُ، وليس لأحدٍ مِن خَلْقِه فردًا كان أو جماعةً أن يشرِّعَ لعبادِهِ ما لم يأذَنْ به اللهُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَذْلَكةِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَقييدُ إطلاقِ الحلالِ بضَلالِ قتْلِ الأولادِ

في الآيةِ تذييلٌ جُعِلَ فَذلَكَةً للكلامِ السَّابقِ المُشتمِلِ على بيانِ ضلالِهم في قتلِ أولادِهم، وتَحجيرِ بعضِ الحلالِ ومنعه على بعضِ مَن أُحِلَّ لهُ[3].

عِلَّةُ الافتِتاحِ بـ﴿قَدۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

خُسرانُهم لا حِقٌّ بهم لا محالَة، وغفلتهم عنه أعجب

لم يكتفِ بالفعلِ ﴿خَسِرَ﴾ دونَ ﴿قَدۡ﴾، كما اكتُفِي بالفعلِ: ﴿تَبَّتۡ﴾ في قوله تعالى ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾ [المسد: 1] وبيانُ ذلك أنَّ مغزى ﴿قَدۡ﴾ هنا، تتعدَّدُ وظائفُه منَ التَّنبيهِ على أنَّ خُسرانَهم أمرٌ ثابتٌ، ومنَ التَّعجيبِ منهم كيف عَمُوا عمَّا هُم فيه من خُسرانِهم[4]، بلْهَ أنَّها للحُكمِ الفاصلِ في قضيَّةِ الخسرانِ، ولتحقيقِ أنَّ ذلك ممَّا لا يُتَدارَكُ ولا يُستَعَاضُ عنه بغيرِه، فَخُسرُهم لاحقٌ بهم لا محالَةَ؛ فالخُسرُ هنا

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفه).

(2) نخبة منَ العلماء أساتذة التّفسير، التّفسير الميسَّر، ص: 146.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113.

فواتُ ما لا يُستَلحَقُ، ولا سبيلَ إلى إحرازِهِ بَعدَمَا فاتَ، ونظيرُ هذا الَّذي سدَّ مَسَدَّهُ في آيةِ سورةِ المَسَدِ تكرارُ الفعلِ ثانيةً: ﴿وَتَبَّ﴾ في الآية: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [المسد: 1].

بَلاغةُ الاستِعارةِ في لفْظِ ﴿خَسِرَ﴾:

الخُسرانُ ضَياعٌ للنَّفسِ، ولمصدرِ الانتفاعِ

الخسرانُ إضاعةُ النَّفسِ، كما يضيِّعُ التَّاجرُ رأسَ مالِه، فحقيقةُ الخسرانِ نقصانُ مالِ التَّاجرِ، والتَّاجرُ قاصدُ الرِّبحِ، وهو الزِّيادةُ، فإذا خَسِرَ فقد باءَ بعكسِ ما عَمِلَ لأجلِه، ولذلك كَثُرَ في القرآنِ استعارةُ الخُسرانِ لعملِ الَّذين يَعملُونَ طلبًا لمرضاةِ اللّهِ وثوابِه، فيقعُونَ في غضبِه وعِقابِه؛ لأنَّهم أتعَبُوا أنفسَهُم، فحصَّلُوا عَكسَ ما تَعِبُوا لأجلِه - والخسرانُ مُستعارٌ هنا لإضاعةِ ما شأنُهُ أن يكونَ سببَ نفعٍ - وعَدِمُوا فائدةَ الانتفاعِ بما ينتفعُ به النَّاسُ من أنفسِهم، وهو العقلُ والتّفكيرُ، فإنَّه حركةُ النَّفسِ في المعقولاتِ لمعرفةِ حقائقِ الأمورِ، وذلك أنَّهم لمّا أعرضُوا عنِ التَّدبُّرِ في حقائقِ الأمورِ، ونفعِها لهم، ومآلاتِها كان ذلك سببَ أن يضلُّوا، فيأتوا بشنيعِ الفعلِ (قتل أولادهم)؛ وبقتلِهم أولادَهم طلبُوا نفعَ أنفسِهم بالتّخلُّصِ من أضرارٍ في الدُّنيا مُحتملٍ لَحاقُها بهم من جرّاءِ بَناتِهم، فَوَقعُوا في أضرارٍ مُحَقَّقةٍ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، فإنَّ النَّسلَ نعمةٌ منَ اللّهِ على الوالِدَين يَأنَسُونَ به، ويَجِدُونَهُ لِكفايةِ مُهِمَّاتِهم، ونِعمَةٌ على القَبيلةِ تَكثُرُ وتَعتَزُّ، وعلى العالَمِ كُلِّه بكثرةِ مَن يُعمِّرُهُ، وبما يَنتفِعُ به النَّاسُ من مواهبِ النَّسلِ وصنائعِه، ونِعمةٌ على النَّسلِ نفسِه بما ينالُهُ من نعيمِ الحياةِ وملذَّاتِها[1].

شَهوَتَا البطْنِ والفرْجِ، مُبتدأُ الاعتداءِ، ومُنتهَى الغايةِ فيه

تَوجِيهُ أسلوبِ الإنشاءِ المحتَملِ، في جُملةِ الخُسرانِ:

الحكمُ بالخسرانِ الَّذي يُلْقَى على السَّامعِ؛ ليزلزلَ البنيانَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154، 8/أ113.

ويهدِّمَ الأركانَ، ويُرْعِدَ الفرائص، ويقذفَ الرُّعبَ في القلوبِ، يحتملُ معنى الإنشاءِ على الدُّعاءِ عليهم بالخسرانِ الواقعِ المَسبَّبِ تأسيسًا على أصولِ القبائحِ والرَّذائلِ الَّتي ولغُوا فيها، وسقطُوا في مهاويها؛ وأعظمُها الشِّركُ باللّه، واستيلاءُ القوَّتين الغضبيَّةِ والشَّهوانيَّةِ عليهم، ومن آثارِهما معًا قُرْبُ الزِّنى ومعافَسَةُ النِّساءِ غيرِ المحارمِ، فتكونُ الثَّمرةُ الخبيثةُ المحرَّمةُ الولدَ المولودَ، يُستَخَفُّ بحقِّهِ، استغراقًا بالنَّظرِ في أصلِهِ ومنبتِهِ، ويُودَى بحياتِهِ انتهاكًا لحرمتِهِ، فلذا ذكرَ اللّهُ النَّهيَ عن قربِ الزِّنَى مُتوسِّطًا بينَ النَّهي عن قتلِ الأولادِ خشيةَ إملاقٍ وبين النَّهي عن قتلِ النَّفسِ الَّتي حرَّمَ اللّهُ إلَّا بالحقِّ، فقالَ سبحانَه وبحمدِهِ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ۝٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ۝٣٣﴾ [الإسراء: 31 - 33]، واعتمالُ شهوةِ الفرجِ بالغلمةِ والهياجِ المشوِّشِ المفسِدِ على الذِّهنِ صفاءه، ما لم يستفرغْ وعاءَه، هو أثرٌ ظاهرٌ لمتابعةِ شهوةِ البطنِ ومسايرتِها، وشهوةُ البطنِ هذه هي الَّتي أدَّت إلى الاعتداءِ في الأنعامِ بالتَّحليلِ والتَّحريمِ بالتَّحكُّمِ الآثمِ الظَّالمِ العاري عنِ الحكمةِ، المسلوبِ الدَّواعي، الخالي منَ المقتضِيَاتِ، فضلًا عمَّا فيه منَ التَّطاولِ إلى مقامِ الألوهيَّةِ والاستكبارِ الفظِّ الجافي النَّافرِ عن نزلةِ العبوديّةِ، ومن ثَمَّ اقترنَت شهوتا البطنِ والفرجِ في إيقاظِ القوّةِ الغضبيَّةِ؛ فمنهما مبتدأُ الاعتداءِ ومجاوزةِ الحدِّ وإليهما مُنتهى الغايةِ فيه، وإنَّما ساغَ الحملُ على الدُّعائيَّةِ مجازًا في الجوازِ برغمِ تصدُّرِها بـ(قَدْ) الَّتي تفيدُ في المقامِ التَّحقيقَ؛ لأنَّ الدَّاعيَ عليهم هو المَدعوُّ إليهم ليقضي فيهم قضاءَه، وهو اللّهُ تعالى، فلذا كان تردُّدُ معناها مُمْلِحًا مُطْرِفًا بالغًا أوجَ الحُسْنِ.

وممَّا يسترعي النَّظرَ المعجَبَ المشدوهَ إعجابًا: العدولُ عن ذمِّ الفعلين القبيحين؛ ذمِّ سبابٍ وقدحٍ، إلى ما ينطوي عليه بأبلغَ مِنْ ذكرِه وأشملَ، وهو بيانُ سوءِ عاقبتِهما على أصحابِهما القتَلةِ الفعَلةِ، المُهَدِّمة ما حرَّم اللّه؛ إذِ الإنسانُ بنيانُه، وملعونٌ مَن هدمَ بغيرِ حقٍّ مُوجِبٍ بُنْيَانَه.

نُكتةُ مَجيءِ الفاعلِ المتَّصِفِ بالفعلِ اسْمًا موصولًا:

تعميمُ الحُكْمِ وتَعليقُه بوصْفِ القتْلِ

جاءَ الفاعلُ اسمًا موصولًا؛ فأظهرَ في مَوضِعِ الإضمارِ تَعميمًا وتَعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ﴾[1].

بَلاغةُ التَّعريفِ بالموصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

سَببُ خُسرانِ الوالِدينَ، قَتْلُ أولادِهم بجِنايةِ عُقولِهم المتحَجِّرة

تعريفُ المسندِ إليه بالموصوليَّةِ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في الخبرِ؛ فإنَّ خسرانَهم مُسبَّبٌ عن قتلِ أولادِهم[2].

دَلالةُ كوْنِ جُملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا ﴿قَتَلُوٓاْ﴾:

جمْعُ الفعْلِ دليلُ كَثرتِه، وصِيغتُه الماضيةُ دليلُ وُقوعِه

قولُه: ﴿قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، يدلُّ الماضي على وقوعِ الفعلِ، وتحقُّقِه؛ وذلك أنسبُ لوصفِ فاعلِه بالسَّفهِ، وغيرِ العلمِ؛ فتحقُّقُ الوصفِ ورسوخُهُ في الموصوفِ مناطُ تحقُّقِ الفعلِ، وإسنادُه إلى واو الجماعةِ بوصفِهِ فاعلًا دليلُ التَّكثيرِ المناسِبِ لتثقيلِ فعلِ القتلِ وِفاقَ قراءةِ ابن كثير، وابن عامر.

اختِصاصُ مواضعَ قُرآنيَّةٍ مَقصودةٍ بجملة: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾:

مَن يُقْدِمُ على فعلٍ شنيعٍ، مُتجرِّدٌ مِن الإيمانِ، والرَّحمةِ

اختصاصُ هذا المَوضِعِ بهذا الأسلوبِ ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾، ووقوعُه في التَّنزيلِ العزيزِ بهذا التَّمامِ ثلاثَ مرارٍ، هنّ وسُطَاها، واكتنفَها موضعان تقدَّماها وأعقَباها؛ كلاهما نصُّه: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنعام: 31]، [يونس: 45]، ثمّ يفترقان في نهايتيهما، ودلالةُ ذلك على أنَّ الإقدامَ على هذا الإجرام، دليلٌ على تجرُّدِ صاحبِه مِنَ الإيمانِ باللّهِ وبالبعثِ، ودلالةُ ذلك على الجرأةِ على الجريمةِ وبلوغِ غايةِ التَّوحُّشِ، وفقدِ الآدميَّةِ حيالَها.

توجيهُ قراءةِ تثقيلِ القتْلِ ﴿قَتَّلُوٓاْ﴾:

قرأَ الإمامانِ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ﴿قَتَّلُوٓاْ﴾، وحُمِلَ التَّثقيلُ على التَّعديدِ والتَّكثيرِ، ويمكن أن يُقالَ في توجيهِ اختلافِ القراءتين: إنَّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/286.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/114.

كُلًّا منهما لاحظَتْ معنًى، ورصدَتْ حالًا من أحوالِهم في هذا القتلِ؛ إذ لا يخلو الأمرُ من وجودِ مَن كَثُرَ ذلك منه في أولادِه، فقتل منهم مَن قتلَ ذكرانًا خوفَ الفقرِ، وإناثًا خوفَ العارِ أو تشاؤمًا، ويمكن أن يُقالَ: جُمِعَ إلى القتلِ بالمباشرةِ القتلُ بالنِّيَّةِ والعزمِ المُصَمَّمِ؛ إذ كانَتِ الصّدورُ حصَّلَتْ ذلك، وانطوَت عليه، وَتَوَطَّنَها مُقيمًا فيها لا يبرحُ، وفي التَّشديدِ إظهارٌ لفظاعةِ القتلِ وشدَّتِه بتسليطِ فعلِ القتلِ على الأولادِ[1].

تَسليطُ فعْلِ القتلِ على الأولادِ، فيه إظهارٌ لِفَظاعَةِ القَتْلِ وبَشاعَتِه

دَلالةُ مُقابلةِ الجمْعِ في الفاعلِ والمفعولِ:

في مقابلةِ جمعِ الفاعلِ في ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ بالجمعِ في المفعولِ به ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾؛ تأكيدٌ لوجهِ تكثيرِ هذا الفعلِ، وبيانٌ لأثرِ الطَّبعِ الجاهليِّ ذي القلبِ المُتحجِّرِ والخلقِ المُتوحِّشِ وانعكاسِ النَّظرِ، وأنَّه ليسَ فيهم من رشيدٍ يُنَهْنِهُ عن هذا، ويمنعُ منه، وفيه بيانُ عظمِ الحاجةِ بالإنسانيّةِ إلى الإسلامِ للتَّهذيبِ والإصلاحِ.

حاجةُ الجاهليَّةِ إلى الإسلامِ، لتهذيبِ الطِّباعِ، وإصْلاحِ الآفاتِ

عِلَّةُ إيثارِ لفْظِ (الأولادِ) دونَ غيرِه:

الأولادُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الذُّكورَ والإناثَ، والأبناءُ مُخصَّصٌ بالذُّكورِ، والبناتُ بالإناثِ؛ والتَّعبيرُ باللَّفظِ العامِّ مُوحٍ بتساوي البناتِ بالأولادِ، فضلًا عن معنى الحميميَّةِ المُتحصِّلةِ من معنى الولادةِ من أصلابِهم؛ لتبلغَ الآيةُ الأوجَ في النَّهيِ عن قساوةِ القلبِ وجفاوةِ الطَّبعِ وغِلَظِ الأكبادِ، وهي تُذكِّرُ المجنيَّ عليهم: ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، وبيان ما ينطوي عليه ذكرُ لفظِ (الأولاد) دونَ (البنات) أو (الأبناء) من تعبيرٍ مُوحٍ بمعانٍ تضرمُ الصُّدورَ انفعالًا بالجريمةِ، واستبشاعًا لها، وتكريسًا لمعنى توحُّشِهم وتَغَوُّلِهم تُجَاه أولادِهم عدوانًا عليهم، وظلمًا لهم، وافتئاتًا على حقوقِهم الفطريَّةِ في الحياةِ.

تَذكيرُ الجُناةِ بِبُنوّةِ المَقتولِينَ، تَشنيعٌ لفعْلِهم، وتَبشيعٌ لجُرمِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/115.

دَلالةُ الضَّميرِ (هم)، في قوله: ﴿أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾:

الأولادُ امتدادٌ للنّسلِ، وعونٌ لهم، وامتدادٌ باقٍ ذكرُهُ في عَقِبِهم

إضافةُ الضَّميرِ إليهم مُنبئٌ عن أنَّهم امتدادٌ لهم وإضافةٌ إليهم، إمدادًا وإنجادًا وإرفادًا وإسعادًا وعونًا مُعينًا، فيالحماقةِ أولئك الجاهليِّين وطيشِهم وضلالِ فهومِهم!

عِلَّةُ إيثارِ لفْظِ السَّفهِ، في قوله: ﴿سَفَهَۢا﴾:

تَبْديدُ المَصالحِ العظيمةِ، لأجلِ مَنفعةٍ يَسيرةٍ، هو مُنتهَى السَّفَهِ

اقتضَت حكمةُ اللّهِ إيجادَ نظامِ التّناسلِ؛ حفظًا للنَّوعِ، وتعميرًا للعالَمِ، وإظهارًا لَمَا في الإنسانِ من مواهبَ تنفعُهُ، وتنفعُ قومَهُ، على ما في عَمَلِهم من اعتداءٍ على حقِّ البنتِ الّذي جعلهُ اللّهُ لها، وهو حقُّ الحياةِ إلى انقضاءِ الأجلِ المُقدَّرِ لها، وهو حقٌّ فطريٌّ لا يملكُهُ الأبُ؛ فهو ظُلمٌ بيِّنٌ لِرَجاءِ صَلاحٍ لغيرِ المَظلوم، ولا يُضَرُّ بأحدٍ لينتفعَ غيرُهُ؛ فلمَّا قتلَ بعضُ العَرَبِ بناتِهم بالوَأْدِ كانُوا قد عطَّلُوا مصالحَ عظيمةً مُحقَّقةً، وارتكبوا به أضرارًا حاصلَةً، من حيثُ أرادوا التَّخلُّصَ من أضرارٍ طفيفةٍ غيرِ مُحقَّقةِ الوُقُوعِ، ولأجلِ ذلك سمَّى اللّهُ فعلَهم سفهًا؛ لأنَّ السَّفَهَ هو خِفَّةُ العقلِ واضطرابُهُ، وفعلُهم ذلك سَفَهٌ مَحضٌ، وأيُّ سفهٍ أعظمُ من إضاعةِ مصالحَ جمَّةٍ وارتكابِ أضرارٍ عظيمةٍ وجِنايةٍ شنيعةٍ، لأجلِ التّخلُّصِ من أضرارٍ طَفيفةٍ قد تَحصُلُ، وقد لا تُحصُلُ[1]؟ ومن هنا خُصَّ السَّفَهُ بالذِّكرِ لَمَا فيه من استدعاءٍ للآفةِ المُفسدةِ للقولِ والفعلِ والعقلِ.

التَّوْجيهُ النَّحْويُّ لإعرابِ لفظِ ﴿سَفَهَۢا﴾:

سَفْكُ دمِ الولدِ، خِفَّةُ عقلٍ، وقصُورُ تفكيرٍ

بلغَ القرآنُ الغايةَ، وهو يذكرُ حامِلَهُم على القتلِ، وأنَّهُ السَّفَهُ لا العقلُ، وتردَّدَ المُعربونَ بينَ كون ﴿سَفَهَۢا﴾ مفعولًا مُطلَقًا مُبيِّنًا - لنوعِ القتلِ؛ أي: أنَّه قتلُ سَفَهٍ لا رأيَ لصاحبِهِ، بخلافِ قتلِ العدوِّ وقتلِ القاتِلِ - أو لأجلِهِ، أو حالًا من فاعل ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ على الوصفِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/114.

بالمصدرِ، والمعنى: أنَّهم سفهاءُ بالغونَ أقصى السَّفَهِ. وفي بيانِ النَّوعِ، أو وصفِهِم بالسَّفهِ تشنيعٌ عليهم، وتقبيحٌ لفعلِهِم، وفي الحاليَّة ترسيخٌ لصفةِ السَّفهِ في الضَّالِّين؛ وهو أبلغُ في مقامِ الذَّمِّ، وأنسَبُ لعظيمِ الذَّنبِ[1].

دَلالةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾:

السَّفهُ مَظِنَّةُ عدَمِ العلمِ، وعدَمِ رَجاحةِ العقلِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ للملابسةِ، وهي في مَوضِعِ الحالِ؛ إمَّا من ﴿سَفَهَۢا﴾ فتكونُ حالًا مُؤكِّدةً؛ إذِ السَّفَهُ لا يكونُ إلَّا بغيرِ عِلمٍ، وإمَّا من فاعِلِ ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ فإنَّهم لَمَّا فعلُوا القتلَ كانُوا جاهلِينَ بِسَفاهتِهِم، وبِشَناعةِ فعلِهِم، وبِعاقبةِ ما قَدَّرُوا حُصُولَهُ لهم منَ الضُّرِّ؛ إذ قد يَحصُلُ خِلافُ ما قَدَّرُوهُ، ولو كانوا يَزِنُون المصالحَ والمفاسدَ لَما أقدَمُوا على فعلتِهِمُ الفَظيعةِ[2].

بيانُ النَّفْيِ بـ (غير) دونَ غيرِها:

نَفيُ العلمِ عنهم بـ (غير)، وإثباتُه لغيرِهم منَ الفائزينَ بطاعةِ اللهِ

في قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: (غير) كلمةٌ مُوغلَةٌ في الإبهامِ تفيدُ المغايرةَ، وأصلُها أن تفيدَ مغايرةَ مجرورِها لموصوفِها، وهي بهذا أوسعُ استعمالًا في نفيِ الأسماءِ من (لا) أو (ما) أو غيرِهما؛ إذ لا يُشترطُ في نفيِهما المغايرةُ، والنَّفيُ بـ (غير) يفيدُ الإثباتَ لغيرِ المذكورِ، ويفيدُ النَّفيَ عنِ المذكورِ بلفظِ المغايرةِ، فقولك: (ما زيدًا أكرمتُ) يفيدُ نفيَ الإكرامِ عن زيدٍ خصوصًا، وإثباتَ الإكرامِ لغيرِهِ استنتاجًا، وقولك: (غيرَ زيدٍ أكرمتُ) يفيدُ إثباتَ الإكرامِ لغيرِ زيدٍ، وينفي عن زيدٍ بلفظِ المغايرةِ، والمعنى في التّعبيرين: نفيُ الإكرامِ عن زيدٍ، ولكن بطريقتين مختلفتين[3]، فأدَّتْ ﴿بِغَيۡرِ﴾ معنى إثباتِ السَّفهِ، وخفَّةِ الرَّأيِ لهم، وتحقُّقِهِ فيهم؛ بنفيِ العلمِ عنهم،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114.

(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/212 - 213.

وإثباتِهِ لغيرِهِم من أضدادِهِم المُلتزمينَ بشرعِ اللّهِ، الوقَّافين عندَ حدودِهِ ونواهيه.

دَلالة الجمْعِ بينَ الحالَيْن ﴿سَفَهًا﴾ و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

الإيغالُ في التَّنفيرِ وقطْعِ المعذِرة

والمقصودُ منَ الإخبارِ عن كونِهِ بغيرِ علم - بعدَ الإخبارِ عنه بأنَّه سَفَهٌ - التّنبيهُ على أنَّهم فعلوا ذلك ظنًّا منهم أنَّهم أصابُوا فيما فعلُوا، وأنَّهم علمُوا كيف يرأبون ما في العالَمِ منَ المفاسدِ، وينظِّمون حياتَهم أحسنَ نظام، وهم في ذلك مغرورون بأنفسِهِم، وجاهلون بأنَّهم يجهلون ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104][1].

ويُؤخَذُ في الاعتبارِ هنا: العلمُ الَّذي له أن يأذنَ في ذلك أو يأمرَ به، وليس ذلك إلَّا للشَّرعِ، كما قال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4]، ولم يكونوا أهلَ علم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ٤٤﴾ [سبأ: 44]، والمَغزَى منه أنَّ الشَّريعةَ ضرورةٌ بشريَّةٌ وضرورةٌ إنسانيَّةٌ؛ إذ لولاها لانحطَّ الإنسانُ إلى دركٍ أسفلَ منَ الوحوشِ، فلا يُقالُ فيه بالعلمِ المضادِّ للجهلِ مُطلَقًا، كما ذهبَ إليه مَن ذهبَ، وفي ذكرِ الافتراءِ ردٌّ على ما قد يُورَدُ أنَّهم أُخذوا من غيرِ شريعةٍ ولا رسالةٍ؛ إذ قُلِّدوا ما تقلَّدوه، وأُلزِمُوا بما افتروه ناسبيه إلى اللّه كذبًا.

تَعدُّدُ دَلالاتِ إضافةِ ﴿عِلْمٍ﴾ إلى ﴿بِغَيْرِ﴾:

المبالغةُ في ذمِّهم وتقريعِهم بتنوُّعِ معاني نفْيِ العلْمِ عنهم

يؤدِّي (العلم) المنفيُّ بإضافتِهِ إلى (غير) دلالاتٍ مُتعدِّدةً بما يؤولُ إليه (غير العلم) من نَحْوِ: جهلٍ وضلالٍ وحمقٍ وإجرامٍ واعتداءٍ وظلم، وسائر ما لا يؤدِّيه العلمُ، وهو نهايةُ التَّقريعِ والوصمِ بالعارِ؛ فإن كان ثَمّ علمٌ يصلحُ أن يكون مُتمسَّكًا لقتلِ الأولادِ فهو مُتعلِّقَ بالأديانِ، فإن زعموا تشريعًا في ذلك فهو إيغال في الجهل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/114.

الوَصْلُ بالواوِ بينَ الجُملتَينِ المُتعاطِفَتَينِ:

وصلَ بالواو بينَ الجملتين المُتعاطِفَتين ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ و﴿وَحَرَّمُواْ﴾ للجمعِ بينَ الفعلين المُسبِّبين للخسران: قتلِ الأبناءِ، وتحريمِ ما رزقَهم اللّهُ من نعمةِ الإنجابِ.

الجَمْعُ بين فِعْلَيِ القتلِ والتَّحريمِ، أدَلُّ على سُوءِ صَنيعِهِم

والجمعُ بينَ الفعلين أدلُّ على شناعةِ صنيعِهِم، وقبيحِ فعالِهم، المُستوجبينَ للخسارةِ؛ وهذا المعنى لم يكنْ ليؤدِّيه الفصلُ، أو العطفُ بغيرِ الواو.

تَخصيصُ المفعولِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَا﴾، دونَ الاسْمِ الظَّاهِرِ:

رِزقُ الله أَوسعُ من أنْ يُقيِّدَه مُحدِّدٌ، أو يَمنعَه مانعٌ

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ أشدُّ إبهامًا وأوسعُ استعمالًا، ويقعُ على كلِّ شيءٍ؛ وفي استعمالِهِ ههنا توسُّعٌ في المعنى من حيثُ إعمامُ الرِّزقِ، وبيانُ سعتِهِ، فـ"ما رزقَهم اللّهُ يعمُّ السَّوائبَ والبحائرَ والزُّروعَ"[1]، وفي التَّعبيرِ عنه بالاسم الظَّاهرِ تقييدٌ له.

إيرادُ جُملةِ صِلةِ ﴿مَا﴾ فعلًا ماضيًا: ﴿رَزَقَهُمُ﴾:

نِعَمُ اللهِ تَشملُ المُقِرَّ والمُفتَرِيَ كِلَيْهِما

فضلُ إيرادِ جملةِ صلةِ ﴿مَا﴾ فعلًا ماضيًا من مادَّةِ الرِّزقِ دليلُ تحقُّقِهِ، وتأكيدُ وقوعِهِ (لهم) فضلًا منَ اللّهِ يستدعي الإحسانَ لا الكفرانَ، والإيفاءَ لا الافتراءَ.

إيثارُ الاسْمِ الأعظمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

من عادةِ القُرآنِ الكريمِ، ذِكْرُ اسمِهِ تعالى العظيمِ، في مَقاماتِ الرِّزقِ والخيرِ العَميمِ

إيثارُ ذكرِ الاسم العظيمِ الأعظمِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في مقامِ الرِّزقِ العظيمِ - المُتمثِّلِ بالذُّرِّيَّةِ الّتي وُصِفَت بأنَّها زينةُ الحياةِ الدُّنيا - وما فيه من فضلٍ في المعنى بالفضلِ في الاختيارِ، وهو فضلٌ فوقَ فضلِ ذكرِ الفاعلِ اسمًا مِنَ الأسماءِ الحسنى غيرَ لفظِ الجلالةِ، وهذا لو أنْ تَنَزَّلَ به الوحيُ لكانَ لهُ فضلٌ فوق فضلِ أن يُبنى الفعلُ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه، كأن يُقال: (وحرَّموا ما رُزِقوا) فهذه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/235.

أجوازٌ سماويَّةٌ من علياءِ البلاغةِ لا يقومُ لها ما يؤدِّي مؤدَّاها، أو يغني غناءَها في معناها.

نُكتةُ تقديمِ (القتْلِ) على (التَّحريمِ):

من بديعِ النَّظمِ مُناسبةُ الآياتِ السَّابقةِ

لمَّا تقدَّمَ تزيينُ قتلِ الأولادِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ على تحريمِ ما حرَّمُوه في قولِهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾، ناسبَ هنا ما سبقَ بتقديمِ قتلِ الأولادِ على التَّحريمِ[1].

جَوازُ تعْدِيةِ معنَى المفعولِ ﴿ٱفْتِرَآءً﴾، لِينْتظِمَ مع الفِعلَين: ﴿قَتَلُوٓاْ﴾، وَ﴿وَحَرَّمُواْ﴾:

قتلُ الأولادِ، وتحريمُ ما رزقَ اللهُ تجوُّزٌ واعتداءٌ على سُنَنِهِ وشَرْعِهِ

لأنَّ ذلك من بدائعِ الطِّباعِ كما هو من بدائعِ الشَّرائعِ؛ فالافتراءُ اختلاقُ ما لم يُشرِّعِ اللّه، وقتلُ الأولادِ وتحريمُ الرِّزقِ عينُ الافتراءِ، وجوازُ قصرِ معناه على الفعلِ الأقربِ؛ لاختصاصِ الأوَّلِ في نظمِ الجملةِ نسقًا بالسَّفهِ، ولأنَّ الرَّميَ بالسَّفهِ مُغنٍ عنِ النَّصِّ على الافتراءِ؛ لأنَّ السَّفهَ لا يكونُ إلّا افتراءً على اللّه.

السَّفهُ باعثٌ على التّحريمِ وعلى القتلِ:

تحريمُهم ما رزقَهم اللهُ، سابقٌ على الوِلادةِ ثمَّ القتلِ

برغم تقدُّمِهِ عليه لعلَّةٍ عطفِ الفعلِ الثَّاني ﴿وَحَرَّمُواْ﴾ على الفعلِ الأوّلِ ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ ممَّا يشركُ الثَّاني في حكمِ الأوَّلِ، ولاسيَّما أنَّ العطفَ بالواوِ الدَّالَّةِ على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكمِ، ومَعقوليَّةِ أن يكونَ الفعلُ المُتأخِّرُ لفظًا مُتقدِّمًا رتبةً؛ فإنَّ تحريمَهُم ما رزقَهُم اللّهُ سابقٌ على دخولِ أيٍّ منهم في الزَّوجيَّةِ؛ إذِ المُحرِّمُ من جملةِ الذُّكورِ الَّذين كانَ طُعْمَةُ ما حَرَّمُوهُ خالصةً لهم ومُحرَّمًا على أزواجِهِم، ومن الزَّوجيَّةِ جاءَ الأولادُ الَّذين اعتُدِي عليهم بالقتلِ.

سِرُّ وضْعِ الاسْمِ الظَّاهِرِ ﴿ٱللَّهُ﴾، مَوضِعَ الضَّميرِ:

أطنبَ بذكرِهِ سبحانَه في قولِه: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/235.

على حِلمِهِ مع علمِهِ، وقِحَتِهِمْ، وسوءِ أخلاقِهِم، وعظم اجترائِهِم وتقحُّمِهم مهالكَ الوثنيَّة استخفافًا بدركاتِها الوبيئة الدَّنيئة، الوبيلةِ الرَّذيلةِ، فلم يقُل: (افتراءً عليه)، كما في آيةٍ سابقةٍ، وإنَّما قال: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ سبحانَه وبحمدِهِ، قال العماديّ: "وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوقعِ الإضمارِ لإظهارِ كَمالِ عُتُوِّهِم وطُغيانِهِم"[1].

إظهـارُ لـفـظِ الـجـلالـةِ إبـرازٌ لعِظَمِ اجترائِهِم عليه سبحانَه

سِرُّ فصْلِ الجُملةِ المُنْقضِيةِ عمَّا بعدَها:

الضَّلال: خطأُ الطَّريقِ المُوصِّلِ إلى المقصُودِ، فهُم رامُوا البُلُوغَ إلى مَصالحَ دُنيويَّةٍ، والتَّقرُّبَ إلى اللهِ وإلى شُركائِهِم، فوقَعُوا في المَفاسدِ العظيمةِ، وأبعدَهُمُ اللهُ بذُنُوبِهِم، فَلذلك كانُوا كمَن رامَ الوصُولَ فسلكَ طريقًا آخرَ، وجملةُ ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ التّقريرِ في تحقُّقِ ضلالِهِم[2]، وفصلَها ولم يوصِل اكتفاءً بالخبرِ المُجمَلِ: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾؛ لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مَذهَبٍ يروعُ، ولتتوقَّعَ من جرَّائه كلَّ عقابٍ يفزعُ، ويقضُّ المَضجعَ.

تعميمُ مُروِّعاتِ تقديرِ المُتأمِّلِ، وتَوقُّعُ مُفزعَاتِ العذابِ

تَكرارُ مَجيءِ ﴿قَدۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

﴿قَدۡ﴾ في قولِهِ: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ مُستأنَفَةٌ بها الجملةُ استئنافًا بيانيًّا مُنفصلةً عمَّا سبقَها، دالَّةٌ على تحقُّقِ الفعلِ الماضي بعدَها توبيخًا لهم، وتنديمًا للخيبةِ البالغةِ، والمُبتغَى الضَّائعِ، والفواتِ المُنادِي على أهلِهِ بالفشلِ الذَّريعِ، والخُسرِ الفظيعِ، المدلولِ عليه بالضَّلالِ الضَّاربِ أطنابَه في قفارِ البوارِ وتيهِ العثارِ.

تـحـقـيـقُ وُقـوعِ الـضَّـلالِ ذمٌّ وتـوبـيـخٌ للمُشرِكين

بَلاغةُ مَجيءِ مَدخولِ ﴿قَدۡ﴾، فعلًا ماضيًا مُسنَدًا إلى الجمْعِ:

حقَّقَ وقوعُ الضَّلالِ منهم، وكثَّرَه فيهم بإسنادِهِ إلى واوِ الجماعةِ مصداقًا لقولِهِ في الآيةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام: 137]، وإيرادُه قصدٌ الى معنًى كلِّيٍّ مُرادٍ من

تـقـريـرُ أنَّ ضَلالَـهـم عِـلَّـةُ خُـسـرانِـهـم وضَياعِهِم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ115.

سوْقِ الجملة من حيث: دلالتُه على "ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غيرِ وجهِهِ"[1]؛ لمناسبتِهِ فعلَ الخسرانِ في مَطلَعِ الآيةِ بما تتضمَّنُه من معاني الضَّلالِ والضَّياعِ، وِفاقَ لغةِ بعضِ القبائلِ.

دَلالةُ الضَّلالِ على الجوْرِ عنِ القَصدِ:

الضَّلالُ: تُعْسٌ وهلاكٌ، وضَياعٌ للحُجَّةِ والبُغيةِ

ولمّا كان "كلُّ جائرٍ عنِ القصدِ ضالًّا"[2] ؛ فاستصحابُ هذا المعنى يجعلُ إيرادَ الضَّلالِ هنا مرادًا منه التَّكنيةُ به عمَّا وردَ مَذكورًا معه قرينةُ المُتلبِّسِ به لا يفارقُه، وذلك المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [مُحمّد: 8]. قالَ ابنُ منظور في معناه: "ومعنى التَّعْسِ في كلامِهِمْ: الشَّرُّ، وقيل: البُعْدُ، وللرُّسْتُميِّ: التَّعْسُ: أنْ يَخِرَّ على وجهِهِ، والنَّكْسُ أن يَخِرَّ على رأسِهِ، وقال أبو عَمرو بنُ العلاءِ: التَّعْسُ: الهلاكُ، ولابن الأثير في الدُّعاءِ: تَعْسًا له؛ أي: ألزمَهُ اللهُ هلاكًا، وقال بعضُ الكِلَابيِّين: تَعِسَ يَتْعَسُ تَعْسًا، وهو أن يُخطِئَ حَجَّتَهُ إن خاصمَ، وبُغيَتَهُ إن طَلَبَ"[3]. فانظرْ كيف اصطحبا معًا، وتعانقا فما تفارقا: (التَّعْس والضَّلال)، فالاقتصارُ على ذكرِ الضَّلالِ هنا إيجازٌ، والتَّفسيرُ يقتضيه استدعاءُ مُلَابِسِهِ ومُلَازِمِهِ وقرينِهِ، وما سيقَ من معنى التَّعسِ على ألسنتِهِم ما يتضمَّنُ القصدَ إلى معناه عندَ الملابسةِ للضَّلالِ فيكون بُعْدًا، والضَّلال به بعيدًا، ويكون شرًّا، ويصوِّرُ الوقعةَ به خرورًا على الوجه، وعاقِبَتُهُ القريبةُ الهلاكُ الَّذي لا فكاكَ منه ولا محيصَ عنه؛ لأنَّه مُلَازِمٌ له بإلزام اللهِ، وإذا حُوسِبَ وخُوصِمَ أخطأَ حُجَّتَهُ، وإذا طلبَ مُعْتَذِرًا أخطأَ بُغيتَهُ، وهي لغةُ الكِلَابيِّينَ وهؤلاء مردُّهم إلى قيس عَيْلان، فتعانقا ثانيًا: التَّعسُ والضَّلالُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (تعس)، بتصرّف.

فما سُمِعَ بيانٌ أوجزُ إيجازًا، ولا أبعدُ إعجازًا، ولا أجمعُ دلائلَ حقيقةً ومَجازًا، من هذا البيانِ البرهانِ أو هذا البرهانِ البيانِ. دلالتُه على "كلِّ شيءٍ مُقيم، لا يُهْتَدى لَه"[1]. والمأخذُ الإعجازيُّ منه للتَّفسيرِ أنَّ حُجَجَ اللهِ الباهرة، وأدلَّتَهُ الظَّاهرةَ، وبراهينَ توحيدِه، ومُوجباتِ تفريدِه، شاهدةٌ قائمةٌ بين ظهرانيهم؛ وخَلْقُهُم ونماؤُهم وتقلُّبُهم في معاشِهِم واختلافُ أحوالِهم يقظةً ومَنامًا وصحّةً وسقمًا هو مِن هذه الشَّواهدِ والأماراتِ، فأَنْ يضلُّوا عن دلائلِ الوحدانيَّةِ وشواهدِ الصَّمدانيّةِ، وهي مُقيمةٌ لا تبرحُ، حاضرةٌ لا تغيبُ، لهو الأمرُ المُريبُ، والشَّيءُ العجيبُ، أَفَكَرِهَ اللهُ انبعاثَهم، فَثَبَّطَهُمْ؟ أم أنَّهم بقتلِهِم أولادَهم خرجوا عن حقيقةِ الإنسانِ إلى أضلَّ من رتبةِ الحيوانِ؟ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179].

الوَصْلُ بين الجُملتَين الأخيرتَينِ بالواوِ العاطفةِ:

> في الجُملتَين المعطوفتَين بالواو، لا يُشترطُ التّرتيبُ، والرُّتبةُ هي المحدِّدةُ للمعنَى

وصلَ بينَ الجملتين الأخيرتين بالواوِ دونَ الفاءِ، أو ثمَّ في قولِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، وعلَّةُ اختيارِ الواو عاطفةً بينهما للدَّلالةِ على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكم من غيرِ اقتضاءِ ترتيبٍ، ممَّا يسوِّغُ أن يكونَ المُتأخِّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنًى، والعكسُ بالعكسِ كذلك.

وقصْدُ عطفِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ على ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ تأكيدُ مضمونِ جملةِ ﴿ضَلُّوا۟﴾؛ لأنَّ مَضمونَ هذه الجملةِ ينفي ضِدَّ الجملةِ الأولى، فتؤولُ إلى تقريرِ معناها.

والعربُ إذا أكَّدُوا بمثلِ هذا قد يَأتُونَ به غيرَ مَعطُوفٍ نظرًا لمآلِ مُفادِ الجملتين، وأنَّهما باعتبارِهِ بمعنًى واحدٍ، وذلك حقُّ التَّأكيدِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).

كما في قولِه تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النّحل: 21]، وقولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدّثّر: 9 - 10]. وقد يَأتون به بالعطفِ، وهو عطفٌ صُوريٌّ؛ لأنَّه اعتدادٌ بأنَّ مفهومَ الجملتين مُختلِفٌ، ولا اعتدادَ بمَآلِهما كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]، وقولِه: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: 56][1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ(ما) دُونَ (لَمْ)، قبلَ (كان) الماضيةِ:

إيضاحُ أنَّ عدَمَ الهدايةِ شأنُهم، وصِفتُهم الثَّابتةُ

تفيدُ (كان) في قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، اتِّصافَهُم بالضَّلالِ وعدمِ الهدايةِ على وجهِ الثُّبوتِ، وكأنَّ ذلك شأنٌ لهم، واستمرارُ مضمونِ الخبرِ في جميعِ الزّمنِ الماضي، وهذا يُفسِّرُ مجيئَهُ على صيغةِ الماضي، ويرى ابنُ عاشور أنَّ "(كان) هنا في حُكمِ الزَّائدةِ؛ لأنَّها زائدةٌ معَنًى، وإن كانَت عاملةً، والمُرادُ: وما هم بمُهتَدين، فزيادةُ (كان) هنا لِتحقيقِ النَّفي مثلُ موقعِها مَعَ لامِ الجحودِ، وليسَ المرادُ أنَّهم ما كانُوا مُهتدينَ قبلَ أن يَقتلُوا أولادَهم، ويُحرِّمُوا ما رزقَهُمُ اللهُ؛ لأنَّ هذا لا يَتعلَّقُ به غرضٌ بَليغٌ"[2].

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الَّذي نفاه ابنُ عاشور تقتضيه الصَّنعةُ اللُّغويَّةُ من غيرِ تكلُّفٍ؛ ذلك أنَّ الجملتين بمقتضى علمي البلاغةِ والنَّحوِ دَالَّتان على ما نفاه: أمَّا البلاغةُ فلأنَّ بناءَ الغرضِ البلاغيِّ ينبغي أن يكونَ الأسلوبُ المُؤدَّى به قائمًا على تأثيرِ المعاني صعودًا بها على سُنَنِ التَّرقِّي ممّا يقتضي تقديمَ المُتأخِّرِ ذِكرًا على سابقِهِ رُتبَةً، وتأخيرَ رُتبةِ المُتقدِّمِ ذِكرًا، لِمَا قدَّمنا أنَّ المُتأخِّرَ ذِكرًا يمثِّلُ أوَّليَّةَ معنى ما تقدَّمَهُ في الذِّكرِ بما يقتضي إيرادَهُ قبلَه في الواقعِ المقصوصِ خبرُهُ، المقتفَى أثرُه، وهذا من جهةِ المعقولِ، ولأنَّ المذكورَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/116.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/116.

آخِرًا جاءَ بأسلوبِ النَّفي، وذلك لا يستلزمُ إثباتَ ضدِّ المنْفِيِّ، فبقيتِ الحاجةُ إلى إيرادِ الإثباتِ قائمَةً لَمْ تُشْبَعْ، وهذا من جهةِ المنقولِ، وأمَّا النَّحو فلأنَّ الجملتَين مُتعاطِفتان، والعاطفُ بينهما الواوُ الدَّالَّةُ على مُطلَقِ الجمعِ معَ المشاركةِ في الحكمِ من غيرِ اقتضاءِ ترتيبٍ، ممَّا يُسوِّغُ أن يكونَ المُتأخِّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنًى، والعكسُ بالعكسِ كذلك.

النَّفيُ بـ(ما) آكدُ من (لم)، وهو يناسبُ سوءَ فِعالِهِم

في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ قُصِد إلى اختيارِ (ما) في النّفي دونَ (لم)؛ لأنَّ فيها معنى التَّأكيدِ بجعلِها في النَّفي جوابًا لـ(قد)، فكما أنَّ (قد) فيها معنى التَّأكيد، فكذلك (ما) جُعِلَت جوابًا لها؛ والتَّوكيدُ هنا مُناسِبٌ لترسيخِ الضَّلالِ فيهم جزاءً لشنيعِ فعلِهم، من خلالِ نفي الاهتداءِ بعدَ إثباتِ تحقُّقِ ضلالِهم، ثمّ إنَّ هناك فرقًا بينَ دخولِ (ما) على الماضي، ودخولِ (لم) على المضارعِ من ناحيةٍ أخرى، وهي أنَّ الماضي يدُلُّ على أنَّ الأمرَ قد انقضى، وأمَّا المضارعُ فإنَّه قد يدُلُّ على التَّكرارِ والتَّجدُّدِ والتّطاولِ، والحديثُ إنَّما هو عن حدثٍ ماضٍ كانَ قبلَ الإسلامِ؛ فالتّعبيرُ عنه بالماضي المنفيِّ بـ (ما) أنسبُ للسِّياقِ، مع دلالةِ الجملةِ المنفيَّةِ على مآلِهم المُستقبليِّ.

مَغزَى بِناءِ خبرِ (كان) على اسْمِ الفاعلِ:

إبرازُ أنَّ صِفةَ عدَمِ الهِدايةِ راسخةٌ فيهم

التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ ﴿مُهۡتَدِينَ﴾ دليلُ رسوخِ صفةِ عدمِ الهدايةِ فيهم، وثُبوتِ ذلكَ، ودَوامِه فيهم، وأنَّ شأنَ الضَّلالِ وعدمَ الهدايةِ بمنزلةِ الحاصلِ الثَّابتِ المُستقرِّ حالًا ومآلًا.

سِرُّ كوْنِ الخبرِ جمْعَ سَلامةٍ لمذكَّرٍ:

تصويرُ معنَى الضَّلالِ وعدَمِ الهِدايةِ، أوقعُ أثرًا في نفْسِ السَّامعِ

في مجيءِ خبرِ (كان) جمعَ سلامةٍ تعيينٌ للجناةِ بوصفِهم القتلةَ للأولادِ، والمُحرِّمين ما حرَّمُوا من بهيمةِ الأنعامِ الَّتي رزقَهُم اللّٰهُ مُشاعًا بينهم دونَ تخصيصٍ لنوعِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ، فضلًا عن أنَّ جمعَ السَّلامةِ أقربُ لِلَمحِ الفعلِ، وحكايةِ معناه، وتصويرِهِ في نفسِ

السَّامع، فقولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ يبعثُ في النَّفسِ إشعارًا بشهودِ فعلِ الضَّلالِ وعدمِ الهدايةِ منهم، ومُلازمتِهم له، ومُداومتِهم عليه.

عِلَّةُ مَجيءِ الاهتداء على صِيغة (الافتعالِ):

بيانُ أنّهم لم يَتكلَّفُوا السُّؤالَ عنِ الاهتداءِ، ولم يتجشَّمُوا فيه عناءً

إنَّ بناءَ ﴿مُهْتَدِينَ﴾ قبلَ حذفِ إحدى ياءَيها - وهي الأُولى - على وزن (مُفْتَعِلِينَ) ينبيكَ أنَّ المعنى دائرٌ على تصوُّرٍ يؤدِّيه تفسيرُهُ بالبحثِ عنِ الاهتداءِ وتكلُّفِ السُّؤالِ عنه، كما فعلَ الحنفاءُ في الجاهليَّةِ قبلَ البعثةِ، فَعَصَمَتهُم حَنيفيَّتُهم؛ فمنهم مَنْ دَخَلَ في صحيح دينٍ كتابيٍّ كورقةَ بنِ نوفل[1]، ومنهم مَنْ لم يدخُلْ، فبقيَ حنيفيًّا يوحِّدُ اللّه، ولا يشركُ به، ولا يأكلُ من ذبائحِ المُشرِكين، وهو زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل[2]، فلو كانَ أُولَئِكُمُ المَذمُومُونَ المَنعِيُّ عَلَيهِم غَيُّهُم، واستِمتاعُهُم بِخلَاقِهم، وقتلُهُم أولادَهُم، وافتراؤُهُم بالتَّحريم، والتواؤُهُم فيه ببدعةِ التَّقسيم، ابتغوا إلى الاهتداءِ سبيلًا يُتَكَلَّفُ، أو طلبوا عليه دليلًا يُتَعَرَّفُ، فوجدوا أم لم يجدوا، لكانَ لَهُم العذرُ إنْ فاتَهُم الأجرُ، لكنَّهم لمّا لم يُولُوهُ عنايةً مُستَحَقَّةً واهتمامًا واجبًا، وشُغْلًا ناصبًا، وبحثًا دائبًا، وكان عدمُ تجشُّمِهم فيه، وتكلُّفِهم له سببًا في استهوائِهم من الشِّياطين حيارى ضُلَّالًا مُتكفِّئين خاسئين ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠﴾ [الصَّافّات: 69 - 70].

بَلاغةُ الكِنايةِ في جُملةِ الفاصلة:

مِن سفهِهم أنَّ مآلَ سَعْيِهم الخُسرانُ

معنى نفي الاهتداءِ كنايةٌ عن إضاعةِ القصدِ؛ أي: إنَّهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا ما يُوصِلُ لخيرِ الآخرِ، وهذا نداءٌ عليهم

(1) وفيه ما أخرجَهُ الحاكمُ أبو عبد الله في المُستدرك عن عائشة ، قالَت: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا وَرَقَةَ، فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ الْجَنَّةَ أَوْ جَنَّتَيْنِ»، وقال: صحيح على شرط الشّيخين، ووافقَهُ الذّهبيّ، والألبانيّ، السِّلسلة الصَّحيحة، ص: 405.

(2) وهو ابن عمِّ عمر بن الخطاب ، وفيه أحاديثُ شريفةٌ صحيحةٌ ثابتةٌ، منها: «يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ»، أخرجه أحمد، المسند، رقم: (1648)، وغيره.

بسفهِ الرَّأي والخرق؛ فشبَّهَ سوءَ تصرُّفِهم بسوءِ تصرُّفِ مَن يريدُ الرِّبحَ، فيقعُ في الخسرانِ، فقولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ كنايةٌ عنِ الخسرانِ وإضاعةِ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ مَن لم يكنْ مُهتدِيًا أضاعَ الرِّبحَ، والنَّجاةَ، والفوزَ؛ بسوءِ سلوكِه[1].

عِلَّةُ تغايُرِ زمنِ جُملتَي الفاصلةِ:

حُكْمُهم أنَّهم ضَالُّون في الحالِ، وغيرُ قابِلينَ للاهتداءِ في المآلِ

تغايرُ زمنِ الجملتين: الماضي المُتحقِّقِ المضيِّ في ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ والاستقبالِ المُتمحِّضِ لاسمِ الفاعلِ بأصلِ الوضعِ في ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ على معنى: (ولم يكونوا ليهتدوا) إن أُمهلوا دونَ مُعاجلةِ عقوبةٍ، وأُنعِمَ لهم في إقامةِ الحُجَّةِ، وأُمعِنَ معهم في قطعِ المَعذرةِ، فهو بنظيرِ ما في الآيةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]، وأظهرُ مثالٍ في معناه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥﴾ [الذّاريات: 45]، وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 72]، فإنَّ المعنى كالَّذي دلَّ عليه في الجملةِ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 96 - 97]. وفيه معنى: أنَّه يقبضُ الإنسانَ على ما لو عاشَ لداومَ عليه منَ العملِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]، فهُم ضالُّون في الحال، وغيرُ قابلينَ للاهتداء مَآلًا، وهو أبلغُ دلالةً من توجيه ابنِ عاشور العطف بين الجملتين لقصدِ التَّأكيدِ لمضمونِ جملةِ ﴿ضَلُّواْ﴾، والتَّفاسيرُ ملأى مُترَعةٌ من صالحِ ما يُحمَلُ عليه المعنى منَ التَّأسيس غير التَّأكيدِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/301.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/362، 15/135، 8/549.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الضَّلالُ) و(الغَيُّ):

فرَّقَ الرَّازيّ بينَ الضَّلالِ والغيِّ: أنَّ الضَّلالَ في مقابلةِ الهدى، والغيَّ في مقابلةِ الرُّشدِ، وذكرَ أنَّ "تحقيقَ القولِ فيه: إنَّ الضّلالَ أعمُّ استعمالًا في الوضع، تقولُ: ضلَّ بعيري ورحلي، ولا تقولُ: غوى، فالمرادُ منَ الضَّلالِ ألَّا يجدَ السَّالكُ إلى مَقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ ألَّا يكونَ له طريقٌ إلى المقصدِ مُستقيمٌ يدلُّكَ على هذا أنَّك تقولُ للمُؤمنِ الَّذي ليسَ على طريقِ السَّدادِ: إنَّه سفيهٌ غيرُ رشيدٍ، ولا تقولُ: إنَّه كالكافرِ، والغاوي كالفاسقِ"[1]. ولهذا لا يُقالُ للمُؤمنِ: إنَّه ضالٌّ، أو غيرُ مُهتدٍ، ويُقال له: إنَّه غويٌّ غيرُ رشيدٍ[2]. وهم قاتِلو أبنائِهم، ومُحرِّمو رزقِ اللهِ؛ قطعُوا طريقَ الهدايةِ عن أنفسِهم أصلًا بافترائِهم على اللهِ، ومن هنا ناسبَت لفظةُ (الضّلال) هذا المعنى، فاختيرَتْ في النَّظم.

مَن يَفتري على اللهِ، ضالٌّ غيرُ سالكٍ إلى الهدايةِ سبيلًا

(غير العلم) و(الجهالة):

اختلفَ في المُرادِ بالجهالةِ على ثلاثةِ أقاويلَ: أحدُها: أصابَه الذَّنبُ، وعملَه عَمدًا؛ بمعنى: أنَّ الجهالةَ العمدُ[3]. و(غير العلم) في الغالب ينافي العمديَّةَ، فهو أميلُ إلى الجهلِ المُسبَّبِ عنِ السَّفهِ، وهو أبلغُ في ذمِّهم والتَّعريضِ بحالِهم بأنَّهم يفترونَ على اللهِ قتلًا وتحريمًا مع عدمِ علمِهم.

مِن شَنيعِ الفِعالِ الافتراءُ على اللهِ تعالى، والأمرُ بما لم يَشْرَع

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/234.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/464.

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعۡرُوشَـٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَـٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حـالُ المنكِرين والجاحِدين، ونماذِجُ النِّعمِ الّتي تكونُ بها المُتعةُ دونَ إسرافٍ

تُعَدُّ هذه الآيةُ واسطةَ العِقْدِ العَقَديِّ بينَ الرَّدِّ على افتراءاتِ الكافرينَ فيما سبقَ، والتَّمهيدِ لِمَا يأتي من تفصيلِ أحوالِ الأنعامِ؛ فوجهُ اتِّصالِ هذا بما قبلَهُ أنَّ الكفَّارَ لَمَّا افتروا على اللهِ الكذبَ، وأشركوا معه وحلَّلوا، وحرَّموا، دلَّهُم على وحدانيَّتِهِ بأنَّه خالقُ الأشياءِ، وأنَّه جعلَ هذه الأشياءَ أرزاقًا لهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: أصلُ الجِنِّ: سترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّةِ، والجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ أو حديقةٍ ذي شجرٍ تستر بأشجارِها الأرض، وكثافةُ فروعِ شجرِها المرفوعة تَجُنُّ؛ أي: تُظِلُّ، وتسترُ مَن يسير[2]، والمقصودُ بها جنَّاتُ الأرضِ بأمارةِ قولِهِ: ﴿كُلُواْ﴾، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

2) ﴿مَّعۡرُوشَـٰتٍ﴾: العَرشُ في الأصلِ: شيءٌ مُسقَّفٌ، يُستظلُّ به، وجمعُهُ عُرُوشٌ، وهو تفرُّعٌ وانفراشٌ يُمتَسَكُ مُشتبِكًا في أعلَى، وقيل: عَرَشْتُ الكرمَ، وعَرَّشْتُهُ؛ إذا جعلتُ له كهيئةِ سقفٍ، وقد يُقالُ لذلك: المُعَرَّشُ، قال تعالى: ﴿مَّعۡرُوشَـٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَـٰتٍ﴾[3].

3) ﴿أُكُلُهُۥ﴾: والأُكُلُ: ثمرُ النَّخلِ والشَّجرِ، وكلُّ ما يُؤكَلُ، فهو

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/99.

(2) الرّاغب، المفردات: (جن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جنن).

(3) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).

أُكُلٌ، فالأَكلُ بالفتح: المصدرُ، وبالضّمِّ: الشَّيءُ المأكولُ، قالَ تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]؛ أي: مأكولُها؛ أي: ليسَتْ كثمارِ الدُّنيا وفواكِهِها الَّتي تجيءُ وقتًا دونَ وقتٍ، وقولُه: ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]؛ أي: ما تُثمِرُه، فيؤكَلُ[1].

4) ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: "الشِّينُ والباءُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تَشَابُهِ الشَّيءِ وَتَشَاكُلِهِ لونًا وَوَصفًا"[2]. والشِّبهُ: المِثلُ، والمماثلةُ من جهة الكيفيَّةِ؛ كاللَّونِ والطَّعمِ، وكالعدالةِ والظُّلم. وتشابهَ الشّيئان، واشتبها: أشبهَ كلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا صَاحِبَهُ، وفِي التَّنزِيل: ﴿مُشۡتَبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾[3].

5) ﴿حَقَّهُۥ﴾: الحقُّ نقيضُ الباطلِ، وحقَّ الشَّيءُ؛ أي: وَجَبَ، وهو: الصَّوابُ وَالصَّحِيحُ، والحقيقة: مَا يصيرُ إِلَيهِ حقُّ الأَمرِ[4]، وأُريدَ بالحقِّ ما كانَ يُتصدَّقُ به على المساكينَ يومَ الحصادِ[5].

6) ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾: السِّينُ والرَّاءُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَعَدِّي الحَدِّ، ومُجاوزةِ القَدْرِ؛ فالإسرافُ نقيضُ الاقتصادِ، والسَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، والمُسرفونَ: المُتَجاوزونَ الحدَّ في أمورِهم، أو الحقَّ في الأخذِ منَ الشَّيءِ إلى الإهدارِ والإفسادِ[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مُخاطبةُ عُقولِ المُشرِكين، للإقرارِ بأنَّ الرَّازقَ المفضالَ، هو الله المتُعالِ

اللّهُ سبحانَه هو الَّذي خلقَ بساتين مبسوطةً على وجهِ الأرضِ دونَ ساقٍ، ومرفوعةً عليها ذاتَ ساقٍ، وهو الّذي خلقَ النَّخلَ، وخلقَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شبه).
(4) الخليل، العين: (حق)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 265 (باب الحقّ).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/72 - 73.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).

الزَّرعَ مُختلفًا ثمرُهُ في الشَّكلِ والطَّعم، وهو الّذي خلقَ الزَّيتونَ والرُّمانَ، ورقُهما مُتشابِهٌ، وطعمُهما غيرُ مُتشابِهٍ؛ كلوا - أيُّها النّاس - من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وأدُّوا زكاتَهُ يومَ حصادِهِ، ولا تتجاوزوا الحدودَ الشَّرعيَّةَ في الأكلِ والإنفاقِ، فاللّه لا يحبُّ المُتجاوِزينَ لحدودِهِ فيهما، ولا في غيرِهما، بل يبغضُهُ، إنَّ الّذي خلقَ ذلك كلَّه هو الّذي أباحَه لعبادِهِ، فليسَ للمشركينَ تحريمُهُ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ سَوْقِ (الواوِ) بينَ الاستئنافِ والعطْفِ:

في العطْفِ تذكيرٌ بـمِـنَنِ الـلـه، وتجليةٌ لنِعَمِهِ المتواليةِ

يحتملُ الاستئنافُ أنْ يكونَ بيانيًّا، فينظرُ فيه إلى آيةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: 99]، أو سرديًّا فيكون تعدادًا ضمنيًّا، أو ابتدائيًّا فيكون النَّظرُ إلى الضَّمير المبتدأ في تحقيقِ مقصودِ الكلام وغرضِه، وعلى أنَّها عاطفةٌ؛ فهي تجليةُ إنعامٍ بعدَ إنعام، ومُوجبٌ للتَّوحيد وإخلاصِ العبادةِ للّه والقيامِ بحقِّ تسبيحِهِ وحمدِهِ بعدَ مُوجِبٍ، ومُقتضاه منَ العبدِ تجديدُ استجابتِهِ للّه وتعديدِها كما في جملةِ الحاجِّ المُهلِّ: لبَّيك، إذِ التَّثنيةُ مُرادَةٌ في غيرِ نظرٍ إلى أدنى ما تتحقَّقُ به، بل هي تكرُّرُ الاستجابةِ ما بقيَت فيه عينٌ تَطرِفُ، وإن لم تَطْرِفْ.

فالعطفُ تذكيرٌ بمنَّةِ اللّهِ تعالى على النّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأرض ممَّا ينفَعُهُم، فبعدَ أن بيَّنَ سوءَ تصرُّفِ المُشركِينَ فيما مَنَّ به على النَّاسِ كُلِّهم، مع تسفيهِ آرائِهم في تحريم بعضِها على أنفسِهم، عَطَفَ عليه المِنَّةَ بذلك استنزالًا بِهِم إلى إدراكِ الحَقِّ والرّجوعِ عنِ الغيِّ(2).

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ11.

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسْمِ الصَّريحِ إلى الضَّميرِ:

إنشاءُ الجنَّاتِ مَقصورٌ عليه سُبحانَه، دونَ سِواه

الضّميرُ (هو) أداةُ ربطٍ لأجزاءِ النَّصِّ، قامَ مقامَ اللَّفظِ الظَّاهرِ، وأغنى عن تَكرارِهِ، ووصلَ منَّةَ الأنعامِ بمنَّةِ الجنّاتِ، فربطَ آخرَ الكلامِ بأوَّلِه بلفظٍ مُوجَزٍ بَليغٍ في هذا المَقامِ، مُفصِحٍ عمَّا وراءَهُ من أسرارٍ، جامعٍ للفوائدِ المُمثَّلَةِ بقَصرِ النِّعمِ عليه سبحانَه، وحصرِ المِنَنِ به جلَّ شأنُه.

وتعريفُ الجزأين بالجمعِ بين الضَّميرِ والاسم الموصولِ واتِّحادِهما أفادَ تحقيقَ معنى القصرِ وتأكيدَهُ؛ للعنايةِ بهِ بوصفِهِ خبرًا محصورًا سيقَ للمُخاطَبين منَ المُشركين الّذين افتروا على اللهِ سفهًا بغيرِ علمٍ؛ لأنَّهم في جحدِهِم نعمَهُ، وتعاليهم، وكفرِهم كحالِ مَن يجهلُ قدرةَ اللهِ تعالى على خلقِ جميعِ الموجوداتِ، والتَّصرُّفِ بها، وتسييرِها أنَّى شاءَ.

سِرّ مَجيءِ المُسْندِ اسْمًا مَوصولًا ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ المذكورةِ، يُفيدُ اختصاصَهُ تعالى بإنشاءِ النِّعمِ الأثيرةِ

وإيثارُ إيرادِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ دونَ (مَنْ) مَهيعٌ من مَهايعِ العظمةِ والجلالِ، وتعريفُ المُسندِ يفيدُ الاختصاصَ، وتعريفُ الطّرفينِ يفيدُ القصرَ؛ وكلاهما يُؤثِرُ الحصرَ، والحصرُ يقودُ إلى العبوديَّةِ الحقَّةِ، والعبادةِ الخالصةِ، كما في آية ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: 17]، والاختصاصُ يقودُ إلى خوفِ المقامِ، وإلى عدمِ أمنِ التَّغييرِ، وفيه التَّنبيهُ إلى أنَّ التَّوحيدَ وإخلاصَ العبادةِ فيها حظوظُ تسويةٍ للعبدِ، كما هي حظوظُ تربيةٍ بما فيها من تخليةٍ وتحليةٍ؛ فأمَّا هذه الأخيرةُ فمعروفةٌ، وأمَّا حظوظُ التَّسويةِ فلِمَا فيها من بلوغِ الأشدِّ في الإدراكِ ورهافةِ الحسِّ وصحَّةِ الحكمِ على الأشياءِ، ووضعِ كلِّ شيءٍ مَوضعَهُ، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ...إلخ، وجُمَّاعُهُ إيثارُ اللهِ وتفضيلُه على كلِّ ما عداه.

التَّخصِيصُ والقصْرُ:

إفرادُ من يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ بالوَحدانيّةِ، من أماراتِ الاعترافِ بالفضْلِ

يقودُ التَّخصيصُ والقصرُ بطرفٍ خفيٍّ إلى التَّذكيرِ بوحدانيَّةِ اللّه وصمدانيَّتِهِ؛ إذِ البشرُ المربوبونَ وأحياءُ الخلائقِ الحيوانيَّةِ والإنسيَّةِ والجنِّ، كلُّ أولئك يأكلُ ليغتذي، وينمو؛ واللّه وحدَهُ هو الّذي يُطْعِمُ، ولا يُطْعَمُ، فلزمَ إفرادُهُ بالعبادةِ وإخلاصِ التَّوحيدِ له سبحانَه: وقد مرَّ بأوّلِ السُّورةِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٤ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٖ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ١٦﴾ [الأنعام: 14 - 16]، وسيأتي في آخرها: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٖۚ﴾ والسُّورةُ من ركائزِ العقيدةِ.

إيثارُ الجُملةِ الاسْميَّةِ هنا على الفعليَّةِ:

نِعمةُ الجنَّاتِ المَعروشاتِ مُحقَّقةٌ دائمةٌ فضْلًا منه تعالى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾ ثباتَ نعمةِ إنشاءِ الجنَّاتِ المَعروشاتِ ودوامَها، ورسوخَ مَدلولِها، وزادَ من حتميَّةِ تحقُّقِها صوغُ فعلِ الإنشاءِ على هيئةِ الماضي الدَّالِّ على تحقُّقِ الوقوعِ بما لا يحتملُ الشَّكَّ، ولا يقبلُ النِّزاعَ، وذلكم من سعةِ رحمةِ اللّهِ تعالى بعبادِهِ، ومديدِ تفضُّلِهِ؛ بتعاهدِهِ خلقَهُ كلَّ حينٍ.

عِلَّةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ غيرِه:

الإنشاءُ تذكيرٌ بنِعَمِ الباري على خلْقِهِ

في إيثارِ فعلِ الإنشاءِ في مُفتتَحِ الآيةِ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت) حكمةٌ كبيرةٌ من جهةِ أنَّه عَوَّدٌ به على الإنسانِ المُتلقِّي السَّامعِ المُمتنِّ عليه بما سبقَ أنْ ذكرَهُ اللّهُ له فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98]؛ ليردَّهُ إلى أن يعتبرَ بإنشاءِ النَّباتِ إلى إنشائِهِ هو نفسُهُ من قبلُ، وإنشاءِ أصولِهِ كلِّها امتدادًا إلى أصلِهِ الأوَّلِ، وإنشاءِ فروعٍ منه، هو لا يملكُ إنشاءَها، وأنَّ ما يراهُ من مَراحلِ إنشاءِ النَّباتِ وتكاملِهِ وتناميهِ، حتّى بلوغِهِ مدى

التَّفريخ، وحدَّ العطاءِ والإثمارِ، وأن يُؤخذَ منه نقيلةٌ وفسيلةٌ وطُعْمٌ للتَّكاثرِ، قد مرَّ هو بِهِ مِن قبلُ في نفسِهِ ومرَّت به زوجُه وآباؤُه وأصولُه، وتمرُّ به فروعُه، والخالقُ العظيمُ الفردُ واحدٌ سبحانه، وهو يفعلُ كلَّ ذلك لخلقِهِ من رحمتِهِ وكرمِهِ، يريهمُ الغايةَ من خلقِهم؛ لينعموا بتوحيدِهِ وتمجيدِهِ، ومشاهدةِ جمالِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، وآثارِ أسمائِهِ الحسنى الجليلةِ، وصفاتِهِ العُلا الجميلةِ، ويديه المَبسوطتين بالرَّحمةِ والعطاءِ والإنعامِ والإكرامِ، وليدركوا غناه المُطلَقَ، وكمالَ قيُّوميَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ، وتفرُّدَهُ في ملكِهِ وملكوتِهِ، وأنَّه ربُّ الرَّحموتِ والجبروتِ، وذو القوَّةِ والقهرِ، وليتحقَّقَ عبادُه بلباسِ الافتقارِ الدَّائمِ إليه، فيلازموا الضَّراعةَ له والذُّلَّ الخاشعَ المُستكينَ بين يديه، ويالها من حلاوةٍ ولَذَّةٍ ونعيمٍ مُقيمٍ لا تزاحمُهُ، ولا تسامتُهُ ملاذُّ الدُّنيا كلُّها!.

دَلالةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ ما يُقارِبُهُ في المعنى:

السِّياقُ فيه إشارةٌ إلى مُلاحظةِ تكوينِ المكوّناتِ، في نشأةِ الكائناتِ

وإيثارُهُ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت)، وكلُّها قرآنيَّةٌ فيه أسرارٌ ودُررٌ ومعانٍ كملاحظةِ إنشائِهِ منَ العدمِ[1]، وتكوينِهِ بمراحلِهِ وأطوارِهِ من مبْتداه إلى امتلائِهِ بالزَّهرِ والنَّوْرِ والثَّمرِ، وطروءِ التَّخليقِ عليه والإكمالِ، كلَّ لحظةٍ بما يدُلُّ على تعاهدِ اللّهِ خلقَه دومًا، وهكذا البشرُ الغافلون مَربوبون، ويتقلَّبونَ في عطاءِ الرُّبوبيَّةِ وفيوضاتِ إنعامِها، وكملاحقةِ امتدادِها وانتشارِها، وكَثْرةِ صنوفٍ، واتِّساعِ أشباهٍ على مساحاتٍ فسيحةٍ، وأبعادٍ شاسعةٍ واسعةٍ لا يبلغُ مداها البصرُ، وما أودعَ فيه من قوَّةِ جذوعٍ وبداعةِ فروعٍ وهائلِ امتدادٍ؛ فكلُّ ذلك للإنشاءِ إيحاءاتُه فيه، وإلَّا فكيف ذكرَ: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤﴾ [الرحمن: 24] - ملاحَظًا جريانُها - على قراءة ﴿ٱلۡمُنشِـَٔاتُ﴾ باسمِ الفاعلِ، كما هو لحمزةَ وأحد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

الوجهَين عن شُعبة، وباسم المفعولِ مُلاحَظًا ضخامتَها وارتفاعَها بقرينةِ التَّشبيهِ بالجبالِ الشُّمِّ الرّواسي.

الدَّلالةُ الصَّوتيَّةُ للفعلِ (أنشأ)، وأَثرُها في التّركيبِ:

دِقَّةُ الإنشاءِ وامتدادُهُ، ووضوحُ أَثرِهِ في الخَلْقِ

ومَن يتأمَّلْ جرسَ الفعلِ (أنشأ)، المبتدأ والمنتهي بحرفٍ اختُصَّ بأعمقِ المخارجِ، وهو مجهورٌ، شديدٌ، تعجَّبَ لاجتماعِهما فيه، وهو غيرُ مُقلقَلٍ، حاصرين بينهما حرفَ التَّفشي - الوحيد في الأكيدِ من ذلك - ودلالةُ هذا الفعلِ بتركيبِهِ البنائيِّ هذا على المفعولاتِ له المذكوراتِ بعدَهُ بما يوحي بدقَّةِ التَّكوينِ وامتدادِهِ وانتشارِهِ وظهورِ تأثيرِه على البشرِ، في إعجازٍ يذهلُ تسريحُ الفكْرِ فيهِ إذهالًا مُستَغرِقًا يُطوِّفُ بصاحبِهِ في زواهيهِ وروابيهِ وثَمرِهِ وقائمِ زرعِهِ، وهائمِ ينعِهِ، ولذيذِ طعمتِهِ، وحفيِّ جَناه، وبركةِ حصادِه، وما يُناطُ بالمُكلَّفِ المُنعَمِ عليه من حقوقٍ وآدابٍ في ممارساتِهِ المُتعلِّقةِ بعوائدِهِ وتعاملاتِهِ.

سِرُّ إيرادِ اللَّفْظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ دونَ لفْظِ ﴿حَدَآئِقَ﴾:

اشتمالُ الجنَّاتِ على النَّخلِ والعِنَبِ خِلافَ الحدائقِ

الجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجرٍ يسترُ بأشجارِهِ الأرضَ[1]، ومن هنا لا تكونُ الجنَّةُ في كلامِ العربِ إلَّا وفيها نخلٌ وعنبٌ، فإن لم يكنْ فيها ذلك، وكانت ذاتَ شجرٍ؛ فهي حديقةٌ، وليسَت بجنَّةٍ[2]، قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النَّمل: 60]، وقالَ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النَّبأ: 32]، ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠﴾ [عَبَسَ: 30].

وبينَ الجَنَّاتِ والأعنابِ آصرةٌ قويَّةٌ؛ فالجنَّاتُ هي الأرضُ ذاتُ الأشجارِ المُلتفَّةِ الكثيفةِ الَّتي لا تُرى أرضُها لتكاثفِ أشجارِها، وهذا شأنُ العرائشِ من أشجارِ العنبِ تكونُ جنَّةً ساترةً لأرضِها[3]؛ فحسُنَ اقترانُ الأعنابِ بالجنَّاتِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنن).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.

ومن هنا ففي كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفةِ المُقدَّرةِ وكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفِ عليها المذكورةِ، إيحاءاتٌ بلاغيَّةٌ ثرَّةٌ ومعانٍ ثريَّةٌ غنيَّةٌ دسمةٌ فائقةُ الحسنِ فيما تَجِنُّ، وفيما تُجَنُّ به، من ورقٍ مُندًّى وزهرٍ ونَوْرٍ وأكمامٍ وثمارٍ وفروعٍ وأغصانٍ وألوانٍ وروائحَ وطعومٍ، وبُسطٍ تحتَها من حشائشَ كالسُّندسِ، ومُلْكٍ كبيرٍ جَلَّ مُبدِعُه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: 24].

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في وصْفِ الجنَّاتِ:

الجنَّاتُ ظرفٌ للشَّجرِ الحالِّ بها، وكثافةُ الشَّجرِ وتَشابُكُه هو الجنَّةُ

وفي القدرِ المذكورِ مَجازٌ مُرسَلٌ في وصفِ الجنَّاتِ بمعروشاتٍ وغيرِ مَعروشاتٍ علاقتُه المحليَّةُ؛ إذ المعروشُ الشَّجرُ الحالُّ في الجنَّاتِ، والجنَّاتُ ظرفُه ومحلُّه.

بَلاغةُ إطلاقِ لفْظِ (الجنَّاتِ) على التَّنعُّمِ بها وبزينَتِها:

جنَّاتُ الدُّنيا أُنموذجٌ دُنيويٌّ لنَعيمِ الآخرةِ

ومن لطيفِ أسلوبِ القرآنِ ثَمَّ، التَّنبيهُ بتسميةِ الجنَّاتِ على التّنعُّمِ بزينتِها، والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ في الحياةِ الدُّنيا، وطلبِ مَرضاةِ اللّهِ بطاعتِهِ وشكرِه، وتعلُّقِ القلبِ بالتَّطلُّعِ إلى جنَّاتِ الآخرةِ، حيثُ الخلودُ بلا فَناءٍ والنّعيمُ بلا انتهاءٍ، فسَمَّاها ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ لاستدعاءِ ذلك كما في ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [البقرة: 25].

سِرُّ إعْجازِ القُرآنِ في إطلاقِهِ اسْمَ (الجنَّاتِ) عليها:

في ذكْرِ الجنَّاتِ تَرغيبٌ وتَرهيبٌ

الجمعُ بين جناحي الدَّعوةِ إلى اللّهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فالتَّرغيبُ باستدعاءٍ نحوَ قولِه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: 15]، ونحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: 32].

والتّرهيبُ باستذكارِ ما آلَ إليه أمرُ الجاحدينَ من ذوي الجنَّاتِ

المُعاقبين، كما في آيةِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: 266]، وآيةِ: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32 - 44]، وآيةِ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: 17 - 33]، وبآيةِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ [سبأ: 15 - 19].

فلمَّا ذكرَها مُسمَّاةً ﴿جَنَّٰتٍ﴾ رغَّبَ، ورهَّبَ في آنٍ واحدٍ، وشوَّقَ بذكرِ ما يَفنى، وينفدُ إلى ما عندَهُ سبحانَهُ وبحمدِهِ ممَّا لا يَفنى ولا يَنفَدُ.

مَغزَى الوصفِ بلفظَيْ ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾:

من مَظاهِرِ إحسانِ البارِي في إنشاءِ هذهِ الجنانِ، تَضَمُّنُها الشَّيءَ وضدَّهُ

أوردَ الرَّازيُّ في قولِه: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أقوالًا: الأوَّل: أنَّ المَعروشاتِ وغيرَ المَعروشاتِ كلاهما الكَرْمُ، فإنَّ بعضَ الأعنابِ يُعَرَّشُ، وبعضَها لا يُعرَّشُ، بل يبقى على وجهِ الأرضِ مُنبسطًا؛ أي: لا تصلحُ إلَّا مَطروحةً على الأرض، مُثقلَةً بما يحكمُ وصولَها إليها، ومتى ارتفعَت تلفَت، والثّاني: المَعروشاتُ العنبُ الّذي يُجعَلُ لها عُرُوشٌ، وغيرُ المَعروشاتِ: كُلُّ ما يَنبُتُ مُنبسطًا على وجهِ الأرضِ مثلُ القرعِ والبطّيخ. والثَّالث: المَعروشاتُ ما يَحتاجُ إلى أن يُتَّخذَ له عَرِيشٌ يُحمَلُ عليه فَيُمسِكُهُ، وهو الكَرْمُ، وما يجري مَجراهُ. وغيرُ المعروشِ: هو القائِمُ مِنَ الشَّجرِ المُستَغني باستوائِهِ وذهابِهِ عُلُوًّا لقُوَّةِ ساقِهِ عنِ التّعريشِ. والرَّابع: المَعروشاتُ ما يَحصُلُ في البساتينِ والعُمراناتِ ممّا يغرِسُهُ النَّاسُ، واهتمُّوا به فعَرَّشُوهُ، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ممّا أنبتَهُ اللّهُ تعالى وحشِيًّا في البَراري والجبالِ، فهو غيرُ مَعرُوش"[1].

وفي الأخير إيذانٌ بالفرقِ بين المأهولِ والوحشيِّ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ من لم يكنْ تحتَ سياسةِ سائسٍ، وتأديبِ مُؤدِّبٍ، ولا ضبط ضابط، ينشأُ كما ينشأُ الوحشيُّ، غيرَ مؤدَّبٍ، كأربابِ البوادي والجبالِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162 - 163.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/268، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

ومن هنا يتبيَّنُ قصدُ التّعبيرِ بـ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ وكذلك نفيها؛ للامتنانِ بها ولِمَا للعنبِ من فوائدَ غذائيَّةٍ ودوائيَّةٍ وعلاجيّةٍ، ومنَ الرّفاهيّةِ الَّتي في أكلِهِ والاستمتاع.

سِرُّ إيرادِ الوصْفِ على مَفعولاتٍ دونَ مفعولةٍ:

دَلالـةُ وصفِ الجنَّاتِ على كَمَالِ الامتنانِ، وحُسْنِها المتكامِلِ

الجمعُ دقيقٌ في دلالتِهِ على المُمتَنِّ به، ومطابقةِ جمعِ التَّأنيثِ بمماثلِهِ، وصفًا له، وللدَّلالةِ على اكتمالِ حسنِ الجَنَّاتِ، وتكاملِ منافعِها بتمامِ المناسبةِ لَمَا عبَّرَ به عنها.

بَلاغةُ حذْفِ المَعْطوفِ في الطِّباقِ:

أغنَى ظهورُ الجنَّاتِ باسقةً عن ذكرِها ثانيةً؛ لِيُورِثَها هيْبَةً

حذفَ المعطوفَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المُتسامِي والمُتنامِي ليصيرَ مُقابلةً، وما فيه منَ المزجِ بينَ الفكرةِ والمُفكِّرِ، إذ لَمَّا كانتِ الجنَّاتُ معروشةً كالعنبِ، وكانَت كرومُها تتدلَّى منها تحتَ ما عُرِشَتْ به، فالعارشُ حاجبٌ، ذكرَها بالاسم، أمَّا غيرُ المَعروشةِ فهي مُنطلِقةٌ في السَّماءِ غيرُ مُحتَجَبَةٍ بشيءٍ، فأَغنى ظهورُها باسقةً بأصلِها الثَّابتِ وفروعِها الَّتي في السَّماءِ عن ذكرِهَا كما ذُكِرَت الأولى، واكتُفي منها بالوصفِ ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾؛ ليورثَنا هيبةً من هذا التَّنزيلِ العزيزِ المهاب الَّذي يضعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ دونَ زيادةٍ ولا نقصٍ.

فضْلُ النَّفْيِ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ على النَّفْيِ بـ (لَيْسَتْ):

في معنَى المغايَرةِ مَزيدُ فضلٍ

آثرَ النَّفيَ بـ﴿وَغَيۡرَ﴾ في هذا الأسلوبِ الأخَّاذِ الآسرِ؛ لأنَّه لو قال: (وليسَت مَعروشاتٍ) لم يكنْ فيها معنى الغيريَّةِ أو المغايرةِ، ولَتُوُهِّمَ منَ السِّياقِ أنَّ المَعروشاتِ والَّتي ليسَت مَعروشاتٍ من نوعٍ واحدٍ هو العنب، فكانَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ مُصوِّرًا ومُؤثِّرًا ومُؤطِّرًا.

عِلَّةُ جمعِ ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ الثَّانيةِ، المُضافةِ إليها ﴿وَغَيۡرَ﴾:

الجنَّاتُ غيرُ المَعروشاتِ، لا قَصْرَ فيها عن سابِقتِها

وذلك إذ لم يقُل: (معروشة) بمكانِها، فإنَّه لو فعلَ - وحاشاه - لكانَ قدْ قصَّرَ بها عن أن تبلغَ مدًى بلغته المَعروشاتُ الأولى منَ المدى أنواعًا، واتِّساعًا، وطعومًا وألوانًا وآثارًا بالرَّوحِ والعبقِ، وإبهاجًا

ومسرَّةً، مع أنَّ صفوفَ غيرِ المَعروشاتِ أكثرُ، وأعمارَها أطولُ وأكبرُ، واغتذاءَهَا منَ الشَّمس والرِّيحِ وطلاقةِ الجوِّ وماءِ السَّمَاء أوفرُ، وتندِّيها بها أغزر، فيا لإعجازِ القرآنِ!

سِرُّ العطْفِ بالواوِ في هذه الجُملِ، على المعطوفِ ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾:

حَشْدُ الأصْنافِ المُنعَمِ بها، في مَصافِّ الامتنانِ، في نَسَقٍ واحدٍ

ينطوي العطفُ بالواو في هذه الجملِ على بَصَرٍ بديعٍ والتفاتٍ رائعٍ إلى حشدِ هذه الأصنافِ المُنعَم بها في مصافِّ الامتنانِ في نسقٍ واحدٍ، فكلُّ صنفٍ منها مَليءٌ بالأسرارِ المُحتشِدَةِ فيه وعجائبِ التّفاصيلِ المُكوِّنة له، والمؤدِّية به إلى أن يفيَ بالغايةِ مِن إنشائِه، ويؤدِّيَ لبني آدمَ مُقتضَى تسخيرِه - بمَنِّ خالقهِ وموجده - وتسييره، فذُكِرت جميعُها مُتعاطفةً بالواو؛ لأنَّ كلًّا منها يدُلُّ على عظمةِ الصَّانعِ المبدعِ، وعلى وحدانيَّتِه وحكمتِه ورحمتِه وحسنِ تدبيرِه وكمالِ قيُّوميَّتِه وكريمِ تقديرِه، دلالةً واحدةً صريحةً لا مُتأخِّرَ فيها عن مُتقدِّمٍ، فهي مُستَعلِنَةٌ صارخةٌ في البريَّةِ، مُقيمةُ الشَّهادةِ بذلك للّه حُجَّةً على الخلق أن لا إله إلّا اللّه وحدَهُ لا شريكَ له يرزقُكُم بما خَلَقَ وَذَرَأَ وأنزَل؛ فله أسلِموا، وبهِ آمِنوا، وعليه، فتوكَّلوا. وفي هذا أيضًا سرٌّ يدُلُّ المربوبَ المخلوقَ على علمِ اللّهِ به، واطِّلاعِهِ على مكنونِه، فمِنَ النَّاسِ يقعُ اختلافُ التَّفضيلِ للطُّعوم من حلوٍ ومُرٍّ وحامضٍ ومالحٍ، وللمذاقِ دورٌ في الإقبالِ على المَوائدِ والإجفالِ عنها، وفي المآكلِ صِبغٌ للآكلين، فلم يكنِ اللّهُ ليفرضَ على النَّاسِ كلِّهم مُفضَّلَ طائفةٍ منهم، فكلُّها نِعَمُهُ وخلقُهُ، وقبولُهَا مِنْ شكرِها كالثَّناء على واهبِها بها سبحانه، وفي بعض طُرُق الحديث: «واجعلْنا شَاكِرِينَ لِنِعَمِكَ مُثنِينَ بها عَلَيكَ قابليها، وأتمَّها علينا»[1] وغيره، ولهذا تراها احتشدَت جميعُها آخذةً أماكنَها في نسقٍ واحدٍ، وهي في أصولِهَا باديةٌ: العنبُ والنَّخلُ والزَّرعُ مُكتنِفٌ، والزّيتونُ والرُّمانُ

(1) أبو داود، السّنن، برقم: (969).

على سبيلِ التّمثيلِ لا الحصرِ، وسائرُ ما ذُكِرَ للاغتذاءِ والنَّماءِ والاستقواءِ والشِّفاءِ، وبعضُه جامعٌ إلى ذلك التَّسريةَ والتَّمرِيةَ والتَّسليةَ والإلهاءَ، فهل بقي عندَ أحدٍ ريبٌ أنَّ في الآيةِ الواحدةِ منَ التَّعليمِ والتَّفهمِ والتَّقويمِ ما لا يقادرُ قدرُهُ، ولا يُسبَرُ غورُهُ، وأنَّ ما نحن فيه منِ انبهارٍ، وسَلْكِ النَّفسِ والعقلِ طواعيةً في إسارٍ، هو بعَضُ ما دلَّت عليه جملةٌ، بها بضعُ كلماتٍ من بعضِ آيةٍ؛ والقرآنُ كلُّهُ كذلك.

بَلاغةُ تَرتيبِ المُتعاطِفاتِ:

في ترتيبِ الأصنافِ مُراعاةٌ للفائدةِ، والحاجةِ، والرَّغبةِ فيها

وإذا كانَ العطفُ بالواوِ لا يقتضي ترتيبًا إلَّا أنَّ ورودَهُ مُقدَّمًا في الذِّكر له حِكَمٌ جليلةٌ تُلتمسُ، ورتبٌ نبيلةٌ لا تُمسُّ، منها: عمومُ النَّفعِ، ونفعُ العمومِ، والجمعُ بينَ الاغتذاءِ، والالتذاذِ والإتحافِ بالاشتهاءِ، وما هو أدخلُ في طعمِ الحلواءِ، وكلُّ ذلك يستدعي تقديمَ الذِّكرِ، وهو نوعان: مَعروشٌ كالعنب، وغيرُ مَعروشٍ كالنَّخلِ، ويطرفُ به، ويتحفُ، والأوَّلُ العنبُ، والثَّاني النَّخلُ، ولا يُعَمَّرُ طويلًا بحالتِهِ، ومُتحوِّلًا عنها، ويعمَّرُ، والأوَّل العنب، والثَّاني ثمار النَّخلِ، ويكونُ طازجًا ومُدَّخرًا، وهما الزَّبيبُ والتّمرُ بأصليهما وبما آلا إليه، وذلك يوجِّهُ النَّظرَ إلى مَلمَحٍ آخرَ من ملامحِ الإعجازِ البيانيِّ في القرآنِ العظيمِ يستهويك حتّى تَطرَبَ وتَعجَبَ، ثمّ تأخُذَ نفسَكَ بمسايرتِهِ، فلا تزالُ بصُحبتِهِ حتّى يأخذَكَ من كلِّ شيءٍ، فلا يأخذكَ شيءٌ عنه، ولا تسلم نفسك للذَّةٍ غيرِهِ.

عِلَّةُ ذكرِ (النَّخلِ) في الآيةِ الكريمةِ:

النَّـخـلُ رَمـزٌ للنَّفعِ، ومَوْئلٌ عندَ المَسْغبةِ، وثـروةٌ تُـنمِّـي قُدراتِ الأمّةِ

النَّخلُ ضربٌ منَ الشَّجرِ مُستغنٍ بنفسِهِ عنِ التَّعهُّدِ وتعمُّدِ الإرواءِ وتكبُّدِ الإسقاءِ؛ لأنَّه ينمو في كلِّ أرضٍ، ونفعُهُ عامٌّ تعرفُهُ كلُّ بيئةٍ، ويُغتذَى به على وجهِ الاكتفاءِ والإجزاءِ، فيُقتصَرُ عليه هو والماء، وقد كان النَّبيُّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مع أزواجِهِ أمّهاتِ المؤمنين،

يقضونَ الشُّهورَ ذوات العددِ، يسردونها سردًا، تمرُّ عليهم، وَلا يوقدُ في بيوتِ النَّبيِّ نارٌ، وما لهم يومذاك طعامٌ إلّا الأسودان: «التَّمرُ والماءُ»[1]، فكان حَريًّا أن يُصدَّرَ في تعظيمِ الإنعامِ فيه والامتنانِ به على بناتِ جنسِهِ غيرِ المعروشاتِ.

نُكتةُ تقديمِ لفْظِ (النَّخلِ) على المعطوفاتِ الواردةِ بعدَها:

المؤمنُ كالنَّخلةِ مُـرتــفِــعٌ، ومُترَفِّعٌ، ودائمٌ نَـفْـعُـه، ومُـؤثِّـرٌ وَقْعُه

ثمّ نلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ في تقديمِ النَّخلِ قد جاءَ التَّنويهُ به في صحيحِ السُّنَّةِ أنَّ شجرَهُ لا يسقطُ ورقُه، فاستحقَّ أن يُشبَّهَ به المؤمنُ المُسْلِمُ لدائم نفعِهِ وحسنِ وقعِه، فعن عبدِ اللّه بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال: «إنَّ منَ الشَّجرِ شَجَرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مثلُ المسلم، حدِّثوني ما هي؟» فوقعَ النَّاسُ في شجرِ الباديةِ، ووقعَ في نفسي أَنَّها النَّخلةُ، قالَ عبدُ اللّه: فاستحيَيتُ، فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، أخبِرْنا بها؟ فقالَ رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «هي النَّخلةُ»، قالَ عبدُ اللّه: فحدّثتُ أبي بما وقعَ في نفسِي، فقال: "لأَنْ تكونَ قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا كذا"[2]. ومن ثمَّ فالنَّخلُ أكملُ مَظهَرًا دونَ غيرِهِ منَ الشَّجرِ طول العامِ على اختلافِ الفصولِ، فاستحقَّ التّقديمَ.

عِلَّةُ تقديمِ (الزُّروعِ)، وتأخيرِ (الزَّيتونِ) و(الرُّمانِ):

انْتِصابُ الشَّجرِ، شاهِدٌ على قُدرةِ اللهِ ووَحْدانِيَّتِهِ

ونلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ، قَلَّ مَن يفطنُ إليه، ولم نرَ مَن تعرَّضَ له، وذلك في قطعِ النَّظيرِ عن نظيرِهِ منَ الشَّجرِ بتقديمِ ذكرِ الزَّرعِ مَعطوفًا على النَّخلِ، وتأخيرِ ذكرِ الزَّيتونِ عنه لوجوهٍ إعجازيَّةٍ مُبهرةٍ كثيرةٍ، منها: الاعتدادُ بالزَّرعِ في المنَّةِ به، ودلالتُهُ على الرَّبوبيَّةِ، وأنَّه ظاهرٌ في جميعِ ذلك كالشَّجرِ سواءً، وأنَّ الإعجازَ في الصَّغيرِ كالإعجازِ في الكبيرِ كما في آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (6459)، ومسلم، الصحيح، برقم: (2972).
(2) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (131)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (2811).

﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26] فهذه فوقيَّةٌ وضآلَةٌ وصغرٌ ونزارةٌ وحقارةٌ؛ فلهذا استُدعيَ الزَّرعُ وقُدِّمَ ذكرُهُ مُزاحمًا الشَّجرَ، وحَبُّه مُنافِسًا للثَّمرِ، وكلُّ ما في الثَّمرِ من المَصالحِ المنوطةِ به والمناطةِ مَوجودٌ مثله في الحبوبِ، وأيضًا فإن انتصابَ الزَّرعِ شاهد على وحدانيَّةِ اللهِ، وأنَّه سبحانَه الخالقُ كما في الآية: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]. فكلُّ ذلك ينبتهُ اللهُ، ويخرجُه، ويبلِّغُه أوجَهَ إيراقًا وإثمارًا، ويكون منه الحَبُّ المُكتمِلُ العناصرِ غذاءً وكفايةً. ثمّ إنّ الزَّيتونَ المُؤخَّرَ ذِكرُهُ غذاءٌ إضافيٌّ لا يستقلُّ بالتَّغذيةِ كما يستقلُّ بالاستصباحِ؛ إذ هو ممَّا يُؤتدمُ به، وليؤتدمَ به لا بدَّ له من الخبزِ، والخبزُ منَ الحَبِّ بصنوفِهِ من بُرٍّ وشعيرٍ ودُخْنٍ وحِنْطَةٍ وشوفانٍ وغيرِهِ، فقدَّمَ عليه ما يلزمُ له ليؤتدمَ به، فهل بعد ذلك إعجازٌ حكيمٌ يراعي كلَّ خصيصةٍ، ويقدِّمُ كلَّ ذي أولويَّةٍ في مَوضعِهِ اللَّائقِ له لافتًا النَّظرَ إلى فضيلتِهِ الَّتي أحكمَها الخالقُ الرَّازقُ فيه، المقدِّرُ في الأرض أقواتَها، ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحِجر: 19 - 21].

دَلالةُ لفظِ (الزُّروعِ) على فوائدِ غيرِ الإطعامِ، ومَنافِعِ غيرِ التَّغذيةِ:

الــزّرعُ بألوانِه وأشكالِه، صُنعُ الله الّذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ

إنَّ بعضَ الزَّرعِ ينجمُ منَ الأرض، لا ساقَ له، وليس له حبٌّ يُؤكَلُ منه، ولكنَّه مُنطوٍ على فَوائدَ طبيَّةٍ ومنافعَ حياتيَّةٍ، بعضُها للاسترواحِ، وبعضُها لصدِّ الحشراتِ وطردِ الآفاتِ، وبعضُها المجَرَّدُ عن كلِّ هذا ممَّا تغتذيه الحيواناتُ، وغذاءُ الحيوانِ لا يقلُّ أهمِّيَّةً عمَّا يغتذيهِ الإنسانُ عندَ الإنسانِ؛ لأنَّ اغتذاءَ بهيمةِ الأنعامِ يعودُ بالفائدةِ والعائدةِ على الإنسانِ فيما تُخرجُ منَ اللَّبنِ يكونُ منه

السَّمنُ، ويكونُ منه صنوفٌ منَ الأجبانِ والمأكولاتِ الرّاجعةِ إليه، فكلُّ ذلك مُستحِقٌّ تقديمَ الزَّرعِ ومُوجِبٌ له؛ لأنَّ اللّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، ولذكور بهيمةِ الأنعام دورٌ لا يخفى في تلك المُخرَجَات من بطونِ بهيمةِ الأنعام، واغتذاؤها أيضًا مدعاةٌ لسمنِها وكثرةِ الشَّحم وامتلاءِ اللَّحم بها أو امتلائِها بهما جميعًا، فيُلتذُّ بالاغتذاءِ بها، وتعظُمَ طُعمةً للنَّاسِ، ولذلك جعلَ الشَّارعُ الحكيمُ ذكرَ اسم اللّهِ عليها وذكاتَها سببًا لحِلِّها وإباحةِ الأكلِ منها ناضجةً غيرَ نيئةٍ.

بَلاغةُ التَّعقيبِ بالحالِ على أصْنافِ المأكولاتِ:

الأُكُـــلُ يَـعُـمُّ الأصْنافَ جميعًا

التَّعقيبُ على المذكوراتِ بذكرِ الحالِ المرادِ استحضارُها عندَ التَّفكُّرِ فيها جميعًا، وهو وإن كانَ الزَّرعُ الأقربَ ذِكْرًا إليه إلَّا أنَّه يعمُّها جميعًا بقرينةِ ذكرِ فاعلِه عقبَهُ ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾؛ إذ فاعلُ اسم الفاعلِ قَدرٌ مُشترَكٌ في المذكوراتِ المُتقدِّمة جميعًا، والأُكُلُ بضمِّ الكافِ - كما هي قراءةُ الجمهورِ أو بسكونِها للحرميَّين نافع المدنيِّ وابن كثير المكّيِّ - اسمُ المأكولِ بمعنى: المفعول؛ أي: (المَأكُول). "قالَ ابنُ مسعود: وقُرِئ: ﴿أُكۡلُهُۥ﴾ بسكونِ الكافِ؛ أي: ثَمَرُهُ الّذي يُؤكَلُ في الهيئةِ والكَيفيّةِ"[1].

تَوجِيهُ اختلافِ الإعرابِ، للفْظِ ﴿مُخۡتَلِفًا﴾:

الامْـتـنـانُ بما يَـخـتـصُّ ثـمـرُه وجَـنـاهُ ببني الإنـسـانِ، وما ينتفعُ بـه غيرُ الإنسانِ

ذهبَ الإمامُ مكّيُّ بن أبي طالب القَيْسيّ إلى أنَّ: ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ هنا في الآية حالٌ منَ النَّخلِ، وخالفَه ابنُ عاشور، فذهبَ إلى حاليَّتِها للزَّرعِ مُحتجًّا له بأنَّه أقربُ المذكوراتِ[2]، والأنسبُ توجيهُ دلالة الحالِ لدخولِ كلِّ ما يُؤكَلُ ممَّا تقدَّمَ للإنسانِ خاصَّةً؛ لأنَّ الامتنانَ عليه وتقديرَ اختلافِ الأكلِ المقصودِ هو ما يكونُ سبيلَ تحصيلِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/191.

(2) مكّيّ القيسيّ، مُشكل إعراب القرآن، ص: 146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/118.

وتمييزِهِ وإدراكِ فروقِهِ من جهتِهِ، فيخرجُ من ذلك مأكولُ الحيوانِ؛ إذ هو غيرُ داخلٍ بداهةً في ذلك، ونعني به: مأكولَ بهيمةِ الأنعام منَ الزَّرعِ.

مع أنَّ فيما ذكرَهُ الإمامُ مكّيٌّ وجهًا؛ بأنَّ النَّخلَ أحقُّ بانصرافِ الحالِ إليه منَ الزَّرعِ؛ إذِ الأوَّلُ يكونُ مأكولًا على طبيعتِهِ المُجتَناةِ من أكمامِهِ أو بغيرِ زيادةٍ تُصنَعُ، فلا يُتَكَلَّفُ طبخُهُ ولا إعدادُهُ، وغالبًا لا يكونُ الزَّرعُ كذلكَ بالنِّسبةِ للإنسانِ، فيستقلُّ النَّخلُ بالحكمِ دونَ الزَّرعِ.

هذا أوّلًا، وثانيًا فلأنَّ النَّخلَ تختصُّ تمورُهُ الَّتي هي ثمارُهُ وجناهُ ببني الإنسانِ، أمَّا الزَّرعُ فمنه ما يكونُ للبشرِ، ومنه ما يكونُ للدَّوابِّ منَ البهائمِ، فلم يخلصِ الزَّرعُ كلُّه لبني الإنسانِ لينصرفَ الحالُ إليه، أمَّا أن يُقَال: إنَّ المرادَ منه ما يختصُّ ببني الإنسانِ على أنَّ لامَ العُرفِ عهديَّةٌ لا جنسيَّةٌ، ويزكّي هذا الفهمَ الأمرُ بعدُ بالأكلِ، وهو مُتوجِّهٌ للإنسان، فهو وإن بدا وجيهًا لكنّنا لا نراه؛ لأنَّ الآيَةَ عامَّةٌ فيما أنشأَ اللّهُ من أشجارٍ وزروعٍ، فكلُّ ما أنشأَ اللّهُ من ذلك مُستَدعًى، ثمّ يكونُ التَّفصيل، وأمَّا الأمرُ في الآيةِ فقد قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، فعلمَ أنَّه أرادَ الإنسانَ، ولو أرادَ إشراكَ غيرِ الإنسانِ لجاءَ نسقُ الآيةِ، كما نُسِقَت آياتٌ مماثِلةٌ في سورة عبسَ، قالَ اللّهُ منها: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 24 - 32]. والاقتصارُ على ذكرِ اختلافِ الأكلِ اقتصارٌ على التَّنبيهِ بالبعضِ على الكلِّ، إذِ التّفكُّرُ ينفسحُ بحسب الوُسْعِ والتَّحصيلِ والمَلَكةِ والطَّاقةِ، وليس شيءٌ منه مُنضبِطًا بضوابطِ المصلحةِ والعلم مَنهيًّا عنه، بل كلُّه مَأمورٌ به، مُستحسَنٌ من فاعلِهِ، مُثابٌ عليهِ، فخَصَّ النّصُّ بالتّنبيهِ لمَا يجتمعونَ عليه من ذلك بحظوظٍ مُتقاربةٍ، وتُرِكَ ذكرُ ما يتفاوتونَ فيه، أو يكونُ لبعضِهِم حظٌّ فيه، ولبعضٍ آخر حرمانٌ منه، وليسَ ما يجتمعونَ عليهِ منهُ إلّا الأكلَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الأكلِ بالمصْدرِ:

واقتضبَ ذكرُهُ بالمصدرِ دونَ إطالةٍ بإيرادِهِ على زنةِ المفعولِ مراعاةً لمقتضى الحالِ؛ إذ إنَّ الاختلافَ بينها ليسَ من كلِّ وجهٍ، وإنَّما نبَّهَ على اختلافِ الأكلِ المُتضمِّنِ اختلافَ

الاختـلاف بينَ الأكـلِ ليسَ في كلِّ وجْهٍ

الذَّائِقَةِ دونَ اللَّونِ والرَّائحةِ لجملةِ معانٍ منها: أنَّ اللَّونَ والرَّائحةَ منَ المُشهِّيات الدَّاعيةِ إلى الأكلِ، فتَدخلُ تَبَعًا، ومنها: أنَّ في الأكل شغلًا ومَلهَاةً لقوَّةِ داعيةِ الجوعِ، واكتظاظِ البِطنةِ، فنبَّهَ على ملاحظةِ الاختلافِ والتّنوُّعِ في المَطعوم الَّذي جعلَ التَّقوى داعيتَه إلى تناولِ الطَّعامِ، لئلَّا ينصرفَ لبُّهُ بالكلِّيَّةِ عنِ الخالقِ، ومنها أنَّ البركةَ في طعامِهِ وتمامِ انتفاعِهِ به إنَّما يكونُ بذكرِ اسمِ اللّهِ عليه عندَ تناولِهِ كذكرِ اسمِ اللّهِ على بهيمةِ الأنعامِ عندَ ذكاتِها، وكلُّ لازمٍ مُتعيَّنٍ على المُكلَّفِ لا يُغني بعضُهُ عن بعضٍ، ولأنَّ الأكلَ مَظِنَّةُ الإلهاءِ، ذكَّرَ بالاعتبارِ لمَنْعِ الغفلةِ في أثنائه.

إيثارُ ذكْرِ الزَّيتونِ في الآيةِ الكريمةِ:

الزَّيتونُ ثمرٌ ذو نَفْعٍ في كلِّ ما يَخرجُ عنه

ومن لطائفِ كلماتِ الآيةِ كلمةُ الزَّيتونِ الَّذي يُؤكَلُ ثمرًا وزيتًا، فدلَّتِ الكلمةُ بأوَّلِها على زيتِه؛ إذ له الصَّدارةُ في الانتفاعِ والفوائدِ، وبجميعِها على ثمرِهِ وشجرِهِ كليهما في آنٍ واحدٍ.

سِرُّ الإعْمامِ دونَ التَّفصيلِ:

الإعمامُ تنوُّعٌ فيه الرَّحمةُ، والتَّفضُّلُ، والقُدرةُ

عُنيَتِ الآيةُ بذكرِ الأسماءِ، كأمثلةٍ لغيرِ المعروشِ تاركةً تفصيلَ الأنواعِ في الجميعِ، فالنَّخلُ تتجاوزُ أنواعُهُ الآلافَ المؤلَّفةَ دونَ شكٍّ، ولكلِّ نوعٍ طعمٌ مميَّزٌ ولونٌ خاصٌّ وجرمٌ وحجمٌ وسماتٌ بها يُرْغَبُ، ويُطْلَبُ، وفي كلِّ البقاعِ والأصقاعِ أصنافٌ خاصَّةٌ ببقعتِها ومنطقتِها ليسَت في بقعةٍ غيرِها، فكان إيجازَ اقتصارٍ واختصارٍ واكتفاءٍ وإشارةٍ؛ كلُّ ذلك معًا في نفسِ الأمرِ، وكلُّ ما ذُكِرَ اسمُه فهذا شأنُه سواء، فهو لونٌ من سماويَّةِ الوحي بل إلهيَّتِهِ، وأنَّه فوقَ طوقِ البشرِ.

إيثارُ ذكْرِ الرُّمَّانِ في هذه الآيةِ الكريمةِ:

الابتداءُ بالمُستَحْسَنِ، والخَتْمُ بالمُستَطابِ

الرُّمَّانُ من أعجبِ ما خلقَ اللّهُ، ومن أطيبِهِ وأعظمِهِ عائدةً، وأحسنِهِ فائدةً، وأجلِّهِ نعمةً، وأعملِهِ في البدنِ تصحيحًا له، وإقامةً وإبلالًا منَ الأمراضِ والأسقامِ والالتهاباتِ والإنتاناتِ، وللرُّمَّانِ

ذِكرٌ مُعتَبرٌ في تجاربِ الحكماءِ العلاجيَّةِ قديمًا وحديثًا، وإفاداتٌ مَرمُوقةٌ في فوائدِ الأغذيةِ والنَّباتاتِ، وله منافعُ مَشهودةٌ في الطِّبِّ والحكمَةِ، كما أنَّه منَ الفواكهِ المقوِّيةِ لكلِّ قوى البدنِ والأعصابِ، وهو مُسامتٌ للنَّخلِ، وفي الآية حكمةٌ بالغةٌ لاحظَتْ مسامتَتَهُ النَّخلَ الواردة في سورة الرَّحمن، فإن يكن ثمرُ النَّخيلِ مُستحسَنًا أن يُبْدأ به؛ فإنَّ الرُّمَّانَ مُستطَابٌ الختمُ به، وقد قالَ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾ [الرّحمن: 68]، كما قالَ هنا: ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾.

من دلالات التّشابُه وعدم الاشتباه:

التَّشابُهُ يكونُ في الـــوَرَقِ، والاختلافُ يكونُ في الثَّمَرِ

ومن دلالاتِ التَّشابهِ في قوله سبحانه ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾، وعدم الاشتباهِ في قوله سبحانه ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ أنَّك إذا نظرْتَ إلى أشجارِ الزَّيتون والرُّمَّانِ مُجتمِعَين ألفيتَ تشاكُلًا واضحًا حتَّى تخالَهُما شجرةً واحدةً، فإذا نظرتَ في ثمرتيهما وطعومِهما؛ وجدتَ اختلافًا واضحًا بينَ الشَّكلِ والطَّعمِ؛ فهو مُتشابِهٌ في الورقِ والشَّكلِ، مُختلِفٌ في الطَّعمِ والمَذاقِ(1).

ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الرُّمَّانِ أنَّ شكلَهُ مُتشابِهٌ في المَنظرِ إلَّا أنَّه مُختلِفٌ في طعومِه، فبعضٌ منه حلوٌ، وبعضٌ حامضٌ(2)، ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الزّيتونِ أنَّ أشجارَهُ مُتشابِهَةٌ في الشَّكلِ إلَّا أنَّ ثمارَهُ مُتبايِنَةٌ في اللَّونِ، فبعضُه بلونٍ أخضرَ، وبعضُه بلونٍ أسودَ.

فنفيُ التَّشابُهِ في الجميعِ يكونُ في اللَّونِ والطَّعمِ والفَسادِ وعَدَمِه والتَّفَكُّهِ والاقتياتِ والدُّهنِ والماءِ إلى غيرِ ذلك مِن أحوالٍ وكَيفيَّاتٍ لا يُحيطُ بها حَقَّ الإحاطةِ إلَّا بارئُها سبحانَه وعزَّ شأنُه(3).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/578، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/163.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/471، ومكّيّ القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290.

تَوجِيهُ صِيغةِ اسْمِ فاعلٍ في ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾:

كلُّ شيءٍ خلقَهُ اللهُ تعالى بحِكْمةٍ مُدبَّرةٍ، وصَنْعةٍ مُقدَّرةٍ

الفاعليَّةُ (التَّشابهُ) وهو تفاعلٌ منَ الجانبين، والتَّثنيةُ غيرُ مرادةِ العددِ، فمهما قلَّبتَ النَّظرَ مُعدِّدًا وجوهَ المقارنةِ بينَ الشَّيءِ وبعضِه المماثلِ تبيَّنَتِ الاختلافاتُ المُنبئةُ عن أنَّه مَخلوقٌ هكذا بحكمةٍ مُدبَّرةٍ، وعن إرادتِهِ التَّامَّةِ لكلِّ ما هو عليهِ وجميعِ ما جاءَ فيهِ، فإنَّه إبداعُ الخلَّاقِ العليم: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾ [آل عمران: 189]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45] برغم أنَّ التَّشابهَ قائمٌ ومُلْبِسٌ، في خارجِ الثّمرةِ وداخلِها: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النَّمل: 88]. ودلالتُهُ على التَّشابهِ قائمةٌ إلّا أنَّها ليسَت من كلِّ وجهٍ، بدليلِ قولِه تعالى بعدَ عاطفٍ بالواو ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾.

فائدةُ الواوِ العاطفةِ لفظَ الغيريَّةِ: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾:

جَمَعَتِ الواوُ وجْهَي التَّبايُنِ والتَّغايُرِ

أفادتِ الواو العاطفةُ لفظَ الغيريَّةِ هنا التَّقسيم؛ إذ غيرُ المُتَشَابهِ ليسَ هو عَينَ المُتشابهِ، وإنَّما هو وجهٌ آخرُ مُغايرٌ، فاجتمعَ الوجهانِ على الشَّيءِ الواحدِ، وافترقَا، فاختصَّ كلٌّ بجزءٍ من أجزائِهِ، وذلك كما هنا.

عِلَّةُ جمْعِ النَّخلِ والزَّرعِ والزَّيتونِ والرُّمانِ:

جمْعُ الأَلَحِّ حاجةً عندَ النَّاسِ طَعامًا وقُوتًا

جمعَ النَّخلَ والزَّرعَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُدَّخَرُ للاقتياتِ، ولا يُسرعُ فسادُهُ مع المُفارَقةِ في الشَّكلِ، والاختلافِ في النَّوعِ بالشَّجرِ والحجمِ، والتَّفاوتِ العظيمِ في المقدارِ.

وجمعَ الزَّيتونَ والرُّمانَ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَفسُدُ بوَجهٍ، والثّاني يُسْرِع فسادُهُ، ويُدَّخَرُ كلٌّ منهما على غيرِ الهَيئةِ الَّتي يُدَّخَرُ عليها الآخَرُ معَ كونِهما منَ الأشجارِ، وتَقارُبِهما في المِقدارِ، وتَفاوُتِ ثمرتِهما في الشَّكلِ والقَدرِ وغيرِ ذلك[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290 - 291.

تَوجِيهُ مُتشابِهِ آيتَيْ سورةِ الأنعام (141)، (99):

تقديمُ ما هو في الإطعامِ أَدْخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحَلْواءِ أمْثَلُ

اقترنَ ذكرُ الزَّيتونِ والرُّمانِ في الآيتين: الأولى المُتقدِّمَة برقم[99] في السُّورة، والثَّانية الَّتي معنا هنا، وفي الآيتين جميعًا: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بتقديمِ الزَّيتونِ على الرُّمانِ؛ لأنَّ الأوَّلَ كفاءٌ والثّاني هناءٌ، وللأوّلِ الإشباعُ، وللثّاني الإمتاعُ، فتقديمُ ما هو في الإطعامِ أدخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحلواءِ أمثلُ.

ذِكْرُ لفظِ التَّشابُهِ في آيةِ الأكلِ مَظِنَّةُ وُقوعِ التَّخالُفِ

جاءَ التَّعقيبُ على الآيةِ الأولى بقولِه: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 99]، فذكرَ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ عند الأمرِ بالنَّظرِ، وعدلَ عنه في الآيةِ الثَّانيةِ إلى ما يؤدِّي مثلَ مُؤدَّاهُ من لفظٍ آخرَ غيره، فقالَ: ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ﴾؛ لئلّا يذكرَ الأكلَ منَ المُشتَبهِ الَّذي جاءَ في الحديثِ الشَّريفِ أنَّ الورعَ توقيةٌ، وهو حديث: «الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا أُمُورٌ مُشتَبِهَاتٌ، لَا يعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فمَن اتَّقى الشُّبُهاتِ فَقَدِ استبَرأَ لِدِينِه وعِرضِه، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَن يَقَعَ فِيه، أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ»(1)، فيُظَنُّ - أن لو ذكرَ ﴿مُشْتَبِهًا﴾ في آيةِ الأكلِ - وقوعُ التَّخالفِ بين الوحيين كلامِ اللهِ، وكلامِ رسولِه، وذلك ما لا سبيلَ إليه أبدًا.

نقول هذا مع أنَّ التَّشابهَ المذكورَ في الآيتين، والاشتباهَ الَّذي في إحداهما، ويمكنُ أن يسري - تسامحًا واعتبارًا بمآلِ اللَّفظتين، وأنَّ جذرَهُما واحدٌ، ومادَّتَهما واحدةٌ - إلى الثَّانيةِ هو في الشَّكلِ والطَّعمِ وأشباهٍ راجعةٍ إلى أصلِ الخَلق، لا في الحِلِّ والحُرمةِ، ولكنَّه تنزيهٌ حذَّرَ فيه - احتراسًا - من إيجادِ أصلِ ما يُتَّخذُ شُبهَةً، ولو من غيرِ داعٍ ولا مُقتَضٍ، إلَّا أنَّ اللهَ تعالى لكمالِ رحمانيَّتِه وحنانِه

(1) البخاريّ، الجامع الصحيح: 52 - 2051، ومسلم، الصّحيح: 1599. (متّفق عليه).

ورأفتِه وتقديرِه الضَّعفَ الَّذي خلقَ النَّوعَ الإنسانيَّ عليه، لم يَجعلْ وقوعَ أحدٍ مِن عبادِهِ فيما يُلبِسُ عليه دينَهُ بسبيلٍ منه تعالى؛ إذِ القرآنُ كلُّه كتابُ هدًى للنَّاسِ، وبيِّناتٍ منَ الهدى والفرقانِ، كما جاءَ في آيةِ الصّيامِ نصًّا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: 185].

وهذا عكسُ التَّرتيبِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ [الأنعام: 99]، فترتيبُ الأقواتِ في هذه الآيةِ على طريقِ التَّدلِّي منَ الأعلى في الاقتياتِ إلى الأدنى فالأدنى، والفرقُ بينهما أنّ الآية: (99) جاءَت في مقامِ سردِ الآياتِ الكونيَّةِ على وحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ، وقبلَها آياتٌ في آياتِهِ في العالَمِ العلويِّ، وفي خلقِ الإنسانِ وهو دونَهُ، وعالَمُ النَّباتِ أدنى منهما، فرُوعِيَ التَّدلّي في أنواعِهِ، كما رُوعِيَ فيما بينَهُ وبينَ ما قبلَهُ، والمقامُ في هذه الآيةِ مقامُ ذكرِ الأقواتِ؛ لبيانِ شرعِ مُنشئِهَا في إباحتِهَا، في مقابلةِ ضلالِ المُشركينَ فيما ذكرَ قبلَها منَ التَّحليلِ والتَّحريمِ بأهواءِ الشِّركِ، وهو قولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ الآية، فقدَّمَ هنالك الحرثَ على الأنعامِ؛ لأنَّ ضلالَهُم فيه أقلُّ من ضلالِهم فيها، وجرى هنا على هذا التّرتيبِ، فذكرَ الحرثَ أوّلًا لِمَا ذُكِرَ، وتَرَقّى إلى ذكرِ الأنعامِ لكثرةِ ضلالِهم فيها، وما يحتاجُ إليه من تفصيلِ القولِ الحقِّ في ذلك، وهو انتقالٌ منَ المُهمِّ إلى الأهمِّ في المعنى المرادِ، وتأخيرٌ لِمَا اقتضَتِ الحالُ إطالةَ القولِ فيه على الأصلِ، فحَسُنَ التَّرقِّي في ذكرِ أنواعِ الأقواتِ النَّباتيَّةِ تفصيلًا، كما حَسُنَ فيما بينَها بجملتِها وبينَ الأقواتِ الحيوانيَّةِ، ولِمَا ذكرنا منِ اختلافِ المقامِ في الآيتينِ؛ قالَ في آية: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] وقالَ هنا: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾[1].

وَجْهُ مَجيءِ فِعْلِ الأمْرِ ﴿كُلُواْ﴾، على الفصْلِ من غيرِ رابطٍ بالفاء:

من وجوهٍ: أوَّلُها: كونُ الأكلِ أمرًا فطريًّا تدعو إليه الحاجةُ والمَسغبَةُ والذَّائقةُ، وثانيها: كونُهم كانوا يتحكَّمونَ بالتَّحريمِ والتَّحليلِ بالأهواءِ اعتمالًا بأزِّ الشَّياطينِ وزمزماتِ أهلِ الكهنوتِ والعرَّافينَ وسدنةِ الأوثانِ والأصنامِ والمُستقسِمينَ بالأزلامِ على نحوِ ما أفصحتِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/117.

الأكلُ أمرٌ فِطْرِيٌّ تُوجِبُهُ الحاجةُ والمَسْغَبَةُ والذَّائِقةُ

الآياتُ، ومنها: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136] وقولُه سبحانَه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ الآية، فجاءَ الأمرُ الإلهيُّ العامُّ المرفوعُ يتجاوزُ التَّحريمَ المرقوعَ الَّذي اخترعَهُ الطَّواغيتُ لهم لئلَّا يدخلَ الأكلُ في شيءٍ ممَّا مضَوا عليه في سننِهم الجائرةِ ومَسلكِهم الضَّال.

وثالثها: ليرشدَهُم إلى أوانٍ يطيبُ الأكلُ منه بقرينةِ الظَّرفِ المذكورِ شرطًا لوقتِ ابتداءِ إباحةِ التَّناولِ، فإنَّ الأكلَ قبلَ بُدُوِّ صلاحِ الثَّمرةِ لا يُساغُ، فيلفظُ، فيكونُ تفويتًا على النَّفسِ والآخرين، ويكونُ أشبهَ بإتلافِ المالِ في غيرِ وجهِ مَصلَحةٍ ومَنفعَةٍ، فلذا قالَ: كلُوا من ثمرِه إذا أثمرَ بهذه الظَّرفيَّةِ لحدوثِ الفعلِ المعلومِ ببدائِه العقول، وإنَّما احتاجُوا إلى أن ينصَّ لهم عليه لمّا أنَّهم حادوا عنِ الفطرةِ، وتنكَّبوا موجباتِها، وما تدلُّ عليه، فانتكسَت فطرتُهم، وارتكسَت إنسانيَّتُهم، وتوحَّشَت آدميَّتُهم حتّى قتلوا أولادَهم سفهًا، وحرَّمُوا طِعمَتَهُم على أزواجِهم عمهًا، فأرادَ اللّهُ أن يردَّهُم إلى ما أودعَ فيهم، فنبَّهَ بمثلِ هذا البيانِ الرَّحيمِ الكريمِ الشّريفِ اللّطيفِ.

ورابعها: لـمَّا كانَ المَوضِعُ "في مَعرِضِ الامتنانِ وإظهارِ الإحسانِ بما خلقَ لنا قالَ: ﴿كُلُواْ﴾، ودلَّ على أنَّ الرّزقَ أكثرُ من خلقِهِ"(1).

تَوجيهُ القراءاتِ في قولِه: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾:

معنى قراءةِ الضَّمِّ يُفيدُ التَّكثيرَ الدَّالَّ على إنعامِ النَّظَرِ

في قولِه تعالى: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (ثُمُرِه) بضمَّتين، والجمهورُ على الفتحِ(2)، وقراءةُ الجمهورِ على أنَّ (ثَمَر) اسمُ جنسٍ جَمعِيٌّ يقعُ على القليلِ والكثيرِ، أمَّا على قراءةِ حمزة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/291.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/260.

والكسائيِّ فهو جمعُ (ثَمَرَة) أو جمعُ (ثِمار)[1]، وهذ الجمعُ دالٌّ على الكثرةِ، وجعلَهُ آخرون على أنَّه من بابِ جمعِ الجمعِ (ثَمَرَة - ثِمار - ثُمُر)[2]، وفي الكلِّ هو دالٌّ على الكثرةِ ليناسبَ سعةَ العطاءِ الممثَّلِ بلفظِ الجنَّاتِ، والمعروشاتِ، وغيرِ المعروشاتِ، وتعدُّدِ صنوفِ الأقواتِ، ووصفِها بالمُختلِفةِ، والأمرِ بالأكلِ.

بَلاغةُ الجِناسِ في لفظَيْ (الثّمر):

دفعُ تَوَهُّمِ إرادةِ معنًى مُغايِرٍ، والتَّنبيهُ على عظِيمِ القُدرةِ

جاءَ بجناسِ الاشتقاقِ في قولِه: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾؛ لأنَّ شيئًا غيره لا يقومُ مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه فيما لو قالَ: (من نتاجِه) مثلًا، فقد يُظنُّ أنَّه الثَّمنُ المُتحصَّلُ مِن بيعِه، وليس ذلك بالمقصودِ، وفي قولِه: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ التَّنبيهُ على عظيمِ القدرةِ، والاتِّصافِ بالوحدانيَّةِ، والصّمدانيَّةِ، وإظهارُ أنَّه مَحضُ رزقٍ منَ اللّه، لا يَدَ لهم فيه، فلا حقَّ لهم في تحريمِه بالأهواءِ، ولإظهارِ رحمتِه ونعمتِه وحسنِ تدبيرِه، وكمالِ تقديرِه، وللحُكمِ له بالاستطابةِ، فإنَّه لا يُحِلُّ إلَّا الطَّيِّبَ، ولا يأمرُ بالفحشاءِ.

دَلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿كُلُواْ﴾:

الأمرُ للنَّدبِ، والاستِحْبابِ، أوِ الإلزامِ والإيجابِ

وأعاضَهم عن تحريمِ ما كانوا يُحرِّمُون بأمرِهم أمرَ نَدْبٍ واستحبابٍ أو إلزامٍ وإيجابٍ إلى التَّصدُّقِ منهُ بعدَ ما أَذِنَ لهم أن يأكلوا من غيرِ تحريجٍ عليهم فيه؛ ما لم ينووا بالأكلِ الاقتطاعَ والمضارَّةَ بالمُتَصدَّقِ عليهم، ولم يُحدِّدْ لهم مقاديرَ، ولا كلَّفَهُم بحسبانٍ، ولكن عزمَ عليهم فيه لذوي القُربى والجيرانِ وأبناءِ السَّبيلِ والسَّائلينَ، كلِّ مَن يبدو لهم عوزُه، أو يكون ناميًا إليهم علمهم بحالِه واستحقاقِه؛ فسمَّاه حقًّا، وعيَّنَ وقتَهُ بقولِه: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/226.

(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 264، والواحديّ، البسيط: 8/323.

فعلُ النَّظَرِ يُناسبُ سياقَ الاعتبارِ، وفعلُ الأكلِ يُناسبُ سِياقَ الطُّعْمَةِ

بيانُ التَّشابُهِ بينَ الفعلَيْن: ﴿كُلُواْ﴾، و﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] أوردَ الفعلَ ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، فيما قالَ هنا: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: 141]؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ الأولى سياقُ نظرٍ واعتبارٍ وتبصُّرٍ وتنبيهٍ على ما نصبَ الحقُّ ﷻ منَ الآياتِ والدّلائلِ على وحدانيّتِه(1)، أمَّا سياقُ هذه الآيةِ فمبنيٌّ على تعدادِ النِّعمِ بذكرِ أحكامِ المأكولاتِ، فقد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: 138]، وجاءَ بعدَها قولُه تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، وهما مَبنيَّان على سياقِ الأكلِ، فكانَ مُناسبًا أن يُعبِّرَ بفعلِ الأكلِ، فجاءَ كلُّ فعلٍ على ما يناسبُه ويوائمُه.

في أمرِ زكاةِ الزُّروعِ سَعةٌ، لِحِينِ تُستخرَجُ الحبوبُ صَالحةً للتَّداوُلِ

تَوجيهُ القراءةِ في ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ ومَجيءِ اللّفظِ مُضافًا:

وقد قُرئَ بِلُغَتَيهِ كلتيهما، الأولى: المنبِّئةُ عنِ ابتدائِه، وهي بفتحِ الحاءِ: لأبي عمرو ويعقوبَ وابنِ عامر وعاصم، والثّانية: المنبِّئةُ عنِ انتهائِه وخُلوصِه وإمكانِ الأكلِ منه، وهي بكسرِ الحاءِ لسائرِهم بعدُ: لنافعٍ وأبي جعفر وابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلف(2)، والقراءتان تدلَّان بنفسيهما أوَّلًا، وبالإضافةِ ثانيًا أنَّ مضافَهما - وهو يومُهما المضافتان إليه - يعني: منِ ابتداءِ العملِ إلى انتهائِه مهما استغرقَ من أيَّامٍ شمسيَّةٍ ومُدَدٍ زمنيَّةٍ، وأنَّه غيرُ معدودٍ بساعاتِ النَّهارِ الَّتي تكونُ بمجموعِها يومًا زمنيًّا بنهارِه وليلِه، بل الأمرُ على الاتِّساعِ لحينِ تُستخرَجُ الحبوبُ صالحةً للتّداولِ، مُعدَّةً ليُسلكَ بها سبيلُ التّناولِ.

وقد أجادَ ابنُ عاشورٍ رحمَهُ اللّهُ في بيانِ أنَّ الأمرَ على الوجوبِ، وأنَّ تشريعَ الزَّكاةِ ابتدأَ بمكّةَ لكفالةِ الضَّعفةِ وحدثاءِ العهدِ بالإسلامِ منَ المُستضعَفينَ والفقراءِ، وأنَّ المقاديرَ لم تُبَيَّنْ بعدُ إلّا في المدينةِ،

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/166.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/266.

وذلك كلامٌ حَسَنٌ لو عَضَّدَتْه آثارُ غيرِ مَحَلِّ النِّزاعِ، فإنَّ القائلينَ بفرضيةِ الزَّكاةِ بالمدينةِ هم الفقهاءُ كافَّةً.

ولذلك يبقى الأمرُ مُتَّسِعًا، وتُحمَلُ الآيةُ على النَّدبِ بعدَ فرضيَّةِ الزَّكاةِ، وإن كانَت منذ نزلَت قبلَ فرضيَّتِها عزمةً، فالمفسِّرُ اليومَ في حلٍّ مِن تفسيرِها بما كانَت عليه يومَ كانت عزمةً وإيجابًا ليفسِّرَها على ما بقي الحكمُ عليه، واستقرَّ وبمفادِ الآيةِ بعدَ فرضيةِ الزَّكاةِ وإلى آخرِ الزَّمانِ.

دَلالةُ النَّهيِ عنِ الإسرافِ:

الاعتدالُ والتَّوسُّطُ مَقصدُ الشَّارعِ، ومَطلبُه المُستدْعِي المحامِدَ

نهى اللّٰهُ عبادَهُ عنِ السَّرفِ نهيًا مُباشرًا صريحًا يُشعرُ بأنَّ له الملكَ والملكوتَ والعزَّةَ والجبروتَ والكبرياءَ والعظمةَ، وبأنَّ له الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، وكمالَ الأسماءِ والصِّفاتِ، وحُسناها وعُلَاها، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّوم: 26]، فهذا الأمرُ الكريمُ بضدِّ ما دلَّ النَّهيُ عليه، أَمْرٌ بالاعتدالِ والتَّوسُّطِ والقصدِ، ولا يُفهَمُ منه عكسُ مرادِ الشَّارعِ أنَّ النَّهيَ عن أحدِ الطَّرفين مُقتَضٍ الانحيازَ للآخرِ، والطَّرفان هما الإسرافُ والإقتارُ، والوسطُ بينهما هو السَّخاءُ المحمودُ والجودُ، ولاسيَّما أنَّ للشَّارعِ توضيحًا في مَظانِّه لهذا المَسلَكِ الأخلاقيِّ يُنبِئُ عن اختيارِ الشَّارعِ فيه، وذلك قولُهُ جلَّ وعزَّ سبحانَه وبحمدِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾ [الفرقان: 67]، وقولُهُ ﷻ وتقدَّسَت أسماؤُه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29].

وقد عجَّلَ الإخبارَ بقطعِ المعذرةِ لتجنُّبِ العملِ بالهوى، وإذًا فالنَّهيُ عنِ الإسرافِ هنا مُلتفَتٌ فيه إلى تنبيهِهم بقطعِ ذرائِعِهم، كيلا يُقالَ: قصدتُ الخيرَ بمزيدِ العطاءِ حتَّى أجحف بالمالِ، أو يُقالَ: لم أقصدْ فوقعَ دونَ قصدٍ، فتضمَّنَ نهيُهم عنه تعجيلَ الإخبارِ بقطعِ

المعذرةِ ليكونوا على بصيرةٍ، فإنَّ عملَ المرءِ بما يعلمُ أنَّه خطأٌ هوًى، والهوى آفةُ العفافِ، وإنّ تركَهُ العملَ بما يعلمُ أنَّه صوابٌ تهاونٌ، والتَّهاونُ آفةُ الدِّين، وإنّ إقدامَهُ على ما لا يدري: أصوابٌ هو أم خطأٌ جماحٌ؟ والجماحُ آفةُ العقلِ، وكلُّ ذلك مُعرَّفٌ مُقترِنٌ بالخيبةِ، حيث لا ينفعُ النَّدمُ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ.

بَلاغةُ التَّوكيدِ في جُملةِ الفاصلةِ:

في التَّوكيدِ حافِزٌ عنِ الانتهاءِ عمَّا نهَى اللهُ تعالى عنه

ذكرتِ الآيةُ الحافزَ الأكبرَ على الارعواءِ عنِ المنهيِّ عنه، وامتثالِ النَّهي، فجاءَت بـ (إنَّ) التَّوكيديَّةِ للزومِها تتميمًا للمقامِ هنا؛ لأنَّها سدَّت مَسَدَّ التَّعليلِ؛ أمَّا التَّعليلُ فلأنَّ اللّٰه أباحَ لهم الأكلَ قبلُ من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وبإيتاءِ حقِّهِ يومَ حصادِهِ إذْ ظفرَ به، ونهاهُم عن مجاوزةِ الحدِّ، والتَّعدِّي فيه بالإسرافِ؛ إذ لا يُعذَرُ؛ فإنِ امتثلَ ذلكم المُنعَم عليه بالجنَّاتِ المعروشاتِ فيما أنارتِ الآيةُ بصيرتَه ليجعلَ لها أعمدةً وسقفًا يتدلَّى فيه عناقيدها تجويدًا لنتاجِها وبهجةً لناظرِها، وبغيرِ المعروشاتِ، فَإِلَامَ يتطلَّعُ مثله، وقد جاءَته الدُّنيا طائعةً، فامتثلَ أمرَ اللّٰهِ فيها، وأنفقَ منها، وهل ثمَّ مُحفِّزٌ أعلى من أن يكونَ محبوبًا للّٰه تعالى؟ اللَّهمَّ لا.

دَلالةُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ:

مَرجِعُ الأَعمالِ إلى اللهِ باعثٌ على الإخلاصِ

فمن ثَمَّ جاءَ التَّعليلُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ هكذا بالضَّميرِ الرَّاجعِ إلى اللّٰه تعالى، حيثُ كانَ العملُ لأجلِهِ سبحانَهُ خالصًا، وكان ذلك مَطويَّ فؤادِهِ، وخبيئةَ صدرِهِ، فكُوفِئَ بالظَّفرِ ببغيتِهِ من محبَّةِ اللّٰهِ له.

بَلاغةُ العُدولِ عنِ الاسْمِ الظَّاهرِ إلى الضَّميرِ:

عدلَ إلى المُضمَرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لئلَّا يَستغرقَ العاملُ المُخاطَبُ النَّظرَ إلى الجلالِ في الاسمِ، فإنَّه الغالبُ على النَّاظرِ والمُتأمِّلِ، والعاملُ استغراقًا يُفوِّتُ عليه حظوظَ طمأنينتِهِ، وراحةَ ضميرِهِ بالنَّظرِ إلى ما فيه منَ الجمالِ، وأنَّ رحمتَهُ تَغلِبُ غضبَهُ، وأنَّه لا أحدَ أحبُّ إليه

العذرُ منه جلَّ شأنُه، فمن ذلك أرسلَ الرُّسلَ، وأنزلَ الكُتبَ، أو يتجاوزُ به ما ينبغي مِن ملاحظةِ الكمالِ في الاسمِ الأعظمِ، الَّذي يقتضي متابعةَ التَّرقِّي فوقَ ما كان قَسَمَ له بالنَّظرِ إلى الجلالِ من خوفِ مقامِ ربِّهِ ومقاومةِ التَّدنّي.

رحمةُ اللهِ سبقَتْ غضبَهُ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذرُ منه جلَّ شأنُه

دَلالةُ جُملةِ الفاصلةِ المنفيَّةِ:

ولأنَّ المقصودَ الأعظمَ التَّركيزُ على سرِّ النَّهي عنِ الإسرافِ، وإن كان في تحقيقِ أعلى ما تبلغُهُ الهمَّةُ منَ الامتثالِ لإيتاءِ الحقِّ، وتداعي المُستحقِّينَ وتناديهم ممَّا قد يفوِّتُ على المتصدِّقِ النَّظرَ إلى حقِّ نفسِهِ ومَن يعولُ، وهو الأمرُ الَّذي يلقيه في مهاوي الحاجةِ تلك الَّتي أضلَّتهُم ظلماتُها، وأطبقَت عليهم غواشيها حتَّى قتلوا أولادَهُم، وظلموا أنفسَهُم، وانتهى بهم الأمرُ إلى الخسرانِ العظيمِ.

في التَّعبيرِ بالنَّفْيِ تحقيقٌ لأعلَى ما تَبلغُهُ الهِمَّةُ مِنَ الامْتِثالِ

وسرُّ النَّهي عنِ الإسرافِ هو في خبرِ (إنَّ) الآتي بعدَ جملةٍ فعليَّةٍ مَنفيَّةٍ بِـ (لا) في قولِ المولى سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

سِرُّ إيثارِ النَّفْيِ على الإثباتِ في جُملةِ الخبرِ:

آثرَ النَّفيَ على الإثباتِ، ولم يقُل: (إنَّه يحبُّ المُقتصِدينَ) أو (المُعتدِلين) أو (المُستجِيبين) إلى غيرِ ذلك مِن مثلِهِ، لَمَا تقدَّمَ، إذِ المُتقدِّمُ نهيٌ، والمخالفةُ في النَّهي تتحقَّقُ بتجاوزِهِ دونَ امتثالٍ، فكانَ الإخبارُ بأنَّ جزاءَهُ الحَجبُ والحرمانُ، أوقعَ وأسمعَ، وأوفقَ وأليقَ، فلذا قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾، وكان ذلك أبلغَ في الإيلامِ والتَّنديمِ؛ لـمَا يفيدُهُ أنَّ حبَّ اللهِ ديمومٌ مُتجدِّدٌ يحدثُ كلَّ آنٍ لِمَنِ استحقَّ محبَّةَ اللهِ، وأتى بما جَعلَهُ اللهُ سببًا لنوالِهَا، فكانَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لاشكَّ أبلغ.

مُنتهَى الخُسرانِ حِرمانُ حُبِّ اللهِ سُبحانَهُ

عِلَّةُ جمْعِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي جمعِ المُسرفينَ جمعُ السَّلامةِ لمذكَّرٍ قدحٌ زائدٌ فيهم، ونيلٌ بليغٌ منهم، وكأنَّ الآيةَ تقولُ لهم: ما أغنى عنكم جمعُكُم، فأين كانَت

الجمْعُ الَّذي لا نفعَ فيه مَذمومٌ

قلوبُكم أو ذهبَت عقولُكم ؟ وقد اشتدَّت بكم غفلتُكم، وتناهى بكُم تعدِّيكم ومجاوزتُكُمُ الحدَّ، حتّى فوَّتَت عليكُم أعظمَ مَأمولٍ وأكرمَ مَسؤولٍ هي محبَّة اللّه تعالى، ويالَه مِن فواتٍ!

وَجْهُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

من رحمةِ اللهِ بعبادِهِ تخصيصُ الحُكمِ، بمَن داوَمَ على اقْترافِ الذَّنبِ

إنَّ ذكرَ اسمَ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ هنا فيه إلماحُ إلى العدلِ الإلهيِّ والرَّحمةِ التّامَّةِ منَ اللّهِ لعبادِهِ، ذلك أنَّ تعليقَ الحُكم على مُشتقٍّ، كما يُشعِرُ أنَّ العلَّةَ تكمنُ فيما منه الاشتقاقُ، وذلكم الإسرافُ، فإنَّ الصّيغةَ الدَّالَّةَ عليه المعبِّرةَ عنه فيها اختصاصُ الحُكم بمَن داومَ على اقترافِ ذنبِهِ حتّى ملاقاةِ ربِّهِ، وتلكم المداومةُ الَّتي لا توبةَ معها من حوبةٍ، ولا أوبَ بعدَها من عيبٍ، هي المُدخِلةُ صاحبَها في أهلِ النُّذُرِ، فضلًا عن دلالةِ الاستقبالِ الَّتي يتمحَّضُ لها اسمُ الفاعلِ.

دَلالةُ لامِ التَّعريفِ في لفْظةِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

من كَمُلَ إسرافُهُ أهلٌ للبُغْضِ والبُعْدِ منَ اللهِ جلَّ في عُلاه

إنَّ دلالةَ لامِ التَّعريفِ الجنسيَّةِ في كلمةِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تلقي بظلالِهَا على معنى الكمالِ والاستغراقِ في الوصفِ، فمَن كَمُلَ إسرافُهُ، فأحاطَ به من كلِّ وجهٍ، فليسَ هو في شيءٍ إلَّا المُسرفُ، وماتَ على ذلك لم يُراجعْ، ولم يَرجعْ؛ فذلكم المُشرِكُ الَّذي لا حظَّ له في محبَّةِ اللّه، وهو أهلُ عداوتِهِ وبغضائِهِ، وكلَّما انحسرَ هذا الإسرافُ كان حظُّه بحسب ما تحَقَّقَ له، أو انحسرَ عنه.

بَلاغةُ الجِناسِ الاشتقاقِيِّ، في الآيةِ الكريمةِ:

الاقتِصارُ على المادَّةِ نفْسِها أوسعُ في دائرةِ البلاغِ

في قولِه: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، ومن حسنِهِ وعلوِّ قدرِهِ وارتفاعِ قيمتِهِ في الإقناعِ أن عيَّنَ المنهيَّ عنه بكلمةٍ، ثمَّ لم يجاوزْهُ إلى غيرِهِ في بيانِها؛ لئلَّا يدخلَ العقلُ واسطةً في ربطِ الكلامِ، وذلك مُستملَحٌ فيما وردَ فيه لنُكتةٍ تُفصَّلُ في محلِّها، وما لم يَرِدْ فيه، فَيُوقَفُ عندَهُ؛ لأنَّ الاقتصارَ على المادَّةِ نفسِها أوسعُ في دائرةِ البلاغِ؛ لأنَّه للعامَّةِ كما هو للخاصَّةِ، وأبعدُ عن

التَّأويلِ الَّذي قد يُختلَفُ عليه، وأَوقَفُ بالمُخاطَبِ عندَ النَّصِّ، فلا يتجاوزُهُ إلى لوازمِه.

بَلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

إتمامُ الحُجَّةِ بالاستِيعابِ، وقطعُ العُذْرِ بالإحاطةِ، مُنتهَى البيَانِ

في الفاصلةِ ردُّ العَجُزِ على آخرِ ما انتهى إليه الكلامُ في الصَّدرِ، فردَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ على قولِه سبحانَه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ ليكونَ أتمَّ للحجَّةِ، وأقطعَ للمعذرةِ، وأسرعَ في الإنهاءِ بالحكمِ المُنتهَى إليه دونَ تطلُّعٍ إلى مزيدِ بيانٍ، ولاسيَّما مع غايةِ الفصاحةِ وقوَّةِ الدّلالةِ وعظمِ الاستيعابِ وإحاطةِ الخطابِ بموضوعِه دونَ أن ينشبَ عليه خصامٌ، وهل وراءَ ذلك من إحكامٍ أو مُلْتَمَسٍ من مَرَامٍ؟

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾:

التَّبذيرُ مُختَصٌّ بالمالِ، والإسرافُ عامٌّ في كلِّ ما يَتصرَّفُ فيه الإنسانُ

سرُّ العدولِ عندَ جعلِ النَّهيِ مُتَوَجِّهًا إلى التَّبذيرِ عوضًا عنِ الإسرافِ الَّذي جاءَ النَّهْيُ عنه مع حقيقةِ أنَّ كلًّا منهما مَذمومٌ طبْعًا وشرْعًا. وتكونُ مفارقةُ الإسرافِ للتَّبذيرِ في أمرين: أوَّلهما: أنَّ التَّبذيرَ له اختصاصٌ بالمالِ، أمَّا الإسرافُ فلا اختصاصَ له به، بل يكون في كلِّ شيءٍ، ومن ذلك القتلُ، وقضاءُ الشَّهوةِ، والكفرُ باللهِ، والإخلالُ بأيِّ حقٍّ في مُعتقَدٍ، أو عبارةٍ أو سلوكٍ أو خُلقٍ؛ إذ كلُّ مجاوزةٍ حدَّ الاعتدالِ مُدخِلَةٌ صاحبَها في حدِّ الإسرافِ.

والثَّاني: منها: أنَّ التَّبذيرَ لا يلزمُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بآخرينَ، في حين أنَّ الإسرافَ لا بدَّ له من مُتعلَّقٍ، ولذا كانَ التَّبذيرُ نَثْرَ الشَّيءِ وتفريقَهُ، على حين كانَ الإسرافُ تعدِّيَ الحدِّ، والإغفالَ أيضًا للشَّيءِ.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾ [سورة الأنعام: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشُّروعُ في ذكْرِ نَوْعَي الأنعامِ، بعد ذكْرِ أنواعِ الجنّاتِ

لـمَّا كانَ السِّياقُ لِلمَآكِلِ منَ الحَرثِ والأنعامِ من حَلالٍ وحَرامٍ، وفَرَغَ من تقريرِ أمرِ الحَرثِ الَّذي قُدِّمَ في الجملةِ الأولى؛ لأنَّه مادَّةُ الحَيوانِ، قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَمُولَةٗ﴾: الحَمُولَةُ مَا أَطاقَ العَمَلَ والحَمْلَ؛ أي: ما استحقَّ أنْ تُحمَلَ عليه الأحمالُ، والأثقالُ من صغارِ الإبلِ، وغيرِها، فالحَمُولَةُ عليه كالرَّكُوبةِ لِمَا يُركَبُ عليه، وتُطلَقُ الحَمُولَةُ على الإِبلِ بِأَثقَالِهَا[2]، هي ما حُمِلَ منَ الأنعامِ؛ لأنَّ ذلك من صفتِها إذا حمَلَت، لا أنَّه اسمٌ لها، كالإبلِ والخيلِ والبغالِ[3].

2) ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾: الفَرْشُ الصِّغَارُ منَ الإبلِ[4]، أو هو منَ النَّعَمِ ما لا يَصلُحُ إلَّا للذَّبحِ[5]، أو هو: ما يُفْرَشُ منَ الأنعامِ؛ أي: يُركَبُ[6]، والفرشُ في الآيةِ صغارُ الإبلِ، أو الغنمِ، أو ما تأكلونَ، وتحلبونَ شاةً لا تَحملُ، تأكلونَ لحمَها، وتتَّخذون من أصوافِها لحافًا وفَرشًا[7]، والمعنى الأخير رجَّحَه ابنُ كثيرٍ[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/293.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حمل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/181.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرش).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فرش).
(6) الرّاغب، المفردات: (فرش).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/179.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/350.

3) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: الخطوةُ هِيَ المَسَافَة بَين القَدَمَين في المَشي[1]، وهي - بالضّمِّ: ما بينَ القدمَين، وبالفتح: الفِعل، والمَرَّة: خَطا خَطْوًا - بالفتح - واختَطَى: مَشى[2]، وخطواتُ الشَّيطانِ سبيلُه، ومسلكُه، وأثرُهُ، والائتمامُ به، وطاعتُه فيما يزيِّنُ من تحريمِ حلالٍ واستحلالِ حرامٍ في الشَّرع[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أي: وأَنشأَ مِنَ الأَنعَامِ كُلَّ مَا يُحمَلُ علَيهَا مِنَ الإبل، والصِّغارِ مِنَ الإِبلِ، أو ما تأكلونَ، وتحلبونَ شاةً لا تحملُ، تأكلونَ لحمَها، وتتَّخذون من أصوافِها لحافًا وفرشًا، فكلُوا ممَّا أحلَّ اللّهُ لكُم منها، ولا تحرِّمُوها كما في الجاهليَّة؛ فلَا تَسلُكُوا طَرِيقَ الشّيطان وآثَارَهُ في تَحرِيمِ الحَرثِ والأَنعَامِ؛ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبينٌ[4].

إبـاحـةُ ما أحـلَّـهُ الـلـهُ مـنَ الأنـعـامِ؛ لتأكلُوا من رزقِ الله، وتحذرُوا خُـطـواتِ الشّيطانِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ (الواوِ) العاطفةِ في مَطلَعِ الآيَةِ:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾، استوفى العطفُ مقاصدَ القرآنِ مِنَ البلاغِ؛ فلا يُهلكُ إلَّا مَن تجذَّرَ الفسقُ فيه، واستَقَى من تربتِهِ، واغتذَت عروقُه مُتشعِّبةً مُعشِبةً منه: ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، ومن الإنذارِ المزلزِلِ الَّذي يدكُّ معاقلَ الشِّركِ والوثنيَّةِ دكًّا دكًّا، بعدَ جثومِها، وفيما تقدَّمَ في السُّورة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19].

في الـعـطـفِ استيفاءُ مقاصِدِ الـقـرآنِ، بلاغًا وهُـدًى ورَحـمـةً وحِكمةً

ومن البيانِ الَّذي يردُّ الفطرةَ إلى نقائِها بإخلاصِ التَّوحيدِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خطو)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/354.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطو).
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/253.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/179، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/165، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/350، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/35.

والعبادةِ والتَّوجهِ، ويقيمُ الوجهَ للدِّينِ حنيفًا واصبًا، وفي التَّنزيلِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ [النّساء: 26]. والفصلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾ [الطّارق: 13 - 14]، ومن فصلِه مفاصلتُهم ومنازلةُ الّذين يُزَيِّنُونَ لهم، وَيستزلُّونهم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ٢٧﴾ [النّساء: 27]. وَالحُكْم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النّساء: 105]، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [المُمتَحَنَة: 10]. والهُدَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة: 15 - 16]، والرَّحمةِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القَصص: 46]، والحكمةِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39]، والنِّعمةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ٨١﴾ [النّحل: 81].

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

في طيِّ وصلِ الآيةِ بما قبلَها مقاصدُ لا يبلغُها العدُّ من إقامةِ الحجَّةِ وقطعِ المَعذرةِ وتأنيسِ السُّراةِ السَّائرين في الظُّلمةِ يتلمَّسونَ الحقَّ، إلى ما لا يُحصَى، والَّتي منها معنا هنا إظهارُ الامتنانِ ببهيمةِ الأنعامِ الَّتي جعلَها اللهُ من وسائلِ التَّخفيفِ عنِ الإنسانِ في التَّنقُّلِ بحملِ أثقالِه وحملِه، ثمّ تزكَّى، فتكونُ طُعمَتَهُ وغذاءَهُ، وليزيحَ عنها بإحلالها وَصمَةَ التَّقسيمِ والحرمانِ بما حكاهُ وألغاهُ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، وكان هذا من خزعبلاتِ طواغيتِهم في الحرثِ والأنعامِ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا

مِنَ المقاصدِ إقامةُ الحُجَّةِ، وقطْعُ المعذِرةِ، وتأنيسُ السُّراةِ، وإظهارُ الامْتِنانِ

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، وقد مرَّ بنا كيف أنَّ اللّه أبانَ أحسنَ البيانِ في الحرثِ، وجاءَ أوانُ البيانِ في الأنعامِ بهذه الآيةِ الجامعةِ الفذَّة.

محلُّ المعطُوفِ عليه في نسَقِ الجُملةِ، وسِرُّ إضْمارِه:

اكْتفَى بالمذكورِ إيجازًا واكتفاءً

المعطوفُ عليه هو الفعلُ الماضي ﴿أَنشَأَ﴾، ومحلُّه في نسقِ الجملةِ قبلَ مفعولِه: ﴿حَمُولَةً﴾، وإنَّما لم يُذكَرْ اكتفاءً بما قبلَهُ، وإيجازًا في الكلام[1]، ليتعيَّنَ استصحابُه، فإنَّ السِّياقَ الَّذي ذُكِرَ فيه كالمُقدِّمِ المُمهِّدِ لَما بعدُ، وهو ما نحنُ فيه هنا، والجملتان مُتآخيتان مُتلازمتان، والمجرور ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ وهي المفصَّلةُ بعدَ ثمانيةِ أزواجٍ على ما سيأتي في آيتها.

فائِدةُ العطْفِ تَحصُّلُ معنَى القصْرِ في جُملةِ المعطوفِ عليه:

اللّه هو الخالقُ للحَمُولةِ والفَرْش، والقاهرُ الّذي استوَى على العرشِ

حملَ الجملةَ الثَّانيةَ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشٗاۚ﴾ على معنى القصرِ الَّذي في المعطوف عليه، بتعريفِ الطَّرفين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ﴾ كما بيَّنَّا قبلُ، فيكون المعنى: أنَّه ﷻ وحدَه الَّذي أنشأَ منَ الأنعامِ حَمولةً وفَرشًا، لا آلهةَ المُشرِكين، فالمُشركونَ ظالمونَ في جعلِهم للأصنامِ حظًّا في الأنعام[2].

دلالةُ (مِنْ)، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

الأنعامُ مُبتدأُ التَّعويلِ في الغذاءِ، وبها قِوامُ حياةِ النّاسِ

أثرُ (من) الابتدائيَّة في المعنى: أنَّ مبدأَ استيفائِهم طُعمَتَهُم هو منَ الأنعامِ، فـ"أوَّلُ ما يتبادرُ للنَّاسِ حين ذكرِ الأنعامِ أن يتذكَّروا أنَّهم يأكلونَ منها "[3].

والأنعامُ من مبتدأِ النَّظرِ إليها مُسخَّرةٌ مُيسَّرةٌ مُسيَّرةٌ، لا غنى لهم عن ألبانِهَا، ولا بهم عن لحومِهَا، ولا يقيمُ أَوَدَهُم، ويُذْهِبُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/126.

رَهَقَهُم، وَوَهنَهم، وانحطاطَ قِواهُم البدنيَّةِ والنَّفسانيَّةِ غيره، ولا يعوِّلونَ على شيءٍ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ تعويلَهم عليهِ، وانظر كيف كانوا ينحرونَ يومًا تسعًا ويومًا عشرًا في خروجِهم لغزوةِ بدرٍ، وبذلك حسبَ النَّبيُّ ﷺ عددَهُم تقديرًا؛ إذْ كَانَ نحرُ البعيرِ الواحدِ مُعتادًا لإطعامِ مئةٍ بكفاية.

مَاهِيَّةُ الأنعامِ، وعِلَّةُ تعريفِها:

الأنعامُ المقصودةُ معروفةٌ مَشهورةُ المنافعِ

والأنعامُ ما يُحمَلُونَ عليه، فيبلِّغهم ما لم يكونوا لِيبلُغُوه إلَّا به، وما يأكلونَ منها، ويتنعَّمونَ بمنافعِها: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧﴾ [النَّحل: 5 - 7]، وهي أنعامٌ مَعهودةٌ مَعروفةٌ مَخصوصةٌ بالجِمالِ، والخيلِ، والبِغالِ والحَميرِ، وما يُؤكَلُ لحمُهَا، وتُتحصَّلُ منافعُهَا.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تَعجيلُ الإخبارِ بالمنَّةِ بالأنعامِ، وتَضليلُ مَن يُحَرِّمُ بعضَها سَفهًا

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على المفعولِ المُتعلَّقِ بفعلهِ المُقدَّرِ (أنشأ) ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾؛ لإظهارِ عنايتِهِ بما يشغلُهم، ولتعجيلِ الخبرِ بالمنّةِ عليهم، ولإنهاءِ الحُكمِ إليهم ليشتغلوا به، ويكلّفوا ترديدَه قبل أن تأخذَ بهمُ الأهواءُ إلى مجاريها كلَّ مأخذٍ، وليفضيَ إليهم أنَّ الحُكمَ في كلِّ شيءٍ - ومنه الأنعامُ - إليه، كما أنَّ الإنعامَ بذلك - أصلًا - منه، وليردَعَهُم عنِ الافتئاتِ عليه بالتَّقسيمِ الَّذي زعمُوا في التَّحليلِ، والتَّحريمِ الَّذي وهموا، وأخيرًا للاهتمامِ الَّذي يُدخِلُ الهَمَّ في كلِّ شيءٍ عَنَى وأهَمَّ، ولينصفَ أزواجَهُم منهم بالإشراكِ في الحلِّ لما ذُكِّي صادًّا الجميعَ عنِ الحرامِ فيما حرَّمَ، ضاربًا المثلَ في الاكتفاءِ بالدَّلالةِ على ذلك كلّه بِجَرِّهِمْ إلى التَّفكُّرِ في عظمةِ الإنعامِ بما خلقَ اللّهُ لهم من الأنعامِ - عليه - قسمين: حَمولةً وفَرشًا

على ما سنُفصِّل. ومن فائدةِ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ قصدُ الاهتمام بأمرِ الأنعام بجعلِها المقصودَ الأصليَّ من سياقِ الكلام، إرادةُ إبطالِ تحريمِ بعضِها، وإبطالِ جَعْلِ نصيبٍ منها للأصنام كذلك، وما إبطالُ حلِّ الميتةِ من مقاصدِ القرآنِ ببعيدٍ، فذلك جميعُه وراءَ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الَّذي هو أوْلى بالتَّقديمِ في تَرتيبِ المُتَعَلِّقاتِ، وذلكم الغَرَضُ الَّذي تليه سائرُ الأغراضِ؛ كالامتنانِ عليهم بتسميةِ الحَمولةِ والفَرشِ خاصّةً، اللَّذَيْنِ ذُكِرَا إدماجًا في المقصودِ، وتَوفيرًا للأغراض، وإيجَازًا عن الإطنابِ بمثلِ قولِ: (وأنشأَ لكُمُ الأنعامَ، وأنشَأَ منها حَمُولةً وفَرشًا)، فأدمجَ الأغراضَ بعضَها في بعضٍ ما بينَ فكِّ الارتهانِ بعقدِ الشَّيطانِ، وما بينَ الامتنانِ بنعمِ الحنَّانِ المنَّانِ، وإيقاظِ فطرتِهم وضمائرِهم أنَّهم مَدِينونَ للدَّيَّانِ[1].

تَوجِيهُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَمُولَةٗ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

من مِنَنِ الأنعامِ فَرْطُ تحمُّلِها للأثقالِ

الحَمولةُ ما تحملُ الأثقالَ، والمقصود الأنعام الكبار الَّتي تصلحُ للحَملِ، ومن ثَمَّ قرأَ الإمامُ أبو جعفر يزيدُ بنُ القَعْقاعِ المدنيُّ: ﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ بفتحِ الشِّين، فزادَ في إبرازِ ما تُكابدُهُ تلك الأنعامُ من مَشقَّةٍ مُلحِقَةٍ أبلغَ الضُّرِّ والعياءِ والانقطاعِ بِمَن امتُنَّ عليهم بما يناسبُ تسميتَها ﴿حَمُولَةٗ﴾، وبين صيغة (فَعُول) كشَمُوس وجَمُوح، وبينَ تاءِ المبالغةِ في آخرِ الصِّيغةِ؛ ليدُلَّ على فرطِ ما تَحملُ من أثقالٍ؛ تنوءُ بها العُصْبَةُ أولو القُوَّة وتَعْيَا وتَكِلُّ، لتظهرَ المِنَّةُ عليهم أجلى ما تكونُ.

معنَى التَّاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَمُولَةٗ﴾:

تأكيدُ المبالغةِ، والدّلالةُ على شُهرةِ الأمرِ

قد تأتي للمبالغةِ في الوصفِ كرجلِ راويةٍ؛ لكثيرِ الرِّوايةِ، أو أنَّ روايتَهُ أصبحَت أمرًا عامًّا مَشهورًا، أو على درجة بَليغةٍ من الاتِّصافِ بالأمرِ، وقد تأتي لتأكيدِ المبالغةِ، نحو: رجلٌ (نَسَّابَةٌ)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/125.

لكثيرِ العلمِ بالأنسابِ؛ ذلك أنَّ كلمةَ (نسَّاب) صيغةُ مبالغةٍ بنفسِهَا، فإذا زِيدَت عليها التَّاءُ أفادَت توكيدَ المُبالغةِ[1]، فـ"الهاء في ﴿حَمُولَةً﴾ للمبالغة"[2]، ولتأكيدِ المبالغةِ، لكثرتِها حتى أصبحت أمرًا عامًّا مشهورًا في الأنعامِ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالفَرْشِ منَ الإبلِ، في الآيةِ الكريمةِ:

الـدّلالـةُ على المـبـالـغـةِ في صِيغةِ التّسْمِيةِ بـالـحَـمـولـةِ والفَرْشِ

من بلاغةِ القرآنِ العظيمِ وأدبيَّاتِهِ المُعجزةِ أنَّه واءَمَ بينَ الاسمينِ المُقترنَينِ في الامتنانِ، في دلالةِ كلٍّ منهما على المبالغةِ البالغةِ أقصى حدودِ التَّصوُّرِ؛ فكما أنَّ الكلمةَ الأولى ﴿حَمُولَةً﴾ على وزنِ المبالغةِ (فَعُول) وبآخرِهَا تاءُ المُبالغةِ، وهي الكبيرةُ كما فسَّرْنا، فكذلك الكلمةُ الثَّانيةُ دالَّةٌ على المبالغةِ من بابِ الوصفِ بالمصْدرِ (فَرْش)، والمرادُ منها: الصَّغيرةُ الَّتي يُؤكَلُ لحمُها فيُلْتَذُّ به، ويُجْتَمَعُ عليه، والحَمولةُ والفَرشُ جميعًا منَ الإبلِ. ويُمكنُ الاستئناسُ في إجازةِ دخولِ التَّاءِ في ﴿حَمُولَةً﴾، بأنَّ صيغَ المبالغةِ كاسمِ الفاعلِ، يمكنُ أن تتحوَّلَ إلى صفاتٍ مُشبَّهةٍ، وعلى ذلك في حالةِ دلالتِهَا على الصِّفةِ المشبَّهةِ، يمكنُ أن نلمحَ المعنى الأصليَّ لها؛ وهو المبالغةُ، فتدخلُ عليها التَّاءُ؛ جريًا على قاعدةِ دخولِ التَّاءِ في اسمِ الفاعلِ، وفي صيغِ المبالغةِ للتَّأنيثِ؛ بجامعِ الاشتراكِ في أنَّه يُؤكَلُ غالبًا وكثيرًا على حين تُستبقَى الحَمولةُ للحَملِ.

سَعةُ الأقوالِ في معاني الفَرْشِ عندَ الطّاهرِ بنِ عاشور:

لـفـظُ (فَـرْشًـا) لا يقومُ مقامَه غـيرُه، في تأْديةِ مـعـانٍ، تدخلُ في لُـبِّ فصاحةِ القُرآنِ

وقد ذكرَ ابنُ عاشورٍ رحمَه اللّه في الفَرشِ ستةَ أقوالٍ: أوَّلُها: أنَّه مالا يُطيقُ الحَملَ منَ الإبلِ، فَهو يُركَبُ كما يُفرَشُ الفَرشُ، والثَّاني: الصِّغارُ منَ الإبلِ القريبة منَ الأرضِ أو منَ الأنعامِ كلِّها فهي كالفَرشِ، والثَّالث: ما يُذبَحُ كالبقرِ والضَّأنِ والمَعزِ؛ لأنَّه يُفرَشُ

---

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 4/592، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 123.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/354.

حينَ الذَّبحِ أو بَعدَهُ، والرَّابع: ما نقلَهُ في اللِّسان عن أبي إسحاقَ: أنَّه هو صِغارُ الإبلِ بإجماعِ أهلِ اللُّغةِ، والخامس: مازادَه الكشَّافُ: أنَّه ما يُنسَجُ مِن وبَرِهِ وصُوفِهِ وشَعرِه، كالَّذي في [النّحل: 80]، وينبغي قيدُهُ بغيرِ الحَمولةِ للتَّقسيم في الآيةِ، والسَّادس: ما كانوا يَفترشَونَ جلودَهُ للجلوسِ عليها، ثُمَّ عقَّبَ قائلًا: ولَفظُ ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ صالحٌ لهذه المعاني كُلِّها، ومَحامِلُهُ كُلُّها مُناسِبَةٌ للمَقام، فيَنبغِي أن تكونَ مَقصُودَةً منَ الآيةِ، وكأنَّ لفظَ (فرش) لا يُوازِنُهُ غيرُهُ في جمعِ هذه المعاني، وهَذا من إعجازِ القرآنِ من جانبِ فَصاحتِهِ[1].

سِرُّ اختِصاصِ التَّسمِيةِ بالحَمولةِ، والفَرْشِ:

التَّنبيهُ على أنَّ مِنَ الأنعامِ ما يَصلُحُ للوصْفَينِ

اختُصَّ الصِّنفان بهذين الاسمينِ؛ ليردَّهم اللّهُ عن مُسمَّياتٍ ممنوعةٍ ما جعلَها اللّهُ إلى بديلٍ مشروعٍ منَ المُسَمَّيات: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]، وليلفتَهم بقوَّةٍ إلى ما تصلحُ الأنعامُ له، فهي بين (حَمُولَةٍ) و(فَرْشٍ)، وإذا كانَت كلُّها مأكولةً؛ فلا حرجَ أن يُؤخذَ منها اللَّبنُ، ويُغتذى ويُشرَبَ، ويمكن أن تَؤُولَ الحَمُولَةُ إلى أن تُنحَرَ وتُؤكَل، وتُترك الفَرشُ حتّى تكبُرَ، وتَحمِلَ. فهذا منحًى تربويٌّ يعلِّمنا اللّهُ إيَّاه أنَّ النَّفسَ إن لم تشغلْها بالحقِّ، شغلتك بالباطلِ، فمن ثمَّ جاء الاسمان الجديدان، وحَسُنَ مجيئهما.

تَوجِيهُ إعرابِ جُملةِ: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾:

مَنْ رَكِبَ الهوَى، فغيَّرَ شرْعَ المولَى، مَنبوذٌ من الصَّفوةِ

الوجهُ الأمثلُ في إعرابِ الجملةِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقَينِ بالفعلِ (أَنْشَأَ) المُقدَّر، وأن يكونَ ﴿حَمُولَةٗ﴾ وما عطفَ عليه ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ مفعولًا به لهذا الفعلِ المُقدَّر، والفعلُ المُقدَّرُ مَعطوفٌ على مثيلِه المذكورِ المُصدَّرةِ به الآيةُ قَبلُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/125 - 126.

وكأنَّ الحِجاجَ المُعبَّرَ عنه بأوجزِ وجهٍ انتقلَ إلى بيانِ أنَّ الأنعامَ لم تُخلَقْ لغيرِ هذا، فإذا تلعَّبتِ الأهواءُ بقوم، فذهبُوا مَذاهبَ ممنوعةً غيرَ مشروعةٍ ابتغوا بها وراءَ ذلك؛ فأولئك المتَّبِعُونَ خُطُواتِ الشَّيطانِ، فما أحرى أن يَنْبِذَهُمْ كُلُّ ذِي لُبٍّ، وأن يُعْرِض عنهم صُدُودًا من كان له قَلْبٌ!.

الحَمولةُ أكثرُ نفعًا منَ الفَرْشِ، وكِلاهما منَ الإبلِ المستعمَلَةِ عندَ العربِ

سِرُّ تقديمِ الحَمولةِ على الفَرْشِ، في الآيةِ الكريمةِ:

قدَّمَ الحَمولةَ على الفَرشِ؛ لأنَّها أعظمُ في الانتفاعِ[1]؛ إذ ينتفعُ بها في الحَملِ والأكلِ، والعربُ تقدِّمُ النَّاقةَ في ذلك على البعيرِ، وقد أفاضَت قصيدةُ كعب بنِ زهير اللَّاميَّة في وصفِ ناقتهِ بما جازَ وجازَ، وأغربَ، وأطربَ، وأتى في وصفِ عَدوِها وسرعتِها بما أجلبَ وأعجبَ.

فعلُ الأمْرِ، إبطالٌ لتَحْريمِ ما حرَّمَهُ المُشركونَ على أنفسِهم

في مُناسبةِ الأمْرِ بالأكلِ ﴿كُلُواْ﴾ تعميمٌ لها لا تخصيصٌ لبعْضِها:

مناسبةُ الأمرِ بالأكلِ بعدَ ذكرِ الأنعامِ: أنَّه لمَّا كانَ قولُهُ: ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ شيئًا مُلَائمًا لِلذَّبحِ، كما تقدَّمَ؛ عَقَّبَ بِالإذنِ بأكلِ مَا يَصلُحُ لِلأكلِ منها، واقتَصَرَ على الأمرِ بالأكلِ؛ لأنَّه المَقصودُ منَ السِّياقِ إبطالًا لِتَحريمِ ما حَرَّمُوهُ على أنفسِهِم، وتَمهيدًا لقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فالأمرُ بالأكلِ هُنا مُستعمَلٌ في النَّهيِ عَن ضِدِّه، وهو عَدَمُ الأكلِ مِن بعضِها؛ أي: لا تُحرِّمُوا ما أُحِلَّ لكم منها اتِّباعًا لِتَغريرِ الشَّيطانِ بِالوَسوَسَةِ لِزُعماءِ المُشركِينَ الَّذين سَنُّوا لهم تِلكَ السُّنَنَ الباطلَة، وليسَ المرادُ بالأمرِ الإباحةَ فَقَط[2].

الجامعُ بينَ المأمورينَ عُبوديَّتُهُم للخالقِ سُبحانَهُ

سِرُّ مُخاطبتِهم جميعًا بواوِ الجمْعِ:

في فاعليَّةِ الواوِ توحيدُ الآمرِ لهم جميعًا؛ إذ هو وحدَهُ الإلهُ الحقُّ الخالقُ الرَّازقُ الَّذي له الحكمُ وحدَهُ سبحانَهُ، وتوحيدُ المَأمورينَ المُخاطَبينَ بجامعِ اشتراكِهِم في العبوديَّةِ للّهِ تعالى جميعًا.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/671.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/126.

وَجهُ العُدولِ عنِ الضَّميرِ، إلى الإتيانِ بالموصولِ:

الإشارةُ إلى إباحةِ ما حرَّمَهُ المُشركونَ من بعضِ الأنعامِ

وعدلَ عنِ الضَّميرِ بأن يقولَ: (كُلُوا منها) إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ليبيحَ ما حرَّمُوهُ، ولإزالةِ ما سنَّهُ الكفَّارُ منَ البحيرةِ والسَّائبةِ وغيرِ ذلك[1]، ولِمَا في صلةِ الموصولِ منَ الإيماءِ إلى تضليلِ الّذين حرَّمُوا على أنفسِهم، أو على بعضِهِمُ الأكلَ مِن بعضِهَا، فعطَّلُوا على أنفسِهم بَعضًا ممَّا رَزَقَهُمُ اللّه[2]. فالإسلامُ يحوِّل العاداتِ إلى عباداتٍ؛ إذا فعلَهَا المُكلَّفُ احتسابًا ونوى بها الامتثالَ؛ كالأكلِ الَّذي شرعَ لهم هنا إبطالًا لأمورِ الجاهليَّةِ وتزوُّدًا.

سِرُّ التَّصريحِ بمفعولِ (رزق):

أحاطَهُمُ اللهُ برحمتِهِ، وشمَلَهم بعَطائِهِ

نصَّ على مفعولِ (رزق)، وكانَ يمكنُ أن يقولَ: (كُلُوا ممّا رزقَ اللّه)، فوجَّهَ الخطابَ لهم تكريمًا بشمولِهِم في رحمتِهِ، وإحاطتِهم بمننِهِ، فقال لهم: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

بَلاغةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الرِّزقُ مِنَ اللهِ وحدَه يَهبُهُ مَن يشاءُ، ويمنعُهُ مَن يشاءُ

ذكرَ الاسمَ الأعظمَ الفاعلَ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: رزقْناكُم مثلًا، أو (رُزِقْتُمْ) بالبناءِ للمفعولِ، ودلالةُ الإدغامِ الكبيرِ فيه تشريفٌ وتخصيصٌ للرّزقِ به تعالى بالاسمِ الدَّالِّ على الكمالِ كلِّه، وذِكْرُه في مَواطنِ الخيراتِ والنِّعَمِ والمِنحِ من عاداتِ القرآنِ.

سِرُّ مجيءِ فعْلِ النَّهْيِ مِنَ الافتعالِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾:

الإيحاءُ بأنَّ المنهيَّ عنه يُخالِفُ الفطرةَ

توحي صيغةُ الافتعالِ بمعاكسةِ المنهيِّ عنه للفطرةِ، بوصفهِ ثقيلًا بغيضًا على النَّفسِ، وأنَّ الهمَّةَ لا تنبعثُ إليه؛ لأنَّ وازعَ اللّهِ في النَّفسِ البشريَّةِ يأباه، ولأنّ الضَّميرَ الحيّ يكفُّ صاحبَه عنه، ويعوقُه، ويقاومُه.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/354.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/126 - 127.

المَغزَى وراءَ النَّهيِ عنِ اتّباعِ خُطواتِ الشّيطانِ:

التَّـهـيُ عـنِ شُؤونِ الشِّركِ، واعـتِـقـادِه وممارَسَتِه

قال ابنُ عاشور: "فإنَّ أوَّلَ خُطُواتِ الشَّيطانِ في هذا الغَرَضِ تَسويلُهُ لَهم تَحريمَ بَعضِ مَا رزقَهُمُ اللّهُ على أنفسِهِم"[1] واستنادًا إلى الأمرِ في الآيةِ: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ينبغي أن يُضافَ إليه التَّنبيهُ على استحلالِهم ما حرَّمَ اللّهُ عليهم، كأكلِ الميتةِ استنادًا إلى النَّهيِ في الآيةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾.

بَلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، في ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

التَّشنِيعُ عَلى المُخالفِ، رَدْعٌ له عن غَيِّه وضَلالِه

في قولِهِ: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، لها أثرها في تقبيحِ صنيعِ المُخالفِ، وتكريهِ فعلِه، وبيانِ أنَّه يكون مَمقوتًا سائرًا في طريقٍ تُصَبُّ عليه لعناتُه، وتلحقُه مَعَرَّتُهُ، وأصلُها أنَّ السَّائرَ إذا رأى آثارَ خُطُواتِ السَّائرين تبعَ ذلك المَسلكَ؛ عِلمًا منه بأنَّه ما سارَ فيه السَّائرُ قبلَهُ إلَّا لأنَّه مُوصِلٌ إلى المطلوبِ، فشبَّهَ المُقتدِي الّذي لا دليلَ له سوى المُقتدَى به، وهو يظنُّ مَسلكَهُ مُوصِلًا بالَّذي يتبعُ خُطُواتِ السَّائرينَ، وشاعَت هاتِه الاستعارةُ التّمثيليَّةُ، حتّى صارُوا يقولون: هو يتَّبِعُ خُطا فلانٍ؛ بمعنى: يقتدي به، ويمتثلُ له[2].

مجيءُ (إنَّ) التَّعليليَّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

عِلَّةُ نَهيِ اتِّباعِ الشَّـيطانِ، هـي الـعَـداوةُ والافْتِتانُ

علَّلَ ﷻ النَّهيَ عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ بأنَّه: عدوٌّ بَيِّنُ العداوةِ، وبيانُها ببيانِ آثارِهَا ونتائجِهَا[3].

نُكتةُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الإضمارُ في مَواطِنِ المَهانةِ ذُلٌّ وإهانةٌ

(إنَّ) اسمُها ضميرُ الشَّأنِ عائدٌ على الشَّيطانِ دونَ العودةِ إلى ذكرِ اسمِهِ الصَّريحِ الموسومِ إذلالًا، وتحقيرًا، وإهانةً، فالإضمارُ في مَواطِنِ المهانةِ ذلٌّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2704.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

الاعتناءُ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمۡ﴾ على المُتعلِّق؛ دليلٌ على التَّنفيرِ والتَّحذيرِ والتَّقذيرِ منَ الشَّيطانِ، بوصفِه عدوًّا صريحًا للمُؤمنين، مَعنيًّا بغوايتِهم، وإضلالِهم.

التَّحذيرُ منَ الشَّيطانِ وعداوَتِه للمؤمنينَ، في كلِّ حالٍ وحِينٍ

عِلَّةُ التَّصريحِ بالعَداوةِ باسْمِ الشَّيطانِ ﴿عَدُوٌّ﴾:

وفيه تخذيلٌ عنه وبلوغُ غايةِ النُّصحِ للمُؤمنينَ بأوجزِ لفظٍ لا تتَّسعُ الكراريسُ لإيعابِه، ومن أجمعِ ما قِيلَ في بيانِ هذه العداوة: إنَّه " ظَاهِرُ العَداوَة، يَمنَعُكُم ممَّا يَحفَظُ رُوحَكُم، ويَزيدُ قُوَّتَكُم، ويَدعُوكُم إلى الافتراءِ على اللّهِ إنْ نَسَبتُمُوهُ إلى أمرِهِ، وإلى دَعوى الإلَهيّةِ لكم إنِ استَقلَلْتُم بِهِ"[1].

في اللَّفظِ تحذيرٌ، وتخذيلٌ، ونُصحٌ للتّوقّي

نُكتةُ وصْفِ عَداوةِ الشَّيطانِ بأنّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

وَصَفَه بـ ﴿مُّبِينٌ﴾ لِما فيه من تبجُّحِ الشَّيطانِ، ووقاحتِه، وعدمِ مبالاتِه بمَن يَهلِك بسببِه، وقطعِ المعذرة عمَّن يتابعُه، ويَنخدِعُ بوساوسِه، أو يَنهزِمُ لأَزِّه، "وليس معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أنَّه بَيِّنٌ واضحٌ عندَ السَّيرِ وراءَهُ، إنَّما هو بَيِّنٌ في نتائجِه وغوايتِه"[2].

اتِّباعُ خُطُواتِ الشَّيطانِ بَيِّنُ النَّتائجِ، واضِحُ العاقِبَةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/509.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2704.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ [الأنعام: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين خلق النّبات والثّمرات، وخلق حلال الأنعام والحيوانات

ناسَبَ الكلامُ عن خَلْقِ الجنّاتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ، بما فيها من خيراتٍ وثمراتٍ، من بديعِ صُنْعِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، بيانَ إنعامِهِ بِخَلْقِ الأنعامِ ومختلِفِ الحيواناتِ، الّتي ليس لهم تحريمُها بأهوائِهم، بل ذلك من حكمةِ الخالقِ الّذي بيدِه مقاليدُ الأمورِ والأحكامِ، ومن ثَمَّ فإنّه لَمَّا ردَّ اللّهُ تعالى دِينَ المشركين، وأثبَتَ دينَه، وكانوا قد فَصَّلوا الحُرْمَةَ بالنِّسبةِ إلى ذكورِ الآدميِّ وإناثِه، أَلْزَمَهُم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الأنعامِ وإناثِها، ففصَّلَ أمرَها في أسلوبٍ أبانَ فيه أنَّ فِعلَهم رَثُّ القُوَى، مُهَلْهَلُ النَّسيجِ، بعيدٌ من قانونِ الحِكمةِ؛ فهو موضعٌ للاستهزاءِ، وأهلٌ للتَّهكُّمِ، فقال بيانًا لذلك وإيضاحًا: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ﴾ [الأنعام: 142 - 143][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزۡوَٰجٖۖ﴾: الأصلُ في مادَّة (زَوَج) أن يدلَّ على مُقارَنة شيءٍ لشيءٍ، وكُلُّ ما كان له قرينٌ من جِنْسِه يُقال له: زَوْجٌ، فـ(الزَّوجُ) اسمٌ يقع على كُلِّ واحدٍ مِنَ المقترنَيْن، يُقال: للرَّجل زَوْجٌ، وللمَرأة زَوْجٌ، وهو الفَصِيح، و(الزَّوجان) في كلام العرب: الاثنان، يُقال: عليه زَوْجا نِعالٍ، إذا كانت عليه نَعلان، ولا يُقال: عليه زوجُ نِعالٍ، ويُقال لكلِّ ما يَقترن بآخرَ مماثلًا له، أو مضادًا: زَوْجٌ. وزوجةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/294.

لُغةٌ رَديئةٌ، وجمعُها زَوجاتٌ، وجمع الزَّوج أَزوَاجٌ[1]. وزَوجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوجُ الرّجل: امرأتُه؛ قال اللّه تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويُقال أيضًا: هي زوجتُه. قال الفرزدقُ:

وإنَّ الّذي يَسعَى ليُفسِدَ زَوْجَتي *** كَساعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَبيلُها[2]

قال يونس: "تقول العرب: زوَّجتُه امرأةً، وتزوَّجتُ امرأةً، وليس من كلام العرب تزوَّجتُ بامرأة، قال: وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤﴾ [الدّخان: 54]؛ أي: قرنّاهم بهنَّ"[3].

2) ﴿ٱلضَّأۡنِ﴾: الضّائنُ مِنَ الغَنَم: ذُو الصّوفِ، ويُوصَفُ به فيُقالُ: كَبْشٌ ضائنٌ، والأُنثى ضَائِنَةٌ، والضّائنُ: خلافُ المَاعِزِ، والجَمعُ الضَّأْنُ والضَّأَنُ، مِثل المَعْزِ والمَعَز، والضّأنُ أَصله ضَأَن، فَخُفِّفَ، والضَّأْنُ: جَمعُ الضَّائِن، ويُجمَع الضَّئِينَ، والأُنثى ضائِنَةٌ، والجَمعُ ضَوائنُ[4]. وإذا أكلَ القومُ لحمَ ضَأْنٍ، فثَقُل عليهم، فَهُم نَعِجونَ، ورجلٌ نَعِجٌ، قال:

كَأَنَّ القَومَ عُشُّوا لَحمَ ضَأْنٍ *** فَهُم نَعِجُونَ قَد مَالَتْ طُلاهُمْ[5]

3) ﴿ٱلۡمَعۡزِ﴾: ذُو الشَّعرِ مِنَ الغَنَم، وهو خِلافُ الضَّأْنِ ذَواتِ الصُّوفِ، والأُنثى: ماعِزَةٌ ومِعْزاةٌ. وأَصلُ الكلمة مِنَ المَعَزِ، وهو الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ، يُقال: مَكانٌ أَمْعَزُ، وأَرضٌ مَعْزاءُ؛ أي: صُلبَةٌ غَليظَةٌ ذاتُ حِجارَةٍ. وتَمَعَّزَ البَعِيرُ؛ أي: اشتَدَّ عَدْوُهُ، ومنه سُمِّيَ ذو الشَّعرِ مِنَ الغَنَم ماعِزًا؛ لِما فيه مِن شِدَّةٍ وصلابةٍ، كتَسَلُّقِ الجبلِ وأكلِ الشَّوكِ[6]، قال الضّرير: المَعيز والمَعْز والماعِزُ واحد، والمعنى جماعة، ويُقال: مَعِيزٌ مثل الضَّئِينِ في جماعة الضَّأْنِ، والواحد: الماعز، والأنثى ماعِزَة. قال:

وَيَمنَحُها بَنو أَشجَى بنِ جِرمٍ *** مَعِيزَهُمُ حَنانَكَ ذا الحَنانِ[7]

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (زوج).

(2) البيت من شعر الفرزدق، ورد في ديوانه: 2/61، والفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 3/308.

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (زوج).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضأن).

(5) لم ينسبِ البيت في التّهذيب لقائل: 1/381، وكذلك في المخصّص: 4/80، وفي المحكم: 1/202، وفي لسان العرب: 2/381، ومنسوب إلى الشّاعر ذي الرّمة، ولا يوجد في ديوانه. يُنظر: كتاب العين: 1/233 (الهامش).

(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (معز).

(7) الخليل، العين: (معز)، والشعر لامْرِئِ القَيْسِ، وهو في ديوانه، ص: 143، وإليه عزاه القرطبي في تفسيره: 7/ص101، وعنده: ويمنحها بنو شَمَجَى.

قال سيبَوَيْهِ: (معزًى) مُنَوَّنٌ مصروفٌ؛ لأنّ الألِفَ للإلحاقِ لا للتّأنيث، وقال الفرّاء: المِعزَى مؤنَّثة وبعضُهم ذكَّرها، وقال أبو عُبيدٍ: كلُّ العرب يُنوِّن المِعزَى في النَّكرة[1].

4) ﴿حَرَّمَ﴾: المَمنوعُ، يُقالُ: حَرُمَ عليه الشَّيءُ حُرْمَةً وحَرامًا؛ أي: امتَنَعَ. وشَيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أي: مَمنوعٌ. وأَصلُ التَّحريم: المَنعُ، يُقالُ: مَكانٌ حَرامٌ؛ أي: يُمنَعُ دُخولُه، ومنه سُمِّيَ الشَّهرُ الحَرامُ بذلك؛ لأنّ العربَ تَمتَنِعُ فيه عن القتالِ. وضِدُّ الحَرام: الحَلالُ والمُباحُ والجائزُ[2]، و"التّحريمُ أصلُه من قولِك: حَرَمْتُ فُلانًا عطاءَه؛ أي: مَنَعْتُه إيّاه، وكلّ ما مُنِعَ فهو حرام"[3]. وقال اللَّيثُ: "والحرامُ: ما حَرَّمَهُ اللّه، والحُرْمَةُ ما لا يَحِلُّ لك انتهاكُه، وتقول: فُلانٌ لهُ حُرْمَةٌ؛ أَي: تَحَرَّمَ بِنا بِصُحْبَةٍ، أو بِحَقٍّ وذِمَّةٍ. وحُرَمُ الرّجُلِ: نساؤُهُ وما يَحْمي، والمحارِمُ ما لا يَحِلّ استِحْلالُه"[4].

5) ﴿ٱشۡتَمَلَتۡ﴾: الاشتمالُ الإحَاطَةُ، تَقُولُ: اشتَمَلَ عليه الأَمرُ؛ أي: أحاطَ به، وأَصلُ الشُّمُول: دَوَرانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذِهِ إيَّاهُ مِن جَوانبِه، مِن ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوب؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّه حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ. ويأتي الاشتمالُ بمعنَى: التَّعميم. والشُّمُولُ: العُمومُ، يُقالُ: شَمِلَهُمُ الأَمرُ إذا عَمَّهم، وهذا أَمرٌ شاملٌ؛ أي: عامٌّ. ومِن معاني الاشتِمَالِ أيضًا: الإدخالُ والتَّغطِيَةُ والاجتِمَاعُ[5]، وقد تلفَّعَ بالثّوب، إذا اشْتَمَلَ به، بمعنى تغطّى به، وقد قيل:

أَوردَهَا سَعدٌ وَسَعدٌ مُشتَمِلْ *** يَا سَعدُ لَا تُرْوَى بِهَذاكَ الإِبلْ[6]

"واشتمل على الشّيء: إذا أحاط به، قال اللّه تعالى: ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾. واشتمل بثوبه؛ أي: التفَّ، واشتمالُ الصَّمَّاء: أن يغطّي الرّجلُ جسدَه بثوبه حتّى لا يبدو منه شيء"[7].

---

(1) زين الدّين الرّازيّ، مختار الصّحاح: (معز).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح: (حرم).

(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعي، ص: 60.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ص: 60.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).

(6) وقد رُوِي هذا البيت في الرّجل الَّذِي سَافر مَع أَصحاب له، فَلم يرجع حِين رجعُوا، فاتَّهَمَ أَهلُه أَصحابَه، فرفعوهم إلى شُرَيْح، فَسَأَلَهُمُ البَيِّنَةَ على قَتله، فَارتَفعوا إلى عليّ، فأخبروه بقول شُرَيح، فقالَ عليّ:

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِل *** يَا سعدُ لَا تُروى بهذاك الإبل

هذا مَثَل يُقَال: إنّ أَصله كانَ رجلًا أورد إبله مَاء، لا تصل إلى شربه إلَّا بالاستقاء، ثمَّ اشتَمَل ونام وتركهَا، لم يستقِ لها، يَقول: فهَذَا الفِعل لا تُروَى بِهِ الإِبل حتَّى يُستقَى لها. يُنظر: القاسم بن سلّام، غريب الحديث: 3/477.

(7) القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: 3/477.

6) ﴿أَرۡحَامُ﴾: الرَّحِمُ: مَكانُ تكوُّنِ الجَنينِ في بَطنِ الأُمِّ، ويأتي بمعنى القَرابَةِ والصِّلَةِ، يُقَال: بينَهُما رَحِمٌ؛ أي: قَرابَةٌ وصِلَةٌ، وذَوُو الرَّحِم هُم الأقارِبُ، وسُمِّيَت القَرابَةُ رَحِمًا؛ لأنّ الأقارِبَ خارِجينَ مِن رَحِمٍ واحِدَةٍ. وسُمِّيَ رَحِمُ الأُنثَى رَحِمًا؛ لأنّ فيه ما يُرْحَمُ به الوَلَدُ. وجَمعُ الرَّحِمِ: أرحامٌ[1]، وفي الحديث: «الرَّحِمُ شِجْنَةٌ مَعَلَّقة بالعَرش، تقول: اللّهمَّ صِلْ مَن وَصَلنِي، واقْطَعْ مَن قَطَعني»[2]، وأصلُ الشُّجْنَةِ شُعبةٌ مِنَ الغُصُون يَعْلَق بعضُها بِبَعض[3].

7) ﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾: الأُنثى خِلافُ الذَّكر مِن كُلِّ شَيءٍ، وامرَأَةٌ أُنثَى كامِلَةُ الأُنوثة، والجَمعُ: إِناثٌ، وأصلُ الأُنُوثَةِ مِنَ التَّأنيث، وهو التَّلِيينُ والتَّسهيلُ، يُقالُ: أَنَّثَ في الأمرِ يُؤَنِّثُ تَأنيثًا؛ أي: لانَ وتَساهَلَ[4]. وفي القرآن جعل الله نصيبَ الأنثى ثلثًا، ونصيب الذّكر ثلثين من التّركة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النّساء: 11].

قال القاضي عبد النّبيّ بن عبد الرّسول الأحمد نكري: "ولي ها هنا نُكتة لطيفة غريبة وهي أنّ أعدادَ آدم بحساب الجُمَّلِ خمسةٌ وأربعون، وأعداد حواء بذلك الحساب خمسة عشَرَ، ولا شكّ أن خمسة عشَرَ ثلثُ خمسةٍ وأربعين، فجعل الله تعالى حصّةَ الأنثى ثلث المال، وحصّةَ الذّكر ثلثيه"[5].

8) ﴿نَبِّـُٔونِي﴾: النَّبَأُ: الخَبَرُ، يُقال: أَنبَأْتُ فُلانًا نُبوءَةً، ونَبَّأْتُهُ وأَنْبَأْتُهُ؛ أي: أَخبَرْتُهُ خَبَرًا، والإِنباءُ: الإخبارُ والإعلامُ عنِ الشَّيءِ قَبلَ وَقتِ ظُهُورِه. وأَصلُ النُّبوَّة مِنَ النَّبْوَةِ والنُّبُوءِ، وهو: العُلُوُّ والارتِفاعُ، ومنه اشتِقاقُ النَّبِيِّ؛ لارتِفاعِ قَدْرِهِ في الدُّنيا والآخِرَة؛ ولأنَّهُ كالعَلَمِ يُهتَدى به[6]. و"النّبأ: الإتيانُ من مكان إلى مكان؛ يُقال للّذي يَنْبَأُ من أرض إلى

(1) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رحم).
(2) أخرجه بنحوه من رواية أبي هريرة: البخاري، الصحيح الجامع، برقم: (5988)، وأحمد في مسنده، برقم: (8975)، ورواه غيرُ واحد من الصحابة.
(3) الحديث وارد برواية أخرى، عنِ البزّار بإسناد حسن، عن أنس أنّ النّبيّ ﷺ قال: «الرَّحِمُ حَجَنَةٌ مُتمسّكة بالعَرش، تتكلّم بلسان ذُلَقٍ، تَقول: اللهمَّ صِلْ مَن وَصَلني، واقطَع مَن قَطَعني، فيقول الله ﷻ: أنا الرّحمن الرّحيم، وإنّي شققتُ للرّحم مِن اسمي، فمَن وصلها وصلتُه، ومَن بتكَها بتكْتُه». عبد العظيم المنذريّ، كتاب التّرغيب والتّرهيب: 3/340.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أنث).
(5) الأحمد نكري، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون): (الثّلث).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ - نبا).

أرض: نابئٌ. وسَيلٌ نابئٌ: أتى من بلد إلى بلد، ورجلٌ نابئ مثله، ومِن هذا القياس النّبأ: الخبر، لأنّه يأتي من مكان إلى مكان"[1].

9) ﴿بِعِلۡمٍ﴾: العِلمُ: المَعرِفَةُ، يُقال: عَلِمْتُ الشَّيءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا؛ أي: عَرَفتُه، وضِدُّه: الجَهلُ. ويأتي العِلمُ بمعنى: الإتقانِ والإحكام، يُقال: عَلِمَ الأَمرَ وتَعَلَّمَه؛ أي: أَتقَنَهُ. ومِن مَعانِيه: الإِدراكُ والاعتِقادُ والتَّصدِيقُ والظَّنُّ[2]، وعلِمَ بالأمر، وهو عَالِم به: أحاط عِلْمًا به، أو أَلَمَّ به إلمامًا شاملًا، والعلم في الاصطلاح: "مجموعة مسائل في موضوع معيَّن، اكتسبها الإنسانُ مِن اكتشاف وترجمة النّواميس الموضوعيَّة الّتي تحكم الأحداث والظّاهرات"[3].

10) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: الصِّدقُ ضدُّ الكَذِب، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصدَقَه الحَديثَ: أنبأَهُ بالصِّدق. ويُقال: صَدَقْتُ القومَ؛ أي: قلت لهم صِدْقًا، والصِّدقُ مُطابَقَةُ القَول الضَّمير والمخبَر عنه معًا، ومتى انخرمَ شَرط مِن ذَلك لم يكن صِدقًا تامًّا[4]، وحيث إنّهم كذبوا في ادّعاء تحريم ما ادّعوا أنّ اللّه حرّم عليهم، فقد أخبرهم اللّه أنّه تعالى جعله كلّه حلالًا، فقال له: قل لهم يا محمّد: "أخبروني بمستَنَدٍ صحيحٍ يُعتمد عليه، إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون مِنَ التّحليل والتّحريم"[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيان نعمة الله بالأنعام، وأنّ تحريم الجاهليّة كان بالأهواء لا بالتّشريع

هذه الأنعام الَّتي رزقها اللّه عِبادَه مِنَ الإبل والبَقر والغنَم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(5) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 933، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 198.

ثمانية أصناف: أربعةٌ منها مِنَ الغنم؛ وهي الضَّأن ذُكورًا وإناثًا، والمَعز ذكورًا وإناثًا. قُل - يا محمَّد - لأُولئك المشركين: هل حَرَّم اللّه الذَّكرين منَ الغنَم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك؛ لأنَّهم لا يحرِّمون كُلَّ ذكر مِنَ الضَّأن والمَعز. وقُل لهم: هل حَرَّم اللّه الأُنثَيين منَ الغنَم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنَّهم لا يحرِّمون كلَّ أنثى مِن ولد الضَّأن والمَعز. وقُل لهم: هل حَرَّم اللّه ما اشتملت عليه أرحام الأُنثَيين منَ الضَّأن والمَعز منَ الحمَل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنَّهم لا يحرِّمون كلَّ حَمَلٍ مِن ذلك، خبِّروني بعِلمٍ يدلُّ على صِحَّة ما ذهبتم إليه، إنْ كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربِّكم(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الإطنابِ بالتّفصيل بعد الإجمال:

التَّبيين قبل الاستدلال، وسيلة لإقامة الحُجَّة

في قوله تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ تفصيلُ ما ذُكِرَ مِنَ الذُّكورِ والإناثِ، وما في بُطونِها؛ للمبالغةِ في الرَّدِّ عليهم بإيراد الإنكار على كلِّ مادَّةٍ من موادِّ افترائِهم، فيَظهَر للمُتفكِّرِ فيه منهم؛ أنَّه لا وَجهَ يُعقَلُ لقَولِهم. إضافة إلى ذلك أنَّهم لَمَّا كانوا قد حَرَّموا في الجاهليَّةِ بَعضَ الغنَم، ومنها ما يُسمَّى بالوَصيلة، وبعضَ الإبلِ كالبَحيرة والوَصيلة أيضًا، ولم يُحرِّموا بعضَ المَعْزِ ولا شيئًا مِنَ البقَر، ناسَبَ أنْ يُؤتَى بهذا التَّقسيم قبل الاستدلالِ؛ تمهيدًا لتحكُّمِهم، إذ حَرَّموا بعضَ أفرادٍ من أنواعٍ، ولم يُحَرِّموا بعضًا مِن أنواعٍ أخرى، وأسبابُ التَّحريم المزعومةُ تتأتَّى في كلِّ نوعٍ؛ فهذا إبطالٌ إجماليٌّ لِمَا شَرَعوه، وأنَّه ليس مِن دينِ اللّه، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: 82](2)، يُضاف إلى ما ذُكر تعليلٌ آخر؛ وهو أنَّ الحقَّ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 147.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 124 - 125/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/129.

تعالى أراد أنْ يُقرِّر ذلك على مزاعمهم شيئًا فشيئًا؛ وذلك أشدُّ في التَّوبيخ والتَّقريع، مِن أن يُذكر دفعةً واحدةً.

أحكام الله تطال الأنواع الثّمانية منَ الأنعام، ولا تتركها لأهواء الأنام

دلالة التّأويل الإعرابيّ للفظ ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾:

﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾: قال الأخفش: منصوبٌ، على أنَّه بدلٌ مِن ﴿حَمُولَةً وَفَرۡشٗاۚ﴾، أو منصوب على الحال، أو بإضمارِ فِعلٍ؛ تقديرُه ﴿أَنشَأَ﴾. وقال عليّ بن سليمان: هو منصوب بـ﴿كُلُواْ﴾، أي: كلوا لحم ثمانية أزواج، وقيل: هو منصوب على البدل من (ما)، على المَوضِع، وقوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ بدل من ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾[1].

وأيًّا كان تأويلُ لفظ ثمانية، فإنّه يستوعب الأنواع الثّمانية المعهودة فيما يملكه النّاس من أنعام، تتقابل فيها الذّكورة والأنوثة منَ الأصناف الأربعة المعهودة؛ لتعطيَ الرّقم ثمانية. وكانوا يقولون: قد حرّمها الله، فأنكر ذلك عليهم، وهم في تحريمهم بعضها دون بعض يتدخّلون في تقرير الأحكام تحريمًا وتحليلًا، وهو أمرٌ لا ينبغي لبشرٍ أن يتطاول إليه؛ لأنّه من خصائص الذّات الإلهيّة المهيمنة على الكون ومن فيه.

إطلاق كلمة الأزواج على غير الإنسان؛ لشبهها بالزَّوجين منه

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَزۡوَٰجٖۖ﴾:

يُطلق الزَّوج غالبًا على الذَّكر والأُنثى من بني آدم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ [النّجم: 45]، ويخصّ اللّفظ (زوجان) في الاصطلاح، بأنْ يُطلَق على الطّرفين المتلازمين بعقدة نكاح، وتُوسّع في هذا الإطلاق، فأُطلِقَ بالاستعارة على الذَّكر والأُنثى منَ الحيوان الَّذي يتقارن ذَكره وأُنثاه، مثل: حمار الوحش وأتانه، وذَكر الحمام وأُنثاه؛ لشبهها بالزَّوجين منَ الإنسان. والأزواج هنا أزواج الأصناف، وليس المراد زوجًا بعينه، إذ لا تُعرف

(1) مكّيّ القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2220.

بأعيانها، فثمانية أزواج هي أربعة ذكور من أربعة أصناف، وأربع إناث كذلك[1]، وقد كانتِ الاستعارة المُلمحةُ هنا في غاية الجمال، من حيث دلالتُها على أداء المطلوب، في إطار تصحيح الانحراف العقائديّ والتّشريعيّ الّذي انصبّ حوله المُؤدَّى السّياقيّ في هذه الآية والّتي بعدها.

فائدة التَّفصيل في قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾:

مِـن أغـراض التّفصيل التّوطئة للاستدلال

قوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ بدل تفصيل، والمراد: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ منها؛ أي: منَ الأزواج؛ أي: ذَكَر وأُنثى، كلّ واحد منهما زوجٌ للآخر، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، تفصيلٌ لمضمون لفظ ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾. "ويُقال: كُلوا ممّا رزقكم اللّه ثمانية أزواج، نزلتِ الآية في مالك بن عوف وأصحابه، حيث قالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا"، والظّاهر أنّ الإشارة هنا إلى أنّ قولهم هذا كان مقرونًا بنيَّتِهم في تفصيل ما بيّنوا منَ الأصناف، تحريمًا وتحليلًا[2]. وفائدة هذا التَّفصيل: التَّوصُّلُ لذِكْرِ أقسام الذُّكور والإناث، توطئةً للاستدلال الآتي في قوله: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ الآية، وقُدِّم الضَّأن على المَعز لغلاء ثمنه، وطيب لحمه، وعِظَم الانتفاع بصوفه[3].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾:

(مِـن) لبيان الجنس، في موقعَيها منَ الآية الكريمة

جاءَت ﴿مِّنَ﴾ هنا لبيان الجنس؛ أي: (من فئة الضّأن اثنين)، و(من فئة المَعز اثنين)؛ أي: من جنسهما، ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فالذّكر زوج، والأنثى زوج، والضّأن والنِّعاج جمعه، واحده: ضائن، والأنثى: ضائنة، والجمع: ضوائنُ، و﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، والمَعْزُ: المِعْزى، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/128.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/490.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/102.

واحد له من لفظه، وأمّا الماعِزُ فجَمْعُه مَعيزٌ، وجمعُ الماعِزَةِ مَواعِزُ، وقرأ أهل المدينة والكوفة: مِنَ المَعْزِ ساكنة العين، والباقون بالفتح[1]، وواضح أنّ ﴿مِّنَ﴾ تبيِّنُ جنسَ ما قصدوه منَ الأصناف المفصَّلة بأسمائها في هذه الآية، وهو نقل من واقع ماكانوا يعتقدونه دينًا، ويمارسونه تشريعًا.

دلالة فعل الأمر (قُلْ):

أهمّيّة استعمال أسلوب الأمر للحوار مع الكفّار

قوله تعالى ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أمرٌ مِنَ اللّه تعالى للنَّبيِّ ﷺ، أنْ يقولَ لهم ذلك تَبْكيتًا، وإظهارًا لانقطاعِهم عنِ الجوابِ: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[2]، "حكى أبو صالح عن ابن عبّاس، أنّ هذه الآية نزلت على رسول اللّه ﷺ، حين أتاه عوف بن مالك، فقال له: أحللتَ ما حرّمه آباؤنا، يعني: منَ البَحِيرة، والسّائبة، والوَصيلة، والحام، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، وقال: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فَسَكتَ عوفٌ لِظهورِ الحُجَّة عليه"[3].

دلالة الوضع البيانيّ لقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾:

السّياق القرآنيّ يعمد إلى الحوار المقنِع، لِدَحْضِ الادّعاءات الزّائفة

هذا الكلام ردٌّ على المشركين؛ لإبطالِ ما شَرَعوه، بقرينة قوله: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ - إلى آخرها في المَوضِعَيْن - اعتراضٌ بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[4]، والمعنى: "ما الّذي حُرِّمَ عليكم فيما زَعمتُم: هل حُرِّمَ عليكم الضّأن والمَعزُ معًا، أم أنثى الضّأن والمعز فقط؟ فإنْ كان التّحريم من جهة الذّكر، فيجب أن تحرّموا على أنفسكم كلّ ذكرٍ، وأنتم تستمتعون ببعض الذّكور وتأكلونه، وإنْ كان

(1) أبو إسحاق الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 4/199.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/181.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/129 - 130.

من جهة الأنثى فحرِّموا كلّ أنثى! أم حُرِّمَ عليكم ما اشتملَتْ عليه أرحامُ الأُنثيين؟ فيلزمكم أن تحرِّموا كلَّ ما اشتَملَتْ عليه الأرحام، فتُحرِّموا الذّكرَ والأنثى"(1)، وهذه دلالةٌ على عقلانيةِ الحوارِ، وبلاغة الإقناع الّتي ينتهجها السّياق القرآنيّ، فلا يجدون معها منها فرارًا، ولا بعدها جوابًا.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ﴾:

الاستـفـهـام إنكاريّ توبيخيّ، مُنبِّهٌ على سوء الفهم، وانحراف الاعتقاد

الهمزةُ في قَولِه: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، وللتَّوبيخ والتَّقريع، والمقصودُ إنكارُ التّحريم، لكنّه أورَدَهُ في صورة إنكارِ المفعول؛ ليُطابِقَ ما كانوا يَدَّعونَهُ منَ التَّفصيل في المفعول، فإذا أَنكر المفعولَ كان إنكارًا للفِعل بطريقٍ برهانيٍّ من جهة أنَّه لا بدَّ للفعل من مُتعلِّق، فإذا نفى جميع مُتعلِّقاته على التَّفصيل لَزِمَ نَفْيُهُ(2). وهذا مسلكٌ برهانيٌّ مفيدٌ يعتمد على طَرحِ الاستفهام، لا تطلُّبًا للجوابِ، فهو أدرى به، وأَعْرَفُ بقوادمه وخوافيه، ولكنّ غايتَه الإنكارُ للظّاهرة، والتّوبيخُ على فعلها، وعَرْضُ مساوئها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

نُكتةُ حذفِ فاعل الفعل ﴿حَرَّمَ﴾:

مسلك الحذف، تـفـاديًـا لـزيـادة المبنى على المعنى

في قوله تعالى ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، حُذِف فاعلُ الفعل ﴿حَرَّمَ﴾؛ لأنّه معلوم دلَّ عليه سياق الآيات؛ فالضَّمير (الفاعل) عائد إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، أو في قوله: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 140] الآية(3)، قال القُرطُبيّ: "ووردَت المدَّةُ مع (أل) الوصل؛ في قوله: "﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾؛ لتفرِّق بين الاستِفهَام والخبر، ويجوز حَذف الهَمزة؛ لأنّ ﴿أَمِ﴾ تدُلُّ على الاستِفهَام؛ كقوله:

---

(1) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2221.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/671، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/393، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130 - 132.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130.

تَرُوحُ مِنَ الحَيِّ أمْ تَبْتَكِرْ *** وماذَا يَضيرُكَ لَو تَنتَظِرْ؟[1]

دلالة (أم) في جملة ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾:

إبطالُ تحريم ما حَـرَّم المشركون أكلَه؛ لمخالفتِه حكم الله

وردتِ الآية في سياق إنكار أن يكون اللّه تعالى قد حرَّم أيًّا منَ الأنعام سواءً أكان الذَّكر أم الأنثى، أم ما في بطون الإناث؛ لذا استعمل الهمزة الَّتي دلالتها هنا الإنكار، والمقصودُ منه إبطالُ تحريم ما حرَّم المشركون أكلَه، ونفيُ نسبة التَّحريم إلى اللّه تعالى.

إذًا فإنَّ اللّه لم يحرِّم أيًّا من هذه الثَّلاثة؛ ولذا فـ(أم) هنا خرجت عمَّا رسمه النُّحاة لها من قولهم: إنَّها إذا سُبِقت بهمزة ليست للتَّسوية؛ فتُفيد مع الهمزة التَّعيين، وتكون بمعنى: أي[2] وهذه الهمزة ليست للتَّسوية، ولا هي للتَّعيين؛ لأنَّ علامتها أن تتوسَّط بين شيئَين يُنسب لواحدٍ غيرِ معيَّنٍ منهما أمرٌ يعلمه المتكلِّم[3]. وبالنَّظر إلى السِّياق الَّذي وردت فيه (أم) يتبيَّن أنَّ معناها الإضرابُ الانتقاليُّ؛ أي: الانتقال من غرض إلى غرض؛ ويُقدّر بعدها محذوف هو (حرَّم) فيكون ما بعدها مفعولًا لهذا الفِعل المُقدَّر؛ وعلى هذا تكون (أم) قد ربطت بين جملتين في البنية الأساسيّة للنَّصّ[4].

دلالة (ما) في قوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾:

أسلوب العموم يستوعب كلّ ما احتمله السّياق منَ الأنعام

لفظ (ما) في قوله: ﴿أَمَّا﴾ اسم موصول استوعب جميع ما يُفترض من سائر الأقسام[5]، فَدَلَّ على العموم، و(أَمْ) هذه حرف عطف، تعطف (مَا) الموصُولة على ما قَبلَها، فمحلُّها نصبٌ، تقديرُه: (أم الَّذِي اشتَمَلَت عليه أرحَامُ الأُنثَيَين)، فلمّا التقتِ الميم ساكِنَةً مع ما بَعدَها وجبَ الإدغَامُ[6].

(1) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/479.
(2) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 2/57.
(3) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/589.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/589.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/295.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصُون: 5/195.

نكتة إيراد الفعل ﴿ٱشۡتَمَلَتۡ﴾ دون غيره:

أهمّيّة استعمال المفردة القرآنيّة بما يناسب المعنى ويجلّيه

الاشتمالُ الإحَاطَةُ، تَقولُ: اشتَمَلَ عليه الأَمرُ؛ أي: أحاطَ به، وأصلُ الشُّمولِ: دَوَرانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذِهِ إيَّاهُ مِن جَوانبِه، مِن ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوب؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّهِ حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ[1].

يتَّضح ممَّا سبق أنَّ فِعل (اشتمل) أفاد الإحاطةَ والتَّعمِيمَ، والإِدخالَ، والتَّغطِيَةَ، والاجتِمَاعَ؛ ولهذا ناسب مجيئه في الآية الكريمة دون مرادفاته.

فائدة تقديم شبه الجملة على الفاعل، في ﴿عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾:

التّقديم بقصد الاهتمام بالمقدِّم، من ملامح البلاغة الرّائقة

قال سيبَوَيْهِ رحمه الله: (كأنَّهم يُقدِّمون الَّذي هو أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى)[2].

والكلام في الآية الكريمة، يدور على ما حَملت هذه الأرحام، وليس الأرحام ذاتها؛ لذا قدّم عليها ما هو أهمّ، وهو ما اشتملتْ عليه هذه الأرحامُ منَ الأجِنَّة، وقد أفاد هذا التَّقديمُ الحَصْرَ، والمعنى: "قل لهم: إنْ كان حرَّمَ الذّكورَ فَكلُّ ذَكَرٍ حرامٌ، وإنْ كان حرَّمَ الإناث فكلُّ أنثى حرامٌ، وإنْ كان حرَّمَ ما اشتَمَلَتْ عليه أرحام الأنثيين، يعني: منَ الضّأن والمَعز، فكلّ مولود حرامٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وكلّها مولود، فيستلزم أنّ كلّها حرامٌ"[3]. فالغاية هنا مِنَ البيان في الاستدلال بالسّؤال، ما اشتملت عليه الأرحام، لا الأرحام في حدّ ذاتها، ولذلك كان تقديم شبه الجملة دالًّا على ذلك، بوضوحٍ ودقّةٍ وفعاليّة.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾:

تثنية الذَّكرَيْن والأُنثيَيْن: باعتبار ذكور وإناث النَّوعين، والتَّعريف

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).

(2) أبو سعيد السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/263.

(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/195.

فيهما تعريف الجنس، وتعدية الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ إلى ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾، و﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، و﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، على تقدير مضاف معلوم منَ السِّياق؛ أي: حَرَّمَ أكلَ الذَّكَرَيْن أم الأُنثيَيْن، إلى آخره[1]، وغايةُ التّعبير بالاستفهام عنِ الذّكرين والأنثيين، شمولُهما الأصنافَ المسؤولَ عنها؛ للوصول إلى الإقناع العامّ والعميق، ببطلانِ دعواهم بتحريم ما لم يحرّمه اللّه. قال المراغيُّ: "وقصارى ذلك، إنّه تعالى ما حَرَّمَ عليهم شيئًا من هذه الأنواع، وأنّهم كاذبون في دعوى التّحريم، وقد فصّل ذلك أتمّ التّفصيل، مبالغةً في الرّدّ عليهم"[2].

فائدة الباء في لفظ ﴿بِعِلۡمٍ﴾:

ما لادليلَ عليه من عِلْمٍ أثيرٍ، فليس له في الأحكام من تأثيرٍ

في قوله تعالى ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، الباء تحتمل معانيَ متعدّدةً ومقبولةً، في لفظ ﴿بِعِلۡمٍ﴾ حيث يَحْتَمِلُ أن تكون لتعديةِ فعلِ الإنباء، فالعلم بمعنى المعلوم. ويَحتمِل أن تكون للملابَسَة؛ أي: نبِّئوني إنباءً مُلابِسًا للعلم، فالعلم ما قابل الجهل؛ أي: إنباءَ عالمٍ[3]. ويمكن أن تكون الباء للسَّببيَّة؛ أي: نبّئوني بسبب علمٍ وقعتُم عليه، والمعنى: "﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾: أخبروني بأمرٍ معلومٍ من جهة اللّه تعالى، يدلّ على تحريم ما حَرَّمتُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ في أنّ اللّه حرّمه"[4].

نُكتةُ تنكيرِ لفظ (عِلْم):

مِن أغراض التَّنكير التّقليلُ، وهو مَلْمَحٌ من التّحدّي جليل

لَمَّا كانوا عاجزينَ عنِ الإنباءِ دَلَّ ذلك على أنَّهم حَرَّموا ما حرَّموه بجهالةٍ وسُوءِ عَقلٍ، لا بِعِلم، وشأنُ مَن يتصَدَّى للتَّحريمِ والتَّحليلِ أن يكون ذا علمٍ[5]. وعبَّر بلفظة (عِلْم) منكَّرة؛ للدّلالة على جهلهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133.
(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133.

وضَعْفِ مذهبِهم، أمام الحُجَّة البالغة للّه تعالى، ولو بأقلّ مبلغٍ منَ العلم. وهذا شبيه بما تحدّى اللّه به العربَ في الإتيان بمثل القرآن، ثمّ بعشر سور مثله مفترَيات، فكان العجز عن ذلك بالكلّيّة، فجاءهم التّحدّي بالإتيان بأقلّ مايُطلب، وهو سورة واحدة، قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]، ولذلك جاء لفظ (سورة) منكّرًا للتّقليل. وعلى نفس الشّاكلة جاء ما ذكر منَ العلم منكّرًا، فقال: ﴿بِعِلۡمٍ﴾؛ وذلك أنّه مطلوبٌ على وجه التّقليل، إِذْ إِنَّ اللّه يعلم أنّهم لا يملكون منَ العلم قليلًا ولا كثيرًا.

سرّ فصل الجملتين المتعاطفتين، بالجملة المُعترِضة في السّياق:

الفصل على سبيل التّقريع والتّوبيخ، مهمٌّ في الإفصاح والبيان

لقد فَصَلَ بالجُملة المعتَرِضةِ بين المتعاطفَين، وهي: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، على سَبيل التَّقريع لهم والتَّوبيخ؛ حيثُ لم يَستَنِدوا في تَحريمِهم إلَّا إلى الكَذِب البَحْتِ والافتراءِ، وموقع هذه الجملة بمنزلة المنع، وهذا تهكُّمٌ؛ لأنَّه لا يَطلب تلقي عِلْم منهم، وهذا التَّهكّم تابعٌ لصورة الاستفهام وفرعٌ عنها، وهو هنا تجريدٌ للمجاز أو للمعنى الملزوم المنتقل منه في الكناية[1]، بعد البيان الصّادق الّذي ذُكِر أوّلًا، يكون قوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ من قَبيل التّهكُّم بهم؛ إذ لا دليل عندهم؛ وطلبُه بعد بطلان وجوده تهكُّمٌ به أو تعجيزٌ لهم، والعجز عن إقامة الدّليل في وقت الاحتجاج، تسليم بالمُدَّعَى بحكم المنطق المستقيم، والتّفكير القويم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملتين الفعليَّة والشَّرطيَّة:

إقامة الدّليل على الافتراء، مسلكٌ في التّبكيتِ والإلزامِ بالحُجَّة

في قوله تعالى ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، جاءتِ الفاصلة مكوَّنةً من جُملتين: فعليَّةٍ وشرطيَّةٍ، أمَّا الجملة الأولى فالفعليَّة، وهي بصيغة الأمر: ﴿نَبِّـُٔونِي﴾، والغرض البلاغيّ من فعل الأمر هو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.

التَّعجيز والتَّبكيت لهم، والجملة الثَّانية الشَّرطيَّة جوابها محذوف، تقديره: فافعلوا، والجملة الأُولى هي بدل اشتمال مِن: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾. فالجملة جاءَت تُلزِمُهم بالدَّليل على صِحَّة افتراءاتهم، وعليه فالفاصلة بجملتيها، هي من قبيل التَّهكُّم؛ لأنَّه لا يطلب منهم الدَّليل[1]. واستُعمل الفعل: ﴿نَبِّـُٔونِي﴾؛ لأنَّ النَّبأ: الخبر العظيم، وهذا عظيمٌ في زعمهم.

عِلَّة التَّعليق بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

تأتي (إنْ) للأمرِ المشكوكِ فيه، أو النّادرِ الوقوع

التَّعليق بـ﴿إِن﴾ فيه إشارة إلى أنَّهم لا صِدْقَ عندهم، وأنَّهم يفترون على اللّه تعالى فيما يدَّعون[2]، "والمعنى: إنكار أن يحرِّم اللّه تعالى من جنس الغنم ضَأْنَها ومَعْزَها شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها.﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾: أخبروني بأمرٍ معلوم من جهة اللّه تعالى يدلّ على تحريم ما حرَّمْتُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ في أنّ اللّه حرّمه"[3]. وهو هنا يورِد ﴿إِن﴾ الّتي تحتمِل الأمرين؛ وقوعًا وعدمًا، باعتبار مُقتضَى حال المُخاطَبين، وهم في هذا السّياق غيرُ صادقين، ففُهِمَ من ذلك التّعريضُ بإفْكِهم، وبباطلِ أحكامِهم.

فائدةُ حذفِ جوابِ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

العجزُ عن بيانِ ما نَسبوا تحريمَهُ إلى الله تعالى

حُذِفَ جواب ﴿إِن﴾ للعِلم به مِن فَحْوى الكلام، ولأنَّ فيما تقدّم دليلًا عليه؛ أي: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، في قولكم: إنَّ اللّه حَرَّم ما ذكرتم أنَّه محرَّمٌ؛ لأنَّهم لو كانوا صادقين في تحريم ذلك، لاستطاعوا بيانَ ما حرَّمه اللّه، ولأَبْدَوا حكمةَ تحريمِ ما حرَّموه، ونَسبوا تحريمَه إلى اللّه تعالى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/470.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/133.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اشتملت) و(احتوت):

الاشتمالُ الإحاطَةُ، وأصلُ الشُّمولِ: دَورانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذهِ إيَّاهُ مِن جوانبه، ويأتي الاشتمالُ بمعنى: التَّعميم. والشُّمولُ: العُمومُ، يُقالُ: شَمِلَهُمُ الأَمرُ إذا عَمَّهُم. وهذا أمرٌ شاملٌ؛ أي: عامٌّ[1]. والشِّمالُ: الطَّبعُ، والجمع شَمَائِلُ، وقد قيل: (ليس من شِمالي أن أعملَ بشِمالي)[2]، وقول عَبدِ يَغوثَ:

أَلَم تَعلَمَا أنَّ المَلامَةَ نَفعُهَا *** قَليلٌ وما لَومِي أخي من شِماليَا[3]

"واشتَمَلْتُ بالثَّوبِ: إذا أَدَرْتَه على جَسَدك كُلّه حتَّى لا تُخرج منه يَدَك، والشِّمْلَةُ: الصَّمَّاءُ الَّتي ليس تحتها قَميص ولا سَراويلُ، وكُرِهَتِ الصَّلاةُ فيها"[4]. أمَّا الحِواءُ: فَاسْمُ المكانِ الّذي يحوي الشَّيءَ؛ أي: يجمعُه ويَضمُّه، وفي الحديث: "أنَّ امرأة قالَتْ: إنَّ ابني هذا كانَ بَطني له حِوَاء"[5].

واحْتَوى على الشَّيءِ: ضمَّه، واشتمل عليه: أَحْرَزَه ومَلَكه[6]، ويشتملُ الرّحمُ الجنينَ، بمعنى: يضمُّه، وينطوي عليه. ولفظ يحتوي الشّيء: يكون محتوًى فيه، إلّا أنّ الاشتمالَ أوسعُ دلالةً، وأبلَغُ تأديةً للمعنى المراد في السِّياق، ولذلك استعمله القرآن.

الاشـتـمـالُ يعني الإحاطةَ بـالـشّيء، والاحـتـواءُ الـتّـضـمُّـن، وكلاهما فصيح

(النَّبأ) و(الخَبَر):

الإخبار: يكون بِحمَلِ الخَبر إلى جهة أخرى.

الـنَّـبـأ والـخـبر كـلاهـمـا نـقـلٌ لمعلومةٍ، والنَّبأُ لا عِـلْـمَ للمخبَر به غالبًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شمِلَ).
(3) ابن سيده، المحكم: (شمِلَ).
(4) ابن سيده، المخصّص: (شمِل).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النهاية: (حوا). روى الحديث عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: "أنَّ امْرَأَةً أَتَتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقالَتْ: يارسولَ اللهِ، إنَّ ابْني هذا كانَ بَطْني له وِعاءً، وحِجْري لَهُ حِوَاءً، وثَدْيي لهُ سِقاءً، وزعَم أَبوهُ أَنَّهُ يَنْزِعُهُ مِنِّي؟!قال: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ، ما لَمْ تَنْكِحي»". أخرجه أحمد في المسند، برقم: (6707)، واللفظ له، وأبو داود في السنن، برقم: (2276)، وغيرهما، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حوي).

النَّبأ: لا يكون إلَّا للإخبار بما لايَعلمُه المُخبَر، ويجوز أن يكون الخَبر بما يعلمه المُخبَر، وبما لا يعلمه. وقال عليّ بن عيسى: في النَّبأ معنًى عظيم الشَّأن؛ ولذلك أُخذ منه صِفة النَّبيّ ﷺ. قال أبو هلال: ولهذا يُقال: سيكون لفلانٍ نَبأٌ، ولا يُقال: خبرٌ بهذا المعنى. والإنباء عنِ الشَّيء أيضًا قد يكون بغير حَمل النَّبأ عنه، تقول: هذا الأمر يُنبئ بكذا، ولا تقول: يخبرُ بكذا؛ لأنَّ الإخبارَ لا يكون إلَّا بحَمْل الخَبر(1).

(العِلم) و(المعرفة):

العِلـمُ يتعلّق بالشَّيء مُجملًا، والمعرفةُ تتعلّق بالشَّيء مُفصَّلًا

المعرفةُ تتعلَّق بذات الشَّيء؛ أي: مُسمَّاه، والعِلم يتعلَّق بأحواله وصفاته، فتقول: عرفتُ أباكَ، وعلمتُه صالحًا عالمًا؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعِلم دون المعرفة؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]، فالمعرفة: حضورُ صورة الشَّيء، ومثاله العِلميّ في النَّفس، والعِلمُ: حضورُ أحوالهِ وصفاته، ونسبتها إليه؛ فالمعرفةُ تُشبه التَّصوُّرَ، والعِلمُ يُشبه التَّصديقَ، كما أنّ المعرفةَ في الغالب تكونُ لِمَا غابَ عنِ القَلب بعد إدراكه، أو تكونُ لِمَا وُصِف له بصفات قامَت في نفسه، فإذا رآه وعلِم أنَّه الموصوفُ بها، قيل: عرفه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۘ﴾ [الأنعام: 20]، ولمّا كانَت صفاتُه معلومةً عندهم، لمّا رأوه عرفوه بتلك الصِّفات، فالمعرفةُ تشبه التَّذكُّرَ للشَّيء؛ وهو حضورُ ما كان غائبًا عنِ الذُّكرِ؛ ولهذا كان ضِدُّ المعرفة الإنكارَ، وضِدُّ العِلم الجهلَ.

وأكثرُ استعمالاتِ المعرفة في القرآن الكريم كان في مقام الذَّمِّ، كالجحود والإنكار والنِّفاق، وهذه المواقف لم تكن لما وُصِف أنَّه عِلْم، بل لم يأمر الله تعالى نبيَّه بالدُّعاء بالزِّيادة في شيءٍ إلَّا في العِلم؛ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114](2).

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 528، والسّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 916.
(2) بليل عبد الكريم، مقارنة بين المعرفة والعلم، موقع الألوكة، تاريخ: 12/11/2009م.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام: 144]

❖ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين تقريعهم بالجهل، وعدمِ شهادتهم لوصيّة الله بها

انتقَل من توبيخِهم بعدم عِلْمِهم بذلك، إلى توبيخِهم في نفيِ شهادتهم ذلك وقتَ توصيةِ اللّه إيَّاهم بذلك؛ لأنَّ مَدرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوسُ، فإذا انْتَفيَا، فكيف يُحكَمُ بتحليلٍ أو بتحريمٍ؟ وكيّفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادة منهم واضحةٌ، وكيّفيَّةُ انتفاءِ العِلْمِ بالعَقلِ أنَّ ذلك مُستَنِدٌ إلى الوَحيِ، وكانوا لا يُصَدِّقون بالرُّسلِ، ومع انتفاءِ هذين كانوا يقولون: إنَّ اللّه حرَّم كذا؛ افتراءً عليه[1].

❖ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾: الشَّهادَةُ: الحُضورُ والـمُعاينةُ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبارِ والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ بالأمرِ: إذا أَخبَرَ به وأعلَمَ غيرَهُ به. والأشهاد: جمع شَهْد، مثل: صحب وأصحاب. والرّجل شاهد وشهيد، وقد جمعوا شهيدًا على شهداء. ويُقال: فلانة شاهدي[2]، والجمع أشهادٌ وشُهودٌ، وشَهيدٌ، والجمع شُهداءُ. والشَّهْدُ: اسمٌ للجمع عند سِيبَوَيه، قال الأخفَش: هو جمع، وأشهَدتهُم عليه، واستَشهَده: سَأَلَهُ الشَّهادة، وفي التَّنزيل: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ﴾ [البقرة: 282][3]. وعليه فالشَّهادَةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (الشاهد).
(3) ابن سيده، المحكم: 4/672.

إخبارٌ عن عِلم يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونحوِ ذلك. ومِن مَعانِيها: العِلمُ، والرُّؤيَةُ، والإدراكُ[1].

2) ﴿وَصَّىٰكُم﴾: الوَصِيَّةُ: ما أَوصَيْتَ به، يُقال: أَوصَى يُوصِي إيصاءً، ووَصَّى يُوصي تَوصِيَةً: إذا عَهِدَ إليه. وأَوصَيْتُ إليه بمالٍ: جَعَلْتُهُ له، والوِصايةُ: فِعْلُ الوَصِيِّ. وأصلُ الكلمة يدلُّ على وَصلِ شَيءٍ بشيءٍ، ومنه سُمِّيَتْ وَصِيَّةً؛ لأنَّها وَصلٌ لما كان في الحَياةِ بعد الموت. والجَمعُ: وَصايا[2].

3) ﴿أَظْلَمُ﴾: الظُّلمُ: الجَوْرُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَهُ، يَظْلِمُهُ، ظُلْمًا ومَظْلِمَةً؛ أي: جارَ عليه. وضِدُّه: العَدلُ. وأَصلُه: وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه، كقولهم: ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حَفَرَها في غَيرِ مَوضِعِ حَفرِها. ومِن مَعانيه أيضًا: التَّعَدِّي والحَيفُ[3]، "وكلّ مَن وضع شَيئًا في غير مَوضِعه فقد ظَلَمَ، فكأنّ الظَّالم هو الَّذي يزِيلُ الحقّ عَن جِهَته، وَيأخُذُ ما ليس له، هذا وما أشبهه"[4].

4) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الافتراءُ: الكَذِبُ، والجَمعُ: فِرًى. يُقالُ: افتَرَى يَفتَرِي افتِراءً؛ أي: كَذَبَ. وقِيلَ الافتراءُ: الكَذِبُ العَظِيمُ، وقِيلَ: الكذبُ المُتَعَلِّقُ بالأعراض. ويأتي الافتراءُ بمعنى: البُهتانِ والظُّلم، وأصلُهُ مِنَ الفَرْيِ؛ وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، ومنه الفراءُ وهو الجِلْدُ؛ لأنَّه يُقطَعُ، وسُمِّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافتراءً؛ لأَنَّ المُفتَرِي يَقتَطِعُ الكلامَ اقتِطاعًا مِن تِلقَاءِ نَفسِه، ويَقطَعُ وَيُفسِدُ في عِرضِ غَيرِه[5].

5) ﴿كَذِبًا﴾: الكَذِبُ: الإخبَارُ بخلافِ الواقِعِ، وضِدُّ الكَذِبِ: الصِّدقُ. وَيُطلقُ الكَذِبُ صفةً للخَبَرِ الّذي بخلافِ الواقِعِ، وضِدُّهُ الحقيقةُ. ومِن معاني الكَذِبِ أَيضًا: الجُحودُ والافْتِراءُ والزَّيْفُ والخِداعُ والخَطَأُ[6]، وقد قال النّبيّ ﷺ: «لَا كَذِبَ إلّا في ثلاثة، وذَكَرَ الحربَ، والإصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وإرْضاءَ الرَّجُلِ أَهْلَهُ»[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شهد).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وصى).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(4) ابن قتيبة الدّينوريّ، غريب الحديث: 1/247.
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب).
(7) ابن قتيبة الدّينوريّ، غريب الحديث: 2/246. والحديث: أخرجه أبو داود، السنن، الحديث رقم: (4921)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (27272)، وغيرهما. وأخرجه مسلم بإثر الحديث رقم: (2605) مُدْرَجًا من قول الزهري، وعليه جمهور النقاد من المحدِّثين، وانظر كلام الحافظ، فتح الباري: 5/300، وشرح الحديث: (2692).

6) ﴿لِّيُضِلَّ﴾: الضَّلالُ: الانحِرافُ والمَيلُ عَنِ الطَّريق، يُقالُ: ضَلَّ فُلانٌ يَضِلُّ ضَلالًا: إذا انحَرَفَ وضَاعَ ولم يَهتَدِ إلى الطَّرِيقِ. وأصلُهُ: ضياعُ الشَّيءِ وذَهابُهُ في غير حَقِّه. وقيل: الغَيبوبَة، والخَفاء، والسَّتْر[1]، وتقول: ضللتُ مكاني إذا لم تهتدِ له، وضلّ إذا جار عنِ القصد. وأضلَّ بعيره إذا أفلتَ فذهب[2].

7) ﴿لَا يَهۡدِى﴾: الهُدى: الرَّشادُ والبَيانُ، والدَّلالةُ بلُطفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطلوبِ، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازمٌ ومُتَعَدٍّ. يُقال: هَداه هُدًى وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِديَةً. وهَداهُ للدِّين وإلى الدِّين؛ أي: أرشَدَهُ إليه وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ. ومِن معانِيه أيضًا: الطّاعَةُ، والوَرَعُ، وطَرِيقُ الحَقِّ، وإخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، والنَّهارُ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

ذِكْـرُ جِنْـسَي الإبِلِ والبَقَرِ مِنَ الأنعامِ، وما في تحريمِها مِنَ الباطلِ والآثامِ

ذَكَرَ اللّهُ ﷻ بقيَّةَ الأزواجِ الثَّمانيَةِ بعد أنْ ذَكرَ أربعةً منها؛ فذَكرَ هنا ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾: الذَّكَرَ والأُنثى، ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، كذلك: الذَّكرَ والأنثى، ثمّ أمَرَ اللّهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يُعيدَ عليهم الحُجَّةَ نفسَها: قل أيّها الرَّسول للمُشركين: آللّه حَرَّمَ ما حَرَّمَ منها لذُكُورته أم لأُنوثَته، أم لاشتمالِ الرَّحِمِ عليه؟ أم كنتم أيَّها المشركون حاضرين - بزعمكم - حين وصَّاكم اللّه بتحريم ما حرَّمتم من هذه الأنعام؟!. ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشدُّ ظُلمًا ممَّن كَذَبَ على اللّه تعالى؛ ليُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ، واللّهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ القومَ الظَّالمِينَ[4].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ضلل).
(2) الخليل، العين: (ضلّ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(4) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 147.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾:

دلالة السّياق على جواز المناظرة العلميّة، والقول بالنّظر والقياس

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ إلى قوله ﴿أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾، عطف على ﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾؛ لأنَّه من تمام تفصيلِ عددِ ثمانيةِ أزواجٍ، والقول فيه كالقول في سابقه، والمقصود: إبطالُ تحريم البَحيرة والسَّائبة والحامي، وما في بُطونِ البَحائرِ والسَّوائبِ[1]. قال العلماء: "الآية احتجاج على المشركين في أمر البَحيرة وما ذُكِر معها، وقولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139]، فَدَلَّتْ على إثبات المناظرة في العلم؛ لأنّ اللّه تعالى أَمر نبيَّه ﷺ بأن يُناظِرَهم، ويبيِّنَ لهم فسادَ قولهم. وفيها إثباتُ القول بالنّظر والقياس، وفيها دليلٌ بأنّ القياس إذا ورد عليه النّصُّ بَطَل القول به"[2].

معنى (مِن) في جملة ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾:

الإبل أغلى ما تملكه العرب، وتُفاخِرُ به غيرها

معنى (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ لبيانِ جنسِ الإبل؛ أي: يشمل الجنسين معًا، الذَّكر والأُنثى، والإبل جنس يحوي ذكرًا وأنثى؛ هما النّاقة والبعير، والإبل أغلى ما تملكه العرب، وقد ولعوا بها، وقالوا فيها الأشعار، وتغنَّوا بِحُدائِها وسيْرِها عَنَقًا فسيحًا، ووصفوا جمالَ مشيتها، وتمايل الرّاكب عليها، من ذلك قول القُطاميِّ في وصف الإبل:

يَمشِينَ رَهْواً فَلا الأعجَازُ خاذِلَةٌ *** ولا الصُّدورُ على الأَعجازِ تَتَّكِلُ[3]

نوع (أل) في ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ و﴿ٱلۡبَقَرِ﴾ و﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾:

التَّعريف فيها تعريفُ الجنس وبيانُ نوعها، وهي منَ الأنعام الّتي أنعمَ بها اللّهُ على النّاس، قال الحريريّ في "درّة الغوّاص" في معرض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/114.
(3) ابن قتيبة الدّينوريّ، المعاني الكبير في أبيات المعاني: 1/133.

كلامه عنِ الأنعام والنَّعَم: "وقد فرَّقَتْ بَينهمَا العَرَبُ، فَجعلتِ النَّعَمَ اسْمًا للإبلِ خاصَّة، وللماشية الَّتي فيها الإبل، وقد تذكّر وتؤنّث، وجعلتِ الأَنعَام اسمًا لأنواع المَواشي منَ الإبِلِ والبَقرِ والغنم، حتَّى أنّ بَعضهم أَدخَلَ فيها الظّباءَ وحُمُرَ الوَحْشِ تعلّقًا بقوله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: 1](1)، ومن كلٍّ منها ذكر وأنثى. وذِكرُ الذّكورة والأنوثة بعد ذِكْر طرفَي الجنس، مِن شأنه أن يحدِّد أهميَّةَ ذلك في سياق التّناول للحقيقة، محلّ التّنديد والمعالجة.

الإبل والبقر كلاهما جنسٌ أليفٌ، ومنافعُهما لا تحتاج إلى تعريف

الوضع البيانيّ لقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾:

قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، إلى آخرها في المَوضِعين، اعتراضٌ بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾، وإبطالُ تحريمِ ما حَرَّم المشركون أكلَه، ونفيُ نسبة ذلك التّحريم إلى اللّه تعالى(2)، قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إبطالٌ لمَا حرَّمَتْه الجاهليّة منها في البَحيرة، والسّائبة، والوَصيلة، والحام(3).

إبطالُ تحريمِ الجاهليّة، ونفيُ نسبتِه إلى الله تعالى

نُكتة حذفِ فاعل ﴿حَرَّمَ﴾:

حُذف فاعل الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ في قوله سبحانه ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ لأنّه معلوم دلَّ عليه سياق الآيات؛ فالضّمير (الفاعل) عائد إلى اسم اللّه تعالى في قوله: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، أو في قوله: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 140] الآية(4).

حذف المسنَد إليه الفاعل؛ للإيجاز وللعلم به

نُكتة مجيءِ فعل ﴿ٱشْتَمَلَتْ﴾ دون غيره:

الاشتمالُ: الإحاطَةُ، تَقولُ: اشتَمَلَ عليه الأمرُ؛ أي: أحاطَ به. وأصلُ الشُّمولِ: دَورانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأخذُه إيَّاهُ مِن جَوانبِه، مِن

استعمال أدقّ الألفاظ لِمَا يقتضيه السِّياق

(1) القاسم الحريريّ، درّة الغوّاص في أوهام الخواص، ص: 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/181.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130.

ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوبِ؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّهِ، حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ[1].

ويتَّضح ممَّا سبق؛ أنَّ فِعل (اشتمل) أفاد الإحاطةَ والتَّعميمَ، والإِدخالَ، والتَّغطيَةَ، والاجتماعَ؛ ولهذا ناسب مجيئه في الآية الكريمة دون مرادفاته.

معنى ﴿أَمَّا﴾:

(أم) للإضراب الانتقاليّ، و(ما) موصولة أفادت العموم

لفظ ﴿أَمَّا﴾ في قوله: ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ استوعب جميع ما يُفترض من سائر الأقسام[2]، فلفظ (أم) عاطفة، عطفت (ما) الموصوليّة بعدها على الأُنثَيَين، فهي في محلّ نصب، فلمّا التقت ميم ساكنة مع ما بعدها وجب الإدغام[3]، وذلك أنّه "يجب إدغام المثلين المتجاورين، أوّلهما إذا كانا في كلمتين، كما كانا في كلمة واحدة، مثل: سكتَّ وسكنّا وعنّي وعليّ، واكتب بالقلم، واستغفر ربّك، وكالآية الّتي نحن بصددها: ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ﴾[4].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾:

العِلم بالحلال والحرام مصدره منَ الله تعالى، دون سواه

ازداد التَّهكّم بهم في الآية الكريمة أكثر، عندما قُطِعَ الاستفهام اللّاحق، عنِ الاستفهام السَّابق بـ﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 144]، و﴿أَمۡ﴾ هنا منقطعة؛ لأنَّ الهمزة للتَّصديق لا للتَّصور، والمعنى: بل أكنتم حضورًا عند ربِّكم حين أمركم بهذا التَّحريم[5]؟!. ووجه التَّهكُّم أنَّ العِلم بالحلال والحرام، لا يكون إلَّا عن طريقِ الرُّسلِ والكتبِ المنزَّلة، أو بسماعٍ مِنَ اللّه تعالى، وهم لا يؤمنون بالرُّسل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ

---

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/295.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/254.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/256.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/544.

حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91]، فلم يبقَ إلّا أنَّهم رأوا اللّه ﷻ، فوصَّاهم بهذا الَّذي يفترون...!»[1]، وعليه فإنَّ ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة للإضراب الانتقاليّ في الآية، تُؤْذِنُ باستفهام مُقدَّر بعدها؛ وهو استفهام إنكاريّ تقريريّ بقرينة السِّياق[2].

دلالة التَّخصيص في قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾:

استعمال الإنكار للتّهكُّم بادّعائهم الأباطيل

لقد خَصَّ بالإنكارِ حالةَ المشاهَدَة تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ الرَّسولَ ﷺ، فَحالُهم حالُ مَن يضع نفسه مَوضِع مَن يحضر حضرة اللّه تعالى؛ لسماع أوامره، أو لأنَّ ذلك لمّا لم يكن مِن شرع إبراهيم ولا إسماعيل عليهما السلام، ولم يأتِ به رسولٌ منَ اللّه، ولم يدّعوه، فلم يبقَ إلَّا أن يدّعوا أنّ اللّه خاطبهم به مباشرة[3]!

معنى ﴿إِذۡ﴾، في جملة ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾:

مَن اعتدى فَحَرَّم مالم يأذَنْ به الله، فقد خالَفَ مأمورَ الله وهُداه

﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لَما مضى منَ الزّمان، العامل فيه قوله: ﴿شُهَدَآءَ﴾ السَّابقة، كأنَّه قيل: شهداء وقت وصيّتكم بهذا، وهو مَلْمَحٌ افتراضيٌّ يكتمل به السّؤال التَّهَكُّميُّ في قوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾، وقد احتوى السّياق (الهمزة)؛ للإنكار والتّوبيخ، و﴿أَمۡ﴾ المنقطعة، و(بل) للإضراب. ومعنى: ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾: "حين وصَّاكم بهذا التّرحيم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبيٍّ، فلا طريقَ لكم حسبما يقود إليه مذهبُكم، إلى معرفة أمثالِ ذلك، إلّا المشاهدةُ والسّماعُ؛ وفيه من تركيك عقولِهم والتّهكُّمِ بهم ما لا يَخفى"[4].

نكتة التّعبير بالمضيّ في ﴿وَصَّىٰكُمُ﴾:

أُطلِقَ الإيصاءُ على ما أَمَرَ اللّهُ به بصيغة الماضي؛ لأنَّ النَّاسَ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/104.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193.

من مقاصد القرآن التّنبيه على ضرورة الالتزام بأوامر الله تعالى

لم يُشاهِدوا اللّه حين فِعْلِهم ما يأمُرُهم به، فكان أمرُ اللّهِ مُؤكَّدًا، فعَبَّرَ عنه بالإيصاءِ؛ تنبيهًا لهم على الاحترازِ مِنَ التَّفويت في أوامِر اللّه[1]. فاللّه تعالى لم يحرّم من كلّ ذلك شيئًا، وإنّما جعله كلّه حلالًا للنّاس؛ لينتفعوا به. ويسألُهم اللّه تعالى إن كانوا حاضرين ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾ حين أوصاهم اللّه بما ابتدعوه من تحريم وتحليل؟ وهو تهكُّمٌ عليهم[2]. وورود الفعل الماضي منسجمٌ مع افتراض وقوع الأمر الّذي يشنِّعه عليهم، حين وقع التّحريم والتّحليل بلا رجوع إلى أوامر اللّه، ولكنّ ذلك لم يقع لأنّه مجرّد تصوُّرٍ افتراضيّ، يقتضيه منطق الحوار، ومنهج المناظرة، بقصد التّبكيت والمجادلة والإقناع.

فائدة الإظهار بعد الإضمار، في قوله تعالى: ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾:

إظهار لفظ الجلالة بعد إضماره، يُضْفي هالة منَ الجلال على السّياق

كان الأصل أن يكون النَّصّ ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾؛ بحيث يكون الفاعل ضميرًا مقدَّرًا، لكنّه عَدَلَ عن ذلك إلى هذه الصّيغة الموجودة في الآية، ولهذا العدول مزيّة ودلالة؛ هي التَّفخيمُ والتَّعظيمُ لِذِكْرِ لفظ الجلالة ظاهرًا، فقد أبرز اسم الجلالة بلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لإظهار هذا الاسم منَ الفخامة، ما لا يكون في الضَّمير.

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِهَٰذَاۚ﴾:

الباء للتّعدية، وتجيء من باء المصاحبة، مع تناسي المصاحبة

الباء في ﴿بِهَٰذَا﴾ للتَّعدية، وتُسمَّى باء النَّقل أيضًا، وهي عند جمهور النَّحْويّين تُرادفُ الهمزة، فإذا قلت: خرجتُ بزيدٍ؛ فمعناه: أَخْرَجْتَ زيدًا، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾، تكون الباء للتَّعدية. وقد ألمح ابن عاشور هنا إلى أمرٍ ذي بالٍ، فقال: "إنَّ باء التَّعديةِ جاءَت من باء المصاحَبة على ما بيَّنه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134.

(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 8أ/134.

المحقِّقون مِنَ النُّحاة، فإنّ أصل قولك: ذهبتُ بزيدٍ، أنَّك ذهبتَ مصاحبًا له، فأنت أذهبْتَه معك، ثمّ تُنوسِيَ معنى المصاحبة[1].

دلالة اسم الإشارة وعلاقته بالسِّياق:

استعمال اسم الإشارة؛ للإجمال والتّفخيم

الإشارة ﴿بِهَٰذَا﴾ إلى التَّحريم المأخوذ من قوله: ﴿حَرَّمَ﴾؛ وذلك لأنَّ في إنكار مجموع التَّحريم تضمّنًا لإبطال تحريمِ معيَّنٍ ادَّعوه، وهم يعرفونه؛ فلذلك صحَّتِ الإشارة إلى التَّحريم على الإجمال[2].

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

لا ظلمَ أشدُّ ممَّن يفتري على الله كَذِبًا؛ ليضلّ النَّاس

في قوله تعالى ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾، الفاءُ لترتيب ما بَعدَها على ما سَبَقَ من تَبكيتِهم، وإظهارِ كَذِبهم وافترائِهم. والمعنى: إذا كانوا قد كذبُوا على اللّه تعالى، وادَّعوا أنَّ اللّه حرَّمها، فهم ظالمون مفترون، ومَن أشدّ ظلمًا ممَّن يفتري على اللّه كذبًا؛ ليضلّ النَّاس[3].

دلالة الاستفهام في ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

النَّفيُ بصيغة الاستفهام أبلغُ مِنَ التَّصريح به

خرج الاستفهامُ في هذه الجملة الكريمة عن مُقتضَى الظَّاهر - كما هو الحال في الاستفهامات الّتي تَرِدُ في كلام اللّه ﷻ - فالاستفهام هنا بمعنى النَّفي؛ أي: لا أحدَ أظلمُ منه، فاكتفى مِنَ الجواب بما يدلُّ عليه[4].بهذه الصِّيغة البليغة نفى ﷻ أن يكون أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه مِن هذا الَّذي يتقوَّل على اللّه الكذب؛ ليصدَّ النَّاس عن دين اللّه بجهله وسفهه[5]، ولا شكَّ أنَّ النَّفيَ بهذه الصِّيغة أبلغُ مِنَ التَّصريح به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/134، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2708.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/52.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/189.

صيغة المبالغة (أظلم) مُخصَّصةٌ من مُطلَق المفترين

دلالة المجيء بلفظ ﴿أَظۡلَمُ﴾ مادّة وصيغة:

صيغة المبالغة (أَفْعَل) تفيد أنَّ الشَّخص الموصوف بها، لا أحد غيره يفوقه في تلك الصِّفة؛ فأنت إذا قلت: (لا أحدَ أجودُ من حاتمٍ)، فهذا يعني أنّ حاتمًا أجودُ النَّاس، ولا يفوقه أحَدٌ آخر بهذا الجود؛ وعلى هذا الأسلوب تجري صيغة المبالغة في الأوصاف والأفعال، وأنَّ صيغة المبالغة ﴿أَظۡلَمُ﴾، الواردة في هذه الآية وأمثالها مخصّصة من عموم السِّياق الَّذي وردت فيه؛ فقوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، معناه: أنَّ أظلمَ المفترين والكاذبين، مَن يفتري على اللّه كذبًا، وكأنَّه قيل: لا أحدَ مِنَ المفترين (عموم المفترين)، أظلمُ ممَّن افترى على اللّه كذبًا.

فصيغة المبالغة ﴿أَظۡلَمُ﴾ في الآية مخصَّصة من مُطلَق المفترين، وهذا الأمر على شاكلة قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، مخصَّص من عموم المانعين، فيكون أظلمُ المانعين مَن مَنَعَ ذِكر اللّه، وعلى هذا المَنحَى؛ وهو (التَّخصيص) منَ العموم، تُفهم سائر الآيات الّتي جاءَت على هذه الشَّاكلة؛ وبالتَّالي لا يكون ثمَّة تعارض مع غيرها منَ الآيات[1].

مَنِ افترى على الله كذبًا، أخذه أخذ عزيز مقتدر

معنى (مَن) في ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: (مَنْ): اسم استفهام إنكاريّ، معناه: النّفي؛ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترى على اللّه كذبًا[2]، وافتراءُ الكذب على اللّه يتعلّق بالفرائض والأحكام والحقوق والواجبات، فالضّرر فيه كبير، والانحراف بضلاله خطير، "قال المحقّقون: إذا ثبت أنّ مَنِ افترى على اللّه الكذب، في تحريم مباح، استحقّ هذا الوعيد الشّديد، فمَنِ افترى على اللّه الكذب

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/74.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

في مسائل التّوحيد، ومعرفة الذّات والصّفات والنّبوّات والملائكة ومباحث المعاد - كان وعيدُه أشدَّ وأشقَّ. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ عن دين اللّه ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ جاهلًا بصدور التّحريم عنه تعالى؛ أي: فمَنِ افترى عليه تعالى جاهلًا بصدور التّحريم عنه تعالى مع احتمال الصّدور عنه، كان أظلمَ ظالم، فما ظنّك بمَنِ افترى عليه تعالى، وهو يعلم أنّه لم يصدر عنه"[1].

معنى ﴿مِمَّنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

مَنِ افترى على الله كذبًا خرج إلى دائرة سخط الله

و﴿مِمَّنِ﴾: أصلها: (مِنْ) و(مَنْ): أُدغمتِ الأُولى في الثّانية؛ فأصبحت (ممَّن)، (مِن) الأُولى: ابتدائيّة، و(مَن) الثّانية: اسم موصول بمعنى الَّذي، وتشمل المفرد والمثنى والجمع، والذَّكر والأُنثى، ومَنْ: للعاقل، وتشمل المفرد، والمثنى، والجمع؛ وهو اسم موصول، والمراد به الجنس؛ أي: كلّ مَنِ افترى على اللّه كذبًا، وليس المراد فردًا معيَّنًا. فالفعل قبيحٌ ومُستبشَع، وكلّ مَن فعله مهما كان وصفُه، ونوعُه، وعددُ أفراده، فإنّه يُعتبر افتراءً على اللّه، يُخرِج المؤمنين به إلى دائرة سخط اللّه، ولا أحد يمنعهم من عذاب اللّه، وسوء المصير لديه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النّحل: 105].

دلالةُ القَصْرِ بتقديم شبهِ الجملة:

مَن غيّر دين الله، أهلكه الله وأخزاه

في قوله تعالى ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أفاد تقديمُ شبه الجملة بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ والقَصْرَ، فقد قصرَ المُتأخِّرَ على المتقدِّم؛ لبيانِ عِظَم هذا النّوع منَ الافتراء والكذب، وهو بلا شكّ من أعظم صُوَرِ الظُّلم وأخطرِها، "قال ابن كثير: أوّل مَن دخل في هذه الآية، عَمْرو بنُ لُحَيٍّ بن قمعة؛ لأنّه أوّلُ مَن غيَّرَ دينَ الأنبياء، وأوّلُ مَن سَيَّبَ السّوائبَ، ووَصَلَ الوَصيلَةَ، وحَمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصّحيح"[2].

---

(1) محمّد بن عمر نوويّ الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/351.
(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/510.

معنى اللّام في ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

المُفْتري على الله كـذِبًـا، بـلـغ في الظّلم والجهل المنتهَى

اللّام لام التَّعليل؛ أي الغرض منَ الافتراء والكذب: الإضلال وصرف النَّاس عن سبيل اللّه؛ أي: دين اللّه تعالى، وإنْ لم يعترف بذلك، "﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾، مُتعلّق بالافتراء بِغَيرِ عِلمٍ، مُتعلّق بمحذوف وقع حالًا من ضمير (افتَرى)؛ أي: افترى عليه سبحانه، جاهلًا بصدور التّحريم عنه جلّ شأنه، وإنّما وصف بعدم العلم، مع أنّ المفتريَ عالمٌ بعدم الصّدور، إيذانًا بخروجه في الظّلم عنِ الحدود والنّهايات"[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

مَن أضلّ نفسه أثم، ومَن أضلّ الـنّــاس فقد أجرم

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ من قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ تعريفُ الجنس، وقد أفاد شمولَ أفراد الجنس كلّهم؛ أي: ليضلَّ كلَّ النَّاس؛ وضلالةُ النّاس أمرٌ يستغرق عمومَ المعنيين، "قال ابن عبّاس: يريد عَمْرو بنَ لُحَيّ، لأنّه هو الّذي غيَّرَ شريعة إسماعيل، والأقربُ أن يكون هذا محمولًا على كلّ مَن فعل ذلك، لأنّ اللّفظ عامّ، والعلّة الموجِبة لهذا الحكم عامّة، فالتَّخصيصُ تحكُّمٌ محضٌ"[2]، ولفظ النّاس يعني: مجموع المناوئين والمُضلّين، كما يقع المدلول على مجموع الّذين وقع عليهم الضّلال منَ المُضلّين، بما يُنشَر مِن أباطيلَ، وما يُغيِّر مِن أحكام. وقد استوعب لفظُ النّاس المعنى في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، في ذكر النّاس عامّةً، بعد ذكر الخاصّة، وهم الّذين استهموا في غزوة أحد، من إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/199.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/199.

معنى الباء في ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾:

البـاء الـدّاخلة علـى لفـظ (غيـر) فـي قولـه تعالـى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ هي للمُلابسة؛ أي: يُضِلُّون مُنقادين للهوى، مُلابسين لعدم العِلم[1]، "فإن قيل: ما حكمةُ نفيِ كلّ نوعٍ من أنواع العلم، في أمر التّشريع الدّينيّ الّذي ليس له مصدر غير وحي اللّه ورسله؟ قلنا: هي تسجيلُ الجهل العامّ المُطلَقِ عليهم عامّةً، وسوء النّيّة على مفتري ذلك لهم خاصّة، بأنّه ليس له أثارةٌ من عِلم، ولا قصد إلى شيءٍ منَ الهدى إلى حقّ أو خير، وتسجيلُ الغباوة وعمى البصيرة على متّبعيه، بمحض التّقليد من غير عقل ولا هدى"[2].

مَن تصدّى للبلاغ والدّعوة بغير علم، ضلّ وأضلّ

نُكتة تنكير لفظ ﴿عِلۡمٍۚ﴾:

المراد بالعِلم في قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾، الجزم المُطابِق للواقع عن دليل، وقد أفاد التَّنكير التَّنبيه على أنَّهم فعلوا ذلك ظنًّا منهم أنَّهم أصابوا فيما فعلوا بجهالةٍ وسوء عقلٍ، لا بعِلم[3]؛ وآفةُ المُتصدِّي للبلاغ أن يكون لا يدري، ولا يدري أنّه لا يدري، وقد ينطبق عليهم قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104].

يفيد التّنكير أنّ الإضلال كان بغير علم، فكان التّخبّط والتّيه

دلالة تنكير لفظ ﴿كَذِبًا﴾:

جيء بلفظ ﴿كَذِبًا﴾ نكرة في قوله تعالى ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لتشمل كلّ أنواع الكذب، أي: إنّها دالّةٌ على الشّيوع، ولتدلّ أيضا على أيِّ نوعٍ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ولو قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [الصّفّ: 7]؛ فالكذب في هذه الآية معرفة؛ أي: محدّدٌ بنوعٍ واحدٍ منَ الكذب[4].

الكذبُ أنواعٌ وألوان، وجميعها مَفسدَة وهوان

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ36.

(2) محمّد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/أ126.

(3) محمّد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/36 - 114 - 127.

(4) محمّد هلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

المُفتري ظالمٌ كنودٌ، والافتراءُ جهلٌ وفسادٌ في الوجود

عِلّةُ مجيءِ القيد ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾:

في قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾، وصَفَ اللّه سبحانه المُفتري بعدم العِلم، مع أنَّه عالمٌ بعدم الصُّدور؛ إيذانًا بخروجه في الظُّلم عنِ الحدود والنِّهايات؛ لأنَّه إذا كان المُفتري بغير عِلم يُعدُّ ظالمًا فكيف بمَن يفتري الكذب وهو عالم بذلك! وقد يسأل سائل: هو أَضَلَّ النّاسَ بغير عِلم، ولم تكن نيّة إضلال النَّاس بعِلم؟ قيل له: إذا هو أضلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلم؛ أي: هو أضلّ النَّاس بأهوائه، فهذا يُعدُّ افتراءً على اللّه ﷻ[1].

الضّلال يزداد رسوخًا في النَّفس، بتكرّر أحواله ومظاهره

الدّلالة البيانيّة في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

يجوز أن يكون تعليلًا لكونهم مِن أظلم النّاس؛ لأنَّ معنى الزِّيادة في الظُّلم لا يتحقَّق إلَّا إذا كان ظلمهم لا إقلاع عنه؛ لأنَّ الضَّلال يزداد رسوخًا في النَّفس، بتكرّر أحواله ومظاهره، ويجوز أن تكون الجملة تهديدًا ووعيدًا لهم، إن لم يُقلعوا عمَّا هم فيه، بأنَّ اللّه يحرمهم التَّوفيق، ويذرهم في غيّهم وعمَهِهم[2].

الكذبُ ظلمٌ مآله الضَّلال، وآفةٌ تدفع المجتمعَ للانحلال

مناسبة الفاصلة لما قبلها:

لـمَّا كان افتراء الكذب على اللّه لإضلال النَّاس (ظلمًا)، ناسب هذا أن تُختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يُوفَّق للرُّشد مَن كان ظالـمًا، جاحدًا لنبوَّة نبيِّه محمّد ﷺ.

تأكيد الخبر بعدم هداية الظّالمين، ردعٌ للمضلّين الفاسدين

فائدةُ تتابعِ المؤَكّداتِ في التّذييل:

في جملة التذييل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جيء بـ﴿إِنَّ﴾ المشدّدة، والجملة الاسميّة، وتَكرار ذكر لفظ الجلالة، بوقوعه مبتدأً للجملة الاسميّة، وتقديره فاعلًا مُضمَرًا للفعل ﴿يَهۡدِي﴾؛

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/199، ومحمّد هلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/135، و136.

لتأكيد ذلك الخبر، ولتفيد معنى التّعليل، ومجموعُ المؤكِّدات يزيد المعنى قوّة إلى قوّته، ويقرِّر وقوعَ الموعود به في السّياق، بما لايدع مجالًا للشّكّ، ولا مَلْمَحًا للرَّيب، فهو تعالى يقينًا لا يهدي الظَّلَمةَ منَ النّاس، مهما تغيّر الحال، أو تبدّل المآل.

بلاغة الإظهار في مَوضِع الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لفظ الجلالة أعيد ذكره على خلاف مُقتضَى الظّاهر، حيث وُضِع الاسمُ الظّاهرُ مَوضِع الضَّمير؛ ونكتة ذلك تربية المهابة بشكل عامّ، وإيقاع الرّهبة في نفوس الظّالمين على وجه الخصوص.

تربيةُ المهابةِ والتّشديد على عدم هداية الظّالمين، مقصدٌ مهمٌّ مكين

عِلَّةُ نفيِ الهداية في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

جيء بنفي الهداية منَ اللّه تعالى عنِ القوم الظَّالمين؛ لأنَّهم بسيرهم في طريق الظُّلم قد سدُّوا باب الهداية عن أنفسهم، وذَكَر سبحانه نفيَ الهداية عنِ القوم الظَّالمين دون أن ينفيه هنا عنِ الواحد منَ الظَّالمين؛ لأنَّ الظَّالمين يُعاون بعضهم بعضًا على الظُّلم، فيتكَّون منهم رأيٌ عامٌّ ظالمٌ يبرِّر الظُّلم ويرتضيه، ويشجِّع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان، بدل البرّ والتَّقوى وهذا عمومٌ في الظَّاهر، وقد تبيَّن تخصيصُه ممّا يقتضيه الشَّرع[1].

نفيُ الهداية عنِ الظَّالمين، قدرٌ يُجريه ربّ العالمين

بلاغة ردّ العَجُزِ على الصَّدْر:

في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المتأمّل في بناء نسجها اللغوي يجد لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو آخر لفظ في الكلام، قد وافق كلمة ﴿أَظۡلَمُ﴾ في صدر الجملة، وذلك ما يسمّيه أهل البلاغة ردّ العجز على الصّدر، وفيه بيانٌ لبشاعة الظُّلم وأهله، ويُضاف إلى ذلك ما بين اللفظين من جناس اشتقاق قوّى ذلك المعنى وحسّنه في الأسماء.

بيان بشاعة الظُّلم والظَّالمين، في بلاغة التّصدير المبين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/673، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2709.

نكتة التّعبير بالمضارعيّة في ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

التّجدّد الاستمراريّ، وانتفاء الهداية عنِ الظّالمين

في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جيء بالفعل المَنفيّ في قوله ﴿لَا يَهۡدِى﴾، بصيغة المضارع الدَّالّ على الحال دون الماضي؛ لِتُفيد التّجدُّدَ الاستمراريَّ، ليشير إلى أنَّ انتفاءَ الهدايةِ عنِ القوم الظّالمين حاصلٌ إلى الآن ومستمرّ، وكذلك لاستحضار تلك الحالة الفظيعة منَ الظُّلم والكذب، إِيغالًا في التَّعجيب من شناعة فاعليها.

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

لا هدايةَ للظّالمين المفسِدين، ولا أمَلَ لهم في نجاة

التَّعريف في ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ تعريف الجنس، وقد أفاد شمول أفراد الجنس؛ أي: لا يهدي أحدًا منَ القوم الظَّالمين، "كائنًا مَن كان، إلى ما فيه صلاحُ حالهم، عاجلًا أو آجلًا، وإذا كان هذا حالُ المتَّصِفينَ بالظُّلم في الجملة، فما ظنُّك بمَن هو في أقصى غاياتِه"[1].

فائدة الخبر في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هداية الله منفيّةٌ عنِ الظّلمةِ الغاوين، والمُفترين الضّآلّين

الغرضُ منَ الخبر في الجملة الكريمة التَّعليلُ والتَّقريرُ، وقد أفاد العُموم في كلِّ ظالم؛ لأنّهم بسلوكهم المشين، في طريق الظّلم المهين، قد أغلقوا باب الهداية عن أنفسهم، وكسروا جسور العودة إلى الطّريق القويم، وقد نفى الهداية عنِ القوم الظّالمين في عمومهم، ولم ينفها هنا عنِ الواحد منهم؛ "لأنّ الظّالمين يعاون بعضهم على الظّلم، فيتكوّن منهم رأيٌ عامٌّ ظالمٌ، يبرّر الظّلم ويرتضيه، ويشجّع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان، بدل البرّ والتّقوى، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2709.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(وَصَّاكُم) و(شرَّع لكم) و(أنذركم):

التّعبير بالوصيّة لا يكون إلَّا للأمور المهمَّة الّتي لا تستقيم إلَّا بالقيام بها، وإنَّها في أمَّهات المسائل في التَّشريع الَّتي لا يصحّ أن نغفلها. أمَّا (شرَّع) فتشمل التَّشريعات كلّها، وما فيها من تفاصيلَ صغيرةٍ. والإنذارُ لا يكونُ إلَّا منك لغيرك، وتكون الوصيَّةُ منك لنفسك ولغيرك، والإنذارُ لا يكون إلَّا بالزَّجر عنِ القَبيح، وما يعتقدُ المُنذِرُ قُبْحَهُ، والوصيَّة تكون بالحَسَن، ولا يجوز أن ينذره إلَّا فيما هو قبيح، والنِّذراة نقيضة البِشارة، وليستِ الوصيَّة نقيضة البشارة[1].

يـوصي الله بعظائم الأمور، ويشرّع الأحكام، وينذر ممّا يُهلك

(الكَذِب) و(الافتراء):

الكذبُ قد يقَعُ على سَبيل الإفساد، وقد يكون على سَبيل الإصلاح، كالكذِب للإصلاح بين المتخاصِمَيْن، أمَّا الافتراء فإنَّ استعماله لا يكون إلَّا في الإفساد[2]، من ذلك إنكار اللّه ما ابتدعوه مِنَ الكذب والافتراء في عبادة الأصنام، وتسميتها آلهة فقال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40]، وقد جمع اللّه اللّفظين في سياق واحد، على لسان موسى عليه السلام، وهو يحذّر قومه عاقبة الكذب والافتراء على اللّه، لعلّهم يَرْعَوون عن غيّهم، ويَثوبون إلى رُشْدهم، حيث قال السّياق القرآنيّ المحكم: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61].

الكذبُ يُرخَّص فيه للإصلاح دون الافتراء، فهو مفسدةٌ محضة

(الضَّلال) و(الغَواية):

"الظَّاهر أنَّ الضَّلالَ أعمُّ مِنَ الغَواية، وهو أن لا يجدَ السَّالكُ إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغَواية أن لا يكونَ له إلى المقصد طريق

الضّلالُ ضياعُ المَسلك إلى الهدى، والغَوايةُ انحرافٌ عن سواء السّبيل

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 79، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3988.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).

مستقيم؛ ولهذا لا يُقال للمُؤمن إنَّه ضالٌّ أو غير مُهتدٍ، ويُقال له: إنَّه غَوِيٌّ غيرُ رشيد"[1].
والضّلال والغَواية كلاهما ناتج عن عَصْف الأهواء بالأنفس، ومَن تاه في دروب الضّلال فَقَدَ البوصلة الهادية إلى الصّراط السّويّ، الّذي لا يتيه في الدّروب المظلمة، ولا يضيع في شِعاب الفتن، ولا تعصِف به الرّياح الهوج، فلا يجدُ مسلكًا للهدى، ولا منفذًا للالتزام، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: 56].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذمّ تحريم الحلال، واستثناء ما حرّم من كثيرٍ ما أحلّ

لـمَّا ذَكَر تعالى ذَمَّ المشركين على ما حرَّموا منَ الحلالِ - ونَسَبوه إلى اللّه، وأبطل قولَهم - أمرَ تعالى رسولَه أن يُبيِّن للنَّاس ما حرَّمه اللّهُ عليهم؛ ليعلموا أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ مَنْ نسَب تحريمَه إلى اللّه فهو كاذبٌ مُبطِل؛ لأنَّ التَّحريمَ لا يكون إلَّا مِن عند اللّه على لسانِ رسوله ﷺ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّآ أَجِدُ﴾: الإيجادُ: التَّكوين والإنشاء. يُقال: أوجَدَ اللّهُ الشَّيءَ؛ أي: كَوَّنه وأنشَأه. وأصلُه: إخراجُ الشَّيءِ مِنَ العَدَم. يُقال: أَوجدَ الشَّيءَ يُوجِده إيجادًا: إذا أخرجه منَ العَدَم. والوجُودُ خِلافُ العَدَم. ويأتي بمعنى: نَيْل الشَّيءِ والظَّفر به، يُقالُ: وَجَدَ الشَّيءَ: إذا ظَفِر به. ويُستعمل أيضًا بمعنى الإغناء، والخَلْق، والإحداث[2].

2) ﴿أُوحِيَ﴾: الوَحيُ: الإشارةُ السَّريعة، والكِتابُ، والرِّسالة. وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى عَلِمَهُ، فهو وَحيٌ كيف كانَ، ومن معانيه: السَّريع، والصَّوت[3]. و"جميع هذا الدّين وحيٌ منَ اللّه، مُنزَّل على نبيِّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم؛ وهذا لأنَّ مَرجَع الإسلام في أصوله

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 277.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (وجد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).

وفروعه إلى القرآن، وهو وحيٌ منَ اللهِ، وإلى السُّنّة النّبويّة، وهي وحيٌ أيضًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: 3 - 4]"[1].

3) ﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: الإطعامُ يقعُ في كُلِّ ما يُطعَم، حتَّى الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: 249]، ويُقالُ رَجُلٌ طاعِمٌ: حَسَنُ الحال في المطعَم. والطَّعامُ: هو البُرُّ خاصَّةً، ثمَّ يُسَمَّى كُلُّ ما يَسُدُّ الجوعَ طَعامًا[2]، والطَّعْمُ: تناولُ الغذاءِ، ويُسمّى ما يُتَناوَلُ منهُ: طُعْمٌ وطَعامٌ، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: 96]، قال: وقد اختُصَّ بالبُرِّ فيما روى أبو سعيد: «أنّ النّبيّ ﷺ أَمَرَ بِصَدَقَةِ الفِطْرِ صاعًا من طَعامٍ أو صاعًا من شَعيرٍ»[3]، وقال الشّاعر:

وَإذا هُمُ طَعِمُوا فَألأَمُ طَاعِمٍ *** وإذا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعِ[4]

4) ﴿مَيْتَةً﴾: بِتَخفيفِ الياءِ وتَشديدِها، هو الَّذي فارَقَ الحياةَ، ويَستَوي فيه الذَّكَرُ والأُنثَى، والكلمة تَدُلُّ أيضًا على ذَهابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيءِ، يُقال: ماتَ يَمُوتُ مَوْتًا فهو مَيِّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَيِّتون، ومَيْتون. ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ المَيِّتِ، وليس بِه، ويُجمَعُ على مَوتَى وأَمواتٌ[5].

5) ﴿مَّسْفُوحًا﴾: سَفَحَ الدَّمَ: أَراقَه وصَبَّه، وسَفَحْتُ دَمَه: سَفَكْتَه، وسَفَحَت الماءَ: أَهرَقْتَه، وَيُقَال: بَينهم سِفاحٌ؛ أي: سَفْكٌ للدِّماءِ، ومن هذا: السِّفاح والمسافحة: الزِّنا والفُجور؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما سَفَحَ مَنِيَّتَه؛ أي: دَفَقَها بلا حُرْمةٍ أباحَتْ دَفْقَها: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النّساء: 24]، وأمَّا سَفْحُ الجبَلِ فهو من باب الإبدال، والأصلُ فيه صَفْحٌ[6].

6) ﴿رِجْسٌ﴾: الرِّجسُ: كلُّ شيءٍ يُستقذَر فهو رِجْسٌ، وكلُّ قَذَرٍ رِجسٌ. ورجسُ الشَّيطان: وسوستُه وهَمْزُه. والرِّجسُ: الصَّوتُ الشَّديد للرَّعد، وقد يُعَبَّرُ به عَنِ الحرامِ، والفِعلِ

(1) عبد الحميد بن باديس، في مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 294.
(2) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طعم).
(3) الرّاغب، المفردات، وإبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: (طعم). والحديث عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (1508)، ومسلم، الصحيح، برقم: (985).
(4) محمود الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/72.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (موت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفح).

القَبيحِ، والعذابِ، واللَّعنَةِ، والكُفرِ. والمُرَادُ في هذه الآية الأوَّل[1]، وكلّ ما وصفَهُ القرآن بالرِّجْسِ، كلحمِ الخنزيرِ مثلًا، "قد صدقَ فيه الوصفُ؛ فهو ضارٌّ ضررًا بليغًا، ومُستقذَرٌ استقذارًا شديدًا، مهما يَقُلْ فيه الّذين فَسَدَتْ أذواقُهم"[2].

7) ﴿فِسۡقًا﴾: الفِسْقُ: العِصيانُ والخُروجُ عنِ الطَّاعَةِ. يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفسُقُ، فِسْقًا؛ أيْ: عَصَى وأَذنَبَ. وأصلُ الفِسْقِ: خُروجُ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ على وَجهِ الفَسادِ، ومنه قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ أي: خَرَجَ عن قِشْرِهِ. والفَواسِقُ: الحيواناتُ الّتي مِن طَبعِها الإفسادُ[3]، والفِسقُ: التّركُ لأمرِ اللّه، وفَسَقَ يفسُقُ فِسْقًا وفُسُوقًا، وكذلك المَيل إلى المعصية، كما فَسَقَ إبليسُ عن أمرِ ربّه. ورجلٌ فُسَقٌ وفِسِّيقٌ[4].

8) ﴿أُهِلَّ﴾: الإهلالُ: التَّلبِيَةُ، وأصلُه: رَفعُ الصَّوتِ عند رُؤيَةِ الهلال، ومنه سُمِّيَ الهِلالُ هِلالًا؛ لأنَّ النّاسَ يَرفعون أَصواتَهُم بالإخبار عنه، ثمَّ كَثُرَ استِعمالُهُ حتَّى قيل لِكُلِّ رافِعٍ صَوتَهُ: مُهِلٌّ ومُستهِلٌّ، فيُقال: أَهَلَّ بِالحَجِّ: إذا رَفَعَ صَوتَه بالتَّلبية، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]؛ أي: ما ذُكِرَ عليه غَيرُ اسم اللّه، وهو ما كانَ يُذبح لأجل الأصنام[5].

9) ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: الاضطِرارُ: الاحتِياجُ الشَّديدُ. والضَّرورَةُ: الحاجَةُ الشَّديدَةُ، والجَمعُ: ضَروراتٌ، وأصلُ كلمة الاضطِرارِ مِنَ الضَّرَرِ، وهو الضِّيقُ والحَرَجُ، وضِدُّ الضَّرَرِ: النَّفعُ والسَّعَةُ، وسُمِّيَتِ الحاجةُ الشَّديدةُ ضرورَةً؛ لأنّها تُلْحِقُ بصاحبِها ضَرَرًا[6]، ومنه "الاضطرار: اضطرَّه إلى كذا: منَ الضّرورة، يُقال: (الاضطرارُ يُذهِب الاختيارَ)، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173]، قال أبو حنيفة: المراد به ألّا يكون باغيًا للتّلذُّذ، ومجاوزة القَدْرِ، وعنده: يجوز للمضطرِّ أكل الميتة مع المعصية"[7].

10) ﴿بَاغٖ﴾: البَغيُ: الظُّلمُ والاعتِداءُ، يُقال: بَغَى، يَبغِي، بَغْيًا، فهو باغٍ؛ أي: ظالمٌ معتَدٍ. وأصلُ البَغيِ: الفسادُ، كقولهم: بَغَى الجُرحُ؛ أي: فَسَدَ. والبُغاةُ: الّذين يُفسِدُونَ في

(1) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجس).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2029.

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(4) الخليل، العين: (فسق).

(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرر).

(7) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: (الاضطرار).

الأرضِ. ومِن مَعاني البَغيِ أيضًا: الزِّيادَةُ، والاستِطالَةُ، والتَّجاوُزُ[1]، وبغى الرّجل علينا بَغْيًا: عَدَلَ عَنِ الحقّ واستطال، وبَغى عليه يَبْغِي بغيًا: عَلا عليه وظَلَمَه، وفي التَّنزيل: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [ص: 22]، وفيه: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]. وَحكى اللِّحيانيّ عَنِ الكِسائيّ: (مَالِي وللبَغْ بَعْضكُم على بعض)، أَرَادَ: وللبغي، وَلم يعلّله. وعِندي: أنّه استَثْقَلَ كسرةَ الإعرابِ على الياء فحَذَفَها، وألقى حركتَها على السَّاكِن قبلهَا، وَقوم بُغاء: بَغى بَعضُهم على بعضٍ، عَن ثَعلَب"[2].

11) ﴿عَادٍ﴾: الظُّلمُ والبَغيُ، يُقال: تَعَدَّى فُلانٌ إذا ظَلَمَ وَبَغى. وَالمُعتَدِي: الظَّالمُ، وأصلُ التَّعَدِّي: مُجاوَزَةُ الحَدِّ بالاستطالةِ والزِّيادَةِ، يُقالُ: تَعَدَّى النَّهرَ يَتَعَدَّاهُ، تَعَدِّيًا، وعُدوَانًا، واعتِداءً؛ أي: تَجاوَزَهُ، وضِدُّ التَّعَدِّي: العَدلُ والاستِقامَةُ. والعَدُوُّ: خلافُ الصَّديق. والعَداوَةُ: إرادَةُ السُّوءِ لِمَن تُبغِضُه وتَكرَهُهُ. ومِن مَعاني الاعتِداءِ أيضًا: الفَسادُ والإضرارُ[3]، ويُقال: عادى فلانٌ فلانًا مُعاداة، وعِداءً. ويُقال: هو الأسد عاديًا على فريسته، قال الشّاعر:

وقَد زَعَمَتْ عِرسِي مُلَيكَةُ أنَّني *** أنا اللَّيثُ مَعْدُوًّا عَلَيَّ وعادِيا[4]

12) ﴿غَفُورٌ﴾: الغُفرانُ: المُسامَحَةُ والعَفوُ، يُقال: غَفَرَ له إذا سامَحَهُ وعَفا عنه، والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغفِرَةِ، ويأتي الغُفرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عنِ الذَّنبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ به، وأصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفرِ، وهو: التَّغطِيَةُ والسَّتْرُ والإدخالُ. ومنه سُمِّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنَّه سَتْرٌ لِلذَّنْب، وإدخالٌ للعَبدِ في العَفوِ[5].

13) ﴿رَّحِيمٌ﴾: الرَّحمة: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمَرحَمَةُ مِثلُه، وهي رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرحوم، وقد تُستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة، وتارةً في الإحسان المجرَّد عَنِ الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّه فُلانًا، وإذا وُصِفَ به الباري، فليس يُراد به إلَّا الإحسان المجرَّد، دُون الرِّقَّة، وعلى هذا رُوي أنَّ الرَّحمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميِّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[6].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).
(2) ابن سيده، المحكم: (بغي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عدي).
(4) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/218.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رحم).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ما حرّم الله إلّا الخبائث المأثورة؛ ومَن اضطرّ فعُذْرُه الضَّرورة

يأمُرُ اللّهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ، أن يقولَ لهؤلاءِ المُشركينَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللّهُ تعالى؛ افتراءً عليه: إنَّه لا يجدُ فيما أَوحاه اللّهُ تعالى إليه شيئًا مُحَرَّمًا أَكْلُه - مِمَّا زَعَمُوا أنَّ اللّه حَرَّمَه - إلَّا أنْ يكونَ مَيْتةً أو دمًا مَسْفوحًا، أو لَحمَ خِنزيرٍ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثة، خَبَثٌ ونَجَسٌ مُستَقذَرٌ، وإلَّا أن يَكونَ مِمَّا ذُبِحَ لغيرِ اللّه؛ فإنَّه خُروجٌ عن طاعة اللّه إلى مَعصِيَتِهِ والكُفرِ به، فمَنْ أَلجَأَتْهُ الضَّرورةُ لأكلِ إحدى هذه المُحَرَّماتِ، وهو غيرُ مريدٍ لأكلِها تلذُّذًا مِن غيرِ اضطرارٍ، ولا متجاوِزٍ ما أباحَه اللّهُ منها، فهذا لا حَرَجَ عليه في الأكل منها؛ فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئناف البيانيّ يربط الآية بالسّياق السّابق لها:

بيانُ المحرَّمات الثَّابتة يُبطِل المحرَّماتِ الباطلة

الآية الكريمة استئنافٌ بيانيٌّ نشَأَ عن إبطال تحريم ما حَرَّمَه المشركونَ؛ إذ يتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِنَ المسلمينَ عنِ المحَرَّماتِ الثَّابتةِ؛ إذ أُبطِلَتِ المُحَرَّماتُ الباطِلَةُ. وفيه: مبالغةٌ في بيانِ انحصارِها في ذلك المذكورِ[2]، والرّسول يؤكّد لهم بما عبّر عنه السّياق بقوله: "إنّني لا أجد، فيما أوحاه اللّه إليّ، طعامًا مُحرَّمًا على آكلٍ يريد أن يأكلَه، إلّا ما حرّم اللّه: "الميتة، ولحم الخنزير، والدّم المسفوح - أي: المهراق - وما ذُبِحَ للأصنام والأوثان، وما أُهِلّ لغير اللّه به"[3].

نُكتة بَدْءِ الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ وتَكراره:

ابتداء الآية الكريمة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾، هو أمرٌ قاضٍ به، بخلاف

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/318، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/512، والزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/81.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/168، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/186، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/136.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 8أ/136.

الغرضُ منَ الأمر الإلزامُ والحثُّ على الائتمار والازدجار

سائر الأمور، مثل: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾ [النّاس: 1]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1]، فإنَّه أمرٌ لرسول اللّه ﷺ، ولسائر أُمَّته بالتَّبعيّة له، وهو مأمور بتتابع الآية بكمالها، أو مأمور بقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إلى آخر الآية[1].

كما أنّه أسلوبٌ إنشائيٌّ، الغرضُ منه الأمر للرّسول ﷺ: للإلزامِ والحثِّ، واسترعاءٍ للأسماع، وفيه تعظيم لقدره ﷺ.

وممَّا تميَّزت به سورة الأنعام كثرَة بدء الآيات فيها بخطاب الرَّسول ﷺ، بكلمة ﴿قُلۡ﴾؛ بإيقاعها القويّ المُوحِي في كلِّ آية؛ ولعلّ إيثارها في تلك المقامات لأنَّها هي الأنسبُ لتبليغ الدَّعوة[2]، فقد جاءَت تصاريفُ الجذر (قول) في السّورة سبعًا وسبعين مرّة، منها: أربع وأربعون مرّة بلفظ (قل)، وهذا أكبر عدد في سور القرآن الكريم، يليها سورة يونس ورد فيها (قل) أربعًا وعشرين مرّة. وهذا يتناسب مع مقصد السّورة، وهو تلقين الاحتجاج لأصول الدِّين، وتقريرِ عقائدِ الإسلام، فهي سورةُ البلاغِ والإعلانِ، والمبادئِ العليا لدعوة الإيمان؛ لتعطيَ المسلمينَ الزّاد، وتمدَّهُم بالحجج الدَّامغة الَّتي تكشفُ زيفَ الشِّرك، وتُزهِقُ باطلَه.

دلالة ﴿لَّآ﴾ النَّافية في قوله ﴿لَّآ أَجِدُ﴾:

لا تحريم إلّا بعلّةٍ واضحةٍ، أو ضررٍ ظاهرٍ أكيد

في قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، الأداة ﴿لَّآ﴾ لنفي المستقبل بالذّات، وقد ينفي الحال، وهي هنا لنفي الحال؛ لأنَّ الوحي إليه ماضٍ، ولا يصحُّ أن يريد ما أُوحي إليه به في المستقبل؛ لأنَّه قد أُوحي إليه بعدُ بتحريم أمر آخر ليس في هذه الآية[3]، والمعنى في السّياق: "إنّي لا أجدُ فيما أوحى اللّه إليَّ شيئًا مُحرّمًا على مَن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/137.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/210.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/195.

يأكله، ممّا تذكرون أنّه حُرِّم منَ الأنعام، إلّا أن يكون قد مات بغير تذكيةٍ، أو يكون دمًا مُراقًا، أو يكون لحمَ خِنزير، فإنّه نجسٌ، أو الّذي كانت ذكاتُه خروجًا عن طاعة اللّه تعالى، كما إذا كان المذبوحُ قد ذُكِر عليه اسمُ غير اللّه عند الذّبح"[1].

نُكتة المجاز في الفعل ﴿لَّآ أَجِدُ﴾:

تشبيه التَّحصيل للشَّيء بالظَّفر، من أجملِ الصُّوَر

أَجِدُ بمعنى: أظفر، وهو الَّذي مصدره الوجد والوجدان، وهو هنا مجازٌ في حصول الشَّيء وبلوغه، يُقال: وجدتُ فلانًا ناصرًا؛ أي: حصلت عليه، فشبَّه التَّحصيلَ للشَّيء بالظَّفَر وإلْفاءِ المطلوب، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، والفعلُ هنا مُتعدٍّ إلى مفعول واحد. وقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ ليس فيه دلالة على تحليل غير هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية، بل على أنَّه تعالى ما بيَّن له إلَّا تحريم هذه الأشياء، وهذا لا ينافي أن يبيِّن له بعد ذلك تحريمَ شيءٍ آخر، فلعلَّ قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 3]، نزلت بعد ذلك، فكان ذلك بيانًا لتحريم الدَّم مسفوحًا، أو غير مسفوح[2].

بلاغة إدماج في سياق ذِكر ماحرّم على المسلمين:

الرَّدّ على طريقة كناية الإيماء

في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ افتتح الكلامَ المأمورَ بأن يقوله؛ بقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ﴾؛ إدماجًا للرِّدّ على المشركين في خلال بيان ما حَرَّم على المسلمين، وهذا الرَّدّ جارٍ على طريقة كناية الإيماء بأن لم ينفِ تحريمَ ما ادَّعوا تحريمَه صريحًا، ولكنَّه يقول: لا أجدُه فيما أُوحي إليَّ، ويُستفاد من ذلك أنَّه ليس تحريمه منَ اللّه في شرعه؛ لأنَّه لا طريق إلى تحريم شيءٍ ممَّا يتناوله النَّاس إلَّا بإعلام مِنَ اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه هو الَّذي يُحِلّ ما شاء، ويحرِّم ما شاء على وَفْق عِلمه وحكمته، وذلك الإعلام لا يكون إلَّا

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر: ص 147.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/176، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/137.

بطريق الوحي أو ما يُستنبط منه، فإذا كان حكمٌ غيرَ موجود في الوحي ولا في فروعه، فهو حكمٌ غير حقٍّ، فاستُفيد بطلانُ تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء، وهي طريقةٌ استدلاليَّةٌ؛ لأنَّ فيها نَفْيَ الشَّيء بنفيِ ملزومِه[1].

معنى ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، ودلالة الاسم الموصول:

لا يحقُّ للبشر تحريمُ ما لم ينصَّ الوحيُ على تحريمه

﴿مَآ﴾ اسمٌ موصولٌ مفيدٌ للعموم؛ أي: (كلّ ما أوحي إليّ)، ومفهوم الموصول أنَّ ما أوحي إليّ كلّه حلال، إلَّا أن يكونَ مَيْتَةً، أو دمًا مسفوحًا... فهو حرام، ومُؤدّى الاسم الموصول في سياقه ما ذكره القرآن على لسان النّبيّ الأكرم، ممّا يُفهم من الآية: "قل أيُّها النبيُّ لهؤلاء المفترين على اللّه الكذبَ، ولغيرِهم من النّاس: لا أجدُ فيما أوحاه اللّه إليَّ طعامًا محرَّمًا على آكلٍ؛ إلّا أن يكون ميتةً لم تُذبح ذبحًا شرعيًّا، أو دمًا مسفوحًا سائلًا... وأن لا يكون هذا الشّيءُ المحرَّمُ فيه خروج عن العقيدة الصّحيحة، كأَنْ ذُكر عند ذبحه اسمُ غيرِ اللّه، كصنم أو معبودٍ آخرَ"[2]، وفي التّفسير الوسيط: "والجملة الكريمة، تفيد أنّ طريق التّحريم والتّحليل إنّما هو الوَحْيُ، وليس مجرَّدَ الهوى والتّشهّي، وأنّ الأصل في الأشياء الحِلُّ إلّا أن يرِدَ نصٌّ بالتّحريم"[3].

علّة بناء الفعل: ﴿أُوحِيَ﴾، لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

التَّحريم إنَّما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه، في كتبه المقدّسة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالفعل ﴿أُوحِيَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لبيانِ نفيِ وجودِ الوحي نفيًا مُطلَقًا، بغير ما هو مذكور، فالبناء للمفعول هنا لعموم نفيِ عدم الوجود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما حرَّموه غيرُ معقول، إن سُمِّي به وحيٌ مُطلقًا. وهذا تنبيهٌ على أنّ التَّحريم إنَّما يثبتُ بوحي اللّه تعالى وشرعه، لا بهوى الأنفس. قال الشِّهاب: كُنِّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/137.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/18.
(3) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/200.

بعدم الوُجْدان عن عدم الوجود، ومَبنَى هذه الكناية على أنَّ طريقَ التَّحريمِ التَّنصيصُ منه تعالى، وتفسيره بمُطلَق الوحي استظهروه؛ ولذا قال: ﴿أُوحِىَ﴾، ولم يقُل: أُنزل[1].

القَصْرُ بتقديم شبه الجملة ﴿إِلَىَّ﴾:

خصوصيّة الوَحْيَيْن: الكتاب والسّنّة، مِن رحمة الله على الأمّة

قدَّم شبهَ الجملة ﴿إِلَىَّ﴾، على الصِّفة ﴿مُحَرَّمًا﴾؛ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ للدَّلالة على القَصْرِ والاختصاصِ؛ أي: لا أجد في ما أوحي إليَّ على وجه الخصوص مُحرَّمًا، لا إلى أحدٍ منَ الرُّسل سواي، والتّشريع أيضًا لرسول اللّه ﷺ، بتفويضٍ منَ اللّه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]، ولذلك ورد على لسان الرّسول الأكرم: «أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتانِ ودَمانِ؛ فأمّا الميتتان: فالحوتُ والجَرادُ، وأمّا الدّمانِ: فَالكَبِدُ والطِّحالُ»[2]، وهو داخل في قوله: ﴿فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾.

دلالة لفظ ﴿مُحَرَّمًا﴾:

ما نَقَلَه البلاغُ النّبويّ للأمّة هو مَحْضُ حكمةٍ ورحمةٍ

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ حيث إنّ لفظة التَّحريم إذا وردت على لسان رسول اللّه ﷺ، فإنَّها صالحةٌ أن تنتهيَ بالشَّيء المذكور، إلى غاية المَنْعِ والحَظْرِ، وصالحةٌ بحسب اللُّغة أن تقفَ دون الغاية في حيِّز الكراهية ونحوها[3].

سرُّ التّعبير بـ: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، بَدَلَ (آكِلٍ يَأْكُلُهُ):

حَصْرُ مفهوم الطّعام في الأكل، مجانفةٌ للأمر بالتّمتّع بالطّيّبات

جاء التَّعبير بقوله: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾؛ ذلك لأنَّ الطَّعمَ تذوّقٌ واستطابة، والأكلُ قد يكون أكلًا غير مرغوب فيه، أو ما ليس له ذوقٌ يُستطاب؛ ففي هذا إشارة إلى أنَّهم يحرِّمون طيّب اللُّحوم والمطعومات[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/515، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2710.

(2) ابن ماجه، السنن، برقم: (3314) عن عبد الله بن عُمر، وأحمد في المسند، برقم: (5723)، وغيرهما.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/356، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/525.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2710.

دلالة التّأكيد على التّعميم والإحاطة:

التّحريم يَطالُ المجتمعَ برُمّته، ولا يُفرَّق فيه بين ذكر وأنثى

في قوله سبحانه ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، الفعلُ ﴿يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ صفةٌ مُؤَكِّدةٌ لـ ﴿طَاعِمٍ﴾ على نحو: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38]، فيُفيدُ مزيدَ التّعميم والإحاطة لأيٍّ طاعم كان من ذكرٍ أو أنثى؛ ردًّا على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139]، وقوله: ﴿يَطۡعَمُهُۥٓ﴾؛ لزيادة التّقرير. وذهب ابن المُنَيِّر إلى أنّه أتى بـ﴿يَطۡعَمُهُۥٓ﴾؛ ليُدخِل فيه المأكولَ والمشروبَ، قال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: 249]، وردَّه ابن عَرَفة: بأنَّ ذلك مُستفاد من لفظ طاعم[1]، وعند النّظر إلى التّأكيد في قوله: ﴿يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ - ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ - مع أنّه لو لم يذكر ﴿طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، لكان واضحًا أنّ التّحريمَ راجعٌ على الطّعام، ولاسيّما في سياق الآيات الكريمة السّابقة.

نُكتة تنكير لفظ ﴿طَاعِمٍ﴾:

الدّلالة على أنّ التّحريمَ يخصّ ما يُؤكل دون سواه

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾: جيء بلفظ ﴿طَاعِمٍ﴾ نكرةً في سياق النّفي، والّتي تعمّ كلَّ طاعمٍ من أهل شرعنا وغيرهم، فنفى تحريمَ أيِّ طعام على أيِّ طاعم، واستثنى فيها من هذا العامّ ما حرَّمه تحريمًا عامًّا مُؤبَّدًا على غير المضطر[2]، ولفظُ ﴿طَاعِمٍ﴾ يدلُّ على أنّ التّحريم يخصّ الأكل دون سواه. عَنِ ابن عَبَّاس: أنّه قرأ هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، وقال: إنّما حرّم منَ الميتَة ما يُؤكَل منها، وهو اللَّحم، فأمّا الجلدُ، والقِدُّ، والسّنُّ، والعظمُ، والشّعرُ، والصُّوفُ، فهو حلال[3]، فظهر أنّ الحرمةَ تتعلّقُ بالمطعوم فقط دون سواه.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/196، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/113، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/511.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/197.

(3) جلال الدّين السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/373.

الاستثناء بـ ﴿إِلَّآ﴾ بين الاتّصال والانقطاع:

في جملة ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، الاستثناء مِن مَوصوف ﴿مُحَرَّمًا﴾ المحذوف، والتّقدير: لا أجد حيوانًا مُحرّمًا أو طعامًا مُحرّمًا إلّا حيوانًا مُتّصفًا بالموت... إلخ، أو إلّا مطعومًا مُتّصفًا بالموت... إلخ، وعلى هذا فالاستثناءُ مُتَّصلٌ، وقيل: ليس في الكلام حذف، كما أنّ الاستثناءَ منقطعٌ؛ لأنّه كون، وما قبله عين. وقد قُرئَ بنصب (مَيتة) وبرفعها؛ فعلى النّصب هي خبر يكون، وما بعدها عطف عليها، وعلى الرّفع هي فاعل (تكون) التّامّة، وما بعدها عطف على محلّ (أن تكون) الواقعة مُستثناة، والتّقدير: إلّا أن تكون مَيتة، وإلّا وما... إلخ[1]. والأصل في الأشياء الإباحة، ولا يُقطَع بتحريم شيءٍ إلَّا ما ورد في تحريمه نصٌّ؛ ولذلك جاء الرّسم بالقطع مُوافقًا لما عليه الحكم بالإباحة إلَّا ما استُثني بالتَّحريم. والنّظم والتّركيب يساعد الانقطاع، ويأبى الاتّصال، فإذا استثنى المذكورات، آذَنَ بِقَصْرِ المُحرَّمات على المذكوراتِ، وليس بذلك؛ فوجب الانقطاع والتَّخصيص[2].

الأصل في الأشياء الإباحة، ولا تحريمَ إلَّا بنصٍّ قطعيٍّ صريحٍ

الاستثناء من عموم ﴿أَن يَكُونَ﴾:

التَّعبير بالمصدر ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، جعل الاستثناء من عموم الأكوان الّتي دلَّ عليها وقوع النَّكرة في سياق النَّفي؛ أي: لا أجد كائنًا مُحرَّمًا إلّا كونه ميتةً إلخ؛ أي: إلَّا الكائن ميتةً...إلخ، فالاستثناء متَّصل[3].

مبدأ التّشريع حِلُّ الطّيّبات، واستثناءُ ما عُلِم منَ المحرّمات

الحَصْرُ المستفادِ منَ النَّفي والاستثناء:

الحصر المستفاد منَ النَّفي والاستثناء حقيقيّ، بحسب وقت نزول هذه الآية، فلم يكن يومئذٍ من مُحرَّمات الأكل غير هذه

القصرُ حقيقيٌّ، وبه يتجلّى أسلوب الاستثناء المفرَّغ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/196.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/138.

المذكورات؛ لأنَّ الآية مكيَّة، ثمَّ نزلت سورة المائدة بالمدينة، فزيد في المُحرّمات. وظاهِرُ الآية - مع عَطفِ ما حَرَّمَ على بني إسرائيلَ عليها - أنَّ حَصْرَ مُحَرَّماتِ الأطعِمَةِ في الأنواعِ الأربعةِ أصلٌ من أصولِ شَرائِعِ جميعِ رُسُلِ اللّهِ تعالى[1].

ويتّفق هذا النّصّ في حَصْر المحرَّمات في أربع، بينما في نصّ سورة المائدة، يتّسع العدّ إلى أكثر من ذلك، فكيف يتّفق هذا النّصّ مع ذاك؟! قال الشّعراويّ: "مَن يقول ذلك نقول له: أنت لا تفرّق بين إيجاز وإطناب، ولا تفرّق بين إجمال وتفصيل؛ فالّذي تُرِك في هذه الآية داخلٌ في الميتة؛ لأنّ المنخنقةَ والمتردِّيَةَ والنَّطيحةَ وما أَكل السَّبُعُ، والّذي ذُبح على النُّصُب، وما أُهِلَّ به لغير اللّه، موجودٌ وداخلٌ في كلمة (الميتة)"[2].

بلاغة القراءات وتوجيهها في قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾:

تنوّع التّوجيه في القراءة القرآنيّة يفسح المجال للمعاني المتاحة

قرأ ابن كثير وحمزة ﴿تَكُونَ مَيۡتَةً﴾ بالتّاء لتأنيث ﴿مَيۡتَةً﴾، وابن عامر بالتّاء مع رفع ﴿مَيۡتَةٌ﴾، على معنى (إلَّا أن توجد مَيْتَةٌ)، والباقون بالياء مع نصب ﴿مَيۡتَةً﴾، وهذه وجوهٌ في العربيّة كلُّها جائزة فصيحة، ويُشكل على هذه القراءة أنّ المعطوفَ على ﴿مَيۡتَةً﴾ منصوبات، وهي: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، وقد خُرِّجَت هذه القراءة على أن يكون: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ عطفًا على ﴿أَن﴾ وصِلَتِها؛ لأنَّه محلّ نصب بالاستثناء، فالتَّقدير: (إلَّا وجود مَيْتة)، فلمَّا عبَّر عنِ الوجود بفعل ﴿يَكُونَ﴾ التَّامّ، ارتفع ما كان مضافًا إليه[3].

دلالة ذِكر الخاصّ بعد العامّ في الآية الكريمة:

جيء بذِكر الخاصّ بعد العامّ في قوله تعالى: ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا

(1) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/138، ومحمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشعراوي 7/3973.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/138، ومحمّد رضا، تفسير المنار: 8/130.

﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ المَيتةَ عامَّةً تشمل كلَّ ما ليس له ذكاة شرعيَّة، وخصَّ لحم الخِنزير بالذِّكر؛ للتَّنبيه على شدَّة التَّحريم فيه، وتقديم قوله تعالى: ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾، على المحرَّم لعارض، وهو قوله: ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ التَّحريم فيه عارِضٌ، بينما التَّحريم فيما تقدّم ذاتيّ[1].

الفرق بين المحرَّم لعارض، والمحرَّم لذاته

علّة تقييد الدَّم بـ(المَسْفُوح):

الدَّم المسفوح: الجاري الَّذي يسيل، وجعل الله هذا فرقًا بين القليل والكثير، والمُنْسَفِح: السَّائل مِنَ الدَّم ونحوه، وجيء بهذا التَّقييد؛ للتَّنبيه على العَفوِ عنِ الدَّمِ الّذي يَنِزُّ مِن عُروقِ اللَّحمِ عند طبخِه؛ فإنَّه لا يُمكِنُ الاحترازُ عنه، وكذلك يفيد إباحة غيره؛ كالكبد والطّحال، وما يتعلّق باللّحم والمخّ[2].

الكبد والطّحال، والقطرات في اللّحم، معفوٌّ عنها بلا إثم

دلالة التّعبير بـ: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾، دون (أو خِنْزيرًا):

عبَّر بالجملة الكريمة: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾؛ لِيُفيدَ تحريمَ لَحمِه على كلِّ حالٍ، سواءٌ ذُبِحَ أم لا، ولو قيل: (أو خِنزيرًا) لاحتمَلَ أن يُرادَ تحريمُ ما أُخِذَ منه حيًّا فقط[3]، وذُكِر اللَّحم تنبيهًا على أنَّه أعظم ما يُنتفع به مِنَ الخِنزير، وإن كان سائره مُشارِكًا له في التَّحريم: بالتَّنصيص على العِلَّة من كونه رِجسًا، أو لإطلاق الأكثر على كلِّه، أو الأصل على التَّابع؛ لأنَّ الشَّحمَ وغيرَه تابعٌ لِلَّحم[4]، وتخصيصُ لحم الخنزير لايقتضي تحليلَ شحمِه وسائرِ ما فيه؛ لأنَّ ذلك نصّ على أفضل ما فيه، ليدلّ على ما دونه؛ ولأنّه المقصودُ لذاته بالأكل[5].

لحم الخنزير وما يتّصل به من لواحق، حرام باتّفاق العلماء

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275.

(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/737، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/138، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/330.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/674.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/262، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/172.

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

لحم الخنزير قذارة ومفسدة، ولذلك حُرِّم بصرامة

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ للتَّعليل؛ أي: في تعليل الميتة والدّم ولحم الخنزير، أو الأخيرِ منها فقط[1]؛ ولحمُ الخنزير حرام في شريعة موسى، وفي المسيحيّة الّتي جاء بها عيسى، لا الّتي حرّفها بولس، وفي شريعة محمّد ﷺ، وقد أثبتَ الطّبّ الحديث، والبحوث الّتي أُجريت على هذه المحرّمات؛ أنّ ضررَها على الإنسان كبيرٌ، وأنّ اللّه حرّمها لوجود المفاسد والأسقام فيها، بصورة أكيدة يقينيّة، ولهذا فإنّ تعليلَ التّحريم بواسطة الفاء مفيدٌ في الدّلالة على ذلك.

سرُّ تتابع المؤكِّدات في جملة: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

التّأكيد على الحرمة يفيد التّنبيه على خطر المحرّمات على البشر

جيء بالتّوكيد بـ(إنّ) والجملة الاسميّة؛ ليبيّن أنَّ المحرّمات: المَيتة، والدّم المسفوح، ولحم الخنزير؛ لحمها قذر، وقبيح، ومحرَّم؛ أي: أكلُها عمل قذرٌ قبيح مُحرَّم.

عود الضّمير على أقرب مذكور:

ذمُّ الخِنْزير وتحريمُه غايتُه التّحذير مِنَ الغفلة عن مضارّه

إذا كان الضَّمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾، عائدًا إلى لحم الخنزير خاصّة؛ فوصفه بـ﴿رِجۡسٌ﴾ تنبيه على ذمِّه؛ وهو ذمٌّ زائدٌ على التَّحريم، فوصفَهُ به تحذيرًا مِن تناوله، وتأنيسًا للمسلمين بتحريمه؛ لأنَّ معظم العرَب كانوا يأكلون لحمَ الخنزير، بخلاف المَيتة والدّم، فما يأكلونها إلَّا في الخَصاصَة. وإن كان الضَّمير عائدًا إلى الثَّلاثة كان قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾؛ تنبيهًا على عِلَّة التَّحريم، وأنَّها لدفع مفسدةٍ تحصل مِن أكل هذه الأشياء.

وزعم أبو محمَّدِ بنُ حزم أنَّه عائد على ﴿خِنزِيرٍ﴾؛ فإنَّه أقرب مذكور، وإذا احتَمَلَ الضَّميرُ العَوْدَ على شيئَين كان عودُه على الأقرب أرجَحَ. وعُورِض بأنَّ المُحدَّث عنه إنَّما هو اللَّحم، وجاء ذِكْرُ الخنزيرِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 277.

على سبيل الإضافة إليه، لا أنَّه هو المُحدَّثُ عنه المعطوفُ، وإنّ إفرادَ الضّمير على تأويله بالمذكور؛ أي: فإنّ المذكورَ رجسٌ، كما يفرد اسم الإشارة، مثل قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68][1].

نكتة ذكر لفظ ﴿رِجۡسٌ﴾:

الفِسْقُ: الخروج عن شيء، وهو حقيقة شرعيَّة في الخروج عنِ الإيمان، أو عنِ الطَّاعة الشَّرعيَّة؛ فلذلك يُوصف به الفعلُ الحرامُ، باعتبار كونه سببًا لفسقِ صاحبه عنِ الطَّاعة، وقد سَمّى القرآنُ ما أُهِلَّ به لغير اللّه فِسقًا في الآية السَّالفة، وفي هذه الآية، فصار وصفًا مشهورًا لما أُهِلَّ به لغير اللّه، ولذلك أتبعه بقوله: أهلّ لغير اللّه به. إضافة إلى ذلك فقد أفادت لفظة: ﴿رِجۡسٌ﴾ في الآية، بيانَ العِلَّة في حُرمة لحم الخنزير؛ أي: فإنَّ لحم الخنزير رجسٌ؛ أي: قَذِر أصلًا، بخلاف المُحرَّمات السَّابقة، فإنَّها حلالٌ أصلًا، ولكن دخل عليها ما أفسدها، وجعلها فسقًا خارجًا عن دائرة الحلال[2].

لحم الخنزير قَذِرٌ أصلًا، ووصفه بذلك على الحقيقة لا على المجاز

فائدة تنكير لفظ ﴿رِجۡسٌ﴾ من قوله: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

تنكير ﴿رِجۡسٌ﴾ يدُلُّ على مُطلَق المعنى - ماهيّة الرِّجس الّتي أُنيطَ بها حكم التَّحريم - وفيه من دلالة التَّعظيم ما يستلزم التَّحريم، والتّعظيمُ هنا يراد به المعنى السّلبيُّ لهذا اللّفظ، وهو معنى التّهويل والتّبشيع، الّذي يجعل هذا المعنى منَ المفسدة يصبح رجسًا يَحسُنُ توقّيه، وتركُ أكلِه أو استعمالِه في أيّ غرض من أنواع الانتفاع به، حتّى لا تقع الإصابة بمهالكه، الّتي من أجلها كان التّحريم.

ما حرّمه اللّه لامندوحةَ مِن توقّيه، حذرًا من مغبّاته ومساويه

نكتة إعراب ﴿فِسۡقًا﴾، في قوله: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أنَّه عطفٌ على خبر يكون؛ أي: إلَّا أن يكون فِسقًا، و﴿أُهِلَّ﴾ في محلِّ نصب؛ لأنَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/674، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/139، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/331.

يتنوّع الإعراب، بحسب تعدّد المعاني في السّياق

صفة له، كأنَّه قيل: أو فِسقًا مُهَلًّا به لغير اللّه، جعل العينَ المحرَّمة نفسَ الفسقِ مُبالغة، أو على حذف مضاف ويُفَسِّره ما تقدَّم من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121]. الثَّاني: أنَّه منصوب عطفًا على محلِّ المُستثنى؛ أي: إلَّا أن يكون مَيتة أو إلَّا فِسقًا، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ اعتراض بين المتعاطفين. والثَّالث: أن يكون مفعولًا من أجله، والعامل فيه قوله ﴿أُهِلَّ﴾ مُقدَّم عليه، ويكون قد فصل بين حرف العطف وهو ﴿أَوْ﴾، وبين المعطوف وهو الجملة من قوله: ﴿أُهِلَّ﴾، بهذا المفعول من أجله[1]. وأفاد تنكيرُه في كلّ ذلك التّعظيمَ.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الفِسق):

جعلُ الـمُحرَّمِ هو عين الفسق، مـنَ الـبلاغـة المُبينَة

لَمَّا ذَكَرَ المحَرَّم لِعَينِه ذَكَرَ المحَرَّم لعارِضٍ، فقال مُبالِغًا في النَّفي عنه: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾، وهو ما ذُبِحَ لغَير اللّه، وسمَّاه اللّهُ ﴿فِسْقًا﴾، فجعله كأنَّه بِعَينِه هو عينُ الفِسقِ الَّذي وَقَعَ النَّهيُ لأجلِه؛ وذلك لتَوَغُّلِه في الفِسقِ، فتكون جملة: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفةً أو بيانًا لـ ﴿فِسْقًا﴾[2].

علّة تقديم (الرِّجس) على (الفِسق):

تقديم الرّجس الـحـسّيّ على المعنويّ، غاية في الإبانة

في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾، إذا كان الخنزير فيه رِجْسٌ حسّيٌّ، ومن أجله حُرِّم أَكلُه، فإنَّ اللّه تعالى قد حَرَّم ما فيه رجسٌ معنويٌّ، وقرَنَه به، وهو ما أُهِلَّ لغير اللّه به؛ ولذا جاء بكلمة ﴿فِسْقًا﴾ مقارنة لكلمة ﴿رِجْسٌ﴾، لأنَّهما يلتقيان في المعنى؛ لأنَّ هذا الخنزيرَ رجسٌ حسّيٌّ، وهذا الفسق رِجس معنويّ، فَهُما من باب واحد[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/198 - 199.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/178، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/139.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2711.

بلاغة التَّرقّي[1] في الآية الكريمة:

ما أُهِلَّ لغير اللّه، أقذر وأخبث من لحم الخنزير

قال أبو حيّان: "﴿فِسۡقًا﴾ الظّاهر أنَّه معطوف على المنصوب قبله، سُمِّي ما أُهِلَّ لغير اللّه به فِسقًا؛ لِتَوَغُّلِه في باب الفِسق، ومنه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ [الأنعام: 21]، و﴿أُهِلَّ﴾ صِفةٌ له منصوبةُ المحلّ، وأجاز الزَّمخشريّ أن ينتصب ﴿فِسۡقًا﴾ على أنَّه مفعولٌ من أجله، مُقدَّمٌ على العامل فيه وهو ﴿أُهِلَّ﴾"[2].

قال الطِّيبيّ رحمه اللّه: "الأوَّل أَولى؛ - أي: كونه معطوفًا على (مَيتة) -؛ ليحصل في الكلام التَّرقّي، وليُؤْذِنَ بأنَّ ما أُهِلَّ لغير اللّه أقذرُ وأخبثُ من لحم الخنزير؛ ولذلك عَلَّل لحمَ الخنزير بالرِّجْسِ، ثمَّ أَتبَعَه ذلك، وسمَّاه أوَّلًا بنفس الفِسق، ثمَّ وصَفه بما يكشف عن حقيقته، كأنَّ الفِسقَ تفسيرُه، وبيانه: أنَّه أُهِلَّ لغير اللّه؛ فعلى هذا: ففي تأخير الدَّم عنِ الميتة الإشعارُ بأنَّه أخبثُ منه، فيجبُ أن يُحترزَ منه ما أمكن؛ كما ذهب إليه الشَّافعيّ"[3].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿أُهِلَّ﴾:

التّنديد بعبادة غير اللّه، وتقديم القربان لغيره ﷻ

في قوله تعالى ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، الإهلال: هو رفعُ الصَّوت، وأصلُه رفع الصَّوت عند رؤية الهلال، ثمَّ أُطلِق على رفع الصَّوت لأمرٍ يدعو إلى رفعه، ومنه أَهَلَّ فلانٌ بالحجِّ، إذا رفع صوته بالتَّلبية والدُّعاء، في كلِّ مكان يناسب ذلك، وعند البيت الحرام. والإهلالُ لغير اللّه عند الذَّبح، أن يذبحوا باسم صنمٍ منَ الأصنام، وإنَّ ذلك فيه عبادة لغير اللّه تعالى، فنَهى عن أكلِ ما يُذبح لذلك منعًا لهذا العمل الَّذي هو شرك باللّه تعالى، وكان النَّهي عنِ الأكل لأنَّه ذريعة إلى المنع المُطلَق[4].

(1) معنى التّرقّي: أن يُذكرَ معنًى، ثمَّ يُردَف بما هو أبلغ منه، يُنظر: السُّبكّي، عروس الأفراح: 2/319.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/139، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2029.

تحريم ما أُهِلَّ لغير الله به، مسألة عقائديّة وليست مادّيّة

دلالة الصّفة أو عطف البيان:

جملة: ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ صفة أو عطف بيان للفظ ﴿فِسۡقًا﴾، وفي هذا تنبيه على أنَّ تحريم ما أُهلّ لغير الله به، ليس لأنَّ لحمَه مُضِرٌّ، بل لأنَّ ذلك كفر بالله[1]، "وإنّما سُمّي ذلك فِسقًا؛ لِتَوَغُّلِه في الفسق، ويجوز أن يكون ﴿فِسۡقًا﴾ مفعولًا له لـ﴿أُهِلَّ﴾، وهو عطف على ﴿يَكُونَ﴾، والمستكِنُّ راجعٌ إلى ما رجع إليه المستكنُّ في ﴿يَكُونَ﴾"[2].

التّنديد بالفعل هو المهمّ، بغضّ النّظر عن الفاعل

علّة بناء ﴿أُهِلَّ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

الفعل ﴿أُهِلَّ﴾ في الآيةِ مَبنِيّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أي: ما أَهَلَّ عليه المُهِلُّ غيرَ اسم الله، وضُمِّنَ ﴿أُهِلَّ﴾ معنى (تُقُرِّب) فَعُدِّيَ لِمُتَعَلّقِه بالباء وباللّام، مِثل: تُقُرِّبَ، فالضّمير المجرور بالباء، عائدٌ إلى ما أُهِلَّ، وفائدة هذا التّضمينِ تَحريمُ ما تُقُرِّبَ به لغير الله تعالى، سواءٌ نُودِيَ عليه باسم المُتَقَرَّبِ إليه أم لا، والمرادُ بغير الله الأصنامُ ونَحوُها[3].

تقديم إبطال كلّ عبوديّات تُشرِّع من غير الله، وذلك مدار الاهتمام

دلالة التّقديم في تخصيص ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾:

قدَّم ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿بِهِۦۚ﴾؛ وذلك أنَّ المقام في آية الأنعام كان في الكلام على المفترين على الله، ممَّن كانوا يُشرِّعون للنَّاس باسم الدِّين، وهم يفترون عليه، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136 - 138]، إلى غير ذلك منَ الآيات الَّتي تُبيِّن أنّ ثمَّةَ ذواتٍ غيرِ اللّهِ، تُحلِّل وتُحرِّم، مفتريةً على الله، وذواتٍ يزعمون أنَّها شركاءُ لله، تُعبد معه، ونصيبُها في العبادة عندهم أكبر؛ ولذا قدَّم إبطال هذه المعبودات من غير الله على ﴿بِهِۦۚ﴾؛ فقال: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّه هو مدار الاهتمام والكلام[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/139.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.

(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 111 - 3/112.

معنى الفاء في عبارة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

معنى الفاء في: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، الفاء في الجملة لتفريع الإخبار لا لتفريع المعنى، فإنَّ معنى رفع الحرج عن المضطرّ، لا ينشأ عنِ التَّحريم، والمضطرّ هو الَّذي ألجأَتْهُ الضّرورةُ؛ أي: الحاجةُ؛ أي: اضطرّ إلى أكل شيء من هذه المحرّمات، فلا إثمَ عليه[1].

الضّرورات تبيح المحظورات، والاضطرار يرفع الإثم والإضرار

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

الجملة في الآية الكريمة جملة الشّرط، والثّانية جملة جواب الشَّرط، باعتبار لازم المعنى، وهو عدم المؤاخذة، وقيل: جواب الشَّرط محذوف؛ أي: فمنِ اضطرّ، فلا مُؤاخذة عليه، وهذه الجملة تعليل له[2]، والمعنى: شرطُ منِ اضطرّ إليها؛ أي: حَمَلَتْه الحاجةُ والضّرورةُ إلى أكل شيء منها؛ بأن لم يكن عنده شيءٌ، وخاف على نفسه التَّلَفَ، ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي مريدٍ لأَكْلِها من غير اضطرارٍ وَلا متعدٍّ؛ أي: متجاوزٍ للحدِّ؛ بأن يأكلَ زيادةً عن حاجته، فاللهُ قد سامَحَ مَن كان بهذه الحال، وجواب الشّرط: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

المضطرُّ يركب الصّعب، فلا يؤاخذ باضطراره

عِلّةُ بناءِ الفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمفعول:

بُنِيَ الفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمَفعولِ؛ لأنَّ المعْتَبَر حصولُ الاضطرارِ، لا كَونُه مِن مُعَيَّنٍ[4]، والمعنى بهذا التّأويل: "فمَن دَعَتْهُ الضّرورةُ إلى أكل شيءٍ من هذه المحرَّمات، غيرَ باغٍ على مضطرٍّ مثلهِ، تاركٍ لمواساته، ولا عادٍ متجاوز قدر حاجته مِن تناوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه"[5].

التّعبير عنِ الانشغال عن غيره بفعل الاضطرار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/202.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 2/243,
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.
(5) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/471.

لا يؤاخذ الله النّاس على الإكراه رحمةً بهم، ولا على الاضطرار شفقةً عليهم

فائدة التّعبير بالفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾:

أُخِذَ مِنَ التَّعبيرِ بالاضطرارِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾، حُرْمَةُ ما زادَ على سَدِّ الرَّمَقِ؛ لأَنَّه حِينئذٍ لا يكون مُضطَرًّا[1]، و"معنى اضطرّ أصابتْهُ الضّرورة الدّاعية إلى تناول شيء ممّا ذُكِر، و﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾: حالٌ؛ أي: غير ظالمٍ، ﴿وَلَا عَادٖ﴾: عطفٌ على: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾؛ أي: غير معتدٍ"[2].

التّرخيص في أكل الميّتة للمضطرّ؛ مراعاةً لمقتضى الحال

فائدة تنكير ﴿بَاغٖ﴾ و﴿عَادٖ﴾:

في قوله تعالى ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، الباغي: الطَّالبُ لهذا المحرَّم المُشتَهى له، كأن يكون مُضطرًّا فلا يجد إلَّا خِنزيرًا، يشتهيه ويأكله باغيًا له، طالبًا، والعادي هو المتجاوز لحدّ الضَّرورة، وجاء التّعبير بأسلوب التّنكير ليفيد التّقليلَ مِنَ البغي والعدوان، والتَّجاوز لما أباحه اللّه تعالى منَ المحرَّمات في حالة الاضطرار. فالآية إيماءٌ إلى حدّ الضّرورة، وهي الحاجة الّتي يَشعر عندها مَن لم يكن دَأْبُهُ البغيَ والعدوان[3]، بالأخذِ بالتّعاليم السّماويّة العليا، والاكتفاءِ بسدّ حاجة الاضطرار، دونَ بغيٍ ولا نفارٍ، ولا اعتداءٍ على حدود العليّ الجبّار، قال الشّعراويّ: "والحقّ الّذي شرّع يقدّرُ الظّروف المواتية للمكلّفين، وقد تمرّ بهم ظروفٌ وحالاتٌ، لا يجدون فيها إلّا المَيتة، وهنا يأكلون أكلَ ضرورةٍ، على قَدْرِ دفعِ الضّرّ والجوع"[4].

الجملة الحاليّة تسعف على بيان الحالة المتوخّاة

الموقع النّحويّ لـ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، وأثره في الدّلالة:

قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ نُصِبَ على الحالِ، واختُلِفَ في صاحبها، فالظّاهر أنّه هو الضّميرُ المستتر في ﴿ٱضۡطُرَّ﴾، وجَعَلَه القاضي وأبو بكر الرَّازيّ من فاعل فعلٍ محذوفٍ، بعد قولِه: ﴿ٱضۡطُرَّ﴾، قالا:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.

(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/260.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2714.

(4) محمّد متولي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/3974.

تقديرُه: فمَنِ اضطُرَّ فأكلَ غيرَ باغٍ، كأنَّهما قصدا بذلك أن يَجعلاه قيدًا في الأكلِ، لا في الاضطرارِ.

وقال أبو حيّان: ولا يتعيَّن ما قالاه، إذ يَحْتَمِلُ أَن يكونَ هذا المُقدَّرُ، بعد قوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، بل هو الظّاهرُ والأَولى؛ لأنَّ في تقديره قبل قوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾، فصلًا بين ما ظاهرُه الاتّصالُ بما بعده، وليس ذلك في تقديره بعد قوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾. و﴿عَادٖ﴾: اسمُ فاعلٍ من عدا يَعْدُو إذا تجاوزَ حَدَّه، ولو جاء في غيرِ القرآن منصوبًا، عطفًا على مَوضِع ﴿غَيۡرَ﴾ جاز، يعني: فكان يُقال: ولا عاديًا[1]، فكأنَّه قال: (فمن اضطُرَّ لا باغيًا ولا عاديًا) فهو حلال، فـ﴿غَيۡرَ﴾ وقعت هنا منصوبة على الحال لقوله: ﴿فَمَنِ﴾.

دلالة تقديم البغي على العدوان، في قوله: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

البغيُ أعمّ منَ العدوان، على قاعدة تقديم العامّ على الخاصّ

تقدّم البغيُ على العدوان، في الجملة الكريمة، لأنّه أعمُّ منَ البغي؛ فانتفاءُ البغيِ انتفاءُ العدوانِ، والتَّقديم هنا من تقديم العامّ على الخاصّ، ويفيد دائمًا الاهتمامَ بالمتقدِّم، وتوكيدَه وتخصيصَه، والمعنى: "فمَن أصابته ضرورةٌ قاهرةٌ ألجأتْهُ إلى الأكل من هذه الأشياء المحرّمة، حالة كونه غير باغٍ في أكله؛ أي: غيرَ طالبٍ للمحرَّم، وهو يجد غيره، أو غير طالبٍ له للذّته، أو على جهة الاستئثار به على مضطرّ آخر، بأن ينفردَ بتناوله فيها عنِ الآخر، أو حالة كونه - أيضًا - غير عادٍ فيما يأكل؛ أي: غير متجاوزٍ سدَّ الجوعة، فلا إثمَ عليه في هذه الأحوال"[2].

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الآية تدلّ على جواب القسم، وتربط ما بعده به

الجملة في محلّ جزم جواب الشّرط، في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، قيل: إنّ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾ تعليليّة لجواب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/118، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصُون: 2/240.
(2) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/202.

الشّرط المقدَّر (فلا إثم عليه)، والمعنى واحد، وهو: رَفْعُ الإثم عنِ المضطرّ، غيرِ الباغي ولا العادي، ولكنّ الخِلافَ في كيّفيّة تأدية الكلام لهذا المعنى(1).

سرُّ التَّعبير بلفظ (الرَّبّ) مضافًا إلى الضّمير:

جاء الأسلوب بالغفران والرّحمة، للتّسرية والتّسلية

جاء التَّعبير القرآني بلفظ ﴿رَبَّكَ﴾ دون لفظ الجلالة (اللّه)؛ لأنَّ لفظ (الرَّبّ) يدلُّ على الرَّأفة واللُّطف بالمربوب، وعلى الولاية؛ لذا فإنَّ إضافة الكاف إلى (الرَّبّ) تُشعِر بالاختصاص والتّشريف؛ أي أنَّ هذه الرُّخصة للمسلمين الَّذين عبدوه، لا للمشركين الَّذين أعرضوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11](2).

دلالة الخطاب في افتتاح الآية وختامها:

البيان القرآنيّ يدقّق في المسائل، ويرسّي الأحكام؛ لفائدة الأنام

لـمَّا كان صدرُ الآية مفتَتَحًا بخطابه تعالى بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، اختتم الآية بالخطاب، فقال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ودلَّ على اعتنائه به تعالى بتشريف خطابه افتتاحًا واختتامًا(3).

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الآية تستحضر الغفران والرّحمة، بسبب تقصير النّاس في التّكاليف الشّرعيّة

الإخبار بأنَّ اللّه تعالى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كناية عنِ الرُّخصة في تناول هذه المحرَّمات المذكورة عند الاضطرار، ورفع حرج التَّحريم عنها حينئذٍ، فهو في معنى قوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢﴾ [البقرة: 182](4).

دلالة التّذييل، وأثر التّنكير للاسمَيْنِ الجليلين:

في قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قُوَّةُ تذييلٍ قُصِد

---

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ لما في سورة النّحل من دقائق المعاني: 231.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/141.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/676.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/141.

به الامتنانُ والتّعظيم؛ لأنَّ اللّه موصوفٌ بصفَتَي المغفرة والرّحمة مُطلَقًا، وهذه عِلَّة تنكيرهما، فلا جَرَمَ أن يَغفِرَ للمضطرّ أكلَ الميتة؛ لأنَّه رحيمٌ بالنَّاس، إذ لا يَخلو زمان ولا مكانٌ من مُضطرّ.

غفران الله ورحمته، يَطالُ الإنسانَ في كلّ ظرف وآن

علّة تقديم صفة ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيّ في الآية الكريمة بتقديم المغفرة على الرَّحمة؛ لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ؛ والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبل الغنيمة، إضافة إلى ذلك أنّ الصِّيغتين: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمُبالغة؛ أي: مُبالغ في المغفرة والرَّحمة.

المغفرة تغطيةٌ وسَتْرٌ، والرّحمة تفضُّلٌ ومِنَّةٌ

دلالة جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الجملة الكريمة جوابُ شرطٍ، باعتبار لازم المعنى؛ وهو عدم المؤاخذة، وقيل: جواب الشَّرط محذوف؛ أي: فمَنِ اضطرّ، فلا مؤاخذةَ عليه، وهذه الجملة تعليل له[1]. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ "أثرٌ لجواب الشّرط المحذوف، أو سببٌ له، فإنّ المُقدَّرَ هكذا: (فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ، فلا إثم عليه)، كما ذُكر في آياتٍ أُخر، أمّا هنا فلم يُذكر، ولكن ذُكِرَ سببُه، وهو فإنّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ، فالسّبب أنّ الشّارعَ الحكيمَ هو ربّكم الّذي خلقكم ورعاكم، وقام على أمر حياتكم، وأنّه غفورٌ يغفرُ الإثمَ ويستُرُه، وأنّه رحيمٌ لا يُرهِقُكُم، وإنّ هذا يدلّ على رفْعِ الإثم سببًا بسببه"[2].

غفرانُ الله للعباد، تجاوزٌ عنِ الخطايا والمآثم

بلاغة المتشابه اللّفظيّ:

وردتِ المحرّمات في عدّة آيات مشابهة، فقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173].

الخِطاب يختلف بين مكّة والمدينة، تصحيحًا للأحكام، ودعوة للإسلام

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/202.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/202.

وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145].

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النّحل: 115].

قدَّم ﴿بِهِۦ﴾ في سورَة البقرة، وأخَّرها في [المَائِدَة 3، والأنعام 145، والنَّحل 115]؛ لأنّ تَقدِيمَ البَاءِ الأَصلُ: فإنَّها تجري مَجرَى الهمزَة والتَّشديد في التَّعدِّي، فكانَت كحرفٍ منَ الفِعل، فكانَ المَوضِعُ الأوَّلُ أَوْلَى بما هو الأصل؛ ليُعلَم ما يَقتَضِيه اللَّفظُ، ثمَّ قدَّم فيما سواهَا ما هو المُستَنكَر، وهو الذَّبح لغير اللَّه، وتَقدِيم ما هو الغَرَض أَولى؛ ولهذا جازَ تَقدِيم المَفعُول على الفاعِل، والحَال على ذِي الحال، والظَّرف على العامِل فيه، إذا كانَ ذلك أكثر للغرض في الإخبَار(1).

وجاءَ التَّرتيبُ في آية الأنعام كالتَّرتيب الَّذي في (البقرة) و(المائدة)، وجاءَت المحرّمات هنا (الأنعام) مُنكّرةً، والدّمُ موصوفًا بقوله: ﴿مَّسۡفُوحًا﴾، والفِسقُ موصوفًا بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، وفي تَيْنِكَ السُّورتين مُعرَّفًا؛ لأنَّ هذه السُّورة مكيَّة، فَعُلِّقَ بالتَّنكير، وتانِكَ السُّورتان مدنيّتان، فجاءَتْ تلك الأسماءُ معارفَ بالعَهْدِ، حُوالةً على ما سبق تنزيلُه في هذه السُّورة(2).

وذهب المُطعنيّ مذهبًا تحليليًّا للأسلوب في الآيات، بأنَّ ما قُدِّم فيه ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ خطاب لأهل مكّة؛ مسارعةً إلى نفي الشِّرك، وإبطالًا لاتّخاذ الأصنام آلهةً تُعبَد، ويُذبَحُ ويُنْحَرُ باسْمِها؛ بدليل أنَّ السُّورتين - الأنعام والنَّحل - مكّيّتان، والمائدة - وإن كانت

(1) الكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 81، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/112.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/673.

مدنيّة - فإنَّ الآيةَ الواردةَ فيها هذه العبارة نزلتْ في حجَّة الوداع، وكأنَّ القرآن يقول لأهل مكّة: لا تَظنُّوا أنَّ الإسلام قد سَكَتَ عمَّا أنكر عليكم، وقد رحل رسولُه ورجاله عن دياركم، وغابوا عنكم طيلةَ عشر سنين، فإنَّ الإسلام باقٍ على دعوته: الحلالُ حلالٌ، والحرامُ حرام؛ لأنَّه مبادئ وأُسُسٌ ثابتة، لا تقبل الإبطالَ أو التَّبديلَ. أمَّا ما قُدِّم فيه: ﴿بِهِۦ﴾ على قوله: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة، وهم ليسوا عُبَّادَ أصنامٍ ولا كافرين حتّى يُسارع معهم إلى نفي الشِّرك، وإبطال الأصنام، والدَّليل على تأييد هذه الملاحظة، أنَّ الخطاب بُدِئَ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة: 1]، فالخِطابُ إذن مع مؤمنين؛ مع أهل مكَّة يهدف القرآن إلى نفيِ الشِّرك أوَّلًا، ثمَّ تحريم ما حرّم ثانيًا، ومع أهل المدينة يهدف إلى تحريم ما يُحرِّم أوَّلًا، ثمّ الثَّبات على ما هم عليه منَ الإيمان ثانيًا[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(الإلهام) و(الوحي):

الإلهَامُ: إلقاء الشَّيء في الرُّوع، ويختصّ ذلك بما كان من جهة اللّه تعالى، وجهة الملإِ الأعلى، قال تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ [الشَّمس: 8]. وأمَّا الوحي: فهو الإشارة السَّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّد عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح. والوَحيُ من خَواصِّ النُّبُوَّة، والإلهامُ أَعمّ؛ والوَحيُ مَشروطٌ بالتَّبليغ دون الإلهام[2].

الإلـهَـامُ: ما يُلقَى في الرُّوع، والـوحـي تـنـزُّلٌ مِنَ الله، وبلاغٌ عنه

(مَيْت) بالتَّخفيف، و(مَيِّت) بالتَّشديد:

الأوّلُ لمَن ماتَ حقيقةً، والثَّاني لمَن سيَموت، قال الخليل بن أحمد[3]:

المَيْتُ مَنْ حُمل إلى القبر، والمَيِّتُ الموصُوفُ بأنّه سوف يَموتُ

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنّي وسماته البلاغيّة: 2/163.
(2) الرّاغب، المفردات: (لهم)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 173.
(3) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/1260، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/179.

أَيا سَائِلِي تَفسِيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ *** فَدُونَكَ قَد فَسَّرتُ ما عَنهُ تَسأَلُ
فَما كَانَ ذا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ *** وما المَيْتُ إِلَّا مَنْ إِلى القَبرِ يُحمَلُ

وقال بعضهم: الميِّت يُقال لما لَمْ يَمُتْ، والميْتُ لمَا قَد ماتَ، وهذا خطأ، إنّما ميِّت يصلح لمَا قد مات، ولمَا سَيَمُوت[1]، والتّخفيف في مَيْتٍ، ومَيِّتٍ لغتان. وقال أبو حاتم وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يَمُتْ بعدُ فلا يُقال فيه (ميْتٌ) بالتّخفيف، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزّمر: 30]، وقال الشّاعر:

لَيسَ مَنْ مَاتَ فَاستَرَاحَ بِمَيْتٍ *** إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحياءِ[2]

(الرّجس) و(النّجس):

الـرِّجــس الـمُـسـتَـقـذَر طَبعًا، والنَّجس المُستبشَع عَقلًا وشَرعًا

قال الكفويُّ: الرِّجْسُ أكثرُ ما يُقال في المُستَقْذَر طَبْعًا، والنَّجَس أكثر ما يُقال في المُستقذَر عَقْلًا وشَرعًا، وسُمِّيت هذه المعاصي رِجْسًا؛ لوجُوب اجتنابها، كما يجب اجتناب الشَّيء المُستقذَر[3]. و"كان بعض أهل المعرفة بلغات العرب، منَ الكوفيّين، يقول: (الرِّجْس)، (والنِّجْس) لغتان، ويُحكى عنِ العرب أنّها تقول: (ما كان رِجْسًا)، و(لقد رَجُس رَجَاسة) و(نَجُس نَجَاسة)"[4]. و"الرّجز: الرّجس والنّجس يتقاربان معانيها، بتقارب ألفاظها، نحو: السّراط والزّراط، والبُزاق والبساق، وأصل ذلك لما يُعافُ ذوقًا، أو شمًّا، أو عقلًا، أو شرعًا؛ فالكريهُ بالعقل والشّرع، يعبّر عنه بالخبيث والقذر، ونحو ذلك، كما يعبّر عن ضدّه بالطَّيّب والنّظيف"[5].

(الفسق) و(الفسوق):

الفسوقُ: عامٌّ، وهو الخروج عن طاعة الله أو الدِّين، أمَّا الفِسق

(1) أبو إسحاق الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/144.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/216.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 479، والبروسويّ، روح البيان: 2/435.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/111.
(5) الرّاغب الأصفهانيّ، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 1/204.

فهو أمرٌ خاصٌّ بالأطعمة والذّبائح[1]، قال الرّازيّ: "فاعلَمْ أنّ الفسقَ والفسوقَ واحدٌ، وهما مصدران لفَسَقَ يفسُقُ، وقد ذكرنا فيما قبل: أنّ الفسوق هو الخروج عنِ الطّاعة، واختلف المفسّرون؛ فكثير من المحقّقين حملوه على كلّ المعاصي، قالوا: لأنّ اللّفظَ صالحٌ للكلّ، ومتناوِل له؛ والنّهيُ عنِ الشّيء يُوجب الانتهاء عن جميع أنواعه؛ فحملُ اللّفظ على بعض أنواع الفسوق تحكّمٌ من غير دليل، وهذا متأكّد بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]، وبقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ [الحُجرات: 7]"[2].

الفسوق مروقٌ مِنَ الدّين، والفسقُ خاصٌّ بالأطعمة والذّبائح وخطايا المذنبين

(البغي) و(العدوان):

البغي: غالبُ استعماله في حقوق العباد والاستطالة، وعلى هذا فإذا قُرِنَ البغي بالعدوان كان البغيُ ظُلمَهم بمُحرَّم الجنسِ: كالسَّرقة والكذب والبهت والابتداء بالأذى.

يتعلّق البغي بحقوق النّاس، والعدوان بالسّطو عليهم وإيذائهم

والعدوانُ: تعدِّي الحقّ في استيفائه إلى أكبر منه، فيكون البغيُ والعدوانُ في حقِّهم كالإثم والعدوان في حدود اللّه[3]، وقوله تعالى في الطّائفتين المتقاتلتين منَ المؤمنين: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [الحُجرات: 9]؛ "أي: اعتدت وجارت. والبغي: الظّلم، والباغية الّتي تعدل عنِ الحقّ، وما عليه أئمة المسلمين وجماعتهم. ويُقال: بغى الجرح، إذا ترامى إلى فساد. وبغتِ المرأة، إذا فَجرت، والبَغِيّ: الفاجرة، حتّى تفيء إلى أمر اللّه؛ أي: ترجع إلى أمر اللّه"[4].

(1) محمّد هلال، تفسير القرآن الثرّيّ الجامع، المائدة، آية: 3.
(2) محمّد هلال، تفسير القرآن الثرّيّ الجامع، المائدة، آية: 3.
(3) عويضة، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 4/130.
(4) الأزهريُّ، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ: ص 246.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّأكيدُ على أنْ لا تحريم إلّا بالوحي، وربطه بما حرّم الله على اليهود

لـمَّا بيَّن أنَّ التَّحريم إنَّما يَستنِدُ للوحي الإلهيِّ، أخبر أنَّه حرَّم على بعض الأُمم السَّابقة أشياء، كما حرَّم على أهل هذه الملَّة أشياء ممَّا ذكرها في الآية قبل؛ فالتَّحريمُ إنَّما هو راجعٌ إلى اللّٰه تعالى في الأُمم جميعها[1]، "وهذا التّحريم عقابٌ لهم على ظُلمهم، وفَطْمٌ لنفوسهم مِن اندفاعها في الشّهوات، وإنّا لصادقون في جميع أخبارنا الّتي منها هذا الخبر"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾: اليهود: كلمةٌ مُشتَقَّةٌ مِنَ الهَوْدِ بمعنى التَّوبَةِ والرُّجُوعِ، يُقالُ: هَادَ، يَهُودُ، هودًا، وتَهَوَّدَ؛ أي: تابَ ورَجع إلى الحقِّ. وقيل: إنَّها غير عَرَبيَّة نسبةً إلى يَهوذا أحد أسباط بني إسرائيل[3]، وحوّلت الذّال إلى الدّال، حين عُرِّبت، والتّهويد: شبه الدّبيب في المشي، والسّكون في الكلام. والهوادة: البقيّة مِنَ القوم يُرجَى بها صلاحهم، وقد قيل[4]:

فَمَنْ كانَ يَرجُو في تَميم هَوادَةً *** فَلَيسَ لِحَرْمٍ في تَمِيمٍ أواصِرُ

2) ﴿حَرَّمْنَا﴾: التَّحريم: الحَظرُ، وشَيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أي: مَحظورٌ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/121.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 199.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).

وضِدُّهُ الإبَاحَةُ، والإذنُ، والجَوازُ. وأصلُ التَّحريمِ: المَنعُ، يُقالُ: حَرَّمَ الشّيءَ؛ أي: مَنَعَ منه، ولم يُجزهُ[1].

3) ﴿شُحُومَهُمَآ﴾: الأبيَضُ الدُّهنِيُّ المُسَمِّنُ الّذي يُستَخرجُ مِنَ الحَيَوانِ وغيرِهِ. والعَرَبُ تُسَمِّي سَنامَ البَعِيرِ شَحمًا، وبَياضَ البَطنِ شَحمًا، والجَمعُ: شُحومٌ، والقِطعَةُ منه شَحمَةٌ. وشَحُمَ الرَّجل شَحَامَةً؛ أي: كَثُر شَحمُ جَسَدِهِ، فهو شَحِيمٌ وشَحِمٌ. وشَحِمَتِ النَّاقَةُ، وشَحُمَتْ شُحُومًا: إذا سَمِنَت بعد هُزالٍ[2].

4) ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾: الظَّهرُ الجارحةُ، وجمعه ظُهُورٌ، ومعنى قوله: ﴿مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾، أي: ما عَلِقَ بالظَّهر والجنْب، أراد مِن داخل بطونهما، أو ما اختلط باللَّحم منَ البياض، وقيل: الأَلْيَةُ[3]، و"الظّهر: خلاف البطن، وقولهم: لا تجعل حاجتي بظَهرٍ؛ أي: لا تَنسَها. والظّهر: الرِّكاب، وبنو فلان مُظهِرون، إذا كان لهم ظَهرٌ ينقلون عليه، كما يُقال: مُنجِبون، إذا كانوا أصحابَ نجائب"[4].

5) ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾: جمع حَوِيَّة، وهي الأمعاءُ، وأصله من: حَوَيْتُ كذا حَيًّا وحَوَايَةً، وأصلُ (حوي): جَمَعَ، وهي ما احتَوَتْ عليه البطن منَ الأمعاءِ، وما جرى مجراها منَ الدُّوَّارَة والمَبَاعِر، ونحو ذلك[5].

6) ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖ﴾: هو الشَّحمُ الَّذي يَكونُ مُلتفًّا على عظم الحيوان مِنَ السِّمَنِ؛ فهو مَعفُوٌّ عنه؛ لِعُسْرِ تجريدِه عن عَظْمِه[6].

7) ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾: الجَزَاء: الغَنَاء والكِفاية، وهو ما فيه الكفاية منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخُير، وإن شرًّا فشَرّ. وإذا أُطلق في مَعرض العُقُوبَات يُرَاد بِهِ مَا يجب حَقًّا للّٰه تعالى بمُقابلَة فعل العَبد؛ لأنَّه المجَازِي على الإطلاق، ولِهذا سُمِّيت دارُ الآخِرَة دارَ الجزَاء[7].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حرَمَ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (شحم).
(3) الرّاغب، المفردات: (ظهر)، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/248.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: 2/730. (ظهر).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 163، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 189، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حوى).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/142، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/391.
(7) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزا)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 356.

8) ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾: بتجاوُزِهم الحقَّ إلى الباطِل، والبَغيُ: الظُّلمُ والاعتِداءُ، وأصلُه: الفَسادُ، كقولِهم: بَغَى الجُرحُ؛ أي: فَسَدَ[1].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيان ما حرّم الله على اليهود، من ذوات المِخْلَب والنّاب، بما بَغَوا وعانَدوا

وحرَّمنا على اليهود ما لم تتفرَّق أصابعه كالإبل والنّعام، وشُحوم البقر والغنَم، إلَّا ما عَلِق مِنَ الشَّحم بظهُورها أو أمعائها، أو اختلط بعظم الأَلْيَة والجَنْب ونحو ذلك. ذلك التَّحريم المذكور على اليهود عُقوبة مِنَّا لهم بسبب أعمالهم السَّيِّئة، وإنَّا لصادقون فيما أخبرنا به عنهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الجملة الخبريّة على الجملة الإنشائيّة:

عطف الخبر على الإنشاء، باعتباره أمرًا من حيث المعنى

جملة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على جملة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ [الأنعام: 145] من عطفِ خبرٍ على إنشاءٍ؛ لأنّ الجملة الخبريّة المعطوفة حملت معاني الإنشاء، وإنْ جاءَت بصورة الخبر؛ على أنّها ساقتِ الأمر على أنّه حَدَثَ وانقضَى؛ فبَيِّنْ لهم ماحُرِّمَ في الإسلام، واذكرْ لهم ما حرَّمنا على الّذين هادوا قبل الإسلام. والمقصود: أن يُظْهِرَ للمشركين أنَّ ما حرَّموه ليس من تشريع اللّه في الحال، ولا فيما مضى، فهو ضلالٌ بَحْتٌ[3].

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

للإشارة إلى زمن وقوع الفعل وارتباطه بحدث تاريخيّ

ذهب علماء البلاغة والنّحو إلى أنَّ الاسمَ الموصولَ مِنَ الأسماء المبهمة؛ ولذلك يحتاج إلى صلة، فالصّلة هي الّتي تُزِيل الإبهام، ويخرج إلى معانٍ عدّة، منها: الّتي تدلّ على الإنكار، والتّقليل المزوج بالتَّعصب، وهذا هو الغرض مِنَ التَّعبير به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾،

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بغى).
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 147.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141 - 142.

إذ حصل تخصيصُهم دون غيرهم مِن أتباع الرُّسل؛ إنكارًا لهم، وتقليلًا من شأنهم[1].

نكتة تقديم شبه الجملة على مُتَعَلَّقِها:

جيءَ بتقديم شبهِ الجملةِ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾على مُتَعَلَّقِهِ الفعل ﴿حَرَّمۡنَا﴾، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أي: عليهم لا على غيرهم مِنَ الأُمم[2].

التّخصيص ملمحٌ بلاغيٌّ أصيل، يحدّد الدّلالة، ويوضّح المطلوب

معنى ﴿وَمِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: أنَّه معطوفٌ على ﴿كُلَّ ذِى﴾، فتتعلّق ﴿وَمِنَ﴾ بـ﴿حَرَّمۡنَا﴾ الأُولى لا الثَّانية، وإنَّما جيءَ بالجملة الثَّانية مُفسِّرةً لما أُبهم في ﴿وَمِنَ﴾ التَّبعيضيّة مِنَ المحرَّم فقال: ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾، والثَّاني: أن يتعلَّق بـ﴿حَرَّمۡنَا﴾ المتأخّرة، والتَّقدير: وحرَّمنا على الَّذين هادوا مِنَ البقر والغنم شحومهما[3].

إفادة معاني التّبعيض وغيره، تؤكّد اتّساع الدّلالة في معاني الحروف

أو يريد تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ﴾؛ أي: والبقر والغنم حرَّمنا عليهم، ولكنَّه أدخل فيها ﴿وَمِنَ﴾، والعرب تقول: (قد كان مِن حديث) يريدون: (قد كان حديث)، وإنْ شئتَ قلتَ: (ومِنَ الغنم حرَّمنا الشُّحوم)، كما تقول: (مِنَ الدّار أخذ النِّصف والثُّلث)، فأضفتَ على هذا المعنى كما تقول: (منَ الدّار أخذ نصفها)، و(مِن عبد اللّه ضرب وجهه)[4].

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

قدَّم شبه الجملة مِنَ الجارّ والمجرور: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾؛ ليدلّ على الحَصْر؛ أي: حرَّمنا عليهم دون غيرهم، كما أفادتِ الاستعلاء المجازيّ؛ أي: على اليهود.

أهمّيّة الاستعلاء المجازيّ في حصر المعنى في اليهود

(1) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/141 - 142.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/201.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 3/67.

استعمالُ القرآن للألفاظ المرتبطة بالبيئة العربيّة، دليل على واقعيّته

معنى (أل) في لفظي ﴿ٱلۡبَقَرِ﴾ و﴿وَٱلۡغَنَمِ﴾:

التَّعريف هنا لاستغراق الجنس أو للعهد، إذ سبق ذِكْرُ هذه الأنعام في مَواضِع أخرى منَ القرآن الكريم، والتَّعريف - كما هو معلوم - يفيد التّخصيص، ونذكر أنّ القرآن قد استعمل الألفاظ الّتي تعرفُها العرب في بيئتها، استمدادًا من واقع الحياة، وربطًا للمُخاطَبين بما يألفون، فيكون ذلك أدعى لتقبّلهم الدّعوةَ، والإيمان بما جاء به القرآن، وما صدح به الرّسول ﷺ، وما تضمّنته منظومة الأحكام الشّرعيّة العتيدة.

الاستثناء المتّصل ذو أهمّيّة بالغة في توضيح المعنى وتفصيله

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾:

في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ الاستثناء في الآية الكريمة مُتَّصل، وفيها قولان: الأوَّل: وإنَّه تعالى استثنى عن هذا التَّحريم ثلاثة أنواع: أوَّلها: قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾، قال ابنُ عبَّاس: إلَّا ما عَلِق بالظَّهر منَ الشَّحم فإنّي لم أُحرِّمه. والاستثناء الثَّاني: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾، قال الواحديّ: وهي المباعر والمصارين. والاستثناء الثَّالث: قوله: ﴿مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾، قالوا: إنَّه شحم الأَلْيَة، في قول جميع المفسّرين. أمَّا القول الثَّاني فإنَّ قولَه: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ غيرُ معطوفٍ على المُستثنى، بل على المُستثنى منه، والتَّقدير: حُرِّمت عليهم شحومُهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلَّا ما حملت ظهورُهما فإنَّه غيرُ محرَّم[1].

ما حملتِ الظّهور منَ شحم البَقَر والغَنَم، معفوٌّ عنه، رأفةً منَ الله بخلقه

سرُّ التَّعبير بصيغة الجمع بقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾:

جمعَ الظَّهر لأنَّه فردٌ مِن اثنين أُضيف إليهما، كما في قوله: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4][2]، وهذا المعنى استثناءٌ منَ الشّحوم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 170 - 171/13، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/204.

(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/246.

ومخرجٌ لـمَا عَلِقَ منَ الشّحم بظهورهما عن حكم التّحريم، وهذا مَلْمَحٌ مكينٌ منَ البيان القرآنيّ الرّاقي[1].

إفادة ﴿أَوۡ﴾ معنى العطف أو الإباحة في قوله: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾:

تفصيل المعنى بالحرف بعد إجماله، دليل على بلاغة السّياق وروعته

كلمة (أَو) إذا دخلت على النَّفي صارَت في معنى الواو، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤﴾ [الإنسان: 24]، يُراد بها: نَفيُ ما يَدخُلُ عليه بطريق الانفِرَاد؛ كما تقول: (هؤلاءِ أهلٌ أن يُعْصَوا فاعْصِ هذا أو هذا)؛ فالمعنى: حَرَّمَ عليهم هذا وهذا. أو أنَّ (أو) في هذا المثال للإباحَةِ، والأحسَن في الآية إذا قُلْنَا: إنَّ ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾ معطوفٌ على ﴿شُحُومَهُمَآ﴾، وأنْ تكون ﴿أَوۡ﴾ فيه للتَّفصيلِ؛ فَصَّلَ بها ما حَرَّم عليهم منَ البقر والغنم[2].

تقديم شبه الجملة على العامل، في: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ﴾:

تقديم المجرور بمنزلة الافتتاح بـ(أمّا)، وهو لبيان الحَصْرِ

تقديم المجرور على عامله في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾؛ للاهتمام ببيان ذلك؛ لأنَّه ممَّا يلتفت الذّهن إليه عند سماع تحريم كلّ ذي ظُفر، فيترقّبُ الحكمَ بالنّسبة إليهما؛ فتقديمُ المجرور بمنزلة الافتتاح بـ(أمَّا)، ولبيان الحَصرِ، فالمعنى: ومِنَ البَقَر والغَنَم - دون غَيرِهما - حَرَّمْنا عليهم ما ذُكِرَ[3].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾:

ما أحلّ الله للبشر، إنّما كان لحكمةٍ أكيدة، ومصلحة ظاهرة

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَوَايَآ﴾، جاءَت للدّلالة على استغراق الجنس، وهذا التّعريف أفاد تخصيصًا آخَر ممّا أحلّ اللّه تعالى من طعام لبني إسرائيل، يوضّحه العطف على المباح لا على المحرَّم؛ أي: أو ما حملتِ الحوايا[4]، "والحوايا هنا هي الأمعاء الغليظة، وطولها كذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/195.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/679، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/491، والآلوسّي، روح المعاني: 4/290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/141 - 142، ومحمّد رضا، تفسير المنار: 8/152.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/141.

متر، ومن حكمة تكوينها الرّبّانيّة، نجدها تلتفّ على بعضها، ولذلك اسمها (الحوايا)"[1].

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ﴾:

بيانُ الشرعِ أدقّ الأحكام، دليلٌ على استيعابه لأدقّ مناحي الأشياء

الاختلاط لا يكون إلّا بين شيئين، ومعنى الأشياء قوله: ﴿مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ﴾؛ أي: التفَّ الشَّحم على العظم، والتصق به؛ وعليه فالباءُ أفادت معنى الإلصاق[2].

نكتة تنكير (عظم):

في تعميم الحكم على كلّ عظم، تخفيفٌ ومصلحة

في قوله تعالى ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٍۚ﴾، جاءَت لفظةُ (عظم) في هذه الآية الكريمة نكرَة، والغرضُ من هذا التّنكير إفادةُ النّوعية والتّكثير والتّعميم، وهذه الإفادة إفادة أصليّة للنَّكرة، فيكون المعنى: أيُّ عظمٍ اختلطَ بشحم، فهو حلالٌ عليهم.

الموقع البيانيّ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾:

استئناف بيانيّ لكونها جملةً تعليليّة

تذييلٌ يُبيِّنُ عِلَّة تحريم ما حرّم عليهم، ويقتضي أنّ هذا التّحريم، إنّما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم، واستعصائهم على الأنبياء[3].

سرّ التّعبير باسم الإشارة للبعيد مع قربه:

قــوّةُ اللّـفظ مُـشعِرةٌ بقوّة المعنى، في سياق الآية

تُلحَق باسم الإشارة (ذلك) اللّام؛ لتعطيها إيحاءً أكثر بالبعد؛ لأنَّ مِن دلالات هذا الحرف الدّلالة على هذا المعنى، كذا ذكر ابن هشام. وقال ابن يعيش: "فإن زاد بعدُ المشار إليه، أتوا باللَّام مع الكاف، فقالوا: ذلك، واستُفيد باجتماعهما زيادة في التَّباعد؛ لأنَّ قوَّةَ اللَّفظ مُشعِرةٌ بقوَّة المعنى"[4].

---

(1) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/3976.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/142، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 4/547.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/142.

(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/365.

وقد يوحي هذا البعد الّذي تدلّ عليه اللّام والكاف في هذا الاسم بتعظيم المشار إليه، وهو إحدى دلالات ذلك المعنى، ومِن ذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم﴾، والمقصود به: التَّحريم المأخوذ من قوله: ﴿حَرَّمۡنَا﴾[1].

معنى الباء في عبارة ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾:

حرف الباء في: ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾؛ للإبدال، أو السَّببيّة؛ بسبب بغيهم؛ أي: ظلمهم، وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، واتِّخاذهم العجل، وأكلهم الرِّبا؛ وقد نُهُوا عنه، وأكلهم أموال النَّاس بالباطل، والاصطياد يوم السَّبت[2].

بغيُ العباد هلاكٌ في الدّنيا، وعذابٌ في المعاد

غرضُ إضافة البغي إليهم، في قوله ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾:

أفادَت الإضافة في لفظ ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ الدّلالة على التَّخصيص والرَّبط، كما دلَّت على أنَّ اللّٰه تعالى مجزٍ الظَّالمين البُغاة بسوء أعمالهم، يُضاف إلى ذلك أنَّها وسمَتِ اليهود بالبغي، فهي من صفاتهم الثَّابتة.

إضافة المجازاة إليهم بما بغوا، غايته النّعي عليهم وتقريعهم

الموقعُ النَّحويُّ للفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وغرضُ تقديمه:

﴿ذَٰلِكَ﴾ في مَوضِع رَفْع على إضمار مبتدأ، تقديرُه: الأمرُ ذلكَ، ويجوز أن يكون نُصِبَ بـ﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾؛ لأنَّه يتعدَّى إلى مفعولين، والتَّقدير: جَزَيناهم ذلكَ. وقال الزَّمخشريّ: ذلك الجزاء جزيناهم، وهو تحريم الطَّيِّبات[3].

مَنِ انتهاك المُحرّمات عُوقِب بالمنع منَ الطّيّبات

معنى الواو ودلالتها، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

الواو استئنافيّة أو حاليّة، يقولُ: وإنّا لصَادقون، في خَبرِنا هذا عن هؤلاءِ اليهودِ، عمَّا حَرَّمنا عليهم منَ الشُّحوم، ولحوم الأنعام، والطَّيرِ الّتي ذكَرنا أنَّا حَرَّمنا عليهم، وفي غيرِ ذلك من أخبارِنا[4].

كلُّ ما أَخبر به الله، فهو صِدقٌ لا ريب فيه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143أ - 144.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع، تفسير آية الأنعام: 146.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/680.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/647.

بلاغة تتابع المؤكّدات للمبالغة، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

لا أصدقَ منَ الله قيلًا، ولا أحسنَ منه حديثًا

اشتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ على مؤكّدات ثلاثة؛ أوَّلها: الجملة الاسميَّة، وثانيها: (إنَّ) المؤكّدة، وثالثها: اللّام المزحلَقة المقترنة بالخبر، فالجملة تأكيدٌ على أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي حرَّم عليهم ذلك، وردٌّ على اليهود في ادِّعائهم أنَّهم هم الَّذين حرَّموه على أنفسهم اقتداءً بالنَّبيِّ يعقوب عليه السلام، على حسب زعمهم[1]، ويبقى أنّ كلامَ اللّه صدقٌ لا يشوبه ريبٌ، وحقٌّ لا تُخالطه ضلالة.

علّة التّعبير بهذا الخبر: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

للتّعريض باليهود والنّعي عليهم؛ لكذبهم

لمّا كان هذا الخبر عن شريعة اليهود منَ الأنباء الّتي لم يكنِ النَّبيّ ﷺ ولا قومه، يعلمون منها شيئًا لأمِّيَّتهم، وكان مَظِنَّةَ تكذيبِ المشركين لعدم إيمانهم بالوحي، وجزمهم بأنَّ النَّبيّ ﷺ ليس بأعلم منهم بشرع اليهود، ومَظِنَّة تكذيب اليهود أنّ تحريمَ اللّه تعالى ذلك عليهم عقوبةٌ لهم ببغيهم وظلمهم المبين، في آيات أخرى، قال تعالى بعده: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فأكّد حقيقةَ الخبر وصِدْقَ المُخبِر بـ(إنّ) والجملة الاسميّة المعرَّفة الطَّرفين، ولام القسم؛ أي: صادقون في هذه الأخبار عنِ التَّحريم وعلَّته؛ لأنَّ أخبارَنا صادرةٌ عنِ العِلم المحيط بكلِّ شيءٍ، والكذبُ محالٌ علينا؛ لاستحالة كلّ نقص على الخالق[2].

المتشابه بين آيتي الأنعام والنّحل:

كلتا الآيتين فيما حرّم على اليهود، وتتمّة كلّ منهما بما يناسبُ سياقَها

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾، وقال ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ [النّحل: 118].

لِمَ خُصَّتْ كلّ آية بما فيها منَ المحرَّم؟

آية الأنعام يسبقها بيان اللّه تعالى ما أحلَّه منَ الأنعام خاصَّة،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/144، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2717.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/153.

وما حرَّمه من غيرها عامَّة، ردًّا على ما حرَّمه المشركون مِنَ الأنعام حين قالوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام: 138] الآيات؛ فناسَبَه بيانُ ما حَرَّمه على بني إسرائيل خاصَّة الَّذين هادوا منَ الأنعام، ردًّا على مَن زعموا أنَّ اللّه تعالى لم يحرِّمها عليهم، إنَّما حرَّمها إسرائيلُ ﷺ على نفسه، فاقتدوا به بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾.

أمّا آية النَّحْلِ فيسبقها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116]، فلمَّا كان السِّياق أكثرَ تعلُّقًا بقوم الرَّسول ﷺ، وكانت سورة النَّحل بعد سورة الأنعام، ترتيبَ نزول وترتيبَ مصحف، وقد فَصَّل اللّه فيها ما حرَّمه على الَّذين هادوا، وكان ذلك مشهورًا؛ ناسَبَهُ الإشارة بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾.

المتشابه بين آيتي الأنعام وسبأ:

وقوله ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 146] مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ [سبأ: 17]، لِمَ خُصَّتْ كلّ آية بما فيها مِنَ السَّبب؟

دلالة مضامين سياق الآيتين؛ لتقرير الجزاء على الكفر أو على البغي

والجواب: أنّ آية الأنعام بُدِئت بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾؛ فلمّا كان ذلك ردًّا على مَن زعموا أنّ اللّه تعالى لم يُحرِّم عليهم هذه الأشياء، إنَّما حرَّمها إسرائيل ﷺ على نفسه، فتبعوه، وكان هؤلاء قد لجؤوا إلى الكذب باغين؛ ناسَبَه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾.

أمَّا آية سبأ فيسبقها قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ﴾ [سبأ: 15 - 16]؛ فلمّا كان الإعراض عنِ الشّكر كُفرًا؛ ناسَبَه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الخَلْط) و(اللّبس) و(المزج):

اللَّبس يُستعمل في الأعراض، والخَلْط في الأجسام، والمزْجُ في السّوائل

اللَّبس: يُستعمل في الأعراض مثل: الحقّ والباطل وما يجري مجراهما، وتقول: في الكلام لَبْسٌ. والخَلْط: يُستعمل في العرض والجسم. وأمَّا المزج فخاصٌّ بالسَّوائل[1].

(الأَجر) و(الجَزاء) و(الثَّواب):

الأجر: جزاء على عمل، والجَزاء: فيما كان عَن عقد وغيره، والثّواب: الجزاء

الأَجرُ: الجَزاء على العَمَل؛ كالإجارَة، والذِّكر الحَسَن، وأجارَهُ اللّه منَ العَذاب: أنقذه، والأَجرُ والأُجْرَة يُقَال فيما كانَ عَقْدًا، وما يجرِي مَجرَى العَقد، ولا يُقال إلَّا في النَّفع.

والجَزاء: يُقال فيما كان عَن عَقْدٍ، وعَن غير عَقْدٍ، ويُقال في النَّافع والضَّارّ.

وأمَّا الثّواب: فقد يكون بالخير، كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، وهذا هو الغالب، لكن قد يكون بالشَّرّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ [آل عمران: 153]؛ وذلك لأنَّ الثَّواب مشتقٌّ مِنَ الرُّجُوع، والجزاء رجوعٌ على المرء بما فعَل؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، وأمَّا الأجر فهو تعويضٌ يُعطَى مقابل جُهدٍ أو بذلٍ؛ ولذلك لا يكون شرًّا قطُّ[2].

(البغي)، و(الطُّغيان)، و(الظُّلم)، و(العُتُوّ)، و(العُدوان):

البغيُ يتضمَّنُ أنواعَ الظُّلم والتَّعدي، والطُّغيان: تجاوز الحدِّ والغلوّ في ذلك

البغيُ: الفَسادُ والشِّدَّة، ثمَّ أُطلق البغيُ على التَّعدّي، ومجاوزة الحدِّ بغير حقٍّ، وقصد الفساد. والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 462، والرّاغب، المفردات: (مزج).

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 48، والزّبيديّ، تاج العروس: (أجر)، وداود، محمد محمد، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 47.

كُلِّ شيءٍ. والظُّلم: وَضْعُ الشَّيء في غير موضعه. والعُتُوّ: التَّكبُّر والتَّجبُّر والعِصيان. والعُدوان: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وهو الظُّلم الصّراح[1].

فالبغيُ يتضمَّن كلّ أنواع الظُّلم والتَّعدِّي والكِبر معًا. والطُّغيان: تجاوز الحدِّ والغُلوّ في ذلك، ويشمل الإفراطَ في المعصية والكِبْرَ والكُفر، وهو بذلك أشدُّ منَ البغي. والظُّلم: هو الميل عنِ القَصد، والتَّعديّ سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوح الظُّلم ما بين أكبر الكبائر؛ وهو الشِّرك باللّٰه تعالى، وبين ارتكاب صغائر الذُّنوب. والعُتُوّ: المبالغة في الكِبْرِ أو الفسادِ أو الكُفر[2]، ولكنَّه لا يبلغ مبلغ البغي والطُّغيان. وقد فُسِّر العُدوان بالتَّعديّ في حدود اللّٰه، وبالظُّلم الصُّراح.

وخلاصة ما سَبق أنَّ الألفاظ المذكورة مُتقاربة دلاليًّا؛ حيث تشترك جميعها في معنًى عامٍّ هو: مجاوزة الحدِّ، ولكنَّها على درجات: فأشدُّها الطُّغيان؛ لاشتماله على مجاوزة الحدِّ والمبالغة في الكِبْر والمعصية والشَّرّ والكُفر، ويليه البغي؛ لاشتماله على التَّعديّ والفساد والظُّلم، ثمّ العُتُوّ؛ لأنَّه مُبالغةٌ في الكِبر أو الفساد أو الكُفر، ويتبعُ ذلك العدوان؛ لأنَّه تعدٍّ لحدود اللّٰه، وظلمٌ صُراح. ويأتي أخيرًا في الشِّدّة الظُّلم، وتتفاوت درجاته من صغائر الذُّنوب إلى كبائرها إلى الشِّرك باللّٰه تعالى[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغى)، و(طغى)، و(ظلم)، و(عتو)، و(عدو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/6، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/243.
(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 143 - 148.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دعوة النَّبيِّ وحثُّه على الاستمرارِ بالدَّعوةِ

تفريعٌ على الكلامِ السَّابقِ الَّذي أبطلَ تحريمَ ما حرَّموه، ابتداءً من قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الأنعام: 143] الآيات، كما أنَّ الآيةَ الكريمةَ قد جاءت لتزجُرَهُم عنِ البغي والكُفران؛ حتَّى يعودوا إلى طريقِ الحقِّ، إن كانوا ممَّن ينتفعُ بالذِّكرى، ويَعتبرُ بالموعظة[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُوكَ﴾: الكَذِبُ: الإِخْبَارُ بِخِلافِ الوَاقِعِ؛ وَضِدُّ الكَذِبِ: الصِّدْقُ، وَيُطلَقُ الكَذِبُ صفةً للخَبَرِ الذي بخلَافِ الوَاقِعِ، وَضِدُّهُ الحَقِيقَةُ، وَمِنْ مَعَاني الكَذِبِ أَيْضًا: الجُحُودُ والافْتِرَاءُ والزَّيْفُ والخِدَاعُ والخَطَأُ[2]، والمعنى هنا: لم يُصدِّقوا بك، واتَّهموك.

2) ﴿بَأۡسُهُۥ﴾: البَأْسُ: هو الشِّدَّة والعَذاب، والمراد هنا النِّكاية، أي: سطوَتُه وعذابُه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النِّساء: 84]، ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عذابُ الله لا يُرَدُّ عن مرتكبي المعاصي والآثام

خاطَبَ اللَّهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ قائلًا له: إن كَذَّبُوك؛ فَقُل لهم: إنَّ رَبَّهُم ذو رحمةٍ واسعةٍ لِمَن أطاعَه، فَلْيُسارِعوا إلى رَحْمَتِه بفِعْلِ أَسْبابِها، كما أنَّ مِن رَحْمَتِه بهم إمهالَه لهم، وعدمَ إعجالِهم بالعِقابِ، وأمرَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/200.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (كذب).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بأس، بؤس)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 69، والكفوي، الكليات: 249.

أن يقولَ لهم أيضًا: إنَّ سَطْوَتَه تعالى ونَكالَه وعَذابَه لا يَرُدُّه شيءٌ عَنِ القَومِ المجْرمينَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

تـفـريـعٌ علـى مـا سبـقَ لـلـردِّ عليهم، وتسرية عنِ النَّبيِّ ﷺ

الفاء تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ الَّذِي أَبْطَلَ تَحْرِيمَ مَا حَرَّمُوهُ، ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ [الأنعام: 143] الْآيَات، أَيْ: فَإِنْ لَمْ يَرْعَوُوا بَعْدَ هَذَا البيانِ، وَكَذَّبُوكَ فِي نَفْيِ تَحْرِيمِ اللّهِ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ حَرَّمَهُ، فَذَكِّرْهُمْ بِبَأْسِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَمَّا زَعَمُوهُ[2].

أو هي الفاءُ الفصيحة؛ لأنَّها أفصحَتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ تقديره: إذا أخبرتَهم تحريمَ ما ذُكِر، وأردتَ بيانَ حكم ما إذا كذَّبوك.. فأقولُ لكَ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾[3]؛ ففيها إشارةٌ إلى تسريةِ قلبِ النَّبيِّ ﷺ، وتسليتِه، وتثبيته، وتقويته، وتلقينِه الحُجَّةَ؛ حتى يُبلِّغَ رسالاتِ ربِّه دونَ خشيةٍ من أحدٍ إلَّا مِنَ اللّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

الإشـــارةُ إلى استبعادِ حصولِ هـذا التَّـكـذيـبِ لـخـروجـهِ عـنِ المعقولِ

(إن): شرطيَّةٌ تفيدُ الاحتمالَ والنُّدرة وقِلَّة الحدُوث؛ ولـمَّا كان هذا التَّكذيبُ خارجًا عن دائرة المنطق والمعقول؛ والمكذَّبُ رسول؛ استعَمَل الخطابُ (إنْ) دون غيرها؛ لأنَّها تردُ في سياق الشَّكِّ دون اليقين، فكأنَّ البيانَ يشيرُ إلى أنَّ هذا التَّكذيبَ حقُّه ألَّا يكون، وهو مشكوكٌ في حصولِه وخارجٌ عنِ المعقول؛ فإنْ حصَلَ، وكان فلْيَكُنْ منك الجوابُ على النَّحوِ المذكور: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾، وفي هذا الخطابِ اكتفاءٌ بالتَّلميحِ عنِ التَّصريحِ، وهو أسلوبٌ دعويٌّ بديعٌ في التَّخاطبِ مع المدعوِّ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/648، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/357، والشنقيطي، العذب النمير: 2/403 - 407.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144، 145.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/146.

إيثارُ المضي في ﴿كَذَّبُوكَ﴾، والعدولُ عنِ المضارعِ:

ثبوتُ التَّكذيبِ منهم وحصولُهُ في الماضي، وتوقُّعُهُ منهم مستقبلًا

أُوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ التَّكذيبَ في الآيةِ لأمرٍ ثابتٍ محدَّدٍ؛ وهو مسألة التَّحريم، وعُدِلَ عنِ الفعل المضارع: (يكذِّبوك)؛ لأنَّهُ يدلُّ على الاستمرار، والتَّجدُّد، أو تعدُّد حالات التَّكذيب؛ وهو خلافُ ما عليه سياق الآية.

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ فيه تنبيهٌ لهم بأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو إمهالٌ داخِلٌ في رَحمةِ اللّهِ رحمةً مُؤَقَّتةً؛ لعلَّهم يُسلِمونَ، وعليه يكون معنى فِعْلِ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ الاستمرارَ، أي: إنِ اسْتَمَرُّوا على التَّكذيبِ بعد هذه الحُجَجِ[1].

السِّرُّ في وضعِ الضَّميرِ موضعَ الظَّاهرِ في ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

التَّنبيهُ إلى الفعلِ، وهو التَّكذيبُ؛ لا إلى الفاعلِ

أتى قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ هكذا، واكتفى دونَ تفصيل ذِكرٍ لهُم، أو ذِكرٍ لمتعلِّق الكذبِ منهم، ودونَ الوقوفِ كثيرًا عند التَّكذيب؛ وهو درسٌ بيانيٌّ دعويٌّ في عدم الوقوف عند ذِكر الخصوم وشبهاتِهم، ومقولاتهم، وأكاذيبهم، والتَّفصيل فيها بِقَدْرِ ما تكونُ الإشارة بإيجازٍ واختصارٍ.

نُكْتَةُ مجيءِ الجوابِ ﴿فَقُل﴾، وفائدةُ تصديرِهِ بفعلِ القولِ:

تلقينُ النَّبيِّ الرَّدَّ عليهم مِنَ الله، وتعليمٌ للدُّعاةِ كيفيَّةَ الرَّدِّ الجميلِ

﴿فَقُل﴾ تلقينٌ لرسول اللّه ﷺ بالرَّدِّ والقول، وهنا مَكْمَنُ الإعجاز؛ لأنَّ مَن يزعمون أنَّ هذا القرآنَ مِن كلامهِ البشريِّ، كيف يتَّفقُ مِنه الخطابُ والتَّلقِّي في وقتٍ معًا؟!، فدلَّ هذا على أنَّه مُتلَقٍّ لهذا التَّوجيهِ والبيان من جهةٍ عُلْيا؛ وفي هذا بيانٌ أن ينطلقَ الدُّعاة في تعاملهم مع خصومهِم مِن تعاليمِ الوحي لا مِن أخلاق البشرِ في ردَّة الفعل والانفعال.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/145.

تلوين أسلوبِ الكلام مِنَ التَّكلُّم إلى الخطاب إلى الغيبة:

شمولُ خطابِ اليهودِ المعاصرينَ المذكورينَ في الآيةِ السَّابقةِ والمشركينَ

ورد في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿حَرَّمۡنَا﴾ و﴿جَزَيۡنَٰهُم﴾ و﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: 146] كلُّها بصيغة التَّكلُّم، وفي هذه الآية: ﴿فَقُل﴾ و﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾، والانتقالُ مِنَ التَّكلُّم بصيغة العَظَمَة إلى الخطابِ؛ ليشملَ الخطابُ اليهودَ المعاصرين المذكورينَ في الآيةِ السَّابقةِ، والمشركين؛ فالحديثُ عنِ اليهود إخبارٌ عن جرائمهم وافتراءاتِهم في التَّحريم والتَّحليلِ يناسبُهُ التَّكلُّم، والخطابُ للتَّهديدِ والوعيد لهؤلاء المكذِّبين، سواءٌ مِنَ اليهودِ أم مِنَ المشركين.

فالمعنى على الأوَّلِ - وهو خطابُ اليهود - إن كذَّبَتْكَ اليهودُ في الحُكمِ المذكور، وأصرُّوا على ما كانوا عليه مِنِ ادِّعاء قِدَم التَّحْريم، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾، لا يؤاخذكم على كلِّ ما تأتونَهُ مِنَ المعاصي، ويمهلُكم على بعضِها، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾ بالكلِّيَّة ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، فلا تُنكروا ما وقعَ منهُ تعالى مِن تحريم بعضِ الطَّيبات عليكم عقوبةً وتشديدًا.

وعلى الثَّاني - وهو خطابُ المشركين - فإنْ كذَّبكَ المشركون بما فُصِّل مِن أحكامِ التَّحليل والتَّحريم، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾، لا يُعاجلكم بالعقوبةِ على تكذيبكم، فلا تغترُّوا بذلكَ، فإنَّهُ إمهالٌ لا إهمال(1).

إيثارُ ذكرِ الرَّبِّ دونَ اسمِ الجلالةِ:

إثارةُ فِطرتِهم الإيمانيَّةِ تُجاه خالقِهم ومُربِّيهم لعلَّهم يرجعون

في ذكرِ الرُّبوبيَّةِ هنا إشعارٌ إلى معنًى دقيقٍ مِن معانيها، يتناسبُ مع سياقِ الدَّعوة هنا، وهو معنى التَّربيةِ والعنايةِ والاهتمام؛ فهو خالقُهم ومُربِّيهم، وهذا المعنى ينبغي للدَّاعي استحضارُهُ مَعَ المدعوِّ، وإظهارُ فضلِ ربوبيَّة اللّهِ عليه، وهو أمرٌ محسوسٌ ملموس، وذلك يقود عند التَّأملِ والفهمِ إلى الإقرار بالألوهيَّة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/195.

وإضافتُه إلى المخاطبين ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ دون إضافتِه إلى ضميرِ المتكلِّم (ربِّي أو ربُّنا) أو الغائب (ربّهم)؛ تهييجٌ لِفطرتهِم الإيمانيَّةِ، لعلَّهم يرجعونَ عن تكذيبِهم، وتوبيخٌ لهم على جُحودهِم ونُكرانهم الرَّبَّ ﷻ، مع عظيمِ فضلهِ وإنعامهِ عليهِم وربوبيَّته لهم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6]، أي: إنَّهُ ﴿رَّبُّكُمۡ﴾ على ما أنتم عليه مِنَ الكفرِ والتَّكذيبِ والجحودِ والنُّكرانِ، فهل يَليقُ ذلك منكم؟

فائدةُ الإخبارِ عنِ الرَّبِّ بقوله ﴿ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾:

التَّرغيبُ قبلَ التَّرهيبِ، والإعلامُ بأنَّ رحمتَهُ سبحانَهُ سبقَتْ غضبَهُ

في قوله تعالى: ﴿ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ مظهرٌ مِن مظاهر الرُّبوبيَّة وهي الرَّحمة، وكان المتوقَّع في هذا السِّياق أن يكون: (فإنْ كذَّبوكَ فقل ربُّكم ذو عقوبةٍ شديدة)، لكنَّه ذَكَر الرَّحمةَ هنا مِن قَبيل التَّرغيبِ قبلَ التَّرهيب، وأنَّ ذلك مِن حِلْمِه عليهم؛ إذْ لم يُعاجِلْهُم بالعُقوبة على التَّكذيب. وفيه تعليمٌ للمؤمنين أن يتحَلَّوا بالحِلْم والرَّحمة، والتَّرغيبِ قبلَ التَّرهيبِ.

إذًا، فالخياراتُ الأسلوبيَّةُ للنَّظم القرآنيِّ المذكور: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ يتَّسع لها النَّظمُ على أشكالٍ عدَّةٍ، منها: (فإنْ كذَّبوكَ؛ فربُّهم ذو رحمةٍ واسعةٍ)، أو: (فربُّكَ ذو رحمة واسعةٍ)، أو: (فقُلْ ربِّي ذو رحمةٍ واسعةٍ)، أو: (فقُلْ ربُّكم ذو عقوبةٍ شديدةٍ)، لكنَّ مجيءَ النَّظم القرآنيِّ بهذا التَّعبيرِ دونَ غيرِه؛ لما فيهِ مِن تسليةٍ وتسريةٍ وتوجيهٍ لسيِّد الدُّعاة رسولِ اللّهِ محمَّد ﷺ، وربطِ الجزاءِ بالشَّرط بخصوصيَّةِ الخِطاب، وتعميم اللَّفظِ ليشملَ كُلَّ مخاطبٍ بهذا الكتابِ العزيزِ، ولما في ألفاظ جُملتَي الشَّرط والجزاءِ مِن نُكَاتٍ بلاغيَّةٍ ودقائقَ لغويَّةٍ، سبقَ الحديثُ عن بعضِها، ويأتي الكلامُ عن بعضِها الآخر إن شاء اللّهُ تعالى.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ذُو﴾ دونَ (صاحب):

أتى بـ﴿ذُو﴾ هنا دون (صاحب)؛ لأنَّ (ذو) التي بمعنى (صاحب) تفيدُ ملازمةَ الصِّفةِ دائمًا في كلِّ الأحوال، وتضاف إلى اسمٍ صريح، فيكونان مقصودَين بالذِّكْر لبيان الصِّفات والأحوالِ؛ فالمضافُ والمضافُ إليه كالكلمةِ الواحدةِ، ولا يحلُّ ثمَّةَ الضَّميرُ مَحَلَّ الاسم الظَّاهرِ، فيقالُ: هو ذو علمٍ، وذو خلُقٍ.

(ذو) تناسبُ ملازمةَ الرَّحمةِ للذَّات العليَّة، وعدمَ مفارقتِها البتَّة

وأمَّا (صاحب): فتفيدُ ملازمةَ المضافِ إليه في بعضِ الأحوال، لا في كلِّها، وقد وردَ مُفردًا نكرةً مضافًا إلى الضَّميرِ كثيرًا[1]، ولم يُضَفِ المفردُ إلى الاسمِ الظَّاهرِ إلَّا في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48][2]. أي: في هذه الحالةِ خاصَّةً، فأُوثِرَ التَّعبيرُ في ختامِ سورةِ القلمِ بـ(صاحب) لمناسبةِ النَّهي عن حالةٍ خاصَّة لنبيِّ اللّه يونس عليه السلام، وهو استعجالُ النَّصرِ، ولذا جاء قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: 87]؛ لأنَّه في مقام التَّذكُّرِ والتَّدبُّرِ والعِبْرة، وقد مضت قِصَّتهُ وانتهت، وصار يُعْرَفُ بأنَّه (ذو النُّون)؛ لاختصاصه بهذه القِصَّةِ العجيبةِ.

ولذا ناسب ﴿ذُو﴾ في حقِّ اللّه جل جلاله، ولم يناسبه (صاحب)، فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، كقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، وقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن: 27]؛ لأنَّها صفةٌ أزليَّةٌ قديمةٌ.

نُكْتَةُ وَصْفِ رحمةِ اللهِ تعالى بالاتِّساعِ:

على قَدْرِ سعةِ رحمتِهِ سبحانه يكونُ جُرْمُ مَن لم تَسعْهُ رحمتُهُ

ذُكِرَ في الجوابِ سَعَةُ رَحْمَتِه تعالى، مع أنَّ المَحلَّ مَحَلُّ عقوبةٍ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أن يكونَ ذلك نفيًا للاغترارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِه في

(1) ورد (صاحب) مفردًا نكرةً ومعرفةً ثماني عشرة مرَّة.
(2) هذا بخصوص (صاحب) المفرد، وأمَّا (أصحاب) بالجمع فقد ورد في القرآن ثمانيًا وسبعين مرة، وأضيف إلى الاسم الظاهر كثيرًا.

الاجتراءِ على مَعْصِيَتِه؛ وذلك أبلَغُ في التَّهديدِ، فمعناهُ: لا تغْتَرُّوا بسَعَةِ رَحْمَتِه، فإنَّه مع ذلك لا يُرَدُّ عذابُه عنكم[1].

ورحمةُ اللّه من صفاتِه ﷻ الموصوفِ بها في الصِّفات والأفعالِ، بل إنَّ إنزالَ العقوبة والعذابِ على المخالفين ضَرْبٌ مِن ضُروب الرَّحمةِ ليَرتدعَ المعتبرُ، فيستقيمَ على الجادَّة في الأحوال.

ووصفَ رحمتَهُ بالاتِّساع بموجبِ ربوبيَّتِهِ لجميعِ الخلق، وفي هذا تشويقٌ للمدعوِّ أن يُسارعَ إلى تلَمُّس هذه الرَّحمات، فإذا كانت رحمتُهُ قد اتَّسعت للمُكذِّبين، فلم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، فهي أقربُ ما تكون مِنَ المصدِّقين الطَّالبين رضاهُ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]، وأسلوبُ التَّشويقِ والتَّرغيب مِن أهمِّ أساليب الدَّعوةِ إلى اللّه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملتين الاسميَّةِ والفعليَّة في الآيةِ:

ثبوتُ رحمةِ اللهِ، وتجدُّدُ بأسِهِ واستمرارُهُ للمجرمينَ

أَتَتْ جُملةُ: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ اسميَّةً تنبيهًا على المُبالغةِ في سَعَةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّة أدَلُّ على الثُّبوتِ والتَّوكيدِ مِنَ الفِعْليةِ[2]، وجملة: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فعليَّةٌ، ولم يقل: (وبأسُهُ غيرُ مردودٍ)، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: 76]؛ للدّلالَةِ على استمرارِ النَّفي وتجدُّدِه؛ فهو سُنَّةٌ إلهيَّةٌ واقعةٌ لا محالةَ، وإن طالَ الزَّمانُ أو قَصُر، فبأسُ اللّهِ وانتقامُهُ بكلِّ مجرمٍ واقعٌ حتمًا.

سرُّ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾ على ما قبلَها:

عدمُ اغترارِ أحدٍ بسعةِ رحمةِ اللهِ

لو توقَّف البيانُ عند ذِكْرِ الرَّحمةِ واتِّساعها؛ لتمادتِ الأنفسُ المريضةُ في الإعراض والتَّكذيب، فكان لا بدَّ مِنَ التَّثنيةِ بالتَّرهيب، ولذا عطفَ بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

(1) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 179.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/681، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/496.

مناسبةُ التَّعبير عنِ اتِّساع رحمة الله بالجملة الاسميَّة، وعنِ التَّرهيب بالجملة الفعليَّة:

ثبوتُ رحمةِ اللهِ، وتجدُّدُ وعيدِهِ

اللَّافتُ في دِقَّةِ النَّظمِ والبيانِ في الآيةِ الكريمةِ، أنَّه عبَّر عنِ اتِّساعِ رحمتِه بالجملةِ الاسميَّةِ في الكلام، ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾، وثنَّى بالتَّرهيب بجملةِ الأفعالِ، فقالَ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ ذلك أنَّ رحمتَهُ سبقَتْ غضبَهُ، وهي الوصفُ الثَّابتُ في الأفعالِ؛ لما استقرَّ عند علماءِ البيانِ مِن دلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الثُّبوت والاستمرار، لذا قدَّمها في الذِّكر، وأكَّدها بالصِّيغة في البيانِ، وهذا يتناسبُ مع أصلِ الفطرةِ البشريَّةِ في الدَّعوة برحمةِ الخطاب والإشفاق؛ ومَنِ انحرفتْ فطرتُهُ ولم يُجْدِ معهُ ذاكَ الخطابُ، كان لا بدَّ معه مِن انتقالِ الخطاب إلى التَّرهيب بالعذابِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُرَدُّ﴾:

نفيُ ردِّ البأسِ نفيٌ لتخفيفِهِ معَ إظهارِ الكراهةِ لهؤلاءِ

عبَّر بالرَّدِّ بدلًا مِن (يُدْفَع) مثلًا؛ لأنَّ الدَّفع قد يكون إلى جهة القُدَّام والخَلْف جميعًا، والرَّدُّ لا يكون إلَّا إلى جهةِ الخَلْف، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: 76]، كما أنَّ الرَّدَّ فيه نوعٌ مِنَ الكراهة؛ ولمَّا كان الأمر كذلك ناسبه التَّعبير بالرَّدِّ دونَ الدَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

سِرُّ بناءِ الفعلِ ﴿يُرَدُّ﴾ للمفعولِ:

ليس لمخلوق طاقةٌ في دَفْعِ بأسِ الله تعالى

استعمَلَ التَّعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ صيغةَ البناءِ للمجهولِ، فقالَ: ﴿وَلَا يُرَدُّ﴾؛ لأنَّ التَّركيز مُنصبٌّ على نفيِ حدوثِ الفعلِ مِن أساسه؛ فما يجدي فاعلٌ في هذا المقامِ!

وللإشارةِ إلى تنوُّعِ جهاتِ البأس؛ فلا تُعلَم له جهةٌ يُردُّ منها، ولا يُدرَى له دافعٌ حتَّى يُدْفعَ، فكأنَّ البأسَ يأتيهم مِن كلِّ مكانٍ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (البأس) دونَ العذابِ:

لفظ (البأس) أَشدُّ وقعًا مِن ذِكر العذاب؛ لدلالتِه على الشِّدَّةِ

البأسُ فيه شدَّةٌ وحِدَّةٌ وقُوَّةٌ، والعذابُ قد يُوصَفُ بالشِّدَّةِ وغيرها

والحِدَّةِ والقُوَّةِ بذاتِهِ دونَ صفةٍ، وزادتْهُ الإضافةُ قُوَّةً وبأسًا، مِن قُوَّةِ الرَّبِّ الَّذي يُربِّي بالرَّحمة، ويأخذُ بالبأسِ والعذاب!

بلاغةُ التَّصريحِ بقولِهِ: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

التَّصريحُ بالإجرامِ لبيانِ سببِ عذابِهم، والإضمارُ لاحتمالِ تكذيبِهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ صرَّح بذكرِ الاسمِ الصَّريحِ، يَحتمِلُ أن يكُون مِن وَضعِ الظَّاهِرِ موضعَ المُضمَرِ تنبيهًا على التَّسجيل عليهم بذلك، والأصل: ولا يُرَد بَأسُه عنكم[1]، ولمَّا كان البأسُ مقطوعًا بوقوعه ونزوله، صرَّحَ بذِكرِهم ووصفهم بسبب عذابهم، ألَا وهو الإجرامُ، في حين أَضْمَرَ ذِكرَهُم لمَّا احتُمِلَ التَّكذيبُ منهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ في: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ و﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

التَّكذيبُ الجماعيُّ أشدُّ إيذاءً، وإنزالُ العقوبةِ الجماعيَّةِ أعظمُ تنكيلًا

لمَّا كان التَّكذيبُ الجماعيُّ أشدَّ إيلامًا وإيذاءً من تكذيب الأفراد، فليس تكذيبُ الإنسان من فردٍ أو من أفرادٍ مُتفرِّقين، كتكذيبِ جماعةٍ اجتمعوا على ذلك بوسائلهم وخُطَطِهم ومَكرِهم، ولذلك أُوْثِرَ التَّعبير بإيقاع البأسِ على القوم المجرمين، فلا يُفلِتُ منهم أحدٌ؛ ومِن جنس العملِ تكونُ العقوبةُ. ولا يستوي نزولُ بأسِ اللهِ تعالى على الأفرادِ بنزولِهِ على الجماعةِ؛ فنزولُهُ بالجماعةِ أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلًا، وأشفى لصدورِ المؤمنينَ.

عِلَّةُ وصفِهم بالمجرمينَ دون المكذِّبين:

التَّكذيب صورةٌ من صُورِ الإجرام

ووصَفَهُم بالمجرمين، ولم يقل: المكذِّبين؛ موافقةً للسِّياق، ذلك أنَّ التَّكذيب ما هو إلَّا صورةٌ من صورِ الإجرامِ الَّذي يتضمَّنُ الكيدَ والمكرَ وكلَّ قبائحِ الأفعالِ.

سِرُّ وصفِهم بالاسمِ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ دونَ الفعلِ:

تأصُّلُ هذا الوصفِ فيهم

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وَصَفَهم بالاسمِ دونَ الفعلِ في

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/496.

هذا المقامِ؛ لتأصُّلِ هذا الوصفِ واستمرارِهم فيه، حتَّى صار وصفًا ثابتًا لهم في كلِّ حالٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

(البأس) و(العذاب):

العذابُ: هو العقوبةُ، وقد تكونُ بالقتل أو الجوع أو المصائب، أمَّا البأسُ: فهو الشِّدَّةُ والمكروهُ، ويكون في النِّكاية، نحو: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ٨٤﴾ [النساء: 84][1]، فلفظُ (البأس) أشدُّ وقعًا مِن ذِكر العذابِ في الآيةِ الكريمةِ، وزادتْهُ الإضافةُ إلى الرَّبِّ تعالى قُوَّةً وبأسًا؛ فهو الَّذي يُربِّي بالرَّحمة ويأخذُ بالبأسِ والعذاب.

البـأس أشـدُّ وقـعًـا مِـنَ العـذاب، وإضافتـه إلى الله زادته قُوَّة وبأسًا

(الكَذِبُ) و(الإفْكُ):

الإفْكُ: اسمٌ يدلُّ على كَذِبٍ لا شُبهةَ فيه؛ فهو بهتانٌ يَفجأُ النَّاسَ، وهو مُشتقٌّ مِنَ الأَفْك (بفتح الهمزة)، وهو قَلْبُ الشَّيء، أمَّا الكَذِبُ: فهو نقيضُ الصِّدقِ، ولكنَّه أقلُّ مِنَ الإفكِ؛ لأنَّ الإفكَ كَذِبٌ وإثمٌ عظيمٌ، وصَرْفٌ للحَقِّ بتحويلِه إلى باطلٍ، أو بتحويلِ الباطلِ إلى حَقٍّ[2].

الكَـذِبُ نقيضُ الصِّدق، إلَّا أنَّ الإفك أشدّ منه

(الرَّحْمَةُ) و(الرَّأفَةُ):

الرَّأفة: مُبالغةٌ في رحمةٍ خاصَّةٍ، وهي دَفْعُ المكروهِ وإزالةُ الضُّرِّ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، وأمَّا الرَّحمةُ: فاسمٌ جامِعٌ يدخلُ فيه ذلك المعنى، ويدخلُ فيه الإفضالُ والإنعامُ، وقيل: بينهما عُمومٌ وخُصوصٌ، فلا ترى فيه أكملَ مِنَ الرَّحْمَةِ بالكيفيَّةِ؛ والرَّحمةُ اتِّصالُ النِّعمةِ برِقَّةٍ يكون معها إيلامٌ؛ كقَطعِ العُضوِ المتآكِلِ، وشُربِ الدَّواءِ[3].

الرَّحـمـة اسمٌ عـامٌّ، والـرَّأفـة مبالغةٌ في رحمة خاصّة

---

(1) الرّاغب، المفردات: (بؤس).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/169، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 66.

(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/25.

(البَسْطَة) و(السَّعَة):

البسـطُ ضِـدُّ القـبـض، وهـو أعمُّ من السَّعة

بَسْطُ الشَّيء: نَشْرُه وتوسيعُهُ، فتارةً يُتصوَّر منه الأمرانَ، وتارةً يُتصوَّر منه أحدُهما، وهذا يَدُلُّ على أنَّ البَسْطَ أَعمُّ مِنَ السَّعةِ، والبَسْطُ ضِدُّ القَبْضِ، والسَّعَةُ ضدُّها الضِّيق[1].

(الرَّدُّ) و(الرَّجْعُ) و(الدَّفْعُ):

الرَّدُّ إلى الخَلْف مـعَ الـكـراهـة، والـرَّجْــعُ بلا كراهة، والدَّفع إلى قُـدَّام وإلى خلف

فرَّقَ العَسْكريُّ بينَ الرَّجْعِ والرَّدِّ، بأنَّه: يجوزُ أن تُرجِعَهُ مِن غير كراهةٍ لهُ، ولا يجوزُ أن تَردَّهُ إلَّا إذا كرهتَ حالَهُ، كما فرَّق بينَ الرَّدِّ والدَّفع: بأنَّ الرَّدَّ لا يكون إلَّا إلى خَلْفٍ، والدَّفعَ يكون إلى قُدَّامٍ وإلى خَلْفٍ جميعًا[2].

(البأس) و(البأساء):

الـبـأسُ شِـدَّة القتالِ والعذابِ والـنَّـكَـال، والبأساءُ شِدَّةُ الفقر

ذهبَ الرَّاغبُ الأصفهانيُّ إلى أنَّهما بمعنى واحدٍ، قال: "البُؤس والبَأْس والبأساء: الشِّدَّة والمكروه، إلَّا أنَّ البُؤسَ في الفقرِ والحرب أكثر، والبَأْسَ والبأساءَ في النِّكاية"[3]. ولكنْ ورودُ اللَّفظين (البأساء والبَأْس) معطوفَين في القرآن الكريم يقتضي تَغايرَهُما، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177].

فالبأساءُ: الفقرُ، والضَّرَّاءُ: المَرَضُ، والبَأْسُ: القتالُ، وهذا من باب التَّرقِّي في الصَّبر مِنَ الشَّديد إلى الأشدِّ، ونلحظُ أنَّ لفظَي (البَأْس والبأساء) مُتقاربان في الدَّلالةِ حيثُ يشتركان في معنى الشِّدَّةِ والمكروهِ، ويتميَّز لفظُ (البأساء) بنوعٍ مِنَ الشِّدَّةِ هي شِدَّةُ الفَقْرِ، بينما يتميَّز (البَأْس) بنوعٍ مِنَ الشِّدَّةِ هي شدَّةُ القِتال والعذابِ والنَّكال[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (بسط)، وموسوعة الفروق القرآنية: 1/482 - 483.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249، و253.
(3) الرّاغب، المفردات: (بؤس).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/445، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 427.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اختلاقُ الأعذارِ لكُفرِهم

لَمَّا حكى عن أهلِ الجاهليَّةِ إقدامَهم على الحُكْمِ في دِينِ اللَّهِ بغيرِ حُجَّةٍ ولا دليلٍ، حكى عنهم عُذْرَهُم في كلِّ ما يُقدِمون عليه مِنَ الكُفرِيَّاتِ، فيقولون: لو شاء اللَّهُ منَّا ألَّا نَكفُرَ لمنَعَنا عن هذا الكُفرِ، وحيث لم يَمنَعْنا عنه، ثبَتَ أنَّه مُريدٌ لذلك، فإذا أرادَ اللَّهُ ذلك مِنَّا، امتنَعَ مِنَّا تركُهُ، فكنَّا معذورين فيه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشْرَكُواْ﴾: الشِّرْكُ في اللُّغةِ: النَّصيبُ، ويأتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطَةُ بينَ الشَّرِيكَيْنِ، ويُطلَقُ على الكُفرِ، وعلى اقْتِسامِ الشَّيْءِ والاشْتِراكِ فيهِ؛ وفي الاصطلاح: تَسْوِيَةُ المَخْلوقِ باللَّهِ تعالى، فيما هو مِن خَصائِصِ اللَّهِ تعالى[2]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ.

2) ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: المَشِيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، والمَشِيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ به القَصْدُ، وأَصْلُ المَشِيئَةِ: الإيجادُ، مَأْخوذَةٌ مِنَ الشَّيْءِ؛ وهو: كُلُّ مَوجودٍ إمَّا حِسًّا أو مَعْنًى، وتأتي بِمعنى الاخْتِيارِ، والرَّغْبَةِ، والمَحَبَّةِ؛ وهي إرَادَةُ اللَّهِ الكَونِيَّةُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/172 - 173.

(2) الجوهري، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شرك).

وهي أنَّ ما شَاءَ اللّهُ كانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وهِيَ مِنْ صِفَاتِ اللّه الفِعليَّة[1]، وهو المعنى المرادُ في الآية.

3) ﴿حَرَّمْنَا﴾: التَّحريمُ: الحَظْرُ، وشَيءٌ مُحَرَّمٌ، أَي: مَحْظُورٌ، وَضِدُّهُ الإِبَاحَةُ وَالإِذْنُ وَالجوازُ، وَأَصْلُ التَّحْرِيم: المَنْعُ، يُقَالُ: حَرَّمَ الشَّيْءَ، أَيْ: مَنَعَ مِنْهُ، وَلَمْ يُجِزْهُ، والتَّحْرِيمُ: طَلَبُ الشَّارِعِ تَرْكَ الفِعْلِ تَرْكًا جَازِمًا[2]، والمعنى في الآية: لم نحلِّل ما حرَّمه اللّه، ونحرِّم ما أحلَّه.

4) ﴿ذَاقُواْ﴾: الذَّوْقُ: اخْتِبارُ الشَّيْءِ من جِهَةِ التَّطعُّم، يُقال: ذُقْتُ المَأْكُول، أَذُوقُه، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: إذا اخْتَبَرْتَهُ، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوْقُ أيضًا: طَعْمُ الشَّيْءِ، وهو قُوَّةٌ إِدْراكِيَّةٌ لها اختِصاصٌ بإِدْراكِ لَطائِفِ المَحْسُوسَاتِ، وهو معرفةُ طَعْم الشَّيءِ، أي: وقعهُ على الحسِّ بالتَّناولِ منهُ، ومن هذا: الإحساسُ المادِّيُّ المباشر في الرَّحمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: 48]، أو في النِّقمَةِ، كما في الآيةِ الكريمة[3].

5) ﴿ٱلظَّنَّ﴾: الشَّكُّ والتَّردُّدُ، يُقال: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ: إذا شككتُ فِيه، ولم أتيقَّنْهُ، ويأتي بمعنى الاتِّهام؛ والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ، ويُطلَقُ الظَّنُّ على اليَقِينِ والعِلْم، فيُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أيْ: عَلِمْتُ، وأيقَنْتُ، وجَمْعُه: ظُنونٌ[4]، قال الرَّاغب: "الظَّنُّ: اسمٌ لما يحصل من أمارةٍ، ومتى قوِيَتْ؛ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضَعُفَتْ؛ لم تجاوز حدَّ الوهم"، والمعنى في الآية: إلَّا ظنًّا وحسبانًا منكم أنَّه حقٌّ؛ وهو باطلٌ.

6) ﴿تَخْرُصُونَ﴾: أَصْلُ الخَرْصِ: حَزْرُ الشَّيْءِ وَتَقْدِيرُهُ، يُقَالُ: خَرَصْتُ النَّخْلَ أَخْرُصُهُ خَرْصًا؛ إِذَا حَزَرْتُ ثَمَرَهُ وَقَدَّرْتُهُ؛ وَبَاعَهُ خَرْصًا، أَي: تَقْدِيرًا مِنْ غَيْرِ وَزْنٍ، والتَّخْرِيصُ: القَوْلُ بِالظَّنِّ، تَقولُ: تَكَلَّمَ بِالخَرْصِ، أَيْ: بِالظَّنِّ، وَالخَرَّاصُ: الكَذَّابُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ[5].

---

(1) الأصفهاني، الحجة في بيان المحجّة: 2/24، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيء).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حرَمَ).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذوق).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (ظن)، والجرجاني، التعريفات، ص: 187.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (خرص).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

احتجاجُ المشركين بالقضاءِ والقدرِ على شِركِهم وتحريمِهم ما أحلَّ اللهُ

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أشْرَكوا سيقولونَ: لو أرادَ اللهُ، ما وَقَعَ منَّا ولا مِن آبائِنا الشِّركُ، ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ، فلَمَّا لم يَفْعَلْ؛ دَلَّ ذلك على رِضاهُ بذلك، ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ كَذَّبوا بالطَّريقةِ نفسِها الَّتي كَذَّب بها الَّذينَ مِن قَبْلِهم، والَّذين لم يَزَلِ التَّكذيبُ دَأْبَهم، حتى أسخَطُوا اللهَ، فغضبَ عليهم، فأحلَّ بهم نِقمتَه وعقوبته، ثمَّ أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسأَلَ هؤلاءِ المُشركينَ: هل عِندَهم مِن عِلْمٍ يقينيٍّ بأنَّ اللهَ راضٍ عنهم، فلْيُظْهِروهُ ولْيُبَيِّنوهُ، ولْيَقُلْ لهم: إنَّهم لا يَتَّبِعون إلَّا مُجَرَّدَ أوهامٍ باطلة، وإنْ هم إلَّا يتَقَوَّلونَ على اللهِ الباطِلَ، ويَكْذِبونَ عليه فيما يَدَّعونَه. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ احتجاجَ المشركينَ بالقضاءِ والقدرِ ليس مقصودًا لذاتِه، وهُم يعلمونَ أنَّه ليس حجَّةً، وإنَّما المقصودُ منه دَفعُ الحقِّ، ويرون أنَّ الحقَّ بمنزلةِ الصَّائلِ، فهُم يدفعونَهُ بكلِّ ما يخطرُ ببالِهم مِنَ الكلامِ، وإن كانوا يعتقدونَهُ خطأً[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ السِّينِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ﴾:

الإخبارُ بما تُكِنُّهُ نفوسُهم من تزويرِ الحُجَّةِ، معجزةٌ من معجزاتِ القرآنِ

السِّين: للاستقبالِ القريبِ، وقد أخبرَ اللهُ عنِ المشركينَ أنَّهم سيقولونَ هذه المقالةَ، وقد وقعَ مقتضاهُ كما حكى عنهم في سورةِ النَّحلِ بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾. فإن كانَ ضميرُ الرَّفعِ في قولِه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: 147] عائدًا إلى المشركينَ؛ كان قولُهُ تعالى هنا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ إظهارًا في مقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ تفظيعِ أقوالِهم، فإخبارُ اللهِ عنهم بأنَّهم سيقولونَ ذلك إن كانَ نزولُ هذه الآيةِ قبل نزول

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/209، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 148.

آيةِ سورةِ النَّحلِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [النحل: 35] وهو الأرجحُ؛ فإنَّ سورةَ النَّحلِ معدودةٌ في النُّزولِ بعد سورةِ الأنعام - كان الإخبارُ بأنَّهم سيقولونَهُ اطِّلاعًا على ما تُكنُّهُ نفوسُهم مِن تزويرِ هذه الحجَّةِ؛ فهو معجزةٌ مِن معجزاتِ القرآنِ مِن نوعِ الإخبارِ بالغيبِ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: 24]، وإن كانَ نزولُ هذه الآيةِ بعد نزولِ آيةِ سورة النَّحلِ، فالإخبارُ بأنَّهم سيقولونه، معناهُ: أنَّهم سيُعيدون معذرتَهُم المألوفة(1).

إيثارُ اسمِ الموصولِ، والعدولُ عنِ الاسمِ الصَّريحِ:

لأنَّ جملةَ الصِّلةِ دالَّةٌ على محورِ قضيَّتِهم ولُبِّ قولِهم

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ اسم الموصول (الذي) دون الاسم الصريح (المشركون)؛ لأنَّ صِلة الموصول الَّتي بعدَهُ تدلُّ على محورِ قضيَّتِهم، ولُبِّ قولِهم؛ وهو تلبُّسُهم بالشِّرك، وانغماسُهُم فيه، واحتجاجُهُم بواقعِهم.

دلالةُ ﴿لَوۡ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ في صيغةِ المُضي:

مطابقةُ الكلامِ لمقتضى الحالِ، وتحقُّقُ وقوعِهِ في المستقبلِ

إيثارُ (لو) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمطابقةِ الكلام لمقتضى الحال؛ لأنَّ المشركينَ مُصرُّون على أنَّ مشيئةَ اللّهِ بعدمِ الإيمانِ بعقيدةِ التَّوحيدِ معدومةٌ، وهذا يناسبه (لو) من بين أدوات الشَّرطِ؛ لاستلزامِها انتفاءَ شرطِها. وعلَّةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿شَآءَ﴾ دالٌّ على تحقُّقِ وقوعِه في المستقبلِ؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يعطي مِنَ المعنى أنَّهُ قد كان وُجِد، وإنَّما يفعل ذلك إذا كانَ الفعلُ المستقبل مِنَ الأشياءِ العظيمةِ الَّتي يُستَعْظَمُ وجودها(2).

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/681، والقنوجي، فتح البيان: 4/269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/146.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/352.

فائدةُ التَّصريحِ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾، والتعبير بجملة: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾:

الإرادة والمشيئة لا يستلزمان رضاه سبحانَه:

التَّصريحُ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾، تصريحٌ بما أفادَه لفظُ ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، والإرادة والمشيئة لا يستلزمان رضاه سبحانَه؛ فإذا كان قد شاءَ ضلالةَ بعضِ عبادِه، فإنَّه لا يرضى مِن عبادِه الكفرَ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ في مواضعَ عِدَّةٍ، وتقديرُ المعنى: لو شاءَ اللّهُ عدمَ إشراكِنا بهِ شيئًا ما أشركْنا به شيئًا، ولا أشْرَكَ آباؤنا به شيئًا من قبل، ولو شاء اللّهُ عدمَ تحريمنا ما حرَّمناه مِن أكلِ لحوم بعضِ الأنعامِ ما حرَّمنا نحن ولا آباؤنا ما حرَّمناه، وما حرَّموهُ هُم؛ وهذا من عظيمِ الإيجازِ في كتابِ اللّهِ المعجزِ.

دلالةُ احتجاجِ المشركينَ بالمشيئةِ:

خلطُهم بينَ تصرُّفِ التَّكوين وتصرُّفِ التَّكليفِ

حَسِبَ المشركون أنَّ مشيئةَ اللّهِ تستلزمُ رضاهُ؛ ولذا قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، والحقُّ أنَّ المشيئةَ لَا تستلزمُ الرِّضا، إنَّما امتثالُ الأمرِ هو الَّذي يستلزمُ الرِّضا، واقترافُ النَّهي يستلزمُ الغضبَ؛ فالهدايةُ هي الَّتي تستلزم الرِّضا، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، وهذه شبهةُ أهلِ العقولِ الأفِنَة الَّذين لا يُفرِّقون بينَ تصرُّفِ اللّهِ تعالى بالخلقِ والتَّقديرِ، وحفظِ قوانين الوجود، وهو التَّصرُّفُ الذي نسمِّيه نحن بالمشيئةِ وبالإرادةِ، وبينَ تصرُّفِه بالأمرِ والنَّهي، وهو الَّذي نسمِّيه بالرِّضا وبالمحبَّة؛ فالأوَّلُ تصرُّفُ التَّكوينِ، والثَّاني تصرُّفُ التَّكليفِ[2].

بلاغةُ الجناس في ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ و﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، وسِرُّ التَّعبيرِ بالشِّرك:

أكسَب الجناسُ غيرُ التَّامِّ في ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ و﴿أَشۡرَكۡنَا﴾ الأسلوبَ

(1) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/179 - 180، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2723.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/146، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2722.

التّناسبُ في البناءِ الصّوتيّ، واشتقاق الكلمةِ يحكي بغيهم على أنفسِهم

جمالًا فنيًّا، بما أضافَهُ إلى النَّسق مِنِ انسجام وتناسبٍ وتآلفٍ في البناءِ الصَّوتيِّ، يُثري المعنى، ويُغني الصِّياغة؛ وهو أسلوبٌ فَنِّيٌّ في التَّعبيرِ يُضيف إلى الفكرةِ، ويزيدُ في جمالِ الأسلوبِ(1).

خروجُ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهِرِ:

تبشيعُ قولِهم، وزيادةُ تبكيتِهم

خرجَ الكلامُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذ مقتضى الظَّاهر أن يُؤتى بالضَّميرِ لا بالاسم الظَّاهرِ؛ بدليلِ أنَّ ضميرَ الرَّفعِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: 147] يعودُ - في أحدِ قولي التَّفسيرِ - على المشركين، ولعلَّ السِّرَّ في هذهِ المخالفةِ هو التَّنصيصُ على المشركينَ، وذلك لزيادةِ تفظيعِ ما قالوهُ؛ وفي هذا تبكيتٌ لهم(2).

فائدةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، على ما قبلَهُ:

الإشارةُ إلى أنَّهم إنَّما يتَّبعون دينَ آبائِهم المشركينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ المرفوعِ، وأغنى الفصلُ بـ(لا) بين حرف العَطف والمعطوف عن الفَصلِ بين المتعاطفين بضمير مُنفصلٍ يلي الضَّمير المتَّصل أو بغيره، وفي عطفِ آبائهم عليهم إشارةٌ إلى أنَّهم إنَّما يتَّبعون دينَ آبائِهم، وأنَّهم إذا كانوا هم وآباؤهم على شركٍ، فذلك ممَّا أرادهُ اللّٰهُ لهم، ولو شاء اللّٰهُ لهم ألَّا يُشركوا ما أشركوا؛ هكذا يمكرون بآياتِ اللّٰهِ، وهكذا يتعلَّلون بمشيئةِ اللّٰهِ، ويسترونَ شركَهُم بها(3).

دلالةُ (لا) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾:

تأكيدُ نفي شركِ آبائِهم على زعمِهم

لـمَّا دخلتْ كلمةُ (لا) على قوله: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ كان ذلك مُوجبًا إضمارَ فعلٍ هناك؛ لأنَّ صرف النَّفي إلى ذواتِ الآباء محالٌ، بل يجبُ صرفُ هذا النَّفي إلى فِعلٍ يصدر منهم؛ وذلك هو الإشراكُ،

(1) عبد الفتاح عثمان، دراسات في المعاني والبديع، ص: 174.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/310، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ146.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/359، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/681، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/334.

فكان التَّقديرُ: ما أشركنا، ولا أشركَ آباؤنا؛ وعلى هذا التقديرِ فالإشكالُ زائلٌ[1].

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في الآية:

الشِّركُ أعظمُ الجرائمِ وأهولُها

قدَّمَ سبحانه موضوعَ الشِّركِ على موضوعِ التَّحريمِ؛ لأنَّ الشِّركَ أهوَلُ شأنًا مِنَ التَّحريم، كما قدَّمَ أنفسَهم على آبائِهم؛ لأنَّ القرآنَ يخاطِبُهُم هم ويواجهُ مفترياتِهم فكانوا أولى بالتَّقديم.

علَّةُ ذكرِ آبائِهم معهُم:

تذرُّعهم بأنَّ ما هم عليه عريقٌ قِدَمَ آبائهم

جيءَ بذكرِ آبائِهم معهم، وكان يمكنُ الاكتفاءُ بذِكر أنفسِهم دونَهم؛ وذلك ليتَّخذوا من ذِكر آبائِهم عذرًا لهم في أنَّ ما هم عليه عريقٌ لا وليدَ السَّاعة.

سرُّ النَّفي بـ(لا) في قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ دون (ما):

تفيدُ (لا) تحقيقَ المعنى وتأكيدَ النَّفي

(لا) تنفي حدوثَ الفعلِ المضارعِ في الاستقبالِ، و(ما) تنفي حدوثَ الفعلِ في الحالِ[2]، ودخول (لا) هنا على الفعل الماضي لتحقيق المعنى وتأكيد النَّفي؛ لأنَّها جاءت بعد واو العطف، و(لا) النافية إذا دخلت على الماضي؛ وجب تكرارُها إلَّا في الدُّعاء؛ هكذا جاءت في كلام العرب وفي القرآنِ، مثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١﴾ [القيامة: 31]، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ١١﴾ [البلد: 11][3]، فدلالتها في الجملةِ الكريمةِ على تأكيدِ نفي تحريمِهم لما أحلَّه الله تعالى لهم من الأنعام، أمَّا (ما)؛ فتكونُ لنفي الفعل الماضي نفيًا غير مؤكَّدٍ، إلَّا إذا سُبقت بقسم، كقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: 19]، وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضُّحى: 3]. وأمَّا (ما) الدَّاخِلَةُ على المضارع؛ فهي تنفي حدوثَ الفعلِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/175.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/221.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/572.

الواقعِ في الحال، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: 35]، فهي واصفةٌ لحال من كانَ كذلك. قال تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]، فاقتضى المقامُ النَّفي بلا، فناسبتْ (لا) بصيغتِها ودلالتِها الآيةَ من كلِّ جهةٍ.

دلالةُ العمومِ في قولِه: ﴿مِن شَىْءٍ﴾:

تنكيرُ اسمِ الجنسِ دالٌّ على التَّحقيرِ

كلمةُ ﴿شَىْءٍ﴾ مِن أسماءِ الأجناسِ العاليةِ العامَّة، فإذا أُضيفتْ إلى اسمِ جنسٍ، أو بُيِّنت به؛ عُلِمَ أنَّ المتكلِّم ما زادَ كلمة ﴿شَىْءٍ﴾ قبل اسم ذلك الجنس أو بعده إلَّا لقصدِ التَّقليلِ؛ لأنَّ الاقتصارَ على اسم الجنسِ الَّذي ذكره المتكلِّم لو شاءَ؛ لأغنى غناءها، فما ذكر كلمةَ ﴿شَىْءٍ﴾ إلَّا والقصدُ أن يدلَّ على أنَّ تنكيرَ اسمِ الجنس ليس للتَّعظيمِ ولا للتَّنويعِ، فبقيَ لهُ الدَّلالة على التَّحقير(1).

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شناعةُ التَّكذيبينِ الحاصلينِ وقبحُهما

تشبيهُ معقولٍ بمعقولٍ؛ المشبَّه: هو تكذيبُ الَّذين من قبلهم، والمشبَّهُ به: هو تكذيبُ مشركي العربِ في عصرِ نزولِ القرآن، ووجه الشَّبهِ: هو الشَّناعةُ والقُبحُ.

إيثارُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ (ذلك) دونَ غيرِه:

الدَّلالةُ على بُعدِ قولِ المشركينَ عنِ الصَّوابِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ اسمِ الإشارةِ (ذلك) الموضوعِ للبعيد؛ للدّلالةِ على بُعدِ قولهم عن الصَّوابِ، حتَّى كأنَّه لشناعَتهِ لم يعهدْ لَهُ وجود(2).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكذبِ عنِ احتجاجِهم:

أتى بالتَّعبيرِ بالكذبِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/55، و7/166.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

الَّذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ تكذيبَ النَّبيِّ ﷺ إذ دعاهم إلى الإقلاعِ عمَّا يعتقدون، بحجَّةِ أنَّ اللّٰه رضيَهُ لهم، وشاءَهُ منهم مشيئةَ رِضا؛ فكذلك الأُممُ قبلَهم كذَّبوا رُسلَهم مُستندين إلى هذه الشُّبهةِ، فسمَّى اللّٰه استدلالَهُم هذا تكذيبًا؛ لأنَّهم ساقوه مساقَ التَّكذيبِ والإفحامِ، فكلامُهم من باب كلامِ الحقِّ الذي أُريدَ به باطلٌ[1].

سمَّى اللّٰهُ استدلالَهُم تكذيبًا؛ لأنَّهم ساقوهُ مساقَ التَّكذيبِ والإفحامِ

وجهُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

أتى بالتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تحقيرًا لهم على كذبِهم، واستصغارًا لهم على فعلتِهم، كما أفادَ الاسمُ الموصول الاختصارَ؛ إذ لو عدَّد أسماءَ الَّذين أشركوا، وحرَّموا من قَبلُ؛ لطالَ الحديثُ بذلك.

الاختصارُ والتَّحقيرُ لهم

عِلَّةُ جعلِ قوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ غايةً للتَّكذيب:

في الجملةِ الكريمةِ إيماءٌ إلى أنَّ لهم عذابًا مُدَّخرًا عند اللّٰه تعالى؛ لأنَّ الذَّوق أوَّل إدراك الشَّيء، ويحتمل أن يكونَ بأسُ اللّٰه بقوَّة المؤمنين في الدُّنيا، وكيفما يكونُ العذابُ فإنَّ إيثارَ التَّعبيرِ بالماضي، وهو واقعٌ في المستقبلِ للدَّلالةِ على تأكُّدِ وقوعِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1].

تأكيدُ وقوعِ العذابِ في المستقبلِ

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾:

الذَّوقُ مجازٌ في الإحساسِ والشُّعورِ، فهو مِن استعمالِ المقيَّدِ في المطلقِ، ويصلحُ أن يكونَ استعارةً مكنيَّةً، حيث شبَّه البأسَ بطعامٍ يُذاقُ باللِّسانِ، ثمَّ حذفَ المشبَّه بهِ، ورَمَز إليه بشيءٍ من لوازمِهِ[2].

تشبيهُ وقوعِ العذابِ بمنزلةِ الشَّيءِ المحسوسِ

فائدة تغايرِ الإضافةِ في قوله: ﴿بَأۡسَنَاۗ﴾ و﴿بَأۡسُهُۥ﴾:

في قولِه: ﴿بَأۡسَنَاۗ﴾، أُضيفَت الكلمةُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّٰه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/149، والدمياطي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/377.

تعظيمُ شأنِ هذا البأسِ وتهويلُهُ في (بأسنا)، وتوقُّعُ الوعيدِ في (بأسه)

ﷻ؛ وذلك لتعظيمِ شأنِ هذا البأسِ وتهويلِه، وهذا الجزاءُ العظيمُ من عظمِ الذَّنبِ الذي اجترحوهُ. أمَّا إضافةُ ضميرِ الغائبِ إلى قولهِ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ﴾ فهو وعِيدٌ وتوقُّعٌ، كما دلَّ على عظيمِ سطوتِهِ ﷻ على المجرمينَ.

سرُّ تقديمِ تكذيبِهم في جملةِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ على جوابِهم بـ﴿قُلۡ﴾:

إلجامُهم الحُجَّةَ قبل مطالبتِهم بالرَّدِّ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ

حاصلُ ردِّ اللّه عليهِم بأنَّ كلامَ المشركينَ يتضمَّنُ تكذيبَ الرُّسلِ، وقد دلَّت المعجزةُ على صدقِهم، ولا يخفى أنَّ المقدِّمة الأولى، وهي أنَّ كلَّ شيءٍ بمشيئةِ اللّهِ، لا تكذيبَ فيها، بل هي متضمِّنةٌ لتصديقِ ما تطابقَ فيه العقلُ والشَّرعُ من كون كلِّ شيءٍ بمشيئةِ اللّه، وامتناعُ أن يجريَ في مُلْكِه خِلافُ ما يشاءُ، فمنشأُ التَّكذيبِ هو المقدِّمةُ الثَّانيةُ، وهي: أنَّ كلَّ ما تعلَّقتْ بهِ مشيئةُ اللّهِ وإرادتُه، فهو مشروعٌ ومرضيٌّ عنهُ؛ لأنَّ الرُّسلَ - عليهم السلام - يدعونهم إلى التَّوحيدِ، ويقولون لهم: إنَّ اللّه لا يرضى لعبادِهِ الكفرَ دينًا، ولا يأمرُ بالفحشاءِ، فيكون قولهم: - إنَّ ما نرتكبهُ مشروعٌ ومرضيٌّ عنده سبحانَه - تكذيبٌ لقولِ الرُّسلِ؛ وحيثُ كان فسادُ هذه الحجَّةِ باعتبارِ المقدِّمةِ الثانية تعيَّنَ أنَّها ليستْ بصادقةٍ، وحينئذٍ يصدقُ نقيضُها وهي أنَّه ليس كلُّ ما تعلَّقت به المشيئةُ والإرادة بمشروعٍ أو مَرْضِيٍّ عنده سبحانه، بناءً على أنَّ الإرادة لا تساوِقُ الأمر، ثمَّ بعد هذا الرَّدِّ المفحمِ للمشركين أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه أن يطالِبَهم بدليلٍ على مزاعِمِهم، فقالَ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾[1].

علَّةُ تصديرِ الجملةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

تقويةٌ للحُجَّةِ، وزيادةُ توثيقِ النَّصِّ القرآنيِّ

في قوله تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم﴾، تصديرُ الجملةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ جيءَ به للإيذانِ بما للجملةِ الكريمةِ مِن أهمِّيَّةٍ بالغةٍ، وكونها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/294، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/208.

رسالةً خاصَّةً يجبُ مواجهةُ الخصوم بها، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ هو من عندِ اللّهِ تعالى، وما الرسولُ إلَّا مبلِّغٌ عن ربِّه، وإبلاغُهُ في قمَّةِ سماءِ الأمانة.

دلالةُ الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم﴾:

الإنكارُ والتَّهكُّمُ واستغراقُ النَّفي

خروجُ الاستفهامِ عن معناه الحقيقيِّ إلى آخرَ فُهِم من السِّياق؛ والخطابُ في الآية للرَّسول ﷺ، واستُفهِم بـ﴿هَلۡ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على طلبِ تحقيق الإسنادِ المسؤول عنه، ففُهِمَ من ذلك أنَّه سائلٌ عن أمرٍ يريدُ أن يكونَ محقَّقًا، كأنَّه يرغب في حصوله، فيغريهم بإظهارِهِ حتى إذا عَجَزوا كان قطعًا لدعواهم[1]. أمَّا المعنى الَّذي خرجَ إليه الاستفهامُ؛ فهو الإنكارُ والتَّهكمُ، فهُم الَّذين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾. فمن أين جاؤوا بهذا القول؟ وذلك يدلُّ على أنَّ القائلين بهذا القولِ ليس لهم بهِ علمٌ ولا حجَّةٌ، وهذا يدلُّ على فسادِ هذا المذهبِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان حقًّا كان القولُ به علمًا[2]. يُضافُ إلى ذلك أنَّ الاستفهام أفادَ استغراقَ النَّفي المتضمِّن له الاستفهام بـ﴿مِّنۡ﴾ الذي يفيد الاستغراق، أي: هل عندكم من علمٍ، أي: علم تزعمونه، فتخرجوهُ لنا ليكون دليلًا لكم؟[3].

دلالةُ إيثارِ ﴿هَلۡ﴾ دونَ الهمزة:

الإشارةُ إلى أنَّ المطلوبَ بالاستفهامِ يجبُ تحقيقُهُ

إيثارُ ﴿هَلۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ دون الهمزةِ إشارةٌ إلى أنَّ المطلوبَ بالاستفهامِ يجبُ تحقيقُهُ لدى الخصوم، وأنَّ المأمورَ بالقولِ ينبغي أن يشدَّدَ على الخصوم بالإتيانِ بالمطلوب، وهو دليل زعمِهم، ألَّا يفرِّط فيه بغيةَ إظهارِ عجزهِم وتحسيرهِم[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/149.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب:/185.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2720.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

نكتةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿سَيَقُولُ﴾ و﴿قُلۡ﴾:

الـدَّلالـةُ على عظيـمِ مكانةِ الرَّسولِ وعنايةِ رَبِّهِ بِهِ

استهلالُ الآية بقولِه: ﴿سَيَقُولُ﴾ ثمَّ تلقينه الرَّدَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلۡ﴾ يدلُّ على عظيمِ العنايةِ بالرَّسولِ ﷺ، وكريمِ مقامهِ ومنزلتهِ عند مولاه.

تلوين الخطابِ في الإخبارِ عنِ المشركين بـ﴿سَيَقُولُ﴾:

الإشارةُ إلى تنبيهِ المـخـاطَـبِ إلى السَّبيلِ الأقومِ في الـرَّدِّ على الشُّبهاتِ

انتقالُ الخطابِ مِنَ الحديثِ عن المشركين، وعمَّا سيقولونه مِن شبهاتٍ واحتجاجاتٍ إلى أمر النَّبيِّ ﷺ بالفعلِ ﴿قُلۡ﴾، إشارةٌ إلى تنبيهِ المخاطَبِ إلى السَّبيلِ الأقومِ في الرَّدِّ على الشُّبهاتِ ودحضِ الافتراءاتِ؛ وهو الالتفاتُ عن هؤلاءِ المدَّعين والاهتمام بالوحي المنزَّل على هذا النَّبيِّ الكريمِ سيدنا محمَّد ﷺ، إذ إنَّه هو المخاطبُ الأوَّل بهذا الكتابِ العزيز، وهو المبلِّغُ عن ربِّه ﷻ.

تناغمُ الدَّلالةِ الصَّوتيَّةِ في ﴿قُلۡ هَلۡ﴾:

سرعةُ الجوابِ، وإلــجــامُ الخصمِ، وقوَّةُ الحُجَّةِ

نلحظُ التَّناغمَ اللَّفظيَّ في تتابُعِ الكلمتَين؛ حيث تركَّبت كلتاهما من حرفين، ثانيهما متماثلٌ في الصُّورةِ والصَّوت؛ فكلٌّ مِنَ الحرفين في الكلمتين (لام)، كما أنَّهما متماثلان في البناءِ على السُّكون، على الرَّغمِ مِن اختلافِ الكلمتَين في النَّوع، فأوَّلهما فِعْلُ أمرٍ، والآخر حرفُ استفهام، ومن دلالةِ صوتيهما نلحظُ سرعةَ الجوابِ، وذلك لخفَّتهما، وقلَّةِ حروفِهما، كما نلحظُ مِن سكونِ آخرهما إلجامَ الخصم. والعجيبُ أنَّ هاتين الكلمتينِ وردتا في مواضعَ كثيرة[1]، كلُّها في الرَّدِّ على الكافرين أو المشركين أو المنافقين، ممَّا يؤكِّد قُوَّة إتباعِ السُّؤال بـ﴿هَلۡ﴾ عقيبَ الأمر بـ﴿قُلۡ﴾.

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿عِندَكُم﴾، والعدولُ عن (لديكم):

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ ﴿عِندَكُم﴾ دون (لديكم)

(1) وردت (قلْ هلْ) عشر مرات، وهي في: المائدة: 60، والأنعام: 50، 148، والتوبة: 52، ويونس: 34، 35، والرعد: 16، والكهف: 103، والزُّمَر: 9، والنازعات: 18.

في الآية؛ لأنَّ كلمةَ (عندي) تستعمل لما في حوزتكَ حاضرًا أو غائبًا، والمطلوبُ مِنَ المشركينَ في الآية عِلْمٌ يتعذَّرُ إثباتهُ حاضرًا أو غائبًا؛ وهذا لن يتحقَّق؛ لأنَّه قائمٌ على الظَّنِّ والكذبِ، أمَّا استعمالُ كلمة (لدي)؛ فتُستعمَل عند إرادتك الكلامَ عن وجودِ الشَّيءِ حاضرًا بحوزتك الآن، وعلى هذا يكون استعمال ﴿عِندَكُم﴾ هو المناسبَ للسِّياق.

تستخدمُ (عند) لما في حوزتكَ حاضرًا أو غائبًا

نُكْتَةُ العمومِ في قوله: ﴿مِّنۡ عِلۡمٖ﴾:

في دخول ﴿مِّنۡ﴾ على ﴿عِلۡمٖ﴾ كنايةٌ عن شمولِ عجزِهم في الإتيانِ بأيِّ أثرٍ مِن عِلم، ولو كان تافهًا؛ وعجزُهم عنه يستلزمُ من باب أَولَى عجزَهم عمَّا له اعتبارٌ مِنَ العِلم(1).

شمولُ عجزِهم عنِ الإتيانِ بأيِّ أثرٍ من عِلْمٍ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في قوله: ﴿فَتُخۡرِجُوهُ﴾:

في قوله: ﴿فَتُخۡرِجُوهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ شُبِّه فيها الإظهارُ بالإخراجِ، بجامعِ حصول الرُّؤيةِ في كلٍّ منها، وفيها زيادةُ تحسيرٍ فوقَ تحسيرٍ؛ لعدمِ تمكُّنِهم مِن سَوق أَدنَى دليلٍ على صدقِ زعمهم، والفاءُ في ﴿فَتُخۡرِجُوهُ﴾ فاءُ السَّببية، و(تخرجوه) مضارعٌ منصوب بـ(أن) المضمرةِ بعد فاءِ السَّببيَّةِ، وعلامةُ نصبهِ حذفُ النُّون.

زيادةُ تحسيرٍ لعجزِهم عن إظهارِ أدنى دليلٍ على زعمهم

دلالةُ نفي العِلم وإثباتِ الظَّنِّ:

في الآيةِ الكريمةِ نُفيَ العِلْمُ وأُثبتَ الظَّنُّ؛ وذلك دلالةٌ على حصولِ المغايرة(2).

دلالة اللَّامِ في إضافتها إلى ضمير المتكلِّم في ﴿لَنَآۖ﴾:

اللَّام في قوله: ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ للأجلِ والاختصاص، فتؤذنُ بحاجةِ مجرورِها لمتعلِّقها، أي: فتخرجوهُ لأجلنا، أي: لنفعنا،

إفادةُ الأجلِ والاختصاص، وتصويرُ قوَّةِ المتكلِّمِ ومكانتهِ السَّاميةِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/340.

والمعنى: لقد أبدعْتُم في هذا العلمِ الذي أبديتموهُ في استفادتِكم، أنَّ اللَّه أمرَكم بالشِّركِ وتحريمِ ما حرَّمتموه بدلالةِ مشيئةٍ على ذلك؛ إذ لو شاء لما فعلتم ذلك، فزيدونا مِن هذا العلم[1]، وأتى بالضَّميرِ (نا) ليُصوِّر قوَّةَ المتكلِّم ومكانتَهُ السَّامية، وهو رسولُ اللَّه ﷺ، ففيه تعزيزٌ لمكانته وتقويةٌ له وتعزية.

قــصــارى مـا عندَكُم هو الظَّنُّ الباطلُ والخَرْصُ

أسلوبُ القَصْرِ ودلالتهُ:

في قوله تعالى ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، قصرُ موصوف هو (اتِّباعُهم) على صفةٍ هي (الظَّنُّ)، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، ويتولَّد عنه كنايةٌ لطيفةٌ عن ركاكة عقولِهم وسفههم.

تـمـكُّـنُ الـظَّـنِّ مـنـهـم حـتَّـى حجَبَ عنهم نورَ الحقِّ

بلاغةُ الاستعارةِ ودلالتُها في قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

في ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في لفظ الاتّباع استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة شبَّه فيها استسلامَهم للظَّنِّ الكاذبِ بالاتِّباع الحسِّيِّ في طريق تشبيهِ محسوسٍ بمعقولٍ، وسرُّها أنَّ استسلامهم للظُّنون وهواجس النَّفس الكاذبة قد سيطرَ على أفكارِهم كاملةً، حتَّى لكأنَّه يُرى بالعينِ الباصرة[2].

شيوعُ النَّفي بـ (إنْ) آكدُ وأقوى من (ما)

سِرُّ العدولِ عن (ما) النَّافيةِ إلى ﴿إِن﴾ الَّتي بمعناها:

يذكرُ النُّحاةُ أنَّ (إنْ) بمنزلة (ما) في نفي الحال، و(إنْ) تكاد تُطابق (ما) في وظيفتها، وأكثر وقوعها قبل (إلَّا) للجناسِ بينهما، نحو: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 40]، والحقيقةُ أنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ قد فرَّق بينهما في الاستعمالِ من خلالِ ما نلحظهُ مِنَ المخالفة بينهما، والعُدولِ عن حرفٍ إلى آخرَ منهما، فالنَّفيُ بـ(إنْ) آكَدُ مِن (ما)؛ يدلُّ على ذلك اقترانُها الكثير بـ(إلَّا)، وهذا ما يعطيها قوَّةً وتأكيدًا، فإنَّ في القصر قوَّةً، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44][1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ ودلالة المضارعيّة:

الاتِّـباعُ المقرونُ بالرُّضوخِ الكاملِ صفةٌ لازمةٌ لهم

الاتِّباع هو الإتيانُ بمثلِ فِعل الآخَر، لأجلِ أنَّ ذلك الآخَر فَعلَه؛ ثقةً بِهِ وتأسِّيًا بأقواله وأفعاله، ولأجلِ هذا آثر التعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ في الجملة الكريمة دونَ غيرِها؛ لما فيها مِن معنى الائتمارِ والامْتِثال الأعمى للمُتَّبع، وهذا الاتباعُ المقرونُ بالرُّضوخِ الكاملِ لغيرِهم مِنَ المشركين يكون صفةً متلازمةً فيهم أبدًا، ولأجلِ هذا أتى التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ، الدَّالِّ على الدَّوامِ والاستمرارِ.

سِرُّ العدولِ عن (إنْ أنتم إلَّا تظنُّون):

الإشـــارةُ إلى فسادِ طريقِهم، والـعـمـلُ على اسـتـمـالـةِ نفوسِهم

الجملةُ الكريمةُ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ نافيةٌ أن يكونَ دليلًا مُقنعًا أو مُلزمًا باليقين، ولكنَّهم يتَّبعون ظنًّا ترجِّحه أوهامُهم، وأكَّد أنَّ الظَّنَّ مبنيٌّ على أوهام بقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾، أي: ما هم إلَّا يخمِّنون تخمينًا قائمًا على الأوهام المضلِّلة، وقد ضلُّوا بذلك ضلالًا بعيدًا؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ بهذا الأسلوبِ، وقد حُذِفَ المتعلِّقُ لتذهبَ نفسُ السَّامعِ إلى كلِّ ظنٍّ مُمكنٍ هو إثم[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلظَّنَّ﴾، دونَ (الجهل):

الـظَّـنُّ أبـلـغُ عـبـارةً، وأدقُّ معنًى لمقابلةِ العلم

الجهلُ هو خلوُّ النَّفسِ مِنَ العِلم، أو اعتقادُ الشَّيءِ بخلاف ما هو عليه، وكذلك ضدُّ الحِلم لما في الباطنِ من فراغ يتمثَّل في السُّلوك بخفَّةٍ وطيشٍ وسَفَهٍ، أو من جفافٍ يتمثَّل في السُّلوك بجفاءٍ وغلظةٍ، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: 55]، أمَّا الظَّنُّ: فهو التَّردُّدُ الرَّاجحُ، وهو رُجحانُ طرفِ الإثبات على النَّفي، دون بلوغِ درجةِ العِلم، أو

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/258.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/251، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2721.

الإثباتِ، ويعني: أنَّهم يتَّبعون ظنًّا ترجِّحُه أوهامُهم، وليسَ مبنيًّا على عِلْم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ العلمِ والظَّنِّ:

الظَّنُّ: نوعُ أمَارةٍ لا تُطَابقُ الواقعَ، والعِلمُ: أمارةٌ تطابقُ الواقعَ

استُعمل الظَّنُّ - أحيانًا - في القرآنِ الكريم مُقابلًا للعِلم، وأُخرى مُقابلًا لليقين، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم: 28]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢﴾ [الجاثية: 32]، وقد عرَّف علماءُ اللُّغة (الظَّنَّ) مُرادفًا للشَّكِّ[1]، أمَّا الرَّاغبُ الأصفهانيُّ فيُقَدِّمُ تعريفًا آخر للظَّنِّ أكثرَ انسجامًا مع مواردِ استخدامِهِ في القرآن الكريم، إذ يقول: "الظَّنُّ: اسمٌ لما يحصل عن أمَارة، متى قويَت أدَّت إلى العِلْم، ومتى ضَعُفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم"، فالظَّنُّ نوعُ أمَارةٍ لا تطابقُ الواقعَ، والعِلمُ أمَارةٌ تطابقُ الواقعَ، وهذا هو الجامعُ بينَ اللَّفظين في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ على ما قبلَها:

العطفُ على سابقتِها بمنزلةِ النَّتيجةِ لها

وُصِلتْ هذه الجملةُ بما قبلَها؛ لأنَّ كلًّا منهما خبريَّةٌ في اللَّفظِ والمعنى، فبينَهما علاقةُ التَّوسُّطِ بينَ الكمالين؛ وعَطَفَها على سابقتِها؛ لأنَّها بمنزلةِ النَّتيجةِ لها.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾:

الفَزَعُ إلى الحقِّ والالتزامُ به

أفادَ الالتفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ كونَ المواجهةِ أرهبَ في نفوسِهم، ولِيَفزعوا إلى الحقِّ، ولِيَلتزموا قولَ الحقِّ، ولكنَّهم لا يعلمون[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظن).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظن).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2721.

فائدةُ أسلوبِ القصرِ في جملةِ: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾:

الجملةُ قصريَّةٌ كسابقتها؛ قُصِرَ فيها موصوفُ ﴿أَنتُمۡ﴾ على صفة ﴿تَخۡرُصُونَ﴾ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وجيءَ بضميرِ المخاطبِ، ولم يُصَرَّح باسمِهم تحقيرًا لهم، وزيادةً في بيانِ كَذِبهم، ولم يُستعمَل لفظُ الكذبِ، بل بُولِغ في ذلك، وقُصِرَ على الخرصِ، وهو أقبحُ أنواعِ الكذب.

التَّحقيرُ لهم، والتَّوكيدُ على اتِّصافِهِمْ بأقبحِ أنواعِ الكذب

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿تَخۡرُصُونَ﴾، ودلالةُ المضارعيّة:

الخَرْص: الأخذُ بالشَّيءِ من غير عِلم مُحقَّقٍ، يُقال: خَرَص النَّخلة، أي: قدَّر ما عليها من ثمرٍ قبل أن ينضَجَ، وهذا لا يكونُ إلَّا عن حَدْسٍ وتوهُّم، أشبهَ الرَّجمَ بالغيب، وقد استُعير هنا للمعنويَّات استعارةَ محسوسٍ لمعقولٍ للتَّشنيع عليهم، وفضحِ طرائقِهم في الاستدلالِ والاعتقاد[1]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدَّلالةِ على الاستمرار والتَّجدُّدِ في كَذِبهم وافترائهم.

بيانُ توهُّمِهم والتَّشنيعُ عليهم، والدَّلالةُ على استمرارهم في الكذب والافتراء

نُكْتَةُ تقديمِ اتِّباعِ الظّنّ على الخَرص:

قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ بإضرابٍ عَنِ الكَلامِ الَّذي قَبْلَه، فبَعْدَ أنْ تَهَكَّم بهم؛ جَدَّ في جوابِهم، فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[2]، أمَّا الفاصلةُ: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾؛ فقد جاءت مؤكِّدةً لمفهوم الجملةِ الأولى، فتقصُرُ ما عندَهم على الظَّنِّ الباطلِ والحزر والتَّخمين.

بيانُ مستواهم العقليّ، وأنَّ ما عندَهم قائمٌ على الظَّنِّ الباطلِ والتَّخمين

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/336.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/150.

مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]، لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها مِنَ البدء، ومِن ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾ أو ﴿عَبَدۡنَا﴾، وممَّا فيها بعد ذلك؟

آية الأنعام يسبقها قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]؛ فلمَّا كان السِّياق مُتعلِّقًا بما يدلُّ على صِدق الرَّسولِ ﷺ فيما سيحدُثُ مِن أقوالهم وأفعالهم قبل أن يقعَ؛ ناسَبهُ ذِكرُ ﴿سَيَقُولُ﴾، ولمَّا كان مِن أبرز مظاهرِ بغيهم إشراكُهُم باللّه؛ ناسَبهُ ذِكر الشِّرك، ولمَّا تقدَّم بيانُ كذبهم؛ ناسَبهُ أنَّهم ليسوا بِدعًا في ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾.

أمَّا آيةُ النَّحلِ؛ فيسبقها قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل: 34]، فلمَّا كان ذلك جزاءً لما مضى من أعمالهم؛ ناسَبهُ ذِكر ﴿قَالَ﴾، ولمَّا كان العملُ لما يُعبَد عبادةً تشملُ الشِّركَ وغيرَه؛ ناسَبهُ ذِكرُ ﴿عَبَدۡنَا﴾، ولمَّا كانت عبادةُ غيرِ اللّهِ، وتحريمُ ما لم يحرِّمْ أفعالًا قد فعلَها مَن قبلَهم؛ ناسَبهُ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

التَّشابُه بين آية الأنعام وآية النحل:

ومن التَّشابُهِ والاختلافِ بين آية الأنعام [148] وآية النَّحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النَّحل: 35]، فقد ذكرَ اللّهُ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مرَّتين، وقال: ﴿نَّحۡنُ﴾ فأكَّدَ الضَّمير؛ لأنَّ لفظَ العبادة يصحُّ أن يُنسبَ إلى إفرادِ اللّه بها؛ وهذا ليس بمستنكرٍ، بل المستنكرُ عبادةُ شيءٍ غير اللّه أو شيءٍ مع اللّه، فناسبَ هنا ذِكرُ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مع العِبادة، وأمَّا لفظ ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، فالإشراكُ يدلُّ على إثباتِ شريكٍ؛ فلا يتركَّب مع هذا الفعل لفظ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ لو كان التَّركيبُ في غير القرآن (ما أشركنا من دونه) لم يصحَّ معناه، وأمَّا من دونه الثَّانية؛ فالإشراكُ يدلُّ على تحريمِ أشياءَ وتحليل أشياء، فلم يحتجْ إلى لفظ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وأمَّا لفظُ العبادةِ؛ فلا يدلُّ على تحريم شيءٍ، كما دلَّ عليه لفظ (أشرك)، فقيَّدَ بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ولما حذف ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ هنا؛ ناسبَ أن يحذف ﴿نَّحۡنُ﴾؛ ليطَّرِدَ التَّركيب في التَّخفيف[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/682.

التَّشابُهُ بين آية الأنعام وآية يونس:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام: 148]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: 39]، لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها بعد قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟

آيةُ الأنعامِ يسبقُها قوله: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147] فلمَّا كان هؤلاءِ قد فعلوا ما يستوجبُ نزولَ البأسِ بهم؛ ناسبهُ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾، أمَّا آيةُ يونسَ؛ فقد بُدئَتْ بقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: 39]؛ فلمَّا كان معنى تأويلِه عاقبةَ ما فيه من الوعيدِ لمن كذَّبوا، وكان ذلك إشعارًا بقرب قدومِه، كما توحي بذلك ﴿وَلَمَّا﴾؛ ناسبهُ قوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشِّرك) و(الكُفر):

بين الشِّرك والكُفر خصوصٌ وعموم، فكُلُّ شِركٍ كُفرٌ، وليس العكس

الكفرُ اسمٌ يقع على ضُروبٍ من الذُّنوب، فمنها: الشِّركُ باللّه، والجحدُ للنُّبوَّة، واستحلالُ ما حرَّم اللّه؛ وهو راجعٌ إلى جحدِ النُّبوَّة، وغير ذلك؛ وأصلُهُ التَّغطيةُ، فالكفرُ خصالٌ كثيرةٌ، وكلُّ خصلةٍ منها تضادُّ خصلةً من الإيمان؛ لأنَّ العَبدَ إذا فعلَ خصلةً من الكفر، فقد ضيَّعَ خصلةً من الإيمان، والشِّركُ خصلةٌ واحدة، وهو إيجادُ آلهةٍ مع اللّهِ أو دونَ اللّه، واشتقاقُهُ يُنبئُ عن هذا المعنى، ثمَّ كثُر حتَّى قيل لكلِّ كفرٍ: شركٌ، على وجهِ التَّعظيم له والمبالغة في صفتهِ(1).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454، و455.

(عـنـد) أوسـعُ في الـدّلالـةِ على الظَّرفِ، و(لدن) تدلُّ على القربِ واللُّطفِ أكثر من (لدى)

(عند) و(لدى) و(لدن):

(عند) أوسعُ دلالةً في المعنى، وأكثرُ انتشارًا في الاستعمال، و(لدن) أخصُّ من (عند)؛ لأنَّها تدلُّ على ابتداءِ نهايةٍ[1]، وهي تدلُّ على الالتصاقِ والقُربِ الشَّديد، وهي تكاد تكونُ خاصَّة بالعنديَّة لدى الذَّاتِ العليَّة[2]، ولذلك وردتْ كثيرًا في الدُّعاء والمناجاة، وفي ما يؤتيه اللّهُ من أجرٍ[3]، و(لدى) أقلُّ التصاقًا من (لدن)، ودونكَ التَّفصيل:

ورد الظَّرفُ (عند) في القرآن الكريم سبعًا وتسعين ومئةَ مرَّةٍ (197)[4]، وورد الظَّرفُ (لدن) ثماني عشرةَ مرَّةً (18)، كلُّها خاصَّةٌ بالذَّاتِ العليَّة، ما عدا موضعًا واحدًا، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: 76]، وورد (لدى) اثنتين وعشرين مرَّةً (22)، في سياقاتٍ متنوِّعَةٍ، كلُّها تدلُّ على القُربِ وشِدَّة الإدراك مع شيءٍ مِنَ الامتدادِ، ونلحظُ اتِّفاقَ (لدن ولدى) في الحرفين الأَوَّلَيْن، (لد)، واختلافَهما في الحرفِ الثَّالثِ، ففي "(لدى) تضيفُ الياءُ معنى الامتداد مع اتِّصالٍ، وتعبِّر النُّون في (لدن) عنِ امتدادٍ جوفيٍّ لطيف، ويُعبِّر التَّركيبُ المختوم بها عن سَرَيان لُطفٍ ورقَّةٍ في الجوف"[5]، فكلاهما يدلُّ على القُربِ والامتدادِ المتَّصلِ، ولكنَّ امتدادَ النُّونِ في (لدن) فيه لُطف.

ذكر الفيُّوميُّ أنَّ (لدى ولدن) لا يُستعملان إلَّا في الحاضر، قال: يقال: لدنه مالٌ؛ إذا كان حاضرًا، ولديه مالٌ كذلك[6]. وبالنَّظرِ في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (لدن).

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4842.

(3) ما ذكره كثير من العلماء، كالعسكري في الفروق: 298، وابن الشجري في الأمالي: 1/341، 342، وابن هشام في مغني اللبيب: 1/136، وقد لخص جلَّ ذلك الدكتور امحمد صافي المستغانمي في برنامج (روائع القرآن) المنشور على (اليوتيوب) بتاريخ: 25/6/2020م.

(4) كما في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: (عند)، وبمصحف (آية) الإلكتروني، مع مراجعة العدد؛ للاستيثاق منه.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لدى).

(6) الفيومي، المصباح المنير: (لدن).

استعمالِ القرآنِ الكريمِ يمكننا أن نتلمَّسَ بعضَ الفروقِ الدَّقيقةِ؛ لإيماننا بإعجازِ القرآنِ وفوقيَّتِه وسُموِّ بلاغتِه؛ فقد وردا مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]،

مِن هذه الفروقِ ما يأتي:

أوَّلًا: (عند) مِنَ الظُّروفِ المكانيَّةِ - في الأصل - وقد تأتي لتَدُلَّ على الزَّمان.

ثانيًا: (عند) أوسعُ في الدّلالةِ على الظَّرفِ؛ فهي تدلُّ على الحضورِ الحسِّيِّ والمعنويِّ، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: 40].

ثالثًا: (عند) أكثرُ انتشارًا واستعمالًا في اللُّغةِ والقرآن الكريم.

رابعًا: (لدن) تدلُّ على القربِ واللُّطفِ أكثر من (لدى).

(الكذبُ) و(التَّخرُّصُ):

الخَرْص هو الحَزْر، وليس مِنَ الكذبِ في شيءٍ، والخرصُ ما يُحزرُ مِنَ الشَّيء، يُقال: كم خرص نخلك؟ أي: كم يجيءُ من ثمرتِه، وإنَّما استعمل الخرصُ في موضعِ الكذب؛ لأنَّ الخرصَ يجري على غيرِ تحقيقٍ، فشُبِّهَ بالكذِبِ، واستُعمل في موضعهِ.

الكذبُ ضِدُّ الصِّدق، وشُبِّهَ التَّخرُّصُ به لجريانه على غير تحقيق

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثباتُ الحُجَّةِ القاطعةِ للهِ الَّتي لا تغلبها حُجَّةٌ

بعد أن نفى عنِ المشركين أدنى ما يُقال له عِلْمٌ، وحصرَ ما هُم عليه مِنَ الدِّين في أدنى مراتب الظَّنِّ، مع أنَّ أعلاها لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ مِن شيءٍ؛ أثبتَ لذاتِه العليَّةِ في مقابلةِ ذلك الحجَّةَ العليا التي لا تعلوها حجَّةٌ، فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾: الحُجَّةُ في كلامِ العربِ مشتقَّةٌ من القَصْدِ؛ لأنها تُقصد، أو بها يُقصد الحقُّ المطلوب، يقال: حاججْتُ فلانًا فحججْتُهُ، أي: غَلبته بالحجَّةِ، وذلك الظَّفَر يكون عند الخصومةِ، والحجَّةُ: ما يُقصدُ بهِ إثباتُ ما لدى المخالفِ، بحيثُ لا يجد منه تَفَصِّيًا؛ ولذلك يُقال للَّذي غلبَ مخالفَه بحجَّتِهِ: قد حَجَّهُ، فالحُجَّة لا تُطلق حقيقةً إلَّا على البُرهانِ والدَّليل النَّاهض المُبكت للمُخالف، كما أنَّها الدّلالةُ المبيِّنةُ للمحجَّة، أي: المقصدُ المستقيمُ الَّذي يقتضي صحَّةَ أحدِ النَّقيضين[2].

2) ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: مؤنَّثُ البالغ: اسم فاعلٍ من فِعْلِ: بَلَغَ، والتَّاء: للمُبالغةِ، والبُلُوغ والبَلَاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمورِ المقدَّرة؛ ومعنى قوله: ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ هي الواصلة إلى ما قُصِدَتْ لأجلِه، وهو غَلْبُ الخصمِ، وإبطالُ حجَّتِه[3].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/156.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حج)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.
(3) الرّاغب، المفردات: (بلغ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.

المَعنى الإجماليُّ:

قُلْ يا أيُّها الرَّسول ﷺ لهؤلاءِ المشركين: إنْ لم تكن لكم حُجَّةٌ صحيحةٌ؛ فللّه الحُجَّةُ الواضحةُ الَّتي بلغتِ الغايةَ في الظُّهورِ والإقناعِ، والَّتي تنقطع عندها معاذيرُكم التي تقدِّمونها، وتبطلُ بها شُبَهكم التي تتعلَّقون بها، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولكنَّه تعالى تركَ للخَلْقِ أمرَ الاختيارِ في الإيمانِ والكُفر ليتمَّ التَّكليف.

حُجَّةُ اللهِ القاطعةُ أقوى مِن هذه الحُجَجِ الواهيةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ عمَّا قبلَها:

افتُتِحَتِ الآيةُ بتكرارِ الأمرِ بالقول، بِجَرْسِها القويِّ الَّذي يَهُزُّ المتلقِّي، ولعلَّ ذلك لاسترعاءِ الأسماعِ لما سيردُ بعد الفعلِ: ﴿قُلۡ﴾[1].

استرعاءُ الأسماعِ لما سيَرِدُ بعدَ الفعلِ

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ﴾، وتقديمُ المسندِ على المسندِ إليه:

الفاءُ فصيحةٌ تُؤْذِنُ بكلامٍ مُقدَّرٍ هو شرط، والتَّقدير: فإنْ كان قولُكم لمجرَّدِ اتِّباعِ الظَّنِّ والخرص وسُوءِ التَّأويل، فللَّهِ الحُجَّةُ البالغة، وقد أسهمَ تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿فَلِلَّهِ﴾ على المبتدأ في تأكيدِ المعنى المرادِ؛ إذ أفادَ هذا التَّقديمُ الاختصاصَ، أي: للَّهِ الحُجَّةُ البالغة، لا لكم. وحُسْنُ هذا الأسلوبِ يكمنُ في قيامِ جملةٍ واحدةٍ مقامَ جملتين، مع ما فيها من إيجازٍ وتأكيدٍ[2].

الأسلوبُ وحُسنهُ يكمنُ في قيامِ جملةٍ واحدةٍ مقامَ جملتين

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱلۡحُجَّةُ﴾ دونَ مرادفِه:

الحُجَّةُ تدلُّ على الرَّأيِ المستنيرِ، وأقربُ كلمةٍ تعبِّر عنها كلمة (البرهان)، والمعنى المحوريُّ للحُجَّة: تَجوُّفٌ كهفيٌّ صُلبٌ أو مَتين (يحمي ضعيفًا في داخله)، والحجَّة تحمي الرَّأيَ في داخلها. وفرَّقَ بعضُ أهلِ العلمِ بين لفظةِ (الحجَّة) ومرادفاتِها، فقالوا: اسمُ (الدَّليل) يقعُ على كلِّ ما يُعرف به المدلولُ، واعتبروا أنَّ (الدَّليل) ما

الحُجَّةُ أشملُ دلالةً من مرادفاتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/151.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/151.

كان مُركَّبًا مِنَ الظَّنيَّات، و(البُرهان) ما كان مُركَّبًا مِنَ القَطعيَّات، و﴿ٱلْحُجَّةُ﴾ مُستعملةٌ في جميع ما ذُكر، وكلُّ (سُلطَان) في القرآنِ فهو (حُجَّة)، وممَّا سبق: يتَّضِح أنَّ الحُجَّةَ أشملُ دلالةً مِن مرادفاتِها؛ لذا آثرَ القرآنُ استعمالَهَا في الآية[1].

بلاغةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾، وعلّة وصفِها بـ ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾:

حجَّةُ اللهِ: هي البيِّنةُ الواضحةُ في الدّلالةِ على الحقِّ

قُيِّدَتِ الجملةُ بالصِّفةِ بقوله: ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾؛ ولعلَّ هذا للتَّأكيد، أي: إنَّ حجَّةَ اللّهِ تعالى على خَلقهِ، هي البَيِّنةُ الواضحةُ الَّتي بلغت غايةَ المتانةِ والقُوَّةِ في الدَّلالةِ على الحقِّ، والَّتي تقطع عُذرَ كلِّ محجوج، ولا عجبَ في ذلك؛ إذ إنَّها حُجَّة اللّه العظيم ﷻ المتَّصف بكامل القُدرة، وكاملِ العلم.

وجهُ تفرُّدِ ذكرِ الحُجَّةِ ووصفِها بـ ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ في القرآنِ الكريمِ:

حجَّةُ اللهِ في غايةِ الظُّهورِ والإقناعِ، وينقطعُ عندها المخاصمُ

تَفرَّدَ ذِكْرُ الحُجَّةِ البالغةِ في القرآن الكريم؛ لأنَّ اللّه ﷻ صاحبُ الحجَّةِ البالغة؛ والبلاغةُ الَّتي تبلغُ المقصودَ، فتُبكت الجاحدين وتقرعُ المعاندينَ، ويظهرُ من خلالِ سياقِ الآيةِ الكريمة أنَّها أتتْ بعد جملةٍ من الآياتِ الباهرات المتعلِّقة بالخلقِ وبما امتنَّ به اللّه من النِّعم على النَّاس، وأنَّ المشركين حرَّموا مَا أحلَّ اللّه، فَطُولِبوا بالاستدلالِ على ذلكَ من جهةِ العِلم، فنكسوا على أعقابهم خائبين؛ لأنَّهم يسترسلون مع ظنونهِم، فمِن هنا كانت حجَّةُ اللّهِ تعالى بالغةً، ومن ذا الَّذي يمكنه الاعتراضُ عليها، إلَّا من سَفِهَ نفسهُ مِنَ المعاندين والمكابرينَ، فاللّه ﷻ يُوردُ الحُجَجَ على عباده، ويُصدرُ البراهين والبيِّنات عن ذاتِه العليَّة المقدَّسة، لماذا هذا كلُّه؟ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، وهذا الأمرُ مرتبطٌ بأسمائهِ الحسنى، وبخاصَّةٍ منها: العليم، الحكيم، والعدل،

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 440، ومحمد علي آدم، قرة عين المحتاج في شرح مقدمة صحيح مسلم بن الحجاج: 1/410.

فلا جرمَ أنَّ صدورَ الأدلَّةِ عنه سبحانه، وسوقَها على لسانِ رسلِهِ وأنبيائه، وبَعْثَهُم بها، هو من تجلِّيات هذه الأسماء المقدَّسة(1). أضف إلى ذلك أنَّ (بالغة)، معناها مُبلِّغةٌ صاحبَها أقوى الأدلَّةِ، كقولِ اللّه تعالى: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: 21]، أي: مَرْضِيٍّ بها، أو مرضيَّة، وإنَّ استعمالَ المشتقَّات بعضِها مكانَ بعضٍ، هو من أبلغِ البيانِ العربيِّ(2).

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾، وإيثار حرفِ (لو) دونَ غيرِهِ:

ظهورُ حجَّةِ اللّهِ تعالى عليهم، وبُطلانِ استدلالِهم

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾ فاءُ التَّفريعِ، الدَّالَّةُ على ظهورِ حُجَّةِ اللّهِ تعالى عليهم: تفرُّعٌ على بُطلانِ استدلالهم أنَّ اللّه لو شاءَ لهداهم، وجملةُ الشَّرط قُيِّدت بـ(لو) دون غيرِها، لما تحملُه من دلالةٍ، فـ(لو) إذا دخلتْ على الفعلِ المثبتِ نفتْهُ؛ فاللّه ﷻ لـمَّا قال: ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾، لم يكن الواقعُ أنَّه تعالى شاءَ هدايتَهم؛ ولو شاءها لوقعت(3).

سرُّ إيثارِ فعلِ المشيئةِ دونَ الإرادةِ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي:

المشيئةُ: المرحلةُ السَّابقةُ للإرادةِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ فعلِ المشيئةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ لأنَّ المشيئةَ: المرحلةُ السَّابقةُ للإرادةِ، أي: لو شاءَ اللّهُ تعالى؛ لأكرهَكُم، وأجبرَكُم على الهدايةِ، ولكن لم يشأ، وتركَ لكم حرِّيَّةَ الاختيارِ بينَ سلوكِ طريقِ الهدايةِ والإيمانِ، أو طريقِ الضَّلالِ، والانحرافِ(4).

الفرقُ بينَ الجملتين: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾، و﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾:

المشيئةُ المقصودةُ في الرَّدِّ عليهم مشيئةُ التَّكوين، والمشيئةُ المنكرةُ عليهم الرِّضا والمحبَّة

المشيئةُ المقصودة في قوله: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ﴾ غيرُ المشيئةِ المقصودةِ فيما حكى اللّهُ عنهم من قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، وإلَّا لما أنكرَ عليهم ما قد أثبتَ نظيرَه عقبَ الإنكارِ، فتتناقض

---

(1) محمد عوام، مقصد إصلاح التَّفكير الإنساني في القرآن الكريم، مقاصد القرآن الكريم، مجموعة بحوث، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2016، ص: 525.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2722.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/175، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/159، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/152.

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، الآية: 149، ومن سورة الأنعام.

المحاجَّة؛ لأنَّ الهدايةَ تساوي عدمَ الإشراكِ وعدمَ التَّحريم، فلا يصدقُ جَعْلُ كليهما جوابًا لـ(لو) الامتناعيَّة؛ فالمشيئةُ المقصودةُ في الرَّدِّ عليهم، هي المشيئةُ الخفيَّةُ المحجوبة، وهي مشيئةُ التَّكوينِ، والمشيئةُ المنكرةُ عليهم هي ما أرادوه من الاستدلالِ بالواقعِ على الرِّضا والمحبَّةِ(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾، ولم يقل: (جميعًا):

الغرضُ: تأكيدُ هدايتِهم (أجمعين)، وليس الإنكارُ عليهم يأسَهم من هدايةِ اللهِ النَّاسَ جميعًا

جاء هنا تقييدُ الجملة بالتَّوكيدِ اللَّفظي ﴿أَجْمَعِينَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولعلَّ الغرضَ منه ترسيخُ المعنى في ذهنِ السَّامع، مع ما في هذه الكلمةِ من شمول؛ فاللّه "سبحانه قادرٌ على هدايةِ خلقهِ كلِّهم؛ ولو شاءَ ذلك لفعلَهُ؛ لكمالِ قُدرته ونفوذ مشيئتهِ، ولكنَّ حِكمتَهُ تأبى ذلك(2)، فعدلَ عن قولهِ: (لَهَدَى النَّاسَ جَميعًا) إلى قوله: ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لما في مخاطبتِهم من مناسبة مقام الحُجَّة، وما في مجيء التَّوكيدِ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا من دلالةٍ على القِلَّة بالنَّظر إلى (جميع) الدالَّة على الكَثْرة. في حين وردَ في سورة الرعدِ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31]، فأتى بلفظٍ أعمَّ، وهو (النَّاس)، وبالحال (جميعًا) دالًّا على الكَثْرة؛ لمناسبة الاستفهام الإنكاريِّ لِما ينبغي أن يكونَ لدى المؤمنين من زوالِ يأسِهم، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا(3).

بلاغةُ تشابهِ الأطرافِ في الآيةِ:

في الآيةِ الكريمةِ (تشابُهُ الأطرافِ)، فقد بدا في مناسبةِ آخرِ الآيةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأوَّلها؛ وبيانُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/152.

(2) الضوء المنير على التفسير من كتب الإمام: ابن قيم الجوزية، جمعه: علي الحمد الصالحي، مؤسسة النور - عنيزة، الطبعة الأولى: 3/107.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/144.

هذا: أنَّ هذه الجملةَ الكريمةَ تضمَّنت أنَّه المتفرِّدُ بالرُّبوبيَّةِ والملك والتَّصرُّفِ في خَلْقِهِ، وأنَّه لا ربَّ غيرُهُ ولا إلهَ سواهُ، فكيف يعبدون معه إلهًا غيرَه؟! فإثباتُ القدَرِ والمشيئة مِن تمام حُجَّتِهِ البالغةِ عليهم، وأنَّ الأمرَ كلَّه للّٰه تعالى، وأنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللّٰه باطلٌ؛ فالقضاءُ والقدَر والمشيئة النَّافذة من أعظم أدلَّةِ التَّوحيد، فجعلها الظَّالمون الجاحدون حُجَّةً لهم على الشِّرك، فكانت حُجَّةُ اللّٰهِ ﷻ هي البالغة، وحجَّتُهم هي الدَّاحضة، فآخرُ الآيةِ - كما اتَّضح - انتظمَ ببلاغتهِ لفظًا ومعنًى، فكان امتدادًا مُحكمًا مُتناسبًا مع أوَّلها[1].

انتظامُ بلاغةِ آخر الآية (لفظًا ومعنًى) امتدادٌ مُحكَمٌ مع مطلعها

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحُجَّة) و(البرهان):

الحُجَّةُ هي الاستقامةُ في النَّظر، والمضيُّ فيه على سَنَنٍ مستقيم، من ردِّ الفرَع إلى الأصل، وهي مأخوذةٌ مِنَ الحَجَّةِ، وهي الطَّريقُ المستقيم؛ وتأثيرُ الحُجَّة في النَّفس كتأثير البرهانِ فيها، وإنَّما تنفصلُ الحُجَّةُ مِنَ البرهان؛ لأنَّ الحُجَّة مُشتقَّةٌ من معنى الاستقامة في القصدِ؛ حَجَّ يَحُجُّ؛ إذا استقامَ في قصدِه، والبرهانُ - على ما يراه أبو هلال العسكريُّ - لا يُعْرَف له اشتقاقٌ، وينبغي أن يكون لُغةً مفردة[2]، والصَّحيحُ أنَّهُ مِن: "بَرِهَ الرَّجل (كفَرِح): ثابَ جسمُه (امتلأ) بعد تغيُّرٍ مِن عِلَّةٍ، وأبره الرَّجلُ: غلب النَّاسَ، وأتى بالعجائب"، ومن ذلك البرهانُ؛ إذ بهِ قِوامُ الدَّعوى وصُلوحها؛ لأنَّهُ يؤيِّدُها، فتقوَى، وتَغلب، وبدونهِ تكون دعوى فارغةً، كما قال اللّٰه: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: 111]، فالبرهانُ: الدَّليلُ الذي يوقِعُ اليقينَ[3]، ويقالُ للحُجَّة أيضًا: البُرهَان، وعندَ النُّظَّار: الحُجَّةُ أعمُّ

الـحُـجَّـة: الاستقامة في النَّظر، وهي أعمُّ، والبُرهانُ: الدَّليلُ الذي يوقِعُ اليقينَ

(1) الصالحي، الضوء المنير على التفسير من كتب الإمام: 3/109.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/75، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بره).

منه؛ لاختصاصِه عندهم بيَقِين المُقدِّمات؛ وَمَا ثَبت به الدَّعْوَى من حَيْثُ إفادتُه للبيان يُسمَّى بَيِّنَةً، وَمن حَيْثُ الْغَلَبَةُ به على الخصم يُسمَّى حُجَّة، والمجادلةُ البَاطِلَة قد تُسمَّى حجَّة كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 16][1].

(البالغة) و(الدَّامغة):

البالغةُ هي الواصلةُ، أي: الواصلة إلى ما قُصدتْ لأجلِه، وهو غَلبةُ الخصم، وإبطالُ حجَّته، والدّامِغَةُ من الشِّجاجِ: هي التي تُهَشِّمُ الدِّماغ، وتَكْسِرُ عَظْمَ الجُمْجُمَة، ولا حَياةَ مَعَها غالِبًا، قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: 18]، أي: يكسر دِمَاغَهُ، وحجَّةٌ دَامِغَة كذلك، وهو استعارةٌ؛ حيث استُعير الدَّمغُ لمحق الباطلِ وإزالته[2]، ولذلكَ ناسبَ وصفُ الحجَّةِ في الآية الكريمة في سورة الأنعام بأنَّها: ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها - في السِّياق - غَلبةُ الخصمِ، وإبطالُ حُجَّتِهِ التي يتَّكِئ عليها، وليس قصمَهُ وإهلاكَهُ.

البـالـغـةُ ما يُتَوصَّل به إلى غَلبةِ الخصم وإبطالِ حُجَّتِهِ، والـدَّامـغـةُ استعارةٌ لمحقِ الباطلِ وإزالتِهِ

(أجمعين) و(جميعًا):

أنَّ (أجمعين) لا يستعملُ إلَّا تأكيدًا، كقولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]، ولا يصحُّ نصبُه على الحال، وأمَّا (جميعًا)؛ فإنَّه قد يُنْصَب على الحال، ويُؤَكَّد به من حيثُ المعنى، نحو قولِه تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38][3].

لفظ (أجمعين) يُستعمل للتَّأكيد فقط، وأمَّا (جميعًا) فحالٌ مُؤكّدة للمعنى

(1) الكفوي، الكليات، ص: 406.
(2) الرّاغب، المفردات: (دمغ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151، و17/34.
(3) الرّاغب، المفردات: (جمع).

﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استدراجُ الكفَّارِ إلى إسقاطِ أدلَّتِهم

لـمَّا أبطلَ اللهُ تعالى على الكفَّارِ جميعَ أنواعِ حُجَجِهِم بيَّن أنَّه ليس لهم على قولِهم شهودٌ البتَّةُ؛ تقصِّيًا لإبطال قولهم من سائرِ جهاتهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَلُمَّ﴾: هَلُمَّ، أَي: أقبِلْ، وهَلُمَّ دعاءٌ إلى الشَّيءِ، وهي اسمُ فعل أمر للحضورِ أو الإحضارِ، فتكونُ قاصرةً، كقولهِ تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾ [الأحزاب: 18]، وتكون متعدِّيةً كما هنا، وهو في لغةِ أهلِ الحجاز يلزمُ حالةً واحدة، فلا تلحقهُ علاماتٌ مناسبة للمخاطب، فتقول: هلمَّ يا زيدُ، وهلمَّ يا هند، وهكذا، وفي لغة بني تميم تلحقُهُ علاماتٌ مناسبة، يقولون: هلمِّي يا هند، وهلمَّا، وهلمُّوا، وهَلْمُمْنَ، وقد جاء في هذهِ الآيةِ على الأفصحِ، فقالَ: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، وقيل: أَصْلُهَا: (هَلْ أَؤُمُّ)، كلامُ مَن يُريدُ إتيانَ الطَّعامِ، ثم كَثُرَتْ حتى تكلَّم بها الدَّاعي، والمعنى في الآية: أَحْضِرُوهُمْ[2].

2) ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾: الاتِّباعُ: التُّلُوُّ لِلآخَرِ، يُقال: اتَّبَعْتُ القَوْمَ، وتَبِعْتُهُم، تَبَعًا وتِباعًا، أَيْ: تَلَوْتُهُم، ويأتي بمعنى الاقْتِداءِ، والاتِّباعُ والـمُتابَعَةُ أيضًا: الإحْكامُ والإتْقانُ، وتابَعَ عَمَلَهُ؛ إذا أَتْقَنَهُ وأَحْكَمَهُ، وأَصْلُ الاتِّباعِ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشِي، والـمَشْيُ خَلْفَهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153.
(2) السجستاني، غريب القرآن، ص: 491، 494، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (هلم)، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/335، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153.

العَمَلِ بِعَمَلِ الآخرِ، ويُطْلَقُ الاتِّباعُ والإتْباعُ على اللَّحاقِ بالشَّيْءِ، فيُقال: اتَّبَعْتُ القَوْمَ؛ إذا كانوا قد سَبَقُوك فَلَحِقْتَهُم. ومِن مَعانيه أيضًا: الائْتِمارُ والامْتِثالُ، والمعنى هنا: عدمُ موافقةِ المشركينَ على ما هم عليهِ مِنَ الباطلِ[1].

3) ﴿أَهْوَآءَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ: الخُلُوُّ والسُّقُوطُ، يُقال: هَوَى الشَّيءُ، أيْ: سَقَطَ، ومنه سُمِّيَ هَوَى النَّفسِ بذلك؛ لأنَّهُ خالٍ من كُلِّ خَيْرٍ، ولأنَّهُ يَهْوِي بِصاحِبِهِ في المَهالِكِ، والهَوَى: مَحَبَّةُ الإنْسانِ لِلشَّيْءِ، يُقال: هَوَى الطَّعامَ، يَهْوِيه، هَوًى، أي: أَحَبَّهُ، ويأْتي بمعنى الإرادَةِ والمَيْلِ لِلشَّيْءِ، سواءٌ كان حَقًّا أو باطِلًا، فيُقال: سارَ على هَواهُ، إذا فَعَلَ ما أَرادَ، والهَوَى أيضًا: الباطِلُ والضَّلالُ، ومِنْهُ سُمِّيَ أَهْلُ الباطِلِ بِأَهْلِ الأَهْواءِ[2].

4) ﴿يَعْدِلُونَ﴾: العدلُ: له أصلانِ صحيحانِ، لكنَّهما متقابلانِ كالمتضادَّين: أحدهما يدلُّ على استواءٍ، وهو: مَا قَامَ في النُّفُوسِ أنَّه مُستَقِيمٌ، والآخرُ يدلُّ على اعوجاجٍ، وهو المرادُ هنا في الآية، يقال: عَدَلَ الكافرُ بربِّه عَدْلًا وعُدُولًا: سَوَّى به غيرَه، فعَبَدَهُ، فأشرَكَ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إبطالُ حُججِ الكفَّارِ، لتفنيدِ دعاويهم الباطلة

قُلْ أيُّها الرَّسولُ لهؤلاءِ المشركين الَّذين يحرِّمون ما أحلَّ اللّٰه، ويدَّعون أنَّ اللّٰه هو الَّذي حرَّمه: أحضِروا شهودكم الَّذين يشهدون أنَّ اللّٰه حرَّم هذه الأشياءَ الَّتي حرَّمتموها، فإنْ شهدوا بغير عِلم على أنَّ اللّٰه حرَّمها، فلا تصدِّقهم - أيُّها الرَّسول - في شهادتهم؛ لأنَّها شهادةُ زُورٍ، ولا تتَّبع أهواءَ الَّذين يُحكِّمون أهواءَهم، فقد

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هوي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

كذَّبوا بآياتنا حين حَرَّموا ما أحلَّ اللّٰه لهم، ولا تتَّبع الَّذين لا يُؤمنون بالآخرة، وهم بربِّهم يُشركون، فيساوون به غيرهِ؛ وكيف يُتَّبَع مَن هذا مسلكه مع ربِّه؟!(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾:

اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ: لِلانْتِقَالِ مِنْ طَرِيقَةِ الْجَدَلِ وَالْمُنَاظَرَةِ فِي إِبْطَالِ زَعْمِهِمْ، إِلَى إِبْطَالِهِ بِطَرِيقَةِ التَّبْيِينِ، أَيْ: أَحْضِرُوا مَنْ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّٰه حَرَّمَ هَذَا، تَقَصِّيًا لِإِبْطَالِ قَوْلِهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِه. وَلِذَلِكَ أُعِيدَ أَمْرُ الرَّسول ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا يُظْهِرُ كَذِبَ دَعْوَاهُمْ؛ فأمر اللّٰه -تعالى- رسولهُ ﷺ بأن يطالبَ المشركين بإحضارِ من يشهدُ لهم بأنَّ اللّٰه قد حرَّمَ عليهم ما زعموا تحريمَهُ من الحرثِ والأنعامِ وغيرها(2).

الـتـرقِّـي في إبـطـالِ زعـمِـهـم من الـجـدلِ إلى التَّبيينِ

سِرُّ تكرارِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾، والعدولِ عن مخاطبتِهم:

إعادةُ فعلِ ﴿قُلۡ﴾ بدون عطفٍ؛ لاسترعاءِ الأسماعِ، ولوقوعهِ على طريقةِ المحاورةِ، والأمرُ هنا بمعنى التَّكذيب(3)، أمَّا عِلَّةُ العدولِ عن مخاطبتِهم هو فهي انتقالُ التَّعبيرِ من طريقةِ الجدَلِ والمناظرةِ في إبطالِ زعمِهم إلى إبطالهِ بطريقة التَّبيينِ(4).

انتقالُ التَّعبيرِ مـن طـريـقـةِ المناظرةِ في إبطالِ زعـمِـهـم إلى طريقةِ التَّبيينِ

معنى ﴿هَلُمَّ﴾، ودلالةُ التَّعبيرِ بهِ دونَ غيرِه:

﴿هَلُمَّ﴾: لفظٌ يقصدُ به الدَّعوةُ إلى الشَّيء، وهي اسمُ فعلٍ بمعنى: أقبل؛ إذا كان لازمًا، وبمعنى: أحضِر، وائتِ؛ إذا كان مُتعدِّيًا كما هنا، ويستوي فيه الواحدُ، والمثنَّى، والجَمْع، والمذكَّر، والمؤنَّث في لُغةِ الحجازيِّين.

اسـمُ فـعـلِ أمـرٍ بـمـعـنـى (أَحْـضِـروا)؛ فالأمرُ به يحتاجُ إلى استعطافِ المأمورِ واستدعاءِ إقبالهِ

---

(1) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/206.

(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/468.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ153.

والَّذي عليه النَّحويُّون أنَّ (هَلُمَّ) ليس صوتًا، وإنَّما هو مُركَّب مُختلفٌ في أصل تركيبِه، فقيل: هو مركَّبٌ من (هَا) الَّتي للتَّنبيه، و(لُمَّ)، وهو مذهب البصريين، وقيل: من هَلْ وأمَّ، أرادوا بهل: أقبل، وأُمّ، أي: اقصد، فأمَّا الهاءُ اللَّاحق لها أوَّلًا، فهي من (ها) الَّتي للتَّنبيهِ لحقتْ أوَّلًا؛ لأنَّ لفظَ الأمرِ قد يحتاجُ له إلى استعطافِ المأمورِ واستدعاءِ إقبالهِ على الأمر، فهو لذلك يقربُ مِنَ المنادى(1).

فائدةُ إضافةِ ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ إلى ضميرِ المخاطبين:

التَّلويحُ بميلِ شهدائِهم عنِ الحقِّ

أُتي بكلمة ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ مُعرَّفةً بإضافتِها إلى ضميرِ المخاطبين، وهم المشركونَ، ولم يكن التَّعبيرُ بالتَّنكيرِ كما في غيرِ القرآنِ: (هلمَّ شهداءَ يشهدون)، ولعلَّ السِّرَّ في هذا، الإشارةُ إلى أنَّ ما لدى الكفَّارِ من شهداءِ، هم شهداءُ تمَّ إعدادُهم مُسبقًا بما تشتهي نفوسُهم، فالكفَّارُ يثقون بهم، ويعتضدونَ بشهادَتِهم، فلذا أُضيفت كلمةُ (شهداء) إلى ضميرِ الكفَّارِ. ولو قال: (شُهَداء) من غيرِ إضافة، لأَفْهَمَ أنَّ المَطْلوبَ مَنْ يَشْهَدُ بالحَقِّ، وليس كذلك؛ لأنَّه أُقيمَ الدَّليلُ العَقليُّ على أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وأنَّ الحُجَّةَ للّه على خِلافِ ما ادَّعَوْه، فبَطَلَ قَطْعًا أنْ يكونَ أحَدٌ يَشْهَدُ على ذلك بِحَقٍّ(2).

علَّةُ الوصفِ باسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ﴾:

زيـادةُ تقرير معنى إعدادِ أمثالِهم للشَّهادَةِ

وَصَفَ الشُّهَداءَ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ﴾؛ لزيادةِ تقريرِ معنى إعدادِ أمثالِهم للشَّهادةِ، فهم مُؤمنونَ بالشِّهادةِ لهم وبنصرةِ دعاويهم الكاذبةِ.

كما أنَّ مجيءَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهم شهداءُ معروفون موسومون بالشَّهادَةِ لهم وبنصرةِ مذهبهم، والدَّليلُ عليهِ قولُهُ تعالى:

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 8/518، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/176، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463، والآلوسي، روح المعاني: 11/161، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/210.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/463، والبقاعي، نظم الدرر: 7/314، والآلوسي، روح المعاني: 11/161، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/210.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾، ولو قيل: "هلُمَّ شهداء يشهدوا"؛ لكان معناه: هاتوا أناسًا يشهدوا بتحريم ذلك، فكان الظَّاهر طلبَ شهداء بالحقِّ، وذلك ليس بالغرض[1].

نكتةُ الجناسِ غيرِ التَّامِّ في ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ و﴿يَشۡهَدُونَ﴾:

مجيءُ الفعلِ مِن جنسِ الشَّهادةِ فَضْحٌ لنيَّاتِهم وخُطَطِهم في إعدادِهم للشَّهادَةِ

أفادَ الجناسُ غيرُ التَّامِّ في الآية تخصيصَ نوعٍ من المشركين؛ ليكونوا شهداء زُورٍ دون غيرهم، وهم الَّذين لديهم القابليَّةُ على تزوير الحقائقِ على غيرِ عادةِ العَربِ؛ وذلك لأنَّ أماثل العَرب لَا يشهدون كاذبين، وإن كانوا كافرين؛ ولكنَّ حالَ تكذيبهم للنَّبي ﷺ واتِّباعهم أهواءهم، وسيطرةَ الأوهام عليهم قد تغلبُ عليهم نزعةُ الصِّدقِ؛ ولذا كان أمرُ اللهِ تعالى الَّذي أمره بدعوتهم بأنَّهم إن شهدوا بالباطلِ، وليس بمستحيلٍ على مَن أشركَ؛ فقد تدفعهُ لجاجةُ الكفر إلى أن يطمسَ معالمَ الحقِّ، فيكذب؛ إنْ شهدوا بغير الحقِّ ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ أي فلا تُصدِّقْهُم؛ لأنَّ الهوى قد يَغلبهُم على سَجيَّتهم؛ ومَن يُشرك لا يُؤمَنُ كذبهُ ولو كان من أهل الصِّدق[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ دون غيرِه وصيغةِ المضارع:

التَّعجيزُ لهُم، فلا يجدون مَنْ يُدلي بأنَّ اللهَ حَرَّمَ ما نَسبوهُ إليهِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارع ﴿يَشۡهَدُونَ﴾؛ إذ المقصودُ منه التَّعجيزُ، فلا يَلقَون شُهداء يشهدون أنَّ اللهَ حرَّم ما نسبوا إليه تحريمه من شؤونِ دينهم.

وفي إطلاقِ اسمِ الشَّهادةِ على التَّسليم لهم وموافقتهم وتصديقهم في الشَّهادةِ الباطلةِ، استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، ويصحُّ أن يكونَ مجازًا مرسلًا من إطلاقِ اللَّازمِ وإرادةِ الملزوم؛ لأنَّ الشَّهادةَ مِن لوازمِ التَّسليمِ[3].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/72، والطِّيبي، فتوح الغيب: 6/289، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2724.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/265.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَاۖ﴾:

الإشــــارةُ إلى مـعـلـومٍ مِـنَ السِّياقِ، وإيجازِ العبارةِ

إشارة ﴿هَٰذَاۖ﴾ تشير إلى معلومٍ مِنَ السِّياق، وهو ما كان الكلام عليه مِن أوَّلِ الجدالِ من قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ [الأنعام: 143] الآيات، وقد سبقت الإشارةُ إليه أيضًا بقوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 144][1]. واستعمالُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَاۖ﴾ - هنا دون تفصيلٍ أو تعدادٍ - فيه إيجازٌ حسَن.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

بيانُ شهادتِهم الكاذبةِ، ولإلقاءِ المهابةِ في قلوبِ المخاطبين

في قوله: ﴿يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ انتقلَ من الغيبةِ في ذكرِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ إلى التَّكلُّم في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولم يقل: بآياتِ اللّه؛ لأنَّ شهادتَهم جرتْ كذبًا على ألسنتِهم، فناسبَ ذكرُ اسم الجلالةِ؛ لإلقاءِ المهابةِ في قلوبِ المخاطبين، فلمَّا ذكرَ افتراضَ شهادتِهم؛ التفتَ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم؛ لانتقالِ قضيَّتِهم من مجرَّدِ مجادلةٍ مع الرَّسولِ إلى جريمةِ الكذبِ وشهادةِ الزُّورِ في حقِّ اللّه ﷻ، فحسُنَ الانتقالُ إلى التكلُّم المعظِّم نفسَه، وكأنَّهُ يقولُ لنبيِّه ومصطفاه: خلِّ بيني وبين هؤلاء الكاذبينَ، نحو قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾:

الإفـصـاحُ عن جــوابِ شـرطٍ مقدَّرٍ

الفاءُ فاءُ الفصيحةِ؛ لأنَّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ تقديرُهُ: إذا عرفتَ ما قلتُ لك، وأردتَ بيانَ حكمِ ما إذا شهدوا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) دون (إذا):

دخولُها على ما كان مشكوكًا في وجــودِه، وهي شهادتُهم

عبَّر بـ (إن) لأنَّها تدخلُ على ما كان مشكوكًا في وجودِه، وهي شهادتُهم، أمَّا (إذا)؛ فتُستعمل لِما كان مقطوعًا به، مؤكَّدًا وجودُهُ، وهذا غيرُ مُتَحَقِّقٍ في الآيةِ الكريمة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/154.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/149.

بلاغةُ الجناسِ غيرِ التَّامِّ في فعلِ الشَّرطِ وجوابِهِ:

الإشارةُ إلى تحذيرِ المخاطبِ من هذهِ الشَّهادةِ، ولزيادةِ التَّنفيرِ من شهادتهم

مجيءُ الجوابِ من جنسِ حروفِ فعلِ الشَّرط من قبيلِ جناسِ الاشتقاقِ، وهو لافتٌ للانتباه، ففيهِ إشارةٌ إلى تحذيرِ المخاطب من هذه الشَّهادةِ قبل نهيهِ عن شهادتِهِ معهم، والعدول عن قولِه: فإن شهدوا؛ فلا تفعل، للرَّبط بين فعلِ الشَّرط ﴿شَهِدُواْ﴾ والجوابِ ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ﴾؛ ولزيادةِ التَّنفيرِ من شهادتهِم.

بلاغةُ المشاكلةِ:

التَّنبيهُ على عِظَمِ ما افترَوا بهِ على اللهِ تعالى

شاهِدِ المشاكلةَ في قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾؛ فقد أُقيم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ مقامَ: فلا تصدِّقهم، أو فلا توافقْهم، أو لا تسلِّمْ لهم[1]؛ لتُشاكِلَ قولَهِ: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾.

والسِّرُّ في هذِهِ المشاكلةِ - واللهُ أعلمُ - التَّنبيهُ على عِظَمِ ما افتروا بِهِ على اللهِ تعالى، وأنَّ تصديقَهم في ذلك الافتراءِ، أو التَّسليمَ لهم بصحَّته، أو عدمَ تكذيبِهم، يجعلُ صاحبَهُ ينتظم في صفِّهم كأنَّهُ منهم، وكأنَّه شهدَ معهم، والقرينةُ حاليَّةٌ؛ إذ لا يُظَنُّ أنَّه ﷺ سيشهدُ معهم بمثلِ ما قالوا، فمعنى ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ﴾، أي: لا تصدِّقْهُم بل كذِّبهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ:

إظهارُ أنَّهُ لا شاهدَ لهم على ما اختلقوهُ من عندِ أنفسِهم

هذا تنبيهٌ مِنَ اللهِ باستدعاءِ الشُّهودِ مِنَ الكافرين على تحريم ما حرَّموهُ على أنفسِهم، وقالوا: إنَّ اللهَ أمرنا بهِ ليظهرَ أنْ لا شاهدَ لهم على ذلك، وإنَّما اختلقوهُ من عندِ أنفسِهم[2].

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾:

في الجملةِ الكريمة مجازٌ مرسلٌ، حيثُ أطلقَ اللَّازمَ وأرادَ الملزوم؛ لأنَّ الشَّهادةَ من لوازمِ التَّسليمِ، والمعنى: فلا تُصدِّقهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/78، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463.

(2) الخازن، لباب التأويل: 2/171.

فإنَّه كذبٌ بحت، وبيَّنَ لهم فسادَهُ؛ لأنَّ تسليمَهُ منهم موافقةٌ لهم في الشَّهادةِ الباطلةِ؛ والسُّكوتُ قد يُشعر بالرِّضا، وفي الجملةِ الكريمة طِباقُ السَّلبِ بين ﴿شَهِدُواْ﴾ و﴿تَشۡهَدۡ﴾.

التَّعبيرُ بالنَّهي عَـنِ الشَّـهـادةِ يـوحي بـمكانةِ المـخـاطـبِ عندَ اللهِ

وجائزٌ القولُ: إنَّ فيه استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، حيث استعار اسمَ الشَّهادةِ على التَّسليم لهم وموافقتهم وتصديقِهم في الشَّهادةِ الباطلةِ، ثمَّ اشتقَّ منه الفعلَ ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ﴾، بمعنى: لا تُصدِّقهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾:

للسَّائل أن يسألَ: لِمَ قال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾، فهلَّا قيل: فإن شهدوا فلا تقبلْ شهادتَهم؟

نفيُ الشَّهادةِ مـعـهـم لَا يـسـتـلـزمُ نفيَ قبولِها

والجوابُ عن ذلك: أنَّ نفيَ الشَّهادةِ معهم لَا يستلزم نفيَ قبولِها، والجوابُ في عدم قبولِ الشَّهادةِ لأحدِ أمرين: إمَّا لفسقِ الشَّاهدِ، وإمَّا لِمَظِنَّةٍ أو تهمةٍ؛ كشهادةِ الولدِ لأبيهِ أو لأخيهِ[1].

فائدةُ الظَّرفِ ﴿مَعَهُمۡۚ﴾:

رفـــــضُ شهادَتِهم؛ إذ تعديلُ الحاكمِ الشَّاهدَ شهادةٌ معَهُ

أفادَ عدمَ قبولِ الشَّهادةِ؛ لأنَّ تعديلَ الحاكمِ الشَّاهدَ شهادةٌ معهُ، بدليلِ قولِه: ﴿مَعَهُمۡۚ﴾، ولم يقل: فلا تشهَدْ بالإطلاقِ[2]، قال القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي في قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾: "فهذا دليلٌ على أنَّ الشاهد إذا قال ما قامَ الدليلُ على بطلانه فلا تُقبل شهادته"[3].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ على ما قبلَها:

المناسبةُ بينَ المتعاطفين في الجملةِ الإنشائيَّةِ

نهى عن تصديقهم، ثم عطفَ على ذلكَ نهيَهُ عن اتِّباعِ أهوائهم بقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لما بينهما من تناسبٍ؛ إذ كلاهما جملةٌ إنشائيَّةٌ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/198 - 199.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/199.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن، 2/213.

بلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

أقامَ سبحانه أهواءَ القومِ مقامَ الدُّعاةِ إلى الهلاكِ

في الجملةِ الكريمةِ استعارةٌ، والمرادُ: ولا تُطِع أمرَهُم، ولا تُجِب داعيَهم؛ فأقامَ سبحانه أهواءَهُم مقامَ الدُّعاةِ إلى الرَّدى، والهداةِ إلى العمى.

إيثارُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ بدلًا من الاسمِ:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الكذبِ فيهم، وبيانُ عِظَمِ جُرْمِهم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فجيءَ بالاسمِ الموصولِ؛ لتكونَ جملةُ الصِّلة تعليلًا لنهي المخاطبِ عن اتِّباع أهوائِهم، ولم يقل: (ولا تتبع أهواء المكذّبين) للدَّلالة على تحقُّقِ الكذبِ فيهم، ووقوعِهِ منهم عمدًا لا غفلةً، ولبيانِ عظم جُرْمِهم، وتكذيبِهم بآياتِ اللّه.

وضعُ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

بيانُ أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ هواهُ لا غيرُ

قولهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وُضِعَ المُظْهَر مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ لم يقُلْ: (ولا تتَّبِعْ أهواءَهم)؛ تعميمًا، وتعليقًا للحكم بالوصفِ، وللدَّلالةِ على أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعُ الهَوى لا غيرُ، وأنَّ مُتَّبِعَ الحُجَّةِ لا يكونُ إلَّا مُصَدِّقًا بها[1].

فائدةُ تقييدِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ:

الإشارةُ إلى عظيمِ جُرْمِهم، وانطماسِ بصائِرِهم

للدَّلالةِ على عظيمِ جُرْمِهم، وانطماسِ بصائرِهم؛ إذ إنَّ مَن يكذِّبُ بالآياتِ، وهي بيِّناتٌ واضحاتٌ، فهو لغيرِها أشدُّ تكذيبًا، وأعظمُ جرأةً؛ ومَثَلُه كمَثَلِ مَنْ أنكرَ طلوعَ الشَّمسِ في رابعةِ النَّهارِ، ولِلّهِ درُّ القائلِ[2]:

قَد تُنكِرِ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ *** وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/78، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/684، والبقاعي، نظم الدرر: 7/315، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/197.

(2) البيت من قصيدة البردة للبوصيري، من بحر البسيط، وهو في ديوانه.

سِرُّ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ المعظِّم نفسَهُ (نا):

إبرازُ الاعتناءِ بآياتِ اللهِ تعالى

سرُّ إضافة (الآيات) إلى ضميرِ المتكلِّم (نا) الدَّالِّ على الجمعِ والعَظَمَةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لإبرازِ الاعتناءِ بشأنِ آياتِ اللهِ تعالى.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ على ما قبلَها:

قوَّةُ العلاقةِ بين المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ والكافرينَ بالآخرةِ

عطفُ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فالموصولُ في موضعِ جرٍّ مضافٌ إليهِ بإضافةِ ﴿أَهۡوَآءَ﴾ إليها، أي: فلا تتَّبع أهواءَ هؤلاءِ ولا هؤلاء.

وهذا العطفُ يشيرُ إلى قوَّةِ العلاقةِ بين المكذِّبين بآياتِ اللّهِ والكافرين بالآخرة، وأنَّ الإيمان بهذا يقتضي الإيمانَ بذاك، وقد يكونُ في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تعريضٌ بهؤلاء المكذِّبين، وإشارةٌ إلى سببِ تكذيبِهم بآياتِ اللّه، وهو خوفُهم من ضياعِ هيبتِهم وسيادتِهم ودنياهم، فلو أنَّهم آمنوا بالآخرةِ، وأنَّ ما عندَ اللّهِ خيرٌ؛ لآمنوا بآياتِ اللّه.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الموصولِ في ختامِ الآيةِ:

زِيادَةُ التَّشْهيرِ بِهِمْ

لما وصفَهم اللّهُ ﷻ بالتَّكذيبِ، أتبعَهُ الوَصْفَ بعدمِ الإيمانِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وفي عطفِ الوصفينَ بالواوِ دلالةٌ على عراقةِ الموصوفين - المشركين - في كلٍّ من الوصفين[1].

كَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أن لا يُعَادَ اسْمُ الْمَوْصُولِ؛ لِأَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ مُغْنٍ عَنْهُ، وَلَكِنْ أُجْرِيَ الْكَلَامُ على خلاف مقتضى الظَّاهِرِ لِزِيَادَةِ التَّشْهِيرِ بِهِمْ، كَمَا هُوَ بَعْضُ نُكَتِ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ.

أو أُرِيدُ بِالَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ: الَّذِينَ كذَّبوا الرَّسول - عليه السلام - وَالْقُرْآنَ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ، وَبِالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: الْمُشْرِكُونَ[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/315.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/155.

بلاغةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على خبرِهِ الفعليِّ:

في قولِهِ: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ قُدِّمَ المسندُ إليهِ (هُمۡ) على المسندِ، وهو الجملةُ الفعليَّةُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؛ لتقويةِ الخبرِ، والدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام، فلا تردُّهم إلى عبادةِ ربِّهم نعمةٌ مهما تكن عظيمةً، ولا تنفعهم آيةٌ مهما تكن مؤثِّرة.

تقويةُ الخبرِ، والدَّلالةُ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، والتَّعجيبُ من هؤلاءِ الجاحدين

وقد يجدُ المتأمِّلُ في تقديمِ المسندِ إليهِ رائحةَ التَّخصيصِ والقصرِ (قصر موصوف على صفةٍ)، وكأنَّه لم يفعلْ تلكَ الفِعْلَةَ أحدٌ غيرهم، للمبالغةِ في عُدولهِم عن الحقِّ إلى الباطلِ، ومساواتهم ربَّهم - ذا النِّعَمِ والإفضال الكبيرَ المتعال - بغيرِهِ من الآلهةِ المزعومة، وفي ذلك ما فيه من التَّعجيبِ من هؤلاءِ الجاحدين الَّذين أنعمَ اللّٰهُ عليهم بنعمٍ كثيرةٍ، منها ما قصَّه عليهم في السُّورةِ السَّابقةِ (سورة المائدة) من قولِه: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، فأهلُ مكَّةَ ومَن حولها هُم النَّاس، فكان الأجدرُ بهِم أن يؤمنوا بربِّهم، لا أن يعدلوا به غيرَهُ.

وهذا من بديع تناسبِ التَّرتيبِ المصحفي بين المدنيِّ والمكيِّ، حيثُ إنَّ سورة المائدةِ مدنيَّةٌ، وسورة الأنعامِ مكيَّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الظَّاهرِ في ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾:

خرجَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ إذ كان مقتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: يعدلونَ به، ولعلَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الظَّاهرِ فيه تعظيمٌ له ﷻ، كما فيه زيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ عليهم؛ فهم أشركوا ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ أي: المحسنِ إليهم الَّذي لا إحسانَ، ولا فضلَ إلَّا منهُ[1].

التَّعظيمُ له ﷻ، وزيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ عليهم

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعلِ:

دلَّ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعلِ مزيدَ الاهتمامِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/196.

مزيدُ الاهتمامِ بهِ، والمسارعةُ إلى تحقيقِ مدارِ الاستبعادِ، والمحافظةُ على الفواصلِ

بهِ، وللمسارعةِ إلى تحقيقِ مدارِ الاستبعاد والتَّعجيب، وفيه - أيضًا - المحافظةُ على الفواصلِ؛ وفي اختيارِ اسم الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضميرِهم، تشنيعٌ عليهم، فهم يشركونَ بمَن لا نعمةَ إلَّا منه، ولا خيرَ إلَّا من فضلهِ وإنعامهِ وحدَه.

إيثارُ الفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ودلالةُ صيغةِ المضارعِ:

الدِّلالةُ على أشنعِ الظُّلمِ وأقبحِه، وتجدُّدِ هذا الفعلِ منهم وحدوثه

معنى ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، أي: يُسوُّون، يُقال: عَدَلْتُ هذا بهذا؛ إذا ساويتُه به[1]، فاللّه ﷻ هو المتفرِّدُ بالخلقِ والإنعامِ وحده لا شريك له، ثم يأتي الَّذين كفروا، فيجعلون له عِدْلًا يحبُّونه، ويعبدونه كما يحبُّون اللّه - تعالى - ويعبدونه، فيا لهُ من عِدْلٍ تضمَّن أكبرَ الظُّلم وأقبحَهُ![2]

ولعلَّ دلالةَ التَّعبيرِ عن عدلهم باللّهِ ﷻ بالجملة الفعليَّةِ لا تَخْفى؛ إذ أفادت تجدُّدَ هذا الفعل منهم وحدوثَهُ شيئًا فشيئًا، فمعَ دوام إسباغ النِّعم عليهم ظاهرةً وباطنةً من هذا الرَّبِّ المحسنِ العظيم، هم يكفرون بهِ، ويعبدونَ مَن لم يَخلق، ومَن لم يُنعِمْ عليهم بتلك النِّعَم العِظام، ويُعظِّمون مَن جعلوه للّهِ ندًّا، ويحبُّونه كحبِّ اللّه، أو أشدَّ حبًّا، فأيُّ نكرانٍ وكفرٍ أعظمُ من هذا!

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بلا قيدِ مفعولِه:

تنزيلهُ منزلةَ الفعلِ اللّازمِ إعلامٌ ببشاعَةِ الفعلِ

أطلقَ الفعلَ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ولم يُقيِّدْهُ بمفعولٍ؛ ولعلَّ ذلك لظهورهِ[3]، وعِلْمِ كُلِّ فريقٍ مِنَ الذين كفروا ماذا عدلَ باللّهِ ﷻ[4]. أو لعلَّه لتوجيهِ الإنكار إلى الفعل نفسِه بتنزيله منزلةَ الفعل اللّازم إيذانًا بأنَّه المدارُ في الاستبعادِ، والتَّعجيبِ، والاستنكارِ لا خصوصيَّةَ المفعولِ[5].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/108.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/156.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/105.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/128.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/105.

المتشابهُ اللَّفظيُّ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 150]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18].

لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها من صلةِ الموصولِ؟

فآيةُ الأنعامِ بُدِئَت بقوله: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾، فلمَّا كانت شهادةُ هؤلاءِ بتحريمِ الأنعامِ الَّتي تقدَّمَ ذكرُها في الآياتِ السابقةِ تكذيبًا بها؛ ناسبَها قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولـمَّا تقدم قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135]، وكان هؤلاءِ لا يؤمنون بالآخرةِ؛ ناسبَهُ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولـمَّا كانت شهاداتُهم دالَّةً على إصرارهم على العدول عن عبادةِ غيرِه؛ ناسبه قوله: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾.

أمَّا آيةُ الجاثيةِ؛ فسبقَها قولُه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ فلمَّا كانَ مَن جاءهم العلمُ، ولم يعملوا بما يوجبه لا عِلْمَ لهم؛ ناسبَه قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(هَلُمَّ) و(تَعَالَ):

هَلُمَّ: اسمُ فعلٍ أمرٍ بمعنى أقبل، أو احضر، أو تعالَ؛ ولذلك - على اللُّغةِ الفصيحةِ - لا تلحقها ضمائرُ الرَّفعِ البارزةُ ولا نون التَّوكيد خفيفةً ولا ثقيلةً، مع أنَّها تدلُّ على الطَّلب، وتكون في جميع الأحوالِ للواحد وللواحدة والاثنين والجماعة بصيغةٍ واحدةٍ؛ لأنَّها اسمُ فعلٍ وليس بفعلٍ.

(هـلـمَّ): اسمُ فـعـلِ أمـرٍ لـلـطَّـلـب، و(تـعـالَ): فعل أمـر لاستدعاء المدعوِّ

أمَّا تعالَ: فعلى وزن تفاعَل مِنَ العلوِّ، وهو فعلٌ لاتِّصالِ الضَّمائِرِ المرفوعةِ بِهِ، ومعناهُ: استدعاءُ المدعوِّ من مكانٍ إلى مكانِ داعيه(1).

(التَّأسِّي) و(الاقتداء) و(الاتِّباع):

التَّأسِّي أشملُ مِنَ الاقتداء والاتِّباع، فهو اتِّباعٌ كامل مع محبَّةٍ وقناعةٍ ويقين

التَّأسِّي أشملُ كمًّا وكيفًا من حيثُ عمقُ المشابهةِ وقوَّتُها من الاقتداء، ومن حيثُ عددُ وجوهِ المشابهةِ؛ والتَّأسِّي أشملُ من الاتِّباع؛ فقد لا يستلزمُ الاتِّباع قناعةً تامَّةً بالمتبوع، فالتَّأسِّي اتِّباعٌ شاملٌ كاملٌ مع محبَّةٍ وقناعةٍ ويقينٍ في أحقيَّةِ المتأسَّى بِهِ في الاتِّباع.

ولـمَّا كان الاتِّباع ركنًا من أركان التَّأسي يقع التَّفريطُ فيه من جماهيرِ المؤمنين بِهِ، كان التَّنبيهُ وتأكيدُه والمطالبةُ به على وجهِ الخصوصِ.

والتَّأسِّي قد يُعبَّر به عن الاتِّباع الشَّامل الكامل والاقتداء التَّامِّ في مسألةٍ واحدة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ فقد بلغوا الكمالَ البشريَّ في الولاء والبراء كمًّا وكيفًا.

والاقتداءُ قد يُعبَّرُ بِهِ عن الاتِّباعِ المجملِ مع تأكيدِ أنَّ هناك بعضَ الجوانب لا يُمكن الاتِّباعُ فيها أو المشابهة ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فاتِّباعُ مَن سبقَ مِنَ الرُّسلِ في كلِّ ما جاؤوا به وكانوا عليه ليس على إطلاقه(2).

(العَدل) و(القِسط):

العَدلُ: إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، والقسطُ: النَّصيبُ الَّذي بُيِّنَت وجوهُه

القسطُ هو العدلُ البَيِّنُ الظَّاهر، ومنه سمِّي المكيال قِسْطًا، والميزانُ قِسْطًا؛ لأنَّه يُصوِّر لك العدل في الوزنِ؛ حتى تراهُ ظاهرًا؛ وقد يكونُ من العدلِ ما يخفى، ولهذا قلنا: إنَّ القسطَ هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنَت وجوهُه(3).

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/172، وناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: 9/4673.
(2) شريف طه يونس، ملتقى أهل التفسير، التأسّيّ والاقتداء والاتّباع، مقال بتاريخ: 25/10/2013م.
(3) العسكري، الفروق اللغويَّة: 428.

(العَدل) و(المساواة):

المساواةُ: مراعاةَ التَّساوي بين طرفين أو أكثر

ومن ملحظِ تحقيق التَّساوي والتَّوازن بين العِدْلين حتَّى يصيرا على مستوًى واحدٍ جاءَ معنى العَدَالة في الحكم مثلًا، أي: تحقيق التَّوازن بين المتخاصمين ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: 152]، والمساواةُ تعني: مراعاةَ التَّساوي بين طرفين أو أكثر، أمَّا العَدلُ؛ فيعني إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهارُ كذبِ المشركين بتفصيلِ ما حرَّمهُ اللهُ

اعلم أنَّ اللّه تعالى لـمَّا بيَّن فسادَ ما يقولُ الكفَّارُ: إنَّ اللّه حرَّم علينا كذا وكذا؛ أردفَهُ ببيان الأشياءِ الَّتي حرمها عليهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: أصلهُ أن يُدعى الإنسانُ إلى مكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ جُعِل للدُّعاء إلى كلِّ مكان، فأصلهُ من العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلة، فكأنَّه دعا إلى ما فيهِ رفعةٌ، كقولك: اِفعَلْ كذا غيرَ صاغرٍ؛ تشريفًا للمقول له، بأن يقوله من كان في علوٍّ لمن كان في سُفل، وهو أمرٌ من التَّعالي، ثم اتَّسع فيه بالتعميم(2).

2) ﴿أَتۡلُ﴾: الاتِّباع، يقال: تَلَوتُهُ؛ إذا تَبِعتُهُ، ومنه: تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّه يُتبع في قراءتهِ آية بعدَ آيةٍ، وقال الرَّاغب: والتِّلاوة تختصُّ باتِّباع كتبِ اللّهِ المنزَّلةِ، تارةً بالقرآن، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يتوهَّمُ فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، ولا يقال: تلوْتُ رُقعَتَكَ، وإنَّما يُقال في القرآن في شيءٍ إذا قرأتَهُ؛ وجبَ عليك اتِّباعه، وأصلُ التِّلاوةِ من تتبُّعِ الكلامِ المكتوب عند القراءةِ، أي:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/177، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/503.
(2) الرّاغب، المفردات: (علا)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188.

اتِّباعُهُ كلمةً كلمة، فهذا يعني: القراءةَ من مكتوب، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: 48]، فهذا كالصَّريحِ في معنى قراءةِ المكتوب، ثم عُمِّم في القراءةِ عن ظهرِ القلب، أي: من غير مكتوبٍ(1).

3) ﴿إِمْلَٰقٍ﴾: أصلُ الإملاقِ: إتلافُ المَالِ حَتَّى يُحْوِجَ، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، فهو مُملِقٌ؛ إذا افتقَر، وقيل: اشتقاقُه من (المَلَقات)، وهي الحجارةُ العِظامُ الملسُ السُّود، وأملقَ: لم يبقَ تحتَ يدِهِ إلَّا الجبالُ والصُّخورُ العظامُ الَّتي لا يَقدِرُ أن يحصِّلَ منها شيئًا، وأصلُ مادَّة (ملق) يَدُلُّ على تَجَرُّدٍ في الشَّيءِ ولِينٍ، والمعنى هنا: فَقْرٍ وجُوعٍ(2).

4) ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾: الرِّزقُ بِكَسْرِ الرَّاءِ: كُلُّ ما يُنْتفعُ به مِنْ مالٍ ونَحوِهِ، والجَمْعُ: أرزاقٌ، والرَّزقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ: العَطَاءُ الدَّائِمُ، والرَّازِقُ: المُعْطِي وهو اللّٰه، وَكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغذَّى بِهِ فَهُوَ رِزْقٌ، ومِن مَعاني الرِّزْقِ أَيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ(3).

5) ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والفَحْشاءُ: ما عظُم قُبْحُه وفَحُشَ مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مُستقْبَحٌ ومُسْتَشْنَعٌ من قولٍ أو فِعْلٍ، ومِن مَعانِيها: الزِّنى(4).

6) ﴿ظَهَرَ﴾: الظَّاهِرُ: الواضِحُ البَيِّنُ، يُقال: ظَهَرَ الشَّيْءُ، يَظْهَرُ، ظُهورًا؛ إذا وَضُحَ وبانَ، ويأتي بمعنى البارِزِ والمُنْكَشِفِ، فتقولُ: ظَهَرَ لِي رَأْيٌ، أي: انْكَشَفَ بعد خَفائِهِ، والظُّهورُ: الوُضوحُ والانْكِشافُ(5).

7) ﴿بَطَنَ﴾: البَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ، وبَاطِنُ الأَمرِ دِخْلَتُه، خلافُ ظاهِرِه، ويُقال لكلِّ غامضٍ: بَطْنٌ، ولكلِّ ظاهرٍ: ظَهرٌ، وقوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، أي: ما ارتكبَ سِرًّا، وفي الخَفاءِ؛ حتَّى لا يَراهُ النَّاس، أو يَسمَعُوا بِهِ(6).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).

(2) السجستاني، غريب القرآن: 1/361، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ملق)، والكفوي، الكليات، ص: 701.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، والمحكم، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فحش).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بطن).

8) ﴿وَصَّىٰكُم﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، ومنه سُمِّيَت وَصِيَّةً؛ لأنَّها وَصْلٌ لِما كان في الحَياةِ بعد المَوْتِ، يُقال: أَوْصَى، يُوصِي، إيصاءً، ووَصَّى، يُوصِي، تَوْصِيَةً: إذا عَهِدَ إلَيْه، وأَوْصَيْتُ إليه بِمالٍ: جَعَلْتُه لَهُ، والوِصايةُ: فعلُ الوَصِيِّ، والجَمْعُ: وَصايا[1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ المحرَّماتِ الشَّاملةِ من الأقوالِ والأفعالِ

هذه الآيةُ الكريمةُ أولى الوصايا العشرِ الَّتي جاء الخبرُ بفضلِهنَّ، فقد رُوي عن ابن مسعودٍ ﵁ قال: مَن سرَّهُ أن ينظرَ إلى وصيَّة محمَّدٍ ﷺ الَّتي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاءِ الآياتِ ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ - إلى قوله - ﴿تَتَّقُونَ﴾[2]، وعن عبادةَ بنِ الصّامتِ ﵁ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أيُّكم يبايعني على هؤلاءِ الآيَاتِ الثَّلاثِ؟» ثُمَّ تَلَا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ حتى فرغ من ثلاثِ آياتٍ، ثم قال: «ومن وفَّى بهنَّ؛ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ، وَمَن انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا، فأدركه اللّهُ في الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَه، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الْآخِرَةِ، كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللّهِ إِنْ شاء آخذه، وإن شاء عفا عنه»[3].

يأمُرُ اللّهُ نَبيَّه محمَّدًا ﷺ - في هذه الآية - أن يَطْلُبَ إلى هؤلاءِ المُشركينَ أن يُقبِلُوا إليه؛ لِيُخبِرَهم بما حَرَّمَه اللّهُ عليهم يقينًا، وليس ظنًّا كقَوْلِهم على اللّهِ الكَذِبَ، فأَوْصاهم: ألَّا يُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ يُحْسِنُوا إلى الوالِدَين، وألَّا يَقْتُلوا أولادَهم بسبَبِ الفَقْرِ، كما كان يفعل أهلُ الجاهليَّة، فإنَّ اللّهَ هو من يَرْزُقُهم، ويرزُقُ أَوْلادَهم، ونهاهم عَنْ قِربانِ الفَواحِشِ ما كان منها علانِيَةً أو كان

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وصى).

(2) الترمذي، السنن: 5/264، والحديث رقم: (3070)، والطبراني، المعجم الكبير: 10/114 - 115، والحديث رقم: (10060).

(3) أخرجه الحاكم، المستدرك: 2/348، والحديث رقم: (3240)، وقال: صحيح الإسناد، وابن جرير في جامع البيان: 9/667، ودون قوله: "ثلاث آيات"، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1414.

سِرًّا، وألَّا يَقتُلوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللّهُ عليهم قَتْلَها إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ الموجِبِ لقَتْلِها شَرْعًا؛ ذلك وصَّاهم به اللّهُ تعالى، لعَلَّهُم يَعْقِلونَ أوامره ونواهيه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾:

الانتقالُ من إبطالِ زعمِهم بتحريمِ أمورٍ إلى دعوتِهم لمعرفةِ المُحرَّمات

الجملةُ الكريمةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ من إبطالِ تحريمِ ما ادعوا تحريمَهُ من لحومِ الأنعام، إلى دعوتِهم لمعرفةِ المحرَّماتِ؛ والمناسبةُ لهذا الانتقالِ ظاهرةٌ، فالمقامُ مقامُ تعليمٍ وإرشادٍ، ولذلك ابتُدِئَ بأمرِ الرَّسولِ - عليه السلام - بفعلِ القولِ؛ استرعاءً للأسماعِ كما تقدَّم آنفًا[1].

سرُّ تكرارِ ﴿قُلْ﴾ أربعَ مرَّاتٍ بعد قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾:

إعلامُ المخاطَبينَ بأنَّ الرَّسولَ مبلِّغٌ عنِ اللهِ تعالى

الخِطَابُ فِي ﴿قُلْ﴾ لِلرَّسُولِ وَفِي ﴿تَعَالَوْا۟﴾ لِلمُشْرِكِينَ، أو لِمَنْ بِحَضْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مُؤْمِنٍ وكِتَابِيٍّ ومُشْرِكٍ، وسِيَاقُ الآيَاتِ يَدُلُّ على أَنَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ، وإِنْ كَانَ حُكْمُ غَيْرِهِمْ فِي ذَلِك حُكْمَهُمْ؛ أَمَرَهُ تَعالَى أَنْ يَدْعُوَ جَمِيعَ الخَلْقِ إِلَى سَمَاعِ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ بِشَرْعِ الإِسْلَامِ المَبْعُوثِ بِهِ إِلَى الأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ[2].

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ أمرٌ له ﷺ بعد ما ظهرَ بطلانُ ما ادَّعوا أن يبيِّنَ لهم من المحرَّماتِ ما يقتضي الحالُ بيانَهُ على الأسلوبِ الحكيم إيذانًا بأنَّ حقَّهم الاجتنابُ عن هذه المحرَّماتِ، وأمَّا الأطعمة المحرَّمة فقد بُيِّنَتْ فيما تَقَدَّمَ[3].

مَن يُدقِّقِ النَّظرَ يجدْ أنَّ هذا الأمرَ فيه من الأسرارِ البلاغيَّةِ والحِكمِ الإلهيَّةِ ما يُفحِمُ هؤلاءِ الكافرين، ويدحضُ افتراءاتِهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/155.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/684، 685.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.

على اللّهِ بتحريم أشياءَ من عندِ أنفسِهم زاعمين أنَّ تحريمَها من عند اللّهِ تعالى، فهو يُشعرهُم بأنَّ هذا الرَّسولَ ﷺ مأمورٌ بالتَّبليغ بـ﴿قُلْ﴾، وهو نفسُه لا يستطيعُ أن يُقدِم على ما أقدمتُم عليهِ من ادِّعاء هذا التَّحريم؛ لأنَّه يُبلِّغُ عنِ اللّهِ تعالى ما أوحي إليهِ.

فهذا أمرٌ من اللّهِ للرَّسولِ ﷺ بتبليغِ ما حرَّمهُ اللّهُ حقيقةً وما أحلَّهُ، فكيف بكم تحرِّمون، وتحلُّون من عند أنفسِكم؟ ثم تزعمونَ أنَّ هذا التَّشريعَ من عندِ اللّه!!

ولذا فإنَّ خلوَّ الكلامِ عن الأمرِ ﴿قُلْ﴾ يجعلهُ خاليًا من القوَّةِ الروحيَّة، أو الإلهيَّةِ للتَّبليغِ إلى جانب أنَّ هذا الأمرَ يتضمَّن استهزاءً بهم وسخريةً منهم، بل يَصفُهم ضمنًا بالكذب والافتراءِ؛ إذ إنَّ ادِّعاءَهم المحرَّمات لا يستندُ إلى مثل هذا الأمرِ الإلهيِّ[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، والعدولُ عن مرادفاتهِ:

إفـادةُ طلـبِ الإقــبـالِ من الـدَّرَكِ إلى الـدَّرَجِ، ومن الـسُّفـلِ إلى العُلُوِّ

تَعالَوۡا: معناهُ أقبلوا، وأصله من العلوِّ، فكأنَّ الدُّعاءَ لمَّا كان أمرًا من الدَّاعي؛ استعملَ فيه ترفيعُ المدعوِّ، ولعلَّ ذلك لأنَّهم كانوا إذا نادوا إلى أمرٍ مُهمٍّ؛ ارتقى المنادي على ربوةٍ ليُسمع صوتهُ، ثم شاعَ إطلاق (تعالَ) على طلبِ المجيءِ مجازًا بعلاقةِ الإطلاقِ، فهو مجازٌ شائع صار حقيقة عرفيَّةً؛ فأصلُهُ فعلُ أمرٍ لا محالة مِن التَّعالي، وهو تكلُّفُ الاعتلاء، ثم نُقل إلى طلب الإقبالِ مُطلقًا، فَالنِّداءُ بـ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ دعوةٌ لإقبالِهم إليهِ بكلِّ مداركِهم، وتفكيرٌ وتنبيهٌ لعظم ما سيبيِّنهُ لهم من وصايا وتكليفات[2]، يضافُ إلى ذلك أنَّ دلالةَ كلمةِ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ في هذا المقام لا تخفى، أي: أقبلوا إليَّ، واصعدوا من حضيضِ الجهل، والتَّقليد، والضَّلال الَّذي تمرَّغتم[3] فيهِ إلى أوجِ العلمِ والهدى.

(1) عبد الحليم محمد إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الوصايا العشر، ص: 19.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/361، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 8/156، و157، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.
(3) العَرَبُ تَقُولُ: تَمَرَّغْنا أَي تَنَزَّهْنا، والمَرْغُ: الرَّوْضةُ الكَثِيرَةُ.

والأداءُ القرآني هنا يأخذ لفظَ (تعال) بفهمٍ أعمقَ من مجرَّدِ الإقبالِ، فكأنَّ الحقَّ يقول: أقبلْ عليَّ إقبالَ مَن يريدُ التَّعالي في تلقِّي الأوامرِ.

فأنتَ تُقبِلُ على أوامرِ اللّهِ؛ لتعلوَ وترتفعَ عن حضيضِ تشريعِ البشريَّةِ، فلا تأخذ قوانينك من حضيضِ تشريعِ البشرِ؛ لأنَّ الشَّرطَ الواجبَ في المشرِّعِ ألَّا يكونَ مساويًا لمن شرَّع له، وألَّا يكون منتفعًا ببعض ما شرَّع، وأن يكون مستوعبًا، فلا تغيبُ عنه قضية، ولا يغفلُ عن شيءٍ؛ والمشرِّعُ من الخلقِ لا يشرِّع إلَّا بعد اكتمالِ عقلِه ونضجِه، ولا يقدر أن يمنعَ نفسَهُ من الانتفاعِ بالتَّشريعِ، فالمعنى: اتركوا حضيضَ التَّشريعِ البشريِّ، وارتفعوا إلى السَّماءِ، لتأخذوا تقنينكم منها، فحين ينادي اللّهُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، فمعناها: ارتفعوا عن حضيضِ تقنينِ بشريَّتكم إلى الأعلى؛ لتأخذوا منه قوانينَكم الَّتي تحكمُ حركةَ حياتكم، فهو لا ينتفع بما شرع، بل أنتم الذين تنتفعون، ولأنَّه لا يغيب عنه شيء سبحانه، وهو خالق، هو أولى أن يشرعَ لكم[1].

دلالةُ الفعلِ ﴿أَتۡلُ﴾ ووجهُ جزمِه:

الـتِّـلاوةُ هي البيانُ الَّذي هو ثمرةُ تلك التِّلاوةِ المتتابعةِ الموضَّحةِ

﴿أَتۡلُ﴾ مضارعٌ مجزومٌ جوابًا للطَّلب، والتِّلاوةُ هي قراءةُ القرآنِ الكريمِ مُرتَّلًا مُتتابعًا في كلماتِه وأساليبه، والمرادُ هنا البيانُ؛ لأنَّ البيانَ ثمرةُ تلكِ التِّلاوة المتتابعة الموضَّحة، فهذا تعبيرٌ بالمسبِّب عن السَّببِ[2].

معنى ﴿مَا﴾ ودلالةُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿حَرَّمَ﴾:

(ما) موصولةٌ أو مصدريَّةٌ، أو استفهاميَّةٌ لبيانِ عمومِ المحرَّماتِ

﴿مَا﴾ تحتمل الخبريَّةَ، اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، أي: أُبيِّن لكم الَّذي حرَّمه اللّه تعالى عليكم، وتحتملُ المصدريَّة، ويكون المؤدَّى: تعالوا أتلُ تحريمَ ربِّكم تعالى عليكم، ويجوز أن تكونَ استفهاميَّةً

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي: 3984.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.

منصوبةً بـ﴿حَرَّمَ﴾، والجملةُ مفعولُ ﴿أَتۡلُ﴾؛ لأنَّه بمعنى (أَقُل)، فكأنَّهُ قيل: أتلُ أيَّ شيءٍ حرَّم ربُّكم[1].

نكتةُ إطلاقِ التَّحريمِ على هذه الوصايا، مع أنَّ فيها أوامرَ ونواهيَ:

ما رغَّب بالأمر فضدُّه منهيٌّ عنه، والتَّحريم ردٌّ عليهم فيما حرَّموه من عند أنفسِهم

وردتْ خمسُ وصايا من الوصايا العشرِ في الآياتِ الثَّلاثِ (151 - 152 - 153) بصيغةِ النَّهي، والأخرى بصيغةِ الأمرِ، ولكلٍّ أسرارٌ بلاغيَّةٌ.

وبالجملةِ يمكننا القولُ: إنَّ ما رغَّب فيه بلفظِ الأمرِ، فضدُّه هو المنهيُّ عنه المحرَّم، فيكون الجميعُ محرَّمًا (منطوق النواهي وأضداد الأوامر)، ولكنَّه اكتُفي بلفظِ التَّحريم عن قوله: (وما أحلَّ) إيجازًا، وتنويهًا بافتراءاتِهم السَّالفَةِ؛ إذ حرَّموا أشياء من عند أنفسِهم، فقوله: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي: إنَّ ما يُتلى عليكم هو المُحرَّم من عند اللّه، لا ما حرَّمتموه من عند أنفسِكم، وزعمتم كذبًا أنَّ اللّه حرَّمه من عنده.

وخَصَّ التَّحريمَ بالذِّكر بصيغةِ الماضي مع أنَّ الوصايا الَّتي بُيِّنت بها التِّلاوة أعمُّ؛ ولعلَّ ذلك لمناسبةِ ما سبق، وهو إنكارُ أن يحرِّمَ غيرُ اللّهِ[2].

سرُّ إسنادِ التَّحريمِ إلى الرَّبِّ، ودلالة الإضافةِ:

الرَّبُّ أعلمُ بما يَصلحُ لعبادِهِ، فإذا حرَّم شيئًا فالمنعُ منه عينُ العطاءِ

التَّعرُّضُ للرُّبوبيَّة في قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾، مع إضافةِ كلمةِ (ربّ) إلى ضمير المخاطبين، يفيد التخصيصَ والاعتزازَ والتَّقديرَ، وتذكيرٌ بكونهِ تعالى ربًّا لهم، ومالكًا لأمرهم على الإطلاقِ، فهو تعالى الَّذي له القوامةُ، والتَّربية، والتَّوجيه، والحاكميَّة؛ فالَّذي يحرِّم هو (الرَّبُّ)، واللّه وحدَهُ الَّذي يجب أن يكون ربًّا، وهذا من أقوى الدَّواعي إلى أن ينتهوا عمَّا نهاهُم اللّهُ تعالى عنه أشدَّ انتهاءٍ[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/162، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/214.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198.

وقال: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: (ما حَرَّمَ اللهُ)؛ لأنَّ الرَّبَّ هنا أنسَبُ؛ حيثُ إنَّ الرَّبَّ له مُطْلَقُ التَّصَرُّف في المربوبِ، والحكمُ عليه بما تَقْتضيه حِكْمَتُه[1].

دلالةُ لفظِ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وحكمُ الوقفِ عليهِ والابتداءِ بِهِ:

تعلُّق (عَلَيۡكُم) بـ(حَرَّمَ) للبيانِ والحجَّةِ، والابتداءُ به للإغراءِ

قُيِّدَتِ الجملةُ بالجارِّ والمجرورِ بقولِه: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ ولعلَّ السِّرَّ في هذا لاعتقادِ المخاطبين أنَّهم ليسوا هم المعنيِّين بفعلِ التِّلاوة، ولعلَّ تأخيرَ الجارِّ والمجرور، وتقديم ﴿مَا حَرَّمَ﴾ عليه لأهمِّيَّةِ المحرَّم.

وقالَ ابن عرفةَ: "وإنَّما قال: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ولم يقل: حرَّمَ بالإطلاقِ مع أنَّه محرَّمٌ على الجميع؛ لأنَّ الخطابَ للَّذين كانوا عصوا بذلك، وغيرهم لم يعصِ"[2].

وقوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفعل ﴿حَرَّمَ﴾، وجُوِّزَ أن يتعلَّق بـ﴿أَتۡلُ﴾، ورُجِّح الأوَّل بأنَّه أنسبُ بمقامِ الاعتناءِ بإيجابِ الانتهاءِ عنِ المحرَّماتِ المذكورة[3]. وتكونُ فائدتُه البيانَ والحجَّة؛ لئلَّا يكون للنَّاسِ على اللهِ حجَّةٌ في تحريمِ شيءٍ؛ وفي تخصيصِ المخاطبينَ بهذا التَّحريمِ تعريضٌ بالَّذين حرَّموا من قِبَلِ أنفسِهم، ويكون الوقفُ حينئذٍ على الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾.

وما ورَدَ من الوقفِ على لفظِ ﴿رَبُّكُمۡ﴾، والابتداء بقوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ [الأنعام: 151]، قال الأشموني: "﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾ حَسَنٌ، ثمَّ يبتدئُ ﴿عَلَيۡكُمۡ أَلَّا تُشۡرِكُواْ﴾ على سبيلِ الإغراءِ، أي: الزموا نفيَ الإشراك؛ وإغراءُ المخاطَب فصيحٌ؛ نقلهُ ابن الأنباري، وأمَّا إغراءُ الغائب؛ فضعيفٌ"[4].

(1) ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/316، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198.
(4) الأشموني، منار الهدى، ص: 256.

والظَّاهرُ المتبادرُ من النَّظم القرآنيِّ أنَّ الوقفَ يكونُ على لفظِ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وتحتملُ جملةُ ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على هذا وجهينِ من الإعراب:

الوجه الأولُ: أن تكونَ هذه الجملةُ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ؛ ويكون تقديرُ الكلام: هو ألَّا تشركوا[1]، أو يكون تقديرُه: ذلك ألَّا تشركوا[2]، وعلى هذا الوجه الإعرابيِّ يصلحُ الابتداءُ بها على سبيلِ الاستئنافِ.

الوجه الآخرُ: أن تكونَ هذه الجملةُ في موقعِ عطفِ البيانِ من جملةِ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾، ويكون التقديرُ: قل: تعالوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم، أتلُ ألَّا تشركوا به شيئًا[3].

كيف يكون (عدم الإشراك) داخلًا في ما يُتلى من المحرَّم؟

(أن) تفسيريَّة، و(لا) ناهية، ودخولُهُ في التَّحريم للتَّوهيم

الظَّاهر في قوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، أنَّ (أن) تفسيريَّةٌ، و(لا) ناهية؛ لأنَّ الفعل ﴿أَتۡلُ﴾ فعل بمعنى القول، وما بعد (أن) جملة فاجتمع فيها شرطا التَّفسيريَّة، وهي أن يتقدَّمها معنًى لقول، وأن يكون بعدها جملةٌ[4].

أمَّا كيف يكون عدمُ الإشراك (التوحيد) داخلًا في ما يُتلى من المحرَّم؛ فتوجيهُ ذلك بمبحثٍ معلوم، عنوانُه: فنُّ التَّوهيم[5]، فإنَّ ظاهرَ الكلام في الآية الكريمةِ يدلُّ على تحريمِ نفي الشِّرك؛ ملزومُهُ تحليلُ الشِّرك!! وهذا محالٌ، وخلافُ المعنى المراد؛ والتَّأويل الَّذي يَحلُّ الإشكال: هو أنَّ الوصايا المذكورةَ في سياق الآيةِ: ما حرَّم عليهم، وما هم مأمورونَ به؛ فإنَّ الشِّركَ باللَّهِ، وقتلَ النَّفسِ المحرَّمة،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/215.
(2) النحّاس، القطع والائتناف، ص: 326.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/216، والنحّاس، القطع والائتناف، ص: 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/157.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/685، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/158.
(5) هو أن يأتي المتكلّم بكلمةٍ يوهِمُ ما بعدها من الكلام أنَّ المتكلِّم أراد تصحيفها، وهو يريد غير ذلك.

وأكلَ مالِ اليتيم، ممَّا حرَّم ظاهرًا وباطنًا؛ وأمَّا وفاءُ الكيلِ والميزانِ بالقسطِ، والعدلُ في القولِ، فضلًا عن الفعل، والوفاءُ بالعهدِ، واتِّباعُ الصِّراط المستقيم فهذا من الأفعالِ المأمورِ بها أمرَ وجوبٍ، ولو جاءَ الكلامُ بغيرِ (لا)؛ لانبَترَ، واختلَّ، وفسَدَ معناه، فإنَّه يصيرُ المعنى حرَّم عليكم الشِّركَ، والإحسان إلى الوالدَين، وهذا ضِدُّ المعنى المرادِ، ولهذا جاءتِ الزِّيادةُ الَّتي أوهمَ ظاهرُها فسادَ المعنى، ليُلجأَ إلى التَّأويلِ الَّذي يصحُّ به عطفُ بقيَّةِ الوصايا على ما تقدَّم[1].

فائدةُ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾، وتنكير ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾:

إفادةُ التَّبشيعِ لشركِهم باللهِ، والتَّعميم

تعلُّقُ الجارِّ والمجرور بالفعل ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ الواقعِ في سياقِ النَّهْي في القرآنِ الكريم؛ لإفادة التَّبشيعِ لجريمتهم الشَّنعاء، وهي الشِّرك باللهِ ﷻ، وللتَّعريضِ بصنيع الكافرين قبل ذلك المشار إليه في مستهلِّ هذه السُّورة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، والمذكورِ قُبَيْل هذه الآيةِ بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: 150].

و﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ لـ ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ أَيْ: لَا تَجْعَلُوا شَرِيكًا شَيْئًا مِمَّا يُعْبَدُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجنّ: 2] وَيَجُوزُ انْتِصَابُهُ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ لِلتَّأْكِيدِ، أَيْ: شَيْئًا مِنَ الْإِشْرَاكِ وَلَوْ ضَعِيفًا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [المائدة: 42][2].

ولعلَّ السَّببَ في هذا التَّقييد إرادةُ التَّعميم، أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، أو: لا تشركوا به شيئًا من الأشياء وإن كانت عظيمةً في الخَلْق كالشَّمس، والقمر، والكواكب، أو عظيمةً في القدرِ كالملائكةِ والأنبياء والصَّالحين[3].

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 4/328.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/49.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/162، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/268، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/126.

بلاغةُ البدءِ بالنَّهي عنِ الشِّركِ دونَ ما بعدَهُ:

إصلاحُ الاعتقادِ مفتاحُ الإصلاحِ في العاجلةِ والفلاحِ في الآجلة

كان الشِّركُ باللهِ هو المحرَّمُ أوَّلًا؛ لأنَّه أصلُ كلِّ شرٍّ ومنكرٍ، كما أنَّ التَّوحيدَ هو أصلُ كلِّ خيرٍ ومعروفٍ، وعليه تُبنى الأعمالُ الصَّالحة، فإذا هُدمت تلك القاعدةُ؛ هُدِم البناءُ كلُّه، ولا خيرَ في عملٍ بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23]، وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف: 103 - 106].

بلاغةُ النَّهيِ الصَّريحِ عن الشِّركِ، والعدولِ عنِ الأمرِ بالتَّوحيدِ:

مناسبةُ المقامِ، واقتضاؤه ضدَّه، واستقصاؤه أنواعَ الشرك، والتَّخلية مقدَّمةٌ على التَّحلية

ورد النَّهيُ عن الشِّركِ صراحةً في قوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، وعُدِلَ عن النَّهي عنه ضِمنًا، فلم يقل: (اعبدوا الله وحده)؛ لمناسبة المقامِ، إذ إنَّ الكلامَ على المحرَّمات؛ ومجيءُ النَّهي عن الشِّرك صراحةً بمنزلةِ الرُّكنِ الرَّكينِ لجميع المحرَّماتِ؛ فمنِ اجتنَبَ الشِّركَ؛ سَلمَت أعمالُه، وبقي على فطرتِهِ الَّتي فطرهُ اللهُ عليها، كما أنَّ النَّهي عن الشِّركِ يدخلُ فيه الأمرُ بالتَّوحيدِ ضِمنًا، ولكنَّ التَّصريحَ بالتَّوحيدِ لا يسدُّ مسدَّه؛ لأنَّ النهي عن الشِّرك أعمُّ من الأمرِ بالتَّوحيد؛ لأنَّه استقصى كلَّ أنواعِهِ، لوقوعِ النَّكرة ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ في سياقِ شبهِ النَّفي، وهو النَّهي.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ على ما قبلها:

بعدَ إصلاحِ قلبِ الإنسانِ بالتَّوحيدِ إصلاحُ قالَبِ المجتمعِ ولَبِنَاتِهِ الأُسْرِيَّة

بدأ سبحانه بالنَّهي عن الشِّركِ؛ لأنَّه أعظمُ المحَرَّمات، وأكبرُ الكبائرِ، وَأتبع ذلك: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ أي: أحسنوا بهما إحْسانًا كاملًا لا إساءةَ معهُ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ البرَّ بهما مع اللُّطفِ ولينِ الجانبِ، فلا يُغلظُ لهما في الجواب، ولا يحدُّ النَّظرَ إليهما، ولا يرفعُ

صوتَهُ عليهما، بل يكونُ بين يديهما مثلَ العبدِ بين يدي سيِّدِه تذلُّلًا لهما، وثنَّى اللّه تعالى بهذا التَّكليفِ؛ لأنَّ نعمةَ الوالدَين أعظمُ النِّعم على العبدِ بعد نعمةِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ المؤثِّر الحقيقيَّ في وجود الإنسانِ هو اللّهُ ﷻ، والمُؤثِّرَ في الظَّاهر هو الأبوان(1).

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، وبلاغةُ حذفِ العاملِ:

المبالغةُ في تأكيدِ شأنِ العنايةِ والإحسانِ بالوالدين

الإحسانُ يتعدَّى بحرفي (الباء) و(إلى)، فقال: أحسِنْ به، وأحسِنْ إليه، وبينهما فرقٌ واضحٌ، فالباء تدلُّ على الإلصاق، و(إلى) تدلُّ على الغاية، والإلصاق يفيد اتِّصال الفعل بمدخول (الباء) دون انفصالٍ ولا مسافةٍ بينهما، أمَّا الغايةُ؛ فتفيدُ وصولَ الفعل إلى مدخولِ (إلى) ولو كان منه على بُعْد، أو كان بينهما واسطة، ولا شكَّ أنَّ الإلصاقَ في هذا المقام أبلغُ في تأكيد شأنِ العناية والإحسان بالوالدين، ومن هنا لم يُعَدَّ الإحسانُ بالباء في القرآن إلَّا حيث أريد ذلك التَّأكيد، وقد جاءت جميعُ الآياتِ القرآنيَّةِ الَّتي توحي بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب(2). و﴿إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ مفعول مُطلق للتَّأكيدِ على ضرورةِ الالتزام بتلك الوصيَّةِ، وهو نائبٌ عن فعلِ الأمرِ (أحسنوا)، والتَّقديرُ: وأحْسِنُوا بالوالدين إحْسَانًا(3).

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الإحسانَ إلى الوالدين غنيٌّ عنِ التَّصريحِ؛ وفضلُهما ظاهرٌ

في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ ففيها حذفُ الفعلِ، وتقديرُهُ: أوصى، وجازَ حذفُهُ لدلالة الكلام عليه، فقد خُتمتِ الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ ولمعرفةِ السَّامع بمعناه(4). والمعنى: أوصاكم ربُّكم أن تُحسنوا بالوالدين إحسانًا كاملًا، لا تدَّخرون فيه وسعًا، ولا تألون فيه جهدًا، وهذا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/163، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/216.

(3) محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/534.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/215.

يستلزمُ تركَ الإساءة وإنْ صغرت، فكيف بالعقوقِ المقابلِ لغاية الإحسان[1]؟

إيثارُ الأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين على النَّهي عن عقوقهما:

قولُه: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ وَضَعَه موضِعَ النَّهي عن الإساءَةِ إليهما؛ للمبالغَة، وللدَّلالَةِ على أنَّ تَرْكَ الإساءَةِ في شَأْنِهما غيرُ كافٍ؛ بخلافِ غيرِهما، وللإيذانِ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ فيُحْتاجَ إلى التَّصريحِ بالنَّهْيِ عنها؛ لأنَّها خِلافُ ما تَقْتَضي الفِطْرَةُ السَّليمةُ، والآدابُ المَرْعِيَّة عِنْد جَميعِ الأُمَم؛ وإنَّما عَدَلَ عن النَّهْيِ عنِ الإساءَةِ إلى الأَمْرِ بالإحسانِ اعتناءً بالوالِدَين؛ لأنَّ اللَّه أرادَ بِرَّهُما؛ والبِرُّ إحسانٌ، والأَمْرُ به يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن الإساءَةِ إليهما بِطَريقِ فَحْوى الخِطاب، ولم يُؤَكِّد الإحسانَ بالوالدين في النَّظم القرآنيِّ ببنائهِ على صيغةِ المصدر، وتعديته بالباء فحسب، إنَّما أكَّد أيضًا بجعلِه قرينَ الأمرِ بعبادةِ اللَّه تعالى وحدَهُ، وتثنيةِ الوصايا به[2].

الإيـــذانُ بـأنَّ الإسـاءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ على ما قبلَها:

بعدَ أن بدأ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءةِ مِن الشِّرك، وقرَن به البرَّ بالوالدين، أولاهُ القتلَ الذي هو أكبرُ الكبائرِ بعدَ الشِّرك، وبدأَهُ بقَتْلِ الوَلَدِ؛ لأنَّه أفحَشُ القَتْلِ، وأفحَشُ مِن مُطْلَقه فِعْلُه خَوْفَ القِلَّةِ[3].

قـتـلُ الأولادِ أفحـشُ أنــواعِ القتلِ وبخاصَّةٍ عند خوفِ الفقرِ

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾:

في الجملةِ الكريمةِ كنايةٌ عن وأدِ البنات، والكنايةُ استعمالُ اللَّفظِ في غير معناهُ الأصليِّ بمقتضى الاستعارة، أو التَّشبيه، أو الحال، أو غير ذلك؛ فالكنايةُ هي في قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ فإنَّ

تـصـويـرُ جـهـلِ المشركينَ الذين كـانـوا يفعلونَ ذلك في الجاهليَّةِ مـصـحـوبًـا بالدَّليلِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 5/216.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/163، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/158.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/316.

الإملاقَ هو الفقرُ والضَّنك، ولكنَّه استُعملَ هنا كنايةً عن الخوفِ من الفقرِ، فالمعنى: ألَّا تقتلوا أولادَكم خشيةَ أن تفتقروا فيما تنفقون عليهم، وهذا من جهلِ المشركين الَّذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهليَّةِ، وأنكروا رزقَ اللهِ لخلقه، فأخبرَهم اللهُ تعالى أنَّه هو الذي يرزقهم وإيَّاهم؛ وسِرُّ جمال الكناية: الإتيانُ بالمعنى مصحوبًا بالدَّليل عليه في إيجازٍ وتجسيمٍ.

معنى النَّهي عن قتلِ الأولادِ، وإيثارُ لفظ ﴿أَوۡلَٰدَكُم﴾ على (أبناءكم):

الدَّلالةُ على أنَّ قتلَ الأولادِ أفحشُ أنواعِ القتلِ، وشاملٌ الذُّكورَ والإناثَ

قُيِّد القتلُ بالمفعولِ به، وهو قولهُ تعالى: ﴿أَوۡلَٰدَكُم﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أفحشَ أنواعِ القتلِ قَتْلُ الولدِ، وآثرَ استعمالَ لفظِ: ﴿أَوۡلَٰدَكُم﴾ دون (أبناءكم)؛ لأنَّ (الأبناء) تُطلقُ على الذُّكور فحسب، أمَّا (الأَولاد) فتشملُ الذُّكورَ والإناث، إضافةً إلى ذلك أنَّ الولدَ هو الَّذي ولدَهُ الوالد من صلبهِ على وجه الخصوص، وفي قوله: ﴿أَوۡلَٰدَكُم﴾: مجازٌ مرسلٌ عن البناتِ، علاقتُه: الكليَّةُ، وسِرُّ جمال المجازِ الدِّقَّةُ والإيجازُ(1).

سرُّ إضافةِ (أولاد) إلى ضميرِ المخاطبِين:

إفادةُ التَّخصيصِ والتَّذكيرِ بالرَّابطةِ الإنسانيَّةِ القويَّةِ بين الآباءِ والأبناءِ

إضافةُ (أولاد) إلى ضميرِ الخطابِ (كم)، تفيد التَّخصيصَ والتَّذكيرَ بالرَّابطةِ الإنسانيَّةِ القويَّة بين الآباءِ والأبناءِ، وبالتَّالي بيانٌ لاحتياج الأبناءِ للعطفِ والإشفاق لا القسوة والشِّدَّة.

فائدةُ حرفِ ﴿مِّنۡ﴾، وإيثارِ لفظِ ﴿إِمۡلَٰقٖ﴾:

الإيحاءُ بشدَّةِ فزعِ أهلِ الجاهليَّةِ من الفقرِ

قولهُ تعالى: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾: تعليلٌ لسببِ القتلِ، وفيه استعارةٌ مكنيَّةٌ تجسِّدُ الفَقْرَ بشيءٍ ماديٍّ نخافه، وتوحي بشدَّة الفزعِ من الفقرِ، وقد أفادَ تقييدُ الجملةِ بالمفعولِ لأجلهِ بيانَ أنَّ أفحشَ أنواعِ قتلِ الولدِ قَتْلُهُ لأجلِ الفقرِ(2).

---

(1) مريم العبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام دراسة بلاغية تحليلية، ص: 279.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/316 - 317.

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَها:

إبطالُ السَّببِ الدَّافعِ إلى قتلِ الأولادِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فقد حملَ تعليلًا للنَّهي عن قتلِ الأولادِ، وبهِ أُبطِلَ السَّببُ الَّذي يدفعُهم إلى قتلِهم[1].

تقديمُ المسندِ إليه ﴿نَّحۡنُ﴾ على المسندِ ﴿نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

إفادةُ التَّخصيصِ والتَّأكيدِ والتَّقويةِ

قدَّم المسندَ إليهِ على المسندِ الفِعليِّ في الجملةِ؛ لإفادةِ الاختصاصِ، فكأنَّهُ قيل: نحن نَرزقكُم وإيَّاهم لا أنتم ترزقون أنفسَكم، ولا ترزقون أولادَكم[2]، وفي هذا القصرِ تأكيدٌ للخبرِ مع ما فيه من إيجازٍ.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾:

التَّوكيدُ أنَّ اللهَ هو الرَّازقُ للخلقِ جميعًا

الإطنابُ: فنُّ استعمالِ الكلامِ الزَّائدِ عن الحاجةِ لتحقيقِ مقصودٍ بلاغيٍّ معيَّنٍ، مثل التَّوكيد، أو التَّشويق، أو التَّحذير، أو الإعجاز؛ فالإطنابُ هنا هو في قوله: ﴿وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، فإنَّهُ يمكن حذفُ هذه الكلمةِ دون تغييرِ المعنى؛ لأنَّ الأولادَ مشمولونَ بالرِّزق الَّذي يرزقُهُ اللهُ لآبائِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى أطنبَ في هذا المقامِ لأسبابٍ بلاغيَّة عديدة، منها:

أولاً: توكيدٌ أنَّ اللهَ هو الرَّازقُ للخلق جميعًا، وأنَّه لا يُضَرُّ أحدٌ برزق غيره.

ثانيًا: التَّحذيرُ من قتلِ الأولادِ خشيةَ الفقرِ، وأنَّ ذلك من جهلِ المشركينَ وظلمِهم.

ثالثًا: التَّشويقُ لمعرفة حكمة خلقِ الأولادِ وفضلهم وبركتهم، وأنَّهم رزقٌ من رزق اللهِ.

رابعًا: إعجازُ المخاطبين بالتَّحدِّي في إتيانِ مثل هذا الكلامِ المختصر المبين[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.
(3) راشد بن حمد الكعبي، بلاغة الإطناب في سور المفصَّل، رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفسَه:

التفاتٌ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ لتعظيمه والتَّحذيرِ من مخالفتِه

في ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ خرجَ الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظَّاهرِ في حقِّ اللّهِ ﷻ، فقد عدلَ عن طريقِ الغيبةِ إلى طريق التَّكلُّم، وهذا من الالتفاتِ، ولعلَّ ذلك - كما علَّل ابنُ عاشور - للتَّذكير بالَّذي أمرَ بهذا القول[1].

وواءم هذا الالتفاتُ المقامَ؛ وبيانُ ذلك أنَّ المخاطبين إنَّما قَتَلوا أولادَهم بسببِ الفقرِ، وقِلَّةِ الحيلةِ، فحتى تُبثَّ الطُّمَأنينةُ في نفوسهم المضطربة، ويُمكَّنَ الخبرُ مِنَ التَّغلغل إلى أعماقهم الخائرة... عُدِلَ عن طريقِ الغيبةِ إلى التَّكلُّم، فقيل: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، وهذا الطَّريق "هو قرينُ الحضورِ والمشاهدةِ"[2]، فيكونُ في هذا الالتفاتِ - إضافة إلى ما ذَكَره ابن عاشور - ما أشيرَ إليه ههنا، واللّه تعالى أعلمُ.

بلاغةُ فنِّ التَّغاير[3] بين آيتي الأنعام والإسراء:

الإشارةُ إلى تغايرِ المعنى لمغايرةِ اللَّفظ، فالخطابُ في كلِّ آيةٍ لصِنفٍ

من بلاغةِ التَّغاير في الكلام تغايرُ المعنى لمغايرةِ اللَّفظِ، وهذا الَّذي نحن بصَددهِ في هذهِ الآية الكريمة؛ والكلامُ في الآيةِ غيرُ قوله في هذا المعنى في بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، فالخطابُ في كلِّ آيةٍ لصِنفٍ، وليس خطابًا واحدًا؛ فالمخاطَبُ بقوله سبحانه: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ مَن ابتُلي بالفقرِ، وبقوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ مَن لا فَقر له، ولكن يَخشى وقوعَه في المستقبلِ، ولهذا قدَّم رزقَهم هاهنا في قوله ﷻ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/159.
(2) حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص: 111.
(3) حدُّه: تغاير المذهبين؛ إمَّا في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئًا أو يذمُّه، أو يذمُّ ما مدحهُ غيرُه، وبالعكس، ويفضِّلُ شيئًا على شيءٍ، ثمَّ يعود فيجعل المفضول فاضلًا.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/329.

التَّخصيصُ والتَّوكيدُ والتَّعظيمُ

دلالةُ الضَّمائِرِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾:

تقديمُ الضَّميرِ ﴿نَّحۡنُ﴾ للتَّخصيصِ، وتكرارُهُ للتَّوكيدِ، والتَّعبيرُ بضميرِ الجمعِ لتعظيمِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ وتشريفِها.

تجدُّدُ الرِّزقِ وبثُّ الطُّمأنينةِ في نفوسِ المُملقينَ

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليَّةِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

أخبرَ عن ضميرِ العظمةِ بجملةٍ فعليَّةٍ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ للدَّلالة - والله أعلم - على أنَّ هذا الرِّزقَ الدَّائمَ يتجدَّدُ، ويحدثُ شيئًا بعد شيءٍ... ولعلَّ في هذا مزيدَ بثٍّ للطُّمأنينَةِ في نفوسِهم، وسيأتي مزيدُ بيانٍ له في المتشابهِ اللَّفظي.

سوقُ البشارةِ للآباءِ بزوالِ الإملاقِ، وإحالةِ الرِّزقِ على الخالقِ الرَّزاقِ

نكتةُ تقديمِ رزقِ الآباءِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

تقدَّمَ رزقُ الآباءِ - وهم المخاطبون - فقالَ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾، ثمَّ عطفَ عليهِ ضميرَ الأبناءِ: ﴿وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، ولعله - والله أعلمُ - لسوقِ البشارة للآباءِ بزوالِ الإملاق، وإحالةِ الرِّزقِ على الخالق الرَّزاق، فكما أنَّكم لا تقتلون أنفسَكم، فكذلك لا تقتلوا أولادَكم[1].

وسيأتي مزيدُ بيانٍ له في المتشابه اللَّفظي.

الفواحشُ جنايةٌ عظيمةٌ، وأولادُ الزِّنى في حكمِ الأمواتِ

سرُّ وقوعِ جملةِ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ بين قَتْلين:

لـمَّا كانَ قتلُ الأولادِ أفحشَ الفواحشِ بعد الشِّركِ باللهِ، أتبعَهُ النَّهيَ عن مُطلقِ الفواحشِ، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، ووجهُ توسيطِ هذا النَّهي بين النَّهي عن قتل الأولادِ، والنَّهي عن القتلِ مُطلقًا عليه - هنا وفي سورة الإسراء - باعتبارِ أنَّ الفواحشَ بهذا المعنى مع كونِها في نفسِها جنايةً عظيمةً في حكم قتلِ الأولادِ؛ فإنَّ أولادَ الزِّنى في حكم الأمواتِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/687.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/362، ونظم الدرر: 7/317، والآلوسي، روح المعاني: 4/298.

بلاغةُ النَّهي عن قربِ الفواحشِ:

سدُّ الذَّرائِعِ، واتِّقاءُ جاذبيَّتِها الَّتي تَضْعُف معها الإرادةُ

عَظَّمَ أمْرَ الفواحِشِ بالنَّهْيِ عن قُرْبِها، فضلًا عن الغِشْيانِ؛ لأنَّها ذاتُ إغراءٍ وجاذِبيَّةٍ، فنهَى عن مجرَّدِ الاقترابِ؛ سدًّا للذَّرائِعِ، واتِّقاءً للجاذِبيَّة التي تَضْعُف معها الإرادةُ، وهو أبلَغُ في التَّحذيرِ مِنَ النَّهْيِ عن مُلابَسَتِها للمبالَغَةِ في الزَّجْرِ عنها[1].

فانصبابُ النَّهيِ على الاقترابِ ممَّا يقربُ من الفواحشِ كشفَ للقارئِ دِقَّةَ التَّعبيرِ في النَّظمِ القرآنيِّ؛ فإذا كان الاقترابُ من الفواحشِ منهيًّا عنهُ؛ فالوقوعُ فيها أشدُّ نهيًا.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾:

شدَّةُ نهيِ اللهِ عنِ الأفعالِ المنكرةِ، وتحقيرُها والتَّحذيرُ منها

أسلوبُ الجملةِ الكريمةِ إنشائيٌّ نَهيٌ، غرضُه: الوجوبُ والإلزامُ والنُّصحُ، وهي كنايةٌ عن تجنُّبِ الآثامِ والابتعادِ عنها، وتَرَكَ التَّصريح بالمعنى المرادِ، وهو الزِّنى ومقدِّماته وغيره من المعاصي، وأشارَ إليه بلفظِ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الذي يدلُّ على كلِّ ما هو قبيحٌ ومنكرٌ ومذمومٌ، وهذه الكنايةُ تدلُّ على شدَّةِ نهيِ اللّهِ ﷻ عن هذه الأفعالِ، وتحقيرِها وتنكيرِها، وتحذيرِ عبادِه من الوقوعِ فيها.

وسِرُّ جمالِ الكنايةِ: الإتيانُ بالمعنى مصحوبًا بالدَّليلِ عليه في إيجازٍ وتجسيمٍ، ويجوز استعارة مكنيَّة فيها تصويرٌ للفواحشِ بأشياءَ ماديَّةٍ ملموسةٍ لا يجب الاقترابُ منها لخطورتِها أو التفكيرُ فيها؛ وسِرُّ جمالِ الصُّورةِ التَّجسيمُ، وهي توحي بضرورةِ التَّعقُّلِ قبل التَّفكيرِ في ارتكابِ الفاحشةِ.

سرُّ تعدِّي الفعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾ بنفسِهِ:

الإشارةُ إلى عمومِ الفواحشِ الظَّاهرةِ والخفيَّةِ

الفعلُ (يقرب) يتعدَّى بنفسِهِ، فيقالُ: لم يقرَب دارَهُ، أي: لَم يأتِها، كما يتعدَّى بـ(من)، فيقالُ: لم يقرَب من دارِه، أي: لم يقتربْ من أوَّلِ حدودِها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198، والبقاعي، نظم الدرر: 7/317 - 318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.

ونلحظُ أنَّ الفعلَ هنا ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ تعدَّى بنفسه، فنصبَ ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، ولم يقلْ: (ولا تقربوا من الفواحش)؛ وذلك لأنَّ قولَهُ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، وهو يدلُّ على العمومِ، فلا يناسبهُ دخولِ (مِنْ).

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ دون (تأتوا):

النَّهيُ عن القُرْبِ أَبلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ

في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، لم يَقُلْ: لا تَأْتُوا؛ لأَنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ نَهْيٌ عنها، وعمَّا يكون ذريعةً إليها؛ ولذلك حَرَّمَ على الرَّجُلِ أن ينْظُرَ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، وأنْ يَخْلُوَ بها، وأنْ تُسافِرَ المرأةُ بلا مَحْرَمٍ؛ لأنَّ ذلك يُقرِّبُ مِنَ الفَواحِشِ[1].

معنى ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، وإيثارُ صيغةِ منتهى الجموعِ:

المُبالغةُ والكثرةُ، والتَّنوُّعُ، وفيها التَّحْقيرُ والتَّنْفيرُ مِن أنواعِ الآثامِ

الفواحشُ: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفِعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والمقصودُ بها في الآيةِ الكريمةِ الزِّنى، والجمعُ إمَّا للمُبالغةِ والكثرةِ والتَّنوُّعِ؛ وفيها تحقيرٌ وتنفيرٌ، أو باعتبارِ تعدُّدِ مَن يصدرُ عنهُ، أو للقصدِ إلى النَّهيِ عنِ الأنواعِ[2].

النّهيُ عمّا ظهر وما بطن بعد النَّهيِ العامِّ عنِ الفواحشِ:

تأكيدُ التَّعميمِ، وإفادةُ شمولِ المعاصي

في قولِهِ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ تفصيلٌ للفواحشِ، أي: ما يُفعلُ منها علانيةً في الحوانيتِ، كما هو دأبُ أراذِلهم، وما يُفعل سِرًّا باتِّخاذِ الأخدانِ، كما هو عادةُ أشرافِهم، ولعلَّ السِّرَّ في التَّقييدِ بهذا القيدِ هو تأكيدُ التَّعميمِ[3]، واستعمالُ (ما) لإفادةِ العمومِ والشُّمولِ.

---

(1) ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/38.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/318، والآلوسي، روح المعاني: 4/297.

بلاغةُ الطِّباقِ بين (ظهر) و(بطن):

﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَۖ﴾: محسِّنٌ بديعيٌّ: طباقٌ يُبرزُ المعنى، ويوضِّحهُ بالتَّضادِ، وهو أنَّ السِّياقَ الكريم استعملَ كلمتَينِ متقاربتَين في المعنى والصَّوت؛ للدَّلالةِ على الشُّمولِ والتَّوسُّعِ في حرمة الفواحشِ، ويفيدُ هذا المحسِّنُ البديعيُّ العمومَ والشُّمولَ لكلِّ الفواحشِ الَّتي منها المخبوء المستور، ومنها المعلَنُ المنشورُ؛ فظاهرُ الفواحشِ هو ما يظهرُ منها على الجوارحِ والأفعالِ، وباطنُها هو ما يبطنُ في القلوبِ من الأهواءِ والشَّهواتِ؛ والمقصودُ بهما أنَّ اللّه تعالى حرَّم كلَّ ما يُقرِّب من الفواحش سواءٌ كان ظاهرًا أو باطنًا(1).

الـدَّلالـةُ على الـشُّـمـولِ والـتَّـوَسُّـعِ في حرمةِ الفواحشِ

إيثارُ صيغةِ الماضي في ﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَۖ﴾:

وأوثرَ الماضي للدَّلالةِ على حكمة المشرِّعِ في النَّهي عن الأمرِ الواقع المتحقِّق، واستُخدم الفعل الماضي في الآية الكريمةِ؛ للدَّلالة على الحالةِ الدَّائمةِ أو العامَّة، وليس على الزمن الماضي فحسبُ؛ فالفواحشُ محرَّمة في كلِّ زمانٍ ومكان، سواءٌ ظهرت أو بطنت، وهذا التعبيرُ من بديع بلاغةِ القرآنِ الكريم الَّذي يستعملُ الأزمنة بحسب المقصودِ منها، وليس بحسبِ المعتادِ في عموم اللغة.

الـدَّلالـةُ على الحالةِ الدَّائمةِ أو العامَّة، وليس على الزَّمن الماضي فحسْبُ

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ﴾ على ما قبلها:

في عطف جملة ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بالواوِ على ما قبلَها دلالةُ توسُّعٍ وتفصيلٍ وتنويعٍ، لإفادة المشاركة في الحُكم، بما في النَّهي من حكمةٍ عظيمةٍ ورحمةٍ بالغةٍ مِنَ اللّهِ تعالى لعبادهِ؛ فإنَّهُ بحرمةِ دماءِ المسلمين يَضمَنُ سلامةَ المجتمعِ وانسجامَه، وبإباحةِ قتلِ المستحقِّ لذلك يَضمنُ عدالةَ المجتمعِ وانضباطَه.

إفادةُ توسُّعٍ وتفصيلٍ وتنويعٍ، والمشاركةُ في حكمِ النَّهي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/362.

دلالةُ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾:

تعظيمُ أمرِ قتلِ النَّفسِ وتفخيمُهُ والتَّنفيرُ منهُ

غرضُ النَّهي في الجملةِ الكريمةِ: التَّحذيرُ والتَّنفير، وخصَّه بالنَّهي؛ لأنَّه فسادٌ عظيم، وهذا النَّهيُ ضمَّه النَّهيُ عن جملةِ الفواحشِ في الجملة السَّابقةِ، إلَّا أنَّه أُفرد بالذِّكرِ، وهذا من الإطنابِ، ولعلَّ ذلك لفائدتين[1]:

الأُولى: أنَّ هذا الإفرادَ دلَّ على تعظيم الأمر المنهي عنه وتفخيمه، وهو قتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللّه تعالى إلَّا بالحقِّ، وقد قالَ اللّه تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: 32].

الثَّانية: أنَّه أُريدَ أن يستثنى منه، ولا يتأتَّى هذا الاستثناء من جملةِ الفواحشِ، بل بالإفراد.

فائدةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾:

إفادةُ العُمومِ والاستغراقِ، وكونُها أساسَ استمرارِ الحياةِ

جاءتِ النَّفسُ مُعرَّفةً للعُموم والاستغراق، وخصَّها؛ لأنَّها أساسُ استمرارِ الحياة.

فائدةُ وصفِ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ باسمِ الموصولِ:

التَّجدُّدُ والحدوثُ بالفعلِ الماضي الواقعِ في جملةِ الصِّلةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قيِّدت ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ بالصِّفة، فقالَ تعالى: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، ولعلَّ هذا للتَّنبيهِ إلى أنَّه قد سبقَ العهدُ في تحريمه[2]، وليفيدَ التَّجدُّدَ والحدوث بالفعل الماضي الواقعِ في جملةِ الصِّلةِ، فيعرفوا نعمةً في حفظِ دمائِهم، وليصحَّ الاستثناءُ بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، ولو قال: (ولا تقتلوا النَّفسَ المحرَّمة) لفسدَ المعنى.

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/172.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/688.

بلاغةُ الإيجازِ في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾:

في قوله: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ به (قتلَها)؛ لإثارةِ الذِّهنِ والتَّنبيه، وفي هذه البلاغة تضمينُ المعنى الكثير في اللَّفظ القليلِ، فبدلًا من أن يقول تعالى: (الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ قَتْلَهَا)، أو (الَّتِي حَرَّمَ اللّٰهُ دِمَاءَهَا)، قال: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، فأوجزَ في العبارة، وأفصح في المعنى، وأشارَ إلى حرمةِ النَّفسِ بحرمةِ ما فيها من الدَّمِ والرُّوحِ والعقلِ وغيرها من المقدَّرات، وهذا من بديعِ الإيجازِ الذي يكون بتضمينِ المعاني في ألفاظٍ أقلَّ منها من غيرِ حذفٍ.

تضمينُ المعاني في ألفاظٍ أقلَّ منها من غيرِ حذفٍ

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

في قوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إسنادُ التَّحريم إلى لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ فيه ترهيبٌ وردعٌ وزَجرٌ لكلِّ من يفكِّرُ في جريمة القَتل.

التَّرهيبُ والرَّدعُ والزَّجرُ لكلِّ من يفكِّرُ في جريمةِ القتلِ

معنى قولهِ: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ودلالته:

قيَّدت الجملةُ بقولهِ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ من أعمِّ الأحوالِ، أي: لا تقتلوها في حالٍ من الأحوالِ إلَّا حالَ ملابستكم بالحقِّ[1]، وقد يكونُ من أعمِّ الأسبابِ، أي: لا تقتلوها بسببٍ مِنَ الأسبابِ إلَّا بسببِ الحقِّ[2]، والباءُ هنا سببيَّةٌ.

إظهارُ السَّببيَّةِ وكمالِ الحقِّ في القتلِ

وتعريفُ (الحقِّ) أفادَ كمالَهُ، أي: إلَّا بالحقِّ الكاملِ، ولا يكون كاملًا إلَّا إذا كان كالشَّمس وضوحًا لا شُبهةَ فيه[3]، و(لا تقتلوا إلَّا بالحقِّ): طباقُ سلبٍ، يبرز المعنى ويقوِّيه بالتَّضادِ.

دلالةُ تكرارِ النَّهي عن قتلِ الولدِ:

يُلحظُ أنَّه نُهي عن قتلِ الولدِ في الآيةِ ثلاثَ مرَّات: الأولى: عندما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٍ﴾، والثَّانيةَ: في

بيانُ عظمِ الجرمِ المرتكَبِ في حقِّهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾، والأخيرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾[1]؛ ولعلَّ ذلك لعظم الجرم المرتكَب في حقِّهم، وفي الحديثِ الصَّحيح عن ابنِ مسعودٍ قالَ: سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ: "أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قلت: ثمَّ أَيٌّ؟ قال: «وأن تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»". الحديث[2].

فائدةُ الإجمال في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

بيانُ تأصُّلِ الوصيَّةِ في رِفقٍ وتلطُّفٍ

جيءَ بالجملةِ الكريمةِ لإجمالِ ما مضى من المحرَّمات، والتَّعبير يُوحي بالإلزام، وقد جاءت ﴿وَصَّىٰكُم﴾ لبيان تأصُّلِ هذا الأمر في رفقٍ وتلطُّفٍ.

فائدةُ (لعلّ) في قولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

الرَّجاءُ والاستفهامُ والتَّحذيرُ

استخدامُ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ أفادَ الرَّجاء، والاستفهامَ والتَّحذير؛ فاستعمالُ هذا الحرفِ يُثيرُ انتباهَ المخاطَبين، وتنبيهَهم على ضرورة التَّفكُّر والتدبُّر في آياته وحكمته، وكأنَّه يقول: ألا تعقلون؟ أو ما يمنعكم مِنَ التَّعقُّل؟ وهذا من بديع الإقناعِ والإرشاد الذي يتميَّز بِهِ كلام الله ﷻ، وأنَّ بابَ الاهتداءِ مفتوحٌ لمن يستخدم عقلَهُ.

بلاغةُ الفصلِ في جملةِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

ارتكابُ هذه المحرَّماتِ تنزِّلُ صاحبَها منزلةَ مَنْ لا يعقلُ

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، الجملةُ استئنافٌ جيءَ به تجديدًا للعهدِ، وتأكيدًا لوجوبِ المحافظة على ما كلِّفوا به[3]، و﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: ختامٌ رائعٌ يُؤكِّد أن ارتكاب هذه المحرَّماتِ يُنزل صاحبهُ منزلةَ مَن لا يعقلُ، فرُجِيَ أن يعقلوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث: (4477).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ المفردِ البعيدِ، وخطابِ الجمعِ في: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى المفردِ لمراعاةِ لفظِ (المجموع)

(ذا) اسم إشارةٍ للمفردِ المذكَّر، واللَّام لِلبُعْدِ، والكاف للخطابِ والميم للجمْعِ؛ وأشير بالمفرد وإن كان المشارُ إليه متعدِّدًا، لمراعاة لفظ (المجموع)، ولو روعي المعنى؛ لقالَ: (أولئكم)، وإيثارُ مراعاة اللَّفظِ المفردِ تتناسبُ مع الوصيَّة الجامعةِ، حتى تُؤخذَ كلُّها وكأنَّها لفظٌ واحدٌ، لا يتجزَّأُ، ولا يتفكَّك؛ ولحاقُ لامِ البعدِ لبُعدِ منزلتها، فـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارةُ إلى المذكور من النَّهي عن الشِّرك والأمر بالإحسانِ إلى الوالدين، والنَّهي عن قربِ الفواحشِ، وهو نهيٌ عن المقاربة لَا عن الوقوع؛ لأنَّه نهيٌ عن أن يدنو منها، فمن حامَ حول الحمى أوشكَ أن يقع فيه، والنَّهيُ عن القربِ يدلُّ على النَّهي عن الوقوع، والإشارةُ تشملُ النَّهي عن قتلِ النَّفس؛ فهذا كلُّه من وصايا اللّهِ ﷻ، ووصايا اللّهِ تعالى جديرةٌ بالاتِّباع؛ وجُعِلَ الخطابُ في الإشارةِ بـ (ميم الجمع) لعموم التَّوصيةِ بهذهِ الأمورِ الَّتي أشارَ إليها، وليتَّسقَ القولُ مع ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[1].

التَّعبيرُبالمضيّ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ وخطابُ الجمع:

بيانُ عظيمِ أهمِّيَّتها، ورحمةُ الموصِي بها

مِن سماتِ التَّعبيرِ القرآنيِّ في الآية الدِّقَّةُ في اختيارِ الكلمة القرآنيَّةِ، يجدها القارئُ في اختيارِ كلمة ﴿وَصَّىٰكُم﴾ بالإضافةِ إلى مناسبتِها للمقام، وذلك أنَّه لما كانت تلك الأشياءُ شديدةً على النَّفس ختمَها بـ﴿وَصَّىٰكُم﴾[2]، ولعلَّ السِّرَّ لما فيها من لطفٍ، ورأفةٍ، ولينٍ يلامسُ شَغافَ القلبِ، فيفتحُ لها بابَ القبول والاستجابةِ، كما أنَّ في جعلِهم أوصياءَ للّه تعالى ما لا يخفى من الإحسان[3].

والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي للإيذانِ بتحقُّقِهِ، وتقرُّره، وللإيماءِ إلى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2735.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/688.

استدعاء كلِّ وصيَّةٍ ممَّا سبقَ لتدبُّرها والعملِ بها؛ لأنَّها إنْ فاتت؛ فليس لها ثمَّةَ عِوضٌ.

نكتةُ تقييدِ الفاصلةِ بـ (لَعَلَّ):

إفـادةُ الترجِّي؛ فـالسَّـلامـةُ من الموبقات لا تتمُّ إلَّا بتوفيقٍ من الله تعالى

أتتْ فاصلةُ الآيةِ مقيَّدةً بـ(لعلَّ) ترجِّيًا للتَّعقُّل، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، ويعلِّل هذا ابنُ الزبير الغرناطيُّ بما مضمونهُ: أنَّه لما كانت تلك الأشياءُ؛ وهي الشِّركُ باللّه، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ الأولاد لأجل الفقر، وارتكابُ الفواحش، وقتلُ النَّفس الَّتي حرَّم اللّه بغير الحقِّ، لما كانت خمسَتُها ذاتَ قبحٍ ظاهر لا يخفى، قيِّدَت بترجِّي التَّعقُّل؛ لأنَّ السَّلامة منها لا تكون - مع وضوحِ أمرها - إلَّا بتوفيقٍ من اللّه تعالى[1].

وقد تكون (لعلّ) هنا للتوقُّع، وذلك لما فيها من توثيق وتأكيدِ أنَّ تلك الوصايا من الرَّحمنِ الرَّحيمِ الَّذي هو أرحمُ بخلقهِ منهم على أنفسهم - فكان من المتوقَّع بعد هذا أن يعقلوها، ويلتزموا بها؛ "إذ إنَّ العقلَ لو خُلِّي ليبحثَ هذه الوصايا الأولى بحثًا مستقلًّا عن منهج السَّماء؛ لوجد أنَّ ضرورةَ العيشِ على الأرضِ تتطلَّبُ وجودَ هذه الأشياءِ"[2].

تحليلُ الفاصلةِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

الإشـــارةُ إلى الأمـورِ المتعدِّدةِ والمهمَّةِ الَّتي يُرادُ توكيدُها

جاءتِ الفاصلةُ هنا جملةً اسميَّةً، واسمُ الإشارة (ذلك) راجعٌ إلى مجموع ما ذُكِر في الآية، وجاء مُفردًا باعتبارِ المذكورِ، أي: ذلك المذكورُ وصَّاكم به، و﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: بدلًا من ذلك؛ لأنَّ (ذلكم): تُستعملُ للأمورِ المتعدِّدة، والمهمَّة التي يُراد التَّوكيدُ عليها، وهي في محلِّ رفعٍ مُبتدأً، خبرهُ جملة ﴿وَصَّىٰكُم﴾، وجملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ جملةٌ رجائيَّةٌ، أي: أن يعقلوا، فيصيروا ذوي عقولٍ.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/173.
(2) الشعراوي، خواطر الشعراوي: 5/3991.

بلاغةُ التَّذييلِ هنا، وسرُّ اختلافِهِ عن لواحقِهِ:

التَّطريزُ في نظمٍ دقيقٍ للآياتِ الكريماتِ يحتويها

قولُهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تذييلٌ جُعِلَ نهايةً للآيةِ، فأومأَ إلى تنهيةِ نوعٍ من المحرَّماتِ؛ وهي المحرَّماتُ الرَّاجعُ تحريمُها إلى إصلاحِ الحالةِ الاجتماعيَّةِ للأمَّةِ، بإصلاح الاعتقادِ، وحفظِ نظامِ العائلةِ والانكفافِ عن المفاسدِ، وحفظِ النَّوعِ بتركِ التَّقاتلِ(1).

وفي قولِهِ تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، ما يُشبِهُ فنَّ التَّطريز، فهذه الآيات الكريمات يحتويها نظمٌ دقيقٌ وكأنَّهُ عقدٌ فريدٌ(2).

فائدةُ المضارعِ، وتقديمِ ضميرِ المخاطبينَ على ضميرِ الغائبينَ:

استمراريَّةُ الرِّزقِ والنَّهي عن القتلِ؛ وبدأَ برزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهُ الأهمُّ هاهنا

فائدةُ صيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ هي أنَّها تدلُّ على استمراريَّةِ الرِّزْقِ والنَّهيِ عن القتل، وأنَّ اللهَ تعالى لا يزال يرزق الآباءَ والأبناءَ في كلِّ حينٍ وزمانٍ، ولا يقطعُ رزقَهُم بسببِ كثرتِهِم أو قلَّتِهِم، ولو كان الفعلُ ماضيًا؛ لدلَّ على حصولِ الرِّزقِ في زمنٍ ماضٍ فقط، ولم يشملِ الحاضرَ والمستقبلَ.

وجاءَ في سورةِ الإسراءِ تقديمُ ضميرِ الغائبين على ضميرِ المخاطبين في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: 31].

وفي قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/162.

(2) التّطريزُ عند البلاغيّين يأتي على عدّة معانٍ، وهو من البديع، ومن معانيه أن يبتدئ المتكلّم أو الشّاعر بذكر جملٍ من الذّات غيرِ مُفَصَّلة، ثم يُخبر عنها بصفة واحدة من الصّفات مُكرّرة، للاستزادة يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص: 314.

بدأ هنا ﷻ برزقِ الوالِدَين، وفي سورة الإسْراء بَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ، والحكمةُ في ذلك أنَّه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، فالإملاقُ حاصِلٌ، فبَدَأَ بِذِكْرِ رِزْقِ الوَالِدِينِ اللَّذين أَمْلَقا، أي: ولا تقتُلوهم مِن فَقْرِكم الحاصِلِ، ولهذا قال تعالى بعدَها: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فبَدَأَ برِزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأهَمُّ هاهنا، والتقديم يعبِّرُ عن التَّوكيدِ والتحذير للآباءِ المملقين الذين كانوا يخافون من الفقرِ والضَّنْكِ بسبب كثرةِ الأولاد، فأولى بهم أن يطمئِنُّوا على رِزقِهم من ربهم قبل أن يشفقوا على رزق أولادهم، ولو كان التَّرتيب عكسيًّا لدلَّ على أنَّ الآباء مطمئنُّون برزقهم، ولكنَّهم يخشون على رزقِ أولادهم، وهذا لا يتَّفق مع حالِ المخاطبين في هذه الآية، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: 31] أي: خشية حُصُولِ فَقرٍ في الآجِلِ، فهما غَنِيَّانِ، لكن يَخْشَيَانِ الفَقْرَ، فبَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ قبلَ رِزْقِ الوَالِدِين، للاهتمام بهم، أي: لا تَخافوا مِن فَقْرِكم بِسَبَبِهم، فرِزْقُهم على اللهِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تعالَوا) و(أقبِلوا):

(تعالَوا): بمعنى طلبِ الإقبالِ مطلقًا، و(أقبِلوا): يدلُّ على مواجهة الشَّيء للشَّيء

تعالَ: فعلُ أمرٍ، أصلهُ يُؤمرُ بِهِ من يراد صعودهُ إلى مكانٍ مرتفعٍ فوق مكانه، ولعلَّ ذلك؛ لأنَّهم كانوا إذا نادَوا إلى أمرٍ مهمٍّ ارتقى المنادي على ربوةٍ ليسمع صوتَهُ، فأصلهُ فعلُ أمرٍ لا محالةَ من التَّعالي، وهو تكلُّفُ الاعتلاء، ثم نُقِلَ إلى طلبِ الإقبالِ مطلقًا[2].

أمَّا الإقبالُ؛ فيدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيء[3]، وقد يكون بعد التَّدابرِ، مثل: كنَّا مدبرين، فأقبلنا؛ إذ يُقبل النَّاس على بعضِهم؛ لأنَّ

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 3/362، والشنقيطي، أضواء البيان: 1/544، وأحمد أحمد البدوي، من بلاغة القرآن، ص: 94، وابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).

لهم شأنًا مشتركًا يريدون مناقشتَهُ، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ [الصافات: 27]، وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30]، حصل شيءٌ خطأً، واجتمعوا لمناقشتهِ وتصحيحه.

التِّلاوة أخصُّ مِن القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

(التِّلاوة) و(القراءة):

في الأصل: (تلا) تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ بصوت، ويُتسامح فيها، فتكونُ من غير مكتوبٍ لكن بصوتٍ، و(قرأ) تُستعمل للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ؛ فإذا عُدِّيا بـ (على) فهُما بصوتٍ ولا بدَّ.

وقد أشارَ أبو هلالٍ إلى فرقٍ آخرَ، خلاصتُهُ أنَّ التِّلاوة تكون فيما يطولُ، أي: يكثر من الكلام؛ ووجودُ عنصرِ التَّلاحق أخذًا مِنَ الاتِّباع واللّحاق في استعمالاتِ التَّركيبِ يُتيح ذلك[1].

وقال الرَّاغبُ: إنَّ التِّلاوةَ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنَّ التِّلاوة تختصُّ بما يُتَّبع، وقال في هذا السِّياق: "فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً (فإنَّه) لا يُقال: تلوتُ رقعتَكَ، وإنَّما يقال في القرآنِ في شيءٍ؛ إذا قرأتَهُ وجبَ عليك اتِّباعه". وأنا أكادُ أقطع بأنَّ الأمرَ التبسَ على الإمامِ؛ فإنَّ الذي منع (تلوتُ رقعتك) هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكون إلَّا بصوتٍ، والرُّقعة المرسَلةُ من شخصٍ إلى شخصٍ خاصَّةً ليس الشَّأنُ فيها أن تُقرأَ علنًا، فهذا هو الذي منعَ، لا أنَّ الرقعةَ ليست ممَّا يُتبعُ[2].

(الفقرُ): ما مسَّت الحاجةُ إليه، و(الإملاق): أسوأ حالًا منه لما فيه من الخضوع والتَّضرُّع

(الفقر) و(الإملاق):

الفرقُ بينهما أنَّ الثَّانيَ سببٌ في الأوَّلِ ومسبَّبٌ عنه؛ فالفقرُ: لفظٌ عامٌّ يُطلق على ما مسَّت الحاجةُ إليه، بل هو كلُّ ما يحتاجُ إليه الإنسان ليُصلحَ حياتَهُ الدنيويَّةَ؛ وصِفته (الفقير) - بصيغة فعيل -

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلى - تلو).

في معنى الثُّبوتِ والدَّوام؛ فالفقرُ في أصلِ الوضعِ اللُّغويِّ إطلاقٌ عامٌّ على عدم الحاجة الضَّروريَّة.

والإملاقُ: الإنفاقُ وامتلاكُ الحاجة، ويُطلق على حالةٍ من الإنفاق والإسرافِ فيه بحيثُ تؤدِّي الحالةُ إلى فَناءِ المالِ وزواله؛ وذهابُهُ يؤولُ بصاحبهِ إلى العَوَزِ والحاجة؛ والعَوَزُ والحاجةُ يترتَّبُ عليها حالة الفَقر[1].

(الفواحش) و(الكبائر):

(الفواحش): كلُّ معصية يُتَجرَأ فيها على الله، والكبائرُ أخص منها

الكبائرُ هي التي رتَّبَ اللّهُ تعالى عليها عقوبةً دنيويَّةً كالحدود والكفَّارات، أو رتَّبَ عليها لعنًا، أو رتَّبَ عليها عذابًا أُخرَويًّا؛ هذا هو ضابطُ كبائرِ الإثم.

وأمَّا الفواحشُ؛ فهي الَّتي تقتضي من صاحِبها رقَّةَ وازعِه، وجراءتَهُ على اللّهِ ﷻ؛ فالَّذي يتجرَّأُ على اللّهِ ﷻ بصغيرةٍ، فإنَّ ذلك يُصيِّرها فاحشةً؛ لأنَّه إذا لم تسُؤْهُ سيِّئتُهُ فهو ناقصُ الإيمانِ؛ وحالُ المُؤمِنِ مع ذُنوبِه كرجلٍ قاعدٍ تحتَ جبلٍ يَخافُ أنْ يَقعَ عليه؛ ومَن وقعَ عليه الجبلُ فلا يُظَنُّ له نَجاةٌ، فالمُؤمِنُ ينظُرُ إلى عَظَمةِ اللّهِ ﷻ، وجَلالِه، وعِزِّ سُلطانِه، وغِناهُ عن خَلْقِه، وفقْرِ خَلْقِهِ إليه، وأنَّ يَسيرَ المعصيةِ له ﷻ ليس بيسيرٍ عند المُؤمِنِ؛ فلذلك يرى كأنَّه قاعدٌ تحت جَبَلٍ من خوفِ ما أتى.

وأمَّا الفاجرُ - وهو الفاسِقُ المُستهتِرُ - فينظُرُ إلى ذنوبهِ باستخفافٍ، حتى إنَّه يرى الفواحشَ والذُّنوبَ سَهلةً يسيرةً، فكأنَّها ذُبابٌ مرَّ على أنفِه، فأشار بيدِه، فذَهَبَ الذُّبابُ ولم يُؤثِّرْ فيه، لا لخِفَّةِ ذُنوبِه، ولكِنْ لخِفَّةِ إيمانِه باللّهِ سُبحانَه، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ المُؤْمِنَ يَرى ذُنُوبَهُ كَأنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (ملق)، ونهاد العاني، النّص اللّغوي بين السبب والمسبّب، ص: 104، و105.

أنْ يَقعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنْفِهِ، فقالَ به هَكَذا»[1].

(الوصيَّة) و(النَّصيحة) و(الإنذار):

قال الطِّيبِيُّ رحمه اللّه: النصيحةُ والوصيَّةُ متقاربان، والأقربُ أنَّ بينهما فرقًا؛ فإنَّ النَّصيحةَ هي إرادةُ الخيرِ للمنصوح له، فيُرادُ بها حقوقُ العبادِ؛ وبالوصيةِ متابعةُ الأمر والنَّهي من حقوقِ اللّه تعالى[2]، أمَّا الإنذارُ؛ فكلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومعناه: الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ[3]، وهو فرعٌ عن النَّصيحةِ مُستَقِلًّا.

(الوصية): متابعةُ الأمر والنَّهي، و(النَّصيحةُ): إرادةُ الخيرِ للمنصوح، ومنها الإنذارُ مع التَّخويف

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6308).
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 11/67.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين وصايا لإصلاحِ الفردِ، ووصايا لإصلاحِ المجتمعِ

بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى في الآية السَّابقة جملةً من الوصايا المتعلِّقة بالتَّوحيد، وعدم الإشراك بالله، وأمر ببرِّ الوالدين، ونهى عن قتل الأولاد، فلا تُقتلُ النَّفس إلَّا بحقِّها ممَّا هو من الوصايا الخاصَّة بالفرد، وبأقرب الأقربين إليه، وبخاصَّة أهل بيته، فقد أكمل الوصايا في هذه الآية بالتَّعاملات مع عموم النَّاس بدءًا باليتيم، فنهى عن أكل مال اليتيم، وبإيفاء الكيل والميزان، باعتبار حفظ حقوق النَّاس وغيرها، وهو ربط عقلانيٌّ وضروريٌّ، ممَّا ينصلحُ به الحال، وينتظمُ به المآل، وتسعد به الأسرة، ويهنأ به المجتمع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ و﴿ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾: جذر الكلمة هو (قرب)، القُرْبُ والبُعد يتقابلان، يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ[1]، والقُرابُ: مُقاربة الشَّيء، تقول: معه ألف درهم أو قُرابُ ذلك، ومعه ملْءُ قدح ماءٍ أو قُرابُهُ[2]، وبينهم قُربةٌ وقُربى وقَرابة، وهو قريبي وقرابتي، وبيننا نسبٌ قريبٌ[3]، والقريبُ يستوي فيه الذَّكر والأنثى، والفرد

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرب).

والجميع[1]، ويستعمل القرب في المكان: كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، والزَّمانِ: كقولهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، والنِّسبةِ: كقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة: 106]، والحُظْوة: كقولهِ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطفِّفين: 28]، والرِّعايةِ: كقولهِ تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، والقدرة: كقولهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16][2].

2) ﴿ٱلْيَتِيمِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (يَتَمَ)، اليُتْمُ: انقطاع الصَّبيِّ عن أبيه قبل بلوغه[3]، واليَتيمُ جمعهُ أيتامٌ، واليُتم في النَّاس من قِبَلِ الأب[4]، وفي البهائم من قبل الأمِّ، ويقال: أيتمت المرأة، أي: صار أولادها أيتامًا[5]، وكلُّ منفردٍ يتيمٌ، يُقال: دُرَّةٌ يتيمة، تنبيهًا على أنَّه انقطعت مادَّتُها التَّي خرجت منها، وقيل: بيت يتيمٌ، تشبيهًا بالدُّرَّة اليتيمة[6]، وما في سيره يُتْمٌ: ضَعْف وفتور، وهو مستعار من حال اليتيم[7]، واليُتْم: الانفراد، وأنشدنا:

أَفَاطِمَ إِنِّي ذَاهِبٌ فَتبيَّنِي *** وَلَا تَجْزَعِي كُلُّ النِّسَاءِ يَتِيمُ[8]

3) ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: من الأَشُدِّ: وهو اسمٌ يدلُّ على قوَّة الإنسان، وهو مشتقٌّ من الشَّدِّ، وهو التَّوثُّق، والشَّدُّ: العقد القويُّ، يقال: شددتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عقده، قال: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الانسان: 28]، وقوله: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمَّد: 4]، والشِّدَّةُ تُستعمل في العقد وفي البَدَن، وفي قوى النَّفس، وفي العذاب، قال: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44][9]، ورجل شديدٌ، وشديد القوى، وقوم شِداد وأشدَّاء[10]، والأشدُّ: مبلغ الرَّجل الحنكة والمعرفة، وقال اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: 34][11].

4) ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: مصدر كِلْتُ الطَّعامَ كيلًا ومكالًا ومكيلًا أيضًا، وهو شاذٌّ؛ لأنَّ المصدر

---

(1) الخليل، العين: (قرب).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/253.
(3) الرّاغب، المفردات: (يتم).
(4) الخليل، العين، وابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، الجوهريّ، الصّحاح: (يتم).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (يتم).
(6) الرّاغب، المفردات: (يتم).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (يتم).
(8) البيت لعبد قيس بن خفاف البرجميّ في النّوادر في اللّغة: 126، وينظر: الأنباريّ، الزّاهر: 1/129.
(9) الرّاغب، المفردات: (شدد).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شدد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

من فعَل يفعِل مفعل، يقال: ما في برك مكال، وقد قيل: مكيلٌ، عن الأخفش[1]، والكَيلُ كَيل الطَّعام، يقال: كِلْتُ له الطَّعام: وكِلْتُهُ الطَّعامَ؛ إذا أعطيته كَيْلًا، واكْتَلْتُ عليه: أخذت منه كيلًا[2]، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفِّفين: 1 - 3]، وقوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: 88]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ [يوسف: 63]، وقوله: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 65]، مقدارُ حِملِ بَعيرٍ[3]، وكايلتُ بين أمرين، أي: نظرتُ بينهما أيُّهما الأفضلُ[4].

5) ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: آلةُ الوزن، وأصلهُ: مِوْزَان، وهذا يزن درهمًا، ودرهم وازنٌ، أي: تامٌّ[5]، الوزن: معرفة قدر الشَّيء، يُقال: وزنته وزنًا وزِنَةً، والمُتعارف في الوزن عند العامَّةِ ما يُقدَّر بالقسطِ والقبَّان، وقوله: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35، الشُّعراء: 182]، وقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفِّفين: 3][6]، قال الشَّاعر يصف الميزان:

وَلَقَدْ قَعدْتُ إِلَى حُكُومَةِ حَاكِمٍ *** بِلِسَانِهِ يَقْضِي وَلَا يَتَكَلَّمُ[7]

6) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: من الإقساطِ: وهو العدلُ في القِسمة والحُكم، وتقول: أَقسَطْتُ بينهم، وأَقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحصَّة التي تنوبه، وتقسطوا بينهم الشَّيء، أي: اقتسموه بالتَّسوية، فكلُّ مقدار قسط في كلِّ شيء، والقِسطاسُ والقُسطاسُ: أقوم الموازين[8]، والقِسط بكسر القاف: العَدْلُ[9]، قَالَ تعالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29]، ويَستَوي فيه الواحدُ والجَميعُ، وقوله تَعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسطِ، أي: العَدلِ، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، أَي: أَقْوَمُ وأَعدَلُ، كالإِقسَاطِ، يُقال: قَسَطَ في حُكْمِهِ، وأَقْسَطَ، أَي: عَدَلَ، فَهُوَ مُقْسِطٌ، وَفِي أَسْمَائِه تَعَالَى الحُسْنَى: المُقْسِطُ: هو العادِلُ[10].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (كيل).
(2) الخليل، العين، وابن سيدة، المُحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (كيل).
(3) الرّاغب، المفردات: (كيل).
(4) الخليل، العين: (كيل).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (وزن).
(6) الرّاغب، المفردات: (وزن).
(7) أبو عمرو الشّيبانيّ، كتاب الجيم: 3/17.
(8) الخليل، العين: (قسط).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (قسط).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (قسط).

7) ﴿نُكَلِّفُ﴾: جذر الكلمة هو (كلف)؛ والكَلَفُ الإيداعُ بالشَّيءِ، وتكلُّفُ الشَّيءِ ما يَفعلُه الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مَعَ مَشقّةٍ تَنالُه في تَعاطيه، وصارت الكُلْفَةُ في التّعارفِ اسْمًا لِلمَشقّةِ، والتَّكَلُّفُ: اسْمٌ لما يُفعَلُ بمشقّةٍ، وتَكلّفتُ الشَّيءَ تَجَشَّمْتُهُ[1]. ومثاله ما ورد في الآية، قَوْلُه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286][2].

8) ﴿وُسْعَهَا﴾: جَذْرُ الكلمة هو (وسع)؛ وَالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقَةُ[3]، والسَّعَةُ تُقالُ في الأمكِنَة، وفي الحال، وفي الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريات: 47]؛ أَيْ: أَغْنِياءُ قادرون[4]، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7] وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، ومعنى ﴿وُسْعَهَا﴾ في الآية: أي قَدْرُ إمكانها[5].

9) ﴿وَبِعَهۡدِ﴾: العَهْدُ: حِفظُ الشَّيءِ ومراعاته حالًا بعد حالٍ، وسُمِّي الموثق الَّذي يلزم مراعاته: عَهْدًا، قال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]، أي: أوفوا بحفظ الأيمان، وعَهِدَ فلان إلى فلان يَعْهَدُ، أي: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، قال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، وعَهْدُ اللّهِ تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسُّنَّة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشَّرع كالنُّذور، وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التّوبة: 75]، ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100][6].

10) ﴿أَوۡفُواْۚ﴾: أمر الفعل أوفى، ومنه الوافي الَّذي بلغ التَّمام، يقال: درهم وَافٍ، وكَيْلٌ وَافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، وَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً، وأَوْفَى: إذا تمَّم العهد، ولم ينقض حفظه[7]، وقوله: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76][8]، وقد أمر اللّه بالوفاء، وقال الزَّجّاج في قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]: خاطب

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (كلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (وسع).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/313.
(6) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(7) الجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(8) الرّاغب، المفردات: (عهد).

اللّه - جلَّ وعزَّ- المؤمنين بالوفاء بالعقود الَّتي عقدها عليهم، والعقود الَّتي يعقدها بعضهم على بعض، على ما يوجبه الدِّين[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

وصايا لحفظِ الحقوقِ، والقِسطِ في الموازينِ، والعدلِ في الأقوالِ والأحكامِ

هذه الآية مسوقةٌ لبيان بعض المحرَّمات من الأفعال الَّتي أوصى فيها اللّهُ تعالى باليتيم، وأمر بالوفاء بالكيل والميزان بالقسط، من غير عنتٍ ولا تكلُّفٍ، ثمَّ انتقل إلى الأمر بالعدل في الأقوال، ولو كان مع ذي القُربى، فلا يكون القولُ إلَّا صدقًا فصيحًا، وعدلًا صريحًا، ولا يكون للقرابة تفضيل في الاحتكام، ولا شفاعة في الأحكام، بل ينبغي الإنصاف وقول الحقِّ[2]، ثمَّ ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾:

حفظُ قواعدِ التَّعامُلِ الإنسانيِّ، تبني مجتمعًا متماسكَ المباني

عَطَفَ السِّياقُ جملة: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ على الجملة الَّتي فَسَّرت فعل: ﴿أَتْلُ﴾ [الأنعام: 151]، فعطف محرَّماتٍ ترجع إلى النَّهي عن الإشراك باللّه، فتوحيد اللّه أوّلًا، ثُمَّ الأمر بالإحسان للوالدين، واحترام رزق اللّه في الذُّرِّيَّة، والنَّهي عن الفواحش وقتل النَّفس، وهذا كلُّه يُؤسِّس لحفظ قواعد التَّعامل بين النَّاس لإقامة قواعد المجتمع الإنسانيِّ وتحقيق ثقة النَّاس بعضهم ببعض[4]، فكانت هذه النَّواهي خاصَّة بالمخاطَب نفسِه، وما يدور في فلك حياته الدَّاخليَّة، ثمَّ عطف بالنَّهي - في هذه الآية - عن قرب مال اليتيم، وخصَّه بالذِّكر، والأمر بإيفاء الكيل، والقول بالعدل، باعتبارها جملةَ نواهٍ وأوامرَ متعلِّقة بالعلاقات

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168.

(3) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/392.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/162.

الخارجيَّة مع عموم النَّاس في المجتمع، ويقوم ذلك كلُّه على الإيمان باللّه وبالرَّسول، باعتباره ﷺ هو الذي يتلو عليهم آيات اللّه وحيًا أوحاه اللّه إليه، ويأمرهم بأوامر اللّه، وينهاهم عمَّا نُهوا عنه.

التَّرقِّي في عطفِ الأوامرِ والنَّواهي في الآيةِ الكريمةِ:

مكانةُ اليتيمِ المِحْوَرِيَّةُ مِنَ المَنظورِ الأُسَريِّ والمُجتمعيِّ

بدأ بذكْرِ الإيمانِ وخواطر القلب والنَّفس، ثم ذِكْر الوالدين، ثمَّ ذِكْر الأبناء، ثم انتقل إلى ما هو دخيل على الأسرة، وهو اليتيم، ليجعل له مكانة عظيمة عند الأُسَرِ الكافلة، فخصَّ حفظ حقِّ الضَّعيف الَّذي لا يستطيع الدَّفع عن حقِّه في ماله، وهو اليتيم، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، فأفاد العطف صلة بين الجملتين، وأسَّسَ لرؤية دقيقة في حفظ الحقوق كلِّها صغيرها وكبيرها، ثُمَّ انتقل إلى العلاقات المُجتمعيَّة، فتطرَّق إلى العدل والقسط بالميزان والحُكم بين النَّاس، والعدل في القول، والوفاء بالعهد، فجمع بذلك منظومة متكاملة لأصول التَّعامل بين النَّاس، ممَّا يحقِّق ثبات المجتمع والدِّين معًا.

خروجُ النَّهي إلى معنى التَّحذيرِ في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾:

سدُّ الذَّرائعِ في إنفاقِ مالِ اليتيمِ، وتحاشي كلِّ تصرُّفٍ أثيمٍ

قولهُ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ نهيٌ عن القرب الَّذي يَعُمُّ وجوه التَّصرُّف، وفيه سدُّ الذَّريعة، ثمَّ استثنى ما يحسن، وهو التَّثمير والسَّعي في نمائه[1]، وقد خرج النَّهي في الجملة إلى معنى التَّحذير من أخذ مال اليتيم، ولو بأقلِّ أحوال الأخذ؛ لما في اليتيم من ضعف، وعدم تمكُّن من الدِّفاع عن نفسه وماله، وعدم دراية بالمصلحة المنوطة بصور إنفاق المال؛ إذ مطلق التَّصرُّف المعتاد في المال المستفاد، يقتضي قوَّةً تُسْعِف، ومُكْنَةً تُؤهِّل، وتجربة تعصم من الزَّلل، وتقي من الخلل، وهو ما لا يملكه اليتيم اليافع، المكسور الجناح، فكان حريًا بكافله، أن يحمي ماله في الغدوِّ والرَّواح.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/362.

دلالةُ مادَّةِ القرب وصيغة المضارعِ في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾:

التَّحذيرُ المُتجدِّدُ من قربانِ مالِ اليتيمِ: ضمانٌ ووِقايةٌ وتحصينٌ

إنَّ دلالة فعل المُضارع ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ على التَّجدُّد في الحدث مع الزَّمان واضحة عند التَّأمُّل للعيان؛ إذ يفيد التَّحذيرَ المستمرَّ من قربان مال اليتيم، فالتَّجدُّد في القربان والتَّحذير منه متجدِّدٌ في كلِّ وقت، ولعلَّ في ذلك تعريضًا بالنَّفس وميلها إلى مال اليتيم، باعتباره مال الضَّعيف الذي لا يستطيع الدَّفع عن حقِّه، فجاء الفعل بصيغة المضارع ليُعالج تردُّدات النَّفس مع الزَّمن في قرب مال اليتيم، فيحذِّره من قربه.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾:

النَّهيُ عنِ الاقترابِ منَ المكروهِ أبلغُ منَ النَّهيِ عن تناولِهِ والتَّعاملِ بِهِ

النَّهي عن قرب مال اليتيم أبلغ من النَّهي عن تناوله أو أخذه، وممَّا يشبه ذلك في القرآن الكريم قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]؛ كناية عن مجرَّد التَّفكير في الدُّنوِّ منها، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ [البقرة: 222]؛ كناية عن الجماع وما يُوصِّل إليه، وقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الإسراء: 32][1]. و(القِربان) كناية عن ملابسة مال اليتيم، فكان الأمر بالحذر من التَّصرُّف فيه إلَّا بما ينفع اليتيم، ويصبُّ في مصلحته وفائدته، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام: 151]، والنَّهي عن القرب، يعمُّ وجوه التَّصرُّف، وفيه سدُّ الذَّريعة؛ لأنَّه إذا نهى عن قرب الوكيل من المال؛ كان النَّهي عن أكله أولى[2].

نكتةُ البدءِ بالنَّهي عن قربِ مال اليتيمِ:

قـضـيَّـةُ مـالِ اليتيمِ أنموذجٌ لتحصينِ كلِّ مالٍ تطمحُ إليهِ النُّفوسُ

بَدَأ في هذه الآية بالنَّهي عن أكل مال اليتيم في قوله ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، وصلًا بين مجموعتين من الأوامر والنَّواهي، فجعل المجموعة الأولى فيما يتعلَّق بعقيدة الإنسان ونفسه ووالديه وخاصَّته من أسرته،

---

(1) الرّاغب، المفردات: 1/665.

(2) الفاسّي، البحر المديد: 2/186.

وجعل المجموعة الثَّانية فيما يهتم بالفرد وعلاقته بمجتمعه ومعاملاته للآخر، فكانت قضيَّةُ اليتيم وفق هذا التَّرتيب محورًا، وهمزة وصلٍ، فقضيَّة اليتيم حالةُ وَصْلٍ بين المجموعتين، باعتباره فردًا من خارج الأسرة، ثمَّ إنَّه داخلٌ فيها بحكم الوصاية عليه.

نُكتةُ توجيهِ الأمر إلى الجماعة ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾:

رِعـايَـةُ اليَـتيمِ قَـضِيَّةٌ جَماعيّة ومَـسْـؤوليّـةٌ مُجْتَمَعيّةٌ

جَعَلَ الخطابُ القرآنيُّ قضيّةَ اليَتيم قَضيّةَ مجموعِ الأمّةِ، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾؛ ولم يَقْتَصِرْ على خِطاب الفَردِ، كَأَنْ يقولَ: (ولا تَقرَبْ)، فجَاءَ النَّهيُ عامًّا لِلمُجْتمعِ كُلِّه، بَيْنَما عادةً ما يَكونُ اليَتيمُ في رِعايةِ واحدٍ أو اثْنين مِنَ الأفراد، فبَيّنَ بصيغة الجمع أنّها قضيّةُ الجميع، وأنّ مسؤوليّة المجتمع لا تَسقُطُ عن حِفْظ مال اليتيم حتّى وإنْ كانَ لهُ كفيل يرعى شؤونه، فأفادَ النّهيُ الجَمْعيُّ حُرمَةَ أن يكون التَّعدّي على مال اليتيم ظاهرةً اجتماعيّة، أو أسلوبًا مُنظّمًا تَتَبَنّاه مؤسّساتٌ أو جَمعيّاتٌ لا أخلاقيّة، وهذه مَسألةٌ توقِظُ في المجتمعِ التَّكافُل، وتوقِدُ جِذْوَةَ المسؤوليّة المجتمعيّة تُجاهَ الضّعفاء مِنْهم.

دلالةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾:

جميعُ أفـرادِ جنسِ اليتيمِ مقصودةٌ في الآيةِ

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾ في قولهِ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ لاستغراق كلِّ أفراد الجنس، وذلك نحو قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساء: 28]، فلا يشِذُّ واحدٌ من أفراد الجنس عن هذا الضَّعفِ البشريِّ، وكذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، فالنَّهي جارٍ على أموال كلِّ أفراد جنس اليتيم، والأحكام ساريَةٌ عليهم في كلِّ زمان ومكان، مهما كان مستوى اليتيم الاجتماعيّ والمادّيّ، فضمان حقوقه راجعٌ إلى مراعاة حالته النَّفسيَّة، الّتي لا فرق فيها بين يتيم غنيٍّ، ويتيم فقير، فالكلُّ في ميزان الزَّمان، فاقِدٌ للعطف والحماية والحنان.

دلالةُ ذكرِ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾ بالإفرادِ دونَ الجمْعِ:

إفرادُ مالِ اليتيمِ تسليطٌ للضَّوءِ عن قُربٍ على قضيَّةٍ عامةٍ في المجتمعِ

خصَّ اليتيم بالذِّكر فيما أَمَرَنَا به من ذلك في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، لعجزه عن الانتصار لنفسه، وتأكُّد الأطماع في ماله، فلا جرم أكَّد النَّهي عن أخذ ماله بتخصيصه بالذّكر(1)، وأموال النَّاس ممنوع من قربانها(2)، كما أنَّ لإفراد اليتيم دورًا في تسليط الضَّوء على الواحد من اليتامى، وذلك لعظيم الاهتمام به، ومعاينة ما فيه من العجز عن قرب، وفي ذلك ترشيحٌ لأن يكون التَّعبير في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، كالمثل السّائر، وقال: ﴿مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ بالمفرد، ولم يقل: (أموال اليتامى) بالجمع؛ تسليطًا للأضواء على كلِّ مال من أموال اليتامى، واهتمامًا بعظيم هذا التَّحذير، لكنَّه في موضع سابق قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النِّساء: 10]، فلمَّا ذكر القُرب؛ أفرد، ولمَّا ذكر الأكل؛ جمع، فمن بلغ درجة أن يأكل من أموال اليتامى؛ فإنَّه سوف تتنوَّع عنده الحجج في الأكل، وتتعدَّد تسويغاته لها، وما ذاك إلَّا من تزيين الشَّيطان له، أمَّا عدم قرب مال اليتيم، فهو شكل واحد لا يتعدَّد.

وجهُ تخصيصِ مالِ اليتيمِ بعدمِ القربِ منه:

مـالُ اليتيمِ في كنفِ ضَعيفٍ؛ تعصفُ به الأطماعُ في كلِّ الظُّروفِ

خصَّصَ اللّه سبحانه حفظَ مال اليتيم بالذِّكر في قوله سبحانه ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، دون غيره من الحقوق الكثيرة في الحياة الإنسانيَّة؛ لأنَّ حقَّ اليتيم هو مظنَّة الاعتداء عليه من الأولياء أو الكُفلاء، دون أن يكون له مَنۡ يدفع عنه ذلك الظُّلم ويُبعِدَ عنه الحَيۡفَ، وقد خاطب تعالى نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضحى: 6]؛ لأنَّ اليتيم مظِنَّة الإضاعة، فلم يلتفت القرآن الكريم

(1) إلكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 3/128.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/688.

هنا إلى الحقوق الأخرى - وهي كثيرة - بل جعل حقَّ اليتيم محورًا للحقوق كلِّها؛ ليدفع هو عنه الظُّلم.

بلاغةُ الاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

حفظُ مالِ اليتيمِ وإنماؤهُ أمرٌ محمودٌ عند اللهِ وعند النَّاسِ

لقدِ استُثني من قرب مالِ اليتيم ما يُحقِّق المصلحة لليتيم في حفظ ماله خزنًا أو استثمارًا وتصرُّفًا، فقال: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: إلَّا بالحالة الَّتي هي أحسن، و﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، وهي في هذا السياق تدلُّ على الحصر لسبقها بالنّهي بحرف (لا)، والاستثناء مُفرَّغ بالنَّفي وحذف المستثنى منه، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بالفعل ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ على معنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلَّا بالخصلة التي هي أحسن، فهما صفةٌ لمصدر محذوف تقديره: (الخصلة)[1].

الباءُ للمُلابَسةِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

ضمانُ النَّفسِ في توكيدِ حسن النِّيَّةِ ضرورةٌ عندَ التَّعاملِ معَ مالِ اليتيمِ

الباء في قوله تعالى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ للمُلابسة، أي: لا تقربوا مال اليتيم إلَّا ملابسين للخصلة أو الحالة التي هي أحسن حالات القرب، أي: إلَّا بالدُّنُوِّ الأحسن من ماله تصرُّفًا وإنفاقًا ورعايةً، فلا يحلُّ التَّصرُّف في مال اليتيم إلا بحسب رؤية صائبة صادقة في إنماء ماله وتحقيق مصالحه فيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

التَّصرُّفُ بالَّتي هي أحسنُ غلْقٌ لأبوابِ الطَّمعِ في مالِ اليتيمِ

اسم الموصول صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، يُقَدَّر مناسبًا للموصول الَّذي هو اسم للمؤنَّث، فيقدَّر بالحالة أو الخَصلة، وقد التزم حذف الموصوف في مثل هذا التَّركيب واعتباره مؤنَّثًا يجري مجرى المثل[2]، فقال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، ولم يقل: (بما هو أحسن)، أو (بالَّذي هو أحسن)، أي: ادفَعِ السَّيِّئة بالخصلة الحسنة.

---

(1) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 53.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/163.

أهمِّيَّةُ جريانِ عبارةِ ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مجرى المثلِ:

التَّشجيعُ على جميلِ القولِ وحسنِ العملِ في الأمورِ كلِّها

تكونُ العبارةُ مثلًا سائرًا يُقال في المُناسبات القريبة، ممَّا قيلت فيه الآية، ونزلت من أجله، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: 96]، وفائدتُهُ: الدَّعوة والتَّشجيع على حُسن القول، والعمل به، وتعريضٌ بمن تراوده نفسه عن غير ذلك، وكلُّ ما يفعل بالَّتي هي أحسن في مجال مال اليتيم، أو دفع العداوة، أو مجادلة أهل الكتاب، يدلُّ على لطف الله بعباده، ودعوتهم إلى تلطُّف بعضهم ببعض، لتستقيم الحال، وينتظم المآل.

دلالةُ اسميَّة الجملة واختيار اسم التّفضيل في قولِه: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

اختيارُ الحالةِ المثلى في التَّعاملِ معَ مالِ اليتيمِ

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: بالخصلة الَّتي هي أحسن في حقِّ اليتيم، ولم يأتِ القول: (إلَّا بالَّتي هيَ حَسَنَةٌ)، بل جاء بأفعل التَّفضيل مراعاةً لمال اليتيم، وأنَّه لا يكفي فيه الحالة الحسنة، بل الخصلة الحسنى، الجملة الاسميَّة ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾ تدلُّ على الثَّبات، وعدم التَّبدُّل مع الزَّمن، فمهما تغيَّرت الأزمنة والأحوال؛ فإنَّ القرب من مال اليتيم لا يرضاه الله إلَّا بالَّتي هي أحسن من حفظه وإنمائه.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ المؤنَّثِ في قولِه: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

مساحةُ العمل الإيجابيِّ واسعةٌ في إنـمـاءِ مـالِ اليتيمِ

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، تقتضي وجود صفة وموصوف، ونكتة حذف الموصوف المؤنَّث (الخصلة أو الحالة) - الَّتي تُحقِّق أعلى درجات الحُسن - مؤكَّد ومهمٌّ، فدلالة حذفها، يكون لتوسيع مساحة الاختيار لدى الكفيل، فيوازن الأمور ويختار ما يحقِّق الأحسن، فيحقِّق الخيريَّة في الخصلة أو الحالة أو غيرهما.

هل المفاضلةِ في لفظِ ﴿أَحۡسَنُ﴾ على أصلها؟

لفظ ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، أي إلَّا بالخصلة الَّتي هي أحسنُ ما يُفعَل بمال اليتيم، وهي حفظه وتثميره، والمعنى:

احفظوه عليه حتَّى يبلغ أشدَّه، فادفعوه إليه[1]، وقد ورد في بعض الحواشي الفقهيَّة: «تاجروا بأموال اليتامى، لئلَّا تأكلها الزَّكاة»[2]، وحفظ المال بالنَّماء فعل الرَّاشدين العقلاء؛ لأنَّ استثمار المال بالتِّجارة الرَّابحة، والتَّدبير الحكيم، يجعل المال ينمو مع نموِّ اليتيم حتَّى إذا بلغ أشُدَّه في شبابه، واستوى في يفاعته؛ التفت إلى ماله، فوجده ناميًا وفيرًا، واستطاع به أن يتاجر، ويضرب في الأرض، ويبتغي من فضل الله، فكانت خصلة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، خير ضمان لمال اليتيم المستور والمعلن.

الغايةُ من إثمارِ مالِ اليتيمِ هي تسليمُهُ إليهِ إذا بلغَ أشدَّهُ

دلالةُ تركيبِ ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ونوع المجاز فيه:

المراد ببلوغ الأَشُدِّ عند الشَّعبي وجماعة: بلوغ الحلم، وقيل: أن يبلغ ثماني عشرة سنة، وقال السُّدِّيُّ: أن يبلغ ثلاثين، إلَّا أنَّ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النّساء: 6][3]، والبلوغ: الوصول، وهو هنا مجاز في التَّدرُّج في أطوار القوَّة المخرجة من وهن الصِّبا، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية للمستثنى: وهو القربان بالَّتي هي أحسن، أي: التَّصرُّف فيه إلى أن يبلغ صاحبه أشدَّه، أي: فيُسَلَّمَ إليه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6][4].

يختلفُ بلوغُ الأشُدِّ من إنسانٍ إلى آخرَ

فائدةُ ورودِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتها في قولهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾:

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لما يُفهم من الاستثناء، لا للنَّهي[5]، فهي غاية لقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾، أو معمولة له حملًا على

غايةُ الوكالةِ على مالِ اليتيمِ: أن يَبلُغَ أشدَّهُ في الشَّرعِ الحكيمِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

(2) هذا الحديث ثبت موقوفًا على عمر بن الخطاب ﷺ، يُنظر: مالك، الموطّأ، تح: عبد الباقي: 1/251، وفعن مالك أنه بلغه، أن عمر بن الخطاب قال: «اتّجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»، في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 3/207، وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»، رواه الطّبراني في الأوسط.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/298.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/164.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/199.

المعنى، والمعنى: احفظوه عليه حتَّى يبلغ أشدَّه، فإذا بلغ أشدَّه؛ فادفعوهُ إليه[1].

الفرقُ بين أشُدِّ اليتيمِ، وأشُدِّ الرَّجل:

بلوغُ اليتيم أشدَّه: أن يكونَ قادرًا على إدارة ماله

لئن كان اللَّفظان واحدًا؛ فإنَّ أَشُدَّ اليتيم غيرُ أَشُدِّ الرَّجل، فأن يبلغ اليتيم أشدَّه؛ أي: يتناهَى في الثَّبَات إلى حدِّ الرِّجال، ويقال: ذلك ثماني عشرة سنة، وأشُدُّ الرَّجل: الاكتهال والحنْكَة، وأن يشتدَّ رأيُه وعقله، وذلك ثلاثون سنة، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾، وأشدُّ الغلام: أن يشتدَّ خَلْقُه، ويتناهى ثَبَاتُه[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

عطف الجملة الإنشائيَّة الَّتي تأمر بالإيفاء بالمكيال والميزان، على الجملة الإنشائيَّة المتضمِّنة للنَّهي عن قرب مال اليتيم، احتراسًا عن الوقوع في الشُّبهة من ماله، وفائدة هذا العطف بيان أنَّ انتهاك أموال النَّاس هي أيضًا من المحظورات، فإذا بلغ اليتيم أشدَّهُ؛ فقد دخل ماله في حرمة مال النَّاس، وليس بُلُوغ الأشُدِّ ممَّا يُبِيحُ به قُرْب ماله بغير الأحْسَن؛ لأنَّ الحُرْمَة في حقِّ البَالِغ ثابِتَةٌ، وخُصَّ اليتيم بالذِّكر؛ أن خَصِيمَهُ اللّٰه تعالى، والمعنى: لا تَقْرَبُوا مال اليَتيم إلَّا بالَّتِي هي أحْسَن على الأبَدِ حتَّى يَبْلُغ أشُدَّه، وفي الكلام حَذْف تقديره: فإذا بَلَغَ أشُدَّه، وأُنِسَ منه الرُّشْد؛ فادْفَعُوا إليه مَاله[3].

نكتةُ التَّعبيرِ عن اسمِ المفعولِ (المَكِيل) بالكيْل:

المخاطَبُ هو من بيدِهِ الكيلُ، وهو عليهِ الوفاءُ فيه

قد عبَّر بـ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾، فهو مصدر بمعنى: اسم المفعول، وهو (المكيل)، وَالْمِيزانَ كذلك، فالأصل أن يقول: وأوفوا المكيل؛ لأنَّه هو حقُّ الآخر من النَّاس، وفائدة هذا العدول

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/721.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 254.
(3) ابن عادل، اللّباب: 8/512.

في التَّعبير: إبرازٌ لدور الكائل، وهو المُخاطب في الإيفاء بالمكيل، أو التَّطفيف فيه، وجوَّز أن يكون هناك مضاف محذوف، أي: مكيل الكيل وموزون الميزان[1]، وفي قوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، فالكيل والميزان هما الآلة الَّتي يُكال بها، ويُوزَن، وأصل الكَيْل: المصْدَر، ثمَّ أُطْلِق على الآلة، و(الميزان): مِفْعالٌ من الوزن لهذه الآلة، كالمِصْبَاح والمقياس لِمَا يُسْتَصْبَحُ به، وما يُقاسُ به، وأصل ميزان: مِوْزانٌ، وذكر ابن عادل: أنَّ الكَيْل يُطْلَق على نَفْس المِكْيَال[2].

العدولُ عن النَّهي إلى الأمرِ في الفعل ﴿وَأَوْفُواْ﴾:

الأمـرُ بإيفاءِ الكيلِ اهتمامٌ بالأمرِ وعملٌ بمقتضاه

عدل عن أن يأتي فيه بالنَّهي عن التَّطفيفِ كما في قول شعيب: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ﴾ [هود: 84]، إشارة إلى أنَّهم مأمورون بالحدِّ الَّذي يتحقَّق فيه العدل وافيًا، وعدمُ النَّقص يساوي الوفاء، ولكنَّ في اختيار الأمر بالإيفاء اهتمامًا به؛ لتكون النُّفوس مُلتفتَةً إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التَّنقيص، وفيه تذكيرٌ لهم بالسَّخاء الَّذي هو من أخلاق العرب، الَّذي يتمادحون فيه، ويتنافسون، فتكون العبارة تنبيهًا لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها[3]، وقد جرى هذا على طريقة قوله تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النِّساء: 36]؛ فذكر النَّهي أوَّلًا، ثمَّ عدل إلى الأمر ثانيًا.

معنى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾:

وجوبُ إقامةِ العدلِ والتَّحضيضِ على الإحسانِ في الكيل

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ خرج إلى معنى الوجوب لبلوغ الإيفاء، وكلُّ شيءٍ بلغ تمام الكمال؛ فقد وفى وتمَّ، يقال: درهم وافٍ، وكَيْلٌ وافٍ، وأوفيته حقَّه، ووفيته؛ إذا أتممته، وأوفى الكيل؛ إذا أتمَّه، ولم ينقص منه شيئًا، والمعنى: أتمُّوا الكَيْلَ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/298.
(2) ابن عادل، اللّباب: 8/513.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.

واختيار الأمر بالإيفاء تحضيضٌ للأنفس الكريمة: أنْ إذا كلتم، أو وزنتم؛ فتزيَّدوا على العدل بأنْ تُوَفِّروا للمُكتال كرمًا، بدل أن تسرقوه حقَّه، وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها(1)، وإيفاء الكيل والميزان هو عين القسط، فكرَّر بذكرهما معًا، وفائدة ذلك أنَّ اللّه تعالى، أمر المُعطي بإيفاء ذي الحقِّ حقَّه من غير نقصان، وأمر صاحب الحقِّ بأخذ حقِّه من غير طلب الزِّيادة(2).

التَّناسبُ بين إيفاءِ الكيلِ والميزانِ بالقسطِ:

ذِكْرُ (الكيل والميزان) معًا يجمعُ أنواعَ القِسطِ بين النَّاسِ

عَطَفَ الأمر بإيفاء الكيل والميزان، وذلك في التَّبايع، وذكر الإيفاء بالمكيال والميزان، فجمعهما تناسبًا بينهما باعتبارهما من جنس التَّقسيم بالقسط، فالمكيال للحجوم والميزان للأوزان، فقد كانوا يبيعون التَّمر والزَّبيب كيلًا، وكانوا يتوازنون الذَّهب والفضَّة، فكانوا يُطَفِّفون حرصًا على الرِّبح، فلذلك أمرهم بالوفاء فيهما.

نكتةُ تقديمِ المَكِيلَاتِ على المَوْزُونَاتِ:

النَّاسُ في تعاملهم أكثرُ استعمالًا لما يُكال

ذكر المكيال أوَّلًا لكثرة استعماله في أمور الحياة، وكَيْل الأطعمة من التَّمر والزَّبيب وغيرها، ثمَّ ذكر الميزان لاختصاصه بالذَّهب والفضَّة، فهو أقلُّ استعمالًا من الأوَّل، فقدَّم ما هو معهود عندهم بكثرة على الأقلِّ.

(الباء) للملابسةِ في قولهِ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

النِّيَّةُ الصَّالحة في إيفاءِ الكيل والميزان، عنصرٌ مهمٌّ في تحقيق ذلك

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ للملابسة، والقسط العدل، و﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، أي: أوفوا مُتلبِّسين بالعدلِ بألَّا تظلموا المُكتال حقَّه(3)، ولعلَّ الإتيان بهذه الحال للتَّأكيد(4)، وشبه الجملة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من فَاعِل (أَوْفُوا)، أي: أَوْفُوهُمَا مُقسطين، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298.

مُتَلَبِّسِين بالقِسْط، ويجُوز أن يكون حالًا من المفعُول، أي: أَوْفُوا الكَيْل والميزان مُتَلَبِّسِين بالقِسْطِ، أي: تَامَّيْن(1).

دلالةُ التَّتميم في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

لفظةُ (بِالقِسْطِ) تـقـتـضي عـلى المـخـاطـبـينَ الإيفاءَ والعدلَ

القِسْطُ: مختصر من القسطاس، ويطلق القِسط والقِسطاس على الميزان؛ لأنَّه آلة للعدل في التَّقسيم، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]. وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، بمعنى: أنَّه تعالى مُراعٍ للعدالة بكلِّ حال، والتّعبير من باب التّتميم، أي أنَّ ذِكر شبه الجملة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ هو لبيان أنَّ العدل هو نهاية القضية كلِّها والغَرَضُ المرجُوُّ تحقيقُه، وهو المقياس والقانون الحاكم في المكيال والميزان بين الناس.

اللَّفُّ والنَّشرُ المُجملُ في قولِهِ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

تـكـتـنـزُ هـذهِ الـعـبـارةُ معنى الـعـدلِ في منتهى الإعجازِ والجمالِ

مَنْ كالَ؛ فعليه أن يكيل بالقسط، ومَنْ وزن؛ فعليه أن يزن بالقسط، فيكون اللَّفُّ أو الطَّيُّ قوله: ﴿ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، ويكون ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ هو النَّشر المجمل لكليهما، فيُضمَّن إيفاء الكيل والميزان بالقسط، ثمّ إنَّ العبارة ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ - ألفاظها كلُّها: الإيفاء والكيل، والميزان والقسط - تمثِّل رموزًا للعدل.

اختصاصُ ذكرِ الكيلِ والميزانِ من بين سائرِ المعاملات:

الأمرُ بالعدالةِ مطلبٌ مشتركٌ لاحترامِ النَّفسِ والآخرِ

أمَّا عن سبب اختصاص القرآن من بين المعاملات المادّية إيفاء الكيل والميزان بالذِّكر؛ فإنَّ الوفاء في الكيل والميزان صورة حِسّيّة لعدالة المؤمن في المعاملات، فالأمر بوفاء الكَيْل والميزان أمر بالعدالة النَّفسيّة والأدبيّة في العلاقات الإنسانية كلِّها، وقد اهتمَّ القرآن بذلك أيَّما اهتمام(2).

(1) ابن عادل، اللّباب: 8/513.
(2) محمّد أبو زهرة، المعجزة الكبرى: 350.

الموقعُ البلاغيُّ لجملةِ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، جملة معترضة في أثناء الكلام، جاءت بين جملتي أمر في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، فقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ واقعةٌ بين جملتين إنشائيَّتين لتقوية فائدة الأمر في اكتساب ما لا يكتنِهُهُ وصفُ الواصف، وذكر ابن عاشور أنَّ الجملة مستأنفة جيء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل؛ للتَّرخيص فيما خرج عن الطَّاقة، لما أنَّ في مراعاة ذلك - كما هو - حرجًا مع كثرة وقوعه، فكأنَّه قيل: عليكم بما في وسعكم في هذا الأمر، وما وراءه معفوٌّ عنكم، وجوّز أن يكون جيء بها لتهوين أمر ما تقدَّم من التَّكليفات، ليُقبِلوا عليها، كأنَّه قيل: جميع ما كلَّفناكم به ممكن غير شاقٍّ، ونحن لا نُكلِّف ما لا يُطاق[1]، والاستثناءُ مُفرَّغٌ بالنَّفي، وحُذف المُستثنى منه، وعليه ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر[2]، ويجوز أن تكون جملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، تذييلًا للجمل الَّتي قبلها، بيانًا للمخاطبين، بأنَّ جميع الأوامر والنَّواهي الَّتي تقدَّمت ودُعُوا إليها، هي في حدود طاقتهم ومُكنتهم، فلا يُكلَّفون فوق ذلك[3]، فينتظم في تطبيق ما تقدَّم من الأوامر والنَّواهي رعاية القدرة البشريَّة الَّتي يعتريها النَّقص والخلل والمحدوديَّة، فلا نُكلِّف نفسًا إلَّا وسعها.

رخَّص اللهُ تعالى فيما خَرَجَ عَنِ الطَّاقَةِ البَشَرِيَّةِ بِلا حَرَجٍ ولا ضَرَرٍ

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

قال ابن عادل الدّمشقيّ: قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا﴾ جملة مُعْتَرِضة بين هذه الأوَامِر[4] على سبيل الاحتراس، والفاعل (نحن) للتَّعظيم، أي: إلَّا ما يسعها، ولا تعجز عنه، ولمَّا كانت مراعاة الحدِّ من

لا يُحاسَبُ الإنسانُ إلَّا على ما آتاه اللهُ تعالى من الطَّاقة والقدرة

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298 - 299.
(2) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 53.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.
(4) ابن عادل، اللّباب: 8/513.

القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، يجري فيها الحرج؛ ذكر بلوغ الوسع، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه، فالواجب في إيفاء الكيل والميزان، هو القدر الممكن[1]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، أي: إلَّا ما يسعها ولا تعجز عنه[2]، وظاهر تعقيب جملة: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ إلى آخره... بجملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾؛ أنَّها متعلِّقة بالَّتي وَلِيَتْها، فتكون احتراسًا[3]، فأتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأنَّ مراعاة الحدِّ من القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ممَّا يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه[4]، وجاء هذا الاحتراس لبيان أنَّ قدرة الإنسان محدودة، في تحقيق القسط في الكيل والميزان؛ إذ لا يُراد منهم الكيل والميزان بالحبَّة والذَّرَّة؛ وإنَّما المقصود الحرص على إيفاء حقوق النَّاس كاملة بما تستطيعه الطَّبيعة البشريَّة، كي لا يُفْضِيَ ذلك إلى تعطيل منافع جمَّة.

الالتفاتُ من الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

يَمُنُّ الله على عباده وهو يخاطبهم بطريقِ التَّكلُّمِ لا الغائبِ

وقد عدل في هذا الخطاب عن طريق الغيبة الَّذي بُنِيَ عليه المقول، ابتداء في قوله: ﴿أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 151]؛ لِما فيه من الامتنان، فتولَّى الله خطاب النَّاس فيه بطريق التَّكلُّم مباشرة، زيادة في المنَّة، وتصديقًا للمُبلِّغ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان، راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنَّة الإضاعة؛ لأنَّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري؛ إذ البائع هو الَّذي بيده المكيال أو الميزان، ولأنَّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون، قد يتحمَّل التَّطفيف، فأُوصِيَ البائعُ بإيفاء الكيل والميزان، وهذا الأمر يدلُّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال، فيما هو

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/689.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

أشدُّ من التَّطفيف، فإنَّ التَّطفيف إن هو إلَّا مخالسة قَدْر يسير من المبيع، وهو الَّذي لا يظهر حين التَّقدير، فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أَوْلى بالحفظ وتجنُّب الاعتداء عليه(1).

براعةُ القَصْرِ ودلالتُهُ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

من الأمثليَّة في التَّشريع الإسلاميِّ: أنَّ السَّعة هي مقياسُ التَّكليف

القَصْر في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقع بالاستثناء بعد النَّفي، ويُؤتى به مع المُنْكِر، أو مَنْ يُنَزَّل منزلته، وهو قصر قلب؛ لأنَّه يقلب مفهوم الكلام إلى ضدِّه، ولأنَّ المخاطب يعتقد أنَّه سوف تُكَلَّفُ النَّفس فوق طاقتها؛ فلمَّا قال: لَا نُكَلِّفُ نَفسًا إلَّا وسعها، فخاطبته بغير ما كان، قُلِب المفهوم لديه واتَّضَحَ المرادُ في ذهنه، وعُلم أنَّ السَّعة هي المُحدِّد، وهذه الآية تُقدِّم أنموذجًا مهمًّا لمعنى الأمثليَّة في الإسلام وتشريعاته.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في الفعل: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾:

التَّكليفُ بالشَّرائعِ ماضٍ إلى يوم القيامةِ، وهو معنى خلودِ الشَّريعةِ

دلالة المضارع على استمرار التَّكليف وتجدُّده، وهو على المجاز بمعنى: المُحاسبة، أي: إنَّنا في كلِّ الأحوال والأزمان، فلن نحاسب أحدًا على شيء خارج طاقته الإنسانيّة الَّتي جُبِلَ عليها، وهذا من عظيم العدل الإلهيِّ، حتَّى لا يكون التَّشريعُ تحدِّيًا للنَّفس البشريَّة، بما لا قدرة لها عليه ولا طاقة، وقد استطاعت الأجيال المتلاحقة أن تطبِّق التَّشريع الإسلاميَّ بحذافيره عبر قرون من الوجود الحضاريِّ في العصور الزَّاهيَةِ بالتَّمكين والإشعاع والبناء.

نكتةُ إسناد التَّكليفِ إلى الله تعالى في: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾:

الضَّامنُ في إقامةِ التَّكليفِ أو عدمِهِ، هو اللهُ بقدرتِهِ وقيُّوميَّتِهِ

أسند التَّكليف إلى الله بصيغة المتكلِّم فقال جلّ شأنه: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ للدَّلالة على قوَّة الضَّمان للمُكلَّفين، فسبحانه هو الضَّامن لذلك؛ إذ لا يُحاسَبُ أحدٌ على ما هو فوق الطَّاقة، وفوق ما تحتمله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165 - 166.

نفسه؛ على أنْ تكون ضوابط العدل والإنصاف، هي الضَّامنَ لتصرُّفات تلك النَّفس في رعاية حقِّ اليتيم وماله.

دلالة بناء الفعل (نُكلِّفُ) للفاعلِ:

الجملةُ منظومةٌ على إعطاءِ القوَّةِ والضَّمانِ للمُكلَّفِ

غلب على أسلوب القرآن في هذه الآية مجيء الأفعال على صيغة البناء للمعلوم، فقد وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم مبنيَّةً للمعلوم؛ وفي موضع واحد جاءت على ما لم يُسمَّ فاعله، ووردت في ثلاثة مواضع؛ منها على هذه الصِّيغة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ جاء الفعل مضارعًا للمعلوم، ودلالة ذلك إعطاء القوَّة لهذا الحكم من جانبين، الأوَّل: أنَّ المتحدِّث هو اللّه تعالى، والنُّون نون العظمة، والثَّاني: دلالة صيغة المضارعة على التَّجدُّد والاستمرار، والبناء للمعلوم.

نكتةُ التَّعقيبِ بجملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

الصَّرامةُ في دقَّة الكيلِ والميزانِ، تعجزُ عنها الطَّاقةُ البشريَّةُ

مجيءُ قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان يُشيرُ إلى ضرورة مراعاة الحدِّ من القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ممَّا يجري فيه الحرج، فأمر سبحانه ببلوغ الوُسع في ذلك، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه[1]، وهو مقياسٌ عامٌّ يجري على المُعاملات الإنسانيَّة كُلِّها؛ فلا تُكلَّفُ نفسٌ إلَّا وُسعها، في أمور الحياة كُلِّها.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

تعدَّدتْ صيغُ ورودِ الجملةِ في الآياتِ بحسب ما يقتضيه المقام

وردتْ نظائرُ هذه الآيةِ في خمسِ آياتٍ[2] في البَقرة بصيغة: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 233]، ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعلُه، ومُسوِّغ ذلك أنّ الآية جاءت في سياق حقوق الزّوجيّة، وخطاب الأمّ في إرضاع طفلها، فجاءت بعد قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

(2) ابن المختار، حجج القرآن، ص: 75.

﴿وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة: 233]؛ وذلك أجر الرَّضاعة، والزَّوجةُ في العِصمَةِ ليس لها نفقةٌ وكسوةٌ لأجل الرَّضَاعَة، بل لأجل العصمة(1). فجاء التّعبيرُ بما لم يُسمّ الفاعل لخصوصيّة العلاقة الزّوجيّة، وما فيها من أسرارٍ تدورُ بين الزّوج وزوجته، ثُمَّ لخصوصية حَنان الأمّ على طفلها، وإرضاعه حتّى وإنِ انْتَفَتِ النَّفَقَة من والِدِه. ولا يفوتُنا ملاحظة التّناسق والانسجام في التّعبير بين الفعلين: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، و﴿لَا تُضَآرَّ﴾ بالصيغة نفسها.

وفي البقرة قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقد جاءت في سياق العلاقة بين العبد وربّه، وإنابته إليه سبحانه، فذكر الفاعل بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، إكرامًا لإيمانِ العَبْدِ ورجائِه، ولِتَكونَ الآية بعد ذلك بهذا النّظم الجليل المُحكم قاعدةً شرعيّة لكلّ الأفراد والأُمم، فلا يصلح فيها إسناد الفعل لما لم يُسَمّ فاعله، وإنّما تقتضي بلاغةُ القرآن أن تكون الآية بمثابة القاعدة الشّرعيّة الثّابتة الّتي لا تَقْبَل التَّغْيير أوِ التَّحويلَ أو التأويل؛ فاللّه بعظمته وجلاله لا يقبل هذا التّكليف بما لا يُطاق.

وجاءَتْ بِصيغَةِ المُتكلّم في هذه الآية؛ قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأنعام: 152] لوُرودِها في سياق حُقوق النّاس فيما بينهم وحَقِّ اليَتيمِ، فأَشْهَدَ اللّهُ نفسَهُ على ذلك لعظيم شَأنِ الحقوق بين النّاس، ولحَثِّهم على أدائها.

وجاءت أيضاً بصيغة المتكلّم في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ [الأعراف: 42]، [المؤمنون: 62]، في وصف أفعال أهل الجنَّةِ وما هم فيه من الكَرم الإلهِيِّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [الأعراف: 42] فجاء السياق بالمتكلّم إكراماً لهم.

وفي سورة الطَّلَاق قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلاق: 7]. تَميَّزَ الأسلوب عن جميع ما سَبقها، وذلك لوُرودِها في سِياقِ قَوْله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطّلاق: 7] ثم أَتبَعَها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلاق: 7] وفي ذلك ردٌّ لِلْعَجْزِ على الصَّدر، وفيها من جَميل مُراعاة نعمة اللّه تعالى، فَمَنْ آتاهُ اللّه من فضله فَلْيُنْفِقْ كما أمره اللّه. وذُكِرَ لَفْظُ الجلالة هنا لما وَرَد في السّياقِ مِنَ الإنفاق والحاجة؛ لِيُذَكِّرَ المخاطَبين أنّ الرّزْقَ بيد اللّه سبحانه. وجاء لفظ ﴿ءَاتَىٰهَاۚ﴾ متناسِبًا مَعَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/430.

الجوّ الخاصّ للإنفاق المذكور في سورة الطلاق؛ فالإنفاق كان في مقابل الإيتاء، وفي هذا دعوةٌ لشكر النِّعم؛ فالإيتاء يكون في القضايا العظيمة، ويشمل القضايا المادّيّة والمعنويّة، وهذا الإيتاءُ بهذا العطاء العامِّ يستوجِبُ أَنْ لا يكون هناك أكلٌ للحقوق بين الزّوجيْن؛ فاللّه لا يُكلّف نفسًا إلّا بقدر ما آتاها، أمّا لفظ الوُسْعِ فهو عامٌّ جاء استعماله في سِياق العبادات والمعاملات وغيرها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَفۡسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

جاء التَّعبير بالنَّكرة في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا﴾، لبيان أنَّ جميع ما خلق اللّه من الأنفس البشريَّة واقع في هذا الحيِّز من السَّعة، فتكون حالة تلك النَّفس وخصوصيَّتها، هي مقياس ذلك التَّكليف، ووسعها هو الحاضن لذلك التَّكليف، ثمَّ إنَّ إفراد النَّفس وتنكيرها، قد رشَّح العبارة إلى أن تكون مثلًا سائرًا، تُضرب في مواطنها.

النَّاسُ جميعًا متساوون أمام ميزانِ العَدل الإلهيِّ الحكيم

نكتةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿وُسۡعَهَاۖ﴾:

قوله: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، أي: إلَّا ما تقدر عليه، وتتَّسع له[1]، من أربى على نفسه في الكيل والميزان، واللّه يعلم صحَّةَ نيَّته بالوفاء فيهما لم يُؤاخذ، وذلك تأويل وسعها[2]؛ لأنَّ الوسع هو الطَّاقة، وهو بذل الإنسان جهده في عدم قربان شيء من المحرَّمات، ولهذا لم يأمر اللّه بالزِّيادة، لما فيها من الحرج على البائع، ونهى عن النَّقص لما فيه من الظُّلم والحيف الواقع على المشتري والضِّيق لحاجته، فأمر اللّه تعالى ببلوغ الوسع في ذلك، وما وراء الوسع عفوٌ، مع لزوم الضَّمان؛ لأنَّ للجائع الَّذي لا يجد شيئًا - وقد أشرف على الهلاك - أكلَ مال غيره[3].

سَعةُ النَّفس عمومًا تَتَحدَّد مِن طاقة الإنسان وقُدراته

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/126.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/504.
(3) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/423.

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾:

مسلكُ الأقوالِ والأفعالِ واحدٌ في طلب العدل والقسطِ مع النَّاس

(الواو) في قوله ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ عاطفة، وجملة الشّرط معطوفة على جملة ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[1]، وفائدة هذا العطف: أنَّه عَطَفَ الأفعال القوليَّة على الأفعال العمليَّة، إقرارًا وبيانًا بأنَّها تسلك المسلك نفسه في طلب العدل والقسط مع النَّاس، فمن لم يكن عادلًا في كلامه تسبَّبَ في قطيعة أرحامه، ومعاداة إخوانه، ومن الإنصاف أن تُنصف أخاك، وتكفَّ أذاك[2].

نكتةُ التَّعبير بـ﴿وَإِذَا﴾ دون (إنْ) في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾:

العدلُ في القولِ مطلوبٌ في جميع المواقف والأحكام مع النَّاس

(إذا) ظرفٌ للزَّمن المستقبل متعلِّق بمضمون الجواب؛ لأنَّ فيه معنى الشَّرط[3]، والأصل في (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، والكثير وقوعه، فمن المقطوع بحصوله قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 25]، فكلُّ واحد منهم سيأتي يوم القيامة في هذا الجمع حتمًا، وعلى اعتبار قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، يقصد القول في كلِّ حال، فيكون من المقطوع بحصوله، أمَّا من أمثال ما يقع كثيرًا، فقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: 282]، والآية: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، بمعنى: قولكم في موضع الشَّهادة، على أنَّه من قبيل ما يقع كثيرًا، أمَّا الشَّرط بـ(إنْ)، فإنَّ الأصل فيها أن تستعمل في المشكوك فيه، والمعاني محتملة الوقوع، والموهمة والنَّادرة، والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمر بغيره عمومًا[4]، وبذلك تظهر نكتة التَّعبير بـ(إذا) دون (إنْ) وبلاغة قوَّتها.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(2) حسين المهدي، صيد الأفكار: 625.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 1/149.

التَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

معنى الشَّرط أن يقع الشَّيء لوقوع غيره[1]، أي: إنَّ الثَّاني يتوقَّف على الأوَّل[2]، قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، جملة شرطيَّة فعليَّة، تقترن جملة جواب الشَّرط بجملة الشَّرط مباشرة، إذا بدئت بفعلٍ ماضٍ، أو مضارع، ولمّا كانت جملة جواب الشَّرط فعلها أمر، وفي هذه الحالة تسبق الفاء جملة جواب الشَّرط، فالتَّعليق بأداة الشَّرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ﴾ إشارة إلى أنَّ المرء في سعة من السُّكوت؛ إنْ خشي قولَ العدل، وأمَّا أن يقول الجور والظُّلم والباطل؛ فليس له سبيل إلى ذلك، والكذب كلُّه من القول بغير العدل، على أنَّ من السُّكوت ما هو واجب[3].

جـعـلُ الـلـه الـمُـخـاطـبـين في سَـعـةٍ من السُّكوت، كي لا يقعَ أحدٌ في ظلمٍ أو باطلٍ

علَّةُ ربطِ العدلِ بالقولِ وترشيح الاحتباكِ:

وقد خُصَّ العدل بالقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، مع أنَّ الفعل إلى العدل أحوج، فإنَّ الضَّررَ النَّاشئَ من الجور الفعليِّ، أقوى من الضَّرر النَّاشئ من الجور القوليِّ، فإنَّما خصَّه بالقول، ليُعلم وجوبُ العدل في الفعل بطريق الأوْلى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ [الإسراء: 23][4]، ويُفهم من ذلك قولُنا: (وإذا قلتم، أو فعلتم؛ فسدّدوا، واعدلوا)، فلعلَّ السَّدادَ أخصُّ بالقول والرَّأي، صوابًا وإصلاحًا، ودلالة العدل أعمُّ، مع غلبة مجيئها في الأحكام[5].

مـطـلـوبٌ من القائلِ والفاعلِ أن يـسـدِّدَ ويعدلَ

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، أي: وإذا قلتم قولًا، في حكومة أو شهادة، أو نحوهما، فاعدلوا[6]، بل هو جامع كلِّ المعاملات بين

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 2/46.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.
(4) الزّركشّي، البرهان: 1/181، و2/433.
(5) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي: 459.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

النَّاس، بواسطة الكلام، وهي الشَّهادة، والقضاء، والتَّعديل، والتَّجريح، والمشاورة، والصُّلح بين النَّاس، والأخبار المُعلِمة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤاجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان؛ وكذلك المدائح والشَّتائم كالقذف، فكلُّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول[1].

نكتة دخولِ الفاءِ على جواب الشَّرط في قوله: ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾:

النِّيَّةُ والعزيمةُ على قولِ العدلِ، هما المُراد بالعدلِ في القولِ

وقد جاءت جملة جواب الشَّرط فعليَّة، فعلها أمر، وفي هذه الحالة، تسبق الفاء جملة فعل الشَّرط، وليس المرادُ به العدلَ بعد القول، لكن قبله ؛ فيعزِم على ألَّا يقول إلَّا عدلًا، فعلى هذا ذكر بلوغ الأجل، والمراد به مقاربته دون وجود نهايته[2].

غرضُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾:

العدلُ واجبٌ في القولِ والعملِ؛ لأنَّهُ ميزانُ الحياة

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾؛ أي: أردتم القول[3]، مع أنَّ الفعل كذلك، وقصد به ليُعلَمَ وجوب العدل في الفعل من باب أولى كقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: 23][4]، فخرج الأمر إلى معنى الوجوب.

العدولُ من النَّهي عن الظُّلم إلى الأمر بالعدل:

الأمرُ بالعدل أقربُ إلى النَّفس من نهيها عن الظُّلم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾: جاء طلبُ الحقِّ في القول بصيغة الأمر بالعدل، دون النَّهي عن الظُّلم أو الباطل: لأنَّه قيَّده بأداة الشَّرط المقتضي لصدور القول: فالقول إذا صدر لا يخلو عن أن يكون حقًّا أو باطلًا، والأمر بأن يكون حقًّا أوفَى بمقصد الشَّارع لوجهين: أحدهما: أنَّ الله يحبُّ إظهار الحقِّ بالقول، ففي الأمر بأن يكون عدلًا أمرٌ بإظهاره، ونهيٌ عن السُّكوت بدون موجب، والثَّاني: أنَّ النَّهي عن قول الباطل أو الزُّور، يصدق بالكلام الموجَّه الَّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.

(2) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 182.

(3) الزّركشّي، البرهان: 2/295.

(4) الزّركشّي، البرهان: 2/433.

ظاهره ليس بِحقٍّ، وذلك مذموم إلَّا عند الخوف أو الملاينة، أو فيما لا يرجع إلى إظهار حقٍّ[1].

نوعُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾:

العدلُ مطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وضروريٌّ في كلِّ الأحوالِ

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ حاليَّة، عطفت على حال محذوفة، أي: اعدلوا في كلِّ حال، ولو في هذه الحال، وهذا لاستقصاء الأحوال، وجواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه ما قبله[2]، والعدل في كلِّ حال، من شأنه أن يضمن الحقوق، وينأى بالنَّاس عن العقوق، ممَّا يكون سببًا في اضطراب المجتمع واختلاله.

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾:

القولُ بما هو بعيدُ الوقوع مُعْلِمٌ بضرورة ماهو قريب الوقوع

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾، الواو حرف وصل يُؤتى به لتقويةِ المعنى، ووصل بعض الكلام ببعض، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصّف: 8]، وحرفُ الشّرط (لو) بعيد الوقوع، وهذه فائدته هُنا، حيث أحاطت الآية بما هو بعيد الوقوع، ليُعلم ضرورة ما هو قريب الوقوع، وذكر النَّحَّاس أنَّ المعنى: وإن كان ذا قربى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾[3]، والحقُّ أنَّها لا تطابق (إنْ)، فإنَّ شرط (لو) أبعد وقوعًا من (إنْ).

دلالةُ المبالغةِ في قوله تعالى ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾:

المبالغةُ في ذكرِ أولي القُربى كي لا يظنَّ المخاطَب عدمَ شمولِهم بالحكم

الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ واو الحال، ﴿وَلَوۡ﴾ وصليَّة تفيد المبالغة في الحال الَّتي من شأنها أن يظُنَّ السَّامع عدمَ شمولِ الحكم إيَّاها؛ لاختصاصها من بين بقيَّة الأحوال التي يشملها الحكم، فإنَّ حالة قرابة المقولِ لأجله القولُ قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل، لنفع قريبه أو مصانعته، فنُبِّهوا على وجوب التزام العدل في القول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168.
(2) الخرّاط، المُجتبى: 1/303.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 378.

في تلك الحالة، فالضَّمير المستتر في ﴿كَانَ﴾ عائد إلى شيء معلوم من الكلام، أي: ولو كان الَّذي تعلَّق به القول ذا قربى[1].

نكتةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ على الجملة الشَّرطيَّة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾:

التَّأكيدُ على ذي القُربى؛ فإن ضُمِنَ الحقُّ معه فقد ضُمن مع غيره

(لو) حرف شرط غير جازم، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر، تقديره: هو، أي: المقول فيه أو له[2]، ويجوز أن يكون حالًا، و﴿كَانَ﴾ تامَّة[3]، فلو كان ذا قربى، وتحقَّق العدل معه، فمن لم يكن من ذوي القرابة، فتحقَّق العدل معه أولى؛ لغياب هوى النَّفس معه، وهذا أبعد شيء في الأمر.

الضَّمير في ﴿كَانَ﴾ وغرض حذفه:

حذفُ الضّمير أوجزُ في العبارة وأشملُ في الدّلالة

قَوْله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾؛ اسم ﴿كَانَ﴾ محذوف، وهو الضَّمير (هو)، والعبارة بمعنى: (وَلو كَانَ ٱلۡمَشۡهُود لَهُ ذَا قربى من الشَّاهِد)[4]، أو التَّقدير: (وَلَو كَانَ ٱلۡمَدۡعُو ذَا قربى)[5]، وغرض حذف اسم كان الإيجاز والشُّمول؛ فقد تكون شهادة الشَّاهد على قريبه ضدَّه، وهذا يقع كثيرا في القضايا الاجتماعيَّة والأسريَّة، فأوجز بحذف اسم كان في هذا السّياق لشمول الحالين، وقد قال الله تعالى في العدل في الشَّهادة والقضاء: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النِّساء: 135].

نكتةُ التّعبير بقوله: ﴿ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾:

تتنوَّعُ حالاتُ القرابةِ، وتتعدَّدُ أشكالها، فمنها الحقيقيُّ، ومنها المجازيُّ

جاء التّعبيرُ بـ ﴿ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ عامّا لتحقيق الشُّمول في أنواع القُربى، فقد يكونُ المقصودُ ذا قربى من قرابة النّسب، أو ذا قربى مُصاهرة، وقد تكون القرابة مجازيَّة أيضًا، فرُبَّ قريب مصاهرةً يكونُ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/1074.
(4) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن: 1/243. والباقولي، إعراب القرآن، ص: 27.
(5) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن: 2/594.

القلب أميل، وأهوى للنَّفس من قريب نسب، أو كالجار الجُنُب، والصَّاحب بالجنب وغيرهم، فأوجز بإضافة اسم (القُربى) إلى (ذي) وهو اسم من الأسماء الخمسة دون ذكر أصناف القرابات ليفيدَ التّعبير العموم.

لا تسامحَ مع أيِّ غبن في مسألةٍ من مسائل الحقوق بين النَّاس

من ناحية أخرى، جاء اختيار صفة القرابة لبيان دقيق ما هو مطلوب من المُخاطبين في إجراء العدل، وإيفاء الحقوق بينهم؛ لأنَّ ذوي القربى تميل القلوب إلى الوقوف إلى جانبهم، وقد يُراود المخاطبين رغبةٌ وحاجةٌ إلى الميل في الشَّهادة، والقول لما يحقِّق مصالحهم بغير حقٍّ أو عدل، فجاء التَّعبير لبيان ألَّا تسامح في أيٍّ مسألة من مسائل الحقوق بين النَّاس مهما كانت العلاقات والوشائجُ التي تربط بينهم.

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾:

الإيفاءُ مُوازٍ للعدل، ومن أوفى بالعهد؛ فقد عدل

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ عاطفة، ﴿وَبِعَهۡدِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّق بـ﴿أَوۡفُواْۚ﴾ الآتي، والمعنى: وأوفوا بعهد اللّه، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، وعهد اللّه هو جزءٌ من القول، كما أنَّ الإيفاء مُوازٍ للعدل، وهو وجه من وجوه العدل، فأفاد العطفُ بيانَ حالة خاصَّة من القاعدة العامَّة، وهو من قبيل عطف الخاصّ على العامِّ للإشادة بالخاصِّ.

دلالة الباءِ في لفظ ﴿وَبِعَهۡدِ﴾:

الإيفاءُ بالعدلِ غايةٌ عظمى في شرع الله

وفي قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، الباء في ﴿وَبِعَهۡدِ﴾ للإلصاق، والمعنى: كونوا ملتصقين بعهد اللّه في جميع أحوالكم، حتى يتمَّ الإيفاء، وعطف على الجملة الشَّرطيَّة، فأخذت الجملة الثَّانية معنى الأولى، أي: إذا عاهدتم اللّه تعالى على شيء، أو حلفتم لإنسان؛ فأوفوا[1].

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/39.

ردُّ العجزِ على الصَّدرِ في قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾:

عهدُ اللهِ تتنوَّعُ حالاتُهُ ومعانيه، وقد يضمُّ معناه الدِّين بمجمله

ذكر أولًا: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، ثمَّ ذكر ههنا: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، وهو من قبيل ردِّ العجُز على الصَّدر، فجعل الإيفاء هو ما يحيط بالوصيَّة، باعتباره غاية عظمى فيها، فافتُتحت به، ثمَّ خُتمت به، وتندرج في هذه الخاتمة كلُّ الوصايا المذكورة[1]، أو أن يكون عهد اللّه مقصودًا به الدِّين بمجمله، فيكون تذييلًا لما قد سبق.

نكتةُ إضافةِ العهدِ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

إضافة العهد إلى الجلالة إيقاظٌ للمراقبة وجَلْبٌ للمهابة

الوفاءُ بعهد اللّه من خفيات الأمور؛ لأنَّ الرَّجُل قد يحلف مع نفسه، فيكون ذلك الحلِف خفيًّا، ويكون برُّه وحنثه أيضًا خفيًّا[2]، فجاء العهدُ مضافًا إلى الاسم الأحسن (اللّه) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ تذكيرًا للمخاطبين بعدم خفاء خافية عنه سبحانه، وإيقاظا لحسّ المراقبة في نفوسهم؛ فاللّه مُطَّلع على الأمور كلِّها، ظاهرها وخفيِّها، والمؤمن الصّادق يخشى اللّه تعالى ويراقبه في جميع أحواله.

بلاغةُ التَّقديمِ لشبهِ الجملةِ على الفعلِ والفاعلِ:

الاهتمامُ والاعتناءُ بعهدِ اللهِ باعتبارِهِ جوهرَ الدِّين كلِّه

الجار والمجرور ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مُتَعلِّق بما بعده، وتقديمه للاعتناء بشأنه[3]، لئلَّا ينصرف ذهنُ السَّامع عنه، وأصل ترتيب الكلام تقديم الفعل (أوفوا)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النَّحل: 91]، ونُكتةُ التَّقديم في هذا السّياق هو أن يتقرَّر في ذهن المخاطَب ما يرد بعده من الأمر بالوفاء، أي: إن كنتم تَرَون الوفاء بالعهد مدحًا، فعهد اللّه أولى بالوفاء، وأنتم قد اخترتُموه، فهذا كقوله

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 3/189.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/180.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾ [البقرة: 217][1].

نكتةُ العدولِ في نظْمِ الجُمْلَةِ عن سابِقاتِها:

في إضافة لفظ (العهد) إلى الجلالة توسيع للدّلالة؛ إذ يصدُقُ على كلّ أنواع العهود

خَتَمَ هذه المتلوَّاتِ بالأمر بإيفاء العهد بقوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، ولم يقل: (أوفوا بما عاهدتم اللّه عليه)، وعهد اللّه المأمور بالإيفاء به، هو ما اقتضته الإضافة؛ إذ الإضافة هنا يصحُّ أن تكون إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: ما عهد اللّه به إليكم من الشَّرائع، ويصحُّ أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم اللّه أن تفعلوه، والتزمتموه، وتقلَّدتموه، ويصحُّ أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي: العهد الَّذي أمر اللّه بحفظه، وحذَّر من خَتْرِه[2]، وهي العهود الَّتي تنعقد بين النَّاس بعضهم مع بعض، ولأجل مراعاة هذه المعاني النَّاشئة عن صلاحيَّة الإضافة لإفادتها، فعُدِل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة، دون طريق الفعل، بأن يقال: (وبما عاهدتم اللّه عليه)، أو نحو ذلك ممَّا لا يحتمل إلَّا معنى واحدًا[3].

علَّةُ إظهارِ اسم الجلالة ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

اللهُ رقيبٌ قيُّومٌ على عباده، يعلم سرَّهم ونجواهم

وفائدة إظهار اسم الجلالة التَّذكير باللّه سبحانه وقيوميَّته على أفعال البشر، وشهوده على أقوالهم سبحانه، لتحقيق مزيد عناية بالإيفاء بعهد اللّه، فمن جعل اللّه رقيبًا عليه؛ أدَّى ذلك إلى إيفائه بعهد النَّاس وبعهده سبحانه.

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾:

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾: يُشارُ به في هذا السّياق للتَّحريم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.

(2) الخَترُ بمعنى الغدر، والختّار: الغادر، يُنظر: الخليل، العين: (ختر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168 - 169.

والإشارة نوعان: قريبة ومتراخية، فـ(ذا) اسم إشارة للقريب، و(اللّام): للبعيد المتراخي[1]، والميم علامة الجمع، أي: ذلكم التَّحريم وصّاكم به اللّه ﷻ، وهو شامل للأوامر والنَّواهي، ممَّا هو متعلِّق بعلاقة الفرد بنفسه، أو بأسرته، أو بأقاربه، أو بمجتمعه، ممَّن يعرفهم أو لا يعرفهم، وفائدة اسم الإشارة البعيد هو الشُّمول لكلِّ أمر ممَّا يُتخيَّل بُعْدُه عن أذهان المُخاطبين، فيشمل ذلك القريب والبعيد.

التَّنبيهُ على البعيدِ من الوصايا، يُحقِّق شمول الأوامر والنَّواهي والقضايا

مزيّةُ تكرير: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، تكرار لقوله المماثل له قبله، فقال: وصّاكم به، ليشمل الأوامر والنَّواهي، فكرَّرَ المعنى بالتَّوصية على سبيل التَّوكيد[2]، لبيان عظيم وصيَّة اللّه لعباده، وأنَّ في ذلك ذكرى لهم، لتترسَّخَ هذه المعاني في أذهانهم، وتتقرّرَ في نفوسهم.

وصيَّةُ اللهِ لعباده هي جملة الأوامر والنَّواهي الَّتي وردت في الآية

نكتةُ العدولِ من المضارع إلى المُضِيّ في ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

لقد عدلَ في التَّعبير بالماضي عن التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ باعتبار أنَّه أصبح كالشَّيء الثَّابت المُفْرَغ منه الَّذي لا مراجعة فيه ولا ترديد، فلا يُقبَلُ من أحدٍ النِّقاشُ أو المنازعةُ في هذه الوصايا، ثمَّ إنَّها من قبيل ما هو مُتَّفق عليه في التَّشريعات السَّماويَّة؛ إذ وردت الوصايا نفسها في كتب سابقة، مثل: كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هذهِ الوصايا من المُشتَرَكات الرَّئيسةِ بين الكتب السَّماويَّة

نكتةُ حذفِ فاعلِ ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

لَمّا ذكر قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ حذف الفاعل بعدها في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: وصّاكم اللّه تعالى به، وذلك لقرب

معلومٌ أنَّ كلَّ الوصايا في الكتب السَّماوية مصدرُها اللهُ سبحانه

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/135.

(2) أبو حيان، البحر المُحيط: 4/692.

العهد بذكر اسمه تعالى، وهذا الأسلوب من قَبيل الإشعار بسدِّ باب المُراجعة في هذه الوَصايَا.

سرُّ خَتم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾:

صوابُ التَّعاملِ معَ المجتمعِ مردُّه التَّذكيرُ بوصاياه سبحانه فيها

قال صاحب الإتقان: فإنَّ الأُولَى خُتمت بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، والثَّانية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ الأولى اشتملت على خمسةِ أشياء عظام، والوصيَّةُ فيها أبلغ منها في غيرها، فختمها بما في الإِنسان من أعظم السَّجايا، وهو (العقل) الَّذي امتاز به على سائر الحيوان، والثَّانية: اشتملت على خمسة أشياء يقبُحُ ارتكابُها، والوصيَّةُ فيها تجري مجرى الزَّجر والوعظ، فختمها بقوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تتَّعظون[1]، ثمَّ إنَّ الأولى وردت في قضايا النَّفس والإنسان مع محيط أسرته الدَّاخليَّة، فنبَّه إلى أنَّ من له عقل سليم، سيكون سائرًا على نهج الوصايا فيها دون تردّد، فصاحب العقل السَّليم لا يختار سواها، أمَّا الثَّانية؛ فهي في عموم العلاقة بين الفرد وغيره من الأفراد، فاحتاج ترسيخ تلك الوصايا إلى التَّذكير الدَّائم بمتابعة النَّفس، فختمها جلّ شأنه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

دلالة التَّعبيرِ بـ(لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾:

ترجيحُ حصولِ الذِّكرى من المخاطبين إطماعٌ لهم في الطَّاعة

نكتة التَّعبير بـ(لعلَّ) لتوقُّع كونها ترجيحًا أو إطماعًا، أو لتوقُّع مكروه، ويُسمَّى إشفاقًا، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، هو من باب التَّرجِّي[2]، فأفادت (لعلَّ) في هذا السياق دعوة المُخاطبين إلى تذكُّر هذه الوصايا في حياتهم، وممارساتهم العمليَّة.

نُكتة استعمال مادّة التّذكير:

في الآية الأولى كانت أكثر التَّكليفات بصيغة النَّهي، وهو في معنى المنع، والمرء حريصٌ على ما مُنِع من تعاطيه أو فعله، فناسب

(1) السّنيكي، فتح الرّحمن: 182.
(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 1/129.

أغلبُ الوصايا في هذه الآية أوامر، فاحتاجت إلى تذكير

أن يُعَلَّلَ الإيصاءُ بذلك، بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس، وهذا بخلاف التَّكليفات في الآية الثَّانية، فإنَّ أكثرها قد أُدِّيَ بصيغة الأمر، وليس المنع فيه ظاهرًا كما في النَّهي، فيكون الطَّلب والمبالغة فيه ليستمر عليه، ويتذكَّر؛ إذا نسي(1).

من ناحية أخرى، حضَّ على التَّذكير في الوصيَّة لأنَّها خفيَّةٌ تحتاج إلى مزيد تدبُّر، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتكونوا بحيث يحصل لكم التَّذكُّر، ولو على وجه خفيٍّ بما أشار إليه الإدغام، فيما جبلت عليه نفوسكم من محبَّة، مثل ذلك لكم، فتحكموا لغيركم، بما تحكمون به لأنفسكم(2).

بلاغةُ القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

تنوّعُ القراءةِ القرآنيّةِ يُشعِّب المعنى ويوسّعُ دلالة النَّص الكريم

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، وقرأ الباقون: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيفها. والتَّخفيف مثل التَّشديد في المعنى، إنَّما هو: (تتذكَّرون)، فخفَّف لاجتماع المتقاربة بالحذف، كما خفَّفه غيره بالإدغام، ويمكن أن يقال: إنَّ الحذف أولى؛ لأنَّه أخفُّ في اللَّفظ، والدَّلالة على المعنى قائمة(3)، وعلى قاعدة: أنَّ زيادة المبنى تُنبئُ بزيادة المعنى، فإنَّ ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ تفيد التَّوكيد في الذِّكرى، والتَّحضيض عليها.

التَّذييلُ في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

الوصيَّةُ بالتَّذكُّرِ والتَّذكيرِ، هي واحدة من مقاصد الدِّين

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تذييل خُتِم به صنف من أصناف الأحكام، وجاء مع هذه الوصيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المطالب الأربعة، عُرِف بين العرب أنَّها محامد، فالأمر بها، والتَّحريض عليها تذكير بما عرفوه في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/299.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/743.

(3) عبد البديع النّيرباني، الجوانب الصّوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: 269.

شأنها، ولكنَّهم تناسَوْهُ بغلبة الهوى وغشاوة الشِّرك على قلوبهم[1]، فجاء قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، فصارت جامعة لكلِّ ما قد ورد من الوصايا في الآيتين السَّابقتين، تذييلًا للوصايا جميعها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العدل) و(القسط):

العدل ذو معنًى عـامّ، والقسط ذو معنًى خاصٍّ

من المعاني المهمَّة للقسط: العدل في القسمة فقط، والقِسْطُ: الحصَّة الّتي يَنالُها الإنسان، وتَقَسَّطوا بينهم الشَّيء: اقتسموه بالسَّويَّة، فكلُّ مقدار قسط في كلِّ شيءٍ، والقِسطاسُ والقُسطاسُ: أقوم الموازين، فلا يكون القسط إلَّا في القسمة على سبيل الوزن أو الكيل، وقولُه تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ فِي القِسْمَة فَقَط، ومن شواهد لفظ القسط قول أبي طالب:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً *** عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ آجِلِ
بِمِيزَانِ قِسْطٍ لَا يُخِسُّ شَعِيرَةً *** لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ[2]

أمَّا العَدْلُ من النّاس فهو المَرْضيُّ قولُهُ وحُكْمُهُ، وتقول: هو يَعْدِلُ، أي: يحكُمُ بالحقِّ والعدلِ، وهو حَكَمٌ عدلٌ ذو مَعْدَلَةٍ في حُكْمه[3]، وقال اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة: 95]. قال الفرَّاء: العدل: ما عادل الشَّيء من غير جنسه[4]، فالعدل يكون في كلِّ شيء؛ إذ يكون في الأقوال والأفعال، أمَّا القسط؛ فهو عدل في القسمة فحسب، فالعدل معنى عامٌّ، والقسط معنى خاصٌّ.

(العهد) و(الميثاق) و(الوعد):

العهد: حفظ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حالٍ، وسُمِّي الموثق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.
(2) أبو عثمان الجوزجانّي، التّفسير من سنن سعيد بن منصور: 3/1145.
(3) الخليل، العين: (عدل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عدل).

العهدُ والميثاقُ والوعدُ، كلُّها تستدعي وجوب حفْظها، ومراعاة متطلَّباتها

الَّذي يلزم مراعاته عَهْدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أوفوا بحفظ الأيمان[1]، وأمّا المِيثَاقُ فمادّة (وثق) فيها معنى الإحكام والجمع، والشّيءُ الوثيقُ: المُحكَمُ، والمُوَاثَقَةُ المُعاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، وتَوَثَّقَ في أمره مثله، ووَثَّقَ الشَّيء تَوْثِيقًا، فهو مُوَثَّقٌ[2]، والوعد: يكون في الخير والشَّرِّ؛ يُقال: وعدتُه بنفع وضُرٍّ وعدًا وموعدًا وميعادًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61][3].

ممّا سبق نخلص إلى أنّ العهد: حفظ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حالٍ، والميثاق هو ما يُشدُّ به العهد، ويُحكم من البنود والشُّروط، أو قد يُفهم بأنَّ الميثاق حالة خاصَّة من العهد، فهو عهدٌ مُغلَّظٌ مُوَثَّقٌ، أمَّا الوعد: فهو الإخبار عن فعل المرء أمرًا في المستقبل يتعلَّق بالآخر، قال ابن عرفة: إخبار عن إنشاء المخبر معروفًا في المستقبل[4].

(الإيفاء) و(الإتمام):

الإيفاءُ إتمامُ الكيل أو بلوغ الشَّيء المنتهى، والإتمامُ إكمالُ ما به النَّقص

الوافي الَّذي بلغ التَّمام، يقال: درهم وَافٍ، وكيل وَافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، ووَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً، وأَوْفَى؛ إذا تمَّم العهد، ولم ينقض حفظه[5]، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76][6]، أمّا الإتمام فمن قولهم: تمَّ الشَّيء يتِمُّ تمامًا، وَبدر تَمام[7]، واستتمَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وثق).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(4) أبو عبد الله المالكي، فتح العلّي المالك: 1/254.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(6) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تمم).

نعمة اللّه بالشُّكر[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196] قيل: إتمامهما أن تكون النَّفقة حلالًا، وأن ينتهي عمَّا نهى اللّه عنه، وقيل: إتمامهما: تأديَة كلِّ ما فيهما من الوقوف والطَّواف، وغير ذلك[2].

(ولا تقربوا مال اليتيم)، (ولا تأكلوا مال اليتيم):

النَّـهـيُ عن القـربِ، أبلغُ من النَّهي عن الأكل؛ لأنَّه أتقى وأحوط

جاء في آية الأنعام (152) قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ ولم يقل: (ولا تأكلوا)، كما جاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، أو قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾ [النّساء: 2]؛ لأنَّ آية ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ فيها معنى: المُداولة في المال وصولًا إلى تحقيق الفوائد الشَّخصيَّة منه، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾، والأكل هنا كناية عن كلِّ طُرُق الانتفاع بالمال، فالنَّهي عن خلط أموال اليتامى مع أموالهم، أمَّا آية الأنعام هنا؛ فهي نهيٌ عن قرب مال اليتيم، وعدم المُداولة بها أصلًا، وأخذ شديد الحذر من ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ لبيان شديد الخطر من محاولة تحقيق نفعٍ ما لمصلحة الكُفلاء أو المُخاطبين، ثمَّ استثنى بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: إلَّا أن يكون النَّفع لليتيم نفسه، والنَّماء لماله دون خلطها مع أموال الكفلاء.

الوُسعُ والإيتاء:

الوُسـعُ هو الطّاقة والقدرة، و(ما آتاها): ما أقدرها عليه في باب الإنفاق

قوله: ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ أي: إلَّا طاقتها البشريَّة وإمكانها في تحقيق الوزن والكيل بالقسط، لا زيادة ولا نقصان، فللنَّفس البشريَّة طاقة محدودة في ذلك، أمَّا قوله: ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾، يعني: لا يأمر اللّه نفسًا في النَّفقة إلَّا على قدر ما أعطاها من المال[3].

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تمم).
(2) ابن سيدَهْ، المُحكم: (تمم).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/302، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/463.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾

[الأنعام: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الوصايا القرآنيَّة من جملة الصِّراط المستقيم اللازم اتّباعه

بعد أن ذكر في الآيتين السَّابقتين جملة من الوصايا البليغة الَّتي تُعَدُّ جوهر الإيمان، ومحور الرِّسالات السَّماويَّة، أتبعها بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ تصريحًا أنَّ تلك الوصايا هي من صميم صراط الله المستقيم الذي أمر الله تعالى المسلمين بسلوكه والدّوام عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِي﴾: جذر الكلمة هو (سرط) و(صرط)، والصِّراطُ، السَّبيل الواضح، والطَّريق القاصد[1]، ويكتب بالسّين والصّاد، وإنَّما قيل للطَّريق الواضح: سراط؛ لأنَّه يسترط المارَّة لكثرة سلوكهم[2]، قالَ تَعالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6][3]، ومعناه: ثبِّتنا على المنهاج الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. قال جرير:

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ *** إِذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ[4]

2) ﴿ٱلسُّبُلَ﴾: جمع سبيل، وهو الطَّريق، وما وضح منه، يُذَكَّرُ ويُؤنَّث، وسبيل الله طريق الهدى الَّذي دعا إليه، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (سرط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (صرط).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).

[الأعراف: 146]، ومن استعمال لفظ (السبيل) مُؤَنَّثًا قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، أي: في الجهاد، وكلّ ما أمر اللّه به من الخير، فهو من سبيل اللّه، أي: من الطّرق الموصّلة إلى اللّه تعالى، واستعمل السَّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنَّه السَّبيل الَّذي يقاتل فيه على عقد الدِّين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التَّوبة: 60]، ابن السَّبيل: ابن الطَّريق، وتأويله الَّذي قطع عليه الطَّريق(1).

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الـدَّعـوةُ إلى صـراطِ اللـهِ المسـتقيـمِ، وتـجنُّـب سُبُل الضَّلال المهلكة

بعد تعداد الوصايا العظيمة الَّتي كانت فحوى الرِّسالات السَّماوية كلِّها، بيَّن اللّه سبحانه في هذه الآية أنَّ التزام هذه الوصايا، هو السَّبيل إلى النَّجاة الَّتي مَنَّ اللّه بها على البشر، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، أي: قل: إنَّ هذا القرآن الَّذي أدعوكم إليه، وأدعوكم به إلى ما يُحييكم، هو صراطي ومنهاجي الَّذي أسلكه، المُوَصّل إلى مرضاة اللّه ونيل سعادة الدُّنيا والآخرة، وهو الدِّين القويمُ والشَّرع الحنيفُ، وهو الَّذي وصَّاكم اللّه به على لسان أنبيائه، وفي كتبه السَّابقة أن إذا جاء فاتَّبعوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأخرى الَّتي تخالفه، فقال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، فأنواع الضَّلال وطرقه كثيرة، أمَّا الهداية؛ فهي نوع واحدٌ وسبيل واحدة(2)، وحثَّ على التَّمسُّك بها، وتَجَنُّبِ سائر السُّبل، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، فتكون التَّقوى باتِّباع ما جاء في القرآن الكريم.

(1) ابن سيده، المُحكم: (سبل).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/393 - 394.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطفِ في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تماثلُ المعطوفاتِ في أغراضِ الخطابِ وترتيبِهِ

في قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الواو عاطفة على جملة: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: 151]، لكون المعنى: (تعالَوا أتل عليكم التَّوحيدَ ونفيَ الإشراك، وأتلُ عليكم أنَّ هذا صراطي مستقيمًا)، وهذا الإعراب في حالة جعل (أنْ) ناصبة للفعل في ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾، فيكون العطف دالًّا على أنَّ تلك الأوامر والنَّواهي السَّابقة هي وصايا تُحقِّق العدل المجتمعيَّ والأسريَّ، وذلك لأنَّ صراطي مُسْتَقيمٌ،.

والمعنى الثاني أن تكون جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ علَّة للاتِّباع بمعنى: (ولأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعوه)[1]، ووفق هذا المعنى؛ فإنَّ العطف أفاد تفسير استقامة الصِّراط؛ كونه قائمًا على كلِّ شرع مستقيم يحقق مصلحة الأفراد والمُجتمعات، ويضمن الفرد الصَّالح والأسرة المُتماسكة.

التَّوجيهاتُ البلاغيَّةُ للقراءات في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تتشعَّبُ المعاني مع التَّوجيهاتِ البلاغيَّةِ للقراءاتِ المختلفة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾، قرأ حمزة والكسائي (إنَّ) مَكسُورَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون[2]، على معنى الابتداء، أو على أنَّ التِّلاوة في معنى القول أو على الاستئناف، والمعنى: اتَّبعوا صراطي، إنَّه مستقيم، وقرَأَ ابْن كثير ونافع وعاصِم وأَبو عَمْرو ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ مفْتُوحَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون بالنصب على معنى البناء[3]، وَقَرَأَ ابْنُ عَامر (وَأنْ هذا) مَفْتُوحَة الْألف مَوْقُوفَة النُّون[4]، فمن قرأ بالفتح والتَّخفيف؛ فبإعماله في ضمير الشَّأن، والتَّقدير: (تعالوا أتل ما حرم، وأتل أنَّه هذا صراطي)، وكذا فيمن قرأ بالتَّشديد وبالفتح

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 3/360 - 361.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(4) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.

إلَّا أنَّ ضمير الشَّأن لا يُقدَّر، أو أن تكون خفضًا متعلِّقًا بما قبله، أي: ذلكم وصَّاكم به، وبأن هذا، أو بما بعده، والتَّقدير: وبأنَّ هذا صراطي مستقيمًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾(1).

سرُّ التَّوكيدِ في: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾:

الإقناعُ بقبولِ الوصايا والعمل بها؛ يحتاج إلى تأكيدات وأدلَّة

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾، فـ(أنَّ): حرف نصب وتوكيد، والمعنى: وهذا الَّذي وصَّاكم به ربُّكم - أيُّها النَّاس - في هاتين الآيتين، من قوله: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، وأمركم بالوفاء به، هو صراط الله المستقيم، أي: طريقه ودينه الَّذي ارتضاه لعباده(2)، و(أنَّ) لا يتم الكلام بها إلَّا مع ضميم معها، فقال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾؛ وهي في ذلك بخلاف (إنَّ) المكسورة، وهُما يُفيدان معنى التَّوكيد، وفائدة هذا التَّوكيد: مخاطبة النُّفوس المتردِّدة في قبول هذه الوصايا الَّتي هي جملة من الأوامر والنَّواهي، والتأكيد بأنَّها هي الصِّراط المستقيم لا سواها، فمن سلك غير هذه السَّبيل؛ فقد سلك السَّبيل المنحرف عن الحقِّ وعن الهداية.

دلالةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

صـراطُ الله المستقيم حاضرٌ لا يغيبُ عن الأذهان

في هذه الجملة إخبار عن اسم الإشارة بالاسم ﴿صِرَٰطِي﴾، فهي في تقدير جواب عن سؤال: ما هذا؟ فيكون الجواب: هذا صراطي مستقيمًا، فالإِشارة فيه إلى ما ذكر في السُّورة، فإنَّها بأسرها في إثبات التَّوحيد والنُّبوَّة وبيان الشَّريعة(3)، وقال الطَّبريُّ: الإشارة هي إلى هذه الوصايا الَّتي تقدَّمت من قوله: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ [الأنعام: 151](4)، وأنَّ هذا، أي: هذا الَّذي وصَّيتُكم به في هاتين الآيتين،

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/40.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/228.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/189.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/363.

صراطي، طريقي وديني، مستقيمًا، مستويًا قويمًا، فاتَّبعوه[1]، أو أن تكون الإشارة هي إلى الشَّرع الَّذي جاء به محمَّد ﷺ بجملته، فمعنى الإشارة هي الجواب على السؤال: ما هذا الذي ورد من الوصايا؟ فيكون الجواب مجازًا: هذا الإسلام، فذكر الجُزء وأراد الكُلَّ، أي: وأنَّ الإسلام صراطي، فالإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ يُنبئَ عن حاضر في أذهان المخاطبين، فما تقدَّم من الأوامر والنَّواهي تتشكَّل منها قواعد وأنظمة حاضرة في الأذهان، يُفهم منها المنهج القويم الذي هو جزءٌ من تعاليم الإسلام وشرعه، فيعرفه النَّاس، ويتبنَّوه، فَنُزِّلَ منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الصراط):

الصِّراطُ المستقيمُ هو الإسلامُ بتشريعاته وسامي قيمه

الصِّراطُ: الطَّريق الجادَّة الواسعة، والمراد هنا: جميع تلك التَّشريعات الَّتي هي مضمون الإسلام، أو أريد الإسلام نفسه، كما دلَّ عليه قوله في آخر السُّورة: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنَّ المقصود منها تحصيل الصَّلاح في الدُّنيا والآخرة، فشبَّهت بالطَّريق الموصل السَّائر فيه إلى غرضه ومقصده، ولـمَّا شبَّه الإسلام بالصِّراط، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وجُعل كالشَّيء المشاهد، صار كالطَّريق الواضحة البيِّنة، فادُّعي أنَّه مستقيم، أي: لا اعوجاج فيه؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم أيسر سلوكًا على السَّائر، وأسرع وصولًا به[3]، ويمكن إجراء الاستعارة بطريق آخر فيقال: قد صوَّر المشهدُ تشخيصًا للصِّراط، وكأنَّه إنسان يرشد إلى الطَّريق، وعلى المُخاطبين أن يتَّبعوه؛ لأنَّه سيضمن لهم السَّير في الطَّريق المستقيم المؤدِّي إلى

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

رضاء اللّه تعالى، فحذف الإنسان؛ وهو المُشبَّه به، وأثبت المُشبَّه، فهو استعارة مكنيَّة تشخيصيَّة.

نكتةُ إضافةِ الصِّراط إلى الياء:

سلوكُ صراطِ الله تكريمٌ ومنَّةٌ على المؤمن من مولاه

في قوله: ﴿صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾؛ أضيف لفظ (الصِّراط) إلى الرَّب سبحانه من حيث الوضع، وإليه ﷺ من حيث السُّلوك والدَّعوة، أي: هذا الصِّراط - الَّذي أسلكه، وأدعو إليه - مستقيمٌ لا اعوجاج فيه[1]، والياء المضاف إليها (صراط) تعود إلى اللّه، وفي ذلك تكريم للمخاطبين الَّذين سيتَّبعون هذا الصِّراط، كونه صراط اللّه سبحانه الخالق لهذا الكون، المُقدّر لكلِّ شيء، فهو وحده القادر على أن يختار صراطًا مستقيمًا، يصلح لحياة البشر، فيرسل الرُّسل لتبيين هذا الصِّراط، وهذا ما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشُّورى: 52، 53]، على إحدى طريقتين في حكاية القول، إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الآمر بالقول، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: 117][2].

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ مع كونه لا يكون إلا كذلك:

استحضارُ استقامةِ الصِّراطِ في الذِّهن، يجعله كالأمر المحسوس

قوله: ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾، حال من اسم الإشارة، وحسُن وقوعُه حالًا؛ لأنَّ الإشارة بنيت على ادِّعاء أنَّه مشاهد، فيقتضي أنَّه مستحضر في الذِّهن بمجمل كلِّيَّاته وما جرَّبُوه منه، وعرفوه، وأنَّ ذلك يريهم أنَّه في حال الاستقامة، كأنَّه أمر محسوس[3]، فأفاد معنى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾ - كما تعرفونه، وتُعايشونه - ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾، فاقتضى أن تتَّبعوه، ومثال ذلك أيضًا قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: 72]، فقال:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/299.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾؛ لأنَّهم عرفوا استقامته، فلا حُجَّة بعد ذلك في ترك اتِّباعه، فجاء الأمر موجبًا عليهم الاتِّباع.

غرضُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

صراطُ اللهِ هو الصِّراط الضَّامن للسَّالكين والمضمون باليقين

وقد عدل عن الغيبة الَّتي جرى عليها الكلام السَّابق، فالتفت من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 151]، إلى التكلُّم في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ للإشعار منه سبحانه بعصمة هذا الصِّراط من الزَّلل؛ لكونه صراط اللّه الضَّامن لمُتَّبعيه وصولًا إلى النَّجاح، وفائدة هذا الالتفات تعظيمٌ لشأن هذا الصِّراط، وتأصيلُ صفة الاستقامة فيه، فاستقامته آتية من انتسابه إلى اللّه تعالى، فهو صراط مستقيم مع جميع الشَّرائع الَّتي جاء بها الرُّسل، ورسالة موسى أنموذج عظيم سابق لرسالة محمَّد ﷺ.

معنى التَّفريع في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

اتِّباعُ صراطِ الله هو الغايةُ في كونه صراطًا لله

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، الفاء تفيد التّفريع، والمرادُ إمّا تفريعُ الاتّباع على كون الصّراط مستقيمًا، أي أنّ استقامة الصراط تدعو وتقتضي اتّباعه، وإمّا أن يكون الأمرُ بالاتباع متفرّعًا عن كونه الصراط المضاف إلى النّبيّ ﷺ، ولا خلاف بين هذين المذهبين، فصراط اللّه هوفي ذاته مستقيم، وهوفي الوقت نفسه صراط نبيّنا ﷺ، والمسلم مطلوب منه أن يتّبعه للعلّتين كلتيهما.

دلالةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

الأمــرُ باتِّباع سبيلِ الله، هو فضلٌ ورحمةٌ منه سبحانه

قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ تضمَّن المعنى الحقيقيَّ لصيغة الأمر، للطَّلب من الأعلى إلى الأدنى، وفائدته: توجيه أذهان المُخاطبين إلى رؤية واضحة، حول السَّبيل الصَّحيحة الَّتي يسلكها الإنسان في حياته، وصولًا إلى إرضاء اللّه تعالى، في علاقاته ومعاملاته وحياته كلِّها.

بلاغة جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

بيانُ استقامةِ الصِّراطِ قبلَ الأمرِ باتِّباعه: منهجٌ علميٌّ رصينٌ

لو قيل: (فَاتّبِعُوا صِرَاطِيَ مستقيمًا)؛ كان الأمر بالاتِّباع ضعيفًا ممّا جاء عليه نظم الآية، فقد يخرج إلى معنى التَّوجيه المباشر؛ لِفقدِ التَّوكيد والانفصال عمَّا سبقه من الأوامر والنَّواهي المتضمِّنة للمنظومة: الأخلاقيَّة، والإيمانيَّة، والإنسانيَّة العظيمة الَّتي تُمثِّل محور الصِّراط المستقيم، فعدل عن ذلك إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، كما أنَّ العبارة المُفترضة (اتّبِعُوا صِرَاطِيَ مُسۡتقيمًا)، أفقدت الجملة التَّوكيد بـ(أنَّ) واسم الإشارة اللَّذين منحاها القوَّة؛ إذ لا يكون للسِّياق حاجة في ورودهما على خلاف نظم الآية الكريمة.

دلالةُ الجملةِ الفعليَّة في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

الاتِّباعُ يقتضي الحرصَ والمتابعةَ وتجديدَ النِّيَّةِ والعهدِ

أفادتِ الجملةُ الفعليَّة دلالة التجدُّد مع الزَّمن، فالاتِّباع يقتضي تجديد العهد به، وتخيُّر الأساليب المؤدِّية إلى أمثل اتِّباعٍ وأحسنه، وتجدُّدها مع مقتضيات الحياة، وتجدُّد أساليب عيش النَّاس، وهي على خلاف الاسميَّة الَّتي تفيد الاستقرار والثَّبات.

دلالةُ العدولِ منَ الأمرِ في ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ **إلى النَّهي في** ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾:

تنويعُ أسلوبِ الخطابِ مُحفِّزٌ لاستجابةِ المُخاطَبين

قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، معناه: لا تسلكوا الطُّرق المختلفة في الدِّين، وما فيها من سائر البدع والضَّلالات، وقد قابل هنا بينها وبين الصِّراط المستقيم[1]، فدلَّ ذلك الأسلوب البلاغيُّ على صفة محذوفة فيها، فهي السُّبل المتفرِّقة المُعوَجّة غير المستقيمة، وهي طرق تتشعَّب من السَّبيل الجادَّة، فلذلك سبَّبَ عن النَّهي، قوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾؛ إذ عدل من الأمر ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ إلى النَّهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ ليُبيِّن أنَّ هذه السُّبُل الَّتي هي غير سبيل الله، تؤدِّي بسالكها إلى التَّفرُّق عن سبيل الله المستقيم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/76.

غرضُ العدولِ منَ الصِّراطِ إلى السُّبُلِ بالجمعِ:

السَّبيل يرادف الصِّراط، فقد ورد السَّبيل - أيضًا- للدَّلالة على سبيل اللّه، وسبيل رسوله، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، ولأنَّ المُقابلة والإخبار عنها بالتَّفرق دلَّ على أنَّ المراد سبُلٌ خاصَّةٌ موصوفةٌ بغير الاستقامة[1]؛ فَقَابَلَ بين الصِّراط المستقيم المُتَّصف بالسَّعة والاستقامة والواحديَّة، وبين السُّبل العديدة الضَّيِّقة المُنحرفة عن الاستقامة، فأدَّت هذه المُقابلة تمثيلًا تصويريًّا لها بين حالين: حال من يسلك الصِّراط المستقيم، فَيَصِلُ إلى مراد اللّه ومراد رسوله، قُبالة حال من يسلك واحدًا من السُّبل المُتفرِّقة المُتشعِّبة المُنحرفة عن الصِّراط المستقيم، فلا يصل إلى ما أمره اللّه من الخير، ولا يُحقِّق لنفسه الفوز بالهدف والغاية، فأراد بالسُّبُل الَّتي تعدل عن الصِّراط المستقيم يمينًا وشمالًا، والعرب تقول: الزم الطَّريق، ودَعِ البُنيّات[2]، وجَمَعَ سبيلَ البَاطِلِ، وأفرد سَبيلَ الحقِّ؛ لأنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، وأمَّا البَاطِلُ؛ فطُرقُهُ متشَعِّبَة مُتَعَدِّدَة[3].

الـصِّـراطُ المستقيمُ واحدٌ واضـحٌ، ومـا دونه سُبُلٌ ضالَّةٌ غيرُ مُوصّلة

بلاغة التَّمثيل:

في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ مشهدٌ تصويريٌّ لمعنى صراط اللّه المستقيم، وصورة نابضة بالحياة والحركة لطُرق أهل الضلال المُعوَجّة المُلْتوِيَة حيث مثّل سبحانه لهذه المعاني بتقرير أنّ الإسلام صراطٌ واضحٌ جليٌّ، وأنّ ما عليه أهل الضلال من انحراف في العقيدة وفسوق في السُّلوك وارتكاب للآثام والمحرّمات هو بمثابة اتّباعهم لسُبُل مختلفة وطرقٍ مُلتويّة لا تُوصّلُهم إلى الغرض المنشود وهو الدّينونةُ للّه تعالى وتوحيده بالعبادة وإخلاص الطاعة لوجهه الكريم. وفيما جاء عليه النّظم

الأمـرُ باتِّـباعِ سـبـيـلِ الـلـه، والنَّهيُ عن اتِّباعِ مـا سـواه: هو مشروعُ الحياة كلِّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 163.
(3) الزّركشي، البرهان: 4/12.

الجليل تمثيلٌ ومشهدٌ مرئيّ يراه كلُّ ذي عقل رشيد وكلّ من ألقى السّمع وهو شهيد. وهو عينُ التّمثيل الذي ذهب إليه رسول اللّه صلّي اللّه عليه وسلّم في الحديث الذي رواه ابن مسعود ﵁. فعن عبد اللّه بن مسعود ﵁ عن النَّبيِّ ﷺ، «أنَّه خطَّ لنا خطًّا، ثمَّ قال: هَذَا سَبِيلُ اللّهِ، ثُمَّ خطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[1].

دلالة النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾:

الانتهاءُ عن اتِّباع غير سبيل اللّه؛ هو الضَّامنُ لعدمِ انحراف النُّفوس

تضمَّن النَّهي هنا المعنى الحقيقيَّ، وهو طلب الكفِّ عن فعل شيء على وجه الاستعلاء، وفائدته مُكمِّلة لفائدة الأمر قبله؛ إذ نهانا اللّه تعالى عن اتِّباع سبلٍ أخرى غير سبيله سبحانه؛ لأنَّها ستؤدِّي بالنَّتيجة إلى إبعادهم عن سبيل اللّه سبحانه، وأنَّها بالنَّتيجة - أيضًا- ستؤدِّي إلى اضطراب علاقاتهم ومعاملاتهم وحياتهم كلِّها؛ لأنَّ من ترك الحقَّ، فقد لجأ إلى الباطل من الأفعال والأقوال.

بلاغةُ القراءاتِ في الفعل: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾:

السُّبُلُ المتفرِّقةُ هي غواياتُ الشَّياطين يُزيِّنونها لمتَّبعيهم

قُرِئَ الفعلُ (تَفرَّق) بإفراد التَّاء ﴿فَتَفَرَّقَ﴾، وبتكرارها (فتَتَفَرّق)[2]، وقرأ (البزِّيُّ) وصلًا بخلف عنه بتشديد التَّاء فيما أصله تاءان، وحذفت واحدة من الخطِّ ﴿فَتَّفَرَّقَ﴾[3]، وبحسب قاعدة: زيادة المبنى تُنبئ عن زيادة المعنى؛ فإنَّ قراءة التَّكرار للتَّاء، فيها معنى أقوى، للدَّلالة على دور تلك السُّبل في تفريق سالكيها، وصرفهم بعيدًا عن سبيل اللّه، وصراطه المستقيم، فيكون المعنى

(1) أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن مسعود: 7/207 - 208، الحديث رقم: (4142).
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/232.
(3) محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 1/127.

المفهوم من ذلك أنَّ لتلك السُّبل الدَّور الأكبر في حصول ذلك التَّفريق، أمَّا على التَّخفيف؛ فإنَّ المعنى يفيد توزيع دور التَّفريق بين السُّبُل وسالكيها، فلولا أنَّ سالكي هذه السُّبل لديهم الاستعداد النَّفسي للولوج فيها؛ لَمَا ولجوها، واتَّبعوها.

نوعُ الباءِ ومعناها في قوله: ﴿بِكُمۡ﴾:

من سلكَ سبيلَ الأهواءِ؛ ضاعَ في دروب المعاصي والمنكرات

الباءُ في قوله: ﴿بِكُمۡ﴾ للمصاحبة، أي: تتفرَّق السُّبل مصاحبة لكم، أي: تتفرَّقون مع تفرُّقها، وهذه المصاحبة المجازيَّة تجعل الباء بمنزلة همزة التَّعدية، كما ذكر ذلك النُّحاة، في نحو: ذَهَبْتُ بزيد، أنَّه بمعنى: أذهبته، فيكون المعنى: فتُفَرِّقَكُم عن سبيله، أي: لا تلاقون سبيلَه[1]، فالسَّالك لواحدة من هذه السُّبُل، إنَّما سيزداد بُعدًا كُلَّما أوغل في مسلكه وسيره، وطال به الزَّمن، زاد بُعْدُهُ عن سبيل اللّٰه وطريقه الموَصِّلة إلى الهداية، فالبُعد مصاحب لسالك هذه السُّبُل مع كلِّ خطوة يزداد بُعدًا، وذكر أبو البقاء: أنَّ الباء هنا للتَّعدِيَة، أي: فيفرِّقكم ذلك الاتِّباعُ[2]، و﴿بِكُمۡ﴾: في موضع المفعول، أي: فتفرّقكم، ويجوز أن يكون حالًا، أي: (فتتفرَّق وأنتم معها)[3].

نكتةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في ﴿سَبِيلِهِۦۚ﴾:

على قدرِ الأفعالِ والأقوالِ والنِّيَّاتِ، يكون البعدُ بتفرُّق السُّبل

قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾، ولم يقل: (عنْ سبيل اللّٰه) أو (عن سبيلي)؛ إشارة إلى البعد الَّذي أصابهم، حال سلوكهم تلك السُّبل، فأبعدتهم عن اللّٰه، ويُرشِّحُ هذا المعنى، ويُقوِّيه: ضمير الغائب في ﴿سَبِيلِهِۦۚ﴾، على خلاف ورود ضمير المتكلِّم، بقوله: ﴿صِرَٰطِي﴾ بضمير المُتكلِّم الَّذي يدلُّ على أنَّ سالكي هذا الصِّراط ومُتَّبعيه قريبون من اللّٰه تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173 - 174.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/189.

(3) أبو البقاء العكبري، التّبيان في إعراب القرآن: 1/549.

الالتفاتُ من التّكلّم إلى الغيبة:

الضَّمير المضاف إليه في: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾، يعود إلى اللّه تعالى، بقرينة المقام، أي: عن سبيل اللّه، ولمَّا كان ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿صِرَٰطِي﴾ عائدًا إلى اللّه أيضًا؛ فإنَّ ضمير ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ التفات عن (سبيلي)، وفائدة هذا الالتفات: الانصراف عن أولئك الَّذين انصرفوا عن سبيل اللّه، وتفرّقوا بمسالكهم المُتباعدة عنه سبحانه وعن شرعه.

مَنِ انصرفَ عنِ اللهِ، وانحرفَ؛ أعرضَ اللهُ عنه، وانصرفَ

دلالة استعمال اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الوصية الأخيرة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ هي الجامعة لكلِّ ما جاءت به دعوة الحقِّ، حيث دعت إلى اتِّباع صراط اللّه، والانتهاء عن اتِّباع طرق الشَّيطان، فطريق اللّه سبيل النَّجاح في الدُّنيا والآخرة، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ استعمل اسم الإشارة للبعيد، لنُكتة استقصاء الوصايا السَّابقة كلِّها، وليعطي ملمحًا للمتلقِّي: أنَّها وصايا قديمة جاءت بها رسالات الأنبياء والرُّسل من قبل، فعدل عن هذا إلى ذلك، ودلالة ضمير الجمع فيه لدلالة شمول الوصايا السَّابقة كلِّها.

وصايا اللهِ في الكتابِ: هي استقصاءٌ للخيرِ كُلِّه

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

في قوله: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، جاء التَّعبير بالماضي، لبيان أنَّ هذه الوصايا أصبحت كالثَّوابت الَّتي لا تغيير فيها، ولا نسخ، وهي كالرَّواسخ في الشَّريعة الإسلاميَّة وغيرها من شرائع الرُّسُل، وذلك على خلاف المضارع الَّذي يفيد التَّجدُّد مع الزَّمان، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنَّ شيءٌ من جميع الكتب، وقيل: إنَّهنَّ أمُّ الكتاب، وعن كعب الأحبار: والَّذي نفس كعبٍ بيده، إنَّ هذه الآيات لأوَّل شيء في التَّوراة[1].

الوصايا الَّتي جاءَ بها الكتاب ثوابت راسخةٌ لا تتغيَّر

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبّي، فتوح الغيب: 6/295.

نكتةُ حذفِ فاعلِ ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

حذفُ الفاعل وهو الاسم الجليل لوضوحه في الأذهان

الفاعلُ للفعل: ﴿وَصَّىٰكُم﴾، هو الاسم الجليل، أي: (وصَّاكم اللّه به)، وفائدة حذف الفاعل في مثل هذا المقام هو العلمُ به، وعدمُ انصراف الذّهن إلى غيره، وذلك أيضا ضربٌ من الإيجاز لأنّ البلاغة قائمةٌ على حذف كلّ ما يدلُّ عليه السّياق ولا زيادة في المعنى في التّصريح به.

الطيُّ والنَّشرُ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

تكريرُ الوصايا ترسيخٌ للمضامين في نفوس المخاطَبينَ

قولهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ تكرير لِمثْلَيه السَّابقَيْن، فالإشارة بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى الصِّراط، والوصاية به معناها: الوصاية بما يحتوي عليه[1]، وهذا من قبيل الطَّيِّ والنَّشر المقلوب، وفائدته: ترسيخ مضامين تلك الوصايا، وتوكيد الوصيَّة نفسها.

العدول عن فعل الأمر إلى فعل التّوصية:

وصايا القرآن الكريم: أوامرُ ونواهٍ، وخيرٌ وصلاحٌ

قوله ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ من التّذييل المفيد النّافع الذي يُرشِّح فائدةَ العدولِ من الأمر إلى الوصيَّة؛ إذ إنَّه لـمَّا أمر ونهى؛ فقد اقتضى المقامُ مزيدَ توكيدٍ للالتزام بالأوامر السَّابقة، والانتهاء عمَّا نهى عنه، فذكر الوصيَّة ليشمل الأوامر والنَّواهي، وهو الصِّراط المُستقيم، ولذلك ختم بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، أي: بالصِّراط.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لعلَّ) دون غيرها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

تَلميحاتُ القرآنِ بحدوث الخيرِ والبُشرى للمؤمنين

أداة (لعلَّ) موضوعة لإنشاء توقُّع أمر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ جعل الرَّجاء لتوقُّع حصول التَّقوى؛ لأنَّ هذه السَّبيل تحتوي على ترك المحرَّمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصَّالحات، فإذا اتَّبعها السَّالك؛ فقد صار مرشَّحًا للتَّقوى وأفعال التَّقوى، واستعمال (لعلّ) يُومئُ إلى توقّع تقوى المخاطبين وزحزحتهم عمّا هم فيها، ودَعْوتهم للالتزام بالتّقوى وشروطها وآدابها وكلّ ما يُوَصّلُ إليها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/174.

نكتةُ المضارعِيّة في الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾:

اتِّباعُ صراطِ الله تأكيدٌ للتَّقوى، وتجديدٌ للهمَّة في الاتِّباع

قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع يدلُّ على التَّجدُّد مع الزَّمان، وفائدته: بيان تجدُّد التَّقوى واستمرارها، وتأصُّلها في صدور المؤمنين، ما داموا سائرين في هذا الصّراط المستقيم ملتزمين شرع اللّه تعالى، منتهين عن النَّواهي، مؤتمرين بالأوامر، بعيدين عن سُبُل الضَّلال.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصِّراط) و(السَّبيل):

الـصِّـراطُ والسَّبيلُ كلاهما يعنيانِ النَّهجَ المسلوكَ إلى الله

الصِّرَاط هو الطَّرِيق المُستَسهَل، أصلُه مِنْ: سَرَطْتُ الطَّعَامَ، أي: ابتَلَعتُه، فقيل: (سراطٌ) تصورًا أنّه يَبْتَلِعُهُ سالِكه، أو يبْتلعُ سالِكَهُ[1]، قَالَ الشاعر:

حَشَوْنا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى *** تَرَكْناهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

والذّلُّ هنا خلافُ الصعوبة، فالصِّراط هو الطَّريق المَهَّدُ المذلَّلُ المسهَّلُ. والصّراط الطَّريق المُستقيم[2]، كما ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، والصِّراط طريقٌ عُلِّمَتْ لِلسّالِكِ جَميعُ مَعالمه، فاللّه تعالى قَدْ بَيّنَ دينه ووضّحه، ولا يخفى شيءٌ على من أراد أن يسلُك صراط اللّه.

وجاء (الصّراط) في القرآن الكريم في أغلب المواضع دالًّا على الطّريق الموصل إلى اللّه، كقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ [الأنعام: 126]؛ إلّا في قوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23]. بينما خصّ السَّبيل للدّلالة على طريق أهل الضّلال. إلّا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(2) الرّاغب، المفردات: (صرط).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]، فقد جاءت للدّلالة على طريق الحقّ، ولكنّ الدّعوة لهذه السبيل كانت مُقيّدةً بكونها على بصيرةٍ، ممّا يجعلها دعوةً إلى صراط الله، لكنّ التّعبير بلفظ السبيل في هذا الموضع فيه تعريضٌ بالسُّبُل الّتي سَلَكَها إخْوَةُ يوسفَ معَ أبيهِمْ وأخيهم في هذه السّورة، وفيها تَعْريضٌ كذلك بكلّ السُّبُل الّتي يَضَعُها أهل الباطل في طريق الأنبياء.

وأمّا السّبيل فمنها طريقٌ سالِك ومنها غير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ﴾ [النّحل: 9]، فالله يَقْصِدُ السَّبيلَ للمُسلِمين وللدَّابَّةِ، والسبيلُ الجائر مقابلُ السّبيلِ السّابل[1]، وهو السّبيلُ المَسْلوك[2]. فالسّبيل منها الطريق الذي لم يطرُقْهُ طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يَسْبق له أن سَلَكَه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره.

ونخلُص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة، والسَّبيل منها ما هو سالِكٌ، ومنها غيْرُ ذلك، ولهذا فَقَدْ خَصّ الله تعالى طريقَ الإسلام بالصِّراط، ووَصَفَ طُرُق أهل الضّلال بالسُّبُل.

(1) ابن سيده، المحكم (سبل).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سبل).

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ١٥٤﴾ [الأنعام: 154]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين صراطِ القرآنِ المستقيمِ وهدي موسى المستبين

لـمَّا أخبرَ اللّه تعالى عن هدي القرآن الكريم باعتباره صراط اللّه المستقيم، وحبله المتين، ونهجه القويم؛ ذكر هنا كتاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومدحه بأحسن عبارة، كونه الكتاب الشَّامل لتلك الوصايا، وهو تمامُ نعمةٍ وكرامةٍ على الَّذين اتَّبعوا موسى، وفيه تفصيل لكلِّ شيء من الشَّرائع الَّتي يحتاج إليها بنو إسرائيل في كلِّ تفاصيل حياتهم ودقائق شؤونهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: المُراد به في الآيةِ: التَّوراة، وقد يُراد به جِنْسُ الكتاب، أيْ: الكُتُبُ السَّماويَّةُ والرِّسالةُ الَّتي جاء بها الأنبياء.

2) ﴿تَمَامًا﴾: جذر الكلمة هو (تمم)، تمَّ الشَّيءُ يتمُّ تَمامًا، أي: اكتمل، وَبدر تَمام[1]، واستتمَّ نعمة اللّه بالشُّكر[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]؛ قيل: إتمامهما أن تكون النفقة حلالًا، وأنْ يَنتَهِي عمَّا نَهى اللّه عنه، وقيل: إتمامهما: تأدية كلِّ ما فيهما من الوقوف والطواف وغير ذلك[3].

3) ﴿وَتَفْصِيلًا﴾: جذر الكلمة هو (فصل)، الفَصلُ: بَوْنُ ما بين الشَّيئَين، والفَصْلُ من الجَسَد: موضِعُ المَفْصِل[4]، وبين كلِّ فَصْلَيْن وَصْلٌ، والفَصْلُ: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلك القضاء:

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تمم).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تمم).
(3) ابن سيده، المُحكم: (تمم).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (فصل).

فَيصَلٌ، وقضاءٌ فَيْصَليٌّ وفاصِلٌ، وحُكْمٌ فاصِلٌ[1]. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصَّافَّات: 21، المُرسلات: 38]، أي: يوم يبين فيه الحق من الباطل، ويُفصَلُ بين النَّاس[2]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]، أي: بيَّنَّا فيه كلَّ شيء من الشَّرائع والأحكام، فلا غموض فيه، وهذا هو المعنى الـمُراد في الآية الكريمة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـانُ نـزولِ التَّوراةِ للموعظةِ والهدى، والأمرِ بالأخذِ بأحسنها على المدى

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ ما وصّى اللّهُ به المؤمنين؛ عَطَف على هذا السّياق سياقًا آخَرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لبيان أنّ محمّداً ﷺ قد أُنزل عليه الكتابُ كما أُنزل على موسى من قبل، فلا وَجْهَ للإنكار عليه. وافْتَتَح هذا السِّياقَ الجديدَ بالمقارنة بَيْنَ التّوراة والقرآن[3]، فقال: ثُمّ أنزلنا على موسى التّوراة وأيّدناه بها إتمامًا لِلنِّعْمَةِ والكرامة من العلم والحكمة، فأعطيناه زيادة على ذلك، وتمامًا لتعاليم الكتب السَّابقة لمن أَحْسَنَ الاتّباعَ والاهتداء؛ وهو موسى عليه السلام ومَنْ أَحْسَنَ في اتّباعِه. فجاء هذا الكتاب مُفَصَّلاً؛ فقال: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، يعني: بيانًا لكلِّ شيء، ويجوز أن يكون المعنى: وآتينا موسى الكتاب، إتمامًا منًّا للإحسان على مَنْ أحسن، وَهُدًى من الضَّلالة، ورحمةً للنّاس، فيكون سببًا في هدايتهم وإيمانهم بالبعث، فقال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وفيها من الرّجاء ما فيها؛ طلباً لإيمانهم بلقاء ربّهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

تاريخُ الأنبياءِ والمرسلين عامرٌ بالوصايا السَّامية والقيم الفُضلى

بدأتِ الآية الكريمة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأداة العطف ﴿ثُمَّ﴾ لتَرْتيب ذِكْر الخبر بعد الخبر، لا للتَّرتيبِ والتّراخي

(1) الخليل، العين: (فصل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(3) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/394.

الزَّمَنِيّ، والمرادُ بهذا العطفِ التَّذكيرُ بأعظمَ مِنْ ذلك، ممَّا تقدَّم من الآيات؛ أنَّا آتينا مُوسَى الكِتَابَ تَمَامًا، وأنزلنا هذا الكتاب المبارك[1]، و(ثمَّ) تَقْتَضي المهلةَ في الزَّمان في أصل وَضْعها، وهي تأتي للمهلة في الإخبار، فقال الزَّجَّاج: هو معطوف على ﴿أَتْلُ﴾ تقديرُه: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾؛ ثمّ ﴿أَتْلُ﴾: ﴿ءَاتَيْنَا﴾[2]، أو معطوف على (قل) إضمارًا، أي: ثمَّ قل: ﴿ءَاتَيْنَا﴾[3]، وجاءت ﴿ثُمَّ﴾ هنا لبيان أنَّ ما ذُكر من تلاوة ما حرَّمه اللّه، وما فرضه من اتِّباع الصِّراط المستقيم، في الآية السّابقة، إنَّما ذلك جزءٌ من تعاليم الإسلام وشرائعه، وأنّها منسجمة مع ما أنزل اللّه من التَّوراة.

ولمَّا ذكر كتابَ موسى؛ فقد ذكر كلَّ التَّشريعات الَّتي وردت فيه فقال: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، على خلاف الأنموذج القرآنيّ إذ ذَكَرَ جُزءًا من شريعة الإسلام، فأدَّت ﴿ثُمَّ﴾ في ذلك التَّراخي الرُّتْبِيِّ المعانيَ الّتي ذكرناها، هذا فضلًا عن أنَّ تراخي رتبةِ إيتاء موسى عليه السلام الكتابَ عن تلاوة ما حَرَّم اللّه في القرآن، وما أمرَ به من ملازمة صراط الإسلام، هو التَّمهيد، لقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتِّب عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، إلى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 156، 157]، فمعنى الكلام: وفوْقَ ذلك، فهذا كتاب أنزلناه مبارك، جمع فيه ما أوتِيَهُ موسى عليه السلام، وهو أعظم ما أوتِيَهُ الأنبياء من قبله، وما في القرآن: الَّذي هو مصدِّق لما بين يديه ومهيمن عليه[4].

الوصايا الواردةُ في الآيات الكريمة هي روح التشريع في كتاب موسى عليه السلام

الالتفاتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/76.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/692.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/302.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/175 - 176.

تقريرًا للوصية، وتحقيقًا لها، وتمهيدًا لما تعقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد، كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلُّم، معطوف على مقدَّر يقتضيه المقام، ويستدعيه النِّظام، كأنَّه قيل بعد قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بطريق الاستئناف؛ تصديقًا له، وتقريرًا لمضمونه فعلنا ذلك، ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾[1]. رجوعًا إلى ما ورد في كتاب موسى من وصايانا، فهي روح الشَّريعة عنده في كتابه.

المُناسبةُ في ذكرِ كتاب موسى:

ذِكْـرُ الـكـتـابِ الموسويِّ تمهيدٌ وتذكير

انتقل في هذه الآية من ذكر الوصايا، وذكر صراط الله، والدَّعوة إلى اتِّباعه، إلى ذكر موسى ﵇ وكتابه التَّوراة، ومناسبة ذلك ما ذكر من صراط الله، فإنَّ المشركين لمَّا كذَّبوا دعوة الإسلام؛ ذكَّرهم الله بأنَّه آتى موسى ﵇ الكتاب كما اشتهر بينهم؛ لينتقل إلى ذكر القرآن والتَّحريض على اتِّباعه، فيكون التَّذكير بكتاب موسى ﵇ تمهيدًا لذلك الغرض، أو أنَّ ما ذُكر من الوصايا، هي نفسها الوصايا الَّتي آتاها الله لموسى؛ فناسب ذكرها.

نوع (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

التعريف في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو للجنس، والسّياق يدلُّ على أنّ المراد بالكتابِ هو التّوراة الّتي أوحى بها الله تعالى إلى موسى ﵇، وجعلها نورًا وهدًى لبني إسرائيل.

و﴿تَمَامًا﴾ حالٌ من الكتاب، والتَّمام: الكمال، أيْ: كان ذلك الكتابُ كمالًا لما في بني إسرائيل مِنَ الصَّلاح الَّذي هو بقيَّةٌ ممَّا تلقَّوه عن أسلافهم: من صلاح إبراهيم، وما كان عليه إسحاق ويعقوبُ والأسباط، فكانت التَّوراة مكمِّلةً لصلاحهم، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد، وأنَّ إزالة الفساد تكملة للصَّلاح[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/200، والآلوسّي، روح المعاني: 4/301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَمَامًا﴾:

قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾، أي: جعلنا التّوراة تمامًا للكرامة والنِّعمة، على من كان محسنًا صالحًا، ووصفُ التَّوراة بالتَّمام مبالغةٌ في معنى المُتِمِّ[1]، أي: تَتِمَّةً للكرامة على العبد الَّذي أحسَنَ الطَّاعة في التَّبليغ، وفي كُلِّ ما أمر به، ويجوز أن يكون معنى ﴿تَمَامًا﴾: دفعة واحدة، لم نفرِّق إنزاله، كما فرَّقنا إنزال القرآن[2]، فقوله: ﴿تَمَامًا﴾ مفعول له، أو مصدر، أي: أتمَمْناه إتمامًا، ويجوز أن يكون في موضع الحال منَ الكتاب[3]، وفي التّعبير بـ ﴿تَمَامًا﴾ ما يؤكّد هذه الوَحْدَةَ بين الرسالات والكتب السماويّة الصّحيحة غيرِ المحرّفة، فبعضها يُصدِّق بَعْضًا، ولا تعارُض بينها على الإطلاق.

تمامُ الكتابِ: هو كمالُهُ أو نزولُهُ دفعة واحدة

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

التَّعبيرُ بالموصولِ في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾؛ يقول النّحاةُ: كلمة (الذي) إنّما وُضِعَتْ توصّلاً إلى وصفِ المعارفِ بالجمل[4]، فالمعنى: (تمامًا على الَّذي أحسنَ موسى من العلم والشّرائع)؛ أي: زيادة على علمه على وجه التّتميم، وقد تكون ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ للجنس، أي: يريد جنس المحسنين[5]، أو الفريق المحسن، بمعنى: تمامًا لإحسان المحسنين من بنِي إسرائيل؛ الَّذي اتَّصف بالإحسان[6]، فيكون ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضع (مَنْ)، كأنَّه قال: (تمامًا على من أحسن)، والمحسنون: هم الأنبياء - صلى اللّه عليهم أجمعين - والمؤمنون[7].
أو آتينا موسى الكتاب تمامًا، أي: تامًّا كاملًا على أحسن ما تكون

أتـمَّ الـلـهُ على بـنـي إسـرائـيـلَ الـنِّـعـمـةَ؛ بما أتمَّهُ على موسى علمًا وشريعةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/696.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/550.
(4) ابن جنّي، الخصائص: 1/321.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(7) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 227.

عليه الكتب؛ أي: على الوجه والطَّريق الَّذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبيِّ: أتمَّ له الكتاب على أحسنه[1]، وعلى كلا التّقديريْن فإنّ التّعبير بالاسم الموصول أفاد تعظيم المقصود به؛ لما في الاسم الموصول من الإعلام بعد الإبهام.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصول ﴿أَحۡسَنَ﴾:

الإحسانُ شاملٌ للنَّبيِّ ولقومِهِ ممَّن حَسُنَ اتِّباعُهم له

قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾، أي: تمامًا على المحسن، فالتّعبير يدلُّ على المفرد، والمرادُ موسى عليه السلام فهو صاحب الرِّسالة والكتاب، وفي الوقت نفسه يجوز حمله على الجمع، ويكون المعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا على الذين أحسنوا، ويدخل مع موسى قومُهُ الذين أحسنوا اتّباعه وتنفيذ وصاياه.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

ثنائيَّةُ تمامِ الكتابِ وتفصيلِهِ في مسائلِ الشَّرعِ المنزَّلةِ

قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: تبيانًا لكلِّ شيء من أمر شريعتهم، ممَّا يحتاجون إلى علمه، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء[2]، وحرف العطف (الواو)؛ للجمع بين التَّمام والتَّفصيل، فمعنى التَّمام: أنَّه جاء تفصيلًا لكلِّ قضايا الشَّرع، وما يحتاج إليه بنو إسرائيل في حياتهم، من الأحكام والعبادات والمُعاملات.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

التَّمامُ والتَّفصيلُ دليلُ الشُّمولِ والاستيعابِ لهذا الكتابِ

اللّام في قوله ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ جيء بها للتّوصُّل إلى ما يتعلّقُ التّفصيلُ به، والمعنى: وتفصيلًا لكلّ ما يُحتاجُ إليه في الدّين والشّرع، ومعناها قريبٌ من معنى الإضافة، كأنّه قيل: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلَ كُلِّ شيء يحتاج إليه؛ إذ لم يَدَعْ كتابُ موسى أمرًا مهمّا وشأنًا ضروريّا من شؤون الحياة في عهد بني إسرائيل إلّا تناولها بيانًا وتفصيلًا.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.

(2) ابن الجوزيّ، معاني القرآن: 1/365.

دلالة (كلّ) في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

التّفصيلُ في أمورِ الشّرائع مَزِيَّةٌ عُظمى وملمحٌ للتّحدّي

لفظ (كلّ) اسمٌ يدلّ على الشّمول والاستغراق، والمرادُ إمّا المعنى الحقيقيّ للكلمة، أي: أنَّ التوراة حوت تشريعاتٍ وأحكامًا لكلّ شأن من شؤون التّشريع التي كان بنو إسرائيل يحتاجون إليها في فترتهم، وإمّا أن يكون المرادُ بها المبالغةَ والتّعظيمَ بمعنى أنّ التّوراة حَوَتْ أهمّ القضايا والشّؤون التي تهمّ بني إسرائيل، وتكون الكليّة نسبيّة. نظير ذلك ما جاء على لسان الهدهد متحدّثا عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، ونحن نعلم أنّه يستحيلُ عقلًا أن يملك أحدٌ من البشر في هذه الدّنيا كلّ شيء أو أن يُؤتى من كلّ شيء.

تقديرُ الحذف في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

الإعجاز التّشريعيُّ في الكتب السّماوية من أهمّ وجوه الإعجاز

قد يُرادُ بالشّيء: الشّيءُ المهمُّ، فيكون من حذف الصّفة، كقوله: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]، أي: كلَّ سفينةٍ صالحة، ومثله قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: 38][1]، أي: ما فرَّطنا في شيء مُهمٍّ إلّا وذكرناه في الكتاب، وفصّلناه على علم، وقد أعجزت الكتب السّماوية النّاس بتشريعاتها الّتي لا يقدر على تمامها وتفصيلها بشر قطعًا.

التّعريضُ في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

القرآنُ الكريمُ معجزةُ محمّد ﷺ ورسالتهُ الخالدةُ

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: تعريض بأهل مكّة ومن سار سيرهم من العرب حيثُ كان سلفهم على هدى وصلاح، فدخل فيهم من أضلَّهم، ولقَّنهم الشِّرك، وإنكارَ البعث، فأرسل اللّه إليهم محمَّدًا ﷺ ليردَّهم إلى الهدى، ويؤمنوا بلقاء ربِّهم[2]، فقد جاءهم القرآن الكريم، وهو الرِّسالة والمُعجزة البيِّنة لرسول اللّه ﷺ، فما أجدر أن يؤمنوا، كما آمنت بنو إسرائيل، بموسى عليه السلام وبكتابه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

دلالةُ العطفِ والتَّنكيرِ في قوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾:

(الواو) عاطفة في الموضعين من قوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾، والاسمان معطوفان على ﴿تَمَامًا﴾ منصوبان مثله[1]، والعطف للجمع؛ إذ تجتمع صفتا الهداية والرَّحمة في هذا الكتاب مع كونه تامّا مفصَّلًا، فيه تفصيلُ كلّ شيء، وعلامة التَّفصيل والتَّمام، أنَّه هُدًى لمن يطلب الهداية، ورحمةٌ لمن يعمل به، وتنكير الهدى والرَّحمة للتَّعظيم.

الهدايةُ والرَّحمةُ ثنائيَّةُ الاستقامةِ مع كتاب الله

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقَي الهدى والرَّحمة دون التَّمام والتَّفصيل:

حَذْفُ مُتعلّقي (الهدى) و(الرَّحمة) من الطَّيِّ والنَّشر، وبالنّظر في متعلّقَي (التَّمام) و(التَّفصيل)؛ يستطيع القارئ المتدبّرُ أن يذكر المتعلّقين دون عناء كبير، حيث يعود متعلّق (الهُدى) المحذوف إلى متعلّق (التَّفصيل)؛ فالكتابُ هدى للنَّاس في كلِّ شيءٍ، ممَّا يحتاجونه في أمور حياتهم، ويعود مُتعلّق (الرَّحمة) إلى متعلّق (تمامًا)، فهو رحمة لمن أحسن من بني إسرائيل، فالتّعبيرُ من قبيل الطيّ والنّشر المقلوب.

التَّلازمُ واضحٌ بين ثنائيَّتي (الهدى والرَّحمة)، و(التَّمام والتَّفصيل)

لطيفةٌ في استعمال أداة الرّجاء (لعل):

تأتي (لعل) لإنشاء توقُّع أمرٍ[2]. فإن أتتْ لتوقّع شيء محبوب سُمّي ذلك ترجّيًا وإطماعًا، وقد أفادتِ الآية هنا ذلك التّرجّي، فقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهذا لا يقال للمؤمن[3]، إنّما لرجاء إيمان الكافر بلقاء ربه، وتَصديقِه بالبعث إذا سمع مواعظَ اللّه الّتي وعَظَ بها خلقَه، والمقصود بهذا التّرجّي هم بنو إسرائيل؛ ليكونَ حالُهم بعد إنزال الكتاب حالَ مَنْ يُرجى منه أن يُجدِّدَ الإيمانَ في كلِّ وَقْتٍ بلقاء رَبِّهِ[4]، ويُصَدِّقَ بما جاءه به نبيُّه

العملُ بالكتابِ ومضامينه، هو سبيلُ الاتِّصاف بالإيمان

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/334.
(2) الجرجاني، حاشية على الكشّاف: 1/177.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/372.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/744.

موسى عليه السلام[1]، وبما وعدهم اللّه به من ثواب وعقاب[2]. وهذه هي مهمّة الرّسالات جميعها؛ رجاءَ أَنْ يؤمن النّاسُ، وتستقيمَ أمورهم طاعةً للّه ولرسوله.

الرّجاء من عند اللـه محقّق، وبمشيئة الله معلَّقٌ

والعلماءُ على أنّ (لعلّ) إذا جاءت مُسنَدَةً إلى الذّات العليّة في القرآن أفادت معنى التّحقّق لا الرّجاءِ؛ فالرّجاءُ من عند اللّه تعالى محقّقٌ لا محالة، ولكنّ هذا التّقديرَ لا يتعارض مع كون التّوقّع والرّجاء يبقى موجودًا فيها، حتّى تبقى النّفوسُ مُشرَئِبَّةً إلى رحمة اللّه تعالى غير جازمة بوقوع ما مُنّيَتْ به حتّى لا تَتَّكِلَ على ذلك دون أدنى عَمَلٍ.

العدول من (لعلَّكم) إلى ﴿لَّعَلَّهُم﴾:

كلُّ أمَّـةٍ تُدعى إلى كتابها يومَ القيامة، وكتابُ أمَّـةِ محمَّدٍ القرآنُ

قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾: رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربِّهم، والضَّمير عائد إلى معلوم من المقام، وهم (بنو إسرائيل)؛ إذ قد عُلم من إيتاء موسى عليه السلام الكتاب أنَّ المنتفعين به هم قومه بنو إسرائيل[3]، فعدل من الخطاب إلى الغائب، وفي ذلك دلالة البعد لما طرأ على بني إسرائيل قبل نزول التَّوراة من قلَّة الإيمان، حتَّى كان حالهم كحال من لا يؤمن بلقاء اللّه، هذا فضلًا عن أنَّ الخطاب موجَّه إلى قريش ومَن حولهم في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾، وذلك عند تنزُّل القرآن، ثمَّ جاء الحديث عن كتاب موسى وبني إسرائيل، فلو كان (لعلَّكم) بالخطاب؛ لالتبس على المُخاطبين: أيتَّبعون كتاب موسى عليه السلام طلبًا للإيمان أم كتاب محمَّد ﷺ؟ فجاء رواية لما مضى من القول، فقال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/673.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

معنى الباءِ في لفظِ ﴿بِلِقَآءِ﴾:

الباء في عموم أحوالها تكون للإلصاق، وهي في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ كذلك؛ لأنَّ فيها معنى الإيمان واليقين؛ فلعلَّهم يكونون مؤمنين بلقاء ربِّهم؛ إيمانًا لا يُفارقهم في عموم حياتهم، عملًا بما في كتاب اللّه من الوصايا، مؤتمرين بما أمر اللّه به، منتهين عمَّا نهى عنه سبحانه.

التـزامُ وصايا اللـه سبحانه في الكـتـابِ هـو السَّـبيـلُ للاستـقـامـة والنَّجاة

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، جاء تقديمُ الجارِّ والمجرور للاهتمام حيثُ لم يقل: (لعلَّهم يؤمنون بلقاء ربِّهم)، وهذا التّقديمُ يشيرُ إلى الاهتمام بلقاء اللّه تعالى ويُومئُ إلى دوره في دفع أهل الإيمان إلى الانضباط وَفق شرع اللّه، والحرص على العمل بكلّ شرائع الكتاب الذي أنزله اللّه تعالى على نبيّهم؛ ليكون لهم هدى ورحمة، وذكر الآلوسيُّ: أنَّ الجارَّ والمجرور متعلّق بما بعده، وقدّم لرعاية الفواصل[1]، والاهتمام بأمر البعث والجزاء.

محـورُ طلبِ الاستـقـامـة والاتِّـبـاع في الـدُّنـيـا: هـو الإيـمـان بلقاء الله

نكتةُ إضافةِ اللِّقاء إلى الرَّبِّ:

إضافة اللِّقاء إلى الرَّبّ في قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تعظيم لشأن هذا اللّقاء، حيث لم يقل: (لعلّهم بيوم الحساب يؤمنون)، وهو نفسه اليومُ الَّذي سيحاسبون، ويُجْزَوْنَ فيه على أعمالهم، لكنَّه ذَكَرَ لقاء ربِّهم؛ لأنَّ ربَّهم هو الَّذي سيحاسبهم، فعَدَل عن ذكر يوم الحساب إلى ذكر الرّبِّ، لأنَّ الحسابَ بِيَدِه سبحانه. وفي الإضافة إلى لفظ الرّبوبيّة دعوةٌ للشّاردين الضّالّين عن طريق الحقّ ليتفكّروا فيَرْعَوُوا وينْزَجِروا ويتوبوا عن ضلالهم، ويفيئوا إلى ربّهم المُنعِم عليهم المُحسِنِ إليهم.

الـحسابُ بيدِ اللـه تعالى: إن شـاء حـاسـب، وإن شاء غفر

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/303.

من ناحية أخرى، فإنّ لفظ (ربِّ)، وما فيه من دلالة على الرَّحمة والإنعام والإحسان، يناسب ذِكْرَ الإيمان بِيَوم لقائه سبحانه، فيكون بالمؤمنين رحيمًا، والرَّبُّ من التَّربية، وهي إنشاء الشَّيء حالًا فحالًا حتَّى التَّمام[1]، فناسب هذا المعنى ما أنزله اللّه تعالى من تمام الكتاب، والتَّفصيل لكلِّ شيءٍ، فكان الكتاب هدى ورحمة، وكأنَّه يرعاهم، ويُربِّيهم في الدُّنيا، فيلقون ربَّهم، وهو راضٍ عنهم في الآخرة.

رحمةُ ربِّ العالمين ممدودةٌ لعباده الصَّالحين

دلالة المضارعيّة في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

قوله: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ عبَّر بالمضارع لفائدة تجدُّد الإيمان؛ وذلك مناسب لِدَوام تربية اللّه لهم، بما أنزل عليهم من الكتاب تمامًا وإحسانًا، فتكون لصيغة المضارع دلالة التَّجدُّد مع الزَّمان، ويمتدُّ ذلك إلى أن يلقوا ربَّهم، وهم مؤمنون بلقائه، فيتجدَّد إيمانهم حينًا بعد حين.

يحتاجُ الإيمانُ إلى العنايةِ والتَّجديد لينموَ ويثمِرَ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكمال) و(التَّمام):

كمال الشَّيء حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كَمُلَ، ذلك معناه: حصل ما هو الغرض منه، وقوله: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233]؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك غاية ما يتعلَّق به صلاح الولد، وقوله: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]، فإنَّما ذَكَرَ العَشَرَةَ ووَصَفَها بالكاملة ليُبيِّنَ أنَّ بصِيام العَشَرة يحصل كمالُ الصَّوم القائم مقامَ الهَدْي[2]، أمَّا تَمام الشَّيء: فهو انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والنَّاقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه، ويقال ذلك للمعدود والممسوح، تقول: عدد تامٌّ، وليلٌ تامٌّ، قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:

الكمالُ: حصولُ ما به الغرضُ، والتَّمامُ: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى خارجٍ عنه

(1) الرّاغب، المفردات: 208.
(2) الرّاغب، المفردات: 726.

115]، قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: 8]، ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: 142][1]. ممَّا سبق: فإنَّ كمال الشَّيء حصول ما فيه الغرض الآنيُّ المحدَّد بمسألة، أمَّا التَّمام؛ فهو الحدُّ المُنتهى من الكمال، فهو ما يحصل فيه الغرض في كلِّ وقتٍ وحال، فكان تمام الشَّيء أبلغ وأعمَّ من كماله، ومن ذلك جاء قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾؛ ليدلَّ على تمام الكمال في كلِّ حال.

(1) الرّاغب، المفردات: 168.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾

[الأنعام: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

المناسبةُ بينَ ذكرِ الكتبِ السَّماويَّة، والدَّعوة إلى اتِّباعِ القرآنِ والالتزام به

بعد أن ذكر كرامة كتاب موسى عليه السلام وهو التَّوراة؛ أردف هنا بالكلام عن القرآن، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾، وأمر باتِّباعه، ومناسبة ذكر الكتابين بعد ذكر الوصايا: أنَّهما يشتركان فيها وفي مماثلاتها، من الأوامر والنَّواهي والشَّرائع، ثمَّ إنَّ الكتابين مصدرهما واحد فهما منزَّلان من عند الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكٞ﴾: من البَرَكة: وهي الزِّيادة والنَّماء[1]، والتَّبْريك: الدُّعاء بالبَرَكة، وتبارك الله: تمجيد وتجليل[2]، تفَاعل من الْبركَة، وَلَيْسَ من النَّمَاء، وَإِنَّمَا هُوَ رَاجع إِلَى الْجلَال وَالْعَظَمَة، وتبارك لَا يُوصف بِهِ إِلَّا الله تبارك وتعالى، ومَا أبركَ هَذَا الطَّعَام! أَي: مَا أنماه![3] والمعنى المُراد في الآية الكريمة: أنَّ هذا القرآن لا ينسخه كتاب بعده، أو أنَّه يشتمل على خيري الدُّنيا والآخرة.

المَعْنَى الإِجْمالِيُّ:

دعوةٌ إلى اتِّباعِ الكتابِ المنزَّلِ المباركِ توخِّيًا للتَّقوى وطلبًا للرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾، يعني: القرآن الَّذي يُتلى عليكم، فيه بركة لمن آمن به، وهو سببٌ لمغفرة الذُّنوب، وفيه نماءٌ وزيادة على ما جاء في التَّوراة[4]، فاتَّبعوه واسلكوا سبيله، واعملوا بما فيه من الأمر والنَّهي، واجتنبوا أن تتَّخذوا إمامًا غير

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم: (برك).
(2) الخليل، العين: (برك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (برك).
(4) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/395.

القرآن، ولا ريبَ أنَّ من اتّبع شرع اللّه المسطور فيه، واهتدى به بهداه، فإنّه يكون من زمرة المرحومين.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ عطْفِ جملة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ على ما تقدَّم:

بـركـةُ الـقـرآنِ الكريمِ في جعْلِهِ خـاتـمَ التّنزيل الإلهيِّ العظيم

جملة: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، أي: الَّذي تُليت عليكم أوامرُه ونواهيه[1]، عطف على جملة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: 154]، والمعنى: آتينا موسى الكتاب، وأنزلنا هذا الكتاب[2]، وفائدة هذا العطف: الجمع بين الكِتابين التَّوراة والقُرآن، باعتبارهما مُنزَّلين من عند اللّه تعالى، وأنَّهما يتماثلان في الدَّعوة إلى عبادة اللّه وحده، وفي التَّشريعات العظيمة الَّتي هي محور صلاح الأمم والـمُجتمعات والأفراد.

نكتةُ الالتفاتِ منَ الغيبةِ إلى الخطاب:

بـيـانُ عـظـيـم حضورِ الرِّسالةِ الـمـحـمَّـديَّـة بين النَّاس أجمعين

التفت التّعبيرُ القرآنيُّ من قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو حديث غيبة، إلى الخطاب في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وفائدة هذا الالتفات: الانتقال من قوم موسى عليه السلام إلى قوم محمَّد ﷺ، ومن كتاب موسى عليه السلام إلى كتاب محمَّد ﷺ؛ لبيان عظيم حضور هذه الرِّسالة وما فيها من الهداية للنَّاس أجمعين.

دلالة اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾:

الإشـــارةُ إلى الكتاب بالقُرب تنويةٌ بالقرآنِ ومكانتهِ

افتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناءُ الفعل عليه، وجعل الكتاب الَّذي حقُّه أن يكون مفعولَ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ مبتدأ: كلُّ ذلك للاهتمام بالكتاب والتَّنويه به، وقد تقدَّم نظيره: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [الأنعام: 92][3]، فاسم الإشارة هنا للقريب،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

لبيان قرب الكتاب، وحضوره في الأذهان وشؤون حياة الناس، وهو القرآن بعد أن ذكر الكتاب السَّابق له، وهو التَّوراة.

العدولُ منَ الفعليَّة إلى الاسميَّة:

القرآنُ الكريمُ هو الكتابُ المحفوظُ في اللَّوحِ المحفوظِ

العدول من الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لإفادة الثُّبوت والاستقرار والرُّسوخ؛ إذ لا تبديل ولا تغيير لهذا الكتاب، وهو الكتاب المُهيمن على ما سبقه من الكتب السَّماويَّة، وهو الكتاب الَّذي تكفَّل اللّه بحفظه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]. وهو في اللَّوح المحفوظ عند اللّه تعالى، وجاء الأسلوب على خلاف ما وُصف به كتاب موسى؛ إذ جاء بالجملة الفعليَّة: ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿كِتَٰبٌ﴾:

القرآنُ الكريمُ هو الكتابُ الشَّامِلِ لما سبقه من كتب

تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الغرضُ منه التَّفخيم والتَّعظيم؛ ذلك لكونه فريدًا شاملًا لما في الكتب السَّابقة مِن حكمة وتوحيد واستدلال على عظمة الخالق، فهو كتاب عظيمٌ مهيمنٌ على ما سبقه، وهو خاتم الرِّسالات، وهو مُعجزة خاتم الأنبياء، وأصل رسالته وهدايته.

نكتةُ تعدّد الوصف:

الكتابُ المُباركُ هو ميدانُ التَّحدِّي على مدار الدَّهرِ

جملة: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ في محلِّ الصِّفة للموصوف ﴿كِتَٰبٌ﴾، و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية، وهما المقصد من الإخبار؛ لأنَّ كونه كتابًا لا مِرْيَة فيه، وإنَّما امْترى المشركون وارتابوا في كونه منزَّلًا من عند اللّه، وفي كونه مباركًا، ووُصِفَ القرآن بأنَّه مبارك، في مواضع كثيرة، والمبارك هو الثَّابت الدَّائم في ازدياد، وذلك مشعر ببقائه ودوامه(1)، وحَسُنَ عطفُ: ﴿مُبَارَكٌ﴾ على: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ اسم

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/695.

المفعول لاشتقاقه، هو في قوّة الفعل، وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ كأنَّه قال: وهذا كتاب، وهذا مبارك، وهذا من صفته كذا وكذا، وفيه وجه ثالث من الرَّفع؛ إذ يمكن رفعه على الاستئناف لتمام ما قبله(1).

سببُ تقديمِ صفةِ الإنزال على البركة:

صفةُ المُباركِ تدلُّ على أنَّه كثيرُ الخيرِ دينًا ودُنيا

ومن نظائر هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٠﴾ [الأنبياء: 50]. في آية الأنبياء، جاء تقديم الصِّفة ﴿مُبَارَكٌ﴾ على ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على خلاف ما جاء في آية الأنعام؛ لأنَّ الحديث في آية الأنعام جاء ردًّا على زعم اليهود الذين كانوا يُنكرون الرسالة ويقولون: ما أنزل اللّه على بشر من شيء، فقدَّم الإنزال للاهتمام والرَّدِّ عليهم(2)، ولا ريبَ أنَّ الوصف بالإنزال آكدُ من الوصف بالبركة في ذلك المقام فقُدِّم.

يُضافُ إلى ذلك أنَّ الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة، أَوْلى من الوصف بالاسم، لما يدلُّ الإسناد إلى اللّه تعالى من التَّعظيم والتَّشريف، وليس ذلك في الاسم لو كان التَّركيب (منزَّل) أو (منزل منَّا).

التَّفريعُ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾:

وجوبُ اتِّباع الكتاب جاءَ استحقاقًا لبركته؛ فهو مُنَزَّلٌ من عند الله

وتفريع الأمر باتِّباعه على كونه منزَّلًا من اللّه تعالى، وكونه مباركًا، ظاهر؛ لأنَّ ما كان كذلك لا يتردَّدُ أحدٌ في اتِّباعه(3)، فيكون اتِّباعه مسلكًا صحيحًا لاقتفاء الصِّراط المستقيم الَّذي هو صراط اللّه تعالى، وسبيل المؤمنين، فجاء الأمر باتِّباعه لاستحقاق الاتِّباع؛ فهو الكتاب المؤهَّل لصياغة حياة عامرة مستقيمة زاخرة بالخير والبركة والنّماء.

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن، ص: 11.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثرّيّ الجامع: 3/552.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

دلالة المجاز المُرسل في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

الاتِّباع أطلق على العمل بما فيه من أحكام وشرائع، على سبيل المجاز، والاتِّباع في الأصل، اقتفاء أثر الماشي، ثمَّ استعمل في العمل بمثل عمل الآخر، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التَّوبة: 100]، ثمَّ استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الائتمار، ويتعدَّى فعله إلى ذات المتَّبَع، فيقال: اتَّبعت فلانًا بهذه[1]، والخطاب في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ للمشركين، لقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾.

الاتِّباع: اقتفاء أثر الماشي، والقرآن دليل لمن يؤمن به ويتَّبعه

دلالةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

اتّباعُ الكتاب المرادُ منه الالتزامُ بجميع أوامره ونَواهِيهِ، وفي الجملة تمثيل بحال مُرْشِدٍ يدلُّ على الطَّريق، فيقتضي من السَّالكين اتِّباعه واقتفاء أثره، والامتناع عن سلوك سُبل أخرى، قال الطَّبريُّ: فاجعلوه إمامًا تتَّبعونه، وتعملون بما فيه، أيُّها النَّاس[2].

الأمرُ بالاتِّباع أمْرٌ بالتزام الوصايا كلِّها أوامرها ونواهيها

دلالةُ الجمع بين الاتّباع والتَّقْوى:

الأمر بالتَّقوى جاء بعد الأمر بالاتِّباع في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾؛ لأنَّ الاتِّباع يُورِثُ التَّقوى ويُثمِرُها، ثمَّ إنَّ رحلة الاتِّباع قد تستغرق الحياة كلَّها، فلا يكون الاتِّباع كاملًا إن لم يُشفَع بالتَّقوى، فجاء الأمر بالتَّقوى مُتمِّمًا لغاية الأمر بالاتِّباع، فالاتِّباع والتَّقوى ثنائيَّة، تصون صحَّة الالتزام بدين الله.

الاتِّباع والتَّقوى ثنائيَّةُ تكامل للدِّين القويم

بلاغةُ حذْفِ مفعولِ الفعل ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

جاء فعل التّقوى محذوف المفعول إذ لم يقل: (واتّقوا الله أو اتَّقوا النَّار)، وفائدة هذا الحذف: الإيجاز وتعدُّد المعاني؛ إذ إنَّ فيه ثلاثة أقوال: "قيل: اتَّقوا مخالفته على رجاء الرَّحمة، وقيل:

تقوى اللهِ رهينةُ الإيمانِ بما أنزلَ اللهُ، واتِّباعِ رسوله ﷺ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/423.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/238.

اتَّقوا؛ لتُرحموا، أي: ليكون الغرض بالتَّقوى رحمة اللّه، وقيل: اتَّقوا لترحموا جزاء على التَّقوى"[1].

نكتةُ التَّعبير بأداة الرَّجاء (لعلَّ):

التَّـلازمُ بين الاتِّباع والتَّقوى مؤشِّرٌ لحصول رحمة الله بهم

وفي قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرۡحَمُونَ﴾ (لعلَّ) للتَّقريب؛ إذ تضمَّنَ الخطاب بأنَّه ستصيبكم رحمة اللّه على قدر اتِّباعكم وتقواكم؛ فهما ثنائيَّة النَّجاة، فإن تحقَّقتا فقد أوجبتا رحمة اللّه لهم، ودلالة الرَّجاء بـ(لعلَّ): هو التَّلازم بين الرَّحمة الَّتي هي رحمة اللّه لأهل الاتِّباع والتَّقوى، فلا شكَّ أنّ الذين يجتهدون في اتّباع أحكام الكتاب، ويجتهدون في مدارج التّقوى، يكونون من المرحومين.

بناءُ الفعلِ للمفعولِ في ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ ودلالةُ التَّعريضِ:

أفـاد الـبـنـاءُ لـلـمـفـعـولِ: الوعدَ بالرَّحمةِ، والـوعـيـدَ بالعذابِ

في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جاء الفعلُ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ في صيغة ما لمْ يُسَمَّ فاعله، وهذا الصّنيعُ يوحي بوجود قوَّة خفيَّة مراقبة لأعمال المخاطبين، بيدها الرَّحمة، فمَنْ كان يرجو تلك الرَّحمة فعليه أن يأتمر بما سبق من الاتِّباع والتَّقوى، وفيه تعريض بالوعيد بعذاب الدُّنيا والآخرة إن لم يتَّبعوه.

بلاغةُ تنوّع التّذييل في فواصلِ الآياتِ السَّابقةِ:

تـنـوّعُ التّذييل يـتـنـاسـبُ مع مضمون الآيات

تعدّدت التَّذييلات الَّتي عُقِّبت بها الأغراض السّابقة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وهذا كلام جامع لاتِّباع ما يجيء إلى الرَّسول ﷺ من الوحي في القرآن[2]، وقد ختمت الآية السَّابقة بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، والثَّانية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ القوم كانوا مستمرين على الشِّرك، وقتل الأولاد، واقتراف الزّنى، وقتل النَّفس المحرَّمة بغير حقٍّ غيرَ مستنكفين ولا عاقلين قبحها،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.

فنهاهم سبحانه عن ذلك، لعلَّهم يعقلون قبحها، فيستنكفوا عنها، ويتركوها، وأمَّا الأوامر في الآية الَّتي تليها من حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيل، والعدل في القول، والوفاء بالعهد فصفات وأعمالٌ كانوا يفعلونها أو يفعلون بعضًا منها ويفتخرون بالاتِّصاف بذلك، فأمرهم اللّه تعالى بذلك لعلَّهم يذَّكرون، إن عرض لهم نسيان، وأنَّ السَّبب في ختم كلِّ آية بما ختمت به أنَّ التَّكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى، ظاهرة جليَّة، فوجب تعقُّلها وتفهُّمها، والتَّكاليف الأربعة المذكورة في الآية الَّتي تليها أمور خفيَّة غامضة، لا بدَّ فيها من الاجتهاد والفكر الكثير، حتَّى يقف على موضع الاعتدال وهو التَّذكُّر(1).

أمّا ختمُ آية الاتّباع والتّقوى بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فلا يخفى أنّ اتّباع أوامر الكتاب ونواهيه جُملة، واجتهاد المسلم في أبواب التّقوى الكثيرة، يكونُ المتّصفُ بهاتين الصّفتين قريبًا من رحمة اللّه ومستحقًّا للدّخول في صفوف المرحومين.

التَّرقِّي في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

الإيمانُ والتَّقوى درجـاتٌ عاليةٌ، غايتُها تحقيقُ رحـمـة الـلـه ورضاه

ترَقّى الخطاب من الأمر بالاتِّباع إلى مصافّ التّقوى؛ لأنَّهُ من أحسن الاتِّباع؛ فإنَّه سيصيب التَّقوى لا محالة، فجاء الأمر بالاتّباع والتَّقوى متلازمين، فمن كان له نصيب منهما؛ حفَّته عناية اللّه ورحمته سبحانه، فارتقى بهما إلى مدارج الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا سبب من أسباب تغيُّر فاصلة هذه الآية عن سابقتها: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إنزالِ القرآنِ؛ لئلَّا يتعلَّلوا بعدمِ إنزالِ كتابٍ على شاكلة اليهودِ والنَّصارى

بعد أن بيَّن في الآية السَّابقة عظيمَ فضل اللّه في إنزال القرآن إليهم؛ بيَّن أن في إنزال القرآن إليهم رَدًّا على أقوال المشركين السَّابقة أو المُتوقعة منهم، فقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، "فالمعنى: وهذا كتابٌ مباركٌ خاطبناكم به؛ لِئلَّا تقولوا معتذرين، أو فأنزلناه حجَّة عليكم، حتَّى لا تقولوا إنَّما أنزل الكتاب على طائفتين من أهل الكتاب، هم اليهود والنَّصارى، وهي حجَّة واهيَةٌ لاغيَةٌ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾: جذر الكلمة هو (طيف)، الطّائفةُ: الجماعة من النّاس، تقع على القليل والكثير. وفي التَّنزيل: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، وفي الحديث: «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي على الحقِّ»(2). قال الرَّاغب: "إذا أريد بالطَّائفة الجمع؛ فجمع طائف، وإذا أريد به الواحد؛ فيصحُّ أن يكون جمعًا، ويكنَّى به عن الواحد، وإن جعل كراوية وعلامة، ونحو ذلك"(3)، والمعنى المُراد في الآية بالطَّائفتين، أي: اليهود، والنَّصارى.

2) ﴿دِرَاسَتِهِمۡ﴾: جذر الكلمة هو (درس)، والدَّرس: بقيَّة أَثَرِ الشَّيءِ الدَّارس، والمصدر الدُّرُوس، ودَرَسَتْه الرِّياح، أي: عَفَتْه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2747.
(2) أحمد، مسند الإمام أحمد، حديث معاوية بن أبي سفيان، رقم الحديث: (16881): 28/94.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طوف).

والدَّرْس: دَرْسُ الكتابِ للحِفْظ، ودَرَسَ دِراسةً، ودارَسْتُ فلانًا كتابًا، لكي أحفَظَ[1]، وقيل: درستُ: قرأتُ كتب أهل الكتاب، ودارستُ: ذاكرتهم، وقُرئ (دَرَسَتْ)، أي: هذه أخبار قد عفت وامَّحَت[2]، ودرس الكتاب للحفظ: كرَّر قراءته درسًا ودراسة، ودَرَّسَ غيره، ودارسته الكتاب مُدارسَة، وتدارسُوه حتَّى حفظوه، واجتمعت اليهود في مدراسهم، وهو بيت تُدرَّس فيه التَّوراة[3].

3) ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾: جذر الكلمة هو (غفل)، والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ، والتَّغَفُّلُ: ختل عن غَفْلَةٍ، وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركته غُفْلًا، وأنت له ذاكر، والـمُغَفَّلُ من لا فطنة له، والغُفْل الـمُقَيَّدُ لا يرجى خَيْرُهُ، ولا يخشَى شَرُّهُ[4]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: 136]، يصلح أن يكون، كانوا في تركهم الإيمان باللّه تعالى، والنَّظر فيه، والتَّدبير له بمنزلة الغافلين، ويجوز أن يكون: وكانوا عمَّا يراد بهم من الإثابة عليه غافلين[5]، والغفلة: سهوٌ يعتري الانسان من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكهف: 28][6].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

نزولُ القرآنِ ردٌّ على اعتذارهم لشركهم بعدم نزول كتاب عليهم

قولهم فيما سبق: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، ويقصدون بالطَّائفتين اليهود والنَّصارى، والكتاب إنَّما هو التَّوراة والإنجيل، وذلك أنَّ كفَّار مكَّة قالوا: (قاتل اللّه اليهود كيف كذَّبوا

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (درس).
(2) ابن سيده، المحكم: (درس).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: (درس).
(4) الخليل، العين: (غفل).
(5) ابن سيده، المحكم: (غفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (غفل).

أنبياءهم؟ والله لو جاءنا نذير أو كتاب؛ لكنَّا أهدى منهم)، فأنزل الله تعالى القرآن حجَّة عليهم، ثم قال: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، يعني: عن قراءتهم الكتاب لغافلين عمَّا فيه[1]، ومؤدَّاه أيضًا: "لكيلا تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم: إنَّما أنزل الكتاب على اليهود والنَّصارى ﴿طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، وما كنّا نفهم ما جاء فيهما؛ لأنَّ الكتابين لم يكونا بلغتنا، ولم نؤمر بالأخذ بهما، وبما جاء فيهما من أحكام، ولذلك كنَّا غافلين عن دراسة اليهود والنَّصارى لما جاء في كتبهم"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ حذفِ لامِ التَّعليلِ في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾:

إنزالُ الكتابِ قطعٌ للحُججِ الواهيةِ والادِّعاءات الباطلة

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضع التَّعليل لفعل ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على تقدير لام تعليل محذوفة (لِأَنۡ تَقُولُوا)، على ما هو معروف من حذفها مع (أنْ)، والتَّقدير: لأن تقولوا، أي: لقولكم ذلك في المستقبل، أي: لملاحظة قولكم وتَوقُّع وقوعه، فالقول باعث على إنزال الكتاب[3]، قال الفرَّاء: (أن) في موضع نصب في مكانين: أحدهما: أنزلناه، لئلَّا تقولوا، والآخر: من قوله: واتَّقوا أن تقولوا[4]، أو كراهة أن تقولوا[5]، وقال مجاهد: لئلَّا تقوله قريش[6]، والخطاب بهذه الآية مُوَجَّهٌ إلى أهل مكَّة، والمراد إثبات الحجَّة عليهم بإنزال القرآن، كي لا يقولوا يوم القيامة: إنَّ التَّوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنَّصارى، وكُنَّا غافلين عمَّا فيهما[7].

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/513.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 946.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/94.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(6) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/331.
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/94.

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾:

مَلْمَحُ التَّعايشِ بين اليهودِ والنَّصارى في شبهِ الجزيرة العربيَّةِ

الطَّائفتان معروفتان، المرادُ بهما أهل التَّوراة وأهل الإنجيل؛ لأنَّهما عُرفتا بقوله: ﴿مِن قَبۡلِنَا﴾، و(مِن) تفيد القرب من الزَّمان، أي: منذ زمن غير بعيد، ولذلك استغنى بالتَّنكير عن التَّعريف، هذا فضلًا عن كون اليهود والنَّصارى، كانوا يعيشون مع العرب في المدينة؛ ولذلك جاء التَّنكير في ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾ لمعلوميَّة مَنْ يكونون، ثمَّ إنَّه كانت اليهودُ تُبشِّر بنزول كتاب، وإرسال رسول يأتي من بعد موسى مُصدِّقًا له ولرسالته. والتّعبيرُ من باب الكناية.

دلالة أسلوب القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

حَصْرُ رسالات الأنبياء السَّابقين في بني إسرائيل

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ قصرٌ حقيقيٌّ؛ وهو من قبيل قصر صفة على موصوف، والمراد قصرُ صفة إنزال الكتاب على الموصوف، وهو: ﴿طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، وهو كذلك قصر تعيين؛ لانحصار وتحديد المقصور عليه، وهم اليهود والنَّصارى، وفائدة هذا القصر: أنَّه حصر الكتب السَّماويَّة الَّتي كانت قبل القرآن الكريم، واستحضرها في الأذهان، بعد ما ذكر من الوصايا والصِّراط المستقيم، وذكر كتاب موسى عليه السلام، وذكر القرآن الكريم؛ استقطابًا للإيمان في صدور المؤمنين من المخاطبين، وإنكارًا على المعارضين، وتعريضًا بهم.

نكتةُ القصرِ بقوله: ﴿إِنَّمَآ﴾ دون الاستثناءِ بعد النَّفي:

إنزالُ الكتابِ على اليهودِ والنَّصارى حقيقةٌ يعلمها المخاطَبون

الأصل في القصرِ بالنَّفي والاستثناء، أن يكون في الأمور الَّتي يُنكرها المُخاطَب، أو يشُكُّ فيها، بينما القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ تكون في الأمور الَّتي يعلمها السَّامع، ولا يُنكرها، وذلك كما في هذه الآية: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، فهي من الحقائق الَّتي يعلمها السَّامعون، ولا ينكرها أحد منهم؛ ولذلك جاء في هذه الآية القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾، دون النَّفي والاستثناء.

نُكْتَةُ إسنادِ الإنزالِ للمفعول:

الكِبْرُ هو ميدانُ قلوبِ المُعرضين عن الرِّسالات السَّماويَّة

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أُسنِد الإنزال للمفعول، ونُكتة ذلك أنَّ غايتهم من هذا القول تهوين أهمِّيَّة الإنزال، والتَّشكيك بأنَّه نزل من عند الله، فالعبارة تستخرج ما في نفوسهم من الاعتراض والشُّكوك، والأمراض النَّفسيَّة النَّاتجة عن الكِبْر الَّذي أدَّى إلى اعتراضهم، فجاءت (أَنْ) في موضع نصب من مكانين؛ أحدهما: أنزلناهُ لئلَّا تقولوا: إنَّما أنزِلَ، والآخر من قوله: واتَّقوا أن تقولوا، و(لا) يصلح في موضع (أَنْ) هاهنا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾؛ يصلح فيه لا تضلُّون[1].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الكتاب هو جملة الكُتب السَّماويَّة السَّابقة، وكلُّها بيان وهداية

والكتاب في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ مراد به الجنس المنحصر في التَّوراة والإنجيل والزَّبور، وهذا يؤيِّد الاعتقاد بوحدة المصدر، وأنَّ هذه الكُتُبَ مصدرها واحد، وهي تدعو إلى دين واحد، هو الإسلام، ومعنى إنزال الكتاب عليهم: أنَّهم خوطبوا بالكتب السَّماوية الَّتي أنزلت على أنبيائهم، فلم يكن العرب مخاطبين بما أنزل على غيرهم، فهذا تعلُّلٌ أوَّلُ منهم، وثمَّة اعتلال آخر عن الزّهادة في التَّخلُّق بالفضائل، والأعمال الصَّالحة[2].

نوعُ الواوِ في قولِه: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾:

الكِبْرُ غرورٌ قاتلٌ يودي بصاحبه في أدنى تحدٍّ يعرض له

الواو عاطفة بين خبرين، حيثُ إنَّ جملة: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، هي جملة مقول القول، والجملة بعد الواو معطوفة على جملة مقول القول، وفائدتها: الوصل بين الجملتين؛ إذ بهذا الوصل تكتمل الصُّورة، ويبين ما في النُّفوس من علامات الكبر؛ ففي الجملة الأولى اعتراضهم على أنَّ الكتاب أنزل على طائفتين،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180.

ولم يُنزَّل عليهم، فأعرضوا عن الحقِّ لهذا السَّبب الباطل، فكشف ذلك غرورهم وصدَّهم عن الدِّين القويم.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَإِن﴾ ودلالةُ اللَّامِ في ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

الغفلةُ عن تلاوةِ الكتابِ محضُ إعراضٍ وكِبْرٍ عن دين الله القويمِ

﴿وَإِن﴾ في هذه الآية بمعنى: ما النَّافية، واللَّام بمعنى: (إلا)، فكأنَّه قال: وما كنَّا عن دراستهم إلَّا غافلين، أو وما كنَّا إلَّا غافلين عن تلاوة كتبهم[1]، أو أن يكون التَّقدير: وإنَّا كُنَّا عن دراستهم غافلين؛ في حال كون (إن) مخففة من الثقيلة، يخفَّف معها التَّوكيد، واللَّام في ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ عوض، أو فارقة بين إن وما[2]، والأصل: وإنَّه كنَّا عن دراستهم غافلين، على أنَّ الهاء ضمير الشَّأن[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿كُنَّا﴾:

لا يُقبلُ الاعتذارُ عن معرفةِ الدِّين ودراسةِ الكتاب في كلِّ حالٍ

في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، التَّعبيرُ بـ(كان) يفيد الزَّمن الماضي، وفيها دلالة على البعد؛ لأنَّهم كانوا لا يعرفون لغة كُتُبهم، فعبَّر بالغفلة عنها، أو لأنَّها تحكي حالهم يوم القيامة، فيكون التَّعبير بـ﴿كُنَّا﴾ دالّا على ما قد كان منهم في الدُّنيا، من البعد عن الرِّسالة، والغفلة عن الوصايا والتَّشريعات والقيم الَّتي جاءت بها.

المجازُ المرسلُ في قوله: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾:

الكتابُ الحقُّ شاملٌ لعموم الخير، وخيرُ النَّاس من تعلَّمه وعلَّمه

قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: وأنَّا كنَّا قاصرين عن اتِّباع رشدهم؛ لأنَّا لم نتعلَّم، فالدَّراسة مقصود بها التَّعليم[4]، فهي مجازٌ مرسل، والعلاقة السَّببيَّة، والدِّراسة: القراءة بتمهُّل للحفظ أو للفهم، ودرس الكتاب، أي: تعلَّم[5]، قال الكسائيُّ: ﴿وَإِن

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/308، وابن عطيّة، المُحرِّرُ الوجيز: 2/365.
(2) أبو البقاء العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/551.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/81.
(4) ابن عطيّة، المُحرِّرُ الوجيز: 2/365.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/422.

﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: لا نعلم ما هي؛ لأنَّ كتبهم لم تكن بلُغَتِنَا، فقد غاب عن أذهانهم حاجتهم إلى تعلُّم الكتاب؛ لترتقي حياتهم، ويحقِّقوا رضا اللّه، وغاب عنهم أنَّه كلام اللّه، فاقتضى ذلك منهم أن يتعلَّموا لغته، ويدرسوا ما فيه من الوصايا، فأنزل اللّه كتابًا بلغتهم لتنقطع حجَّتهم[1].

الكنايةُ عن الاتِّباع أو عدمه في لفظ: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

انتفاءُ الدِّراسةِ والعلم يعني: الانقطاعَ عن الكتاب، وانتفاءَ اتِّباعه

الدِّراسة تعني: التَّعلُّم والاهتمام بمضمون الرِّسالة، لغاية المعرفة والاتِّباع، فتكون الدِّراسة قد تضمَّنت معنى الاتِّباع، أو هي كناية عنه، والغفلة: السَّهو الحاصل من عدم التفطُّن، أي: لم نهتمَّ بما احتوت عليه كتبهم، فنقتدي بهديها، فهي كناية عن عدم الاتِّباع، فكان مجيء القرآن منبِّهًا لهم للهدي الكامل، ومُغنيًا عن دراسة كتبهم[2].

بلاغةُ المؤكِّدات في قوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾:

تنوُّعُ أعذارُ المُخاطَبين؛ لتكشفَ عن قساوةِ القلوبِ وإقفالها عن قَبول الحقِّ

ورود أكثر من مؤكِّد في النَّصِّ، يعكس اضطراب النَّفس المُخاطبة المنكرة والمتردِّدة، ومحاججتها في قبول الحقِّ، فتأتي بجملة من المؤكِّدات الَّتي توحي بذلك الإنكار أو التَّردُّد، وما اعتذارهم عن تعلُّم الكتاب، بإنزال الكتاب على أقوام آخرين، وغفلتهم عن دراسته إلَّا حُجَّة واهية، تكشف عن مساحة الكبر الَّتي غشيت قلوبهم؛ فلا يؤمنون إلَّا قليلًا.

بلاغةُ تقديم ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ عن العامل:

فقدانُ القدرة والمهارةِ هو جانبٌ من الغفلةِ والنَّقصِ في التَّمكين

قدَّم شبه الجملة: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾، على العامل ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ للاهتمام؛ إذ هي محور الحديث، وأساس الرِّسالة، وهي العلم والدِّراسة والاهتمام بمضامين الرِّسالة النَّبويَّة، فلمَّا كانوا لا

(1) ابن الجّوزيّ، زاد المسير: 2/94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.

يجيدون لغة الرِّسالة، فهم عن الدِّراسة والعلم مِثْلُ الغافلين عن الرِّسالة ومضامينها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الطَّائفة) و(الفرقة) و(الفئة):

الطَّائفةُ: جماعةٌ كثيرةٌ، والفرقةُ: مـا تـفـرَّق لاعتقادٍ، والفئةُ: الأعوانُ

الطَّائفةُ: الجَماعة من النَّاس، وتقع على الواحد ويكونُ المُراد نفسًا طائفة، وقيل: الطَّائفة جماعة دون الألف، والفرقة والفِرقُ: طائفة من النَّاس ومن كلِّ شيءٍ[1]، وهو من الشَّيء المُتفرِّق[2]، والفرق يُقال اعتبارًا بالانفصال، قال تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء: 63]، ويقال: الفرقة: للجماعة المُتفرِّدة من النَّاس، والفريق: الجماعة المُتفرِّدة عن الآخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، والفئة: هِيَ الْجَمَاعَة المتفرِّقة من غَيرهَا، من قَوْلك: فأوْتُ رَأسَه، أَي: فلقتُه، وانفأى؛ إِذا انفرج مكسورًا، والفئة في الْحَرْب: الْقَوْم يكونُونَ ردْء الْمُحَاربين يعنون إليهم؛ إِذا حالوا، وَمِنْه قَوْله ﷻ: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ [الأنفال: 16]؛ ثمَّ قيل لجمع كلٍّ من يمْنَع أحدًا، وينصره: فِئَة، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: الفئة: الأعوان[3]، فالطائفة: تُطلق على الجماعة الكبيرة، وأمَّا الفرقة من النَّاس: فهم الجماعة المُنحازة عن الأغلبيَّة، لأمرٍ فيهم من رأي أو اعتقاد، أمَّا الفئة: فهِيَ المجموعة المتفرِّقة من غَيرهَا، فقال في الآية: الطَّائفة؛ كونها الجماعة الكبيرة المُجتمعة على كتاب الله، وهم اليهود والنَّصارى.

(الغفلة) و(الغرور):

الغفلة سهوٌ يعتري الإنسان، من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ؛ فيكون

---

(1) الخليل، العين: (فرق).

(2) ابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم: (فرق).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 279.

الغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ بغيرِ قصدٍ، والغرورُ: إغواءٌ له بقصد

بغير قصد، أمَّا الغرور فهو كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]، وقد فُسِّر بالشَّيطان؛ إذ هو أخبث الغارِّين، وبالدُّنيا لمَّا قيل: الدُّنيا تغُرُّ، وتضرُّ، وتمرُّ[1]، فيكون الغرور بقصد، فقال في الآية: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إذ طرأ عليهم ذلك دون قصد منهم.

(1) الرَّاغب، المفردات: (غرر).

﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾ [الأنعام: 157]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الرَّدِّ على عدمِ دراسةِ ما قبلَهم، وأنَّه لا حجَّةَ بعد نزولِ القرآنِ عليهم

الآية امتدادٌ لسياق سابقتها؛ إذ ذُكرت في سابقتها الحُجَّة الأولى الَّتي قالوا فيها: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أو أنَّهم من المحتمل أن يقولوا ذلك، فإنَّه في هذه الآية أردفها بحجَّة أخرى، فقال: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾؛ فيردُّ عليهم بأنَّه قد أنزل إليهم القرآن، وهو الرِّسالة المهيمنة، على ما سبقها من الكتب والبيِّنات، وقد جاءكم بساطع البرهان، وقاطع التِّبيان، ممَّا لا عذر بعده لمعتذر، ولاحجَّة بعد نزوله لمحاجج.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡدَىٰ﴾: من (هدي)، وهداه للسَّبيل وإلى السَّبيل، وهداه من الضَّلالة فاهتدى، وهدى هَدْيَ فلان: سار سيرته، وما أحسن هديَهُ! وهو لا يتهدَّى لذلك[1]، و"قد ورد (هدى) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: معدّى بنفسه كقوله (تعالى): ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، ومعدّى باللَّام كقوله (تعالى): ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (هدي).

﴿لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، ومعدّى بإلى كقوله تعالى: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22] "[1].

2) ﴿وَصَدَفَ﴾: بمعنى: أعرض، وقال اللَّيث: الصَّدْفُ: الميل عن الشَّيء، وأصدفني عنه كذا وكذا، وصدف ونكب وكنف: إذا عدل[2]، صَدَفَ عن الشَّيء صُدوفًا: أعرض عنه، وتصادفا: تقابلا[3]، ومعناه في القرآن: صَدَف عن الشَّيء؛ إذا مال عنه، وولَّى ذاهبًا، ويقال للإبل الَّتي تقف عند أعجاز الإبل على الحوض، تنتظر انصراف الشَّاربة لتدخل: هي الصَّوادفُ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إِبْطالُ حجَّةِ الكفَّارِ بعدمِ وجودِ كتابٍ بإنزالِ الكتابِ المعجزِ البليغِ عليهم

معنى هذه الآية: إِبْطالُ حُجَّةِ قريش وسائر العرب، بأنَّهم لم يكن لهم كتاب، فكأنَّه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب، أُنزل حُجَّة عليكم؛ لئلَّا تقولوا: إنَّما أنزلت التَّوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بِلُغَتِكُم وجاء على لسان رجل منكم، أَوۡ تَقُولُواْ: لو نُـزِّل علينا كتاب؛ لكنَّا أسرعَ إلى الهدى من النَّاس كلِّهم، فقيل لهم: قد جاءكم كتاب من اللّٰه وهدى ورحمة، وحيث إنَّ البيِّنة قد جاءت، والحجَّة قد قامت، فسوف يقع التَّقرير بقوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾[5]، حينئذٍ ستكونون أظلم النَّاس؛ إذا أعرضتم عن الآيات البيِّنات بعد إذ جاءتكم، ومن جاءهم الهدى، فأعرضوا، وصدُّوا عنه؛ فقد استحقُّوا عقاب اللّٰه، وسينالهم أسوأ العذاب، بإعراضهم وصدِّهم عن سبيل اللّٰه.

---

(1) زين الدّين الرّازي، مختار الصّحاح: (هدي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صدف).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدف).
(5) ابن عطيّة، المُحرِّر الوجيز: 2/365 - 366.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الحرفِ ﴿أَوۡ﴾ في قوله ﴿أَوۡ تَقُولُواْ﴾:

التَّخييرُ في الآية حصرٌ لمساحةِ التَّخبُّطِ في الإعراض عن الكتاب

فائدة العطف بـ ﴿أَوۡ﴾ هُنا التَّخيير بين أمرين، فقد عرض أمرين محتملين: الأوَّل: اعتذارهم عن دراسة الكتاب لجهلهم بلغته، والثَّاني: ترشيح أنفسهم لتلقِّي الرِّسالة، والتَّأكيد على أنَّهم سيكونون أهدى ممَّن سبقوهم من أهل الكتاب، وكلٌّ من المقالتَيْن مقالةٌ واهيةٌ وحُجّةٌ داحضةٌ، أمام عظيم الأمر، وهو الإيمان بالله تعالى وكتابه الَّذي أنزل؛ إذ إنَّ كلتا الحُجَّتين يشوبُهُما هوى النَّفس، وتصدران عن الكبر الَّذي في صدورهم.

التَّرقِّي والتَّدرُّجُ في الاعتلال:

التَّخييرُ في الآية يكشفُ عن أهواء الأنفس والكِبْر الَّذي في صدورهم

قوله: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، جاء بعد قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، وهذا ترقٍّ في الاعتلال في القول، جاء على ما تُكِنُّه نفوس العرب من شفوفهم بأنفسهم على بقيَّة الأمم، وتطلُّعهم إلى معالي الأمور، وإدلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحِدَّة أذهانهم وسرعة تلقِّيهم، هم أخلقاء بذلك كلِّه[1]، وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم، وإيقاظ لأفهامهم أن يغتبطوا بالقرآن، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشَّرف بين الأمم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: 10]، وقد كان الَّذين اتَّبعوا القرآن أهدى من اليهود والنَّصارى ببون بعيد الدَّرجات[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة في قولهم: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ﴾:

ومعنى قوله: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.

﴿مِنۡهُمۡۚ﴾، مُفسِّرٌ للأوَّل في أنَّ معناه: لئلَّا يقولوا ويحتجُّوا بذلك[1]، وقد أفاد هذا الشَّرط الانتقال من الإخبار - لحصر إنزال الكتاب على غيرهم، وأنَّه لم ينزل عليهم - إلى الإخبار بحكم على تقدير (والكتاب)، يجوز أن يراد به الكتاب السَّابق ذكره، ويجوز أن يراد الكتاب الَّذي تمنَّوْا أن ينزل عليهم[2].

الإيمانُ لا يقبلُ الافتراضاتِ المشروطةَ، وإنَّما هو تصديقٌ وعملٌ

بلاغةُ العدولِ عن الفعليّة إلى الاسميّة:

دلالةُ الثُّبوتِ على اليقينِ في النَّفسِ وانشراحِ الصَّدرِ للإيمانِ

ذكَرَ القرآن على ألسنة المشركين أنّهم قالوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ بالصيغة الاسميّة، ولم يقولوا بالصيغة الفعليّة: لو أُنزِلَ علينا؛ ذلك لأنّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثَّبات على خلاف الجملة الفعليَّة الَّتي تدلُّ على التَّغيير مع الزَّمن، وبلاغة ذلك أنَّهم قد وثَّقوا ادِّعاءهم، ووكَّدوا قولهم، بالجملة الاسميَّة، ومؤكِّدات عديدة، أنَّهم سيكونون أهدى من اليهود والنَّصارى، لو أنَّهم أُنزل الكتاب عليهم.

نكتةُ إسنادِ الإنزالِ إلى المبني للمفعول: ﴿أُنزِلَ﴾:

خالقُ الكونِ والإنسانِ ومنزِّلِ القرآنِ، هو اللهُ تعالى وحده لا شريك له

جاء فعلُ الإنزال ﴿أُنزِلَ﴾ بصيغة ما لم يُسَمَّ فاعله لأنَّ المُنزِلَ معلوم، وهو الله سبحانه، بمعنى: لوْ أنزلَ الله علينا الكتابَ، ولا ينصرفُ الذّهن إلى غيره، وأمثلته في القرآن كثيرة، منها قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾ [المرسلات: 8 - 10]، فهذه الأفعال وأشباهها لم تُسنَدْ إلى الفاعل لأنّ الفاعل معلومٌ من السّياق، ولا ينصرفُ الذّهنُ إلا إليه سبحانه؛ إذ لا يقدرُ أحدٌ غيره على ذلك.

بلاغةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تخصيصُ قومٍ بالكتاب لحكمةٍ لا يعلمُها إلَّا اللهُ سبحانه

جاء في جملة ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ للتَّخصيص؛ إذ المعنى لو أنَّ الله خصَّنا بالكتاب دونهم؛

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/6.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/257.

لكُنَّا أهدى منهم، وهذا من قبيل الأماني على الله؛ لذلك فقد جاءهم الرَّدُّ الحاسم، بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: جاءكم الكتاب، وهو القرآن، واضحًا بيّنًا، فما الَّذي يمنعكم من الهداية، أو من أن تكونوا أهدى النَّاس.

معنى (الـ) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾:

(الـ) التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للجنس، أي: جنس الكتاب الَّذي هو كناية عن الرِّسالة القادمة من الله تعالى، لما فيها من الحفاوة والشَّرف العظيم، ولذلك قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزّخرف: 31]، فقد كانت نفوسُهم تتشوَّف إلى ذلك الشَّرف طلبًا له ولكرامته.

الكتابُ هو القرآنُ الكريمُ الَّذي بشَّرت بهِ الرِّسالاتُ السَّابقةُ

معنى اللَّامِ في ﴿لَكُنَّآ﴾:

اللَّام في ﴿لَكُنَّآ﴾ في قوله تعالى ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ هي للتَّوكيد، وفائدة التَّوكيد محاولة إثبات المتكلّمين صدقهم فيما يدَّعونه، وتأكيد الاتِّصاف بالهداية في الزَّمن الماضي، بل تأكيد كونهم أهدى من اليهود والنَّصارى، ويعكس التَّوكيد ما في نفوسهم من تناقضات واختلافات، فتفضح شكوكهم وضعف قناعاتهم.

التَّوكيداتُ في كلامِ المعارضينَ كَشْفٌ لخبايا النَّفس وتناقضاتها

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل (كان) في صيغة المُضِيّ:

(كان): فعل ماضٍ ناقص غير أنَّ (كان) لا تختصُّ بالماضي فقط، بل قد تكون لغيره، وأبرز معانيها الماضي المنقطع، وهي في قولهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ تُفيدُ ذلك؛ إذ أرادوا بيان اتِّصافهم بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، وهي هُنا لاتِّصافهم بالهداية أكثر من اليهود والنَّصارى، فوصفوا أنفسهم بأفضل أوصاف المُهتدين بالكتاب.

يُستَخدَمُ غالبًا أُسلوبُ الماضي المنقطع في وصف الأماني التي لا تتحقَّقُ

نكتةُ استعمال صيغة ﴿أَهْدَىٰ﴾:

صيغة ﴿أَهْدَىٰ﴾ صيغةُ مبالغة، ومعنى ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: أرشد

الهداية نورٌ يُقذف في القلب، لا تتأتّى بالأماني وأهواءِ النُّفوس

وأسرع اهتداء من الطّائفتين، لكونه نزل علينا بلساننا، فنحن نتفهَّمه ونتدبَّره، وندرك ما تضمَّنه من غير إكداد فكر، ولا تعلّم لسان، على خلاف الكتاب الَّذي أنزل على الطَّائفتين، فإنَّه بغير لساننا، فنحن لا نعرفه ونَغْفُلُ عن دراسته، أو أهدى منهم لكون اليهود والنَّصارى، قد افترقت فرقًا متباينة، فلا نعرف الحقَّ من الباطل[1].

عودُ الضَّميرِ وغرضُ الإضمارِ في ﴿مِنۡهُمۡۚ﴾:

العربُ هم مَعْقِدُ التَّحدِّي بالقرآن، لِما وصلوا إليه من الرُّقيِّ اللُّغويِّ

قوله: ﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، أي: من الأمم قبلهم الَّذين أنزل عليهم الكتب، والجمع هنا باعتبار الفرقة والطَّائفة[2]، قال قتادة: يعني بالطَّائفتين اليهود والنَّصارى، وقال: يعني بالدِّراسة التِّلاوة، ثمَّ قال تعالى: ﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، أي: أفهم وأوعى منهم، لأنَّهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم، وهم أمِّيُّون[3]، والمعنى العام: إذ لدينا من القُدُرات اللُّغويَّة، ما تؤهِّلنا إلى أن نكون أهدى النَّاس، وهذا ما أكَّده الواقع عندما نزل عليهم القرآن، فكانوا أكثر النَّاس فهمًا له، وكانوا هم ميدان التَّحدِّي من جانب القرآن.

بلاغةُ المؤكِّداتِ في الجملة الشَّرطيَّة ﴿لَوۡ أَنَّآ﴾:

عدمُ القناعاتِ الدَّاخليَّة، تتجلّى في تأكيداتٍ وتبريرات متواليَةٍ

تعدَّدَتِ المؤكِّداتُ في الجملة الشَّرطيَّة في قوله: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، حيث نجد التَّوكيد بـ (أنَّ)، والضَّمير (نا)، ولام التَّوكيد، في ﴿لَكُنَّآ﴾ وصيغة المُبالغة في ﴿أَهۡدَىٰ﴾، فتعدُّد المؤكِّدات هنا، يدلُّ على عدم القناعة الذَّاتيَّة لدى المتكلِّمين أنفسهم بما يقولون، فاحتاجوا إلى طمأنة ذواتهم وإثبات ما يقولون إلى تلك المؤكِّدات.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/257.
(2) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/427.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 2/521.

الإيجازُ بحذف الشَّرط:

تنزُّل القرآنِ الكريمِ يكشف عن الصِّدق من الزَّيف

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو جوابٌ لشرط محذوف، يدُلُّ عليه المقام، والمعنى: إنْ صدقتكم فيما كنتم تعِدُّون من أنفسكم، فقد جاءكم بيِّنة من ربِّكم، فحذف الشَّرط، وهو من أحاسن الحذف وأبلغه.

ومن أهل التّفسير من يرى أنَّ الفاء في الفعل ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ هي الفصيحة، أي: الفاء التي تُفصِحُ عن كلام محذوف قبلها، ويؤولُ الكلامُ إلى معنى واحد مُفاده: إذا كنتم تَقولون ذلك، ويهجس في نفوسكم؛ فقد جاءكم بيانٌ من ربِّكم، يعني: القرآن، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب[1]، والجملة بلفظ التَّعنيف جواب شرط جازم محذوف، مقترن بالفاء، في محلِّ جزم، وجاء التَّبكيت عليهم؛ لأنَّهم كانوا قد اشترطوا لإيمانهم.

غرضُ التَّحقيقِ بـ ﴿فَقَدْ﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على مشركي العرب وقطع احتجاجهم

ودَوْرُ (قَدْ) في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو تأكيدُ الكلام وتحقيقه، وغرضه إثبات الحُجَّة على الَّذين يجادلون، ويُحاجُّون، فقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تبكيت لهم[2]، وقد أطبق المفسِّرون على أنَّ الغرض بهذه الجملة إقامة الحجَّة، على مشركي العرب وقطع احتجاجهم[3].

نكتةُ إسنادِ المجيء إلى البيِّنة:

مجيءُ البيِّنةِ هو فضلُ الله لهداية البشر

قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، أي: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيٌّ مبين، حجَّة عليكم واضحة بيِّنة من ربِّكم[4]، فأسند المجيء إلى البيِّنة في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، وهو على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/697.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/243.

سبيل المجاز العقليّ، من الإسناد إلى المفعول؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي آتاكم تلك البيِّنة.

الالتفاتُ بينَ صيغة: ﴿أُنزِلَ﴾ وصيغة ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾:

بمجيءِ بيِّنةِ القرآنِ العجيب قَطَعَتْ جَهيزةُ قولَ كلِّ خطيبٍ

الالتفاتُ من البناء للمفعول ﴿أُنزِلَ﴾، يعكس ما فيه من التَّحسُّر، فبإنزال الكتاب عليهم تحقيق فخر لهم، وهيمنة على ما حولهم من الأمم، لكنَّه كما قالوا: ﴿أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، فالتفت إلى البناء للمعلوم في قوله: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، بشرى لهم بالكرامة الَّتي أصابتهم، فقد جاءهم البيِّنة، وهو الكتاب، وهو القرآن الكريم المُهيمن على الكُتب كلِّها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَيِّنَةٞ﴾ وتقديمها في الذّكر:

البـيِّـنـةُ هي القرآنُ الكريمُ المُعجزُ في بيانه ونظمه وأدلَّته

وتنكير بيِّنة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ﴾ للتَّعظيم، وتقديمها على الهدى والرَّحمة؛ لأنَّها الأصل فيهما، وقد أضاف بيِّنة إلى ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، فقال: ﴿بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ولو عُرِّفت بـ(الـ)؛ لقال: فقد جاءكم البيّنة، كما في سورة البيِّنة: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤﴾ [البيّنة: 4].

البيّنة كنايةٌ عن موصوفٍ هو القرآن في هذه الآية الكريمة:

القرآنُ الكريمُ هو الإعجازُ الَّذي تضمَّنَ الهُدى والرَّحمةَ

قوله: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾، هذا التَّركيب في مجموعه كناية عن موصوف هو القرآن، وقد عُدل من الكناية عن الموصوف إلى الوصف؛ لأنَّ الوصف هو الذي عليه المُعوَّل في الهداية وإقامة الحُجَّة، وهي البيِّنة والهُدى والرَّحمة[1]، والبيِّنة ما به البيان وظهور الحقِّ، فالقرآن بيِّنة على أنَّه من عند اللّه لإعجازه بُلَغاءَ العرب، وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير، وهو رحمة بما جاء فيه من شريعة سمحة لا حرج فيها،

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/357.

فهي مقيمة لصلاح الأمَّة مع التَّيسير، وهذا من أعجب التَّشريع، وهو أدلُّ على أنَّه من أمر العليم بكلِّ شيء[1]، ويتوسَّع المعنى في كناية البيِّنة، في قول ابن عبَّاس: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، أي: حجَّة، وهو النَّبيُّ، والقرآن، والهدى، والبيان، والرَّحمة، والنِّعمة[2].

نكتةُ تنكير لفظي: ﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةٌ﴾:

تمامُ الهدى وغاية الرَّحمة في القرآن

تنكير ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، فلا يحدُّهما تعريف أو وصف، فهذه البنية تحقِّق غاية الهُدى، وهي تمام الرَّحمة من الله تعالى

فائدةُ الجمعِ بين البيِّنة والهدى:

ذكرُ (البيِّنة) توحي بدراسته، وذكر (الهدى) لاشتماله على ما في التَّوراة

أمَّا فائدة الجمع بين البيِّنة والهدى في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ فإنَّ القرآن بيِّنة فيما يعلم سمعًا، وهو هدى فيما يعلم سمعًا وعقلًا، فلمَّا اختلفت الفائدة؛ صحَّ هذا العطف، وقد بيَّنَّا أنَّ معنى رحمة، أي: نعمة في الدِّين[3]، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وتنوينُهما - أيضًا - تفخيميٌّ، عبَّر عن القرآن بالبيِّنة إيذانًا بكمال تمكُّنِهم من دراسته، ثمَّ بالهُدى والرَّحمة تنبيهًا على أنَّه مشتملٌ على ما اشتمل عليه التَّوراةُ من هداية النَّاس ورحمتِهم، بل هو عينُ الهداية والرَّحمة[4].

التَّفريعُ في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

من أعرضَ عن الحقِّ بعد الدَّليل؛ فهو من أظلمَ النَّاس عند الجليل

تفرَّع عن هذا الإعذار لهم الإخبارُ عنهم بأنَّهم لا أظلم منهم؛ لأنَّهم كذَّبوا وأعرضوا؛ فالفاء في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للتَّفريع، وقد كشف بذلك عن زيف الادِّعاء في طلب الإيمان، فقد جاءهم كتابٌ بيِّنٌ بلُغتهم، وهم أرباب الفصاحة، وأهل البيان وأجدرُ النّاس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(2) ابن الجَوزيّ، زاد المسير: 2/95.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/187.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.

بمعرفة أنَّ هذا القرآن، هو كتاب اللّه، وما هو بقول بشر، ولا بقول كاهن أو ساحر، لكنَّهم أعرضوا عنه، فكانوا بذلك أظلم النَّاس وأجحدهم موقفًا.

سرُّ مجيءِ لفظة الرَّبِّ ونكتةُ الإضافة:

جاءتْ لفظةُ (رَبِّكُم) لتقريبِ الهداية والرُّجوع عن المُكابرة

في قوله: ﴿بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، أضاف البيِّنة إلى ربِّهم؛ تعريفًا بكونها من أعظم البيِّنات، وجاء بلفظ (الرَّبِّ) تقريبًا للهداية إليهم، وقوله: ﴿رَّبِّكُمۡ﴾، مناسبة لمقتضى حال المُخاطبين؛ إذ إنَّهم لمَّا قالوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، وقالوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، يريدون القول بأنَّ الكتاب لم يُنزَّل علينا؛ فقولهم هذا صادر عن نفوس تتباعد عن مصدر التَّنزيل والتَّشريع، فجاءهم الخطاب هنا مُطمئنًا لهم: أنَّ ربَّهم هو الَّذي أنزل عليهم القرآن، وهو بيِّنة من ربِّهم، والخطاب مُداراة للنُّفوس، وتطمينٌ لها، وشدُّها إلى الإيمان.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ ودلالته في قوله ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

أظلمُ النَّاسِ من جاءتهم الآيات البيِّناتُ، ثمَّ جحدوها وأنكروها

الاستفهام في قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا أحد أظلم من الَّذين كذَّبوا بآيات اللّه[1]، بعد ما عرفوا صحَّتها وصدقها، أو تمكَّنوا من معرفة ذلك ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ النَّاس فضلُّوا وأضلُّوا، ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾[2]، وهو من قبيل الإنكار التَّوبيخيِّ، وهو يكون على فعلٍ قد وقع، بمعنى: ما كان ينبغي أن يكون، ومنه قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿أَظۡلَمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وقد تكرَّرتْ صيغةُ أفعل التَّفضيل ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ في القرآن الكريم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.

مرَّات كثيرة؛ وقد جاءت وصفًا في جميع آياتها لموصوف واحد هم المشركون؛ لأنَّهم أظلم الظَّالمين[1]، ويدلُّ اسم التَّفضيل على الزِّيادة في أصل الفعل غالبًا، وهو في الآية الكريمة كذلك، فالظُّلم هنا يشمل ظلم نفوسهم، فقد كذَّبوا الرَّسول ﷺ، وما هو بأهل للتَّكذيب، وكذَّبوا بآيات الله، وهي آياتٌ بيِّنات واضحاتٌ جليّاتٌ، وصدُّوا عن سبيله، وهو السَّبيل الوحيد الموصل إلى الهداية، فمجموع ذلك كلِّه زيادة في أصل الفعل من الكفر والتَّكذيب.

المشركون أظلمُ النَّاس؛ لأنَّهم بالغوا في ظلمِهم، وزادوا فيه

بلاغةُ استعمال الاسم الموصول في ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾:

وقوله ﷻ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾، و(مَن) الأولى استفهاميَّة، والثَّانية موصولة[2]، وقد جيء باسم الموصول لتدلَّ الصِّلة على تعليل الحكم، ووجه بناء الخبر؛ لأنَّ من ثبَت له مضمون تلك الصِّلة، كان حقيقًا بأنَّه لا أظلم منه[3]، فقد بالغوا في ممارستهم أنواع الظُّلم كِبْرًا وعُتُوًّا، وبين (مَن) الأولى و(مَن) الثَّانية: جناسٌ تامٌّ، فتوافق معنى الظُّلم التَّامِّ مع الجناس التَّامِّ.

الكِبْرُ هو سبب العتوِّ والصَّدِّ عن سبيل الله

المبالغةُ في الذَّمِّ من خلال قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

في قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ مبالغة في الذَّمِّ، حيث كذّب الظالم بآيات الله، وجعل غيره يعرض عنها، ويكذّب بها[4]، فكان الجزاء من جنس العمل، فكما أنَّهم بالغوا في ظلمهم، فقد جاء الجزاء بالمبالغة في ذمِّهم؛ إذ إنَّهم لم يكتفوا بالإعراض، وإنَّما حثُّوا النَّاس على ذلك، ومنعوا النَّاس من الهداية.

جاء وصفُهم بالمبالغة في بالظّلم لمبالغتهم في التّكذيب

سرُّ التَّضعيفِ في لفظ ﴿كَذَّبَ﴾:

الجمهورُ على تشديد الذَّال في ﴿كَذَّبَ﴾، وقرئ: بتخفيفها على

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/697.

تضمين كَذَبَ معنى: كَفَرَ؛ لأنَّ معنى: كَذَبَ بالشَّيء، وكفر به سواء، ويحملنا على هذا التَّضمين إتيان الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾، أي: وأعرض عنها، والمعنى: لا أحد أظلم ممَّن كذَّب بآيات الله، بعدما عرف صحَّتها وصدقها، أو تمكَّن من معرفة ذلك، وأعرض عنها من غير استدلال ولا تفكُّر(1).

التَّكذيبُ بآياتِ الله؛ هو اتِّباعُ سُبُلِ غيرِ سبيلِ الله

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

المكذِّبونَ عايشوا الآياتِ الَّتي من عندِ الله، ثمَّ أنكروها

عمومُ معنى الباء هو: الإلصاق؛ وفائدتها: معرفة أنَّ تكذيب المُكذِّبين بآيات الله، كان بعد تماسٍّ مباشر مع تلك الآيات، ومعرفة حقائقها، وألَّا شكَّ فيها ولا مراء، فقد علموا من خلال ما أوتوا من البيان والفصاحة: أنَّه كتاب الله، وأنَّ تلك الآيات ليست من عند بشر.

نُكْتَةُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الجلالة:

آياتُ اللهِ هي سبيلُ الله الَّذي يحقِّق الاستقامةَ لمتَّبعيه

فائدةُ إضافةِ الآيات إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هو بيانُ عظيم شأنها، وأنَّها الآيات الَّتي لا يمكن أن تُنكَر، ولا يمكن أن تُعارَض، فلن يستطيع مخلوق أن يأتي بما يعارض آيات الله الخالق لكلِّ شيء، فيكون أيضًا في الآية تيئيس من إيمان هؤلاء المكذِّبين لآيات الله؛ أي: أنَّهم لن يؤمنوا لانصرافهم عن تلك الآيات، والصَّدِّ عنها، مع علمهم أنَّها آيات الله.

الالتفاتُ في قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

إسقاطُ المشركين عن رتبةِ الخطابِ لما اقترفوه مِنَ الظُّلم

قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد من الموصول في قوله ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾ أولئك المخاطبون، ووضع موضع ضميرهم بطريق الالتفات، حيث التفت من الخطاب إلى الغيبة تنصيصًا على اتِّصافهم بما في حيِّز الصِّلة، وإشعارًا بعلَّة الحكم، وإسقاطًا لهم عن رتبة الخطاب، وعبَّر عمَّا جاءهم بآيات الله تعالى تهويلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.

للأمر[1]، وتنبيهًا على أنَّ تكذيبَ أيّ آيةٍ كانت من آياتِ اللّه تعالى كافٍ في الأظلميَّة، فما ظنُّك بتكذيب القرآن المنطوي على الكلِّ، والمعنى: إنكارُ أن يكون أحدٌ أظلم ممَّن فعل ذلك، أو مساويًا له[2].

يتكاثرُ المُعرِضون عنِ الإيمانِ في الأزمنة والأمكنة، ثُمَّ تجمعُهم عقوبةٌ واحدةٌ

بلاغةُ العدول من الإفراد إلى الجمع في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

لَمَّا ذكر ظلم النَّفس في تكذيب آيات اللّه ذكرها بالإفراد مُخاطبًا النَّفس ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾، وكأنَّه خطابٌ موجَّهٌ إلى نفس كلِّ واحدٍ من أولئك الَّذين كذَّبوا بآيات اللّه، اهتمامًا بكلِّ نفسٍ، وطلبًا للرُّجوع عن هذا الظُّلم، فلمَّا انتقل إلى مشهد الجزاء؛ جمع أولئك الَّذين كانوا يُكذِّبون، وجعلهم في مشهد واحد، وجزاءٍ واحدٍ، وعقوبة واحدة، فهم مشتركون جميعًا في جريمة واحدة، وستكون عقوبتهم كذلك واحدة.

الظّلم والأفعال المنكرة سببٌ في تجدّد الإصرار على المَعصيَة

فعليَّة جملة ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ ودلالةُ الالتفات:

جاءت جملة صلة الموصول فعلًا مضارعًا؛ لتدلَّ على إصرار المشركين، وتجدُّد ذلك الإصرار والإعراض والتَّكذيب، وصدِّهم عن سبيل اللّه، فالتفت من الماضي (صدف) إلى المُضارع يصدفون، وكذلك عدل عن المفرد إلى الجمع، للدلالة على الجزاء الواحد، والعقوبة الثَّابتة لكلِّ فرد من أفراد الَّذين يصدفون عن آيات اللّه تعالى.

تعظيمُ شأنِ الآيات في القرآنِ تهذيبٌ للنُّفوس، وتربيَةٌ لها

بلاغةُ الإضمارِ بعد الإظهارِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

بعد أن ذكر لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أضمر في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ إيجازًا، فالتفت من ذكر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى صيغة المُتكلِّمين، فجاء بضمير الجمع تعظيمًا لتلك الآيات، وما في ذلك من تهذيب نفوس المؤمنين على تعظيم القرآن الكريم والرِّسالة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202، والآلوسّي، روح المعاني: 4/304.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.

النَّبويَّة، ثمَّ إنَّ دلالة هذا الحضور ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ في سياق قوله: ﴿سَنَجۡزِى ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾، غاية الوعيد بأشدِّ العذاب، فناسب ذلك قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

نكتةُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ في قوله ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾:

السُّوءُ والعذابُ معنيان مُتراكِبان، وذلك أسوأُ وعيدٍ للمُكذِّبين

في المركّب الإضافي ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، جاء لفظ ﴿سُوٓءَ﴾ مضافًا إلى الموصوف ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ الصِّفة تضمَّنت معنًى ليس في الموصوف، فصحَّت الإضافة للمغايرة[1]، فتكون النُّكتة البلاغيَّة في الإضافة تراكب معنيين: هما السُّوء والعذاب معًا، والمعنى المُستحصَل من تلك الإضافة: أنَّ العذاب الَّذي سيلاقونه، هو أسوأ ما يلاقيه ظالم على ظلمه يوم القيامة.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

(العذاب) في الآيةِ أريدَ به جنسُ العذابِ الشَّاملِ لأصنافه

(الـ) في لفظ العذاب في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ للتَّعظيم ولاستغراق كلِّ أصناف العذاب، فأفعالهم هي أفعال أظلم النَّاس في هذه الحياة، وهو تكذيبهم بآيات الله والصَّدُّ عنها.

الذِّكرُ في موضع الإضمار توكيدًا:

تكرارُ العبارة يُفهِمُ أنَّ الأمر لا مردَّ له، وأنَّه آتٍ لا محالة

كرَّر قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ وهو موضع إضمارٍ؛ لأنَّه سبق أن ذكر العبارة نفسها، فقال: ﴿سَنَجۡزِى ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، ففُهِمَ من الآية أنَّهم سيُجزون بما كانوا يصدفون، لكنَّه ذكرها توكيدًا؛ إذ يُفهم من هذا التَّكرار أنَّ هذا العذاب واقع بهم لا محالة.

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

جزاءُ المشركين من جنس عملهم، وبسبب ما اختاروا لأنفسهم

في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾، الباء للسَّببيَّة، أي: بسبب ما كانوا يصدفون، فلا يُجزون إلَّا بما سوَّلت لهم أنفسهم، واقترفت أيديهم، وأنَّه سبحانه، مهما أذاقهم من سوء العذاب، فإنَّ ذلك

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/27.

من استحقاقهم، فقد جاءهم النَّذير من قبل، والخطاب الإلهيُّ والتَّحذير النَّبويُّ، فلمَّا أعرضوا؛ أصابهم العذاب.

دلالةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

(ما) اسم موصول بمعنى: (الذي) وهو لغير العاقل، أي: بالذي كانوا يصدفون وهو الإعراض والصَّدُّ عن سبيل اللّه، فيكون جزاؤهم بمثل أعمالهم المقصودة في الآية، وهي الصُّدوف عن الحقِّ، والإعراض عن صراط اللّه المستقيم، إذ سلكوا سُبُل الباطل، فتفرَّقت بهم عن سبيل اللّه.

أعرضُوا لسلوكِهم سُبُلَ الباطلِ وتركِهم صراطَ اللهِ المستقيمَ

دلالةُ (كان) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

الفعل الماضي النَّاقص (كان) في قوله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ دالٌّ على قدم ما هم فيه من حالة التَّكذيب، و(كان) تفيد هنا الاتِّصاف بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، فقد ثبت عليهم إعراضُهم وإصرارهم وإنكارهم، فاستحقُّوا الجزاء الموصوف بسوء العذاب.

ثَـبَـتَ عليهم الإعراضُ والإصرارُ، فاستحقُّوا سوءَ العذاب في النَّار

نكتةُ حذفِ مُتَعَلّقِ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾:

﴿يَصۡدِفُونَ﴾ فعل مضارع متجدِّد مع الزَّمن؛ لأنَّهم مستمرُّون في تكذيبهم لآيات اللّه، وقد حُذف مُتَعَلِّقُ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ للإيجاز، ولعدم التَّكرار، فقد سبق أن ذكر المعنى بقوله: ﴿سَنَجۡزِى ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾، فاكتفى في الثَّانية إيجازًا، بعدم ذكر متعلِّق الفعل.

محورُ الكتابِ والآياتِ: الإيمانُ والتَّكذيبُ بالرِّسالاتِ

الالتفاتُ منَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿سَنَجۡزِى﴾:

الالتفات من ذكر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى ضمير الجمع ﴿سَنَجۡزِى﴾، فائدته مواجهة المشركين المكذّبين بتكذيبهم لينزجروا ويتوبوا إلى اللّه تعالى ويعودوا إلى رشدهم، وتبصيرهم بأنّهم يتجاسرون على تكذيب آياتنا والإعراض عنها، وسنجزيهم على ذلك كلّه.

يكون الجزاءُ بإحضار المشركين يومَ القيامة لينالوا ما يستحقُّون

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإعراض) و(الصَّدّ) و(الصُّدوف):

الإعراضُ: الإدبارُ، والصَّدُّ: الانصرافُ، أمَّا الصُّدوفُ؛ فأشدُّ الصَّدِّ والإعراضِ

الإعراضُ عن الشَّيء، بمعنى: الإدبار عنه، فإن قيل: أَعْرَضَ عنِّي، فمعناهُ: ولَّى مُبْدِيًا عَرْضَهُ، قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [السجدة: 22]، وقال: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: 32][1]، ويُقالُ: أعرَض فُلانٌ، أَي: ذهَب عرْضًا وطُولًا[2]، وأمَّا الصَّدُّ والصُّدود فقد يكون انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3]، وأمَّا الصَّدْف والصُّدوفُ فمن الفعل "صدف عنه، أي: أعرض إعراضًا شديدًا، يجري مجرى الصَّلابة، كصدف الجبل، أي: جانبه، أو الصَّدف الَّذي يخرج من البحر"[4].

ممَّا سبق: يَتبيَّن أنَّ الصَّدْف والصُّدوف هو أشدُّ الصَّدِّ والإعراض، ولذلك قال تعالى: ﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ إذ لا يستحقُّ سوء العذاب إلَّا من اتَّصف بصفة الصَّدْف عن الآيات بإعراضه الشَّديد المُتَّصل أمام الحقِّ.

(الآية) و(البيِّنة):

الآيةُ: المُعجِزةُ الدَّالَّةُ على صِدقِ المُرسَلِ، والبيِّنةُ: الدَّليلُ مع وضوحٍ

الآية: هي المعجزة، وهي ما يدلُّ على تصديق الله تعالى للمدَّعي، في دعواه الرِّسالة[5]، والبيِّنة: الحُجَّة والبيان: والبَيِّنُ من الرِّجال: الفَصيحُ، وجاء ببيان ذلك وبَيِّنته، أي: بحجَّته، ورجل بيِّنٌ: فصيح ذو بيان[6]. قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]،

(1) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: (عرض).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(5) فضل عبّاس، إعجاز القرآن الكريم، ص: 20.
(6) الخليل، العين: (بين).

وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42]، وقال: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الروم: 9]. ويقال: آية مُبَيَّنَة؛ اعتبارًا بمن بيَّنها، وآية مُبَيِّنَة؛ اعتبارًا بنفسها، وآيات مبيَّنات ومبيِّنات[1]، فتأتي عادة الآية موصوفة بالبيان، أي: بالوضوح، فقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 29]. فاختار البيِّنة في الآية الكريمة؛ لأنَّها تشمل البيان والوضوح والدَّليل والمُعجزة، وذلك كناية عن القرآن الكريم.

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَنْ كفرَ باللهِ، ولم يؤمنْ بالبعثِ، لا ينفعُه الإيمانُ بعد فواتِ الأوانِ

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ إقامةَ الحجَّةِ على الظَّالمين، بإنزالِ القرآنِ، وأنَّ في ذلك دفعًا لتعلُّلهم بعدمِ إنزالِ كتابٍ عليهم، كما أُنزلَ على السَّابقين، وأنَّهم بعدَ نزولِ القرآنِ هدًى ورحمةً كذَّبوا به، بل صَدَفُوا عن آياتِه؛ جاءَ الإنذارُ الشَّديدُ لهُم بتوجيهِ سُؤالٍ غرضُه: بيانُ حالِهم الَّذي هم عليه، من عدمِ الاكتراثِ بالذِّكرِ، وعدمِ إيمانِهم بالبعثِ، وإشعارٌ بأنَّ الكفرَ إن طغى على قلبِ صاحبِه، فإنَّ اليأسَ من إيمانِه هو الأظهرُ، وتوطئةٌ لبيانِ حالِ المفرِّقين دينَهم بسببِ أهوائهم واتِّباعِ شهواتهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، والنَّظرُ على قسمين: بصريٍّ وقلبيٍّ، والأصل فيه: "تأمُّل الشَّيء ومعاينتُه، ثمَّ يُستعار، ويُتَّسع فيه"[1]، و"النَّظر: تقليبُ البصر والبصيرة، لإدراك الشَّيء ورؤيته، وقد يرادُ به التأمُّل والفَحْصُ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحص، وهو الرويَّة، يقال: نظرتَ فلم تنظر، أي: لم تتأمَّل، ولم تتروَّ"[2]، ومعنى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينتظر هؤلاء المخاطَبون مجيءَ الملائكةِ للعذابِ، أو لقبض الأرواح.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نظر).

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: "يقال: كَسَبتُ الشَّيءَ أكسِبهُ كَسْبًا، واكتسبتُه اكتسابًا، ويقال: كَسَبْتُ الرَّجلَ مالًا، فكَسَبه"[1]، وهو يدلُّ "عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ"[2]، ومعناه: طلبُ الرِّزقِ عمومًا[3]، ومن معانيه: "ما يتحرَّاه الإنسان ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال. وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسان أنَّه يَجْلِبُ منفعةً، ثمَّ استُجلِبَ به مضرَّةٌ"[4]، والمقصودُ به في الآيةِ ما يَكْسِبُه الإنسانُ من الإيمانِ، وعمل الصَّالحات.

3) ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾: فعلٌ طلبيٌّ دالٌّ على الأمر، جذره: (نَظَرَ)، والنَّظرُ يأتي معناه مساويًا للانتظارِ، فنظرْتُ فلانًا، وانتظرْتُه بمعنًى واحد[5]، وجعل النَّظر بمعنى الانتظار، "كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه"[6]، فالانتظار: التَّربُّص، ومعنى ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، "أي: انتظروا ما تتربَّصون به من ظهوركم علينا على زعمكم، إنَّا منتظرون ما وعدنا ربُّكم من نصره"[7]، فهو بمنزلة التَّهديد والوعيد على الانتظار والإمهال، أو على التَّريُّث والتَّأخُّر في دخولهم الإسلام، حتَّى يأتيهم العذاب[8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

ماذا ينتظرُ المكذِّبُ والمعرِضُ غيرَ ملائكةِ العذابِ أو الموتِ

ابتدأتِ الآيةُ بسؤالٍ إنكاريٍّ، مشوبٍ بوعيدٍ وتهكُّم، مترتِّبٍ على تكذيبِهم وصدِّهم عن آياتِ اللهِ، وإعراضهم عنها، فماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن تأتيَهم الملائكةُ بالعذابِ أو بالموتِ، فَتَقْبِضَ أرواحَهم،

(1) ابن دريد الأزديُّ: (كسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (نظر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نظر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

أو أنْ يأتيَهم "بعضُ آيات الله قبل قيام السَّاعة، وهي الآياتُ الموجبةُ للإيمان الاضطراريِّ، حين يرون شيئًا من أشراط السَّاعة"[1]، أو أنْ يأتيَهم ربُّك للفَصْلِ بين خلقِه في موقفِ القيامة، فلا ينفعُ نفسًا لم تكن آمنتْ من قبلُ، أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيرًا، ثمَّ عقَّبه بأمرِهم بأن ينتظروا، ليروا لمن تكونُ لهُ العاقبةُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية الكريمة:

للمُعرِضِ عن آياتِ الله التَّهديدُ والوعيدُ، وللمكذِّبِ التَّهكُّم والاستهزاء

تقع هذه الآية موقعًا بلاغيًّا، فهي استئنافٌ بيانيٌّ، إمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِه تعالى: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهديد والوعيد، فكأنَّ سائلًا يسأل عن موعدِ جزائِهم، فكانَ الجوابُ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وإمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهكُّمُ والاستهزاء؛ لِأَنَّهُ يُثِيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ: (مَاذَا كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ مِنَ الْآيَاتِ فَوْقَ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ)؟ فكانَ الجوابُ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، وهل كان تطلُّعهم إلى آيات أعظم ممَّا في وهمهم؟

والصَّحيحُ أنَّ بلاغةَ الاستئنافِ البيانيِّ، تقضي بأن يكونَ المعنيان مُرادَيْن، فالتَّهديد والوعيدُ متناسبٌ مع سياَقِ الكلام، وكذلك التَّهكُّم بحال من جاءَتْه الآياتُ، ولا ينتظرُ إلَّا وقوعَ العذابِ، وهذا من بديعِ التَّنوُّع في الاستئنافِ البيانيِّ.

غرضُ الاستفهامِ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

خرجَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ

---

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 948.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.

﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، إلى معنى النَّفي[1]؛ ليُؤذِنَ بالتَّبكيت[2] والتَّوبيخ والتَّقريعِ والتَّهديدِ، جزاءً وفاقًا؛ فإنَّهم لن ينظروا إلَّا ما سيأتيهم جزاءَ تكذيبِهم وإعراضِهم وتماديهم، واستحكامِ الغفلَةِ على عقولِهم.

دلالةُ الاستفهامِ على التَّبكيتِ والتَّهديدِ

نكتةُ العدولِ عن حرفِ النَّفي إلى حرفِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، التَّعبيرُ بحرفِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾ الَّتي تخرجُ للنَّفي معَ الاستثناءِ، يحقِّقُ القَصْرَ، ويفيدُ الاستفهامَ الإنكاريَّ[3]، وهوَ أبلغُ منْ طريقةِ النَّفي المحضِ معَ الاستثناءِ؛ لِما في الاستفهامِ منْ ملمحِ التَّوبيخِ والإنكارِ.

خروجُ (هل) للنَّفي مع الاستثناءِ تلميحٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِهِ: ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءةِ ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقرَأَ حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بالياءِ ﴿يَأۡتِيَهُمُ﴾ تذكيرًا، وقرأ الباقون بالتَّاء[4] تأنيثًا، ومن حيثُ جوازُ القراءةِ لغةً، فكلاهما جائزٌ، فالملائكةُ جمعُ تكسيرٍ، ويجوزُ في فعلِه التَّذكيرُ والتَّأنيث[5]، لكن على قراءةِ التَّاء فهي على تقديرِ جماعة الملائكة، وعلى قراءةِ الياءِ فهي على تقدير جمعِ الملائكة[6].

سرُّ قراءةِ التَّذكيرِ باعتبارِ الجمعِ، والتَّأنيثِ باعتبار الجماعةِ

نكتةُ أسلوب القَصْرِ:

لَمَّا خرَجَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عن معناه الحقيقيِّ إلى النَّفي؛ عومِلَ معاملةَ النَّفي في لازمِ المعنى والنَّظم، ففيهِ تحقيقٌ للقصرِ بالنَّفي والاستثناء، ونكتتُه: الكشفُ عن حقيقةِ حالِ المُشركين، وأنَّهم لم يكونوا ينتظرون شيئًا

بيانُ ضَعفِ عقولِ المشركين في تصوُّرِهم لعذابِ الله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178.
(2) التَّبكيت: استقبالُك المرءَ بما يكرَه من ذمٍّ وتقريعٍ وتوبيخٍ. يُنظر: الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: 1/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(4) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر: 205، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/266.
(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع، ص: 109، ومحيسن، الهادي شرح طيبة النّشر: 2/225.
(6) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 277.

بعد آياتِ اللّهِ إلّا الآياتِ الّتي سألوها، وعلّقوا إيمانَهم بأن يُجاء لهم بِها[1].

القَصْرُ بحسبِ الحقيقةِ والمجازِ في الآيةِ الكريمة:

والقصرُ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ حقيقيًّا؛ لأنَّ عامَّتهم ينتظرونَ مجيءَ الآياتِ انتظارًا حقيقيًّا، ويحملونه على محمل الجدِّ. ويَحتملُ أن يكونَ مجازيًّا، غرضُه الاستهزاءُ والتهكُّمُ من قادتِهم ورؤوسِ الضَّلالةِ فيهم[2]، والمعنيانِ مُرادان على اعتبارِ أنَّ الانتظارَ الحقيقيَّ، يدلُّ على غفلتهم الّتي تدعو إلى التَّهكُّم بِهم.

من بديع بيانِ القرآنِ ائتلافُ الحقيقةِ والمجازِ في تجليَةِ المعنى

نكتةُ العُدُولِ عن (ينتظرون) إلى ﴿يَنظُرُونَ﴾:

عَدلَ النَّظمُ عنِ التَّعبيرِ بالفعلِ (ينتظرون) إلى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، ونكتةُ ذلك تنزيلُ الانتظارِ منزلةَ النَّظرِ، وما سيأتيهم من العذابِ منزلةَ الرُّؤيةِ العينيَّةِ، وهو أشدُّ وقعًا من الانتظار؛ لأنَّ فيه تجسيدًا وتصويرًا لما ينتظرُه أولئك من مجيءِ العذابِ، وعبَّرَ بالمضارعِ لبيانِ حالِهم الّتي هم عليها من النَّظرِ المُحاطِ بالانتظارِ، وفي ذلك استمرارٌ لعذابِهم النَّفسيِّ وتجدُّدِه، حتَّى مجيءِ ما ينتظرون وقوعَه من موتٍ أو عذابٍ.

غرضُ تصويرِ مشهدِ الانتظارِ وتجسيدِ الحالةِ النَّفسيَّةِ للمنتظِرِ

سرُّ التَّعبيرِ بالمضَارِعِ بدلًا من الاسمِ:

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ لفعلِ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، ولم يُعبِّر بالاسم، فلم يقل: (إتيانُ الملائكة أو إتيانُ اللّهِ...)، وذلك لبيانِ أنَّ الرَّغبةَ بالإتيانِ حدثٌ متجدِّدٌ، ورغبة مستَمِرَّةٌ لديهم، كي يبقى ترقُّبُهم وانتظارُهم الموتَ أو العذابَ قائمًا ومستمرًّا على الدَّوام، وفي ذلك زيادةٌ في العذابِ.

توقُّعُ إتيانِ العذابِ في كلِّ حينٍ عذابٌ متجدِّدٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

أثرُ إسنادِ فعلِ الإتيان إلى لفظِ (الرَّبِّ):

ترهيبُ المشركين من أماراتِ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ

أُسنِدَ الإتيانُ إلى اللهِ ﷻ في قَولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾؛ وذلك تهويلٌ للموقفِ في نفوسِ المخاطَبين، وترهيبٌ من ذلك اليومِ المشهودِ؛ فإنَّ في الجملة الإسناديَّةِ تخويفًا من إتيانِ الرَّبِّ لعذابهم، والتَّعبير بلفظ الرَّبِّ يوحي بالاستيلاء، وينبئ عن أنَّه مالك كلِّ شيء[1].

فائدةُ إضافةِ ضميرِ النُّبوَّةِ إلى اسم الرّبوبيّة:

تأييدٌ وتثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ في مواجهةِ أهل الباطلِ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ (ربُّك)، في ثلاثة مواضعَ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ تأييدًا للرَّسولِ ﷺ، وتثبيتًا له أمام خصومه المُشرِكين؛ إذ كانوا يُفاخِرون بأربابِهم وآلهتِهم؛ فهو أولى أن يعتزَّ بربِّه، ويتثبَّت به[2].

غرضُ إبهامِ علاماتِ القيامةِ:

سرُّ تحريكِ ذهنِ المخاطَبِ بقصدِ التَّرهيبِ والتَّخويفِ

المرادُ من الآيات في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، علاماتُ القيامةِ، ولو وقفتَ على ظاهرِ اللَّفظ؛ لألفيت تعميَةً وإبهامًا للمرادِ، وهو أشراطُ السَّاعةِ من غير تعيينٍ لها، ودون أن يُعيِّنَ من ذلك شرطًا، وغرضُ ذلك تركُ السَّامعِ يتخيَّلُها، فيذهبُ في ذلك التَّخيُّلِ كلَّ مذهبٍ[3]، بقصدِ التَّرهيبِ النَّافعِ والتَّخويفِ الرَّادِعِ.

سرُّ تقديمِ بعضِ الجمل على بعضٍ في الآيةِ الكريمة:

ترتيبُ الجملِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى زيادةٌ في التَّهديدِ

قولُه تعالى: ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، هنا ثلاثُ جُمَلٍ، قدَّم فيها إتيانَ الملائكةِ، ثمَّ وسَّطَ إتيانَ الرَّبِّ، ثمَّ أخَّرَ إتيانَ بعضِ آياته، وسرُّ هذا التَّقديمِ والتَّوسيطِ والتَّأخيرِ، أنَّه من باب التَّرتيبِ التَّصاعديِّ من الأدنى إلى الأعلى في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/309.

(2) الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 8/401.

(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/366، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.

تخويفهم تعزيزًا للوعيدِ، فإنَّ التَّحوُّلَ من الأدنى إلى الأعلى، يفيدُ التَّفخيمَ والتَّهويل.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي﴾:

التَّأخُّرُ عَنِ الإيمانِ وخيمُ العقبى، سيِّئُ المآل

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ آخذًا موقعًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا سيكونُ يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ؟ فالجواب: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، وهذا تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِأَنَّ الانْتِظَارَ وَالتَّرَيُّثَ عَنِ الْإِيمَانِ وَخِيمُ الْعَاقِبَةِ، آيِلٌ صاحبه إلى سوءِ المآل؛ لِأَنَّهُ مُهَدَّدٌ بِمَا يَمْنَعُ مِنَ التَّدَارُكِ عِنْدَ النَّدَامَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ الْمَوْتُ وَالْحِسَابُ، وَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ مَجِيءُ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ - وَهِيَ آيَةُ عَذَابٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، يَخْتَصُّ بِهِمْ - فَيَعْلَمُوا أَنَّهُ عُقُوبَةٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَصَدْفِهِمْ، وَحِينَ يَنْزِلُ ذَلِكَ الْعَذَابُ لَا تَبْقَى فُسْحَةٌ لِتَدَارُكِ مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْزَلَ عَذَابَهُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ، لَمْ يَنْفَعْ عِنْدَهُ استدراكٌ ولا معاذير[1].

بلاغةُ أسلوبِ اللَّفِّ:

بعدَ ظهورِ الآياتِ للبشرِ، لا ينفعُ عذرُ من تابَ واعتذرَ

في جملة ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ "اشتملَ هذا الكلامُ على النَّوعِ المعروفِ من علم البيان والبلاغةِ باللَّفِّ، وأصلُ الكلام: (يوم يأتي بعض آيات ربِّك، لا ينفع نفسًا لم تكن مؤمنةً قبلُ، إيمانُها بعدُ، ولا نفسًا لم تكسب في إيمانها خيرًا قبل، ما تكسبه من الخيرِ بعدُ)، إلَّا أنَّه لفَّ الكلامين، فجعلهما كلامًا واحدًا بلاغةً واختصارًا وإعجازًا، ومبدأ أهل السُّنَّة: لا ينفع بعد ظهورِ الآياتِ اكتسابُ الخير، وإن نفع الإيمانُ المتقدِّم في السَّلامة من الخلود في النَّار"[2]، "ولم يعقِّب عليه بالنَّشرِ؛ لأنَّ المآل واحدٌ، وهو معروفٌ لكليهما"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.

(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/112، ونقلا عن أحمد الإسكندريّ من حاشيّته على الكشّاف: 1/537.

(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/284.

نكتةُ إظهارِ ﴿بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ وتكرارِها في موضعِ إضمارِها:

أهمِّيَّةُ الزِّيادة في البيانِ، وتدعيمُ المعنى وتأمينُهُ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، الجملةُ هنا من بابِ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ، فإنَّ التَّقديرَ يومَ يأتي بعضُها؛ لذكرِها على وجهِ الظَّاهرِ قبلَه بقولِه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، فإنَّه مِن وضْعِ الظَّاهرِ موْضعَ المُضْمَر، وهو من الظَّواهر المُهمَّة في لسانِ العرب، وذلك بأن يَرِد الظَّاهر، ثمَّ يُكرِّره، والمقامُ مقامُ الإضمارِ[1]، والغرضُ من ذلك زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لأنَّ ما بعده معتمدٌ عليه، وهو مجيء الآياتِ القاهرةِ منه تعالى، وما يشتملُه من آياتٍ كطلوعِ الشَّمس من مغربِها ونحوه[2]، فضلًا عمَّا يوقعُه ذكْرُ هذه الآياتِ في النُّفوس من رهبةٍ ووجلٍ، وتحفيز لها على المسارعةِ في الخيرات.

دلالةُ الاحتراسِ في التَّعبير بالظَّاهر بدل المضمرِ:

من بلاغةِ النَّظمِ تدقيقُ المعنى بالاحتراسِ من إرادةِ سواه

التَّعبيرُ بالظَّاهر مع عدمِ التَّعبيرِ بالمضمرِ عندَ تكرارِ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، بابٌ من الاحتراسِ، فآياتُ اللّهِ المذكورةُ هنا تحتملُ أنْ تكونَ مجيءَ الملائكة، أوْ مجيءَ أمرِ اللّهِ، فهيَ مِنَ الآياتِ الأخرى، وهوَ غيرُ مرادٍ هنا، بلِ المقصودُ هنا علامات القِيَامَةِ[3]، فأعادَ الظَّاهرَ تنبيهًا واحترازًا، على أنَّها المقصودةُ لا تلكَ المذكورةُ أوَّلًا.

بلاغةُ التَّقديمِ للظَّرفِ على الجملةِ الفعليَّةِ:

اليومُ الموعودُ مؤكَّدُ الوقوعِ، وما قبلَهُ محتملُ الوقوعِ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، تقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ على الجملةِ الفعليَّةِ، ﴿يَأۡتِي بَعۡضُ﴾، وحقُّه التَّأخيرُ، فلأنَّه محطُّ الاهتمامِ، وهو محلُّ التَّحذيرِ والتَّهديدِ لهم؛ و"لأنَّ إتيانَ الملائكة، والمعطوف عليه غيرُ محتملِ الوقوعِ، وإنَّما جرى ذكرُه

---

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 136.

(2) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.

(3) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 123، والسّيوطي، الدّر المنثور: 3/389.

إبطالًا"[1] لأقوالِهم السَّابقةِ من نحو: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾:

غـرضُ نـفـيِ النَّفعِ، متعلِّقٌ بـالآخـرةِ، وهي أمرٌ مستقبليٌّ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، نفيُ النَّفعِ عن النَّفسِ، وردَ هنا بصيغةِ المضارعِ الدَّالِّ على استحضارِ الصُّورةِ، على أنَّها مشهدٌ حيٌّ يراهُ المتدبِّرُ بعينِه، وهذا أوقعُ في التَّأثيرِ، فَضْلًا عنْ دلالتِه على الحالِ أوِ الاستقبالِ؛ لأنَّ النفعَ المقصودَ هنا هوَ نفعُ الآخرةِ بنجاةِ النَّفس مِنَ العذابِ[2]، وهوَ نفعٌ فيما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، أمَّا نفعُ الدُّنيا الفائتُ، فلا يقعُ عندَ مجيءِ آياتِ يوم القيامةِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿نَفۡسًا﴾ في سياقِ النَّفي:

غـرض التَّـنـكيرِ إفـادةُ العـموم والشُّمولِ، لكلِّ نفْسٍ منفوسةٍ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا أوردَ كلمةَ ﴿نَفۡسًا﴾ بالتَّنكيرِ، ونكتةُ ذلك إفادةُ العموم والشُّمولِ[3]، فالقاعدةُ عندَ العربِ ناطقةٌ بأنَّ "النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ"[4]، فالمعنى منْ عدمِ انتفاعِ النَّفسِ بإيمانها، يشملُ كلَّ نفسٍ وُضعتْ هذا الموضعَ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

غـرضُ التَّهديدِ والوعيدِ ردعُ كلِّ نفسٍ مستهينةٍ بذلك اليوم

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا قدَّم المفعولَ ﴿نَفۡسًا﴾ على الفاعل ﴿إِيمَٰنُهَا﴾، وهذا التَّقديم يحقِّق الإيجاز في التَّعبيرِ من خلال اتِّصالِ الضَّميرِ العائد على المفعولِ، بالفاعلِ إيمانها[5]، فضلًا عنْ كونِ السِّياقِ هنا قائمٌ على التَّهديدِ والوعيدِ لكلِّ نفسٍ، مهما كانتْ، فإنَّهُ لنْ يغنيَ عنها في ذلكَ اليومِ شيءٌ، فالمقصودُ أساسًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(4) ابن الخبّاز، توجيه اللّمع، ص: 229.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.

من التَّهديد، هو هذه النُّفوسُ، فكان تقديمُها للعنايةِ بها، من حيثُ إنَّها مناطُ هذا الأمر.

علَّةُ إضافةِ الإيمانِ إلى النَّفسِ:

لا انفكاكَ للنَّفسِ عنِ العقيدةِ، والإيمانُ الصُّوريُّ لا نفعَ لَهُ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، أضافَ الإيمانَ إلى النَّفسِ؛ للإشارة أنَّه لا غنى لأيِّ نفسٍ كانت أن تنفكَّ عن هذا الإيمانِ؛ لأنَّه مركوزٌ في الفطرةِ، ومن المقوِّماتِ الأساسيَّة لهذه النَّفس الَّتي لا تفارقُها بحالٍ، فضلًا عن كونِها من بابِ التَّعريضِ بالمشركين؛ لأنَّ إيمانهم ليس حقيقيًّا صادقًا، بل هو إيمانٌ شكليٌّ، وآية ذلك أنَّهم لم ينتفعوا منه، فأوردَهم المهالك.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾:

تخصيصُ عمومِ النَّفسِ بالإيمانِ ضرورةٌ لا مندوحةَ منها

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جملةٌ وقعتْ صفةً للنَّفسِ السَّابقةِ، لذا لمْ تعطفْ عليها، لكمالِ اتِّصالِها بها، فقدْ خصَّصتْ عمومَها، ويمكن أنْ تُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عنْ سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهنِ: (ما هيَ النَّفس الَّتي لا ينفعُها إيمانُها؟)، ويَحتمِلُ أنْ تُحملَ على الحاليَّةِ، وهوَ أقوى[1]، لتعالُقِ هذهِ الجملةِ بما قبلَها، ممَّا لا يحسنُ فيه الانفصالُ؛ ولأنَّ افتقادَ الإيمانِ قبلًا، حالَ تحوُّلٍ إلى الإيمانِ فيما بعدُ، غيرَ أنَّهُ لمْ يكنْ ذا منفعةٍ لفواتِ أوانِ التَّوبةِ.

نكتةُ التّعبير بـ (كان) مع الفعلِ ﴿ءَامَنَتْ﴾:

في استعمال (كان) إشارةٌ إلى عدمِ تمكُّنِ الإيمانِ في هذهِ النَّفسِ

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جاءتْ (كانَ) هنا للإشارةِ إلى أنَّهُ لمْ يتمكَّنِ الإيمانُ في هذهِ النَّفسِ، ولمْ يكنْ وصفًا ملاصقًا لها، وجاءتْ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ بـ﴿لَمْ﴾ الَّتي قلبتْ معنى المضارعيَّة إلى معنى الماضويَّةِ، والمعنى النَّفسُ الَّتي ما كانتْ آمنتْ منْ قبلُ، فدلَّتْ على تيسيرِ الأمرِ بتقريبِ زمانِ القبلِ، فإنَّهُ لمْ

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/552، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/235.

يَجْعَلِ الإيمانَ مستغرقًا في الزَّمنِ، لكنَّهُ قيَّدهُ بقبلِ إتيانِ الآيةِ بزمنٍ موصولٍ بمجيئِها[1].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ في قولِه: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾:

حذفُ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ، يقتضي التَّعميمَ في السِّياق

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾ فعلُ الإيمانِ، يقتضي معمولًا متعلِّقًا، فإنَّ الإيمانَ «أنْ تؤمنَ باللّهِ، وملائكتهِ، وكتبِهِ، ورسلهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيره وشرِّه»[2]، ولمَّا أرادَ نفيَ الإيمانِ عنهمْ على وجهِ العمومِ، حذفَ مُتَعَلِّقَ الإيمانِ؛ فإنَّهم لمْ يؤمنوا بشيءٍ منْ ذلكَ، حتَّى إتيانِ العلاماتِ الدَّالَّةِ على اليومِ الآخرِ، فالحذفُ هنا أبلغُ في الدَّلالةِ على نفيِ الإيمانِ عنهمْ بالكليَّةِ.

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ في قولِه: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾:

التَّوكيدُ والتَّوبيخُ مِن أغراضِ الخبرِ المُبيَّنةِ

دلَّت الجملةُ الخبريَّةُ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾ على التَّوكيدِ والتَّوبيخِ في آنٍ معًا، فإنَّ الإيمانَ مذكورٌ قبله، وهذا توكيدٌ لهُ، وأنَّ إيمانَهمْ لمْ يكنْ نافعًا لهمْ عندَ إغلاقِ بابِ التَّوبةِ، وهذا توبيخٌ لمَنْ آمنَ، ولمْ يَنتفعْ بإيمانه.

فائدةُ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

النُّفوسُ المُتأبِّيةُ عنِ الإيمانِ في إبَّانه، لا ينفعُها بعدَ أوانه

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾، في ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ ومعنًى، فذكرُها لاستبعادِ اقترانِ هذه النُّفوسِ بالإيمانِ من أوَّلِ أمرِها، فإنَّ ﴿مِن﴾ تفيدُ ابتداءَ الغايةِ.

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ﴾:

النُّفوسُ البشريَّةُ، منها: كافرةٌ لمْ تؤمنْ، ومؤمنةٌ لمْ ينفعْها إيمانُها

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، جاءت النُّفوسُ في الآيةِ على نوعينِ: نفوسٍ كافرةٍ لمْ تؤمنْ، ونفوسٍ مؤمنةٍ لمْ ينفعها إيمانُها؛ لأنَّها ما كسبتْ في ذلكَ الإيمانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/333.

(2) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (8).

خيرًا[1]، فجاءت ﴿أَوۡ﴾ مفيدةً للتَّقسيمِ، والتَّقسيمُ من خصائصِ (أو) العاطفة[2].

الموقعُ البيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾:

جملة ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، واقعةٌ موقعَ العطفِ على جملة: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾، فهيَ صفةٌ أخرى أوْ حالٌ ثانيةٌ للنَّفسِ الَّتي لا تنتفعُ بإيمانها، فإنَّ أشراطَ السَّاعةِ إنَ ظهرتْ "ذهب أوانُ التَّكليفِ عندَها، فلمْ ينفعِ الإيمانُ حينئذٍ نفسًا غيرَ مُقدِّمةٍ إيمانَها منْ قبلِ ظهورِ الآياتِ، أوْ مقدِّمةَ الإيمانِ غيرَ كاسبةٍ في إيمانِها خيرًا"[3]، وبين العبارتين ترابطٌ لا ينحلُّ على أسلوبِ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا يجدي إيمانٌ من غيرِ عملٍ صالحٍ.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ (كان) مع الكسبِ في الآيةِ الكريمة:

النَّفسُ لا تنفكُّ عـن الإيـمـان؛ لأنَّـهُ مركوزٌ في الفطرةِ

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، عَدَلَ عن ذكرِ الفعلِ النَّاقصِ (كان)، مع فعلِ الكسبِ ﴿كَسَبَتۡ﴾، اختصارًا لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه، بقولِه: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾، فقد ذكرَ فعلَ الكَوْنِ مع الإيمانِ، والنَّحويُّون يقولون: "وحذْفُ ما يعلم جائزٌ"[4]، ولأنَّهُ هنا نفى عنها الكَسْبَ فقطْ، وهناكَ نفى عنها الإيمانَ مطلقًا، فضلًا عنْ نفيِ تمكُّنِهِ في النَّفسِ الَّتي منْ شأنِها في الأصلِ ألَّا تنفكَّ عنهُ؛ لأنَّهُ مركوزٌ في الفطرةِ.

بلاغةُ التَّقديمِ لشبهِ الجملةِ على المفعولِ:

سـرُّ الـتَّـنـويـه بمنزلةِ الإيمانِ باعتبارِ أنَّ الخيرَ منحصرٌ فيه

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، في ذكرِ شبهِ الجملةِ وتقديمِها ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾، على المفعولِ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، الإيماءُ إلى علوِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(4) الشّاطبيّ، المقاصد الشَّافيَةُ: 2/91.

الإيمانِ ومكانته، فكأنَّهُ يجعل كسبَ الخيرِ منحصرًا في الإيمانِ، أي: إنَّها ما كسبَتِ الخيرَ في إيمانِها فحسب، بلِ اقتصرتْ على الإيمانِ فقطْ[1]، وهوَ حصرٌ متأتٍّ منْ تقديم الإيمانِ، وأنَّهُ ينبغي لهذا الإيمانِ ألَّا ينفكَّ عَنِ النَّفسِ، بلْ هوَ ملاصقٌ لها لا ينفكُّ عنها بحالٍ منَ الأحوالِ، لذا أُضيفَ إليها، فضلًا عنْ كونِ المقامِ للعنايةِ بهذهِ النَّفسِ.

نكتةُ المجازِ في استعمالِ ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾:

الغرضُ منَ الظَّرفيَّةِ إفادةُ مُدَّةِ الإيمانِ وإحاطتِهِ وشمولِهِ

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، للجارِّ في قولِهِ: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾ إشارةٌ ظرفيَّةٌ، فهوَ دليلٌ على مدَّةِ الإيمانِ، وليسَ الإيمانُ نفسُهُ، أيْ: إنَّ الخيرَ منْ صالحِ الأعمالِ، خالصِ الطَّاعاتِ، يجبُ أنْ يكسبَ في مدَّةِ الإيمانِ، والتَّقديرُ: أنَّها كسبتْ في مدَّةِ إيمانها خيرًا[2]، ليتوافقَ الاعتقادُ معَ العملِ. فضلًا عنْ أنَّ الحرف ﴿فِيٓ﴾ هنا، يدلُّ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ، حيث أفادتْ إحاطةَ الإيمانِ بالنَّفسِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فشَبَّهتِ الإيمانَ بشيءٍ منْ شأنه أنْ يحيطَ بالنَّفسِ منْ جميعِ أطرافِها؛ لأنَّ لوازمَ الإيمانِ وأدلَّتَهُ، تحيطُ الإنسانَ في الأنفسِ. ويمكنُ أنْ تكونَ ﴿فِيٓ﴾ هنا سببيَّةً على معنى: أنَّ هذهِ النَّفسَ لمْ تكسبْ بسببِ إيمانها حينَ آمنتْ أيَّ خيرٍ مهما كانَ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾:

غرضُ التَّنكيرِ إفادةُ تعميمِ الخيرِ المكتسَبِ

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، أورد كلمة ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ هنا نكرةً، وهيَ في ذلكَ واقعةٌ في سياقِ النَّفيِ فتكون عامَّةً "ويلزمُ أنْ يكونَ نفعُ الإيمانِ بمجرَّدِ الخيرِ، ولوْ واحدًا"[3]، فتنكيرُ الخيرِ يلزمُ نفعُه، ولو كانَ قليلًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/67.

تقديمُ النَّفسِ (غيرِ المؤمنةِ) على الَّتي (لم تكسبْ في إيمانها خيرًا):

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، ذكرَ في الآيةِ جملتينِ قدَّمَ واحدةً، وأخَّرَ الأخرى، فتقدَّمتِ الجملةُ المعنيَّةُ بنفي الإيمانِ، وتأخَّرتِ المعنيَّةُ بنفي الكسبِ بذلكَ الإيمانِ، وهوَ منْ بابِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ، فإنَّ الإيمانَ هوَ الأصلُ، ثمَّ يترتَّبُ عليهِ أنْ تكسبَ النَّفسُ الخيرَ بهذا الإيمانِ، فالأهمُّ هوَ الإيمانُ، يتلوهُ صنيعُ الإنسانِ المُؤَسَّسُ على ذلكَ الإيمانِ.

من البلاغةِ تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والأهمِّ على المهمّ

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ أسلوبِ التَّقسيم:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ، تقديرُهُ: "لا ينفعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أوْ نفسًا لمْ تكنْ كسبتْ خيرًا في إيمانِها منْ قبلِ كسبِها، يعني: أوْ ما يقومُ مقامَ كسبِ الخيرِ مثلُ التَّوبةِ، فإنَّها بعضُ اكتسابِ الخيرِ"[1]، فليسَ المغزى المرادُ أنْ يضيعَ الإيمانُ، إنْ لمْ يكنْ معهُ كسبٌ، وهذهِ مزيَّةُ التَّقسيمِ، ولولا ذلكَ لعبَّرَ عنْ نفيِ النَّفعِ حالةَ كونِ الكسبِ معدومًا.

دلالةُ الألفاظِ المذكورةِ على المحذوفةِ من جميل البيان

بلاغةُ الإدماجِ في قوله ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، ظاهرُ الآيةِ ينعى على المشركينَ التَّأنِّيَ في دخولِ الإيمانِ؛ لأنَّ عاقبتَهُ وخيمةٌ إنْ ظهرتِ الآياتُ، ثمَّ أدمجَ معَ هذا المقصودِ، تحذيرًا للمؤمنينَ منَ التَّجافي عَنِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وعدمِ المبادرةِ إليها، وهوَ المفهومُ منْ قولِهِ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ﴾.

تحذيرُ المشركين، يتضمَّن تعريضًا بالتَّحذيرِ للمؤمنين

نكتةُ الأمرِ بـ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ذكرَ فعلَ الأمرِ ﴿قُلِ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ في دلالة السِّياقِ عن المرادِ

لنكتةٍ، وهيَ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، وهوَ الانتظارُ الدَّالُّ على الوعيدِ والتَّهكُّم، وقدْ حُفَّتِ السُّورةُ بهذا الفعلِ (قلْ)، ممَّا يدلُّ على أهمِّيَّةِ الأمورِ الَّتي تأتي بعدَها، وأنَّ هذهِ التَّكاليفَ مِنَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ، بحيثُ ينبغي للنَّبيِّ ﷺ، أنْ يبلِّغها بنفسهِ.

سرُّ تتابعِ فَعْلَيِ الأمرِ في قوله ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

ورودُ الفعلين المُتتابعين بالأمرِ، قد يفيدُ التَّهديدَ والوعيدَ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، تضمَّنَ فعلَيْ أمرٍ، الأولُ: ﴿قُلِ﴾ مع فاعلِه، والثَّاني: فعلُ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مع فاعلِه، وسرُّ تواليهما: إفادةُ التَّهديدِ والوعيدِ من مجيءِ الآياتِ والعذابِ، والتَّقديرُ: سترون من يكونُ كلامُه صحيحًا[1].

الغرضُ البيانيُّ من الأمرِ بالانتظار ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

الأمرُ بالانتظارِ تهديدٌ ووعيدٌ

والغرضُ البيانيُّ من فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، ليس على ظاهرِه، وإنَّما قصدَ التَّعريضَ والتَّهديدَ[2] للمشركين بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وفيه تقريرٌ لحرِّيَّتهم الدِّينيَّة وتحميلُهمُ المسؤوليَّةَ، والمعنى: "قل لهؤلاءِ الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال، على وجه التَّحديد: انتظروا ما تنتظرونه، من إتيان أحدِ الأمور الثَّلاثةِ، لتروا أيَّ شيءٍ تنتظرون، إنَّا مُنْتَظِرُونَ، أي: لذلك، لنشاهدَ ما يحلُّ بكم من سوءِ العاقبةِ"[3].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

غرضُ حذفِ المفعولِ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ من بلاغةِ الأسلوبِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، الفعلُ هنا يقتضي مفعولًا، وهوَ على تقديرِ: انتظروا العذابَ، أوِ انتظروا عاقبةَ أمركِمْ[4]، والانتظارُ مِنَ الترقُّبِ، وحذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ، أي: انتظروا كلَّ ما مِنْ شأنِه أنْ يُفْزِعَكُمْ، وأنْ يُرْهِبَكُمْ من ألوانِ العذابِ الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/176، وابن عطّية، المحرّر الوجيز: 2/367.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/700.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 4/550.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/497، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/606.

الموقعُ البيانيُّ لِقولِهِ: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في الآية الكريمةِ:

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، بعدَ قولِه: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ على تقديرِ الكلامِ: انتظروا ننتظرْ معكمْ على أنَّها جملةٌ واقعةٌ في جوابِ الطَّلبِ. ويمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، على تقديرِ سؤالٍ: (وماذا تفعلونَ أنتمْ؟)، لذا لمْ تُعطفْ عليها، فالمعطوفُ لكونِهِ تابعًا، لا يَهتمُّ لهُ السَّامعونَ كمالَ الاهتمامِ، ولقوَّةِ الارتباطِ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها، فالجميعُ قائمٌ على الانتظارِ، فأنتمْ تنتظرونَ إتيانَ أحدِ الأمورِ الثَّلاثةِ، ونحنُ منتظرونَ لنعاينَ ما سوفَ يَحيقُ بكمْ مِنْ عقابٍ[1].

غرضُ حُسْنِ الفصلِ في الجملةِ المُستأنَفةِ الاهتمامُ بها

دلالةُ توالي المؤكِّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، طائفةٌ مِنَ المؤكِّداتِ، منها: إنَّ، والجملةُ الاسميَّةُ، فضلًا عنْ مجيءِ المسنَدِ الفعليِّ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ الَّذي أفادَ تقويَةَ الحكمِ، وقدْ أفادَ تواليَ هذهِ المؤكِّداتِ التَّهديدَ والوعيدَ لهمْ.

إذا كان التَّهديدُ والوعيدُ من اللهِ؛ كان الهلاكُ ساحقًا ماحقًا

غرضُ الجملةِ الخبريَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، جملةٌ خبريَّةٌ جمعتْ بين أمرين؛ انتظارِ المسلمين لنصرِ اللهِ، ونزولِ العقابِ بأعدائِهم"[2]، فهذا هو معنى الانتظارِ، ومفاد المعنى: أنَّ اللهَ يقول لهم: (انتظروا - أيُّها المعاندون - ما تتوقَّعون إتيانه ووقوعَه بنا، واكتفاء أمر الإسلام به، إنَّا منتظرون وعدَ ربِّنا لنا ووعيده لكم)، كقولِهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102].

المسلمون ينتظرون نصرَ اللهِ المبينَ بما وعد به عباده الصَّالحين

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

نكتةُ مجيءِ ضمائرِ الجمعِ في الفاصلةِ وحذفِ المُتَعَلِّقِ:

جملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها، وهو من فصيحِ البيانِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: وردتِ الضَّمائرُ في الفاصلةِ بصيغةِ الجمعِ في المسنَدِ إليه (نا)، والمسنَدِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾، مُناسِبَةً لما قبلَها من جمعٍ، وهو قولُه: ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ فجملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها من أمرِ الانتظارِ[1]، وحذفَ متعلِّقَ الانتظارِ، ليشملَ إعلاءَ اللّهِ لشأنِ المؤمنين، وعذابَ الكافرين.

نكتةُ مجيءِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الانتظارُ فيه تهكُّمٌ بهم، وهو دالٌّ على التَّمكُّنِ والثِّقةِ بنصرِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ إيرادُ لفظةِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ دلَّت على الترقُّبِ والتربُّصِ، وصيغةُ اسمِ الفاعلِ دلَّت على قوَّةِ تمكُّنِ الفعلِ بالفاعلِ، وهذا أبلغُ في تهديدِهم ووعيدِهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّظر) و(الانتظار):

النَّظرُ متعلِّقٌ بالحقيقةِ المشاهَدةِ، والانتظارُ بترقُّبِ الخيرِ أو الشَّرِّ

النَّظرُ يكونُ بمعنى البَصرِ العينيِّ، وهوَ الأشيعُ، ويكونُ بمعنى البصيرةِ والتَّفكُّرِ، والواردُ في الآيةِ مِنَ المعنى الأوَّلِ؛ فإنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالحوادثِ الَّتي تُرى، وتشاهَدُ كأشراطِ السَّاعةِ، ومنها طلوعُ الشَّمسِ مِنْ مغربِها[2]. وقدْ يكونُ النَّظرُ بمعنى الانتظارِ؛ لأنَّ "الانتظارَ طلبُ ما يقدرُ النَّظرُ إليهِ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، ويكونُ معَ شكٍّ ويقينٍ"[3]، والواردُ في الآيةِ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، من هذا البابِ، وهو استعمالُ النَّظرِ بمعنى الانتظارِ، فإنَّهم لا يؤمنون حتَّى يروا هذه الآياتِ[4].

(الإنظار) و(الإمهال):

الإنظارُ: مقيَّدٌ بما هو محلٌّ للنَّظرِ، والإمهالُ: الإبهامُ

وممَّا يَقْرُبُ معنًى مِنَ الانتظارِ، لفظةُ الإمهالِ، إلَّا أنَّ ثمَّةَ فرقًا دقيقًا بينهما، وهوَ أنَّ الإنظارَ مقترنٌ بمقدارٍ معيَّنٍ، يكونُ محلًّا

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/191.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.
(4) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زادة: 4/178.

للنَّظرِ، أمَّا الإمهالُ؛ فهوَ على نيَّةِ الإبهامِ[1]، والواقعُ في الآيةِ ليس منه؛ لأنَّ انتظارَهم موقَّتٌ بزمنِ إتيانِ الملائكةِ، أو إتيانِ أمرِ اللهِ، أو أشراطِ السَّاعةِ[2].

(الانتظار) و(التربُّص):

التَّربُّصُ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ، والانتظارُ في الآيةِ تهديدٌ ووعيدٌ

الفرقُ بينهما: أنَّ الانتظارَ عامٌّ، والتَّربُّصَ: طولُ الانتظارِ، والأصلُ فيهِ مِنَ الرُّبْصَةِ، وَهيَ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ[3]، والواردُ في الآيةِ مَظِنَّتُهُ زمنٌ قريبٌ، والمعنى: "ما ينتظرونَ هؤلاءِ المكذّبونَ أدنى انتظارٍ، وَأَقْرَبَهُ وأيسرهُ"[4]، فورودُ الانتظارِ أبلغُ وأدقُّ، وأدلُّ على المعنى المرادِ في الآيةِ.

وفيهِ فرقٌ آخَرُ، وهوَ أنَّ التَّربُّصَ هوَ الانتظارُ الَّذي يحملُ معهُ الخيرَ أوِ الشَّرَّ الَّذي يحلُّ بالمتربِّصِ به[5]، أمَّا الانتظارُ الواردُ في الآية ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، فقدْ أجمعتْ كلمةُ المفسِّرينَ، على أنَّ المقصودَ مِنَ الانتظارِ، هوَ التَّهديدُ والوعيدُ[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/331.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 4/331، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/367، وغيرهم من المفسّرين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدِّي الكفرِ وسوءِ عقباهُ، وعلاقتهُ ببراءةِ النَّبيِّ ممَّن فرَّق دينَ مولاه

بعدَ ما ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السَّابقةِ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على عظمتِه تعالى، اشتدَّ استشرافُ النَّبيِّ ﷺ، وحرصُهُ على إسلامِ قومِه؛ لما طَبَعَهُ الحقُّ ﷻ على رسولِه الكريمِ بالشَّفقةِ على الخَلْقِ؛ لهدايتِهِمْ ومحوِ غَوايتِهِمْ، فأخبرهُ تعالى مثبِّتًا إيَّاهُ، ومسلِّيًا لهُ؛ بأنَّ الَّذينَ تفرَّقوا بعدَ بلاغكَ إيَّاهمْ، فكانوا شِيَعًا وأحزابًا، تَبَعًا لأهوائِهِمْ، فهؤلاءِ ليسَ عليكَ حسابُهمْ ولا عقابُهمْ ولا هدايتُهمْ، بلْ أمرُهمْ للّهِ تعالى، فمنْ شاءَ هداهُ، ومنْ شاءَ أعماهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَّقُواْ﴾: فعلٌ مضعَّفٌ مسنَدٌ إلى الجَماعَةِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (فرق)، وهوَ مِنَ الفصلِ والتَّفريقِ، "وكلُّ شيئينِ فَصَلْتَ بينهما، فقد فرَّقْتَهما فَرْقًا، وكلُّ ناحيةٍ منهما فِرْقٌ وفَريقٌ"[2]، والأصلُ في معناهُ: "تمييزٌ وتزييلٌ بينَ شيئينِ، منْ ذلكَ الفرْقُ"، والفَرْقُ: الانفصالُ عنِ الشَّيءِ، والفَريقُ جماعةٌ تتفرَّقُ وتنفصلُ عنْ غيرِها[3].

ومعنى ﴿فَرَّقُواْ﴾ في الآيةِ، أي: غيَّروا في دينِهم، وخلطوا الحقَّ بالباطلِ، وآمنوا ببعضِ الرُّسلِ، وكذَّبوا ببعضٍ، وهم أصحابُ البِدَعِ والأهواءِ الَّذين حرَّفوا الدِّينَ، فهذا هو التَّفريقُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/335.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فرق)، والسّيوطي، الدّرّ المنثور: 3/402.

2) ﴿شِيَعًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (شيع)، والمشايعةُ المتابعةُ على أمرٍ معيَّن، كمثلِ قومٍ يتَّبعونَ أهواءَ غيرِهمْ، ويتابعونهمْ، ومنْ معانيهِ الظُّهورُ والتَّفرُّقُ[1]. والمعنى المحوريُّ لهُ: "تفرُّقُ الشَّيءِ المجتمعِ إلى تجمُّعاتٍ صغيرةٍ بتشعُّث، أيْ: عدم انتظام، كالشَّعرِ الموصوفِ، أصولهُ متجاورةٌ ولا بدَّ، أي: مجتمعةٌ"[2]. والشِّيعُ: الفِرَقُ الَّذين يتابعُ بعضُهم بعضًا[3]، وليسَ شرطًا أنْ يكونَ تجمُّعهمْ على خيرٍ أوْ صوابٍ.

ومعنى ﴿شِيَعًا﴾ في الآيةِ، أي: أصبحوا فِرَقًا مختلفةً، وكلُّ فِرْقةٍ تتبعُ إمامًا لها، كاليهودِ والنَّصارى، وأصحابِ البدعِ والأهواءِ والضَّلالاتِ، منْ هذهِ الأمَّةِ[4].

3) ﴿يَفۡعَلُونَ﴾: فعلٌ مسنَدٌ إلى الجَمَاعَةِ، دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (فعل)، والفعلُ معروفٌ، وهوَ القيامُ بعملٍ أوْ نحوه. والأصلُ في الفاءِ والعينِ واللَّامِ يدلُّ على إحداثِ أمرٍ أوْ شيءٍ، أوْ نَحْوِهِ[5]، ويَرِدُ بمعنى التَّأثيرِ حسنًا كانَ أمْ غيرَ ذلكَ، بعلمٍ وقصدٍ أمْ بغيرِ ذلكَ، صادرًا منَ الإنسانِ أمْ منَ الحيوانِ[6].

ومعنى ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في الآيةِ، أيْ: ما يُحدِثونهُ من السَّيِّئاتِ والتَّفرقةِ والسَّيرِ خلفَ الأهواءِ، فيجازيهم على تلكَ الأفعالِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إخبارٌ منهُ تعالى لرسولهِ الكريمِ ﷺ عنْ أقوامٍ انحرفوا عنْ جادَّةِ

لا عليكَ ممَّنْ فرَّقَ الدِّينَ واتَّبعَ الهوى، وحسابُهمْ ومآلُهمْ إليهِ سبحانهُ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شيع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شيع).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شيع).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/208، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فعل).
(7) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2586.

الصَّوابِ، ومالوا عن طريقِ الحقِّ، وتفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، فكانوا فِرَقًا وجماعاتٍ، وكانوا قيدَ أهوائِهِمُ الباطلةِ، فلستَ منهمْ، وليسَ عليكَ حسابهم ولا جزاؤهم ولا هداهم، فلا نجمعكَ معهم؛ إذْ شأنُهمْ راجعٌ إليه تعالى، فهوَ الَّذي يخبرُهمُ الخبرَ العظيمَ بقبائحِ أفعالِهمْ، بعدَ أنْ يحشرهمْ إليهِ صاغرينَ داخرينَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

مَن يبدِّدُ الدِّينَ فإنَّ مصيرَه إلى الله، لا إلى رسولِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، آيةٌ مستأنَفَةٌ بيانيًّا، جَوَابٌ عنْ سؤالٍ مقدَّرٍ، مضمونُهُ: هلْ على الرَّسولِ ﷺ أنْ يتولَّى جزاءَ هؤلاءِ المفرِّقينَ المنحرفينَ عنْ جادَّةِ الحقِّ والصَّوابِ، على ما ارتكبوا منْ سيِّئِ الأعمالِ[1]، وهم أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى، ممَّن بدَّدَ الدِّينَ، وبعَّضه، وقسَّمه، فتمسَّكتْ كلُّ فِرْقَةٍ ببعضٍ منه[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة:

في الاسمِ الموصولِ تشويقٌ، وبيانٌ بعدَ إبهامٍ

وجاءَ بالمسنَدِ إليه اسمًا موصولًا معرفةً في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾، لِغَرَضٍ: وهو إحداثُ عنصرِ التَّشويقِ في التَّعريفِ بهؤلاءِ المفرِّقين وحدَةَ الدِّينِ عقيدةً وعملًا[3]، والتَّشويقُ يتأتَّى منْ كونِه يردُ على مرحلتينِ: إِبْهَامٍ ثمَّ بَيَانٍ، فَذِكْرُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا يُفهمُ منهُ شيءٌ، فهذا هوَ الإبهامُ، ثمَّ تَعْرِيفُهُ بجملةِ الصِّلةِ فهذا هوَ البيانُ، وفي هذا الأسلوبِ تشويقٌ إلى جُمْلَةِ الصِّلةِ الدَّالَّةِ على التَّفرُّقِ في الدِّينِ والانحيازِ عنهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّةً:

الجملةُ الفعليَّةُ تدلُّ على عدمِ الثُّبوتِ، وكذلك تفريقُ الدِّينِ

وردتْ صلةُ الاسمِ الموصولِ جملةً فعليَّةً، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾؛ لتدلَّ على الحدوثِ وعدمِ الثُّبوتِ، وهو شأنُ الجملةِ الفعليَّةِ في لسانِ العربِ، وتفريقُ الدِّينِ كذلك، فهو مِنَ الأمورِ الحادثةِ الَّتي بها حاجةٌ للتَّعمُّلِ والتَّغيُّرِ، كما هوَ شأنُ الأفعالِ. وفي التَّركيب بالموصولِ وصِلَتِهِ ما يدلُّ على" أنَّ الدِّين يأمرُ بالاجتماع والائتلافِ، وينهى عن التَّفرُّق والاختلاف في أهل الدِّين، وفي سائر مسائلِهِ الأصوليَّة والفروعيَّة"[1].

بلاغةُ الجمعِ بين القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿فَرَّقُواْ﴾:

مَنْ فرَّقَ الدِّينَ فقدْ جعلهُ أحزابًا ومذاهبَ، وفارقهُ في حقيقتِهِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ (فارقوا)[2]، فقراءةُ الجماعةِ بالتَّشديدِ مِنَ التَّفريق، وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالتَّخفيفِ مِنَ المفارقةِ، أي: تركوا دينَهُمُ الحَقَّ الَّذي أُمِروا بهِ[3]. وعلى قراءةِ الجمهورِ يكونُ المعنى بدَّدوا وشتَّتوا دينَهمْ، وأضحوا أحزابًا وفرقًا، ومذاهبَ في الضَّلالةِ والأهواءِ والبدعِ يكفِّرُ بعضُهمْ بعضًا[4]. وفي الجمعِ بينَ القراءتينِ، بيانٌ لا يخفى؛ "لأنَّ الَّذي فرَّقَ دينَهُ، بمعنى: أنَّهُ أقرَّ ببعضٍ، وأنكرَ بعضًا، فقدَ فارقه في الحقيقةِ"[5] فالقراءتان تسندُ إحداهما الأخرى.

دلالةُ المجازِ من بابِ الاستعارةِ، في قولِهِ: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾:

حقيقةُ الدِّينِ واحدةٌ، وفي التَّفرُّقِ تفريقٌ للدِّينِ، وتمزيقٌ لهُ

تفريقُ الدِّينِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، معناهُ الفصلُ والتَّمييزُ ونحوهُ، والتَّعبيرُ عَنْ تفريقِ الدِّينِ

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 282.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 274.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/134.

(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 278، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/341.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/68.

تعبيرٌ مجازيٌّ من بابِ الاستعارةِ[1]، فكأنَّهمُ اجتمعوا على الدِّينِ، وهوَ وحدةٌ واحدةٌ، فجعلوهُ مفرَّقًا، وهذهِ استعارةٌ، يمكن أن تشبَّه بالتَّفرُّق، أو على المكنيَّة بتشبيه الدِّين بشيءٍ من شأنه أن يُفَرَّق، فَحَذَفَ المُشَبَّهَ بهِ، وتركَ شيئًا من لوازمه، وأسنده إلى المُشبَّهِ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة التَّخييليَّة. فالدِّينُ واحدٌ في حقيقته، لا يكونُ فيهِ التَّفريقُ والتَّمييزُ، فلمَّا تفرَّقوا مذاهبَ وأحزابًا، فكأنَّهمْ قدْ فرَّقوا الدِّينَ تفريقًا، وجعلوهُ شِيَعًا[2]، والقصدُ منهُ تكذيبُ بعضِ الدِّينِ وآياته، وصدوفهمْ عنها، وتصديقُ بعضِهِ والإيمانُ بهِ، فرَّقوهُ على هذا النَّحوِ ففارقوهُ؛ لأنَّ الكفرَ ببعضِهِ كفرٌ بكلِّه[3].

نكتةُ إضافةِ الدِّينِ إلى الضَّميرِ العائدِ على المُفرّقين:

غـرضُ الإضافةِ الـدّلالـةُ على رغبتِهم في الدِّينِ وعدمِ انحلالِهم عنه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، أضافَ الدِّينَ إلى الَّذين حصلَ منهم تفريقُ الدِّينِ، ونكتةُ إضافةِ "الدِّينِ إليهم، لشدَّةِ رغبتِهم فيه، ومقاتلتِهم عليه"[4]، للإشعارِ بأنَّهم لا ينفكُّون عنه، ولا ينفكُّ عنهم، ومعلوم أنَّهم "فَرَّقُوا دِينَهُمْ، أي: اختلفوا فيه، مع وحدتِهِ في نفسه، فجعلوه أهواءً متفرِّقة، وَكانُوا شِيَعًا أي: فِرَقًا تشيِّع كلُّ فرقةٍ إمامًا لها، بحسب غلبةِ تلك الأهواء، فلم يتعبَّدوا إلَّا بعاداتٍ وبِدَعٍ، ولم ينقادوا إلَّا لأهواءٍ وخدعٍ "[5].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾:

ابتعادُ هؤلاءِ عنِ الدِّينِ أمرٌ متيقَّنٌ مؤكَّدٌ، والتَّحذيرُ منهمْ واجبٌ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ في الآيةِ عدَّةُ مؤكِّداتٍ، فقد صدَّرها بـ﴿إِنَّ﴾، ثمَّ بالجملة الاسميَّة، فضلًا عن

---

(1) الاستعارةُ "أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللُّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل" كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ)، فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ)، ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى. يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(2) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السّور: 7/24.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/334.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/334.

(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/550.

أنَّ ذكرَ الفاعلِ مرَّتيْن يفيدُ التَّوكيدَ، تارةً بكونِه مسندًا إليه مبتدأ، وتارةً بكونه فاعلَ ﴿فَرَّقُواْ﴾، ثمَّ استعمالُ أداةِ الحصرِ ﴿إِنَّمَآ﴾، ثمَّ الباء ﴿بِمَا﴾، فهذهِ مؤكِّداتٌ كثيرةٌ، توالتْ في الكلامِ، وهوَ ضربٌ منْ ضروبِ البلاغةِ القرآنيَّةِ، فيهِ إشارةٌ إلى ابتعادِ هؤلاءِ عنْ طريقِ الحقِّ، وإيغالِهمْ في طريقِ الباطلِ، وأنَّ الحذرَ منهمْ واجبٌ، وأنَّ مردَّهمْ إلى اللّهِ، فينالوا جزاءَهمْ.

معنى الواو بين العطفِ والحاليَّةِ في ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

العطفُ جمعٌ للمعاني، والحالُ تجميلٌ للتَّركيبِ

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ عاطفة[1]؛ إذ عطفتْ جملةَ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، على جملةِ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾، فإنَّ منْ صفاتِهمْ بعدَ تفريقِ الدِّينِ، تشايُعَهمْ على الطَّوائفِ والمللِ، بأنْ يشايعَ بعضُهمْ بعضًا. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ حاليةً، أيْ: إنَّهم فرَّقوا دينهمْ بتفرُّقهمْ أحزابًا وجماعاتٍ حالَ كونِهمْ شِيَعًا؛ لأنَّ كونَهَمْ على ذلكَ الحالِ مفضٍ إلى تفرُّقِهمْ وتشتتِهمْ.

غرضُ العدولِ من الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ في ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

الثَّباتُ على التَّفرُّقِ والتَّوزُّعِ شِيَعًا ضلالٌ وخيبةٌ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، جملةُ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ جملةٌ اسميَّةٌ منسوخةٌ، ويجوزُ لغةً التَّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ، منْ نحوِ (وتشيَّعوا)، وغرضُ العدولِ منَ الجملةِ الفعليَّةِ إلى الجملةِ الاسميَّةِ؛ للإيحاءِ بالثُّبوتِ والاستمرارِ على ما همْ فيهِ منَ التَّفرُّقِ بإشارةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على ذلكَ، لا سيَّما إنْ كانتْ جملة حاليَّة.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شِيَعًا﴾ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

التَّنكيرُ يدلُّ على العمومِ، فكلُّ من فرَّقَ الدِّينَ داخلٌ فيه

وردتْ كلمةُ ﴿شِيَعًا﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، وفي تنكيرِها نكتةٌ لغويَّةٌ، وهي دلالتُها على العموم، فهي ليستْ خاصَّةً بفئةٍ دونَ الأخرى، فكلُّ "منْ فارقَ دينَه الَّذي بُعِثَ بِهِ ﷺ، منْ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/285.

مشركٍ، ووثنيٍّ، ويهوديٍّ، ونَصرانيٍّ، ومتحنِّفٍ مبتدعٌ قدِ ابتدعَ في الدِّينِ، ما ضلَّ بهِ عَنِ الصِّراطِ المستقيم، والدِّينِ القيِّم"[1]، فكلُّ هؤلاءِ داخلون في عموم ﴿شِيَعًا﴾، لدلالةِ النَّكرةِ على العموم.

ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ دالًّا على التَّحقيرِ تهوينًا لشأنهم، والتَّنكيرُ في لفظةِ ﴿شِيَعًا﴾، يجوزُ أَنْ يكونَ دالًّا على التَّحقيرِ، فالنَّكرةُ مُؤْذِنةٌ بذلكَ، وأنَّهمْ لا يُؤْبَهُ لهمْ، وإيرادُهمْ هنا بصيغةِ النَّكرةِ للدَّلالةِ على تحقيرِهمْ وإهانتِهمْ، جزاءً وفاقًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿شِيَعًا﴾ بعدَ وصفِهم بتفريقِ الدِّين:

اجتماعُهم على الضَّلالةِ أشنعُ ممَّا لو كانوا فُرادى

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، ذكرَ الحقُّ ﷻ من شأنِهم، أنَّهم فرَّقوا دينَهم كاليهودِ والنَّصارى، وأربابِ الأهواءِ وغيرِهم[2]، ثمَّ زادَ عليهم أنْ وصفَهم بالشِّيعِ، وهم الطَّوائفُ والفِرقُ، فيكونُ كالتَّكرارِ لما سبقَ. والنُّكتةُ في ذلك زيادةُ التَّشنيعِ عليهم وتَبْشيعِ فِعْلِهِمْ، فهو "أشنعُ ممَّن لو كانَ كلُّ واحدٍ منهم يتَّبعُ دينًا؛ لأنَّهم في هذه الحالةِ اجتمعوا جماعةَ الضَّلال"[3]؛ فالفردُ في ضلالِه أقلُّ شناعةً وقبحًا من الجماعةِ في ضلالِهَا.

نكتةُ دخولِ (كان) ودلالَتُها في جملة ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

كانَ بمعنى الصَّيرورةِ والتَّحوُّلِ من الفطرةِ، وبمعنى ديمومةِ التَّفرُّقِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، النُّكتةُ في دخولِ (كانَ) في التَّركيبِ القرآنيِّ بأنَّها جاءت على معنى الصَّيرورة، إذَ المُرَادُ: صاروا شيعًا، أَيْ: إنَّهم بعد ما كانوا على الفطرةِ السَّويَّةِ، وعلى ما جاءتهمْ رسلُهمْ، صاروا فِرقًا وأحزابًا متفرِّقين[4].كما أنَّ دخولَ (كانَ) يُشْعِرُ بديمومةِ تفرُّقِهم، فكأنَّه كائنٌ مستقرٌّ فيهم، ومنْ خصائصِ إيرادِ (كانَ) على الجملةِ الاسميَّةِ، المُخبِرةِ عنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/271.
(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/741.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/206.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 8/273، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/498.

تفرُّقِهمْ شيعًا؛ أنَّ (كانَ) مشعرةٌ بديمومةِ تفرُّقِهمْ، ولكأنَّ هذا التَّفرُّقَ ثابتٌ مستقرٌّ فيهمْ، متمكِّنٌ منهمْ.

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾:

إظهـارُ بـراءةِ النَّبيِّ الخاتَم، ممَّن تـفرَّقَ في صفوفِهِ، وفرَّقَ الدِّينَ

قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، هذهِ الجملةُ تقعُ موقعًا بيانيًّا متمِّمًا لما قبلَها، من جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، في أنَّها خبرٌ لهذهِ الجملةِ. أو على الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: فإنْ كانوا كذلكَ من التَّفرُّقِ والتَّشتُّتِ، فماذا على الرَّسولِ ﷺ؟ فيكونُ الجوابُ أنَّكَ بريءٌ منْ هؤلاءِ الَّذينَ فرَّقوا دينَهمْ، وصاروا شِيعًا[1].

معنى (مِن) في قولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾:

الـدَّلالـةُ على الابتداءِ أو على التَّـبـعـيـضِ في تـبرئَـتِـهِ بأقـوى وجهٍ

(مِن) في الآيةِ تفيدُ الابتداءَ، وهو معنًى شائعٌ غالبًا عندَ النَّحْوِيِّينَ، حتَّى ادَّعى جماعةٌ أنَّ أكثرَ معانيها راجعةٌ إلى الابتداءِ[2]، والمعنى هنا: "لستَ منهمْ في شيءٍ، أنَّكَ لا صلةَ بينكَ وبينهمْ، فحرفُ (منْ) اتِّصاليَّةٌ، وأصلُها (منْ) الابتدائيَّةُ"[3]، فالنَّفيُ يكونُ أقوى بوجودِها، فلا علاقةَ له بهم من أوَّلِ أمرِه، وهو تبرئتُه ﷺ بأقوى وجهٍ.

ويجوزُ أن تكونَ دالَّةً على التَّبعيضِ تنزيهًا له ﷺ، إذْ حرفُ الجرِّ (مِنْ) في الآيةِ يجوزُ أنْ يكونَ على معنى التَّبعيضِ، وهوَ معنًى متداوَلٌ منْ معانِيها[4]، ونفي كونه ﷺ بعضَهمْ في قوله: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ﴾؛ تنزيهٌ لهُ ممَّا وصفَهمْ الحقُّ ﷻ مِنَ الأوصافِ السَّيِّئَةِ في تفريقِ الدِّينِ، وكونهمْ شيعًا.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/191.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 419.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(4) المراديّ، الجنَى الدّاني، ص: 309.

دلالةُ دخولِ ليس واسمها وخبرها في قولِه ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، (ليسَ) دالَّةٌ على النَّفي، نفي كونه ﷺ من أفعالِهم في التَّفريقِ، فالإسلامُ جاءَ جامعًا، فأيُّ تفريقٍ فأنتَ بريءٌ منه، والمعنى: "لستَ من دينِ اليهودِ والنَّصارى في شيءٍ، فقاتلْهم"[1].

براءتُه ﷺ من دينِ اليهودِ والنَّصارى

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٍۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، (شيءٍ): اسمٌ نكرةٌ واقعٌ في سياقِ النَّفي، والنُّكتةُ في تنكيرِه: أنَّهُ "اسمُ جنسٍ بمعنى موجودٍ، فَنَفْيُهُ يفيدُ نفيَ جميعِ ما يوجَدُ مِنَ الاتِّصالِ"[2]، أي: تبرئتُه ﷺ من كلِّ وجهٍ، وفروغُه من كلِّ ما له صلةٌ بهم.

إظهارُ براءتِه ﷺ مِنْ أدنى صلةٍ بهمْ

بلاغةُ الإيجازِ في جملة ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، بلاغةُ الإيجازِ في هذهِ الجملةِ: أنَّها مشتمِلةٌ على المعاني الجمَّةِ الغزيرةِ، ومعناها: "المباعدةُ التَّامَّةُ مِنْ أنْ يجتمعَ معهمْ في معنى مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الفاسدةِ"[3].

غرضُ السِّياق نفيُ موالاة المتفرِّقين شِيَعًا، ونبذُ مذاهبِهم الفاسدة

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، الجملةُ واقعةٌ موقعًا بيانيًّا، دالًّا على الاستئنافِ[4] بعدَ ذكرِ براءتِه ﷺ؛ فجاءتْ ردًّا على سؤالِ سائلٍ مُفْتَرَضٍ: هلْ جزاءُ أعمالِهِمْ ممَّا يقعُ على الرَّسولِ ﷺ؟ فكانَ الجوابُ أنَّ مصيرَهمْ إلى اللّهِ تعالى وحدَهُ، إمَّا أنْ يعاقبَهمْ إنْ ثبتوا على ضلالِهِمْ، أوْ يعفو عنهمْ عندَ توبَتِهِمْ[5].

المصيرُ والجزاءُ راجعٌ إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(3) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/34.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/234.

القَصْر وطريقتُه ونوعُه في جملة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

الجـمـلـةُ كالتَّعليلِ لنفيهِ تعالى أنْ يكونَ الرَّسُولُ منهمْ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معنى الجملةِ: حصرُ أمرِهمْ إليهِ تعالى دونَ سواهُ، وهذهِ الجملةُ كالتَّعليلِ لما سبقَها[1] من قولِهِ: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، أي: لا رابطةَ لكَ بهمْ، فهوَ منْ يتولَّى شأنَهمْ وحدَهُ، ويدبِّرُهُ كيفَما يشاءُ، وحسبَما تقتضيهِ حكمتُهُ، وهوَ قصرُ موصُوفٍ على صفةٍ، وهوَ قصرٌ إضافيٌّ، وجاءتْ بـ﴿إِنَّمَآ﴾؛ لأنَّ الأمرَ ممَّا ينبغي ألَّا ينكرَهُ منكِرٌ.

غرضُ القَصْرِ قلبُ اعتقادِ السَّائلِ المتردِّدِ:

مهمَّةُ الرَّسولِ البلاغُ، وأمرُ العبادِ إلى اللهِ

لَمَّا دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ على البراءةِ منهمْ وتركِ مخالطَتِهمْ؛ أُثيرَ سؤالٌ: هلْ يتولَّى الرَّسولُ ﷺ مجازاتَهمْ؟

فجاءَ الجوابُ بصيغةِ القَصْرِ، وفائدتُهُ قلبُ اعتقادِ السَّائلِ المتردِّدِ وظنِّهِ[2]، بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فشأنُهُم وعاقبتُهم إلى اللّهِ وحدَه لا إلى غيرِه.

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ مجازٌ من بابِ الاستعارةِ:

شبَّه أمرَ من فَرَّقَ الدِّينَ بضالَّةٍ تركَها النَّاسُ، حتَّى وصلتْ إلى مرجِعِها

والتَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يفيدُ انتهاءَ الغايةِ مجازًا من بابِ الاستعارةِ، فقدْ "شبَّهَ أمرَهمْ بالضَّالَّةِ الَّتي تركَها النَّاسُ، فسارتْ حتَّى انتهتْ إلى مُراحِها، فإنَّ الخلقَ كلَّهمْ عبيدُ اللّهِ، وإليهِ يرجعونَ "[3].

دلالةُ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾:

اللهُ تعالى يؤخِّرُ عقابَهُ مدَّةً مِنَ الزَّمنِ، إمهالًا مِنْهُ للعبادِ

معنى حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾: أنَّه يفيدُ التَّرتيبَ مع المُهْلَةِ، والمعنى في الآيةِ: أنْ يبقى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.

شأنُهمْ إلى اللّهِ مدَّةً مِنَ الزَّمنِ، إمهالًا منهُ تعالى وإملاءً لهم[1].

والتَّعبيرُ بـ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ المهلةَ؛ لتراخي الحشرِ والحسابِ عن زمانِ التَّكليفِ، وفي التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ "إشارةٌ إلى افتراقِ حالِهمْ في دنياهُمْ، عنْ حالِهِمْ في أُخْرَاهُمْ افتراقًا بيِّنًا؛ لأنَّ بينهمْ مسافةً بعيدةً"[2]، فالدُّنيا دارُ فناءٍ، والآخرةُ دارُ بقاءٍ، لمنْ يعتبرُ.

التَّعبيرُ بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ كنايةٌ عن معاقبتِهم جزاءَ أفعالِهم:

الإنباءُ مقدِّمةٌ لعقوبتِهم، وتقريرٌ لهم فيما ارتكبوا

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، بعدَ ما آلَ أمرُهم إلى اللّهِ، بيَّنَ أنَّهُ سيُخبرُهمْ بما كانوا يعملونَ، وليسَ هذا مآلَ الكافرينَ، بلْ جزاؤهمُ العقابُ، فجعلَ الإنباءَ كنايةً عَنِ العقابِ؛ لأنَّ النَّبأَ هوَ الخبرُ الشَّديدُ الخطيرُ، "ومعنى أنبأهم بما كانوا يفعلونَ: إنباؤهمْ بما ينتظرُهمْ مِنَ العقابِ، بما كانوا يقولونَ، فينالونَ منْ بعدِ ذلكَ جزاءَهُ، ويصحُّ أنْ يكونَ الإنباءُ بإنزالِ العذابِ فعلًا"[3].

فالإنباءُ من مقدِّماتِ العقوبةِ المستحقَّةِ لهم، وهو كالتَّقريرِ لهم، فيما ارتكبوه في حياتِهم، وهناكَ مقصدٌ منْ مجيءِ التَّعبيرِ بالفعلِ، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾، وهوَ تنبيهُهُمْ على جهلِهمْ وغفلتِهمْ بما اقترفوا مِنَ الأفعالِ الدَّنيئةِ المستحقَّةِ للعذابِ، فيظهرُ لهمْ على رؤوسِ الأشهادِ، ويطلعُهمْ على ذميمِ ما كانوا يفعلونهُ، فيقرُّونَ، ويعترفونَ، فيتعرَّفونَ عَدْلَهُ تعالى في معاقبتِهمْ[4].

دلالةُ الباءِ على السَّببيَّةِ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

تفريقُ الكفرةِ الدِّينَ، والمروقُ منهُ سببُ عقوبتِهم ومجازاتِهم

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا﴾ السَّببيَّةُ، وهوَ أحدُ معانِيها في لسانِ العربِ[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2756.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2756، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/314، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/607.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 139.

والمعنى: أنَّه يعاقبُكُم بسببِ ما كنتمْ تفعلونَه من تفريقِ الدِّينِ والخروجِ منه. ويمكن أن تكونَ الباءُ للنَّقل والتَّعديةِ، وهو معنًى أصيلٌ، لا ينفكُّ عنها.

معنى العمومِ في الأداة (ما) في قولِه تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

قد تكون (ما) مصدريَّةً، والمعنى: ينبِّئُكم بفعلكم، وقد تكون موصولةً على معنى ينبِّئُكم بالذي كنتم تفعلونَهُ، فضلًا عن دلالتِها على العموم لا التَّعيينِ كـ(الّذي) ونحوه، ومعناها: أنَّ الحقَّ ﷻ يخبرُهمْ بكلِّ شيءٍ كانوا يفعلونهُ، ويستحقّونَ العذابَ عليهِ.

اللهُ عالمٌ بما كانَ عبادُهُ يفعلونَ، صَغُرَ أو كَبُرَ ما يقترفون

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾، ودلالتُه على الشُّمولِ، فإنَّ الفعلَ يشملُ القولَ أيضًا، ويشمل ما كان مقصودًا، وما كان غيرَ مقصود، وهمْ محاسَبونَ على القولِ والفعلِ، كالخيرِ والشرِّ والتَّفريقِ والابتداعِ في الدّينِ.

علَّةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ (يفعلون):

وأوردَ الفعلَ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، من غيرِ تعيينِ مفعولٍ له، فيكونُ التَّقديرُ (يفعلونهُ)، لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليهِ ﴿بِمَا كَانُواْ﴾، أيْ: بالَّذي يفعلونهُ، فضلًا عنْ أنَّ حذفَ المفعولِ، يوحي بإطلاقِ الفعلِ، أي: إنَّهُ ينبِّئُهمْ بأيِّ شيءٍ يفعلونهُ، فيحاسبُهم عليهِ.

حذفُ المفعولِ لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه مع إطلاقِ الفعلِ:

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

(التَّفرُّق) و(التَّشيُّع) و(التَّحزُّب):

التَّفرُّقُ منْ مادَّةِ (فرق)، والأصلُ في معناهُ: الفصلُ والتَّمييزُ بينَ أمرينِ[1]، وهوَ طباقُ المعنى في الآيةِ في أنَّهمُ انفصلوا، وتميَّزوا عَنِ

التَّفرُّقُ: انفصالٌ، والتَّشيُّعُ كذلك، معَ مساعدةٍ وإثارةٍ، والتَّحزُّبُ تجمُّعٌ ودعمٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

الجماعةِ، وفرَّقوا دينَهمْ، " أي: جعلوا دينَهمْ مختلفًا، فخلطوا حقَّهُ بباطلِهِ، بأنْ آمنوا ببعضِ الرُّسلِ وبعضِ الكتبِ، وكفروا ببعضٍ"[1].

وكونهُمْ شيعًا، مأخوذٌ منْ شيعةِ الرَّجلِ، وهُمُ الجماعةُ الَّتي تميلُ إليهِ، وأصلُها مِنَ الشِّياعِ، وهيَ أعوادُ الحطبِ الدَّقيقةُ الَّتي تُجعلُ معهُ، وتكونُ تابعةً للحطبِ لتساعدَ على الاشتعالِ[2]. فالمشايعةُ المساعدةُ والإثارةُ، كما ظهرَ مِنَ المعنى المستوحى منْ شياعِ الحطبِ.

أمَّا الحزبُ؛ فيختلفُ عَنِ اللَّفظينِ السَّابقَيْنِ في أنَّهُ جماعةٌ تتعاونُ، فالجماعةُ الَّتي تُعينُ الرَّجُلَ، فيتقوَّى أمرُهُ، تسمَّى الحزبَ، وهوَ مِنْ قولِهِمْ: حَزَبَنِي الأمرُ عندَ اشتدادِهِ عليَّ[3].

(الفعل) و(العمل) و(الصُّنع):

الفعلُ تأثيرٌ، والعملُ إحداثٌ، والصُّنعُ إحداثٌ معَ إجَادَةٍ

معنى الفعلِ تأثيرٌ بمؤثِّرٍ إنْ كانَ بإجادةٍ أوْ بغيرِها، فهوَ عامٌّ، ولما كانَ عنْ علمٍ ومعرفةٍ أوْ بغيرِ علمٍ، وأنْ يكونَ بقصدٍ أوْ منْ دونِ قصدٍ، وقدْ يكونُ مِنَ الإنسانِ أوْ منْ غيرِهِ[4]، فهوَ بذلكَ يدلُّ على العمومِ، وعلى عدمِ الإتقانِ، والتَّعبيرُ في الآيةِ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفۡعَلُونَ﴾، مطابقٌ لما وردَ منْ معانٍ، فإنَّ فعلَهمْ كانَ عشوائيًّا خارجًا عنْ دائرةِ العلمِ واليقينِ؛ لذا وصفَ الحقُّ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - حَالَهُمْ بأنَّهُ سيخبرُهمْ بعظيمِ مرتكبِهِمْ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾، والإنباءُ إخبارٌ عَنِ الشَّيءِ العظيمِ، والإنباءُ هنا أنْ يؤولَ أمرُهمْ إلى العذابِ.

أمَّا العملُ؛ فهوَ إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ منْ غيرِ علمٍ، فالعملُ لا يقتضي العلمَ، والعملُ يكونُ بمعنى الإحداثِ[5]، وهوَ أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قدْ ينسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فرق).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 307.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 415.
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.

أمَّا الصُّنعُ؛ فيختلفُ عَنِ الاثنينِ؛ لأَنَّهُ إجادةُ الشَّيءِ، ولاتوصفُ الحيواناتُ والجماداتُ بأنَّها صانعةٌ، بلْ يوصفُ الحاذقُ المُجيدُ بأنَّهُ صانعٌ لإجادتهِ وجودتهِ[1]، ولم يوصفْ به غيره.والصُّنع يقتضي تهيئةً وإعدادًا ومراحل في العمل، لذلك وردَ ذكرهُ في القرآنِ في قضايا تحتاج إلى هذه العمليَّات والمراحل المتعدِّدة.

(1) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ المآلِ إلى اللهِ وحسابِه للعبادِ، بمجازاتِه بالحسنةِ والسَّيِّئة

هذهِ الآيةُ متَّصلةٌ بما سبقَها اتِّصالَ الجوابِ بالسُّؤالِ، فإنَّهُ لَمَّا ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ السَّابقةَ بقولِه: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإذا آلَ أمرُ هؤلاءِ إليه، فثمَّةَ سائلٌ يسألُ: فما هوَ مصيرُهمْ؟ الجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّهُ سيجازيهمْ بأفعالِهمْ، فمنْ يجيءُ بالحسنةِ؛ فلهُ مثلُها عشرًا إكرامًا وإحسانًا، هذا جزاؤهُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ، فَعَدْلُهُ تعالى أنْ يُجازَى بمثلِها؛ فإنَّهُ لا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ منْ خلقهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾: الجذرُ اللُّغويُّ منه (حسن)، والأمرُ الحسنُ ضدُّ السَّيِّئ، والحسنُ: الإجادةُ في العملِ والمعرفةِ والإتقانِ[2]، وأصلُ معناهُ واضحٌ وهو نقيضُ القُبْحِ[3]. والحسنُ: "عبارةٌ عن كلِّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه...والحسنةُ يُعبَّرُ بِهَا عن كلِّ ما يسرُّ من نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسهِ وبدنِه وأحوالِه"[4].

والحسنةُ منْ أسماءِ الأجناسِ الَّتي تشتملُ على أنواعٍ كثيرةٍ، وتفسيرُها بحسبِ نوعِها في الآيةِ، فقدْ يكونُ الحُسْنُ معنويًّا، وقدْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/336.
(2) الخليل، العين، والفيّومي، المصباح المنير: (حسن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حسن).

يكونُ بمعنى الإيمانِ والتَّوبةِ والعملِ، كهذهِ الآيةِ[1]، فهي هنا أنْ يوافيَ الإنسانُ ربَّه يومَ القيامةِ بالتَّوبةِ والإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ والإقلاعِ عن المعاصي.

2) ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: اسمٌ مؤنَّثٌ، الجذرُ اللُّغويُّ منه (سوء)، "والسُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديء، ساءَ يسوءُ، لازمٌ ومجاوزٌ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدَّاءِ"[2]. والسَّيِّئَةُ "من بابِ القبح، تقولُ: رجلٌ أَسوأُ، أَي: قبيحٌ، وامرأَةٌ سوْءَاءُ، أَي: قبيحةٌ... ولذلكَ سمِّيتِ السَّيِّئَةُ سيِّئَةً، وسمِّيتِ النَّار سُوْءَى لِقُبْحِ منظرِها"[3].

والمعنى العامُّ للسُّوءِ ما يحصلُ للإنسانِ من الغمِّ والهمِّ، من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وما يعرضُ له من الأمورِ النَّفسيَّةِ كفقدِ المالِ والجاهِ وغيرِه[4].

والسَّيِّئَةُ مِنَ السُّوءِ، وهيَ ما قَبُحَ مِنَ الأفعالِ، وهيَ صفةٌ جاريةٌ مجرى الجوامدِ لإفادةِ الذَّمِّ، وهيَ على ضربينِ منهُ ما يُقالُ باعتبارِ العقلِ والشَّرعِ[5]. ومعنى ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ في الآيةِ: الإشراكُ والكفرُ باللهِ تعالى[6].

3) ﴿يُظۡلَمُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (ظلم)، ومعناهُ: أنْ تأخذَ حقَّ غيركَ، وتسلبهُ إيَّاهُ[7].

والأصلُ في معنى الظُّلم وضعُكَ الشَّيءَ في غيرِ الموضعِ الحقيقِ، بهِ تعدِّيًا[8]، فهوَ خلافُ الحقِّ، فمنْ تعدَّى مِنَ الحقِّ إلى الباطلِ، فقدَ وضعَ الشَّيءَ في غيرِ موضعهِ نقصانًا أَوْ زيادة، أَوْ ميلًا وانحرافًا عنْ زمانهِ أَوْ مكانهِ، وبذلكَ يسمَّى ظالمًا[9].

وهوَ أيضًا الجَوْرُ ومجاوزةُ الحدِّ، وبذلكَ يدخلُ في المعنى العامِّ الموضوعِ لهُ، فالجَوْرُ على حقوقِ النَّاسِ هوَ منعٌ لهم[10].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).
(2) الخليل، العين: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/701، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/380.
(7) الخليل، العين: (ظلم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (ظلم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظلم).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).

ونفيُ الظُّلمِ هنا توكيدٌ لجزاءِ السَّيِّئةِ بمثلِها، تحقيقًا للعدلِ، وأنَّه موضعٌ لا ظلمَ فيهِ، كيْ ينصفوا أنفسَهمْ[1].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

ميزانُ الجزاءِ الإلهيِّ، بِجزاءِ الحسنةِ بعشرٍ، والسَّيِّئةِ بمثلِها

إنَّه ميزانٌ وضعَه الحقُّ ﷻ: أنَّ من عملَ حسنةً؛ فجزاؤه عشرٌ من مثلِها، لذَّةً ونعيمًا، ومن عملَ سَيِّئَةً؛ فلا يُجزى إلَّا بواحدةٍ من مثلِها، وهذا من مقتضى عدلِه، ومن عظيمِ فضلِه على عبادِه، بأنْ أفاضَ على الطَّائعينَ من جودِه العميم، وعاقبَ العاصينَ بمقدارِ عصيانِهم، بعدلِه الرَّحيم، فالجميعُ عندَه لا يُظلمونَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿مَن جَآءَ﴾:

مَنْ يأتِ بالحسنةِ يُجزَ عشرَ أضعافِها بكرمِ اللهِ الواسعِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ هذه الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ لتعيينِ جزاءِ العاملينَ، فكأنَّ سائلًا يسألُ عنْ جزاءِ منْ يعملُ حسنةً؟ فكانَ الجوابُ أنْ يُجازى بعشرِ أضعافِها، ثمَّ ذكرَ أضدادَهمْ، والآيةُ تذييلٌ للكلامِ السَّابقِ[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾:

الاسمُ الموصولُ (مَنْ) مُؤذِنٌ بالعمومِ، فالمحسنُ مجازًى أيًّا كانَ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العمومِ، وهوَ هنا كذلكَ، خلافًا لمَنْ قيَّدهُ بالأعرابِ أوْ نحوِهمْ، فحكمُ المجيءِ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ، وما يترتَّبُ عليهما، عامٌّ يشملُ الجميعَ كائنًا منْ كانَ[3]. ﴿مَن﴾ هنا استُعملت في معنى الشَّرط، حيث ربطت بين فعل الحسنةِ ومضاعفةِ أجرها، ومعاملةُ اللهِ النَّاسَ فيما أحسنوا وأساؤوا قائمةٌ على العدل، فلا يضيعُ عنده جهدُ العاملين، مهما كان ضئيلًا، وقد وردَ في القرآنِ الكريمِ قولُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 8/68 - 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/702، وإسماعيل حقِّي، روح البيان: 3/126.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف: 30].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيء في جملة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾:

المجيءُ إتيانٌ معَ إصابَةٍ، وهو أفخمُ في التَّعبيرِ من (عمل الحسنة)

وقدْ عبَّرَ بالمجيء بالحسنةِ في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، والأصلُ في الحسنةِ أنْ تكونَ معمولةً، فالمعنى منْ عمِلَ الحسنةَ، لكنَّهُ استعملَ المجيءَ معَ الحسنةِ، تشبيهًا لعاملِها بمنْ يخرجُ يطلبُ رزقَهُ، منْ وجوهِهِ المختلفةِ، منْ صيدٍ أوِ احتطابٍ، فيصيبُ منهُ ما يشاءُ، فيجيءُ أهلَهُ بشيءٍ منْ ذلكَ[1]، وهو أفخمُ من التَّعبيرِ بعملِ الحسنةِ.

بلاغةُ المجازِ والحقيقةِ في المجيءِ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ:

ما يستوجبُ للمرءِ ثوابًا وعقابًا، هوَ المعتمدُ، فالأمورُ بخواتيمِها

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، المجيءُ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ له وجهان:

فإمَّا أن يكون مجازًا، منْ بابِ الاستعارةِ، فقدْ شبَّهَ المحسنَ وغيرَهُ بمنْ يخرجُ طالبًا رزقَهُ أوْ نحوَهُ، فيصيبُ منهُ ما قدَّرَ اللّٰهُ لهُ، وشُبِّهت الحسنة بالشَّيء المحسوس الَّذي من شأنه أن يُجاء به. أو يكون المجيءُ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ حقيقةً، لكنَّهُ لمْ "يقلْ: مَنْ عَمِلَ لِيُعْلَمَ أنَّ النَّظرَ إلى ما خُتِمَ بهِ، وقُبِضَ عليهِ دونَ ما وُجِدَ منهُ منَ العملِ، فكأنَّهُ قالَ: منْ خُتِم لهُ بالحسنةِ، وكذلكَ السَّيِّئةُ"[2].

فجعلَ عاقبةَ أمرِ المرءِ، وما يستوجبُ منَ الثَّوابِ والعقابِ، هوَ المُعَوَّلَ عليهِ، لا الأعمالَ نفسَها، فقدْ يأتي بعملٍ حسنٍ، ثمَّ يفسدهُ، فالأعمالُ بِخَوَاتِيمِهَا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/334.

المحسنُ يكتبُ حسنَتَهُ في صحيفةِ أعمالِهِ يوم الحساب الأكبر

الألفُ واللَّامُ جنسيَّةٌ تشملَ جميعَ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ

إفرادُهما لبيانِ ما سيليهما من جزاءٍ مُضاعفٍ للمُحسنِ، ومُفردٍ للمُسيء

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الباءُ الدَّاخلةُ على الحسنةِ والسَّيِّئةِ، تفيدُ المصاحبةَ، والكلامُ تمثيلٌ[1] فقد شبَّهَ عملَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ بحالِ المكتسبِ، كأنَّه يجيءُ بها. ويمكن أن تكونَ الباءُ على أصلِها في معنى التَّعدية، ويمكنُ حملُ المجيءِ على حقيقتِهِ، أي: أنْ يأتيَ إلى الحسابِ، فيجيءُ بحسنتِهِ، ويكتبُها في صحيفةِ أعمالِهِ[2].

معنى (أل) في لفظي الحسنة والسّيّئة:

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، الألفُ واللَّامُ في الحسنةِ والسَّيِّئةِ جنسيَّةٌ تفيدُ العمومَ، أيْ: جميعُ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، فاللَّفظُ عامٌّ في كلِّ حسنةٍ أوْ سيِّئةٍ، تصدرُ منَ العبدِ[3].

نكتةُ إفرادِ الحسنةِ والسَّيِّئةِ في الآيةِ الكريمةِ:

ونكتةُ ورودِ الحسنةِ والسَّيِّئةِ هنا مفردةً: هو بيانُ ما سيليها منْ جزاءٍ، فقدْ ذكرَ أنَّ المحسنَ إن جاءَ بواحدةٍ؛ كُتبتْ لهُ عشرًا، والمسيءُ إن جاءَ بواحدةٍ؛ جُزيَ بمثلِها[4]، فلو لم تفردْ؛ لما تبيَّنَ هذا الجزاءُ، فضلًا عن كونِهما - أي: الحسنة والسَّيِّئة - اسمَيْ جنسٍ.

"قال ابن مسعود وغيره: بِٱلۡحَسَنَةِ هنا: (لا إله إلا اللّه)، وبِالسَّيِّئَةِ: الكفر.. وهذه هي الغايةُ من الطَّرفَيْن، وقالت فرقةٌ: ذلك لفظٌ عامٌّ في جميع الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وهذا هو الظَّاهر، وتقديرُ الآية: (مَنْ جاء بالحسنة، فله ثوابُ عَشْرِ أمثالها)"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/193، والخازن، لباب التأويل: 2/177.
(4) السّيوطيّ، الدّرُّ المنثور: 2/37.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/534.

بلاغةُ النَّظمِ في إفادةِ معنى الشَّرطِ ودلالتِه في الآيةِ:

دلالةُ التَّرغيبِ للمحسنِ في الحسنةِ، والتَّنفيرِ للمسيءِ منَ السَّيِّئةِ

والنَّظمُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قائمٌ على الشَّرطِ، ودلالةُ هذا الشَّرطِ في الآيةِ قائمٌ على المجازاةِ، وهيَ متناسبةٌ معَ معنى الآيةِ، فإنَّ منْ جاءَ بالحسنةِ؛ جُوزي عليها عشرًا، ترغيبًا لمن جاءَ بها، ومنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ؛ جُوزيَ عليها بمثلها تنفيرًا من تعاطيها.

بلاغةُ طباقِ السَّلبِ بينَ لفظي (الحسنةِ) و(السَّيئةِ) في الآية:

بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حسنَهُ الضِّدُّ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ مقابلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، جاءَ بالمتضادَّاتِ ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بطباقِ السَّلبِ[1]، وفي هذا الضَّربِ إشارةٌ مؤثِّرَةٌ في وضوحِ المغزى، ومزيدِ فصاحتِه؛ بما يجعلُ النَّفسَ مشدودةً إليه، منجذبةً نحوَ تعرُّفِ معناهُ، واستكناهِ سرِّهِ، والعربُ تقولُ: (بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ)، فَذِكْرُ السَّيِّئةِ بعدَ الحسنةِ، يخلعُ على الجملةِ بهاءً وبيانًا، ويزيدُها نصاعةً وتقريرًا.

وفي ذلكَ زيادةٌ في تعالقِ الجملِ المشتملةِ على الألفاظِ المتضادَّةِ، والطِّباقُ أسلوبٌ رائعٌ، لا يُحسِنهُ إلَّا منْ أوتيَ جوامعَ الكلمِ، فإنَّ اللَّفظةَ تُظهِرُ نصاعةَ اللَّفظةِ الأخرى وجمالَها، أكثرَ ممَّا لوْ كانتْ منفردةً، والعربُ تقولُ: (والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ).

الرَّبطُ في دخولِ الفاءِ في قوله: ﴿فَلَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَلَا﴾:

الفاءُ دالَّةٌ على الجزاءِ ترغيبًا معَ الحسنةِ وتنفيرًا معَ السَّيِّئةِ

ودخلتِ الفاءُ رابطةً في جملتين، الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، مقابلَ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، ففي الأولى قالَ: ﴿فَلَهُۥ﴾؛ لأنَّه إيجابُ الجزاءِ في الحسنةِ، وفي الثَّانيةِ قالَ: ﴿فَلَا﴾، وهو ممَّا ليسَ فيه إيجابٌ مع السَّيِّئةِ[2]، وفي الموضعين:

---

(1) ويقال التّضادّ، والتّكافؤ والمقابلة، وحاصله الإتيان بالنَّقِيضَيْنِ والضّدين، كالحسنة والسّيئة في الآية، يَحْيَى العلويّ، الطّراز: 3/198.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/333.

تدلُّ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ على يقينِ العطاءِ المُضاعَفِ في قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، وفي الثَّانية على المماثلة، ونفي الأضعاف في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾:

اختصاصُ مجازاةِ المُحسنِ بعشرٍ مِنْ أمثالِها إشعارًا بعلوِّ منزلتِهِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، هنا قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسنَد إليه ﴿عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، وهوَ تقديمٌ جائزٌ لا واجب، وتظهرُ فائدتهُ في الاختصاصِ، اخْتِصَاصِ جزاءِ الَّذي يأتي بالحسنةِ في أنَّهُ يُجازى بعشرِ أمثالِها إشعارًا بأنَّه ذو منزلةٍ عاليةٍ، حتَّى نالَ هذا الجزاءَ، واللَّام فيه للتَّخصيص أو للاستحقاق.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَشۡرُ﴾ من دون تاءٍ مع المعدودِ المذكَّرِ (مِثْل):

يجعلُ اللهُ تعالى الأصلَ في العطاءِ على الحسنةِ، لا على المِثْل

واستعملَ كلمةَ ﴿عَشۡرُ﴾ من غيرِ تاءٍ في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ معَ أنَّ المعدودَ (مثل) مذكرٌ، والأصلُ في العددِ أنْ يباينَ المعدودَ في لحوقِ التَّاءِ مِنْ عدمِها[1]، فالمعدودُ هنا مذكَّرٌ، والقيَاسُ أنْ تلحقَ التَّاءَ، فالتَّاءُ قرينُ التَّذكيرِ، وعدمُها قرينُ التَّأنيثِ، فتركُها هنا إيذانٌ بأنَّ الحقَّ ﷻ: "لَمْ يجعلِ الأصلَ في العطاءِ هوَ المثلَ، بلْ جعلَ الأصلَ هوَ الحَسَنَةَ"[2]، وهذا من مطلق رحمتِه وكرمِه وفضلِه ﷻ.

جاء في (الدّرّ المصون): "قولهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾: إنَّما ذكَّر العددَ، والمعدودُ مذكَّرٌ، لأوجهٍ؛ منها: أنَّ الإضافةَ لها تأثيرٌ - كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ - فاكتسب المذكَّرُ من المؤنَّثِ التأنيثَ، فأُعطي حكمَ المؤنَّث من سقوط التَّاء من عددِه، ولذلك يؤنَّثُ فعلُه حالة إضافتِه إلى مُؤَنَّثٍ. ومنها: أنَّ هذا المذكَّر عبارة عن مؤنَّثٍ، فروعِيَ

(1) الحريريّ، ملحة الإعراب، ص: 73.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4017.

المُرادُ دون اللَّفظ. ومنها: أنَّه راعى الموصوف المحذوف، والتَّقديرُ: فله عشرُ حسناتٍ أمثالها، ثمَّ حذف الموصوف وأقام صفتَه مُقامَه، تاركًا العددَ على حالِه"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾:

قراءةُ التَّنوينِ كانت دفعًا لتوهُّمِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِهِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، قرأ يعقوبُ (عَشْرٌ أَمْثَالُها)، بتنوينِ عشرٍ، ورفعِ أمثالِها، وقرأ الباقون ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، بغيرِ تنوينٍ مع جرِّ أمثالِها على الإضافةِ[2].

والمعنى على قراءةِ يَعْقوبَ: فلهُ حسناتٌ عشرُ أمثالِ الحسنةِ تلكَ، فـ(أمثالها) صفةٌ أو بدلٌ من (عَشْرٌ). والمعنى على قراءةِ عامَّةِ القرَّاءِ: فلهُ عشرُ أمثالِ تلكَ الحسنةِ[3].وفي توجيهِ قراءةِ يعقوبَ ابتعادٌ عنْ شبهةِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسهِ بقولِه: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فالشَّيءُ لا يضافُ إلى نفسهِ[4].

مضاعفة الحسناتِ بينَ العشرِ والسَّبْعِمِئَةِ:

هذهِ الآيةُ عامَّةٌ لجميعِ أفعالِ الخيرِ، وآيةُ البقرةِ خاصَّةٌ بالإنفاقِ في سبيلِهِ

قالَ تعالى هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقالَ في سورةٍ أخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261] فيُسألُ عن الفرقِ بين الآيتين؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ آيةَ البقرةِ خاصَّةٌ في الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، وهو من أعظمِ القرباتِ إلى اللهِ تعالى، أمَّا آيةُ الأنعامِ فعامَّةٌ في مُطلَقِ الحسناتِ[5]، شاملةٌ جَميعَ أفعالِ الخيرِ.

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/237، وبتصرف.
(2) ابن الجزريّ، النشر: 2/267.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/397.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/280.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني: ص 171 - 172.

دلالةُ الفعلِ على عدمِ الثُّبوتِ مُؤْذِنٌ بجوازِ العفوِ عَنِ السَّيِّئةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالصِّيغةِ الفعليَّةِ بدلًا من الاسميَّةِ في الآيةِ الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، عَدَلَ عن المجازاةِ بالسَّيِّئةِ من الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ في أنَّهُ تعالى يمكنُ "أنْ يعفوَ عَنِ السَّيِّئةِ فلا يحسبُ حتَّى المِثْلُ الوَاحِدُ"[1]؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على عدمِ الثُّبوتِ خلافًا للجملةِ الاسميَّةِ، فالمحسنُ لهُ عشرُ أمثالِ الحسنةِ ثابتةً قائمةً تزيدُ، ولا تنقصُ.

انصِباب المَعنى على وقوعِ فعلِ الجزاءِ على وجهِ السّرعة

نكتةُ التَّعبيرِ عن فعلِ الجزاءِ بالبناءِ للمفعولِ في ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾:

وبُنِي الفعلُ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ للمفعولِ بحذفِ الفاعلِ، والأصلُ فيهِ (يجزي اللَّه)، ونُكْتَتُهُ أنَّ المُجازيَ هوَ اللَّهُ، وقدْ حُذِفَ لفظُهُ للعلمِ بِهِ، فلا جزاءَ إلَّا منهُ ﷻ، وليسَ لغيرِهِ مِنَ الأمرِ شيءٌ، فالدَّعوةُ هنا للانشغالِ بالفعلِ عن الفاعلِ للعلمِ بهِ.

الاهتمامُ بالجزاءِ، والكشفُ عن مصيرِ من يأتي بالسَّيِّئاتِ

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه في الاستثناءِ بعدَ النَّفي:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، جاءتِ العبارةُ هنا على طريقةِ الحَصْرِ، وهوَ حصرٌ حقيقيٌّ غرضُهُ الإخبارُ عَنِ الأمرِ حقيقةً، وليسَ منْ بابِ ردِّ الاعتقادِ[2].

والتعبيرُ بأسلوبِ الحصرِ منْ بابِ الاهتمامِ بجزاءِ المسيءِ، ولِما فيهِ منْ جانبِ النَّفيِ ممَّا يزيدُ الأمرَ توكيدًا، فمنْ يعملُ سيِّئةً فجزاؤُهُ مثلُها، طباقًا وفاقًا منْ غيرِ زيادةٍ أوْ نقصانٍ، فالقصرُ هنا من قصرِ الجزاءِ على صفةِ المِثليَّة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وجاءَ بأسلوبِ الاستثناءِ، بعدَ النَّفيِ الَّذي يأتي مع المُنَكِّرِ أو من يُنَزَّلُ هذه المنزلة؛ لأنَّ الإنسانَ قد يظنُّ أنَّ هذه السَّيِّئةَ قد تُضاعف، كما هي الحسنة، فجاءَ هذا الأسلوبُ من القصرِ، ليبيِّنَ أنَّ الأمرَ ليس كما يُظنُّ.ويُقالُ في الفاءِ هنا، كما قيلَ في تلك.

---

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 8/403، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/613.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

التَّعبيرُ بقوله: ﴿مِثْلَهَا﴾ في الآيةِ فيه مجازٌ بالحذفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، دلالةُ قولِه: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (عقابَ مثلِ السَّيِّئَة)؛ لأنَّ المجازاةَ لا تكونُ بالسَّيِّئَةِ نفسِها، وإنَّما أضافَ المِثْلَ إلى ضميرِ السَّيِّئَةِ للملابسةِ، والإضافة في اللُّغةِ، تكونُ لأدنى ملابسةٍ واتِّصال، ثمَّ حذفَ المضافَ (عقاب)، وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامَهُ امتنانًا منهُ تعالى على خلقِه.

الكلامُ على حذفِ مضافٍ، تقديرُهُ (عقاب مثلِها)، وإضافتُها للملابسةِ

وقدْ يكونُ المِثْلُ على غيرِ نوعِ الأصلِ، "حيثُ أوجبَ في الحسنةِ مِنَ الثَّوابِ عشرَ أمثالِها، ومِنَ السَّيِّئَةِ مِثلَها، وليسَ واحدٌ منهما مِنْ نوعِ الأصلِ والعملِ الَّذي يُثابُ عليهِ"[1]، فالمِثلُ يختلفُ عَنِ الأصلِ، والمظنونُ أنَّ المِثْلَ هنا أفضلُ منَ الأصلِ؛ لأنَّ الحسنةَ والسَّيِّئَةَ صادرةٌ مِنَ البشرِ، والمِثْلَ صادرٌ منْ ربِّ البشرِ.

معنى الواوِ في: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وموقعُ الجملةِ بعدَها:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، الواوُ في هذهِ الجملة تَحتمِلُ العطفَ، عطفتِ الجملةَ بعدَها على جوابِ الشَّرطِ، وهو قولُه: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، لتفيدَ تشريكًا معنويًّا، فإنَّ المجازي هو الحَكَمُ العَدْلُ، لا يجازي أحدًا من خلقِه إلَّا بما يستحقُّ. ويَحتمِلُ أن تكونَ الواوُ في هذهِ الجملةِ حاليَّةً، أيْ: إنَّ الحقَّ ﷻ يجازي المحسنَ عشرًا، والمسيءَ واحدةً، حالةَ كونِ الجميعِ غيرَ مظلومينَ، فلا تُزادُ سيِّئةُ المسيءِ، ولا تُنقصُ منْ حسناتِ المحسنِ شيئًا[2].

الواوُ تفيدُ العطفَ أو الحاليةَ، وفيهما المُجازي عادلٌ في حكمِه

دلالةُ الضَّميرِ (هم) ومرجعيَّتُهُ في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

والضَّميرُ (هم) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، ضميرُ غَيْبَةٍ، فلا بدَّ لهُ منْ مرجعيَّةٍ تفسِّرُهُ، وهوَ هنا يعودُ على منْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ،

عودةُ الضَّميرِ لإظهارِ العدلِ الإلهيِّ، وتوخِّي الإبانةِ من الجملة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/335.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/612.

ففيهِ إظهارٌ للعدلِ الإلهيِّ، وأنَّهُ يسجِّلُ عليهمْ بانتفاءِ الظُّلمِ، وتحقيقِ الإنصافِ، وأنَّهُ عاملَهمْ بعدلهِ وإحسانهِ[1].

ويجوزُ عودةُ الضَّميرِ (همْ)، إلى منْ جاءَ بالحسنةِ، فَجُوزِيَ عليها، وإلى منْ جاءَ بالسَّيِّئةِ، فجوزيَ عليها، فلا ينقصُ منْ حسناتِ المحسنينَ، ولا يزادُ على سيِّئاتِ المسيئينَ[2]؛ فَعَدْلُه تعالى يشملُ الجميعَ.

نكتةُ العدولِ من (مَن) إلى ضميرِ الجمعِ للغائبِ (هم):

سرُّ الانتقالِ الرُّتْبيِّ مِن دلالةِ العمومِ (مَن) إلى دلالةِ التَّعيينِ (هم)

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ انتقالٌ من ﴿مَن﴾ الدَّالَّة على العموم في قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، إلى تعيينِ مَن شملهُم جزاءُ الحسنى وجزاءُ السُّوءِ، وهو انتقالٌ رُتَبِيٌّ من العمومِ إلى الخصوصِ.

نكتةُ توسُّطِ ﴿لَا﴾ بينَ المسنَدِ إليه (هم)، والمسندِ الفعليِّ ﴿يُظۡلَمُونَ﴾:

تحقيقُ العدلِ، يقعُ يومَ القيامةِ، والتَّوسُّطُ يفيد تقويةَ الحكمِ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، توسَّطَ النَّفيُ بينَ المبتدأ ﴿وَهُمۡ﴾، والخبرِ الفعليِّ ﴿يُظۡلَمُونَ﴾، ونكتةُ ذلكَ أنَّ الفعلَ المضارعَ يَحتمِلُ زمنينِ: الأوَّلُ الحالُ، والثَّاني الاستقبالُ، فلمَّا دخلتْ ﴿لَا﴾ عليهِ، خلَّصتهُ إلى الاستقبالِ[3]،، فنفي الظُّلمِ هنا وتحقيقُ العدلِ يكونُ "يومَ القيامةِ، ويقالُ: إنَّها آخرُ آيةٍ نزلتْ من كتابِ اللّهِ جلَّ وعزَّ"[4]. وتوسُّطُ النَّفي بينَ المسنَدِ إليهِ، وهوَ هنا المبتدأُ (همْ)، والمسندِ الفعليِّ، وهوَ الخبرُ ﴿يُظۡلَمُونَ﴾؛ يفيدُ تقويَةَ الحكمِ، فلا ظلمَ يقعُ على المخاطَبينَ في الآيةِ زيادةً أوْ نقصانًا، ولا مجالَ لأن يفيدَ هذا الأسلوب التَّخصيص هنا ؛ لأنَّ الظُّلم لن يلحق غيرهم أيضًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.

(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/270، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/191.

(3) ابن الورّاق، علل النّحو، ص: 562.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/360.

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ للمفعولِ:

تنزيهُ الحقِّ، ورعايةُ الفاصلةِ، مقصدٌ في البناءِ للمفعول

الفعلُ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ في الآيةِ مبنيٌّ للمفعولِ، بحذفِ الفاعلِ الدَّالِّ عليهِ سبحانهُ؛ تنزيهًا للحقِّ ﷻ مِن اقترانهِ بلفظةِ الظُّلم، وتناسبًا معَ الفاصلةِ القرآنيَّةِ، فالحذفُ للإيجاز وللعلم بالفاعل، ولكي ينشغلوا بنفي الظُّلم، بغضِّ النَّظرِ عن جهةِ صدورهِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

غايةُ الفعلِ التَّجدُّديِّ جريانُ الحكمِ في كلِّ زمانٍ

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أوردَ الفعلَ ﴿يُظْلَمُونَ﴾، بالصِّيغةِ المضارعيَّةِ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ إلى زمانِ الإخبارِ، وكذلكَ فيما يأتي مِنَ الزَّمانِ لعمومِ المعنى المقتضي نَفْيَ الظُّلمِ عنهمْ، وأنَّهُ حكمٌ جارٍ في كلِّ زمانٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المجيء) و(الإتيان):

الإتيانُ مختصٌّ بالصَّدقةِ والإنفاقِ، ولا يُعبَّرُ به معَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ

ثمَّةَ فرقٌ بينَ المجيءِ والإتيانِ، فإنَّ المجيءَ هوَ "الإتيانُ، ويُعَبَّرُ بهِ عَنِ القصدِ بالأمرِ والتَّدبيرِ"[(1)]، أمَّا الإتيانُ والإيتاءُ؛ فهوَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويسرٍ[(2)]، وهذا الفعلُ مختصٌّ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ، حيثما وردَ في القرآنِ الكريمِ[(3)]؛ لذلكَ لا يحسنُ التَّعبيرُ بالإتيانِ معَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ؛ لأنَّهما ليسا صدقةً، وهذا في القرآنِ الكريمِ، أمَّا في اللُّغةِ؛ فيُطلقُ على سَبيلِ التَّجوُّزِ، أوْ لأنَّهُ " كَثُرَ ذلكَ حتَّى استُعمِلَ أحدُ اللَّفظينِ في موضعِ الآخرِ"[(4)].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جيء).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أتى).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ جزاءِ الحسنات والسَّيِّئات بملَّة إبراهيم الحنيفيَّة، ودينه القيِّم

لَمَّا بيَّنَ السِّياق - ما مضى من آياتٍ - دلائلَ التَّوحيدِ بالأدلَّةِ القاطعةِ، وأظهَرَ ميزانَ الجزاءِ بمضاعفتِه الحسناتِ، والعدلَ في تقرير السَّيِّئاتِ، تقديمًا لمن أحسنَ، وإنصافًا لمن أساءَ؛ أمرهُ ﷺ، أنْ يبيِّنَ لهمُ الدِّينَ القويمَ، والطَّريقَ المستقيمَ الَّذي شرعهُ له، وجعَلَ هدايتَهُ فيه، فهوَ دينُ الفِطرةِ، دينُ أبيهمْ إبراهيمَ عليه السلام[1]، وكلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه، والهدايةُ لا تحصلُ إلَّا منهُ تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِيَمًا﴾: مِنَ الفعلِ (قام)، الجذرُ اللُّغويُّ لهُ (قَوَمَ)، ومنهُ قِوامُ الأمرِ، أي: أساسُهُ ومِلاكه، وبهِ يقومُ أمركمْ[2]، والأصلُ في معنى القافِ والواوِ والميم دلالتُهُ على الثَّباتِ والعزيمةِ، ويقالُ: قامَ بهذا الأمرِ؛ إذا اتَّخذهُ، واعتنقهُ. ويقالُ: هذا قِوامُ الدِّينِ، أي: بهِ يقومُ[3]، ومعنى دينًا ﴿قِيَمًا﴾: "أي: ثابتًا مقوِّمًا لأمورِ معاشِهم ومعادِهم"[4]. ومعنى الدِّينِ القيِّمِ في الآيةِ بمعنى المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه، أو هو ذو الاستقامة[5].

2) ﴿مِلَّةَ﴾: جذرهُ اللُّغويُّ منْ (ملل)، ويجوزُ منْ (ملو)، والمِلَّةُ معناها: "الشَّريعةُ والدِّينُ، شريعةٌ تمدُّ، ويُزَوَّدُ بها لإصلاحِ حالِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).
(5) مقاتل، تفسير مقاتل: 1/600، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/336.

الخلقِ ومآلهمْ"[1]. والأصلُ في معنى المِلَّةِ دلالتُها على الامتدادِ في الزَّمانِ وغيرِه[2]، و"المِلَّةُ لاتُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ - عليه السلام - الَّذي تُسنَدُ إليه؛ نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95] وإضافتُها إلى اللّهِ تعالى، لا تكادُ تكونُ موجودةً في القرآنِ الكريمِ، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ الرَّسولِ ﷺ[3].

ومعنى الـ ﴿مِّلَّةَ﴾ في الآيةِ وفي القرآنِ: مجموعةٌ مِنَ الأعمالِ والعقائدِ الَّتي تُلتَزمُ من طائفةٍ مِنَ النَّاسِ تجمعُهمْ، وتكونُ طريقةً لهمْ في عبادتِهمْ، فهيَ الدِّينُ والشَّريعةُ، أوْ مرادفةٌ لهما[4].

3) ﴿حَنِيفًا﴾: اسمٌ على وزنِ فَعِيل، جذرُهُ اللُّغويُّ من (حنف)، ومعنى الحنيفيَّةِ: الميلُ، فإنَّ إبراهيمَ عليه السلام مالَ إلى دينِ اللّهِ، وهو الإسلامُ[5]، والأصلُ في معنى الحنيفِ: الميلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ[6]، فهو ميلٌ عن الضَّلالِ، يقالُ: تحنَّفَ فلانٌ؛ إذا تحرَّى طريقَ الاستقامةِ، ثمَّ أُطْلِقَ على دينِ إبراهيمَ[7] عليه السلام.

والحنيفُ المسلِمُ الَّذي يتحنَّفُ عنِ الأديانِ الباطلةِ، أي: يميلُ عنها إلى الدِّينِ الحقِّ، "فقد كانت عبادةُ الأصنامِ هي الشَّائِعَةَ، وكان هناك أفرادٌ نصارى، وربَّما كانَ هناك غيرُ ذلكَ، فمنْ مالَ عن ذلك كلِّهِ، وعَبَدَ اللّهَ وحدَه، كانَ حنيفًا"[8].

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾ في الآيةِ، أي: مائلًا إلى دينِ اللّهِ، وهوَ الإسلامُ[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أمرٌ من الحقِّ تبارك وتعالى لرسولِهِ الكريمِ ﷺ أنْ يخبرَ النَّاسَ بما امتنَّ عليه من الهُدى، وبأن أرشدَه إلى سبيلِ الحقِّ المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا حَيَدانَ؛ فهو الدِّينُ القويمُ الثَّابتُ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/693.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) الرّاغب، المفردات: (حنف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).
(9) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/337.

هدايتُه تعالى لرسولِه إلى شريعةِ إبراهيمَ المُجانِفَة للشِّركِ والضَّلالِ

الموصلُ إلى سعادةِ الدَّارينِ، فهو شريعةُ إبراهيمَ ﷺ، المتجانفِ عن الشِّركِ والضَّلالِ إلى الحقِّ والتَّوحيدِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الآيةُ واقعةٌ موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ في السِّياق:

الانتقالُ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به من التَّوحيدِ والهدايةِ

تقعُ هذهِ الآيةُ بلاغيًّا موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، المنتقلِ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ في شأنِ التَّوحيدِ، من أجلِ غلقِ بابِ الجدالِ مع أولئك، وأنَّه ثابتٌ على ما جاءَ به من الحقِّ والهدايةِ، وليسَ إعراضُهم عن الحقِّ بشيءٍ[1].

طيُّ سجلِ المحاجَّةِ مُؤْذِنٌ باختتامِ السُّورةِ الكريمةِ:

هناك براعةٌ في الاختتامِ تُضاهي براعةَ الاستهلالِ

إذا أشبعَ الواعظُ الكلامَ في مرماهُ وغرضِه، ثمَّ انتقلَ إلى ما رضيهُ لنفسِه، وما هو قارٌّ عليه من أصولِ الدِّينِ؛ عَلِمَ المُخاطَبُ أنَّه في طريقِهِ إلى طَيِّ سجلِّ المناقشةِ والمُحاجَّةِ، إيذانًا بانتهاءِ السُّورةِ[2]، وقد آلَتْ إلى بيانٍ ختاميٍّ بليغٍ، مفادُه أن يقولَ الرَّسولُ المبلِّغُ للنَّاس: "إنَّ ربِّي أرشدني، ووفَّقني إلى طريق مستقيم، بلغَ نهايةَ الكمالِ في الاستقامةِ، وكان هو الدِّين الَّذي اتَّبعه إبراهيم، مائلًا به عنِ العقائدِ الباطلةِ، وما كان إبراهيم يعبدُ مع اللّٰه إلهًا آخر، كما يزعم المشركون"[3].

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ في ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾:

لا أهمَّ من الدِّلالةِ على الهدايةِ، ولا أعظمَ منها مقصدًا وغايةً

في الآيةِ استهلَّ الحقُّ ﷻ بفعلِ القولِ في قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وثمرةُ فعلِ القولِ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، والتَّنويهُ به[4]، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنَّ الآياتِ الَّتي

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 8/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 8/197.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.

ابتدأت بهذا الفعل، تَلَتْها أوامرُ وأحكامٌ وقضايا، استحقَّت أن يتولَّى أمرَها النَّبيُّ ﷺ، وهو هنا هدايتُه تعالى إلى طريقِ الحقِّ المستقيم، وهو قَمِينٌ بذلكَ، فلا أعظمَ من أن يكونَ اللّهُ لك هاديًا.

نكتةُ اشتمالِ جملة ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾ على مؤكِّداتٍ عدَّةٍ:

تقويةُ مضمونِ العمومِ في هدايتِه تعالى

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الجملةِ، كحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)، والجملةِ الاسميَّةِ، وذِكرِ المسنَدِ إليه مرَّتين: مرَّةً بكونِه مبتدأً، ومرَّةً بكونِه ضميرًا متَّصلًا بالفعل ﴿هَدَىٰنِي﴾ وكلُّ ذلك جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ ولأنَّها خطابٌ للمشركينَ الَّذين كذَّبوه[1]، وهو أنَّ هدايتَه تعالى الغايةُ الَّتي يرجوها كلُّ إنسانٍ.

دلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليه ﴿رَبِّيٓ﴾ وإضافتِه:

غرضُ الإضافةِ الاعتزازُ بمربوبيَّةِ اللهِ، والتَّعريضُ بالمشركينَ

وقولُه: ﴿رَبِّيٓ﴾ تعريفٌ للمسنَدِ إليهِ بالإضافةِ، وهي إضافةُ تشريفٍ، فهوَ منْ بابِ الاعتزازِ بمَرْبوبيَّتِهِ ﷺ الَّذي هداهُ، وتعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ اتَّخذوا أربابًا، فأضلُّوهمُ الطَّريقَ[2]، وقد ربَّاه ربُّه وحماه، وأمره " أن يخبر بما أَنْعَمَ اللّهُ عليه من الهداية إلى الطَّريق القويم الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف، وهو الدِّين القَيِّم، المؤدِّي إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة"[3].

الغرضُ من الخبرِ في ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾:

الهادي هو الحقُّ الجديرُ بالعبادةِ، لا معبوداتُ البشرِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، في خبرِ الجملةِ أسندَ الهدايةَ إلى ربِّهِ، وفيها دلالةٌ على الاختصاصِ، والمعنى: أنَّ الهاديَ هوَ معبودي الَّذي أعبدهُ، وهوَ الحقُّ ﷻ، لا معبودكمُ الَّذي تعبدونهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، فإنَّكمْ لوْ وحَّدتمُ الرَّبَّ الجديرَ بالعبادةِ؛ لَهُديتمْ[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

(3) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 1/632.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/703، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

تعديةُ فعلِ الهدايةِ بـ﴿إِلَىٰ﴾:

غرضُ تضمُّنِ الاهتداءِ فعلَ الإرشادِ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ

جعلَ الفعلَ (هدى) متعدِّيًا بالحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، معَ أنَّ الفعلَ (هدى) يتعدَّى بنفسِه لقولِه تعالى في فاتحةِ الكتابِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، فأوردَهُ على جعلِ الهدايةِ متضمِّنةً معنى الإرشادِ والتَّعليمِ، فالمهتدي كمن يسيرُ راشدًا إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ المستقيمِ[1].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بِهِ على الفاعلِ، يفيدُ الاختصاصَ:

الهدايةُ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، لا تكونُ إلَّا منهُ تعالى

وفي جملةِ: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، تقدَّمَ المفعولُ الياءُ من ﴿هَدَىٰنِي﴾، على الفاعلِ ﴿رَبِّيٓ﴾، والمعنى: "إنَّني أرشدَني ربِّي، وأوصلَني بما أوحاهُ إليَّ بفضلِه واختصاصِه في هذهِ السُّورةِ، وكذا غيرِها، إلى طريقٍ مستقيمٍ، يصلُ سالكُهُ إلى سعادةِ الدَّارينِ"[2]، فقدِ اختصَّهُ تعالى بإرشادِ قومِه وهدايتِهمْ، وهوَ منْ فضلِه وامتنانِه على رسولِه، فالتَّقديمُ هو لعظيمِ الامتنانِ والشُّكْرِ للّهِ.

الاستعارةُ في التَّشبيهِ بهيئةِ مَنْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ:

الإرشادُ إلى الحقِّ دلالةٌ وتوجيهٌ، يؤدِّي إِلَى صِراطٍ مُستقيمٍ

وفي قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ، فقدْ "شُبِّهتْ هيئةَ الإرشادِ إلى الحقِّ المُبَلِّغِ إلى النَّجاةِ، بهيئةِ منْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ المُبَلِّغةِ المُوصِلَةِ إلى المَقْصُودِ. وثمَّةَ علاقةٌ وثيقةٌ بَيْنَ الهِدَايَةِ وَالصِّرَاطِ؛ فالهدايةُ تعريفٌ بالطَّريقِ، والطَّريقُ هوَ الصِّراطُ"[3]، فتناسبا منْ هذهِ الجهةِ.

بلاغةُ استعارَةِ الصِّراطِ للدِّينِ القويمِ بجامعِ المشاكلةِ:

الدِّينُ والصِّراطُ، كلاهما طريقٌ مُفْضٍ إلى المُرادِ

ومعنى الصِّراطِ المستقيمِ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، والقشيريّ، لطائف الإشارات: 1/514.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/211.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198. (بتصرف).

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، هوَ الدِّينُ القويمُ، وهوَ الطَّريقُ الواسعةُ[1]، فاستُعيرَ للدِّينِ القويمِ، بجامعِ أنَّ كليهما موصلٌ إلى الغايَةِ والهدفِ.

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ معَ أنَّهُ لا يكونُ إلَّا مستقيمًا:

قولُه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وصفَ الصِّراطَ بأنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا خطأَ فيهِ ولا انحرافَ؛ إذْ لا يتحيَّرُ سالكهُ في أمرِهِ، "ولمَّا شبَّهَ الإسلامَ بالصِّراطِ، وجُعِلَ كالشَّيءِ المشاهدِ، صارَ كالطَّريقِ الواضحةِ البيِّنةِ، فادُّعي أنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا اعوجاجَ فيهِ؛ لأنَّ الطَّريقَ المستقيمَ أيسرُ سلوكًا على السَّائرِ، وأسرعُ وصولًا بهِ"[2]، فأفادَ وصفُهُ بالاستقامةِ مزيدَ توكيدٍ وتقريرٍ.

الإسلامُ كالصِّراطِ المستقيمِ، وهوَ الطَّريقُ الواضِحَةُ البيِّنَةُ

الموقعُ البيانيُّ والنَّحويُّ لِلَفْظِ ﴿دِينًا﴾، محتمِلٌ أَوْجُهًا عِدَّةً:

ولفظةُ (الدّين) في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾، لها اتِّصالٌ بسابقِها، فهيَ إمَّا بدلٌ منَ الصِّراطِ المذكورِ آنفًا، والتَّقديرُ: هداني صراطًا مستقيمًا، ويجوزُ أنْ تكونَ مفعولًا لفعلٍ مضمرٍ، تقديرهُ: هداني، أوْ عرَّفني، أوْ نحوهُ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على الحالِ منْ ﴿صِرَٰطٍ﴾؛ لأنَّهُ نكرةٌ موصوفةٌ[4].

اللَّفظُ متَّصلٌ بما قبلَهُ، واقعٌ موقعَ المفعولِ أوِ الحالِ أوِ البدلِ

توجيهُ القراءاتِ في لفظِ ﴿قِيَمًا﴾ من قولِه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قِيَمًا: بكسرِ القافِ، وفتحِ الياءِ مخفَّفةً، قراءةُ ابنِ عامرٍ والكوفيِّينَ، وفتحُ القافِ وكسرُ الياءِ مشدَّدةً قراءةُ الباقينَ[5]، و(القيِّم) زنةُ (فَيْعِل)، وهو بمنزلةِ فعَّال[6] الدَّالِّ على المبالغةِ في الاستقامةِ، ولزومِ الطَّريقِ المستقيمِ، وهو أبلغُ من ﴿قِيَمًا﴾ من غيرِ تشديدٍ، فهو الدِّينُ الحقيقُ بأن يقومَ له الموحِّدون

التَّشديدُ دَالٌّ علَى المبالغةِ في الاستقامةِ ولزومِ طريقِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/267.
(6) سيبويه، الكتاب: 3/642، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

بوجوهِهم، والمبالغةُ في قراءةِ التَّشديدِ، من قولِه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، مِنَ القيامِ بالأمرِ "فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقالُ: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ، ومنهُ وصفُ اللهِ تعالى بالقيُّومِ"(1)، فقراءةُ التَّشديدِ أبلغُ.

وصفُ الدِّينِ بأنَّهُ قيِّمٌ منْ بابِ الاستعارةِ:

الأمَّةُ مفتقرةٌ إلى أنْ يكونَ الإسلامُ قيِّمًا على دينِها ودنياهَا

قولُه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، إذا أُطلِقَ القيامُ على الاستقامةِ، فهوَ منْ بابِ المجازِ؛ لأنَّ المرءَ عندَ قيامِهِ تعتدلُ قامتُهُ، والأقربُ جعلهُ منْ بابِ القيامِ بالأمرِ، "فيستعارُ القيامُ للكفايةِ بما يحتاجُ إليهِ، والوفاءُ بما فيهِ صلاحُ المقوَّمِ عليهِ، فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقال: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ"(2)، ففي ذلكَ فحوًى بليغٌ في أنَّ حاجةَ الإسلامِ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

موقعُ الآيةِ عودٌ على ما سبقَ إغراءً باتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، يقعُ لفظُ ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، موقعًا نحويًّا وبيانيًّا في كونِه متعالقًا معَ ما سبقَ، فإنَّهُ يَحتمِلُ أن يكونَ منصوبًا على الإغراءِ، أي: اتَّبِعْ ملَّةَ إبراهيمَ(3). ويجوزُ جعْلُ الملَّةِ بدلًا مِنَ الدِّينِ(4)، أو تكونَ منصوبةً بفعلٍ محذوفٍ، مثل: أعني أو أخصُّ، وفي كلٍّ؛ فهي متَّصِلةٌ بما قبلَهَا غيرُ منقطِعةٍ عنهَا.

حكمةُ التَّعبيرِ بملَّةِ إبراهيمَ بطريقِ الإضافةِ:

استمالةُ العربِ وأهلِ الكتابِ لملَّةِ إبراهيمَ الَّذي يؤمنونَ بهِ جميعًا

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ منْ حديثِه ﷺ؛ إذْ أخبرَ أنَّ الحقَّ تبارك وتعالى قدْ هداهُ إلى الدِّينِ القيِّمِ، وهوَ ملَّةُ إبراهيمَ عليه السلام، معَ أنَّ الدِّينَ القيِّمَ الَّذي جاءَ بِهِ هوَ دينُ الإسلامِ، وحكمةُ التَّعبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/161.
(4) العكبريّ، التّبيان: 1/553، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 2/137.

بملَّةِ إبراهيمَ، أنَّه منْ بابِ "استمالةِ العربِ، ثمَّ أهلِ الكتابِ إلى الإسلام، ببيانِ أنَّ أساسَهُ وقواعدَ عقائدِه، ودعائمَ فضائلِه، هيَ ما كانَ عليهِ إبراهيمُ، المتَّفقُ على هداهُ وجلالتِه"(1). وهذا منْ دأبِه المستمرِّ ﷺ، في أنَّهُ كانَ حريصًا على هدايةِ النَّاسِ جميعًا، ولقدْ وصفهُ الحقُّ ﷻ، بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

فائدةُ العدولِ منْ صيغةِ (مفعول) إلى صيغةِ (فعلة):

الإملالُ أنْ يُملى عليهِ جملةً جملةً، والمِلَّةُ الدِّينُ المُنْزلُ شيئًا فشيئًا

وعدلَ عنِ المفعولِ إلى الفِعْلَةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، فالمِلَّةُ صيغةُ (فِعْلة) بمعنى المفعولِ، أي: المملولِ منْ أملَّ الكتابَ: إذا لقَّنهُ الكاتب ما يكتبهُ، ثمَّ اقترنتْ بالتَّاءِ لمَّا صيَّروها بمعنى الدِّينِ(2). ولمَّا كانَ الإملالُ أوِ الإملاءُ، يحدثُ شيئًا فشيئًا، وهوَ " أنْ تُلقي على الكاتبِ جملةً، فيكتبَها، ثمَّ تُملي عليهِ جملةً أخرى فيكتبَها... قالوا: لأنَّ المِلَّةَ – وهيَ الشَّريعةُ – تنزلُ جُمَلًا جُمَلًا جُمَلًا حتَّى تتمَّ كما وقعَ في ديننا، فُرضتِ الصَّلاةُ أوَّلًا قبلَ الهجرةِ، ثمَّ فُرضتِ الزَّكاةُ والصِّيامُ في عامِ اثنينِ منَ الهجرةِ، وفُرِضَ الحجُّ في عامِ تسعةٍ على أصحِّ الأقوالِ، شيئًا بعدَ شيءٍ حتَّى تتمَّ"(3).

معنى لفظةِ ﴿حَنِيفٗاۚ﴾، ودلالتُها النَّحْويَّةُ في الآية:

الحنيفُ الَّذي يُجانِفُ الباطلَ، وهوَ حالُ إبراهيمَ عليه السلام

ومعنى لفظةِ الحنيفِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ هو الَّذي يجانبُ الباطلَ منَ الأديانِ، فيكونُ مهتديًا مخلصًا في عبادتِه(4). أمَّا دلالتُه النَّحويَّةُ؛ فعلى "أنْ يكونَ حالًا من إبراهيمَ ومن المِلَّةِ، وذكَّر لأنَّ المِلَّةَ والدِّينَ واحدٌ"(5). ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا لفعلِ

---

(1) رضا، تفسير المنار: 8/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199 - 200.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/617.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(5) العكبريّ، التّبيان: 1/280، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.

مقدَّرٍ بمعنى: أعني حنيفًا[1]، والحاليَّةُ أقوى لما فيها من تغيُّرٍ في مجانبةِ الباطلِ إلى الحقِّ.

نكتةُ مجيءِ الحالِ من المضافِ إليه إبراهيمَ عليه السلام:

غرضُ الاستغناءِ عَـنِ المضـافِ، وكأنَّ إبراهيمَ قد تلبَّسَ بالمِلَّةِ

وقعَ الحالُ ﴿حَنِيفًا﴾ من المضافِ إليه ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وجازَ ذلكَ؛ لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه، وآيةُ ذلكَ عدمُ تأثُّرِ المعنى العامِّ، مع حذفِه، كأن يقالَ: اتَّبعوا إبراهيمَ عِوَضًا من اتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيمَ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ بتلبُّسِ إبراهيمَ عليه السلام بالمِلَّةِ والدِّينِ، وكأنَّهما أصبحا شيئًا واحدًا؛ ولذلكَ وصَفَهُ الحقُّ تبارك وتعالى بأنَّهُ كانَ أمَّةً وحدَهُ.

(الواوُ) تفيدُ العطفَ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

العطفُ فيه ردٌّ علـى مـن يزعمُ مـن المشـركيـنِ بأنَّهُ من مِلَّتِهِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الواوُ هنا تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على ما سبقَ منْ كلامٍ مُتَعَلِّقٍ بالهدايةِ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، وهوَ ردٌّ على منْ يدَّعي منَ المشركينَ، على أنَّهُ منْ ملَّتِه عليه السلام [3]؛ فكلٌّ يزعمُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام نبيُّهُ ورسولُهُ. ويمكنُ حملها على الحالِ، والتَّقديرُ: دينًا قيِّمًا مِلَّةَ إبراهيمَ، حالَ كونهِ حنيفًا، وحالَ كونِه ليس من المشركين.

نكتةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالَّةِ على المضيِّ بعدَ النَّفي:

إيـــذانٌ بـنـفـي الــشِّـرك عـنْ إبـراهـيـمَ على وجهِ التَّأبيدِ

ولمَّا نفَى انتماءَ إبراهيمَ إلى المشركينَ، أولجَ ﴿كَانَ﴾ الماضَويَّةَ، بعدَ النَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ونكتةُ ذلكَ أنَّهُ تعالى "نفَى عنْ إبراهيمَ الشِّركَ في الكونِ الماضي، معناهُ: أنَّهُ لم يقعْ منهُ كونُ الشِّركِ فيما مضَى أبدًا، وهذا حقٌّ لا شكَّ فيهِ، والآياتُ الدَّالَّةُ عليهِ كثيرةٌ"[4]. فالنَّفيُ هنا نفيٌ قاطعٌ على نيَّةِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/621.

الاستغراقِ، فلم يكنْ مِن إبراهيمَ شركٌ أبدًا، فلذلكَ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ في سياقِ النَّفي.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

إفادةُ (مِن) الاستغراقَ في نفي إشراكِه ﷺ من كلِّ وجهٍ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في الجملةِ ابتدائيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تفيدُ استغراقَ الجنسِ في نفيِ إشراكِهِ ﷺ، "وفيهِ ردٌّ على كفَّارِ قريشٍ؛ لأنَّهمْ يزعمونَ أنَّهمْ على دينِ إبراهيمَ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ إبراهيمَ لمْ يكنْ مِنَ المشركينَ، ولاممَّنْ يعبدُ الأصنامَ"[1]، فـ﴿مِنَ﴾ تنفي إشراكَ إبراهيمَ ﷺ من جميعِ الوجوهِ. ويمكن أن تكون للتَّبعيض.

نكتةُ العدولِ عن نفيِ الإشراكِ إفرادًا إلى نفيِ الإشراكِ جمعًا:

التَّعبيرُ بالجمعِ يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ وشوائِبِهِ عنهُ

عبَّرَ بالجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولم يقلْ: (وما كانَ مشركًا)، لاشتمالِه على نُكْتَةٍ، وهيَ أنَّ نفيَ الإشراكِ مجموعًا، يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ عنْ إبراهيمَ ﷺ، دِقِّه وجلِّه وشوائبِه. فالمشركونَ على أصنافٍ كثيرةٍ: وَثَنِيِّينَ، ومُجَسِّمينَ، ومُثَلِّثينَ، ومُتَوَسِّطينَ بينهمْ وبينَ اللهِ وغيرهمْ، فأرادَ في هذا التَّعبيرِ أنْ يُنَزِّهَ إبراهيمَ عنْ هذهِ الأصنافِ جميعًا[2] من دعاويهم وافتراءاتهم.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الدّين) و(المِلّة):

الـدِّيـنُ هـوَ الانـقـيـادُ للشَّريعةِ، والمِلَّةُ جملةُ الشَّريعةِ لا آحادُها

الدِّينُ معروفٌ، وهوَ يطلقُ على الطَّاعةِ والانقيادِ للشَّريعةِ، أمَّا المِلَّةُ، فهيَ تستعملُ في جملةِ الشَّريعةِ لا آحادها؛ لذلكَ لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبيِّ مسندةً إليهِ كقولِهِ تعالى: (مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ) و(مِلَّةَ ءَابَآءِى)[3]، أمَّا الدِّينُ؛ فهو "اسْمٌ لما عليهِ كلُّ وَاحِدٍ من

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/178.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1266.

(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).

أَهلِهَا، أَلا ترى أَنَّه يُقَالُ: فلَانٌ حسنُ الدِّينِ، وَلَا يُقَالُ: حسنُ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هُوَ من أهلِ الْمِلَّةِ"[1].

وفي الآيةِ عبَّرَ عن الطَّاعةِ الشَّخصيَّةِ والانقيادِ الفرديِّ بالدِّين: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾، ثمَّ انتسبَ إلى جملةِ الشَّريعةِ بقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، والمِلَّةُ: النِّحْلَةُ الَّتي ينتحلُها الإنسانُ مِنَ الدِّينِ، وهيَ الدِّينُ والمِلَّةُ، وتُتَّخذُ عقيدةً، مثلَ العطيَّةِ، ومنْ ينتحلُ مذهبًا، أيْ: يتَّخذُهُ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (لم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحل).

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: 162 - 163]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قَبْلَهما:

العلاقةُ بينَ ثمرةِ الهدايةِ، وبينَ تمحيضِ العبادةِ والمصيرِ إلى اللهِ دونَ شريكٍ

لَمَّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهُ تعالى أرشدَهُ إلى الدِّينِ القويم، والصِّراطِ المستقيم، وختمَ الآيةَ بنفيهِ أنْ يكونَ منَ المشركينَ؛ أكَّدَ هذا النَّفيَ هنا بأنَّ غايتَهُ وعبادتَهُ عامَّةً منْ صلاةٍ ونحوِها، وخاصَّةً منْ ذبحٍ ونحوِهِ، وتَصرُّفَهُ في حياتِهِ ومآلِه بعدَ مماتِهِ - إنَّما هيَ للهِ ربِّ العالمينَ، وحدَهُ لا شريكَ له[1]. فهذه نتيجةُ الهدايةِ ومحصِّلتُها: وهي العبادةُ المَحْضَةُ له تعالى؛ لأنَّه لا شريكَ له تعالى، فَحَرِيٌّ بِعِبَادَةِ المرءِ أَنْ تَكُونَ على الغايةِ من الإخلاصِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُسُكِي﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُها (نَسِيكَةٌ)، وجذرُهُ اللُّغويُّ (نسك)، ومعنى النُّسُكِ: الذَّبيحةُ، ثمَّ أصبحَ يُطلَقُ على كلِّ عبادةٍ، وتقرُّبٍ إلى اللهِ[2]. والنُّسكُ بمعنى التَّطهيرِ، فنسكْتُ الشَّيءَ: طهَّرتُهُ وصفَّيتُهُ ممَّا عَلِقَ بهِ منْ أدرانٍ[3]، وبينَ العبادةِ والطَّهارةِ وشائجُ وعلائقُ لا تخفى، فالعابدُ يخلِّصُ نفسَهُ ممَّا يَعْلَقُ بها منْ أكدارِ الدُّنيا وأوساخِها، وقدِ اختصَّتْ هذهِ اللَّفظةُ بعبادةٍ معيَّنةٍ هيَ الحجُّ ومناسكُ الحجِّ، مواقفُهُ وأعمالُهُ[4].

ومعنى ﴿وَنُسُكِي﴾ في الآيةِ: "أرادَ بالنُّسكِ الذَّبيحةَ في الحجِّ والعمرةِ، وقالَ مقاتلٌ: نسكِي: حجِّي، وقيلَ: ديني"[5].

(1) ابن عطيّة، المحرّرالوجيز: 2/369.
(2) الخليل، العين: (نسك)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نسك)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسك).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسك)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/211، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98.

2) ﴿وَمَحْيَاىَ﴾: (الحياةُ) ضدُّ الموتِ، و(الحيُّ) ضدُّ الميِّتِ، و(المَحيا) مَفْعَل، من الحياة، تقولُ: محياي ومماتي[1]، أَي: حَياتي وموتي. وَيجوز فِيهَا فتحُ الْيَاءِ وإسكانُها، وَالْأَكْثَرُونَ على فتح محيايَ، وَإِسْكَان مماتي[2]، وتقول: ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي﴾، والجمع (المحايي) ذكره الجوهريُّ، ويقع على المصدر والزَّمان والمكان[3]. وفي قراءةِ نافعٍ: ﴿وَمَحْيَاْيْ وَمَمَاتِي﴾، بسكون ياءِ محيايْ، لكنَّها ملفوظٌ بها ممدودة، وهذا مع كون الأوَّلِ منهما حرفَ مدٍّ[4].

المَعنى الإجماليُّ:

إخلاصُ مجملِ العبادةِ والنُّسك والحياةِ والموتِ للهِ وحده دون سواه

يأمرُ الحقُّ ﷻ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ أنْ يُخْبرَ المشركينَ بأنَّ الدِّينَ الحقَّ أنْ تكونَ عبادتي جميعًا، منْ صلاةٍ ونسكٍ للّهِ ربِّ العالمين، وأنْ يكونَ صنيعي في حياتي، وعاقبتي بعدَ مماتي كلُّهُ للّهِ ربِّ العالمين، فهوَ عينُ الإخلاصِ، فلا يقبلُ اللّهُ تعالى إلَّا ما كانَ خالصًا. ثمَّ نفى ﷺ أنْ يكونَ للّهِ شريكٌ، وأثبتَ وحدانيَّتَهُ تعالى، والإقرارُ بهذا التَّوحيدِ أمرٌ منهُ تعالى، وأنا أوَّلُ المنقادينَ إليه، فلا اختيارَ لي أصلًا، وهيَ أوَّليَّةٌ في المنزلةِ والدَّرجةِ بينَ الأنبياءِ والرُّسلِ، وأوَّليَّةٌ في السَّبقِ والزَّمنِ بينَ بني أمَّتِهِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ مستأنَفَةٌ واقعةٌ موقعًا بلاغيًّا مستقلًّا عن غيره:

لا بدَّ للإنسانِ أن يكونَ كلُّهُ للهِ في عبادتِهِ وحياتِهِ ومماتِهِ

هذهِ الآيةُ متفرِّعةٌ عمَّا سبقَها منْ هدايتِهِ للطَّريقِ المستقيمِ، والتَّوحيدِ، وعدمِ الإشراكِ، فجاءتْ هذهِ لتمامِ تلكَ الهدايةِ والإخلاصِ للّهِ، ولكنَّها جاءتْ على سبيلِ الاستئنافِ، ولمْ تُعطَفْ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 6/2323.
(2) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 63.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 37/527.
(4) ابن سيده، المحكم: 3/7.

وَصْلًا على تلكَ، وفائدةُ الفصلِ هنا "للإشارةِ إلى أنّهُ غرضٌ مستقلٌّ مهمٌّ في ذاتِه، وإنَ كانَ متفرِّعًا عنْ غيرِه"[1] مهمٌّ في أن يكونَ حالُ الإنسانِ كلُّه للّهِ عبادةً وحياةً وموتًا.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾:

الرَّسولُ مأمورٌ بتبليغِ دعوةِ اللهِ تعالى على الوجهِ الأكملِ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ استهلَّ الحقُّ ﷻ الآيةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ منهُ تعالى للرَّسولِ ﷺ، أنْ يُظْهِرَ للنَّاسِ حالَ عبادتِه، ومآلَ شأنِه في حياتِه ومماتِه[2].

والتَّعبيرُ بهذا الفعلِ لدلالتِه على التَّبليغِ بالدَّعوةِ[3]، ويلاحظ أنَّ الأوامرَ والنَّواهي والأحكامَ الَّتي تأتي بعد هذا الفعل، تستحقُّ التَّنبُّهَ لها والحرصَ على أن يتولَّى النَّبيُّ ﷺ تَبليغَها بنفسِه للأمَّةِ.

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الآيةِ الكريمة:

الاهتمامُ بمضمونِ ركنَيِ الجملةِ وتحقيقِهما

تتابعتْ عدَّةُ مؤكِّداتٍ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فالجملةُ مُفْتَتَحةٌ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، للاهتمامِ بالخبرِ وتحقيقِه، فضلًا عن مجيئِها بالاسميَّة، وفي هذا التَّعبيرِ ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ كانوا يتَّهمونَهُ ﷺ، بالرِّياءِ في صلاتِه[4]. فتوالتِ المؤكِّداتُ، اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ بِرُكْنَيْها، لبيانِ كمالِ الوصفِ في عبادتِه ﷺ للّهِ تعالى، وأنَّها خالصةٌ لهُ تعالى، وليسَ لغيرِه منْ أصنامٍ يعبدونَها، أوْ أوثانٍ يتوجَّهونَ إليها.

بلاغةُ التَّرتيبِ بينَ (الصَّلاةِ) و(النُّسكِ) و(المحيا) و(المماتِ):

العبادةُ أصلٌ في خلقِ الإنسانِ، والأصلُ مقدَّمٌ على سواه

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، قدَّمَ الصَّلاةَ والنُّسكَ على المحيا والمماتِ، وسرُّ ذلكَ أنَّ الغايةَ منْ خلْقِ الإنسانِ، هيَ العبادةُ، و"أنَّهُ قدْ وجَّهَ وَجْهَهُ، وحصرَ نيَّتَهُ وعزمَهُ في حبسِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/195.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

حياتِه لطاعتِه ومرضاتِه، وبَذْلِهَا في سبيلِه"[1]، لقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: 56]، فهذا هو الأصلُ، وهو مقدَّمٌ على غيرِه.

نكتةُ عطفِ النُّسكِ على الصَّلاةِ:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ لاشتمالِ الدِّين على الصَّلاةِ

وعَطَفَ النُّسكَ على الصَّلاةِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ منْ معاني النُّسكِ في الآيةِ، فيكونُ عطفُ النُّسكِ على الصَّلاةِ منْ بابِ عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّ الدِّينَ والعبادةَ مشتملٌ على الصَّلاةِ، وفائدتُه التَّعميمُ، وإفرادُ الخاصِّ بالذِّكرِ اهتمامًا بشأنِه، فالصَّلاةُ عمودُ الدِّينِ[2].

ولتقديمِ الصَّلاةِ على النُّسكِ إشارةٌ أخرى، وهيَ أنَّ الصَّلاةَ لازمةٌ على الجميعِ، وهيَ الرُّكنُ الثَّابتُ الَّذي لا يسقطُ أبدًا؛ فيصلِّيها المرءُ ولوْ إيماءً[3]، والحجُّ لا يجبُ إلَّا بتوافرِ شرائطِه، وهي الاستطاعةُ لقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: 97].

دلالةُ التَّعبيرِ بالصَّلاةِ والنُّسكِ مقترنَيْن مجتمِعَيْن:

ذكرُ (الصَّلاة والنُّسك)، لفشوِّ الشِّركِ في ممارستِهما آنئذٍ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، أوردَ الصَّلاةَ، وهيَ أوَّلُ أركانِ الإسلامِ العمليَّةِ بعدَ الشَّهادةِ، ثمَّ قرنَها بذِكْرِ النُّسُكِ حقيقةً، أوْ بكونِه دالًّا على الحجِّ[4]، والمقصدُ منْ ذلكَ الإشارةُ إلى أنَّ أركانَ الإسلامِ تقعُ بينَ هذينِ الرُّكنينِ العظيمينِ: الصَّلاةِ والحَجِّ.

وفي اقترانِ الصَّلاةِ بالنُّسُكِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ غرضٌ، وهوَ أنَّ منْ معاني النُّسكِ التطهُّرَ مِنَ الآثامِ

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/90.

(2) السّيوطي، معترك الأقران: 1/272، ورضا، تفسير المنار: 8/214.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 7/4012.

(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

والأدرانِ "وقيلَ للمتعبِّدِ ناسكٌ؛ لأنَّهُ خلَّصَ نفسَهُ مِنْ دنائسِ الآثامِ وصفَّاها"[1]. والصَّلاةُ أكبرُ سببٍ لطهارةِ الإنسانِ العينيَّةِ والمعنويَّةِ لقولِهِ ﷺ: «أرأيتمْ لوْ أنَّ نَهَرًا ببابِ أحدِكمْ، يغتسلُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلكَ يُبْقي مِنْ دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقي مِنْ دَرَنِه شيئًا، قالَ: فذلكَ مِثْلُ الصَّلواتِ الخمسِ، يمحو اللهُ بِهِ الخطايا»[2]. وفي اقتصارِ الذِّكرِ على هذينِ النَّوعينِ مِنْ عمومِ العبادةِ، وهما الصَّلاةُ والنُّسكُ، كونهما مِنَ المظاهرِ العظيمةِ الظَّاهرةِ، الَّتي فشا فيهما الإشراكُ في ذلكَ الوقتِ[3]؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: 35]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3].

دلالاتُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، (محيايَ ومماتي)، مِنَ المصادرِ الميميَّةِ، فالمعنى على تقديرِ مضافٍ، وهوَ أعمالُ المحيا والمماتِ، أوِ الأَعْمَالُ الَّتي تقترنُ بحياةِ المرءِ وموتِه، وتلتبسُ بهِ مِنَ العملِ الصَّالحِ والإيمانِ[4].

التَّعبيرُ على حذفِ مضافٍ، تقديرهُ: (أعمالُ المحيا والمماتِ)

دلالةُ ضمير ﴿صَلَاتِي﴾، ودلالة لام ﴿لِلَّهِ﴾ مضافةٌ إلى الألوهيَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إيرادُ الصَّلاةِ مضافةً إلى ضميرِه ﷺ ﴿صَلَاتِي﴾، واقترانُ اللَّامِ بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، الدَّالَّةِ على الملكِ والاستحقاقِ[5]، فيهِ تعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ يُصلُّونَ للأصنامِ بالسُّجودِ لها، ويذبحونَ لغيرِ اسمِه تعالى[6].

تعريضٌ بجعلِ المشركين صلاتَهم ونُسُكَهم لغيرِ اللهِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/13، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/194.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: (528).
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/214.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/102.
(5) الزّجّاجي، اللاّمات، ص: 65.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

نكتةُ الجمعِ بين الألوهيّةِ والرُّبوبيّةِ في ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ربوبيَّتُهُ تعالى لخلقِهِ سببُ استحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِه

لَمَّا ذكرَ صلاتَهُ ونُسكَهُ، ومَحْياهُ ومماتَهُ؛ جعلهُ للّهِ، ثمَّ زادَ عليها صفةَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وسرُّ اختيارِ هذهِ السِّمةِ؛ لأنَّها المستأهلةُ لأَنْ يكونَ صنيعُ مخلوقاتِه وعبادتُهمْ لهُ وحدَهُ، بما تفضَّلَ عليهِمْ مِنَ الخلقِ والرِّزقِ والإيجادِ، ومَنْ بيدهِ الموتُ والحياةُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ في ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ﴾:

التَّعريضُ بالمشركينَ وغباوتِهِمْ في سجودِهِمْ للأصنامِ العاجزةِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لفظُ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، متعلِّقٌ بمحذوفٍ، خبرٌ، أي: خالصًا للّهِ[2]، وتتجلَّى فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ: أنَّهُ جعلَ "صلاتَه للّهِ دونَ غيرِه، تعريضًا بالمشركينَ، إذْ كانوا يسجدونَ للأصنامِ، ولذلكَ أردفَ بجملةِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾"[3]، واللّهُ أحقُّ أن يسجدُوا له، لو كانوا يفقهون.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لجملةِ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾:

غرضُ جملةِ نفيِ الشَّريكِ الحاليَّةِ، التَّعريضُ بالمشركينَ والتَّوبيخُ لهم

وتقعُ جملةُ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، موقعًا بيانيًّا ونحويًّا، باتِّصالِها بما قبلَها في كونِها حالًا من لفظِ الجلالةِ من قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ومزيَّةُ الحالِ هنا أنَّها ردٌّ على المشركينَ، وتعريضٌ بهمْ، وتوبيخٌ لهمْ، بأنَّهمْ لمْ يخلصوا لخالقِهمْ، وأنَّهمْ أشركوا معهُ تعالى غيرَهُ، وهوَ الجديرُ بالوحدانيَّةِ[4]، ويمكن أن تكون الجملةُ في محلِّ جرٍّ صفةً للفظ الجلالة.

الدّلالةُ النَّحويّةُ للأداةِ ﴿لَا﴾ النَّافيةِ للجنسِ:

نفيُ الشَّريكِ من كلِّ وجهٍ؛ لأنَّ الإخلاصَ منْ لوازمِ العبادةِ

أوردَ (لا) النَّافيةَ للجنسِ في قولِه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه أرادَ نفيًا للشَّريكِ من كلِّ وجهٍ، بدلالةِ هذا الحرفِ[5]، الدَّالِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2763.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/734.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.
(5) مجموعة من الأساتذة، إعراب القرآن الكريم: 2/673.

على التَّبرئةِ المَحْضَةِ، وهذا النَّفيُ المؤكَّدُ جاءَ عقبَ بيانِ أنَّ أحوالَ الإنسانِ كلَّها منْ عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ للّٰهِ ربِّ العالمين، فهذا النَّفيُ توكيدٌ لذلكَ البيانِ، فلا يكفي في العباداتِ أنْ تؤدَّى بأفضلِ صورةٍ، بلْ يجبُ أنْ يقترنَ معها تمامُ الإخلاصِ[1].

نكتةُ الإضمارِ بعد الإظهارِ في قولِه تعالى ﴿لَهُۥ﴾:

في الإضمار إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ للمعبودِ وحدَه

وقولُه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فيهِ إضمارٌ بعدَ الإظهارِ، وهوَ متأتٍّ على بابِه لغةً، ونُكتَتُه أنَّهُ لمَّا كانَ السِّياقُ في التَّوحيدِ، ونبْذِ الشِّركِ والرِّياءِ، أضمرَ الاسمَ في إشارةٍ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ بينَ العبدِ وربِّه، فغايةُ الإضمارِ هو الإيجازُ.

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، وإفادتُها العطف:

سرُّ عطفِ الجملةِ على مقولِ القولِ بدلالتِها على أنَّ الأمرَ للهِ وحدَه

والواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فهو أمرٌ منه تعالى، بأنْ يقولَ هذا القولَ[2]، وفيه أنَّ جميعَ أحوالِ الإنسانِ من عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ، إنَّما هي صائرةٌ إليه ﷻ.

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾:

لا إسلامَ ولا ثباتَ عليه إلَّا بمعونةِ الحقِّ (تعالى) وهدايتِهِ

ومعنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، تفيدُ الاستعانةَ والاعتمالَ[3]، وهوَ أحدُ أشهرِ مَعَانيهَا، " أي: إنَّ ذلكَ كانَ للّٰهِ بهدي منَ اللّٰهِ وأمرٍ منهُ، فرجعَ إلى قولِه: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ "[4] فالدُّخولُ في الإسلام، والثَّباتُ عليه، كانَ بمعونة الحقِّ ﷻ وهديه، وقد تفيد السَّببيَّةَ أيضًا.

دلالةُ البُعْدِ في اسمِ الإشارةِ (ذلك) ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾:

اللَّامُ مُؤْذِنةٌ بعلوِّ المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلتِه عند الآمرِ

واسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، جاءت

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(3) الموزعيّ، مصابيح المغاني، ص: 80.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

متضمِّنةً لامَ البعدِ، والكافُ للخطابِ، ودلالةُ التَّعبيرِ بهِ "إشارةٌ إلى الإخلاصِ، وما فيهِ منْ معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعلوِّ رتبتِه، وبُعْدِ منزلتِهِ في الفضلِ، أي: بذلكَ الإخلاصِ"[1]. المذكورِ قبلَه، وهو جملةُ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه نفيُ الشَّريكِ من كلِّ وجْهٍ.

سرُّ العدولِ في فعلِ الأمرِ إلى البناءِ للمفعولِ ﴿أُمِرۡتُ﴾:

الحثُّ على الانشغالِ بالأمرِ نفسِهِ لعظمةِ الآمرِ، ومعرفتِنا بجلالِهِ

وفعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، بُنِيَ الفعلُ هنا للمفعولِ، بحذفِ الفاعلِ العائدِ عليهِ (سبحانهُ)، وسرُّ ذلكَ أنَّهُ تعالى لهُ في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلُّ على أنَّهُ واحدٌ، وأنَّ دينَهُ الإسلامُ في شدَّةِ ظهورِهِ وانتشارِه، ليسَ بهِ حاجةٌ إلى الأمرِ، فكيفَ إذا برزتِ الأوامرُ الإلهيَّةُ، والدَّواعي الرَّبَّانيَّةُ[2]، فالحذفُ للإيجازِ من ناحيةٍ، وللدَّعوةِ للانشغالِ بالأمرِ نفسِهِ دونَ الآمرِ.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ في ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾:

عِلَّةُ الاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، وهوَ العبادةُ، وأنَّهُ بهَدْيٍ منهُ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ هنا قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ على الفعلِ، والأصلُ تأخيرُهُ، وسببُ تقديمِهِ للاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، والاعتناءِ به، أي: إنَّ صَلَاتِيَ ونسكي كانَ بهديٍ منهُ تعالى[3].

الدَّلالةُ النَّحْويَّةُ للواوِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

الواوُ عاطفةٌ؛ لأنَّهُ لمَّا أمرهُ تعالى، كانَ أوَّلَ المجيبين

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، دلالةُ الواوِ هنا العطفُ على جملةِ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، فإنَّه لمَّا أمرَني ربِّي؛ أجبتُهُ فورًا، والأوَّليَّةُ هنا على سبيلِ الرَّغبةِ والمحبَّةِ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا سارعَ إليهِ. ومن الممكنِ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً على معنى: وبذلك أُمرتُ، والحالُ أنِّي أوَّلُ المسلمين، قال الشَّعراوي: "إنَّ الرَّسولَ ﷺ، له منزلةٌ بين رسلِ اللهِ أجمعين، تتجلَّى في أنَّه أُخِذَ العهدُ على غيرِه له، ولم يؤخذِ العهدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/315، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/629.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/340.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

عليه لأحدٍ، فإنْ كان أوَّلَ المسلمين في أمَّته؛ فهو أوَّلُ المسلمين بين الرُّسُلِ أيضًا، وإن لم تأخذها حدثًا؛ خذها للمكانة"[1].

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ، يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ:

والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، يحقِّقُ الثَّباتَ والاستقرارَ والدَّوامَ؛ لما في الاسمِ منْ مزيَّةِ الثُّبوتِ والدَّوامِ، فلا أثبتَ منهُ ﷺ في إسلامِه وإيمانِه.

لا أثبتَ من الرَّسولِ الأكرمِ، فهوَ منتظمٌ في المسلمينَ على جهةِ الدَّوامِ

الإخبارُ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ، مع أنَّه معلومٌ محقَّقٌ:

وأخبرَ عنْ نفسِه بكونِه أوَّلَ المسلمينَ معَ أنَّهُ معلومٌ متحقِّقٌ؛ لأنَّ الخبرَ هنا ليسَ على معناهُ الصَّريحِ أصلًا، فهوَ قليلُ الجدوى لِمن لم يؤمنْ؛ فكلُّ من يدعو إلى أمرٍ، فهوَ أوَّلُ أصحابِه منْ بابِ أولى، فليسَ المعنى كونَهُ مسلمًا خاضعًا للّهِ هوَ وبنوهُ، فإنَّ هذا متحقِّقٌ، وإنَّما المعنى: أنَّهمْ متمكِّنونَ مترجِّحونَ في دينِهمْ، وفيهِ تيئيسٌ للمشركينَ منَ التَّخَلِّي عنْ دينِهمْ، ولوْ كانَ تَخلِّيًا ضئيلًا[2].

تيئيسُ المشركينَ مِنَ التَّخلِّي عنْ إيمانِهمْ، والمسلمُ متمكِّنٌ في دينِه

فائدةُ الإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

والتَّعبيرُ بكونِه أوَّلَ المسلمينَ، ليسَ الغرضُ منهُ بيانَ أسبقيَّتِه الزَّمنيَّةِ، ولا "يريدُ أنَّهُ كانَ في المعالي أقدمَ منْ غيرِه؛ لأنَّ في أهلِ المعالي مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنًّا، ولكنَّهُ أرادَ أنَّهُ تمكَّنَ منْ نوالِ العُلا، وأصبحَ الحائزَ لهُ، والثَّابتَ عليهِ"[3]، وأنَّه أحبَّ ذلكَ الهدفَ، ورغبَ فيه، ومن أحبَّ شيئًا أسرعَ إليه، فهو من بابِ التَّمكُّنِ من الإسلامِ والاغتباطِ به.

الأوَّليَّةُ من بابِ الإسراعِ إلى الشَّيءِ المرغوبِ، حُبًّا وتمكُّنًا

المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، و﴿أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، هوَ منْ حديثِ الرَّسولِ ﷺ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4024، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81].

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204 - 205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

الإسلامُ من محمَّدٍ ﷺ بمعنى الإيمانِ، والإيمانُ من موسى عليه السلام بمعنى التَّصديقِ

ووصفِه لنفسه، وقد وصفَ موسى عليه السلام نفسَهُ بأنَّهُ أوَّلُ المؤمنين بقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ التَّعبيرين؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ لفظتي الإسلام والإيمان، كما هو مقرَّرٌ: إذا افترقتا اجتمعتا، وإذا اجتمعتا افترقتا، ففي الآيتَيْن الكريمتين أُريد بهما الإسلام والإيمان معًا. ثمَّ إنَّ عبارةَ ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ خاصَّةٌ به ﷺ، فهوَ أوَّلُ أهلِ مكَّةَ إسلامًا. أمَّا عبارةُ ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فهيَ جاءتْ على لسانِ موسى عليه السلام، ولمْ يُرِدِ الدِّينَ بلْ أرادَ أنَّهُ أوَّلُ المصدِّقينَ في امتناعِ رؤيةِ الحقِّ تبارك وتعالى في الدُّنيا[1]، بعد أن تجلَّى ربُّه للجبلِ، فخرَّ موسى صعقًا.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصَّلاة) و(النُّسك) و(الشَّعيرة):

الصَّلاةُ معروفةٌ، والنُّسكُ غلبَ على الحجِّ، والشَّعيرةُ من بابِ المجازِ

الصَّلاةُ معروفةٌ مألوفة دلالةً وممارسةً، وهيَ الرُّكنُ الثَّاني الرَّكينُ في الإسلامِ؛ ولذلكَ قدَّمها في قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لأهمِّيَّتِها، ولا يقبلُ عملَ مسلمٍ إلَّا بها؛ ولقولِه: ﷺ: «أولُ شيءٍ مِمَّا يُحاسَبُ بِهِ العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُه المكتوبةُ»[2].

أمَّا النُّسكُ؛ فهو العبادةُ عمومًا في أصلِه، ثمَّ غلبَ على الرُّكنِ الخامسِ، وهو الحجُّ[3]، فقيلَ: مناسكُ الحجِّ، وإنْ كانَ معنى النُّسكِ في الآيةِ العبادةَ عمومًا؛ فيكونُ قولُهُ في الآيةِ مِنْ بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

أمَّا الشَّعيرةُ؛ فهيَ "الحديدةُ الَّتي تجعلُ مساكًا لنصلِ السِّكِّينِ،

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 172.
(2) رواه الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (7902).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).

إذا ركبَ، فإنَّما هوَ مشبَّهٌ بحبَّةِ الشَّعيرِ"[1]. وتُطلقُ أيضًا على البدنةِ الَّتي تُنحرُ لوجهِ اللَّهِ، وفي ذلكَ استعمالٌ مجازيٌّ، لما بينَ آلةِ الذَّبحِ والمذبوحِ منْ علاقةٍ، والتَّعبيرُ بالنُّسكِ في الآيةِ أعمُّ؛ لأنَّهُ يشملُ مناسكَ الحجِّ كلَّها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾ [الأنعام: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إرداف ما أرشدَ إليه من توحيدِ الألوهيَّة بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ

فيما سبقَ منْ آياتٍ أمرٌ مِنَ الحقِّ تبارك وتعالى، لنبيِّهِ ﷺ بالتَّوحيدِ المَحْضِ، بجعلِ صلاتهِ ونُسكهِ ومحياهُ ومماتهِ للّه، ونفي الشِّركِ عنهُ، وهذا منْ توحيدِ الألوهيَّةِ، ثمَّ أمرَه بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ المتمِّمِ لتوحيدِ الألوهيَّةِ في أنَّ المشركينَ مُقرُّونَ بكونهِ تعالى خالقَ كلِّ شيءٍ، فكيفَ أتَّخذُ ربًّا، وهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ[1]؟!

وأيضًا: "لَمَّا عُلِمَ أَنَّ اللّه هَدَاهُ إِلَى صِراطٍ مُستَقيم، وَأَنْقَذَهُ مِنَ الشِّرك، وَأَمَرهُ بِأَنْ يُمحِّضَ عِبادَتهُ وطاعتَهُ لِرَبِّهِ تَعَالَى، شُكْرًا عَلَى الهِدَايَةِ، أَتْبعَ ذلِكَ بأَنْ يُنكِرَ أَنْ يَعبدَ غيْرَ اللّهِ تعالى لأَنَّ واهِبَ النِّعَمِ هُوَ مُستَحِقُّ الشُّكْرِ، والعِبَادَةُ جِمَاعُ مَراتِبِ الشُّكرِ، وفي هذا رجوعٌ إِلَى بيانِ ضَلالِهِمْ إِذْ عَبَدوا غيرَهُ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡغِي﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (بغي)، ومعنى البغيِ: الطَّلبُ منْ بغيتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتهُ[3]، والأصلُ في الباءِ والغينِ والياءِ هو الحاجةُ والطَّلبُ[4]، وقدْ يكونُ الطَّلبُ تجاوزَ الحدِّ، ومنهُ ما هوَ محمودٌ مثلَ "تجاوزِ العدلِ إلى الإحسانِ، والفرضِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/14.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/14.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (بغي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/205.

إلى التطوُّعِ"(1). و﴿أَبْغِي﴾ في الآيةِ بمعنى الطَّلبِ(2)، بغَى الأمرَ: طلَبَه، وأرادَه ورَغِبَ فيه، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف: 108]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 77].

2) ﴿تَزِرُ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (وزر)، والوِزْرُ الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الآثامِ والذُّنوبِ(3)، والأصلُ في معنى الواوِ والزَّاي والرَّاءِ ثِقَلُ الشَّيءِ، فهوَ متعلِّقٌ بالحَمْلِ(4)، ثمَّ عبَّر عنهُ بالذُّنوبِ والآثام، تشبيهًا بثِقَلِ الجبلِ، فهوَ يُثقِلُ صاحبَه(5). فمعنى لا ﴿تَزِرُ﴾ هنا، لا "تحملُ نفسٌ حِمْلَ أخرى، أيْ: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه"(6).

قال أميَّة بن أبي الصَّلْتِ:

مِنهُمْ رِجالٌ عَلَى الرَّحْمَنِ رِزْقُهُمُ *** خَفَّفَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ مَا وَزَرُوا(7)

قول الله (جلّ وعزّ): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، أي: لا تَحمِلُ نفسٌ آثمةٌ، وِزْرَ نفسٍ أخرى، ولكن كلٌّ يُجزى بما كَسَبَ، والآثام تُسمَّى أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مثقلةٌ، واحدها وِزْرٌ(8).

۞ المَعنى الإجماليُّ:

الآيةُ ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ "قالوا للنَّبيِّ ﷺ: ارجعْ يا محمَّدُ إلى دينِنا، واعبدْ آلِهتَنا، واتركْ ما أنتَ عليهِ، ونحنُ نتكفَّلُ لكَ بكلِّ تِباعَةٍ تتوقَّعُها في دنياكَ وآخرتكَ"(9)، فأمرَ الحقُّ ﷻ نبيَّهُ الكريمَ

لا يكون غيرُ اللهِ ربًّا، وهوَ مالكُ كلِّ شيءٍ، وإليهِ يرجعُ الخلقُ كلُّهُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/286.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وزر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وزر).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: (وزر).
(7) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/207.
(8) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/207.
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370.

ﷺ، أنْ يُنكرَ على نفسهِ وعليهمْ، بأَنْ يطلبَ ربًّا خالقًا ورازقًا سواهُ تعالى، فهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُهُ، فكيفَ يُؤْثَرُ عنهُ بدلًا، وما منْ كسبٍ إلَّا ويُجازى عليهِ، ولا يؤخذُ امرؤٌ بجريرةِ غيرِه، فالجميعُ مَجزيُّونَ بأعمالهمْ، ثمَّ يعودون إلى خالقهمْ للحسابِ والجزاءِ؛ ليخبرَهمْ بما كانوا فيهِ يختلفونَ منْ أمورِ الحقِّ والدِّين.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الدّلالةُ النَّحويَّةُ والبلاغيَّةُ في قوله: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ مسبَّبٌ عمَّا قبلَه ردًّا على دعواهُم لعبادةِ غيرِ الله

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾، استئنافٌ بيانيٌّ ينزَّلُ منزلةَ النَّتيجةِ لما قبلهُ، وهوَ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ عنِ اتِّخاذهِ ﷺ آلهتَهمْ غيرَ اللهِ ربًّا، فالجوابُ أنَّهُ ﷺ، لمَّا مَحضَ عِبادَتَهُ للهِ، شكرًا على هدايتهِ، أنكرَ عليهمْ أنْ يعبدَ سواهُ تعالى؛ فهوَ واهبُ النِّعمِ، وعبادتُهُ جماعٌ لمراتبِ الشُّكرِ وهوَ مستحقُّها[1].

نكتةُ تَكْرارِ ﴿قُلۡ﴾ أربع مرَّاتٍ:

إشارةُ الثَّلاث إلى أهمِّيَّةِ مقول القولِ، والرَّابعةُ إلى نفي الشِّركِ عنه تعالى

في الآيةِ استهلَّ الحقُّ ﷻ بفعلِ القولِ، وقدْ أوردهُ في مواضعَ سابقةٍ كقولهِ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، فوردتِ الرَّابعةُ هنا، والنُّكتَةُ منْ تكريرِ فعلِ القولِ، الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مَقولِ القولِ، وهوَ هنا نفيُ اتِّخاذِ غيرِ اللهِ ربًّا، وهوَ قمينٌ بذلكَ، فلا أعظمَ منَ التَّوحيدِ، ولا أسمَى منهُ.

غرضُ الاستفهامِ ونوعُهُ في ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾:

استفهامٌ إنكاريٌّ يفيدُ التَّوبيخَ، وإنكارُ مواطأتهم الاعتراف بأصنامِهم

الهمزةُ في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾، للاستفهامِ الإنكاريِّ، أيْ: لا أطلبُ ربًّا سواهُ، فكلُّ مَنْ دونهُ مربوبٌ؛ فهذا هوَ معنى الهمزةِ، فالإنكارُ والتَّوبيخُ متوجِّهٌ إلى اتِّخاذهمُ المعبودَ الباطلَ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.

وظنِّهمْ أنَّهُ هوَ الحقيقُ بالعبادةِ[1]، وفي الاستفهامِ إنكارُ أمنيَّتِهمْ في أنْ يواطِئَهمْ ﷺ، على الاعترافِ بأصنامِهمْ ودينِهمُ الزَّائفِ[2].

نكتةُ العدولِ منَ الجُملِ الخبريَّةِ إلى الإنشائيَّةِ:

إنكارُ الإشراكِ باللهِ، لا يقتضي أدنى احتمالٍ للكذبِ

والجملةُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾، بعد قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾، وقولُه: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾ فيهِ انتقالٌ وتحوُّلٌ مِنَ الجُملِ الخبريَّةِ إلى الجملِ الإنشائيَّةِ، وفائدتُه إفهامُ المخاطَبينَ وإلجامُهمْ بالقولِ، فإنَّ الجملةَ الخبريَّةَ تحتملُ الصِّدقَ والكذبَ[3]، وليسَ كذلكَ حال الجملةِ الإنشائيَّةِ، وكلامُ اللّهِ تعالى كلُّهُ صدقٌ، فكانَ مرادُه تعالى ممَّا سبقَ مِنْ آياتِ إِعْلامَ المشركينَ أنَّ عبادةَ المرءِ وحياتَه للّهِ الَّذي لا شريكَ لهُ، ولمَّا كانَ هذا الخبرُ محتمِلًا للصِّدقِ والكذبِ عندهمْ، عاجَلَهمْ بالأسلوبِ الإنشائيِّ، بنَفْيِ أنْ يبتغيَ غيرَ اللّهِ تعالى ربًّا؛ في أسلوبٍ إنشائيٍّ لا يقتضي أدنى احتمالٍ للكذبِ، فَضْلًا عن أنَّ الجملةَ هنا ليست إنشائيَّةً على بابِها، فيُطلبُ لها جوابٌ محدَّدٌ، وإنَّما غرضُها التَّوبيخُ والتَّكذيبُ.

تقديمُ المفعولِ به على الفعلِ والفاعلِ:

إنكارُ أن يكونَ المربوبُ شريكًا للرَّبِّ لاستحالة ذلك

قدَّمَ المفعولَ على عاملِه في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾، (غيرَ) مفعولٌ للفعلِ ﴿أَبۡغِي﴾، وقدْ تقدَّمَ على عاملِه، وهوَ تقديمٌ جائزٌ لا واجبٌ، ممَّا يُؤْذِنُ بوجودِ سببٍ لتقديمِه، وهوَ الاهتمامُ؛ لأنَّهُ المقصودُ منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ[4] إنكارُ أن يجعلَ المربوبَ شريكًا للرَّبِّ. وقد يَحتمِلُ التَّقديمُ أن يكونَ للتَّخصيص أيضًا.

---

(1) السّبكي، عروس الأفراح: 1/384، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.

(3) عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص: 351.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/704.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الرّبّ) دونَ غيرِه في الآيةِ الكريمة:

الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ حقيقتانِ متلازمتانِ، لا انفكاكَ بينهما

وآثرَ التَّعبيرَ بلفظِ الرَّبِّ على لفظِ الإله، "معَ أنَّ المقصودَ هوَ العبادةُ؛ إذِ المعنى: أبغِي غيرَ اللّهِ إلهًا، وهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ، للإشارةِ إلى التَّلازمِ بينَ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ"[1]، فإنَّهمْ كانوا يُقِرُّونَه ربًّا خالقًا، لكنَّهمْ يعبدونَ الأوثانَ شِركًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿رَبًّا﴾ التَّحقيرُ المؤْذِنُ بالتَّعريضِ بهم:

كيفَ أبغي ربًّا حقيرًا مخلوقًا، وأنا أعبدُ ربًّا مستحِقًّا للرُّبوبيَّةِ

نكَّرَ كلمةَ الرَّبِّ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾، ونكتةُ التَّنكيرِ في ذلكَ دلالتُها على التَّحقيرِ والتَّقليلِ، أي: كيفَ أبغي ربًّا حقيرًا مخلوقًا، وأنا أعبدُ ربًّا مستحقًّا للرُّبوبيَّة، وآيةُ ذلكَ أنَّه قالَ بعدَه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾؟ فأتى بـ﴿كُلِّ﴾ الدَّالةِ على الشُّمولِ، المبايِنَةِ للنَّكرةِ منْ كلِّ وجهٍ، وفي هذا التَّحقيرِ تعريضٌ بهمْ، وتنبيهٌ لهمْ[2] في طلبِهم ذاك؛ فإنَّه لا ينبغي لمَنْ خَلَقَه ورزَقَه، أن يطلبَ ربًّا سواهُ. ويمكن أن يكونَ التَّنكيرُ للتَّعميم، ليشملَ أيَّ ربٍّ من دونِ اللّهِ تعالى.

نوعُ الواوِ في ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾، وغرضُ الجملةِ بعدَها:

جملةٌ حاليَّةٌ موضوعُها تعليلُ إنكارِ أنْ يُتَّخذَ غيرُ الخالقِ والرّازقِ ربًّا

صدَّرَ جملةَ: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾ بالواوِ الابتدائيَّةِ الدَّالَّةِ على الحالِ، وموضعُها التَّعليلُ ممَّا سبقَ، مِنْ إنكارِ أنْ يُتَّخَذَ غيرُ اللّهِ ربًّا وخالقًا ورازقًا، فإنَّهمْ معترفونَ بأنَّهُ الخالقُ والرَّازقُ - فلا حَقَّ إذًا لغيرِه أنْ يعبدهُ الخلائقُ، فعبادةُ غيرِه ظلمٌ كبيرٌ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ (هو) في ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾:

الضَّميرُ توكيدٌ للقَصْرِ اعتبارًا لكونِهِ الرَّبَّ المالكَ، ولا ربَّ سواهُ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾: ابتداءُ الجملةِ بالضَّميرِ بقولِه: ﴿وَهُوَ﴾، يفيدُ توكيدَ القَصْرِ[4] على معنى: وهو الرَّبُّ لا غَيْرُهُ، خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو المستحِقُّ العِبادَةَ وحدَه؛ لأنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2764.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/341.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2765.

نكتةُ الإظهارِ بعدَ الإضمارِ في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

الإظهارُ يَخلَعُ على الاسم تفخيمًا وتعظيمًا

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ فيهِ إظهارٌ بعدَ الإضمارِ، فالضَّميرُ(هو)يعود على الذَّاتِ العليَّة، ونكتتُهُ لأجلِ التَّفخيم والتَّعظيم؛ فإنَّهمْ لمَّا طلبوا ربًّا سواهُ بيَّنَ أنَّهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، "وكلُّ ما سواهُ مَرْبُوبٌ مِثْلي لا يصلحُ للرُّبوبيَّة"[1].

نُكتَةُ إضافةِ الرَّبِّ إلى لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾:

ربوبيَّةُ الله لكلِّ شيءٍ، حكمٌ عامٌّ، أمَّا أربابُهم؛ فليست كذلك

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، أضافَ لفظةَ (الرَّبِّ) إلى لفظةِ (كلِّ)، الدَّالَّة على الشُّمولِ والعموم، ولم يقل: (وهو ربّي) "لإثباتِ أنَّهُ ربُّهُ بطريقِ الاستدلالِ؛ لكونهِ إثباتَ حكم عامٍّ يشملُ المقصودَ الخاصَّ، ولإفادةِ أنَّ أربابَهمْ غيرُ حقيقةٍ بالرُّبوبيَّة"[2]، لأنَّها مخلوقةٌ مثلهم، فلا تستحقُّ منزلةَ الرُّبوبيَّة، وإنَّهم وأَرْبَابُهُمْ مربوبونَ له ﷻ.

غرضُ تنكيرِ لفظةِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

اللهُ ﷻ ربُّ الأشياءِ الموجودةِ والمعدومةِ

وَرَدَتْ لفظةُ ﴿شَيۡءٍ﴾ نكرةً، والشيءُ "هوَ الذي يَصِحُّ أنْ يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنهُ، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم"[3]، وهوَ لفظٌ نكرةٌ، وقدْ أُضيفَ إلى لفظةِ ﴿كُلِّ﴾، وفي تنكيرِهِ غرضٌ: وهوَ دلالتُهُ على الموجود والمعدومِ، منْ بشرٍ وشجرٍ وحجرٍ، فتنكيرُه للعموم، فالحقُّ ﷻ ربُّ كلِّ هذهِ الموجوداتِ وغيرِها منَ المعدوماتِ، وليسَ في الكونِ مَنْ لهُ الرُّبوبيَّةُ غيرُهُ[4].

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾:

الجملةُ السَّالفةُ معلَّلةٌ للإنكارِ، مفضيةٌ إلى تقريرِ الوحدانيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، جملةٌ معطوفةٌ على ما قبلَها، وهي قولُه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّها تعليلٌ للإنكارِ،

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.

(3) الرّاغب، المفردات: (شيء).

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/552.

وتقريرٌ للتَّوحيدِ كسابقتِها، وهي أصلٌ من أصولِ الدِّينِ الَّذي جاءتْ به الرُّسلُ جميعًا[1].

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، جملةٌ مصدَّرةٌ بالنَّفي، ثمَّ أعقبَها بالاستثناءِ، ممَّا يحقِّقُ أسلوبَ القصرِ، ونوعُ القصرِ هنا إضافيٌّ، فنفَى منْ كلِّ وجهٍ أنْ تكسبَ هذهِ النَّفسُ غيرَ ما يكونُ وبالًا عليها؛ فإنَّها قدْ تَكْسِبُ خيرًا إلَّا أنَّ لِعظَمِ ما تكسبهُ مِنَ السَّيِّئاتِ أصبحَ الكَسْبُ مقْصورًا عليها.

النَّفسُ المشارُ إليها، لا تكسبُ إلَّا ما يكونُ وبالًا عليها

الغرضُ من الخبرِ في جملة ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾:

الغرضُ من الجملةِ الخبريَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، تركُ المشركينَ ومَقْتُهُم، فإنَّ عنادَهم وما اقترفوهُ من الشِّركِ ليسَ بضارِّهِ ﷺ، ولن ينالَه شيءٌ من كسبِهم؛ لأنَّه لا يتجاوزهُم إلى سواهُم[2]، والتَّعميمُ هنا لإثباتِ الحكمِ العامِّ، كالتَّعميمِ في قولِه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾.

إخبارٌ عن المشركينَ، وأنَّ كسبَهم عليهم لا يتعدَّى سواهُم

في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ على تقديرِ (شَرًّا أو إثمًا عليها):

وجعلَ فعلَ الكسبِ مطلَقًا، ولمْ يعيِّنْ مفعولَهُ، فهوَ إيجازٌ بالحذفِ، فمفعولُ الكسبِ هنا محذوفٌ تقديرُهُ: شرًّا أوْ إثمًا، فالمخاطَبونَ منْ شأنِهمُ اكتسابُ الشَّرِّ والإثمِ[3]، ومن بلاغةِ الحذفِ أنَّ حرفَ الجرِّ (على) منْ ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾، هو من دلَّ على المحذوفِ.

منْ شأنِ المخاطَبينَ اكتسابهُم الشَّرَّ والإثمَ وسائرَ الموبقاتِ

بلاغةُ الاحتباكِ في قولِه ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، يتوفَّرُ على الاحتباكِ، وهوَ إيجازٌ بالحذفِ على جهةِ التَّقابلِ: يُحْذَفُ مِنَ الأوَّلِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/217.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206 - 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.

لدلالةِ الثَّاني عليهِ، ويحذفُ منَ الثَّاني لدلالةِ الأوَّلِ عليهِ، فإنَّ فعلَ الكسبِ هنا دالٌّ على معنَيَين: كسبٍ للنَّفسِ، ويغلبُ في الخيرِ، واكتسابٍ عليها، ويغلبُ في الشَّرِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، إلَّا أنَّه هنا حذفَ من الأوَّلِ لدلالةِ الثَّاني، وعمومُ المعنى: أنَّ أيَّ كسبٍ أو اكتسابٍ لا يتخطَّى المرء إلى غيرِه[1].

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في قولِه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾:

وجملةُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، ومكمِّلةٌ لها، فمثلما كانَ كسبُ النَّفسِ لا يتعدَّاها إلى غيرِها "كذلكَ لا تحملُ نفسٌ عنْ نفسٍ شيئًا، والمعنى: ولا أَحملُ أَوزارَكم"[2].

غرضُ الإخبارِ بنفيِ الوِزْرِ:

الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، الغرضُ منه: بيانُ أنْ لا "تأثمَ نفسٌ آثمةٌ، بإثْم نفسٍ أخرى غيرِها، ولكنَّها تأثمُ بإثمِها، وعليهِ تُعاقَبُ، دونَ إثمِ أخرى غيرِها"[3]، فكلُّ نفسٍ تتحمَّلُ ما اكتسبَتْهُ من الذَّنبِ لا يجاوزُها إلى غيرِها، وهذا من عَدْلِه تعالى.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَازِرَةٞ﴾ في جملة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾:

النُّكتةُ في تنكيرِ ﴿وَازِرَةٞ﴾، لإفادةِ التَّعميمِ ثمَّ التَّوكيدِ، فلمَّا كانَتْ ﴿وَازِرَةٞ﴾، بمعنى نفسٍ وازرةٍ آثمةٍ، فالمعنى: أنَّ وِزْرَ كلِّ نفسٍ يقعُ عليها، ولا تبعةَ أحدٍ على غيرِه[4]. فالنَّكرةُ تؤدِّي معنى التَّعميمِ، فإذا كانَتْ في سياقِ السَّلبِ؛ أفادَتْ معنى التَّوكيدِ، توكيدِ أنْ لا إثمَ من نفسٍ إلَّا عليها.

المعنى حصولُ الكسبِ لها في الخيرِ، والاكتسابِ عليها في الشَّرِّ

من كسبَ خيرًا نجا وفاز، ومن اكتسب وِزرًا فما له من مَفازٍ

حكمةُ اللهِ في تحميلِ المخطئِ وحدَهُ مَغَبَّةَ فعلِهِ دون غيرِهِ

النَّكِرةُ في سياقِ السَّلبِ تفيدُ التَّعميمَ والتَّوكيدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/340.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/286.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.

كأنَّما أذابَ النَّفسَ في الوزرِ كنايةً عنْ تلبُّسها بها

نكتةُ حذفِ الموصوفِ في قولهِ تعالى: ﴿وَازِرَةٞ﴾:

ولفظُ ﴿وَازِرَةٞ﴾ في الجملةِ، صفةٌ تقتضي موصوفًا، وهو هنا محذوفٌ، تقديرُه ﴿نَفۡسٍ﴾، وجملةُ: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، دلَّتْ على الموصوفِ المحذوفِ، فكلُّ نفسٍ تحملُ حملَها، لا تتخطَّاهُ إلى غيرِها[1]، وحَذْفُ المَوْصوفِ كِنايةٌ عنْ تَلَبُّسِ الموصوفِ بالصِّفةِ، فكأنَّه لمْ يبقَ منهُ شيءٌ.

الإثمُ في وَقْعِهِ كالحِملِ الثَّقيلِ الَّذي ينُوءُ بِثِقْلِهِ الإنسانُ

تشبيهُ الإثمِ بالوزرِ في الآيةِ الكريمةِ منْ بابِ الاستعارةِ:

وفي جملةِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ استعارةٌ، فقدْ شبَّهَ الإثمَ بالوزرِ، وهوَ الثِّقلُ في أصلهِ، ثمَّ استُعملَ في الإثمِ والذَّنْبِ؛ لأنَّهُ ينقضُ الظَّهرَ[2]؛ لأنَّهُ حملٌ ثقيلٌ ينوءُ بثِقَلِه المرءُ، وهوَ منْ بابِ التَّجوُّزِ، وليسَ منْ بابِ الحقيقةِ، حيث إنَّ "مادَّة الوزر، هي الثِّقْلُ بمشقَّةٍ، أي: لا يحمل إنسانٌ مشقَّةً ثقيلةً عن آخر، فالمسؤوليَّة لا تتعدَّى إلَّا إذا تعدَّى الفعل"[3].

المحذوفُ كَلِمَةُ (نفس) اختصارًا، لسبقِها إلى الأفهامِ

نكتةُ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾:

في قولِه: ﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، ثمَّةَ محذوفٌ، "أيْ: ذنبُ نفسٍ أخرى، أيْ: فلا تحملُ آثمةٌ ولا طائعةٌ ذنبَ غيرِها"[4]، فحذفَ كلمةَ نفسٍ، وأبقَى وصفَها لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليها، فكلُّ نفسٍ رهينةٌ بمكسبِها، بريئةٌ منْ مكاسبِ غيرِها.

غرضُ التَّعقيبِ المشتملِ على التَّهديدِ والوعيدِ وأثَرُهُ

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ العاطفةِ في قولهِ: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾، عطفَ هذهِ الجملةَ على سابقتِها بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾، وهوَ الدَّالُّ على العطفِ والتَّرتيبِ والتَّعقيبِ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4026.

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/158، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/342.

و"يَحتمِلُ أنْ يكونَ منْ جملةِ القولِ المأمورِ بهِ، فيكونُ تعقيبًا للمتاركةِ بما فيهِ تهديدُهمْ ووعيدُهمْ، فكانَ موقعُ ثمَّ؛ لأنَّ هذا الخبرَ أهمُّ"[1].

إضافة إلى ذلك، نذكر بأنَّ من المعاني المشتهرةِ للحرف ﴿ثُمَّ﴾ في لسانِ العربِ التَّرتيبَ والمُهْلَةَ[2]، وهو كذلكَ في الآيةِ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾، "أي: بعدَ طولِ الإمهالِ لكم، لطفًا منه بكم"[3]، ففيه إمدادٌ وتراخٍ لهم، لعلَّهم يعودون إلى طريقِ الحقِّ، وجادَّةِ الصَّوابِ.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التَّقديمُ يفيدُ اختصاصَ مصيرِ الإنسانِ ومآلِه إلى اللهِ وحدَه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾، الأصلُ في الجملةِ الابتدائيَّةِ تقدُّمُ المبتدأِ بشروطِه على الخبرِ، فإنْ تقدَّمَ الخبرُ فيكونُ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ، تدورُ أغلبُها حولَ الاهتمامِ والاختصاصِ، وههنا قدَّمَ المُتَعَلِّقَ الواقِعَ خبرًا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾، على المبتدأِ المعرفةِ ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾، وبلاغةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ هنا متوجِّهٌ إلى الاختصاصِ، فمعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ أي: المَرجِعُ إلى اللهِ وحدهُ لا غيرهُ، مالكِ يومِ الدّينِ وحدَهُ، يُجازي المُحسِنَ إحسانًا، والمُسيءَ عذابًا وخسرانًا[4].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ:

الغرض تلوينُ الخطابِ، وتأكيدُ الوعدِ، وتشديدُ الوعيدِ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾، جملةٌ دالَّةٌ على الخطابِ، واقعةٌ بعدَ قولِه: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، وهوَ كلامٌ يتوفَّرُ على الغَيْبَةِ، وفي ذلكَ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ، وبلاغةُ هذا الانتقالِ تقومُ على "تلوينِ للخطابِ، وتوجيهٍ لهُ إلى الكلِّ، لتأكيدِ الوعدِ وتشديدِ الوعيدِ، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 426.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 1/323.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2766، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343.

إلى مالكِ أمورِكمْ، ورجوعِكمْ يومَ القيامةِ"[1]. فالانتقالُ من الغَيبةِ إلى الخطابِ يخلعُ على الكلامِ أهمِّيَّةً بالغةً، جاءتْ هنا في سياقِ الوعدِ والوعيدِ، وتأكيدِهما.

دلالةُ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾:

غرضُ الجملةِ الخبريَّةِ التَّهديدُ والوعيدُ لمن لا يؤمنُ بدينه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ غرضُها التَّهديدُ والوعيدُ، في أنَّكمْ ستعودونَ إلى ربِّكمْ، فيُعلِمُكم بما تستحقُّونَ مِنَ العقابِ على ما قدَّمتمْ، تبيينًا لموضعِ الحقِّ، فسيَاقُ هذهِ الجملةِ خبريٌّ، ومغزاهُ التَّهديدُ والوعيدُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ دونَ (ترجعون):

إشارةٌ إلى عودِ الإنسانِ إلى الأصلِ

التَّعبيرُ بـ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ في الجملةِ دونَ غيرِها، فيه نكتةٌ، ذلكَ أنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ حرفٌ يدلُّ على انتهاءِ الغايةِ، و﴿رَبِّكُم﴾ اسمٌ مجرورٌ، فالمعادُ يكونُ إليهِ تعالى، والجارُّ والمجرورُ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ، خبرٌ مقدَّمٌ جوازًا، و﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ، وهوَ مُعَرَّفٌ بإضافتهِ إلى ميمِ الجمعِ، والمعنى: أنَّكمْ صائرونَ إليهِ، وهوَ مصدرٌ ميميٌّ، والمصدرُ في اللُّغةِ "أصلُ الكلمةِ الَّتي تصدرُ عنها صوادرُ الأفعالِ، وتفسيرُهُ: أنَّ المصادرَ كانتْ أوَّلَ الكلامِ"[3]، وهوَ المبدأُ، فكانَ في ذلكَ إشارةٌ، إلى معادِ الإنسانِ إلى الأصلِ، فمآلُ كلِّ إنسانٍ إليهِ تعالى.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

الفاءُ عاطفةٌ أو سببيَّةٌ، وكلا الغرضين يخدمُ المعنى ويجلِّيه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، الفاءُ في ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، تَحتمِلُ أنْ تكونَ عاطفةً على تقديرِ أنَّ رجوعَكمْ إلى ربِّكمْ، يَتْبَعُهُ إنباؤكمْ باختلافِكمْ، فالفاءُ هنا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/316.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/705.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 12/95.

لترتيبِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها[1]. وتَحتمِلُ أنْ تكونَ سببيَّةً؛ فإنَّكمْ ستعودونَ إليهِ تعالى، لينبِّئَكُمْ بما كنتمْ فيهِ تختلفونَ في دنياكُمْ.

بسببِ اختلافِهم كتبَ اللهُ عليهم الإنباءَ والعذابَ

معنى (الباء) في ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، الباءُ في ﴿بِمَا﴾ للإلصاقِ[2]، والمعنى: أنَّ صدورَ الاختلافِ حصلَ منهمْ، فبوساطةِ ذلكَ الاختلافِ قدَّرَ اللهُ تعالى عليهمُ الإنباءَ، وهوَ الحدثُ الَّذي يسبقُ العقابَ، أوْ هوَ العذابُ نفسُهُ، فالمؤثِّرُ في مصيرِهمْ هذا هوَ اختلافُهمْ.

دلالةُ الموصولِ على عدمِ التَّعيينِ والعمومِ، يفيدُ التَّعظيمَ والتَّهويلَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (مَا) ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿بِمَا﴾ المجرورُ فيه اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي كنتم تختلفون فيه[3]، والتَّعبيرُ بالموصولِ الدَّالِّ على العموم، وعدمِ التَّعيينِ في هذا الموضعِ، يفيدُ التَّعظيمَ، تهويلًا ممَّا ارتكبوهُ، فاستحقُّوا عليهِ العذابَ.

التَّقديمُ في السِّياقِ لشدَّةِ اختلافِهمْ فيهِ، وقوَّةِ داعيَتِهم إليهِ

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفعلِ والفاعلِ:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِيهِ﴾ على الفعلِ والفاعلِ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، ونكتةُ تقديمِهِ هي الاهتمامُ، وسرُّ هذا الاهتمام "لقوَّةِ داعيَتِهم إليهِ منْ غيرِ إكراهٍ ولا ذهولٍ ولا نسيانٍ"[4]، فاختلافُكمْ كائنٌ معَ هذا الرَّسولِ ومعَ المسلمينَ، فيكونُ حالُكمْ ومآلُكمْ، عِقابًا عظيمًا تَسْتَحِقُّونَهُ بكفرانِكمْ نِعمَهُ.

الفروقُ المُعجَميَّةُ:

الابتغاءُ بمعنى الطَّلبِ، والإرادةُ تكونُ بمعانٍ شتَّى

(أبغي) و(أريد):

الفعلُ أبغي مِنَ الجذرِ اللُّغويِّ (بغي)، تقولُ: بغيتُ الأمرَ أبتغيهِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2767.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 20/86.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/635.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343.

أي: طلبتُهُ، فهوَ بمعنى: الطَّلبِ والاجتهادِ فيهِ[1]. أمَّا الفعلُ أريدُ؛ فالمصدرُ منهُ الإرادةُ، وهيَ "المشيئةُ، أرادَ الشَّيءَ: أحبَّهُ وعنّى بهِ ذهابَ النَّفسِ إلى الشَّيءِ طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيله"[2]. فالإرادةُ تتوفَّرُ على غيرِ معنى واحدٍ، أمَّا الابتغاءُ فمعناهُ واحدٌ، ولمَّا كانَ سياقَ الآيةِ في توحيدِهِ تعالى؛ استعملَ الفعلَ أبغي.

(تكسب) و(تزر):

الكسبُ دالٌّ على النَّفعِ والضُّرِّ حقيقةً، والوِزْرُ الذَّنبُ الثَّقيلُ مجازًا

فِعْلُ الكسبِ عائدٌ على الفاعلِ نفعًا أوْ ضرًّا، وقيلَ: ما يقعُ مراسًا أوْ علاجًا، وما كانَ بفعلِ الجوارحِ[3]، وقد وردتْ في سياقِ فعلِ الجوارحِ: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، فهو ما يكسبُهُ الإنسانُ من خيرٍ، وما يكتسبُهُ غير ذلك. أمَّا قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ بالوزرِ؛ فهوَ تعبيرٌ مجازيٌّ عَنِ الذَّنبِ، فأصلُه منَ الثِّقْلِ، أي: إنَّهُ يُثقِلُ صاحبَهُ تشبيهًا بثِقَلِ الجبلِ[4]، فجاءَ بالكسبِ أوَّلًا على الحقيقةِ، ثمَّ ثنَّى بالذَّنبِ الثَّقيلِ مجازًا.

(الاختلاف) و(التَّفرُّق) و(التَّنازع) و(التَّشتُّت):

الاختلافُ بمعنى المباينةِ والتَّفرُّقِ، والتَّعبيرُ بهِ في الآيةِ أدقُّ من غيره

الاختلافُ والمخالفةُ، أنْ يأخذَ كلُّ إنسانٍ طريقًا، يباينُ طريقَ إنسانٍ آخرَ، حالًا أوْ مقالًا، وقدْ يقتضي الاختلافُ التَّنازعَ، فاستُعيرَ للمنازعةِ ونحوِها[5]، والمعنى في الآيةِ في قولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، أيْ: تختلِفُونَ في هذا الدِّينِ مع الرَّسولِ ﷺ وأصحابِه.

أمَّا التَّفرُّقُ: فهوَ مِنْ (فرق) وهوَ فصلُ الشَّيءِ عنْ غيرِه فصلًا يصلُ إلى العمقِ[6].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريد).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 234، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

وأمَّا التَّشتتُ: فيأتي بمعنى التَّفرُّقِ والتزيُّلِ كتشتيتِ الشَّيءِ، أي: تفرُّقِهِ، فهوَ مرادفٌ لهُ[1]. وأمَّا التَّنازعُ، فهوَ شدَّةُ الاختلافِ الموصلِ إليهِ، كما مرَّ آنفًا.

ونخلصُ منْ ذلكَ كلِّه: أنَّ التَّعبيرَ بفعلِ الاختلافِ جاءَ دقيقًا في الآيةِ الكريمة، وجاريًا على كلامِ العربِ الأقحاح.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شتت)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شت).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين الـرُّجـعـى إلى الـلـه، والاسـتـخـلافِ والـتَّـنـافسِ في العملِ النَّافعِ

بعد أنْ أخبرَ الحقُّ ﷻ، أنَّ مآلَ النَّاسِ جميعًا كائنٌ للجزاءِ والحساب ولا سلطانَ فيهِ إلَّا للّه (ﷻ)، بقولِه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، أعقبهُ بأنْ يصيِّرهُمْ خلائفَ يخلفُ بعضُهمْ بعضًا، لتمتدَّ الحياةُ، وينافسَ بعضُهمْ بعضًا في الصَّالحِ مِنَ الأعمالِ، وفي ذلكَ ابتلاءٌ منهُ تعالى لهمْ، فمنهم من يسيء، ويُعاقبه اللّه، ومنهم من يحسنُ، فيتجاوز عنه الغفورُ الرَّحيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جمعٌ مكسَّرٌ مفردُه خليفةٌ، وجذرُه اللُّغويُّ (خلف)، ومعناه المتأخِّرُ[1]، و"الخاءُ واللَّامُ والفاءُ، أُصولٌ ثلاثةٌ: أحدُها أَن يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَه، والثَّاني خلافُ قُدَّامٍ، والثَّالثُ التَّغيُّرُ"[2].

وتناسبُ هذه المعاني الثَّلاثةُ لفظةَ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في أنَّهم قاموا مقامَ غيرِهم، وكانوا متأخِّرين عنهم، وفي ذلكَ تغيُّرٌ وتبدُّلٌ، ومعنى التَّأخُّرِ ليسَ شرطًا أنْ يكونَ لقصورٍ في منزلتِه، بلْ قدْ يَخْلُفُ عنْ غيرِه، إمَّا لغَيبتِه، أوْ فقدِه أوْ عجزِه، وقدْ يكونُ لتشريفِه؛ واللَّفظةُ في هذهِ الآيةِ على هذا الوجهِ، فقدِ استَخْلَفَهمْ تشريفًا لهمْ[3].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة: (خلف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).

ومعنى جعلكم ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾، أي: إنَّهُ أورثَكم الأرضَ بعد هلاكِ من كانَ قبلَكم، فجعلَكم تخلفونَهم، وتعمرونَها بعدَهم[1].

2) ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: جمعُ بالألفِ والتاءِ، مفردهُ درجةٌ، والجذرُ اللُّغويُّ منهُ (درج)، ومعنى الدَّرجةِ متعلِّقٌ بالرِّفعةِ والمنزلةِ[2]. والدَّرجاتُ تأتي بمعنى المراتبِ مَادِّيًّا ومعنويًّا[3]، وبمعنى المراقي الَّتي يترقَّى فيها الإنسانُ[4].

ومعنى الدَّرجاتِ في الآيةِ: أنَّ الحقَّ ﷻ بايَنَ بينَ أوضاعِكمْ، فبسطَ لبعضِكمُ الرِّزقَ خلافَ بعضٍ، وفضَّلَ بعضَكمْ على بعضٍ بالمالِ، وجعلَ لبعضكمُ القوَّةَ والأَيْدَ، ولمْ يجعلهُ لآخرينَ[5].

3) ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾: فعلٌ مضارعٌ، جذرهُ اللُّغويُّ منْ (بلو)، والفعلُ (يبلُو) منَ الابتلاءِ، وهوَ الامتحانُ والتَّمحيصُ والتَّجربةُ[6]، والأصلُ في معناهُ الاختبارُ خيرًا وشرًّا، صبرًا وشكرًا؛ لإظهارِ جودته منْ سواها[7].

وغالبُ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ، تأتي بمعنى الشِّدَّةِ معَ الاختبارِ[8]، ومنهُ الواردُ في هذهِ الآيةِ، فهوَ بمعنى الاختبارِ والامتحانِ؛ ليظهرَ منكمْ ما يكونُ مقصدُهُ العقابَ والثَّوابَ[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

نعمةُ الاستخلافِ وعمرانِ الأرضِ، والابتلاءُ برفْعِ بعضِ النَّاسِ فوقَ بعضٍ

يومئُ الحقُّ ﷻ إلى امتنانهِ على عبادِهِ، بأنْ مكَّنَ لهمُ الأرضَ، حتَّى استخلفُوها، وآثرَ بعضَكمْ على بعضٍ درجاتٍ، ابتلاءً لكمْ فيما

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/286.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (درج).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درج).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (درج).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/288.
(6) الخليل، العين: (بلو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والرّاغب، المفردات: (بلى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو - بلى).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/158.

آتاكمْ، وامتحانًا فيما أعطاكُمْ، فحسابُهُ لاحقٌ، وحكمهُ سابقٌ[1].وهوَ سريعُ العقابِ لمن يخشاهُ، وغفورٌ رحيمٌ لمن يترجّاه، " وهكذا يتحرَّك النَّاس في الحياة، صعودًا وهبوطًا، ويتبادلونَ المواقفَ، ويتنازعون منازلَ الفضلِ، وبهذا تظلُّ ريحُ الحياةِ في حركةٍ دائمةٍ مجدَّدةٍ، يتنفَّس فيها النَّاس أنفاسَ الأملِ، والقوَّة، والحياة"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ على ما سبقَها:

استعطافٌ وتذكيرٌ بنعمِهِ وآلائهِ بعدَ تهديدِهِ ووعيدِهِ بعذابه

هذه الآيةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ على ما سبقَها، وبلاغةُ هذا العطفِ تناسُبُهُ معَ ما قبلَهُ، فإنَّهُ قدْ ذكرَ فيما سبقَ إحسانَهُ تعالى بربوبيَّتِهِ، ثمَّ ختمَ بالتَّهديدِ، وأنَّهمْ محشورونَ إليهِ، فأتبعهُ مستعطفًا مذكِّرًا بنعمهِ وآلائهِ بأنَ جعلهمْ خلائفَ الأرضِ، ومكَّنهمْ فيها[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

دلالـةُ الموصولِ علـى التَّعظيمِ لتتشوَّقَ القلوبُ إلى معرفةِ الصِّلةِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، جاءَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ العائدُ عليهِ سبحانَهُ، والغرضُ منهُ تعظيمُ ذاتِ اللهِ في أنَّهُ جعلكمْ خلائفَ، ومكَّنكمْ فضلًا منهُ وإحسانًا، ثمَّ إنَّ ذِكْرَ الموصولِ بعدَ الضَّميرِ حتَّى تتشوَّقَ القلوبُ إلى معرفةِ الصِّلةِ.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّةً:

كونُهم خلائفَ أمرٌ حادثٌ، فلا يركنوا ولايغترُّوا

ورودُ صلةِ الموصولِ جملةً فعليَّةً للدَّلالةِ على الحدوثِ بأنَ جعلَهمْ خلائفَ، أمرٌ حادثٌ منهُ تعالى، بعدَ أنْ كانوا مستضعفينَ يَتَخَطَّفُهُمُ النَّاسُ، فلا يركنوا ويغترُّوا، فتصيبَهمْ سنَّةُ اللهِ في التَّغييرِ. وفيهِ منَ الامتنانِ عليهمْ ما فيهِ، بأنَ صيَّرَهم كذلكَ، ومكَّنهمْ في الأرضِ.

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/516.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/360.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343 - 344.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿جَعَلَكُمۡ﴾ دونَ (خلقكم):

عبَّرَ بالفعلِ ﴿جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يأتِ بالفعلِ (خلقكُم)؛ لأنَّ الفعلَ (جعلَ) أليقُ وأنسبُ لموضعهِ في الآيةِ، ولما فيه من معنى الامتنانِ، فثمَّةَ فرقٌ بينَ الخلقِ والجعلِ، وهوَ "أنَّ الخلقَ فيهِ معنى التَّقديرِ، وفي الجعلِ معنى التَّضمينِ، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، أوْ تصييرِ شيءٍ شيئًا، أوْ نقلهِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ"(1). والجعلُ في الآيةِ واحدٌ منْ هذهِ المعاني، وهوَ التَّصييرُ بأنَ صيَّرهمْ منْ كونِهمْ مستضعَفينَ في الأرضِ، إلى كونِهمْ خلائفَ، بأن "أهلكَ منْ كانَ قبلَكمْ منَ القرونِ والأممِ الخاليةِ، واستخلفَكمْ، فجعلَكمْ خلائفَ منهمْ في الأرضِ تَخْلُفونَهمْ فيها، وتعمرونَها بعدَهمْ"(2).

الجعلُ بمعنى التَّحويلِ، أيْ: صيَّركُم خلائفَ، وفيه معنى الامتنانِ

فائدةُ العمومِ للمخاطَبينَ في قوله: ﴿جَعَلَكُمۡ﴾:

والتعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ خطابًا عامًّا، أيْ: يخلفُ بعضُكمْ بعضًا في الأرضِ فتتصرَّفونَ فيها، ومنْ حكمتِه تعالى تعاقبُ البشرِ على التصرُّفِ في الأرضِ وعِمارتِها، فلا يذهبُ جيلٌ حتَّى يَخلُفَهُ آخرُ إلى أنْ يقعَ الفناءُ، ويحينَ موعدُ النِّهايةِ(3).

خلافةُ البشرِ في الأرضِ، وتعاقبهمْ على عِمَارَتِهَا من حكمةِ اللهِ الرَّاقية

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، عبَّرَ بلفظةِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾، وهيَ صيغةُ جمعِ تكسيرٍ، مفردهُ (خليفةٌ)، وهوَ اسمٌ لما يَخْلُفُ، أي: يكونُ خَلَفًا وعِوَضًا من سابقِه(4).

الاستخلافُ استرعاءٌ للبشرِ، وتبصُّرٌ بمصيرِ من كانَ من قبل

ونكتةُ التَّعبيرِ بالخلائفِ، أنَّهُ جعلَهمْ كذلكَ، يفعلونَ فعلَ الخليفةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/287 - 288، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1435.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/192، ومحمّد المكّي، التّيسير في أحاديث التّفسير: 2/190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

في الأرضِ، وهمْ متمكِّنونَ ومتصرِّفونَ، منْ كلِّ ما يريدونَ فيها[1]، وهذا من إنعامِهِ تعالى عليهم.

وفي الاستخلافِ استرعاءٌ، يختصُّ بمن ينصحُ للمَرعِيِّ، وفي تصييرِكمْ خلفاءَ لمنْ كانَ قبلَكمْ، فيهِ معنى الإنذارِ والعبرةِ والحذرِ، منْ أنْ يصيبَكمْ، ما اعترى منْ كانَ قبلَكمْ مِنَ العدمِ، فلو قدَّرَ بقاءَ غيرِكمْ، لما استخلفَكمْ بعدَهمْ[2] فأخذهُم اللّه، وشَمَلَتْهُم سنَّةُ الاستبدالِ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمّد: 38].

سرُّ إضافةِ الخلائفِ إلى الأرضِ في ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾:

الاستخلافُ منه ظاهرٌ في جزيرةِ العربِ، وباطنٌ في الأرضِ كلِّها

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أضافَ لفظةَ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ إلى لفظةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وفيهِ معنيانِ: ظاهرٌ وباطنٌ، أمَّا الظَّاهرُ؛ فهوَ استخلافُهمْ في جزيرةِ العربِ الَّتي يقطنونَ فيها، وأمَّا الباطنُ؛ فهيَ بشارتُهمْ في أنَّ دينَهمْ سينتشرُ في الأرضِ، وغلبةُ سلطانِهمْ على أهلِ الأرضِ في ذلكَ الوقتِ، وفيما يستقبلُ مِنَ الزَّمانِ[3].

الفرق بين ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

التفريقُ بين خطابِ التعريفِ، وخطابِ التنكيرِ

وذكرَ الخلائفَ هنا معرَّفًا، وذكرَه منكَّرًا في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ الموضعينِ؟ والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ سياقَ الخطابِ في (الأنعامِ)، جارٍ على المعارفِ، كقولِهِ: ﴿جَعَلَكُمْ﴾، أي: جعلَ كلَّ واحدٍ منهم الخليفةَ في الأرضِ، وتمكينَهم، أمَّا آيةُ (فاطر)، فليستْ كذلك؛ لذلكَ أخرجَ لفظةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2597.
(2) النّحاس، إعراب القرآن: 3/254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، "مع ملاحظة أنَّه يجوز في الإضافةِ أنْ تكونَ (على) معنى (في)، على أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا إلى المشركين على معنى: جعلَكمْ خلائفَ فيها، أي: إنَّكم خلفٌ لما مضَى مِنَ الأممِ"، كقولِهِ تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مخرجَ النَّكرةِ "كأنَّهُ قالَ: جَعَلَكُمْ خَلَفًا لمَنْ تقدَّمكمْ غيرُ معلومٍ إلَّا عندَ اللهِ ما يكونُ منْ أمرِكِمْ، فأنتمْ مجهولونَ عندَ أشباهِكمْ وأمثالِكمْ"(1)، فنزَّلهم هنا منزِلَةَ المجهولينَ. والتَّنكيرُ أليقُ بهذا التَّنزيلِ، وقد ناسب هذا التَّعميمُ في هذه السُّورةِ الإضافةَ بقوله: ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، لدلالةِ الإضافةِ على التَّوسُّعِ في الاستيلاءِ والإطلاقِ، ولم يكنْ ليناسبَ التَّعبيرَ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ على التَّقييدِ(2).

اللَّامُ في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بين العهد والاستغراق:

المخاطَبون العربُ أو الأمَّةُ، والأرضُ جزيرةُ العربِ أو العالمُ كلُّه

واللَّامُ في لفظةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، تَحتمِلُ أن تكونَ عهديَّةً(3)، فالمخاطَبون هم العربُ، فيرادُ بالأرضِ ما هم عليه من جزيرةِ العربِ(4). ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وللأمَّةِ الإسلاميَّةِ. والمقصودُ بالأرضِ أيُّ أرضٍ، فاللَّامُ على نيَّةِ الاستغراقِ، فيكونُ الكلامُ متضمِّنًا البشارةَ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ آخرِ الأممِ الَّتي صيَّرها اللهُ، لتكونَ سببًا في عمارةِ الأرضِ(5).

غرضُ المجيءِ بخبرِ جعلهمْ خلائفَ:

جعلكمْ خلائفَ فيهِ آيةٌ على إمكانِ البعثِ والنُّشورِ

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، الغرضُ منها أنَّ في جعلِكمْ خلائفَ الأرضِ، بعدَ ما سبقَها ممَّنْ كانَ قبلَكمْ، لهوَ منْ أوضحِ الأدلَّةِ على إمكانِ البعثِ والنُّشورِ، فمنْ فعلَ ذلكَ لا يعجزُهُ أنْ يحشرَ الجميعَ، بعد انقضاءِ عالمِ الحياةِ الدُّنيا(6).

(1) الاسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/1081، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 115.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/175.
(3) اللّام العهديّة الدّاخلة على الأسماء النّكرة الّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق. يُنظر: ابن السّراج، الأصول في النّحو: 1/150.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ﴾:

التَّباينُ في الدَّرجات عبرةٌ ووسيلةٌ لشكر العطاءات

والواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾، تفيدُ العطفَ، فهذهِ جملةٌ معطوفةٌ على ما سبقَها مِنْ جعلِهِمْ خلائفَ الأرضِ، ودلالةُ العطفِ هنا تجري على ما في المخاطَبِ مِنِ احتمالين: الأوَّلُ: للعبرةِ والعظةِ وعدمِ الاغترارِ بالقوَّة، والثَّاني: أن تكونَ وسيلةً لشكرِ النِّعمةِ رفقًا بالضَّعيفِ، وإنصافًا للمظلومِ[1].

نكتةُ استتارِ الفاعلِ من: ﴿وَرَفَعَ﴾:

إيثارُ الإيجازِ، ودلالةُ ما سبقَ عليه؛ لأنَّه معلومٌ من سياقِ الآيةِ

الفعلُ: ﴿وَرَفَعَ﴾ من قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ فعلٌ استترَ فاعلُه، ونكتةُ استتارِ الفاعلِ من الفعلِ، طلبًا للاختصارِ، وأنَّه ذكرَه قبلَه في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، فاللَّفظُ يُحذفُ لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه، وهنا أشيرَ إليه سبحانهُ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ في رفعِ الدَّرجاتِ في الآيةِ الكريمة:

رفعُ الدَّرجاتِ تشبيهٌ لتفاوتِ النِّعَمِ في الفضلِ والغنى

والتَّعبيرُ برفعِ الدَّرجاتِ في الآيةِ مِنْ بابِ الاستعارةِ؛ لبيانِ تفاوتِ النِّعمِ في الفضلِ والغنى، ونحوِ ذلكَ، شبَّهَ فيها المعقولَ بالمحسوسِ لتقريبِه[2]، والجامع بينهما التَّفاوتُ والتَّباينُ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ. ومن معانيهِ الأخرى، فإنَّهُ رفَعَ الدَّرجاتِ، وحصلَ التَّفاوتُ، معَ أنَّكمْ مِنْ نفسٍ واحدةٍ، ولعلَّ الوضيعَ لهُ عقلٌ، فلمْ ينفعهُ، وأصبحَ أدنى مِنَ الرَّفيعِ، وفي ذلكَ آيةٌ بيِّنةٌ، ودلالةٌ واضحةٌ على أنَّهُ مِنْ فعلِ الواحدِ القهَّارِ مِنْ غيرِ عَجْزٍ عن المساواةِ بينهمْ[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿بَعۡضٖ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾، وردتْ لفظةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211، والمنتجب الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/735.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344.

﴿بَعۡضٍ﴾ نكرةً، والنُّكتةُ في هذا التَّنكيرِ إفادتُه التَّعظيمَ، فقد "أفادَ نَبيَّنا صلواتُ اللّهِ وسلامهُ عليه بلفظِ البعضِ إعلاءً لقدرِه"[1] فضلًا عن إفادة التَّنكير هنا معاني العموم، ليشملَ الجميع دون استثناءٍ.

التَّنكيرُ يفيدُ التَّعظيمَ والتَّعميمَ، وهو من بليغِ الأساليبِ

نكتةُ ورودِ كلمةِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالجمعِ والتَّنكيرِ:

ونكتةُ إيرادِ كلمةِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالجمعِ والتَّنكيرِ في الآيةِ أنَّها دالَّةٌ على الدَّرجاتِ الكثيرةِ، معَ التَّفاوتِ الكثيرِ، مثلما نجدُهُ "بينَ العالمِ والجاهلِ، والحَسَنِ والقبيحِ، والشَّريفِ والوضيعِ، والغنيِّ والفقيرِ، والمريضِ والصَّحيحِ"[2].ولوْ شاءَ اللّهُ لجعلكمْ متساوينَ منْ غيرِ هذا التَّفاوتِ، ولكنَّ حكمتَهُ اقتضَتْ ذلكَ، فالتَّنكير قد يفيد التَّكثير، وقد يدلُّ أيضًا على التَّعميم.

التَّفاوتُ بينَ البشرِ من حكمتِه تعالى في الخلقِ والتَّقديرِ

دلالةُ (اللّامِ) في قولِه: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ على التَّعليل:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ اللَّامُ المقترنةُ معَ فعلِ الابتلاءِ والاختبارِ، لامُ التَّعليلِ، والمعنى: أنَّهُ تعالى يفعلُ معكمْ ذلكَ، اختبارًا لكمْ، لإقامةِ الحجَّةِ عليكمْ، وتسميةُ البلوى لخفائِها، وأنَّها لا تظهرُ إلَّا بعدَ العملِ، فيكونُ واقعًا بعدَ أنْ كانَ مقدَّرًا[3].

غرضُ الاختبارِ بالطَّاعةِ والمعصيَةِ، إقامةُ الحجَّةِ على العبادِ

التَّعبيرُ بالفعلِ في قولِه: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ من بابِ المجازِ المرسلِ:

والتَّعبيرُ بفعلِ الابتلاءِ في الآيةِ، ليسَ على حقيقتهِ، بلْ هوَ منْ بابِ المجازِ المرسَلِ[4]، فالابتلاءُ لا يجوزُ في حقِّهِ تعالى؛ لأنَّهُ ليسَ محلًّا للحوادثِ؛ ولأنَّ علمَهُ تعالى أزليٌّ، فهوَ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، لكنَّهُ أطلقَ الابتلاءَ، وأرادَ انكشافَ حقيقةِ المُبْتَلَينَ؛ المُسَبَّبَةِ عنْ ذلكَ الابتلاءِ والاختبارِ.

القصدُ إطلاقُ الابتلاء، وإرادَةُ انكشاف حقيقةِ البشرِ فيما أعطاهم

(1) الحنفيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/335.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/436.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(4) "هو الكلمة المستعملة قصدًا في غير معناها الأصليِّ لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالَّة على عدم إرادة المعنى الوضعيّ"، يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 252.

(ما) تَحتمِلُ الموصوليَّة، وتحتمل المصدريَّةَ، وكلاهما معنًى مفيدٌ

معنى (ما) في ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ في الآية الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ ﴿مَآ﴾ في الجملة تَحتَمِلُ مَعْنَيَيْن: الأوَّلُ أنْ تكونَ موصولةً، أيْ: (ليبلوَكم في الَّذي آتاكمْ من فضلٍ ونعمةٍ، وأنعمَ بهِ عليكمْ)[1]. والثَّاني أن تكونَ مصدريَّةً، أي: (ليبلوكُم في هذا المأتيِّ من عطائِه وفضلِه).

من حازَ نِعمًا وفيرةً منْ عطاء الله، فحقيقٌ به أن يشكرَ مولاه

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ مادَّةً وصيغةً:

في قوله تعالى ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، جاء فِعْلُ الإيتاءِ بمعنى: الإعطاءِ، والمعنى: ما أعطاكُم من النِّعمِ الكثيرةِ كالجاهِ والمالِ[2]، وجاءَ بالصِّيغةِ الفعليَّةِ الماضِويَّةِ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإعطاءِ ووقوعِه، فيكونُ مِنَ الأجدرِ بهمْ أنْ يشكروا نعمةَ ربِّهمْ، وبألَّا ينسَوا الفضلَ بينَهمْ، صَغيرُهُم وكَبيرُهُم، شَريفُهُم وحَقيرُهُم.

الإيتاءُ مستعارٌ لإيجادِ الرِّفعةِ تشبيهًا بإعطاءِ المعطي شيئًا لغيره

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عنْ تفاوتِ النِّعمِ بالإيتاءِ:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ فعلُ الإيتاءِ هنا يدلُّ على تفاوتِ النِّعمِ، وهو "مستعارٌ لتكوينِ الرِّفعةِ في أربابِها تشبيهًا للتَّكوينِ بإعطاءِ المعطي شيئًا لغيره"[3].

تذكيرٌ بالنِّعَمِ، وتحذيرٌ من سَلْبِه، وحضٌّ على تداركِ ما فاتَ

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، يقعُ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّه وردَ عقبَ قولِه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، فينشأُ عنْ سؤالِ سائلٍ: فماذا بعد الابتلاءِ؟ فالجوابُ أنَّ منْ أعرضَ وكفَرَ، فإنَّهُ سريعُ العقابِ، وهوَ الغفورُ الرَّحيمُ، وفيهِ تذكيرٌ بالنِّعمةِ، بعدَ أنْ حذَّرهمْ بأنْ يسلبَها منهمْ، ويحرِّضهمْ على ما فاتهمْ لتداركِه، وينظروا في عواقبِ الأممِ، وانقراضِها، وبقائِها، فيعتبروا بهمْ[4].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/231.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/553.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

بلاغةُ توالي المؤكّداتِ:

الصِّفاتُ المذكورةُ مقصورةٌ عليهِ ﷻ، وإنْ وُصِفَ غَيْرُهُ بمثلِها

وختمَ الآيةَ بجملتين مشحونتين بالمؤكّداتِ، هما قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، ففي هذهِ الجملةِ طائفةٌ مِنَ المؤكّداتِ، منها: (إنّ) في موضعين استهلَّ بهما الجملتين، وتعريفُ جزأي الجملةِ الأولى، والمسحةُ التَّوكيديَّةُ بيِّنةٌ فيها، فضلًا عَنِ التَّعبيرِ بصفتيْنِ للمبالغةِ، والمبالغةُ قرينةُ التَّوكيدِ، وكذلك التَّعبيرُ بالجملتيْنِ الاسميَّتيْنِ. والغرضُ مِنْ ذلكَ تحقيقُ القَصْرِ، فالمعنى: الإقرارُ منهما، بأنَّهُ تعالى سريعُ العقابِ، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ، لا غيرُهُ، وإنْ كانَ غيرُهُ ممَّا يمكنُ أنْ يوصفَ بالرَّحمةِ.

غرضُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ في ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

السُّرعةُ مُستعارةٌ للقدرةِ على العقابِ، ونفي خشيةِ غائلةِ المُعاقَبِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، قدْ أضافَ صفةَ السَّريعِ إلى العقابِ، "واسْتُعيرت السّرعة لعدم التَّردُّد ولِتمام المَقْدرة على العقاب، لأنّ شَأنَ المُتردِّدِ أوِ العاجز أنْ يَتَرَيَّثَ وأنْ يَخْشى غائلةَ المُعاقِبِ، فالمُراد سريعُ العقاب في يوم العقاب، وليس المرادُ سريعَه مِن الآن، حتى يؤوَلَ بمعنى: كُلُّ آتٍ قريبٌ، إذ لا موقع له هنا"[(1)].

نكتةُ الإضمارِ بعدَ الإظهارِ في ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ﴾:

في الإضمارِ حُسْنُ اتِّصالِ الجملتيْنِ بِعَوْدِ الضَّميرِ على سابقٍ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أظهرَ اسمَ الرَّبِّ، ثمَّ عطفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، فأضمرَهُ، ونُكتتُهُ أنَّ الأصلَ الإضمارُ بعدَ الإظهارِ، فهوَ قائمٌ على بابِه، وأنَّ في الإضمارِ إحرازًا لِحُسْنِ الاتِّصالِ بينَ الجملتيْنِ وكمالِه، وفيه قوّةٌ في تَعالُقِ الجُملِ، وبُعدٌ عن التَّكرارِ.

نكتةُ ختمِ الآيةِ بصفاتِ العقابِ والمغفرةِ والرَّحمةِ:

دلالةُ التَّذييلِ المناسبِ لما سبقَ تحفيزٌ إلى العملِ والامتثالِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بهذهِ الصِّفاتِ؛ لنكتةٍ، وهيَ أنَّها تجري مجرَى التَّذييلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/212.

للكلامِ السَّابقِ قصدًا منهُ إلى العملِ والامتثالِ، فالجمعُ بينَ سرعةِ العقابِ والمغفرةِ والرَّحمةِ، مناسبٌ لجميعِ ما جاءتْ بِه السُّورةُ[1].

نكتةُ تقديمِ الوعيدِ على الوعدِ في أسمائهِ ﷻ:

تقديمُ الوعيدِ في مناظرةِ الكافرينَ أليقُ بحالِهم زجرًا وتهديدًا

قدَّمَ في هذهِ الصِّفاتِ الَّتي ذيَّلَ بِها الآيةَ الوعيدَ ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، على الوعدِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، والنُّكتةُ في ذلكَ: أنَّ السِّياقَ العامَّ للسُّورةِ، يجري في مناظرةِ الكافرين[2]، فمِنَ المناسبِ تقديمُ الوعيدِ، زجرًا لهم عن الكفرِ، وتهديدًا وترهيبًا لهم بما يليقُ بحالِهم.

دخولُ اللَّامِ على لفظ ﴿لَغَفُورٞ﴾، وعدمُ دخولِها على ﴿سَرِيعُ﴾:

ترجيحُ الغفرانِ على العقابِ تُبرِزُهُ دلالةُ التَّوكيدِ في اللَّامِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، قرنَ اللَّامَ الدَّالَّةَ على التَّوكيدِ معَ الغفورِ، ترجيحًا منهُ تعالى للغفرانِ على العقابِ[3]، و"هذه الجملةُ من الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ الواردةِ على بناءِ المبالغةِ، مؤكِّدًا باللَّامِ، مع جعل خبرِ الأولى صفةً جاريةً على غيرِ مَنْ هيَ له في التَّنبيهِ على أنَّه تعالى غفورٌ رحيم بالذَّاتِ"[4].

سرُّ التَّوكيدِ مع الوعدِ دونَ الوعيدِ في الآيةِ الكريمة:

رحمتُه تعالى سبقت غضبَهُ وغفرانُهُ مقدَّمٌ على عقوبتِهِ

وفي توكيدِ الوعدِ بقولِه: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، وعدمُ توكيدِ الوعيدِ بقولِه: ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ سرٌّ، وهو من قولِه: «إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي»[5]، على معنى: "﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن كفر، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، لمن قامَ بشكرِها، ووصفَ العقابَ بالسُّرعةِ؛ لأنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 4/58.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/200.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/200.
(5) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/273، وابن بَرّجان، تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم: 2/295، والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (3194) عن أبي هريرة، ومسلم، الصحيح، برقم: (2751)، وأحمد، المسند، برقم: (7500)، وغيرهم.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/553.

"ومِنْ لَطائفِ القرآن الاقتصارُ في وصف ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ على مُؤكّد واحد، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمُؤكّدات ثلاثةٍ، وهي (إنّ)، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي؛ لأنّ (الرحيم) يؤكّد معنى (الغفور): ليُطَمْئِنَ أهلَ العمل الصالح إلى مغفرة اللّه ورحمته، وليَسْتَدعِيَ أهلَ الإعراض والصُّدوفِ، إلى الإقلاع عمّا هم فيه"[1].

غرضُ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ في ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾:

المغفرةُ سلامةٌ، والرَّحمةُ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَها

قدَّمَ صفةَ (الغفورِ) على صفةِ (الرَّحيم)، ولهذا التَّقديم أسبابٌ، منها: أنَّ المغفرةَ للمكلَّفينَ منَ البشرِ، وحيثما وردَ ذكرُ المكلَّفينَ متقدِّمًا، تقدَّمَ الغفورُ على الرَّحيمِ، وفي "تقديم الغفورِ على الرَّحيمِ أنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ"[2]، وأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ مِنَ المغفرةِ، فهيَ تشملُ البشرَ والحيوانَ وغيرهما، وآيةُ ذلكَ قولُهُ ﷺ منْ حديثٍ طويلٍ: «فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[3].

التَّعبيرُ بصيغِ المبالغةِ في الاسمين الأحسنين (غَفُورٌ، رَحِيمٌ):

غرضُ التَّنبيهِ أنَّ غفرانَهُ ورحمتَهُ، ذاتيَّانِ لا يتوقَّفانِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، ختمَ الحقُّ ﷻ السُّورةَ بأسمائهِ تعالى، موردًا إيَّاها بصيغِ المبالغةِ، وعلَّةُ إيرادِهِ أسماءَهُ على هذهِ الصِّيغِ تنبيهًا على مغفرتهِ ورحمته ﷻ، ذاتية لا تتوقَّفُ على شيءٍ[4]، ولقولِهِ في الحديثِ القدسيِّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/212.
(2) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 212 - 213، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/171.
(3) مسلم، الصحيح، برقم: (2752).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/73.
(5) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (7114).

المتشابه اللَّفظيّ بين هذه الآيةِ وآية سورة الزُّخرفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، والمرادُ من الدَّرجاتِ هنا الرِّفعةُ والمنزلةُ، كإيمانِ بعضِ المؤمنين ورفعتِهم، أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرف: 32]؛ فالمرادُ هنا أنَّ الحالَ هنا أن يَسْخَرَ ويستهزئَ الكافرون من فقراءِ المُؤْمِنِينَ[1]، ويمكن أن تدلَّ آيةُ الزُّخرف على نوعٍ مخصوصٍ من البلاء، يتعلَّق بنعمة التَّفاوتِ الطَّبَقيِّ بين النَّاس، فبعضُهم مُسخَّرٌ لخدمة بعضِهِم الآخر، ولولا هذه النِّعمةُ لما استقامت الحياة، في ظلِّ وجود طبقةٍ واحدةٍ فقط.

الدَّرجاتُ هنا من بابِ التَّفاوتِ المعنويِّ، والدَّرجاتُ هناك سخريَّةٌ واستهزاءٌ

الفرق بين ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأعراف: 167] بزيادةِ اللَّامِ، فَيُسأَلُ عَنِ الفرقِ بينَ التَّعبيرين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الخطابَ في (الأنعام) قدْ تقدَّمَ له ﷺ وأمَّته، وهؤلاءِ المذكورونَ بجملتِهمْ ممَّنْ لا يستحقُّونَ عقابًا، فليسَ مِنَ المناسبِ توكيدُ العقابِ باللَّامِ، خلافَ ما جاءَ في سورةِ الأعرافِ، فقدْ تخلَّصتْ للمستحقِّينَ عقابَهُ بما اجْترَحوا مِنَ الكفرِ، فكانَ تهديدًا لهمْ، فناسبَ حالَهُمُ التَّوكيدَ باللَّامِ، ولمْ يناسبِ الآيةَ الأخرى[2].

السِّياقُ هنا في المؤمنين، وهم ليسوا على الأغلبِ ممَّن يستحقُّ عقابًا

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جعلَ) و(خلقَ):

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أوردَ الفعلَ (جعلَ)، ولم يوردِ الفعلَ (خلقَ) معَ أنَّهُ يرادفهُ في عمومِ معناهُ، وسببُ ذلكَ أنَّ الحقَّ ﷻ، لمْ يُرِدْ خلقَهمْ خلائفَ مِنَ العدمِ؛ فَهُمْ

الخلقُ إيجادٌ مِنَ العدمِ، والجَعْلُ تَصرُّفٌ بالمخلوقِ بعدَ الخلقِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2769.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/176، وابن عادل، اللّباب: 8/540.

مخلوقونَ أصلًا، إنَّما القصدُ أن يجعلهم خلائفَ، فهذا الفعلُ يفيدُ التَّحويلَ والتَّصييرَ، أيْ: إنَّهم موجودونَ على كلِّ حالٍ، إنَّما أرادَ هنا أنْ يجعلَهمْ خلفاءَ "في الأرضِ، ملقًى إليكمْ مقاليدُ التَّصرُّفِ والانتفاعِ بما فيها، أوْ جعلَكمْ خلفاءَ ممَّنْ قبلَكمْ مِنَ الأممِ، وأورثَكمْ ما بأيدِيكمْ منْ متاعِ الدُّنيا لتشكروهُ"[1]، فَثَمَّةَ فرقٌ بينَ الخَلْقِ والجَعْلِ؛ لأنَّ الخلقَ: إيجادٌ مِنَ العدمِ، والجَعْلَ: تصرُّفٌ بعدَ الخلقِ.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 11/374.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعۡرَافِ

❁ تعريفٌ عامٌّ بسورةِ الأعراف:

سورةُ الأعرافِ: مَكيّةٌ[1]، وعددُ آياتِها مئتانِ وستُّ آياتٍ في المدنيّ والمكّيّ والكوفيّ، وخمسُ آيات في البصريّ والشّاميّ[2]، وقد وردَ ذكرُ بعض آياتٍ منها بأنّها مدنيَّةٌ على اختلافٍ في عددها في قولَيْن[3]: الأوَّلُ: هي خمسُ آياتٍ من قولهِ تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: 163 - 167]، الثَّاني: هي ثماني آياتٍ من قولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ إلى قولهِ تعالى: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾ [الأعراف: 163 - 171]. والحقيقةُ أنَّه لا يوجد دليلٌ قويٌّ ثابتٌ، يجزِم بمدنيَّتها، فتبقى السُّورة الكريمة مكِّيَّةً بجميع آياتها.

زمن نزولِ سورةِ الأعرافِ:

نزلتْ في السَّنةِ العاشرةِ من البعثةِ النَّبويَّة في المُدَّةِ الزَّمنيَّةِ الواقعةِ بين الهجرةِ إلى الحبشةِ وحادثةِ الإسراءِ والمعراج[4]. وقد قيل: "نزلت سورةُ الأعرافِ بعد (سورةِ ص)، وقبل (سورةِ الجنِّ)، وكان نزولُ (سورة الجنِّ) مع رجوعِ النَّبيِّ ﷺ من الطَّائف، وكان قد سافرَ إليها سنةَ عشَر من بعثتِه، ليعرض الإسلامَ على أهلها"[5].

وقال المحقِّقون: وظاهرُ حديثِ ابن عباس في (صحيح البخاري) أنَّ سورةَ الجنِّ، أُنزلت في أوَّلِ الإسلامِ، ولعلَّ ذلك في السَّنة الثَّانيةِ من البعثة، ولا أحسبُ أن تكونَ سورةُ الأعرافِ، قد نزلت في تلك المدَّة؛ لأنَّ السُّورَ الطِّوال، يظهر أنَّها لم تنزل في أوَّل البعثةِ[6].

أسماءُ سورةِ الأعرافِ وسببُ تسميتِها:

الأوَّلُ: سورةُ الأعراف، وقد ورد ذِكْرُ الأعرافِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ

---

(1) قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما وقتادة، ينظر: النَّحاس، النَّاسخ والمنسوخ: 2/358، والسُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 3/125، والإتقان: 1/49.
(2) الدَّاني، البيان في عدِّ آيات القرآن، ص: 155.
(3) ابن سلامة، النَّاسخ والمنسوخ، ص: 70، والزَّركشي، البرهان: 1/200، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/149.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/07.

﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: 48]، وهي سورٌ بين الجنَّة والنَّار. والثَّاني: سورةُ الميقات؛ لاشْتمالِها على ذِكْرِ ميقاتِ موسى ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]. والثَّالث: سورةُ الميثاقِ؛ لاشْتمالِها على حديثِ الميثاقِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، وأَشْهرُها الأعراف[1]. وما ذكرهُ بعضُهم من تسميَتِها بالحروفِ المقطَّعة الَّتي في أوَّلها ﴿الٓمٓصٓ﴾، على نحو ما فعلَ ابنُ أبي زيدٍ في الرِّسالة[2]، فقد ذكرَ ابنُ عاشورٍ أنَّه ضعيفٌ، وذكر أيضًا أنَّ "ما في حديثِ زيدٍ، من أنَّها تُدعى طُولى الطُّولَيَيْنِ، فعلى إرادةِ الوصفِ دون التَّلقيب"[3]، فهي بذلك ليست اسمًا.

ترتيبُ سورة الأعراف بين السُّوَرِ:

ترتيبُ نزولِها هو التَّاسعُ والثَّلاثون، من ترتيبِ نزول السُّوَر، عند جابرِ بن زيدٍ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما[4]، وترتيبُها بين السُّوَرِ الَّتي بُدِئَتْ بحروفِ الهجاءِ من حيثُ النُّزولُ الرَّابعة، وترتيبُها بين السُّوَرِ الطِّوالِ من حيثُ النُّزولُ الأولى، وترتيبُها المصحفيُّ بين السُّوَرِ في القرآنِ الكريمِ السَّابعة[5]، وهذا هو التَّرتيبُ الثَّابتُ المعوَّل عليه.

المحورُ الأساسيُّ لسورة الأعراف:

الاتِّباعُ الحاسم للوَحْيِ فيه تحقيقُ صلاحِ البشريَّة

المحور الرئيس الّذي دارت عَلَيۡهِ آيات سورة الأعراف هو بيان أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح للبشريّة ودفع الفساد عنها بَدْءًا من دعوة أبينا آدم ﷺ وانتهاءً بدعوة نبيّنا محمّد ﷺ.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/203 - 204.

(2) قال النِّفراويُّ: "أُولَاهَا سَجْدَةٌ (فِي المص) الْأَعْرَافِ (عِنْدَ قَوْلِهِ) تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] وَهُوَ آخِرُهَا"، يُنظر: شهاب الدّين النّفراويّ، الفواكه الدّواني على رسالة ابن أبي زيد القيروانيّ: 1/250.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/6.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/98.

(5) جعفر شرف الدِّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/85 - 87.

وقد ظهر هذا المحور فيها جليًّا واضحًا منذ مطلعها في قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 1 - 3]، وفي آخر آياتها: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 203 - 206].

وظهر هذا المحور بشكلٍ غير مباشر في كلّ مشاهد قصص هذه السّورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]، وفي قوله له ناعيًا له ولمن تبعه تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18].

تَكْذيبُ دعواتِ الأنبياءِ هَلاكٌ وبَوارٌ

وبيَّنَتِ السّورةُ الكريمة مصارعَ الأقوام الّذين كذّبوا دعوات أنبيائهم وذلك بسبب أنّهم لم يتّبعوهم، وعَرَضَتْ لأسباب جحودهم وعلى رأسها اتّباعُ وساوس الشّيطان، بدلًا من هدي الرّحمن.

الاستِكْبارُ قَنْطَرةُ الإعراضِ عنِ الهُدى

وسلّطت السّورة الكريمة الضّوء على سببٍ آخر من أسباب ترك الاتّباع وهو الاستكبار، بَدْءًا من أوّل المستكبرين: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 36]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، وغيرها من الآيات. فهذه السّورة من أكثر السُّوَرِ الّتي ذكرت لفظةَ الاستكبار ومقارباتها.

اتبـاعُ هَـدْي الأنبياءِ مَعْقودٌ بالعَهْد المأْخوذِ على آدمَ

وذكَّرَتِ السّورة كذلك بالعهد الأوّل المأخوذ على بني آدم والمطلوب اتّباعه والعمل به: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 172 - 173].

قَصَصُ الأنبياء مَلْمَحٌ شامِخٌ بِضَرورةِ اتِّباعِ الرَّسول الخاتَم

وتخلّل السّورةَ الكريمةَ الأمرُ للنّاس جميعًا بضرورة اتّباع النّبيّ ﷺ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 158]، وأثنت السّورة الكريمة على المبالغين في التّمسّك بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: 170]، فضلًا عن تصويرها حال من ترك الاتّباع لآيات الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 175 - 176].

وقد اقتضى هذا المحور الّذي قامت عليه السّورة من أن تُكثِرَ من ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم مُبَيِّنةً نماذجَ متنوّعةً من تَرْك الاتّباع على الصُّعُد: العَقَديّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة وغيرها. واقتضت كذلك أن تُكثر من ذكر مفردة النّصح على ألسنة الأنبياء لأقوامهم بأن يتّبعوا شرعة الله حتّى تصلح حياتهم.

سببُ تسميَتِها:

سُمِّيَتْ سورةُ الأعرافِ بهذا الاسمِ، الّذي ورد ذِكْرُه في قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾ [الأعراف: 46]، ويُقصد به

المكانُ المرتفعُ الَّذي يجلسُ فيه مَنْ تساوتْ حسناتُه وسيِّئاتُه، على سورٍ حاجزٍ مضروبٍ بين الجنَّةِ والنَّار، يَبقَوْنَ فيه حتَّى يقضيَ اللهُ في أمرهم، ولم يرد ذكر اسم (الأعراف) فيما سِواها من السُّوَر(1).

ثمّ إنّ اسم السّورة مرتبط بمحور السّورة ومقصودِها الّذي قامت عليه، وعند إنعام النّظر في مقاطع هذه السّورة وموضوعاتها الجزئيّة يتبيّن أنّ المحور الرئيس الّذي يجمع مقاطعها وآياتها يدور حول أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح ودَرْءِ الفساد؛ فالسّورة قد نصّت على هذا الاتّباع الحاسم في الآيات الأولى منها بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 2 - 3].

أمثلة على تسلسل ورود مقاطع السورة لتتواءم مع المحور:

لذا فإنّ السّورة الكريمة قد ارْتَبَطَتْ بعضُ مفاصِلها ومشاهِدها بهذا المحور الرئيس، فمثلًا عندما ذكرت جانبًا من قصّة آدم عليه السلام، قد سلّطت الضّوء على قضيّة رفضِ إبليسَ اتباعَ الأمر له بالسّجود بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ﴾ [الأعراف: 12]؛ فكان الأصل أن يتّبع إبليسُ أمرَ ربِّه دون مواربةٍ أو تعليلٍ مَبْنِيٍّ على قياسٍ فاسدٍ.

وكذلك فإنَّ مشاهدَ قصّة آدم في السّورة الكريمة قد ألمحت إلى معصية آدم عليه السلام والّتي تاب الله تعالى فيها عليه بأنْ عَلَّمَه الكلمات الّتي تُيَسِّر عليه أمرَ التّوبة، إذ إنّ الأصل في نهي الله تعالى له ولِزَوْجِه عن أن يَقْرَبا الشّجرةَ ويأكلا منها، أن يتمَّ بحسمٍ وطاعةٍ لا يعتريها ضعفٌ أو نسيانٌ، لكنّ الأمر كان على غير ذلك، فجاءتِ التّوجيهاتُ لذرِّيَّته من بعده في نداءات أربعة أوردتها السّورة الكريمة؛ في الآيات:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الأعراف: 26 - 27]. وقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: 31]. وقوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/5، والشّعراوي، التَّفسير: 8/4556.

يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ [الأعراف: 35].

ويُلْمَحُ من هذه النّداءات والتّوجيهات ضرورةُ اتّباعِ أوامرِ اللّه تعالى ونواهيه، دون تردّدٍ لاستماع وسوسة الشّيطان حتّى يتحقّق الصّلاح في الأرض، وهذا هو المحور الّذي تدور حوله السّورة.

وفي قصّة موسى عليه السلام ورحلتِه الطّويلة مع بني إسرائيل يظهر لنا أثرُ هذا الحسم في اتّباع أوامر نبيِّهم، فالسَّحرةُ لمّا حَسَموا أمرَهم وعزموا عليه بعد أن رأوا الآياتِ البَيِّناتِ على صدق موسى عليه السلام، ردّوا على فرعونِه وعيدَه الشّديد لهم: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: 123 - 126].

لكنّهم لمّا خبَتْ جذوةُ عزيمتِهم في اتّباع موسى عليه السلام بعد ذلك؛ فعلوا الأعاجيبَ الكثيرةَ الّتي صوَّرَتْها السُّورةُ الكريمةُ، فما أَنْ قطعوا اليَمَّ سالمين وأرجلُهم لم تَجِفَّ بعدُ من أثرِ الماء؛ حتّى أصابهمُ الوَهَنُ وقلّةُ العزيمة: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]. وكان الأصل فيهم أن يستمرّوا على هذا الاتّباع بحزم وقوّة وإصرار بدلًا من أن يطالبوا نبيَّهم بالمعجزات تلوَ المعجزات، والمعضِلات تلوَ المعضلات، حتّى كتب اللّه عليهم التّيهَ، فلم يَصِلوا بُغيتَهم ولم يحقّقوا خلافتَهم في حياة موسى عليه السلام.

وضَرَبَتْ لنا السّورة كذلك مثلًا من غير الحاسمين في اتّباع وحي اللّه من خلال قصّة أصحاب القرية الّتي انقسم أهلها إلى ثَلاثِ فِرَقٍ إزاءَ فتنةِ الصّيد في يوم النّهي، فقال عنهم: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 163 - 165].

فالعصاةُ قد حَسَموا أمرَهم بمعصيتِهم، والآمرون بالمعروف النّاهون عن المنكر قد حَسَموا أمرهم، وباشروا دعوة قومهم، لكنّ الفريق الثّالث القائلين لإخوانهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ لم يَحْسِموا أمرَهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فاستحقّوا أن يكونوا مع الهالكين عند من يرى ذلك من المفسّرين، أو على أقلّ تقدير أن يكونوا من المسكوتِ عن جزائهم؛ لأنّ الآيات بيّنت جزاءَ كلٍّ من الحاسمين أمرهم وسكتت عن غيرهم.

ثمّ ساقت لنا السّورة الكريمة أنموذجًا آخرَ لغير الحاسمينَ أمرَهم في الاتّباع؛ من خلال قصّة المنسلِخ عن آيات الله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 175 - 176]. فقد أشعرتْ لفظةُ الانسلاخ بتركِ الاتّباع شيئًا فشيئًا، والتّردّد بين الرّفع أو الإخلاد، حتّى استحقّ أن ينال صاحبه هذا التّشبيه وهذا الجزاء.

وكذلك كان الحال في أصحاب الأعراف الّذين لم يحزموا أمرهم، ولم يرجّحوا كفّتهم فوقفوا على سورٍ مشرفٍ بين أصحاب الجنّة وبين أصحاب النّار حتّى أنعم الله عليهم برحمته، ولكنّ ذلك كان بعد تطلّعاتٍ وحواراتٍ مع كلا الفريقيْن حولهم، فجاءت تسميةُ السّورة باسمهم تحمل في عنوانها الدّعوةَ إلى الاتّباع الحازم الحاسم لدعوة الخير، دون التحيّر والتّردّد بين حاليْن وجاذبيْن. ونلمح قلّة الحسم في شَخصيَّتِهم من خلال حواراتهم مع أصحاب الجنّة وأصحاب النّار: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 46 - 49]، فقد كانوا يطمعون في الجنّة ومع ذلك لم يدخلوها، ويعيِّرون أهلَ النّار بأنّهم كانوا يُقسِمون بأنّ الله لن يرحم المؤمنين، ومع ذلك ما استطاعوا دخول الجنّة دخول السّابقين.

لذا فإنّ تسمية السّورة باسم أهل الأعراف تحمل في طيّاتها رسالة موجّهة إلى النَّاسِ كافّة بضرورة المسارعة والعزم في اتّباع وحيِ السّماء دون تلكُّؤٍ أو تردُّدٍ.

فضلُ سورةِ الأعرافِ:

سورةُ الأعرافِ من السَّبْعِ الطُّوَلِ باتِّفاقٍ، وفي الحديثِ: «أُعْطيتُ السَّبعَ الطُّوَلَ مكان التَّوراة»، وهذا جزءٌ من حديث[1]، وقد رُوي عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: السَّبْعُ المثاني: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وكذلك قال سعيد بن جُبَيْرٍ ومُجاهد[2]، هذا عن موقعِها في الطُّوَلِ. وقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقرأُ بها في المغرب يُفرِّقُها في الرَّكعتَيْن[3].

سببُ نزولِ سورةِ الأعرافِ:

ليس لسورةِ الأعرافِ سببُ نزولٍ من حيثُ الجملةُ، وليس لكلِّ سورةٍ أو آيةٍ سببُ نزولٍ، بل هو نزولٌ ابتداءً، ولكن يُوجَدُ سببُ نزولٍ لعديدٍ من آياتِ هذهِ السُّورِ، كما في قولِه تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الآية: 31]. فقدْ صَحَّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النِّساءَ كُنَّ يَطُفْنَ عَارِيَاتٍ إلَّا أنْ تجعلَ المرأةُ على فَرْجِها خِرقةً، وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ *** وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنَزَلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[4].

وسيأتي ذكرُ أسبابِ هذه الآيات في مواضِعها من السُّورة.

تناسبُ سورةِ الأعرافِ مع أخواتِها طوال السُّوَر:

تعدُّ سورةُ البقرةِ أكثرَ السُّوَر ذكرًا لأصولِ الإسلامِ والعقيدةِ، بما في ذلكَ من توحيدٍ وبعثٍ والحديثِ عن أهلِ الكتابِ والمشركين والمنافقين، وقد جاءتْ طِوالُ السُّوَرِ مُتمِّمةً لما فيها، فالسُّوَرُ الثَّلاثُ بعدَها، وهي آلُ عمران، والنِّساء، والمائدة، فصَّلَتْ في الحديثِ عن

(1) هذا الحديث نصُّه: «أعطيت السّبع الطّول، مكان التّوراة، وأعطيت المئين، مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني، مكان الزّبور، وفضّلت بالمفصّل»، وقد رواه أبو عبيد بسنده إلى واثلة بن الأسقع، عن النّبيّ ﷺ، انظر: أبو عبيد، فضائل القرآن، باب فضائل السّبع الطّول، ص: 157، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 1/44، والدّارميّ، سنن الدّارمي: 2/453.

(2) السّخاويّ، جمال القرّاء: 1/126.

(3) النَّسائي، السُّنن، برقم: (990)، عن عائشة رضي الله عنها، وصحّحه الألبانّي.

(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (3028).

أهلِ الكتاب، ثمَّ فصَّلتْ سورةُ الأنعامِ في الحديثِ عن المشركين، وجاءتْ بعدَ ذلك سورةُ الأعراف مُتمِّمةً لذلك، فذكرتْ سُنَنَ اللهِ مع الأنبياءِ والمرسَلينَ وأقوامِهم، من أهلِ الكتاب والمشركين جميعًا[1].

مناسبةُ صَدْرِ السُّورة لخاتمةِ السُّورةِ الَّتي قبلَها (الأنعام):

لَمَّا ذكرَ ﷻ في آخرِ السُّورة الَّتي قبلَها أنَّه أنزلَ إليهم كتابًا مباركًا، وأمرَ باتِّباعه، وعلَّلَ إنزالَه وذكرَ ما اسْتتبعه ذلكَ ممَّا لا بدَّ منه في منهاجِ البلاغةِ ومَيْدانِ البراعة، وكانَ من جُملتِه أنَّ أمرَ المدعوِّين به ليس إلَّا إليه، إن شاءَ هداهم، وإنْ شاءَ أضلَّهم، واسْتمرَّ فيها، لا بدَّ منه في تتميم ذلكَ إلى أنْ ختمَ السُّورةَ بما انْعطفَ على ما افْتُتحتْ به، فاشتدَّ اعتناقُه له حتَّى صارَ كشيءٍ واحد، أخذَ يستدلُّ على ما ختمَ به تلكَ من سرعةِ العقابِ وعُموم البرِّ والثَّواب وما تقدَّمَه، مُخبرًا عن مبتدأ تقديرُه: هو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: عظيم، أوضحَ الطَّريقَ المستقيمَ فلم يَدَعْ بها لَبْسًا، ولم يَذَرْ خيرًا إلَّا أمرَ به، ولا شرًّا إلَّا نهى عنه، فإنزالُه من عظيمِ رحمتِه، ثمَّ وصفَه بما أكَّدَ ما أشارَ إليه من رحمته بقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[2].

مناسبةُ السُّورة لِما بعدَها (الأنفال):

جاءَ في آخرِ الأعرافِ قصَّةُ موسى ﷺ، المُخْتَتَمَةُ بقصَّة الَّذي انسلخ من آيات الله، وأنَّ ما بعدَ ذلك، إنَّما هو تَتِمَّاتٌ لما تقدَّمَ، لا بُدَّ منها، وتَتِمَّاتٌ للتَّتِمَّات، حتَّى كانَ آخرُ ذلكَ مدحًا من أهلِهم، لعنديَّتِهِ سُبحانَه بالإذْعانِ وتمامِ الخُضوع، فلمَّا أُضيفُوا إلى تلكَ الحَضْرةِ العالية، اقتضَى ذلك سؤالًا عن حالِ الَّذين عندَ المخاطَب ﷺ، فأُجيبَ بقولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، أي: الَّذين عند ربِّكَ هُمُ الَّذينَ هَزَموا الكفَّار في الحقيقة، كما علمتُم ذلك، فهمُ المُستحِقُّونَ للأنفال، وليس لهم إليها الْتفاتٌ، وإنَّما هَمُّهمُ العبادة، والَّذين عندَك إنَّما جعلتَهم آلةً ظاهرة، ومع ذلك يسألونَ ﴿عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ الَّتي تولَّيتهم إيَّاها بأيدي جنودي، سؤالَ منازعٍ ينبغي الاسْتعاذةُ باللهِ منه، كما نبَّه عليه آخرُ الأعراف؛ لأنَّ ذلكَ يُفضي إلى افتراقِ الكلمةِ والضَّعفِ عن مقاومةِ الأعداء[3]. وقد يكون في مجيء

(1) فهد الرّومي، اتِّجاهات التَّفسير في القرن الرَّابع عشر، ص: 719.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/347 - 348.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/216 - 217.

هذه السُّورة وما حملتْهُ من معاني نصرةِ اللّه تعالى لعباده المؤمنين، وما تحقَّق فيها من نُصرة المؤمنين في بدر، وهم قلَّة بعد سورة الأعراف الَّتي ذكرت المعاناةَ الطَّويلة لرحلة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مع أقوامهم، واستعجالهم العَذَابَ لَهُمْ، ما يجعل لُحمة قويَّة بين السُّورتيْن في مجيء النَّصرِ بعد الصَّبرِ والعناء.

موضوعاتُ السُّورةِ:

تناولتْ سورةُ الأعرافِ مواضيعَ عديدةً، من أهمِّها ما يلي[1]:

أوّلاً: تثبيتُ رسولِ اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومؤازرتُه والتَّسليةُ عنه لما واجَهه من تكذيبِ الكافرين له.

ثانيًا: الحديثُ عن توحيدِ اللّهِ تعالى والبعث، وعرضُ الأدلَّةِ الَّتي تثبتُ ذلك.

ثالثًا: الحديثُ عن خَلْقِ الإنسان، وذكرُ قصَّةِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزولِه إلى الأرض.

رابعًا: الحديثُ عن الميثاقِ الَّذي أخذَه اللّهُ تعالى على عبادِه في قولِه تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

خامسًا: التَّعريفُ بمعجزةِ القرآنِ الكريم، وأنَّه نعمةُ اللّهِ الباقيةُ إلى يومِ الدِّين، والأمرُ باتِّباعِ ما جاءَ به من أوامرَ ونواهٍ.

سادسًا: بيانُ أصحابِ الأعراف وقصَّةِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيْبٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهلاكِ أقوامِهم، وتفصيلِ أحوالِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعونَ وقومه، وذكرِ النَّبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

مقاصدُ السُّورةِ:

من أهمِّ المقاصدِ الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ الأعراف[2]:

1. بيانُ أنَّ اللّه جَلَّ جَلَالُهُ أنزلَ القرآنَ لإنذارِ الخلْقِ وتذكيرِهم، فهو كتابُ حقٍّ، ويصدَعُ بالحقِّ، وإزهاقِ ما هو فاسدٌ من العقائدِ والشَّرائعِ الباطلة، ومعارضٌ للنُّظمِ الظَّالمةِ المنحرفةِ عن صراطِ اللّهِ المستقيم.
2. تسليَةُ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تكذيبِ الكُفَّارِ إيَّاه.
3. إنذارُ مَنْ أعرضَ عمَّا دعا إليه الكتابُ في السُّوَرِ الماضية.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/204.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/204 - 205، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/347 - 348.

4. توجيهُ القلوبِ والألبابِ إلى توحيدِ اللّه تعالى، والتزامِ دينِه وشريعتِه، ونَبْذِ عبادةِ غيرِه، وإبانةُ صفاتِه ﷻ، وشؤون ربوبيَّتِه.

5. قرَّرتِ السُّورةُ أنَّه ﷻ خالقُ الأرضِ وما فيها، وخالقُ النَّاسِ جميعًا، مكَّن لهم في الأرض، بأنْ جعلَها دارًا لهم، وأودَعَ فيها ما يناسبُهم في أقواتِهم ومعاشِهم، وإقامتهم فيها.

6. بيَّنتِ السُّورةُ أصولَ التَّشريعِ الكليَّة، وبعضَ قواعدِ الشَّريعةِ العامَّة، فقرَّرَت ابتداءً أنَّ شارعَ الدِّين الإسلاميِّ هو اللّهُ ﷻ، وعظَّمتْ شأنَ النَّظرِ العقليِّ والتَّفكُّر في إبداعِ اللّهِ وحكمتِه، ليتعرَّفَ الإنسانُ آياتِ اللّهِ وسُنَنَهُ في كونِه وخلقِه، وليتبيَّن له الحقُّ.

7. الأمرُ بأخذِ الزِّينةِ عند بيوتِ اللّه، والأكلِ والشُّربِ من الحلالِ الطَّيِّب، والإنْكارُ على من حرَّمَ زينَةَ اللّهِ الَّتي أخرجَ لعبادِه والطَّيباتِ من الرِّزق، وحرَّمتْ مقابلَ ذلكَ الفواحشَ، ما ظهرَ منها وما بطَنَ، والإثمَ والبَغيَ بغيرِ الحقِّ، والشِّركَ والقولَ على اللّهِ بِغَيْرِ علمٍ.

8. الأمرُ بالتَّقوى والعملُ بها، لتحصيلِ بركاتِ السَّماءِ والأرضِ وخيراتهما بفضلِ اللّه ورحمته.

9. إيضاحُ سُنَنِ اللّهِ في الأُممِ السَّابقةِ، فَمَنْ غَلبَ بظلمِهِ وتسلُّطِه على عبادِ اللّه، أخذَه اللّهُ، ونصرَ أهلَ الحقِّ عليه، وفي ذلك عبرةٌ لمن بعدَهم من الأُمَم.

10. أَبانَتْ أصولَ الفضائلِ الأدبيَّةِ والتَّشريعيَّة، ودَعَتْ إلى التَّخلُّقِ بالسَّماحةِ واليُسْر، والإعراضِ عنِ الجاهلين والاحتفالِ بهم.

11. وجَّهتِ المؤمنينَ إلى أدبِ الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، وذكرِ اللّهِ ﷻ، وعدمِ الغَفْلَةِ عنه.

أساليبُ السُّورةِ:

ممَّا تقدَّمَ من بيانِ موضوعاتِ سورةِ الأعرافِ ومقاصدِها، يتَّضحُ أنَّها تهتمُّ بعرضِ الحقائقِ السَّابقةِ في أساليبَ عديدةٍ، منها:

أوّلاً: أسلوبُ الخبرِ في بيانِ عقيدةِ التَّوحيد وصفاتِه ﷻ، وأصولِ التَّشريعِ وقواعدِه.

ثانيًا: أسلوبُ الإنشاءِ، وذلك بالأمرِ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ في خَلْقِ اللّه، وعظيمِ صُنعِهِ وحكمتِه، وكذلكَ الأمرُ بأخذِ الزِّينة عند بيوتِ اللّهِ، والأكلِ والشُّربِ مِنَ الطَّيِّباتِ من الرِّزقِ

الرَّبَّاني، والأمرُ بالتَّقوى والتَّخلُّقِ بخُلُق السَّماحة واليُسر، والأمرُ بالإنصات والتَّأدُّبِ، في الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، ومن الإنشاءِ النَّهيُ عن الفواحشِ، ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ، والإثمِ والبغيِ بغير الحقِّ.

ثالثًا: أسلوبُ التَّذكيرِ بنعمِ اللهِ على عباده الَّتي سخَّرها لهم، لتحقيقِ مصالِحهم ومعايشهم، وهم يتقلَّبون بها في جميعِ أحوالهم.

رابعًا: أسلوبُ التَّخويفِ من عذابِ اللهِ وانتقامه، كما في قَصصِ الأنبياء مع أقوامهم، وما آلَ إليه أمرُ المكذِّبينَ، المعاندين للحقِّ من إهلاكِهم، واسْتئصالِ شأْفتِهم، وإنْجاءِ الأنبياءِ والمؤمنينَ بهم.

﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: 1 - 2]

الـرَّبـطُ بين الصِّراعِ المحتومِ مـع الـكـفـرِ، ومعجزةِ الكتابِ المُنذِرِ المُذَكِّرِ

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بين مَدْلولِ آخرِ آيةٍ في سورةِ الأنعام، وهي قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وما جاء من مدلولِ مَطْلَعِ سورةَ الأعراف، مُكرَّسةٌ لتأكيد الاستخلافِ في الأرض، وما يتْبعهُ من رفعِ بعضٍ على بعضٍ، وابتلاءٍ فيما آتى اللّهُ النَّاسَ من نِعَم شتَّى، معقبًا بقول مفاده: "إنَّ ربَّك سريعُ العقاب للمخالفين؛ لأنَّ عقابَهُ آتٍ لا ريبَ فيه، وكلُّ آتٍ قريب، وإنَّه لعظيمُ المغفرة لمخالفات التَّائبين المحسنين، واسعُ الرَّحمةِ بهم"(1)، فجاء في هاتين الآيتين بالحروفِ المقطَّعةِ المعجزةِ، منوِّهًا بالكتابِ المنزل لإنذارِ المكذِّبين، وتذكيرِ المؤمنين، ومنبِّهًا للرَّسولِ المبلِّغ، على ألَّا يكونَ في صدره حرجٌ عند البلاغِ، فالتَّكذيبُ معهودٌ مع كلِّ شريعةٍ جاء بها رسولٌ إلى قومه منذ آمادٍ بعيدةٍ. ويجعلُها بعضُهم حروفًا مأخوذةً من صفاتِ اللّه تعالى يجتمعُ بها في المفتَتَحِ صفاتٌ كثيرة، ويكون هذا فنًّا من فنونِ الاختصارِ عند العرب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿الٓمٓصٓ﴾: ورد في تَفْسيرَاتِ هذه الأحرف معانٍ وتأويلاتٌ كثيرة جِدًّا، "فمنهم من يجعلها أسماءً للسُّورِ، تُعرف كلُّ سورةٍ بما افتتحت به منها، فهي أعلامٌ تدلُّ على ما تدلُّ عليه الأسماءُ من أعيانِ الأشياء، ويجعلها بعضُهم للقَسَم، وكأنَّ اللّه ﷻ أقسم بالحروف المقطَّعةِ كلِّها، واقتصرَ على ذكرِ بعضِها من جميعِها. وذهبَ بعضُهم

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 203.

إلى أنَّ هذه الحروفَ جعلها الله تعالى حفظًا للقرآنِ من الزِّيادة والنُّقصان"[1]. وقد بيَّن الباقِلَّانيُّ أنّ نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ مبنيَّةٌ على دلالةِ معجزةِ القرآنِ، وقال: إنَّه ما من سورةٍ من السُّورِ المفتَتَحةِ بذكر الحروفِ المقطَّعةِ إلَّا وقد أُشْبِع فيها بيانُ ذلك، قال: "وكثيرٌ من هذه السُّورِ إذا تأمَّلتَهُ، فهو من أوَّلِهِ إلى آخره مبنيٌّ على لزوم حجَّةِ القرآنِ، والتَّنبيه على معجزتهِ"[2]، ومن هنا، فالَّذي عليه جمهورُ المحقِّقين أنَّها جاءت للتَّحدِّي والإعجازِ.

2) ﴿صَدۡرِكَ﴾: الصَّدْرُ: الجَارِحَةُ: قالَ تعالى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، وجمعُه: صُدُورٌ، قالَ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ [العاديات: 10].ثمَّ اسْتُعيرَ لمقدَّم الشَّيءِ كصَدْرِ القناة، وصَدْرِ المجلس، والكتاب، والكلام، وصَدْرُ كلِّ شيءٍ: أوَّلُه[3]. قالَ بعضُ الحكماء: حيثُما ذَكرَ اللهُ تعالى القلبَ فهو إشارةٌ إلى العقلِ والعلم، نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذُكِرَ الصَّدْرُ فهو إشارةٌ إلى ذلك، وإلى سائرِ القُوى من الشَّهوة والهوَى والغضبِ ونحوها، وقولُه: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، فسؤالٌ لإصلاحِ قُواه[4]، والمرادُ بالصَّدْرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ﴾ ظاهرُه، أي: الجارحةُ، وهذا الحَرَجُ سيُؤثِّرُ في الصَّدْرِ تأثيرًا سلبيًّا، فيصيبُه بضيقٍ وهمٍّ وغمٍّ.

3) ﴿حَرَجٌ﴾: أصلُ الحَرَجِ والحَراجِ: مجتمعُ الشَّيئَيْن، وتُصُوِّرَ منه ضيقُ ما بينهما، فقيلَ للضَّيِّق: حَرَج، وللإثْم حَرَج، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ [النِّساء: 65]. وقد حَرِجَ صَدْرُه، قالَ تعالى: ﴿يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾ [الأنعام: 125]، أي: ضيِّقًا بكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ لا يكادُ تَسْكُنُ إليه النَّفسُ لكونِه اعتقادًا عن ظنٍّ[5]، وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ﴾ قيل: هو نهيٌ، وقيل: هو دُعاءٌ، وقيل: هو حكمٌ منه[6]، وقيل: ضِيقٌ[7]، وقيل: شكٌّ[8]، وقيل: هو إثمٌ[9]، والقولُ الأرجحُ المناسبُ للسِّياق، هو أنَّه بمعنَى الضِّيق.

(1) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/130.
(2) أبو بكر الباقلانّي، إعجاز القرآن، ص: 68.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (صدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (حرج).
(6) الرّاغب، المفردات: (حرج).
(7) البغوي، معالم التَّنزيل: 3/213، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/116، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(9) ابن عادل، اللُّباب: 6/470.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّنويهُ بعظمةِ القرآنِ في حروفِهِ وهدايتِهِ، وانشراحِ الصَّدرِ بهِ

يقولُ اللهُ ﷻ لرسولِه ﷺ، مبيِّنًا له عظمةَ القرآن: هذا الكتابُ الَّذي أنزلتُه عليكَ - يا محمَّدُ ﷺ - كتابٌ جليلٌ، حوَى كلَّ ما يحتاجُ إليه العباد، وجميعَ المطالبِ الإلهيَّة، والمقاصدِ الشَّرعيَّة، محكَمًا مُفصَّلًا، فلا يكن في صدرِكَ ضيقٌ وشكٌّ واشْتباهٌ؛ بل لتعلم أنَّه أصدقُ كلامٍ، ولا يأتيه الباطلُ من بين يدَيْهِ ولا من خَلْفِه، فَلْيَنشرِحْ له صدرُك، ولْتطمئنَّ به نفسُكَ، ولْتصدعْ بأوامرِه ونواهيه، ولا تَخشَ لائمًا ومعارِضًا، وليكنْ ذلكَ كلُّه لِتُنذرَ به الخَلْقَ، وتَعظَهم، فتقومَ به الحُجَّةُ على المعاندين، ويكونَ ذكرى للمؤمنين تنفعُهم في عاجلِهم وآجلِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ النَّحويُّ لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

اختلافُ وجوهِ الإعرابِ باخْتلافِ التَّقديرِ

قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فيه أربعةُ أَوْجه: الأوَّلُ: خبرٌ للمبتدأ ﴿الٓمٓصٓ﴾، فهذه الحروفُ في موضع مبتدأ، أي: المسمَّى بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب، فما يُجعَلُ عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المخاطب، وإذْ لا عهدَ بالتَّسمية قبلُ، فحقُّها الإخبارُ بها. والثَّاني: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: المَدْعوُّ به ﴿الٓمٓصٓ﴾. والثَّالثُ: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هذا أو هو[2]. والرَّابع: مبتدأٌ وخبرُه جُملةُ ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[3].

نُكتةُ الابْتداءِ بالنَّكرةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عندَ من يعدُّه مبتدأ:

ابتُدِئ بالنَّكرة؛ لإرادة النَّوع، أو التَّعظيم، أو كونه محلًّا للوصف

وقعَ الابْتداءُ بالنَّكرة؛ إمَّا لأنَّها أُريدَ بها النَّوعُ لا الفرد، فلم يكنْ عليها في الحكمِ إبْهام، وذلك كقولهم: رَجُلٌ جاءني، أي: لا امرأة،

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/65، والعكبريّ، الإملاء: 1/267، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

وتمرةٌ خيرٌ من جرادة، وإمَّا لأنَّ التَّنكير أُريدَ به التَّعظيمُ، وإمَّا لأنَّ ﴿كِتَٰبٌ﴾ يمكن أن يكونَ موصوفًا لـ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، فيكون مسوِّغًا عندئذٍ للابْتداءِ بالنَّكرة(1).

الأغراضُ البلاغيَّةُ لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بناءً على تعدُّد المعاني:

لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أغراضٌ بلاغيَّة فائقة، وهي:

سـرُّ تـعـدُّد الأغـراض لاسـتـيـفـاءِ (الـتَّـوعـيـة، والـتَّـعـظـيـم، والتَّعجيب)

أولًا: التَّنكيرُ للنَّوعيَّة، وهو ما أوحتْ به فائدةُ إرادة النَّوعِ الَّذي كانَ أحدَ أسبابِ الابْتداءِ بـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مع كونِه نكرةً، ففي هذا الكتابِ ردٌّ على المشركين في إنكارِهم، أن يكونَ القرآنُ الكريمُ من عندِ اللّه، واسْتبعادِهم ذلك، فجاءَ التَّذكيرُ الإلهيُّ هنا للمشركين، بأنَّه كتابٌ من نوعِ الكتُبِ المنزَّلةِ على الأنبياء، فكما نزلتْ صُحُف إبراهيم، وكتابُ موسى، كذلك نزلَ هذا القرآن، فيكونُ تنكيرُ النَّوعيَّةِ لدفعِ الاسْتبعاد، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [ص: 22].

ثانيًا: للتَّعظيم، كقولهم: (شرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ)، أي: شرٌّ عظيم، أي: هو كتابٌ عظيمٌ تنويهًا بشأنه، فصارَ التَّنكيرُ في معنى التَّوصيف.

ثالثًا: التَّعجيبُ، أي: من شأنِ هذا الكتابِ في جميعِ ما حُفَّ به من البلاغةِ والفصاحةِ، والإعجازِ والإرشاد، وكونه نازلًا على رجلٍ أُمِّيٍّ(2).

دلالةُ الموقعِ النَّحْويِّ لقولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

جملةُ (أُنـزل) صـفـةٌ أو خـبرٌ لـ(كتاب)

قولُه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفةٌ لذلكَ الخبر، وهو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: السُّورةُ المُسمَّاةُ بقولنا: ﴿الٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾. ويجوزُ أن يكونَ هو الخبر(3)، ولئن قلتَ: "بِمَ رفعتَ الكتابَ في هَؤُلاءِ الأحرف؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10 - 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/194، والعكبريّ، الإملاء: 1/267.

قلت: رفعتُه بِحروف الهجاء الَّتي قبلَه، كأنَّكَ قلت: الألفُ واللَّامُ والميم والصَّاد من حروف المقطع، كتابٌ أنزل إليك مجموعًا"[1].

فوائدُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

غرضُ الخبرِ: تقريعُ المنكرينَ والكافرين، وتسكينُ روعِ سيِّد المرسلين

إنَّ فوائدَ هذا الخبرِ عديدةٌ؛ أوَّلًا: أن يكونَ المقصودُ من الإخبارِ بقولِه: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ تذكيرَ المنكِرين والمكابرين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنينَ، يعلمونَ أنَّه أُنزلَ من عند اللّه، فلا يحتاجونَ إلى الإخبارِ به، فالخبرُ مُستعملٌ في التَّعريضِ بتغليظِ المشركين والمكابرينَ والقاصدينَ إغاظةَ الرَّسولِ ﷺ بالإعراض. وثانيًا: أن يكونَ المقصودُ من الخبرِ الامْتنانَ والتَّذكيرَ بالنِّعمة، فيكونُ الخبرُ مُستعمَلًا في الامْتنانِ. وثالثًا: أن يُجعَلَ الخبرُ ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ مع ما انْضمَّ إليه من التَّفريعِ والتَّعليلِ، لفائدةِ تسكينِ نفس النَّبيِّ ﷺ، أي: هو كتابٌ أُنزِلَ إليكَ، فكنْ منشرحَ الصَّدر، فإنَّه أُنزلَ إليكَ لِتُنذِرَ به الكافرين، وتُذكِّرَ المؤمنين. ورابعًا: إغاظةُ الكافرين، وتأنيسُ المؤمنينَ، أي: هو كتابٌ أُنزِلَ لفائدة، وقد حصلتِ الفائدةُ، فلا يكنْ في صدرِك حَرَجٌ إن كذَّبوا.

وبهذه الفوائدِ واعتباراتِها الجليلةِ مع عدم منافاةِ بعضِها بَعْضًا، يُحملُ الكلامُ على إرادةِ جميعِها، وذلكَ من مطالعِ السُّوَرِ العجيبةِ البيان[2].

نكتةُ خطاب النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

رفْعُ شأْنِ النَّبيِّ ﷺ، والاهْتمامُ به من مقاصد البيانِ القرآنيِّ البليغِ

في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكَ﴾ بضميرِ المخاطَب، تسكينٌ لنَفْسِ النَّبيِّ ﷺ، ورفعٌ لشأنه واهتمامٌ بالغٌ بمقامه الشَّريف ﷺ، وفيه إغاظةٌ للكافرين الَّذين كذَّبوه، وتأنيسٌ للمؤمنين الَّذين آمنوا به ونصروه[3]،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

"قَالَ الفرَّاء: تَقْدِيرهُ: (هَذَا كتابٌ أنزل إِلَيْك، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ)، أَي: شكٌّ، وَالْخطاب للرَّسول، وَالْأمَّة هم الْمُرَاد"[1].

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ المركَّبِ:

إفـــادةُ معنَى الامْتنان

ذلك أنَّ المقصودَ من الخبر في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، الامْتنانُ والتَّذكيرُ بالنِّعمة[2]، أي: نعمةِ إنزالِ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، على طريقةِ المجازِ المرسَلِ المركَّب[3]، "الدَّليل الَّذي دلَّ على صحَّة نبوَّة محمَّد ﷺ، هو أنَّ اللّٰه تعالى خصَّه بإنزالِ هذا القرآنِ عليه، وصريحُ العقل يشهد، بأنَّ هذا لا يكونُ إلَّا بطريقِ الوحي من عندِ اللّٰه تعالى، فثبت بهذا الدَّليلِ العقليِّ أنَّ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، من عند ربِّه وإلهه"[4].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

غرضُ هذا البناءِ الاخْـتـصـارُ، والـجَـرْيُ على سَنَنِ الله المُنزِّل في الإخبارِ

بُني الفعلُ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ جَرْيًا على سَنَن الكبرياء، وإيذانًا بالاسْتغناءِ عن التَّصريحِ بالفاعلِ، لغايةِ تَعيُّنِه، وهو السِّرُّ في تركِ مبدأِ الإنزالِ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67][5]. ويمكنُ أن يكونَ هذا البناءُ من بابِ الاخْتصار، للعلم بفاعلِ الإنزال؛ لأنَّ الَّذي يُنزِلُ الكتُبَ على الرُّسُلِ هو اللّٰهُ تعالى، ولما في مادَّةِ الإنزالِ من الإشعارِ بأنَّه من الوحيِ لملائكةِ العوالمِ السَّماويَّة[6].

---

(1) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/163.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

(3) المجاز المرسل المركَّب، هو مجازٌ لغويٌّ، وهو اللَّفظُ المركَّبُ المستعملُ في غير المعنَى الَّذي وُضع له، وعلاقته غير المشابهة، وسُمّي مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاق، أي: ليس له علاقة معيَّنة - كما هو الشَّأن في الاسْتعارة - مع قرينة مانعة من إرادة المعنَى الأصليّ، كما في الجُمل الخبريَّة المستعملة في الإنشاء، لأغراض لم يُوضع لها الخبر، كإظهار التَّحسُّر، أو الضَّعف، أو السُّرور، أو الامتنان، ومثالُ الأخير ما ورد في الآية ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ كما ذُكر في المتن، وغير ذلك من الأغراض، ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 3/309، 313، وفضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 283، 295.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/195.

(5) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

أفادتِ الفاءُ الاعتراضَ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ﴾ اعْتراضيَّةٌ، إذِ الجملةُ معترضةٌ بين فعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ ومُتعَلِّقِه وهو ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، فإنَّ الاعتراضَ يكونُ مقترنًا بالفاءِ، كما يكونُ مقترنًا بالواو، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧﴾ [ص: 57] وقولِه: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النِّساء: 135]، وليس المرادُ بأنَّ الفاءَ زائدةٌ للاعْتراض، ولكنَّها ترجعُ إلى معنَى التَّسبُّب، وإنَّما الاعْتراضُ حصلَ بتقديمِ جُملتِها بين شيئَيْن مُتَّصلَيْن مُبادَرةً من المتكلِّمِ بإفادتِه لأهمِّيَّته. وأصلُ ترتيبِ الكلامِ هنا: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ لِتُنذِرَ به وذكرى للمؤمنينَ، فلا يكنْ في صَدرِكَ حَرَجٌ منه، والمعنَى: أنَّ اللّه أنزلَه إليكَ لا ليكونَ في صدرِكَ حرجٌ بل لينشرحَ صدرُك به[1].

أفادتِ الفاءُ تضمينَ معنَى الشَّرطِ في السِّياقِ المسوقِ في الآيةِ

من ناحيةٍ أخرى، أفادَ قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ احْتواءَ السِّياقِ لمعنَى الشَّرط، كأنَّ الأصلَ أن يُقال: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ، فإن كنتَ في حرجٍ ممَّا أنزلنا إليك، فلا يكنْ في صَدرِك ذلكَ الحرج، وهنا جاءتِ الفاءُ على هذا التَّقدير، متضمِّنةً معنى الشَّرط، لتقويَةِ نفيِ الحرجِ أيِّ حرجٍ يمكنُ أنْ يُراوِدَ صدرَ النَّبيِّ ﷺ.

دلَّ السِّياقُ بحرفِ النَّهي على النَّهيِ عن الحرجِ أوالنَّهيِ عن الشَّكِّ

دَلالةُ النَّهي بالحرفِ (لا):

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾، نهيٌ متوجِّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، أي: نهيُه عن المبالاةِ بالمكذِّبين بالقرآن، والغمِّ من صنيعهم، وكذلكَ نهيٌ له ﷺ من الحَرجِ في تبليغِ القرآنِ خشيةَ تكذيبِهم له وإعراضِهم عنه وأذاهم[2].

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ نهيَ النَّبيِّ ﷺ في أن يكونَ في صدرِه شكٌّ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285 - 286.

في كونِ هذا القرآن حقًّا، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، وعلى هذا القولِ، فالخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ نهيُ غيرِه عن الشَّكِّ في القرآن، حيث لا يمكنُ أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ شكٍّ في كون القرآن حقًّا[1].

ويمكن أن تكونَ صيغةُ نَهيِ الحرجِ، عن أنْ يحصُلَ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ، ليكونَ النَّهيُ نَهْيَ تكوين، بمعنَى: تكوينِ النَّفي، عكس أمرِ التَّكوين الَّذي هو بمعنَى تكوينِ الإثبات، مُثِّلَ تكوينُ نفيِ الحرجِ عن صَدْرِه بحالةِ العاقلِ المدرِكِ للخطابِ عن الحصولِ في المكان[2].

والأظهرُ أن يكونَ المرادُ بالحرجِ في الآيةِ الضِّيق، وأنْ يكونَ النَّهيُ واردًا أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ ضيقٍ عن تبليغِ ما أُمِرَ به، لشدَّةِ تكذيبِهم له، والتَّعرُّضِ لبطشِهم ممَّا يضيقُ به الصَّدْر، ويَدُلُّ علَى هَذَا الوجهِ في الآيةِ، قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12].

ويُؤيِّدُه كذلك أنَّ الحرجَ في لغةِ العرب: الضِّيقُ، وذلكَ معروفٌ في كلامِهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: 78] أي: ضيق[3].

نكتةُ إسنادِ النَّهيِ إلى النَّبيِّ الكريم:

المبالغةُ في تنزيهِ النُّبوَّةِ الخاتمةِ عن أيِّ حرجٍ مهما كانتِ العَقَبات

عبَّرَ بيانُ اللّهِ تعالى عمَّا يُمكنُ أنْ يُلازِمَ صدرَه الشَّريفَ ﷺ من الحَرَجِ الَّذي يُسبِّبُ له ضيقَ الصَّدْر، وفي مقابلِه ما يمكنُ أنْ يَعتريَ المتيقِّنَ من انشراحِ الصَّدْرِ وانْفساحِه، وذلكَ مبالغةٌ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه ضمن النَّهيِ، فعلَى طريقةِ التَّهيُّجِ والإلْهابِ، والمبالغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيْهامِ أنَّ ذلكَ من

---

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/286.

القُبحِ والشَّرِّيَّة، بحيث يُنْهَى عنه، مَنْ لا يمكنُ صدورُه عنه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلكَ منه[1]؟

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ﴾:

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ التَّخصيصُ والاهتمامُ بالمرادِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾، تقدَّمَ الجارُّ والمجرور (شِبه الجملة)، على ﴿حَرَجٞ﴾، والأصلُ أن يُقال: (فلا يكن حرجٌ في صَدرِك)، وهذا التَّقديمُ لما حقُّه التَّأخير، فيه تخصيصُ الصَّدرِ، بكونه محلًّا للحرَج، وتخصيصُ صدرِ النَّبيِّ دون غيرِه بالحرج؛ لأنَّه هو الَّذي ينزلُ عليه الكتابُ وحيًا من اللّه تعالى، وفيه كذلك تقديمٌ للخبر على اسْم يكن ﴿حَرَجٞ﴾، ليكونَ أقوى في الدَّلالةِ على المراد، وهو ألَّا يكونَ صَدْرُ رسولِ اللّه ﷺ محلًّا لأيِّ ضيقٍ يتسلَّلُ إليه[2].

بلاغةُ المجازِ أو الكنايةِ في قولِه ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾:

الصَّدرُ محلُّ للضِّيقِ أوِ الانشراحِ على سبيل المجازِ لا الحقيقةِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِي صَدۡرِكَ﴾ مُرتبطًا بالحَرَج، وجُعِلَ الصَّدرُ مَحَلًّا له على سبيل المجاز، إذْ ليس الصَّدرُ وعاءً حقيقةً لذلكَ الحرجِ، الَّذي هو مجازٌ كذلك، وإنَّما الصَّدر وعاءٌ للقلب الَّذي يحمل الحرج، فأطلق الصَّدرَ، وأراد القلبَ السَّاكنَ فيه على سبيلِ المجاز المرسَل، والخطابُ توجَّه بالنَّهي عن أنْ يكونَ في صدرِ رسولِ اللّهِ أيُّ حَرَجٍ، والتَّقديرُ: (فلا يكن في صَدْرِك حَرَجٌ منه، من جهةِ ما جرَّهُ نزولُه إليكَ من تكذيبِ قومِكَ وإنكارِهم نزولَه، فلا يكنْ في صَدْرِك حَرَجٌ منه، من عِظَم أمرِه وجَلالتِه، ولايكنْ في صَدْرِك حَرَجٌ منه، فإنَّه سببُ شَرْحِ صدرِك بمعانيه وبلاغتِه)[3].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾:

تعبيرُ الاستعارةِ عن تصويرِ حالةِ النَّفسِ حين الحُزْنِ والأسَفِ

حقيقةُ الحَرَجِ أنَّه المكانُ الضَّيِّقُ من الغاباتِ الكثيرةِ الأشجار، بحيثُ يَعسُرُ السُّلوكُ فيه، ويُستعارُ لحالةِ النَّفسِ عند الحُزْنِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/217 - 218.
(2) فضل عبَّاس، أساليب البيان: ص: 107 - 108.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.

والغَضَبِ والأَسَف؛ لأنَّهم تخيَّلُوا للغاضِبِ والآسفِ ضيقًا في صَدْرِه، لَمَّا وجدوه يَعسُرُ منه التَّنفُّسُ من انْقباضِ أعصابِ مجاري النَّفَس، وفي معنَى الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ [هود: 12][1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٌ﴾:

غـرضُ التَّـنكـيرِ عمومُ الحَـرَجِ، ويمكنُ أن يفيدَ التَّحقيرَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ نكرةً، ليعمَّ أيَّ حَرَجٍ، وخاصَّةً أنَّه سُبِقَ بنفيٍ، وبصيغةِ النَّهي بقولِه: ﴿فَلَا يَكُن﴾، أي: فلا يكنْ في صَدْرِك - يا محمَّدُ ﷺ - أيُّ غمٍّ من صنيعِهم، أو حُزنٍ وهمٍّ بسببِ تكذيبِهم لدعوتك[2]، ولَمَّا جاءَ سياقُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ﴾ - على معنَى أنَّ الحَرَجَ بمعنَى الشَّكِّ - من المبالغةِ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه في ضمنِ النَّهي، مبالغةً في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيهامِ أنَّ ذلك من القُبحِ، بحيث يُنهَى عنه من لا يمكنُ صدورُه منه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلك منه؟ فيمكن أن يكون التَّنوينُ هنا في لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ للتَّحقيرِ الَّذي يُعبِّر عن ذاك التَّنفيرِ والتَّحذيرِ[3].

نكتةُ توجيهِ النَّهي إلى (الحَرَج) في الآيةِ الكريمة:

أثـرُ أسـلـوبِ المبالغةِ في النَّهي بطريقِ الكنايةِ

جعلَ بيانُ اللهِ النَّهيَ مُتوجِّهًا إلى الحَرَجِ للمبالغةِ في التَّكليف، باقْتلاعِهِ من أصلِه على طريقةِ قولِ العرب: (لا أَرَيَنَّكَ هَاهُنَا)، أي: لا تَحضُرْ فأَرَك، نهيًا بطريقِ الكنايةِ[4]، وتوجيهُ النَّهي إلى الحَرَجِ، مع أنَّ المرادَ نهيُه ﷺ عنه لأمرَيْنِ وَجيهَيْنِ: الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا مرَّ من المبالغةِ في تنزيهِه ﷺ عن الشَّكِّ فيما ذُكر، فإنَّ النَّهيَ عن الشَّيء، ممَّا يُوهِمُ إمكانَ صدورِ المنهيِّ عنه عن المنهيِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13 - 14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66.

والثَّاني: للمبالغة في النَّهي، فإنَّ وقوعَ الشَّكِّ في صدرِه ﷺ سببٌ لاتِّصافه ﷺ به، والنَّهيُ عن السَّببِ نهيٌ عن المسَبَّبِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ونفيٌ له من أصلِه بالمرَّة[1].

معنَى (مِن) في قولِه تعالى: ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

الأداة (مِن)، متأرجحةٌ بين الابتدائيَّةِ أو السَّببيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، نجد أنَّ (مِنْ) ابتدائيَّةٌ، أي: حَرَجٌ ينشأُ ويَسْري من جَرَّاءِ المذكور، أي: من تكذيبِ المكذِّبينَ به، فلمَّا كانَ التَّكذيبُ به من جُملةِ شؤونه، وهو سببُ الحَرَجِ؛ صحَّ أنْ يُجعَل الحَرجُ مُسبَّبًا عن الكتابِ بواسطةٍ، والمعنَى على تقديرِ مضاف، أي: حرج من إنكارِ إنزاله من الله[2]. ويمكنُ أن تكونَ (مِنْ) سببيَّةً، أي: حَرَجٌ بسببِه، تقولُ: حَرِجتُ منه، أي: ضِقتُ بسببِه[3].

تعلُّقُ الجارِّ في شبه الجملة: ﴿مِّنْهُ﴾، وصلةُ (الفاء) به:

تعلُّقُ الجارِّ بـ(حرَج)، أو بمحذوفِ صفةٍ له، والفاءُ بالتعلُّقين

تقدَّم آنفًا أنَّ ﴿مِّنْهُ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿حَرَجٌ﴾، يُقال: حَرِجَ منه، أي: ضاقَ به صدرُه، ولكنْ يمكنُ أن يكونَ ﴿مِّنْهُ﴾، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ وقعَ صفةً له، أي: حَرَجٌ كائنٌ منه، أي: لا يكنْ فيكَ ما في أحقِّيَّته أو في كونِه كتابًا مُنزَّلًا إليكَ من عندِه تعالى، وبناءً على هذين التَّعلُّقَيْن، يكونُ (الفاء) معنًى يتناسبُ مع كلٍّ منهما: فالفاءُ على الأوَّلِ، لترتيبِ النَّهي، أوِ الانْتهاءِ على مضمونِ الجملة، فإنَّه يُوجِبُ انتفاءَ الشَّكِّ، فيما ذُكِرَ بالكُليَّةِ، وحصولَ اليقين به قطعًا. وأمَّا على الثَّاني: فالفاءُ لترتيبِ ما ذُكِرَ على الإخبارِ بذلكَ، لا على نفسِه[4].

معنَى حرف اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

اللَّامُ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ فيها أربعةُ أوجهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ متعلِّقةً

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/241.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

بـ﴿أُنزِلَ﴾، أي: أُنزِلَ إليكَ للإنذار، وهذا على التَّقديم والتَّأخير، على تقدير: (كتابٌ أُنزِلَ إليك لِتُنذِرَ به فلا يكنْ في صَدرِك حرجٌ منه)، وعلى هذا تكونُ جملةُ النَّهي معترضةً بين العلَّة ومعلولها[1].

الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ متعلِّقةً بما تعلَّق به خبرُ الكَوْنِ ﴿يَكُن﴾؛ إذِ التَّقديرُ: فلا يكن حرجٌ مستقرًّا في صدرِك لأجل الإنذار[2].

والثَّالثُ: فلا يكنْ في صدرِك شيءٌ لتُنذِر[3]. والرَّابع: اللَّامُ لامُ التَّعليل، واقْتَرَنَ الفعلُ بها، دونَ الإتيانِ بمصدرٍ منصوب (إنذارًا) لاختلافِ فاعلِ العامل، وفاعلِ الإنذار[4].

اللَّامُ فيها أربعةُ أوجهٍ، تتنوَّعُ وتبين بحسبِ متعلَّقها

بلاغةُ حذفِ المتعلَّقِ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ مِنَ الآية الكريمة:

حذَفَ بيانُ اللَّهِ تعالى متعلَّقَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ لِظهورِ تقديرِ المحذوفِ من ذِكْرِ مُقابِله المذكور، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرين[5]، من قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

غرضُ الحذف ظهورُ تقديرِه، بذكرِ ما يقابلُه

بلاغةُ التَّصريحِ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ دون مُتعلَّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾:

صُرِّحَ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ دونَ مُتعلَّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾، تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ ومكانتِهم عند مُنَزِّلِ الكتابِ، وهو اللهُ ﷻ، وتعريضًا بتحقيرِ الكافرين تجاهَ ذكرِ المؤمنين[6]، وتَخصيصُ التَّذكيرِ بالمؤمنين؛ لأنَّهم الَّذين ينجعُ فيهم ذلك، وللإيذانِ باخْتِصاصِ الإنذارِ بالكَفَرَة[7].

غرضُ التَّصريحِ بتذكيرِ المؤمنينَ عُلُوُّ شأنِهم عندَ اللهِ تعالى

معنَى الباءِ والهاءِ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِهِۦ﴾، عائدٌ إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: الكتابُ المنزَّلُ وهو القرآنُ الكريم[8]، ويمكنُ أن يكونَ عائدًا على الإنزال، أي: أُنزِلَ

(الهاءُ) هي للكتابِ أو للإنزال، وكلاهما ذو دلالةٍ مفيدةٍ

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/370، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/242.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(8) العكبري، الإملاء: 1/268، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

إليكَ لإنذارِك به، أو لِتُنذِرَ بهذا الإنزال، لمكانتِه بأنَّه منزَّلٌ من عندِ اللّه[1]، والباء للتَّعديَةِ، ويمكن أن تكونَ للمصاحبةِ.

نكتةُ تقديمِ الإنذارِ على التَّذكير:

يردُ التَّقديمُ في السِّياقِ لِلَفظٍ على لفظٍ لأهميَّة المقدَّم

قدَّمَ بيانُ اللّهِ تعالى الإنذارَ على التَّذكيرِ في قولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ بحسبِ المقام، وذلك لإبْطالِ ما عليه المشركونَ من الباطلِ، وما يُخلِّفونه في النَّاسِ من العوائدِ الباطلةِ الَّتي تُعانَى إزالتُها من النَّاسِ بعدَ إسلامِهم[2].

بلاغةُ العطفِ في قوله سبحانه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تواردُ العطفِ يُجلِّي قوَّةَ السَّبكِ في معاني السِّياق

جاءتْ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوفةً بالرَّفعِ من وجهَيْن: أحدهما: أنَّها عطفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: كتابٌ وذكرى، أي: تذكير، فهي اسْمُ مصدرٍ. والثَّاني: أنَّها خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ بفعلٍ، أي: هو ذكرى. ويمكنُ أنْ تكونَ معطوفةً بالنَّصبِ على المعنَى، وهي أن تكون في محلِّ نصبٍ نَسَقًا على موضع ﴿لِتُنذِرَ﴾، فإنَّ موضعَه نصبٌ، وهذا كما تُعطَفُ الحالُ الصَّريحةُ على الحالِ المؤوَّلةِ كقولِه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس: 12]، ويكونُ حينئذٍ مفعولًا من أجله، كما نقولُ: جئتكَ لِتكرِمَني وإحسانًا إليَّ.

ويمكنُ أن تكونَ عطفًا في موقع الجرِّ من وجهين أيضًا: أحدهما: العطفُ على المصدرِ المُنسَبِكِ من (أنْ) المقدَّرةِ بعد لامِ (كي) والفعل، والتَّقديرُ للإنذارِ والتَّذكير. والثَّاني: العطفُ على الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾، وهذا وجهٌ حَسَنٌ كونُ (ذكرى) في تقديرِ حرفِ مصدريٍّ، وهو (أنْ) وفعل، ولو صُرِّحَ بـ(أن) لَحَسُنَ معها حذفُ حرفِ الجرِّ، فهو أحسنُ من قولِ: مَرَرْتُ بكَ وزيد، إذ التَّقدير: لأَنْ تُنذرَ به وبأن تُذكِّرَ[3].

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/244 - 245.

وهذه الوجوهُ في عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ أفادتِ السَّبكَ في ألفاظِ السِّياقِ ومعانيه، ما بين الظَّاهرِ منها والمُضْمَر، ما بين الكتابِ والإنذارِ والتَّذكير، فالكتابُ الكريمُ أُنزِلَ للإنذارِ والتَّذكير، الأوَّلُ للكافرين، والثَّاني للمؤمنين.

نكتةُ العُدولِ الصَّرْفيِّ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه:

العُدولُ بين مكوِّناتِ العطفِ، يُراعى فيها اختلافُ المتعلِّق

جاءَ المعطوفُ عليه ﴿لِتُنذِرَ﴾ فعلًا، والمعطوفُ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ مصدرًا، وذلك لأنَّ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أُنزِلَ﴾ على المفعولِ لأجله، واقترانُه بلامِ التَّعليل، دونَ الإتْيان بمصدرٍ منصوبٍ، لاختلافِ فاعلِ العاملِ، وفاعلِ الإنذار، وإنَّما يتأتَّى التَّعليلُ بالإنذارِ، لا بتذكيرِ المؤمنين؛ إذْ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتَّى يُجعَلَ غايةً لانْتفائه. وجاءَ ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ، بإضمارِ فعلِه معطوفًا على تُنذر، أي: وتُذكِّرَ المؤمنين: تذكيرًا[1]، والتَّعبيرُ بالمصدر آكَدُ في الدِّلالة على مهمَّةِ القرآن الأساسيَّةِ في تذكيرِ المؤمنين.

معنَى اللَّام و(أل) في قوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حروفُ المعاني يعمل بعضُها على تقويةِ المعنَى في عناصرِ التَّركيبِ

اللَّامُ للتَّعليلِ، أي: وذكرى لأجلِ المؤمنين، ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مزيدةً في المفعولِ به تقويةً له؛ لأنَّ العاملَ فَرْعٌ، والتَّقديرُ: وتُذكِّرَ المؤمنين، ويمكنُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوف؛ لأنَّه صفةٌ لِذكْرَى[2]، و(أل) استغراقيَّةٌ جنسيَّةٌ تشملُ المؤمنين كافَّةً.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(الحَرَج) و(الضِّيق) و(الضَّرَر) و(المشقَّة):

الحَرَجُ أشدُّ الضِّيقِ، وهو اللَّفظُ المناسبُ لسياقِ الآيةِ دونَ غيرِها

الحَرَجُ: ضيقٌ لا مَنْفذَ فيه، مأخوذٌ من الحَرِجةِ بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها، وهي الشَّجرُ المُلْتفُّ حتَّى لا يمكنَ الدُّخولُ فيه ولا الخُروجُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245.

منه، وحَرِجَ صدرُه، أي: ضاق، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أرادَ ضيقًا لا مخرجَ منه، وذلك أنَّه يُتخلَّصُ من الذَّنْبِ بالتَّوبة، فالتَّوبةُ مخرجٌ[1]، والضِّيقُ ضدُّ السَّعة. ويُقالُ: الضَّيِّقُ أيضًا، والضَّيِّقَةُ، يُستعمَلُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحوِ ذلك، قالَ تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشُّعراء: 13]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾ [النَّحل: 127]، وكلُّ ذلك عبارةٌ عن الحُزْن، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطَّلاق: 6]، ينطوي على تَضْييقِ النَّفقةِ وتَضْييقِ الصَّدْرِ[2].

والضُّرُّ: ضدُّ النَّفْع، وهو ما تَضُرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت، وقولُه: لا ضَرَرَ، أي: لا يَضُرُّ الرَّجُلُ أخاه، فيُنقِصُه شيئًا من حقِّه، والضِّرارُ: فِعالٌ من الضُّرِّ، أي: لا يُجازيه على إضرارِه، بإدخالِ الضَّررِ عليه. والضُّرُّ: فعلُ الواحد، والضِّرارُ: فعلُ الاثنَيْن، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، والضِّرارُ: الجزاءُ عليه، والضِّرارُ: أنْ تضرَّه من غيرِ أنْ تنتفعَ به، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ[3].

والشِّقُّ: المشَقَّةُ، والانْكسارُ الَّذي يلحقُ النَّفْسَ والبَدَن، وذلكَ كاسْتعارةِ الانْكسارِ لها، قالَ تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النَّحل: 7]. والشُّقَّةُ: النَّاحيةُ الَّتي تَلحقُكَ المشقَّةُ في الوصولِ إليها، قالَ تعالى: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التَّوبة: 42][4].

وكلمةُ (الحَرَج) الَّتي وردت في الآية الكريمة هي المناسبةُ لسياقِها دونَ غيرِها من الكلماتِ المقاربة لارْتباطها بالضِّيق الَّذي يحصُلُ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ بتكذيبِ قومِه له ومعاندتِهم لدعوتِه، وهو ليس أيَّ ضيق؛ بل هو ضيقٌ لا مَنْفَذَ فيه لشدَّته.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 182، والرّازي، مختارُ الصِّحاح: (حرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضيق)، والعسكريّ، الفروق، ص: 333.
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ضرر)، والعسكريّ، الفروق، ص: 328، والكفوي، الكلِّيات: 3/147.
(4) الرّاغب، المفردات: (شق)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (شقق).

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تكليفِ المُرسَلِ بالإنذارِ والتَّذكيرِ، وأمرِ الأمَّةِ بالانصياعِ والاتِّباعِ

يقول الرَّازيُّ: اعلمْ أنَّ أمرَ الرِّسالةِ، إنَّما يَتمُّ بالمُرسِلِ: وهو اللّهُ ﷻ، والمُرسَلِ: وهو الرَّسولُ، والمُرْسَلِ إليه وهو الأُمَّة، فلمَّا أمرَ في الآيةِ الأولى الرَّسولَ بالتَّبليغِ والإنْذارِ مع قلْبٍ قويٍّ وعزمٍ صحيح؛ أمرَ المُرسَلَ إليه - وهمُ الأُمَّةُ - بمتابعةِ الرَّسولِ، فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1]، "ولا تتَّبِعوا من دونِه أولياءَ، تستجيبونَ لهُم، وتستعينونَ بهم، إنَّكم قلَّما تتَّعظونَ حينَ تتركونَ دينَ اللّهِ، وتتَّبعون غيرَهُ، مع أنَّ العِبَرَ في ذلك كثيرةٌ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾: وَلِيَ: الواوُ واللَّامُ والياءُ: أَصْلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على قُرْب، من ذلكَ الوَلْيُ: القُرْب، يُقالُ: تباعَدَ بعدَ ولي، أي: بعدَ قُرْب، وجَلَسَ ممَّا يليني، أي: يُقاربُني. ومنَ البابِ المَوْلَى: المُعتِقُ والمُعتَقُ، والصَّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنَّاصرُ، والجارُ: كلُّ هؤلاء من الوَلْي، وهو القُرْب. وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أمرَ آخرَ، فهو وَليُّهُ[3]، "﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: يتولَّى نصرهم؛ لأنَّ حزبَهم هم الغالبون، ويتولَّى مجازاتَهم بالحُسْنى"[4]. والوليُّ خلافُ العدوِّ، قال اللّه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [المائدة: 51]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، أي: اتَّخذوهم أعداءً،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/196.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 204.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ولِيَ).
(4) أبو إسحاق الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/427.

حتَّى لا تناصحوهم، وقيل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ناصرهم ومرشدهم، ومتكفِّل بأمورهم، كوليِّ الطِّفل يكفيه أموره"[1].

2) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: الذِّكرُ: تارةً يُقالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفسِ، بها يمكنُ للإنسانِ أنْ يحفظَ ما يَقتنيه من المعرفة، وهو كالحِفظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يُقالُ اعْتبارًا بإحرازِه، والذِّكرُ يقالُ اعْتبارًا باسْتحضاره، وتارةً يُقالُ لحضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلكَ قيل: الذِّكرُ ذِكْران: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذكرٌ عن نسيان، وذكرٌ لا عن نِسْيان، بل عن إدامةِ الحفظ، وكلُّ قولٍ يُقال له ذِكْر.

فمن الذِّكرِ باللِّسان قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]. ومن الذِّكر عن النِّسيان قولُه تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: 63]. ومن الذِّكرِ بالقلب واللِّسان معًا قولُه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200]، والذِّكرى: كثرةُ الذِّكر، وهو أبلغُ من الذِّكر، وهو المعنَى المرادُ في قولِه تعالى هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأمـرُ باتِّبـاع الـوحـي المنـزلِ، وترك المعبوداتِ المتَّخذةِ من دون اللهِ

صُدِّرَ هذا الخطابُ الرَّبَّانيُّ بأمرٍ ثمَّ نهيٍ: الأوَّلُ أمرٌ من اللهِ لنبيِّه ﷺ ولأُمَّته، باتِّباعِ ما أنزلَهُ إليهم في هذا القرآنِ الكريم، لتكتملَ به تربيتُهم، وتتمَّ عليهم نعمتُه، وَيَهْتَدُوا بهدْيه لأحسنِ أعمالِهم وأخلاقِهم. والثَّاني نهيٌ لهم أن يتَّبعوا من دونِ القرآن غيرَه، يُلقُون إليه بزمامِهم، فيسوقُهم إلى تركِ الحقِّ، واتِّباعِ أهوائِهم. ويرشدُهم بيانُ اللهِ تعالى، أنَّهم لو تذكَّروا هاتَيْنِ الوصيَّتَيْنِ حقَّ

(1) أبو هلال العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 494.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

التَّذكُّر، فلن يُؤثِروا ما يضرُّهم على ما ينفعُهم، ولن يَرْكَنُوا إلى عدوِّهم، ويَتَجَافَوْا عن وَليِّهم(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ وتركِ عطفِ الآيةِ عن سابقَيْها:

غرضُ استئنافِ الكلامِ بيانُ ما تقدَّمَهُ في السِّياقِ

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، لم يأتِ هذا الصَّدرُ من الآيةِ معطوفًا على سابِقَيها؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ بيانٍ لما تقدَّمَ من قولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ بقرينةِ تذييلِها بقولِه تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(2)، ولذلكَ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، كلامٌ مستأنفٌ، خُوطِبَ به جَميعُ المكلَّفين بطريقِ التَّلوين(3).

دَلالةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

توجُّهُ الأمرِ بالاتِّباعِ للرَّسولِ ﷺ والمؤمنِين به والمشركين

الأمرُ بالاتِّباعِ يندرِجُ فيه ثلاثُ جهاتٍ: الأولى: الرَّسولُ ﷺ، وقد نوَّهتِ الآيةُ السَّابقةُ بالكتابِ المُنزَّلِ إليه ﷺ. والثَّانيةُ: المشركونَ الَّذي أُنزلَ إليهمُ الزَّجرُ عن الشِّركِ والاحْتجاجُ على ضلالهم، ونوَّهتِ الآيةُ المتقدِّمةُ لذلك بقولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾. الثَّالثةُ: المسلمونَ الَّذينَ أُنزل إليهم الأمرُ والنَّهيُ والتَّكليفُ، وجاءَ التَّنويهُ به في الآيةِ السَّابقةِ بقولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكلُّ تلكِ الجهاتِ مأمورةٌ باتِّباعِ ما أُنزلَ إليها، والمقصودُ الأجدرُ، همُ المشركون، تعريضًا بأنَّهم كفروا بنعمةِ ربِّهم(4).

بلاغةُ الاسْتعارةِ في مادّةِ الاتّباعِ:

جمالُ الاسْتعارةِ في تشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ

يُسْتعارُ الاتِّباعُ للعملِ بأمرِ الآمرِ، نحوُ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ [طه: 92 - 93]، وهو اسْتعارةٌ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/264، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/197، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/371، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

تمثيليَّةٌ مبنيَّةٌ على تشبيهِ حالتَيْن، ويُستعارُ للاقْتداءِ بسيرةٍ أو قولٍ، نحو: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [البقرة: 168]، وهو استعارةٌ مُصرَّحةٌ تَنْبني على تشبيهِ المحسوسِ بالمعقول، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: 50]، ومنه قولُه هنا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1].

نكتةُ عدمِ التَّصريحِ بالمخاطَبين في جملة ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾:

الخطابُ يشمَلُ جميعَ النَّاسِ مؤمنِهم وكافرِهم

جاءَ الأمرُ بوجوبِ الاتِّباعِ بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ دونَ تعيينٍ للمخاطَبين، ليشملَ جميعَ النَّاس، كلٌّ يتَّبعُ ما هو به أَعْلَق، فالمشركون يتَّبعونَ ما أُنزِلَ إليهم من الزَّجرِ عن الشِّرك، والمسلمون يتَّبعونَ ما أُنزِلَ إليهم من الأوامرِ والنَّواهي والتَّكليف، فكلٌّ مأمورٌ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَآ﴾ عن الكتابِ:

هذا التَّعبيرُ يفيد ثبوتَ عمومِ الحكمِ المنزَّلِ بجميعِ آياتِ الكتابِ

وردَ اسمُ الموصول (ما) تعبيرًا عن عموم آيات الكتابِ الَّذي تقدَّمَ ذكرُه في الآيةِ السَّابقة ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ليدُلَّ على ثبوتِ الحُكمِ المُنَزَّلِ بالكتابِ ابتداءً، وليكون أَوْلى بالرِّعايةِ والالْتزام، وهو الَّذي جاءَ التَّنويهُ به هنا بالكتابِ المُنزَّلِ على رسولِ اللهِ ﷺ، حاملًا معه بيانَ حكمةِ إنزالِه للإِنْذارِ والتَّذكير[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بجملةِ الموصولِ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ عن القرآن:

أفادَ هذا التَّعبيرُ تأكيدَ اتِّباعِ القرآنِ دونَ غيرِه

أفادَ قولُه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ وجوبَ اتِّباعِ القرآن حصْرًا لجميعِ النَّاس، وإن كان الخطابُ بقولِه: ﴿مِّنكُمْ﴾، يعني: المسلمينَ ابتداءً، لكنَّه يشملُ غيرَهم. ودالًّا كذلك على أنَّ كلَّ ما يُغايرُ الحكمَ الَّذي أنزلَ اللهُ في القرآن، فإنَّه لا يجوزُ اتِّباعُه[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/197.

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه:

غرضُ البناءِ للمفعول الاهتمامُ بالمُنْزِلِ ومادَّةِ الإنْزالِ

وردَ قولُه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ بصيغةِ النَّائبِ عنِ الفاعلِ، جريًا على سَنَنِ الكبرياء، ممَّا تقدَّمه من قبلُ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، وللعلمِ بفاعلِ الإنزال؛ لأنَّ الَّذي يُنزِّلُ الكتُبَ على الرُّسُلِ هو اللّهُ تعالى، وللاهْتمامِ بمادَّةِ الإنْزالِ مع الإشعارِ بأنَّها من الوحيِ لملائكة العوالم السَّماوية، وقد أكَّدَ هذه المعاني، قولُه تعالى من بعدُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1].

بلاغةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿إِلَيۡكُم﴾ في قوله ﴿إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

غرضُ السِّياقِ الاهتمامُ بالمخاطَبين، وحثُّهم على الامْتثالِ لشرعِ الله

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُم﴾، وجاءَ مُسنَدًا إلى قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ليكونَ في هذا التَّقديم والإسنادِ إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مزيدُ لُطفٍ بالمخاطَبينَ، واهتمامٌ بشأنِهم، وترغيبٌ لهم في الامْتثالِ بما أُمروا به، وتأكيدٌ لوجوبه[2].

فائدةُ العدولِ من ضميرِ المخاطَبِ المفردِ إلى الجمعِ ﴿إِلَيۡكُم﴾:

المرادُ المخاطبونَ جميعُهُم في دلالةٍ على الشُّمولِ والعذاب

في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُم﴾ تعميمٌ لمن أُنزِلَ إليهم الكتابُ، إذ همُ المُعوَّلُ عليهم في مادةِ الإنزال، سواءٌ أكانوا مشركين فيكونُ زجرًا لهم عن الشِّركِ وإقامةً للحُجَّةِ عليهم، أمْ كانوا مسلمين فيكونُ أمرًا لهم باتِّباعِ تفاصيلِ أوامرِه ونواهيه وأحكامهما، وممَّا يتضمَّنه التَّكليفُ[3].

مُتعلَّقُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ومعنى ﴿مِّن﴾:

تُعلَّقان: بـ (أُنزلَ)، وبمحذوف حال، و(من) لابْتداءِ الغاية

يجوزُ في متعلَّقِ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وجهان: الأوَّلُ أنَّه مُتعلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، وتكونُ ﴿مِّن﴾ لابتداءِ الغايةِ المجازيَّةِ، والثَّاني: أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ؛ إمَّا من الموصول، وإمَّا من عائده القائمِ مقامَ الفاعل[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/317، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/211.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/15.

(4) العكبري، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/245.

نكتةُ مجيءِ لفظِ الرَّبِّ، وإضافتِه إلى ضميرِ (هم):

دعوةٌ للعنايةِ بالمخاطَبين، وتحفيزهم إلى امْتِثالِ أوامرِ ربِّهم

في التَّعرُّضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامْتثالِ بما أُمِرُوا، وتأكيدٌ لوجوبه، وجعلُ ما أُنزِلَ هَاهُنَا عامًّا للسُّنَّةِ القوليَّة والفعليَّة بُعيدَ نِعَمٍ يعمُّها حكمُهُ بطريقِ الدَّلالةِ لا بطريقِ العبادة[1].

بلاغةُ عطفِ النَّهيِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ على الأمرِ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

في هذا العطفِ بيانُ أنَّ المُنْزلَ واحدٌ، والأمرَ والنَّهيَ سواءٌ في الكلِّ

جاءَ النَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ عطفًا على الأمرِ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ تصريحًا بما تضمَّنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، لأنَّ فيما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم يتضمَّن: أمرًا ونهيًا، فجاءَ الأمرُ أوَّلًا، ثمَّ أَرْدَفَه بالنَّهي عن اتِّباعِ غيره[2].

دَلالةُ النَّهيِ في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

دلالةُ النَّهيِ على تأكيدِ مُقتضى الأمرِ في الآيةِ الكريمةِ

جاءتْ دَلالةُ النَّهيِ في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾، تأكيدًا لمقتضى الأمرِ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهم، اهْتمامًا بهذا الجانبِ ممَّا أُنزِلَ إليهم، وتسجيلًا على المشركين وقطعًا لمعاذيرِهم، أن يقولوا: إنَّنا اتَّبعْنا ما أُنزِلَ إلينا، وما نرى أولياءنا إلَّا شفعاءَ لنا عندَ اللَّه، فما نعبدُهم إلَّا ليُقرِّبونا إلى اللَّهِ زُلْفَى، فكما أنَّ موقعَ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، موقعُ الفَصْلِ الجامعِ من الحدِّ، فموقعُ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ موقعُ الفَصْلِ المانعِ من الحدِّ[3].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

تَجَلِّي البيانِ في اسْتعارةِ معنَى الاتِّباعِ وفي معنى الطَّلبِ والاتِّخاذِ

الاتِّباعُ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، مستعارٌ في المعنَى الَّذي اسْتعملَ الاتِّباعَ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وذلكَ على تقديرِ: (لا تتَّبعوا ما يأتيكم من أولياءَ من دون اللَّه)، فإنَّ المشركين يَنسُبونَ ما هم عليه من الدِّيانةِ الضَّالَّةِ إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/211، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/15 - 16.

الآلهةِ الباطلة، أَوْ إلى سَدَنة الآلهةِ وكُهَّانِها، ويمكنُ أن يكونَ الاتِّباعُ مُسْتعارًا للطَّلبِ والاتِّخاذ، أي: ولا تتَّخذُوا أولياءَ غيرَه، نحوَ قولِهم: هو يتَّبعُ زلَّةَ فُلانٍ، أي: يتطلَّبُها[1].

معنَى الحرف ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ابْتدائيَّةٌ، أي: من دونِ ربِّكم الَّذي أَنزلَ إليكم ما يَهديكم إلى الحقِّ[2]، وقوله: "﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: من دونِ ربِّكم الَّذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحقِّ، ومحلُّه النَّصبُ على أنَّه حالٌ من (فافعل)، فعلُ النَّهي، أي: لا تتَّبعوا متجاوزين اللّٰه تعالى"[3].

(مِن) الابتدائيَّةُ لها دورٌ في دلالةِ السِّياقِ المتوخَّاةِ

متعلَّقُ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ والمعنَى المُتَرتِّبُ عليه:

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ له مُتعلَّقان[4]: الأوَّلُ: بالفعلِ قبلَه، والمعنَى: لا تَعدِلوا عنه إلى غيرِه من الشَّياطينِ والكُهَّان. والثَّاني: بمحذوف؛ لأنَّهُ كانَ في الأصلِ صفةً لأولياء، فلمَّا تقدَّمَ؛ نُصِبَ حالًا[5]، والمعنَى: لاتَتولَّوْا من دونِه من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فيحملُوكم على الأهواءِ والبِدَعِ، ويُضِلُّوكُمْ عن دينِ اللّٰهِ، وما أَنزلَ إليكم، وأَمرَكم باتِّباعِهِ[6].

التَّعَلُّقُ بالفعلِ قبلَ ذلك، أو بالمحذوفِ يحدِّدُ الدِّلالَةَ

عَوْدُ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

في عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿دُونِهِۦ﴾ ثلاثةُ أَوجهٍ: الأَوَّلُ: أَنْ يعودَ على ﴿رَّبِّكُمْ﴾؛ وهو الظَّاهر[7]. والثَّاني: على ﴿مَآ﴾ الموصولة. والثَّالث: على الكتاب المُنْزَلِ، والمعنَى: لا تعدِلُوا عنه إلى الكُتُبِ المنسوخة[8].

يعودُ الضَّميرُ على: (رَبِّكُم)، أو (ما)، أو الكتابِ المُنزَلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/16.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/211.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/245.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66.
(7) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319.
(8) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245 - 246.

غرضُ التَّقديم التَّنفيرُ من اتِّباعِ أهلِ الزَّيْغِ والضَّلالِ

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعولِ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

جاءَ هذا التَّقديمُ وحقُّه التَّأخير، أي: ولا تتَّبعوا أولياءَ من دونِه؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ حالِ من يتَّبعُهمُ المشركون من شياطينِ الإنسِ والجنِّ في ضلالاتهم وبِدَعِهم، للتَّنفيرِ منهم، وتَنكُّبِ طريقِهم في الدُّنيا، قبلَ التَّبرُّؤِ منهم في الآخرةِ، يومَ لا ينفعُهم ذاك التبرُّؤ، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [البقرة: 167][1].

سرُّ التَّعبيرِ بالدُّونِ عن التَّركِ لعبادةِ اللهِ والإعراضِ عن أوامرِه

نكتةُ الاستِعارةِ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ اسْتعارةٌ للتَّركِ والإعراض، فإنَّ المشركينَ اتَّبعوا الأصنامَ بعبادتِها، أو نسبةِ الدِّين إليها، وكلُّ عملٍ عملوه امْتثالًا لأمرٍ يُنسَبُ إلى الأصنام؛ فهم عند عملِه يكونون متَّبعينَ اتِّباعًا فيه إعراضٌ عنِ اللهِ، وتركٌ للتقرُّب إليه، فيكونُ اتِّباعًا من دونِ اللهِ[2].

جسَّدتْ (أَوۡلِياء) الموالاةَ لجميعِ أصنافِ آلهةِ المشركين وأنواعِها

بلاغةُ اسْتعارةِ لفظِ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ لآلهتِهم:

جاء قولُه: ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ تعبيرًا عن أيِّ اتِّباعٍ من دون اللهِ، أي: فيه إعراضٌ عن اللهِ وتركٌ للتقرُّب إليه، وبهذا النَّهي عن اتِّخاذِ أيٍّ من دونِ اللهِ وليًّا، سُدَّتْ على المشركين جميعُ أبوابِ الشِّركِ وتأويلاته، كقولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، فقد جاءَ قولُه: ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ مع ما سبقه بقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ في أعلى درجةٍ من الإيجازِ واسْتيعابِ المقصود[3].

نكتةُ العُدولِ عن أسلوبِ القَصْرِ:

أفادَ مجموعُ قولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/16 - 17.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

سِرُّ العدولِ لتحقيقِ المرادِ، غايتهُ نَفْيُ أيِّ وليٍّ من دون اللهِ

﴿تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، مُفَادَ صيغةِ قَصْرٍ، كأنَّه قال: (لا تتَّبعوا إلَّا ما أمَرَ به ربُّكم)، أي: دون ما يأمرُكم به أولياؤكم، فعَدَلَ عن طريقة القَصْرِ هذه؛ لتكونَ جملةُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ مُستقلَّةً صريحةَ الدَّلالةِ، اهْتِمامًا بمضمونها الَّذي هو المقصدُ الأَسْنَى من سَوْقِها وسِياقها[1].

الموقعُ النَّحْويُّ للفظ ﴿قَلِيلٗا﴾:

لفظُ (قليلا) يتنوَّعُ موقعُهُ بينَ صفةِ المصدرِ أو ظرفِ الزَّمانِ

قولُه تعالى: ﴿قَلِيلٗا﴾ فيها وجهان إعرابيَّان: الأوَّلُ: صِفَةُ مصدرٍ محذوفٍ، دلَّ عليه ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تذكَّرونَ تذكُّرًا قليلًا تذكَّرون. والثَّاني: صفةُ ظرفِ زمانٍ محذوف أيضًا، أي: زمانًا قليلًا تذكَّرون لا كثيرًا[2].

الموقعُ البيانيُّ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

الجملةُ إمَّا حَاليَّةٌ سَبَبيَّةٌ كَاشِفَةٌ، أوِ اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ في السِّيَاقِ

جملةُ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، وهي حالٌ سببيَّةٌ وكاشفةٌ لصاحبها، وليستْ مقيِّدةً للنَّهي، لظهورِ أنَّ المتَّبعين أولياءَ من دون اللهِ ليسوا إلَّا قليلي التَّذكُّر، ويجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ اعتراضًا تَذْييليًّا[3].

بلاغةُ لفظِ ﴿قَلِيلٗا﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تنوُّعُ لفظِ (قليلا) بين الحقيقةِ، أو الاسْتعارةِ

لفظُ ﴿قَلِيلٗا﴾ يجوزُ أنْ يُحمَلَ على حقيقته؛ لأنَّهم قد يتذكَّرون ثمَّ يُعرِضونَ عن التَّذكُّرِ في أكثرِ أحوالِهم، فهم في غفلةٍ مُعرِضون، ويجوزُ أن يكونَ ﴿قَلِيلٗا﴾، مُستعارًا لمعنَى النَّفيِ والعَدَمِ على وجه التَّلميح[4]، كقولِه تعالى: ﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88] واستعمالُ ﴿قَلِيلٗا﴾ هنا في العدَمِ هو على طريقةِ التَّهكُّم بالمضيِّعِ للأمرِ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/66، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

خَطئه، وإنَّه وإنْ كانَ في ذلكَ تفريطٌ، فلا ينبغي أن يتجاوزَ حدَّ التَّقليلِ دون التَّضييعِ له كلِّه[1].

المصدريَّةُ أو الزِّيادة للتَّأكيد

معنى ﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

﴿مَّا﴾ مصدريَّةٌ موصولةٌ بالفعلِ بعدَها، والتَّقدير: (قليلًا تذكُّركم)[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿مَّا﴾ المصدريَّةُ وما بعدَها بتأويلِ مصدرٍ مبتدأً مؤخَّرًا، والتَّقديرُ: زمنًا قليلًا تذكُّركم، أي: إنَّهم لا يقعُ تَذَكُّرُهُمْ إلَّا في بعضِ الأحيان، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مزيدةً لتوكيدِ القِلَّة[3]، وقد قيل: إنَّ ﴿مَّا﴾ هذه نافيةٌ، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ لا يعملُ بعدَها فيما قبلَها عند البصريِّين، وعلى تقديرِ تسليم ذلك، فيصيرُ المعنَى: ما تذكَّرون قليلًا، وليس بطائل[4].

أفادَ الفعلُ بصيغةِ (تفعَّلون) دَيْمومةَ الغَفْلةِ والإعراض عن الحقِّ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

الفعلُ المضارعُ يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمراريَّة، وهو المعنَى في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، لكنَّ إسنادَ ﴿قَلِيلًا﴾ إليه، أَفْقَدَه دَيْمومةَ التَّذكُّر، وصيَّره إلى معنَى أنَّهم قد يتذكَّرونَ، ثمَّ يُعرِضونَ عن التَّذكُّرِ في جُلِّ أحوالهم، وهذا يعني: أنَّهم في الحقيقةِ مستمرُّون في غفلتِهم، دائمون في إعراضِهم[5].

أعرضَ بيانُ اللهِ عن الكافرين، كما أعرَضوا هم عنِ الله

بلاغةُ الالْتفاتِ في قراءة (يتذكَّرون):

جاءتْ قراءةُ (يتذكَّرون) - بتحتيَّةٍ في أوَّله ثمَّ فوقيَّةٍ[6]- على طريقةِ الالْتفاتِ من الخطابِ إلى الغَيْبة، حيث أَعْرَضَ عنهم، ووجَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/18.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/66، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.
(6) هي قراءة ابن عامر، وقرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾، ينظر: محمّد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 151.

الكلام على غيرِهم من السَّامعين إلى النَّبيِّ ﷺ والمسلمين[1]. وفي هذا الالْتفاتِ إيذانٌ باقْتضاءِ سُوءِ حالِهم في عدمِ الامْتثالِ بالأمرِ والنَّهي، وفي صرفِ الخطابِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرِهم؛ ازدراءٌ بهم وبحالهم، فهم أقلُّ شأنًا، وأوْضَعُ مكانةً عندَ مُخاطِبِهم، ليُوجِّهَ لهم خطابَه مباشرةً[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَوْلِياء) و(شُركاء) و(أَنْداد) و(آلهة):

الوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُلَ شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينَهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلك للقُربِ، من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيث الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعْتقاد.

اسْتخدامُ (أَوْلياء) في السِّياقِ، أعمُّ دَلالةً في أيِّ ولايةٍ غيرِ ولايةِ اللهِ

ونفى اللّهُ الولايةَ بين المؤمنين والكافرين في غير آية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، ومنه الآيةُ الَّتي معنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾[3].

ولفظ شُركاء، من الشِّركة والمُشارَكة، وهي خلطُ المِلْكَيْن، وقيل: هو أنْ يوجدَ شيءٌ لاثْنَيْن فصاعدًا، عينًا كان ذلكَ الشَّيء، أو معنًى، قالَ تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِىٓ أَمۡرِى ٣٢﴾ [طه: 32]، وجمعُ الشَّريك: شُركاء، قال تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزُّمر: 29][4].

أمّا (الإلَهُ) فهو المعبودُ، وإلَهٌ حقُّهُ ألَّا يُجمَعَ؛ إذْ لا معبودَ سوى اللّه، لكنَّ العربَ استعملوا اللفظ جمعًا، فقالوا: الآلهة، وقالَ تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: 43][5].

وبالنَّظرِ في الفروقِ بين تلكُمُ المفرداتِ السَّابقةِ، يظهرُ جليًّا أنَّ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/18.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/211.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ولي).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شرك).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (أله).

كلمةَ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾، أَوْلى من غيرِها، ممَّا يُقاربُها في المعنَى، ولكنَّه لا يُحقِّقُ المرادَ من السِّياق، فليس المقصودُ من النَّهي الواردِ بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ النَّهيَ عن النِّدِّيَّةِ أو الشَّراكةِ أوِ الآلهة، وإنَّما المرادُ النَّهيُ عن اتِّباعِ أيِّ وِلايةٍ غيرِ وِلايةِ اللهِ، فيما أنزلَ في الكتاب مِنْ دينِهِ وشريعتِهِ وأحكامِه.

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾ [الأعراف: 4 - 5]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإعراضُ عنِ اتِّباعِ ما أنزلَ الله ظُلْمٌ للنَّفسِ يَعْقُبُه العذابُ والهلاكُ

لَمَّا أمرَ اللّٰهُ تعالى رسولَه ﷺ في الآيةِ السَّابقةِ بالإنْذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القومَ بالقَبولِ والمتابعة؛ ذكرَ في هاتيْنِ الآيتَيْنِ ما في تركِ المتابعةِ والإعراضِ عنها من الوعيدِ مع المبالغةِ في إحلالِه بأهلِه، مبيِّنًا حالَ أولئكَ المعرضينَ عندما يأتيهمُ العذابُ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَم﴾: هو عبارةٌ عنِ العدد، ويُستعمَلُ في بابِ الاسْتفهام، ويُنصَبُ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رجُلًا ضربتَ؟ ويُستعملُ في بابِ الخبر، ويُجَرُّ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رَجُلٍ! ويقتضي معنَى الكَثْرَة، وقد يدخلُ (مِنْ) في الاسْمِ الَّذي يُمَيَّزُ بعدَه، كما في قولِه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾[2].

2) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: القَرْيَةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهلَ القرية[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 117]، وقولُه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، فإنَّها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/198، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/356.
(2) الرّاغب، المفردات: (كم)، والرّازي، مختار الصّحاح: (كمم).
(3) وهو قولُ جُلِّ المفسِّرين، ويرى المبرّدُ في كتابه: ما اتَّفق لفظُه واختلفَ معناه من القرآن المجيد، ص: 77، أنَّ المرادَ هنا القومُ أنفسُهم.

اسْمٌ للقرية[1]، فأصلُ هذه الكلمةِ من قولنا: قَرَى الماءَ في الحَوْضِ يَقْرِيهِ قَرْيًا، وقَرَى: جَمَعَه، وقرَى الشَّيءَ في فمِه: جَمَعَهُ، وقُرْيانُ الماءِ: مُجتَمعُهُ[2].

3) ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾: هَلَكَ: الهاءُ واللَّامُ والكافُ: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط، ومنه الهلاكُ: السُّقوط، ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ، وهلَك الشَّيءُ يَهلِكُ هلاكًا وهُلُوكًا ومَهْلِكًا، بفتح اللَّامِ وكسرِها وضمِّها، وتَهلُكَةً بكسرِ اللَّام وضمِّها، والاسْمُ: الهُلْكُ، والتَّهلُكَةُ من نوادرِ المصادرِ لا تجري على قياس[3].

4) ﴿بَأۡسُنَا﴾: بأْسٌ: الباءُ والهمزةُ والسِّينُ أصلٌ واحدٌ، والشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحربِ، ورجلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيس، أي: شجاع، والبَأْسُ: العذاب، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديدٌ، والبَأْساءُ: الشِّدَّة، وبمعنَى الشِّدَّة جاءَتْ كلمةُ (البُؤْسُ)، أي: الشِّدَّة في العَيش[4]، وقولُه في الآية: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ أي: عذابُنا[5].

5) ﴿بَيَٰتًا﴾: أَصلُ البَيْتِ: مأوَى الإنسانِ باللَّيل؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ: أقامَ باللَّيل، وقد يُقالُ للمَسْكَنِ: بيتٌ من غيرِ اعْتبارِ اللَّيلِ فيه، ويُقال: باتَ يفعلُ كذا؛ إذا فعلَهُ ليلًا[6]، فقوله تعالى: ﴿بَيَٰتًا﴾، أي: ليلًا في حالةِ النَّوم[7]، وعليه فالبَيَاتُ كلُّ ما كان بليْلٍ، وهو منصوبٌ على الوَقْتِ[8]. بَيَّتَ: قَدَّرَ بليْلٍ، يُقَال: بَيَّتَ فلَانٌ رَأْيَهُ؛ إِذا فكَّر فِيهِ لَيْلًا، وَمِنْه قَوْله جلَّ وَعزَّ: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾. أَي: لَيْلًا. وَكَذَلِك بيَّتَهُمُ الْعَدوُّ، والبَياتُ: الْإِيقاعُ بِاللَّيْلِ[9]، قال النَّحَّاس: "المعنى: فجاءهم العذابُ على غفلةٍ باللَّيلِ وهم نائمون"[10].

6) ﴿قَآئِلُونَ﴾: قِلْتُ قَيْلُولةً: نمتُ نصفَ النَّهارِ، أو موضعَ القَيْلُولةِ، والقائلةُ: الظَّهيرة، يُقالُ: أَتانا عندَ القائلة، ومنه (القَيْلُولَةُ) وهي النَّومُ في الظَّهيرة، يُقالُ: قالَ قَيْلُولَةً ومَقيلًا

(1) الرَّاغب، المفردات: (قرى)، والشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(2) الرَّاغب، المفردات: (قرى)، وابن منظور، لسان العرب: (قرا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بأس).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/265.
(6) الرَّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (بيت).
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/265، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(8) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/24.
(9) السِّجستاني، غريب القرآن المسمّى بنزهة القلوب، ص: 119.
(10) النّحاس، معاني القرآن: 3/9.

فهو قائلٌ، والقَيْلُ: شِربُ نصفِ النَّهارِ[1]، "وقال اللَّيث: القيلولة: نومةُ نصف النَّهارِ، وهي القائلة، وقد قال يَقيل مَقيلًا، والمقيل أيضًا: الموضع، قال: وقالت قريشٌ للنَّبيِّ ﷺ، قبل أن يَفْتَحَ اللّه عليه الفتوح: إنَّا لأكرمُ مقامًا وأحسن مقيلًا، فأنزل اللّه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: 24]"[2].

المَعنى الإجماليُّ:

التَّذكيرُ بهلاكِ القرى المكذِّبةِ على غفلةٍ منهم بليلٍ أو نهارٍ

حذَّر اللّهُ ﷻ عبادَه عقوباتِه للأُمَمِ الَّذين كذَّبوا ما جاءتهمْ به رُسُلُهم أنْ يُشابهوهم، فَيُصيبَهُم ما أصابَهم، وقد بيَّن تعالى أنَّ ذلك العذابَ الشَّديدَ جاءهم على حينِ غَفْلَةٍ، حيث لم يَخْطُرْ ببالهم الهلاكُ، ولذلك حين جاءهُمُ العذابُ لم يستطيعوا دفْعَه، ولا أَغْنَتْ عنهم آلهتُهُم الَّتي كانوا يَرْجونَها، ولم يُمَكَّنوا من إنكارِ ما كانوا يفعلونَه من الظُّلمِ والمعاصي، ولا كان دعاؤهم ربَّهُم عند نُزولِ العذابِ إلَّا اعترافًا بالظُّلم على أنفُسِهم، وحينها لا ينفعُهمُ الاعترافُ، ولا تُغني عنهم الضَّراعةُ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ على ما سبق:

غرضُ أسلوبِ التَّحذيرِ لكفَّارِ مكَّةَ، أن يَحلَّ بهم ما حلَّ بالغابرين

العطفُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ﴾، فيه تعريضٌ لأهلِ مكَّةَ الَّذين مَشَوْا على سَنَنِ تلك الأُممِ السَّابقةِ، في تكذيبِهم لدينِ اللّه، وإعراضِهم عن دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ، بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ، أولئك المكذِّبين الَّذين اتَّبعوا من دونِ اللّهِ أولياءَ[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (قيل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قيل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

فائدةُ مجيءِ (كم) الخبريَّة:

أفادتِ الكَثْرةُ في (كم) الخبريَّةِ في قوله تعالى ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بيانَ شُمولِ وقوعِ العذاب، بأهلِ قرًى كثيرةٍ، كذَّبتْ وعاندتْ رُسُلَ الله، وذلك بقصدِ العِبْرةِ والعِظَةِ لمن أتى بعدَهم، ومنهم أهلُ مكَّة[1]، ومفاد المعنى في هذا الملمح: أنَّ الله يقول: "لقد أهلكنا كثيرًا من القرى، بسبب عبادةِ أهلِها غيرَ الله، وسلوكهم غير طريقِه، وقد جاءهم عذابُنا في وقتِ غفلتِهم ليلًا، وهم نائمونَ، كما حدثَ لقومِ لوطٍ، أو نهارًا وهم مستريحونَ وقتَ القيلولة، كقوم شعيب"[2]. قال الشَّعراويُّ: "وساعة تسمع (كَمْ)، فاعرف أنَّ المسألةَ خرجتْ عن العدِّ، بحيثُ تستوجبُ أن تستفهمَ عنها، وهذا يدلُّ على أمرٍ كثيرٍ فوق العددِ، لكن عندما يكون العددُ قليلًا، فلا يُستفْهمُ عنه، بل يُعرفُ"[3].

أفادَ التَّكثيرُ شمولَ العذابِ كَثِيرًا من القُرى الكافرة

فائدةُ مجيءِ الخبرِ في ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

جاءَ الخبرُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ﴾، لتهديدِ المشركينَ الَّذين وُجِّهَ إليهمُ التَّعريضُ في الآيةِ السَّابقةِ والَّذين قُصِدوا من العُموم، فثُلِّثَ هنا بتَمْحيض التَّوجيه إليهم[4]، والغرضُ في الأساسِ، هو إتاحةُ الفرصة للعبرة، وإفساحُ المجالِ للعظة، وذلك أمرٌ متاحٌ في كلِّ العصور، وهو ما أشارَ إليه صاحب التَّفسيرِ الوسيط، منْ "أنَّ العاقلَ، هو الَّذي يحافظُ على أداء الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، ولا يأمن صفوَ اللَّيالي، ورخاءَ الأيَّام، بل يعيش حياتَه، وصلتُه بربِّه مبنيَّةٌ على الخوف والرَّجاءِ، فإنَّهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: 99]"[5].

الوعيدُ للمشركينَ بالخبرِ بغرضِ العبرةِ والعظةِ

---

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/320.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/32.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي (الخواطر): 7/44.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.
(5) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/46.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِّن﴾ في ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

إفادةُ (من) التَّأْكِيدَ تزيدُ في الإبانةِ ما يفيدُ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ زائدةٌ[1]، وأفادَ وجودُها التَّأكيدَ والتَّمييز، أي: كم قريةٍ أهلكناها![2] والحرف الزَّائدُ ﴿مِّن﴾ يُبَيِّنُ توالي الهلاك عبر الأيامِ واللَّيالي في كثيرٍ من الأمم الخوالي، وهو قانون سنَّةُ اللّهُ لعقوبةِ من رفضَ الإيمانَ، وجاهرَ بالكفرانِ.

موقعُ لفظِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ وتنكيرُه:

أفادَ التَّنكيرُ العمومَ والإحاطةَ والتَّكثيرَ

قولُه: ﴿قَرۡيَةٍ﴾ اسمٌ مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا على أنَّه تمييزٌ[3]، كما أفادَ تنكيرُ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ العمومَ والشُّمول، وخاصَّةً لِسَبْقها بـ ﴿وَكَم﴾ الَّتي أفادتِ التَّكثيرَ، كأنَّ بيانَ اللّهِ قال: وكثيرٌ من القُرى أهلكناها، أوْ ما من قريةٍ إلَّا أهلكناها[4].

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الدَّلالةُ على إرادةِ القيامِ بالفعلِ وعلى عزمِ الفاعلِ على الفعل

فعلُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في معنَى الإرادةِ بحصول مَدْلولِه، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في ظاهرِ معناه، واسْتعمالُ أهلِها بما أصابَ القُرَى وأهلَها، ولأنَّ لتعليق فعلِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بالقريةِ دونَ أهلِها لقصدِ الإحاطةِ والشُّمول، غِنًى عن أدواتِ الشُّمول، فالسَّامعُ يعلمُ أنَّ المرادَ من القرية أهلُها؛ لأنَّ العبرةَ والموعظةَ إنَّما هي بما حصلَ لأهلِ القرية، ونظيرُها قولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ونظيرُهما معًا قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الأنبياء: 6]، فكلُّ هذا من الإيجازِ البديع، والمعنَى على تقديرِ المضاف، وهو

(1) العكبريّ، الإملاء: 1/268.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.

(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

تقديرُ معنى(1). ويمكن أن يكونَ على سبيلِ المجازِ العقليِّ حيثُ أسندَ الإهلاكَ إلى القريةِ، وأرادَ أهلها لعلاقة الحاليَّة والمحليَّة.

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾:

أفادَ العطفُ بالفاءِ التَّرتيبَ بين الفعلِ وسببِه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ عاطفةٌ لجملتِها على جملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، وأصلُ العاطفةِ أن تُفيدَ ترتيبَ حصولِ معطوفِها بعد حصولِ المعطوفِ عليه، والإتْيانُ بحرفِ التَّعقيبِ (الفاء) للدَّلالةِ على عدمِ التَّريُّث، وحصولِ الفعلِ بعدَ سببِه. وقد يكونُ التَّرتيبُ في فاءِ العطفِ التَّرتيبَ الذِّكْريَّ، أي: ترتيبَ الإخبارِ بشيءٍ عن الإخبارِ بالمعطوفِ عليه، ففي الآية أخبرَ عن كيفيَّةِ إهلاكِهم بعد الخبرِ بالإهلاك، وهذا التَّرتيبُ هو في الغالب تفصيلٌ بعد إجمال، فيكونُ من عطفِ المفصَّلِ على المجمَلِ(2).

عِلَّةُ تقديمِ الإهلاك على مجيءِ البأسِ في الآيةِ الكريمةِ:

المرادُ إرادةُ الإهلاك لإفادةِ العزمِ على القيامِ بالفعل

كيف يتقدَّمُ ذكرُ الإهلاكِ على ذكرِ البأس، والإهلاك حاصلٌ بعدَه أو معه؟ والجوابُ: هو أن قولَه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، معناه: أَرَدْنا إهلاكَها كقولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، أي: أردتُم القيامَ إلى الصَّلاة(3)، والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفعلِ، بذكرِ الصِّيغةِ الَّتي تدلُّ على وقوعِ الفعلِ، يكونُ لإفادةِ عزمِ الفاعلِ على الفعل عزمًا لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19، ومن المفسّرين من يرى عدم الحاجة إلى تقدير المضاف، كالزَّمخشري في الكشَّاف: 2/67، وحيث قال: "فإن قلتَ: هل يُقدَّرُ حذفُ المضاف الَّذي هو الأهل قبل قرية أو قبل الضَّمير في أهلكناها؟ قلتُ: إنَّما يقدَّر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإنَّ القرية تُهلَك كما يُهلك أهلُها". وهذا مَنْحى السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/248. والتَّعبيرُ بالقرية؛ لأنَّها أعظم في العقوبة إذا هلكَ البشر وقريتهم، وخاصَّة أنَّه بيَّن آخر الآية بقوله: ﴿أَوۡ هُمۡ﴾ أنَّ البشر داخلون في الهلاك، ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/373.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20. ولمَّا لم يقعِ الاتّفاقُ بين بعض المفسّرين، على موقع الفاء هنا، نتج عنه اختلافٌ في تكييف موقع الجملة بمفرداتها، فالفرَّاء لا يرى أنَّ الفاء تفيد التَّرتيب، ولذلك قال: "يُقال: إنَّما أتاها البأس قبل الإهلاك، فكيف تقدَّمَ الهلاك؟ قلت: لأنَّ الهلاكَ والبأس يقعان معًا، كما تقول: أعطيتني فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبلَه، إنَّما وقعا معًا، فاستجيزَ ذلك، وإن شئت كان المعنَى: وكم من قريةٍ أهلكناها فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان وإنَّما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى"، يُنظر: الفرّاء، معاني القرآن: 1/371.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والعكبري، الإملاء: 1/268، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199.

يتأخَّرُ عنه العمل، بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حصولِ المرادِ للإرادةِ لتشابههما(1).

بلاغةُ الاسْتعارةِ في الفعل (فجاءها):

استُعيرَ البأسُ لبيان شدَّةِ الحرب واشتدادِ أوارها

في قوله تعالى ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾، البَأسُ ما يحصُلُ به الألم، وأكثرُ إطلاقهِ على شدَّةِ الحساب، ولذلكَ سُمِّيتِ الحربُ البأساءَ، واسْتُعير المجيءُ لحدوثِ الشَّيءِ وحصولِه بعد أنْ لم يكن تشبيهًا لحُلولِ الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى مكانٍ بتنقُّلِ خطواته(2).

المواقعُ النَّحويّةُ لـ ﴿بَيَٰتًا﴾ بناءً على معنَى البَأسِ:

تنوُّعُ الموقعِ الإعرابيِّ، يُفسحُ المجالَ لتنوُّعِ المعنى وتأويلاته

قولُه تعالى: ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدرٌ منصوبٌ على الحالِ من البَأس بمعنَى بائتين، أي: جاءهُمُ البأسُ مُبَيِّتًا لهم، أي: جاءهُمْ ليلًا(3)، ويُطلقُ البَيَاتُ على ضَرْبٍ من الغارةِ تقعُ ليلًا، فإن كانَ المرادُ من البأسِ الاسْتعارةَ لشدَّةِ الحرب - كما تقدَّم آنفًا - كان المرادُ من البياتِ حالةً من حالِ الحرب، هي أشدُّ الغَزْو(4)، ويجوزُ أن يكونَ ﴿بَيَٰتًا﴾ منصوبًا على النِّيابةِ عن ظرفِ الزَّمان، أي: في وقت البَيَات(5)، ويجوزُ أنْ يكون مفعولًا له(6).

معنَى ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

تنوُّعُ العقاب وزمانه، يدلُّ على مطلق قدرة اللهِ في التَّصرُّف

لفظ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتَّنويعِ وتفصيلِ الجُمَل، أي: لتقسيم القُرى المُهلَكَة، أي: جاءَ إلى بعضِهم بأسُنا وإهلاكُنا ليلًا، وإلى بعضِهم الآخرِ نهارًا، وإنَّما حذفوها لاسْتثقالهم نَسَقًا على نَسَق(7)، والمقصودُ من هذا التَّقسيمِ تهديدُ أهلِ مكَّة، حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كُلِّ وقتٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20 - 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/249.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.
(6) الإملاء للعكبريّ: 1/268، والدُّرُّ المصون: 5/250.
(7) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والعكبري، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250.

لا يَدْرونَ متى يَحِلُّ بهمُ العذاب، بحيث لا يَأْمنونَ في وقتٍ ما[1].

ويمكنُ أنْ يكونَ معنَى (أو) للتَّخييرِ أوِ الإباحة، أي: إنَّ (أوْ) دخلتْ هنا على جهةِ تصرُّفِ الشَّيءِ ووقوعه، إمَّا مرَّةً كذا، وإمَّا مرَّةً كذا، فهي في الخبرِ هَاهُنَا بمنزلة (أوْ) في الإباحة، تقولُ: جالسْ زيدًا أوْ عمرًا، أي: كلُّ واحدٍ منهما أهلٌ أنْ يُجالَس[2].

سرُّ العدولِ عنِ (الواو) إلى ﴿أَوۡ﴾ في قوله ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

العـدولُ مفيدٌ عندَ الاستثقالِ وسنوحِ مبدأِ التَّخييرِ

حُذفت الواوُ من الحالِ المعطوفة على أختها، أي: فجاءها بأسُنا بَيَاتًا وهم قائلون، وأُبدلتْ بـ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ وذلك استثقالٌ لاجتماع العاطِفَين، فإنَّ واوَ الحال حرفُ عطفٍ قدِ اسْتُعيرتْ للوَصْل، لا اكتفاءً بالضَّمير كما في: جاءني زيدٌ هو فارس، فإنَّه غيرُ فصيح، وإنَّما الفصيحُ أن يُقال: جاءني زيدٌ وهو فارسٌ[3]. و﴿أَوۡ﴾ هَاهُنَا أحسنُ من (الواو)؛ لأنَّ الواوَ تتضمَّنُ اجتماعَ الشَّيئَيْن، لو قلتَ: ضربتُ القومَ قيامًا وقعودًا؛ لَأَوْجَبَت الواوُ أنَّكَ ضربتَهم وهم على هاتَيْنِ الحالتَيْن، وإذا قلتَ: ضربتُهم قيامًا أوْ قعودًا، ولم تكنْ شاكًّا، فإنَّما المعنَى: أنَّكَ ضربتَهم مرَّةً على هذه الحال، ومرَّةً على هذه الحال، وهذا هو المرادُ هنا في هذه الآية[4].

نكتة التّعبير بالحالِ المفرد ﴿بَيَٰتًا﴾ والحالِ الجملة ﴿هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

من البيانِ الفصيحِ العدولُ من صيغةٍ إلى أخرى للإبانة والتَّوضيحِ

قولُه تعالى: ﴿هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ لعطفِها على ﴿بَيَٰتًا﴾، بـ﴿أَوۡ﴾[5]، كلتاهما واقعتان في موقع نصبٍ على الحال، وهذا العدولُ بسببِ وضعِ الجملة مع صاحبِ الحال، هل هي وصفٌ له، أو فيها زيادةٌ على وصفه؟ فكلا القولَيْن: ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿هُمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/372، والزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/321.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.

(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.

﴿قَآئِلُونَ﴾ حال، لكنَّ الأوَّلَ مفردٌ والثَّاني جملة، وإذا كانت جملةُ الحالِ اسْميَّةً، وهي إمَّا أن تكونَ مُنحلَّةً إلى مفردَيْن: أحدُهما وَصْفُ صاحبِ الحال، فهذه تجرُّدُها عن الواو قبيحٌ؛ لأنَّ الأصلَ في فصيح الكلامِ أنْ يُجاءَ بالحالِ مفردةً؛ إذْ لا داعيَ للجملة، نحوَ: جاءني زيدٌ هو فارسٌ؛ إذ يعني أنْ تقولَ: فارسًا، وأمَّا إذا كانتِ الجملةُ اسميَّةً فيها زيادةٌ على وصفِ صاحبِ الحال، وفيها ضميرُ صاحبِ الحال، فخلوُّها عن الواو حسنٌ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ حذفُ الواوِ بين الحالَيْنِ هنا، لدفعِ اسْتثقالِ توالي حَرْفَيْن من نوعٍ واحد[2].

سرُّ اخْتيارِ وقتَي البياتِ والقيلولةِ دونَ غيرِهما:

تحديدُ وقتي الرَّاحةِ لنزولِ العذابِ، أَدْعى لتصوُّرِ عظمِ المفاجأةِ

خصَّ بيانُ اللّهِ تعالى هذيْن الوقتيْنِ بالذِّكر: وقتَ البَيَات، ووقتَ القَيْلولة؛ لأنَّهما وقتا الغفْلةِ والدَّعة، فيكونُ نزولُ العذاب فيهما أَشَدَّ وأفظع[3]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنغِّصُ على المكذِّبينَ استمراءَ نعيمِ الوقتَيْن، كأنَّ بيانَ اللّهِ تعالى يقول: يا معشرَ أهلِ مكَّة كونوا على حذَرٍ أن تُصيبَكم مثلَ ما أصابهم، فإنَّكم وإيَّاهم سواءٌ[4].

معنَى الفاءِ في جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ﴾:

الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ أوِ المعنويِّ، وكلاهما مُهمَّان في تجليَةِ المعنى

يصحُّ أن تكونَ الفاءُ هنا للتَّرتيبِ الذِّكريِّ تبَعًا للفاءِ في قولِه: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾؛ لأنَّه من بقيَّةِ المذكور، ويصحُّ أن تكونَ للتَّرتيب المعنويِّ؛ لأنَّ دعواهُم ترتَّبتْ على مجيءِ البأس[5]، وفي كلا التَّأويلين فإنَّ الخطب جللٌ، والبأس حاصلٌ بقرارٍ قَدَريٍّ تدبِّره القدرةُ الإلهيَّة العليا، لتُحِلَّ العذَاب بكلِّ من كذَّبَ بالكتاب، وما يسعُهُم حينها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/250.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/67، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/331.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.

إلَّا الاعترافُ بظُلْمِهم، والإقرار بما كانوا يقولون ويفعلون، ومعنى السِّياق: أنَّهم "لم يقدروا على ردِّ العَذاب، حِين جَاءَهُم العَذَاب، وَكَانَ حَاصِلُ أَمرهم أَن اعترفوا بالخيانة حِين لَا ينفعُ الِاعْتِراف"[1].

دَلالةُ التَّركيبِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾:

اعترافُ الكفرةِ ببطلانِ شركِهم وظُلمِهم دليلٌ على أنَّ الباطلَ كان زهوقًا

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنَّهم لم يُحصِّلُوا ممَّا كانوا يَنْتحِلونَه من مذهبِهم وطريقتِهم ومنهجِهم في ادِّعاء أنَّهم على حقٍّ في تعدُّدِ آلهتِهم، وأنَّ عبادتَهم لها حقٌّ - إلَّا الاعترافَ بأنَّهم مُبطِلونَ ظالمون[2].

بلاغةُ القَصْرِ في الاسْتثناءِ بعدَ النَّفي:

الاعترافُ بالاقترافِ سيِّدُ الأدلَّةِ مهما تكن التَّعِلَّةُ

جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ من قبيل القصر المكوّن من استثناء بعد نفي، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، فيه بيانُ أنَّ ذلك القولَ بعد نَفْيِ الدَّعوَى مقدِّمةُ التَّوبة؛ لأنَّ التَّوبةَ يتقدَّمُها الاعترافُ بالذَّنب، فهمُ اعْترفوا على نيَّةٍ أن ينتقلوا من الاعترافِ إلى طلبِ العفو، فعُوجِلوا بالعذاب، فكانَ اعترافهم - وهو آخرُ قولِهم في الدُّنيا - مقدِّمةً لشهادةِ ألسنتِهم عليهم في الحشر، وبيانًا لعنادِهم وكِبْرِهِم اللَّذَيْن كانا يَصُدَّانِهم عن الإقلاعِ عن ظُلْمِهم[3].

دَلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ في قوله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾:

المصدرُ وإن تأخَّر ذكرُه، فَالاهْتِمَامُ بِهِ هُوَ المُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي السِّياقِ

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾، هو اسْمُ كان الَّذي أُفْرِغ له عملُ كان، وهو المترقَّبُ من السَّامعِ الاهتمامُ به ابتداءً، كأنَّ السَّامعَ يسأل: ماذا قالوا لَمَّا جاءهمُ البأس؟ فقيل له: كان قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دعاءَهُمْ، فأُفيدَ القولُ، وزيدَ عليه بأنَّهم فرَّطوا في الدُّعاء[4].

---

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/24.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/25.

نكتةُ تقديمِ خبرِ كان ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ على اسْمِها: ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾:

المحـصـورُ أولى بالتَّقدُّمِ الرُّتْبِيِّ، وهو لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأين

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾، هو اسمُ ﴿كَانَ﴾، وكلُّ موضعٍ جاء فيه المصدرُ المؤوَّلُ من أنْ والفعلِ محصورًا بعد كان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 82]، هو استعمالٌ مُلْتَزِمٌ غريبٌ، مُطَّرِدٌ في كلِّ ما وقعَ فيه جزءُ الإسنادِ، ذاتَيْن أُريدَ حَصْرُ تحقُّقِ أحدِهما في تحقُّق الآخر؛ لأنَّهما لما اتَّحدَا في الماصَدَق، واسْتويا في التَّعريف، كان المحصورُ أوْلى باعتبار التَّقدُّمِ الرُّتْبِيِّ، ويتعيَّنُ تأخيرُه في اللَّفظ؛ لأنَّ المحصورَ لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأيْن(1).

معنَى (الدَّعوى) ونكتتُها في نوعِ الاسْتثناءِ بين الاتِّصالِ والانْقطاع:

دلالـةُ الدَّعـوى بمعنَى الدُّعاءِ، ودلالتُها بمعنى الادِّعاءِ

الدَّعْوَى: اسْمٌ بمعنَى الدُّعاء، كقولِه تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10]، وهو كثيرٌ في القرآن، والدُّعاءُ هنا لرفعِ العذابِ، وذلكَ أنَّ شأنَ النَّاسِ إذا حلَّ بهم العذابُ أن يَجْأروا إلى اللّهِ بالاسْتغاثة، ومعنَى الحصرِ أنَّهم لم يستغيثوا باللّهِ، ولا توجَّهوا إليه بالدُّعاء، ولكنَّهم وضَعوا الاعْترافَ بالظُّلم موضعَ الاسْتغاثة، فلذلكَ اسْتثناهُ اللّهُ من الدَّعوى. ويجوزُ أن تكونَ الدَّعوَى بمعنى الادِّعاء، أي: انْقطعتْ كلُّ الدَّعاوَى الَّتي كانوا يَدَّعونَها من تحقيقِ تعدُّدِ الآلهةِ، وأنَّ دينَهم حقٌّ، فلم تبقَ لهم دَعْوى، بلِ اعْترفوا بأنَّهم مُبطِلون، فيكونُ الاسْتثناءُ مُنقطعًا؛ لأنَّ اعْترافَهم ليس بدَعْوَى(2)، والمقصودُ بها هَاهُنَا يَحْتَمِلُ الأمرَيْنِ جميعًا، ويَحتمِلُ أيضًا أنْ يكونَ بمعنَى الاعْتراف(3)، قال ابن الأنباريِّ: وللدَّعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الادِّعاءُ. والثَّاني: القول والدُّعاء. قال الشَّاعر:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318 - 319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/374، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/254.

إِذَا مَذِلَتْ رِجْلي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي *** بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُونُ[1]

معنَى لفظِ ﴿إِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

ظرفُ الزّمانِ مهمٌّ لتحديدِ حيثيّاتِ الدّلالةِ في وصفِ الحالةِ

﴿إِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ بمعنى (حين) وهي ظرفُ زمانٍ منصوبٌ بـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾[2]، والظَّرفيَّةُ مرتبطةٌ هنا بالدَّعوى عند نزول البأس، ومعنى دعواهم، أي: دعاؤهم، "قَالَ سيبويهِ: تقول: اللَّهُمَّ اجْعَلنِي في دَعْوَى الْمُسلمين، أَي: في دُعَاء الْمُسلمين، فَقَوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مَعْنَاهُ: لم يقدروا على ردِّ الْعَذَاب حِين جَاءَهُم الْعَذَاب، وَكَانَ حَاصِل أَمرهم أَن اعْتَرَفُوا بالخيانة"[3]، وهذا أمرٌ تحكمه ملابساتُ الأوانِ، ومقتضياتُ الظَّرفِ الَّذي تزامن مع وقوعِ العذاب، حيث لا مفرَّ منه، ولا مندوحةَ عنه.

بلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

مجيءُ البأسِ يستعارُ لحصولِ الشَّيءِ القادمِ، ووقوعِ آثارِه

كلمةُ البأسِ تُوحي بالشِّدَّةِ الَّتي يحصل بها، ومعها الألمُ والعذاب، ولذلكَ اسْتُعيرَ هنا في هذا المقامِ المجيءِ للبأس، بمعنى حدوث الشَّيءِ ووقوعِه، بعد أن لم يكن، وذلك تشبيهٌ لحلول الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى آخر، وكأنَّ لهُ قدمين يتنقَّل بهما[4].

موقعُ الجملةِ الاعْتراضيَّة ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، وبلاغتُها:

نزولُ العذابِ متحقّقٌ على الظَّالمين، ولو اعْترفوا واسْتغاثوا

جاءتْ جملةُ: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ اعتراضيَّةً بين قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، وهم في حالِ دعائهم واسْتغاثتِهم ربَّهم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، باعترافِهم بظُلمِهم، وتَندُّمِهم وتحسُّرِهم على كُفرِهم وشركِهم، وما بين الجُملتَيْن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/102، والبيت غَيْرُ مَعْزُوٍّ إلى قائله، يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة: 14/435، وابن منظور، اللسان: (مذل)، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/254، ومعنى (مذِلَتْ): خَدِرَت.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.

إيذانٌ بِنُزولِ العذابِ عليهم، وأنَّ هذا العذابَ لا يَنزِلُ إلَّا على الظَّالمين[1].

غرضُ الخبرِ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مفادُ الخبرِ إنشاءُ الإقرارِ على أنفسِهم بالظُّلم

صيغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، تُومِئُ إِلَى الإِقْرَارِ المحضِ على أنفسِهم بالظُّلم، فهو خبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإقرار، وهو إقرارٌ مَشوبٌ بحسرةٍ وندامة[2]، والمعنى: "﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي: إلَّا اعترافَهم بظلمهم، فيما كانوا عليه، وشهادتَهم ببطلانه، تحسُّرًا عليه وندامةً، وطمعًا في الخلاص، وهيهاتَ ولاتَ حين نجاة"[3].

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

غرضُ التَّأكيدِ تحقُّقُ ظلمِ المشركين، والعبرةُ والعظةُ للمخاطَبين

جاءتِ المؤكِّداتُ لتحقيق الظُّلم للنَّفس، وإثباتِه وبيانِ اتِّعاظ المُخاطَبين، فمِنَ الأوَّلِ بيانُ أنَّهم ظلموا أنفسَهم بالعنادِ وتكذيبِ الرُّسُل، والإعراضِ عن الآيات، وصمِّ الآذانِ عن الوعيدِ والوعظ، وذلك يجمعُه الإشراكُ باللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13].ومن الثَّاني وهو بيانُ موضعِ الاعتبارِ للمخاطَبين بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: 3]، أي: إنَّ اللّه لمْ يظلمْهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33] وهو يجمعُ الأمرَيْن معًا: تأكيدَ ظُلمهم لأنفُسِهم، وعدمَ ظُلم اللّهِ لهم، لِيَنْأَى المخاطَبونَ عن ظُلمِهم لأنفُسهم، فَيتَّعظُوا ويَعتبِرُوا[4].

بلاغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

بلاغةُ اجتماعِ المعنيَيْنِ المجازيِّ الصَّريحِ والكِنائيِّ

الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مُستعمَلٌ في معناه المجازيِّ الصَّريحِ، ومعناهُ الكِنائيِّ، والمعنَى المجازيُّ هنا يجتمعُ مع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/24.

الكنايةِ، باعْتبارِ كونِه مجازًا صريحًا. وهذا القولُ منهم يقولونَه لغيرِ مُخاطَبٍ مُعيَّن، كشَأْنِ الكلامِ الَّذي يجري على اللِّسانِ عندَ الشَّدائد، كالوَيْلِ والثُّبُور، فيكونُ الكلامُ مُستعمَلًا في معناهُ المجازيِّ، أوْ يقولُه بعضُهم لبعضٍ بينَهم على معنَى التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على الخطأ، وإنشاءِ النَّدامة، فيكونُ مُستعمَلًا في المعنَى المجازيِّ الصَّريح، والمعنَى الكِنائيِّ كما تقدَّمَ آنفًا[1].

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

إفادةُ اعترافِهم بشركِهم الَّذي هو أقْبحُ الظُّلم

جَرَى قولُه تعالى: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ مَجْرَى التَّعليلِ لنزولِ البأسِ بهم، والاعْترافِ بأنَّهم جَديرونَ به لا مَحالة، فهم ظالمون بِشركهم، وأيُّ ظلمٍ أَشْنعُ من الشِّرك! ولذلك أَطْلقوا على الشِّركِ حينئذٍ الاسْمَ المُشْعِرَ بِمَذَمَّتِه الَّذي لم يكونوا يُطلقونَه على دينِهم من قبل[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(القَرْيَة) و(المدينة):

القَــرْيــةُ: الـنَّـاسُ ومكانُ اجْـتـمـاعـهـم، وهـي أجـدرُ في الاستعمالِ في هذه الآيةِ

القَرْيَةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، أي: أهلَ القَرْيةِ[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ: القومُ أنفُسُهم، وجمعُ القرية: القُرَى، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 117] [4].

والأَصْلُ في كلمةِ (القرية) من قولِنا: قَرَيْتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعتُه، وقَرَى الشَّيءَ في فمِه: جَمَعَه، وقُرْيانُ الماء: مُجتَمَعُه[5].

وأمَّا المدينةُ: ففعيلةٌ عندَ قوم، وجَمْعُها مُدُنٌ، ومَدَائنُ، ومُدْنٌ، ومُدُنٌ، وقد مَدَنْتُ مَدِينَةً، وناسٌ يجعلونَ الميمَ زائدة، قالَ تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(3) الرَّاغب، المفردات: (قرى).
(4) المبرِّد، ما اتَّفق لفظُه واختلفَ معناه، ص: 77.
(5) الرَّاغب، المفردات: (قرى)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرا).

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [: 101]، ومَدَنَ بالمكان: أقامَ به، وقيل: هي من دِينَت، أي: مُلِكَت[1]، ومن بيانِ الفرقِ بينَ الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ كلمة (القرية) أَوْلى بالسِّياق من كلمة (المدينة) حيث المرادُ - كما سبق - أهلُ القَرْية، والقَرْيةُ نفسُها.

(البأس) و(العقاب) و(العذاب):

البأسُ: الشِّدَّةُ مع العذابِ، ويناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ الَّذي وردَ في السِّياق

البأس: الشِّدَّةُ في الحرب، ويجري على العُدَّة من السِّلاح وغيرِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ [الحديد: 25]، ويُستعمَلُ في موضعِ الخَوْف مجازًا، فيُقالُ: لا بأسَ عليك، أي: لا خوفَ عليك، ولا بأسَ في هذا الفعل، أي: لا كراهةَ فيه، والبأسُ: العذاب[2]. والعقابُ: يُنبِيءُ عن استحقاقٍ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّه عقيبَ فعله، ويجوزُ أنْ يكونَ العذابُ مُستحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، وأصلُ العقاب: التُّلُوُّ، وهو تأديةُ الأوَّلِ إلى الثَّاني، يُقال: عَقِبَ الثَّاني الأوَّلَ؛ إذا تلاه، وعَقِبَ اللَّيْلُ النَّهارَ، واللَّيلُ والنَّهارُ عَقيبان، وأَعْقَبَه بالغِبْطةِ حَسْرةً إذا أبدَله بها، وفي التَّنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النَّمل: 10]. والعقابُ يقتضي بظاهرِه الجزاءَ على فعلِ المعاقَب؛ لأنَّه من التَّعقيب والمعاقَبة[3]، والعذابُ ليس كذلك، إذْ يُقال للظَّالمِ المُبتَدِي بالظُّلم: إنَّه معذَّب، وإنْ قيلَ: مُعاقَب، فهو على سبيلِ المجازِ لا الحقيقة، فبينَهما عمومٌ وخُصوص[4]. والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، وقد عذَّبه تعذيبًا: أكثرَ حَبْسَه في العذاب، قالَ تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النَّمل: 21]، وأصلُ العذاب: هو من قولِهم: عَذَبَ الرَّجُلُ: إذا ترك المأكلَ والنَّوم، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمْلُ الإنسانِ أنْ يُعذَّب، أي: يجوعَ ويَسْهَر. وقيل: أَصْلُه من الضَّرْب،

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (مدن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/328، والعسكريّ، الفروق، ص: 89.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 364، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (عقِب).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 365.

وقيل: عذَّبْتُه: كدَّرْتُ عيشَه[1]. والَّذي يظهرُ جليًّا من بيان الفروق بين تلكُمُ الكلمات أنَّ (البأْسَ) أشدُّها وطئًا، وأقومُها قيلًا، فيما يناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ، والإهلاكِ الَّذي وردَ في السِّياق.

(بَيَاتًا) و(قائِلُونَ):

البياتُ: الرَّاحةُ في اللَّيل، والقيلولةُ: النَّوم والرَّاحةُ في نصفِ النَّهار

البَيْتُ: مأوى الإنسانِ باللَّيل، ومعنَى باتَ: أظلَّهُ المَبيتُ، وأَجَنَّهُ اللَّيل، سواءٌ نامَ أم لم ينَم، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان: 64][2]. وأمَّا القَيلولة: فهي النَّوْمُ في الظَّهيرة، أي: في نصفِ النَّهار، ولذلكَ كانَ لكلِّ كلمةٍ ما تختصُّ به من وقت، فالبياتُ يكونُ في اللَّيل وهو وقتُ الرَّاحةِ والدَّعَة، والقَيْلولةُ تختصُّ بالنَّومِ في مُنتَصفِ النَّهار، وهو وقتُ الرَّاحةِ كذلك، فلا كلمةُ اللَّيلِ تُجْزئُ في ذِكْرِها عن كلمةِ ﴿بَيَٰتًا﴾، ولا كلمةُ النَّهارِ تُجزِىء عن كلمةِ ﴿قَآئِلُونَ﴾. فاخْتيارُ السِّياقِ لِتَيْنِكَ الكلمتَيْنِ أَوْلَى وأَوْفَى به من غيرِهما من الكلمات.

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عذب).

(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 318، والكفويّ، الكلّيات: 4/368، ولامنس، الفرائد، ص: 34.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمَّا ذكر الاتِّباعَ والعقابَ؛ أبانَ أنَّه يحاسبُ الرُّسلَ وأقوامَهم بعلمٍ وإحاطةٍ

لَمَّا أمرَ اللَّهُ سبحانه وتعالى الرُّسُلَ في الآيةِ الآنفة بالتَّبليغِ والبيانِ، وأمرَ الأُمَّةَ بالاهتداءِ والاتِّباع، وأزجى التَّهديدَ على تركِ القَبول والطَّاعةِ؛ ذكرَ نزولَ العذابِ في الدُّنيا، وأتبعَه بأنَّه تعالى يسألُ الكلَّ عن أعمالِهم يوم القيامة، وعن سببِ ظُلمِهم وتقصيرِهم على جهة التَّقريعِ والتَّوبيخِ للعصاةِ والمكذِّبين، وسيسألُ الرُّسُلَ المعصومين، فيضاعفُ لهم الإكرامَ، لبراءتهم من مُوجباتِ التَّقصير، كما يُضاعفُ الخِزْيَ والإهانةَ للكفَّارِ بمَا اقترفوه من كفرٍ وآثام، حيث يبيِّنُ لهم ما أعْلنوهُ وأسرُّوه من أعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنة؛ لأنَّه تعالى ما كان غائبًا عن أحوالِهم، بل كان عَالِمًا بها، وبتفصيلاتِها كلِّها، وهو الَّذي لا تخفى عَلَيهِ خافية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: القَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ، يُقالُ: قَصَصْتُ أثرَه، والقَصَصُ: الأَثَرُ، قالَ تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصَص: 11]، و"القِصَّةُ الخبرُ، والجمعُ: قِصَصٌ، وقد قصَّ عَلَيَّ خَبَرَهُ يَقُصُّه قَصًّا وقَصَصًا، وتقصَّصتُ كلامَه حفظتُه، وتقصَّصتُ الخبرَ تتبَّعتُه"[2]. وقصَّ الحديثَ واقتصَّه، أي: رواهُ على جهتِه، ويستعملُ استعمالَ المصدرِ في اقتصاصِ الحديث والأثر جميعًا[3]والقَصَصُ: الأخبارُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/200 - 201، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/358. (بتصرّف).
(2) ابن سيده، المخصّص: (قصّ).
(3) النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (قصص).

المُتتبَّعة، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62][(1)]. وبهذا المعنَى - وهو الإخبار - قولُه تعالى في الآية معنا: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، حيث يُنْطَقُ لهم كتابُ أعمالِهم بالحقِّ[(2)].

2) ﴿غَآئِبِينَ﴾: الغَيْبُ: كلُّ ما استَتَرَ عنك، يقال: اطلبهُ في ذلك الغيبِ من الأرضِ، أي: المُطْمَئِنِّ منها، والغَيابةُ: الموضعُ الَّذي يُستَتَرُ فيه[(3)]. (والغيب) ما غاب عن العيونِ، وإن كان محصَّلًا في القلوب[(4)]، وهو أيضًا مصدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها، إذا استَتَرت عن العَيْن. واستُعمِلَ في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّة، وعمَّا يَغيبُ عن علمِ الإنسانِ بمعنى الغائب، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾ [النَّمل: 75][(5)]، ومنه قولُه تعالى في الآيةِ معنا: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، أي: عنِ الرُّسُلِ فيما بلَّغوا، والأُمَم فيما أجابوا[(6)].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

يُقسمُ اللّهُ ﷻ، فيقول: لَنسألَنَّ الأُمَمَ الَّذين أرسلنا إليهمُ المرسَلين عمَّا أجابوا رسُلَهم، ولَنسألَنَّ المرسَلين عن تَبليغهِم لرسالاتِنا، وعمَّا أجابتْهم به أُمَمُهم، كما قالَ تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، ولَنُخبرنَّ الخلقَ كلَّهم ما عَمِلوا بعلمٍ منَّا لأعمالِهم، لا يغيبُ عنَّا شيءٌ من أعمالِهم وأحوالِهم في أيِّ وقتٍ من الأوقات[(7)].

الحسابُ سَيَلْحَقُ الرُّسلَ وأقوامَهم، فيخبرونَ بالدَّقائقِ من العليمِ بالحقائقِ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (قصص).
(2) قاله ابن عبَّاس رضي الله عنهما، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 8/122.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/371.
(4) المُطَرِّزيُّ، المغرب: (غيب).
(5) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/266.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ عاطفةٌ، وهي لترتيبِ الأحوالِ الأُخرويَّةِ على الأحوالِ الدُّنيويَّة[1]، وهو بيانٌ لعذابِهم الأخرويِّ إثرَ بيانِ عذابِهم الدُّنيويِّ، وقد تعرَّضَ السِّياقُ، لبيانِ ما ينتظرُ المُكَلَّفِينَ جميعًا، لا فرقَ في السُّؤالِ بين مُرْسَلٍ وَمُرْسَلٍ إِلَيْهِ، وغَايَةُ ذَلِكَ تَهْوِيلُ الحالِ الَّتي سوف يؤولون إليها، والفاءُ رتَّبت ذلك النَّوْعَ مِنَ المآلِ المرتبطِ بَعْضُهُ ببعضٍ، والمترتِّبِ بَعْضُهُ على بعضٍ، وقد ظهر أنَّ ترتُّبَ الأحوالِ الأخرويّةِ على الدُّنيويَّةِ، كان ذِكرًا، حسَبَ ترتُّبها عليها وجودًا، ومفاد السِّياق قوله: (لنسألنَّ الأممَ قاطبةً، رسولًا ومرسلًا إليهم، قائلين لهم جميعًا: ماذا أجبتُم المرسلين؟)[2].

دلالةُ المؤكِّداتِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

غرضُ توالي المؤكِّدات إزالةُ الشَّكِّ، وتجسيدُ معاني الوعدِ والوعيد

ضمَّ قولُه تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ لامَ القسَم - وهي علامةٌ على أنَّه كلامٌ أُنُفٌ، انتقالٌ من خَبرٍ إلى خبر، ومن قِصَّةٍ إلى قصَّة - ونونَ التَّوكيدِ الثَّقيلة، وكلاهما تأكيدٌ للخبر، ولإزالةِ الشَّكِّ في ذلك[3]، وأفادت معانيَ الوعدِ للمؤمنين والمصلحين، ومعاني الوعيدِ للعصاةِ الَّذين لا يستجيبون لدعوةِ الرُّسلِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

الاسمُ الموصولُ ملمحٌ أسلوبيٌّ قويٌّ في التَّشويقِ والتَّفخيمِ

عبَّر بيانُ اللَّهِ عن أُمَمِ الرُّسُلِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لما فيه من معاني الإبهامِ ثمَّ الإعلامِ، وهو أسلوبٌ قويٌّ في التَّشويقِ، وقد يفيد معاني التَّعظيمِ والتَّفخيم، وقد يفيد معاني التَّحقيرِ والذَّمِّ؛ وهذا بحسب ما تقتضيه أحوالُ المقصودين، ولما تدلُّ عليه الصِّلةُ من

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/26.

التَّعليلِ، فإنَّ فائدةَ الإرسالِ هي إجابةُ الرُّسُل، فلا جَرَمَ أنْ يُسأَلَ عن ذلكَ، المرسَلُ إليهم[1].

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّة ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

إفادةُ تحقُّقِ الإرسالِ، وحَتْمِيَّةِ السُّؤالِ بأمرِ اللهِ ذي الجلالِ

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ فعليَّةً ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ لتحقُّقِ أمرَيْن: الأوَّلُ: وجودُ فعلِ الإرسالِ واستمرارُه، فإنَّ اللّه قد أرسلَ رسُلًا إلى جميعِ الأُممِ على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور. والثَّاني: أنَّه لا بدَّ من سؤالِ المرسَلِ إليهم في يومِ تظهرُ فيه السَّرائرُ وتنكشف الضَّمائر، وتُعرَضُ الأفعالُ والأقوالُ ويُحاسَبُ عليها أصحابُها[2].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه:

صيغةُ البناءِ للمفعول؛ لأنَّ المُرْسَلَ معلومٌ، والصِّيغةُ تصلحُ للتَّعميمِ

ورَدَ الفعلُ: ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ بصيغةِ المبني للمفعول؛ لأنَّ ٱلۡمُرۡسَلَ معلومٌ مقرَّرٌ، وإنَّما لينشغلوا بفعلِ الإرسالِ عن غيره، وكذلك لفكِّ القيدِ عن تعيينِ الرَّسولِ؛ إذِ المَلامةُ على تكذيبِ الرَّسولِ، لا بقيدِ كونِه معيَّنًا؛ بل هو أيُّ رسول، هل امتثَلَ قومُه أوامرَ دَعْوتِه وأَحْجَموا عن زواجرِها، أم لا؟[3].

فائدةُ تقديمِ ذكرِ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

المقصودُ في التَّقديمِ، هو أمرُ الرِّسالةِ وتبليغُها

لَمَّا كان المقصودُ الأهمُّ من السُّؤالِ هو الأُمم، لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم في استحقاقِ العذاب، قُدِّم ذكرُهم على ذكرِ الرُّسُل، ولِمَا تدلُّ عليه صِلةُ (الَّذي)، وصِلَةُ (الـ) من أنَّ المسؤولَ عنه، هو ما يتعلَّقُ بأمرِ الرِّسالة، وهو سؤالُ الفريقَيْن عن وقوعِ التَّبليغ[4].

نكتةُ إخفاءِ جوابِ الرُّسُلِ وأُمَمِهم:

الغايةُ من السُّؤالِ إظهارُ التَّبليغِ وقد تحقَّقت

لَمَّا جاءَ بيانُ اللهِ تعالى بالتَّعبيرِ بـ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وبـ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لم يحتجِ السِّياقُ إلى ذِكْرِ جوابِ المسؤولينَ، لظهورِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/27.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/358.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.

المرادِ الأهمِّ، وهو إثباتُ التَّبليغِ والبلاغ في طَرَفَيْه: المرسَلين والمرسَل إليهم(1).

نكتةُ السُّؤالِ لـ ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مع علمِ اللهِ بالجواب:

غرضُ السُّؤالِ تَوْبِيخُ المُشْرِكِينَ وَإِهَانَتُهُمْ

هذا السُّؤالُ ليس سؤالَ استعلامٍ، وإنَّما هو سؤالُ توبيخٍ وتَقريعٍ للكَفَرةِ والمشركين، أو أنَّه يقع في موقفِ العقاب، لا في موقفِ الحساب(2)، وحينئذٍ سوف يكون تجلِّي الوعيد بما حذَّرَ اللّه منه البشر، واقِعًا ما له من دافعٍ، ممَّا سَيُسْفِرُ عنه موقفُ القيامة الأعظم من عرضٍ للأعمال، وعقابٍ على المخالفات في الأقوال والأفعال، وهو ما سوفَ يُشاهَدُ عينَ يقينٍ، بعدما كان يُعْرَفُ علمَ يقينٍ، ممَّا توعَّدَ به ربُّ العالمين العاصين، ووعد بعكسه التُّقاة الصَّالحين، ومَنْ أَنْذَرَ، فَقَدْ أَعْذَرَ.

دَلالةُ العطفِ في قوله تعالى ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تغايرُ سؤالِ المرسَلين عن سؤالِ المرسَلِ إليهم لاختلافِ المقامِ والمهامِّ

دلَّ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على إيجابِ السُّؤالِ على المرسَلين، وتَغايُرِ سؤالِهم عن سؤالِ الأُمم، فإنَّ سؤالَهم عن وقوعِ التَّبليغِ من جهتهم، وعمَّا أُجيبوا به من أقوامهم، وهل كانَ في صدورِهم حَرَجٌ ممَّا أرسَلْناهم به(3)، فهو سوف "يسأل النَّبيِّين عما بَلَّغُوا، وهذا هو سُؤَالُ التَّقرير، فإنَّ اللّه سبحانه قد أَحاطَ علمًا بكلِّ ذلك قبل السُّؤال، فأمَّا الأَنْبِيَاءُ والمؤمنون فيُعقبهم جوابهم رحمة وكرامة، وأمَّا الكفَّارُ ومن نفذ عليه الوَعِيد من العُصَاةِ؛ فيُعقبهم جوابهم عَذابًا وتوبيخًا"(4).

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قولِه: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾:

جاءتِ المؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾: لامُ القَسَمِ - وهي

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/201، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.

(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 7/358.

أدّتِ المؤكِّداتُ تحقُّقَ وقوعِ الخبرِ، وإزالةَ الشَّكِّ عنه

علامةٌ على الاسْتئنافِ والانْتقالِ من خبرٍ إلى خبر - ونونُ التَّوكيد، وكلتاهما تدُلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الخبر، وإزالةِ أيِّ شكٍّ قد يتطرَّقُ إليه. وهي كذلك تدلُّ على عظمةِ السَّائل، وهو اللّهُ ﷻ، فـ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ أي: بعظَمتنا[1]. ودلَّت هذه المؤكِّداتُ على أنَّ قوَّةَ السُّؤالِ ليست حِكرًا على الأقوامِ المُرسل إليهم، بل هي أيضًا متحقِّقة في حقِّ الرُّسل، فكلٌّ مسؤولٌ عن مهمَّتِه، فأفادَ سؤالُ الرُّسُلِ براءتَهم من أيِّ فُتورٍ في التَّبليغ، وأنَّ كاملَ التَّقصيرِ من جانبِ الأُمم.

سرُّ العدولِ عن الفعليَّةِ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ إلى الاسْمِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

إيثارُ الاسْمِ مفيدٌ، لِمَا يتميَّزُ بِهِ من خاصيَّةِ الوقوعِ والإثباتِ

أفادَتْ كلمةُ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وهي اسْمٌ ومُحَلًّى بـ(الـ) الاستغراقيَّة الدلالةَ على ثباتِ صبغةِ الرِّسالةِ وديمومتها لمن حمَّلهمُ اللّهُ مسؤوليَّةَ تبليغِ رسالتِه تعالى لأقوامِهم، فالمُعَوَّل عليه أمرُ الرِّسالةِ، ووقوعُ تبليغِها وإثباتِها للنَّاس، وهذه المعاني لا تفيدُها الجملةُ الفعليَّةُ على وجهِ الخصوص[2].

معنَى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾:

اللّهُ تعالى شهيدٌ على كلِّ شيء، ولا يخفى عليه شيءٌ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ للتَّفريعِ والتَّرتيبِ على قولِه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، أي: لَنَسألنَّهم ثمَّ نخبرُهم بتفصيلِ ما أَجْملَه جوابُهم، أي: فَلَنَقُصَّنَّ عليهم تفاصيلَ أحوالِهم، فعلمُنا غنيٌّ عن جوابِهم، ولكنَّ السُّؤالَ لغَرضٍ آخر[3]. "قال ابن عبَّاسٍ في آية: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾: يوضع الكتابُ يوم القيامة، فيتكلَّم بما كان يعملون، وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم في وقتٍ أو حال، بل كنَّا معهم نسمع قولهم، ونبصر فعلَهم، ونعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون، ونخبرُ العبادَ يوم القيامة، بما قالوا وبما عملوا من قليلٍ وكثيرٍ وجليلٍ وحقيرٍ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(4) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/144.

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾:

غـرضُ السِّياقِ تـحـقُّـقُ وقـوعِ الخبر، وعظمةُ المُخْبِرِ ﷻ

ساقَ بيانُ اللّهِ تعالى المؤكِّداتِ في قولِه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: لامَ القَسَم، ونونَ التَّوكيد، دَلالةً على تحقُّق وقوعِ الخبر، وزيادةً في تأكيدِه لإزالةِ أيِّ شكٍّ قد يَعْتورُه، أي: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بما لَنا من صفاتِ العظَمةِ المستلزِمةِ لكلِّ كمال[1].

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ ﴿عَلَيۡهِم﴾ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾:

غـرضُ أسـلـوبِ الـتَّـقـديـمِ الاهتمامُ بهم، وإثباتُ التَّبليغِ لهم

تقدَّمَ قولُه: ﴿عَلَيۡهِم﴾ على ﴿بِعِلۡمٖ﴾ وحقُّه التَّأخيرُ؛ لزيادةِ الاهتمام بهم، وبالخَبرِ المقصوصِ عليهم؛ إذِ المرسَلون وأممُهم هم المعنِيُّونَ بهذا الخبرِ، بل هُمُ المعنِيُّونَ في السِّياق كلِّه في سؤالِهم والقَصِّ عليهم بما يفيد إثباتَ البلاغِ والتَّبليغ[2].

بلاغةُ الإضْمارِ بعدَ الإظهارِ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِم﴾:

بلاغةُ الإضمارِ ودلالـتـهـا عـلـى الإيـجـازِ والتَّشويقِ إلى المُتأخِّرِ

جاءَ الضَّميرُ في: ﴿عَلَيۡهِم﴾ تعبيرًا عن: (المرسَلِ إليهم)، و﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لغايتَيْن جليلتَيْن: الأولى: أن يكونَ مرجعُ الضَّميرِ المذكورِ آنفًا - دائمَ الحضور في الذِّهن، وهم المُعوَّلُ عليهم بالسِّياقِ من حيثُ السُّؤالُ ومن حيث القصُّ، وإن لم يُذكر إيجازًا. والثَّانيةُ: أنْ يكونَ مَا بعدَ الضَّميرِ تَمكِينًا في نفسِ السَّامع، وتَشْويقًا إلى مَعْرِفَتِه، وهو ما يقصُّه اللّهُ تعالى عليهم ﴿بِعِلۡمٖ﴾، وأنَّه تعالى لا يغيبُ عن علمِه شيءٌ ﷻ[3].

الموقعُ النَّحْويُّ لقولِه: ﴿بِعِلۡمٖ﴾ ومعنَى الباءِ فيها:

دورُ الحالِ، وباءُ المصاحبةِ في السِّياقِ

قولُه تعالى: ﴿بِعِلۡمٖ﴾ في موضعِ الحالِ من الفاعل[4]، والباءُ فيها للمصاحَبة، أي: لَنَقُصَّنَّ على الرُّسُلِ والمرسَلِ إليهم حالَ كونِنا مُلْتَبِسِينَ بالعلم[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321 - 322، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان، ص: 110.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾ وتنوينه:

أثرُ التَّنكيرِ في التَّفصيلِ، والتَّنوينِ في التَّعظيمِ

دلَّ تنكيرُ ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾ على إرادةِ التَّفصيلِ في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ أي: تفاصيلَ أحوالِهم بعلمِنا، أي: علم عظيم، فإنَّ تنوينَ ﴿بِعِلۡمٖۖ﴾ للتَّعظيمِ، وكمالُ العلمِ إنَّما يظهرُ في العِلمِ بالأمورِ الكثيرة[1].

دَلالةُ الواوِ والتَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

العطفُ اشتراكٌ في المعنى، والتَّذييلُ استخلاصٌ في آخرِ السِّياق

الواوُ عطَفَتْ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ على ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ﴾، وجملتُها في موقعِ التَّذْييلِ المقرِّرِ لما قبلَها[2]، وقد تكونُ حاليَّةً على معنى: فلنقصَّنَّ عليهم والحال أنَّنا ما كنَّا غائبين.

نكتةُ دخولِ (كان) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

(كَانَ) في حقِّ اللهِ تعالى تفيدُ الدَّوامَ وعدمَ الانْقطاعِ

(كان) تقتضي في حقِّ اللهِ الدَّيمومةَ، وعدمَ الانْقطاع، فهي غيرُ مجرَّدةٍ عن التَّقيُّدِ بزمانٍ ومكانٍ، وتدلُّ على تَحَقُّقِ الأمرِ الحاضرِ، وكأنَّه مضى، فهو لتأكيدِ البقاءِ وتحقُّقِ اسْتمرارِه، فـ(كانَ) أفادتْ هنا في سياقِ الآية: أنَّه لا يعزُبُ عن علمِ اللهِ شيءٌ، يغيبُ عنه[3].

دَلالةُ التَّركيبِ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

نفي النَّقصِ والغيابِ عنِ اللهِ وأثبتَهُ لغيره

تقدَّمَ في هذا التَّركيبِ النَّفي على المسندِ إليه، والمسندِ الفعليِّ، وهذا التَّركيبُ يفيد التَّخصيص، حيثُ ينفي عن الذَّاتِ العليَّة هذا الغيابَ، ويثبتُه لغيرِه، فالنَّقص شأنٌ كائنٌ للبشرِ، وليس لخالقهِم، فالله لا يوصف بنقصٍ، ولا عجز، ولا حاجةٍ إلى سِوَاهُ، فهو عَلَمٌ على واجبِ الوجودِ بكلِّ معاني الكمالِ فيه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بنونِ العظمةِ في أفعالِ الآيةِ:

مقتَضَى الكمالِ الإلهيِّ أن يحتاجَ إلَيْهِ كلُّ شيءٍ، ولا يحتاجَ إلى شيءٍ

أفادَ وجودُ نونِ العَظَمةِ الَّذي تحلَّتْ به الأفعالُ في الآيةِ الكريمة: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾، و﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾، و﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، و﴿وَمَا كُنَّا﴾، مقتضى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/322، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.

صفاتِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ، المستلزمةِ لكلِّ كمَالٍ في قدرتِه تعالى وحِكمتِه وحُكمِه وإحاطتِه ﷻ، بعلمِ كلِّ شيءٍ، وأنَّه تعالى يتولَّى هذه الأمورَ بنفسِه، لعظمِها عنده، بأن يميِّزَ المطيعَ من العاصي، ويحكُمَ في خلقِه، ويَقدِرَ عليهم بقدرتِه، ومَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لا يصحُّ أن يكونَ إلهًا[1].

دَلالةُ نَفْيِ الغيابِ عنِ اللهِ تعالى مِن خلال: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

إسنادُ كلِّ كمالٍ إلى الله، يقتضي نفيَ كلِّ نقصٍ عنهُ

الغائبُ ضدُّ الحاضر، وهو هنا كنايةٌ عن الجاهلِ؛ لأنَّ الغَيْبَةَ تستلزِمُ الجهالةَ عُرْفًا، أي: الجهالةَ بأحوالِ المَغيبِ عنه، فإنَّها ولو بلَغَتْهُ بالأخبارِ لا تكونُ تامَّةً عندَه مثلَ المشاهِد، فَنفيُ الغَيْبَةِ هنا عنِ اللّهِ تعالى، يعني: نفيَ الجهالة، أي: وما كنَّا جاهلين بشيءٍ من أحوالِهم؛ لأنَّنا مُطَّلِعونَ عليهم، وهذا النَّفيُ للغيبَةِ هنا، شأنُه شأنُ إثباتِ المعيَّةِ للّه ﷻ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ [الحديد: 4][2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/201، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/359.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/28.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف: 8 - 9]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بين سؤالِ المرسَلين وأقوامِهم، وبين وزنِ أعمالِ الفلاحِ والخسرانِ

لَمَّا بيَّنَ ﷻ في الآيتَيْنِ السَّابقتَيْنِ سؤالَه يومَ القيامةِ للمرسَلينَ ولأُمَمِهم، والسُّؤالُ يقتضي الحسابَ والجزاء، وبيَّن أنَّه تعالى قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا؛ بيَّن في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أنَّ من جُملةِ أحوالِ القيامَةِ أيضًا وزنَ الأعمال، فمنِ اتَّبعَ المرسلينَ؛ ثَقُلَتْ موازينُه، ومَنْ أعرضَ عن دَعْوتِهم؛ خسرَ نفسَه وظلَمها[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾: من الميزانِ، وأصله: موزانٌ، انقلبتِ الواوُ ياءً لكسرةِ ما قبلَها، وقام ميزانُ النَّهارِ، أي: انتصفَ، ووزَنْتُ الشيءَ وَزْنًا وزِنَةً، ويقال: وزنتُ فلانًا، ووزنتُ لفلانٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين: 3][2]، والوَزْنُ: معرفةُ قَدْرِ الشَّيء، يُقالُ: وَزَنْتُه وَزْنًا وزِنَةً. وقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرَّحمن: 9]، إشارةٌ إلى مراعاةِ العدلِ في جميعِ ما يتحرَّاه الإنسانُ من الأقوالِ والأفعال[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾، إشارةٌ إلى العَدْلِ في محاسبةِ النَّاس[4]. والمرادُ بـ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾ هنا: وزنُ أعمالِ العباد، وذلك أنَّ اللّه ﷻ ينصِبُ ميزانًا يومَ القيامة، فتُوزَنُ به أعمالُ العبادِ خَيْرُها وشرُّها[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/202، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/359.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وزن).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (وزن).
(4) الرّاغب، المفردات: (وزن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 8/122، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

2) ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾: أصلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافقَة، والحقُّ يقالُ على أوجُه: الأوَّلُ: يُقالُ لموجِد الشَّيْءِ بسببِ ما تقتضيه الحكمةُ، ولهذا قيل في اللهِ تعالى: هو الحقُّ، قالَ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يونس: 30]، والثَّاني: يُقالُ للمُوجَدِ بحسبِ مُقتضَى الحكمة، ولهذا يُقالُ: فِعلُ اللّهِ تعالى كلُّه حقٌّ، نحو قولنا: الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ، قالَ تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: 5]. والثَّالثُ: في الاعْتقادِ للشَّيءِ المطابقِ لما عليه ذلكَ الشَّيءُ في نفسِه، كقولِنا: اعْتقادُ فُلانٍ في البعثِ والثَّوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنَّار؛ حقٌّ، والرَّابعُ: للقولِ والفعلِ بحسَبِ ما يجبُ وبقدْرِ ما يجب، وفي الوقتِ الَّذي يجب، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33][1].

وقولُه في الآية: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ معناه: والقضاءُ يومَ القيامةِ العدلُ[2]، والحقُّ أنَّها صحائفُ الأعمالِ توزنُ وزنًا حقيقيًّا[3].

3) ﴿ثَقُلَتۡ﴾: ثِقَلٌ: الثَّاءُ والقافُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضدُّ الخِفَّةِ، ولذلكَ سُمِّيَ الجنُّ والإنسُ: الثَّقَلَيْن، لكثرةِ العدَد، وأثقالُ الأرض: كنوزُها في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزَّلزلة: 2]، ويُقالُ: هي أجسادُ بني آدم، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النَّحل: 7]، أي: أجسادَكم[4]. وفي قولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: ثِقَلُ الموازين يكونُ بثِقَلِ ما وُضِعَ فيها من صحائفِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والحسناتِ الَّتي قدَّمها في الدُّنيا[5].

4) ﴿خَفَّتۡ﴾: الخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيل، ويُقالُ ذلك باعْتبارِ المضايَفة بالوزن، وقياسِ شيئَيْن أحدِهما بالآخر، نحو: درهمٌ خفيفٌ، ودرهمٌ ثقيلٌ[6]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، فإشارةٌ إلى قِلَّة الأعمالِ الصَّالحة[7].

5) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: خَسِرَ: الخاءُ والسِّينُ والرَّاءُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على النَّقْص، فمن ذلك

(1) الرّاغب، المفردات: (حق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/122.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/267.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/382.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 8/123، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/156.
(6) الرّاغب، المفردات: (خف).
(7) الرّاغب، المفردات: (خف)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/156.

الخُسْرُ والخُسْران، كالكُفرِ والكُفران، والفُرقِ والفُرقان، ويُقالُ: خَسَرتُ الميزانَ وأخْسَرْتُه؛ إذا نقَصتَه[1]. وقد يكونُ الخُسرانُ في الصِّحةِ والسَّلامة، والعقلِ والإيمانِ والثَّواب، وهو الَّذي جعلَه اللهُ تعالى الخُسرانَ المبين، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمَر: 15]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: 9] إشارةٌ إلى تَعاطي ما لا يكونُ به ميزانُه في القيامةِ خاسرًا[2].

المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ عدلِ اللهِ في ميزانِ القيامةِ، لمكافأةِ المحسنِ، ومعاقبةِ المسيءِ

أخبرَ اللهُ تعالى عبادَه أنَّ الوزنَ يومَ القيامةِ يكونُ بالعدلِ والقِسْطِ الَّذي لا جَوْرَ فيه ولا ظُلْمَ، فمَنْ رجَحتْ كِفَّةُ حسناتِه على سيِّئاته، فأولئك همُ النَّاجونَ من عذابِ اللهِ، المدرِكونَ للمحبوبِ الَّذي حصلَ لهم به الرِّبحُ العظيم، والسَّعادة الدَّائمة.

ومَنْ رجَحتْ سيِّئاتُه؛ فقد فاتَهم النَّعيمُ المقيم، وحصلَ لهمُ العذابُ الأليمُ بسببِ ظلمِهم، فلم ينقادوا لآياتِ اللهِ كما يجبُ عليهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾ على سابقَيْها:

عدالـةُ اللـهِ لا غـبنَ فيهـا ولا ظـلـمَ، وعلـمُه محـيـطٌ بـكـلِّ ظاهرٍ ومخبوءٍ

عطفَ جملةَ ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ﴾ على جملةِ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، لما تضمَّنَهُ المعطوفُ عليها من العلمِ بحسناتِ النَّاسِ وسيِّئاتِهم، فلا جَرَمَ أَشْعرتْ بأنَّ مظهرَ ذلك العلمِ وأثَرَه هو الثَّوابُ والعقاب، وتفاوتُ درجاتِ العاملينَ ودَرَكاتِهم، تفاوتًا لا يُظلَمُ العاملُ فيه مثقالَ ذرَّةٍ، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فكأنَّ بيانَ اللهِ قال: (فلنقُصَّنَّ عليهم بعلمٍ، ولَنُجازينَّهم على أعمالهم، جزاءً لا غُبْنَ فيه على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).

(2) الرّاغب، المفردات: (خسر).

(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.

أحد). ويمكنُ أن يكونَ العطفُ على قولِه السَّابق: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وما عُطفَ عليه في السِّياق بالواوِ وبالفاءِ، وتقديرُه: يومئذٍ نسألُهم، ونسألُ رُسُلَهم ونقُصُّ ذنوبَهم عليهم[1].

دَلالةُ (ال) في لفظِ (الوَزْن):

الـوزنُ يـومَ القيامةِ مقصورٌ على الحقِّ، ولا يعامل الحقُّ العبادَ إلَّا بالحقِّ

في قوله تعالى ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، اللَّامُ في لفظ (الوزن) لامُ التَّعريف، وقد دلَّت على الاستغراق، لتعمَّ كلَّ وزنٍ، وقد تكون عهديَّةً تشير إلى الوزنِ المعهود لمن سبقَ بيانُ عظمته في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: مَنْ عُهِدتْ عظمتُه بعدم غيابِ شيءٍ عن علمِه، وإحاطتِه بكلِّ شيءٍ علمًا وقدرةً وعظمة، أي: إنَّا لا نكتفي بما نَقُصُّ، بل نزنُه، فيصيرُ بحيث يظهرُ لكلِّ أحدٍ، أنَّه على غايةِ ما يكونُ من التَّساوي، فالوزنُ بميزانٍ حقيقيٍّ، والوزنُ في ذلكَ اليومِ مقصورٌ على الحقِّ، يطابقُه الواقعُ مطابقةً حقيقيَّةً[2].

لفظ (الوَزْن) بين الحقيقةِ والمجاز:

حملُ (الـوَزْن) على الحقيقة، أوْلَى من حملِه على المجازِ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾، إعلامٌ من اللهِ تعالى لعبادِه أنَّ الحسابَ والنَّظرَ يومَ القيامةِ، هو في غايةِ التَّحرير ونهايةِ العدلِ، فمثَّلَ لهم في ذلكَ بالوزنِ والميزان على حقيقتِهما؛ إذْ لا يعرفُ البشرُ أمرًا أكثرَ تحريرًا منه. وهناك من يستبعدُ حملَ الوزنِ والميزانِ على حقيقتِهما فَيَحملُهُما على المجازِ المشهور، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾ [الكهف: 105][3].

وحملُ الوزنِ والميزانِ على الحقيقةِ قد يكون في هذا السِّياق أَصَحَّ وأَوْلى من حملهما على المجازِ من جهاتٍ عديدة: أوَّلُها: أنَّ ظواهرَ كتابِ اللهِ ﷻ تقتضيه، وحديثَ الرَّسولِ ﷺ ينطقُ به، ومنها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/28 - 29.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/360.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/375، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 2/149، والشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

قولُه ﷺ: «فتوضَعُ السِّجلَّاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السِّجلاتُ، وثَقُلَتِ البطاقةُ»[(1)].وثانيها: أنَّ النَّظرَ في الميزانِ والوزنِ، والثِّقَلِ والخِفَّةِ المُقترناتِ بالحساب، لا يَفسُدُ شيءٌ منه، ولا تختلُّ صحَّته، وإذا كان الأمرُ كذلك، فَلِمَ نَخْرُجُ من حقيقةِ اللَّفظِ إلى مجازِه، دون علَّةٍ[(2)]؟!

دلالةُ تنوينِ لفظِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ من قولِه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

التَّنوينُ تنوينُ عـوضٍ عـن الجملةِ المضافِ إليها

التَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن مضافٍ إليه دلَّ عليه قولُه السَّابق: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: 6] وما عُطِفَ عليه بالواوِ والفاء، والتَّقديرُ: يومئذٍ نسألُهم، ونسألُ رُسُلَهم، ونقصُّ ذنوبَهم عليهم[(3)].

بلاغةُ تقديمِ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

ظرفُ الزَّمانِ فيهِ مـزيـدُ اهـتـمـامٍ بـيـومِ القيامةِ، وما يكتنفُه من رهبةٍ أوْ رغبةٍ

جاءَ تقديمُ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ على ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾، وحقُّه التَّأخيرُ، لمزيدِ الاهْتمامِ والعنايةِ بهذا اليوم، وَوَزْنِ الأعمالِ القائمِ فيه، ولإدخالِ الرَّهبةِ في قلوبِ الكفَرةِ والعاصين ليُقلِعوا عن كفرِهم وعصيانِهم، ولإدخالِ الرَّغبة والسُّرور في قلوبِ الطَّائعينَ والمظلومين، بأنَّ حسناتِهم لن تكونَ هباءً منثورًا، ولن يضيعَ على المظلومين حسناتُ صبرِهم، ولن يضيعَ كذلك عليهم انْتِصَافُهُمْ من الظَّالمين الَّذين ستُوزنُ عليهم أعمالٌ وأقوالٌ، ظلموا بها غيرَهم، فالعدلُ الإلهيُّ في هذا اليومِ، في أجْلى معانيه وأسمَى درجاته[(4)].

---

(1) هو جزء من حديث، والمراد بالبطاقة كما ورد في الحديث: «فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله»، وهو عند أحمد، في المسند، برقم: (6994)، والترمذي، السنن، برقم: (2829)، وابن ماجه، السنن، برقم: (4300)، والحاكم، المستدرك: 1/529، وصحَّحه ووافقه الذَّهبي.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/375، والشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

(3) النَّسَفي، مدارك التَّنزيل: 1/556، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/29.

(4) انظر في وجوه تقديم ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، أو تأخيره، مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/283.

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ من قولِه ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

معنَى (الـ): الاستغراقُ الحقيقيُّ لإفادةِ المبالغةِ في إحقاقِ الحقِّ بتمامِه

(الـ) في ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ للتَّعريفِ الاستغراقِ الحقيقيِّ، ودخولُها على (حقّ) - وهو مصدرٌ - لإفادةِ المبالغةِ فيما أُسنِد إليه، وهو (الوَزْنُ)، أو كانَ هو وصفًا له، فالإخبارُ عن الوزنِ هنا في السِّياقِ بهذا المصدرِ، مبالغةٌ في كونِه مُحِقًّا على وجهِ التَّمامِ والكمالِ[1].

لفظ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

معناها العدلُ في الجزاءِ، ومُساواةُ الوزنِ للأعمالِ

لفظةُ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ مرتبطةٌ بـ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾، فهي على أحدِ الأقوالِ صفةٌ له، أو هو خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديرُه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾، ويمكنُ أن يكونَ خبرَ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾[2]، وأيًّا كان؛ فـ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ إن كانَ الوَزْنُ مجازًا عن تعيينِ مقاديرِ الجزاءِ، فالحقُّ بمعنَى العدل، أي: الجزاءُ عادلٌ غيرُ جائرٍ؛ لأنَّه من أنواعِ القضاءِ والحُكم، وإنْ كانَ الوزنُ تَمْثِيلًا بِهَيْئَةِ المِيزَانِ فَالعَدْلُ بِمَعْنَى السَّوِي أَيْ وَالوَزْنُ يومَئذٍ مُسَاوٍ للأعمالِ، لا يَرْجَحُ ولا يَجْحَفُ[3].

معنَى الفاء في جملة ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

مَن ثَقُلَت موازينُهُ؛ نجا، ومَن خفَّت موازينُهُ؛ هلكَ

الفاءُ في قوله: ﴿فَمَن﴾ للتَّفريع، أي: تفرَّعَ على كونِ الوزنِ هو الحَقَّ، قولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فهو تفصيلٌ للوَزْنِ ببيانِ أَثَرِه على قَدْرِ الموزُونِ[4]، والإشارة هنا أنَّ "وزن الأعمالِ يومئذ بالعدل، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُه، أي: رجحت حسناتُهُ على سيِّئاتِهِ، فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، أي: النَّاجُون"[5].

معنَى (مَنْ) الموصولةِ في قولِه ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

(مَنْ) اسْمُ موصولٍ بمعنى الَّذي، ويفيد معنى الشَّرطِ

جاءتْ (مَنْ) اسمَ موصولٍ بمعنَى الَّذي في قولِه: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ﴾،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(2) مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/282، والعكبريّ، الإملاء: 269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.

وقولِه: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ﴾[1]، وهي شرطيَّةٌ تربطُ جوابَها بفعلِها، والمعنى: "فمن رجحت أعمالُه الموزونةُ الَّتي لها وزنٌ وقَدْرٌ، وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفلحون الفائزون"[2].

بلاغةُ ثِقَلِ الموازينِ وخفَّتِها بين الحقيقةِ والمجازِ:

ثِقَلُ الميزانِ وخِفَّتُهُ بين رجحانِ الأعمالِ، أو خفَّتها بالتَّقصيرِ والإهمالِ

ثِقَلُ الميزانِ في المعنَى الحقيقيِّ: رُجحانُ الميزانِ بالشَّيءِ الموزون، وهو هنا مستعارٌ لاعْتبارِ الأعمالِ الصَّالحة غالبةً ووافِرَة، أي: مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه الصَّالحات، وإنَّما لم يذكرْ ما ثَقُلَتْ به الموازين؛ لأنَّه معلومٌ باعْتبارِ الوزن؛ لأنَّ مُتعارَفَ النَّاسِ أنَّهم يَزِنونَ الأشياءَ المرغوبَ في شرائِها المُتنافَسَ في ضَبْطِ مقاديرِها، والَّتي يتغابنُ النَّاسُ فيها.

والثِّقَلُ مع تلكَ الاسْتعارةِ هو أيضًا ترشيحٌ لاسْتعارةِ الوزنِ للجزاء، ثمَّ الخِفَّةُ مُستعارةٌ لعدمِ الأعمالِ الصَّالحةِ أَخْذًا بغايةِ الخِفَّةِ على وِزانِ عكسِ الثِّقَلِ، وهي أيضًا ترشيحٌ ثانٍ لاسْتعارةِ الميزان، والمرادُ هنا الخِفَّةُ الشَّديدة، وهي انْعدامُ الأعمالِ الصَّالحة لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[3].

إيرادُ لفظ (الموازين) بالجمعِ:

فائدةُ وضع الميزانِ أنْ يظهر الرُّجْحَانُ بالحسنات، والخِفَّة بالسَّيِّئات

المَوَازِيْنُ وردت بالجمع، مع أنَّ السِّياقَ في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، يحتمل المفرد والجمعَ، لكن جاءت قرينةُ الجمعِ محدِّدةً له في قولِه تعالى بعدها: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وعليه فلفظ (الموازين)، فيها قولان:

أحدهما: أنَّها جمع ميزان: وهو الآلةُ يوزنُ بها، وإنَّمَا جمع؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له ميزانٌ يخصُّه، أو جُمع باعتبار الأعمالِ الكثيرةِ، وعبَّرَ عن هذا الحالِ بالمحلِّ.

(1) مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/283، والعكبريّ، الإملاء: 1/269.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/556.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31.

والثَّاني: أنَّها جمع موزون، وهي الأعمال، ومثلُها ظاهر في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47] ؛ لأنَّه لا يبعد أن يكونَ لأفعال القلوب ميزانٌ، ولأفعال الجوارح ميزانٌ، وللأقوال ميزان. وذهب الزَّجَّاجُ: إلى أنَّ جمع الموازين راجعٌ، إمَّا إلى أنَّ العربَ قد تُوقِعُ لَفظَ الجَمْعِ على الواحد، أو إلى أنَّ الموازينَ هَا هُنَا جمْعُ موزونٍ لا جمع ميزان.

وقيل: المرادُ بالميزانِ العدلُ والقضاء، وهذا المعنى شَائِعٌ في اللُّغَةِ؛ لأنَّ العدلَ في الأخذ والإعطاءِ لا يظهر إلَّا بالكَيْلِ والوزنِ في الدُّنْيَا؛ قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105][1].

معنى (الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ، وأثرُ التَّفريعِ في الآيةِ الكريمةِ

الفاءُ هنا رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وتَحقُّقِ مضمونِ صلته في حالِ الفلاحِ، وحالِ الخُسران، وقد جاءتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، تفريعًا على الفاءِ، وهذا التَّفريعُ متعلِّقٌ بالأَثَرِ ومحلِّه، فالأثَرُ مرتبطٌ بتفصيلِ الوَزْنِ وقَدْرِ الموزون، وقد عبَّر عنهما بيانُ اللهِ في حالتَيْن: الأولى بقولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والثَّانيةُ بقولِه سبحانه: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وجاءَ محلُّ التَّفريعِ فيهما بالنَّتيجةِ المناسبةِ لكلِّ واحدٍ منهما: الأولى بقولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والثَّانيةُ بقولِه سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾[2].

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

استعمالُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ تنبيهٌ على البُعدِ المعنويِّ الاعْتباريِّ

اختارَ بيانُ اللّهِ اسْمَ إشارةٍ للبعيدِ تنبيهًا على البُعدِ المعنويِّ الاعتباريِّ لكلِّ فريقٍ، فالأوَّلُ بعدٌ معنويٌّ في الخيريَّة للمفلحينَ الَّذين

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.

ثَقُلتْ موازينهم، والثَّاني بعدٌ معنويٌّ في السُّوءِ للخاسرينَ الَّذين خفَّتْ موازينُهم، فالأوَّلُ للتَّحفيزِ والتَّرغيب، والثَّاني للتَّثبيطِ والتَّرهيب(1).

معنى(أل) في لفظ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للجنسِ أو للعَهْد، وللجنسِ أظهرُ؛ إذْ لا معهودَ هنا بحسبِ ظاهرِ الحال؛ بلِ المقصودُ إفادةُ أنَّ هؤلاءِ مفلحون، وكلُّ من تحقَّقتْ فيهم صفةُ المفلحين، وتحقَّقوا بما يُوصلُهم إلى صفتِها، وتَصوَّروا بصورتِهمُ الحقيقيَّة، فهم لا يَعْدونَ تلكَ الحقيقة(2).

ولفظ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ مرتبطٌ بثقل الموازين، والمفلحون هم النَّاجونَ الفائزونَ، والسُّعداء المكرمون، وهم المؤمنون الَّذين يؤولون إلى حسن المصيرِ بثقلِ موازينهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۞﴾ [القارعة: 6 - 7].

لا ينالُ الفلاحَ يومَ المعادِ إلَّا مَن ثَقُلَت موازينُهُ مِنَ العبادِ

وفي هذا التَّعريفِ كذلكَ إشارةٌ إلى ما يعرفُه كلُّ أحدٍ من حقيقةِ المفلحين وخصائصِهم، فهمُ النَّاسُ الَّذين عنهم بلغَنا أنَّهم تثقلُ موازينُ صحائفِ أعمالِهم الصَّالحة، ويُفلحون في الآخرة(3).

بلاغةُ أساليبِ القَصْرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

جاءَ اسْمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وهو معرفةٌ، وهو إشارةٌ للبعدِ المعنويِّ الاعتباريِّ المحمود، وجاء بضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾، فائدتُه: أنَّ صفة المسنَدِ ثابتةٌ للمسنَدِ إليه دونَ غيرِه، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المعرَّف بأل، فأولئك هم دون غيرهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ليبصِّرَ بيانُ اللهِ العبادَ بمراتبِهم، ويُرغِّبَهم في طلبِ ما طلَبوا، ويُنشِّطَهم لتقديمِ ما قدَّموا، ويثبِّطَهم عن الطَّمعِ الفارغِ والرَّجاءِ الكاذبِ، والتَّمنِّي على اللهِ ما

فلاحُ مَن ثَقُلَتْ موازينُهم محفِّزٌ إلى التَّأسِّي بهم لنيل ما نالوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/31.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/147 - 148، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/246، 8/31.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/146، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/323 - 324.

لاتَقْتَضيه حكمتُه، ولم تسبقْ إليه كلمتُه، لتنفتحَ لهم وجوهُ الظَّفرِ، وليصلُوا بعدَ ذلكَ إلى ما وصلوا[1].

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

العـطـفُ هنا لـمـغـايـرةِ هـذه الـصُّــورةِ عن سابقتِها

وردتْ جملةُ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، معطوفةً على ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والعطفُ يقتضي المغايرة، وبضدِّها تتميَّزُ الأشياء، فإذا كانَ الثِّقَلُ - كما تقدَّم - ترشيحًا لاسْتعارةِ الوزنِ للجزاء، فإنَّ الخِفَّةَ في مقابلتِها، مستعارةٌ لعدمِ الأعمالِ الصَّالحةِ، أخذًا بغايةِ الخِفَّةِ على عكسِ الثِّقَلِ، فهي أيضًا ترشيحٌ ثانٍ لاسْتعارةِ الميزان، لكن في انعدامِ ما يُثقِّلُ الميزانَ بفُقدانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾:

بـيـانٌ بـخـسـارةِ المشركين، وخفَّةِ موازينـهـم يوم الدِّين

جاءَ الاسْمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، تعبيرًا عنِ المشركينَ الَّذين سوَّلتْ لهم نفوسُهم أعمالًا كانتْ سببَ خِفَّةِ موازينِ أعمالِهم، أي: سببَ فَقْدِ الأعمالِ الصَّالحة منهم، فكانتْ نفوسُهم كرأسِ مالِ التَّاجرِ الَّذي رَجَا منه زيادةَ الرِّزقِ، فأضاعَه كلَّه، فهو خاسرٌ له، فكذلكَ هؤلاءِ خسروا أنفُسَهم، إذْ أَوْقعتْهم في العذابِ المقيم، فنتيجتُهم، كما قالَ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16][3].

نكتةُ العدولِ عن الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ:

عـبَّرتِ الجملةُ الـفـعـلـيَّـةُ على قيامهم في الدُّنيا بـأعـمـالٍ سيِّئةٍ أوصلـتْـهـم إلى خسارةِ أنفسِهم

جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، جملةٌ اسْميَّةٌ تفيدُ الثَّباتَ في وصفِهم بالمفلحين، وهم الَّذين ثَقُلَتْ موازينُهم، وهو تعبيرٌ عن حالِهم في الدُّنيا، فقد ثَبتوا في حياتهم الدُّنيا على الإيمان واسْتقاموا على دينِ الإسلامِ، وطاعةِ الرَّحمن. وأمَّا الَّذين خَفَّتْ موازينُهم، فهمُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/146، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

الَّذين خسروا أنفُسَهم، في ماضي حياتهمُ الدُّنيا، فلم يُقدِّموا فيها لأنفسِهم خيرًا، فمضَى بهم خسرانُهم في الدُّنيا إلى خسارةِ أنفُسِهم في الآخرةِ، فصاروا إلى الجحيم، فعبَّر عنهم بالجملة الفعليَّةِ الَّتي تدلُّ على تجدُّدِ هذه الخسارةِ، لِمَنْ لم يتَّبع طريق المرسلين.

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾:

الخُسـرانُ مُستعارٌ لفقدِ النَّفعِ، وجلبِ الضُّرِّ

الخُسرانُ هنا في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾، مُستعارٌ لفقدانِ نفعِ ما يُرجَى منه النَّفع، إذِ الخُسرانُ حقيقةً ضدُّ الرِّبح، وهو عدمُ تحصيلِ التَّاجرِ على ما يَستفضلُه من بَيْعِه، فتكون خسارتُهم لأنفسِهم، تعني: أنَّهم فَقدوا فوائدَها، فإنَّ كلَّ أحدٍ يرجو من مواهبِه - وهي مجموعُ نفسِه - أنْ تجلبَ له النَّفعَ، وتدفعَ عنه الضُّرَّ: بالرَّأيِ السَّديد، وابْتكارِ العملِ المفيد، ونفوسُ الَّذين خفَّتْ موازينُهم، كانت بسببِ فقدانِ أعمالِهم الصَّالحة، فلم يزرعوا في دُنياهم ما يحصُدون به ثِقَلَ موازينهم؛ بل زَرَعُوا شِرْكًا وكُفرًا، فحصَدوا بَوارًا وخُسرانًا[1].

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

بثقلِ الميزانِ وخفَّتِه تكونُ النَّجاةُ أو الهلاكُ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ باءُ السَّببيَّة، وهي متعلِّقةٌ بخسروا، أي: خَسِروا أنفُسَهم بسببِ تكذيبِهم المستمرِّ بآياتنا[2]، "قَالَ الْحسن: إِنَّمَا ثَقُلَ ميزَانُ من ثقلَ ميزَانُه بِاتِّبَاعِ الْحقِّ، وَحُقَّ لِميزَانٍ وُضِعَ فِيهِ الْحقُّ أَن يثقل، وَإِنَّمَا خفَّ ميزَانُ من خفَّ مِيزَانُهُ بِاتِّبَاعِ الْبَاطِل، وَحَقَّ الْمِيزَان الذي لم يُوضع فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَن يخفَّ"[3]، ومن ظلمَ بالآياتِ، وخَسِر نفسَه بفعلِ السَّيِّئات، وخفَّ ميزانه بعدم المبادرة للخيرات، استحقَّ سوءَ المصيرِ في الحياةِ وبعد المماتِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31 - 32.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/377، والعكبريّ، الإملاء: 2/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/166.

لحروفِ المعاني دلالاتٌ في السِّياقِ بحسبِ معانيها

معنَى الأداة ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

(ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ مصدريَّةٌ، أي: بكونِهم ظَلَموا بآياتِنا في الدُّنيا[1]، ويمكنُ أن تكون موصولة، أي: بالَّذي كانوا بآياتنا يظلمون، والظُّلم هنا: الجحودُ لآياتِ اللّهِ، قال سلمان الفارسيُّ: يوضعُ الميزانُ يوم القيامة، ولو وُضِعَ في كفَّتهِ السَّماواتُ والأرض لوسعتْها، فتقولُ الملائكة: ربَّنا ما هذا؟ فيقولُ تعالى: أَزِنُ به لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكةُ: ربَّنا ما عبدناك حقَّ عبادتِك[2].

تنوُّعُ معاني الحرفِ بالتَّأويلِ، يوسِّعُ الدِّلالةَ، وينفسِحُ به المعنى

معنَى الباءِ الجارَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ باءُ التَّعدية، مع احتمال كونها للسببيَّة أو للمصاحبة والملابسةِ، وهي حرفُ جرٍّ عُدِّيَ بها ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ لتضمُّنهِ معنَى التَّكذيبِ أو الجحودِ[3] - كما سيأتي -.

تقديمُ شِبهِ الجملةِ للاهتمامِ بالآياتِ ولمراعاةِ الفواصلِ

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تقديمُ المجرورِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على عامله، وهو ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾، للاهْتمامِ بالآياتِ، على أنَّها تكون سببًا في النَّجاة أو الهلاك، فضلًا عن مراعاةِ الفواصِل[4]. "و (الآيات) هنا البراهينُ والأوامر والنَّواهي، و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ أي: يضعونها في غيرِ مواضعِها بالكفرِ والتَّكذيبِ"[5].

نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

جاءتْ إضافةُ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمة في قولِه تعالى:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/377، والعكبريّ، الإملاء: 2/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(2) مكّيّ القيسي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2287.

(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/377.

آياتُ اللهِ جديرةٌ بالتَّعظيم والاهتمام بها والعملِ بمضامينها

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، تعظيمًا لشأنِ الآياتِ، حيث أُسندتْ إلى مَنْ أَنْزلَها، وأمرَ بها، وهو اللّهُ ﷻ، صاحبُ العَظَمةِ المُطْلَقة، والحِكْمةِ البالغة، وفي هذا التَّعظيم مزيدُ اهتمامٍ بها، ودَفْعُ العبادِ للإيمانِ بها والعملِ بموجبِها.

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

معنى التَّجدُّدِ في الفعلِ، يضاهي تجدُّدَ ظُلمِهم في الدُّنيا

أفادتْ صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾، حكايةَ حالِهم في تجدُّدِ الظُّلم فيما مَضَى، كقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ﴾ [فاطر: 9][(1)]، وتجدُّدُ الظُّلم في هذه الحياة من الأمورِ المسلَّمةِ المعهودةِ؛ إذ تتماوج الطِّباعُ والممارسات بألوانٍ شتَّى من الظُّلم الصُّراح، والاعتداء البواح على آياتِ اللّه وأحكامه وحرماته، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ مَعيشٌ، لا يَنفكُّ عنه الأفرادُ، ولا تخلو منه المجتمعاتُ.

التّضمين في فعلِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ وتعديَته بالباء:

تكذيبُ الكافرين وجُحودُهم لادليلَ عليه، بل هو ظلمٌ للأدلَّة

ضُمِّن قولُه تعالى: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، معنَى الفعل (يُكذِّبون)، فلذلك عُدِّي بالباء، فكأنَّه قيل: بما كانوا يَظلمونَ، فيُكذِّبونَ بآياتنا، وإمَّا لتَضمُّنِه معنَى الجَحْدِ على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النّمل: 14]، وإنَّما جُعِلَ تكذيبُهم وجحودُهم ظُلمًا؛ لأنَّه تكذيبُ ما قامتِ الأدلَّةُ على صدقه، فتكذيبُه وجحودُه ظلمٌ للأدلَّة بِدَحْضِها وعدمِ إعمالِها[(2)].

نكتةُ الجمعِ بين صيغتَيِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمستقبل ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

سرُّ الجمعِ بين الماضي والمستقبلِ للدَّلالةِ على الاسْتمرارِ في الظُّلم

جاءَ الجمعُ بين صيغتَي الماضي في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ﴾ والمستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾، للدَّلالةِ على اسْتمرارِ الظُّلمِ في الدُّنيا،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/32.

أي: فأولئكَ الموصوفونَ بخفَّةِ الموازينِ الَّذين خسروا أنفُسَهم بسببِ تكذيبِهمُ المستمرِّ بآياتنا - ظالمون[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المفلحون) و(الفائزون):

الفلاحُ هو الفوزُ بالنَّفعِ مع بقاءِ أثرِه

الفلاحُ: نَيْلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه، وسُمِّيَ الشَّيءُ الباقي الأَثَرِ: فَلَحًا، ويُقالُ للأَكَّار: فلَّاحٌ؛ لأنَّه يشقُّ الأرضَ شقًّا باقيًا في الأرض، ويُقالُ لكلِّ من عَقَلَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخير: قد أَفْلَح[2]، والفَلاحُ: السَّحور، وهو الأكلُ في السَّحَر، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ به بقاءَ الصَّوْم[3].

والفَوْزُ: نَيْلُ الحظِّ من الخير[4]، والفَوْزُ: هو الخَلاصُ من المكروه مع الوصولِ إلى المحبوب، ولمَّا كان الفوزُ يقتضي نَيْلَ المحبوب، قيل: فازَ بِطِلْبَتِه، وقال تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧٣﴾ [النِّساء: 73]، أي: أنالَ الخيرَ نَيْلًا كثيرًا[5]، والفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصولِ السَّلامة، قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨٨﴾ [آل عمران: 188]، أي: بمنجاةٍ منه[6].

(خَسِروا) و(اشْتَروا):

الخُسرانُ فيه معنَى الذَّهابِ بالكُلِّيَّة، والهلاكُ التَّام

الخُسرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلكَ إلى الإنسان، فيُقالُ: خسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل فيُقالُ: خَسِرَتْ تجارتُه. والخسرانُ كذلك: ذهابُ رأسِ المالِ كلِّه، ثمَّ كثُرَ حتَّى سُمِّيَ ذهابُ بعضِ رأس المال خُسرانًا، قالَ تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأنعام: 12]، لأنَّهم عَدِموا الانتفاعَ بها، فكأنَّها هلكتْ، ولم يبقَ منها شيء.وقد

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 321، والرّازي، مختار الصّحاح: (فلح).

(3) الرّازي، مختار الصّحاح: (فلح).

(4) العسكريّ، الفروق، ص: 340.

(5) العسكريّ، الفروق، ص: 532.

(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (فوز).

تكونُ الخسارةُ في الصِّحَّةِ والسَّلامة والعقلِ والإيمان والثَّواب، وهو الَّذي جعلَه اللّهُ تعالى الخُسرانَ المبين، بل جعلَه اللّهُ خسارةً للنَّفس، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمر: 15]. وكلُّ خسرانٍ ذكرَه اللّهُ تعالى في القرآن هو ما يتعلَّقُ بما يكون فيه ميزانُ الإنسانِ يوم القيامة خاسرًا بخلوِّهِ من صحائفِ الأعمالِ الصَّالحةِ أو قِلَّتها[1].

شَرَيْتُ بمعنَى: بعتُ أكثر، وابْتعتُ بمعنَى اشْتريتُ أكثر، قالَ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۢ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، وذلك أنَّ لفظَ البيعِ والشِّراءِ يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في موضعِ الآخر، وهو من الأضداد، لَكِنْ ما تقدَّمَ هو الأَشْهر، وتُجوِّزَ بالشِّراء والاشْتراء في كلِّ ما يحصُلُ به شيء، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 77][2].

(1) الرّاغب، المفردات: (خس)، والعسكريّ، الفروق، ص: 574.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شرى).

﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠﴾ [الأعراف: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين موازينِ الحسابِ والجـزاءِ، والتَّذكيرِ بِنِعَمِ التَّمكينِ الواجبِ شكرُها

لَمَّا أمرَ اللّه ﷻ بمتابعةِ الرُّسُلِ، وحذَّرهم من مخالفتِهم، فأبْلَغَ في تحذيرِهم بعذابِ الدُّنيا ثمَّ بعذابِ الآخرة، والتَّذكيرِ بنصْبِ الموازينِ القِسْطِ للفَصْل في مصائرِ العباد، الْتَفَتَ إلى تذكيرِهم ترغيبًا في ذلكَ بإسباغِ نعمِه، وتحذيرًا من سلبِها؛ لأنَّ المواجهةَ أردَعُ للمخاطَب، فقال في موضعِ الحالِ من ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ﴾، والحالُ أنَّا مَكَّنَّاكُمْ من إنْجائها بخلقِ القُوى والقُدرِ، وإدْرارِ النِّعَم، وجعلنا مكانًا يحصُلُ التَّمكُّنُ فيه هو (الأرض) كلَّها، لانتفاعِكم بها، وهي أشياءُ يحصُلُ بها العَيْشُ؛ لتشكروا اللّه على هذه النِّعم الَّتي أسبغَها عليكم ظاهرةً وباطنة، لكنَّ الشَّاكرين اللّه على هذه النِّعم نادرون، وقليلٌ ما هم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾: المكانُ عندَ أهلِ اللُّغةِ الموضعُ الحاوي للشَّيء، ويُقالُ: مكَّنتُه ومكَّنتُ له فتمكَّنَ[2]، و"المكان أصلٌ في جميع ما يتَّصل بهذه المادَّة، لمنزلة (المكان) في العربيَّة فكرًا وواقعًا وسلوكًا. ومن المفيدِ أن نشيرَ إلى أنَّ (المكان) جاء من (الكون)، بمعنى: الوجود والهيئة، ولمنزلته الَّتي أخذها في تفكير العرب، صار أصلًا لحاجاتٍ كثيرة"[3]. ويُقالُ: مكَّنهُ اللّهُ من الشَّيء تمكينًا، وأمكنه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/204، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/361.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (مكن).
(3) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 4/157.

منه بمعنًى، واستمكَنَ الرَّجلُ من الشَّيءِ وتمكَّنَ منه بمعنًى، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المرادُ هنا: جعلْنا لكم فيها مكانًا للعيش[1].

2) ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾: العَيْشُ: الحياةُ المختصَّةُ بالحيوان، وهو أخصُّ من الحياة؛ و"مَعايِشَ لا تهمزُ؛ لأنَّها مفاعل من العيشِ، مفردها معيشةٌ، والأصل (مَعْيِشَةٌ) على وزن (مَفْعِلَةٌ)، وهي ما يعاشُ به من النَّباتِ والحيوان وغير ذلك"[2]. ويُشتقُّ من العيشِ المعيشةُ، لما يُتَعيَّش منه، قالَ تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزُّخرف: 32]. وقد عاشَ يعيشُ مَعاشًا ومَعيشًا، كلُّ واحدٍ منهم يصلُحُ أنْ يكونَ مصدرًا واسْمًا كمَعَاب ومَعيب[3]. والمعيشةُ: جمعُها معايش، كما في الآية: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾، أي: هيَّأنا لكم فيها أسبابَ المعايشِ من المطعومِ والمشروبِ وما تكونُ به الحياة[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بالشُّكرِ علـى التَّـمكـينِ من المسخَّراتِ، وتيسيرِ المعايشِ في الحياةِ

يقولُ الله تعالى مُمتنًّا على عبيده فيما مكَّنَ لهم من أنَّه جعلَ الأرضَ قرارًا، وجعلَ فيها رواسيَ وأنهارًا، وجعلَ لهم فيها منازلَ وبيوتًا، وأباحَ لهم منافعَها، وسخَّرَ لهم السَّحابَ لإخراجِ أرزاقِهم منها، وجعلَ لهم فيها مكاسبَ وأسبابًا يكسبونَ بها، ويتَّجرون فيها، ويتسبَّبون أنواعَ الأسبابِ، وأكثرُهم مع هذا قليلُ الشُّكرِ على هذه النِّعم وغيرِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34][5].

---

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/268.
(2) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 164.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (عيش).
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/268.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237 - 238.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سابقتِها:

العطفُ للتَّذكير بنعمِ اللهِ، ومنها المعايشُ وألوانُ التَّسخيرِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، عطفٌ على قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]، وهو تذكيرٌ لهم بأنَّ اللهَ هو وليُّ الخَلْق؛ لأنَّه تعالى خالقُهم على وجهِ الأرض، وخالقُ ما به عيشُهم الَّذي به بقاءُ وجودِهم إلى أجلٍ معلوم، وتوبيخٌ على قلَّةِ شُكرهم[1].

دَلالةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المؤكِّداتُ لها أثرٌ في إزالةِ أيِّ إنكارٍ لوقوعِ التَّمكينِ في الأرض

جاءَ تأكيدُ الخبرِ بـ (لامِ القسَم)، و(قدْ) المفيدِ للتَّحقيق تنزيلًا للَّذين هُمُ المقصودُ من الخطابِ مَنزِلَةَ مَنْ يُنكِرُ مضمونَ الخبر؛ لأنَّهم لَمَّا عبَدوا غيرَ اللهِ، كان حالُهم كحالِ مَنْ يُنكِرُ أنَّ اللهَ هو الَّذي مكَّنَهم من الأرض، أو كحالِ مَنْ يُنكِرُ وقوعَ التَّمكين من أصلِه[2].

بلاغةُ المجازِ أو الكنايةِ في ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾:

جاءَ معنَى التَّمكينِ بالإقْدارِ على التَّصرُّفِ والتَّغلُّبِ على المصاعب

الأصلُ في التَّمكينِ جعلُ الشَّيءِ في مكانٍ، وهو يُطلقُ على الإقْدارِ على التَّصرُّفِ على سبيلِ الكناية، فهو مُستعمَلٌ هنا في معناه الكِنائيِّ لا الصَّريحِ، أي: جَعلْنا لكم قُدرة، أي: أَقْدرْناكم على أمورِ الأرضِ، وخوَّلناكمُ التَّصرُّفَ في مخلوقاتها، وذلكَ بما أودعَ اللهُ في البشرِ من قوَّةِ العقلِ والتَّفكيرِ الَّتي أهَّلتْهم لسيادةِ العالم، والتَّغلُّبِ على مصاعبِه[3]. ويمكنُ أن يكونَ على المجاز على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، بتشبيهِ قدرتهم على التحكُّم في الأرض بحالِ الشَّيءِ المتمكِّن بجامع قوَّةِ الرُّسوخ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33 - 34.

الانصرافُ بالمعنَى من الحقيقةِ إلى المجازِ أمكنُ في البيانِ وأرسخُ

دَلالةُ الحرفِ ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلَّ إدخالُ ﴿فِي﴾ على كلمةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، على أنَّ المرادَ بالتَّمكينِ المعنَى المجازيُّ، وليس الحقيقيَّ وهو جعلُ المكانِ في الأرض؛ لأنَّ قولَه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يمنعُ ذلك؛ لأنَّه لو كانَ كذلكَ؛ لقالَ: ولقد مكَّنَّاكُمُ الأرضَ، وقد قالَ تعالى عن عاد: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 26]، أي: جَعلنا ما أَقْدَرْناهم عليه أعظمَ ممَّا أَقدرْناكم عليه، أي: في آثارِهم في الأرض، أمَّا أصلُ القرارِ في الأرضِ، فهو صراطٌ بينَهما(1).

تمكينُ الإنسانِ في الأرضِ للشُّكرانِ، لا للكفرانِ

معنَى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(ال) التعريف في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ، أي: الأرضِ الَّتي قالَ اللّهُ عنها مخاطبًا ملائكته: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، وهي الَّتي أَهْبطَ إليها آدمَ عليه السلام وزوجَه، وأَهبطَ معهما إبليسَ (لعنه اللّه)، قالَ عز وجل: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]، وجعلَ فيها المعايشَ من طعامٍ وشرابٍ وسائرِ أسبابِ الحياة(2).

تسخيرُ المخلوقاتِ لخدمةِ الإنسانِ، لا للكفرِ والشَّنآنِ

فائدةُ مجيء الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أفادَ مجيءُ الجارِّ والمجرورِ من قولِه: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّه ليس المرادُ من التَّمكينِ هنا القُوَّةَ والحكم، كالمرادِ في تمكينِ ذي القرنَيْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 84]؛ لأنَّ ذلكَ ليس حاصلًا بجميع البشرِ إلَّا على تأويل، وإنَّما المرادُ الإقدارُ على التَّصرُّفِ في مخلوقاتِ الأرضِ، وتسخيرِها لخدمتِكم وإقامةِ عَيْشِكُم(3).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/34.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/204 - 205، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/34.

دَلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾:

مغايرة ما تقدَّمَه من التَّمكين

دلَّ العطفُ في ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ﴾ على مغايرةِ ما عُطِفَ عليه، وهو ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ فليس التَّمكينُ في الجَعْل، وإنَّما الجَعْلُ هنا: الإنْشاءُ والإبداعُ كما سيأتي[1].

معنَى الجَعْلِ في ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ﴾ وما يترتَّبُ على ذلك من إعرابٍ:

للجَعْلِ معنيان: الخَلْقُ والتَّصييرُ، وكلاهما مهمَّانِ في التَّمكينِ

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ﴾: يجوزُ أن تكونَ بمعنَى (خَلَق)، فتتعدَّى لواحدٍ، فيتعلَّقُ الجارَّان ﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾ بالجَعْلِ، أوْ بمحذوفٍ على أنَّهما حالان من ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾؛ لأنَّهما لو تأخَّرا لجاز أن يكونا وصفَيْن. ويجوزُ أن تكونَ بمعنى (صيَّرَ) أي: صيَّرنا لكم، فتتعدَّى لاثْنَيْن أوَّلُهما ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾، والثَّاني أحدُ الجارَّيْن، والآخرُ: إمَّا حالٌ؛ فيتعلَّقُ بمحذوف، وإمَّا مُتعلِّقٌ بنفسِ الجَعْل، وهو الظَّاهر[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ في: ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

غرضُ (الجعل) إفادةُ معنَى الإنشاءِ والإبداعِ والتَّسخيرِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ عبّرَ بالجَعل لأنَّه تصييرٌ وتهيئةٌ بعد الخلق؛ لذا عبَّر به دون الخَلْقِ، أي: أَنْشأنا وأَبْدَعْنا لمصالِحكمْ ومنافِعكم في الأرضِ، أسبابًا تعيشونَ بها، وأَقْدَرْناكم على تسخيرِها لكم والتَّصرُّفِ فيها[3].

معنى اللَّامِ وعِلَّةُ تقديم ﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿فِيهَا﴾:

التَّقديمُ لعنصرٍ من التَّركيب على آخرَ، غرضُهُ مزيدُ الاعْتناءِ بالمقدَّمِ

اللَّامُ في ﴿لَكُمۡ﴾ هي للتَّعليلِ، أي: لأجلكم، ويمكن أن تكون للتَّخصيص، وأمَّا تقديم شبه الجملة على ﴿فِيهَا﴾؛ فلأنَّ المقصودَ الرئيس هو العنايةُ بالمخاطبينَ قبلَ بيانِ محلِّ هذا الإكرامِ والعناية، وفي تأخير محلِّ المنفعةِ من التَّشويق للمؤخَّر، فالاعْتناءُ بشأنه هنا أتمُّ، والمُسارعةُ بذكرِه أهمُّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324 - 325.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

التَّقديمُ لإفادةِ الاعْتناءِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ

عِلَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة على المفعول:

تقدَّمتْ شِبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ لإفادةِ الاعْتناءِ بشأنِ المقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّر، فإنَّ النَّفسَ عندَ تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ لا سيَّما عند كونِ المُقدَّمِ مُنبِئًا عن منفعةٍ للسَّامعِ، تبقى مُترَقِّبةً لورودِ المؤَخَّر، فيتمكَّنُ فيها عند الورودِ فَضْلَ تمكُّنٍ(1).

مِنَ البَيانِ تسميَةُ الشَّيءِ باسْمِ سببِهِ على طريقةِ المجازِ

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾:

وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾، فكلمةُ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ مشتقَّةٌ من العَيْش، وهو الحياة، وأصلُ المعيشة اسْمُ مصدرِ (عاشَ) قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: 124]، وسُمِّيَ به الشَّيءُ الَّذي يحصُلُ به العيش تسميَةً للشَّيءِ باسْمِ سببِهِ على طريقةِ المجازِ الَّذي غَلَبَ حتَّى صارَ مساويًا للحقيقة، وياءُ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ أصلٌ في الكلمة؛ لأنَّها عَيْنُ الكلمةِ من المصدر (عَيْش) فوزنُ مَعيشةٍ مَفْعِلةٌ، ومَعايشُ مَفاعِل، فحقُّها أنْ يُنطَقَ بها في الجمع ياءً ألَّا تُقلبَ همزة(2).

صِفةٌ لمصدرٍ أو لظرفِ زمانٍ محذوفين

الموقِعُ النَّحويُّ لـ ﴿قَلِيلٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَلِيلٗا﴾ فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّة: الأوَّلُ: صفةٌ لمصدرٍ محذوف، دلَّ عليه ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، أي: تشكرون شكرًا قليلًا تشكرون، والثَّاني: صفةُ ظرفِ زمانٍ محذوفٍ أيضًا، أي: زمانًا قليلًا تشكرون لا كثيرًا(3)، والثَّالث: حالٌ من ضميرِ المخاطَبين(4).

هذه الجملةُ حاليَّةٌ

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾:

جملةُ ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من قولِه: ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ و﴿جَعَلۡنَا لَكُمۡ﴾.

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/324.
(2) الزَّمخشري، الكشاف: 2/68، والعكبري، الإملاء: 1/269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/34.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/66، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/546، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/320.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/53.

فالَّذين مكَّنهمُ اللّهُ في الأرض، وجعلَ لهم فيها أسبابَ المعايش، وأقدَرهُمْ على التَّصرُّف فيها؛ لَيَسُوا إلَّا قليلي الشُّكر لهذه النِّعم، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ الفاعل بـ ﴿قَلِيلًا﴾ فهي حالٌ سببيَّةٌ.

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ تذييلًا مسوقًا لبيانِ سوءِ حالِ المخاطَبين وتحذيرِهم ممَّا هم فيه من قلَّةِ شكرِ اللّهِ على نعمه[1].

معنَى ﴿مَّا﴾ في ﴿قَلِيلًا مَّا﴾:

(مـــا) هـنـا مـصـدريَّـةٌ أو مـزيـدةٌ لتأكيدِ القِلَّةِ

﴿مَّا﴾ هنا مصدريَّةٌ موصولةٌ بالفعلِ بعدَها، والتَّقديرُ: قليلًا شُكرُكم[2].

ويمكنُ أنَّ (ما) المصدريَّة هذه وما بعدَها بتأويلِ مصدرٍ مُبتدأٌ مؤخَّر، والتَّقديرُ: زمنًا قليلًا شكرُكم، أي: إنَّهم لا يقعُ شكرُهم إلَّا في بعضِ الأحيان.

ويمكنُ أنْ تكونَ (ما) مزيدةً لتوكيدِ القِلَّة[3].

وقد قيل: إنَّ ﴿مَّا﴾ هذه نافية، وهو بعيد؛ لأنَّ (ما) لا يعملُ بعدَها فيما قبلها عند البصريِّين، وعلى تقديرِ تسليمِ ذلك، فيصيرُ المعنَى: ما تشكرونَ قليلًا، وليس بطائل[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

تَجَدُّدُ الشُّكرِ

الفعلُ المضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمراريَّة، وهو المعنى في ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، لكنَّ إسنادَ ﴿قَلِيلًا﴾ إليه أَفقدَه دَيْمومةَ الشُّكر، وصيَّره إلى معنَى أنَّهم قدْ يشكرون، ثمَّ يُعرِضونَ عن الشُّكرِ في غالبِ أحوالِهم، وهذا يعني: أنَّهم في الحقيقةِ مستمرُّون في غَفْلَتِهم، دائمونَ في إعراضهم[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/320، 325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17، 35.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/246.

(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/66، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.

(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/246.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الشُّكرِ:

حُذِفَ في الجملة السَّابقةِ مفعولُ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾ أي: تشكرون اللّه، أو: تشكرون رسله، أو: النِّعَمَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالشُّكرِ في هذا الموضعِ والتَّذكُّرِ في الموضعِ السَّابق:

استصحابُ قلَّةِ الشُّكرِ لقلَّةِ التَّذكُّرِ

لَمَّا أمرَ اللّهُ عبادَه باتِّباع ما أنزَله عليهم في القرآنِ، ونهاهُم أنْ يتَّبعوا من دونِه أولياءَ، ولكنَّهم كانوا قليلي التَّذكُّرِ أو عَديميه، ثمَّ منَّ وأنعمَ عليهم بالتَّمكينِ، وخَلَقَ لهم أسبابَ المعايشِ في حياتِهم وأَقْدرَهم على التَّصرُّفِ بها وتسخيرِها لمصالِحهم - ختمَ بمقابَلتِهم لهذه النِّعمِ بالشُّكرِ القليل، أو عدمِ الشُّكر، تعبيرًا فائقًا بأنَّ مَنْ لا يتذكَّرُ أو أنَّ تذكُّره قليل لا يمكنُ أن يشكر؛ لأنَّ المتذكِّرَ يتَّعظُ، ويعتبرُ فيشكر، وإلَّا فلا، وذلكَ لأنَّ القِلَّةَ قد تكونُ كنايةً عن العَدَمِ على طريقةِ الكلامِ المُقتَصَدِ استنزالًا لتذكُّرِهم، فإذا عُدِمَ التَّذكُّرُ؛ عُدِمَ الشُّكرُ، وإذا قلَّ التَّذكُّرُ؛ قلَّ الشُّكر، ولذلكَ جاءَ التَّعقيبُ بهذه الآيةِ بليغًا غايةَ البلاغةِ بعدَ آيةِ: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]، وبعدَ آية: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، إيماءً إلى أنَّ إهمالَ تذكُّرِ النِّعمةِ ومَنْ أنْعمَ بها يُفضي إلى إهمالِ شُكرِ النِّعمة، ويُعرِّضُ صاحبَها لزوالِها، وهو ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاسْتخلاف) و(الاسْتعمار) و(الاسْتقرار) و(التَّمكين):

التَّمكينُ يقتضي ما لا يقتضيه غيرُه من إعطاءِ ما يصحُّ به الفعلُ، ويقومُ من آلاتٍ وعُدَدٍ وقوَى

خلفُ: ضدُّ القُدَّام، قالَ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، وخَلَفَ: ضدُّ تقدَّمَ وَسَلَفَ، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخرِ، إمَّا لغَيْبةِ المنوبِ عنه، وإمَّا لموتِه، وإمَّا لعجزِه، وإمَّا لتَشريفِ المُسْتَخلَف، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ اسْتخلَفَ اللّهُ أولياءَه في الأرض، قالَ تعالى:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/35.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26]، وقالَ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: 55][1].

والعِمارَةُ: نقيضُ الخراب، ويُقالُ: عَمَرَ أرضَه يعمُرُها عِمارةً، قالَ تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التَّوبة: 19]، وأَعْمَرتُه الأرضَ واسْتَعمرْتُه: إذا فَوَّضْتَ إليه العِمارة، قالَ تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: جعلَكم عُمَّارَها[2].

والاستقرار من: قَرَّ في المكانِ يقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثبوتًا جامدًا، وأصلُه من القُرِّ: وهو البَرْد، وهو يقتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة[3]، قالَ تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، أصلُه: اقْرَرْنَ فحذفَ إحدَى الرَّاءَيْن تَخْفيفًا[4]، ويومُ القَرِّ: بعدَ يوم النَّحر، لاسْتقرارِ النَّاس فيه بمِنًى، واسْتقرَّ فُلان؛ إذا تَحرَّى القَرار، قالَ تعالى في الجنَّة: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: 24][5].

والمكانُ عند أهلِ اللُّغة: الموضعُ الحاوي للشَّيء، ويُقالُ: مَكَّنْتُه ومكَّنتُ له فتمكَّن، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 10][6].

والمكانُ مَفعلٌ من الكون، ولكثرتِه في الكلامِ أُجْرِيَ مَجْرَى فَعال[7]، فقيل: تمكَّنَ وتَمَسْكَنَ، نحو: تمنزَل[8].

والتَّمكينُ: إعطاءُ ما يصحُّ به الفعلُ كائنًا ما كان من الآلات والعُدَدِ والقُوَى، والتَّمكينُ لا يعني: التَّمليك، فليس كُلُّ مَنْ مُكِّنَ مِنْ شيءٍ يكونُ قد مَلَكه[9].

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (خلف).
(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عمر).
(3) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرر).
(4) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/342.
(5) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرر).
(6) الرَّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مكن).
(7) الخليل، العين: (مكن).
(8) الرَّاغب، المفردات: (مكن).
(9) العسكري، الفروق، ص: 142.

الجَعْل والخَلْق:

الجَعْل: لفظٌ عامٌّ في دَلالاتِه، وأوسَعُ في تصريفاتِه من (الخَلْق)

جَعَلَ: لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فَعَلَ وصَنَعَ وسَائِرِ أخواتِها.

ويتصرَّف على خمسة أوجه: الأوَّل: يَجري مَجْرى صارَ وطَفِقَ، فلا يتعدَّى. والثَّاني: يَجري مَجْرَى أَوْجَدَ، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]. والثَّالثُ: في إيجادِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه، نحو: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النَّحل: 72]. والرَّابعُ: في تَصْيِيرِ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: 22]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزُّخرف: 3]. والخامسُ: الحكمُ بالشَّيءِ على الشَّيءِ، حقًّا كان أو باطلًا، فأمَّا الحقُّ؛ فنحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7][1].

وأمَّا الباطلُ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: 91]، أي: مُتفرِّقًا[2].

والخلقُ في اللُّغة: التَّقدير، يُقالُ: خَلَقْتُ الأديمَ؛ إذا قدَّرْتَه خُفًّا أو غيره، وبابُه (نصَرَ): خلَقَ يَخْلُقُ، والخَليقة: الخَلائقُ، يُقالُ: هم خليقةُ اللّه، وهم خَلْقُ اللّه، وهو في الأصلِ مَصْدر، وخَلَقَ الإفكَ يخلُقُه، واخْتَلَقَه وتَخلَّقَه: افْتَراهُ، والمُتخَلِّقُ: المُعتدِلُ في طِباعه.

والنَّاسُ يقولون: لا خالقَ إلَّا اللّه، والمرادُ أنَّ هذا اللَّفظَ لا يُطلَقُ إلَّا للّه، إذْ ليس أحدٌ إلَّا وفي فعلِه سَهْوٌ أو غَلَطٌ يَجري منه على غيرِ تقديرٍ، غيرُ اللّهِ ﷻ[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

(2) العسكري، الفروق، ص: 224 - 225، والرّازي، مختار الصِّحاح: (خلق).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (جعل).

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الترغيبُ في قَبُولِ دَعْـوَةِ الأنْـبِـيَاءِ يَكْتَنِفُهُ التَّرهيبُ مِــنَ الـنِّـقَـمِ وَالـتَـنْـبِـيهُ عَـلَى النِّعَمِ

رغَّبَ ﷻ الأُمَمَ في قبولِ دعوةِ الأنبياءِ - عليهم السلام - بالتَّخويفِ أوَّلًا ثمَّ بالتَّرغيب ثانيًا، والتَّرغيبُ إنَّما كان لأجلِ التَّنبيه على كثرةِ نِعَمِ اللّٰهِ تعالى على الخلق، فبدأ بشرحِ تلك النِّعم بقوله: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ ثمَّ أَتْبَعَه بذكرِ أنَّه خلقَ آدمَ وجعله مسجودًا للملائكة.

والإنْعامُ على الأبِ يَجري مَجْرَى الإنعام على الابنِ، والمقصودُ تقريرُ أنَّ مع هذه النِّعمِ العظيمة لا يليق بالأُمَمِ التَّمرُّدُ والجحود؛ بل الأحقُّ والأَوْفى هو شكرُ المنعمِ على سابغِ نِعمه، وأعظمُ الشُّكرِ هو توحيدُه تعالى فلا يُعبدَ معه سواه، والتزامُ دينه وشريعتِه ودَعْوَةِ أنبيائه ورُسُلِه[1].

قِصَّةُ السُّجودِ لآدَمَ وَمَا فيها مِـنَ امْـتِـثَـالٍ وَامْـتِـنَـاعٍ وَأَمْـرُ اللهِ آدَمَ وَنَهْيُهُ وَالمِنَّةُ عَلَى الخَلْقِ

وأيضًا لما تَقَدَّمَ في الآيات السابقة ما يَدُلّ على تَقْسيم المُكَلَّفين إلى طائعٍ وعاصٍ، أَخَذَ يُنَبِّهُ على أنَّ هذا التقسيمَ كان في البَدْءِ الأَوَّلِ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ تعالى الملائكةَ بالسُّجودِ فامْتَثَلَ مَن امْتَثَلَ وامْتَنَعَ مَن امْتَنَعَ، ومِنْ نَهْيِه تعالى آدَمَ وأمرِه، وما وقَعَ من آدمَ فحكى عنه في هذه الآية وما يليها، مُستفتِحًا ببيانِ مَوضع الاعتبار وإظهار المِنَّة على الخلق بالإيجاد من العَدم، والتَّصوير في هذه الصورة البَديعة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾: صَوَرَ: الصَّادُ والواوُ والرَّاءُ كلماتٌ كثيرةٌ

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 14/205، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/362.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/15.

مُتبايِنةُ الأصول، ومن ذلك الصُّورة، صورةُ كلِّ مخلوق، والجمعُ صُوَر، وهي هيئةُ خِلْقته، واللّه تعالى البَارِئُ المصوِّرُ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]، ويُقالُ: رجلٌ صَيِّرٌ إذا كان جميلَ الصُّورة[1].

والصُّورةُ: ما يُنْتَقَشُ به الأعيانُ، ويَتميَّزُ بها عن غيرِها، وذلك ضَرْبان: أحدُهما: محسوسٌ يُدْرِكُه الخاصَّةُ والعامَّة، بل يُدْرِكُهُ الإنسانُ وكثيرٌ منَ الحيوان، كصورةِ الإنسانِ والفَرَس والحِمَارِ بالمعايَنَة. والثَّاني: معقولٌ يدركُه الخاصَّةُ دونَ العامَّة، كالصُّورةِ الَّتي اخْتُصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّوِيَّة، والمعاني الَّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيءٍ. وإلى الصُّورتين أشارَ بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: 64][2]، وبقولِه تعالى في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف: 11]، أي: صوَّرناكم في أرحامِ النِّساء، أو خلقَ الإنسانَ في الرَّحِم، ثمَّ صوَّرَه، فَشَقَّ سمعَه وبصَرَه وأصابعَه[3].

2) ﴿إِبۡلِيسَ﴾، بَلَسَ: الباءُ واللَّامُ والسِّينُ أَصْلٌ واحد يدُلُّ على اليأسِ، يُقال: أَبْلَسَ إذا يَئِسَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77]، ومن ذلك اشْتُقَّ اسْمُ إبْليس، كأنَّه يَئِسَ من رحمةِ اللّه.

والإبلاسُ: الحُزْنُ المعترضُ من شدّةِ البأس، يُقال: أَبْلَسَ، ومنه اشْتقَّ إبليسُ فيما قيل، قالَ ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الرُّوم: 12][4].

ويمكنُ أن يكونَ المعنيان داخلَين في تركيبة اسْم إبْليسَ - لعنه اللّه - فهو آيسٌ من رحمة اللّه، شديدُ الحُزن على اعتراضه على أمرِ اللّه وكِبْره عليه، وكيف لايكون كذلك، وقد لعنَه اللّهُ وطردَه من رحمته؟ لكنَّ حُزنَه ليس حُزنَ ندَمٍ على كبرِه وتحدِّيه لأمرِ اللّه ﷻ، ولو كان بعد لعنِ اللّهِ له؛ فلا فائدةَ منه مَرجُوَّة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنبِّهُ اللّهُ تعالى بني آدمَ في هذا المقام على شرفِ أبيهم آدمَ عليه السلام ويُبيِّن لهم عداوة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صور).
(2) الرّاغب، المفردات: (صور).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/127 - 128، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (بلس).

عدوِّهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحَسَدِ لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه، ولا يتَّبعوا طرائقه، وذلك أنَّه تعالى لَمَّا خلقَ آدمَ ﷺ بيده من طينٍ لازبٍ، وصوَّره بشرًا سَويًّا ونَفخَ فيه من رُوحه، أمرَ الملائكةَ بالسُّجود له تعظيمًا لشأنِ اللّهِ تعالى وجلالِه، فسمعوا كلُّهم وأطاعوا إلَّا إبليسَ لم يكنْ من السَّاجدين(1).

تَبْيِينُ اللهِ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِخَلْقِهِ وَلِأَبِيهِمْ آدَمَ ﷺ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهَا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآيةِ على سابقتِها:

هذا العطفُ نستلُّه من مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها، حيث حدَّثَنا بيانُ اللّهِ، فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فجاء العطفُ تذكيرًا بنعمة إيجاد النَّوع، وهي نعمةُ عنايةٍ ورعايةٍ عظيمة؛ لأنَّ الوجودَ أَشْرَفُ من العَدَم، بغضِّ النَّظَرِ عمَّا يعرِضُ للموجودِ من الأكْدارِ والمتاعب، وبنعمةِ تفضيلِه على النَّوْعِ بأن أمرَ الملائكةَ بالسُّجود لأصله. وأُدمجَ في هذا الامْتنانِ تنبيهٌ وإيقاظٌ إلى عداوةِ الشَّيطانِ لنوعِ الإنسان من القِدَم، ليكونَ ذلكَ تمهيدًا للتَّحذيرِ من وسْوَسَته وتضليله، وإغراءً بالإقْلاعِ عمَّا أَوْقعَ فيه النَّاسَ من الشِّرك والضَّلالة، وهو غرضُ السُّورة الَّتي سَعتْ لترسيخِه والدَّعوةِ إليه، وذلكَ عندَ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وما تلاه من الآيات، فلذلكَ كان هذا بمنزلةِ الاسْتدلالِ وُسِّطَ في خلالِ الموعظة(2).

للتَّذكيرِ بنعمٍ سابقةٍ، وأخصُّها الإيجادُ، وللتَّنبيهِ إلى عداوةِ الشَّيطانِ للحذرِ منه

المرادُ بالخطابِ في الآيةِ:

الخطابُ في الآيةِ للنَّاسِ كلِّهم توطئةٌ لقوله فيما يأتي: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، ويدخل فيه المشركون؛ لأنَّهم الغَرضُ الأساسُ في هذه السُّورة، فهم

الخطابُ للنَّاسِ كافَّةً

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36.

الَّذين سوَّلَ لهمُ الشَّيطانُ كُفرَ هذه النِّعم، لقولِه عَقِبَ ذلك: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: 28]، وقولِه فيما تقدَّم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 3][1].

دَلالةُ المؤكِّداتِ في الآيةِ:

دلَّت المؤكِّداتُ على تحقيقِ كفرِهم بالله إلهًا وخالقًا، وبيانِ تناقُضِهم لإعادتِهم إلى الحقِّ

تأكيدُ الخبرِ بلامِ القَسم وحرفِ (قد) المفيدِ التَّحقيقَ، تنزيلٌ للمُثبت مَنزلةَ مَنْ يُنكِرُ مضمونَ الخبر؛ لأنَّهم لَمَّا عبدوا غيرَ اللّهِ كان حالُهم كحالِ مَنْ يُنكِرُ أنَّ اللّه هو الَّذي خلقَهم وصوَّرهم، ولبيانِ أنَّ من يُشركونَه معه في العبادةِ أو يجعلونَه واسطةً تُقرِّبهم إلى اللّهِ زُلْفى، كما كانوا يدَّعون، هو مخلوقٌ مثلُهم، فكيف يعبدونَه من دونِ اللّه، أو يشركونَه معه في العبادة؟

قالَ تعالى مبيِّنًا تناقضَهم في هذه القضيَّة المهمَّة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، ثمَّ هم أنفسُهم قالَ اللّهُ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3][2].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾:

تراخي التَّصويرِ عنِ الخَلْق

عُطِفتْ جملةُ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالةِ على تَراخي رُتبةِ التَّصويرِ عن رُتبة الخلق، والمعنَى: إنَّا بدأْنا خلقَ آدمَ، ثمَّ صوَّرناه، فابْتداءُ خَلْق آدمَ التراب، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثمَّ وقعتِ الصُّورةُ بعد ذلك، أي: هذا أصلُ خلقكم، ثمَّ إنَّما هي لما بعدُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36 - 37.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33، 36.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/321، 322، وقد نَعى الزّجّاج على من ذهب إلى أن (ثمّ) هنا في معنى الواو، فقال: "زعم الأخفش أنَّ (ثمّ) ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه، وجميع من يُوثَق بعربيَّته، إنَّما (ثمَّ) للشيء الَّذي يكون بعد المذكور قبله لا غير"، وينظر: السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/260.

فائدةُ عطفِ التَّصويرِ على الخَلق:

لبيانِ أنَّ التَّصويرَ إتمامٌ للخَلْقِ على أتْقَنِ صورة

عُطفت جملةُ ﴿صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ على جملةِ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾، لبيانِ أنَّ التَّصويرَ حالةُ كمالٍ في الخلق، بأنْ كان الإنسانُ على الصُّورةِ الإنسانيَّةِ المتقنَةِ حُسنًا وشرَفًا، بما فيها من مشاعرِ الإدراكِ والتَّدبير، سواءٌ أكَانَ التَّصويرُ مقارنًا للخَلْقِ كما في خَلقِ آدم، أم كانَ بعدَ الخلقِ بمدَّة، كما في تصوير الأجنَّةِ من عظام ولحم وعصبٍ وعروقٍ ومشاعر، كقولِه تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 14][(1)].

نكتةُ تعلُّقِ فعلَي الخلقِ والتَّصوير بضميرِ المخاطَبين:

هي توفيةٌ لمقام الامْتنان، وتأْكِيدُ وُجُوبِ الشُّكْرَان

نُسبَ الخلقُ والتَّصويرُ إلى المخاطَبين مع أنَّ المرادَ بهما خلقُ آدمَ وتصويرُه عليه السلام حتمًا، تَوْفيةً لمقام الامْتنانِ حقَّه، وتأكيدًا لوجوب الشُّكر عليهم بالرَّمز إلى أنَّ لهم حظًّا من خَلْقِه عليه السلام وتصويره، لِمَا أنَّهما لَيْسا من الخصائصِ المقصورةِ عليه عليه السلام كسجودِ الملائكة له عليه السلام بل من الأمورِ السَّاريةِ إلى ذُرِّيته جميعًا إذِ الكُلُّ مخلوقٌ ضمن خَلْقِه وتصويرِه، أي: خلقْنا أباكم آدمَ طينًا غيرَ مُصوَّر، ثمَّ صوَّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ سارَ إليكم جميعًا[(2)].

نكتةُ التَّعبيرِ وبلاغةُ الإيجازِ في: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

لبيانِ أنَّ إيجابَ السُّجودِ للملائكة كان بعدَ فضلِ اللهِ على آدمَ بخلقِه وتصويرِه بشرًا سويًّا

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّ المخلوقَ والمصوَّرَ هو آدمُ عليه السلام ومعنَى الكلام: خلَقْنا أصْلَكم، وصوَّرناهُ، فبرَزَ موجودًا مُعيَّنًا بآدم، فإنَّ التَّسميةَ طريقٌ لتعيين المسمَّى، ثمَّ أَظْهَرْنا فضلَه وبديعَ صُنعِنا فيه، فقُلْنا للملائكة: اسْجدوا له، فوقعَ إيجازٌ بديعٌ في نَسْجِ الكلام[(3)].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325 - 326، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/37.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحري والتَّنوير: 8/37.

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

دلَّت (ثُمَّ) على التَّراخي الرُّتْبيِّ

﴿ثُمَّ﴾ هنا عاطفةُ الجملةِ على الجملة، فهي مُقيَّدةٌ للتَّراخي الرُّتْبي لا للتَّراخي الزَّماني، وذلك أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ هنا أرقَى رُتبةً من مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها[1].

معنى (ال) في ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

(ال) في (للملائكة) للجنسِ أو للعهدِ

تعريفُ الـ في ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للجنسِ، أي: لجميعِ الملائكة، أي: قلنا للملائكةِ جميعِهم اسْجدوا لآدم،

وللعهد، أي: الملائكة الَّذين عَهِدَ إليهم اللَّهُ تعالى بعدَ خلقِ اللَّهِ لآدم عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ثمَّ تعليمُ اللَّهِ آدمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثمَّ عَرْضُهُمْ على الملائكةِ إلى أن قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾ [البقرة: 31 - 34].

ويعني هذا: أن يكونَ المأمورون هم الملائكة الَّذين كانوا في المكانِ الَّذي خُلِقَ فيه آدم، ويَحتَمِلُ اسْتِغراقَ الجنسِ كما تقدَّم، وطريقُ أمرِهم جميعًا وسجودِهم جميعًا لآدمَ لا يعلمُه إلَّا اللَّه؛ لأنَّ طُرُقَ علمِهم بمرادِ اللَّهِ عنهم في العالمِ العلويِّ لا تُقاسُ على المألوفِ في عالَمِ الأرض[2].

دَلالةُ الأمرِ في ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾:

الأمرُ للوجوبِ، ولا يُعطي دَلالةً خاصَّةً في مكانِ هذا الأمر

الأمرُ يقتضي الوجوبَ، وأَمْرُ اللَّهِ لابدَّ أن يُنفَّذَ خاصَّةً من قِبَلِ الملائكة الَّذين قالَ اللَّهُ عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التَّحريم: 6].

وأَمْرُ اللَّهِ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدمَ إكرامًا له وإظهارًا لفضلِه،

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/261، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/326، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.

وهذا الأمرُ لا يقتضي أن يكونَ آدمُ قد خُلِقَ في العالمِ الَّذي خُلِقَ فيه الملائكة، بل ذلك مُحتمِل، وكذلك فإنَّ الآيةَ ليستْ نصًّا في أنَّ آدمَ خُلِقَ في السَّماوَاتِ، ولا أنَّه في الجنَّة، وإن كانَ ظاهرُها يقتضي ذلك، وبهذا الظَّاهرِ أخذَ جمهورُ أهلِ السُّنَّة(1).

معنَى اللَّام في ﴿لِآدَمَ﴾:

اللَّامُ للتَّعليلِ أو الاستحقاقِ

دلَّتْ هذه التَّسميةُ على أنَّ المخلوقَ والمصوَّرَ هو آدم، ومعنَى الكلام: أمرَ اللّهُ الملائكةَ بالسُّجودِ لأجل آدم، أو لأنَّه مستحقٌّ لذلك بما هيَّأه اللّهُ فيه لهذه المهمَّة بظهورِ فَضْلِ ما علَّمه اللّهُ من الأسماءِ مالم يُعلِّمه الملائكة، فأظهرَ اللّه فضلَ بديع صنعِه فيه(2).

معنَى الفاءِ في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

الفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، أي: فبادَروا كلُّهم بالسُّجودِ امْتثالًا لأمرِ اللّهِ ﷻ من غيرِ تلعثُم(3).

نوعُ الاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

الاستثناءُ هنا متَّصلٌ أو منقطع

الاسْتثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ لما أنَّه كان جنِّيًّا مفردًا مغمورًا بألوفٍ من الملائكة مُتَّصفًا بصفاتِهم، فَغَلَبوا عليه في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ثمَّ اسْتثني واحدٌ منهم من السُّجود، والأفضل أن يكونَ اسْتثناءً منقطعًا، فحينئذٍ يكون مُتَّصلًا بما بعدَه، أي: لكنَّ إبليسَ لم يكن من السَّاجدين(4).

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

هذه الجملة إمَّا حالٌ، أو اسْتئنافيَّةٌ

جملةُ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لمضمونِ عاملِها، وهو ما دلَّتْ عليه أداةُ الاسْتثناء، لما فيها من معنَى: أَستثني؛ لأنَّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/364، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/37.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/364، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/327.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/322، ومكيّ، مشكل إعراب القرآن: 1/284، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327.

الاستثناءَ يقتضي ثبوتَ نقيض حكمِ المُستَثنَى منه للمُستَثنَى، وهو عينُ مدلولِ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فكانت الحالُ تأكيدًا[1].

ويمكنُ أن تكونَ هذه الجملةُ استئنافيَّةً مبيِّنَةً كَيْفيَّةَ عدمِ السُّجودِ المفهوم من الاستِثناء، فإنَّ عدمَ السُّجُودِ قد يكونُ للتأمُّل، ثمَّ يقعُ السُّجودُ وبه علِمَ أنَّه لم يقع قطُّ[2].

معنى ﴿لَمۡ﴾:

النَّـفـيُ الـتَّـامُّ للسُّجود

دلَّت ﴿لَمۡ﴾ عَلَى الإِخْبَارِ التَّامِّ عن نفيِ سجودِه بجعلِه من غيرِ السَّاجدين، فقلبت معنى المضارعيَّةِ إلى معنى الماضويَّةِ، أي: ما كان ساجدًا، إشارةً إلى أنَّه انْتفى عنه السُّجودُ انْتفاءً شديدًا[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَكُن﴾:

بـيـانُ تـجـدُّدِ استمرارِ نكوصِه عن أمرِ اللهِ

قولُه: ﴿يَكُن﴾ بصيغةِ المضارعِ تدلُّ على أنَّه أبَى السُّجودَ، وتجدَّدَ إباؤه، واستمرَّ على عصيانِه لأمرِ اللّه، والدَّليلُ المؤكِّدُ أنَّه علَّل عدمَ سجودِه بِصيَغٍ عديدةٍ في القرآن الكريم كلِّها تُجلِّي رفضَه تَنْفيذَ أمرِ اللّهِ بالسُّجودِ لآدم[4].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ و(ال) في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لـم يـكـنْ من طائفةِ الملائكةِ السَّاجدين

أشَارَتْ ﴿مِّنَ﴾ إلى معنى التَّبعيض، أي: لم يكن بعضًا من السَّاجدين، ويمكن أن تكون ﴿مِّنَ﴾ ابتدائيَّةً، وأمَّا (الـ)؛ فهي عهديَّةٌ تعود على الملائكة المأمورين بالسُّجود، إشارة إلى أنَّه لم يُقدَّرْ له أن يكونَ من الطَّائفةِ السَّاجدين، أي: انْتفى سجودُه انتفاءً لا رجاءَ في حصولِه بعدُ[5].

---

(1) العكبري، الإملاء: 1/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38 - 39.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/261، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/39.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/39.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/39.

اعتراضُ إبليسَ وتكبُّره على اللهِ ﷻ

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع آياتِ السُّجودِ الأُخرى في القرآن:

في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بيانُ أنَّ إبليسَ لعنه الله لم يكنْ ممَّن سجدَ لآدمَ عليه السلام معترضًا على الله متكبِّرًا على الامتثالِ لأمرِه تعالى.

وقد وردَ لهذه الآيةِ نظائرُ في القرآن الكريم في بيانِ عدم سجودِ إبليسَ لعنَه الله لآدمَ عليه السلام بصيَغٍ مختلفةٍ وأساليبَ متنوِّعة، ومن هذه الآيات:

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 31]، و﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]، و﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]، و﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116].

يتبيَّنُ من خلالِ الآياتِ السَّابقةِ أنَّ بيانَ اللهِ اسْتخدَمَ الفعلَيْن ﴿أَبَىٰ﴾ و﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ في حقِّ إبليس - لعنَه الله - بقولِه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ١١٦﴾ [طه: 116] وقولِه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34] أو بغيْرِهما.

وفي سورةِ طه وردَ في معصيةِ آدمَ أنَّه نسيَ بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾ أي: عن جَهْل، أمَّا إبليسُ ف﴿أَبَىٰ﴾ [طه: 116] أي: عن عمد.

وفي الحِجْر تميَّزتِ السُّورةُ بالتَّكرارِ لذا جاءَ فيها ﴿أَبَىٰ﴾ [الحجر: 31].

وفي سورة (ص) جاءَ ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: 74]؛ لأنَّ السُّورة بُنِيتْ على اسْتكبارِ الكَفرةِ وكونِهم ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ [ص: 2].

وسورةُ البقرة جمعتْ بين التَّعبيرَيْن، وفي جميعِ السُّوَرِ جاءَ لفظُ (أبَى) عدا سورة الأعراف و(ص) لم يأتِ فيهما (أبَى).

وجاء السِّياقُ مختلفًا لا يحدثُ فيه لَبْس في سورتي الإسراءِ والكهفِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: 61].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: 50].

وقولُه في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ وفي (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [ص: 75] وفي الحِجْر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الحجر: 32] بزيادةِ ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ في السُّورتَينِ؛ لأنَّ خطابَه قرُبَ من ذكرِه في هذه السُّورة، وهو قولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ فَحَسُنَ حَذْفُ حرفِ النِّداءِ والمنَادَى، ولم يقربْ في سورة (ص) قُربَه منه في هذه السُّورة؛ لأنَّ في سورة (ص): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 74] بزيادةِ ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ فزادَ حرفَ النِّداء والمنادَى، فقالَ: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ وكذلك في الحِجْر، فإنَّ فيها: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: 31] بزيادة ﴿أَبَىٰٓ﴾، فزادَ حرفَ النِّداءِ والمنادَى، فقالَ: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(إبليس) و(الشَّيطان) و(الجنّ):

إبليسُ أوْلى بالسِّياقِ فهو أصلُ الجنِّ والشَّياطين، وأيسَ من رحمةِ الله لتكبُّرِه على أمرِه ﷻ

الشَّيطانُ هو الشِّرِّيرُ من الجنِّ وهو من شطنَ، أي: تباعد، ولهذا يُقالُ للإنسانِ إذا كان شرِّيرًا: شيطان، ولا يُقالُ جنِّي؛ لأنَّ قولَكَ: شيطان، يُفيد الشَّرَّ، ولا يُفيدُه قولُك: جنِّي، وإنَّما يُفيد الاستِتارَ والخفاءَ الَّذي هو معنَى الجنِّ، ولهذا يُقالُ على الإطلاق: لعنَ اللّٰهُ الشَّيطان، ولا يُقالُ لعنَ اللّٰهُ الجنِّي.

والشيطانُ: اسمٌ لكلِّ عارمٍ من الجنِّ والإنسِ والحيوانات، قالَ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112].

والجنِّيُّ: اسْمُ جِنسٍ، والشَّيطانُ صفةٌ، وقيل: الشَّياطينُ جنس،

(1) الكِرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن: ص116، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، 327 - 328.

والجنُّ جنس، كما أنَّ الإنسان جنس، والفَرَسَ جنسٌ آخر، والجنُّ منهم أخيارٌ ومنهم أشرار، والشياطينُ اسْمُ أشرارِ الجنِّ ومُتمرِّديهم(1).

وإبليسُ أصلُه من اليَأس، قالَ تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٧﴾ [المؤمنون: 77] ومن ذلكَ اشْتقَّ اسْمُ إبليس، كأنَّه يئِسَ من رحمةِ اللّه.

وإبليسُ: أصلُ الجنِّ والشَّياطين، وهم جميعًا مخلوقون من مارجٍ من نارٍ، ويُقالُ: أَبْلَسَ؛ إذا حَزِن، ومنه اشْتُقَّ إبليسُ كذلك، قالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾ [الرُّوم: 12](2).

(1) الرّاغب، المفردات: (جن)، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/32، والعسكري، الفروق، ص: 307، والكفوي، الكليّات: 2/169، 3/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (بلس).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: 12]

المناسبةُ بينَ أمرِ اللـهِ للملائكةِ بـالـسُّـجـودِ، وجـوابِ إبليسَ المكابرِ المتغطرسِ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا كان ترْكُ إبليسَ السُّجودَ لآدم بمنزلةِ جوابٍ عن قولِ اللّٰه: ﴿ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، فكانَ بحيثُ يتوجَّه إليه استفسارٌ عن سببِ تركِهِ السُّجودَ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ في مقامِ سؤالٍ نشأَ من حكايةِ عدمِ سجودِ إبليسَ لآدمَ[1]، وسألَ اللّٰهُ تعالى إبليسَ، عن امتناعه عنِ السُّجود حينما أمرهُ بالسُّجود، فردَّ عليه في صَلَفٍ وغرورٍ، قائلًا: إنَّه خيرٌ من آدمَ؛ لأنَّه مخلوقٌ من نارٍ، وآدمُ مخلوقٌ من طينٍ، والنَّارُ أفضلُ وأشرف مِنَ الطِّين في رأي إبليسَ؛ لذلك لم يسجدْ لآدمَ، والأفضلُ لا يسجدُ للمفضولِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَكَ﴾: المَنْعُ: خلافُ الإعطاء، وقد منعَ فهو مانعٌ ومنوع ومنَّاع، ومنعتُ الرَّجلَ عنِ الشَّيءِ، فامتنعَ منه، ومانعتُه الشَّيءَ ممانعةً، ومكانٌ منيعٌ، وقد مُنع بالضَّمِّ مناعةً، وفلان في عزٍّ ومَنَعَة بالتَّحريك، وقد يُسَكَّن[3]، قال الفرزدق:

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الوَائِدَاتِ *** وَأَحْيَا الوَئِيدَ فَلَمْ يُوأَدِ[4]

ويقال: المنعُ: هو الحجزُ بينَ شيئينِ، أو أَنْ يُحالَ بينَ المرادِ ومريدِه، دون الوصول إليهِ، فيصدُقُ بمنعِ الإعطاءِ؛ لأنَّ الحاجزَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/39.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 967.
(3) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (منع).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وأد).

يحجزُ بينَ المعطِي والعطيَّةِ، ومنه رجلٌ مانعٌ ومنَّاعٌ، أي: بخيلٌ، وَرجلٌ منيعٌ: لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، وَفُلَانٌ فِي عزٍّ وَمَنَعَة في قومِه، أي: يمنعونَه ويحمونَه، و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ في الآيةِ بمعنى: ما الَّذي حالَ بينك وبينَ السُّجودِ؟ أو بمعنى: ما حملكَ على تركِ السُّجودِ؟[1].

2) ﴿أَمَرْتُكَ﴾: منَ الجذر اللّغويّ (أمر)، والأمرُ بمعنى طلبِ حصولِ الفعلِ، هو ضدُّ النَّهي، وجمعُهُ: أَوَامِرُ؛ فَرْقًا بَيْنَهُ وبينَ الأمر بمعنى الْحَالِ، ويجمع: أُمُورٌ، والأصلُ في الأمر أن يدلَّ على عُلُوِّ الآمرِ، ونفاذِ أمرِه، ومنه الأميرُ، أي: ذو الأَمْر، وهو الَّذي له أنْ يطلبَ استحداثَ أشياءَ أو عملَها، و﴿أَمَرْتُكَ﴾ في الآية، بمعنى: الأمرِ الواجبِ النَّفاذ[2]، قال الشَّاعر:

أمرتُك الخَيرَ فافعَل ما أُمِرْتَ به *** فقد تركْتُك ذا مالٍ وذا نَشَب[3]

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قال تعالى مُنكِرًا على إبليسَ تَرْكَ السُّجود، وموبِّخًا له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ قال إبليس: أنا أفضلُ منه خَلْقًا؛ لأنَّك خلقتَني من نَّار، وخلقتَ آدمَ من طين، فرأى أنَّ النَّار أشرفُ منَ الطِّين، والقول منَ اللّه لإبليسَ "إنكارٌ عليه، وتوبيخٌ له، واستخراجٌ لكفره الَّذي كان يُخفيه، بما يبدي من جوابه؛ ليعلم الخَلقُ سببَ طردِه"[4].

توبيخُ إبليسَ على فعلِهِ المشهودِ، وتعاليه على أمرِ ربِّه بالسُّجود

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآيةِ الكريمة:

فصَّلَ في قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، موردًا الكلامَ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، مَسوقًا للجوابِ عن سؤالٍ

تشويقُ السَّامعِ واستدرارُ إصغائهِ لما هو مهمٌّ

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (منع).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أمر).
(3) الخطّابيّ، غريب الحديث: 1/243.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/364.

نشأَ من حكايةِ عدم سجودِه، كأنَّه قيلَ: فماذَا قالَ اللّه تعالى حين أعرضَ عنِ السُّجود، وعدم امتثالِه لأمرِ اللّه تعالى؛ تشويقًا للسَّامع إلى خبره، واستدرارًا لإصغائه لما هو مهمٌّ في الكلام، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾[1]، والمعنى: "﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾، أي: ما صرفك إلى أن لا تسجدَ؟ كما قال القاضي: "ذكرَ اللّهُ المنعَ، وأراد الدَّاعي، فكأنَّه تعالى قال: ما دعاك إلى أن لا تسجدَ لآدم؟ لأنَّ مخالفة أمر اللّه تعالى حالةٌ عظيمة، يُتَعجَّب منها، ويُسأَل عنِ الدَّاعي إليها"[2].

براعةُ الالتفاتِ:

توبيخُ إبليسَ بالإنكارِ عليه، والتَّنبيهُ على عظمِ مخالفتِه

قولُه تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ انتقلَ فيه من صيغةِ التَّكلُّم في الآية السَّابقة إلى صيغة الغيبةِ على طريق الالتفاتِ، وهو من مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذ كان مقتضاهُ أن يقولَ: (قلنا)، وفي الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيبةِ نُكتٌ لطيفةٌ، وهي تحويلُ مقامِ الكلامِ؛ إذ كان المقامُ مقامَ أمرٍ للملائكةِ ومَن في زمرتهم، فصار مقامَ توبيخٍ لإبليسَ خاصَّةً، ولتنبيهِ السَّامعِ على سببِ مخالفةِ إبليسَ أمرَ اللّهِ تعالى، وأيضًا: لـمَّا كانت مخالفةُ الملكِ العظيم أمرًا مهولًا؛ عُدِلَ عِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبة؛ زيادةً في الإنكارِ على إبليس، وإشعارًا بهولِ مخالفة أمرِ اللّه، وبالالتفات ظهرَ وجهُ مجيء الكلام على طريق الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ لا وجهَ لتقديرِ السُّؤالِ على وجه المخاطبةِ، وفيه فائدةٌ أخرى؛ هي الإشعارُ بعدم تعلُّقِ المحكيِّ بالمخاطَبين مِنَ الملائكة، كما في حكاية الخلْقِ والتَّصوير[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/342.
(2) محمّد بن عمر نووي الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/363.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/39.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾:

استخراجُ كُفْرِ إبليسَ الَّذي كان يُخفيه؛ ليعلمَ الخلقُ سببَ طردِهِ

جاءَ الاستفهامُ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ على طريقِ المجازِ؛ إنكارًا على إبليسَ، والغرضُ منه توبيخُ إبليسَ وتقريعُه، وليَسْتَخرجَ كفرَهُ الَّذي كانَ يُخفيه، بما يُبدي مِن جوابِه؛ لِيعلمَ الخلقُ سببَ طردِه[1]، و﴿مَا﴾: اسمُ استفهام، في محلِّ رفعِ مبتدأ، وجملةُ ﴿مَنَعَكَ﴾ في محلِّ رفعِ خبرُها، والمعنى: أيُّ شيءٍ منعك؟ ومَفادُ السُّؤال: "﴿مَا مَنَعَكَ﴾؟ محمولٌ على (ما حملكَ، وما دعاكَ؟) مجازًا أو تضمينًا، وقال الرَّاغب: "المنعُ ضدُّ العطيَّة، وقد يقال في الحماية، والمعنى: ما حماكَ عن عدم السُّجود، ولا يخفى أنَّ السُّؤال عنِ المانع مِنَ السُّجود، مع علمه به، للتَّوبيخ، ولإظهار معاندتِه وكُفْرِه وكِبرِه وافتخاره بأصله، وتحقيرِه أصلَ آدمَ عليه السلام"[2].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الاعتراضُ على أوامرِ اللهِ من عظائمِ الأمورِ

وناسبَ مجيءُ الكلامِ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ أيضًا؛ لإظهار معاندةِ إبليسَ باعتراضِه على اللهِ تعالى، وتكبُّرِه على الأمرِ الإلهيِّ، وافتخارِه بأصلِه، وازدرائه لأصلِ آدمَ، وللإيذانِ بأنَّه خالفَ أمرَ ربِّه، مُعتقدًا أنَّه غيرُ واجبٍ عليه، ولتعظيم شأنِ الاعتراضِ على اللهِ سبحانه[3]، ومعلومٌ أنَّ أوَّلَ من قاس أمرَ الدِّين برأيه إبليسُ، قَالَ جَعْفَر: "فَمن قَاس أَمرَ الدّين بِرَأْيِه؛ قرنه اللهُ تعالى يوم القيامة بإبليس؛ لِأَنَّهُ اتَّبعهُ بالقياس"[4]، ولا غروَ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا؛ لأنَّ الفعل مُستَنكرٌ، ولم يكن إبليسُ جاهلًا، بل كان عارفًا بوحدانيَّة اللهِ، ومُدركًا لـمَغَبَّة المخالفة للأوامر الإلهيَّة، وقد أضلَّه اللهُ على علمٍ، فغلبت عليه شِقْوتُه، فأودتْ به، وقد عبَّر القرآن عن معرفة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/364.
(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/12.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/89.
(4) السّيوطيّ، الدّرُّ المنثور: 3/425.

إبليسَ بالعواقب، بما يقولهُ لِمَن يُغرِّر بهم، بعد انجلاءِ الحقِّ، وزهوقِ الباطل، يوم يُبعثُ النَّاسُ لربِّ العالمين، بما نَصُّه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22].

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾؟

توبيخُ إبليسَ على كبريائِه الَّتي حالتْ بينَهُ وبينَ الانصياعِ لأمرِ اللهِ

المنعُ: هو أنْ يُحالَ بينَ المرادِ ومُريدِه، ولمَّا كانَ المنعُ يدلُّ على الرَّغبةِ في الحصولِ على الشَّيءِ، والتَّنافسِ فيه؛ أفادَ الكلامُ الإنكارَ على إبليسَ، وتوبيخَه وتقريعَه؛ إذْ فوَّتَ الامتثالَ لأمرِ اللهِ فيما كان ينبغي أن يتنافسَ إبليسُ في سُرعةِ امتثالِه لأمرِه تعالى، فأشعرَ الكلامُ أنَّ الَّذي منعَ إبليسَ من سجودِه؛ ما أضمرَه في نفسِه، ممَّا هو أعظم عندَه مِنَ الامتثالِ لأمرِ اللهِ تعالى، فيكون تمهيدًا لذكر سببِ المنعِ المؤهِّل، لاستحقاقِه العقابَ بالهبوطِ[1]، وإنَّما ذُكِرَ المنع؛ لأنَّه أقوى دلالةً على معنى الإنكارِ من غيره، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ٩٢﴾ [طه: 92][2]، "و(لا): مزيدةٌ للتَّنبيه على أنَّ الموبَّخ عليه تَرْكُ السُّجود، ولتوكيدِ معنى الفعل الَّذي دخلت عليهِ وتحقيقِه، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحديد: 29]، كأنَّه قيلَ: ليتحقَّقَ عِلْمُ أهلِ الكتاب، وما منعك أن تُحقِّقَ السُّجود، وتُلْزِمَهُ نفسَك"[3].

التَّنوُّعُ بين التَّضمينِ والمجازِ المرسلِ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[4]؟

المنعُ أقوى دلالةً على الإنكارِ في السِّياقِ من غيرِه مِنَ الصِّيغِ

في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يحتملُ الكلامُ أن يكونَ على تضمينِ الفعل

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/297.

(2) الرّاغب، المفردات: (منع)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 376.

(3) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/12.

(4) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ﴾: هذهِ العبارةُ من براعةِ بلاغةِ القرآنِ؛ لإفادتِها معانيَ كثيرةً متنوِّعةً مناسبةً لسيَاقِ الكلامِ مع وجازتِها، وبيانُ الأمرِ: أنَّ (لا) تحتملُ أن تكونَ على أصلِها؛ لتفيدَ النّفيَ، وتحتملُ أن تكونَ زائدةً، ففي الكلام توجيهاتٌ بلاغيَّةٌ متنوّعةٌ، تظهر في المباحث اللّاحقة.

﴿مَنَعَكَ﴾ معنى: اضطرَّك، أو يكونَ المنعُ مجازًا عنِ الاضطرارِ، و(لا) قرينةٌ على المجازِ؛ فإنَّ الممنوعَ عنِ الشَّيء مضطرٌّ إلى خلافه، فيكونُ مِنَ المجازِ المرسلِ باعتبار المآلِ، وتكونُ (لا) على أصلِها في النَّفي في الحالتين، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان الممنوعُ عنِ الشَّيءِ مضطرًّا إلى خلافِ ما مُنِعَ منه، جاء بـ (لا) لِمناسبة الكلام، فكأنَّ (مَنَعَ) تضمَّنَ معنى الاضطرارِ، والمعنى: ما منعكَ مِنَ السُّجودِ، واضطرَّكَ إلى تركِه؟ أو يكونُ على المجازِ المرسل، والمعنى: ما اضطرَّك إلى ألَّا تسجدَ[1]، ويُحتمَل أنْ يكونَ ﴿مَنَعَكَ﴾ مرادًا به (حَمَلَك)، أو (دعاك)، وتكونَ (لا) على أصلِها في النَّفي كذلك، وهي قرينةٌ على المجازِ كذلك، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كانت مخالفةُ أمرِ اللهِ تعالى حالةً عظيمةً، يُتعجَّب منها، ويُسألُ عنِ الدَّاعي إليها، والسَّببِ في الأمرِ، جاء بهذا الأسلوبِ، والمعنى: ما دعاك إلى ألَّا تسجدَ؟ أو ما حملَك على تَرْك السُّجودِ؟ فذكر المنعَ وأراد الدَّاعيَ أو الحاملَ، ويكونُ الفعلُ موصولًا إلى المفعول بحرف الجرِّ (إلى) في الحالتين، وإنّما ذُكِرَ المنعُ؛ لأنَّه أقوى دلالةً على معنى الإنكارِ من غيره، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ [طه: 92 - 93][2].

بلاغةُ اعتبارِ القرائنِ الدَّالَّةِ على المعنَى في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾:

لا مـانـعَ لإبـليـسَ مِـنَ السُّجودِ لآدمَ سـوى التَّـأبِّي والغَطرسةِ

لـمَّا كانَ الاستفهامُ على سبيلِ الإنكارِ؛ أفادَ مجيءُ (لا) السُّؤالَ عن سببِ تركِ السُّجود، مع اعتبارِ القرائنِ الدّالَّة على وجوب امتثالِ أمرِ اللهِ تعالى، والمعنى: أيُّ شيءٍ منعكَ عن تركِ السُّجودِ، مع أنَّه لا يوجدُ أيُّ مانعٍ منه ويكونُ الفعلُ على أصله في تعلُّقِه بالمفعولِ بحرف

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/325، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/343.

(2) الرّاغب، المفردات: (منع)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والسّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 376.

الجرِّ (مِن)، فيكون المعنى كقول القائل لِمَنْ ضربه ظُلمًا: ما الَّذي منعكَ مِن ضَرْبي، أَدِينُكَ، أم عقلُك، أم حياؤك؟ والمعنى: أنَّه لم يوجد أحدُ هذه الأمور، ومع هذا ما امتنعتَ مِن ضَرْبي[1]، والمعنى: هل منعكَ كبرياؤك؟ أم نُكْرانُك؟ أم حسبتَ نفسكَ مِنَ الملائكة العالين، الَّذين لا يشملهم الأمرُ؟ وعلى القياس: لا يوجد شيءٌ من هذا، ومع ذلك رفضتَ السُّجود لآدمَ كما أمرتُك.

سرُّ تأكيدِ المعنى وتقريرِه بزيادةِ ﴿أَلَّا﴾ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾:

لا تـزادُ (لا) إلَّا في أمـرٍ عظيمٍ شـأنُـه، ممَّا ينبغي التَّنبُّه له

لـمَّا كانت هذهِ العبارةُ قد صرَّحت بعدم سجودِه؛ كان المعنى غيرَ مُلْبِسٍ بإدخالِ (لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، فتكون (لا) زائدةً، ولا تزاد (لا) إلَّا في أمرٍ عظيمٍ شأنُه، ممَّا ينبغي التَّنبُّه له، فأفادت (لا) توكيدَ معنى الفعلِ الذي دخلت عليه وتحقيقَه، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، بمعنى: أمري لك بالسُّجود أُوجِبُه عليك إيجابًا، وأُحَتِّمُه عليك حتمًا؛ ناسب أن يأتيَ في سياقِه ما يُحقِّق هذا الإيجابَ، كأنَّه قيلَ: وما منعكَ أن تُحقِّقَ السُّجودَ، وتُلزِمُه نفسَك، إذْ كان أمري لك حتمًا وإيجابًا؟ فكانت (لا) مُؤكِّدةً معنى الفعلِ: ﴿تَسْجُدَ﴾ الَّذي دخلت عليه، ومُنبِّهة على أنَّ الـمُوَبَّخ عليه تركُ السُّجود[2].

مناسبةُ اقترانِ (لا) النَّافيةِ بلفظِ ﴿مَنَعَكَ﴾ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾:

ذِكْرُ (لا) النَّافية أفاد التَّوسُّع في المعنى

يُحتمل أن يكونَ مجيءُ لفظِ (لا) لِمَا ناسبه مِن لفظِ المنع في السِّياق، فتكون (لا) على أصلها في النَّفي؛ لتفيدَ تأكيدَ الدَّلالةِ على الإنكارِ والامتناعِ مِنَ الفعلِ، والإقدامِ على التَّرك، فيكون كأنَّه قيل: ما منعكَ مِنَ السُّجود وحَمَلكَ على تَرْكه؟ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/207.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/89، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/17، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/343.

﴿تَسۡجُدَ﴾، فأفادَ التَّعبيرُ بـ(لا) هنا معنيين، ولو حُذِفت (لا) لأفاد الكلامُ معنًى واحدًا[1].

الإنكارُ على إبليسَ بتركِ السُّجود بالاستفهامِ عن سببِ عدمِ السُّجود:

تأرجُحُ (لا) بين الزِّيادة والأصالةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ

قولُه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾، لنا أن نسألَ: كيف يكونُ الإنكارُ على إبليسَ بترك السُّجود، بالاستفهامِ عن سبب عدم السُّجود؟ يجيبُ المفسِّرون على هذا بأجوبة كثيرة؛ منها: القول بأنَّ (لا) النَّافية زائدةٌ، وهو أرجحُ الآراءِ عندهم، والقولُ بزيادة اللَّام لا معقول له إلَّا - عند القائلين به - أنَّه يسوِّي النَّظم القرآنيَّ، ويمنعُ اضطرابَ المعنى، أو فساده! ولا يشفعُ لهذا القولِ ما جاؤوا به من شواهدَ مِنَ الشِّعر العربيِّ بزيادةِ حرف النَّفي (لا) عند الشُّعراء، فالقرآن حُجَّة على الشِّعر، وليس الشِّعر حُجَّة على القرآن، والقرآنُ لا علاقةَ له بالضَّرورات الشِّعريَّة الَّتي تُجيزُ للشَّاعر ما لا يجوز لغيره، ثمَّ إنَّ القرآن ليس من قول بشرٍ حتّى تحكمه الضَّرورةُ، وتلتمسَ لقائلهِ المعاذيرَ، ولكنَّه كلامُ اللهِ الَّذي وُصِفَ بأنَّه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 42]، قال صاحبُ (التَّفسير القرآنيُّ للقرآن): "وإذن فحرفُ النَّفي (لا) حرفٌ أصيل، هو من صميمِ النَّظم القرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ، له مكانهُ مِنَ الإعجازِ الَّذي تحملُه الآيةُ الكريمةُ، ولو حُذِفَ؛ لحُذِف معه بعضُ ما في الآيةِ من إعجازٍ"[2].

دلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

استمرارُ إبليسَ على تمرُّده، مع علمِه إنكارَ اللهِ عليهِ ذلك الفعلَ

عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ على مطلقِ تركه للسُّجودِ، من غيرِ نظرٍ إلى طولِ السُّجودِ أو قِصَرِه، أو أيِّ وصفٍ آخرَ مقيِّدٍ للسُّجودِ، وللإشعارِ باستمرارِ إبليسَ على عدمِ الامتثال، وأنَّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/364.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/372.

لن يسجدَ لآدمَ، وإنْ علمَ إنكارَ اللّه على عدمِ امتثالِه، لِمَا تدلُّ عليه (أنْ) الدَّالَّة على الاستقبالِ معَ الفعلِ المضارع.

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡجُدَ﴾:

تصويرُ قبحِ امتناعِ إبليسَ عنِ السُّجود زيادةٌ في تقبيحِ حالِه

في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ جاء الفعلُ بصيغةِ المضارع؛ لتصويرِ الحالةِ القبيحةِ لإبليسَ، في تركِ السُّجود بعدَ أن أمرَه اللّه تعالى به، وهو قادرٌ عليه، زيادةً في توبيخِه وتقريعِه؛ لتحذيرِ النَّاس منه، والسُّجود للّه غايةُ العبوديَّة له، وقد أمر اللّهُ به الملائكةَ، وتقرَّب به الأنبياءُ والرُّسل المكَرَّمون إلى اللّه، ولا سجودَ في الكونِ إلَّا للّهِ، فإذا تمحَّض السُّجودُ للخالق؛ رَفَعَ عنِ المخلوق حَرَجَ السُّجود للمخلوق، ووجَّهَ خضوعَهُ للّهِ وحده دون سواهُ.

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾:

علَّةُ الإنكارِ على إبليسَ عدمُ الامتثالِ للآمِرِ، وليس تَرْكَ السُّجودِ لآدمَ عليه السلام

جاءُ ظرفُ الزَّمان ﴿إِذۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ على إبليسَ في تركِه السُّجودِ كان في وقتِ أمرِ اللّهِ له به، والمعنى: "ما منعَكَ منَ السُّجود في وقت أمري إيَّاكَ به"[1]، ولمَّا كانت ﴿إِذۡ﴾ هنا مشعرةً بالتَّعليلِ؛ أفادت أنَّ الإنكارَ عليه بسببِ عدمِ امتثالِه لأمر اللّه، وليس لخُصوصيَّة تركِ السُّجودِ لآدمَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَمَرۡتُكَۖ﴾:

امتناعُ إبليسَ استمرارٌ للعصيانِ، وهو يقتضي استمرارًا للعقوبةِ

أفاد التَّعبيرُ بقولِه: ﴿أَمَرۡتُكَۖ﴾ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ تأكيدَ الأمرِ بالسُّجودِ لإبليسَ؛ ليدلَّ على أنَّ ما أمرَه به على الحقيقةِ لا على المجازِ، وللإشعارِ بأنَّ اللَّعينَ لمَّا لم يسجدْ، بقيَ أمرُ الامتثالِ عليه مستمرًّا، فيقتضي استمرارَ العقوبةِ واللَّعنِ.

مناسبةُ تجريدِ الخبرِ عنِ الجمعِ في قوله: ﴿أَمَرۡتُكَۖ﴾:

لمَّا تجرَّدَ الخبرُ عن جمعِ المخاطبينَ؛ ليكونَ للمفرد المخاطَب،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/264.

بتوجيهِهِ هنا إلى إبليسَ، مع أنَّ الأمرَ بالسُّجودِ موجَّهٌ إلى الملائكةِ أيضًا، وليس له وحده؛ لكن حين تجرَّدَ الخبرُ لإبليسَ وحدَهُ؛ دلَّ على التَّغليظِ عليهِ، ولِتصويرِهِ في صورةِ مَنْ خصَّه اللّٰهُ بالأمرِ فعصاهُ، وفيهِ منَ التَّقريعِ والتَّوبيخِ له ما فيه[1].

إبرازُ إبليسَ في صورةِ مَنْ خصَّهُ اللهُ بالأمرِ فعصاهُ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قالَ في هذه السُّورةِ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من دونِ نداءٍ لإبليسَ اللَّعينِ، وقالَ في سورةِ (ص): ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [الآية: 75] وفي (الحِجْر): ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الآية 32]، فَحُذِف المنادى في هذه السُّورةِ لقُربِ مُضيِّ ذِكْرِهِ هنا، في قولِه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فلم يحتجْ إلى إعادةِ اسم إبليسَ اللَّعينِ بالنِّداء[2].

لمَّا قَرُبَ الذِّكرُ في (الأعراف) حُذِف نداءُ إبليسَ، بينما ذُكِرَ في آيتي (ص) و(الحجر)

أدمجَ إبليسُ في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ، فاستحقَّ اللَّعنةَ:

قالَ اللّٰه تعالى هنا: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وقال في سورةِ (الحِجْر): ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، وفي سورة (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فذكَرَ لفظ ﴿مَنَعَكَ﴾ في سورة (الأعراف وص)، ولم يَذكرْهُ في سورة (الحِجْر)، كما أنَّهُ جمع بين لفظِ المنع، ولفظِ (لا) في سورة (الأعرافِ)، فقال: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾، وفي سورة (ص)، ذكر ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: 75] من غير (لا)، وأمَّا في سورةِ (الحِجْر)؛ فذكرَ ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحجر: 32]، وبيانُ أسرارِ هذه المتشابهات، هو أنَّهُ في سورة الأعرافِ قالَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾؛ لِيتوسَّلَ إلى تصريحِ إبليسَ بخيريَّته، ومقارنتِهِ بين خَلْقِه وخلقِ آدم،

معاندةُ القُدْرةِ بالعصيانِ والتَّطاولِ تؤولُ إلى اللَّعنةِ والهلاكِ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/362.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن:/216.

الَّذي يدلُّ على تكبُّرِه وعتوِّه، فناسبَ قولَه: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، بعدَ أن تقدَّم في هذه السُّورة ذكرُ خَلْقِ الإنسان وتصويره، من غير ذكر المادَّة الَّتي خُلق منها، فاستوفى ذكر المادَّتين، وبنى على ذلك ما توهَّم من فضل النَّار على الطِّين، ولهذا جاء ما في سورة (ص) موافقًا لما في آية الأعراف، إذ صرَّح بخيريَّته وأفضليَّته، فقال ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦﴾ [ص: 76]، وأمَّا آيةُ الحِجْر؛ فقد تقدَّمَ قبلها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 26 - 29]، فأشارت الآيةُ بظاهرها إلى أنَّ إبليسَ مِنَ الملائكةِ، وقد نطقتِ الآيةُ أنَّ الملائكة همُ المأمورون بالسُّجود، فقيل: (معهم)، إذ هو ليس منهم، وبحسب ذلك استُؤنِفَ نداؤه، فقيل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحِجْر: 32]، ولم يقل: (ما منعك؟)؛ لأنَّ ذلك لو قيل، كان يقتضي أنَّه منهم، ولم يكن ليناسب ما أشار إليه صدرُ الكلام، من أنَّه ليس منهم، فنُودي باسمهِ المشعر بطردِه، ومغايرته لهم، فقيل: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾، فتناسب أيضًا ما ورد في الحِجْر من تبيينِ خَلْقِ إبليسَ مِنَ النَّار، وفصلِهِ مِنَ الملائكة ما أعقبَ بِهِ من محكيِّ قولِه: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٣٣﴾ [الحجر: 33]، واحتقارِه مادَّةَ الطِّين، وتفضيلِه مادَّةَ النَّارِ عليها، ثمَّ إنَّه قال في سورة (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: 75]، فكان اختلافُ العبارات عند الحكايةِ دالًّا على أنَّ اللَّعينَ قد أدمج في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، ومفارقةَ الجماعة، والإباءَ عنِ الانتظام في سلكِ أولئك المقرَّبين، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ عليه السلام، وقد وُبِّخ حينَئذٍ على كلِّ واحدةٍ منها، لكن اقتُصر عند الحكاية في كلِّ موطنٍ على ما ذُكِر به، اكتفاءً بما ذُكِر في موطن آخر؛ إشعارًا بأنَّ كلَّ واحدةٍ منها كافيةٌ في التَّوبيخ، وإظهارِ بطلان ما ارتكبَه[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾:

لـمَّا كان سؤالُ اللهِ لإبليسَ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخ على اعتراضِه على الله تعالى، في أن أمرَه بالسُّجودِ، وإنكارُه تعالى على تركِه السُّجودَ، وعدمِ امتثالِه لأمرِه سبحانه؛ جاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216.

الكلامُ مَسوقًا للجوابِ عن سؤالٍ مفادُه: فماذا قال إبليس اللَّعين عندَ ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فَنُزِّلَ الكلامُ منزلةَ مَن يَسأل عَمَّا أجاب به إبليسُ، فإنَّ مَنۡ يسمعِ السُّؤالَ؛ يتشوَّقۡ لمعرفةِ الجوابِ[1].

جــوابُ إبـلـيـسَ المُدرَجُ، يقتضي تـنـزيـلَ الـكـلامِ منزلةَ الـسُّـؤالِ المقدَّرِ

مجيءُ الجوابِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾:

جوابُ إبليسَ اللَّعينِ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ليس عمَّا سُئِلَ عنه، فلم يطابق جوابُه السُّؤالَ، فكان على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، إنَّما هو جوابُ (أيُّكما خيرٌ)، ولكنَّه جاء بكلامٍ يتضمَّنُ الجوابَ والحُجَّةَ عليه، فكانَ الظَّاهرُ أن يقولَ في الجوابِ: منعني كذا، فجاءَ الجوابُ بطريقةِ استئنافِ قصَّةٍ أخبرَ فيها عن إنكاره الأمرَ، واستبعادِهِ لأن يكونَ مثلُه مأمورًا بالسُّجودِ لمثلِ آدمَ، وأخبرَ فيها كذلكَ عن نفسِه بالفضلِ على آدمَ، وبعلَّةِ فضله عليهِ؛ وهو أنَّ أصلَه من نارٍ، وأصلَ آدمَ من طينٍ، فكأنَّه قالَ: المانعُ أنِّي خيرٌ منه، حينَ خلقتني من نارٍ، وخلقتَهُ من طينٍ، وإذا كانَ كذلك، فالنَّاشئُ مِنَ الأفضل لَا يَسۡجُدُ للمفضولِ، فكيف يحسُنُ أن يؤمَرَ به، فسُلِكَ في الكلامِ الإيجازُ البليغُ[2].

تعاظَمَ إبليسُ، واسـتـنـكـفَ عـنِ الـسُّجـودِ لآدمَ، فطالتهُ اللَّعناتُ

مناسبةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾:

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ ثبوتَ مضمونِ الجملةِ، وهي تُفۡصِحُ عن معنى: أنَّ إبليسَ قَصَدَ إثباتَ خيريَّتِهِ على آدمَ، وأنَّها أمرٌ دائمٌ؛ تعنُّتًا منه، "فقد أمرهُ اللَّهُ ﷻ بالسُّجود، وكان عليه أن يمتثلَ لهذا الأمرِ، وأن يسجدَ كما سجدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون، أمَّا التَّردُّد في الامتثال لهذا الأمرِ، أو النُّكوصِ عنهُ، فهو

قَـصَـدَ إبـلـيـسُ إثباتَ أفضليَّتِهِ على آدمَ، وأنَّها مـتـأصِّـلَـةٌ فـيـهِ ودائمَةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 4/373.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/45، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/90، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/379، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/17.

عصيانٌ صريح لله، وتحدٍّ وَقاحٍ لأمره، لا تقوم لصاحبه حُجَّةٌ، ولا يُقبل منه قول"[1].

جملتا الخَلقِ بين عطفِ البيانِ والاستئنافِ البيانيِّ:

تمادي إبليسَ في عتوِّه وتمرُّدِه، يُرديه في العاجلَةِ، ويُزري به في الآجلَةِ

لـمَّا كانت جملة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فيها إجمالٌ في المعنى، أفادت جملةُ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، بمجموع المعطوف عليه والمعطوف، معنى عطفِ البيانِ في الكلامِ، على معنى اتِّحادِ المَقول، ولهذا جاءتِ الجملةُ بطريقة كمال الاتِّصال[2]؛ لتفيدَ الإيضاح والتَّبيين، لقولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، من حيثُ إنَّه حينَ ذكرَ خيريَّتَه الَّتي تحتملُ أوصافًا كثيرة، ذكرَ وصفَ النَّشأةِ الَّذي يكونُ أظهرَ وصفٍ، معَ عدمِ تقصِّيهِ عن موصوفِه، تماديًا في عُتوِّه وتمرُّدِه، فقولُه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، بمنزلةِ عطفِ البيانِ مِنَ الإجمالِ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، كما تحتملُ أنْ تكونَ جملتا المعطوفِ والمعطوفِ عليه استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل لماذا أنت خيرٌ منه؟ فقال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فهي على معنى التَّعليلِ، والتَّقديرُ: لأنَّك خلقتني من نارٍ، وخلقْتَه من طينٍ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعليَّة في: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾:

تصوُّرُ إبليسَ أنَّ أفضليَّتَه على آدمَ أمرٌ مقطوعٌ به أزلًا

عُبِّرَ بالجملةِ الفعليَّةِ الماضويَّةِ في: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾؛ للإشعارِ بتحقُّقِ أفضليَّتِه على آدم - كما زعم اللَّعين - وأنَّه أمرٌ مقطوعٌ به، قال محمَّد بن جرير: "ظنَّ الخبيث أنَّ النَّار خيرٌ مِنَ الطِّين، ولم يعلم أنَّ الفضلَ لمن جعل اللّهُ له الفضلَ، وقد فضَّل الطِّين على النَّار"[4]، وهو ما قالته الحكماء: بأنَّ للطِّين فضلًا على

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/373.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/264، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/31، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/41.

(3) الأشمونّي، منار الهدى: 2/210.

(4) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/32.

النَّار من وجوهٍ، تتعلَّق بالخصائص والميِّزات الَّتي لكلٍّ منهما، وقد تبيَّن فضلُ الطِّين، وضررُ النَّار، بمجرَّد المقارنةِ العقليَّة البسيطة[1]، ويضاف أيضًا: "أنَّ اللَّعين غفل عمَّا خصَّ اللّهُ به آدمَ مِن خَلْقِه بيده، والنَّفخ فيه مِن روحهِ، وجعل استعداده العلميَّ والعمليَّ فوق استعدادِ غيره مِن خَلْقه، ومِن تشريفهِ بأمرِ الملائكة بالسُّجود له، وجَعْله بتلك المزايا أفضلَ مِن أولئك الملائكةِ، وهم أفضلُ مِن إبليسَ بعنصرِ الخِلقَةِ وبالطَّاعةِ"[2].

الطِّباق بينَ النَّار والطِّين، وبيانُ أنَّ قياسَ إبليسَ حُجَّةٌ عليه:

المعنى لا يتمُّ دون اجتماعِ جملتي العطفِ، وما فيهما من معنى المقايسةِ

عُبِّر بالطِّباقِ بين النَّار والطِّينِ، في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾؛ للإشعار بعتوِّ إبليسَ اللَّعينِ وعنادِه، وليكون قياسُه حجَّةً عليه، فأخطأ اللَّعينُ حيث خَصَّ الفضلَ بما مِن جهة المادَّةِ والعنصُرِ، وزلَّ عنه ما مِن جهة الفاعل، مع أنَّه ذَكره بقولِه: ﴿خَلَقْتَنِي﴾، و﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾[3]، وأشعرَ الكلامُ أنَّ المعنى لا يتمُّ مقصودُه من دون اجتماعِ جملتي العطف؛ لما فيهما من معنى المقايسة.

(1) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/32.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/295.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216.

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الــجــزاءُ من جنسِ العملِ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا

لَمَّا كَانَ امْتِنَاعُ إبليسَ مِنَ السَّجود بسبب تكبُّره عَلَى اللّه، بعدم امتثاله لأمره، وتكبُّره على آدَمَ عند نَفْسِه، وكان مجرَّدُ التَّكبُّرِ على اللّه كُفرًا على أيِّ وجهٍ كانَ؛ أعرضَ عن جوابه بغيرِ الطَّرد، الَّذي معناه: نزوله مِنَ المنزلة الَّتي هو فيها؛ تعنيفًا له. وأيضًا: لمَّا كان امتناعُ إبليسَ مِنَ السُّجودِ لإظهارِ فضلِه وارتفاعِ منزلتِه على آدم؛ قَابَلَهُ اللّهُ بالهُبوط المُشْعِرِ بالنُّزول مِنْ عُلُوٍّ إلى أَسْفَلَ؛ ليكونَ مُسَبَّبًا عن إبائِهِ[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾: الهبوطُ: هو الانحدارُ على سبيل القَهْرِ من صعودٍ وعُلوٍّ، كهبوط الحجَرِ، والهَبوطُ بالفتح: المنحدَرُ الَّذي يُهْبِطُك من أعلى إلى أسفل، وهبط نقيضُ ارتفع، ويقال على المجاز: هبط الرَّجل؛ لمَّا كان في انحطاطِ المنزلة، وهبطوا من حالِ الغنى إلى حال الفقر[2]، ومَهْبَط، ومَهْبِط، ويجمع على مَهابِط: اسم مكان من هبطَ، وهو مكان النُّزول، يقال: (مكَّة المَهْبِط الأوَّل للوحي)، قال الشَّاعر:

والعُمْرُ إصْعادُ إنْسَان وَمَهْبطُهُ *** كَالأَرْضِ أودية مِنْهَا وأجبالُ[3]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/365، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/18.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (هبط)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هبط).

2) ﴿تَتَكَبَّرَ﴾: الكِبْرُ: هو الحالةُ الَّتي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابِه بنفسه، وتعظيمِه إيَّاها، وذلك أنْ يرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيره، بأن يتشبَّعَ، فيُظهر من نفسِه ما ليسَ له، وأعظم الكِبْرِ والتَّكبُّرِ: ما وقع في جانبِ أوامرِ اللّه ونواهيه، وذلك أن يتكبَّر على أداءِ طاعاتِه، والانزجار عن معاصيه[1]، وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، قال الزَّجاج: "ومعنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: أنَّهم يرون أنَّهم أفضل الخلق، وأنَّ لهم من الحقِّ ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكونُ إلَّا للّهِ خاصَّةً؛ لأنَّ اللّه ﷻ هو الَّذي له القدرةُ والفضلُ، الَّذي ليس لأحدٍ مثلِه، وذلك الَّذي يستحقُّ أن يقالَ له: المتكبِّرُ، وليس لأحدٍ أن يتكبَّر؛ لأنَّ النَّاس في الحقوق سواءٌ، فليس لأحدٍ ما ليس لغيره"[2]، "والمرادُ بالتَّكبُّر هنا: إمَّا التَّكبُّر على اللّه تعالى، وهو أعظمُ التَّكبُّر، ويكون بالامتناع مِن قبول الحقِّ والإذعانِ له بالعبادة، وإمَّا التَّكبُّر على آدم عليه السلام، بزعم إبليسَ أنَّه خيرٌ منهُ، وأكبرُ قدرًا"[3].

3) ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: أصلُ الكلمة مِنَ الصِّغر، والصِّغَرُ والكِبَر مِنَ الأسماءِ المتضادَّة، وتقالُ باعتبار الزَّمان، فيقالُ: فلانٌ صَغيرٌ، وفلانٌ كبيرٌ؛ إذا كان ما له مِنَ السِّنين أقلَّ ممَّا للآخر، وباعتبار الجثَّة، وباعتبار القَدْر والمنزلةِ، والصَّغار مصدر الصَّغير في القَدْر والمنزلة: هو الذُّلُّ الَّذي يُصَغِّر إلى المرء نفسَه، والصَّاغِرون: جمع صاغرٍ، وهو المتَّصفُ بالصَّغارِ، أي: الذُّلُّ والحقارة، بمعنى: الأذلَّاءِ الرَّاضين بالذُّلِّ[4]، قال ذو الرِّمَّة:

تَصاغرَ أَشْرَافُ البرِيَّةِ حَوْلَهُ *** لِأَبْيَضَ صَافي اللَّوْنِ من نَفرٍ زُهْرِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال اللّهُ لإبليسَ: فاهبط مِنَ الجنَّة، فما يصحُّ لك أن تتكبَّر فيها، فاخرج منها، إنَّك مِنَ الذَّليلين الحقيرين[6]، والمعنى: فَاهْبِطْ مِنَ السَّماء الَّتي هي مكان المطيعين المتواضعين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/331.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صغر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 146.
(5) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن: (صعر).
(6) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 152.

الأمرُ بهبوطِ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ صاغرًا مذمومًا

مِنَ الملائكةِ، إلى الأرضِ الَّتي هي مقرُّ العاصين المتكبِّرين، مِنَ الجنِّ والإنس، فَما يصحُّ لك أن تَتَكَبَّر فيها، وتعصي خالقك، فَاخْرُجْ إنَّك من أهل الصَّغارِ والهوان على اللّه، وعلى أوليائه؛ لتكبُّرك وصلفك(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾:

عقوبةُ إبليسَ على كبريائهِ وتأبِّيهِ بتجريدِهِ ممَّا كانَ فيه

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ هذا الجزاءِ وترتيبَه على ما ذُكِرَ مِنَ الذَّنب قبلَه، من اعتراضِه على اللّه تعالى في أمرِه، وعدم امتثالِه، وادِّعائه الخيريَّةَ على آدمَ، وعتوِّه في الخطابِ، فجاءَ الأمرُ بالهبوطِ مسبَّبًا عمَّا صدرَ مِنَ المطرودِ، بلا تأخيرٍ ولا مهلةٍ(2)، والهبوطُ: الانحدارُ، وقولُه: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، أي: اخرج منها، وهو بذلك قدِ انحدرَ مِنَ الأعلى إلى الأسفلِ، وفي ذلك عقوبةٌ مستَحقَّةٌ بفعل العصيان العلنيِّ، الَّذي بادرَ بِهِ إبليسُ دون أن يُقدِّرَ العواقبَ، مع ما أظهرهُ من غرورٍ وفجورٍ في ردِّهِ المتعالي على اللّهِ جلَّ في علاهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الهبوط:

هبوطُ إبليسَ حسِّيٌّ؛ بنزولِه مِن علوٍّ إلى سُفْلٍ، ومعنويٌّ؛ بسقوطِ المنزلةِ

لـمَّا كانَ الهبوطُ هو الانحدارَ والسُّقوطَ من مكانٍ إلى ما دونَه، على سبيل القهرِ، أو من مكانةٍ ومنزلةٍ إلى ما دونها؛ دلَّ على أنَّ الهبوط حسِّيٌّ ومعنويٌّ، وكلا المعنيين مقصودان، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان امْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجود بسببِ كِبْرِه وعُتوِّه؛ عُبِّرَ بلفظ الهبوط الـمُشْعِرِ بالنُّزُولِ من عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، والحدورِ والانحطاطِ، والنُّقصانِ والوقوع، وأيضًا لـمَّا كان مقصودَ هذه السُّورة الإنذارُ؛ عُبِّر بالهبوط الَّذي يلزم منه سقوطُ المنزلة والمكانة، دونَ الخروج، وهو أدلُّ عليه؛ لموافقته للأمر الَّذي هو مِنَ الأعلى إلى الأدنى، فناسبَ أن يكون جزاءَ العقابِ هو الهبوط(3).

---

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/483.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/346، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/269.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/269.

مناسبةُ عودِ الضَّميرِ على غيرِ مذكورٍ في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾:

يَحتمل السِّياق أن يكونَ الهبوطُ هبوطَ مكانٍ، أو هبوطَ مكانةٍ

لم يتقدَّم للضَّمير مُفَسِّرٌ يعود عليه، ولـمَّا كان الضَّميرُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ ما يعود إليه الضَّمير واقع في علوٍّ، ويوصف بالتَّأنيث، وهو معلوم بين المتكلِّم والمخاطَب، فذهب جمهور المفسِّرين إلى أنَّ السِّياق يدلُّ على أنَّ المقصودَ هو الجنَّةُ، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الضَّميرَ يعود إلى ما يُفهم منه، وهو السَّماء[1]، ولم يُصَرَّح بمرجعِ الضَّمير؛ لأنَّ النَّظرَ موجَّهٌ إلى الهبوطِ مِن علوٍّ، وليس إلى ذكرِ المكانِ المخصوصِ الَّذي يهبِطُ منه، كما أنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ في سياق الإخبارِ، عن تكبُّر إبليسَ وعُتوِّه، فكنَّى بالضَّمير للإشعارِ بعلوِّ شأنِ الجنَّة أو السَّماء، وانحطاطِ إبليسَ وسُفْلِه، قال الشَّعراويُّ: "والهبوط يستدعي الانتقالَ مِن منزلةٍ عالية إلى منزلة أقلَّ، وهذا ما جعل العلماءَ يقولون: إنَّ الجنَّة الَّتي وصفها اللّهُ بأنَّها عالية، هي في السَّماء، ونقول: لا، فالهبوط لا يستدعي أن يكونَ هبوطًا مكانيًّا، بل قد يكونُ هبوطَ مكانةٍ، وهناك فرقٌ بين هبوطِ المكان، وهبوطِ المكانة، وقد قال الحقُّ لنُوح عليه السلام: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: 48]، أي: اهبطْ مِنَ السَّفينة"[2].

براعةُ التّعبيرِ بالفاءِ:

التَّـكبُّرُ لا يليق بـأهـلِ الـجنَّـةِ، ولله الكبرياءُ لا لسواه

في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ، وترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: تَسبَّبَ عن أمرهِ بالهبوط، أنْ لا يتكبَّر فيها، فإنَّها مكانُ المطيعين الخاشعين؛ للإشعارِ بأنَّ التكبُّـرَ لا يليق بأهل الجنّة، ومن عجيب بلاغة الكلام هنا أنَّه كما كان الهبوط مِنَ الجنَّة سببًا لكي لا يُتكَبَّرَ فيها؛ أشعر الكلامُ بأنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/182، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/379.

(2) محمّد متولّي الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/1065.

تكبُّرَه سببٌ للأمر بالهبوطِ؛ للإشعارِ بأنَّ تكبُّرَ إبليس وصفٌ لازمٌ له، كما أفادت الفاء السَّببيَّةُ أنَّه تعالى إنَّما طرده لاعتراضِه على اللّٰه تعالى، ولتكبُّره على أمرِه سبحانه، لا لمجرَّد عصيانِه بعدمِ الامتثالِ[1].

دلالةُ النَّفي في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾:

لا يبرأُ إبليسُ منَ الذُّنوبِ، ولا يعفو عنهُ علَّامُ الغيوبِ

النَّفيُ بصيغةِ: (ما يكون لك كذا)، أشدُّ مِنَ النَّفي بـ(ليس لك كذا)؛ لأنَّ نفيَ الكونِ والإمكانِ أبلغُ أنواعِ النَّفي وأشدُّه، فدلَّ التَّعبيرُ في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بهذا الأسلوب، على أنَّ تكبُّرَ إبليسَ لا يُغتفَرُ منه أبدًا، وأنَّه ارتكب أعظمَ ذنبٍ وأشدَّه[2].

دلالةُ ﴿يَكُونُ﴾ بينَ النُّقصانِ والتَّمامِ:

لا كبرياءَ في الجنَّةِ، بل سيكونُ أهلها إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين

تحتملُ ﴿يَكُونُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أنْ تكون ناقصةً، فيكونَ لها اسمٌ وخبرٌ، كما هو ظاهرُ ما ذهبَ إليه ابنُ عاشورٍ، وبيانُه: أنَّ أصلَ هذا التَّركيبِ في الكلام: (ما يكونُ إبليسُ متكبِّرًا في الجنّة)، فلمَّا أُريدتِ المبالغةُ في النَّفي؛ عدلَ عن نفي اسمِ الفاعلِ إلى نفيِ المصدرِ: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ﴾، الدَّالِّ على الجنس، وجعلَ نفيَ الجنسِ عن إبليسَ، بواسطةِ نفي الاستحقاقِ، فصار التَّركيبُ: ما يكون لك أن تتكبَّرَ، أي: ليس التَّكبُّر مجعولًا لك في الجنَّة، فأفادَ العدولُ عنِ الأصلِ المبالغةَ في نفي أن يكونَ أيُّ تكبُّرٍ في الجنَّة. وتحتمل أن تكونَ تامَّةً، وهو الظَّاهرُ مِنَ السِّياق؛ لتكونَ بمعنى الحصولِ أو الوجودِ؛ وليكون المنفيُّ أعمَّ ما يحتمله الكلامُ، والمعنى: ما يقعُ أو ما يوجدُ التَّكبُّر في الجَنَّة، فلمَّا نفى أصلَ الوجودِ؛ دلَّ على المبالغة في النَّفي[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294، 8/44، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/312.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ:

ما يصحُّ التَّكبُّر في الجنَّة؛ لأنَّه صفةُ أهلِ الدُّنيا

لـمَّا كان وقوعُ التَّكبُّرِ من إبليسَ قد حصلَ، كان نفيُ وقوعِ التَّكبُّر في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فالمقطوعُ بوقوعِهِ لا يُنفَى، ومناسبتُه: أنَّه لـمَّا أُريدَ المبالغةُ في نفيِ صحَّةِ التَّكبُّرِ في الجنَّةِ، توجَّهَ النَّفيُ إلى الكونِ والإمكانِ؛ لِنفيِ أصل وقوعِهِ، ليكونَ على معنى الإغلاظ على إبليسَ، والمعنى: ما يصحُّ أن تتكبَّرَ فيها، وما يتوجَّه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، أو ما ينبغي أن تتكبَّر فيها[1].

دلالةُ النَّفي على النَّهي:

استلزامُ نفيِ التَّكبُّرِ النَّهيَ عنه، والتَّحذيرَ منهُ

لـمَّا كان إبليسُ قد تكبَّرَ في عدم سجودِه؛ أفادَ نفيُ صحَّةِ وقوعِ التَّكبُّر في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ استلزامَه النَّهيَ عنه؛ لأنَّهُ نفاهُ عنه مع وقوعِه[2]، وقال له: "ليس ينبغي أن تتكبَّرَ في هذا المكان المُعدِّ للكرامة والتَّعظيم، ثمَّ تعصي ربَّك فيه"[3]، وفي هذا نفيٌ لصفةِ التَّكبُّر في الجَنَّة، وهي بمعنى: النَّهي عن هذا الفعل المَشين الَّذي استنَّه إبليسُ في الكونِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَكَ﴾:

أشدُّ الكفرِ مَن كفرَ بالله، وارتدَّ بعدَ أنْ عبده، وعرف هداه

ليس في الجارِّ والمجرور المقدَّم على عاملِه في ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أيُّ تخصيصٍ، بل هو للعنايةِ والاهتمام لبيانِ خطرِ تكبُّر إبليسَ وهولِ عقابِه، كما أنَّ مجيءِ الجارِّ والمجرور - أصلًا - أفادَ التَّغليظ على إبليس في تكبُّرِه؛ للإيذانِ بأنَّه كان الأولى بإبليسَ اللَّعين ألَّا يتكبَّرَ، وهو الَّذي كان مع الملائكة حينَ خاطبهم اللّٰه تعالى، وأمرهم بالسُّجودِ لآدمَ، وهو

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/19، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/346.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/35.

أسلوبٌ عربيٌّ مستعملٌ في بديع الكلامِ كما يُنْبِئُ عنه قولُنا لشخصٍ عرفَ اللّٰه وعبَدَه زمنًا، ثمَّ نكصَ على عقبيه، كافرًا به ﷻ، فنقولُ له: (ما يكونُ لك أنْ تكفرَ باللّٰه)، فليس الغرضُ أنَّ غيرَه له الحقُّ في الكفرِ، بل الأمرُ على سبيلِ الإغلاظ، على قُبحِ ما فعلَه[1]، من حيثُ إنَّه قد عرف اللّٰه وعبَدَه زمنًا، ومَن عرف وجبَ عليه أن يلزمَ، ومَن انسلخ مِنَ الملَّة، وارتدَّ عنِ المَحجَّة؛ خسرَ الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ تتفعَّلُ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

التَّكبُّر: أنْ يجعلَ نفسَه أكبرَ ممَّا هي عليه

أفادت صيغةُ: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ معنى التَّكبُّر، أي: أنْ يجعلَ نفسَهُ أكبرَ ممَّا هي عليه، أو أكبرَ ممَّن هي في ذاتِها أصغرُ منه، وعُبِّرَ بصيغة التَّفعُّل للإشعارِ بتعمُّده الكِبرَ وتكلُّفِه فيه، وبَذْلِ الجهدِ في تحصيلِه، مَعَ أنَّه ليسَ من أهلِه، ولا يليقُ به[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل في قوله تعالى ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

التكبُّرُ قبيحٌ في ذاته، ولا ينبغي وجــــودُه، من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ له

عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّل: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ﴾؛ لإفادة نفي أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ التَّكبُّر، ففي التَّعبيرِ به تحصينٌ مِنَ الإشكال، وتخليصٌ له مِن شوائبِ الإجمالِ، الَّذي يكونُ في المصدرِ الصَّريحِ[3]، في مثل هذا السِّياق، ولو قال: (ما يكون لك التَّكبُّر فيها)؛ لاحتملَ المصدرُ الصَّريحُ السُّؤالَ عن أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ التَّكبُّر المنفيِّ في الكلامِ؟ فلمَّا عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّل؛ أفادَ أنَّ نفسَ التَّكبُّرِ قبيحٌ، وهو الَّذي ينبغي ألَّا يكونَ، ولا يصحُّ وجودُه من غيرِ نظرٍ، إلى أيِّ وصفٍ آخر له.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَتَكَبَّرَ﴾:

إظهارُ شناعةِ حالةِ إبليس، عندَ إظهارِ تكبُّرِه في الجنَّة

تُوسِّل بالمصدر المؤوَّل للتَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارع: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾؛ لتصويرِ حالةِ قُبحِ

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/379.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/296.

(3) ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/92 - 93.

إبليسَ، وهو يتكبَّر في الجنَّة، الَّتي لا يليقُ فيها التَّكبُّر؛ إظهارًا لشناعةِ فعلِه وفظاعتِه.

مناسبةُ مجيءِ الحالِ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾:

التكبُّرُ منهيٌّ عنه مطلقًا في الجنَّة وفي غيرها

لـمَّا كان الحالُ قيدًا لعاملِه، وكان ﴿فِيهَا﴾ حالًا من فاعل ﴿تَتَكَبَّرَ﴾؛ دلَّ على أنَّ المعنى: ما يكونُ لك - يا إبليسُ - أنْ تتكبَّرَ في الجنَّة حالَ كونِك فيها، وأشعرَ القيدُ إمكانَ وقوعِه في غيرِ الجنَّة، والمعنى: فاهبطْ منَ الجنَّة، فإنَّه لا يسكنُ الجنَّةَ متكبِّرٌ عن أمرِ اللّه، فأمَّا غيرُها، فإنَّه قد يسكنُها المستكبِرُ عن أمرِ اللّه، والمستكينُ لطاعتِه، وفيه تأكيدٌ على أنَّ التَّكبُّر لا يليق بأهل الجنَّةِ، وأنَّه ﷻ إنَّما طردَه وأهبطَه لتكبُّره، لا لمجرَّدِ عِصيانه. ويُحتَملُ أنْ يكونَ قُيِّدَ الحالُ بـ﴿فِيهَا﴾؛ تهويلًا لأمرِ التَّكبُّرِ في الجنَّة؛ لأنَّ التَّكبُّر منهيٌّ عنه مطلقًا، في الجنَّة وفي غيرها(1).

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

أمرُ اللهِ بالخروجِ مِنَ الجنَّة مقرونٌ بالتَّعنيف، والأمرُ بالهبوطِ ليس كذلك

قالَ اللّهُ تعالى في آية (الأعراف): ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ وفي آية (ص): ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [ص: 77]، وليس التَّعبيرُ بالإخراجِ كالتَّعبيرِ بالهبوط، فقد أُمِرَ آدمُ بالهبوطِ، ولم يَقصدْ من تعنيفِه ما قُصِدَ بإبليسَ، فالفرقُ ما بينَ العبارتين فيما تُعطيانِه: أنَّه في سورة الأعراف تدرَّجَ في التَّعنيفِ والإغلاظ؛ ليدلَّ على أنَّ سببَ الهبوطِ، هو اعتراضُه على أمره تعالى، واعتقادُه خيريَّتَه على آدمَ، فما كان للّه تعالى أن يأمرَه بما أمرَه، بحسبِ ظنِّه وتوهُّمِه، ثمَّ أمرَه بالخروجِ المسبَّبِ عن تكبُّره؛ ليكونَ أبلغَ في الإغلاظِ لمناسبةِ المقام، فقال: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وسيقَ الأمرُ بالخروجِ في سورةِ الحِجْر من أوَّلِ وهلةٍ؛ لظهورِ اعتراضِه على أمرِ اللّهِ وتكبُّره في قوله: ﴿لَمۡ أَكُن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/4، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/6، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366.

﴿لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [ص: 33]، فأعقبَه بقوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [ص: 34]، ولمَّا كانَ في سورة (ص) قد ذكرَ تكبُّرَه في قوله: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: 75]؛ ناسبَه ذِكْرُ الأمرِ بالخروجِ دونَ الهبوطِ؛ لأنَّ الخروجَ مسبَّبٌ عنِ التَّكبُّر، فجاء كلٌّ على ما يجب ويناسب، ولم يكن ليناسبَ ورودُ العكس في المواضع الثَّلاثة[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

الأمـرُ بالهبوطِ سـبـبٌ لـلأمـرِ بـالـخـروجِ مِـنَ الجنَّةِ

أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ والتَّفريعِ عنِ الأمرِ بالهبوط، والمعنى: الأمرُ بالهبوط سببٌ للأمرِ بالخروج مِنَ الجنَّة وتعليلٌ له[2]، "قولهُ تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ تشير إلى أنَّ سببَ الأمرِ بالهبوط هو التَّكبُّر، والمعنى: إذا كنتَ تتكبَّر ذلك التَّكبُّرَ، فالأولى لنفسك أن تَهبطَ، فتكونَ مِنَ الصَّاغرين"[3].

دلالةُ قوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ بين التَّأكيدِ والتَّأسيس:

خــروجُ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ صاغرًا ذليلًا، مع منعِه الأبــديِّ من دخولِها

تحتملُ جملةُ: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ أنْ تكون بيانًا وتفسيرًا لقوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾، كأنَّه كَرَّرَ مَعْنَى الهبوطِ لتأكيدِه وتقريرِه، فإنَّ الهبوطَ مِنَ الجنَّةِ خُروجٌ منها[4]. وتحتمل أنْ تكونَ دالَّةً على معنًى آخر على سبيلِ التَّأسيس، فإنَّه لـمَّا أمرَ اللّٰهُ إبليسَ بالهبوط، قد يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّه هبط من موضعٍ إلى موضعٍ آخرَ فيه كرامةٌ أيضًا، فصُرِّح بالخروجِ منها؛ ليكونَ على معنى الطَّردِ منها صاغرًا ذليلًا، ومنعِه من دخولِها مرَّةً أخرى، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ ليكون خروجُه على سبيلِ الإهانة. ويُحتمَل أنْ يكونَ الخروجُ عقوبةً خاصَّة به؛ للإشعارِ بعقوبةِ الإبعادِ عنِ المكانِ المقدَّسِ الفاضلِ،

(1) الغرناطيّ، ملاكُ التَّأويل: 1/178.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير 5/2796.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

المطهَّرِ مِن كلِّ ما لَهُ وصفٌ ينافيه؛ لأنَّ خُلُقَ التَّكبُّرِ غيرُ ملائمٍ لِمَا جعل اللّهُ ذلكَ المكانَ له[1].

براعةُ التَّعبيرِ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والتَّعليل:

مَنِ ارتدى رداءَ الاستكبارِ؛ آلَ بهِ الأمرُ إلى هَوَانٍ وبَوَارٍ

تَحتمِل جملةُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أنْ تكونَ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذا كانَ المرادُ مِنَ الخبرِ الإخبارَ عن تكوينِ الصَّغارِ في إبليسَ، بجعل اللّهِ تعالى إيَّاه صاغِرًا حقيرًا حيثُما حلَّ، فَفَصلَها عنِ الَّتي قبلَها للاستئنافِ المُبيِّنِ للسَّببِ الخاصِّ، كأنَّه قيل: هل خروجُه مِنَ الجنَّة خروجُ صَغَارٍ وذِلَّةٍ؟ فأُجيبَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. وتَحتمِل أنْ تكونَ واقعةً موقعَ التَّعليل للإخراج، على طريقة استعمال (إنَّ) في مثل هذا المقام استعمالَ فاءِ التَّعليلِ، فهذا إذا كانَ المرادُ مِنَ الخبرِ إظهارَ ما فيه مِنَ الصَّغارِ والحقارةِ الَّتي غفلَ عنها، فذهبتْ بهِ الغفلةُ عنها إلى التَّكبُّرِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

الكنايةُ: إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريح

قد يقالُ: لِمَ لَمْ يقُلْ: (إنَّك صاغرٌ)، وهو أخصرُ، والمعنى واحدٌ؟ والجواب: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أشدُّ في إثباتِ الصَّغار لإبليسَ مِن نحو: (إنَّكَ صاغرٌ)، أو قد (صَغُرتَ)، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كانت (أل) في قوله: ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ جنسيَّةً؛ دلَّت على أنَّه واحدٌ مِنَ الفئةِ المعروفة بالصَّغارِ، ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أَثبتَ صَغارَه بطريقةٍ تُشبهُ الاستدلالَ، فإنَّ مَن كان مِن فئةٍ موصوفةٍ بوصفٍ، ثبتَ له هذا الوصفُ بطريقِ اللَّازمِ؛ ليكونَ من قبيلِ الكناية الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، فكأنَّه أثبتَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/297، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/45.

الصَّغارَ له مرَّتين: مرَّةً لأنَّهُ عدَّهُ مِن زُمرةِ الصَّاغرينَ، وأخرى حينَ أثبتَ له الوصفَ باللُّزوم[1].

مناسبةُ ذكرِ الصَّغارِ في الآيةِ الكريمةِ:

مَنِ اتَّصفَ بصفةِ الاستكبارِ؛ عاقبَهُ اللهُ بالصَّغارِ

لمَّا كان خروجُ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ بسببِ تكبُّرِه؛ أَخبَر بِصَغارِه وَذِلَّتِه؛ ليكونَ جزاءً على تَكَبُّرِه، وقُوبِلَ بالضِّدِّ مِمَّا اتَّصَفَ بِه، وهو الصَّغَارُ الذي هُوَ ضِدُّ التَّكَبُّرِ، وكونُه مِنَ الصَّاغرينَ، أي: مِن أهلِ الصَّغارِ والهوانِ على اللهِ وعلى أوليائه، يذمُّه كلُّ إنسانٍ، ويلعنه كلُّ لسانٍ، لِتَكَبُّرِه، وبه عُلِم أنَّ الصَّغارَ لازمٌ للاستكبار[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الهبوط) و(الإنزال):

يُستعمَلُ الهُبوطُ: في مقامِ العقوبةِ، والإنزالُ: في مقامِ التَّكريمِ

يُستعمَلُ الهُبوطُ على سبيلِ الاستخفافِ والعقوبةِ، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، وقال: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]، وقال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61]، وليس في قوله: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61] تعظيمٌ وتشريف؛ إذ أعقبه بقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61]، وقال جلَّ ذكرهُ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38]. وأمَّا الإنزالُ فيستعمَلُ في مقامِ التَّشريفِ والتَّكريمِ، فهو بخلافِ الهبوطِ؛ إذ ذَكَره تعالى في الأشياءِ الَّتي نبَّهَ على شرفِها، كإنزالِ الملائكةِ والقرآنِ والمطرِ وغيرِها، فناسبَ ذِكرَ الهبوطِ في الآيةِ دونَ الإنزالِ؛ لمناسبتِه المقامَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/45.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 8/45.

المحتويات

الجزء الثامن 7

سورة الأنعام 9

- [الأنعام: 124] 10
- [الأنعام: 125] 25
- [الأنعام: 126] 42
- [الأنعام: 127] 51
- [الأنعام: 128] 59
- [الأنعام: 129] 80
- [الأنعام: 130] 86
- [الأنعام: 131] 101
- [الأنعام: 132] 114
- [الأنعام: 133] 126
- [الأنعام: 134] 148
- [الأنعام: 135] 156
- [الأنعام: 136] 176
- [الأنعام: 137] 193
- [الأنعام: 138] 210
- [الأنعام: 139] 245
- [الأنعام: 140] 268
- [الأنعام: 141] 287
- [الأنعام: 142] 316
- [الأنعام: 143] 328
- [الأنعام: 144] 345
- [الأنعام: 145] 363
- [الأنعام: 146] 390
- [الأنعام: 147] 402
- [الأنعام: 148] 413
- [الأنعام: 149] 434
- [الأنعام: 150] 441
- [الأنعام: 151] 456
- [الأنعام: 152] 486
- [الأنعام: 153] 522
- [الأنعام: 154] 537
- [الأنعام: 155] 549
- [الأنعام: 156] 556
- [الأنعام: 157] 565
- [الأنعام: 158] 582
- [الأنعام: 159] 600
- [الأنعام: 160] 614
- [الأنعام: 161] 626
- [الأنعام: 162 - 163] 637
- [الأنعام: 164] 648
- [الأنعام: 165] 662

سورة الأعراف 677
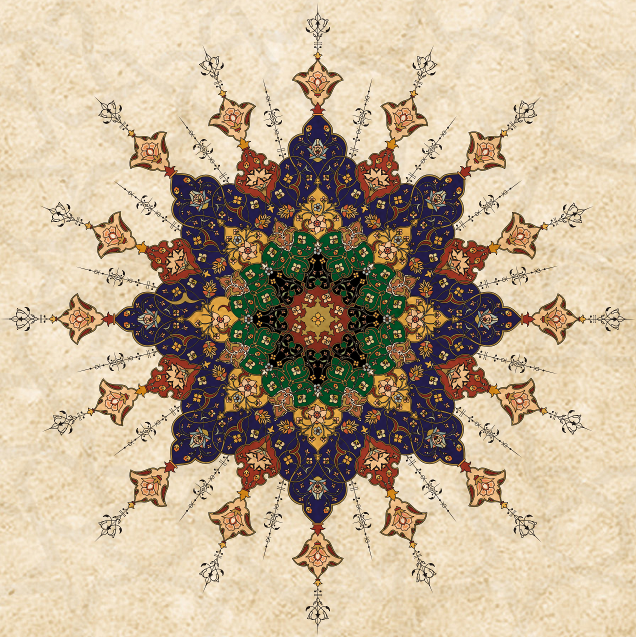
- [الأعراف: 1 - 2] 690
- [الأعراف: 3] 705
- [الأعراف: 4 - 5] 717
- [الأعراف: 6 - 7] 733
- [الأعراف: 8 - 9] 742
- [الأعراف: 10] 757
- [الأعراف: 11] 767
- [الأعراف: 12] 778
- [الأعراف: 13] 792